

عالم الفكر

لجنة أولاد العرب الأول
بريد - نابو - تونس

١٩٧٠

أمراض
الفكر
في
القرن
العشرين

الايمان في عصر العلم

مشكلات
النفس
و
التحامل

الزمن في العلوم الانسانية

117 118 119 120 121 122 123

لكلمة وزير الثقافة

لقد أريدت وزارة الإرشاد والأبناء أول لجنة في مشاريعها الثقافية معين أصدرت منذ أكثر من أحد عشر عامًا العدد الأول من مجلة العربي، وهي المجلة القليلة عربيا التي كانت الخطوة التالية هي إصدار سلسلة التراث العربي، والفرض منها الإصحاح، التراث، عرفانا بالثقافة الأصيلة، ويزا بالآباء، ورغبة في نشر ما هو جدير بالإصحاح. وخطوة ثالثة خططتها الوزارة في مجال النهوض بالآداب والثقافة العربية. حيث بدأت في أواخر العام الفائت بإصدار سلسلة "من المسرح العالمي" وهي شهيرة وتزعم إلى اللغة العربية الفصحى عيون المسرحيات العالمية، وتقدم للمقارئ العربي ثقافة مسرحية قديمة، بغية إرساء قواعد لهذا الفن على أسس متينة، ولتكون عاملا مهما في خلق ثقافة مسرحية عربية.

واليوم، وقد سلطنا الحاجة الماسة إلى المزيد من الجهد والعمل في خدمة الثقافة العربية، نخطو خطوة أخرى إلى الامام بإصدار مجلة "عالم الفكر" وهي مجلة تصدر مرة كل ثلاثة أشهر وتقدم أغراضا خاصة من النقصين والفكرين، إذ تحوي من الدراسات عميقا، ومن الأبحاث والتحليلات مختلف المواضيع أو بعضها تتناول أدقها تفصيلا، وهي في مجالها مختلف مواضيع الفكر والثقافة تشجع بها جفيرا، وتطل برأبوابها المشرقة على عقول الفكر وآفاقه الواسعة في شتى أنحاء العالم، قديم وحديث، نستشعر هواء الفكر النقي، مشرق وغرب، دون قيد أو عائق.

وصمة هذا الاطار ونحننا المقصود نقدم هذه المجلة.

والله ولي التوفيق

جابر العلي السالم

الافتتاحية

باسم الله نبتدىء ، وعليه نتوكل

وبهذه

فبمشيئة الله تصدر مجلة عالم الفكر .. ليكون لها شرف الاسهام في خدمة الثقافة العربية ، كما تكون ساحة لقاء لرجال القلم العربي - على اختلاف مناهجهم ومشاريعهم - لتوثيق روابط الفكر والروح ، والعمل الجامع في سبيل القضايا المشتركة .

ونرجو ان تجد الاقلام العربية على صفحات هذه المجلة ما يحجب اليها الكتابة فيها ، والتعاون معها ..

هذا ، وسوف تحاول هذه المجلة ان تتحرر من كل ما يحول دون انطلاق الفكر ، أو ينحرف بالنظرة العلمية من اتجاهها ، لفرض ما .. تحاول ان تتحرر من كل ذلك ، لتكون خالصة للمعرفة والحقيقة .. ولتتسع لكل ما تضطرب به مدارس الفكر والأدب والفن ، ولا تضيق بشيء منها وإن أسرف بالاغراب .. بل ستجد من يتناولها بروح نزيهة ، ويعرضها بكل ما فيها من جوانب القوة وجوانب الضعف ، كما سيلقى مؤيدوها ومعارضوها نفس التقدير من المجلة ، وتدع للقارئ الواعي مهمة الحكم لها أو عليها ، فليس من شأننا أن نقف موقف العواطف في محاربي الفكر ..

ولسوف نرضي - بقدر الامكان - طائفة من القراء تهوى الدراسات الجادة ، ذات الطابع العلمي المكين ، وقد لا تتاح لها الفرصة في مجلة مريية ، تهتم بمختلف شئون المعرفة البشرية على وجه شامل ..

وأملنا أن نحقق ابتداء من هذا العدد ، والاعداد المقبلة ، الخطوات الضرورية التي لا بد منها ، للوصول الى الغاية المنشودة .

وبالطبع ، فحرية المجلة جزء من حرية الكاتب ، لذلك فليس لنا اشتراط على الكاتب الا ما ي عليه عليه ضميره ، والا ما تتطلبه اصول البحث والدرس ، وما توجيه كرامة القلم . اما ما عدا ذلك فهو كول الى عقيدة الكاتب ونظريته ... ان ضمان حرية الكاتب هو أول الطريق لضمان حياد المجلة وتحررها ، وسوف نلتزم بهذا الحياد ، وبهذه الحرية ، لايماننا بأن اسلم طريق للوصول الى الحقيقة ، هو من خلال حوار الأفكار وجدالها .. وأن للكلمة الحرة فاعليتها ودورها الواضح البين في اقراء حياة الانسان ، وفي اضاءة طريقه الى التقدم والازدهار ..

وعليانا ان ننسى أننا نحن العرب ، أمة ورثت رسالة خالدة معجزتها الكلمة ، فبالكلمة نزلت اليها رسالة السماء ، وكنت راية الكلمة خرجت من جزيرتها تدعو الناس كافة الى دين الله .. وبالكلمة انتصرت ، وبالكلمة سادت ، ولما تضائل شأن الكلمة وانحط قدرها ، وما عاد لها الاثر الفاعل في سلوكنا وقصصنا ، اشتبهت علينا المسالك ، وتقطعت بنا الاسباب ..

لذلك ، فنأمل ان يكون لهذه المجلة شيء من المشاركة في التبشير بما تنطوي عليه الكلمة من اشراق ومسؤولية والتزام أمام ضمير الكاتب ، كما كان لها في نهج المجلة العربي ..

ولا شك أن هنالك عوائق كثيرة تعترض مسيرة التقدم العربي.. أنها تركة سوداء تجذرت إلينا من عصور سود.. وكورها علينا التخلف سنين طوالا.. حتى ظهرت وكأنها شيء مركوز في طباعتنا لا فكك منه.. ولكن، مما لا شك فيه أيضا أن إطلاق الفكر العربي ليتعامل مع الحضارة القائمة بسعة وعمق وحرية، دون قيود، وبلا حدود، هو أحد الشروط الأساسية التي تضع امتنا على طريق التقدم.

إن الوصاية على الفكر وعلى الإنسان أيا كان نوعها ومهما كان الدافع إليها، أهانة وإزدراء للفكر، وللإنسان.. وهي ظواهر مرضية في حياة الشعوب، تحمل كل أعراض التأخر.

وأول خطوة للتقدم، وللانتصار على التخلف في شتى المجالات، رفع هذه الوصاية عن الفكر وعن الإنسان، وتولير جو صحي، تحكمه الحرية والمسئولية.

ولنا في تاريخ العرب الحضاري قدوة ومثال، لقد أقبلوا وهم في ذروة انتصاراتهم على التراث الإنساني فأوسعوه فهما وعلما وهضما، ثم غربلوه وأضافوه إلى ما عندهم حتى صار جزءا أصيلا من التراث العربي المضيء..

ولم يبخل العرب بالتقدير، بل والمبالغة بالتقدير أحيانا على حكماء فارس والهند واليونان ونسبة كل جليل وعظيم إليهم..

اذن فالتعامل مع التراث العالمي عادة عربية أصيلة حين كان للعرب بيان وسلطان.. وكانت ارادة الخلق والإبداع، لم تطغ لها نار.. وما تلك الحضارة الإسلامية الراهرة إلا ثمرة ذلك التعامل.. ولا تزال أكثر نواحي تراثنا إثارة ذكرى ذلك اللقاء العظيم بين العرب وتراث العالم.

فالدعوة إلى استيعاب التراث العالمي المعاصر، والانفتاح على روافده، والحوار معه، لأخصاب الحياة العربية، وتجديد معالها، ليست شيئا غريبا على النفس العربية.. أنها استئناف تقاليد كريمة سابقة لنا.. إنما الغرابة هذا الانطواء على الذات، وهذه العزلة عن روح العصر، وهذا الاستغراق في أحلام التاريخ، ثم المجاهرة بالمعاداة أو التشكيك تجاه كل تجربة إنسانية رائدة..

الإنسان العربي الجديد في هذا العصر مطالب بمهمات ثقيلة، لم يعرف لها مثيل في سابق حياته، وقل نظيرها في حياة غيره، ولا بد للإنسان العربي من إنجاز هذه المهمات بشجاعة.. إذا شاء أن يحتفظ لنفسه بحق الحياة الحرة.. وتكون له صولة ودولة في هذه الدنيا، وهو لن يتقدر على ذلك إلا إذا أمد نفسه إمدادا حضاريا يتسم بروح العلم.. وقرر الاندماج على أروع للفكر، وللإنسان.. وهي ظواهر مرضية في حيافة بينه وبين موكب العصر الطافر.

وبعد،

فيبناء على إيماننا الذي لا حد له بقدرة الإنسان العربي على الحركة واحتواء التراث الإنساني، وإيماننا بقدرة التراث الإنساني على صقل الشخصية العربية وإمدادها برصيد لا ينفد من الطلاقة والخبرة والمعرفة، وإيماننا منا بقدرة الإنسان من حيث هو إنسان على التقدم والازدهار في ظل العلم والحضارة والمدنية.. إيماننا منا بكل هذا نفتتح صدر هذه المجلة، لكل ما يحق أهداف التقدم العربي.

والله من وراء القصد،،

أحمد المدواني

والعلاقات والدوافع والنظم والقيم الإنسانية وما إليها . والواقع أنهم يتعرضون لهذه الأمور في كتاباتهم حتى وإن لم يتولوها بصراحة أو لم يذكروها في تلك الألفاظ والحدود . ويبدو هذا واضحا في كتابات اثنين من كبار المدافعين عن « علمية » علم الاجتماع والانثروبولوجيا وهما دوركايم وراي كليف براون. (٥٦) فالذين مثلا لن يمكن فهمه عن طريق معرفة عدد المساجد أو الكنائس أو المعابد في المجتمع وعدد المترددين عليها في كل صلاة أو عدد الذين يتقدمون بتظلماتهم لأفرحة الأولياء وأنواع التظلمات التي يرفعونها إلى هؤلاء الأولياء وإذا ما كانت هذه التظلمات والشكاوى تكتب بالحبر أو الرصاص كما ظهر في كتاب حديث عن هذا الموضوع في مصر . كذلك لن يمكن فهم العائلة كنظام اجتماعي عن طريق دراسة عدد البيوت وعدد طوايقها وعدد الغرف فيها وطريقة بنائها والمواد المستخدمة في البناء ووسائل التهوية والإضاءة ولا حتى عدد أفراد هذه العائلات الذين يعيشون بها تحت سقف واحد أو في بيوت متفرقة، وما إلى ذلك من المعلومات العديدة التي لا شك في أهميتها ولكنها لا تكفي إطلاقا لفهم هذين النظامين الاجتماعيين ، إنما الذي يجتدى في فهم النظم هو دراسة الحالات الدهنية المتصلة بها وأثرها في فئات معينة من الناس في مواقف معينة بالذات . وبصق هذا بشكل أو بآخر على كل العلوم الإنسانية . بل إن علماء الاقتصاد أنفسهم كثيرا ما يضيئون بضوء وقود النظريات الاقتصادية الصورية ويثرون عليها ويمطون بعض اهتمامهم للدراسة الدوافع الحقيقية لسلوك الناس في مواقف اقتصادية معينة وبذلك يدخلون ميدان الفلسفة دون أن يدركوا ذلك، مثلا فعل سنر Sumner وقبله Veblen وفايت F.H. Knight وغيرهم . وربما كان هذا هو السبب في الإغتمام الرائد الذي يولييه علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بالبحث لدراسة نسق القيم . إذ مهما بلغت المعلومات التي يحصل عليها السوسيولوجيون والانثروبولوجيون من سلوك الناس في المجتمع من الدقة والتفصيل والكثرة فلن تكون لها أهمية حقيقية إلا إذا درست في ضوء نسق القيم السائد في ذلك المجتمع ، وذلك على اعتبار أن اختيارات الإنسان وتفضيلاته والمعايير التي تحكم في عملية الاختيار والمفاضلة هي التي تؤثر في الحقيقة موضوع العلم الاجتماعي . وهذه المعايير هي قبل كل شيء مستويات خلقية وعقلية ، ومن هذه الناحية فإنها تكون أقرب إلى مجال الأدب والفلسفة منها إلى العلوم الطبيعية (٥٧) . وكما يقول جون كيميني « إنني الصعبان بئس المصانئ العاطفية بمنزل عن الفرضيات ، فكل منا يهتم لما تنطوي عليه الأفعال من تضمينات أخلاقية . ذلك لأنه من الصعب أن يصار إلى صياغة النتائج المتوقعة للجهود البشرية في قالب خلو من الشعور . ونحن ندرلك اليوم في دراستنا لتاريخ قوانين حركات الأجرام السماوية كم كان حظ علماء الفلك عظيما لأنه لم يكن بهمهم ما هي مدارات تلك الأجرام طالما كان باستطاعتهم وصفها بدقة . أما العلوم الاجتماعية فإن الصعوبة هي أن الضغط للوصول إلى نتائج مرغوبة لا يأتي من خارج نفس العالم بل من داخلها . فهو يود لو يستطيع الاعتقاد بأن بعض الأفعال تؤدي إلى المرغوب من النتائج » (٥٨) .

Durkheim, E , *Les Formes Elementaires de la Vie Religieuse*,
Radcliffe-Brown, A. R. , *The Andaman Islands* .

(٥٦) انظر في الموضوع

Redfield, op. cit, PP.48-49 (٥٧)

كيميني : المرجع السابق ذكره ، صفحات ٣٦١ ، ٣٦٢ (٥٨)

في أمريكا ترد الى تأثير الدعايات الشيوعية المغرضة التي تسمح عقول الشباب ، في الوقت الذي ترد حركات التمرد في بولندا وتشيكوسلوفاكيا الى الدعاية الرأسمالية المسومة ، (راجع في ذلك: Bronowski J., "Protest: Past and Present", *The American Scholar*- Autumn, 1969, P. 537.)

ومن السخرية أيضا ان يسهم في قيام هذه الازمات بنصيب فعال أحد الإنجازات الهامة الجارية في تاريخ الإنسانية ، ونعني بذلك تقدم العلوم الطبيعية والبيولوجية . ولقد أدى التقدم العلمي في كثير من العصور الى حدوث هزات عنيفة وعميقة في حياة الإنسان حين كشف عن أسرار الكون والمركز الحقيقي الذي يحتله الإنسان فيه مثلما حدث حين خرج كوبرنيكوس بنظريته عن النظام الشمسي التي زعزعت ثقة الإنسان في نفسه وفي الكوكب الذي يعيش فوقه ، والذي كان يعتبر نفسه هو مركز كل شيء ؛ ومثلما حدث أيضا حين طلع داروين بنظريته عن أصل الأنواع وتبين للإنسان أنه على الرغم من كونه سيد الخلائق بما يتمتع به من ملكات وقدرات وينفرد به من نسق لتقليم الروحية والخلقية والجمالية ، فان مكانه الصحيح - من الناحيتين البيولوجية والانثروبولوجية على الأقل - هو بين الحيوانات ، وبين القردة العليا بالذات . ثم تمر السنوات لكي يطلع على الإنسان من علماء هذا العصر من يجاهر بامكان التحكم في عملية الخلق ذاتها ، وامكان « صنع » الإنسان ذاته في المعامل وفي أنابيب الاختبار . وثمة تجارب كثيرة ومتصلة تجري الآن في هذا الميدان في عدد من دول الغرب . وبصرف النظر عما قد تنتهي اليه هذه التجارب فان دلالتها واضحة . فلم تعد هناك ميادين مقدسة بحجم العقل البشري عن اقتحامها في ارياده اتفاق البحث العلمي . وإذا كان هذا يعتبر شاهداً ودليلاً على قوة العقل البشري وقدرته على البحث وعلى الإبداع فان نتائج بحثه كثيراً ما تؤدي الى زمرة ثقة الإنسان في نفسه وإلى شعوره بضلالتة وتشكيكه في كثير من مقومات الحياة الإنسانية والاجتماعية التي يحياها ، واستسلامه للياس والقلق اللذين يعتبران من أهم سمات الحياة في العصر الحديث .

ولقد وصل التقدم العلمي في مجال العلوم الطبيعية بالذات الى درجة جعلت الإنسان نفسه يقف مبهوراً وشبه عاجز أمام صنع عقله الخلاق ، ودخل العالم في عصر جديد يقوم على تمجيد العقل البشري وتأييده العلم . الا أنه على الرغم من كل ما قدمه العلم للإنسانية من خير فقد جلب عليها كثيراً من الشرور والآلام . وقد لا يكون العيب في العلم كعلم بقدر ما هو في طريقة استخدامه . والواقع أنه يُستخدم في كثير من الأحيان بطريقة تدل على عدم تقدير المسؤولية ، كما هو الحال في صنع الأسلحة الفتاكة بما فيها الأسلحة الكيميائية ان صح هذا التعبير ، وفي صنع أجهزة التجسس التي تستخدمها كثير من أجهزة الحكم في الدول المختلفة للتجسس على حياة الأشخاص ومراقبتهم والإيقاع بهم أو التجسس على الدول الأخرى كوسيلة هامة من وسائل الاستعداد للحرب ، على نحو ما تفعل على الخصوص وكالة المخابرات المركزية في أمريكا التي يبدو أنها طورت أساليب التجسس العلمية الى حد يفوق كل تصور . وإذا كان هناك ما يبرر تسخير العلم لكسب الحرب والحاق الهزيمة بالاعداء ، فمن الصعب تبرير تسخيره في أعمال التجسس وبخاصة على حياة الأفراد البعدين في حياتهم الخاصة التي لهم الحق في أن يحيوها كيفما شاؤوا مادام ذلك لا يؤدي الى الاضرار بالغير أو المجتمع . ولقد بلغ من استخدام أجهزة التجسس على حياة الأفراد الخاصة في أمريكا حدا جعلت أحد الكتاب يطلق على المجتمع الأمريكي اسم « المجتمع العاري » ، اذ لم يعد الفرد المادي يشعر بأن له حياة خاصة يخفيها عن الآخرين ويحتفظ بها لنفسه بعيدة عن عيون وأذان الناس ، وأتاما أصبحت حياته وعلاقاته وتحركاته كلها معروفة ومكتشفة تماما ، مما يجعله يشعر طول الوقت بأنه يسير عاريا بين الناس ، وهو شعور مؤلم بغير شك (انظر في ذلك : كتاب باكارد (Pakard, V.; *The Naked Society*, Pelican 1966) . والاكثر من ذلك أن العلم

ادى الى ظهور كثير من المشاكل التي لم يكن لها وجود من قبل . بل ان بعض هذه المشاكل ظهرت كنتائج مباشرة لبعض الانجازات العلمية التي كان يراد بها الخير ، والتي حققت كثيرا من الخير بالفعل . فاطلب الحديث القائم على اسس علمية سليمة أفصح في القضاء على كثير جدا من الامراض والأوبئة ، أو على الأقل اكتشاف اسبابها ووسائل العلاج والوقاية منها . الا ان ذلك ادى الى ظهور مشاكل لم تكن في الحسبان ، وهي مشاكل ذات طابع اجتماعي في الاغلب ، لان التغلب على المرض ترتب عليه هبوط معدلات الوفاة وإطالة متوسط فترة الحياة ، مما ادى الى الزيادة الهائلة في السكان ، بحيث كادت بعض المجتمعات تختنق تماما بسكانها . ونجم عن ذلك انتشار امراض جديدة متعلقة بازدحام المجتمعات المحلية بسكانها ، بالإضافة الى سوء التغذية وانخفاض مستوى المعيشة ، والفقر وقلة العمل ، وانتشار البطالة والجريمة وامراض الشيخوخة وما الى ذلك . واذا كان العلم قد توصل الى اكتشاف حبوب منع الحمل لضبط النسل والتحكم فيه فان ذلك ارتبط بظهور كثير من الافار الجانبية التي تعاني منها النساء . واذا كان العلم ساعد على تقدم التكنولوجيا وارتبط ذلك بالتقدم الصناعي وزيادة الانتاج فقد ادى ذلك نفسه الى تلوث الهواء في المدن الصناعية وانتشار امراض معينة وهكذا .

ولقد كانت النتيجة المترتبة على هذا كله انتشار موجات غريبة ومتناقضة من السخط والتمرد على كل شيء بما في ذلك العلم ذاته ، على الرغم من الموجة الجارفة التي تمجد العلم والتفكير العلمي . وهو تمرد ينبع من فقدان الثقة في كل ما يحيط بالانسان وحياته في المجتمع بما في ذلك العلاقات الشخصية والقيم المتوارثة ونظم الحكم والعلم والادب والسياسة والاخلاق والشتغلين بها على السواء . ولقد كان النجاح الهائل الذي حققته العلوم الطبيعية هو السبب في تمجيد العلم والعقل والتفكير العلمي الخالص والتمرد على كل ما عداها ، كما كان اخفاق العلم في ان يسمو بالانسان على نفسه وتسخره بدلا من ذلك في الحرب والتدمير والخراب هو السبب في التمرد عليه نفسه . واحس الانسان ازاء هذا كله بالضيق ، خاصة وان القيم الروحية والدينية - التي كانت عمده بكثير من القوة والعزم وتروده بطاقة روحية هائلة تساعد على التغلب على الشدائد والازمات - عانت الشيء الكثير من تقدم العلم وسيطرته على الاذهان . فقد اصبح الايمان بالعلم يمثل العقيدة الكبرى أو حتى الوحيدة عند نسبة كبيرة جدا من الناس في الغرب ، فضعف سلطان الدين ووصلت موجة الشك فيه وفي فاعليته ووظيفته في الحياة ذروتها عند الشباب الذين يمثلون على اى حال جيل المتمردين والذين يعانون من هذه الازمات أكثر من غيرهم . ومما له دلالة في ذلك ظهور اعداد كبيرة من الكتب في السنوات الاخيرة تعالج شؤون الدين في الغرب ، وكثير من هذه الكتب يسخر هلائية من الدين والكنيسة أو على الأقل يسخر من الوضع الذي وصل اليه الدين في العصر الحالي ويرى في صورته الراهنة مجرد مسخ مشوه ، وأنه احد مخلفات الازمة والعصور السابقة السعيدة ، وأنه بوضعه الراهن ايضا أضعف وأهزل من أن يثبت امام زحف الآلة وزحف العلم وأنه قد انترف عمن الطريق الذي كان يسير فيه وسقط من المكانة السامية التي كان يحتلها بحيث أصبح يقف الآن وحيدا في عالم غريب عنه تماما (انظر في ذلك مثلا كتاب : (Basil Willheh; Religion Today)

بل اننا نجد رجلا من كبار رجال الكنيسة في بريطانيا وهو الدكتور جون روبنسون John Robinson - استقف ولويس السابق - يمتزق في كتاب ظهر له أخيرا بعنوان « الحرية المسيحية في المجتمع التهاون " Christian Freedom in a Permissive Society, S.C.M. Press » ان المسيحية تمر بمرحلة خطيرة تعاني فيها خطر التدهور السريع الذي لا يمكن إيقافه . ويكرر هذا القول ، وأمثاله في أكثر من موضع في الكتاب ، بحيث لا يملك أحد النقاد في مجال عرضيه ذلك الكتاب نفسه من ان يلاحظ أنه لو صدق كل ما جاء فيه فان الدين يكون قد فقد بذلك

كل سيطرته على مخيلة المجتمع الغربي الحديث ، لدرجة أن نسبة متزايدة من الناس في إنجلترا - التي يصفها بأنها أصبحت بلادا وفتية - ينشدون السلوى والعزاء وقت الأزمات والشدايق عند المهرجيين وفي موسيقى الجاز الصاخبة أكثر مما ينشدونه عند المسيح وفي الكنيسة . راجع في ذلك مقال

Dennis Potter, "New and Improved Pie in the Sky", The Times Saturday Review, Feb. 28, 1970.

وإذا كان كارل ماركس قال جملة التي يتشدد بها كثير من المتمردين من أن الدين هو آفيون الشعوب فإن متمردا آخرًا معاصرًا لنا وهو الدكتور تيموثي ليري Timothy Leary الذي ساعد مساعداً فعالة على انتشار عقار الهلوسة المعروف باسم LSD بين طلبة جامعة هارفارد يقول أن المخدرات هي دين القرن الحادي والعشرين وإن أي محاولة للتمتع بالتجربة الروحية الدينية بدون تعاطي هذه المخدرات تكون أشبه بمحاولة دراسة الفلك من استخدام العين المجردة .

والتعدد على الدين ليس الا صورة واحدة من صور التمدد على المجتمع وقيمه ومثله العليا التقليدية التي تنمت بالتزمت والتخلف وعدم مسايرتها لروح العصر ، كما وصف المتمسكون بها بضيق الانقي والنفاق وأنهم يتصرفون في حياتهم الخاصة بعكس ما توصي به تلك القيم والمثل العليا التي يتظاهرون بإتباعها والتمسك بها . وإذا كان العلم الذي هو سمة العصر يحجر الفكر من خرافات الميتافيزيقا ومن الغيبسيات ويهتك الستر من الاحداث والوقائع المجهولة فإن انسان عصر العلم خليق بأن يتخلص هو نفسه من أوهام الماضي وتقاليد و يتحرر من قيوده وتحريراته ويفزو كل ميادين الحياة التي كان محروما عليه دخولها وإن يعبر بصراحة وأمام الملا عما يشعر به وإن يتصرف وفق ذلك . وليست حركات الشباب المتمرد وجماعات الهيبيز الا تعبيراً عن هذه النظرة . وكما تقول إحدى فتيات الهيبيز الفرنسيات في تعريفها بنفسها وبكتاب لها عن بعض نواحي حياتها : أن عمرها ٢١ سنة ، ومهنتها عضو في إحدى جماعات الهيبيين ، ودبانتها البحث عن الحقيقة خارج المجتمع وفوق المجتمع من طريق التحدى السافر وبطريقة منهجية منظّمة للتحريات والقيود المفروضة عليها ، وذلك من طريق اتباع حياة « روحية مسالمة وجمالية من أجل تحقيق السعادة » . وواضح هنا أن كلمة « روحية » تشير إلى تعاطي المخدرات ، وكلمة « مسالمة » تعني « سلمية » ؛ أما كلمة جمالية فتعني في الأغلب « جنسية » . بل إن هذا الموقف المتمرد الذي يعبر عن نفسه بالإغراق الجنسي والمخدرات ، والذي قد يتخذ في بعض الأحيان شكل العنف يجسد من بين الكتاب ورجال الفن من يدعو اليه بشكل أو بآخر كوسيلة للتحرر من القيود التي تفرضها المجتمع على أفراد . ويظهر هذا في الطوفان الجارف من الروايات والمسرحيات والأفلام التي تدور حول الجنس والعنف لدرجة أن أحد النقاد الأمريكيين يقرط أحدهى الروايات ويرفعها إلى أعلى مستوى من الإبداع الفني ويدعو لقراءتها لا شيء إلا لأنها تتضمن وصفاً دقيقاً وأميناً للأفراق في ممارسة المادة السرية .

ولم يسلم المثقفون وكبار الكتاب من هجوم المتمردين لوقفهم السلبي الواضح من معالجة قضايا العصر وميوب المجتمع في أمانة وجبراة وصراحة ، واعتبروا ذلك الموقف السلبي دليلاً آخر على « خيانة المثقفين » الذين بغضلون الركون إلى حياة الترف الهائلة الناعمة ، وبخاصة بعد أن حققوا لأنفسهم الشهرة وذويوع الصيت، وتركوا حياة الكفاح والدفاع عن القضايا التي يؤمنون بها ، والتي كثيراً ما تتعارض مع وجهات نظر الجهات الرسمية والطبقة الحاكمة . ولقد كان هؤلاء الكبار أنفسهم من المتمردين في شبابهم ولكنهم اخفقوا في أن يسايروا حركة التطور

فتخلفوا عن سير الأحداث ، وأصبحوا من دعاة التريث والسلبية والجمود ، وساروا في ركب المتأخرين والمتقنين ، لأصحاب الجاه والسلطان بعد أن كانوا من الليبراليين .

وأخيرا جاءت الثورة على العلم نفسه بإعتباره أصل كل ما يمانيه العالم الآن من الزمات، وظهرت دعوة غريبة تدعو إلى الانصراف عن العلم الطبيعي ، أو التوقف عن العمل والانتاج في مجال العلوم الطبيعية ولو مؤقتا ، وتحويل الاهتمام بدلا من ذلك إلى الانسانيات Humanities والعلوم الانسانية Human Sciences خاصة وإن تقدم المعرفة البشرية في الفترة الأخيرة لم يكن متكافئا في كل الميادين بحيث تخلفت العلوم الانسانية عن اللحاق بالعلوم الطبيعية ، وترتب على ذلك كله ما نجده الآن من تمجيد للعلوم الطبيعية ، وميل للسخرية من العلوم الانسانية والانسانيات . بيد أن هذه الدعوة للانصراف عن العلم موقف سلبي ولا شك لأنها تعنى التراجع والتقهقر إلى الوراء ، ونيل كل ما حققه العلم الآن والتنكر له . ولكن هذه الدعوة ذاتها تبين عمق الأزمة التي يمر بها العالم الآن وبخاصة فيما يتعلق بموقفه من العلم . ولذا فقد ظهرت في الوقت نفسه دعوة أخرى أكثر إيجابية لأنها تعترف بأهمية العلم بل وتشجع على الاستمرار في البحوث العلمية في مختلف الميادين مع محاولة الاسترشاد في الوقت ذاته بحاجات المجتمع الفعلية ، وتوجيه هذه البحوث إلى ما فيه خير الانسانية وصالحها ، على اعتبار أن الغاية الأخيرة من العلم هي الارتقاء بالانسانية ذاتها ، وأن هدفه بالتالي هدف «إنساني» بحث ، مع بلل مزيد من العناية بالعلوم الانسانية والانسانيات ومحاولة إحياء القيم الأخلاقية والدينية وإعادة إيمان الإنسان في نفسه وفي إنسانيته . وإنصار هذا الرأي يرون أن الخطأ في الحقيقة ليس كامنا في العلم ذاته ، وإنما هو يكمن في الطريقة التي يستخدم بها العلم وفي تطبيق مناهجه . فالشيء الذي يحتاجه العالم إليه إزاء هذه الأزمة هو أن يرتفع الإنسان بفهمه للطبيعة البشرية إلى نفس المستوى الذي وصل إليه العلم . وقد ازداد الشعور الآن بأنه لن يكون ثمة جدوى أو فائدة فيما تحرزه العلوم الطبيعية والبيولوجية من نجاح وتقدم إلا إذا وصلت العلوم التي تدرس الطبيعة الانسانية إلى درجة معادلة أو على الأقل مقاربة من ذلك النجاح والتقدم ، فحينئذ فقط يكون للعلوم الطبيعية ذاتها مفزى ومعنى ومبرر لوجودها .

وليس من شك في أن الاعتراض والاحتجاج والتمرد تعتبر لوائح حسن استخدامها من أنجح الوسائل لتفريغ الأوضاع القائمة في المجتمع وتحسين ظروف الحياة على العموم . وكثير من الكشوف العلمية والنظريات لم تظهر إلا نتيجة لهذا الاعتراض على ما هو قائم على مجالات الدراسات الانسانية والاجتماعية ، بل أن نظريات جليليو وانشتين وغيرهما ليست في حقيقتها وجوهرها إلا نوعا من التمرد على الواقع الذي كان سائدا في تلك الأيام ، وذلك بالتشكك في طبيعة تلك الأوضاع ومحاولة إيجاد حلول وإجابات وتفسيرات لها ومن الطبيعي أن يكون المتمردون من الأجيال الصاعدة وإن ينتمى المحافظون إلى الأجيال الأكثر تقدما في السن مع وجود استثناءات من ذلك . واختلاف نظرة الأجيال إلى الأوضاع القائمة هو مظهر من مظاهر الأزمة الحالية ، وإن كان يخلق في الوقت ذاته وبخاصة في أمريكا أزمة عنيفة تهدد الأسرة والمجتمع نظرا لما يتميز به ذلك التعارض من منف واستهتار بالقيم من جانب الشباب . وقد تكون هذه الأزمات أقوى وأشد وضوحا في الغرب مما هي في بلادنا . ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى تخلفنا في ميادين العلم والمعرفة على السواء ، وإن كان يمكن أن نجد بعض التفسير لذلك فيما نمر به بلادنا من أزمت من نوع آخر ذات طابع سياسي وحربي على الخصوص مما يمنع من أن تتخذ هذه الأزمات التي يمر بها العالم كل تلك الإبعاد التي نجهدها في الغرب .

ومما يكن من شيء فقد وجدت هذه الازمات بكل تعقدها وتنوعها وضراوتها مجالات للتعبير عنها بصور واشكال مختلفة ، تكشف كلها عن عنصر الثورة على الاوضاع القائمة في الادب والعلم والسياسة والاخلاق والقيم بل والعلاقات الانسانية . والدراسات الخمس التي يضمها هذا العدد من المجلة تحاول ان تعرض من وجهة نظر كتابها بعض هذه الازمات ، او على الاصح بعض مظاهرها وان كان الاستاذ الدكتور ابو ريدة آخر ان يوسع من نطاق معالجته للموضوع بحيث شملت دراسته المعرفة العلمية بوجه عام وليس العلم بمعناه الحديث فحسب ، كما حاول ان يبين نوع الادلة على وجود الله في الازمنة والفلسفات السابقة قبل ان يتكلم عن الايمان في عصر العلم . الا ان هذه الدراسات الخمس تقدم لنا في مجموعها صورة واضحة عن جانب هام من العصر الذي نعيش فيه وما يحيط بهذا العصر من مشكلات .

احمد ابوزيد

أمراض الفكر في القرن العشرين



سميها أمراض الفكر في القرن العشرين لأنها حالات من انعدام الوزن ينتهي فيها تفكير الإنسان إلى أن الحقيقة الوحيدة في هذا العالم ليست إلا الفوضى . وهي حال يتجلى فيها العالم فجأة لصاحبه على حقيقة كربية ، فلا يرى فيه نظاما ولا معنى ، ولا يجد فيه مبررا لبقائه ، إذ يستحيل على المرء أن يكون متحركا أو عاملا أو حرا أو نافعا أو حتى متقبلا للحياة في عالم غير حقيقي . وإذا كان من المحال على المرء أن يقفز وهو ساقط ، فكذلك من المحال على إنسان أن يكون حرا في عالم غير حقيقي ، أو قل في عالم مهزوز عديم القيم ، أشبه ما يكون بعالم الأحلام والأوهام منه بعالم الحقيقة .

الدكتور محمد زكي العشماوي أستاذ النقد الأدبي بجامعة الكويت وجامعة الإسكندرية ، من أهم مؤلفاته : -
فضايا النقد الأدبي (دار الكتاب العربي ١٩٦٧) ودراسات في النقد المسرحي والأدب وقيم الحياة المعاصرة (الدار القومية ١٩٦٦) .

ان الحرية آخر الأمر لا تتركز إلا على ما هو حقيقي . انها تفترض حرية الإرادة ، والإرادة لا تكون إلا بدافع ، والدوافع لا تنهض إلا على الإيمان ، فلا يقدر أحد على فعل شيء إلا وهو يؤمن بأنه فعل ممكن وذو معنى ، والإيمان لا يتأتى إلا بوجود شيء أو قل بوجود حقيقة ما . ومن ثم فإن هذا الاحساس بانعدام المعنى والنظام من الحياة ، وبعدم توافر الحقيقة فيها سوف يقتلع حريتنا من جذورها إذ لا يمكن لإنسان أن يكون حراً في عالم من الأوهام ، أو في عالم غير حقيقي .

وإذا انتهى الإنسان بتفكيره إلى موقف كهذا فلا بد أن بنعدم وزنه ، وتلاشى الروابط التي تربط بين أجزاء ذاته فتتبعثر هذه الذوات وتفرق ، وعينا يحاول شتاتها أن يستقيم . من أجل هذا سمينا هذه الحالات الفكرية أمراضاً ، وهي في الحقيقة كذلك مهما دافع عنها أصحابها فزعموا أنه لا جدوى من انهمالهم بالمرض ، ذلك لإيمانهم بأنهم وحدهم القادرون على رؤية الأمور على حقيقتها ، سواء صح ذلك أو لم يصح ، فهم في أحسن الأحوال بل وعلى حد تعبيرهم ، المرضى الوحيدون الذين يدركون أنهم مرضى في حضارة مريضة لا تفي بمرضها ، وهم يرون أن الواجب بتضييعهم أن يجابهوا المرض وجها لوجه ، ففي هذه المجابهة الحل الوحيد للتخلص من هذا المرض أو الوصول إلى النظام الذي يموههم ويفوز العالم . هذا إذا كان ثمة سبيل إلى الإيمان بأن لهذا النظام وجوداً على الإطلاق .

وهذه المجابهة إذا صحت ، تكون في الحقيقة شيئاً إيجابياً جديراً بانتباهنا ودراستنا ، لأنها - إذا تحققت - سوف تمثل الجانب الهادف الوحيد في مثل هذه الفلسفة الخطيرة . وإذا جاز للمريض أن يجابه مرضه فيسبر أشوار هذا المرض ، وينتقل إلى جذوره فيعرف أسبابه ، ويقتل على أسراره ، ويظلم بما قد يؤدي إليه من نتائج وخيمة فإن ذلك قد يمكنه من انقاذ نفسه من الهلاك .

غير أن ثمة عاملاً آخر قد يجعل لهذه الاتجاهات الصبغة - إذا صح لنا أن نسميها كذلك - أهمية خاصة تدعونا لتأملها وبحثها ودراستها ، وهو ما قد يكون فيها من خطوة إيجابية تتجه نحو رفض قيم يبندها إنسان لفسادها ، وهذه بدورها تحتاج منه أن يلوذ بنفسه فيفكر ويحل ويتوغل في أعماق ذاته بنية اكتشاف الحقيقة . وهذه المحاولة في ذاتها مفيدة لما فيها من ارتداد جوانب الذوات ، ومواجهة الحقيقة من ناحية ، ولما فيها من رغبة مخلص في العثور على جواب شافٍ لعلامات الاستفهام الكثيرة التي تحتاج إلى إجابة أو حل من ناحية ثانية . في هذه الحالة سوف يكون لدى هذا الاتجاه ما يجعله جديراً بالدراسة لأنه سوف لا يشغل نفسه بمشكلة الشر وحدها ، وإنما قد يظفر الإنسان بدافع آخر كامن وراء أحاسيسه يمكنه من إدراك السر الدفين . وعندئذ قد ينتهي التفكير إلى نوع من الهداية تتوهم عندها الحواس جميعاً ويصل الإنسان إلى الاحساس بالانسجام مع الوجود . فليس غريباً أن ينتهي الضلال في الفكر الإنساني بعد أن يطول به التمرد واليأس إلى مرقاً يجد عنده الملاذ ، هذا الرقاً قد يكون كشفاً صوفياً أو موقفاً دينياً .

ومن أجل ذلك كان لا بد لنا أن نلم بهذا الجهد الإنساني الضخم الذي قد يبذل أصحابه بالشكوى من صعوبات الحياة بل قل استحالتها، وقد يسرفون في الصراخ من لا معقولياتها ، وقد تمضي عليهم فترة ، تطول أو تقصر ، وهم قائلون الإيمان منهوكة القوى ، مديوم القدرة على السلوك ، ثم ينتهي بهم المطاف قبل أن تضع حياتهم سدى فيتحوّل الانهالك والسأم والفئران والتمرد إلى تحقيق الوحدة الداخلية والوصول إلى شاطئ الأمان .

لذا أضفنا إلى كل ما سبق أن كثيراً مما اتجه إليه البحث عند هؤلاء ، وعلى الأخص فيما

كتبوا من مسرح أو قصص كان يهدف إلى كشف الحجب عن البشر الذين يسترون نزعات الفوضى والوحشية واللاعقل التابعة في أعماق ذواتهم ، يحاولون إخفاءها عن الناس ، ويتخلدون لذلك مما استطاعوا من اقنعة تارة باسم الدين ، وطورا باسم الحياة البرجوازية المحترمة . تقول إذا أضفنا إلى ما سبق أن في آداب هؤلاء محاولة للتعرف على إنسان العصر الحديث على حقيقته ومحاولة استبطان ذاته ، لم ادراك النزاع القائم في نفسه بين ما هو حيواني صرف وبين ما هو انساني نبيل ، أمكننا أن ندرك ضرورة اهتمام النقاد والباحثين في منتصف القرن العشرين بأدب هؤلاء ودراسته وبهذه .

بقيت بعد ذلك نقطة أخيرة لعلها أقوى المبررات التي تدفعنا إلى العناية بأدب هذه الاتجاهات المعاصرة على الرغم مما قد يبدو فيها من حساسية عبثية أو من عدم إيمان بحقيقة العالم ، وهي أن في اتجاه المعاصرين فلسفة ثورية تقوم على السخرية من (أدب التنصل) (١) البرجوازي أو أدب الكتاب المأجورين حيث تصير أكثر حوادث الوجود ابتداء في حياة الإنسان على حد قول سارتر - بمثابة رموز ، وحيث تفترس الأشياء الخيالية الأمور الواقعية .

وعلى الرغم من أن سارتر لا يعتقد في رسالة لطبقة العمال ، ولا في أنها تتمتع بفضل على غيرها في حالتها ، فهي مؤلفة ، أي طبقة العمال في رأيه ، من رجال عاديين وجائرين ، ويمكن أن يضلوا ، وغالبا ما يخدمون ، فإنه لا يتردد مع كل ذلك من القول (بأن مصر الأدب مرتبط بمصر الطبقة العاملة (٢)) كما لا يتردد في الإعلان بأن مهمة الأدب كما يراها هي (تجلية العلاقات بين الوجود والعمل من ثنابا موقفنا التاريخي .) فهل المرء من صنع غيره ؟ أو من صنع نفسه ؟ وما العمل ؟ وما الغاية والوسائل في مجتمع مبني على العنف ؟ إن الأعمال الأدبية المستوحاة من مثل هذه المهام لا يمكن أن تهدف إلى إعجاب الغير ، ولكنها تفضي وتقلق ، وبما أنها لمرّة عذاب وتسأل . فإذا منحنا فيها النجاح لم تكن صنوف مسلاة ، بل مسائل تستغرق التفكير ، ولا يعرض فيها العالم كي (يرى) بل كي (يغير) . ولن يفقد بذلك شيئا ، هذا العالم العتيق البالي البغيض المويض بل سيكون أمره على نقىض ذلك) .

هذا ما يقوله سارتر ، وإذا أتت تتبعته ماكتبه عن موقف الكتاب ، وعن تقسيمه لهم إلى ثلاثة أجيال عرفت أن الجيل الثالث الذي بدأ عقب هزيمة فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية كان من أهدافه الكشف عن زيف بعض الاتجاهات البرجوازية في الأدب ، ثم بيان ما للأدب من تأثير إيجابي في توجيه التاريخ وتغييره باعتباره الممثل للضمير الحر في مجتمع منتج . بل إن سارتر ليختتم هذا الفصل بحقيقة ثورية خطيرة عندما يقرر أن فرصة العالم في النجاة محصورة في الأدب .

وإذن فهذه الاتجاهات الثورية الجديدة تزعج أن في أعماقها ثورة لا تهدف إلى تبصيرنا بالعالم من حولنا فحسب ، بل تريد أن تتجاوز ذلك إلى محاولة للتغيير ، وإذا صح هذا الزعم فإن دراستنا لألوان هذا الفكر سوف لا تكشف عن فهمنا لأشد مشاكل الإنسان المعاصر عمقا بل سوف تبرز إلى جانب ذلك ما يحاول هؤلاء أن يضيفوه من إبعاد جديدة للتغيير ، ولربط إنتاجنا الأدبي بتطور فكرنا المعاصر وقيمه الجديدة .

وجدير بنا الآن بعد هذه الخدمات أن نعرض لأهم ما جاء في كتابات هؤلاء من فكر ، محاولين

(١) ما الأدب لسارتر ص ٢٠٨ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٢

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٧

ادراك ما ينطوي عليه من المشاكل الروحية والفكرية امصرنا الحاضر ، وما يمكن أن تضفيه من جديد حتى تكون على بينة مما يدور في عالمنا من أفكار قد يتأثر بها شبابتنا وهم على غير علم بما نفعهم منها أو ما يضر .

✽ كولن ويلسون ومشكلة الغريب :

لم يكد يمر صيف عام ١٩٦٦ حتى كان اسم كولن ويلسون Colin Wilson على كل لسان يملأ اسماع الأدباء في شتى أنحاء الأرض ولم يكن قد جاوز الكاتب في ذلك الوقت العام الرابع والعشرين من عمره ، ولكن كتابه المشهور (الغريب) أو (اللامتنى) The Outsider الذى طبع سبع مرات في الفترة ما بين مايو ويوليه سنة ١٩٥٦ كان قد جعل اسم هذا الكاتب الشاب يحتل ، ما بين عشية وضحاها ، مكانة لا تقل عن مكانة شيوخ فلاسفة العصر وأدبائه .

وليس بعيننا في قليل أو كثير أن نتوغل في الحديث من الضجة الكبيرة التى أثارها هذا الكتاب عند صدوره ، ولا من تعليقات الصحافة وكبار الكتاب والأدباء وإنما الذى يعنيننا حقيقة هو ما أثاره الكتاب من مشاكل تتصل بموضوعنا الذى نتحدث فيه ، وهو موضوع الغربة التى يعانى منها مفكرو هذا العصر ، ماكنها ؟ وما الدوافع التى ساعدت في إيجادها ثم ما السبيل الى التخلص منها أو تفاديها ؟

إن مشكلة الغربة قديمة فيما يبدو ، فهى وإن كانت تأخذ شكل الظاهرة العامة عند البارزين من مفكرى هذا العصر ، وعلى الأخص من ظهر منهم بعد الحرب العالمية الأخيرة ، إلا أن الغربة مرض تمتد جذوره الى أبعد من هذه الفترة ، مرض متصل بتصدع الدلائل أو انشقاقها نتيجة لعدم توافرها أو انسجامها مع المجتمع الذى تعيش فيه . وإذا كانت المشكلة في صميمها هى مشكلة الفرد الذى لا يتألم مع المجتمع ، قلن تكون من هذه الناحية مشكلة جديدة بأى حال ، فإن التصدع بين الدلائل والجماعة ظاهرة لا تقتصر بمصر دون آخر . لقد عرفنا هذه الغربة في أدب الواقعية القديمة التى يمثلها بلزاك وموباسان ، ورأيناها تتجه الى الكشف عن الشورور والآثام الكامنة في النفس البشرية . ولا يخفى على القارئ ما كتبه بلزاك فيما سماه بالكوميديا البشرية ، فقد جمع فيها ما يقرب من مائة وخمسين قصة وجعلها في مجموعات تحمل هذا الاسم الشهير اسم (الكوميديا البشرية) وفيها يصور الكاتب البخل والخسة والدناوة والوصولية والتفاهق الى غير ذلك من أمراض اجتماعية وفيها كذلك تصوير لشخصية البطل الفرد المحطم المنعزل عن المجتمع . وقد هاجم جوركى هذا النوع من الأدب فقال :

(إن أهم موضوع يتناولوه الأدب الأوروبي وأدب روسيا في القرن التاسع عشر هو الفرد ومعارضته للمجتمع والسلطة والطبيعة . وكانت وفرة الأساليب السلبية تحمل الفرد على مقاومة المجتمع ، لأن الفرد كان يشعر بأن المجتمع يسحقه وأن شيئاً يحول دون نموه . ولكنه كان يفهم فهمًا سيئًا أنه السبب في الابتذال والأجرام اللذين يقوم عليهما المجتمع . وكان أدبنا حتى نشوب الثورة يرتكز على الرجل وما يصادفه من حوادث مثيرة تجعله يشعر أنه سجين حياته ، وأنه غير نافع للمجتمع .

لكن يبحث عن مكان مريح فلا يجده . فيحز الآلم في نفسه ويتلاشى هذا الرجل إما في صلح ندى مع مجتمع ينفذه أو في تعاطى المخدرات والانتحار (١) .

وقد كان ستيفنسون أكثر كتاباً روسياً إمعاناً في تصوير هذه الحرب من نفسية الأفراد المعزولين أو المرضى أو المذنبين بشعورهم بمرض نتيجة للنفس المنظمة المضطربة التي لا تجد نفسها راضية أو متوائمة مع المجتمع الذي تعيش فيه . فلذا انتقلنا إلى أدباء وشعراء الرومانسية وجدناهم أكثر الناس تعبيراً عن معنى الغربة التي هي في أساسها مشكلة اجتماعية تقوم على شعور الفرد بالانفصام عن مجتمعه . فكلنا يعلم أن الأدباء الرومانسيين أدباء غريبين قد بمدت الهوة بين ما يتوقعه وبأمل فيه وبترقبه ، وبين واقعهم المرير الأليم ، فهو من ثم أديب مطلع إلى عالم آخر ، عالم من المثال يحقق فيه ولو عن طريق الأحلام والرؤى والخيالات ما لم يحققه في عالم الواقع . بل لعل الأدباء الرومانسيين هو أكثر الأدباء إمعاناً في الشعور بمحن الحياة . والمبالغة في الاحساس بها مما جعله يهرب من الواقع وينعزل ، لأنه لم يستطع أن يجد لذاته صورة في مجتمعه فيصيبه الأسى والحزن والسلام .

إذن فالغربة بهذا المعنى الاجتماعي غربة قديمة تتصل بمصور أخرى غير عصرنا الحديث ، ولكن هل هذه الغربة التي صورنا من مظاهرها ماسورنا هي ذاتها الغربة التي حددناها لنا كولون ويلسون في كتابه (الغرب ١) وإذا لم تكن ، فما الفرق بين الغربة الرومانسية أو غربة القرن التاسع عشر وغربة القرن العشرين ؟

إن كولون ويلسون لم يتركنا حيارى إزاء هذا السؤال ، فقد أجاب هو بنفسه عليه عندما حدد لنا الفرق بين غربة الرومانسي وغربة الواقعيين المعاصرين . فالفرق عنده بين الغريب الرومانسي والغريب الواقعي الحديث هو أن الأول برغم حيرته وشكته وذاهبه كل مذهب في سبيل العثور على الحقيقة لم يفقد الإيمان بها ، وعلى الرغم من التصدع القائم بينه وبين مجتمعه لم يياس اليأس التام من وجود الحقيقة ، فهو وإن طال بحثه عنها ، وتردد على بابها ، ومداومة البحث والتفتيش عنها ما يزال يتطلع إليها وكله أمل بما صسا أن يأتي به الفد القريب من نتائج قد تحقق له ما يسعى إليه . ومن ثم فإن الغريب الرومانسي لا يجد الحقيقة ولكنه على يقين من وجودها ، أما الغريب الواقعي فهو لا يفهم ما يعنيه أناس بالحقيقة ، أو قل بتعبير آخر أنه إنسان عاجز عن الإيمان بوجودها . فالعالم في رأيه مفتقد للحقيقة ، عالم زائف قائم على الالامعقول والفوضى ، وهذان وحدهما في نظره هما الحقيقة .

وإذا كان غريباء الرومانسية يرون من الحكمة أن تتغافل عن بعض مظاهر الالامعقول ، وأن تحاول تحقيق الانسجام والواعة مع عالم في مجموعه يسوده النظام ، فإن غريباء الواقعية الجديدة يرون أن من واجبهم مواجهة هذه الحقيقة على نظامتها وبشاعتها ، لأنهم لا يستطيعون أن يعترفوا بغير الحقيقة ، وما دامت هذه هي الحقيقة في نظرهم فلا بد من إعلانها والتحدث عنها في غير مواربة .

هذا هو مجمل التمييز الذي أوضحه كولون ويلسون في كتابه عن غربة الرومانسيين وغربة الواقعيين المعاصرين . ويحاول ويلسون بعد ذلك أن يشرح ظاهرة الغربة ، ويكشف عن مقومات شخصية الغريب ، ويحدد لنا ملامحها فيعرض علينا صورة من صور هذا الغريب مأخوذة من شخصية بطل رواية « الجحيم » للكاتب الفرنسي هنري باربوس Barbouse وهي رواية ظهرت في أوائل هذا القرن . وشخصية بطل (الجحيم) هي شخصية تقاربني مفهومها ومدلولها العام صورة الغريب الذي يعنيه كولون ويلسون .

وتقوم فكرة الرواية على أن رجلاً قد ترك الريف إلى المدينة . وعمل في وظيفة في أحد مصارف باريس . ويسكن حجرة في أحد فنادق المدينة . وهو رجل متامل مستبطن لأعماق

الذات ، راقب في ادراك الحقائق ، وان كان لا يؤمن كثيرا بالفلسفة وحقائقها ولا يعبا بالدين . على ان الكاتب قد استطاع بطريقة محسوسة أن يضع لنا هذا البطل في موقف يحدد لنا منه موقفه تجاه العالم ، وذلك عندما يقع فجأة على شعاع من الضوء يراه وقد تبعث اليه من الفرفة المجاورة ، فيقف على سريره ويكتشف أن هذا الضوء قد جاءه من ثقب من أعلى الحائط . فكان هذا الثقب بمثابة النافذة الصغيرة التي يطل منها هذا الرجل على العالم الحقيقي ، فأخذ يقف كل يوم على سريره وينظر من هذا الثقب ويشاهد ما يجري بداخل الحجرة المجاورة له ، ويطل على هذه الحال يرقب ما يدور في الحجرة المجاورة كل ليلة حتى مضى على ذلك شهر كامل . واستطاع من خلال هذه المدة أن يشاهد ما يشير غرائزه أحيانا من أوضاع جنسية لامرأة تتجرد من ثيابها ، إلى مناظر أخرى تثير في نفسه ألوانا من المواقف مختلفة ، فيها أحيانا الحنان والحب وذلك عندما يقع بصره على رؤية عاشقين يبيت كل منهما الغرام لصاحبه ، إلى غير ذلك من مشاهد ، على أن الذي يهمنا آخر الأمر أن كل هذا الذي وقع عليه بصره من خلال هذا الثقب هو في الحقيقة مناقض أشد التناقض لما يحدث في العالم الخارجي . نذكر هذه الحقيقة الأخيرة عندما يلتقي هذا البطل في آخر روايته بعولف يتحدث في حفل عام من رواية له ألفها وصادفت نجاحه ويذكر هذا المؤلف أنه قد استطاع بروايته أن يصور الإنسان على حقيقته ، وأن يستخرج لنا كرام النفس الإنسانية ، وذلك حينما جعل شخصية من أشخاص روايته ثقب تقي في حائط غرفته لتشاهد منه ما يقع في الفرفة المجاورة ، وبعد أن ينتهي المؤلف من عرض قصته على الحاضرين في هذا الحفل يعجب الناس بروايته أيما إعجاب . ذلك لأنهم يرون فيها البراهمة كل البراهمة في عرض للطبيعة البشرية من وجهة نظر واقعية . غير أن بطل (الجحيم) عندما يسمع تهليل الجمهور وإعجابه بقصة هذا الرجل يصيبه النفور ، ويقف موقفا سلبيا ، فلا يبدى إعجابه ولا يشارك الجمهور حماسه ، ولا يرى معه أن في هذه الرواية أي مظهر لصدق الحياة الإنسانية.

لقد سبق له أن خبر بنفسه من طريق تجربته طبيعة الإنسان . وعرفها تمام المعرفة ، وأدرك الهوة السحيقة بين ما يخلعه الإنسان على نفسه من مظهر خارجي وبين الحقيقة الكامنة في أعماقه ، وأحس أن طبيعة الحياة في المجتمعات المتحضرة وما تفرضه من سلوك خاص تحجب عن الإنسان حقيقته الأصلية ، ويحاول أن يخدع نفسه بالمظاهر السلوكية ، وبالفلسفة أو بالدين مقنعا كل مافي أعماق ذاته من نزعات وحشية ومن فوضى وكأنه كائن راض عاقل متحضر .

من هذه القصة التي كتبها (باربوس) والتي استعان بتحليلها كولن ويلسون يمكننا أن نتصور صورة الغريب عند ويلسون : أنها صورة الإنسان الذي أدرك اللحظة ما أن كل مشاهد الحياة اليومية وأحداثها إنما تخفى من الإنسان الحقيقة المرعبة التي هي زيف هذا العالم ونساده ، وأن هذا الغريب متى ما وقعت عينه على الحقيقة تفيرت صورة الوجود في نظره ، فامسى وقد انشقق على ذاته وفقد توازنه ، وإذا بهذا العالم يفقد قيمته في نظره .

يشبه موقف الغريب هذا موقف رجل يجلس في دار من دور السينما يشاهد عرضا لرواية ما ، تر أمام عينيه مشاهد الرواية ، الواحد تلو الآخر وهو مشغول بما يرى ، منصرف بوجوداته وأحاساسه إلى ما يدور أمامه من أحداث ، وإذا بالعرض يتوقف فجأة لمطل أصاب الجهل ، وإذا المشاهد التي تدور أمام الرجل تتوقف ، وإذا الرجل يجد نفسه يواجه الحقيقة مرة واحدة فيدرك أن ما كان يدور حوله ليس الحياة ، بل كان مجرد وهم من الأوهام . عندئذ يبدأ هذا الرجل في مجابهة الحقيقة المؤلمة : حقيقة أن كل شيء كان خداما - أن مثل هذا الموقف الذي يعاينه هذا الرجل هو بعينه الموقف الذي يعاينه الغريب عندما يكتشف فجأة أن كل ما حوله في

هذا العالم باطل الأباطيل . من هنا تبدأ مشكلة الغرب وبدأ يتساءل كيف يمكنه أن يقبل الحياة التي قبلها غيره مع علمه بأنها حياة غير حقيقية .

وهنا يتفرع سؤال آخر . ماذا يمكنه أن يصنع بحياة لا معنى لها ولا حقيقة من ورائها ؟ وإذا كان هذا هو السؤال الذي يسأله الغرب لنفسه ، فماذا فعل ويلسون في كتابه الإجابة على هذا السؤال ؟ وكيف تخلص من غربته وهو على هذه الحال من التشاؤم وعدم اليقين ؟ هل رفض الوجود رفضاً مطلقاً ؟ لكي يجيب ويلسون على هذه الأسئلة بدأ يستعرض جملة أشياء ، فعرض علينا أولاً آراء نيتشه في هذه القضية . فبعد أن كفر نيتشه بالفلسفة القائمة على العقل والعقل وحده ، والتي سادت المذاهب الأوروبية في عصره ، وبعد أن رفض فكرة تأليه العقل ، أشفاقاً معاً عساه أن يؤدي إليه هذا التآليه من فصل الفكر عن الحياة . بعد أن أنكر نيتشه كل هذا دعا إلى فكرة الإنسان الأعلى التي تدعو إلى ضرورة العمل على خلق إرادة قوية تدفع بالفرد إلى حياة أكثر فاعلية ونشاطاً وحيوية ، على أن يسخر الإنسان في سبيل ذلك كل طاقاته الجسمية والعقلية والعاطفية . وجاءت فلسفة نيتشه هذه نتيجة للثورة على القوض والفساد الذي ينتشر آنذاك فيشمل جميع نواحي الحياة البرجوازية القائمة على سياسة أنصاف الحلول . فأنها في أساسها فلسفة تنهض على كفر بالواقع ثم التماس الحل في تصور ديني لا يقف العقل فيه منفرداً ، وإنما تشاركه عاطفة وإرادة تسعيان إلى تحقيق حياة أكثر خصوبة وأكثر غنى للإنسان .

وبعد أن ينتهي ويلسون من عرض أفكار نيتشه ينتقل إلى ما حاوله دشتوفسكي في انقاذ الغرب مما يعانيه حين يرى نفسه وجهاً لوجه أمام الشر الكامن في أعماق النفس ، والذي يصيب الإنسان برعب هائل حين يراه . لقد عبر دشتوفسكي في قصة (الأخوة كرامازوف) عن صورة هذا الشر وشغلته فكرة الألم والشقاء التي يعاني منها الإنسان هذه الأرض . فقد أبرز لنا صورة مرضين هما قسوة الإنسان السادية ونقيضها مازوكية المخلوق الضعيف القاسد الذي يستمتع بمذابحه . وليس خافياً عن دشتوفسكي شغفه بتصوير هذين الجانبين من الألم والعذاب في النفس الإنسانية . وكان من أبرز شغوفه الأذى المرضى شخصية إيفان كراما تروف اندلي رفض قبول العالم لما فيه من قسوة وآلم ، وقد حاول إيفان أن يحلل العالم ، وأن ينتهي في تحليله لهذا العالم إلى أن فكرة الألم فكرة مستبدة بهذا الكون ومتغلغلة في أعماقه ، ومن العسير استئصالها ، ومن ثم فهو ألم سرمدي لا ينتهي . على أن دشتوفسكي لا يوافق على هذا التحليل المبني على العقل وحده ، ولا يعتقد أن الموقف العقلي بقادر — إذا عمل منفرداً — على بلوغ الحقيقة وراء هذا العالم . فان رؤية الألم وحده مسألة تعتمد على العقل وينقصها الإيمان . ويوافق ويلسون على هذه النتيجة غير أن ويلسون مع إيمانه بما دعا إليه نيتشه ودشتوفسكي من ضرورة التوفيق بين الفكر والإرادة والعاطفة والقوى الجسمية جميعاً ، وإيجاد الوحدة بين كل هذه العناصر فإنه ما يزال يرى أن مشكلة الغرب تنحصر في افتقاره لهذه الوحدة . ونسود للسؤال من جديد ، ماذا يمكن للغرب أن يفعل إذا كان تفكيره عقلياً صرفاً ؟ تلك هي المشكلة الموبسة التي تجابه الغرب .

على أن تحديد الغرب لمشكلته على هذه الصورة قد مهد السبيل أمامه لحصر ما يحتاج إليه من وسائل الخلاص . أنها إذن مشكلة الإنسان العاقل الذي فقد إيمانه بالله ولم يجد ما يعوضه عن هذا النقص . أنها أزمة العقل المسيطر على إنسان قاضع العقل الصرف مركز الإشعاع العاطفي في الإنسان وهو العقيدة الدينية . من أجل هذا نادى ويلسون بضرورة تنمية ملكة الرؤيا والكشف الصوفي عن طريق الإرادة . ذلك أن العقل الحديث يشك في إمكان حدوث هذه الرؤى إلا إذا كانت شيئاً صادراً عن الإرادة . ومن ثم فإن الرؤيا عند ويلسون ليست رؤيا القديسين

والانبياء ، او ليست هي الرؤيا التي تحدث لانسان كشف عنه الفطام ، وانما هي الرؤيا التي تخلفها الارادة خلقا . وفي مقدور الارادة اذا قويت ان تصبح عاملا حيويا قادرا على احداث الرؤى . من هنا يتضح لنا كيف استطاع ويلسون ان يلتقط من نيتشه ركنا هاما من اركان فلسفته وهي ضرورة تحول الفرد الى قوة دافعة وارادة خارقة تمكنه من تحقيق ما خفي من امكاناته . ومن لم يصبح لوجود الفرد معنى او طعم .

من اجل هذا دعا ويلسون الى تطوير الارادة وتنميتها وبالتالي تطوير ملكة الرؤى وتنشيطها . وهو هنا يتفق مع ما دعا اليه بعض المتصوفة الانجليز ، وما تدعو اليه الفلسفة الهندية . وما انتهى اليه المتصوف اليوناني الحديث جورديف . Gordjeff ويحاول في نهاية كتابه ان يدرس لنا مجمل افكار هؤلاء المتصوفة واحدا بعد الآخر وهو في عرضه لهذه الافكار يكشف لنا عن السبل التي تمكن الانسان من تنمية ملكة الرؤيا عنده . فليس الانسان بقادر على ان يجلو عن نفسه ما يتربيه من صدا او ما يغلف احشائه من سماكة الا اذا ظفر بشيء من السلام النفسي والهدوء الروحي ، فالذي يحجب عن الانسان هذا القدر من الصفاء ليس الا ما يفرق به نفسه من مشاغل ترتبط بالحياة اليومية المادية ، ومن امور تتصل بالسمي للرزق ، وما يتطلبه بقاؤها من الخوض في غمار الحياة العملية .

ومع ايمان ويلسون بان هذه الامور مسائل ضرورية بالنسبة لحياة الانسان على الارض ، الا انه يوافق على ما يدعو اليه وليم بليك وغيره من المتصوفين من ان التأمل الروحي قد يؤلف بين الانسان والوجود . ان مثل هذا التأمل قادر على ان يحرر العقل من سلطان المادة ويجعله يتبع ما ينو حوله من عناصر الطبيعة . وعندئذ سوف يكون لكل شيء معنى روحي ، فالارض والماء والنور والثمار والأزهار لن تصبح في هذه الحالة مجرد ظاهرات طبيعية يستفيد منها الانسان حتى اذا بطل نفعها بطل التفكير فيها ، ولكنها كما تقول الفلسفة الهندية تصبح أشياء ضرورية في تحقيق الوحدة بين الانسان والوجود ، بل وفي تحقيق معنى اكمل . فكما ان كل نعمة من نعمات السحفونية ضرورية لبلوغ كمالها فكذلك كل ظاهرة من هذه الظاهرات الطبيعية ضرورية للوصول الى هذه الوحدة . فقد ادركت الفلسفة الهندية بنظرها الى الطبيعة ان حقيقة هذا العالم موضوع بالغ الاهمية يصحونا الى ان ننشئ علاقة واعية بيننا وبين كل شيء فيه ، والا تكون صلتنا به مجرد صلة الاستطلاع العلمي او المنفعة المادية . واذا كان انسان العصر الحديث او قل المدنية الحديثة يواجه تيار فكر ويركزه نحو حياته الخاصة وما تدور عليه من ربح او خسارة ، ويترك ما عدا هذا من مظاهر الحياة فلا يشغل نفسه بشيء منها وعلى الأخص هذا الجانب الروحي ، فان مثل هذا جدير بان يولد بدوره انفصالا غير طبيعي بين الانسان والوجود . (١)

وهكذا ينتهي ويلسون بعد عرضه لأفكار المتصوفة الى ان فكرة الخلاص من محنة الغربة التي احسن عرضها في كتابه انما هي دينية بتنمية ملكة الرؤى والكشف الصوفية ، وان وصول الانسان الى لحظات الكشف هذه تحرره أولا من التفكير العقلي المجرد الذي اثبت انه غير قادر وحده على ادراك أي معنى حقيقي وراء هذا العالم ، وسوف تساعد ثانيا على ان تتفتح امامه مصادر أخرى لتع كثيرة في الحياة ، لم يكن تفكيره المادي اصراف يمكنه من الاستعانة بها . فاذا اُضيفت الى هذا ان مثل هذه اللحظات الصوفية سوف تسد حاجة عاطفية كانت تنقص الغرب نتيجة ضعف عقيدته الدينية امكنا ان نترك الى أي حد كانت أزمة الغرب أزمة فقدان للايمان ، يظل فيها على حال من القلق والتعلمل والمذاب حتى يظهر شيء يشبع عنده عاطفته الدينية

المفقودة ، عندئذ سوف لا تبقى النظرة الى الشر هي الغالبة على تفكير الغريب ، وبالتالي لن يكون الاهتمام بمشكلة الشر ، والبحث الملح من مبررات هذا الشر هي الشيء الوحيد الذي يملأ على الغريب حياته ، اذ سوف يعود اليه آخر المطاف شيء من الاطمئنان وشيء من الثقة بأن بقية من الخير ما تزال في العالم .

وبعد فهل ثمة من حقيقة يريد ان يثبتها ويلسون بعد هذا العرض المفصل لمشكلة الغريب ؟ واذا كانت فكرة الخلاص هذه هي نهاية المطاف فما الذي يريد بنا الكاتب ان ندركه في النهاية؟ هل استطاع الكاتب ان يثبت على حد قوله : (انهم المكن استنباط موقف ديني استنباطا منطقيا بحثا من موقف فلسفي ، وان الايمان ليس شرطا أساسيا من شروط الدين .) (١)

ان كل ما نستطيع ان نحدد من اسس لفكرة الخلاص هذه يمكن تلخيصه في الآتي :

أولا : ان ويلسون لا يعتقد ان الاعتماد على التفكير العقلي المجرد بقادر على حل مشكلة الغريب ، فان ثمة امكانيات أخرى في الانسان لا بد من استغلالها وتطورها للكشف عن مبررات للشر الذي حاق بالبشرية والذي هو في الحقيقة سر من أسرار أزمة القريب الكبرى ، وان هذه الامكانيات تنحصر في قدرة الانسان على الاستفادة من قوى ثلاث ذكرها نيتشه وأيدها ويلسون بكل اهتمام هي قوة الإرادة وقوة العقل وقوة العاطفة . وان إيجاد الوحدة بين هذه القوى هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسي أو التكامل النفسي عند الغريب .

ثانيا : ان الغريب الذي ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلي الصرف الذي هو ظاهرة عامة في حياتنا المعاصرة ، بحاجة ماسة الى بديل لتشبع عنده العاطفة الدينية ، ويوجد عندها الملاذ الذي يبحث عنه . على ان الموقف الديني الذي انتهى اليه ويلسون ليس منبثقا — كما اوضحنا سالفا — من ايمانه بالله وباليوم الآخر والثواب والعقاب ، وانما هو يعتمد في المقام الاول على فكرة الخلاص وتحرير الانسان من معتقدات وهمية، وعلى الأخص فكرة الخطيئة الاولى التي تسيطر على الانسان المسيحي والتي تقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة . واذن فليس أمام ويلسون فيما انتهى اليه من موقف ديني الا الاعتماد على تدريب قوى الانسان حتى ينتهي الى نوع من ارضاء النابع من الإرادة يكشف بعض جوانب الخير في الوجود ، ومن ثم يحقق له حياة أكثر غنى وأكثر سعادة .

العيب والتعذر واللامعقول عند الوجوديين :

ليس من شك في أننا نستعرض ونحن نقرأ كتاب القريب لكون ويلسون كثيرا من الأفكار والفلسفات والآراء التي نراها شائعة عند الوجوديين منبذ ظهر المذهب في كتابات الفيلسوف الدنماركي كير كجارد الى ما انتهى اليه المذهب عند الكاتب الفرنسي المشهور جان بول سارتر .

ان مشكلة الغريب ذاتها مشكلة وجودية . بل ان الفلسفة الوجودية تبدأ عادة من موقف يشبه موقف الغريب تماما . ذلك ان نقطة البدء عند الوجوديين هي صدمة من الانفعال تهمز الانسان فجأة عندما يدرك ان الحياة لا معنى لها .

وعندما يستغرق الانسان هذا الاحساس المفاجيء يشعر بفريته من هذا العالم . بل ان

(١) راجع عرض وتقد كتاب الغريب ، د . مصطفى يعوى مجلة الآداب عدد ١٩٥٨ مطبعة جامعة الاسكندرية .

كلمة الغربة نفسها اصطلاح عند الوجوديين ، يتردد في كتاباتهم فقد كتب البير كامى (١٩١٣ ~ ١٩٦٠) تحت عنوان (رؤية غربة العالم) يقول :

(لئن كانت الطبيعة مألوفة لدينا ، فذلك لأننا نرسم على سطحها تخطيطات عاداتنا . وأننا لسنا في اتصال معها ، بل مع الأفكار والرغبات التى تلقينا عليها . ان فى ادراك الطبيعة كشفا لما هو من قماش آخر غير الوعى البشرى . ان العالم برى ، اذ ذاك ، كثيفا وغريبا : درجة أقل ، وتبرز الغرابة : ان يدرك أحدنا ان العالم (كثيف) ، ويشعر الى اى حد يبدو حجر ما غريبا ، وبأية قوة تستطيع الطبيعة او منظر ما ان ينكرانا . ان فى أعماق كل جمال يرقد شيء لا انساني . وهذه الرذاي ، وعدوية السماء ، وأشكال الأشجار هذه ، هاهى ذى كلها فى اللحظة نفسها تفقد المعنى الوهمى الذى كنا نلبسها اياه ، وتصبح منذ الآن أبعد من حبة ضائعة . وهكذا تعود البينا عبر ملايين السنين عدواة العالم البدائية ، ففى لحظة واحدة ، تكف عن أن نفهمه ، لأننا طوال قرون لم نفهم منه الا اوجه والرسوم التى كنا تكسبه اياها مقدما ، ولان القوى تنقصنا بعد الآن لاستعمال هذه الحيلة .

ان العالم يغفل منا ، فلا ندركه ، لانه يعود كما كان ، وهذه الزينات التى قمعتها العادة تعود كما كانت . انها تبتمد عنا ... شيء واحد : كثافة العالم هذه وغرابته ذلك هو العبث (١)

ان انعدام المعنى فى الحياة ، والذى يقرره البير كامى فى هذه السطور السابقة ، منشأه فى الحقيقة تلك الغربة التى تحدث عنها كولون ولسون ، بل انهما معا ليمتقدان ان هذا الشعور باللامعنى للحياة هو نقطة البدء التى منها يبدأ الغريب والوجودى مرحلة المجابهة ، مجابهة الواقع الأليم ، التى سوف يتفنىها وجهها لوجه ، اما حقيقة مرعبة يدرك منها المرء كما يقول سارتر أنه (محكوم عليه بالحرية) وفى هذه اللحظة يبدأ العمل الذى قد يكون مرا واليما ، ولكنه الوسيلة الوحيدة لحل مشكلة جديدة لم تكن فى الحسبان ، او بمعنى آخر لم تكن ظاهرة لعين الغريب او الوجودى . ذلك لأننا كما يقول كامى نرسم على سطح الحياة تخطيطات عاداتنا . وهذا الالتقاء بين الانسان وبين حقيقة ذاته او حقيقة العالم من حوله هى ما يسميها الوجودى بلحظة خروجه وخروج الأشياء من انغموس . (٢)

اذن فالقربانية وليقة جدا بين الغربة التى رأيناها عند ولسون وبين الغربة التى يحسها الوجودى . والفرق بين ولسون وغيره من أصحاب المذهب الوجودى ليس الا فى الدراسة التفصيلية او التحليلية للمشكلة نفسها ، كما يكمن الفرق كذلك فى النتيجة التى ينتهى اليها كل مفكر من هؤلاء . فقد يختلف ما انتهى اليه البير كامى مع ما انتهى اليه كولون ولسون ، وقد يختلف كل منهما مع ما وصل اليه سارتر ، وقد يختلف الجميع عما دما اليه كيركجارد ابو الوجوديين . ولكن ذلك كله لا ينفى وجود الشبه الكبير فى الأسس والأفكار التى قامت عليها اتجاهات هؤلاء جميعا .

ولعل من الدلائل الواضحة على وجود هذه الأمتس المشتركة بين هؤلاء المفكرين ان شخصية (اغريب) نفسها كانت موضوعا لقصة كتبها البير كامى وصدرت عام ١٩٤٢ أى قبل ظهور كتاب (الغريب) لوليسون بأربعة عشر عاما ، بل من الذى يشك فى ان ما جاء فى قصة الغريب للبير

(١) كامى وانترود تأليف روبرت دى بويه ترجمة د . سهيل اندريس ص ١٢ ، ١٣ ، العبث لكامى ص ٢٩ ، ٢٠ .

(٢) الفتيان لسارتر ترجمة سهيل اندريس ص ٢٥

كأني ما هو إلا تأكيد وتريد لما جاء في قصة (الفتيان) لسارتر والتي ظهرت عام ١٩٣٨ . فني الفتيان ما في الغريب من رغبة في انكار كل قيمة للحياة ، وفي كل منهما هذا الاحساس بالقلق والتفوق والتصدع ألقام بين الفرد والمجتمع ، وفي شعور الانسان فجأة بأنه غريب ، وبأنه يشرب نفسه دون أن يكون ظمآن ، ومن هنا يأتيه الاحساس بالفتيان . ان (انطون روكتان) بطل قصة الفتيان يقف على شاطئ البحر يلتقط واحدة من الحصى التي حوله لكي يلقي بها في البحر ، وعندما ينظر الى الحصى يتولاه رعب شديد ، فيرى الحصى بعيدا ، ويهرب بعيدا ، وبعدها تتتابع عليه التجارب التي من هذا القبيل . وفي تتابع هذه التجارب تترصه موضوعات غريبة لا يستطيع اذاعها أن يقرر ما اذا كانت هذه الموضوعات ثابتة في حقيقتها أم متغيرة . فقد كان ينظر الى وجهه في المرآة ، وفجأة يرى هذا الوجه وكأنه وجه سمكة ويستمرسل هذا الرجل في اكتشافاته يقول :

(انني استند بكل ثقلتي على حافة الخوف ، وادنى وجهي من المرآة حتى لامسها وتختفي العينان والأنف والقم ، ولا يبقى ما هو بشري قط . تجعلدات سمراء عند كل جانب من انتفاخ الشفتين المحموم ، وتشققات ، جثوات ، أن زغبيا حريريا أبيض يركض على منحدرات الخدين الكبيرة ، وشعرين تخرجان من المنخرين ، أنها خارطة جيولوجية بارزة الخطوط .

وبالرغم من كل ذلك فان هذا العالم القمري مألوف عندي . أنا لا أستطيع القول اني (انصرف) الى تفاصيله ، ولكن مجموعه يعطيني انطباعا لما (سبقت رؤيته) يعود على بالخدر ، فأنسل على مهل في النوم ...

أود أن استعيد السيطرة على نفسي : وان احساسا حيا وحاسما كفيلا أن يحدوني . وما أيقظني فجأة ، هو اني أضمت التوازن ، فإذا بي أجد نفسي راكبا كرسيًا وأنا ما أزال مصابا بالدوار . هل يبذل سائر الرجال مثل هذه الشقة ليحكموا على وجوههم ؟ يخيّل الى أنسى ارى وجهي كما أحس جسدي ، باحساس عضوي أصم .

والذاك اصابتني (الفتيان) فتداعيت للسقوط على المقعد الصغير . ولم اكن اصرافين كنت . وكنت ارى الالوان تدور حولي على مهل . وكانت بي رغبة للتقيؤ .. وهكذا منذ ذلك الحين ، لم يتركني الفتيان ، انه يستولي على (١) .

ليس هذا الاكتشاف المزعج الذي ينتهي اليه انطون روكتان عند سارتر والذي يتلخص في ادراك رغبة الأشياء وماديتها وبالتالي انكارها والتشكك في قيمتها ! ليس هذا هو ذاته ما نراه في (اسطورة سيزيف) للبير كامى ، وفي (مشهد يوم الاحد) الذي يصوره مرسوبل قصة الغريب لكامى ؟

ففي اسطورة سيزيف يلج كامى بصورة خاصة على (رؤية الآلي) ، فان بضعة أسطر شديدة الإيجاز في الإيحاء ، تحمل قوة ما كان قد شوهد واحس بصورة شخصية : نهوض ، ترام ، أربع ساعات في المكتب ، غداء ترام ، أربع ساعات عمل ، نوم . الاثنين الثلاثاء الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت على النمط نفسه وهذه الطريقة تسلك بسهولة وراحة معظم الوقت .

(١) انظر الفتيان ترجمة سهيل ادريس ص ٢٩ ، ٣٠ و سارتر الفكر المقلد الروماني تأليف ايريس مودوخ وترجمة شاكى التابلسي ص ١٠ ، ١١ وما بعدها

وتقابل النمط الخارجي للحياة اليومية آلية حركاتنا ، ان الاعمى ليس هو فقط خارجنا ، بل هو في داخلنا : (ان البشر يفرزون اللا بشري . ففي بعض ساعات الصفاء ، يجعل المظهر الآلى لحركاتهم - تشخيصهم اليماني الفارغ من المعنى - كل ما يكتنفهم بليداً سخيفاً . رجل يتكلم في التليفون خلف باب زجاجي فلا يسمع صوته ، ولكن يرى تشخيصه اليماني الذي لا معنى له ، فيتساءل المرء لماذا تراه يعيش (كل ذلك معاش براحة وسهولة ، الى اليوم الذي يبعث فيه حس العيب العرسي الضيق والاضطراب) (١) .

اما في (رواية الغريب) فيصور مرسو البطل مشهد يوم الأحد وما فيه من رتابة وآلية فيقول :

(وهناك كان مشهد يوم الأحد ، ان الناس في الطريق الى دور السينما : (رويدا رويدا ، اصبحت الطريق خالية بعدهم . واطن ان الافلام كلها قد بدأت آنذاك ولم يسبق في الشارع الا اصحاب الحواتيت والقطط . كانت السماء صافية ولكن لا تلاق فيها .

وأخرج بائع التبغ ، على الرصيف المقابل كرسيًا اقتعدهما وهو يعتمد بلداً على ظهرها . وكانت حافلات الترام غاصة بالركاب مندقائق ، خالية تقريباً الآن . وفي المقهى الصغير ، عند بيارو ، الى جانب بائع التبغ ، كان الصبي يكنس النشارة في القاعة الخالية . لقد كان يوم احد حقاً .

وأدركت كرسى ووضعت على غرار بائع التبغ لاني رايت ذلك أوفر راحة . ودخنت سيجارتين ، ودخلت لأخذ قطعة من الشكولاته وعدت لأكلمها ازاء النافذة . وبعد ذلك بقليل أريدت السماء وحسبت اننا سنواجه عاصفة صيفية . ولكنها ما لبثت ان انقضت . على ان مرور الفريوم خلف في الشارع ما يشبه وعدا بالمطر زاد في ظلامه ، وظللت وقتاً طويلاً أنظر الى السماء ... الخ) (٢)

الست ترى في هذا العرض لما يجري لشخص مرسو ، ولما يدور حوله ، ولما يقع تحت حسبه نوعاً من الوعى الذي قد اتحد بسلسلة الأحداث اليومية الصغيرة ؟ ثم اليس نوعاً من الوعى الذي ينفرد الاحساس بالمعجز والجمود والملل : اكل وشرب ونوم وتدخين ، وأيام تتوالى وكان كلامها صحيفة تقرأها حتى اذا انتهت منها وطويتها انتقلت الى صحيفة أخرى تتردد فيها نفس الكلمات والحروف والمباريات حتى لكأنك تعيش يوماً واحداً متكرراً رتيباً . . . وهكذا تمضي حياة مرسو: شيء لا معنى له . تلك هي الفكرة الأساسية للقصة كلها ، ان الحياة تجري عيماً آلية . منسوجة من ترديد أبدي للحركات والأحداث اليومية، والأفكار الصغيرة والأحاسيس الفجة

ليس هذا التصوير الذي نراه لمشهد يوم الأحد في رواية الغريب لكلامي وهو ذاته ما نراه في تصوير انطون روكتان بطل رواية الثبيان للحصى التي يرميها في البحر وللأمح وجهه التي يراها في المرأة ؟ لم اليس في أسطورة سيزيف من الشعور بالسأم والملل وانعدام المعنى في الحياة ما في كل من الشاهدين السابقين ؟

هذه الخطوط المشتركة عند المعاصرين من أصحاب المذهب الوجودي قد تشير الى ان الأصول الأولى واحدة ، لكن النتائج من غير شك مختلفة على الأقل في الطريقة التي يجب على كل منهم ان يعيش بها فلسفته .

(١) كامي والتعدد ص ١٠ ، ١١

(٢) كامي والتعدد ص ٦٩ ، ٧٠

كلمة وجود

وإذا كان لنا أن نتبع مجمل هذا اللهب وما فيه من تيارات وما يدعو إليه من فلسفات أو أفكار فلا بد لنا من الرجوع إلى أصل كلمة وجود لنعرف من أين جاءت وماذا كانت تعني منذ بداية استعمالها . يقول يسبرز وهو أحد أتباع (كير كيجارد) ومن طائفة الوجوديين المؤمنين : (أن كلمة وجود هي أحد مرادفات كلمة واقع بيد أنها قد انخلت وجها جديدا بفضل التركيز الذي أكدته عليها كير كيجارد فأصبحت تدل على ما أنا إياه بصورة أسامية في نظر ذاتي) (١) .

ويقول يسبرز أيضا : (ليست كلمة وجود إلا إشارة غائبة أن توجهني نحو هذا اليقين ، الذي ليس يقينا عقليا ، ولا معرفة موضوعية ، بل نحو هذا الوجود الذي لا يمكن لأي شخص أن يؤكد له ذاته ولا لدوات الآخرين) (٢) .

ويتضح من النصين السابقين أن كلمة وجود التي أكد عليها كير كيجارد بقوة أكبر من أي فيلسوف آخر ، والذي يمكن لنا أن نعزو إليه فضل اختياريها اختيارا خاصا وتوجيه مدلولها نحو مذهب معين في التفكير . نقول يتضح لنا من هذين النصين أن كلمة وجود إنما تتجه أولا إلى (ما أنا إياه في نظر ذاتي) ومن ثم لا يكون الوجود هو كينونة الشيء بالفعل في هذا العالم فحسب ، وإنما هو أن تتولى الدات صيرورة نفسها إلى الصورة التي تريد . أو بمعنى آخر أن يتولى الإنسان خلق أعماله وتحديد صفاته وماهيته أو صورته بنفسه على ضوء ما يفعله مدفوعا باختياريه الإرادي الحر التابع من ذاته والذي لا يفرض عليه من الخارج .

على أن في الاقتباسين السابقين إشارة مهمة تثير انتباهنا إلى ما تتضمنه كلمة وجود بالإضافة إلى مالا حظناه . فقد ذكر (يسبرز) في عبارته الأخيرة أن (كلمة وجود إشارة غائبة أن توجه الإنسان نحو اليقين الذي ليس يقينا عقليا ، ولا معرفة موضوعية بل نحو هذا الوجود الذي لا يمكن لأي شخص أن يؤكد له ذاته بالدات ولا لدوات الآخرين) .

وفي هذه العبارة الأخيرة مضمون آخر غير الذي ذكرناه في تفسيرنا السابق لكلمة وجود إذ تضيف هذه الكلمات موقفا جديدا هو وصول الإنسان الوجودي إلى دوائر الإيمان العليا .

الوجوديون المؤمنون :

وهذه الإضافة الجديدة تتعلق بالوجوديين المؤمنين الذين من زعمائهم كير كيجارد وكارل يسبرز وجبرائيل مارسيل أكثر مما تتعلق بالوجوديين المحدثين الذين من زعمائهم هيدجر وجان بول سارتر وألبير كامى وسيمون دي بوفوار .

ولقد تأثر كير كيجارد وويسبرز في فكرة تحقيق وجود الإنسان أمام الله بما قاله لوتر في شرحه على (رسالة إلى الرومانيين) من أننا نصلى من أجل ذواتنا وأن علاقتنا بالله لا تقوم في دائرة العقل ، وإنما في رابطة شخصية غير عقلية (٣) .

من هنا أخذ كير كيجارد فكرته من الإيمان (إذ أن حقيقة الإيمان عندى ليست أمرا يقينيا

(١) الفلسفة الوجودية تأليف جان فال ترجمة تيسير شيخ الأرمي ص ٦٠

(٢) الفلسفة الوجودية ص ٨٨

(٣) الرجوع السابق ص ٩٩

قط ، بل هو في صراع مع عدم الايمان بصورة دائمة) وهذه النكرة بالذات سوف تجدها لدى يسبرز ، ان الايمان امر مقلق ، وفي صراع دائم مع ذاته (١) .

ولقد كان (لوتر) يرى ان الشعور بالاثم أو الشعور بالخطيئة هو السبيل الى الايمان او الى الوصول الى ما يسمى بدواء الايمان العليا . وبمعنى آخر ينبغي للانسان ان يمر بعذاب الضمير ، فان عذاب الضمير الناجم من الشعور بالخطيئة هو الذي يحقق ما يسمى (بالوجود امام الله) فان الانسان يجد نفسه حقا امام الله لأول مرة ، عن طريق شعوره بالهوة التي تفصله عنه بالذات .

هذا ما قاله (لوتر) وما تبعه كير كجارد . ولكي نرتب فكرة الوجود عند كير كجارد ونتبعها في تسلسلها الذي سارت فيه نلاحظ أولا أن الوجود غير قابل للتحديد ، وأنه يستعصى على المعرفة الموضوعية (فما من شيء يمكن الاعتماد عليه لتفسير وجودي) . وتبعه في ذلك يسبرز إذ يقول (اننا لا نستطيع ان نتكلم الا عن الوجود الماضي ، أي عن الوجود الذي أصبح موضوعا ، فالوجود يتلاشى اذا لاحظناه) (٢) .

وفي هذه النقطة يخالف كير كجارد ما دعا اليه هيجل الفيلسوف الألماني الذي زعم أن الوجود لا يتعارض مع المنطق ، والذي كون فلسفة تفسر الوجود تفسيرا عقليا ، فلم يجد كير كجارد في تفسير هيجل الفلسفة سطحية ، وهو يرفض أن يصل الى الوجود من طريق أي مذهب فلسفي ، بل لقد ذهب الى أبعد من هذا عندما قال (أنك تلتفني اذا وضعتني في أي نظام أو مذهب فلسفي ، فلست رمزا رياضيا وإنما أنا موجود حي) (٣) .

كذلك هاجم كير كجارد الفكر الديكارتي الذي يعرف النفس عن طريق النظر العقلي فليست الذات أو الأناثة عند كير كجارد متجهة نحو ما يمكن أن يعرفه الجميع ، وإنما الشاعر بالوجود هو الفكر الذاتي الذي يظل في علاقة دائمة مع ذاته بل وفي بلبل حول هذه الذات .

ثانيا : لكي يصل الانسان الى معرفة ذاته بذاته يحتاج الى ارادة وهوى ، وبمعنى آخر الانسان الذي لا ينظر الى ذاته كمعطى من المعطيات بل كائنات ويجب عليه ان يخلق نفسه بنفسه ، يحتاج الى قوتين هامتين هما : الارادة والهوى . وكلمة الهوى الأخيرة هي التي تتولد عند الانسان الوجودي من رؤيته للتناقض بين المتناهي والامتناهي ، كما تتولد من عدم اليقين . أو بعبارة أخرى أن الانسان عندما ينظر الى التناقض بين الذات الصغرى والذات الكبرى سوف يتولد لديه هذا الهوى الذي يجعله دائما في بحث عن ذاته .

ثالثا : لكي يصل الانسان الوجودي الى مقام الله لا بد أن يمر بتجربة قاسية ، لا بد أن يمر بحالة الشعور بالاثم ، والشعور بالاثم هو في الحقيقة شعور بأنه أمام الله ، وأذن فمن طريق الالم يدخل في الحياة الدينية وبالتالي يقف أمام الله .

ومن هنا نلاحظ التشابه بين كير كجارد ونيتشة ، فان فلسفة كل منهما تبدأ من موقف الانسان الغريب الذي يحاول اكتشاف نفسه عن طريق خوض تجربة قاسية يجابه فيها غرابية هذا العالم ، ويستعين في الخلاص منها بتسمية قوتين هامتين في الانسان هما الارادة والهوى عند

(١) الرجوع السابق ص ٦٠

(٢) الفلسفة الوجودية ص ٦٢

(٣) الرجوع السابق ص ٦٢

كيركجارد أو الإرادة والماطفة عند نيتشه . على أن كيركجارد كان عميق الدين إلى جانب ذلك كله ، وكان يرى أنه من الممكن للإنسان أن يعرف (المطلق) أو أن يكون على صلة به بشدة هذا الهوى وهذه الإرادة . هذه هي مجمل الفكرة التي تقوم عليها فلسفة الوجوديين المؤمنين وعلى رأسهم كيركجارد .

❖ الوجوديون المحدون :

أما الوجوديون المحدون الذين لا يؤمنون بوجود إله ، والذين من زعمائهم جان بول سارتر ، والبير كامى ، وسيمون دي بوفوار فإن فلسفتهم تقوم على نفس الأساس الذي قامت عليه فلسفة كيركجارد . فإذا رجعنا إلى القسم الأول من تفسير كلمة الوجود والتي قلنا فيها : أن الوجود ليس كينونة الشيء بالفعل في هذا العالم فنحسب ، وإنما هو أن تتولى الذات صيرورة نفسها إلى الصورة التي تريد ، أو بمعنى آخر أن يتولى الإنسان خلق أعماله ، وتحديد صفاته ومباهيته أو صورته بنفسه ، على ضوء ما يفعله ، مدفوعا باختياره الإرادى الحر الناتج من ذاته والذي لا يفرض عليه من الخارج . نقول : إذا رجعنا إلى هذا التعريف نجد أنه الأساس لفلسفة الوجوديين المحدين تماما كما كان أساسا لفلسفة كيركجارد ومن تبعه من الوجوديين المؤمنين مع فارق واحد هو أن هذا الأساس لم ينته عند سارتر وكامى كما انتهى عند كيركجارد . فإذا كان الأخير قد أنهى تفكيره إلى الوجود (المطلق) أو إلى (الذات العليا) أو إلى مقام الله - فإن الآخرين قد خالفوا في هذه النتيجة : فبينما اتجهت إيجابية سارتر إلى (الفعل الملزم) فجدد كامى يظل على موقفه من عبثية هذا العالم ، فواجب الإنسان الوجودى عنده أن يظل على ما هو عليه من الشعور بالتفوق والفنيان والفربة .

على أننا إذا أردنا أن نجعل فلسفة سارتر وكامى كما أجملنا فلسفة كيركجارد عن فكرة الوجود - دون أن نلج بالتفاصيل الكثيرة المعقدة التي تتفرع منها والتي كثيرا ما تدفع الباحث إلى متاهات قد يصعب عليه إذا خاض في جزئياتها أن يتمكن من الإلمام بأصولها . نقول إذا أردنا تحديد الخطوط الرئيسية لهذه الفلسفة في غير تشعب ممل فأننا نجعلها فيما يأتى :-

أولا : ما دام الأصل في الوجود هو أن تعرف نفسك بنفسك ، وما دام الإنسان قبل كل شيء ليس ما كان بل ما يكون عليه بالفعل ، وما دام هو المسئول أولا وأخيرا عن خلق أعماله ، وتحديد صفاته بإرادته الحرة المختارة فقد لزم أن ينتزع الإنسان نفسه من ماضى القطيع البشرى كله ، وأن يعيد النظر من جديد في هذا المجتمع الإنسانى وفي قيم العالم الذى يعيش فيه ، وأن يبدأ في مناقشة وأمية مدركة حرية كيانه وذاته من ناحية ، ولكل ما يحيط به في هذا العالم من آداب وتقاليده وعقائده وفلسفات من ناحية أخرى .

وهذا الانسلاخ الذى يقوم به الإنسان الوجودى عن كل ما هو معروف متداول ومسلم به ، سوف يسلمه بطبيعة الحال إلى بداية خطيرة . تقوم على الشك في التراث وفي كل ما يدور حوله من أعمال ومن عقائد ومن تقاليد ومن فكر حتى ينتهي به الأمر إلى انكار ذاته ، وانكار العالم ، والوصول إلى العدم .

ثانيا : هذا الفراغ وهذا العدم الذى ينتهى إليه الإنسان الوجودى سوف يوقفه وجهسا لوجه أمام حرية مربعة أو كما يقول سارتر سوف يجعله هذا الفراغ يدرك فجأة أنه (محكوم عليه

بالحرية (١) ولا يسعنا إلا أن نهنئ سارتر على هذا التعبير الممتاز حقيقته لأن الموقف ليس موقف حرية عادية . انه موقف الإنسان وقد تجرد من كل رابطة أو خيط يصله بشيء فهو في الفراغ بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فليس ثمة شيء يمكن أن يعتمد عليه اللهم إلا اختياره الذاتي المحض ، وتصرفه الشخصي أو ما يمكن أن ينبع من ذاته هو ، إذ لا يمكنه أن يندفع في هذه الحالة بإرادته ولن يفرض عليه عندئذ شيء من الخارج .

✦ الحرية عند الوجوديين :

والصعوبة الحقيقية في هذه الحرية ليست في أنها هدمت كل شيء واتكسرت كل شيء وأسلمت الإنسان إلى التفرق والغثيان والرغبة في القبيح والشعور بالعبث فحسب ، وإنما الصعوبة الحقيقية هي في مدى إمكان استغلال هذه الحرية في التغلب على هذا الوجود الأحمق الميؤس منه ، وانتشال الإنسان من هوة القنوط إلى قمة الأمل ، أو من انسان مغلوب على أمره ضائع إلى انسان قادر على أن يتغلب على نفسه ، بحيث يصبح في نهاية الأمر هو حرية نفسه . أو بمعنى آخر يصبح انسانا يجعل من حريته مبدأ يتحدد على هديه كل ما يتعلق بسلوكه وسيرته وتاريخه ومواقفه مع الجماعة التي يعيش معها .

(فالإنسان الحر ، في رأى سارتر ، هو الذي يتحمل مسئوليات نفسه في الوضع الذي تلقى فيه تيارات المصادفات ، وهو الذي يكسب مصيره معنى معيناً بتصرف مطلق من ضميره ، فإبداً كل ما يريف الضمير من خرافات ، وعقائد وهمية وسلطان على الفكر) (٢) .

وإذن فإيجابية هذه الفلسفة منحصرة ، في هذا الجزء الأخير من القضية ، ونعني به أن تخلق الحرية وجود الإنسان ، وأن تحقق له من القيم ما يجعلها حرية خلاقة ، وإلا فإنها تنقلب إلى معول للهدم ، وتبقى على هذه الحال لا تخرج منها . كما أنها لا ينبغي أن تكون حرية فردية ذاتية لا تهتم بحرية الآخرين ولا تلقى بالا لها . وهذه الناحية الإيجابية بالذات هي الجسدية بالإيضاح ، لأن كثيراً من الهجوم الذي وجهه خصوم الوجوديين لهم ينصب على فكرة الالتزام وفكرة الحرية أكثر من غيرها . فقد ذهب خصوم الوجوديين إلى أن هذه الحرية التي يدعون إليها أن هي إلا نوع من الحرية المطلقة تنتهي إلى الفوضى المدمرة ، والشعور بالفردية المطلقة لا يمكن أن يؤلف مجتمعاً ، زاعمين أن الفرد في المجتمع سوف ينقلب في هذه الحالة إلى فرد متنافر مع الفرد ويأبى أن يقبل منه أي فكرة ، ومن ثم يتحول المجتمع إلى مجتمع غير متماسك ، ولكن سارتر قد رد على خصومه هؤلاء فقال :

(والذاتية التي نصل إليها ليست ذاتية فردية لأن الإنسان ، كما بينا ، يكشف بالكوجيتو : (أفكر إذن أنا موجود) من ذاته ومن ذات الآخرين أيضاً . فنحن نرى ، بعكس فلسفة ديكرات أو فلسفة كانت ، أن الكوجيتو يجعلنا ندرك ذاتنا أمام الإنسان الآخر ، ونسردك أن وجوده ، بالنسبة إلينا ، أكيد كوجودنا نحن .

إن الإنسان الذي يدرك ذاته بالكوجيتو ، يكشف أيضاً عن وجود الآخرين ويكشف عنه بمثابة شرط لوجوده الذاتي . انه ليس بشيء إذا لم يعترف به الآخرون كذلك ، (ليس خفيف النال أو ثقيله أو رديئاً أو صالحاً) وإذا رمت حقيقة ما تتعلق بلدائى ، فلا يمكننى الحصول عليها

(١) الوجودية فلسفة إنسانية ص ٢٥

(٢) للشرح الفرنسي المعاصر ص ١٥٩

الا بواسطة الآخرين ، ليس هذا شرطا لوجودى فقط ، بل هو ايضا شرط للمعرفة التى اكونها من ذاتى .

وهكذا يكون اكتشافى لصميتى فى هذه الشروط اكتشافا للآخر ، من حيث هو حرية موضوعية أسمى ، ومن حيث هو كائن لا يفكر ولا يريد الا بالنسبة الى ، سلبا كان أم إيجابا . أما نتيجة ذلك فهى أننا كشفنا عن عالم ندموه بعالم الذاتية المتبادلة Inter - Subjectivire وهو عالم يقرر فيه الإنسان كبنوة الآخرين أيضا (١) .

ويقول سارتر فى موضع آخر عن حرية الآخرين : (ان الحرية من حيث هى تعريف للإنسان ليست متعلقة بحرية الآخرين ، ولكن الالتزام يحتم على بذاته أن اختار حريتى وحرية الآخرين فى آن واحد ، أنه يجعلنى لا أستطيع اعتبار حريتى غاية دون أن أدمج فى تلك الغاية حرية الآخرين) (٢) .

ومفهوم هذا الكلام ان ليست الحرية الفردية مطلقة بالمعنى الذى يبيع للفرد ان يفعل ما يحلو له بغض النظر عن اى اعتبار ، ولكنها حرية اختيار واعية بما يجب أن يسلكه الفرد ، بما يمليه عليه كل موقف من المواقف . وعندئذ يكون الوجودى مستقلا فى اختياره أولا وملتزما بكل ما يحيط به من ملاسبات موقفه ثانيا . فكان الحرية هنا لا تتحقق الا بالالتزام ، والا بما يمليه الموقف على الرء من سلوك ازاءه . كان سلوك الإنسان الوجودى مرتبط بإدراكه لكل الملاسبات المحيطة به ومرتب كذلك بوجود الآخرين . على ان تكون له وحده فى النهاية حرية الفصل والبث فى كل موقف على حده ، فهو الذى يحدد طريقة تصرفه ، وهو الذى يكشفها لنفسه .

على ان الكلمات السابقة لسارتر تضيف هنا اضافة جوهرية فى مفهوم علاقة الإنسان الوجودى (بالآخر) ، وكلمة الآخر هنا تعنى الإنسان الذى يعيش الى جانبنا او فى مجتمعا والذى له علاقة بنا ، ان سارتر عندما حدد العلاقة المئوية التى تنشأ بين الإنسان الوجودى والاخر لم يهمل الإشارة الى ان هذه العلاقة ، على رغم ايجابيتها وفعاليتها ، لا ينبغي لها بحال من الأحوال ان تهبط بنا الى الموضوعية السلبية او الى انكار حريتنا الفردية أو كبتها أو كتمانها ، وهذا بالضرورة واضح من البدا الاساسي لفكرة الاختيار الحر الملتزم التى ترفض الخضوع للأخلاق العامة . فلا وجود عند سارتر للأخلاق العامة التى تستطيع ان تدلك على الواجب لانه على حد قوله لا وجود فى هذا العالم لإشارات قابلة للتأويل ، وإذا كان الكاثوليكيون يجيبون بالعكس : ان هناك إشارات . وإذا سلمت معهم بذلك فالذى يعطى هذه الإشارات معناها هو كل واحد منا على هواه (٣) .

ويزيد سارتر المسألة إفصاحا عندما يضرب لنا هذا المثل الطريف فى بيان حرية الاختيار المتتمة فى غير خضوع للأخلاق العامة يقول :

(سأذكر لكم الآن حالة أحد تلاميذى الذى جاء فى الظروف الآتية/ لهذا الشاب أب متخاصم مع زوجته ، ومتعاون مع الأعداء . وكان له أخ قتل فى الهجوم الألماني سنة ١٩٤٠ . وكان يريد الانتقام له ، مدفوعا بعواطف بدائية نوعا ما ولكنها عواطف كريمة . وكان هذا الشاب يعيش وحيدا مع والدته التى كانت تتمزى به عن خيانة زوجها وعن مصيبة ابنها القتل .

(١) الوجودية فلسفة إنسانية ص ٤٢

(٢) الوجودية فلسفة إنسانية ص ٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١

وكان على هذا الشاب أن يختار وقتئذٍ إحداهما/ فلما أن يلتحق بالقوات الفرنسية الحرة في إنجلترا ، وأما أن يبقى بجانب والدته ليساعدها على الحياة .

لقد كان يدرك أن والدته تحيا بوجوده معها ، وأن غيابها أو موته سيلقيها في لجة اليأس . وكان يدرك أيضا أن كل عمل يقوم به تجاه والدته له قيمته وصدده . بمعنى أنه يساعدها فعلا على الحياة ، أن أية خطوة يقوم بها للذهاب إلى القتال قد تذهب سدى وتضيع لأنه قد لا يستطيع الالتحاق بالقوات المحاربة . فانه قد يبقى مثلنا سجيناً في إسبانيا إذا حاول المرور في أراضيها أو موكلاً بعمل كتابي بسيط في الجزائر إذا ما حاول الفرار أولاً إلى شمال إفريقيا . أنه أخيراً ، كان أمام نوعين مختلفين من الأعمال أحدهما غير مباشر لكنه موجه إلى فرد واحد ، وثانيهما موجه إلى مجموعة أوسع امتداداً بكثير ، وهي المجموعة القومية ، ولكنه بسبب ذلك عمل معرض للانقطاع والفشل .

كان الشاب في ذلك الوقت يتردد بين نوعين من الأخلاق : أخلاق التعاطف والتضحية الفردية ، وأخلاق أوسع لكنها ذات فاعلية أقل ضماناً من فاعلية الأولى . وكان على ذلك الشاب أن يختار أحد الاثنين . فمن يستطيع أمانته في ذلك ؟ العقيدة المسيحية ؟ كلا . فانها تقول : (كونوا محبين للقرىب وضحوا بأنفسكم في سبيله ، اختاروا دائماً الطريق الأكثر صعوبة من غيره) . ولكننا نتمسك هنا : أية الطرق هي الأكثر صعوبة من غيرها ؟ ومن يجب محبته كقرىب ، الأم أم القتال في الجبهة ؟ وأين الفائدة الكبرى ؟ أم في المقاتلة مع مجموعة كبيرة وتكون الفائدة عندئذٍ غامضة أم أنها في أمانة كائن معين على الحياة وتكون الفائدة عندئذٍ محددة ؟ ومن يقرر في كل ذلك بصورة قلبية ؟ لا أحد ولا أية أخلاق مكتوبة .

فالأخلاق الكاثنتية تقول : لا تعاملوا الآخرين مطلقاً بوصفهم وسائل بل غايات . حسناً فاني إذا بقيت بجانب والدتي ، أعاملها من حيث هي غاية لا وسيلة وقد اكون في هذه الحالة معاملاً للدين مقاتلون حولي كما لو كانوا وسيلة . وإذا التحقت، من جهة ، بأولئك المقاتلين ، أعاملهم معاملة غاية، وعرضت نفسي في آن واحد لمعاملة والدتي معاملة وسيلة .

فإذا كانت القيم غامضة ، وإذا كانت دائماً أكثر اتساعاً من الحالة المعينة المشخصة التي ذكرناها فلا يبقى لدينا سوى الالتجاء إلى غرائزنا . وهذا ما حاول صنعه ذلك الشاب ، إذ أنه كان يقول : المهم في الأساس هو العاطفة ، وما يجب أن اختاره هو الذي يدفعني نحو اتجاه معين . فإذا شعرت بأنني أحب والدتي حتى أضحي في سبيلها بكل ما تبقى من رغبة في الانتقام والعمل والمغامرة ، بقيت بقرىبها . أما إذا شعرت بأن حبي لوالدتي ليس بكاف تركتها وذهبت . ولكن كيف يمكننا أن نحدد قيمة عاطفة ما ؟ وما مصدر قيمة عاطفة الشاب نحو والدته ؟ هو بالضبط ، مجرد بقاءه لأجلها . فاني أستطيع القول مثلاً : أحب صديقي لدرجة أنني أضحي ببلغ من المال في سبيله ، ولكنني لا أستطيع القول بذلك إلا إذا ضحيت فعلاً بالمال . وهكذا فاني أقول : أحب والدتي لدرجة أنني أبقى بجانبها إذا كنت بقيت فعلاً بجانبها ، وهكذا فاني لا أستطيع تعيين قيمة هذه العاطفة إلا إذا قمت بالضبط بفعل يؤكدها ويعرفها . ولكنني لما أطلب من هذه العاطفة تبرير قلبي بالذات فاني أرى نفسي واقفاً في حلقة مفرقة .

ولمكم تقولون : إن ذلك الشاب يستشير أستاذه على الأقل . ولكنكم إذا استشرتم كاهناً مثلاً ، فأنتم تعلمون نوماً ما ، عند اختياركم إياه ، شكل النصيحة التي ستأخذونها منه . وهذا يعني أن اختيار المرشد هو بعد ذاته التزام . والبرهان على ذلك أنك لو كنت مسيحياً لقلت :

استشر كاهنا . ولكن من الكهنة من يتعاون مع الألمان . ومنهم من يقاوم المحتلين ، فابهم بختار ؟ فإذا اختار الشاب كاهنا مقابوا للعدو أو آخر متعاوننا معه فهو قد قرر نوع النصيحة التي سيأخذها . وهكذا فعندما أتى ذلك الشاب الي كان عالما بالجواب المنتظر وهو جواب واحد : أنت حر لتختار وتنتكر ، فلا أخلاق عامة تستطيع أن تدلك على الواجب لانه لا وجود في هذا العالم لأشارات قابلة للتأويل . ولكن الكاثوليكيين يجيبون بالعكس : ان هنالك اشارات . وإذا سلمت معهم بذلك فالذي يعطى هذه الاشارات معنى هو كل واحد منا على هواه . (١)

ولعل هذا المثل الذي حرصنا على أن نسوقه بكامله يوضح لنا ، بما لا يدع مجالا للشك ان الانسان الحر هو الانسان الذي يتصرف بمحض اختياره في الوضع والموقف الذي تلقى فيه تيارات الظروف ، والمصادفات واحداث الحياة وهو في هذا التصرف يراعى كل الظروف الممكنة وكسل الاحتمالات المتوقعة ، ويناقشها بينه وبين نفسه ، واضعا في الاعتبار علاقته بالآخرين . على ان الذي يحدد اقرار النهائي بالنسبة لأي موقف من المواقف هو ما يمليه ضمير الانسان الحر بغض النظر من أي ضغط يفرض عليه من الخارج . وحتى لو ضغط عليه فهو ملتزم ومختار ومسئول عما يفعل .

والآن ، وقد فرغنا من أجمال الاسس النظرية لفكرة الوجود والحرية والالتزام عند سارتر نجد من المفيد أن نوجه البحث الى بعض ما جاء في أدب سارتر وفي مسرحه بالذات لتتروى الى أي جد برزت هذه الاتجاهات النظرية في ادبه .

مسرحية اللبالب لسارتر :

ظهرت هذه المسرحية عام ١٩٤٣ . وهي من هذا النوع من المسرحيات التي يتخذ الموضوعات القديمة أساسا لها ، فقد اعتمد سارتر في هذه المسرحية على الأسطورة اليونانية القديمة ، أسطورة الكترا التي عالجها إيسكيلوس ، وصوفو كليس والفيبري ، وجيروودو عام ١٩٣٧ ، وغير هؤلاء . الا ان سارتر في تناوله لهذه الأسطورة قد خالف هؤلاء جميعا ، اذ استطاع أن يلتمس من أحداث القصة وقائع الاسطورة سبيلا الى التعبير عن فلسفته ازاء العمل الحر الملتمزم ، وازاء فساد هذا العالم وانحلاله ، كما استطاع أن يلتمس من الأحداث وسيلة لتحرر الانسان من المعتقدات الوهمية المتوارثة ، والتي تروخ على نفوس البشرية كما يروخ ، الكابوس ، والتي لا تفنأ تطلق على الناس أشباحا من الخيال تعوق حريتهم وانطلاقهم .

هذا وقد اختلف تناول سارتر لهذه الأسطورة من غيره في اعتماده على مسرح المواقف أكثر من اعتماده على تحطيل الشخصيات ، فالإبطال في مثل هذا المسرح شخصيات تقع في مأزق ، وتتوقف حريتها على الموقف الذي تختاره للخروج من هذا المأزق . فالمسرحية في جملتها حريصة على أن تكشف لنا في كل شخصية الانسان المبتكر لنفسه بابتكاره للمخرج الذي يختاره للخروج من مصيدة القنران التي يقع فيها . على أن مثل هذا النوع من المسرح لا نلجد فيه شخصا متميزة بألوان نفسية محددة . ففي المسرحية آدميون واقميون لهم مشاكلهم ، وعندهم امكانياتهم كما ان لهم التفانياتهم الدهنية ، وعلامتهم النفسية ، غير أننا عندما نقول ان العناية بالموقف كانت السمة البارزة في مسرحيات سارتر لا نلتمس بذلك أفغال ما في مسرح سارتر من عناصر أخرى هامة منها صراع الأفكار . فليس من شك أنك حين تقرأ سارتر سوف تجد نفسك أمام نوع من الدراما

الفنية بالفكر الذى يحتاج منك الى الرجوع الى فلسفات الوجوديين وغيرهم لمعرفة ما تقوم عليه من أسس ، كما ستحتاج كذلك الى تتبع نوع جديد من الصراع بين الوعى الفردى التحرر و بين طغيان مجتمع يتقاليده البالية الخائفة .

ولكى نحلل مسرحية اللباب لسارتر ونكشف من خلالها كل ما أجملناه من خصائص هذا المسرح الجديد يجدر بنا أن نقف لحظة عند موضوع الأسطورة التى اتخذها الكاتب أساسا لموضوعه وفكره وصراعه الجديد .

تتلخص الأسطورة القديمة في أن أجاممنون حاكم (أرجوس) كان بطلا وقائدا للحملة اليونانية على طروادة ، ولقد أظهر في هذه الحملة شجاعة تثير إعجاب معاصريه . على أن أجاممنون قد اضطر رغم شجاعته تلك أن يقترب بعض الأخطاء نتيجة لمظاهر ضعف انسانية لا يسلم منها أى بطل من أبطال الآسى . من هذه الأخطاء أنه عندما كان في طريقه لحصار طروادة فضبت الالهة فأرسلت رياحا هوجاء عوقت من سير الأسطول اليونانى الى طروادة ، فابتدل الى الالهة أن توقف هذه الرياح ، ولكن يكسب رضا الالهة قدم ابنته (أفيجنى) ذبيحة وقربانا ، وتسير أفيجنى الى الموت في شجاعة فيمتلىء صدر كليتمسترا زوج أجاممنون سخطا على ما اتاه زوجها من عمل فظيع حين ضحى بابتنه على هذه الصورة . وعندما يعود أجاممنون من الحرب متوجا بالنصر والفخار يجد زوجته الساخطة عليه تتأمر هى وعشيقتها (إيجست) على قتله ويتم لها ما تريد . وكانت لأجاممنون ابنة أخرى تدعى (الكترا) وابن اسمه (اورست) فيقع على الاثنين عبء الانتقام لآبيهما من امهما وعشيقتها ، ويقتل اورست الأم وعشيقتها معا .

هذه هى مجمل الأسطورة التى اعتمد عليها سارتر ، وتد حافظ عليها واستبقاها كما استبقى شخصها القديمة متخذاً من شخصيتي اورست والكترا موقفين متناقضين : موقف القتى الثرى النبيل المحنك الذى طاف بالبلاد وتعلم مما صادفه فيها من تجارب أدركه من طابع البشر ، وما اكتشفه من حقائق عن الحياة والوجود ، فهذه هذا كله الى التفكير الحر ، وساعده على ذلك أن رأى نفسه بلا أسرة ولا وطن ولا دين ولا مهنة ، فبدأ بذلك انسانا حرا تمام الحرية فيما يفعل وفيما يلتزم . اما الكترا شقيقته فعلى الرغم مما عانت من تماسة وشقاء بمصاحبتهما لأمها وزوج أمها ، وما لقيت معهما من صنوف الاحتقار والأزدراء ، وعلى الرغم مما تحسه دالما من فظامة الامم الذى ارتكبته أمها وعشيقتها ، ورغبتها الملحة في الانتقام منها ، وعلى الرغم من انتظارها في قلق لعودة أخيها ، وما قامت به من دور في اقناعه بضرورة الأخذ بثأريها ، وتخليصها من وطأة ما تشعر به من مسئولية الانتقام ، على الرغم من كل ذلك فان شخصية الكترا ظلت طرفا مقابلا بل ومتناقضا لشقيقتها ، وذلك في الموقف الذى اتخذته آخر الامر . اثم الجريمة التى ارتكبها أخوها اورست عندما قتل امه وزوجها . فلم تستطع الكترا أن تنجو كما نجح أخوها اورست من أشباح الندم التى لا حققتها في قسوة ، والتى ورثتها مع ما ورثت من مدينتها الواقعة تحت تأثير الندم منذ مقتل أجاممنون . ذلك الندم الذى يصور الكاتب أشباحه بحشود من اللباب الذى يحط على ما في القلوب الفاسدة من نتن وفسن . وهكذا تقع الكترا اسيرة لأشباح الندم هذه ، وتبقى قبضة العقائد والتقاليد لا تستطيع منها فككا ، لأنها مشدودة اليها بقوة العادة ، وتضيق صيحات اورست لآخته هباء . فميشا يحاول أن يخلصها من الوهم المسيطر على مشاعرها ومن ارتعاضها المرعب أمام الجريمة . وانظر الى هذا الصراخ الذى ترسله الى جوييتر طالبة الصفع والغفران ، وتقول مخاطبة أخاها :

(اننى لا أريد أن أسمعك بعد ، انك لا تقدم لي الا المصيبة والأشعثار ... النجدة !

النجدة ! يا جويستر ، يا ملك الآلهة والشر ، يامليكي ، خدني بين ذراعيك احملني ... احمني اننى سأبقي شريرتك ، سأكون عبدتك وملكك وسامانتي قديمك ، ركبتك .. احمني من اللذباب ، من أخي ، من نفسي ، ولا تمنني وحيدة ، انني سأكرس حياتي كلها للتكفير ... اننى أوب ، يا جويستر ، أوب) (١)

اما أورست فانه على التقيض من أخته ، لقد جاء الى مدينة (أرجوس) بعد موت أبيه بخمسة عشر عاما فيجد (ايجست) زوج أمه وقاتل أبيه يتربع على عرش (أرجوس) المدينة اننى تركها وعمره ثلاث سنوات ، ولا يكاد يدخل أورست الى هذه المدينة حتى يواجه بشيء فظيع لم يعهده في أى مدينة مر بها من قبل ، فقد رأى (ايجست) يفرض على أهل (أرجوس) حياة ملؤها اللعن والخوف والندم ، فمئذ اغتيال أجامنون والمدينة برمتها تصرخ من اجله . وحتى لا تنسى المدينة صراخ احتضار ملكهم أجامنون فرض عليهم ايجست هذا الصياح ، صياح التكفير من اللذنب في كل عام ، فقد اختير بقار ذو صوت قوى ليصيح في ذكرى سنوية في قاعة القصر الكبرى ، ثم تطلق الموتي من قبورهم في يوم عيد يخرج فيه الناس جميعا لاستقبال موتاهم الذين يصعدون من الأرض كبخار هائل من الكبريت تطرده الريح ، وينتشرون في ضباب كثيف عبر الشوارع لتنسل قوافلهم المؤدحة بين الأم والطفل ، بين الماشق وعشيقته ، ثم يقف الأحياء في رعب هائل يطلون الصفح من هؤلاء الموتي على ما اقترفت أيديهم من الأثام والخطايا ، ويبدو الهي أمام الميت كأنه فريسة سعيمة حية يتقضى عليه وينتهزها حتى العظم .

كان ذلك كله يتم بتدبير من (ايجست) الذي أراد بذلك ان يمنع سكان ارجوس من التفكير في جريمة القتل التي ارتكبتها ، وأن يحول بينهم وبين فكرة الانتقام منه ، فاخذ يفرق المدينة كلها في هذا الشعور باللذنب الذي أبرزه سارتر في صورة حسية رائعة ، حين جعل الأحياء يخرجون على هذه الصورة المزرية يعترفون بأخطائهم ويجدون في الرعب والعذاب والخوف من الخطيئة للذة يستمرنونها ، وضريبة من الملك تفرض على الشعب فرضا حتى أصبحت تقليدا سنويا وعيدا رسميا للدولة . ولقد أحسن أورست تصوير هذه الحال بكلماته العبارة الساخرة حين رأى ما رأى من مشاعر الندم المتوقفة الى كل ركن من أركان المدينة فقال :

(حقاً ؟ جدران ملطخة بالدم ، وملايين من اللذباب ، رائحة مجررة ، وحرارة حشرات ، وشوارع مقفرة ، وذب ذو وجه مسحوق ، وبقايا ملعورة تضرب صدورها في جوف ييوتهما . وهذا الصراخ ، هذا الصراخ الذي لا يطاق - اهلاً ما يروق لجويستر ؟) (٢)

ولم يكن أورست حتى هذه اللحظة التيالتقى فيها بهذا الجو الغريب عليه قد اكتشف كيانه بعد ، لم تكن بين يديه غير هذه الحرية الهزيلة حرية الخيوط التي تنتزعها الريح من نسيج العنكبوت ، والتي تتطاير على ارتفاع مشرة أقدام من الأرض ، انه على حد تعبيره ، لم يكن بزن أكثر مما يزن الخيط ، ويعيش في الهواء . . . ولكن هذه الحرية الواهية الضعيفة لم تلبث أن تحولت عند أورست بعد أن واجه الحقيقة ، وبعد أن وجد نفسه ملتزما بفعل لا بد من تحقيقه ، لم تلبث أن تحولت هذه الحرية الواهية الى عمل واثق ، فقد وقع في مأزق ، ولا بد له ان يحقق حريته من طريق الآخرين وفي مواجهتهم . فقد أدرك أن العمل الذي لا بد ان ياتيه لكي يحقق لنفسه وجودها ، ولكي يقيم لنفسه كيانا حقيقيا هو قتل (ايجست) قاتل أبيه ، فيمقد المزم على

(١) مسرحيات صالتر ص ٩٥

(٢) مسرحيات صالتر ص ١٤

ذلك بضمير واع يقظ ، وينفذ ما عقد العزم عليه دون أن يتنابه الخوف أو يسيطر عليه شعور بالندم ، فقد ضرب حريته وهو على ثقة تامة بقيمة ما يفعله ، وهو قد ارتكب جريمته وواجه الاله جوييتير في غير تردد أو خوف .

وهكذا يبدو لكل من يقرأ مسرحية الدياب كيف استطاع سارتر في حدود تحليله للموقفين المتناقضين ، موقف أورست المبتكر النابع من نفس حرة نفضت عن كنفها كل ما تفرضه العقائد والتقاليد والأوهام من سيطرة على الفرد ، وبين موقف أهل (أرجوس) الذين يرضون تحت وطأة الندم وينحازون في غير حرية ولا اختيار إلى ما فرض عليهم فرضاً ، وما يساقون إليه سقوا . أما أورست الذي أفرغه أن يرى ضمائر سكان أرجوس مكبلة بالندم ، فقد حطم هذه القيود ، وأبى أن يصيبه الداء المستشري بين الناس ، وبني لنفسه كياناً مستقلاً يكشف عن جوهره ، ضارباً عرض الحائط بكل ما كان يوهن من حريته ويضعفها في الماضي . وانظر إلى هذا الحوار بينه وبين (جوييتير) رب الأرباب :

أورست : أنا لست السيد ، ولا العبد ، يا جوييتير . اننى حريتى ! فما كنت تخلقنى حتى كفت من أن أخصك .

الكترا : استخلفك بأينا يا أورست ، لاتصف التجديف إلى الجريمة .

جوييتير : اسمعها ، وافقد الأمل في أن تستردها بحججك : ان هذه اللهجة تبدو جديدة بما فيه الكفاية على سمعها - وهي تصدها بما فيه الكفاية .

أورست : وعلى سمعى أيضاً ، يا جوييتير . وعلى خلقى الذى يهمس بالكلمات ، ولسانى الذى يكونها عندما تمر به : اننى أجد مشقة في فهم نفسى . لقد كنت حتى الأمس اضع غشاوة على عيني ، وسدادة من شمع في أذنى ، وبالأمس كان عندى ملر ، كنت ملرئ بأن أوجد ، لآنك كنت قد خلقتنى في العالم لأخدم أغراضك ، وكان العالم - سمساره عجوزاً - يتحدثنى منك بلا انقطاع . ثم تركتنى بعد ذلك .

جوييتير : اتركك ؟ أنا ؟

أورست : أمس ، كنت قرب الكترا ، وكانت طبيعتك كلما تحيط بى ، كانت الجنية تنشده اغاني (خيرك) ومعضنى نصائحتها . وكسان النهار المحرق برق كما يتفنى النظر ، ليحرضنى على الرقة ، ولكي تدعونى السماء إلى نسيان الاهدات كانت تغلب وتحلو كأنها الصفع . كان شبابي ، لطيع أوامر ، قد نهض امام نظري ، مبتهلاً كخطيبة بهم ، خطيبها بتركها : وكنت أرى شبابي للمرة الأخيرة . ولكن فجأة ، انقضت الحرية على فأرعدت فرانسي ، وفقرت الطبيعة إلى خلف ، فلم يكن لي بعد عمر ، وأخسستنى وحيداً كل الوحدة . وسط على الصغير التافه ، كمن فقد ظله ولم يكن ثمة شيء بعد في السماء ، لا (خير) ولا (شر) ولا أحد ليصدر اليّ أوامره .

جوييتير : واذن ؟ أوجب على أن أعجب بالتمعة التي يعزلها الجرب عن التقطيع أو بالإبرص الذى هو محبوبس في محجره ؟ تذكر يا أورست : لقد كنت واحداً من قطيعي وكنت ترمى كلا حقولى وسط نماجى ، وليست حريتك إلا جرباً يتأكلك ، أنها ليست إلا منفى .

أورست : حق ما تقول : منفى .

جوبيتر : ليس الشر شديد العمق : فقد بدأ بالأمس فحسب . عد الينا عد : وانظر كم أنت وحيد ، فحتى أختك تركك . أنك ممتنع اللون ، والقلق يوسع عينيك . تؤمل أن تعيش ! هنا أنت ذا متاكل بشر لا بشري ، إنها الغريب على نفسك ذاتها . عد : فانا النسيان ، أنا الراحة .

أورست : غريب على نفسي ، أعرف هذا . خارج الطبيعة ، ضد الطبيعة بلا عذر ولا ملجأ الا في . ولكنني لن أعود تحت شريعتك . فانا محكوم علي بالا تكون لي شريعة أخرى غير شريعتي ، أنني لن أعود الى طبيعتك : ان هناك الف درب مرسومة فيها تؤدي اليك ، ولكنني لا أستطيع ان أتبع الا دربي . ذلك أنني انسان يا جوبيتر ، وعلى كل انسان ان يخترع دربه ان الطبيعة تشتمن من الانسان ، وأنت ، أنت ، رب الأرباب ، أنت أيضا تشتمن من البشر .

جوبيتر : أنت لا تكلب : فحين يشبهونك ، أكرههم .

أورست : حذار : لقد اعترفت بضعفك . أما أنا فلا أكرهك . ما شأني بك ؟ أننا ننساب احدا بناؤرة غير الآخر ، من غير أن نتماس ، كسيفيتين : أنك رب ، وأنا حر : فنحن متشابهان في الوحدة ، وضيقنا متشابه . من ذا الذي قال لك اني لم أبحث عن الندم ، في أثناء هذه الليلة الطويلة ؟ الندم . النوم ولكنني لا أستطيع بعد ان أعاني الندم . ولا أن أنام . (١)

وواضح من هذا الحوار بين أورست وجوبيتر انه لا يكشف عن موقف أورست وعمن اكتشفه لحريته التي حددت وجوده ومصيره فحسب ، وإنما يكشف الى جانب ذلك عن فلسفة سارتر التي تسخر من مبدأ الاعتراف بالخطيئة . وما تفرضه على الناس من شعور بالندم ، الذي هو منده شعور سلبي معوق ومضلل ، فان الاختفاء وراء عقيدة الندم هذه إنما هو في رايه هروب من مواجهة الحياة ، بل ان مثل هذا الشعور بالخطيئة لهو أوغل في الشر من الشر نفسه . ذلك لأنه أشبه ما يكون بالدنار السميك الذي يتلف نفوس الناس فلا يستطيع أن تكشف القناع عن حقيقة هذا الوجود الفاضح المديم المعنى ، هذا الموقف السلبي الذي يمنع الناس من مواجهة حرياتهم والتطلع الى كشف الحقيقة هو الشر في نظر أورست وهو كذلك في رأي سارتر .

وما التحدي السافر الذي أعلنه أورست لجوبيتر رب الأرباب في نهاية الحوار السالف الذكر الا دليل على انتصار الوعي الحر ، وعلى شعور أورست بأنه استطاع أن يحقق كيونته ووجوده لا من طريق الآخرين بل بإرادته الحرة . فالراء لا يكون عاجزا الا اذا قبل أن يكون كذلك . . . ومن ثم كانت ضرورة الالتزام والقضاء على فكرة الاستسلام أو التبعية من أهم القضايا التي تهدف اليها المسرحية . فان التخلي عن المسؤولية هي في الحقيقة قضاء على وجود الانسان ، من أجل ذلك هاجم سارتر بكل قوته فكرة الاستسلام للخطيئة والشعور بالندم ، بل لقد ذهب الى أبعد من هذا عندما أفهمنا أن الشر كان ينبع من اللامبالاة والسلبية والتخلي عن التبعية والشعور بالمسؤولية . فان الشر كله ينبع من جحود الالتزام ، لأن جحود الالتزام بمثابة جحود للوجود .

على أن هناك تساؤلا كثيرا ما يعترض قارئ مسرحية الدباب ، وهو تساؤل يتعلق بالموقف الأخير الذي وقفه أورست عندما رفض أن يجلس على عرش أبيه بعد ان قتل (إيجست) قباي شيء يفسر هذا الرفض ؟ وهل في هذا الرفض ما يناقض الموقف الإيجابي الذي انتهى اليه

أورست ؟ فإذا فهمنا هذا الرّفض على أنه تنصل كان في ذلك تناقض واضح ، فمن أين جاء الالتزام إذا كان أورست سوف يترك سلطان المدينة لغيره من الناس ؟

وعلى الرغم مما أثاره هذا التساؤل من شكوك النقاد والباحثين مما أدى ببعضهم إلى اتهام سارتر بالتناقض ، فإن من النقاد من استطاع أن يفسر موقف أورست الأخير تفسيراً يساير الاتجاه العام لفلسفة المسرحية ، لا يناقض موقف الالتزام فيها . فإن تخطى أورست عن حكم أرجوس بعد انتصاره قد كان رمزاً للمقاومة الفرنسية التي قصد إليها سارتر من وراء الموقف الأخير الذي وقفه أورست ، فإن موقف المقاومة الفرنسية للهجوم الألماني المنتصب كان بمثابة موقف الجند في ساحة القتال ، لا يهدفون إلى ما وراء الانتصار بقدر ما يهدفون إلى الانتصار نفسه . (١)

✻ مسرحية الله والشيطان لسارتر :

وإذا انتقلنا إلى مسرحية الله والشيطان لسارتر فسنجد أنفسنا أمام أكثر مسرحياته إثارة وصراعاً وحركة على الرغم مما تفيض به من فكر ، وما تهدف إليه من فلسفة سارتر في الوجود والحرة ، ونبد العقائد الدينية ، بل واثبات خطورتها في تعويق تقدم الإنسان وتكبل حريته . بل أن مسرحية الله والشيطان لتذهب إلى أبعد من ذلك عندما تنتهي هذه النهاية الخطيرة التي بلغ سارتر في تأكيدها ، ملتصقا لذلك السبل من تجربة تحاول أن تستمد أساسها من الواقع ، فتنتهي به تلك العربة إلى أن الوجود الوحيد في هذا العالم هو الإنسان وإن ليس في الكون الله غير الإنسان . بل لقد حاول جاهداً بما عرض من تجربة ، وبإدليل ، والبرهان ، أن يقنع نفسه والناس من حوله بالحقبة التي تقول بأن المدمر أو المدموم هو الإنسان ، وأن الوجود أو الوجود هو الله غير أن ذلك كله قد باء بالفشل ، وأثبتت التجربة التي صورها سارتر في مسرحيته والأحداث التي أجراها ، والشخص التي عاشت هذه التجربة أو خاضت معاركها . حاولت أن تثبت أن الناس هم الذين خلقوا الله ، وليس الله هو الذي خلقهم .

وعلى هذا الأساس يضيف سارتر بمسرحيته هذه دليلاً آخر على فلسفته الإلحادية التي لا تفتأ تنتشر في كل أعماله . وإذا كان سارتر قد نجح في أن يقنعنا بما قدم من عناصر الإثارة ، وما التمس من حيل مسرحية وما حققه من صراع ومن قدرة على تحريك الأحداث ورسم الشخص ، بتكنه من فن المسرحية ، فما أظن أنه استطاع أن يقنعنا بما انتهى إليه من نتيجة خطيرة تحاول أن تزلزل إيمان الناس في أقدم مقدساتها ، فليس من شك في أن إيماننا بالله هو الشيء الوحيد القادر على أن يجعل لحياتنا معنى ، وأن يجعل من وجودنا قوة ، وأن يجعلنا نتمسك بالحياة ونعيشها ، ذلك أن الإيمان بالله بالخير والحق والعدل والجمال ، ومن أجل هذه جميعها نعيش الحياة ، ولولا هذا الإيمان لانتهى بنا الحال إلى ما انتهى إليه الوجوديون من درج الميت والتعبد ، وعندنا لن تكون هناك حقيقة غير تدمير الحياة ، بل قد يكون في هذه النهاية ما يدعو إلى الترييب في الانتحار . ولماذا نذهب بعيداً وقد قالها البير كلمي صراحة :

(فإن يموت المرء بملء إرادته ، يفرض أنه اعترف ، ولو غريباً ، بطابع هذه العادة الذي يدعى بالسخرية ، وبانعدام أي سبب عميق للحياة ، وبالطابع الذي لا معنى له لهذا السعي اليومي ،

وبعدم جدوى الألم والمذابح . وبالاختصار ، فإن الانتحار يعني بكل بساطة الاعتراف بأن الحياة لا تستحق أن تعاش (١)

وعلى الرغم من أن البير كامى الذى يعلن عبثية الحياة على هذه الصورة يعود فيقول أن الحياة لا معنى لها ومع ذلك فينبغي أن نعيش ، ولكن على أى وجه نعيش إذا انعدمت لدينا قيمة الحياة ؟ ذلك هو السؤال الذى وان انتهى إلى إجابات متناقضة يذهب بعضها إلى ما صورناه من ضرورة مجابهة الإنسان لكل مواقف الحياة بالفعل الملتزم الحر ، والتجرد من كل فكر متوارث أو قديم أو مفروض على الإنسان فرضاً ، وتحمل الإنسان لمسئولية أعماله ، إلا أن ذلك كله على ما فيه من إيجابية وحرية غير كاف لأن يجعل الإنسان قادراً على أن يعيش الحياة ، ويستمر في المضي فيها دون أن يصيبه التفسخ والتحلل والانهايار . نحن بحاجة دائماً إلى الإيمان ، وليس من شك في أن الدين في جوهره الصحيح عامل إيجابي فعال رقوة دافعة لتحقيق الأمن والسلام والخير للبشرية على الأرض .

وإذا كان سارتر قد استطاع أن يفرق بين الظاهر الخداع لبعض المشعوذين المنافقين ممن لا يعرفون من الدين إلا قشوره ، والذين تركوا مبادئه أخلاقية السامية ، وأخفوا نفاقهم وراء ملابسهم الكهنوتية الفضاضة ، وطراطيرهم الملوثة وذقونهم الكثة ، والصليب المدلى ، والكتاب المقدس الذى لا يبرح يد القس وبين الداعين عن إيمان بعماني العدل والخير والحق ، فإنه للأسف الشديد ، قد جعل الانتصار في الدين لهذا الجانب السلبي الظاهري الخداع . بل لقد ذهب إلى أبعد من هذا فزعم أن الوسيلة الوحيدة التي تؤثر في أهل الدنيا جميعاً وتنظلي عليهم ، وتخضعهم لسلطانها ليست إلا ما في هذه المظاهر الدينية المسرحية الخداعية من سحر ، وتنتهي المسرحية آخر الأمر بأن المظاهر الخداعية هي وحدها الحقيقة ، وما عداها باطل .

وبعد فما موضوع هذه المسرحية وما كنه هذا الصراع الذى انتهى بالكاتب إلى هذه

النتائج ؟

لقد بحث سارتر في التاريخ ، واستطاع أن يكتشف الحقبة الزمنية الصالحة لموضوعه ، كما استطاع أن يحدد اختصار أحداث بعينها من التاريخ تصلح أساساً لعرض الصراع الذى يريده ، ويهدد السبيل للحقائق التي يهدف إليها .

لقد اختار فترة من تاريخ ألمانيا في القرن السادس عشر كان الشعب فيها يعاني من وطأة استغلال قاهرة مستبدة ، ومن حملة أرهاق يقوم بها رجال الدين ، يفرضون فيها على الشعب انقادات جائرة ، ويبتزون فيها الأموال من غير وجه حق ، متوسلين في ذلك بسلطانهم الديني ، والذين يرى من هذا كله . أدى ذلك إلى ثورة طاحنة ، ألهبت حماس الجماهير الشعبية تحت قيادة زعيم شعبي هو الخيثار (ناستي) الذى أراد أن يثار للشعب الظلوم ، وأن يرد عن مواطنيه البلاء الذى أنزله بهم رجال الدين ، فما كان من الأسقف الذى يمثل حكم الطغاة الجائرين إلا أن يعمد إلى نوع من الحيلة لكي يقضي على ثورة الشعب هذه ، ولم يتورع في سبيل أخماد هذه الثورة من استخدام كل ما يستطيع من وسائل الفتن والخيانة . فلجأ إلى مجرم من كبار المجرمين المحترفين كان يتزعم عصاية من العصابات المكونة من اللصوص وقطاع الطريق . واستطاع هذا الجرم المسمى (جويتز) أن يكون من هذه العصابات جيشاً كبيراً ، يعمل ما وسعه العمل على التخريب والتدمير مستخدماً كل وسائل الشر ، منتقلاً بين الولايات الألمانية يبحث فيها

فسادا . أدرك الأسقف ما في هذا الرجل من وحشية ، وما لديه من قوة ، وما ينطوى عليه من شر ، وما عرف عنه من امتهان لكل القيم والمبادئ والأخلاق - وما اشتهر به من قسوة في تعذيب الناس . ورأى فيه ضالته المنشودة ، وعرف كيف يتحالف معه وكيف يضمه الى جانبه هو وجيش المصابات الذى تحت يده ، وكيف يستفيد منه في تأديب الشعب الثائر وعلى رأسه الخباز (ناستي) .

وكان الى جانب هاتين الشخصيتين : شخصية السفاح وقاطع الطريق (جويتز) وشخصية بطل الشعب وزعيمه الخباز الطيب القلب (ناستي) ، شخصية ثالثة هي شخصية القس الكاثوليكي (هنريك) الذى كان في اول امره مواليا لثورة الشعب ضد رجال الدين ، وذلك لما كان يتمتع به من دماثة في الخلق ، وما كان يشمر به من فساد رجال الدين ، وما يستخدمونه من وسائل ذنيئة لمخادعة الشعب وإبتزاز امواله . على ان الأسقف الكبير شيخ الطفلة استطاع آخر الامر ان يخضع هذا القس الثائر ، وأن يحوله من رجل لئى ضد المعتدين من رجال الدين الى رجل موال ، وذلك بما استخدمه معه الأسقف من وسائل التهديد والتعذيب ، وما كان يردده عليه دائما من ضرورة الولاء للمهد الذى اخذه على نفسه ، وللقسم الذى أقسمه ليكون خادما أميناً للكنيسة ، وجنديا مجاهدا من جنودها ، حتى ضعف القس في النهاية واستسلم للهزيمة ، وخلل الثوار ، وانضم الى اخوانه من رجال الدين .

ثم تبدأ الحركة التي يقف فيها (جويتز) السفاح مع جيشه الكبير ومعه الأسقف في جانب ، ويقف فيها ناستي زعيم الشعب في جانب آخر ، وأدرك ناستي ما يدبره الأسقف في الخفاء ، وعرف أن بين اغتياله الشعب من يحاول الأسقف ضمهم الى جانبه ، فيعجل ناستي باغتيال الأسقف . ومن يشاهده من كبار رجال الدين وأصحاب الجاه والثروة ، وقبل أن يموت الأسقف يسلم مغايب المدينة ، مدينة (ورس) التي تقع فيها أحداث القصة الى القس (هنريك) تلك الشخصية الممزوجة بالتردد التي خالت ثورة الشعب .

وعلى الرغم من أن (ناستي) زعيم الشعب قد حقق بمض النجاح بالقضاء على الأسقف وبعض معاونيه من الخونة ، فإنه لم يستطيع أن يقاوم جيش المصابات الذى كان يتزعمه السفاح (جويتز) ، فيحاصر السفاح المدينة ، ويقبض عليها بيد من حديد وينسى تحالفه مع رجال الدين ، ويستأثر بالسلطة كلها في يديه ، وفي لحظة واحدة يملكه هوس الانتصار وجنونه ، فيقرر البطش بالمدينة كلها وعلى رأسهم رجال الدين الذين إبتزوا أموال الشعب ، ويصرخ صراخا مجنونا بأنه لن يرجع عما أمّزته من شر ، ولن تستطيع أية قوة أن تمنعه من أعمال التخريب والتدمير والبطش التي عقد العزم على تنفيذها بغزاعنا نفسه أن ليس هناك اله غيره ، بل لقد بلغ به الجنون حدا يجعله يستهين بقوة الخالق ، فهو لا يؤمن بوجود ما يسميه الناس الها ، بل لقد ذهب في تحديه واستخفافه الى حد أنه قال : إذا كان الاله موجودا حقا فليعطني الدليل على ذلك ، وليفضل فيمنع جويتز مما يريده للمدينة وأهل المدينة من شر ؟ فليرسل الله معجزة أو علامة ينذر فيها بالافلاق عما يضره من شر لاهل المدينة . وينتظر جويتز ظهور المعجزة ، أو نزول العلامة ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وعندئذ يمضي جويتز في طغيان فكره حين ينتهي الى أنه هو وحده الموجود الحقيقي الذى يفعل مايشاء وقتما يشاء ، فهو حر كامل الحرية . ويحاول القس (هنريك) الذى تسلم مغايب المدينة من الأسقف المقتول يحاول أن يهدده بسوء المعير ، وبالبحيم وجههم يصلها مع العاصين للارقين ، فلا يريده هذا الا امعانا في السخرية والكفر ، فيزمع أن لو كان هناك اله لما وقع في الدنيا هذا الشر ، ولأوصدت جهنم ابوابها .

وفي هذه الأثناء لا يرى النقس (هنريك) الذي وجد نفسه أمام طائفة لا سبيل الى التأثير فيه عن طريق الدين ، لا يرى بدا من التماس وسيلة أخرى لعلها ان تجدى مع هذا الرجل العالى ، ولم يجد مفرا من أن يلجأ اليه من ناحية يستثير فيها قوته وجبروته ويشككه فيهما ، فعرض عليه اتخس موقفا جديدا : فاذا كان يزعم لنفسه أنه حر تمام الحرية في اتخاذ ما يشاء من مواقف ، واذا كان يرى أنه هو وحده الذي يختار الطريق الذي يريد ، وأن مصيره بيديه ، فليقدم الدليل على ذلك عمليا ، وبالاقتال من جانب الشر الى جانب الخير اذا كان يزعم أنه قادر على ان يحول سلوكه في الطريق التي يشاء متى شاء ، وقال له النقس :

انني اتحداك يا سيدى القائد ... وأنا اتحداك لأبرهن لك على أنك لست من القوة باقدر الذي تتصور ، أنك لست حرا في تصرفاتك ، بل أنت مفلور على الشر لا تستطيع منه فككا ، وأن الله هو الذي مرف فيك هذا الخبث تكتب عليك الشقاء ، وأن كنت تكذبني فسلم .. هلم جرب . هل تستطيع أن تطلع عما أنت مجبر عليه من شروط نفسك ؟ هلم .. هلم ... أين قوتك وجبروتك إذن ... هناك مناط القوة ان كنت قويا حقا .. وهنا مجال التجربة ان كنت حرا في تصرفاتك وجبروتك . إذن امامك طريق الخير فانتقل اليه ان كنت قويا حقا وان كنت حرا حقا . (١)

ولكى يثبت (جويتز) أنه قادر على قبول هذا التحدى ، وأن هذا القبول نابع من ذاته هو ، وليس من تأثير النقس اشترط شيئا واحدا ، وهو أن يرمى زهرتي النرد فاذا كسب وخسرت ارادة الله فان يقوم بالتجربة ، لأن الله عندئذ يكون قد خسر مرتين ، أما اذا كسبت ارادة الله فيقوم بالتجربة . وحدث أن رمى زهرتي النرد وكسبت ارادة الله هذه المرة ، وقبل جويتز التحدى ، وصمم على أن يخوض التجربة الجديدة ليرى ماذا يحدث لو أنه سلك مع الناس طريق الخير ، واستبدل شيطانه الرجيم بملك رحيم .

ويتم الاتفاق بين النقس وجويتز على تنفيذ سياسة الخير الشاملة لمدة لا تقل عن عام كامل ويوم .

ومن الطريف ان ينجح جويتز فيما عقد عليه العزم . فيتحول بمحض ارادته بين عشية وضحاها الى انسان مختلف تماما عما كان عليه، فيحقق مبادئ الخير والمساواة والعدل . بل لقد غالى في ذلك الى حد أنه وزع كل ما يملك من عقار أو ثروة على من لم يكونوا يملكون شيئا . ولم يدخر جهدا ولا وسعا في سبيل البحث عن كافة حاجات الشعب حتى يلببها كاملة ، بل لقد ذهب الى أبعد من هذا كله ، فتحول الى انسان فاضل ورع تشع الرحمة من سلوكه ووجدانه ومشاعره . يفعل كل ذلك بدافع من ذاته دون أن يلتصق وراء ذلك مثوبة من اله أو زلقى الى انسان ، وإنما هو الباحث الانساني المحض المدفوع بالحب والخير والمجرد من النفاق والرياء .

وكان من الطبيعي بعد هذا كله ان يحبه الناس ، ولتفتوا حوله ، ويتمسكوا به بل ويعضوا عليه بالتواجد ، خشية أن يفلت من أيديهم ، بل اذا أمكنهم ان يخرجوا للدفاع عنه بالمعصي والحجارة ، والفتوس لما ترددوا في ذلك . فالطبيعي ان يكون هذا هو رد الفعل الذي يقابل به أى شعب حاكما مثاليا من هذا النوع . ولكن وبالغربة ، يقف الشعب منه موقفا على التقيض من هذا كله ، ويلعب رجال الدين مرة أخرى دورا هداما خطيرا ، فيحاولون ماوسعهم الجهد ان يشوهوا كل ما فعل جويتز من اصلاح ، وأن يثشروا في الناس ان السعادة التي تنادي بها السماء

ليست هي السمادة التي تتحقق للانسان في الارض بما يبلغه من ثراء أو نعيم ، فان هذه الدنيا يجب أن تكون دار شقاء وآلام وفقير ومسغبة ، ألم يقل السيد المسيح بأن ملكوت الله لن يدخله الاغنياء ، فكيف يحول جويتز شعب (ورمس) الى قوم اغنياء ؟ ومن اذن من أهلها من يستحق الدخول الى ملكوت الله ؟

ومن المصعب أن يقتنع الشعب بهذه الترهات والأباطيل ويصدقوا ما اشاعه بينهم رجال الدين من حماقات ، ويعلم الناس المصيان على جويتز ، ويجاهرون بالتمرد عليه . يشاركون في هذا الزعيم الشعبي ناستي ذلك الذي كان يوما ما يقود ثورة الشعب ضد الظلم والفقير والظلمة . ويبلغ به الغته أن يذهب الى جويتز يحاول اقناعه بالعدول عن سياسة الخير ، ليتيح للناس أن يعيشوا حياتهم كما أرادها لهم الله وأخرا بالآلام والمحن ، بل لقد ذهب ناستي الى أبعد من هذا عندما زعم أن الثراء والرخاء اللذين نزل بمدينة (ورمس) نتيجة لسياسة جويتز الجديدة سوف تلتفت انتباه البلاد المجاورة لها ، فيدفعهم الطمع والجشع لاحتلال المدينة وإرسال جيوشها لغزوها . ويدور حوار بين جويتز وناستي يحاول فيه جويتز أن يذكر صاحبه بماضيه وثورته على الفقر ، فلا يجد عنده أذنا صاغية ، والغريب أن تصدق نبوءة ناستي فتزحف الجيوش من خارج مدينة ورمس لتحتلها وتنهب ما فيها وتحيلها الى أرا بعد عين .

ومع ذلك يبقى جويتز على موقفه وعهده الذي قطعه على نفسه ، ويستمر في تنفيذ سياسته ، ويظل محتفظا بورمه وسلاحه حتى ينتهي أمد المدة التي تم الاتفاق عليها بينه وبين القس هنريك ، ولا يبقى الى جانبه في مسنحته هذه غير فتاة كانت تقوم على خدمته وتسمى الى مؤازرته ، لا حبا فيه بل إيمانا منها بالنظام الذي يسلكه من أجل خير البلد .

ثم تدور المناقشة بعد هذا كله بين جويتز وبين القس هنريك الذي طرده الكنيسة وأدركته الشيخوخة ، وذهب عنه عقله ، فما كان يتوقع أن تجاوزه الكنيسة هذا الجزاء الذي لا يتفق مع ما بذله من محاولات لتحويل هذا السفاح الشرير الى ملاك طاهر . تدور المناقشة بين جويتز وهنريك حول وجود الله العادل الخير ، ولكن عبثا يحاول هنريك اقناع جويتز بهذه الحقيقة ، وتنتهي المناقشة بينهما الى درجة من العنف ، تدفع بالقس الى محاولة قتل جويتز حين يمسك برقبته يريد خنقه ، (عندئذ) ينهض جويتز ويهجم على القس فيفتك به ويحطم رأسه ، ويلقى به على الأرض جثة هامدة ، وفي هذه اللحظة التي يفتك فيها جويتز بالقس هنريك ويقتله تكون المدة التي حددها لتجربته قد انتهت . ويرسل جويتز قهقهة عالية تدرك من ورائها ما يعنيه . فهو ينظر الى السماء بعدها وكأنه يريد أن يقول : لقد ظهرت الحقيقة التي لا حد لقوتها ، وهي أن الذي يحدث على الأرض من صنع الانسان والانسان وحده . لقد كان جويتز يطمح أن تثبت له التجربة عكس ذلك فيؤمن بوجود اله وراء هذا كله ، ولكن التجربة خيبت ظنه .

وينتهي المشهد الاخير من المسرحية بأن يطلع جويتز من نفسه لباس الكهنوت لباس الخداع ، ويبدو جويتز الى ما كان عليه من قبل الى سبيل الشر ، لانه وحده الذي ينجح ، والان فليقهر الثوار ، وليطرد الغزاة ، وليلبق كل هؤلاء الويل والثبور ، وليملا الدنيا شقاء وجورا ما دام الناس يؤمنون بأن هذا السبيل الوحيد لدخول ملكوت الله .

هذه هي المسرحية بكل أحداثها وشخصوها. آثرنا أن نعرضها على القارئ في أمانة حتى يكون على صلة قريبة بكل أطرافها ، ونطور شخصياتها ، وسلوك كل شخصية تجاه الأحداث التي تقع لها ، وحتى يتبين القارئ ما يهدف اليه سارتر من وراء هذه الأحداث ، وما يؤمن به من آراء تتصل بالدين ورجاله ، وواضح من عرض سارتر للأحداث أنه يريد أن يقول أن الذي

يجد تأثيره أكثر من غيره في أهل الدنيا جميعا ويفعل فيهم فعل السحر ليس جوهر الدين ، ولا شيئا يتصل بمبادئه العليا السامية ، وإنما هو المظاهر الدينية الزائفة : أنها تخطف الناس ، ولكنها مع ذلك تخدمهم ، وتضلّهم ، ويباعد بينهم وبين الحرية والخير .

ولعل خير ما تقدمه للقارئ من تعقيب على الفلسفة الوجودية . وأدبها واتجاهاتها ما تركه لنا الدكتور مندور في كتابه « جولة في العالم الاشتراكي » من تعليق على هذا الاتجاه حين يقول :

(أما الوجودية فإنها تدعو إلى التحرر من القيم المتوارثة البالية ، ولقد كان من الطبيعي أن تجد هذه الدعوة استجابة لدى أدبائنا ، وبخاصة الشباب منهم . وإن كنا لا نستطيع أن نجاري هذه الدعوة إلى نهايتها ، فهناك من القديم ما هو الخير ، بل وضرورة نافعة مثل الدين في جوهره الصافي السليم . وهذه حقيقة لا يؤيدها رجال الدين والأخلاق وحدهم بل أيدها ولا يزال يؤيدها كبار الفلاسفة والمفكرين الذين ذهبوا في حرية الفكر إلى أبعد الحدود .

نحن إذن لا نجاري ، ولا نبتغي أن نجاري الوجودية إلى ذلك الحد الإحمق المدمر حد التنكر للدين والتخلص منه ، ولكننا نستطيع ، بل يجب أن نستفيد من دعوتها إلى التحرير من كثير من القيم والمبادئ الفاسدة التي طرأت على الدين والأخلاق ، مثل القدورية والتوكل والتنصل من المسؤولية . والقائما على عائق القدر وأرادة الله ، وأن نحكم عقولنا فيما يعرض لنا من مشاكل الحياة ، ونلتصم لها الحلول التي تتسع من ملاسئها ، وأن نتحمل في الحياة مسؤوليتنا الكاملة ، وأن نثق بأنفسنا ونقدرونها على تحديد مصيرنا وتوجيهه ، على نحو ما فعل الوجوديون أنفسهم عندما ساهموا مساهمة باسلة في تحرير فرنسا من الغزو الألماني ، مؤمنين بأنهم بهذا العمل إنما يحققون لأنفسهم ولجتمعتهم مصلحة حقيقية) . (١)

وقبل أن نختم هذا المقال يحسن بنا أن نجمل بعض الحقائق التي استغلطنا أن نستخلصها من دراستنا لبعض هذه الاتجاهات الفكرية في القرن العشرين .

ولعل أول ما يلفت الانتباه فيما عرضنا له في هذا المقال أن كثيرا من المثقفين ورجال الفكر في هذا العصر الحديث يعانون من أزمة فكرية ونفسية تختلف في حقيقتها عن الأزمات التي مرت بالحضارة الأوروبية في أزمانها السابقة . وليس من شك في أن بعض أسباب هذه الأزمة يرجع إلى طبيعة العصر نفسه ، وإلى ما مرت به أوروبا من تجارب ، وما عانته من أحداث ، وما خاضت من حروب ، وما حدث لمجتمعاتها من تطور نتيجة للتحول الصناعي ، وسيطرة المادة ، وسيادة التفكير العقلي ، والمبالغة في تأليه العلم وتقديسه بل وتسخيره أحيانا في أعمال الحروب ، وخلق جو من التوتر والتنافس المحموم في سباق للتسلح اللدري وغير اللدري . فكان طبيعيا أن يؤدي ذلك كله إلى خلق هذا الشعور بالقلق المبهم المقيم الذي استبد بالإنسان القرن العشرين ، حتى أصبح مرضا شائعا وطابعا مميزا للإنسان هذا العصر ، وكان طبيعيا كذلك أن يصاحب هذا القلق إحساس بعث الحياة وانعدام الدافع ، والمسوغ لبذل الجهد والطموح في عالم قد يباغته الدمار في أي لحظة . وإذا أضفنا إلى كل ما سبق أن طبيعة النظم الاجتماعية الحديثة وما خلفته من وسائل الإنتاج والتوزيع ، وما يترتب على ذلك من ضرورة المواءمة بين الإنسان وبين هذه النظم قد زاد من شعور الفرد بالعزلة وبالعجز ، وبأنه في إحساسه بقلته حيكلته وضعف شأنه أدركنا سرا آخر من أسرار هذا القلق المسيطر على نفس المثقفين في عصرنا هذا .

مع ان عاملا ثالثا يضيفه الدوس هكسلي في جملة هذه العوامل التي خلقت أزمة الانسان المعاصر الا وهو زيادة سكان العالم زيادة مفاجئة ، يقول : (لقد كان سكان القرن الاول الميلادى يتدرون بمائتين وخمسين مليوناً ، ثم ضعف هذا العدد في ستة عشر قرناً ، على حين ان عدد السكان اليوم - وهو ثلاثة آلاف مليون نسمة - يقدر له ان يضاعف في أربعين عاماً فقط ، وترتب على هذا التفجر البشرى نمو فظيع في كبريات المدن وكان من نتيجة ذلك ان ملايين من أطفالنا لا يعلمون شيئاً عن الطبيعة : لا يعرفون كيف يكون القمح في حقوله ولا كيف تكون شجرة الفاكهة ، بل ان ملايين لم يروا في حياتهم بقرة الا في الصورة .

فما النتائج النفسية لهذا كله ؟ اولا : - تضيق دائرة الخبرة بالطبيعة ضيقاً شديداً ، ثانياً : - يفقد الانسان شعوره بالانتماء فيحس بالضيق لانه دائماً في زحمة المدن بغير روابط عميقة الجذور ، ولهذا فهو يحس بالمرلة رغم تكاثر الناس من حوله . (١)

على ان كل هذه العوامل التي ذكرنا لم تخلق في الانسان المعاصر التوتر والقلق والغربة والشعور بالعبث وانعدام الجدوى من الحياة فحسب ، بل خلقت الى جانب ذلك كله عند الانسان الحساس شعوراً بضعف العقيدة الدينية ، والافتقار الى الايمان بالله ذلك الايمان الذى لا يفنى عنه شيء . فان حاجة الانسان الى اشباع عاطفته الدينية امر لا ينقطع .

من أجل هذا كله ظهر العبث والفشيان والتعرد واللامعقول والشعور بالغربة والاهتمام بمشكلة الشر ، والبحث من مبرراته واسبابه . على أننا نؤمن بان أزمة الفكر المعاصر هذه لا بد لها ، ان آجلا او عاجلا ، ان تجد على أيدي المفكرين أنفسهم حولا ترد المثقفين من أبناء عصرنا الى صوابهم . وتعيد اليهم ثقتهم بالحياة ، وإيمانهم بالله وتمسكهم بالخير وحبهم للانسان .

أهم المراجع

(١) ألبير كامي

✻ العيث ترجمة سالم نصار

بيروت

(٢) ألبير مرونج

✻ سارتر الفكر العقلي الرومانسي ترجمة شاكى التابلسي -

دار الفكر القاهرة

(٣) جان بول سارتر

(أ) الوجودية فلسفة انسانية - ترجمة حنا دميان

بيروت ١٩٥٩

(ب) ما الأدب - ترجمة الدكتور محمد غنيمي هلال

القاهرة ١٩٦٨

(ج) الفئشان - ترجمة الدكتور سهيل اندريس

بيروت ١٩٦٢

(د) مسرحيات سارتر - ترجمة الدكتور سهيل اندريس

بيروت

(٤) جان لال

✻ الفلسفة الوجودية - ترجمة تيسير شيخ الارض

بيروت ١٩٥٨

(٥) ديدني خشبة

✻ أشهر المذاهب المسرحية -

القاهرة

(٦) دؤيبير دى لوبيه

✻ كامى والتخرد - ترجمة الدكتور سهيل اندريس

بيروت

(٧) د . زكي نجيب محمود

✻ الفلسفة وفن

القاهرة ١٩٦٣

(٨) د . لطفي عام

✻ المسرح الفرنسي المعاصر

القاهرة ١٩٦٤

(٩) د . محمد غنيمي هلال

✻ المدخل الى النقد الأدبي الحديث

القاهرة ١٩٦٢

١٠ (١) د . محمد مصطفى بدوى

● الغرب (غربى ونقد) فصله من مجلة كلية الآداب
جامعة الإسكندرية للمجلد الثاني عشر

١٩٥٨

١١ (١) د . محمد متغور

● جولة لى العالم الأستراتيجى

الطبعة ١٩٥٧

Colin Wilson (١٢)

The Outsider London 1956

* * *

التنظیم السیاسی فـ المجتمع التکنولوجی الحديث

وجهة نظر اقتصادي

تمهيد :

ان موضوع التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث موضوع واسع ومتشعب الاطراف ، ولا يمكن الاطاحة به في مقال واحد او من جانب متخصص في فرع واحد . وكذلك فان حديثنا فيه هو بالضرورة حديث قاصر ، والامريستدعي مساهمات أخرى من جانب متخصصين في فروع أخرى . وهذا المقال ليس في حقيقته سوى مقدمة ودموة لزبد من التأمل في هذا الموضوع الحيوي .

كثر الحديث هذه الايام عن « المجتمع التكنولوجي الحديث » او عن « المجتمع الصناعي الحديث » او عن « مجتمع الاستهلاك » (١) وكلها عبارات تستخدم الآن للدلالة على الاحساس العام باننا بدائنا ندخل مرحلة جديدة تمتاز من سابقتها في كثير او قليل ، وتحتاج في جميع الاحوال الى مزيد من التأمل والمعرفة .

وقبل ان نبدأ في محاولة التعريف بهذا المجتمع الجديد وخصائصه ، فاننا ننبه الى امر هام وهو ان التاريخ مستمر لا انقطاع فيه ، واتنا نستطيع ان نجد بدور هذا « المجتمع الحديث » منذ وقت

✽ الدكتور حازم البیدلای مدرس الاقتصاد السياسي بجامعة الكويت والاسكندرية له كتب وبحوث علمية منشورة بالعربية والفرنسية .

(١) انظر على سبيل المثال :

J. Kenneth Gabbraith, The New Industrial State,

Hamish Hamilton, London 1967 ;

R. Arron, Dix- Huit Lecons sur la Societe Industrielle, Paris, Idée, 1961

وانظر أيضا ، حازم البیدلای ، مجتمع الاستهلاك ، على ضوء أحداث مايو ١٩٦٨ في فرنسا ، القاهرة ، ملحق الاحرام الاقتصادي - اكتوبر سنة ١٩٦٨ .

طويل . كذلك فان ما نتصور أنه « المجتمع الحديث » لا زال يحمل آثارا وبقايا كثيرة من مخلفات الماضي وبدرجات متفاوتة . ولذلك فإذا تحدثنا عن خصائص هذا « المجتمع الحديث » فيجب ألا ننسى أنه لا توجد صورة نقية لهذا المجتمع وأن « الواقع » هو عبارة عن خليط من عناصر كثيرة بعضها متنافر وبعضها متناسق . ولذلك فإن ما سنكلم عنه هو في الواقع عبارة عن طراز نظري Type وصورة نقية من « الواقع » ، أو عبارة عن نموذج أو تصور Concept لهذا المجتمع ، رغم أنه لا يوجد في الواقع بهذا النقاء . فالمجتمع المعاصر هو خليط من خصائص هذا المجتمع الجديد، ومن آثار وبقايا صور المجتمعات السابقة، ولا تخفي أهمية هذه الآثار والبقايا في التأثير على سلوك الأفراد والجماعات ، ولو كانت تعبيرا عن أوضاع هي سبيل الانتهاء . وهذا الأسلوب في تحليل خصائص المجتمع الحديث، رغم ما يتضمنه من تهذيب أو تشويه للواقع، هو الأسلوب الوحيد الذي يسمح لنا بإدراك خصائص هذا « المجتمع الحديث » والنتائج التي يمكن تربيها عليه . وقد كان هذا الأسلوب ناجحا في جميع المحاولات التي بذلت لمعرفة تطور الجماعات وخصائصها وقد اتبعه Ma. Weber ، كما أن تجريد ماركس لا يخرج عن هذا الأسلوب

ونشير أولا إلى أن تسمية هذا « المجتمع الحديث » بالمجتمع « التكنولوجي » إنما هي إشارة إلى الأهمية الكبرى التي تحتلها التكنولوجيا الحديثة وتطورها وأثر ذلك على طبيعة وخصائص المجتمع الحديث . وإذا كان تاريخ الإنسان هو في الواقع تاريخ تطور أدوات الإنسان ، أو هو تاريخ «تكنولوجيا» بالمعنى الواسع (١) ، فإن التكنولوجيا الحديثة قد أدخلت طباعا جديدة تميز بوجه خاص في سرعة التطور وخطورته واعتماده على العلم والمعرفة والبحث وليس على مجرد التجريب والخبرة .

وهذا المجتمع الحديث يمثل في الواقع مرحلة جديدة من مراحل الثورة الصناعية. فالسائد هو أن الثورة الصناعية بدأت في إنجلترا ثم في غرب أوروبا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر . ولعل الحقيقة أن هذه ليست الثورة الصناعية الأولى ، ولكنها الثورة الثانية . فالثورة الصناعية الأولى تمت في القرن السادس عشر في إنجلترا وفي أجزاء كثيرة من أوروبا ، وقد أدخلت صورة الثورة الزراعية في إنجلترا بالقضاء على الحقول المفتوحة Open Fields ، وظهور طبقة الكادحين ، وقيام صناعات كثيرة في جنوب ألمانيا وفرنسا وفي إنجلترا . وهذه الثورة الصناعية الأولى هي التي مهدت للثورة الصناعية الثانية في القرن الثامن عشر وعصر اكتشاف البخار (٢) . ولعل مجتمع اليوم الحديث يمثل الثورة الصناعية الثالثة وهكذا نستطيع أن نلمح أن المجتمع التكنولوجي الحديث إنما هو مرحلة من تطور بدأ منذ وقت طويل وإن لم تظهر خصائصه على نحو واضح إلا في أيامنا هذه وفي أجزاء بسيطة من المصورة في مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وبدرجة أقل في أوروبا .

والطور الذي لحق التكنولوجيا الحديثة من الخطورة والأهمية ، بحيث أننا نستطيع القول بأن طبيعة المجتمع الذي نميش فيه ، والقيم التي تسيطر على سلوكنا ، والحاجات التي نسمي

(١) انظر على سبيل المثال تاريخ العالم « الطبعة الفرنسية » cf U.N.E.S.C.O.

Histoire Universelle de L'Humanité, Vol. I, Préhistoire, Paris, Robert Laffont, 1968.

cf NEF, la civilisation industrielle, Paris, Armand Colin, 1954.

لأشباعها .. الخ قد تأثرت بشكل مباشر بهذه الثورة التكنولوجية الحديثة ، ونود أن نشير هنا إلى أن الماركسية قد فتحت طريقا خصبا لدراسة تطور المجتمعات يربط هذا التطور بالتطور الذي لحق أدوات الإنتاج ولكن الماركسية ذاتها قد عافت دون الوصول إلى نهاية هذا المنطق ، وكانت من أسباب تأخر الاهتمام بخصائص المجتمع التكنولوجي الحديث ، وذلك لأنها ركزت بوجه خاص على نظام الملكية ، بتأكيد أن تطور أدوات الإنتاج يؤدي إلى تطور مقابل في شكل الملكية :

ملكية خاصة أو ملكية عامة . ولكن هذا ليس إلا جانباً فقط من آثار تطور التكنولوجيا . وهناك آثار أخرى على الإدارة الاقتصادية بصفة عامة قد لا ترتبط بالملكية القانونية . ومن هنا وقفت الماركسية عند حد التمييز بين الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية . وسوف نرى أن تطور التكنولوجيا قد أدى إلى ظهور نوع من التماثل أن لم يكن من التشابه بين الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية التي قطعت أشواطاً كبيرة في مجال التقدم التكنولوجي . وهكذا فإننا نمتدّد الآن دراسة خصائص المجتمع التكنولوجي الحديث تجاوز فكرة الملكية القانونية .

ونود الآن أن نعرض لأهم خصائص المجتمع الصناعي الحديث أو التكنولوجي الحديث . ونلاحظ أن بعض هذه الخصائص ليست حديثة بل أننا نعرفها منذ مدة - على الأقل منذ الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر - والجديد في الواقع هو في مدى تأكيد هذه الخصائص من ناحية وفي توافرها مجتمعة وليست منفردة من ناحية أخرى .

الحساب الاقتصادي :

لعل أهم ما يميز المجتمع الصناعي عن المجتمعات السابقة هو التغير المستمر ، التغير في وسائل الإنتاج وما يترتب على ذلك من تغير مستمر في الأذواق وفي الكفاءة الفنية لعناصر الإنتاج .. الخ . فالمجتمعات السابقة كان يسودها نوع من الثبات والاستقرار النسبي بحيث أن العادة والروتين كانا ينظمان كل شؤون الإنتاج والتوزيع . الزراعة والرعي والصيد تكاد تخضع لنماوس الطبيعة من حيث الدورة الزمنية ومواسم الصيد بحيث تكاد تتكون مجموعة من العادات الثابتة الموروثة للقيام بهذه النشاطات . وتتأكد هذه العادات وتنتقل من جيل إلى آخر دون تغير يذكر ، ويكاد يحكم الفرد في مثل هذه الظروف مجموعة من ردود الفعل المشروطة . فلا حاجة هناك إلى التفكير المستمر لمواجهة أحداث جديدة ، وإنما لكل حدث طريقة مواجهته ، وهي طريقة أثبتت كفاءتها خلال أجيال متعاقبة . وفي مثل هذه الظروف لا تقوم أية حاجة إلى الحساب الاقتصادي والتخطيط والتنبؤ . فالعادات والتقاليد كفيّة لذلك . وليس الحال كذلك في المجتمع الصناعي .

إن تاريخ الثورة الصناعية كما هو معروف مرتبط بنشأة الرأسمالية ولا يمكن التواريخ لاحدهما دون الآخر . وقد قامت الرأسمالية الأولى - المعروفة باسم الرأسمالية التجارية - على انقراض النظام الإقطاعي وظهور أوجه جديدة من النشاطات في مقدمتها التجارة ثم الصناعة . وقد ارتبط ذلك بمال جديد تسوده المخاطر وعدم الاستقرار . وصرف المنظم Entrepreneur - وهو عماد النظام الاقتصادي في ذلك الوقت بأنه الشخص الذي يتحمل المخاطر ويقلها في سبيل الانتساج وبذلك يدخل عنصر انتساج والصناب كعنصر أساسي في الحياة الاقتصادية . وظهرت النظرية الاقتصادية كمحاولة لبيان أفضل الطرق للاختيار بين الامكانيات المتاحة ، ومن Problem of Choice . وظهرت فكرة الرشادة الاقتصادية Economic Rationality ومن ذلك كله نجد أن الحساب والتفضيل بين مختلف الامكانيات المتاحة أصبح أمراً ضرورياً . فعملتنا

النظرية الاقتصادية سلوك المستهلك الرشيد وكيف يحاول أن يستخدم دخله المحدود للحصول على أكبر قدر ممكن من الأشياء باختيار السلع التي تحقق له ذلك وتحديد الكميات المناسبة من كل منها . كذلك على المستهلك أن يختار بين الاستهلاك الحالي وبين الاستهلاك المستقبلي (الأدخار) مرافعا في ذلك - قدر الامكان - تحقيق أكبر قدر من الأشياء . ونفس الامر نجده عند المنتج ، وربما بشكل أوضح ، فنظرية المشروع تبين لتأليف يستطيع المنتج أن يتخذ قراراته المتعلقة بالانتاج لتحقيق أكبر قدر ممكن من الربح ، أو أقل خسارة ، هناك اختيار المنتج لوسيلة الانتاج المناسبة ، اذ ان انتاج السلعة مع تقدم الفن التكنولوجي قد أصبح ممكنا بعدة وسائل . ثم عليه ان يختار الكمية المناسبة التي يمكن أن ينتجها . وهو أيضا يتخذ قرارات متعلقة بالمستقبل فيما يتعلق بالاستثمارات والاختيار بين وجوه الاستثمارات الممكنة . وفي كل ذلك نجد أن الحساب الاقتصادي قد أصبح جزءا من حياة المجتمع ، ولم تعد العادة والتقاليد كافيين للاستمرار في الانتاج ، بل ربما أصبح الخروج على هذه العادات والتقاليد هو ما يكفل التقدم المستمر . ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أن كثيرين من الاقتصاديين يعرفون النظم ودوره في الحياة الاقتصادية بأنه ذلك الفرد القادر على التجديد والابتكار Innovation (١) في مجال الانتاج والفن الانتاجي .

وسوف نرى أن هذا الحساب الاقتصادي قد اتسع نطاقه بحيث يكاد يشمل الاقتصاد في مجموعه في شكل سياسات اقتصادية اجمالية تتدخل بها الدول لتحقيق أهدافها الاقتصادية ، وفي شكل خطط اقتصادية تضعها بوجه خاص المجتمعات الصناعية الاشتراكية . وسوف نشير الى أن هناك نوعا من التقارب في هذا الحساب الاقتصادي الإجمالي .

الثورة الصناعية نشأت كما سبق أن رأينا مع ارساء المالية التجارية ، وتطورت مع الرأسمالية الصناعية حتى أوائل القرن العشرين . ومنذ ثورة ١٩١٧ الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ونحن نعاين عناصر اتجاها جديدا للمجتمع الصناعي في الدول الاشتراكية ، ولذلك يمكن القول بأن للحساب الاقتصادي للمجتمعات الصناعية الآن صورتين الآن : الصورة الرأسمالية والصورة الاشتراكية . وليس الغرض مما سنعرضه الآن هو اجمال الفروق بين النظامين ، ولكن التركيز بوجه خاص على أوجه الشبه المتطابقة بطبيعة المجتمع الصناعي وبخاصة فيما يتعلق هنا بالحساب الاقتصادي

كانت النظرية السائدة - وربما كان الواقع في القرن التاسع عشر - تعتبر المنافسة الكاملة هي الصورة الطبيعية للمجتمع الصناعي ، وقد علمت جميع كتب مبادئ الاقتصاد ان المنافسة الكاملة تتميز بعدة خصائص تجعل من كل فرد (مستهلكا كان أم منتجا) ذرة في محيط ، غير قادر على التأثير في الأمان السائدة في السوق ومن ثم في قرارات غيره من الأفراد . ويحدث التأثير نتيجة لجموع أفعال هؤلاء الأفراد مجتمعين . ولذلك فان ادارة الاقتصاد القومي تتم وفقا لما يمكن أن يسمى « باللامركزية الاقتصادية » حيث لا توجد سلطة أو فرد قادر على التأثير وحده على الأوضاع الاقتصادية . فالمنافسة الكاملة كما تعرض في كتب مبادئ الاقتصاد تفترض وجود عدد كبير من المستهلكين وعدد كبير من المنتجين وبحيث ان كل مستهلك أو منتج على حدة ليس له أي وزن على السوق في مجموعه . فاذا قرر المستهلك او المنتج زيادة أو انقاص استهلاكه أو انتاجه فان السوق لن تشعر بهذا الاثر ، وينتج التأثير فقط من مجموع أفعال المستهلكين والمنتجين . ولذلك

(1) P. J. Schumpeter, The Theory of Economic Development, Harvard University Press, 1949.

وصف بعض الاقتصاديين (1) حالة الاقتصاد في هذه الصورة بأنها تتضمن ذرية 'atomistic' للاقتصاد ، بمعنى أنه يتكون من ذرات صغيرة . ويضيف الاقتصاديون عادة بعض الشروط الفنية التي تضمن توافق المنافسة الكاملة وعدم استطاعة أي فرد منفرد التأثير على السوق ، مثل توافر العلم بأحوال السوق ، والتجانس التام للسلعة وعدم وجود عقبات أمام الصناعة سوي شروط الفرض منها الحيلولة دون تمكن أي فرد من التأثير على الاقتصاد .

وفي مثل هذه الظروف فإن الإدارة الاقتصادية للموارد تتم نتيجة لمجموع قرارات الأفراد كما سبق أن أشرنا وبذلك تعتبر مظهرا من مظاهر اللامركزية الاقتصادية. فالمستهلك مزودا بمعرفة عن حاجاته الشخصية وترتيب أفضاليته ودخله ، ينزل إلى السوق ويطلب كميات مختلفة من السلع إذا سادت أثمان مختلفة لها . ومن مجموع طلبات المستهلكين الفردية يتحدد الطلب الكلي . وبالمثل فإن كل منتج مزودا بمعرفة عن إمكانياته الفنية وبرغبته في الحصول على أقصى ربح ممكن ينزل إلى السوق ويعرض كميات مختلفة من السلعة إذا سادت أثمان مختلفة لها . ومن مجموع عرض المنتجين يتكون العرض الكلي ويسود الثمن في السوق الذي يسوى بين هذا العرض الكلي والطلب الكلي . وهكذا نرى أن إدارة الموارد الاقتصادية وتوزيعها قد تمت دون تدخل إرادة مركزية وأمية ، وإنما نتيجة لمجموع الأرادات الفردية . وقد رأى آدم سميث أن هذا الوضع يحقق المصلحة العامة نتيجة سعي الأفراد لتحقيق مصالحهم الفردية الخاصة وكان هناك بدا خفية Invisible Hand تحقق هذا التوافق .

وقد كان من الطبيعي في مثل هذه الظروف أن تكون السياسة الاقتصادية المثلى للحكومات هي الامتناع بقدر الإمكان عن التدخل في الحياة الاقتصادية وترك هذه الأمور للأفراد طالما أن الصالح الخاص قادر على تحقيق المصلحة العامة بأحسن الطرق . ولكن هذه الأوضاع لم تستمر طويلا ذلك أن تطورا هاما قد لحق المجتمعات الصناعية ، بحيث أصبحت السياسة الاقتصادية للدولة ضرورة لا يمكن التجاوز منها لتمكين هذه المجتمعات من استمرار نموها دون عقبات شديدة وبذلك امتد مجال الحساب الاقتصادي من الوحدات الاقتصادية المنفردة إلى حساب إجمالي يتضمن الاقتصاد القومي في مجموعه ، وبحيث تتخذ السياسات الملائمة لتوقعات المستقبل بالنسبة للاقتصاد القومي في مجموعه. وبطبيعة الأحوال فإن هذه الصورة من التدخل الاقتصادي الشامل في الحياة الاقتصادية تجد اكمل تطبيق لها في الدول الاشتراكية ، حيث تضع الدولة خطة هامة للاقتصاد القومي . ولكننا سوف نشير إلى أن تطورا مقابلا ، وإن كان بدرجة أقل طبعا ، قد لحق الدول الصناعية الرأسمالية حيث أصبح التدخل ضروريا ، وحيث لم تعد سياسة الحرية الاقتصادية مقبولة على إطلاقها .

إن المنافسة الكاملة كما صورها النظرية الاقتصادية لم تخرج من حيز هذه النظرية وفاعات البحث في القرن العشرين ، أما الواقع فقد عرف صورا أخرى للأسواق بعيدة عن هذا الوضع . ولذلك فإن نتائج هذه النظرية في ضرورة الاعتماد على الحرية الاقتصادية لم تعد صالحة تماما . وسوف نتعرض فيما بعد لتطور هذه الأسواق . على أن ما يعنينا الآن هو أن سياسة عدم التدخل قد قبرت تماما مع الثلث الأول

لهذا القرن ، فالأزمة العالمية الشهيرة في الثلاثينيات قد أثبتت عمق السياسات الاقتصادية القائمة على الاعتماد على الأفراد وحدهم دون تدخل الدولة . وجاءت أفكار كينز (١) في ذلك الوقت لتبين أن الائتمان والائتمانات تمتنع بشيء كبير من الجمود ، ولذلك فإنه لا يمكن الاعتماد على تغيراتها وحدها لإعادة التوازن . وقد نشأت في ذلك الوقت حالة من البطالة الضخمة بشكل لم يسبق له مثيل ، ولم تنجح أية سياسات للأجور للقضاء عليها . وأوضح كينز أن الأمر متعلق في الواقع بعدم كفاية الطلب الفعلي في الاقتصاد ، مما أدى إلى انخفاض الدخل القومي وتحقيق توازن للاقتصاد عند مستوى منخفض من العمالة ، مما أدى إلى ظهور هذه البطالة . ولذلك فإن تدخل السلطات العامة بالقيام بسياسات انفاقية ، الغرض منها زيادة القوة الشرائية والطلب الفعلي هو الإجراء الوحيد القادر على زيادة الدخل القومي إلى مستوى يسمح بامتصاص هذه البطالة . وبالفعل فإن الدول التي استطلعت أن تخفف من حدة البطالة في ذلك الوقت هي الدول التي أثبتت عمدا أو بالصدفة سياسة انفاق تدخلية ، الغرض منها زيادة القوة الشرائية في يد الأفراد . وقد حدث ذلك في ألمانيا النازية مع سياسة التسليح والانفاق لشاخت ، كما حدث امر مشابه في الولايات المتحدة الأمريكية مع سياسة الانعاش الاقتصادي للرئيس روزفلت .

ومنذ كتابات كينز قبل الحرب العالمية الثانية اتضح أن المجتمع الصناعي قد وصل إلى مرحلة تستدعي التدخل المستمر من الدولة في الحياة الاقتصادية بغرض تحقيق الاستقرار الاقتصادي والقضاء على البطالة . وقد ذهب بعض الاقتصاديين (٢) إلى القول بأن هناك ركودا طويلا الذي لا يمكن التخلص منه دون سياسة اقتصادية تدخلية مستمرة لحماية الطلب الفعلي عند المستوى المطلوب .

وبعد الحرب العالمية الثانية استكملت أفكار كينز من ناحيتين . فمن ناحية ظهرت مشاكل التضخم وارتفاع الأسعار ، ولم يعد تدخل الدولة لازما فقط لتوفير طلب فعلي كاف عند ظهور البطالة ، وإنما ظهرت مشاكل زيادة هذا الطلب الفعلي ، وغرورة العمل على ضغطه عند ظهور التضخم . وبذلك وجب تدخل الدولة لتحقيق الاستقرار الاقتصادي دون بطالة ودون تضخم مبالغ فيه .

كل ذلك ظهرت أهمية السياسة الاقتصادية في المدة المتوسطة والطويلة ، وليس فقط في المدة القصيرة . فلم تعد السياسة الاقتصادية للدولة تقتصر على تحقيق الاستقرار الاقتصادي في المدة القصيرة وإنما ظهرت مشاكل النمو الاقتصادي في المدة المتوسطة والطويلة . وقد ارتبط ذلك في أول الأمر بمشاكل إعادة تعمير دول أوروبا ، ثم أصبح جزءا من السياسات الاقتصادية العمل على توفير قدر معقول من النمو الاقتصادي . وأصبح من المتعارف بعد ذلك أن نرى خططا اقتصادية في فرنسا وهولندا والبلجيكا وغيرها من الدول الصناعية المتقدمة .

وفي نفس الوقت الذي ظهرت فيه الحاجة إلى ضرورة التدخل الاقتصادي في المجتمعات الصناعية المتقدمة وضرورة وضع سياسات اقتصادية إجمالية ، نجد أن الدول الصناعية التي تتبع الأسلوب الاشتراكي وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي قد تبنت منذ ١٩٢٩ الخطط الخمسية للاقتصاد القومي . وهذه الخطط تتضمن تحديدا للأهداف التي ينبغي للاقتصاد الوصول إليها

(1) CF. J. M. Keynes, *The General Theory of Employment, Interest and Money*, Macmillan, London, 1936,

(2) CF. A. Hansen, *Monetary Theory and Fiscal Policy*, McGraw-Hill, 1949.

وبين الوسائل الكفيلة بتحقيقها ، وغنى من البيان أن الخطة تعتبر الصورة الأساسية لتطبيق الحساب الاقتصادي الإجمالي على نطاق الدولة .

وبطبيعة الحال ليس من السهل القول بأن التخطيط الاشتراكي (١) والسياسات الاقتصادية الإجمالية للدول الرأسمالية نتيجة لأفكار كينز ومن بعده - ليس من السهل القول بأنهما متشابهان فأوجه الخلاف كثيرة ومتنوعة . ولكن ما أردنا أن نوجه النظر إليه هنا هو أن الحساب الاقتصادي قد اتسع نطاقه في المجتمعات الصناعية ، ولم يعد قاصرا على الفرد ، وإنما جاوز ذلك إلى الحساب الإجمالي للاقتصاد في مجموعه ، وأن كانت درجة هذا اندخل ومداه تختلف بسبب طبيعة النظام الإجمالي القائم . وبالرغم من الفروق الضخمة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي ، فإننا نلمح الآن اتجاهات لتخفيف هذه الفروق ، كما سيتضح عندما نتعرض للعلاقة بين التخطيط والسوق في المجتمعات الصناعية .

أهمية المشروع الصناعي الكبير :

نشأ المشروع الصناعي كوحدة للإنتاج مع نشأة النظام الرأسمالي وتطور معه ، والواقع أن نشأة هذا المشروع لم تظهر فجأة وإنما نتيجة لتطور طويل من الصناعات المنزلية إلى الصناعات اليدوية ، حتى أخذ شكله الحالي . وقد أحدث هذا التطور في وحدة الإنتاج الأساسية آثارا بعيدة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة . فمن ناحية انفصل العمل من الأسرة ، مما كان له إبعاد الآثار في طبيعة العلاقات الاجتماعية . كما أدى تركيز عدد هائل من العمال في مكان واحد في ظروف متشابهة إلى نشوء الوعي الطبقي بين العمال كما كان له آثار أيضا على ظروف الحياة في المدن الصناعية المكتظة بالسكان وغير ذلك كثير .

على أن المشروع الصناعي لم يعد مظهرا من مظاهر النظام الرأسمالي وحده ، بل جاوز ذلك ليصبح وحدة الإنتاج الرئيسية في ظل المجتمعات الصناعية الحديثة . فاندول التي أخذت بالنظام الاشتراكي - وهي تضع نصب أمنيها تحقيق أكبر معدل للنمو الاقتصادي على مسا سنرى - قد وجهت أكبر الاهتمام إلى الصناعة وبرجها خاص الصناعات الثقيلة - حتى كاد البعض يتصور أن أسلوب النمو الاشتراكي يختلف من أسلوب النمو الرأسمالي في الاهتمام الزائد بالصناعات الثقيلة . (وأيا ما كان الأمر فإن الخلاف بين تحقيق التنمية من طريق الصناعات الثقيلة أو عن طريق الصناعات الخفيفة لم تعد الآن مشكلة ملهية بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي) والصناعات الثقيلة تحتاج أكثر من غيرها إلى تراكم رأس المال وإلى التقدم التكنولوجي . ولذلك فإن أهمية المشروعات الصناعية الكبرى لم تقل في النظام الاشتراكي عنها في النظام الرأسمالي . ونريد أن نلقي نظرة على طبيعة هذه المشروعات الصناعية والتطور الذي لحقها وإثر ذلك على تحديد خصائص المجتمع التكنولوجي الحديث أيا كان نظامه الاقتصادي .

هناك أولا ظاهرة أساسية وهي اتجاه المشروعات الصناعية نحو التركيز . وقد تنبأ ماركس في القرن الماضي بأن طبيعة النظام الرأسمالي تؤدي بالضرورة إلى تركيز المشروعات الصناعية في عدد قليل من الاحتكارات الكبرى ، وقد رأى في ذلك ما يساعد على زيادة التناقضات في هذا النظام . إذ أنه يؤدي إلى زيادة عدد الطبقة العاملة وإلى التضخم على أصحاب الحرف والمشروعات الصغيرة مما سيؤدي التناقض الطبقي . كما رأى أنه من ناحية أخرى فإن هذا التركيز سيؤدي إلى انخفاض معدل الأرباح ومن ثم اتجاه النظام الرأسمالي إلى مرحلة من الركود .

(١) انظر - أحمد جامع ، الاقتصاد الاشتراكي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

وقد صحت نبوءة ماركس فيما يتعلق باتجاه النظام الرأسمالي الى التركز ، ولكن بقية الآثار لم تتحقق ، أو على الأقل لم تتحقق على النحو الذى ذكره ماركس . كما لوحظ ان الاتجاه نحو التركز فى المشروعات الصناعية الكبرى ليس ظاهرة خاصة بالنظام الرأسمالي وحده ، وإنما هو ظاهرة عامة فى كافة المجتمعات الصناعية المتقدمة ، سواء أكانت اشتراكية أم رأسمالية . والواقع ان التنبؤ بأن النظام الرأسمالي سوف ينتج بالضرورة الى حالة من الركود Stationary State ينخفض فيها معدل الأرباح بحيث لا تقوم أية استثمارات جديدة ولا تحقق أى نوع من التقدم الاقتصادى - الواقع ان هذا النوع من التفكير لم يبتدعه ماركس كلية ، وإنما كان قاسما مشتركا بين جميع الاقتصاديين الانجليز فى القرن التاسع عشر ، مما أدى الى تسميتهم بالمدرسة النشأوية هؤلاء جميعا كانوا يعتقدون فى صحة آراء مالتس فى السكان ، وخاصة قوله بأن عدد السكان يريد بنسبة أكبر من زيادة الموارد الزراعية ، وقد كان هؤلاء الاقتصاديون - ويوجه خاص ريكاردو الذى اثر فى جميع أجيال الاقتصاديين اللاحقين - ضحية المبالغة فى خطورة تناقص الفلة فى الزراعة . فالجتمتع الرأسمالي عندهم سيستمر فى النمو مع زيادة تراكم رأس المال ، ولكن هذا التراكم لن يستمر الى النهاية نظرا لان ظاهرة تناقص الفلة من شأنها ان تؤدي الى انخفاض معدل الأرباح باستمرار وبذلك تصل الى مرحلة الركود التى ينعدم فيها تراكم رأس المال لانخفاض معدل الأرباح وحيث يحصل الأفراد على أجور تكفى لحد الكفاف . وقد أخذ ماركس هذه الصورة مع تعديل فى أسباب الركود كنتيجة لتركز المشروعات وارتباطها بما يسمى بزيادة الكثافة العنصرية لرأس المال الثابت . فعند ماركس ينقسم رأس المال الى متغير وثابت . ورأس المال المتغير يقابل ، بوجه عام ، ما يخصص لأجور العمال هو وحده القادر على خلق فائض القيمة . ورأس المال الثابت هو ما يقابل ، بصفة عامة ، ما يخصص للمواد الأولية والآلات وغير ذلك (وهذا التعريف يقابل تعريف رأس المال الثابت والمتداول فى الاصطلاح الحديث) . ويرى ماركس ان هناك اتجاهًا عامًا نحو زيادة نسبة رأس المال الثابت الى رأس المال المتغير ، ونظرا لان فائض القيمة ينتج عن رأس المال المتغير وحده فان معدل الأرباح سيتجه بالضرورة الى الانخفاض مما سيؤدي الى حالة الركود المتقدمة .

والحقيقة أن النبوءات المتشائمة بالنسبة الى تركز المشروعات الصناعية قد أهملت علاقة هذا التركز بزيادة الكفاءة الانتاجية ، وما يستتبعه الفن الانتاجي الحديث من ضرورة تركيز المشروعات فى عدد محدود من المشروعات الكبرى . فتركز المشروعات ليس سببه الوحيد طبيعة النظام الرأسمالي، وإنما هو ضرورة فنية يقتضيها الانتاج فى المجتمع التكنولوجي الحديث وتطلبها خصائص هذه التكنولوجيا الحديثة .

وأهم ما يميز التكنولوجيا الحديثة هو حاجتها الى مشروعات كبيرة نسبيا وأحيانا كبيرة جدا ، وذلك حتى يمكن استنفاد جميع المزايا الفنية . وقد تحدث الاقتصاديون منذ زمن بعيد عما أسماه بمزايا الانتاج الكبير Economies of Scale أو مزايا الحجم الكبير . فزيادة حجم المشروع تؤدي الى زيادة فى الانتاج أكبر من الزيادة النسبية فى عناصر الانتاج المستخدمة ، فمضاعفة حجم المشروع يؤدي الى زيادة فى الانتاج أكبر من الضعف . والسبب فى ذلك هو ان المشروع الكبير يستطيع الاستفادة من مزايا لا تقبل بدائلها الانقسام ، ومن ثم يحرم منها المشروع الصغير . وهذه المزايا عديدة ، مزايا فى الإدارة ، مزايا فى الفن الانتاجي باستخدام نوع من الآلات أو من الطاقة الذى لا يقبل التجزئة ، مزايا فى الحصول على أنواع من العمل الماهر ،

امكانيات أكبر في دراسة حاجات السوق .. الخ. وقد اطالت كتب مبادئ الاقتصاد في تعداد هذه المزايا وتوافرها . على أنه يبدو أن العامل الحاسم في العصر الحديث بالنسبة للمشروعات الصناعية الكبرى هو « الأبحاث » وهذه الأبحاث تتطلب في العصر الحديث امكانيات مالية ضخمة لا يمكن أن تتوافر للمشروعات الصغيرة . ولذلك يكاد يكون التقدم التكنولوجي الضخم محدودا بالصناعات التي يتركز فيها الإنتاج . ولكن تتضح هذه الصورة بشكل أكبر فسوف نشر إلى المقصود بعدم القابلية للانقسام والتجزئة وإلا ذلك على مزايا الإنتاج الكبير ، ثم نرى مدى إمكان تجزئة الأبحاث حتى تفيد منها المشروعات الصغيرة .

حققت العلوم اطيحية تقدما هائلا لإدخال فكرة المنتهى في الصفر *infinitesimal* وما ترتب عليها من دراسة معدل التغيير الذي يلحق أحد المتغيرات نتيجة لتغيير متناه في الصفر لتغير آخر . وقد أدت هذه الأفكار بلبينز ونويون في القرن السابع عشر إلى اكتشاف قواعد التحليل الرياضي (التفاضل والتكامل) وما ترتب على ذلك من نتائج هامة في جميع العلوم الطبيعية التي لا تزال تجني ثمارها حتى الآن في مجال التطبيق . وهذه الفكرة تفترض القابلية للانقسام والتجزئة بما يسمح بأخذ تغيير صغير جدا (متناه في الصفر حتى يقترب من الصفر) .

هذه الفكرة نفسها عرفها الاقتصاد متأخرا قرنين من الزمان عندما قام ثلاثة من الاقتصاديين منفردين وفي أماكن مختلفة ، بتقديم أساس التحليل الحدي *Marginal analysis* (كارل منجر في النمسا ، ليون فالراس في سويسرا ، ستانلي جيفونز في إنجلترا) حوالي ١٨٧٠ . وتقوم هذه النظرية الحدية على دراسة ماذا يحدث في أحد المتغيرات إذا حدث تغيير طفيف جدا في أحد المتغيرات الأخرى (يكاد يقترب من الصفر) . ومن الواضح أن صلة القرابة قوية بين هذا التحليل الحدي في الاقتصاد والتحليل الرياضي في العلوم الطبيعية . وقد قدم هذا التحليل الحدي نتائج باهرة في الاقتصاد إلى جانب أنه ساعد على إثارة عرض النظريات الاقتصادية . ولكن هذا التحليل الحدي يفترض أيضا القابلية للتجزئة والانقسام ، أو بعبارة أكثر فنية يفترض أن دوال الاقتصاد دوال مستمرة *Continuous Functions* . والحقيقة أن الاقتصاد يعرف كثيرا من الحالات التي لا يصدق فيها ذلك ، وحيث يكون الأصل انقطاع وعدم اتصال هذا الدوال *Discontinuity* . وليبيان فكرة الاستمرار والانقطاع في مجال الفن الانتاجي - وهو الذي يهمننا هنا - بأمثلة توضح هذه التفرقة تشير إلى أن النظرية الحدية في الاقتصاد تفترض أن دوال الفن الانتاجي *Production Functions* مستمرة . ومعنى ذلك أنه إذا كان هناك فن انتاجي معين لإنتاج سلعة معينة وأن هذا الفن الانتاجي يستخدم نسبة معينة من العمل من نوع معين ومن رأس مال من نوع معين ، فإنه يمكن دائما افتراض حدوث تغييرات متناهية في الصفر في كل من هذا العمل ورأس المال . ومعنى ذلك أن هذا العمل وهذا الرأس المال قابل للانقسام والتجزئة إلى أي درجة نريد . وعلى ذلك فإذا كان هناك مصنع صغير جدا فإنه يستطيع أن يفيد من هذا الفن الانتاجي بحصوله على قدر صغير جدا من هذا العمل وقدر صغير من هذا الرأس المال ، ولا خطورة لأننا نفترض القابلية للانقسام .

أما القول بأن دوال الإنتاج غير مستمرة ، فمعنى ذلك أنه إذا كان هناك فن انتاجي معين لإنتاج سلعة معينة ، وأن هذا الفن الانتاجي يستخدم نسبة معينة من العمل من نوع معين ومن رأس المال من نوع معين ، فإنه لا يمكن افتراض تجزئة هذا العمل أو هذا الرأس المال كما نريد ، وإنما هناك حدود لإمكان أحداث هذه التجزئة . فقد تكون الآلة التي تتضمن نوعا معينًا من الكفاءة الانتاجية بحجم معين لا يمكن تجزئتها بالحصول على نفس النوع من الآلة بحجم أصغر ، ولعل من أبرز الأمثلة على عدم إمكان التجزئة : الطاقة الذرية . فمن المعروف أن الطاقة الذرية

تولد طاقة كبيرة جدا ، وحيشا تكون بحاجة الى هذه الطاقة الضخمة فانها تكون أرخص من غيرها من أنواع الطاقة الأخرى . ولكن هذه الطاقة الذرية لا تنتج الا بأحجام ضخمة بحيث لا يمكن استخدامها الا في مشروعات ضخمة جدا . فهي لا تقبل التجزئة . فهذه الطاقة قد تكون أرخص من البترول بالنسبة لمشروعات ضخمة جدا مثل إزالة بعض الجبال وتجهيز الأرض أو إنشاء سفينة تدور حول الأرض عدة مرات ، ولكن لن يأتي اليوم - على الأقل في حدود العقول - الذي تستخدم فيه هذه الطاقة لأشغال ولاعة للسجائر . والسبب في ذلك هو أن الطاقة الذرية غير قابلة للتجزئة في جميع الأحوال .

وهكذا نرى أن عدم القابلية للتجزئة والانقسام هو السبب في مزايا الإنتاج الكبير الذي يتمكن من الأفادة من عناصر لا تقبل بطبيعتها التجزئة ومن ثم تحرم منها المشروعات الصغيرة .

وقد سبق أن أشرنا الى أن العناصر التي لا تقبل التجزئة والانقسام كثيرة ، ولكن لعل أهمها في العصر الحديث هو في مجال البحث . وهذا السبب هو ما يفسر تفوق المشروعات الكبرى على المشروعات الصغيرة . وهو أيضا يفسر الى حد بعيد المزايا التي تحققها الدول الكبرى بالنسبة للدول الصغيرة بالنظر الى تمتعها بمزايا الإنتاج الكبير في مجال الأبحاث .

لعل أهم ما يميز البحث العلمي في العصر الحديث ، على ما سنشير اليه ، أن التقدم العلمي لم يعد نتيجة عمل فرد عبقري بقدر ما هو نتيجة لعمل مجموعة كبيرة من الباحثين في فروع مختلفة ومتكاملة ، وبحيث يتوافر لهم إمكانيات مالية ومعملية ضخمة تمكنهم من إجراء البحوث والتجارب ، وهكذا نجد أن البحث هو من أهم المجالات التي تظهر فيها مزايا الإنتاج الكبير . فحيثما تتوافر الإمكانيات المالية والمعملية يمكن دائما تحقيق نتائج أفضل .

والمشروعات الكبرى في العصر الحديث لم تعد مجرد وحدات للإنتاج ، ولكنها أيضا وحدات للبحث العلمي . وتركز الصناعة يساعد الى حد بعيد على زيادة الإمكانيات المخصصة للبحث في الصناعة . ولذلك نجد أن البحث العلمي لا يقتصر في الدول الصناعية المتقدمة على الجامعات بل يشارك فيه أيضا الصناعات الكبرى بتصيب كبير . وهذا الأمر واضح بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية . كذلك تقدم الصناعات الكبرى المنتج المالية والعقود الى الجامعات للقيام بأبحاث مشتركة ، كما قد تقوم بعض هذه الصناعات برعاية مراكز الأبحاث وبعض الجامعات كما حدث أخيرا بالنسبة للجامعات الأتلمية الحديثة في إنجلترا . وعلى ذلك فإن المشروعات الكبرى تحقق مزايا ضخمة لا تعرفها المشروعات الصغيرة في مقدمتها الأبحاث .

وهكذا نستطيع أن نفهم لماذا حققت معظم الدول الصناعية الكبرى معدلات كبيرة من النمو في ظل الصناعات المركزة ، في حين أن النظرية الاقتصادية كانت تدعي أن المنافسة الكاملة وحدها هي الكفيلة بتحقيق التقدم الاقتصادي ، وأن أي مظهر من مظاهر الاحتكار (التركيز يأخذ غالبا شكل المنافسة الاحتكارية بين عدد قليل من المشروعات) من شأنه الأضرار بالكفاءة الاقتصادية . ولعل السبب في هذا الموقف من النظرية الاقتصادية « التقليدي » هو أنها كانت تفترض دائما القابلية المطلقة للانقسام لجميع عناصر ، وأن المنافسة من شأنها تحقيق الإنتاج عند أقل تكلفة (التكلفة الحدية تساوى مع التكلفة المتوسطة وتصادل الثمن (١) . وهذه النظرية تعمل نتائج التقدم الفني لتحقيق عن طريق الأبحاث والأفادة من مزايا الإنتاج الكبير الناجم من تركيز المشروعات الصناعية . (٢)

(١) انظر في ذلك كتب مبادئ الاقتصاد على سبيل المثال ، أحمد أبو اسماعيل ، أصول الاقتصاد ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦ .

(٢) Cf. K. Galbraith, American Capitalism, Boston, Houghton, 1956

وتركز المشروعات الصناعية ليس ظاهرة فاصرة على الدول الرأسمالية ، بل هو ظاهرة فنية نجدها أيضا في الدول الاشتراكية الصناعية المتقدمة . لأن ظاهرة عدم الانقسام والتجزئة بالنسبة لكثير من عناصر الانتاج إنما هي من الأمور الفنية التي ترتبط بطبيعة التقدم التكنولوجي بصرف النظر عن شكل الملكية القانونية لعناصر الانتاج . وإذا كان من الممكن في الدول الاشتراكية تركيز الأبحاث في مؤسسات ومعاهد قومية بحيث تؤدي خدماتها للمشروعات الكبيرة والصغيرة على السواء إلا أنه من الواضح أن المشروعات الكبرى ستكون أقدر على الاستفادة من هذه الأبحاث لتنوع مشاكلها ولوجود مناصر هائلة الكفاءة في إدارتها تمكنها من توجيه الأبحاث لصالحها وذلك بعكس المشروعات الصغيرة التي ليس لديها المشاكل ولا القدرة الفنية اللازمة للاستفادة من هذه الأبحاث وللتأثير على توجيهها .

كذلك فإن جميع أسباب مزاي الأنتاج الكبير الأخرى الراجعة إلى عدم انقسام العناصر الأخرى كالفن الإنتاجي الحديث ، وبعض أنواع الطاقة والإدارة العالية ، ودراسة الأسواق . الخ . تتوافر بصرف النظر عن النظام الاقتصادي ، ورأسماليا كان أو اشتراكيا .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن التقدم الفني والذي أدى إلى تركيز الصناعات لم يكن متعائلا في جميع الصناعات من ناحية ، وأن التركيز في الصناعات الأساسية قد اصطحب من ناحية أخرى ، بمزيد من الارتباط والتبعية بين قطاعات الاقتصاد . وقد ترتب على ذلك أن نشأ نوع من الارتباط والتبعية بين قطاعات الانتاج ، وقد تطورت فكرة الارتباط بين قطاعات الانتاج في انظرية الاقتصادية .

فقد بدأ منذ نهاية أقرن التاسع عشر الاتجاه نحو النظر إلى الاقتصاد القومي باعتباره كلا مترابطا لا يمكن فصل أجزائه ودراستها دراسة منفصلة ، فكل جزء يتوقف على ما يتم في الأجزاء الأخرى . وقد ظهر ذلك بوجه خاص في أعمال فالراس في نظريته في التوازن الشامل *General equilibrium* (١) وبمقتضى هذه انظرية فإن تحديد التوازن في سوق سلعة معينة لا يتوقف على ظروف هذه السوق وحدها ، وإنما يتوقف أيضا على إيمان جميع السلع الأخرى ، ومن ثم فإنه لا يمكن تحديد ثمن التوازن في كل سوق منفصلة كما تتجه نظرية التوازن الجزئي *Partial equilibrium* وبصورة أخرى إذا كان التوازن يتحقق عندما يسود الثمن الذي يسوى بين الكمية المطلوبة والكمية المعروضة من السلعة ، وإذا كانت الكمية المطلوبة بدورها تتوقف على الثمن (أي أنها دالة للثمن) وبالمثل يتوقف الكمية المعروضة على الثمن (أي أنها دالة للثمن) ، فإن التجديد الذي أتى به فالراس هو أنه ذكر أن دالة الطلب على السلعة لا تتوقف على ثمن هذه السلعة فقط وإنما أيضا على إيمان السلع الأخرى . وبذلك لا تكون بصدد دالتين للعرض والطلب ومتغير واحد هو الثمن للسلعة محل الدراسة ، وإنما يكون هناك عدد كبير من المتغيرات بعدد إيمان السلع الأخرى . ومعنى ذلك أننا نكون بصدد نظام كامل للتوازن ينبغي حله مرة واحدة بإيجاد حل آتني لنظام من المعادلات الآتية *Simultaneous equations* لطلب وعرض جميع السلع ، وكل منها تتوقف على متغيرات عديدة هي إيمان السلع الأخرى . ويمكن حل هذا النظام دفعة واحدة لأننا نكون بصدد عدد من المعادلات مساو للمتغيرات . وأهمية هذا النوع من التفكير هو أنه بين الترابط بين أجزاء الاقتصاد .

ويستند هذا الترابط في الاقتصاد إلى الترابط في الطلب في العرض . فمن ناحية يرتبط

(١) *Elements d'Economie Politique Pure*, gedition, Paris, 1958.

الطلب على سلعة معينة ليس فقط بثمنها وإنما بأثمان السلع الأخرى المنافسة والمكملة لها . وبالمثل فإن عرض السلعة لا يتوقف على ثمنها فقط وإنما على أثمان عناصر الانتاج الأخرى وبحسب درجة الإحلال بين هذه العناصر .

وقد ظلت فكرة الترابط في أجزاء الاقتصاد أو تحليل التوازن الشامل مسألة نظرية هامة بين المفكرين ، ولكنها لم تلق العناية الكافية من حيث اثرها على فهم التطور الواقعي وعلى السياسة الاقتصادية حتى أخرج الاقتصادى الأمريكى - الروسي الاصل ليونيتيف دراسته عن جداول المنتج - المستخدم للولايات المتحدة الأمريكية (١) . وتعتمد دراسة المنتج - المستخدم input-output على الترابط بين أجزاء الاقتصاد كما تظهر في الترابط الفنى للانتاج . فالانتاج في كل صناعة يعتمد على استخدام مواد أولية ونصف مصنوعة منتجة في صناعات أخرى ، وهكذا تقوم سلسلة من العلاقات المتداخلة بين الصناعات المختلفة قبل ظهور الناتج النهائي في سوق الاستهلاك والاستثمار والصادرات . وهذا الترابط أو التداخل بين الصناعات المختلفة هو الذى يجعل كل صناعة حلقة في سلسلة طويلة من العمليات الانتاجية ومن لم فانه لا يمكن دراسة توازن صناعة واحدة مستقلة عن شروط التوازن في الاقتصاد الكلى . ومن الواضح أن هذا المظهر من مظاهر الترابط هو تطبيق مباشر لأفكار فالراس في الترابط من ناحية العرض .

وقد أظهرت دراسات المنتج - المستخدم فائدة هامة لمعرفة سلوك الاقتصاد في الدول المتقدمة . فقد كان الغرض من دراسة ليونيتيف إبراز أهمية الطلب غير المباشر الناتج عن الترابط اصناعي الى جانب الطلب المباشر الناجم عن السوق النهائية (الاستهلاك ، والاستثمار والصادرات) وظهر أنه في كثير من الاحوال يكون هذا الطلب غير المباشر من الأهمية بمكان بحيث ان اتخاذ قرارات دون مراعاته بشكل صريح يؤدي الى ظهور اختناقات في الاقتصاد .

ويتم تكوين جداول المنتج - المستخدم عن طريق تقسيم الاقتصاد الى قطاعات للصناعات المختلفة (الزراعة ، الصناعات الاستخراجية ، الصناعات الهندسية ، الصناعات الكهربائية ، النسيج ..) وتختلف درجة التقسيم باختلاف الحاجة الى التفصيل ، وتوضح الجداول بحيث تكون ذات مداخل مزدوجة Double entry بمعنى أن كل صناعة توضع مرة على الصف ، ومرة على العمود . وتفيد مبيعات كل صناعة في الصف المقابل لها للصناعات المشتريه وبالباقى يباع في السوق النهائية . وبالمثل فإن مشتريات كل صناعة تقيده في العمود المخصص لها ، وهي تشتري من الصناعات الأخرى ، وبالإضافة الى ما تشتريه من سوق عناصر الانتاج . وهكذا نجد ان لدينا جدولين عمليات البيع والشراء داخل الاقتصاد . وفي هذا الجدول نجد أن الجزء الخاص بمبيعات ومشتريات الصناعات مع بعضها هو الذى يهيم في بيان التداخل الصناعي بين القطاعات المختلفة . ونظرا لأن ليونيتيف قد استخدم أسلوب المصفوفات الرياضية للتعبير عن هذه العلاقات ، فإن هذا الجزء الاساسي يطلق عليه مادة اسم مصفوفة التداخل الصناعي أو مصفوفة الطلب الوسيط . ويمكن أن نعبّر عن ذلك بالجدول الآتي .

(1) W. Leontief, The Structure of American Economy, 1919-1939. Oxford University Press, New York. 1951.

مصفوفة الطلب الوسيط

المنتج المستخدم	صناعة (١)	صناعة (٢)	صناعة (٣)	صناعة (٤)	صناعة (٥)	السوق النهائية
صناعة (١)	س	س	س	س	س	ن
صناعة (٢)	س	س	س	س	س	ن
صناعة (٣)	س	س	س	س	س	ن
صناعة (٤)	س	س	س	س	س	ن
صناعة (٥)	س	س	س	س	س	ن
سوق	ل	ل	ل	ل	ل	س
عناصر الانتاج	١	٢	٣	٤	٥	

الجدول الوسيط فقط هو الذي يبين مبيعات ومشتريات الصناعات فيما بينها ولذلك فإننا نضع في كل خانة الحرف س مع رقمين صغيرين للإشارة إلى أن هذه القيمة قد تم بيعها من القطاع صاحب الرقم الأول إلى القطاع صاحب الرقم الثاني ، وعلى ذلك مثلا فإن س ٢٢ تعني مبيعات القطاع الثاني إلى القطاع الثالث .

أما الجزء الخاص بالسوق النهائية فإنه يبين مبيعات كل قطاع إلى السوق النهائية . وكذلك فإن الجزء الخاص بسوق عناصر الانتاج فإنه يبين مشتريات كل قطاع من عناصر الانتاج .

ومن الواضح أنه كلما زاد الترابط الاقتصادي بين قطاعات الاقتصاد زادت المعاملات في جدول الطلب الوسيط. والملاحظ أنه كلما زاد التقدم الاقتصادي زادت المعاملات في هذا الجزء . وقد حاول بعض الاقتصاديين أن يستخدم هذا الأسلوب لدراسة اقتصاديات الدول المتخلفة ، وكانت النتيجة أن جداول المنتج - المستخدم لهذه الدول كانت تتضمن كثيرا من الخانات الخالية في ذلك الجزء الأساسي من جدول المنتج - المستخدم وهو جدول الطلب الوسيط . (١) ومعنى ذلك أن الترابط الاقتصادي بين الصناعات المختلفة لا زال ضعيفا في مثل هذه الدول . وعلى ذلك فإنه مع زيادة التقدم والنمو الاقتصادي فإن الترابط بين القطاعات المختلفة يزداد تاركا

(1) Peacock, Dossar, *Input-Output in Underdeveloped Countries* Review of Economic Studies, Vol. 25, 1957, P. 21.

وتظهر أهمية هذا الترابط المتزايد بين قطاعات الاقتصاد في الدول المتقدمة في ضرورة التنسيق والرقابة على نشاط مختلف القطاعات فلا يمكن تركها دون رقابة ، لا يترتب على سلوكها من آثار بعيدة على مختلف أجزاء الاقتصاد الأخرى . ولعل هذا هو السبب الأساسي في الأزمة التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦٢ بين الرئيس كينيدي وبين صناعات الصلب بصدد سياسة الأخيرة حول الائتمان . فبالنظر إلى الترابط الاقتصادي الهام وإلى الآثار غير المباشر ، فإن ارتفاع أسعار الصلب لن يقتصر على هذه الصناعة وحدها وإنما سوف يؤثر على جميع قطاعات الاقتصاد خلال التأثير في الطلب غير المباشر بين الصناعات المختلفة . ويظهر ذلك بوجه خاص إذا أخذنا في الاعتبار المظهر الثاني للترابط الاقتصادي بين الصناعات وهو عدم التماثل Assymetry وظهور صناعات مهيمنة بحسب وضعها الفني في سوق الإنتاج .

الواقع أنه رغم أن التطور قد أدى إلى مزيد من الترابط والاندماج بين الصناعات المختلفة بحيث أصبحت كل صناعة تعتمد في إنتاجها على عدد متزايد من إنتاج الصناعات الأخرى - بالرغم من ذلك فإن التطور بين الصناعات لم يكن متماثلاً . بل إن هناك صناعات تتخذ مركزاً أساسياً في هيكل الإنتاج بحيث تكاد تعتمد عليها الصناعات الأخرى بشكل أكثر من غيرها . وهذه الصناعات تحتل في الواقع مكانة هامة لأنها تتمتع إلى حد كبير بسلطة التأثير في الصناعات الأخرى بالنظر إلى هذا التطور الفني . ولعل مثال صناعة الصلب المتقدم يعبر عن هذا الوضع .

وعلى ذلك فإن الترابط الاقتصادي الناتج من التداخل الصناعي ليس ترابطاً متماثلاً بين متساويين ، وإنما هو ترابط يتضمن وجود علاقات سيطرة من بعض القطاعات على القطاعات الأخرى (١) . ويظهر ذلك رياضياً من أن مصفوفة الطلب الوسيط وإن كانت ليست خالية إلا أنه يمكن جعلها مصفوفة منحرفة triangularized بمعنى جعلها Similar لمصفوفة توجد معظم القيم فوقه المنحرف الرئيسي Diagonal وتكون خالية تحته أي بحيث توجد أصفار تحت هذا المنحرف) .

ويترتب على هذا التطور أن الترابط الاقتصادي وإن أدى إلى مزيد من الاندماج بين قرارات الوحدات الاقتصادية ، إلا أنه أظهر في نفس الوقت وجود وحدات استراتيجية تؤثر قراراتها بشكل أخطر في الاقتصاد القومي في مجموعه . ولذلك فإن القرارات التي تتخذها هذه الوحدات لا تتعلق في الواقع بها وحدها وإنما تتعلق بالاقتصاد القومي . فقرارات شركة مثل شركة جنرال موتورز لا تتعلق بسياسة أسعار منتجاتها فقط وإنما تؤثر في حجم الإنتاج القومي في مجموعه وفي توزيع الدخل وفي مستوى الأسعار العامة . وقد أثر ذلك الوضع على هيكل الاقتصاد ، فلم تعد في ظل الصورة التقليدية للسوق وإن ظلت الملكية فردية وإنما تعلق الأمر في الواقع باتخاذ قرارات على مستوى الاقتصاد القومي .

أهمية طبقة الفنيين

وإنما إن أهم ما يميز « المجتمع الصناعي الحديث » هو التقدم الفني الكبير في وسائل الإنتاج . فالتقدم الاقتصادي الذي تحققه الدول الصناعية الكبرى لا يرجع إلى تراكم رؤوس الأموال بقدر ما يرجع إلى التقدم الفني ووضع وسائل جديدة للإنتاج ذات كفاءة أكبر واكتشاف مصادر جديدة للطاقة .

(1) Cf. F. Perrous, L' Economie du XX em Siecle, P. U. F., Paris, 1961 P. 27

وقد جرت العادة بين الاقتصاديين على اعتبار ان نمو "Growth" دالة لتراكم رأس المال (الاستثمار) . ونجد هذه العادة لدى الاقتصاديين منذ التقليديين : آدم سميث وريكاردو ، كما نجدوها عند ماركس . وبالمثل فان الاقتصاديين المحدثين (ما بعد كينز) (Post Keynesians) قد وضعوا نماذج للنمو الاقتصادي تجعل هذا النمو دالة بشكل ما للاستثمار ومن اشهر هذه النماذج ما يعرف بنموذج هارود دومار - Harrod-Domar (١) نسبة الى الاقتصاديين المشهورين . وفي هذا النموذج نجد ان معدل النمو الاقتصادي يتوقف على نسبة الاستثمار من الدخل القومي - ويرتبطان بما يعرف بمعامل رأس المال أو نسبة الناتج إلى رأس المال أو نسبة الناتج إلى رأس المال المعروف باسم Capital output ratio . وقدائل هذا النموذج في الفكر الاقتصادي عامة ، حتى ان الدول النامية وهي بصدد وضع برامج التنمية الاقتصادية قد استعارت هذا الأسلوب لتحديد حاجتها من رأس المال اللازم لتحقيق درجة معينة من معدل التنمية .

ورغم الأهمية الضخمة التي يمثلها تراكم رأس المال في أحداث النمو ، فان هناك عاملا ربما يكون له السبق في الوقت الحاضر . في هذا الصدد . هذا العامل هو التقدم الفني . فالتقدم الفني على النمو قد أصبح من الأهمية بحيث لا يمكن إهماله . ولذلك فاننا نجد ان كثيرا من الاقتصاديين المحدثين يوجهون عناية خاصة الى أهمية التقدم الفني في أحداث النمو . فان ما يهم ليس رأس المال المادي فقط وانما رأس المال الانساني المتمثل في العمل الأكثر مهارة ، وبصفة خاصة في الاختراعات والوسائل الجديدة المستخدمة في الإنتاج (٢) .

وهذه الأهمية الكبرى للتقدم الفني وللرأسمال الانساني في أحداث النمو كان لها أكبر الأثر على العلاقات الاجتماعية مما أدى الى ظهور أهمية الفنيين والمديرين كطبقة اجتماعية بدأت تحتل مكانة هامة في الاقتصاد القومي ، وإلى زيادة أهمية الجامعات ومراكز الأبحاث وما تبشره من تأثير في هذا الاقتصاد .

ان التقدم الفني كمصدر من عناصر النمو الاقتصادي يتميز في الوقت الحاضر عن الاختراعات التي تمت في الماضي والتي كان من شأنها زيادة الإنتاج وتحسين نوعه ، فالتقدم الفني في الوقت الحاضر لم يعد نتيجة عمل فرد مبدع أو نتيجة للصدفة بحيث ان التقدم في نوع معين يتم بغزوات غير منتظمة انما أصبح التقدم الفني جزءا منظما من اجزاء العملية الانتاجية ، ومرحلة مندمجة تماما في مراحل الإنتاج . وقد أصبحت الاكتشافات نتيجة لعمل منظم ودقيق بحيث يمكن تخطيطه مقدما . فعنصر الفرد المبدع قد اختفى أو كاد - ولا تكاد نسمع الآن - عن اسم عالم تنسب اليه نتائج التقدم الفني المدهلة التي نراها كل يوم . فاسماء واط وماركوني وبيل اسماء نعرف انها كانت وراء الآلة البخارية واللاسلكي والتلفون . وهذه الأسماء هي جزء من

(1) cf. E. B. Domar, Capital Expansion, Rate of Growth and employment Econometrica (April 1946) ; R. Harrod, Towards a Dynamic Economics, Macmillan, 1948.

(٢) يرى بعض الاقتصاديين انه لا يمكن فصل تراكم رأس المال الذي من التقدم الفني ، فالاستثمارات لا تتضمن فقط الإضافات الى الآلات القائمة بالآلات جديدة من نفس النوع ، وانما تتضمن الاستثمارات الجديدة مادة آلات مختلفة أكثر كلفة وتتضمن آخر ما وصل اليه التقدم التكنولوجي . ولذلك فانه لا يمكن فصل رأس المال عن التقدم الفني ، فتراكم رأس المال ينطوي في الواقع على تطبيق فن انتاجي أكثر تقدما . انظر في ذلك على وجه الخصوص .

N. Kaldar, A,

Model of Economic Growth, Economic Journal, December 1957.

الثقافة العامة . ولكن من يعرف الأسماء وراعا اختراعات كان لها أكبر الأثر في حياتنا اليومية ، من منا يصرف من وراء التلفزيون ، من وراء الترانزستور رغم ان هذا الاختراع الاخير يصد في ذاته ثورة صناعية ، من وراء القمر الصناعي ، مسورتنيك ، ومن وراء برامج أبوللو وغيرها كثير .

ان البحث وما يترتب عليه من اختراعات هي من عمل عدد هائل من الباحثين المجهولين ، ان الاختراع قد أصبح بطبيعته عمل « مجموعة » Team من الباحثين من تخصصات مختلفة . وهو عمل منظم بحيث انه يمكن مقدما معرفة النتائج التي يمكن الوصول اليها في فترة معينة اذا خصص لها الاعتمادات اللازمة . ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٢ حين كانت متخلفة في أبحاث الفضاء عن الاتحاد السوفياتي فاعلن رئيسها في ذلك الوقت (كنيدي) من برنامج للحاق بالاتحاد السوفياتي في ميدان الفضاء والهبوط على القمر في سنة ١٩٧٠ . ولم يكن خريبا على العالمين بطبيعة البحث في العصر الحديث أن يعلوا بنبا وصول « أبولو » الى القمر ١٩٦٩ ، أى في نفس الموعد المحدد (في الواقع قبله) .

واذا كان التقدم الفني في العصر الحديث قد أصبح جزءا عضويا في الإنتاج ولم يعد عملا عفويا نتيجة للصدفة والحظ ، فان وراءه جيش كبير من الفنيين والباحثين الذين يقومون بالوصول الى حلول جديدة للمشاكل ، ويقومون بإجراء التجارب . . الخ . هذا الجيش من الفنيين قد أصبح عنصر أساسيا في الإنتاج لا يمكن لدولة حديثة أن تستغني عنه مما أدى الى زيادة أهميتهم . وهذه الأبحاث والتجارب تتميز بأمرين ، فهي من ناحية قد أصبحت معقدة جدا وتتطلب تخصصات دقيقة تعمل في تعاون ، وهي من ناحية أخرى باهظة التكاليف ، ولذلك فان الأبحاث على ما سبق أن رأينا تعتبر من النشاطات التي تظهر فيها بشكل واضح مزايا الإنتاج الكبير ، ولذلك فانها تتركز في مراكز البحوث في المشروعات الضخمة وفي مراكز البحوث العلمية والجامعات .

كانت الاختراعات في العصر السابق بسيطة نسبيا ، ولم تكن تستند في كثير من الاحوال الى معرفة نظرية متعمقة ، ولذلك كانت تتم غالبا في المصنع ومن العاملين أنفسهم نتيجة للتجربة والخبرة . وقد ساعد على ذلك تقسيم العمل الى حد بعيد . أما في العصر الحديث فان الاختراعات والاكتشافات الجديدة تتميز بأن لها أساسات نظرية وتعتمد على الدراسة النظرية المتعمقة ، فمبدأها المختبر والمعمل وحجرات الدراسة وليس الورشة ، والاكتشافات الجديدة معقدة جدا ولا يمكن لفرد متخصص أن يدركها .

لكذلك فان أهم ما يميز التقدم الفني وما يستلزمه من بحثاته باهظ النفقات . فالأبحاث الواجب إجراؤها والآلات والمعدات اللازمة للمختبرات طويلة ومعقدة وغالية . وتتم عادة مراحل طويلة من التجارب قبل وضع الوسيلة الجديدة موضع التنفيذ . ولعل أهم ما يجعل الأبحاث باهظة التكاليف هو انها كصناعة تعتبر ذات كثافة عمل مرتفعة Labour intensive بمعنى انها تعتمد على العمل بشكل كبير ، ولكنه عمل من نوع خاص ، هو العمل الفني التخصص ذو المعرفة المتعمقة ، ولذلك فان أجوره تكون عادة مرتفعة جدا وهذا ما يجعل نفقات البحث عالية . ولعل هذا السبب هو ما يجعل الولايات المتحدة الأمريكية على قمة التقدم الفني . فنظرا لفنى

هذه الدولة فهي قادرة على اجتذاب العلماء والفنيين من كافة دول العالم ودفع الاجور الباهظة لهم .

والتطور المتقدم جعل الصناعة في العصر الحديث معتمدة الى ابعد الحدود على هؤلاء الفنيين بحيث ان نؤدھم ازداد بشكل واضح . ولم يقتصر الامر على مجرد أهمية هؤلاء الفنيين والباحثين لتطوير وسائل الإنتاج وتحسين نوعه، وإنما جاوز ذلك الى طبيعة العملية الإنتاجية ذاتها . فالإنتاج يعتمد الآن أكثر فأكثر على رأس المال Capital Intensive والآلة الحديثة ليست مجرد آلة تقوم بما كان يؤديه عشرات ومئات من العمال ، ولكنها آلة دقيقة ومعقدة وتحتاج دائما الى عمل فني مؤهل لتشغيلها والإفادة منها وتعديلها دائما . فلم يقتصر التقدم الفني على تعديل نسبة العمل : رأس المال ، ولكنه غير أيضا من طبيعة العمل . فالعمل لم يعد عملا يدويا او ملاحظة رتيبة وإنما هو عمل رقابة ذكية لآلات دقيقة ومعقدة . ولعل أجمل مثال على ذلك هو العقول الالكترونية الحديثة التي تقوم بعمليات ما كان يمكن إجراؤها الا بعدد ضخم جدا من الأفراد وفي وقت طويل . ولكن هذه العقول تتطلب للعمل عليها أفرادا ذوي كفاءة عالية في الهندسة وتحليل البرامج . ولذلك فالتقدم الفني الحديث قد زاد من نسبة الفنيين والمؤهلين بين العاملين . وبعبارة أخرى فان التقدم الفني قد أدى الى زيادة نسبة ذوي الياقات البيضاء على حساب ذوي الياقات الزرقاء . (١) ولذلك فان الصورة المادية للإنتاج في العصر الحديث لا تتطلب العمل اليدوي غير المؤهل الذي يقوم بالأعمال المضنية أو الأعمال الرتيبة والروتينية بقدر ما يتطلب عمل الفنيين الذين يعتمدون على تكوين علمي متين والذين يقومون بوجه خاص بالأعمال الذهنية التي تتطلب اليقظة وسعة الخيال .

وقد ترتب على التطورات المتقدمة ان ظهرت الجامعات ومراكز البحث ومعاهد الدراسة بوجه عام ، كمراكز أساسية وخطيرة في تطور المجتمع الصناعي الحديث ، فالصناعة الحديثة بدأت تعتمد بشكل أساسي على العامل المدرب والمتعلم . ومن ثم فان هذه الصناعة الحديثة تجد مصدر عملها حيث توجد بيئة مناسبة لتوفير هذا العامل المتعلم وليس حيث يوجد العمل الرخيص . ولعل ذلك ما يعبر عن الاختلاف بين توطين الصناعات في العصر السابق وتوطنها حاليا . فصناعات النسيج التي قامت عليها الثورة الصناعية في إنجلترا كانت توطن بصفة خاصة بالقرب من اليد العاملة الزراعية الرخيصة نسبيا . أما الآن فاننا نجد تلازما بين تركيز الصناعات وبين مراكز العلم والبحث ، فحيث توجد مراكز علمية متقدمة فان الصناعة تجد فيها ظروفا مناسبة . كذلك فان الصناعات التي نشأت في أماكن لم تكن معروفة بالاهتمام العلمي والثقافي لأسباب تاريخية - فان هذه الصناعات لم تلبث ان تقوم بتمويل إنشاء الجامعات ومراكز البحوث . وقد حدث ذلك أخيرا في إنجلترا حيث انشئت العديد من الجامعات الإقليمية التي تعتمد كثيرا على تمويل الصناعات المختلفة لها . وتعتمد الصناعة بوجه خاص على الجامعات ومراكز البحوث ، فهذه تعتبر في الواقع عصب التقدم الفني

1. J. K. Galbraith, Le Novel Etat industries, (trad.) Edition Gallimard, Paris 1968 P.P. 253 etss.

الحديث . وقد اشار جالبرت الى ان الجامعات ومراكز البحث في العصر الحديث تقوم بالنسبة للصناعة بنسب الدور الذي كانت تقوم به البنوك في القرن الماضي . فالصناعة في القرن الماضي كانت تحتاج الى التمويل ومن لم فان البنوك لم تلبث ان احتلت مكانة خطيرة من الاقتصاد باعتبارها مراكز لتجميع وسائل التمويل ، مما جعل الكثير من الاقتصاديين يميز في مراحل الرأسمالية بين الرأسمالية التجارية والرأسمالية الصناعية والرأسمالية المالية . وهذه المرحلة الأخيرة إنما تعبر عن المرحلة التي زادت فيها أهمية التمويل بالنسبة للتوسع الصناعي ، مما جعل البنوك المتصرف الحقيقي في النظام الرأسمالي . والواقع أننا في العصر الحديث نكاد نلمح تطوراً في طبيعة الإنتاج بحيث أصبح التقدم الفني والرأسمال الإنساني هو العامل الحاسم في التوسع وليس فقط التمويل المادي (١) وفي مثل هذه الظروف فان الجامعات ومراكز البحث تكاد تقوم بدور التمويل لهذا النوع من التقدم الفني . ولذلك فان الارتباط بين الصناعة وبين الجامعة ومراكز البحث قد أصبح حيويًا في الدول المتقدمة .

وقد ترتب على الأوضاع المتقدمة تغييرات هامة في إدارة المشروعات ، وفي طبيعة الطبقات الاجتماعية ذات التأثير على القرارات الاقتصادية الهامة والدوافع التي تؤثر في هذه القرارات . وقد أثر ذلك على الفكرة السائدة من كيفية إصدار القرارات .

هناك تقليد متبع يربط بين شكل الملكية وبين مصدر القرار، وقد استقر هذا التقليد بوجه خاص مع الماركسية، فمندانها تطور وسائل الإنتاج وبشكل خاص في طبيعة ملكية عناصر الإنتاج، وبذلك فان الرأسمالية تعتبر مرحلة من مراحل التطور تكون الملكية الخاصة لعناصر الإنتاج هي السائدة، وبذلك تصدر القرارات من الرأسمالي المالك . وتكون الاشتراكية - ثم الشيوعية - مرحلة أخرى تتحول فيها الملكية الى الدولة ، وبذلك لا تصدر القرارات من الرأسماليين وإنما من الدولة التي تعبر عن صالح الجميع ؛ ومع ذلك فاننا نتفقد ان تطور شكل الملكية ليس هو الأثر الوحيد وربما ليس الأكثر أهمية لتطور وسائل الإنتاج . فان تطور وسائل الإنتاج وما أدى اليه من ظهور « المجتمع الصناعي الحديث » قد أحدث ثورة في العلاقات الاجتماعية ، وأدى الى تغيير خطير في طبيعة مصدرى القرارات ، وذلك بصرف النظر عن الشكل القانوني للملكية . فقد أدى التطور المتقدم الى الأهمية المتزايدة لطبقة المديرين والفنيين في اتخاذ القرارات الاقتصادية الهامة ، وتكاد نلمح تشابهاً في هذا الصدد بين الدول الرأسمالية التي تحتفظ بالملكية الخاصة وبين الدول الاشتراكية التي أقامت الملكية العامة . هنا وهناك يرداد دور الفنيين والمديرين في اتخاذ القرارات وفي التأثير في الظروف المصاحبة لاتخاذ هذه القرارات . ولا يعني ذلك ان التفرقة بين النظم التي تأخذ بالملكية الخاصة وبين النظم التي تأخذ بالملكية العامة قد زالت فيما يتعلق بالدول الصناعية المتقدمة . فذلك ليس صحيحاً . ففي الدول الرأسمالية يحتل الرأسماليون مكانة هامة من الحياة الاقتصادية والسياسية وفي الدول الاشتراكية يحتل رجال الحزب مكانة هامة من الحياة الاقتصادية والسياسية . ويختلف أولئك عن هؤلاء في كثير أو قليل من ناحية البؤات والقيم الاجتماعية التي يمثلونها ، مما يجعل النظام الرأسمالي مختلفاً عن النظام الاشتراكي . ولكن ذلك لا يمنع من أنه في كلا النظامين هناك اتجاه قوي تحت ضغط التطورات التي لحقت بالصناعة

(١) هناك طبيعة الأحوال بين الأمنين ، ولكننا نريد ان نركز على أهمية عنصر الخبرة والطم الإنساني .

الحديثة نتيجة للتقدم الفني الى ان طائفة المديرين والفنيين بدأت تسيطر تدريجيا على معظم القرارات الهامة وتؤثر في صدورها .

وقد كان من اوائل من وجه النظر الى هذا التطور الأمريكي برنهام في كتابه عن «ثورة المديرين» The Managerial Revolution . وقد كان برنهام ماركسيا من الجناح اليساري المتطرف الذي ينادي بشروعة الثورة الدائمة في العالم اجمع ، وينتمي بذلك الى الجناح التروتسكي من الحركة الشيوعية في الفترة ما بين الحربين . وقد واجه برنهام - شأنه في ذلك شأن الكثيرين من المثقفين اليساريين في الغرب - ازمة ضمير شديدة في الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية عندما عقدت ألمانيا النازية معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتي . فألمانيا النازية في ذلك الوقت كانت تمثل أمسا صور الفاشية اليمينية التي تهدد الحركات الثورية اليسارية . كذلك فان الاتحاد السوفياتي رغم ان الجناح التروتسكي كان ينظر اليه بكثير من التحفظات وخاصة فيما يتعلق بدكتاتورية الفرد والتخلي عن الثورة المالية - قد ظل رغم ذلك في نظر جميع المثقفين اليساريين كسبا ضخما للحركات الثورية مرشدا لها . ولذلك فان معاهدة ١٩٣٨ كانت بمثابة صدمة هؤلاء ، لأنها كشفت عن عقل الدولة Raison d'Etat الذي يدبر مصالح دولة الاتحاد السوفياتي قبل الاعتبارات الملهيية والخلقية . وفي ظل هذا الجو النفسي أخرج برنهام كتابه في « ثورة المديرين » لتفسير ما تم وفقا للنهج الماركسي . ولذلك فانه يرى ايضا ان « الصراع بين الطبقات » هو الذي يحكم التاريخ ، ولكنه يرى ان نتيجة صراع العمال مع الرأسماليين لا تنتهي في صالح الطبقة العاملة وإنما في صالح فئة جديدة تغيد من هذا الصراع وهذه هي فئة المديرين ، مصنفة عامة جميع الفنيين . وليس في هذا ، في نظر برنهام ، مبالغ ، ففي النظرية الماركسية ما يؤكد ذلك . ففي ظل النظام الاقطاعي كان الصراع الطبقي ممثلا بين طبقة الاقطاعيين وطبقة مهضومة هي فلاحو الأرض . وهذا الصراع يحل لصالح طبقة جديدة هي « البورجوازية » ، وبناء على ذلك فقد وجد برنهام مخرجا ، في نظره ، للنزاع الشديد بين « تحالف » دولة « يسارية » مثل الاتحاد السوفياتي مع دولة « فاشية » مثل ألمانيا النازية ، فعنده أنه في كل من الدولتين سيطرت طبقة المديرين والفنيين على الحكم ومن ثم فأنه من السهل ان يتقاربا . وقد تعرضت افكار برنهام لانتقادات كثيرة وخاصة ان كتابه قد ظهر في اثناء الحرب العالمية الثانية وفي فترة كانت فيها ألمانيا النازية تحقق انتصارات عسكرية في أغلب الميادين ، مما طبع الكتاب بالتشاؤم الشديد وبكثير من التنبؤات التي ثبت عدم صحتها فيما بعد .

وبالرغم من الانتقادات التي وجهت الى افكار برنهام والافكار التي ثبت عدم صحتها ، فان شيئا منها ظل محل الاهتمام ، وهو بيان دور الفنيين في الحياة الاقتصادية وتأثيرهم المتزايد في المجتمعات الحديثة . ومنذ ذلك وقد تعددت الدراسات التي تشير الى خطورة تطور المجتمعات الصناعية ودور الفنيين المتزايد فيها ، ومن أهم من تحدث في ذلك R. Aron في فرنسا ، K. Galbraith في الولايات المتحدة الامريكية ، وغيرهم كثير . وقد سبق ان اشرنا الى الاهمية المتزايدة التي يحلها التقدم الفني والعلمي في الإنتاج في العصر الحديث ، وقد ترب على ذلك تغيير جوهرى في شخصية مصدر القرارات الاقتصادية . فالادارة الاقتصادية لم تعد عملا سهلا يستطيع المالك ، أى مالك ، لرأس المال ، أن يقوم بها ، وإنما أصبحت الادارة عملا معقدا يقتضي فيها فنيا متخصصا في مجالات متشابهة ، وتقتضي اتخاذ قرارات من بين عديد من الاختيارات التي تتضمن عددا من الخفريات مما لايسهل القيام به . ولذلك فانه بصرف النظر عن الملكية القانونية لادوات الإنتاج ولا تزال في ايدي رأسمالية ، أم انها نقلت بالثاميم الى الدولة ، فان

اصدار القرار الحقيقي قد انتقل الى أيدي الفنيين والمديرين المؤهلين للقيام بهذه الاعمال . وحتى في الأحوال التي تظل فيها الإدارة القانونية في يد المالك، فإن السلطة الحقيقية قد انتقلت الى الفنيين الذين يحضرون البيانات والاختيارات الممكنة أمام مصدر القرار ويحيث لا يكون أمامه سوى التوقيع أو التصديق على قرارات معدة له سلفاً . فالإدارة الاقتصادية في المجتمع الحديث تتعلق بوحدة انتاجية كبيرة كما سبق ان اشرنا . وهذه الوحدات مترابطة في الاقتصاد القومي بحيث ان ما تتخذه من قرارات يؤثر فيما عداها من وحدات فضلاً عن ان الاختيارات المتاحة لها فعلاً محدودة بالقرارات التي تتخذها الوحدات الأخرى . وفي مثل هذه الظروف فإن اتخاذ القرار ليس سوى الخطوة الأخيرة وربما الأقل أهمية في الحياة الاقتصادية . وقبل ذلك وأهم منه نوع البيانات التي يجمعها الفنيون لدراسة الامكانيات الفنية المتاحة للمشروعات والاختيارات الممكنة من بين الأساليب الفنية المختلفة ، كذلك الدراسات الاقتصادية المتعلقة بالسوق والاحتمالات المتعلقة به ، والآثار المترتبة على اتخاذ القرار على مستقبل أي قرار اقتصادي منها . وهي بيانات يقوم على اعدادها بطبيعة الأحوال الفنيون . ولا يستطيع مصدر القرار أبداً كان استقلاله أن يتجاهل هذه البيانات ويصدر قراره بناء على اعتقاده الشخصي . ولذلك فإن مصدر القرار لا يكون له في كثير من الأحوال سوى اتخاذ القرار المناسب وفقاً لما اعده له الفنيون من بيانات .

وهكذا نرى أن الفنيين والمديرين قد زادوا من قبضتهم على الحياة الاقتصادية . وسواء اقاموا باتخاذ القرارات الاقتصادية بأنفسهم أم كان يقوم بها ظاهرياً غيرهم ، ما داموا في جميع الأحوال مسيطرين على جميع العناصر اللازمة لاتخاذ القرارات . كذلك تقوم بين الفنيين والمديرين العاملين بالصناعة وبين الفنيين والباحثين والعلماء في الجامعات ومراكز البحوث اتمية قوية ، فهؤلاء الفنيون يدينون بمراكزهم الى المعرفة وليس الى الثروة ، وعلاقات الاخذ والرد مستمرة بين مراكز الأبحاث والصناعة والانتقال بين العاملين من الميادين مستمر . فالاستاذ في الجامعة يقوم بالأبحاث لصالح الصناعة وقد يعمل مستشاراً لصناعة معينة . والفنيون في الصناعة يحتاجون دائماً الى متابعة آخر التطورات العلمية كما انه ليس من النادر أن ينتقل أحدهم من ناحية الى أخرى . وهكذا نجد أن طبقة الفنيين بدأت تكون انتماء مستقلاً ويحيث تكاد تمثل طبقة اجتماعية متميزة في سلوكها وفي دوافعها . وهذه الطبقة تستند في قوتها ونفوذها على المعرفة أولاً وليس على الثروة كما هو الحال بالنسبة لطبقة الرأسماليين في الفترات السابقة ، وليس على السلطة والقهر كما هو الحال في بعض المجتمعات الشمولية المختلفة من ناحية التطور الفني والتكنولوجي . وما نشاهد من سيطرة هذه الطبقة لا يقتصر على الدول الرأسمالية المتقدمة بل اننا نجد نفس الظاهرة في الدول الاشتراكية المتقدمة فنياً ايضاً . وهذه الطبقة تجد عداً شديداً من جانب رجال الحزب الذين يريدون ادارة المشروعات الاقتصادية وفقاً للاراء الإيديولوجية المستقرة ، وبصرف النظر عن التطورات الفنية ، ولذلك فإن نزعات التطور في الدول الاشتراكية قد جاءت من جانب الفنيين في المشروعات وفي الجامعات ، في حين أن المعارضة قد خرجت بصفة خاصة من بين رجال الحزب . وهؤلاء الآخرون يمثلون في الواقع دور الرأسمالي في المجتمع الاشتراكي . فرجال الحزب يعتقدون انهم يوصفهم طبيعة الحزب الثوري ممثلون القوى العاملة ، وبناء على ذلك يكون لهم سلطة اصدار القرارات . ومن الواضح أن هذه السلطة لا تستند الى المعرفة الفنية بقدر ما تستند الى السلطة السياسية ولذلك ما لبث أن ظهر التناقض بين طبيعة المجتمع الحديث وما

يقتضيه من معرفة فنية متزايدة في القرارات وبين النظام السياسي الذي يجعل السلطة في يد رجال الحرب . وهنا أيضا بدأ دور الفنيين يتزايد رغم معارضة دوائر الحرب . وقد ظهر ذلك في أزمة تشكوبولسوفافيا في صيف ١٩٦٨ حيث كانت المطالب الاقتصادية وتحرير المشروعات من أهم دوافع هذه الحركة . كذلك نستطيع أن نمثل ذلك بالجدل الذي ثار حول مشكلة الائتمار في الاتحاد السوفييتي (١) . فوفقا للتخطيط الماركسي تتوقف قيمة السلعة على كمية العمل الاجتماعي اللازم لإنتاج السلعة ، وإذا كانت الدول الرأسمالية تضيف إلى قيمة السلعة مقابل «فاخر القيمة» فقد كان من الواجب إلغاء هذا الجزء بعد إلغاء الملكية الخاصة لأموال الإنتاج ، وهو ما لم يحدث حيث أن اعتبارات حسن استخدام رأس المال - وهو عنصر نادر - تقتضي تحمل جزء من النفقة بناء على استخدامه . وهذا هو ما سار عليه المخططون بالرغم من أن التعاليم النظرية تقتضي بأن رأس المال ليس عنصرا منتجا من عناصر الإنتاج . كذلك فإن ما ساعد على عدم العناية بما كتبه كانتوروفيتش في الفترة السابقة على الحرب ، والذي يعتبر في الواقع أول من وضع مشكلة البرامج الخطية Linear Programming . ساعد على ذلك أن عرضه لمشكلة الائتمان تفيد أنه يدخل في تكوين الائتمان كافة عناصر الإنتاج بما فيها رأس المال ، فضلا عن أنه يشير إلى أن الثمن يتحدد وفقا للنفقة المحددة وهي إشارة إلى نفس الأفكار السائدة في الفكر البورجوازي ، ولذلك فإن أفكار كانتوروفيتش قد ظلت مجهولة حتى ظهرت أهمية البرامج الخطية وبحوث العمليات بعد الحرب فأعيد النظر فيها . والسبب في إهمالها إنما يرجع إلى أنها تخالف النظرية الإيديولوجية الرسمية للقيمة . وأيا ما كان الأمر فإن طبقة الفنيين قد بدأ يتزايد دورها في هذه الدول الاشتراكية وبدأت أساليب إدارة المشروعات تتقارب مع الأساليب المتبعة في الدول الرأسمالية . وليس مرد ذلك إلى «برجزة» الدول الاشتراكية كما يحلو للبعض قوله . وإنما مرده إلى التقارب في الأوضاع الفنية وما يقتضيه ذلك من ضرورة الأخذ بأساليب فنية متشابهة .

وإذا كان الفنيون في كل مجتمع يتألفون بالقيم السائدة فيه ، إلا أن ذلك لا يمنع من أنهم يتميزون بدوافع وسلوك مختلفين عن الدوافع التي تحرك الرأسماليين مثلا . فالفنيون في اتخاذهم للقرارات الاقتصادية في إدارة المشروعات لا يسعون إلى تحقيق أقصى الأرباح بأية وسيلة وإنما غايتهم ، غالبا ، تقتصر على العمل على استثمار المشروع ونجاحه . والنجاح لا يقدر بالضرورة بالأرباح بقدر ما يقدر بالإنجازات الفنية والقدرة على الزيادة المستمرة للإنتاج . فإذا كانت لزيادة الأرباح تقتضي في أحوال معينة (بعض صور الاحتكارات) تضييق الإنتاج فإن ما يعنيهم في الدرجة الأولى هو توسع الإنتاج ولو على حساب الأرباح قليلا . وفي نهاية الأمر فإنهم لا يملكون عناصر الإنتاج حتى يصيهم هذا الجشع المتملق بزيادة الأرباح ، ومن ثم فإنهم يكونون في وضع يسمح لهم باتخاذ قرارات قد لا يترتب عليها أفضل وضع من حيث الأرباح . وليس معنى ذلك أنهم بما يهتمون بالأرباح ، فذلك ليس بصحيح ، إذ أن نجاح المشروع وقدرته على التوسع إنما ترتبط بما يحققه من أرباح . ولكن نظرهم إلى الأرباح ليست فاصلة على الأرباح في ذاتها وبصرف النظر عما يترتب عليها ، وإنما اهتمامهم بالدرجة الأولى إلى استثمار المشروع وتقديمه الفني وتوسعه باستمرار . ولذلك فليس غريبا أن نجد أن نمو المشروع (٢) بل والنمو بصفة عامة هو

1. cf. H. Denis et M. Lavigne, *Le Probleme des Prix en Union Sovietique*, édition Cujas, Paris, 1965.

2. cf. E. T. Penrose, *The Theory of the Growth of the Firm*, Oxford, Blackwell, New York : Wiley 1960.

الهدف الذى يشغل بال المشروعات الاقتصادية، ويصرف النظر من النظام السياسي والاجتماعي. ففي الدول الاشتراكية كما في الدول الرأسمالية يعتبر النمو غاية يبني العمل على توفيرها. وهذا ما يجعلنا نعرض لظاهرة تزايد الانتاج المستمر وبكل الطرق، وهو ما اشار اليه جالبرت بأنه مجتمع الوفرة في كتابه *The Affluent Society* والذى أطلق عليه أيضا «مجتمع الاستهلاك» (٢)، وخاصة بعد ثورات الطلبة في فرنسا وفي ألمانيا وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

مجتمع الاستهلاك:

الغاية النهائية من النشاط الانتاجي في كل مجتمع هو الاستهلاك، ولا يختلف المجتمع الحديث في ذلك عن أي مجتمع سابق الا في الأهمية الزائدة التي بدأت تحتلها ضرورة العمل على زيادة الاستهلاك، والقدرة الهائلة التي توفرت لهذا المجتمع للعمل على تحقيق هذه الزيادة باستمرار وبمعدلات متزايدة دائما. وقد سبق أن اشترنا إلى أن التقدم الفني الهائل المتاح الآن لاستخدامه في اساليب الانتاج قد وفر القدرة المستمرة على زيادة الانتاج والاناجية مما زاد من فرص الاستهلاك، كذلك سبق أن اشترنا إلى أن سيطرة الفنيين على قرارات الانتاج قد ساعدت على النظر إلى النمو أي زيادة الانتاج في ذاتها وما يرتبط بها من ضرورة زيادة التصريف باعتبارها من الاهداف الرئيسية التي يتوخاها مصدرو هذه القرارات. وقد نجم عن ذلك أن الاستهلاك في المجتمع الحديث قد زاد بشكل لم يكن معروفا فيما سبق، كما نجمت منه مجموعة من القيم والقواعد التي تنظم حياة المجتمع في ضوء زيادة الاستهلاك. إذ اعتبرت زيادة الاستهلاك ذاتها قيمة اجتماعية كبرى ومحورا لكثير من أجزاء النشاط الاقتصادي، فزيادة الاستهلاك في ذاتها يصرف النظر عن الحاجات التي يشبهها هذا الاستهلاك المتزايد قد أصبحت من قواهد الانتاج في العصر الحديث فالاستهلاك لا يتزايد لاشباع حاجات قائمة، بقدر ما تخلق حاجات جديدة للتمكين من زيادة الاستهلاك وقد كان لهذا الظاهرة آثار بعيدة على الاقتصاد كما أنها نتائج خطيرة على السلوك الاجتماعي بدأت تظهر في الفترة الأخيرة.

الواقع أن مظاهر مجتمع الاستهلاك لا زالت حديثة. كما أنها لا زالت بعيدة من أن تكون عامة سواء من حيث الدول أو حتى بالنسبة للدولة الواحدة. فبالنسبة للدول الصناعية لا يمكن الحديث باطمئنان عن وجود مجتمع الاستهلاك بالصورة التي نتحدث عنها الا في شكل اتجاه عام، ولا تكاد توجد دولة تتركز فيها خصائص هذا المجتمع الا في الولايات المتحدة الأمريكية. وحتى بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فهذا المجتمع لا زال بعيدا عن أن يكون شاملا، ذلك أن التقدم الحقيقي في العالم حتى الآن قد أخذ صورة النمو غير المتوازن *Unbalanced Growth* بمعنى أن هناك دائما قطاعات أسبق من غيرها في استيعاب التقدم وفي تحقيق النمو، كما أن هناك مناطق جغرافية أقدر على تحقيق التقدم من غيرها. وهذا النمو غير المتوازن نجده على مستوى العالم في مجموعه - مما أدى إلى وجود الدول النامية والمتخلفة - كما نجده على مستوى الدولة الواحدة - مما أدى إلى وجود الأماكن والقطاعات المتخلفة. وعلى ذلك فنحن حديثنا عن خصائص مجتمع الاستهلاك لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن هذا المجتمع قد تحقق بالفعل وإنما هو مجرد اتجاه عام بدأت تظهر خطوطه الرئيسية، ولكن جزر الفقر موجودة دائما وهي تثير الكثير من المشاكل على ما سنرى.

وإذا كانت خصائص مجتمع الاستهلاك لا زالت حديثة فإن يودرها قد ظهرت على النظرية

الاقتصادية منذ فترة ، وهذا هو في الواقع مغزى التطور الذي لحقها منذ التقليديون وكينز . وبدون التعرض الى جوانب كيفية توزيع الدخل التي تثير في الواقع خلافات مذهبية ، فان جوهر النظرية التقليدية في الاقتصاد والتي ورثناها منذ آدم سميث وريكادو ، هو ان الطلب الكلي في الواقع يستوعب دائما العرض الكلي . فكل ما ينتج من السلع نجد له طلبا في السوق ، وإذا كان من الممكن حدوث بعض الاختلالات الجزئية في الاقتصاد كان يكون عرض سلعة معينة أكبر أو أقل من الطلب عليها فان ذلك لا يمكن الا ان يكون حالة استثنائية جزئية لا بد ان تعادلها اختلالات جزئية أخرى . والمهم في كل ذلك هو ان مجموع الطلب الكلي في الاقتصاد لا يمكن ان يقل عن مجموع العرض أو الإنتاج الكلي . ولذلك فان الاقتصاد بطبيعته يتوازن عند مستوى التشغيل الشامل . وتفسير ذلك ان الاقتصاد بعيد عن اشباع جميع الحاجات ، ولذلك فان الحاجة موجودة باستمرار لزيادة الإنتاج وفرص الربح من الاستثمارات الجديدة مكفولة بالنظر الى ان هناك دائما قدرة على زيادة الإنتاج وزيادة الاستهلاك . فرص الاستثمارات تكون عادة كبيرة ، ولكن نظرا لان الاقتصاد فقير فانه لا يمكن القيام بكل هذه الاستثمارات . ويتم القيام فقط بالاستثمارات في الحدود التي يمكن فيها ضغط الاستهلاك . وعلى ذلك فكل جزء يمكن ادخاره من الناتج القومي سيطلب بالضرورة للاستثمار لان فرص الاستثمار كبيرة لوجود فرص الربح من الانتاج في المستقبل واشباع الحاجات الناقصة . وعلى ذلك فان التقليديين وجهوا انظارهم الى الادخار ، فهذا هو القرار الهام ، وهو الذي سيحدد مقدار الاستثمار . فكل ما يدخر سيستثمر حتما لان الطلب على الاستثمار كبير جدا . ولذلك لم يتم صعوبة عند التقليديين لتقرير ضرورة تحقيق التوازن في الاقتصاد ، العرض الكلي يتساوى دائما مع الطلب الكلي . فالعرض الكلي يتكون من عرض سلع الاستهلاك وعرض الادخار ، والطلب الكلي يتكون من الطلب على الاستهلاك والطلب على الاستثمار . ونظرا لان الطلب على الاستثمار يكون كبيرا جدا بالنسبة لمرض الادخار فانه لا يمكن ان تقوم حالة يزيد فيها العرض الكلي من الطلب الكلي .

واذا انتقلنا الى تحليل كينز Keynes (1) نجد ان التجديد الذي اتي به هو انه أوضح ان الطلب على الاستثمار قد لا يكون من الكبير بحيث يستوعب كل المدخرات . ولذلك فليس من القبول الاهتمام فقط بالادخار باعتبار ان الاستثمار سيتحقق دائما ، بل لعل العكس هو الصحيح ، فنظرا لنقص فرص الربح فان الطلب على الاستثمار قد يكون محدودا ، ومن ثم وجب ان تعدل الادخار وفقا لهذا الطلب المحدود . وراى كينز ان تعديلات الادخار وفقا للطلب على الاستثمار تتم بتغيرات مستوى الدخل القومي والعمالة معا قد يجعل وجود بطالة امرا متفقا مع التوازن الاقتصادي . وهذا هو في الواقع جوهر الثورة التي أحدثها كينز في النظرية الاقتصادية في كتابه الشهير « النظرية العامة » . ومن الواضح ان امكان نقص الاستثمار من المدخرات انما يرجع الى نقص فرص الربح من الاستثمارات الجديدة . وهذا يشير في الواقع الى ان زيادة الاستهلاك في المستقبل لم تعد متوافرة كما كان الأمر قبل ذلك بقرن من الزمان . وهذا تغيير هام وهو مقدمة لبيان ان الاستهلاك قد بدأ يفرض نوعا من المشاكل ، فنحن لسنا في مرحلة الفقر الشديد وحيث كل زيادة في الاستهلاك ستصرف حتما ، ولكننا بدنا ندخل مرحلة امكان نقص الطلب الفعلي من توفير العمالة الشاملة ، ولذلك فان السياسة التي نصح بها كثيرة هي ضرورة العمل على زيادة الطلب . على انه لا ينبغي ان تعطى نظرية كينز أكثر من دلالتها الحقيقية . فليس معنى ذلك ان العالم كدهر من مجتمع الاستهلاك في الثلاثينات . ولكن ما نود ان ننشر اليه هو انه بدأت تظهر مشاكل

1. cf. N. Kaldar, A Model of Economic Growth, Economic Journal December, 1957, Reprinted in Essays on Economic Stability and Growth, London, 1960, P. 295.

الطلب الكلي ولم تعد أمراً تلقائياً كما كانت عند بداية الثورة الصناعية وفي ظل مستويات الاستهلاك المنخفضة . ومما ساعد على ظهور أزمة الطلب الكلي في الثلاثينيات سوء توزيع الدخل . فأصحاب الدخل المنخفض لم يكن من الممكن زيادة استهلاكهم نظراً لانخفاض دخولهم ، وأصحاب الدخل المرتفع لم يكن من السهل زيادة استهلاكهم نظراً لانخفاض مرونة الاستهلاك لديهم . وفي هذا الجانب يتفق تحليل كينز مع تحليل ماركس للأزمات الاقتصادية في ظل النظام الرأسمالي .

وإذا كانت نظرية كينز قد مهدت السبيل نحو ضرورة الأخذ بسياسات التدخل لزيادة الطلب الفعلي فإن آثارها لم تظهر بشكل واضح إلا في السنوات الأخيرة في المجتمعات المتقدمة جداً ، وفي هذه المجتمعات يبدو في كثير من الأحوال أن النظام الاقتصادي منها يسير على عكس مقتضيات الرقابة الاقتصادية . وحقيقة الأمر أن اختلاف الظروف يستدعي اختلافاً في النظرية السائدة وفي قواعد السلوك . وهذا ما دعا جالبرت إلى القول بأن « مجتمع الوفرة » (١) يختلف بالضرورة عن « مجتمع الندرة » الذي ظهرت فيه تعاليم النظرية الاقتصادية على أيدي آدم سميث وخصوصاً ريكاردو . والأمثلة على هذا الاختلاف كثيرة . إن التماثل في الاقتصاديات المتقدمة وبوجه خاص في الاقتصاد الأمريكي يجد غرابة في الدور الذي يحتله الإعلام في هذا الاقتصاد . فالنفقات التي تنفق على الدعاية بصورها المتعددة والتطور الذي نجم من ذلك في وسائل الإعلام المختلفة يقطع جزءاً هاماً ومتزايداً من الناتج القومي . وليس من السهل الاقتناع بأن هذه النفقات يقصد بها فقط إعلام لجمهور المستهلكين بوجود السلعة ومزاياها ومن لم يحقق خدمة اقتصادية، إذ الواقع أن كثرة هذه الدعايات وتكرارها والإصرار عليها لا يمكن أن يكون الفرض الوحيد منه هو الإعلام ، ولذلك فقد ذهب عدد من الاقتصاديين إلى القول بأن نفقات الدعاية والإعلام في جزء كبير منها تعتبر ضياعاً Wastage على الاقتصاد لا تتحقق من ورائه أية منفعة اقتصادية ، وإن هذه الموارد كان من الأبعد توجيهها نحو استخدامات أكثر فائدة . وهذا النظر أمره معقول ومقبول في « اقتصاد الندرة » الذي تعودنا عليه . ففي ظل هذا الاقتصاد حيث يحكمنا أساساً قانون الندرة، يترتب على مجاوزة الإعلام للحدود المعقولة في توفير العلم للمستهلكين اقتطاع جزء من الموارد واستخدامها فيما لا يعود بفائدة مباشرة على المستهلكين . ولكن الأمر يكون مختلفاً عن ذلك فيما نسميه « باقتصاديات الوفرة » . فقد سبق أن أشرنا إلى أن الإنتاج في هذه الدول قد زاد زيادة كبيرة مما أدى إلى إشباع الحاجات الأساسية للأفراد ، أو كاد . ومع ذلك فإن استمرار زيادة الإنتاج تتطلب في الواقع زيادة الاستهلاك وهو أمر لم يعد من السهل تحقيقه نظراً لأن الحاجات الأساسية قد تم إشباعها . ولذلك فإن جزء هاماً من الموارد الاقتصادية إنما يتجه نحو تنمية عادات الاستهلاك وخلق عادات جديدة للاستهلاك حتى يستمر الإنتاج في التوسع المستمر . فالحاجات التي تشبع الآن لم تعد قاصرة على الحاجات البيولوجية الأولية وإنما هي حاجات نفسية واجتماعية وثقافية تطلّحها البيئة التي يعيش فيها الفرد . ومن ثم فإن نفقات الدعاية والإعلام لم تعد مجرد وسيلة لتوفير العلم لدى المستهلكين بوجود السلعة وبخصائصها وإنما اعتبرت بشكل خاص وسيلة للتأثير على إرادة المستهلكين وأذواقهم بخلق حاجات جديدة لديهم لم يكونوا يشعروا بها فيما لو لم تنفق هذه المصاريف . ولذلك فإنه في ظل مجتمع الاستهلاك أصبح الإعلام جزءاً عضوياً من جهاز الإنتاج ويدونه لا يستطيع هذا الجهاز الاستمرار في النمو .

وقد ترتب على ما تقدم تغيير في القيم الاجتماعية السائدة . فالاستهلاك أصبح في ذاته قيمة اجتماعية كبرى ، ويقاس مركز الفرد الاجتماعي بقدر ما يستهلك من السلع والخدمات ومدى قدرته على التغيير المستمر . ومن هنا نجد أن من خصائص الأذواق في العصر الحديث

التغير المستمر ، « الودة » دائما في تغير حتى يشعر الفرد بحاجته المستمرة الى التغير في استهلاكه مما يؤدي الى الاستهلاك المستمر . ونستطيع ان نمطي مثالا لذلك ، فالمجتمع الأمريكي كان ولا يزال متقدما على المجتمعات الأوروبية في كثير من خصائص مجتمع الاستهلاك . وقد كانت السيارات من سلع الاستهلاك الجارى في الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتمد عليها عدة صناعات أساسية ، ولذلك فقد كان من الواجب ادخال عادة تغير السيارة كل فترة . ولذلك نجد ان اشكال السيارات الأمريكية تتغير دائما كل فترة حتى يضطر الفرد الى اقتناء سيارة جديدة . ولم يكن الامر كذلك في أوروبا حيث ان صناعة السيارات لم تكن بهذه القدرة ولذلك فان السيارة في أوروبا كانت سلعة معمرة تقضى لكي تعيش سنوات عديدة قبل استبدالها لتلف فيها . والان نلاحظ ان صناعة السيارات في أوروبا قد تقدمت واصبحت السيارة من سلع الاستهلاك الجارى وكان لا بد من زيادة الاستهلاك . واذا بنا نرى السيارات الأوروبية التي انتجت لعشرات السنوات بنفس الشكل قد بدأت تميل الى ادخال تعديلات في شكلها الخارجي بحيث انها تسير الآن في نفس الاتجاه الأمريكي .

ونلاحظ ان استقرار عادة الاستهلاك كقيمة اجتماعية تفسر سلوك الأفراد في المجتمع الحديث هي ظاهرة جديدة ، فإذا كان الاستهلاك ونوعه وتنوعه يحدد في العصر الحديث - الى حد ما - مكانة العائلة الاجتماعية ، فان ذلك لم يكن كذلك دائما . ففي القديم كان المركز الاجتماعي يتحدد بحسب النسب ، فالانتماء الى عائلات الارشاف والنبلاء هو الذى يحدد المركز الاجتماعي للفرد ويصرف النظر عن مقدار استهلاكه وبذلك انه من مدعاة السخرية انه يحاول الفرد ان يجارى النبلاء في حياتهم وأن يحاول أن يستمد مركزه الاجتماعي من زيادة انفاقه الاستهلاكي ، ومن هنا نستطيع ان نفهم الكوميديا الساخرة « لولير Le Bourgeois Centilhomme » عن ذلك التاجر الذى حاول ان يتشبه بالنبلاء لمجرد زيادة انفاقه الاستهلاكي .

لكذلك نجد انه مما ساعد على قيام الرأسمالية الناشئة سيادة الافكار البيوريتانية Puritan التي صاحبت الإصلاح الديني في أوروبا ، والتي كانت تدعو الى الحرص والاعتدال في الحياة مع ما يترتب على ذلك من تضييق الاستهلاك وتقدير مادة الادخار . وقد كان عدد كبير من المهاجرين الى أمريكا من هذه الطوائف الدينية . ونحن نعرف انه في المراحل الأولى تكون الحاجة الى الادخار كبيرة لمواجهة حاجات الاستثمار المتزايدة . ولم يدخل الاستهلاك في مجال القيم الاجتماعية الا متاخرا . ولعله من الطريف ان اول من اشار الى اهمية هذا « الاستهلاك المتفاخري » : Conspicuous consumption هو الاقتصادي الأمريكي فيلسن Veblen في كتابه The Leisure Class وهو بذلك يشير الى ان بلور هذا المجتمع الجديد قد ظهرت أيضا في الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية القرن الماضي . ولم ينظر الى اثر الاستهلاك كقيمة اجتماعية في النظرية الاقتصادية الا مؤخرا عندما كتب دونزبرى (١) من « اثر التقليد » Demonstration effect ، وبين ان استهلاك الفرد لا يتوقف على ذوقه وما يريده هو بقدر ما يتاثر بما يستهلكه الآخرون ، وبذلك ادخل فكرة التداخل بين اذواق المستهلكين في تحديد ذوق المستهلك Interaction of utilities . ومعنى ذلك ان الاستهلاك اصبح قيمة اجتماعية . فالفرد لا يستهلك ما يريده فحسب ، وانما يستهلك ما يجد جيرانه وزملاءه يستهلكونه . ومن هنا نفهم الدور الذى يقوم به الاعلان في العصر الحديث .

1. cf. J. Duesenberry, *Income, Saving and the Theory of Consumer Behaviour*, Cambridge, Mass. 1949.

وإذا كان الاستهلاك يزيد باستمرار ويتنوع ، فإن مقتضيات الإنتاج بائق نفقة تستدعى في نفس الوقت إيجاد نوع من النمطية في الاستهلاك Standardization فقد سبق أن اشرنا الى المزايا العديدة التي يحققها الإنتاج الكبير ، ولذلك فإن المشروعات في سعيها نحو زيادة الإنتاج وما يستتبعه من زيادة في الاستهلاك إنما تحاول أن يتم ذلك بشكل نمطي بقدر الامكان حتى تنخفض نفقة الإنتاج . ولذلك فإن أهم ما نلاحظه في الوقت الحاضر هو اتجاه الاستهلاك الى الطبقات الوسطى وليس الى الطبقات العليا . ففي الماضي كان الحديث عن الأذواق والمودة قاصرا على طبقة محددة من ذوي الدخل المرتفع ، أما الآن فإن المنتجات الحديثة تنجح عادة الى المستهلك العادي والذي يكون الغالبية الكبرى من المستهلكين ، وهؤلاء يشترون عادة ما يقدم لهم دون نظرة نقدية . فهم بطبيعتهم من مقدري الاستهلاك النمطي . ولذلك فإن الاستهلاك الترفي في العصر الحديث ليس قاصرا على الطبقات العليا وإنما هو من أهم خصائص الطبقة الوسطى وما دونها . بل لعل الطبقات العليا قد بدأت تميل نحو التعفف عن هذا الاستهلاك النمطي .

وإذا كان مجتمع الاستهلاك قد أدى الى الزيادة المستمرة في استهلاك الطبقات المحرومة نوعا ، إلا أنه لم يخل من انتقادات عنيفة مردها الى نظريته المادية الى الاستهلاك وعدم وجود مثل خلقية وثقافية الفرض منها تنمية الفرد وقدراته . فهذا المجتمع يخلق من الفرد أداة للاستهلاك دون أن يجعل منه إنسانا حقيقيا . وهذه الانتقادات وغيرها سوف تتعرض لها فيما بعد ولكننا نسير الآن الى أمر هام ، وهو هل يترك هذا النظام الاقتصادي لقوى السوق وحدها أم لا بد من إخضاعه لخطة . وبعبارة أخرى هل التنظيم الرأسمالي أو الاشتراكي هو الأقدر على مواجهة حاجات هذا المجتمع ؟ أم أن الحقيقة أن السوق والخطة ليسا متعارضين كما يبدو للوهلة الأولى ، وأن الحاجة هي إليهما معا ؟ وهذا ما سيساعد على فهم مدى الاختلاف بين النظم الحديثة .

السوق والخطة

اشرنا فيما تقدم الى أهم خصائص « المجتمع الصناعي الجديد » وما أدى اليه من تقارب بين النظم الاقتصادية المتقدمة والتي ظهرت فيها هذه الخصائص بشكل واضح ، كما تعرضنا الى التطور الذي لحق الأشخاص الذين يتخذون القرارات الاقتصادية ، ووجدنا أن هناك اتجاها متزايدا نحو تركيز سلطة اتخاذ القرارات الاقتصادية في أيدي المديرين والفنيين ، وأشرنا الى مسا ترمب على ذلك من انفصال بين الملكية القانونية وبين الإدارة الاقتصادية . ومن شأن ما تقدم تأكيد الانطباع بأن تقاربا يتم الآن بين الدول الصناعية المتقدمة الرأسمالية ، والدول الصناعية المتقدمة الاشتراكية . على أن هذا الانطباع لا ينبغي أن يخرج عن كونه اتجاها عاما وليس حقيقة قائمة في جميع الدول الصناعية بنفس الدرجة . فلا زالت الملكية الخاصة تلعب دورا هاما في القرارات الاقتصادية في الدول الرأسمالية ، كما أن سلطة الحزب السياسي (الشيوعي) باعتباره طليعة القوى العاملة لا زالت كبيرة جدا في الدول الاشتراكية . وبالرغم من هذه الفروق فإن الاتجاه العام السابق الاشارة اليه حقيقة لا يمكن انكارها .

ونود الآن أن نسايل ، ألا تختلف الإدارة الاقتصادية باختلاف النظام الاقتصادي ؟ ألا تغير طبيعة هذه الإدارة بحسب ما إذا كان نظام السوق أو نظام التخطيط هو السائد ؟ الواقع أن هذا هو التساؤل الأساسي الآن ، الى أي حد يتعارض نظام السوق مع نظام التخطيط وإلى أي حد يكاملان ؟

الفكرة السائدة هي أن النظام الرأسمالي يقوم على أساس السوق ، في حين أن النظام الاشتراكي يقوم على أساس التخطيط . هذا مانود أن نتعرض له الآن لنرى كيف أدى التطور الحالي للمجتمع الصناعي الحديث الى التكامل بين النظامين .

قد يبدو من وجهة نظرية بحتة أن النظامين متعارضان تماما ، فنظام السوق هو الأخذ بنظام اللامركزية الاقتصادية Economic decentralisation في حين أن نظام التخطيط هو تطبيق لفكرة المركزية الاقتصادية Economic Centralisation

يقوم نظام السوق من الناحية النظرية ، على ما يعرف بسيادة المستهلك :

Consumer sovereignty فالمستهلكون يقومون بتوزيع دخولهم من العمل والملكية أو من أيهما على السلع والخدمات المختلفة بحسب أذواقهم وبما يحقق لكل منهم أكبر إشباع ممكن وفقا لسلم ترتيب أفضليته . ويعتبر كل مستهلك مستقلا في قراره بتوزيع دخله على السلع والخدمات دون أن يقوم أى تنسيق مسبق^(١) بين قراره وقرارات غيره من المستهلكين . ولا تقصد بذلك أن المستهلك الفرد لا يتأثر باستهلاك الآخرين فقد سبق أن تعرضنا إلى أهمية «آثر التقليد» ولكن ما نقصده هو أن المستهلك في قراره لا يعني بقرارات غيره من حيث أثرها على التوازن العام . فكل ما يريده هو أن يحقق أقصى إشباع ممكن له حسب ذوقه من دخله المحدود ، ولا يستطيع أى مستهلك بفعله المنفرد أن يؤثر في الألمان المعروضة ، في محيط من المستهلكين وسواء زاد الكمية التي يشتريها أم نقص منها فإن أثره على الطلب الكلي لا قيمة له . ولكن التأثير في لمن السلمة يحدث نتيجة لمجموع أفعال المستهلكين كما تظهر في الطلب الكلي .

وكذلك فإن الإنتاج يتم في ظل نظام السوق من جانب المنتجين الذين يواجهون بألمان معينة لعناصر الإنتاج وألمان السلع ، ولا يستطيع أيهم أن يغير بفعله المنفرد من هذه الألمان وإنما عليه فقط أن يقوم بالتأليف بين عناصر الإنتاج بما يسمح له بتخفيض النفقات إلى أقل قدر وينتج الكمية التي تحقق له أقصى ربح . والأصل هنا في نظام السوق (وهو ما يطلق عليه سوق المنافسة الكاملة) أن كل منتج ذرة في هذه السوق ، ولا يقوم أى تنسيق مسبق بينه وبين غيره من المنتجين . ويحدث التأثير في الكمية المعروضة نتيجة لمجموع أفعال المنتجين كما تظهر في العرض الكلي . ويتم التوازن عندما يتساوى الطلب الكلي مع العرض الكلي لكل سلعة ، مع ما يترتب على ذلك من تغيرات في الألمان . وعلى ذلك نجد أن التوازن يتحقق في الاقتصاد بالفعل Ex Post (٢) نتيجة لتغيرات الألمان التي تحقق المساواة بين العرض والطلب ، والذي يهيمن في الصورة النظرية المتقدمة هو أن القرارات الاقتصادية تصدر من عدد كبير من الوحدات الاقتصادية التي تسمى لتحقيق مصلحة لها، ودون أن يقوم تنسيق مسبق بينها ، كما أنه ليس لقرار أى من هذه الوحدات منفردا أى تأثير على الألمان Price taker ومن ثم على الكميات المطلوبة أو المعروضة وإنما يتم التأثير نتيجة لمجموع قرارات المستهلكين والمنتجين . ولذلك فهذا النظام يتميز بمعدم وجود سلطة عليا تفرض تحقيق التوازن بين الطلب والعرض، وإنما يتحقق هذا التوازن نتيجة لهذه القرارات التي تصدر من الوحدات الأولية التي لا تملك إلا التأثير في طلبها وعرضها ، ولذلك نقول بأن نظام السوق يعتبر مظهرا من مظاهر اللامركزية في الإدارة الاقتصادية حيث تباشر الوحدات نشاطها مدعومة بمصلحتها الخاصة ، وهذا ما كان وراء فكرة آدم سميث من البسند الخفية التي تحقق الانسجام بين المصالح الخاصة والمصلحة العامة ، ذلك أنه يترتب على التوازن

(١) انظر في تفصيل ذلكنا مؤلفنا ، دروس في النظرية النقدية ، الكتب المعرى الحديث ، الاستكمالية ١٩٦٦ ص ٢٢ - ٥٤ ، وانظر أيضا ، أحمد جلم ، سابق الاقتصاد الإشتراكي ، سابق الإشارة إليه ص ١٧ - ٥٤ .

(٢) تستخدم الاصطلاحات ante ex post، ex ante للتعبير عن « السابق » و « اللاحق » جريا وراء استخدام السويديين وبصفة خاصة ميردال لهذه الاصطلاحات اللاتينية للتعبير عن « السابق » و « اللاحق » انظر له : G. Myrdal, L'Equilibre Monétaire, (trad) edition Genin, Paris, 1950.

استخدام الموارد المتاحة في الاقتصاد وانتاج السلع التي يريدها المستهلك وهو المقصود بأن هذا النظام يخضع لسيادة المستهلك .

وقد يمكن ان نقدر هذه النظرة الى سيادة المستهلك بأن ما يظهر في السوق ليس رغبات المستهلك في ذاته ، ولكن المستهلك المزود بقوة شرائية ، بمعنى ان الاصوات Votes التي يعبر بها عن رغبات المستهلكين انما هي اصوات موزونة أو مرجحة Weighted بحسب دخل كل منهم . فصاحب الدخل الكبير سيكون له اثر اكبر على الاثمان من صاحب الدخل الصغير . وهذا هو النقد الاساسي الموجه الى النظام الرأسمالي ، وواضح ان النقد لا يتعلق بالاعتماد على نظام السوق وانما على كيفية توزيع الدخل . فهذه الدخل موزعة بحسب العمل والملكية ، ومن الممكن ان تناقش في مدى مشروعية دخل الملكية . ولكن هذه مسألة أخرى ، وهي على اي الاحوال الاساس الذي تستند اليه معظم النظم المعارضة للنظام الرأسمالي .

ويكاد يعتبر نظام التخطيط عكس نظام السوق مفهوما على النحو المتقدم . فالتخطيط يعتمد على مركزية القرارات الاقتصادية سواء من حيث تحديد السلع والخدمات الواجب اشباعها أو من حيث اتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الاشباع ، وبذلك تحل قرارات سلطة مركزية محل قرارات وحدات المستهلكين والمنتجين اللامركزية ، فالمشكلة الاقتصادية واحدة في جميع المجتمعات ولكن الاختلاف يقتصر على وسائل حل هذه المشكلة . هناك دائما موارد محدودة ، صالحة لاستخدامات متنوعة وفقا للفن الانتاجي، ولحاجات عديدة ، وتكمن المشكلة في اختيار الحاجات الاولى بالاشباع وفي اختيار انسب الطرق لانتاج السلع والخدمات التي تشبع هذه الحاجات . ويعتمد نظام السوق على قرارات وحدات لا مركزية لتحقيق هذا الاختيار ، المستهلك بالنسبة للحاجات والنتج بالنسبة لطرق الانتاج . اما في ظل نظام التخطيط فان هذا الاختيار يتم على مستوى مركزي حيث تتولى سلطة عليا (ايا كان اسمها لجنة التخطيط المركزية أو أية سلطة سياسية شبيهة) تحديد الحاجات واجبة الاشباع والسلع والخدمات اللازمة لذلك ، وتفرض هذه الحاجات والسلع على المستهلكين وعلى المنتجين ، فاوئسك لا يجدون سوى هذه السلع والخدمات ، وهؤلاء عليهم انتاج هذه السلع والخدمات . ولذلك يقال بان نظام التخطيط هو نظام كمي بالمقابلة الى نظام السوق الذي هو نظام «قيمي» . والسبب في ذلك هو ان التخطيط ينحصر في نهاية الامر في تحديد الكميات التي تنتج كل سلعة وخدمة وتفرض هذه الكميات على المستهلكين والمنتجين على السواء . ولذلك فان مدى توفيق هيئات التخطيط المركزية ينحصر في القيام باختيار الاهداف المناسبة التي ينبغي تحقيقها ، ومن ثم السلع والخدمات الواجب انتاجها ، وكذلك في تحقيق الانسجام التي ينبغي تحقيقها بين هذه الاهداف المختلفة وبين الوسائل المتاحة للانتاج من موارد وفن انتاجي . وتقوم الفكرة الاساسية في ذلك على انه في كثير من الاحوال لا يمكن الارتكان الى رغبات الافراد التي ينقصها العلم وينتاب عليها قصر النظر ، ومن ثم فانه يمكن ان تكون اهداف الخطة اكثر اتفاقا مع مصلحة الافراد والمصلحة العامة مما لو تركت الامور للافراد وحدهم وتركم تحت تأثير الجهل والدعايات . وليس معنى قيام سلطة مركزية بتحديد اهداف الانتاج انها لا تراعي رغبات هؤلاء وتفرض عليهم سلعا وخدمات لا يريدونها أصلا.

فرغبات الافراد تدخل ولا شك في اعتبار سلطات التخطيط المركزية ولكنها لا تعتبر المبرر الوحيد للانتاج كما في ظل نظام السوق ، بل تدخل هناك اعتبارات أخرى من تقرير المصلحة العامة ، مما قد ينفل عنه الافراد . كذلك فان سلطات التخطيط المركزية لا تقتصر على وضع قائمة بالاهداف الواجب تحقيقها وانما يبنين ان تراعي ان يتحقق التنسيق بين هذه الاهداف وبعضها وبينها وبين الوسائل المتاحة لها . وبعبارة أخرى يبنين ان تضمن الخطة التوازن في الاقتصاد ، فلا يكفي تقدير ضرورة انتاج كمية كذا من هذه السلعة دون التأكد من توافر القدرة على ذلك .

وبذلك فإن الخطة تضمن تحقيق التوازن مسبقاً بين الطلب والعرض وفي هذا تختلف الخطة عن السوق فالنوازن في الخطة هو التوازن سابق ex ante ويتحقق التوازن اللاحق ex post وفق تقديرات الخطة إذا كانت الخطة سليمة ، ولا يتحقق التوازن اللاحق وتظهر اختلافات إذا لم يكن التخطيط سليماً أو طرات عوامل لم يكن من السهل توقعها .

ولا يعني القول بأن التخطيط يتضمن توزيعاً كيميا للموارد أن الائتمان لا تستخدم ، فالواقع أنه نظراً للتنوع الشديد بين عناصر الإنتاج المستخدمة وبين السلع والخدمات المنتجة لا بد من استخدام وسيلة واحدة للقياس ، وهي بالضرورة النقود ، مما يؤدي إلى أن تظهر الكميات الاقتصادية في شكل قيم . بالإضافة إلى أنه في جميع الدول الاشتراكية وفي الظروف العادية لا توزع الدخل بشكل عيني وإنما في شكل نقدي ، والمستهلك يوزع هذا الدخل النقدي على السلع الموجودة بالسوق . ولكن هذه الائتمان والقيم التي تظهر في السوق ليس لها أكثر من دور محاسبي بحث بالنسبة لسلطات التخطيط ودور توزيعي بالنسبة للمستهلكين ، ولكن ليس لهذه الائتمان أي تأثير على القرارات الاقتصادية المتعلقة بالإنتاج ، على الأقل ليس بشكل مباشر . فارتفاع إيمان سلعة نتيجة لزيادة الطلب عليها وظهور سوق سوداء أو اختفاؤها كلية من السوق لا يؤدي إلى زيادة عرض هذه السلعة لأن الإنتاج مرتبط بالخطة وليس برغبات الأفراد كما تظهر في السوق . على أن ذلك لا يمنع سلطات التخطيط من أن تأخذ هذه المؤثرات في الاعتبار عند وضع الخطة الجديدة أو عند تعديل الخطة القائمة .

وخلاصة القول أن التخطيط ، في الأصل ، نظام يقوم على قرارات تصدر من سلطة مركزية وبحيث تراعي تحقيق التوازن مسبقاً بين الطلب والعرض في الاقتصاد (١) .

مما تقدم قد يبدو أن نظامي السوق والتخطيط على طرفي نقيض ، ولكن الواقع أن تطور المجتمع الصناعي الحديث قد جعل منهما امرين متكاملين بحيث نلاحظ من ناحية مزيداً من التدخل والتخطيط في الدول الرأسمالية ، ونلاحظ من ناحية أخرى مزيداً من الحرية وترك المجال للسوق في الدول الاشتراكية . وهكذا يكاد يبدو التنظيم الحالي للمجتمع الصناعي الحديث كمزيج من القرارات المركزية والقرارات اللامركزية وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة بين الدول المختلفة .

سبق أن شئنا إلى أن النظام الرأسمالي قد تطور تحت ضغط حاجات المجتمع الجديد وأن المنافسة الكاملة لم تعد سوى حالة استثنائية من حالات السوق . فالأصل هو المشروعات الصناعية الكبرى والتي تؤثر بقرارها المنفرد في الائتمان ، ومن ثم في الكميات المعروضة والمطلوبة . ومن الواضح أن قرارات هذه المشروعات الكبرى لا يمكن اعتبارها مظهراً من مظاهر اللامركزية وإنما على العكس هي صورة للامركزية التي تباشرها هذه المؤسسات الصناعية الكبرى . ومن هنا نفهم المقصود عادة من القول بوجود مراكز قوى خفية في الدول الرأسمالية . كذلك سبق أن أشرنا إلى أن التطور الذي لحق النظام الرأسمالي نتيجة لزيادة الاستهلاك قد جعل التدخل لحفظ مستوى الطلب الفعلي أمراً ضرورياً ، وهذا هو ما قامت به نظرية كينز على ما سبق أن أشرنا إليه وبالمثل فإن تدخل الحكومات الغربية لم يقتصر على توفير معدل معقول من الطلب الفعلي إذا

(١) ثار خلاف نظري فيما فسي حول إمكان الوصول إلى تحقيق الكفاءة الاقتصادية في ظل النظام الاشتراكي حيث شككت في ذلك بعض الاقتصاديين ، ولكن هذه القدرة على تحقيق الكفاءة أصبحت أمراً مستقراً من الناحية النظرية وخاصة بعد كتابات أوسكار لانجر ، راجع في ذلك مقالنا ، النظرية الاقتصادية وكفاءة الإنتاج في ظل النظام الاشتراكي ، الامور الاقتصادية ، ١٥ فبراير ١٩٦٦ .

كانت ظروف الكساد مسائدة كما كان الحال في الثلاثينيات وإنما امتد تدخل الحكومات بالسياسة الاقتصادية الى غرض تحقيق النمو الاقتصادي بالإضافة الى بعض الاهداف الاجتماعية الأخرى مثل التعليم والصحة وغيرها . ولذلك فالتا نجد أن هناك اتجاهات متزايدة في الدول الرأسمالية الى الأخذ بأسلوب أو بآخر من التخطيط . ونجد ذلك واضحا في فرنسا وفي الدول الاسكندنافية وفي هولنده ، كما نجده في انجلترا ودرجة أقل في الولايات المتحدة الأمريكية .

لكل ذلك فان نظام التخطيط وإن كان معادلا تماما لنظام الأمان من حيث إمكانية الوصول الى تحقيق الكفاءة الاقتصادية (1) إلا أن تطور المجتمع الصناعي يجعله غير كاف لمواجهة حاجات هذا المجتمع المتقدم . ذلك أن نقطة البداية التي يعتمد عليها نظام التخطيط هي إمكان توافر العلم الكامل لدى سلطات التخطيط المركزية بما يجعلها في وضع أفضل من الوحدات اللامركزية عند اتخاذ القرارات ، وبذلك تستطيع تلك السلطات أن تتجنب الكثير من الضياع والفقد ، نتيجة عدم وجود تنسيق مسبق بين القرارات . وهذا العلم ينبغي أن ينصرف الى عناصر القرار الاقتصادي وهي :

- ١ - ترتيب أولويات الحاجات في الجماعة .
- ٢ - الموارد المتاحة للمجتمع .
- ٣ - الفن الانتاجي المتاح .

وهذه الأمور يسهل توافر العلم الكامل بها ، وعلى الأقل قدر كاف من العلم بها إذا كان المجتمع في أول مراحل التنمية (أو قامت ظروف استثنائية مثل الحروب) حيث لا تقوم خلاصات كبيرة من الاهداف : التنمية السريعة من طريق التصنيع . كذلك بالنظر الى قلة الموارد وضعف الفن الانتاجي المتاح في أول مراحل التنمية فإن الاختيارات التي تعرض بالفعل تكون محدودة مما يمكن معه لسلطات التخطيط المركزية الإحاطة بها واتخاذ قراراتها على أساس معقول .

ولكن الأمر يكون غير ذلك إذا تقدمت الدولة وعرفت خصائص المجتمع الصناعي الحديث . فهنا يكاد يكون العلم التام أمرا مستحيلا ، ومن ثم فإن قرارات التخطيط المركزي لا بد أن تكون قاصرة . كذلك فإن محاولة توفير المعلومات لن تؤدي إلا الى زيادة أجهزة جمع المعلومات وتحليلها والرقابة عليها مما يؤدي الى ازدياد النفقات وعرقلة سرعة القرارات . وقد لاحظ أحد الاقتصاديين الروس أن استمرار معدل الزيادة الحالي في العاملين في جمع المعلومات وتحليلها والرقابة عليها بما يرتبط بأجهزة التخطيط والتابعة والإحصاءات والحصانات .. سيؤدي بالاتحاد السوفياتي الى استخدام أكثر من ثلثي قوته العاملة في هذه الأجهزة قبل نهاية القرن .

ولذلك فإنه من الضروري ، واعتبار علمي بحت ، الاتجاه الى نوع من أسلوب الإدارة اللامركزية في الدول الاشتراكية المتقدمة . ولذلك فقد ظهرت في الدول الاشتراكية المتقدمة صناعات دعوات للإصلاح الاقتصادي وللأخذ بصور من أساليب السوق في تحديد أذواق المستهلكين ونوع السلع والخدمات التي تنتج ، وترك المشروعات تنتج وفقا للأسلوب الذي يناسبها لتخفيض

(١) انظر في المقابل بين نظام التخطيط الشامل ونظام الأمان في المئاة الكاملة وباستخدام الأساليب الرياضية في البرامج الخطية Linear Programming ، حيث يكون أحد النظامين البرنامج الأولي Primary Program والثاني البرنامج المقابل dual program

T. C. Koopmans, Three Essays on the State of Economic Science, New York, Mc Grow Hill, 1957, PP. 40 et seq.

نفقة الإنتاج ، ومن ثم ترك بعض الحرية لها في تحديد الفن الانتاجي المناسب . وهذا في الواقع هو المدلول الحقيقي للدعوة الى الأخذ بفكرة الربح في المشروعات في الدول الاشتراكية . فليس المقصود هو العودة الى نظام الملكية الخاصة للدول الرأسمالية ، وإنما الفرض ان يكون توجيه الانتاج ، على الأقل في جزء منه ، وفقا للقرارات اللامركزية كما تظهر في السوق من جانب المستهلكين والمتنتجين . وبذلك يعتبر معيار الربح مظهرا لفكرة السوق اللامركزية .

وهكذا نستطيع ان نلمح تقاربا بين النظامين ، وأن السوق والخطة ليسا متعارضين كما قد يبدو للوهلة الأولى وإنما هما أسلوبان متكاملان . الخطة تبين الاختيارات الأساسية للمجتمع للمستقبل والسوق تقوم بالتنفيذ اليومي وتحقيق الاجراءات اليومية والتفصيلية اللازمة لتنفيذ هذه الخطة (١) . وهذه الخطة ضرورية في كل مجتمع حديث ، فقد سبق ان اشرنا الى ان الحساب الاقتصادي هو من اهم خصائص هذا المجتمع . والخطة لا تعدو ان تكون تطبيقا لهذا المبدأ على الاقتصاد في مجموعه . ولكن هذه الخطة ينبغي ان تكون اجمالية وقيمة وليست تفصيلية وكمية ، وأن تقتصر على السياسات العامة . وفي نفس الوقت يقوم السوق بالتنفيذ اليومي لهذه الخطة اجمالية .

وفي جميع الأحوال وسواء عند اتخاذ القرارات الاقتصادية المركزية المتعلقة بالخطة اجمالية او القرارات الاقتصادية اللامركزية المتعلقة بمتابعة السوق فإن المشاكل المطروحة تجعل دور الفئتين فيها كبيرا على النحو الذي تعرضنا له فيما سبق .

عناصر القلق - العلية والتفتقون

قد يبدو مما تقدم ان المجتمع الصناعي الحديث ، وقد خلص الانسان من عبء حاجاته الضرورية ونجح أخافا بعيدة للإنتاج ومن ثم للاستهلاك قد حقق أخيرا حلم الانسان في الحياة : حياة هادئة هادئة . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . فإن هذا المجتمع وقد تمكن من القضاء على نوع خطير من المشاكل التي صادفت الانسان - ربما الأصح القول وقد بدأ في القضاء عليها - وهي مشاكل الندرة في توفير الأشياء للحاجات الضرورية ، فإنه نفسه قد بدأ يواجه نوعا جديدا من المشاكل ، وهذا النوع الجديد من المشاكل لم يمد تغلب عليه الصفة الاقتصادية بقدر ما يغلب عليه الطابع النفسي والثقافي . فلم يعد التساؤل الرئيسي كيف يمكن توفير الأشياء الأساسي للحاجات الضرورية لوجود الانسان وإنما أصبح التساؤل من نوعية هذا الوجود والهدف منه ، ولم يقتصر التساؤل عن مستوى المعيشة وإنما جاوز ذلك الى نوع المعيشة (٢) . ولا تقتصر مشاكل هذا المجتمع الجديد على تغيير في نوعها وفي التساؤلات المطروحة ، وإنما ترتب على ذلك بالضرورة تغيير في أشخاص المتساقلين والتأثرين . فحيث كانت المشاكل المطروحة بالدرجة الأولى مشاكل اقتصادية وتوفر الحاجات الضرورية للأفراد ، كان من الطبيعي ان تصدر صيحات التغيير والتعبد من الفئات المضطربة اقتصاديا أو التحذرين باسمهم مثل العمال . أما الآن وحيث تغيرت المشاكل وأصبحت ذات طبيعة ثقافية ونفسية بالدرجة الأولى فإن مصدر القلق والتعبد قد انتقل من نقابات العمال الى الشباب بصفة عامة والعلبة والتفتقون بصفة خاصة . وهذا ما أدى الى ظهور شعارات جديدة

(١) انظر في هذا الموضوع مشروع الخطة الفلسفة الفرنسية

Projet du Rapport sur les Principales Options du V Plan. Commissariat general du Plan d'Equipement et de Productivite, Paris, September, 1964.

(٢) لعل من اوائل من اشاروا الى اهمية التفرقة بين مستوى المعيشة Niveau de vie ونوع المعيشة genre de vie هو الكاتب الفرنسي J. Fourastie انظر كتابه : Le Grand Espoir du XX Siecle, P.U.F. Paris, 1958.

مثل « ثورة الشباب » و « الثورة الثقافية » وغير ذلك (١) . ونود الآن أن نتعرض لهذه المظاهر بشيء من التفصيل .

سبق أن اشرنا الى أن « المجتمع الصناعي الحديث » بقدرته الفنية الهائلة يعمل على زيادة الإنتاج باستمرار ومن لم خلق عادات جديدة للاستهلاك للأفراد . وهذا المجتمع في سعيه المستمر لزيادة الإنتاج والاستهلاك لا يستهدف سوى مزيد من الإنتاج ومزيد من الاستهلاك . فهو جرى محبوم دون ما أى هدف ظاهر . ولعل من الأمثلة التي تعبر رمزياً عن طبيعة هذا المجتمع هو ما نراه في هذا العصر الحديث من « حب السرعة » ولذلك يسمى عصر السرعة ، فالشباب يقل على ركوب السيارات السريعة ويقودها بسرعة جنونية ، وتنافس الشركات في اخراج نماذج من سيارات أكثر سرعة ، الكل يريد أن يجرى بسرعة ، ويريد أن يسبق . ولكن لماذا ؟؟ أن يسبق ماذا هذه أسئلة لا أجابة عنها ، فالهم هو مزيد من السرعة ، وهذا هو شأن مجتمع الاستهلاك ، مزيد من سلع الاستهلاك ، ولكن أى سلع ، ولماذا ؟ فهذا أمر لم يطرحه مجتمع الاستهلاك . وقد بدأ يعاني منه .

وقد سبق أن اشرنا الى أن المجتمع الصناعي الحديث في سعيه لمزيد من الإنتاج والاستهلاك يستخدم المواد الفخمة وبكميات كبيرة للتأثير في أذواق المستهلكين وتوجيههم نحو الاستهلاك أكثر وأكثر . وبذلك فإن هذا المجتمع بكمياتيه الفخمة يصل على قصر دور الفرد على مجرد وحدة لاستهلاك ما يقدم له في السوق ، دون أن تكون لارادة هذا الفرد أي دور يذكر . وفي اختيار السلع والخدمات التي تطرح في السوق فإن ما يراه هو مدى قدرة الفن الانتاجي على المزيد من الإنتاج دون أية إشارة الى أثر هذه السلع والخدمات على تنمية قدرات الفرد وامكانياته الثقافية والانسانية بما يعود عليه بنفع حقيقي . ولذلك فإن مشكلة حرية الفرد هي جوهر المشاكل الجديدة لمجتمع الاستهلاك . فحرية الفرد هي في تنمية امكانياته وقدراته الذاتية والتي تمكنه من الإبداع والابتكار والمساهمة في حياة المجموع مساهمة ذاتية يشعر فيها بدوره العظمي وهو متحرر من كافة القيود ، وسواء أكانت قيوداً قانونية أم قيوداً اقتصادية . ولم يكن من حق الفرد دائماً المساهمة في أمور الجماعة التي ينتمي إليها ، بل كان هذا الحق قاصراً على فئة معينة من الأشراف والنبلاء . وقد حققت الثورة الديمقراطية حق الفرد ، كل فرد ، في المساهمة في أمور الجماعة التي ينتمي إليها دون أي عائق قانوني ، كذلك فإن الحاجة الاقتصادية تعوق الفرد دون الأسهم الحقيقي في أمور جماعته رغم تقرير هذا الحق قانوناً له . ولذلك فإن حرية الفرد تظل نظرية ما لم يتوافر له القدر الضروري اللازم لحفظ مستوى معيشة معقول وقدر معقول من العلم والمعرفة . ولعل الثورة الاشتراكية قد قامت لتوفير هذه الحرية الاقتصادية لطبقة العمال . ولكن ذلك لا يكفي إذ لا بد من توفير الظروف النفسية والثقافية الضرورية لإبداع الفرد . ولذلك فقد كان من الشعائر الطريفة التي رفعت أثناء ثورة الطلبة في فرنسا في مايو ١٩٦٨ والتي كتبت على جدران السوربون : « الثورة البرجوازية ثورة قانونية ، والثورة البروليتارية ثورة اقتصادية أما ثورتنا فهي ثورة ثقافية نفسية » (٢) . وقد سبق أن اشرنا الى أن المجتمع الصناعي الحديث يؤكد على ضرورة نقطة الاستهلاك ومن ثم تأكيد الدوق الجماعي للاستهلاك دون أية مراعاة لتنمية الأذواق الفردية

(١) تأخر في تعطيل ثورة الطلبة في فرنسا ، كتابنا عن مجتمع الاستهلاك ، سابق الإشارة إليه .

(٢) استخدم الطلبة في فرنسا في أثناء ثورة مايو ١٩٦٨ طريقة جديدة في الإعلام وهي كتابة الشعارات على جدران الكليات والمعاهد وذلك تشبهاً بصحف الطفل التي ظهرت في المصنوع مع ظهور أول صحيفة لم يمتد في أثناء الثورة الثقافية إليها . وقد جمعت هذه الشعارات في كتابات صغيرة تحتوي على ما كتب في ذلك الوقت ، انظر

Les Murs ont La Parole, mai 68, éditeur Tchou, France Paris, 1968

ومن ثم الإبداع . وقد عبر أحد الفلاسفة المعاصرين « ماركوز » ومن أكثرهم تفهما لمشاكل العصر — عبر عن الإنسان المعاصر بأنه « الإنسان ذو البعد الواحد » وذلك في كتابه بهذا الاسم :
(١) One dimensional Man

ويرى ماركوز أن الإنسان في علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه : يمكن دائما أن يعبر بين بعدين لهذه العلاقة : البعد الأول هو الاندماج والتلاؤم ، والبعد الثاني هو المنازعة والرفض . وفي كل المجتمعات نجد أن الفرد يحتفظ في علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه بهذين البعدين : الاندماج من ناحية ، والمنازعة من ناحية أخرى . فكل حضارة تطبع أفرادها بنوع من التشابه، ولكنهم أيضا مختلفون . وهذا التشابه والاختلاف هو الذي يحفظ للفرد توازنه داخل المجتمع الذي يعيش فيه . ويرى ماركوز أن مجتمع الاستهلاك خلافا لغيره من المجتمعات السابقة نتجه نحو إلغاء جانب المنازعة أكثر فأكثر ، ومن هنا نجد أنفسنا في ظل حضارة تميل إلى غلبة بعد الاندماج على حساب بعد المنازعة ، أن الإنسان ذا البعد الواحد هو صورة الإنسان الحديث . فمجتمع الاستهلاك من طريق قدرته الفائقة على زيادة إنتاج سلع الاستهلاك ومن ثم رفع المستوى المادي لأفراده ، نتجه في الواقع إلى إلغاء جانب المنازعة لتصبح شكلية فقط . ومع ذلك فالقدرة الهائلة التي يتمتع بها المجتمع الصناعي الحديث لم تخلق مجتمعا ذا وجه أكثر إنسانية بل لعل العكس هو الصحيح . ولننظر حولنا .

بالرغم من مظاهر الثراء التي تتمتع بها الدول الصناعية المتقدمة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية لا زالت هناك جزر للفقر تعيش وسطها . ويكفي النظر إلى مشكلة الزواج والأقليات في الولايات المتحدة الأمريكية لمعرفة إلى أي حد يتعايش مجتمع الوفرة مع مجتمع الندرة . الأمر ليس متعلقا فقط بسوء توزيع الثروة والدخول وإنما هو أخطر من ذلك بكثير . فنحن نعرف أن النمو بطبيعته ليس متوازنا سواء من ناحية القطاعات المختلفة أو من ناحية التوزيع الجغرافي . فهناك دائما قطاعات أكثر على تحقيق معدلات من النمو أكثر من غيرها ، ونفس الشيء بالنسبة للمناطق الجغرافية المختلفة . وتقوم السياسات الاقتصادية المختلفة بالعمل على تخفيف هذا التفاوت .

ولكن مشكلة الزواج والأقليات في الولايات المتحدة الأمريكية ليست مجرد مشكلة نمو غير متوازن ، فهي مشكلة حضارية ، حيث لا يتوافر لهؤلاء القدر اللازم من الرواية الثقافية والاجتماعية التي تسمح لهم بالانتماء حقيقة إلى المجتمع الذي يعيشون فيه ، ومن ثم يسارعون التقدم القائم فيه . فوجودهم في هذا المجتمع إنما هو وجود مادي دون أي انتماء حقيقي . ومن ثم فإن هذا التقدم المادي الرهيب لم يستطع أن يوفر لهؤلاء الفرصة المناسبة لتنمية قدراتهم الذهنية وغيرها للمشاركة الحقيقية في المجتمع الذي يعيشون فيه .

وليس الأمر متعلقا فقط بهذه الأقليات العنصرية بل أن الفرد العادي لا يستطيع الاندماج بأنه أكثر حرية في هذا المجتمع الحديث . فالصورة التي أخذها التقدم المادي في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا تقتصر على المزيد من الحصول على السلع الاستهلاكية المشكوك في منفعتها الحقيقية ، في حين أن حاجات أساسية للفرد لا زالت بعيدة عن متناوله . فالخدمات الأساسية لا زالت في الولايات المتحدة الأمريكية خدمات غالية نسبيا بالمقارنة إلى أهميتها : الخدمات الصحية والتعليم الجامعي والعالي تستنفد جزءا باهظا من ميزانية الفرد بالرغم من حيوية هذه الخدمات لتنمية قدرات الفرد ذاته . ورغم الأهمية الهائلة التي يحتلها العلم والبحث

(١) الفيلسوف ماركوز ونحن نشر إلى الترجمة الفرنسية

H. Marcuse, L'Homme Uni dimensionnel, édition de minuit, Paris, 1968.

العلمي علي ما سبق أن أشرنا إليه ، فإن النظرة اليه تنحصر في اعتباره وسيلة لتمكين المجتمع من استخدام فنيين أكثر لزيد من الإنتاج . أما المعرفة باعتبارها حاجة إنسانية ، وضرورة فردية لإثراء شخصية الفرد وتنمية ملكاته وذوقه في التمتع بالحياة وفي الإسهام فيها - فهو أمر غير وارد في منطق المجتمع الصناعي الحديث بالشكل الذي تحدثنا عنه . ومن هنا نستطيع أن نفهم أن التسهيلات التي تعطى في الجامعات ومراكز البحوث من منح دراسية وإعانات وتمويل ، تقتصر غالبا على ما تظهر نتائجه من السوق في شكل انتاج أو ترغيب أكثر للأفراد على مزيد من الاستهلاك . وهذا ما يظهر الاختلال وعدم التناسب في ميزانيات الفروع العلمية ذات الارتباط المباشر بالسوق والفروع العلمية البعيدة نسبيا عن اقتصاد الانتاج والاستهلاك . وقد انعكس هذا الاختلال على الفرد الحديث ، فهو مادية عنصر متقدم جدا ويستطيع أن يدبر وإن يحرك قوى رهبة وكفافة كبيرة ، ولكنه إنسانيا وأخلاقيا لازال عنصرا متخلفا ، وتحركه نفس النوازع والرغبات التي نجدها عند القبائل البدائية ، فالتقدم الذي حققه الإنسان في الميدان المادي اكبر بكثير مما حققه في الميدان الأخلاقي . فلم يحدث أى تنبؤ يذكر في وعي الفرد وفي دوافعه . وليس من الغريب أن تظهر في هذا المجتمع مشاكل خطيرة مثل الجريمة . وهي ليست جريمة لأسباب اقتصادية ، وإنما هي أشبه بالجريمة في ذاتها : الجريمة المطلقة . وأن ما يهر المجتمع الأمريكي حاليا هو انتشار هذا النوع من الجرائم التي تعبر عن الاختلال الحقيقي في ما بين التقدم المادي وبين تقدم الوعي الإنساني وهو ما لم تضاف اليه حضارة الاستهلاك شيئا يذكر .

كذلك فانه من المخجل في هذا العصر الذي بلغ فيه التقدم العلمي والفني الى هذا المدى البعيد من السيطرة على القوى الطبيعية ، ومن القدرة على زيادة الانتاج وترشيده - أن نرى أكثر من ثلثي العالم يعيشون في بؤس وعلى حافة الهلاك جوعا . ومن الأسباب التي ساعدت على ذلك ما تقتطعه ميزانيات التسليح ، وفي الواقع فإن النمو الهائل لصناعات التسليح يعبر بشكل كبير عن منطق « المجتمع الصناعي » ، فليس حقيقيا ولا مقنعا الآن أن التسليح في هذه الدول يتم لإعداد خطر الحرب وضمان السلام . وليس حقيقيا ولا مقنعا أيضا أن هذه الميزانيات الضخمة للتسليح إنما تحمي مصالح الدول . ولكن صناعات التسليح من الصناعات الزائدة في التقدم التكنولوجي . والتوسع في هذه الصناعات إنما هو انصياع طبيعي لمنطق المجتمع الصناعي : مزيد من الانتاج ومزيد من الاستهلاك . فأكبر الصناعات التي عرفت نموا هائلا سواء من ناحية جسم الانتاج أو من ناحية الاكتشافات والأخذ بأساليب جديدة في الانتاج كانت هي الصناعات المرتبطة بالتسليح . ويصدق ذلك على الولايات المتحدة الأمريكية كما يصدق على الاتحاد السوفياتي . ولذلك فإن سباق التسليح ليس أمرا متعلقا فقط بالسياسة الدولية والتوازن الدولي بين القوى بل انه أمر داخلي في طبيعة المجتمع الصناعي ذاته ولذلك فإن الكاتب الأمريكي Mills يخشى من طبقة الفنيين لميطرة مايسميه بالميتافيزيقا العسكرية Military metaphysics (١) على تفكيرهم بما لهذه الصناعات من تقدم تكنولوجي هائل ومن ثم جاذبية خاصة على هؤلاء الفنيين المرضى بزيادة الانتاج ، أى انتاج ! ومن الطبيعي أن يترتب على هذا السلوك مشاكل ضخمة تهز الضمير الإنساني . فتظهر حرب فيتنام ويحارب الشباب الأمريكي حربا لا يعرف هدفها لها ، وتدخل قوات حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا لحماية الحلف ، ضد من ؟

وهكذا نجد أن المجتمع الصناعي الحديث قد طرح تساؤلات عديدة وظهر وكأنه غير كاف وغير قادر على تحقيق حرية الفرد . ومن هنا ظهرت عناصر جديدة للقلق والاضطراب في هذه

1. C. Wright Mills, *The Causes of World War Three*, Simon & Schuster, 1958 PP. 37-50.

المجتمعات . وقد كان الشباب والجامعات بوجه خاص مصير هذه الحركات الجديدة . ولذلك علينا أن نتساءل لماذا الشباب ولماذا الجامعات والمثقفون ؟

توافرت للشباب في العصر الحديث عدة ظروف جعلته أكثر قدرة على التأثير على أمور المجتمع الذي يعيش فيه ، وسيظهر أثر ذلك بشكل أوضح في السنوات القادمة . فالتقدم في العلوم وفي المواصلات مكنت الشباب في سن مبكرة من تحصيل قدر كبير جدا من المعلومات النوعية والتي ما كان يستطيع اكتسابها في الماضي إلا في فترات أطول من ذلك بكثير . وبالمثل فإن مجتمع الرخاء قد رفع من كاهل الشباب الإحساس بالمسؤولية من ناحية الحصول على دخل في المستقبل ، فالانتاج في توسع مستمر وظروف الكسب موجودة دائما ، وبذلك أتبع للشباب فرصة أكبر للتأمل والتفكير في المشاكل العامة وعدم الاقتصار على مشاكلكه الخاصة . ولعل أهم ما ساعد الشباب على بلورة دورهم في تغيير المجتمعات التي يعيشون فيها هو فشل تجربة الكبار والناضجين في توفير مجتمعات مقبولة . فالشباب دائما أكثر خيالا وأكثر اقداما ، ولكن تنقصه الخبرة ، والخبرة لا تكتسب إلا بالسن . ولكن ماذا فعلت الخبرة والتجربة ؟؟ كما يقول توفيق الحكيم في حوار مع ابنه عن تلاوي الأجيال عن كيفية نقد الشباب لتوقيع الآباء « جاءت الحروب والكوارث والمجاعات وفتحت أبواب جهنم الأرضية على صورة رهيبة ، وكان الشباب هو الحطب والوود وأدرك أن كل ذلك وقع بتوجيه الجيل السابق . هنا بدأ يتساءل : وإين قيمة الخبرة إذن ؟ إن الشيوخ لا يستفيدون من أخطائهم عبر التاريخ » (١)

وإذا كنا قد رأينا أن سمة المجتمع الجديد هو « الإنسان ذو البعد الواحد » فإن الشباب وبوجه خاص الطلبة يحتلون مركزا خاصا في هذا المجتمع . فإذا كان الاتجاه الغالب في هذا المجتمع هو نحو مزيد من الاندماج والغاء جانب المنازعة والرفض إلا أن الطلبة يحكم تكوينهم الثقافي وبحكم المالية التي تحكم سلوكهم ، يكونون يمينين بعض الشيء عن هذا الاتجاه الغالب .

ولذلك نجد الطلبة في جميع دول العالم يمثلون فئة مستقلة تكاد تقوم للمجتمع بوظيفة الضمير والحساب ، وهو أمر أصبح مستحيلا عند الطوائف الأخرى بالنظر إلى المسؤوليات التي يتحملونها ، وبالنظر إلى الكسب المادي المستمر الذي يحققونه في ظل هذا المجتمع . وبعبارة أخرى فإن مجتمع الطلبة لا زال يمثل منصر الطهارة ، وربما يمكن أن نقول العذرية في وسط مجتمع فقد عذريته واستراح إلى جانب الكسب المادي والاندماج على حساب المنازعة والرفض . فالواقع أن الطلبة يوجدون خارج حلقة الإنتاج بالمعنى الضيق . ومن الواضح أن هذا النوع من الحياة يحفظ لهم استقلالهم في مواجهة المجتمع ويمكنهم أكثر من شيرهم من مناقشة المبادئ التي يقوم عليها . ولذلك نجد الطلبة أكثر من غيرهم قدرة على الاحتفاظ بمسافة معينة من مجتمع الاستهلاك مما يمكنهم من مناقشة هذا المجتمع ، فهم غرباء عنه ، ولذلك فهم أكثر الطبقات ثورية . وإذا كان ماركس قد حدثنا عن ثورية طبقة البروليتاريا ، فينبغي أن نتذكر الأصل الذي جاء منه هذا الاصطلاح ، فهو يعني عند الرومان الأجانب عن المدينة والذين لا يتمتعون تبعه لذلك بحق الملكية . وقد رأى ماركس أن العمال يعتبرون في الواقع خارجين عن المجتمع الرأسمالي لأنهم لا يتمتعون بحق الملكية . ولنا أن نتساءل اليوم عما إذا كانت هناك حاجة إلى العودة إلى المعنى الأصلي للبروليتاريا فهم الأجانب عن المدينة ولو تمتعوا بحق الملكية . فالطلبة في الجامعات وهم أبناء الطبقات المستريحة هم أكثر العناصر ثورية في المجتمعات المتقدمة ، فهم الغرباء من هذا المجتمع .

والواقع أنه مما ساعد على الدور الذي يلعبه الطلبة هو نشوء الوعي الجماعي بينهم . فقد نشأ

وعى طلابي يجمع بينهم ، ومما ساعد على دخولهم المسرح السياسي كما فعلت طبقة العمال عندما دخلت المسرح السياسي في القرن الماضي . وقد كانت الفكرة السائدة هي أن وجود الطلبة مع بعضهم البعض وجود عرضي ، كما يوجد عدد من الركاب في سيارة الأتوبيس مثلا ، فلا يمكن أن نتحدث عن وعى جماعي بينهم ومن ثم من عمل جماعي . ولكن الأحداث بينت وجود رابطة قوية بين الطلاب واكملت نشوء الوعي الطلابي . وهذا ما أظهرته أحداث الطلبة في مختلف دول العالم . ولم ينجح الطلبة في تكوين وعى جماعي وتحقيق التضامن فيما بينهم فحسب ، وإنما وصلوا أو كادوا إلى ما لم تصل إليه حركة العمال بعد ، وهو « الدولية » أو « الأممية » . فالتضامن بين الطلبة حركة مثالية تستهدف خير الإنسان وتجاوز الحدود الإقليمية وساعد على ذلك ما سوف نشره إليه من دور الثقافة الحالية باعتبارها ثقافة عالمية تؤكد وحدة الفكر والمشاعر . ومن ثم فإن الطلبة قد جاؤوا في كثير من الدول المشاكل الإقليمية الضيقة وظهرت حركات تضامن مع شعوب وقارات أخرى . وليست حركات التضامن مع شعب فلسطين أو فيتنام إلا مظهرا من هذه الحركات . وغني عن البيان أن مصدرها الأساسي هو جمهور الطلبة . فالتضامن بين الطلبة حقيقي ، وهو يجاوز في كثير من الأحوال الحدود السياسية : « يا طلبة العالم اتحدوا » .

ومنازعة المجتمع الجديد لا تأتي فقط من جانب الطلبة والشباب ، ولكن يساهم فيها جمهور المثقفين والجامعة بوجه خاص . وإذا كنا قد رأينا أن المجتمع الجديد يقوم في الواقع على اعتناق الفئتين وتغلب عليه قيم هؤلاء ، إلا أنهم من ناحية أخرى وبخاصة ذلك النوع ذو الثقافة المتنوعة والخيال الواسع هم أنفسهم الذين سيقومون بمناقشة قيم هذا المجتمع . وقد سبق أن أشرنا إلى الأهمية المتزايدة التي تمثلها الجامعة ومراكز البحوث في المجتمع الجديد . ولكن الجامعة ليست فقط مجرد مكان لتطوير وسائل جديدة للإنتاج ، الجامعة لا زالت تقوم على المعرفة والعلم في سبيل إسعاد الإنسان والرفق به . ولعل الميزة الأساسية التي مكنت الجامعة من القيام بالبحث والتقدم العلمي هو تلك القدرة على النقد والمحاولة المستمرة لمجاوزة الحاضر . فليس في العلم مسلمة : كل شيء قابل للنقاش ، وحقيقة اليوم لم تكن معروفة بالأمس بل وربما كان الاعتقاد سائدا بعكسها ، بل وحقيقة اليوم قد تصبح غدا نظرية قاصرة أو غير صحيحة . ولذلك فإن أهم كسب حققه العلم والبحث العلمي هو تلك القدرة المستمرة على الرفض والنقد ، فليس هناك ما يرتفع على المناقشة . وبهذه العقلية الجدلية فإن الجامعة التي ساهمت أكبر المساهمة في دعم المجتمع الصناعي الجديد ستكون أحد المراكز الأساسية لمناقشة الكثير من المبادئ والقيم التي نشأت عنها والتي أثرت على حرية الفرد .

كل ذلك فإن الاختلال الواضح بين التقدم في الميدان التكنولوجي وبين الركود أو التقدم البطيء في ميدان القيم والوعي كان له أثره على الجامعة ومراكز البحوث . فقد أدى تزايد الاهتمام بالدراسات والبحوث ذات التطبيقات الصناعية أن ظهر مدى النقص في الدراسات والأبحاث الإنسانية والكلاسيكية مثل الآداب والفنون والكثير من العلوم الإنسانية . هذا النقص والقصور بدأ يثير مخاوف المثقفين والعلماء أنفسهم . ومن هنا بدأت تظهر في الجامعات اتجاهات لمقاومة هذا التركيز على الميادين « العلمية » ومحاولة إيجاد نوع من التوازن بينها وبين الميادين الفنية والكلاسيكية من أجل خلق إنسان أكثر تكافؤا وتوازنا من حيث المستوى المادي والمعنوي في نفس الوقت . وساعد على ذلك أن الكثيرين من العلماء في الميادين ذات التطبيقات الصناعية المتقدمة بدأوا يشعرون أنهم يقدمون جدوى هذا النوع من التقدم المادي إذا لم يكن مصحوبا بتقدم مماثل في ميدان الوعي والفكر الإنساني . ولذلك فإن ظاهرة تحول العلماء إلى الدراسات الإنسانية ليست بالقليلة في الوقت الحالي . فكثير من علماء الطبيعة والرياضة وغيرهم نجدتهم يتحولون إلى الاهتمام بالدراسات الإنسانية والفلسفية مثل علم الاجتماع والفلسفة وغير ذلك .

والتنظيم السياسي ؟

قد يبدو غريباً في مقال عن « التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث » أن يتأخر الحديث عن هذا التنظيم السياسي حتى قارب البحث نهايته . ولكن هذه الغرابة تزول إذا أدركنا أنه ليس من الممكن الحديث عن شكل التنظيم السياسي على نحو مفصل ، فذلك أمر سيظل بالضرورة مختلفاً من دولة إلى أخرى . فالاتحاد السوفياتي يقترب من المجتمع التكنولوجي الحديث ونظامه السياسي يعتمد على نظام الحزب الواحد ، في حين أن الولايات المتحدة الأمريكية دخلت هذا المجتمع ونظامها السياسي يعتمد على حرية الأحزاب وشكل من أشكال الديمقراطية النيابية . وهذا النوع من الخلافات والفروق سيظل قائماً لأنه يتوقف على عدد هائل من الاعتبارات التاريخية والنفسية لكل شعب من الشعوب .

ولذلك فإننا إذا تحدثنا عن التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث إنما سنشير إلى نوع من التماثل في المشاكل التي ستعرض والتي سيتعين على السلطة السياسية أن تواجهها في جميع الأحيان . وكذلك سنشير إلى التماثل في الحلول التي تقدم لهذه المشاكل . أما ما عدا ذلك فإن النظم السياسية للدول ستظل متفاوتة ما ظل الانقسام بينها إلى دول سياسية مستقلة .

إذا كان علم السياسة هو العلم الذي يدرس « السلطة » فإن المجتمع التكنولوجي الحديث من شأنه أن يحدث بعض التغيرات في أشخاص القائمين على السلطة وفي مدى هذه السلطة ، وفي نوع المشاكل التي تتمتع بمواجهتها . وفي هذا فقط يتم التلاقي بين الحقائق الاقتصادية في ظهور المجتمع الصناعي الحديث وبين الحقائق السياسية في كيفية مباشرة السلطة . (١)

ولعل أول ملاحظة على التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث هو زيادة أهمية عنصر الفئتين في أشخاص القائمين على السلطة . وقد سبق أن أوضحنا دور هؤلاء بتفصيل . وأباً ما كان الشكل الخارجي للقائمين على السلطة ، حزب واحد حاكم كما في الدول الاشتراكية أو أحزاب متعددة وحكومة نيابية - فإن سيطرة الفئتين الحقيقية على قرارات السلطة لا بد أن تزايد . ولذلك نجد أن أهمية المجالس الاستشارية : مثل المجالس الاقتصادية والمجالس الفنية المتخصصة ستتضع بالضرورة . وسواء وجدت هذه المجالس إلى جانب المجالس النيابية في الدول الديمقراطية أو إلى جانب الحزب الواحد في الحكومات الشيوعية . وبالمثل فإن الأجهزة الفنية الموجودة إلى جانب مراكز السلطة ستزيد أهميتها ودورها .

وفي كتاب حديث لروجيه جاردوي :

Le Grand Tournant du Socialisme (٢) يرى هذا الكاتب الماركسي الفرنسي أن الاتحاد السوفياتي تديره مجموعة بيروقراطية عسكرية لا تختلف في جوهرها عن المجموعة الصناعية العسكرية التي تدير الولايات المتحدة الأمريكية . وأهمية هذه الملاحظة القائلة على التشابه في أشخاص القائمين على السلطة في الدولة الحديثة سواء في دولة اشتراكية أو في دولة رأسمالية - لا تكمن في جدية الملاحظة ذاتها ، ولكن في صدورها من روجيه جاردوي ، وهو يعد أكبر المفكرين الشيوعيين الفرنسيين وعضو اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي . وهو أمر له دلالة ، حيث أن أغلب الماركسيين يرفضون فكرة التماثل بين تطور المجتمعات الحديثة الاشتراكية والمجتمعات الحديثة الرأسمالية ويرون أن كل محاولة للتقريب إنما تقصد صرف الجهود عن مقاومة النظام الرأسمالي .

(١) انظر في العلاقة بين الاقتصاد والسياسة

B. Chenot, Organisation Economique de l'Etat, Daloz, France, 1965, PP. 1-21.

(2) Roger Gataudy, Le Grand Tournant du Socialisme, Collection Ideas, Gallimard, Paris, 1970.

كذلك فإن من أهم المشاكل الأساسية التي ينبغي على المجتمع الجديد مواجهتها مشكلة الحرية . ولا نقصد بذلك مجرد الحرية السياسية القائمة على مشاركة جميع المواطنين في اختيار حكومتهم عن طريق الانتخابات والأحزاب كما في الدول الغربية ، أو عن طريق العمل داخل الحزب الواحد كما في الدول الاشتراكية . وإن كانت الظروف قد تدعو إلى قيام هذه المشاكل وخاصة فيما يتعلق بالدول الاشتراكية . وربما يكون التطور الذي حدث في تشكوسلوفاكيا والمعروف بحركة يناير ١٩٦٨ ربيع هذه السنة الذي لم يستطع الاستمرار طويلاً نظراً إلى تدخل قوات حلف وارسو - ربما تكون مقدمة لتطورات مماثلة في الاتحاد السوفياتي وفي الدول الاشتراكية الأخرى . (ولعل ما أدى إلى فشل هذه الحركة هو أنها ظهرت في تشكوسلوفاكيا باعتبارها أكثر تقدماً من الناحية الصناعية ، ولكنها تمثل مرحلة متقدمة بالنسبة للمعسكر الاشتراكي في مجموعه ولذلك فقد وقفت أمامها قوى ذلك المعسكر) . ولكن ذلك لا يمنع من ظهور اتجاهات مماثلة متى بلغ المعسكر الاشتراكي في مجموعه وبخاصة الاتحاد السوفياتي تلك الدرجة من التطور .

كذلك لا نقصد بمشكلة الحرية في المجتمع الصناعي الجديد مجرد الحرية الاقتصادية القائمة على ضرورة توفير ضروريات الحياة الأساسية لجميع الأفراد حتى لا تظل حرياتهم السياسية مجرد حقوق نظرية مجردة من كل مضمون حقيقي فالمجتمع الصناعي الحديث يتمكن في الواقع بصفة عامة باستثناء بعض جيوب الفقر - من توفير هذه الحريات الاقتصادية .

ولكن مشكلة الحرية التي ستعرض أمام المجتمع الصناعي الجديد ستضمن حرية الفرد من تسلط المؤسسات ووسائل التكنولوجيا الحديثة على العناصر المكونة لارادته . ومن المحتمل أن يكون حق الفرد في الإعلام - بما يتضمنه من ضرورة توفير اعلام موضوعي وأمين على قدر الامكان . والضمانات التي تكفل تحقيق ارادة الفرد خالصة من كل تأثير اعلامي موجه من أهم المشاكل التي تثيرها مناقشات الحرية .

ويرتبط بتطور مشكلة الحرية على النحو المتقدم تغيير في طبيعة النازعين والمعارضين للسلطة . فهؤلاء ليسوا من عناصر البرجوازية التي تطالب بالحرية السياسية والإطاحة بامتيازات الاقطاع السياسية كما حدث عندما قامت الثورة الفرنسية . كما أنهم ليسوا من عناصر الطبقة العاملة التي تطالب بالحرية الاقتصادية والغاء امتيازات البرجوازية الاقتصادية كما حاولت الثورات الاشتراكية . ولكنهم سيكونون غالباً من عناصر الشباب والمثقفين الراغبين في توفير حرية الفرد النفسية والثقافية .

وأخيراً فإن التنظيم السياسي سيتأثر بالضرورة بما يؤدي إليه تطور المجتمعات الصناعية من تغيير في مفهوم الدولة السياسي ذاته . فالاستقلال السياسي وسيادة الدولة كانا تعبيراً عن أوضاع العلاقات الاقتصادية الدولية . وقد أدى تطور المجتمع الصناعي الحديث إلى تغيير في شكل العلاقات الدولية مماثل للتغيير الذي تم داخل الدولة ، وإلى مزيد من الترابط مع وجود مراكز أكثر فاعلية في التأثير على الأوضاع الاقتصادية العالمية ، وقد أدى ذلك إلى وجود اقتصاد عالمي وليس مجرد علاقات اقتصادية بين الدول . ومن ثم فإن التنسيق والتعاون الدولي يعتبر السمة الأساسية للعلاقات بين الدول ، وما زالت فكرة السيادة تنقلص باستمرار . ومع استقرار الاقتصاد العالمي الدولي ، فإن التنظيمات السياسية في الدول المختلفة ستزداد تقارباً من ناحية ، وتحرراً في مواجهة الأفراد من ناحية أخرى .

وكما ذكرنا في مقدمة هذا المقال - أن موضوع التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث ، موضوع واسع جداً ومتشعب بدرجة يصعب معها الإحاطة به من جانب متخصص واحد . وقد لا تكون وجهة نظر اقتصادي في هذا الموضوع شيئاً كاملاً !

عملية التطبيع الاجتماعي وأزمات الخامل والتعصب في مجتمعاتنا المعاصرة

تقديم :

خلق الإنسان ليصبح أحسن ما فيه . وذلك لا يكون الا عن طريق التطور والنمو والوصول بالوهبة والقدر والامكانية الى قمته والى اقصى سميتها حتى يتحقق للانسان الوجود والاستمرار .

والإنسان اثناء هذا النمو وهذا التطور انما فهم الكثير عما يحيط به من ظواهر وماديات حيث سعى ليفلسف الوجود كله بما فيه من محسوسات ومعنويات ومجردات ففهم او كاد يفهم علل هذه الظواهر بأنواعها وانماطها .

ووقف الانسان طويلا امام نفسه وفكر مليا قبل ان يطرق باب هذا المحتوى المجهول، ويحاول في هذا الافق ما حاوله ناجحا في الافاق الاخرى ، تلك التي اتصلت بما هو خارج عن النفس الانسانية . وظل كذلك الى ان وافته الشجاعة بمد حين ليدرس نفسه دراسة علمية موضوعية .

ولان تكون اى دراسة علمية يجب ان تكون ذات منهج ومحتوى : المنهج العلمى الموضوعى الذى يؤمن بالتجريب والقياس وما يترتب على ذلك من قدرة على التنبؤ . والمحتوى الذى يمكن ان توجد علاقة منطقية قانونية بين عناصره ومكوناته ، بل انه يجب ان تخضع عناصر ومكونات هذا المحتوى لنظام متناسق متكامل بلغت نظر الدارس الى وحدته وكيانه ، اى انه يجب ان يتميز محتوى كل دراسة من محتوى اى دراسة اخرى ، والاساس فى هذا التمايز هو الوحدة المنسجمة المتناسقة .

وكانت هذه هي مشكلة الانسان الاولى عندما اراد -- او اريد به -- ان يقتحم مجاهل نفسه ويعمل اسلوكه الظاهر ويفلسف ما خفى منه .

© دكتور سعد عبد الرحمن مدنى علم النفس الاجتماعى بجامعة الكويت . قام باجراء بحوث وتجارب كثيرة حول حركية الزماعة بين الراعيتين وعلاوة اختياراتهم الاجتماعية بخصوصياتهم الشخصية وعملية الادراك الاجتماعى .

من مؤلفاته : « اسس القياس النفسى الاجتماعى » .

ولقد كان ذلك التابع في المعرفة والبحث والتعليل - أى حين بدأ الإنسان بالمداديات خارجه ثم اتجه الى نفسه - هو أهم الأركان أن لم يكن هو الركن الوحيد في بناء معرفة منطقية ذات منهج ومحتوى تختص بسلوك الإنسان والنفس الإنسانية .

لقد أدرك الإنسان من هذا التابع أن مشكلاته الأساسية تتعلق بمهامين سبق الإشارة إليهما هما الوجود والاستمرار .

فمن دراسته للماديات سواء في علوم الطبيعة و البيولوجيا وصل الى مرحلة من التاكيد تكاد تقترب من اليقين انه اذا اعتبر نفسه كائنا حيا على نمط مادي محدود فسوف يكون من غير الممكن أن يوجد نفسه على هذه الصورة أو أن يتحكم في وجوده وسوف يكون من غير الممكن أيضا أن يضمن استمرار ذاته على تلك الصورة البيولوجية .

وإلى نفس الوقت أدرك الإنسان انه ليس من غير الممكن أن يوجد نفسه على صورة غير مادية وذلك إذا نظر الى نفسه من الجانب الآخر ، جانب المعنويات والقيسم وخصائص النفس والشخصية ، وأدرك كذلك انه ليس من غير الممكن أن يضمن استمرار ذاته أو بمعنى أدق خصائصه على نفس تلك الصورة .

ولتوضيح ما سبق فانه من غير الممكن أن يوجد الإنسان خلقا له من الخصائص الانثروبولوجية ما يميزه ، لأن ذلك في قدرة الخالق جل وعلا ، كما انه ليس في امكانه أيضا أن يضمن استمرار الكائن الحى في حياته الى الدرجة التى يرغبها ويرتضيها ، لأن ذلك أيضا في قدرة من يمتلك الحياة والموت .

ولكن من الناحية الاخرى حاول الإنسان - ونجح الى حد يجب تقديره - في إيجاد النفس ذات الخصائص والقيم والمعايير المحددة فاجد الذات المتسلطة، والذات المتعصبة، والذات المنغلفة، الى غير ذلك من الخصائص المتمثلة في كل ذات على حدة ، والتي تغلب على تكوينها . وأمكن للإنسان أيضا أن يضمن استمرار هذه القيم والمعايير والخصائص ، وذلك عن طريق نقلها من جيل الى آخر ، ولتلقينها للأبناء عن طريق الآباء وبذلك اطمان الى استمرار ذاته من الناحية غير البيولوجية ، أى من ناحية المعنويات والقيم وخصائص النفس والشخصية .

وللتلخيص فإن الإنسان لم يتغلب على مشكلتي الوجود والاستمرار من الناحية البيولوجية ، في حين أن أمل الإنسان في ذلك بالنسبة للنواحي المعنوية أمل ممكن أن يتحقق معظمه . فما انتقل القيم والأديان والمعايير من الأجيال السابقة الى أجيالنا هذه الا دليل على نجاحه في ذلك .

وبذلك فانه لا بد أن تكون هناك عملية عن طريقها أمكن للإنسان أن ينجح ولو جزئيا في حل مشكلات الوجود والاستمرار من الناحية المعنوية ، وهي نفسها تلك العملية التي عن طريقها يمكن للفرد أن ينمو ويتطور وتنبض مواهبه وامكانياته وقدراته حتى يصبح أحسن ما فيه . وهى نفسها تلك العملية التى نسميها التطبيع الاجتماعى أو التنشئة الاجتماعية .

والدراسة التى نحن بصدها الآن سوف تناقش عملية التطبيع الاجتماعى من نواحيها المتعددة بطريقة ينطب عليها التشرىح والتحليل ، حتى نرد هذه العملية الى مكوناتها الأولية .

وكما هى الحال في كثير المركبات فاننا نجد لها ككل في حالة من الانسجام والتناسق ولو أن

ففيها بعض العناصر المتناقضة بل ان هذا التناقض في كثير من الاحيان يكون اساسا للتناقض والانسجام .

فاذا كانت عملية التطبيع الاجتماعي قد اسهمت بما يجب ان تسهم به في الحفاظ على تقاليد المجتمعات الانسانية وقيمها ومعاييرها مثل اسهامها في نقل وتلقين هذه التقاليد ، فان هذه العملية قد اسهمت ايضا بما يمكن ان تسهم به في ازالة بل وتدمير كثير من القيم والمعايير في مجتمعات انسانية اخرى .

وبالتالي فان عملية التشريع والتعطيل سوف تعرض هذه الجوانب وتلك ، وسوف تملأ أيضا لماذا استمرت هذه الجماعة الانسانية واندثرت الاخرى دون ان يعلم من جاء من بعدها عنها شيئا .

كما انها - اي عملية التشريع والتحليل - سوف توضح علاقة عناصر عملية التطبيع الاجتماعي بعضها ببعض ومدى فعالية او خمول هذه العناصر او تأثيرية كل منها .

ومن اهم المكونات او العناصر التي سوف نتعرض لها في شيء من التفصيل اكثر من غيرها ، تلك المجموعة من الانماط السلوكية والخصائص النفسية التي نطلق عليها اسم التعامل والتعصب .

فمما لا شك فيه ان لنا العذر في ان نبرز هذه الانماط السلوكية بالذات ، ونعطيهما مكان الصدارة عند تحليل عملية التطبيع او التنشئة الاجتماعية ، وذلك لان موجات التغيير التي تلاحت على العالم حتى يومنا هذا ، ولان أنشطة المجتمعات سواء في داخلها ، اي بين افرادها ، او خارجها اي بينها وبين مجتمعات اخرى ، ولان ازمان العالم سواء في اوسطها وادناه او اقصاده . . كل ذلك يخضع بصورة او باخرى لتلك الخصائص النفسية التي نسميها التعصب والتعامل .

ولا نذهب بعيدا عندما نقول ان مناقشة عملية التطبيع الاجتماعي هي في حقيقة الامر مناقشة عملية تنشئة الانسان وترويضه وتعليمه حتى يصبح ذا كيان مستقل في المجتمع الذي يعيش فيه ، بغض النظر عن نوعية هذا المجتمع خيرا كان أم شريرا ، وبغض النظر عن درجته من ناحية البساطة او التعقيد من حيث هو الأسرة او ابناء الجوارح او المجتمع الواسع العريض .

ففي مجتمع الفضيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه في نسيج هذا المجتمع بعد ان يروض ويعود ويطيع ، وبالتالي يتقن مهارات بعينها تعتبر هي اساس التعامل والتواصل في هذا المجتمع .

وفي مجتمع الرذيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه في نسيج هذا المجتمع بعد ان يمر بنفس المراحل السابقة ويتقن مهارات بعينها تميز هذا المجتمع عن غيره .

وفي اثناء هذا التدريب والتلقين والتعود يكون الفرد مفهومه عن ذاته كما يكون مفهومه عن ذات الآخرين وشخصياتهم كما يكتسب المعايير التي يحكم بها على الأحداث والأشياء ففي هذه الرحلة - مرحلة التدريب - يبحث الفرد دائما عن اجابة لسؤال حائر يلح عليه بين الحين والحين : من انا ومن اكون ؟ ومن هم الآخرون ومن يكونون ؟ وهو ينتظر دائما اجابة او يحصل عليها وفي كلتا الحالتين لا يتم ذلك الا في اطار عملية التدريب والتلقين والتعود .

ومن هنا يمكن أن نقول أن العملية الأم ، وهى عملية التطبيع الاجتماعي سوف تعطي الفرد الفرصة لأن يكون ضميره الاجتماعي ووجدانه التي هي القيم ، والتي سوف تساعد في الحكم على الأشياء والأحداث أما عدلا منصفاً أو متحيزاً متحامللاً لا ينظر لمثل هذه الأحداث إلا من وجهة نظر خاصة غالباً ما تكون ذاتية .

ومن هنا أيضاً قد تبدو العلاقة طبيعية ومنطقية بين عملية التطبيع والإنشاء ، وبين سلوك التحامل والتعصب وبمعنى آخر بين السبب والنتيجة .

قد لا يكون ذلك انصافاً لأجيال سبقت حرصت أن تلقن أجيالنا الحاضرة مقومات وقيمها كانت تعض عليها بالواجب وترى فيها طريق الخلاص لأنبائها بل اعتبرتها وسيلتهم إلى الاستمرار والخلود .

ولكن قليل من هو منصف عادل من وجهة نظر أطراف القضية إذا اتخذ الطريقة الموضوعية للمناقشة والتقييم .

ونحن في هذا المقام لا نسخر من جيل سبق ، ولا نقلل من شأن عقيدة مهما كانت ، ولا نحاول أن نهدم قيمها وتقاليدها ، ولكننا سوف ننهج المنهج العلمي المجرد في دراسة عملية التطبيع وعلاقتها بسلوك التعصب والتحامل ، ونترك للقارئ أن ينتقي ما يشاء من العلاقات والروابط بين ما نعرضه من دراسة ، وبين ما تمر به المجتمعات الإنسانية من محن وأزمات مع تعدد أجناسها واللوانها ، ونحن في الهزيع الأخير من القرن العشرين .

وقد يكون في هذا إجهاد للقارئ بلا مبرر حتى يبحث عن وجهة نظر الكاتب بين مسطور هذه الدراسة ، ولكننا لن نذهب إلى هذا الحد من التعقيد أو الحيادية المطلقة الأمر الذي يجافي المنطق العلمي إلى حد ما ، بل سوف تتلون هذه الدراسة من حين لآخر بلون يفرض نفسه من خلال البحوث التجريبية والآراء الموضوعية التي اقتنع بها الكاتب إلى حد الاعتناق .

ومن خلال تبيننا لهذه البحوث والآراء سوف تتبلور لدينا فكرة تكاد تكون كاملة ومتناسبة مع المستوى العام لهذه الدراسة ككل . وينتهي بنا المطاف إلى أن نفهم بصورة موضوعية مكونات عملية التطبيع الاجتماعي وعلاقتها الطبيعية بأنماط عديدة من السلوك منها ما هو محمود ومنها ما هو غير ذلك .

تعريف : -

يقول بارسونز (١) أحد علماء الاجتماع أن ميلاد جيل جديد من الأطفال يعني موجة أخرى من الغزو البربري ، وهو لا يقصد بكلمة (بربرية) ما هو مفهوم عن حياة المصور الحجرية حيث عاش الناس على الصيد والقتل ، ولكنه يقصد ما هو متعارف عليه من أن البربرية تعنى الحياة غير الاجتماعية وغير المتحضرة .

وبناء على ذلك فإن الطفل عند ولادته هو كائن بيولوجي مفلس حضارة وثقافة ، فليس لديه أدنى مفهوم عن العالم الذي هو قادم إليه ، وليس لديه اللغة التي عن طريقها يتواصل مع غيره ،

(1) Brown, R., Social Psychology, Coll. Mc. Millan, 1965, P. 193.

* نعرض هنا تعريف عملية التطبيع الاجتماعي من الناحية العامة ونترك تعريف التحامل والتعصب إلى أن يأتي في مكانه الطبيعي في سياق هذه الدراسة .

وليست لديه المعايير والعنوبات والخلفيات التي تتطلبها المجتمع الذي فتح له ذراعيه ليلتفاه . وعلى الطفل أن يتعلم كل ذلك ويتقنه ويجيده عن طريق عملية واحدة متكاملة هي عملية التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية .

فكان عملية التطبيع من وجهة النظر هذه هي عملية تحويل الكائن البيولوجي الى كائن اجتماعي له من النشاط ما يدل على ذاته ووجوده .

ويقول تشايلد (١) ان ما نقله الينا السلف عن اهل اسبرطه القديمة ونظامهم في تربية ابنائهم لان يكونوا من المحاربين اولى البأس والقوه ، وان ما نظره اليوم من اهتمام وقلق بخصوص تربية ابنائنا وتنشئتهم ليكونوا اعضاء نافعين صالحين في المجتمع فان هذا وذاك دلالة واضحة على أهمية عملية تربية الطفل من وجهة النظر هذه أو تلك .

ومعنى هذا ان عملية التطبيع الاجتماعي هي عملية تحويل الطفل الى كائن بالغ يقوم بدوره خير قيام في المجتمع الذي يضمه ويحتويه .

ويقول سيكورد وبلكمان (٢) ان عملية التطبيع الاجتماعي هي تلك العملية التي من طريقها يمكن للفرد ان يعدل من سلوكه حتى يتوافق مع ما يتوقعه منه اعضاء الجماعة التي ينتمي اليها . وبذلك لا تكون عملية التطبيع هي فقط العملية التي فيها يكتسب الطفل الصغير مهاراته البدنية والاجتماعية ، بل هي ايضا العملية التي فيها يعدل البالغ من سلوكه وتصرفاته حتى يصل الى الدرجة التي يرضى بها الجماعة التي هو عضو فيها .

ومن ذلك فأننا نرى ان عملية التنشئة أو التطبيع انما هي في رأى من استعرضنا آراءهم وهي تمثل الآراء الغالبة الراضحة — انما هي عملية تكوين عادة وغرس مهارة وتعديل سلوكه ، وذلك من أجل ارضاء الجماعة والحفاظ على نظم وتقاليد ومهارات وخصائص قائمة فيها . وليس ذلك غريبا أو مغالى فيه ، إذ أنه من الضروري — كما سبق ان اشرنا — ان يحافظ الانسان على استمراره بهذه الصورة غير البيولوجية .

ونحن من جانبنا لا نريد ان نختلف مع محصلة هذه الآراء ، فهي ولاشك اطار معقول يمكن ان يحيط بكثير من مفاهيم عملية التطبيع الاجتماعي ، ولكن لا بأس من أن نعرض رأيا في هذا الميدان : وهو في الحقيقة مجموعة تساؤلات أكثر منه مجموعة منطوقات ، فمن المعروف ان الرأي أو النظرية يعتمد دائما على مثل هذه الأسس .

فمن الحقائق التي يكون احتمال الخلاف الحقيقي فيها طفيفا ان شخصية الفرد وخصائصه تنمو وتشكل وتتطور من خلال عملية احتكاكه وتعامله وتفاعله مع عناصر بيئته الخارجية بما في هذه البيئة الخارجية من عناصر مادية غير بشرية ، وعناصر بشرية هي الافراد الآخرون الذين يشتركون مع هذا الفرد في عضوية المجتمع .

وعندما نسمي هذه العملية — عملية الاحتكاك والتعامل والتفاعل — عملية التطبيع الاجتماعي لا تكون قد اختلفنا كثيرا مع الآراء السابقة وخاصة من ناحية المضمون وما بين السطور .

(1) Child, L.I., in *Handbook of Social Psychology*, Ed. G. Lindzey, 1954, P. 655.

(2) Secord, P. and Backman, C., *Social Psychology*, Mc. Graw-Hill 1964, P. 523.

ومن هذه الحقائق أيضا أن هذه العملية تبدأ من حين أن يطلق الطفل صيحته الأولى مستقبلاً حياة من نوع جديد حافلة بمن فيها وما فيها ، ثم تستمر هذه العملية معه في أثناء نموه وتطوره واكتسابه المهارة والقدرة حتى يصل إلى المرحلة التي فيها يمكنه أن يسلك ويفكر بل ويشعر ويصدر أحكامه وقراراته كما يفعل الآخرون من أعضاء الجماعة التي ينتمى إليها ، وبذلك يصبح الطفل فرداً بالغاً ، له من الخصائص والمميزات السلوكية ما يشبه خصائص ومميزات أفراد أسرته وأصدقائه في الجوار وأعضاء المؤسسة الاجتماعية التي تضمه أيا كانت ثم أعضاء المجتمع الكبير.

ومن هذه الحقائق أيضاً أن معدل السرعة التي تتم بها هذه العملية غير ثابت ، ويتغير بتغير فترات حياة الفرد والمواقف التي تمر به في كل فترة من هذه الفترات . فنجد أن هذا المعدل يزداد في المراحل الأولى من حياة الطفل ، حيث يكون نهما لامتصاص وتمثيل الخبرة والمعرفة، وحيث يكون في طور اختلافه إلى المدرسة أو أي مؤسسة تربوية أخرى ليتدرب على الخبرات والمهارات الأساسية التي تتطلبها حياة الجماعة .

ويقل معدل سرعة عملية التطبيع الاجتماعي كلما نما الطفل ونضج وتكون لديه رصيد كاف من الخبرة والمهارة لأن يكون ذا نشاط فعال ومؤثر في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تمرر جماعته دون الجماعات الأخرى .

كما نجد أيضاً أن هذا المعدل يزداد مرة أخرى عندما ينضم الفرد إلى جماعة جديدة تختلف عن جماعته الأصلية من ناحية العادات والقيم والتقاليد ، ويصبح لازماً عليه أن يتدرب على ما هو جديد ، فيرتفع بذلك معدل سرعة التطبيع أو التنشئة ، ويمكن توضيح هذه الحقيقة إذا - لاحظنا معدل اكتساب الطفل للخبرة والمعرفة وهو عضو في جماعة الأسرة منذ ولادته حتى بلوغه سن الخامسة أو السادسة ، حيث نلاحظ زيادة دائمة في معدل سرعة الاكتساب أو التدريب ، ثم يلي ذلك فترة من النيات يليها انحلال أو قلة في هذا المعدل . وعندما يترك الطفل الأسرة إلى جماعة أطفال المدرسة يزداد معدل اكتساب الخبرة والمعرفة من جديد .

بناء على الحقائق السابقة والتي لا تخرج كثيراً عن الإطار العام لعملية التطبيع الاجتماعي يمكن أن نستخلص رأياً يقول بأن هذه العملية تعتمد على عدة متغيرات تتصل ببعضها البعض وهذه المتغيرات يمكن أن تصنف في صنفين أساسيين هما : متغيرات الفرد كالتناسب له خصائصه وصفاته التي تحدد كيانه والتي تميزه من غيره من الأفراد ، والصنف الثاني هو متغيرات البيئة الخارجية بما فيها من عناصر مأسكة ومتحركة ، بشرية وغير بشرية وغير ذلك أيضاً .

وممنى ذلك أنه إذا كانت عملية التطبيع الاجتماعي تعتمد على هذين النوعين من المتغيرات وأن هذه المتغيرات - وخاصة المتعلقة منها بالفرد الإنسان - ذات طبيعة تختلف من فرد إلى آخر فإنه يصبح من الضروري أن نتحفظ عندما نتصور عملية التطبيع الاجتماعي كما وصفناها الآراء السابقة على أنها عملية تكوين أعداد أفراد يشتركون مع بقية أعضاء الجماعة في كثير من الخصائص والصفات ، أو بمعنى أكثر طرفاً هي عملية تكوين الأبناء الذين يشبهون الآباء .

ولذلك فإننا نرى أن عملية التطبيع الاجتماعي - اعتماداً على الحقائق السابقة - يجب أن تعترف بأولئك الذين يخرجون عن سمت الجماعة ونواميسها ، ويتبدلون من الفكر أو السلوك ما قد يلقب بحياة الجماعة رأساً على عقب ، ويحدث فيها من التغيرات الجذرية ما قد يعيد تشكيل تركيبها وبنائها الاجتماعي . كما يجب أن تأخذ في حسابها مقومات هذه الثورة والتغيرات الجذرية

التي يراد احداثها في الجماعة بنفس القدر الذي تأخذ في حسابها بخصوص حرص المجتمعات على أن توثق حضارتها ومناصر ثقافتها ومقوماتها كاملة من جيل حالي إلى جيل لاحق .

ونحن في هذا لا نأتي بالمبتدع الجديد ، وإنما نشير الى تلك الأحداث الكبار التي امتلأ بها تاريخ الحضارة الإنسانية ، فمحمد رسول الله ﷺ في جاهلية الجزيرة حيث ألحت عليه حضارة ذلك العصر بكل مناسرها ومقوماتها ، ولكنه أفلح ونجح - وما أبعد المدى في ذلك - في أن يحدث التغيير وإعادة البناء في تكوين هذه الأمة بحضارتها وثقافتها . ولأن عملية التطبيع الاجتماعي في جزيرة العرب في ذلك الوقت لم تكن لتأخذ في حسابها مثل هذه الثورة العارمة ، أو التغيير العميق ، ولذلك كان الصراع داميا وعنيفا بين حضارة وثقافة لا تقبل التغيير أو تتوقع حدوثه ، وبين مبادئ جديدة غريبة تهدف الى التهام تلك الحضارة السابقة بمقوماتها وعناصرها . ومثل ذلك أيضا مع فارق في النوع ما حدث قبيل وأثناء عصر النهضة الصناعية في أوروبا واكتشاف وتشغيل الآلة وما ترتب عليها من آثار حضارية وثقافية ، وكذلك ما يحتاج مجتمعنا المعاصرة من موجات العنف والصراع في أي صورة كانت .

فلو أن عملية التثنية الاجتماعية في أي مجتمع أو جماعة ، وفي أي عصر من العصور أخذت في حسابها واعتبارها ما يمكن أن يحدث فيها من تعديل وتغيير - سواء ما هو متوقع أو ما هو غير متوقع - لا يمكن لهذه الجماعات والمجتمعات أن تتفادى موجات العنف وأزمات الصراع والاقتتال الفكري والثقافي التي اجتاحتها من حين إلى حين . ولو أن هذا مجال غير المجال الذي نحن فيه إلا أنه لا يتردد في أن نشير ولو من بعيد إلى حركات الشباب التي ميزت السنوات القليلة الماضية ، والتي انتشرت في العالم بسرعة لا بأس بها ، والتي كان مبعثها في كل بلد وعيل من الشباب المثقف الذي يمر بمرحلة تعليمية من نوع خاص ، أي شباب يمارس المجتمع فيه عملية التطبيع الاجتماعي بصورة رسمية ومشروعة داخل مؤسساته التربوية .

هذه الحركات إنما تدل دلالة واضحة ومقبولة على أن نظم هذه العملية وطوقسها لا تتم بالطريقة التي تأخذ في اعتبارها وحسابها ما يهدف إليه هؤلاء الشباب من تغيير وتبديل . والدليل على ما نقول أن الشعور الذي رفعت به هذه الحركات في كثير من البلاد كان (ممنوع المنع) وعلى قصر هذا التعبير إلا أنه يوضح مدى ضجر هؤلاء الشباب بتلك النظم والطوقس بل ربما بأهداف وفلسفة العملية ككل .

ونحن في هذا المقام لا نريد أن ننحيز إلى ناحية دون أخرى فنرجح الثورة على ما هو قائم أو ما هو قائم على الثورة ، ولكنها كلمة حق يجب أن يقال ، وهي أن عملية التطبيع الاجتماعي في مجتمعنا الحالية بأسسها وفلسفتها وأساليبها ونظمها وطوقسها في حاجة إلى إعادة نظر وإعادة تقييم وكان يجب أن يتم ذلك منذ بداية عهد التكنولوجيا الحديثة ، عندما أمكن للجيل الحالي أن يجني ثمار العلم المتقدم دون أن يعيش فترة ما قبل ذلك ، وعندما أمكن لهذا الجيل أيضا أن ينظر بعين المستقبل إلى ما تعجز عنه أمهين من يقوم على تنشئته وتطبيعهم اجتماعيا وحضاريا .

تحليل :

نحن نهدف في هذه الدراسة إلى تحديد وتحليل مقومات وعناصر عملية من العمليات الاجتماعية الأساسية ، ثم إلى تحميل هذه العناصر والمقومات العملية ككل مسؤولية النواتج والآثار التي تترتب عليها والتي تعطينا الفرصة في أثناء المناقشة والحوار إلى أن نرد الشيء إلى أصله .

العملية هي عملية التطبيع والتنشئة ، والعناصر والمقومات هي كل ما يتعلق بالإنسان الفرد وكل ما يتعلق ببيئته الخارجية ، والآثار والنواتج كثيرة ومتعددة ، منها ما نغنى به الآن ، وهي أزمات التحامل والتعصب التي تميز عالمنا المعاصر حتى على المستوى الشرعي والقانوني وليس على المستوى الفردي والجماعي فقط .

ومدخلنا الى عملية التحليل هذه هو أن نحدد في بادئ الامر المنصرين الاساسيين في عملية التطبيع ، وهما الفرد الانسان ومقومات البيئة الخارجية التي يعيش فيها هذا الفرد .

الفرد الانسان هو المنصر النشط الفعال الذي يحمل مقومات حضارة الجماعة - بصورة أو بأخرى - من جيل الى جيل وهو في هذا المنحى يقوم بدوره الاساسي في حمل امانة التراث الانساني .

وهذا الفرد له من الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية ما يمكنه ويعطيه الفرصة - الى درجة معينة - للقيام بهذا الدور الاساسي في عملية استمرار حضارة مجتمعه وثقافته .

وهذه الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية انما تمر بطبيعة الحال بمراحل مختلفة من النضوج والنمو ، فهي تحت الظروف العادية - أي دون وجود أي هوائى أو موانع خارجية من نطاق قدرة الفرد - تنمو وتتطور الى أن تصل الى درجة من التكامل النسبى أو المرحلى ، بحيث يصبح الفرد قادرا على أن يتفاعل مع مقومات وعناصر البيئة الخارجية بما فيها من ماديات ومعنويات يمكن لخصائصه أن تمتد إليها وتحتويها : أي ما يدخل ضمن مجال ادراكه الحسى من سمعي وبصرى وما الى ذلك .

والفرد في هذا التفاعل انما يستعمل بخصائصه هذه كلها أو بعضها حيث يقيم نتيجة هذا التفاعل بمدى احساسه بالرضا والاكفاء النفسى المترتب على اشباع حاجاته ومتطلباته من عناصر البيئة الخارجية ، وهو في هذه المرحلة من المراحل الكيفية لتفاعله مع البيئة انما يخضع كل شيء لبدأ الاشباع وعلمه .

وتستمر هذه الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية في التطور والنمو ، وذلك نتيجة احتكاك الفرد وتفاعل مع المواقف الاصلية المتجددة في حياة الفرد اليومية ، حتى تصل هذه الخصائص الى درجة أعلى من التكامل النسبى والمرحلى ، فيصبح الفرد أكثر قدرة على فهم عناصر البيئة ومقومات المواقف وأبعادها وحركيتها ، فيستطيع في هذه الحالة أن يحدد طبيعة وحجم كل مشر أو منبه من المنبئات والمنبهات الاجتماعية المختلفة .

كما يستطيع أيضا أن ينتقى ويختار النوع المحدد من الاستجابة التي تناسب هذا المشر أو ذلك .

ويعنى آخر فانه يمكن أن نقول إن تفاعل الفرد مع بيئته في هذه المرحلة الكيفية الثانية من مراحل تعامله معها أصبح أمقد من أن يهدف الى مستوى اشباع الحاجة والطلب فقط ، بل تعداه الى مستوى احداث نوع من التوازن والتوافق بين الفرد الانسان وعناصر هذه البيئة - وذلك من طريق فهم وتحديد طبيعة وحجم المشر الاجتماعى ، وكذلك عن طريق انتقاء الاستجابة المناسبة لكل مشر أو منبه .

وفي هذا لا نحتاج الى كثير من الاستنتاج والاستنباط عندما نقول ان توازن وتوافق الفرد مع بيئته انما يعتمد على مدى قدرته في فهم واحتواء عناصرها ومقوماتها .

وكلما ازداد الاحتكاك والتفاعل بين خصائص الفرد الجسمية والعقلية والنفسية من ناحية وبين المواقف التي تملأ مسيرة حياته من ناحية اخرى ، تطورت هذه الخصائص ونمت وبلغت درجة ارقى من النضوج والنسيب والتكامل المرحلي، وبأتالي فان تعامل الفرد مع عناصر ومقومات بيئته اصبح لا يهدف فقط الى اشباع الحاجة والمطلب ، ولا الى احداث التوافق والاتزان بين ذاته وبين هذه العناصر والمقومات ، بل تعدى هذا المستوى وذلك الى مستوى ثالث هو مستوى قدرته على التحكم في هذه العناصر والمقومات ، واخضاعها الى التغيير والابدال والتطوير ، فقد اصبح للفرد قدر من البصيرة يسمح له بجانب هذه القدرة على التغيير بان يتنبأ في كثير من الاحيان بدقه وصحة بما يمكن ان يحدث لهذه العناصر والمقومات .

وتأتي بعد ذلك مرحلة مراقبة تكون فيها خصائص الفرد قد نمت ونضجت واصبحت على درجة عالية من التكامل والتناسق ، بحيث يمكنه ان يفلسف عناصر البيئة ، فيبحث في اصولها ، ويربط ما بين منشأها واهدافها ، وفي أثناء ذلك يقوم الفرد على تحويل هذه البيئة من واقع محسوس ملموس الى مدرك مجرد ورمز محدد يمكن نقله وتناقله في سهولة ويسر ولا يقف الفرد كذلك عند مستوى تجرييد وترميز عناصر البيئة ، بل يتعدى ذلك مستخدما خصائصه الناضجة المتكاملة الى تنظيم هذه المدركات والمجردات والرموز مبرزا ما بينها من علاقات وروابط وتشابه او تناقض مضمنا هذا التنظيم التعليل والسببية ، وبذلك يكون الفرد قدرا من الخبرة والمعرفة تكون هي وحدة حضارة هذه الجماعة .

نرى مما سبق ان نمو الانسان نوا عضليا ونفسيا وعقليا انما يتيح لعملية التطبيع الاجتماعي ان تتم بصورة طبيعية لا قهر فيها ولا مغالاة (١)

فالطفل في المراحل الاولى من حياته انما يتدرب عن طريق الام على ان يتعامل مع عناصر بيئته الخارجية التعامل الذي يسمح له به نضوجه العضلي والعقلي والنفسى ، فيقوم على اشباع حاجاته على اى مستوى من مستويات البيولوجية او النفسية .

وهو في هذا لا يستطيع اتمام عملية الاشباع هذه ، كما لا يستطيع ان يستقبل التلقين من امه الا اذا كانت خصائصه : جسمية وعقلية ونفسية ، على درجة مناسبة من التكامل والنضوج .

فقدرة الطفل على ابتلاع الطعام الصلب او على ضبط عملية الاخراج مثلا لا يمكن لها ان تتحقق مهما قامت الام بتدريب الطفل وتلقينه الا اذا كان على مستوى مناسب من النضج والتكامل ليزاول مثل هذه المهارات .

وعندما تكرر المواقف في حياة الطفل وتزداد خبراته ومهاراته في تناول المقومات التي تشبع حاجاته ومتطلباته فانه تبرز مواقف جديدة اصيلة تتحدى هذه المهارات والخبرات ، فيشعر الطفل بالتوتر وعدم الاتزان والاستقرار ويخرج الامر من كونه مجرد اشباع الحاجة والاحساس

(١) الصمد بالقهر والمغالاة ما يمكن ملاحظته في عملية التنشئة الاجتماعية لاطفال في مجتمع الصوصي والتشاليع او اغفال احوال السيرة وما الى ذلك حيث نجد وتستنزف قدرات هؤلاء الاطفال عن طريق القهر والمغالاة في عملية التنشئة .

بالرضا والاكتماء النفسى الى كونه صراع مع هذا التحدى ومحاولة للتغلب عليه ، وذلك من اجل احداث التوافق والازتران بين ذات الطفل وبين تلك المواقف او العناصر او المثيرات او المنبهات التى تسبب له القلق والتوتر .

وهنا يساعد مستوى النضوج والخبرة اذ انه فى أثناء صراعه مع هذه المواقف والمثيرات يمكنه ان يستكشف طبيعة كل موقف وكل مثير ، ثم يحدد حجمه ، ثم ينتقى من واقع خبرته السابقة استجابة مناسبة ليقدمها لمثل هذا الموقف أو المثير . فلذا نجح فى ازالة التوتر واعادة الازتران وتكرر هذا النجاح حدث ما يمكن ان نسميه تعزيز الاستجابة .

وهكذا تكرر عملية الاستكشاف ثم النجاح ثم التعزيز ، وبناء على ذلك يتكون لدى الطفل القدرة والبصيرة لايجاد العلاقات بين عناصر المواقف بعضها ببعض ، ولصبح لديه الرغبة فى فهم تكوين واتر كل عنصر فيبدأ فى عملية التحكم والتغيير والإبدال ليصل الى ذلك . . ومن خلال هذه الخبرات تتكون لدى الطفل المفاهيم والمدركات والتعميمات ، وذلك عن طريق مقارنة المواقف المتشابهة العناصر والكمونات ، وبذلك تبرز المجردات والرموز مثل الصدق والكلاب والشجاعة والخوف وما الى ذلك . .

وعندها يصبح عنصرا نشطا وفعالا فى نقل وتناقل خبرة الجماعة كما سبق ان قدمنا فى بداية هذه الفقرات .

تكلما فيما سبق عن الفرد الإنسان كأحد العنصرين الأساسيين فى تحليل عملية التطبيع الاجتماعى ، ويبقى الآن ان نناقش الشق الثانى وهو عناصر ومقومات البيئة الخارجية .

فان هذه العناصر والمقومات هى الوسط الذى تتكون فيه الخبرة والمعرفة ثم تنتقل من خلاله . وهذه العناصر ليست استاتيية جامدة ولكنها ذات طبيعة حركية متغيرة ، فهى تعدل من آن الى آخر ، وتختلف تبعاً للظروف التى تؤثر عليها . وهذه العناصر تمثل كل ما يحيط بالفرد الإنسان من مواقف ، سواء كانت هذه المواقف مادية مثل الطعام والشراب والملبس والسكن ووسائل الانتقال المختلفة ، أو كانت هذه المواقف (أو المثيرات) بشرية أى الآخرون من بنى البشر ، أو كانت هذه المواقف أو المثيرات معنوية بمعنى ما هو متعارف عليه من قيم وعادات وتقاليـد واتجاهات ومفاهيم وما الى ذلك مما يكون البناء أو التنظيم المعنوى للجماعة .

وفى حقيقة الامر نحن لا نستطيع ان نضع حدودا فاصلة بين كل نوع من الانواع السابقة من ناحية الإلتر والوظيفة ، فالكتاب الذى تقرأه الآن والذى يتضمن الخبرة والمعرفة ، هو عنصر مادى فى تكوينه وطبيعته بينما يحمل العناصر المعنوية من قيم واتجاهات فى مناقشته وحواره ، ثم انك سوف تنائر ولا شك بالعنصر البشرى الذى قام بتحرير هذا الكتاب أو تأليفه ، والامثلة كثيرة فى هذه الناحية .

ويتضح من هذا أن هناك تفاعلا دائما ومستمرا بين قطاعات البيئة الخارجية بعضها البعض ، ثم هناك تفاعل بين هذه القطاعات ككل متكامل من جهة وبين الفرد الإنسان من جهة أخرى .

وهذا يفسر ما قلصنا اليه من أن عناصر البيئة أو المواقف التى تحيط بالفرد الإنسان هى ذات طبيعة حركية متغيرة تعدل من حين الى حين .

ويمكن أن نلخص دور عناصر البيئة الخارجية وإثرها في عملية التطبيع الاجتماعي في ناحيتين :-

أولاهما : دور عناصر البيئة في التأثير على الفرد الإنسان ، وذلك من نواحي النمو والنضوج وتعديل السلوك .

والثانية : دور عناصر البيئة في التأثير على الخبرة والمعرفة حيث يكون ذلك من ناحية التكوين والتعديل والنقل .

البيئة والفرد الإنسان : -

فأما من ناحية تأثير عناصر البيئة على الفرد وخاصة من ناحية النمو فإن هذا واضح ملموس . فالنمو العضلي مثلاً إنما يكون نتيجة لآثار عناصر الطعام والشراب التي يتناولها الفرد ثم تعرضه للتدريبات العضلية المقصودة وغير المقصودة . فالنمو العضلي للطفل لا يكون عن طريق زيادة وزنه فقط ، ولكن أيضاً بمهارته العضلية في فتح نافذة أو إغلاقها مثلاً : المهارة التي كانت لا توجد لو لم توجد تلك النافذة كمصدر من عناصر البيئة .

وأما من ناحية النمو العاطفي والنفس للفرد فيمكن أن نلاحظ ذلك عند اتصال الطفل بجماعات جديدة وانفصاله عن جماعات أخرى مثل انفصاله عن جماعة الأسرة إلى جماعة المدرسة فهو في هذه الحالة يتعرض لمثيرات ومنبهات بيئية جديدة غالباً ما تكون بشرية ومعنوية ، فتتسمو بذلك خصائصه ومميزاته عن طريق استجابته لهذه المثيرات والمنبهات .

وهنا نريد أن نوضح شيئاً قد يكون ليس مألوفاً للقارئ ، وهو أننا نسمى كل موقف من المواقف التي تتحدى الكائن الحي مثيراً أو منبهاً ، وقد يتكون الموقف أو المثير من عدة مثيرات بسيطة ذات علاقة ببعضها البعض . كما أننا نسمى سلوك الفرد وتصرفه في هذه المواقف استجابة لهذه المثيرات والمنبهات . وقد قصدنا بهذا التوضيح أن نحدد معنى كلمة المثير والاستجابة .

ومن عناصر البيئة الخارجية أيضاً ما يساعد على نمو الطفل نفسياً وعاطفياً عن طريق الإثابة والعقاب ، حيث تعزز وتقوى الرابطة بين المثير والاستجابة أو تضعف وتلاشى وبذلك تتكون العادة أو تختفي .

وأما من ناحية تأثير عناصر البيئة الخارجية على مستوى نضج الفرد فهذا امر له أهميته وخطره ، ويحسم قبل استعراضه في إيجاز أن نحدد معنى مستوى النضج : إذ أنه عبارة عن مدى « مناسبة » امكانيات الفرد العضلية والعقلية والنفسية لمستوى الموقف أو المثير ، وأما ما يحدد هذا المدى أو هذه المناسبة فهو المايير والقيم التي تسمو الجماعة .

فعندما يقوم الفرد بسلوك معين في موقف معين ، ويكون هذا السلوك غير متفق مع ما هو سائد من قيم ومعايير ، فإن الجماعة تحكم بأن هذا الفرد دون مستوى النضج .

وللتوضيح فأننا نمود ونقول إن عملية النضج هي تلك الحالة التي يمكن قياسها بعدى التوافق الذي يحدثه الفرد مع مقومات البيئة ، والذي يتحقق عن طريق اختيار الاستجابة المناسبة للمثير المناسب .

وبذلك فإن عناصر البيئة الخارجية لا بد أن تسهم في أن يصل الفرد الى مستوى النضج

المناسب ، وذلك من طريق تقديمها للفرد انماطا ونماذج عديدة ومختلفة من المواقف والمخبرات منذ بداية تمارنه عليها - اى الانسان والبيئة - الى ان يفترقا ولو ظاهريا ، وهو في اثناء ذلك يتلوه ولو تلقائيا - على اختيار الاستجابة المناسبة في الموقف المناسب .

وفي حقيقة الامر نستطيع ان نقول ان الفرد يستفيد من هذا التدريب بصورة نسبية حتى يكتمل نفوجه وذلك من طريق عمليات فرعية او مصاحبة هي :

٢ - عملية الممارسة : -

اى عملية تكوين الخبرة واستخدامها في المواقف المتشابهة من ناحية الشكل او الموضوع حيث ان الخبرة تتكون من طريق التفاعل الحر المباشر بين الفرد وعناصر البيئة وتعطيه الفرصة لان يكون التعميمات والمفاهيم من خلال مراحل تكوينها التي تبدأ بالحواس وتنتهي بالتجريد .

ب - عملية التقييم : -

وهي تلك العملية التي يقوم بها الفرد بعد كل تفاعل مع عناصر البيئة سواء اكان هذا التفاعل بسيطا أم معقدا ، حتى يمكنه ان يقارن بين ما حققه فعلا وبين ما كان يتوقفه من نتيجة ونجاح .

ومعنى ذلك ان عملية التقييم هذه تتضمن كذلك اعادة النظر في اسلوب تفاعل الانسان مع عناصر بيئته حتى يتمكن من تعديل انماط سلوكه .

ج - عملية اصدار الحكم او القرار :

وهي ترتب في حقيقة الامر على العمليتين السابقتين ، اذ انه بعد ان يمارس الفرد الخبرة ويحاولها ، وبعد ان يقيم هذه الممارسة والقرار ، فانه يصدر قراره ليحدد اتجاهه نحو هذا المنصر او ذاك .

وللتلخيص فاننا قصدنا ان نقول ان نضوج الفرد يتم تحت تأثير عناصر البيئة الخارجية في عمليات ثلاث ، هي الممارسة والقرار ثم التقييم ثم اصدار الحكم او القرار .

ونعود اخيرا الى تأثير عناصر البيئة على الفرد من ناحية تعديل السلوك ، وعملية تعديل السلوك هذه لا تقصد بها مجرد عملية التكيف السلوكي على المستوى البسيط، ولكننا نقصد ذلك المستوى العميق من السلوك المزم الذي تفره معايير الجماعة وقيمها بصورة جذرية يحتاج تغييرها وابدالها الى جهد من نوع خاص . كما في حالة الدين والعقيدة واللفة ، ففي كل بيئة من البيئات تتكون اطارات عامة تناسب اهداف الجماعة وتركيبها وتواقيسها واصول الحياة فيها ، وعلى كل فرد ان يلتزم بهذا الاطار حتى لا يتعرض لما يبدله الجماعة - كصفة معنوية - من ضغوط وجهود لتحاظ على هذه الاطارات والقيم . وما اتسى تلك الضغوط التي تبدلها الجماعة لتتمتع ايا من افرادها ولتتقمه اذا حاول الخروج من سمعتها وقيمها . وهي في ذلك تبدل اقصى الضغوط واعلاها لتؤكد حياتها واستمرارها . وبناء على ذلك فانه يمكن ان نستنبط ان من عوامل ابدال الجماعات واندحار ثقافتها وحضاراتها وضعف وعدم فاعلية هذه الضغوط .

وهنا نرى لزاما علينا ان نوضح شيئا وهو اننا لا نؤيد او ننكر اهمية هذه الضغوط ولكننا نستطيع ان نقول ان هذه الضغوط قد تكون عقابية اى ذلك النوع من العقوبات والجزاءات الاجتماعية التي تفرضها الجماعة على بعض اعضاءها ، وقد تكون تشجيعية ، اى تلك الانابات

والمكافآت التي تمنحها الجماعة للبعض الآخر . وقد تكون هذه الضغوط ذات لون اقناعى أكثر منه عقابيا أو تشجيعيا .

وفى كل بيئة من البيئات - أيضا توضع معايير محددة وواضحة تكاد ترتفع الى مرتبة التقديس لتفرق بين السلوك السوى والسلوك الشاذ ، فكلما كان متققا مع هذه الأحكام والمعايير اعتبرته الجماعة سلوكا سويا ومقبولا ، وسمحت بنقله واستمراره ، وكل ما كان غير ذلك حاربته الجماعة لتمنحه وتقمعه وتوقف نموه واستمراره .

ووسيلة الجماعة فى هذه الحالة أو تلك - كما سبق أن قلنا هي الضغوط الاجتماعية العالية التي تبدلها لتسوس أعضائها ، والتي يكون الهدف منها الحفاظ على كيان الجماعة ، وكذلك ذاته في أثناء اجراء هذه الضغوط والجهود فإن الفرد تتكون لديه مجموعة من القيم والمعايير والاتجاهات والمعتقدات تكون هي الأساس في تكوين ضميره الاجتماعى .

وهذه القيم والمعايير والاتجاهات والمعتقدات التي تتكون دائما في مواقف الخبرة والمفاضلة والاختيار تستقر وتنبولر لتصبح الوحدات المعيارية للضمير الاجتماعى عند الفرد .

والضمير الاجتماعى - حتى يكون واضحا لدينا - هو ذلك الجهاز النفسى الاجتماعى الذى يساعد الفرد على اتخاذ حكم أو قرار فى المواقف المختلفة التي تمر بها حياته اليومية .

والضمير الاجتماعى لا ينشأ ولا يتكون فى الفراغ ، ولكنه - كما سبق أن اسلفنا - يتكون عند تفاعل الفرد مع البيئة بكل عناصرها ومصادرها بما فيها من ضغوط وجهود وما الى ذلك .

وعندما تتطور هذه المصادر والعناصر أو تتغير ، فإن القيم تتطور تبعا لذلك فى معظم الاحوال ، وبالتالي يتغير الضمير الاجتماعى للفرد ، فانه كما نعلم هناك أثر واضح للعناصر الاقتصادية فى البيئة على القيم الاجتماعية وهي التي تكون الضمير الاجتماعى .

فلا بد إذن أن نتوقع ويتوقع معنا القارىء أن هناك احتمالا كبيرا أن تختلف صورة القيم الاجتماعية والضمير الاجتماعى بين أفراد الجماعة فى حالة الرخاء عنها فى حالة الضيق والشدة .

وكذلك الحالة عندما تنتشر بعض الأوبئة النفسية الاجتماعية التي تسبب ضغوطا عالية تنتج عنها قيم ومعايير ، فطى سبيل المثال عندما انتشرت موجة (الخنافس) فى المجتمع اللندنى كان لها اثر واضح - بما كونه من قيم ومعايير - على الصورة العامة للقيم الاجتماعية والضمير الاجتماعى فى هذا المجتمع وغيرها مما سبقها .

يبقى بعد ذلك أن نشير الى ما هو اهم وأحرى بنا أن نقرره دون تردد، وهو انه فى هذه الفترات والمراحل من موجات التغيير والإبدال والتأثير فى صورة القيم السائدة كما انه أيضا فى مراحل بلل الضغوط العالية للحفاظ على كيان الجماعة تنهت بدور التحامل والتصيب واتخاذ الاتجاهات المضادة التي تحدد سلوك الفرد تجاه الآخرين .

وفى تيار الحياة التي يعيشها الفرد داخل الجماعة كثيرا - ان لم يكن دائما - ما يتعرض لمثل هذه الموجات من التغيير والضغوط .

ولا نريد أن نستعرض فى هذا المقام فنناقش أهم اجراء هذه الدراسة ، لاننا نريد أن نفرد له

مكانا خاصا يتناسب مع أهمية موضوع التحامل والتعصب في النسيج الثقافي والحضارى لمجتمعاتنا العالية المعاصرة .

البيئة والتأثير على الخبرة : -

ينحصر الر عناصر البيئة على الخبرة في أى جماعة من الجماعات في نواح ثلاثة سبق الإشارة إليها ومناقشة معظمها ، وهذه النواحي هى تكوين الخبرة ، ثم تعديلها وتهذيبها ثم نقلها وتناقلها فاما من ناحية تكوين الخبرة فقد سبق معالجة هذه النقطة عندما اخلنا في اعتبارنا علاقة الفرد بعناصر البيئة الخارجية والمستويات المختلفة لتفاعله معها ، حيث يبدأ بمستوى الاشباع وعدم الاشباع ، وينتهى بمستوى التجريد والرمز ، أو بمعنى آخر حيث تحول الخبرة من المستوى المحسوس الى مستوى الرمز والمترك والمفهوم .

وكذلك موضوع تعديل الخبرة ، فقد نال قسطه من المناقشة عندما تعرضنا لتطور عناصر البيئة وتغيرها وتفاعلها ، حيث تمد الفرد دائما في اثناء هذا التطور والتغير والتفاعل بالجديد من المعلومات والمعلومات ، فيتمكن من تعديل خبراته . كما أن هذه البيئة بما تظهره من الثابة ومكافأة ، أو من نزع ومقاب ، تؤدي دورها الهام في تعديل خبرة الفرد وإعادة تشكيلها وتهذيبها وفقا لما تتطلبه هذه البيئة .

واما من دور البيئة في نقل الخبرة فهذا يتم على خطوات ذات علاقة منطقية ببعضها البعض ، وأولى هذه الخطوات أو المراحل هى أن تسمح هذه البيئة أولا تسمح بنقل هذه الأنماط والنماذج من الخبرات البشرية ، ونحن لا نقالى اذا قلنا ان البيئة بكل عناصرها ومقوماتها تقف موقفا كليه حذر وحيلة من كل نموذج او نمط من خبرة الفرد ، وهى غالبا ما تكون نافذة وخاصة تجسده الخبرات الجديدة فلا ينقل منها الا ما هو أصيل حتى يمكنه مصارعة نقد البيئة والتغلب عليها .

والمرحلة التى تلى موافقة البيئة ومساعدتها بنقل خبرة من الخبرات هى مرحلة الترميز والتجريد والعمومية ، حيث تقوم البيئة - كشخصية معنوية باعطاء الخبرة نوعا من الرموز والمفاهيم يختلف عما سبق أن اعطاه إياها الفرد ، فإنا كما أسلفنا نجد أن الفرد مجرد خبرته في آخر مراحل اكتسابه لها ولكن هذا الرمز والتجريد قد يكون خاصا ومحليا ، ولكن عندما تقوم البيئة بترميز الخبرة فانها تحولها الى مستوى إمكانية النقل والانتقال من بيئة الى أخرى ومن جيل الى آخر .

وبعد ذلك يتكون محتوى المعرفة من هذه الخبرات المجردة والرموز والعموميات ، ويصبح من واجب البيئة أن تنشئ مؤسساتها التربوية لتلقين أبنائها وبناتها هذا المحتوى من المعرفة لتلقينا مقصودا ، وبذلك قامت المدرسة ودور العلم والمادة .

ولم يغت البيئة بطبيعة الحال أن تنصب من نفسها رقيباً وناقداً ومشرفاً بالنسبة لهذه المؤسسات .

ومناقشة دور هذه المؤسسات التربوية المقصودة في عملية نقل الخبرة والمعرفة امر يخرج بنا من الحدود الطبيعية لهذه الدراسة .

ولكن هناك من المؤسسات أو بمعنى أدق من الانظمة والتجمعات الاجتماعية ما يقوم بدور

معالم ، ولكن قد لا تكون عملياتها مقصودة كسابقتها ، فالأسرة والمجتمع المحلي يلعب كل منهما دورا له خطره في تنشئة الفرد وتطبيعته وتكوين شخصيته بها فيها من خصائص ومميزات .

وبهنا في هذا المجال أن ندرس اثر كل من الأسرة والمجتمع المحلي على شخصية الفرد الانسان فالشخصية هي الكل التكامل الذي يمكن عن طريقه تفسير وتعليل السلوك البشرى بها في ذلك النمط العلمى الموضوعى أو انماط التحمل والتجيز والتعصب .

وشخصية الفرد كذلك هي محصلة العوامل المتفاعلة والعوامل المساعدة في كل موقف من المواقف التى يعيشها الفرد . ومعنى ذلك أن دراسة اثر كل من هاتين الناحيتين (الأسرة والمجتمع المحلي) لها من الأهمية ما يمكن تلخيصه فيما يلى : -

اولا : انه طالما ان المشاكل التى تدخل في نطاق علم النفس الاجتماعى تجرى دراستها وتحليلها عن طريق فهم الضغوط الاجتماعية والنفسية التى تؤثر على الشخصية الانسانية فانه يصبح من الممكن تحديد مستويات الانضباط والتكيف والنمو والتعلم عندما نعلم الظروف والالاسبات التى تكونت فيها الشخصية الانسانية ونمت وتطورت وكونت مجموعة ثابتة من الاستجابات وردود الافعال بالنسبة للمواقف المعينة .

ثانيا : لا يمكن لنا ان ننكر ان عملية نمو الشخصية وتطورها - في حد ذاتها - هي عملية تفاعل بيئية تتم بين الكائن الحي وبين عناصر البيئة الخارجية ، ومعنى ذلك أن عملية نمو الشخصية وتطورها لا يتسنى لها ان تحدث في غياب هذه العناصر مادية كانت أم بشرية .

ونعود الآن الى دراسة ما قصدنا اليه وقدمنا له : -

١ - الأسرة وشخصية الفرد :

مما لا شك فيه أن مناقشة العلاقة بين الأسرة (كؤسسة اجتماعية) وبين شخصية الفرد وخاصة من الناحية الوصفية او التحليلية هو امر بمثابة مناقشة البديهيات التى لا تحتاج الى دليل او برهان : لانه من الضرورى والمنطقى - عادة - أن تتأثر شخصية الطفل بصورة او بأخرى بالأسرة التى ينشأ فيها . ويبرز بين أعضائها السنوات الأولى من حياته .

ولكن المناقشة التى سوف نتعرض لها في الفقرات التالية سوف تأخذ في اعتبارها تحليل أهم العوامل التى تدخل في عملية الاحتكاك بين الطفل وأعضاء الأسرة ، لأن ذلك يمثل المراحل الاساسية الاولى في عملية التطبيع الاجتماعى ، إذ ان هذه العوامل كانت ولا شك محور دراسات عديدة وواضحة في ميدان علم النفس الاجتماعى بصورة عامة وميدان التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى على وجه الخصوص .

ويمكن لنا ان نقول ان معظم الدراسات التى أجريت في هذا الميدان كانت جميعها تهتم بالعوامل التى تتصل بالعلاقة بين الآباء والإبناء وخاصة من الناحية السيكولوجية ، وكذلك بالتفسير السريع الذى يطرأ على سلوك الطفل واستجابته لعملية التطبيع نتيجة نموه العصبى والعقلى والنضج الفسيولوجى بصورة عامة . وكذلك فانه من الناحية التقليدية يمكن أن نقول ان المشكلة هي اثر ودور كل من الوالدة والبيئة في تنشئة الطفل وتطبيعته اجتماعيا .

ومعظم الدراسات الحديثة أعطى معالجة هذه المواضيع أهمية بعد أن أعاد صياغة هذه المسائل

- مسائل الوراثة والبيئة - على أساس أنها علاقة قائمة بين العوامل الوراثية وأطوار النمو من جهة ، وبين العوامل الاجتماعية والبيئية من جهة أخرى .

ومن الدراسات الثيقة والتي تستحق أن نثير إليها في هذا المجال دراسة قامت بها مجموعات من الباحثين في علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع من جامعات كورنل وهارفرد وبيل بالولايات المتحدة الأمريكية (١) .

وقد تركزت هذه الدراسة حول الاختلافات والفروق في الظروف الاجتماعية المحيطة بمجموعات من الأسر ، وخاصة من ناحية الضغوط التي تبذلها كل أسرة من أجل تنشئة أطفالها وتطعيمهم ، ثم تبين هذه الضغوط من ناحية المصدر الذي تنبع منه والهدف الذي يرمى إليه ، والطريقة التي يمارس بها .

وقد كان ميدان هذه الدراسة ستة مجتمعات محلية مختلفة في شمال الهند واوكيناوا والمكسيك وأفريقيا والفلبين وشمال شرق الولايات المتحدة (٢) . وقد قام الباحثون بإجراء عديد من المقابلات الشخصية المطولة مع مجموعات كبيرة من الامهات والأطفال في كل بيئة من البيئات الستة المشار إليها . وكان هدف هذه المقابلات الشخصية هو اكتشاف وسائل التلقين والتدريب الذي تمارسه كل أسرة في تطعيم أطفالها وكذلك الضغوط التي تبذلها من أجل ذلك سواء كان مصدر هذه الضغوط الأم أو أى عضو آخر من أعضاء الأسرة .

وقد استخدم الباحثون بعد ذلك الطرق الإحصائية المناسبة لتحليل محتوى هذه المقابلات الشخصية ، وخاصة طريقة التحليل العاملي (٣) وكانت النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة تؤكد أن الأسر تختلف من بعضها البعض في عديد من النواحي التي لها أثر واضح في عملية التطعيم الاجتماعي .

ويمكن تلخيص هذه النواحي فيما يلي : -

١ - متطلبات المسؤولية الشخصية والاجتماعية التي تفرض على النشء وما يتوقعه منهم الكبار وخاصة الآباء استجابة لأنواع هذه المسؤوليات .

فنحن كما نعلم هناك في كل مجتمع أنواع من المسؤوليات الشخصية والمسؤوليات الاجتماعية وكل أسرة تهتم ولا شك بتدريب أبنائها على مزاوله هذه المسؤوليات وتحمل ما تفرضه الظروف عليهم . وقد وجد أن كل أسرة تختلف من الأخرى في هذه الناحية اختلافا واضحا فبعض الأسر وخاصة في المجتمعات المحلية التي تعتمد على التعامل المباشر مع عناصر البيئة في كسب القوت (مثل الزراعة أو الصناعة اليدوية أو ما إلى ذلك) تحرص على تدريب أطفالها على أنواع من المسؤوليات الاجتماعية لا تهتم بها غالباً الأسرة في المجتمع الصناعي المتحضر ، والعكس صحيح أيضاً .

٢ - الجو العاطفي والانفعالي الذي يحيط بالطفل ، مثل حنان الأم ورعاية الأب والتشجيع .

(1) Lambert, W.W. and Lambert, W.E.. Social Psychology, Foundations of Modern Psychology Series, PP. 7-27.

(2) Whiting, B. (Ed.), Six Cultures, Studies of child Rearing, N.Y. 1963.

٣ - طريقة رياضية تعتمد على فكرة العلاقة بين معاملات الارتباط بين العوامل المختلفة موضع الدراسة .

او غير ذلك مثل الكبت او الاحباط والعقوبات وخاصة العقاب البدنى . فكل أسرة تختلف عن الاخرى فى كمية العطف او القمع الذى يتعرض له أطفالها وربما اعتمد ذلك على ثقافة الابوين ومدى فهمهم لخصائص نمو الاطفال وتطورهم ، كما يعتمد ذلك ايضا على حجم الأسرة وعدد الاطفال . فالطفل الذى ينشأ وحيدا او مع طفل آخر (اخ أو أخت) يختلف عن الطفل الذى ينشأ بين عدد كبير من الاخوة . فى كمية ونوعية الحنان والرعاية والكبت والاحباط والعقاب . وبصورة عامة فإنه يمكن أن نربط بين حجم الأسرة وبين المجتمعات المحلية المختلفة ، فحجم الأسرة فى بعض المناطق فى افريقيا يختلف من حجم الأسرة فى الولايات المتحدة .

٣ - درجة ضبط وتهذيب عدوانية الطفل تجاه اقرانه واترابه سواء داخل الأسرة كالاخوة والاقارب او خارج الأسرة كأطفال الجوار والمجتمع المحلى .

وعملية الضبط والتهذيب هذه تربط بنماذج الثقافة فى المجتمع المحلى الذى تنتمى اليه الأسرة . فالأسرة التى تتوقع من أطفالها ان يكونوا من المحاربين او المصارعين او من ذوى العمل الخشن المعنيف مع عناصر البيئة والطبيعة - كأعمال الصيد فى البحر والغابات - تختلف فى درجة ضبط وتهذيب عدوانية أطفالها من الأسرة التى تتوقع من أطفالها ان ينشئوا ليزاولوا أعمالا لا تتطلب تلك الجسارة والخشونة والعنف والعدوانية ، ومرة اخرى فإنه لا بد من لسان غير ان نربط بين المجتمع المحلى فى افريقيا او الهند او الفلبين او أمريكا ، وبين اهداف الأسرة وآمالها فى أطفالها وإبنائها .

٤ - درجة ضبط وتهذيب عدوانية الطفل تجاه الابوين ومعيضاته لاوامرهما . وهذه نقطة تتعلق بساقيتها ، اذ ان العلاقة السيكولوجية بين الابوين من ناحية وبين أطفالهما من ناحية أخرى ، تتأثر بطبيعة وخصائص المجتمع المحلى بوجه عام ، وهدف الأسرة كنظام اجتماعى داخل نطاق هذا المجتمع . فقد تكون هناك بعض الاسر تتصف بالتسامح ، واخرى تتصف بالقمع فى معاملة ابنائها ، وهم اى الإبناء فى كلتا الحالتين يتصفون بالعدوانية والمصيان تجاه الوالدين . ولذلك فان هذا التفرق من الصعب وصفه وتحديدده الا فى ضوء ظروف كل أسرة على حدة .

٥ - درجة العناية والرعاية التى تبذلها الأم فى تربية أطفالها الرضع . وهذه تختلف من أسرة الى أخرى ومن مجتمع الى آخر ، متأثرة بذلك بما هو سائد فى المجتمع من تقاليد وعادات وطقوس ، وخاصة اذا اربطت هذه الرعاية والعناية بالرضع بنوعه ذكرا كان أو انثى .

فبعض الاسر تبذل من الرعاية بالرضيع الذكر ما يختلف تماما عما تبذله من رعاية وعناية بالرضيع الانثى ، فإذا كان ذلك الاتجاه سائدا فى بعض المجتمعات فإنه لا يكون كذلك فى مجتمعات اخرى ، او بمعنى آخر لا نلاحظ هذا الاختلاف فى معاملة العناية بالجنسين .

٦ - درجة العناية والرعاية التى تبذلها الأم فى تربية الاطفال الكبار . وهذه ايضا تختلف من أسرة الى أسرة ومن مجتمع الى آخر ، وهى ليست متعلقة تماما بالنقطة السابقة كما يبدو ذلك من الوهلة الاولى ، اذ ان النظرة الى الطفل - فى بعض المجتمعات والاسر - تختلف باختلاف اطوار نموه وقدرته على الاشتراك فى حياة الكبار - مثل كسب العيش - ذكرا كان أو انثى .

٧ - درجة الثبات الانفعالى والاتزان العاطفى للام . وهذه وإن كانت تختلف من ام الى اخرى ، كصورة من صور الفروق الفردية بين بنى الانسان ، الا انه فى حقيقة الامر يمكن ان نقول ان كمية هذا الثبات والاتزان موصوفان بما هو سائد فى المجتمع المحلى من عادات وتقاليد مكتسبة او موروثة .

وقد ظهر من نتائج هذه الدراسة أيضا ان العوامل السبعة السابقة تتعلق بالاختلاف بين الامهات أكثر من تعلقها بالاختلاف بين البيئات .

وكذلك فانه يمكن القول بأن وسيلة البحث في هذه الدراسة والنتائج التي تمخضت عنها رغم اعتراف القائمين بها بأنها تمهيدية - ساعدت على إمكانية وضع دلائل ومؤشرات بحثية تفيد في مقارنة القومات الحضارية في بيئات مختلفة . كما اعطت الفرصة أيضا لتعديل المفهوم النظري عن التباين والاختلاف بين الاسر والمجتمعات المحلية عندما نحاول تحديد عملية التطبيع الاجتماعي على انها عملية تربوية ذات تأثير على نمو الشخصية الانسانية وتطويرها .

٢ - المجتمع المحلي وشخصية الفرد :-

ونحن هنا - أيضا - لسنا في حاجة الى القدرة على المناقشة والحوار ، او تقديم الأدلة والبراهين ، لنلندل على مدى تأثير شخصية الطفل بالآخرين من اعضاء المجتمع المحلي حيث بدأ أولى خطوات حياته خارج الاسرة ودرج ليلتقى بأقرانه واترابه من بني جيله ومجتمعه الصغير : فتعلم من هؤلاء وهؤلاء أسماء الأشياء والأحداث وخواصها ومزاياها كما تعلم أيضا الوظائف والأدوار الاجتماعية التي تختص بها عناصر بيئته ومقوماتها ونوعية وحجم الاستجابة التي يتحتم عليه ان يقدمها لكل مثير من مثيرات البيئة .

ومن خلال هذا الاحتكاك الأول بالمجتمع المحلي قد يرتبط الطفل ارتباطا وثيقا بجماعة من الجماعات الصغيرة المتميزة داخل مجتمعه المحلي، فيكتسب منهم من القيم والمعايير والاتجاهات النفسية ما يجعله متشابها معهم عند معالجته للمواقف وحكمه على الأشياء والأحداث ، بل يذهب الى أبعد من هذا فيتعاطف معهم في المادة والحاجة .

وعندما يخرج الطفل من مجتمعه المحلي الى ذلك المجتمع المريض ، متعديا في ذلك الحدود الضيقة التي ألفها واطمان إليها ، فانه يحمل معه ذلك القدر مما اكتسبه من قيم وعادات ، والذي يكون سلوكه ونماذج تعامله مع الآخرين .

والفرد انما يكون هذه الأنماط والنماذج نتيجة الخبرة والاحتكاك بعناصر البيئة ، ومن هذه العناصر ما يكون لنا هينا سهلا ، فيتفاعل معه الفرد على مدى طويل من الزمن ، فيتأثر به ويؤثر فيه ، ومنها ما يكون عنيفا شديدا وعسرا بحيث لا يستمر التفاعل بينه وبين الفرد الا لفترة قصيرة حيث يتم التأثير المطلوب .

وبطبيعة الحال لا بد ان نتعرف بأن المجتمع المحلي هو الذي يقدم للفرد من المواقف والمثيرات ما يعطيه الفرصة لى ان يتدرب على تقديم الاستجابات المناسبة لكل موقف ومثير من هذه المواقف والمثيرات .

ونحن في هذا الصدد نعرض دراسة من الدراسات الهامة والتي عنيت بعلاقة المجتمعات المحلية بعملية التطبيع الاجتماعي وانكاسها على شخصية الفرد .

فقد قام باركر وآخرون (١) في سنة ١٩٥٤ بدراسة تهدف الى تصنيف المواقف والمثيرات التي تقدمها بيئة المجتمعات المحلية للأفراد ، وكذلك تحديد هذه المثيرات ومقارنة البيئات بما ذلك.

(1) Barker, R. G. and Wright, H.F., *Midwest and its children*, Evanston III, Row, Peterson and Co. 1954.

وفي احدى مراحل هذه الدراسة قام الباحثون بمقارنة بلدة امريكية باخرى انجليزية ، حيث كان تعداد البلدة الامريكية ٧١٥ فردا ، وعدد انواع المواقف والمثيرات التى تقدمها بيئة هذه البلدة لهؤلاء الافراد ٥٧٩ نوعا ، وحيث كان تعداد البلدة الانجليزية ١٣٠٠ فرد ، وعدد انواع المواقف والمثيرات هو ٤٩٤ نوعا (مع ملاحظة مدى تشابه انواع المثيرات والمواقف فى كل من البلدين ما أمكن ذلك) .

وبناء على ذلك فانه تكون نسبة تعرض الفرد الواحد فى بلدة ميد وست الامريكية لانواع مختلفة من المواقف والمثيرات هى ١٨١ ، فى حين ان هذه النسبة تكون ٥٥٠ فى حالة الفرد فى بلدة بوريندال الانجليزية .

ويقول الباحثون ان اختلاف هذه النسبة ربما يعطى بعض التفسير لاختلاف طريقة الفرد الامريكي فى حياته عن طريقة الفرد الانجليزى .

ففى البلدة الامريكية نجد ان الطفل فى المتوسط يواجه ٨٤ من مواقف المسؤولية الاجتماعية فى مجتمعه المحلى ، بينما نجد الطفل الانجليزى يواجه ٢٧ من هذه المواقف فقط .

ونجد كذلك ان المراهق الامريكى - فى نفس البلدة - يتعرض الى ١٦٦ من نفس هذه المواقف ، بينما يقابل المراهق الانجليزى ١٤٢ من هذه المواقف فقط ، ويستمر هذا التباين والاختلاف بين افراد البلدة الانجليزية والبلدة الامريكية حتى فى مراحل الرجولة المبكرة وما بعدها ، ويمكن ان تنبئ تفسير الباحثين لهذه النتائج فى اتجاهين :-

اولهما : ان هناك فى الحياة الامريكية من المواقف والمثيرات المتنوعة ما هو اكثر من نظيرتها فى الحياة الانجليزية ، وان لهذا الفرق تأثيرا واضحا على عملية التطبيع الاجتماعى .

وهذا هو عامل عناصر البيئة الخارجية الذى يتدخل وبصورة مؤثرة فى هذه العملية ، والذى سبق ان ناقشناه فيما تقدم من فقرات .

وثانيهما : ان الطفل الامريكى يجد من تشجيع الوالدين وتدريبهم اياه اكثر مما يلاقىه الطفل الانجليزى من ابيه .

فنجد ان الطفل الاول (أى الامريكى) يقدم على معالجة المواقف والدخول فيها والتعامل مع عناصرها ، بينما لا يجد الطفل الاخر مثل هذه الفرصة .

ففى البلدة الامريكية يجد الطفل ٥٢٪ من مواقف مجتمعه المحلى مفتوحة امامه ويمكنه الدخول اليها والتفاعل مع عناصرها ، بينما لا يجد الطفل فى البلدة الانجليزية سوى ٢٣٪ فقط من هذه المواقف .

وبهذا يتسنى لنا ان نسال سؤالا يترتب على نتائج هذه الدراسة وهو هل اطفال البلدة الامريكية اكثر قدرة على المشاركة فى انماط الحياة الاجتماعية المختلفة ومواقفها اشتراكا ناشجا ونملا ؟ وهل هم اكثر نشاطا وفاعلية واجتماعية وامتلاء بالامل فى المستقبل ؟ .

او بمعنى آخر ، هل هو موضوع الكم أو الكيف الذى اخذته فى اعتبارها دراسة باركر ومعاونوه ؟ .

هذه الأسئلة لم تجب عليها هذه الدراسة ايجابية كافية شافية ، ولكنها اهتمت فقط بإيجاد هذه النسب والإحصاءات ، ثم فسرت على أساسها ولهذا فنحن في انتظار ما توضحه دراسات مقبلة تأخذ في اعتبارها عددا أكثر من المتغيرات، وتكون أكثر عمقا وأشمل اتساعا من الناحية الميدانية .

يخيل الى أنه أصبح من المفيد الآن أن نلخص ما سبق مناقشته فنقول أننا استعرضنا اثر الأسرة والمجتمع المحلي في عملية التطبيع الاجتماعي وخاصة من ناحية بناء وإكمال الشخصية الإنسانية .

يترتب على هذه الملاحظة سؤال أجابت عليه دراسة ذات صبغة خاصة سوف نستعرضها فيها بعد . وهذا السؤال هل يمكن أن يكون لعملية التطبيع أو بمعنى أدق إعادة التطبيع دور في تنمية الشخصية الإنسانية ؟

هذا السؤال كان محور الدراسة التي قام بها شاين ثم نشرها في سنة ١٩٥٦ (١) . وأدجار شاين إخصائي في علم النفس الاجتماعي قام بإجراء عدد كبير من المقابلات الشخصية المطولة مع أسرى الحرب الأمريكيين بعد إطلاق سراحهم وعودتهم من الصين الشيوعية ، وكان هؤلاء الأسرى قد تعرضوا الى ما سمي في ذلك الوقت بعمليات غسيل المخ . . .

يقول شاين ان الشيوعيين لم يحاولوا فقط محو حصيلة عملية التطبيع الاجتماعي لدى الجندي الأمريكي ، بل حاولوا إعادة تطبيعه من طريق تلقينه مبادئهم ومقائدهم وتدريبه عليها . ومما هو معروف أن الاهتمام الأكبر عند الشيوعيين هو غرس المبادئ السياسية التي يؤمنون بها في صدور الآخرين . وكما يعتقد شاين فان الصينيين قد فشلوا في تحقيق هذا الهدف الرئيسي ، ولكنهم نجحوا في أمور فرعية أخرى دعتهم الى إمداد دراسته .

فعملية محو حصيلة التطبيع أو التثنية تعني العودة بالفرد أو الرجوع به الى النقطة التي يمكننا أن نغير فيها سماته وخصائصه الأساسية ، وهذه العملية - عملية المحو - في حد ذاتها تحتاج الى إخضاع الفرد الى أنواع خاصة من الضغوط الاجتماعية ذات الجهد العالي (٢) . وإلى إخضاع هذه الضغوط أيضا الى إمكانية التحكم فيها بالزيادة أو النقص أو الإبدال أو التغيير .

فأول ما عمدت اليه السلطات الشيوعية الصينية هو إبعاد الضباط الأسرى عن جنودهم ، وبذلك تركت الجندي دون أن يتلقى أية أوامر من رئيس ، وتركت الضابط دون أن يعطى أية أوامر لرؤس ، وبذلك تغير الروتين اليومي لحياة الجندي التي تعود عليه كل منهما - الجندي وضابطه - . واستمر ذلك لمدة ليست قصيرة أعطيت فيها الحرية للجنود لأن تكون لديهم الفرصة لأن يعملوا الى عدم الانصياع للأوامر والتصرف بشيء من التلقائية ، وفي نفس الوقت تعرض الضباط لموامل عديدة تساعد على إخراجهم من إحساسهم بالجندي والقيط والانتماء . وبعد ذلك قام الشيوعيون بإعادة توزيع الجنود مع ملاحظة تحطيم السرايا والفصائل وعدم الجمع بين المعارف أو الإصدقاء من الجنود في تنظيم واحد .

كذلك عمدت السلطة الصينية أن تجمع معا أعضاء الاقليات مثل الزوج أو اليهود حتى

(1) Schein, E.H. *Psychiatry*, 1956, 149-172.

(٢) السلطة الاجتماعي ذو الجهد العالي هو للسلطة الاجتماعي الذي يخلق للفرد من المواقف ما يجعله يستجيب لها على مستوى المنافسة بين احتمالين لا ثالثهما بصورة فورية .

تكون الفرصة سانحة لأن يتصاعد الاحساس الكامن بالنظم والاضطهاد بين هؤلاء ، الامر الذي كانوا يعانون منه في مجتمعاتهم الاصيلة .

وبناء على هذا التوزيع الجديد كان من المتوقع أن تنشأ بعض الروابط والصداقات بين الافراد ، ولكن كانت هناك خطة دائمة لتعطيل مثل هذا البناء الاجتماعي المؤقت . فقد كان هناك تشجيع ودفع واغراء لبعض الجنود لأن يقوموا بملاحظة زملائهم والأخبار عنهم حتى في بعض الامور البسيطة والتي قد لا تقدم أو تؤخر . وبعد ذلك يكافأ هؤلاء علنا وأمام بقية الجنود مع علمهم بسبب هذا التمييز وهذه المكافأة .

وبناء على ذلك أصبحت مهمة الشيوعيين سهلة - وخاصة بعد تكرار مثل هذه المواقف - مواقف مكافأة الوشاة - فاذا لوحظ نمو أي صداقة أو تعارف بين جماعة من الجنود كوفي بعضهم على نفس النمط بطريقة تثير الشك والاقاويل حول اخلاصهم لزملائهم الجنود . وبالتالي يتحطم هذا البناء عندما يشك كل جندي في زميله ويعامله معاملة الحيلة والحر .

وقد كان من المتوقع بعد ذلك أن ينزع كل جندي أو ضابط الى امتزال زملائه ورفاقه في السلاح . وبذلك يدخل الرجل طائفا مختارا من الوجهة الظاهرية فقط - الى متاهات الوحدة والانزواء . الامر الذي كانت تهدف اليه السلطات الصينية الشيوعية .

ولهذه الوحدة كانت تعني تعطيل حواس الرجل من مزاوله عمله الطبيعي ، وبذلك يرتفع مستوى الكبت والخوف والاحباط عندهم ، ويصبحون في ميسس الحاجة الى من يتحدث اليهم ويتحدثون اليه .

وفي هذه المرحلة بدأ الشيوعيون يتحدثون الى الرجال حديثا بارها ذكيا . يعتمد على ادق أسس ومبادئ علميية الدعاية والتأثير ، وكان الهدف من مثل هذه الاحاديث هو اظهار الجانب السيئ للحياة الامريكية بما فيها من علاقات اجتماعية واقتصادية ، وكذلك اظهار الجانب الحسن في نماذج الحياة الاجتماعية والاقتصادية على الطريقة الماركسية .

ولم يكن مجرد الاستماع كافيا سواء بالنسبة للشيوعيين الذين يهدفون الى تحويل الاسرى تحويلا عقائديا كاملا أو بالنسبة للرجال في الاسر والوحدة الذين كاد الملل ان يتسرب مرة أخرى الى نفوسهم . وبذلك عمد الشيوعيون الى تدريب اسراهم تدريبا من نوع خاص .

الخطوة الاولى في هذا التدريب كانت ترمي الى تكوين مادة الاعتراف بالإخطاء البسيطة ، مثل العصيان العادي لقوانين معسكر الاعتقال ، وكان الجندي يكافأ بسخاء بعد كل اعتراف بهذه الأخطاء البسيطة . والهدف البعيد من هذه الخطوة هو تكوين عادة اعلان الاخطاء - سواء في العمل أو العقيدة - أمام بقية الناس ، وبذلك قد يصل الجندي أو الضابط الى المرحلة التي يناقش فيها عقيدته السياسية أمام الآخرين معترفا بما فيها من نقائص وعيوب .

والخطوة الثانية من هذا التدريب الخاص اعتمدت على فكرة التقمص والتقليد الذي تبدأ مراحل بان يشعر الرجال في الاسر وهم يعانون من الكبت والاحباط بأنهم كانوا من الممكن ان يستمتعوا بما يستمتع به الشيوعيون في هذه الظروف داخل معسكر الاعتقال .

وبناء على ذلك فان تطلعات بعض الرجال من الاسرى وجدت صداها عند الشيوعيين حيث استجابوا لهذه الرغبات ، ولكن بشروط ضمنية وغير واضحة أو صريحة ، وهي ان من يستمتع

بهذه المزايا لا بد أن يسلك ويتصرف ويفكر على نفس الصورة التي يسلك ويتصرف ويفكر بها أصحابها الأصليون وهم الشيوعيون .

ولا بد أن نشير هنا إلى أن الأمور لم تكن بهذا التسلسل الهاديء ، ولكن اكتنفها في كثير من الأحيان بعض العنف والإرغام والتهديد .

كما لا بد أن نشير أيضا إلى أن هذه العملية - عملية محو حصيلة التطبيع الاجتماعي أو غسيل المخ كما تسمى أحيانا - لم تتم إلا مع عدد قليل من هؤلاء الأسرى .

وهكذا استمرضنا فيما سبق كيف يمكن أن يكون لعملية التطبيع دور معاكس أو مضاد في بناء الشخصية الإنسانية وتكاملها ، فانه مما لا شك فيه كان هدف العملية - التي سبق وصفها - هو تحطيم الشخصية الأمريكية لدى الجندي وأعطائه أو الباسه الشخصية الماركسية .

نعود إلى حديثنا السابق عن الأسرة والمجتمع المحلى وتأثيرها على الشخصية الإنسانية، فقد مالنا هذا الجزء من الدراسة على أن هناك سبيلين أو طريقتين تتم عملية التطبيع الاجتماعي من خلالهما ، الطريق الأول هو المؤسسات الرسمية والقانونية التي هي وظيفتها الحفاظ على حضارة وثقافة الجماعة ونقلها من جيل لآخر ، ومثال ذلك المدرسة أو الجامعة أو أماكن الدين والعبادة كالمسجد أو الكنيسة . وهذا لم نتعرض له بالمناقشة حتى لا نخرج بدراستنا هذه عن حدودها الطبيعية .

والطريق الثاني هو الأنظمة الاجتماعية والتجمعات التي تقوم بعملية التطبيع الاجتماعي بطريقة غير مقصودة وهي الأسرة والمجتمع المحلى وهذه أيضا وظيفتها وكيانها تعتمد على استمرار حضارة الجماعة وتطويرها . ونحن في هذه الناحية نعرضنا لمناقشة التفصيلية لأثر الأسرة والمجتمع المحلى على الشخصية الإنسانية ، ولكن يبقى بعد ذلك أن نناقش أهم نواتج عملية التطبيع الاجتماعي التي تتم من هذا الطريق غير المقصود . ويمكن تلخيصها فيما يلي : -

(١) الطاعة الاجتماعية :

الطاعة الاجتماعية هي ظاهرة انصياع الفرد لما هو سائد في المجتمع من قيم ومعايير وقوانين اجتماعية ، أو بتفسير آخر هي استجابة الفرد لمثيرات البيئة على نمط لا يختلف عما يقدمه الآخرون أعضاء نفس المجتمع من استجابات لهذه المثيرات .

ولعله من المفيد في هذه المجال أن نناقش الظروف التي تجعل الطفل طيعا مستجيبا لما حوله من مناصر البيئة على الصورة التي أشرنا إليها . ونحن لن نذهب بعيدا عندما ندرس هذه الظروف داخل الأسرة والمجتمع المحلى ، لانه كما سبق أن أشرنا أن أسلوب التطبيق الاجتماعي غير المقصود يعطى بعض النواتج أو الظواهر منها الطاعة الاجتماعية .

وهناك كثير من الدراسات حول هذا الموضوع وخاصة تلك التي أجراها معهد فلز Fels بولاية أوهايو في أمريكا (١) .

وقد اختصت هذه الدراسة بإمكانية التنبؤ بسلوك الطفل وتصرفاته ، وموقفه من قيم

(١) Crandall, S., Orleans, A. Preston and Rabson, child development, 1958, 29, 429-444.

ومعايير المجتمع الخارجى ، اعتمادا على دراسة أنواع الضغوط التى يتعرض لها الطفل داخل الأسرة خلال السنوات الأولى من حياته .

وقد أوضحت نتائج هذه الدراسة أن مفهوم الطاعة الاجتماعية وأنماط السلوك المرتبطة به تبدأ فى صورة باهتة غير واضحة فى تصور الطفل ومتسع مدركاته ، ولكنها تزداد بعد ذلك وضوحا ودقة عندما يبدأ الطفل فى ممارسة الحياة خارج الأسرة وبالتالي يتعرض لضغوط خارجية من نوع جديد ، أى غير تلك التى تعودها من الأبوين والأخوة والأقارب .

ومن هنا نستطيع أن نقول أنه من الصعبه يمكن أن تكون لدينا القدرة على أن نتنبأ بطاعة الطفل أو عصيانه لقيم المجتمع ومعاييره عندما يترك الأسرة وينضم الى جماعة المدرسة ، وذلك اعتمادا على ما تعرض له من ضغوط داخل الأسرة .

ولكنه - فى الناحية الأخرى - يمكن لنا أن نتنبأ بموقف الطفل أو عصيانه بالنسبة لهذه القيم والمعايير عندما ينضم الى جماعة المدرسة الثانوية أو المتوسطة ، وذلك اعتمادا على دراسة أنواع الضغوط التى تعرض لها فى المدرسة الابتدائية .

وقد أوضحت نتائج هذه الدراسة أثر المكافأة والثناء أو الردع والعقاب بالنسبة للطاعة الاجتماعية ، فقد ظهر أن المكافأة تقود الى الطاعة أكثر مما يقود اليها الردع أو العقوبة .

وللنمو والنضج أثر كبير فى هذا فإن الأطفال عندما يكبرون تصبح أنماط سلوكهم أكثر ثباتا وناسقا : فالطفل بين سنه الثالثة والخامسة يبدو طامعه الاجتماعية واضحة ، وذلك بالنسبة لهماير الكبار فقط ، سواء أكانوا هم الآباء أم المعلمين أم المشرفين فى دور الحضانه مثلا . ولكن الحال ليست كذلك مع أقرانهم وأترابهم فى نفس السن ، فهم فى عصيان وتمرد يوضح ويفسر لنا علاقات الطفل بأقرانه فى هذه السن .

ولكن قد يحدث ونلاحظ أن بعض الأطفال فى هذه السن يشلون عن القاعدة فتظهر طاعتهم وولائهم الاجتماعى لمجتمع أقرانهم وأترابهم ، ولكن فى حقيقة الأمر يكون ذلك ناتجا عن اعتماد هؤلاء الأطفال على غيرهم ، وخاصة فيما يحتاجون اليه من أمور تتطلب الجهود العضلى أو الجسمانى الذى لا يستطيعونه .

وعندما يقترب الطفل من سن السادسة ويتمدها نجده طيعا مواليا لقيم ومعايير كلا النوعين سواء مجتمع الكبار كالآباء والمعلمين ، أو مجتمع أقرانه وأترابه من ذوى السن الواحدة .

وقد ظهر أيضا من نتائج هذه الدراسة التى نحن بصدد استعراضها الآن أن تكيف الطفل وانضباطه لقيم ومعايير الكبار أو أقرانه وأترابه من نفس السن وذلك خلال مراحل نموه الأولى هو عامل هام وضرورى فى قدرة الفرد وإمكانياته فيما بعد التكيف والانضباط بالنسبة لأبعاد المجتمع الكبير الذى يتصل به .

فالاطفال الذين يجيدون التكيف لتلك المعايير بين سن الثالثة والخامسة نجدهم فى سن الثامنة وقد تميزوا بالاعتماد على النفس والاستقلالية فى التفكير والسلوك . كما نجد أيضا فرقا واضحا وملبوسا بين هؤلاء الأطفال وبين الأطفال الآخرين الذين لم يتدبروا على اجادة التكيف لتلك القيم والمعايير فى هذه السن . ويكون هذا الفرق واضحا فى مجال العدوانية والتسلط والسيطرة ، حيث يبدو ذلك فى سلوك هؤلاء الأطفال الآخرين .

ولذلك فإنه يمكن أن نقول أنه بالنسبة للطاعة الاجتماعية نجد الطفل بعد سن الثامنة وخاصة بعد أن يتعرض لضغوط الأسرة والمجتمع المحلى قد وصل الى قدر معقول في هذه الناحية يمكن التنبؤ على أساسه بوقوف الطفل مستقبلا من حيث كونه طيعا لنا أو عاصيا متمردا على قيم المجتمع ونظمه ومعاييره .

ويجب ألا ننسى إطلاقا أن الطاعة الاجتماعية هذه تنتج من سلسلة عمليات من عمليات التعلم واكتساب المهارة والخبرة . فالطفل يكتسب هذا النمط من السلوك أو ذلك نتيجة تفاعله مع ابويه في الأسرة وأبناء جيله في الجوار ، فيتعلم عادات الطاعة والاذعان لمعايير المجتمع وقيمه ، وقد يكون ذلك نتيجة للتقليد والمحاكاة أو إجراءات الإثابة والعقاب .

ب - العدوانية :

لعلنا اقتربنا الآن من الهدف الذي نريده عندما بدأنا بمناقشة الطاعة الاجتماعية ثم اتينا الى العدوانية ، لأن هذا هو السبيل المنطقي لأن نربط بين عملية التطبيع الاجتماعي - وخاصة غير المقصودة - وبين سلوك التعصب والتحامل الذي يجمع بين أطرافه هاتين الخاصتين : خاصة الطاعة حيث ينسول الفرد على قسم مجتمعه فيتعصب له ، وخاصة العدوانية حيث يتكون لدى الفرد القدر الكافي من العدوانية تجاه مجتمع آخر فيتحمّل عليه ، ونحن من واجبننا - كما سبق أن قمت - أن ندرس هذا الأمر بصورة تحليلية تشريحية . تساعدنا على فهم هذه العملية وإدراك أبعادها .

العدوانية هي كل تمرد على ما هو قائم في النسيج الحضارى العام للجماعة . سواء كان هدف العدوانية بشرا أو قيمة أو معيارا أو تقليدا .

والعدوانية بهذا المعنى تقل كلما زادت الطاعة الاجتماعية عند الفرد بحيث انه نستطيع أقول بأن هناك علاقة شبه قانونية بين هذين المتغيرين (١) . وبالتالي فإنه قد يكون في الامكان ضبط عدوانية الفرد من طريق تنظيم طامته الاجتماعية وما يتعلق بها من أنماط سلوكية .

وتطور خاصة العدوانية ونموها أعقد شكلا وموضوعا من تطور خاصة الطاعة الاجتماعية ونموها ، وربما يرجع ذلك الى طبيعة كل من الخاصتين أو ربما يرجع ذلك أيضا الى القدر من العلم والمعرفة الذي نلّم به من كل منهما .

وإذا أردنا أن ناقش العدوانية بشيء من الدقة والتحديد فإنه يصبح لزاما علينا أن نرسم نموذجا تفصيليا للهيكل الحضارى للمجتمع الذي تبدّر فيه هذه الظاهرة وتضحق حتى يمكننا أن نميز بخطوط واضحة فاصلة بين السلوك العدواني والسلوك غير العدواني .

كذلك فإنه من المبادئ الأساسية لمثل هذه المناقشة أن نحدد كل رابطة أو علاقة بين العدوانية وبين المتغيرات الأخرى ذات العلاقة المنطقية بها مثل الاحباط والشعور بالفشل والخيبة .

فعما هو معلوم أن كل سلوك عدواني لا بد أن يسبقه نوع من الاحباط والاحساس بالفشل

(١) العلاقة القانونية بين الأشياء هي تلك العلاقات التي يحكمها قانون وبناء عليه يمكن استنتاج أحد الشئيين بعملية التشرية الأخر .

وعدم التفريق ولكن هذا لا يقودنا الى ان نقول العكس اي ان كل احباط وفشل لا بد ان يتبعه سلوك عدواني .

ولكن - حتى على جميع الاحتمالات - اذا اخذنا بهذا المبدأ : مبدأ الإحباط والعدوانية فان الصورة تكون غير كاملة وغير مقنعة وغير قادرة على تفسير وشمول كل الحالات التي تظهر فيها العدوانية بصورها المختلفة ففي كثير من الأحيان تؤدي الكفاية الزائدة أو التدليل المفرط الى عدوانية على الأفراد والقيم والمعايير بنفس القدر الذي يسببه الفشل والإحباط .

ثم ان هناك أمرا آخر وهو انه في كثير من الأحيان يصدر عن فرد تعرض لإحباط بسيط قدر اكبر من العدوانية التي يمكن ان تصدر عن فرد آخر تعرض لإحباط أشد .

وهنا تستطيع ان تقول ان أهمية العدوانية كظاهرة من ظواهر عملية التطبيع الاجتماعي يمكن ان نستدل عليها من ناحيتين هما : -

١ - الدراسات والبحوث التي تهتم بها كل المجتمعات لضبط عدوانية أفرادها والتحكم فيها ، وذلك بالبحث عن الأسباب التي تؤدي الى هذا النوع من السلوك ومحاولة علاجها أو تفاديها . ومن أمثلة تلك الدراسات هذه التي تهتم بجناح الاطفال أو جرائم الكبار أو تلك التي تهتم بالقوانين الوضعية وتطبيقها وقيمتها العلاجية وما الى ذلك .

وهذه الدراسات بجميع أنواعها هي سبيل المجتمعات الى المحافظة على قيمها ومعاييرها ونظمها القائمة والتي يجب على الأفراد ان يلتزموا بها .

٢ - ما تبذله الجماعات من محاولات من أجل امتصاص العدوانية التي تتوقعها من الأفراد مثل تشجيع وبناء الرياضات المختلفة أو أنواع النشاطات الأخرى التي تمتص الطاقة العدوانية .

وقد تقوم المجتمعات بحيل أخرى مثل : اشاء الرموز والدلالات، لم توجيه عدوانية افرادها الى مثل هذه الرموز ، ومن أمثلة ذلك رموز الشر والرذيلة والأرواح الشريرة وغير ذلك .

وهناك منافع عديدة تخرج من طريقها الميول الى العدوانية ، ففي الواقع التي تتبع الإحباط أو الفشل على سبيل المثال قد تحدث عملية إزاحة أو استبدال ، فالطفل الذي يكون هدف عدوانيته أحد الوالدين يصغف أخاه الأصغر صفعاً فرضت عليه طاعته الاجتماعية الا يزاولها مع من هو أكبر منه سناً وخاصة أحد الوالدين .

وقد تكون الاستجابة العدائية رقيقة مخففة، ففي مثل هذا الموقف يكفي الطفل ببساطة ساخرة أو ملاحظة لاذعة ، أو ان يصمت ويدور في خله ما يتمنى ان يفعله في مثل هذه الظروف .

وقد تكون الاستجابة اسقاطية ، فلا يعترف الفرد بعدوانيته ، ولكنه يرمي الآخرين بالعدوانية ، وبذلك يهدد نفسه الطريق ليقوم بعمل عدواني هو دفاعي من جهة نظره .

وعملية التطبيع الاجتماعي تأخذ في حسابها بطريقة ضمنية خاصة العدوانية عند الأفراد ، وبذلك فهناك دراسات وبحوث عديدة أجريت حول املاء(١) العدوانية أو تعديل الاتجاهات العدوانية عند الاطفال .

(١) كلمة الاملاء (Sublimation) تستعمل كثيرا في علم النفس مثل املاء الغريزة الجنسية ، واصل التمسك او الاملاء في العلوم الطبيعية هو انتقال المادة من الحالة الصلبة الى الحالة الغازية مباشرة دون المرور بمرحلة السائلة ، والمقصود بالنسبة لغريزة الجنس مثلا هو ان ينتقل الفرد من مرحلة الاحساس بالحاج الغريزة الى مرحلة الاتزان معها والتحكم فيها دون ان يمر بمرحلة اشباعها .

وكان السؤال دائما هو « كيف يلتقط الطفل في أثناء نموه وتطوره أو بمعنى آخر في أثناء عملية تطبيعته اجتماعيا أنماط واساليب السلوك العدائي من هؤلاء الذين يحيطون به ويحتك بهم من خلال مواقف حياته اليومية ؟ »

ومن الدراسات الواضحة في هذه الناحية الدراسة التي قام بها سيرز ومعاونوه (١) ، وقد أوضحت هذه الدراسة أن الطفل في سن السادسة ، والذي يميل بشدة الى السلوك العدائي انما ترى في بيئة منزلية أو محلية تتسامح بالنسبة لهذا النمط من السلوك ، ولكنها - أي البيئة - في نفس الوقت تعاقب الطفل العدواني - اذا عاقبته - عقابا صارما شديدا لا رحمة فيه .

كما وجد الباحث أيضا أن الأطفال الأقل ميلا الى العدوانية انما نشؤوا في بيئات لا تتسامح مع أي نمط من أنماط السلوك العدائي ، ولكنها - أي البيئة - لا تقابل هذا السلوك - في حالة حدوثه - بالعقاب الشديد القوي .

وقد تابع سيرز (٢) ، دراسته على نفس المجموعة من الأطفال حتى بداية سن المراهقة حيث قام بقياس العدوانية عندهم أخلا في اعتباره أنواعها المختلفة مثل العدوانية ضد المجتمع والعدوانية المخففة والعدوانية ضد الذات وعدوانية الإسقاط وغير ذلك .

ووجد الباحث أن المراهقين الذين يميلون الى العدوانية ضد المجتمع انما يسلكون بصورة تشبه السلوك العدائي للأطفال من السادسة عندما يضغط عليهم الإباء لمنهم من مزاولة هذا السلوك .

كما وجد أيضا أن تدليل الإباء لأبنائهم عند بداية مرحلة المراهقة قد يكون أحد العوامل الهامة في تكوين السلوك العدائي عند الشباب . كما وجد الباحث أيضا أن الردع والعقوبة في هذه الفترة - بداية المراهقة - تمنع تكوين العدوانية الاجتماعية .

وعندما نحاول أن نفسر ذلك على أساس نظري فإنا نقول أن الفرد الذي تكون لديه الميول العدائية وفي نفس الوقت يضئ العقاب الذي يترتب على سلوكه العدواني يتولد عنده ما يسمى بضغط الصراع الذي لا يتمكن الطفل من الاستجابة له في سن السادسة استجابة مناسبة فتبدو عدوانيته بصورة مبالغ فيها ، بينما في بداية مرحلة المراهقة يتمكن الطفل من أن يتكيف مع هذا الضغط الصراحي فيستجيب له الاستجابة المناسبة .

وأما بالنسبة للعدوانية المخففة فإن الأمر يختلف ، فهي تبدو واضحة بين الشباب في بداية مرحلة المراهقة ، وخاصة بين هؤلاء الذين نشؤوا في بيئة تتسامح بالنسبة للسلوك العدائي ، ولكنها شديدة العقاب - اذا عاقبت - بالنسبة للطفل الذي يتركب سلوكا عدائيا .

وأخيرا نحب أن نعلق بأن العدوانية ليست سلوكا بسيطا ، ولكنها كل مركب يحتاج الى دراسات اعمق واوسع من تلك التي قام بها سيرز .

(1) Sears, R, and Others, *Patterns of child Rearing*, 1957.

(2) Sears, R, J. *Am. Soc. Psychol.* 1961, 63, 466-495.

ج - التقليد والمحاكاة :

نحن الآن نتقرب من فرض هذه الدراسة ، وهو ربط السبب بالنتيجة ، أو بمعنى آخر ربط عملية التطبيع والتشئنة بسلوك التعامل والتعصب، فقد سبق أن أشرنا بأن الطاعة الاجتماعية والعدوانية سوف يهيئان الفرد لمثل هذا السلوك وخاصة اذا توافر لهما منصر التقليد والمحاكاة كطرف ثالث يشجع الفرد على طاعة قيم مجتمعه فيتعصب له، كما يشجعه أيضا على عدوانيته تجاه مجتمعات أو جماعات أخرى فيتعامل عليها .

فالتقليد من العمليات النفسية الاجتماعية الهامة ، حتى انه في وقت ما أجمع المتخصصون في علم النفس على انه يمكن عن طريقها تفسير وتعليل معظم انواع وانماط السلوك الاجتماعي للأفراد بشرا كانوا أو غير ذلك ، وكانت الفكرة وراء ذلك هي ان التقليد والمحاكاة جزء من الطبيعة البشرية والنفس الإنسانية ، او بمعنى آخر هو ميل غريزي موروث من الآباء والأجداد .

ولكن هذا الرأي أصبح مردودا عليه ، فهناك بعض الناس يتقنون التقليد والمحاكاة بدقة ومهارة ، في حين ان الكثيرين لا يمكنهم ذلك . كما ان الأطفال يقلدون احسن من الكبار .

كما ان هناك البعض يميل دائما ان يفعل عكس ما يفعله الآخرون .

لهذا نستطيع ان نقول ان الاساس الغريزي لعملية التقليد غير قائم : وهذا ما يمكن ان نستخلصه ايضا من الدراسة التي قام بها ميلر ودولارد (١) : فقد قامت هذه الدراسة على اساس ان التقليد يمكن تفسيره في اطار عملية التعلم الاجتماعي ، فمن التجارب التي اجراها الباحثان على الفئران البيضاء - ثم الأطفال - يمكن ان نقول ان التقليد عادة يمكن اكتسابها وتمييزها ، وخاصة اذا كوّن الفأر أو الطفل مكافأة مناسبة بعد تقليده للآخرين ، كما انه يمكن ابطالها ومحوها عند اجزاء الردع أو العقاب بعد عملية التقليد ، ولكن هناك نقطة تستحق التوضيح ، وهي ان هناك فرقا واضحا بين الفئران والأطفال : ففي الحالة الاولى يكون التقليد ارتباطا عصبيا اكثر منه استبصارا وتعلما اجتماعيا ، في حين يكون العكس في حالة الأطفال ، لانه في هذه الحالة تتم عملية تلقين وتفسير مصاحبة لعملية التقليد ، او بمعنى آخر يحدث تبرير لعملية التقليد في حالة الإنسان . وهذا حقيقة ما يحدث في عملية التطبيع عندما ترمى الام الى تدريب ابنتها على تقليدها ، فهي - اي الام - تحرص على تبرير هدف التقليد والمحاكاة . وقد يكون ذلك السبب الرئيسي في ان التقليد يتحول بعد ذلك الى عادة ثابتة راسخة .

وربما يكون مفيدا في مجال الحديث من التقليد كعملية نفسية اجتماعية ان نستعرض في ايجاز مالمها من صلة وطلاقة بعملية أخرى مشابهة من ناحية المظهر ، وهي عملية التقمص (او التوحد) وهي عبارة عن تلك العملية التي عن طريقها يقوم الفرد بوصف نفسه ونوع سلوكه وشخصيته ، بناء على مفهومه من صورة ذات فرد يجبوعبج به وذلك كما يقترح سيموندل (٢) . ومن هذا التعرف يمكن ان نستنتج ان التقليد في عملية التطبيع الاجتماعي قد يكون نتيجة عملية التقمص هذه ، ولكننا قد نرفض هذا التعريف من الاساس حيث يرى جيمس (٣) . ان كثيرا من

(1) Miller, N., and Dollard J. Social Learning and Imitation N. Haven, 1941.

(2) Tagiuri, R, and Petruccio, L., Person Perception and Inter-personal Behaviour, Stan. Uni. Press 1958.

(3) James, H.E.O., Lectures in Social Psychology, London Uni., 1961.

اليهود في معسكرات الاعتقال النازية قد تقمصوا شخصيات حراسهم من الألمان ولم يكن بين هؤلاء هؤلاء أى رابطة من الإعجاب والحب وإذا كانت هناك رابطة فهي تلك التي تقوم على الخوف والرهبة وتوقع الإعدام بين لحظة وأخرى . ولذلك فإن جيمس بجرح رأى سيمونندز بالنسبة الى التقمص ، فيرى أن الحب والإعجاب قد يساوى الخوف والرهبة في هذه الناحية .

والتلخيص فالتنا نقول أن سلوك الفرد سواء أكان علميا موضوعيا أم متحايلا متحيزا متعصبا فإنما يتحدد بثلاث متغيرات هي :

أ - طاعة الفرد وإذعانه للقيم الاجتماعية التي تسود شبكة العلاقات في الجماعة التي ينتمى إليها وبالتالي يتطبع فيها اجتماعيا وحضاريا .

ب - درجة العدوانية التي تختلط مع الدوافع الاجتماعية للفرد وتدفعه الى اتخاذ قراراته على نحو معين في مواقف الحياة اليومية .

ج - درجة استجابته وإجاده تقليد سلوك الآخرين من أبناء مجتمعه .

وهذه المتغيرات الثلاث هي بلا شك أهم نتائج عملية التطبيع الاجتماعي غير المقصودة والتي تتم في الأسرة كنظام اجتماعي وفي المجتمع المحلي كتجميع يربط أفرادها بعلاقات من نوع خاص وثابت .

وهذه المتغيرات الثلاث أيضا هي التي تكاد تميز الأسرة والمجتمع المحلي عن غيرهما من الأنظمة والتجمعات والمؤسسات الاجتماعية الأخرى .

د - التحامل والتعصب :

هذا النوع من السلوك الاجتماعي من أهم أنماط السلوك التي تتكون من طريق التنشئة غير المقصودة على الصورة التي أسلفناها في السطور السابقة .

فالطاعة الاجتماعية أو الإذعان الاجتماعي والمدونات والتقليد والمحاكاة لها دور واضح وملبوس في تكوين طبيعة هذا النوع من السلوك .

وقبل أن نناقش طبيعة هذا السلوك ومقوماته ربما كان من الأفضل أن نجيب على سؤال سوف يقفز بلا شك الى ذهن القارئ ، كما يلح دائما على الكثيرين ممن يقرأون شيئا عن التحامل والتعصب ، وهذا السؤال هو « هل هذا النمط من السلوك غريزي موروث أو مكتسب من ظروف البيئة الخارجية ؟ وبمعنى آخر هل يولد الطفل الأبيض في أمريكا أو في جنوب أفريقيا وفي دمه كراهية الزوج والتحامل عليهم ؟ ولندهب أبعد من هذا ونقول هل يولد القط ولديه ما لديه من كراهية للفأر وميل غريزي لافتراسه ؟ أم إن الأمر يختلف وتختلف ظروف و عناصر البيئة الخارجية الدور الرئيسي في تكوين هذا النمط من السلوك المتحيز التحامل : -

هناك تجربة طريفة توضح علاقة الفأر بالقط ، وهي تلك العلاقة الإبدية الازلية ، والتي يضرب بها المثل ، في العداوة والكراهية وليست في التحامل والتحيز فقط .

هذه التجربة أجراها (كو) Kuo (١) حيث استخدم حوالي ستين قطعة صغيرة حديثة الولادة فقسمها الى مجموعتين متساويتين من ناحية العدد - المجموعة الأولى اطعمت منذ البداية اللحم

(1) Kuo, Z.Y., "The Genesis of the cat's Response to the Rat", J. Comp. Psychol 1930, 11, 1-30.

واللبن والسمن المخلوط بالأرز ، وريبت على هذا النوع من الطعام . والمجموعة الثانية (نباتية)
أى أطعمت اللبن والخضروات منذ البداية ولم تتذوق اللحم على الإطلاق .

ثم عاد وقسم القطط جميعها الى ثلاثة اقسام ، ربي كل قسم منها تحت ظروف تختلف
عن القسم الآخر . فالقسم الأول (ونصف العدد نباتي والنصف الآخر من أكلة اللحم) عاش
في عزلة تامة عن القطط أو الفئران أى أن كل قطة عاشت بمفردها فقط بمنعولة بذلك عن أى
نوع من الأنشطة التي تؤثر على علاقتها بالفأر فضلا عن أنها لم تر فأرا على الإطلاق .

والقسم الثاني (مثل القسم الأول أيضا من حيث الطعام) عاشت كل قطة صغيرة مع أمها
فترة كافية لتسرى الأم وهي تقتل الفئران وتلتهمهم .

والقسم الثالث - تربى بعد ولادته بحوالي اسبوع مع الفئران في قفص واحد دون أن يرى
قططا أخرى .

ثم قام (كوك) بعد فترة من الزمن باختبار العلاقة بين القطط والفأر فوجد أنها يمكن تلخيصها
في الجدول التالي : -

ظروف تربية القطط	عدد القطط في كل مجموعة	عدد القطط التي قتلت الفئران	النسبة المئوية
١ - انمزالية كاملة	٢٠	٩	٤٥٪
٢ - رات أمها وهي لتفترس الفئران	٢١	١٨	٨٦٪
٣ - عاشت معا مع الفئران	١٨	٣	١٧٪

ربما يمكن أن نستنتج من هذا الجدول (١) أن ظروف التنشئة والتطبيع تلعب الدور
الأساسي في تكوين الاحساس بالكراهية والمقت ، وليس كما يمكن أن يتصور البعض أنها غريزة
طبيعية .

وبجانب هذا هناك القصة المشهورة - وهي من فولكلور علم النفس الاجتماعي - قصة يوم
وأمه وصاحبه . . فقد عاد يوم متأخرا ذات يوم فسأله أمه : أين كنت يا يوم ؟ فقال : كنت
العاب مع جو الذي يسكن في الشارع المجاور . فمادت الأم لتقول : أين من جو هذا يا يوم ؟ . فرد
يوم : أنه ابن سائق الشاحنة التي تقف دائما بالقرب من ناصية الطريق ، وأخيرا سأله الأم . .
هل هو ملون (أى زنجي) ؟ . فتردد يوم فترة ثم أجاب : انتى لم انتبه جيدا الى هذا يا أمه
ولكننى غدا عندما التقى به سوف أرى ذلك .

ومهما كان مقدار الصحة في هذه القصة فإنها تشير الى أن اتجاه التحامل عند هذا الطفل
ليس موروثا ، وليس مختلطا بدمه ، ولكنه أمر لم يكن لينتبه اليه هذا الطفل يوم لو لم تشر
اليه أمه وتؤكدده .

(١) يتضح من الجدول أنه في حالة التربية الانمزالية لم يكن الاتجاه واضحا حيث تساوت النسبة تقريبا بين
القطط القاتلة للفئران وغير القاتلة . بينما نجد في حالة التطبيع على القتل « ٢ » تزيد نسبة القطط القاتلة بوضوح
فأمر والعكس صحيح في حالة « التطبيع على العاشق والتألف » .

فالإنسان أو الحيوان لم يخلق متعصبا ، ولم يخلق متحابلا ، ولكنه كون هذا السلوك وهذه الخصائص اكتسابا من البيئة التي قامت على تنشئته وتربيته اجتماعيا .

ولكن ما هو التحامل والتعصب ؟ وما هي طبيعة وأصل هذا النوع من السلوك الاجتماعي ؟ .. يقول باكمان⁽¹⁾ أن نوعية العلاقات السائدة بين جماعتين تخلق نوعا من الاتجاهات النفسية تكون مسئولة عن أحداث تحامل وتعصب إحدى هاتين الجماعتين ضد الأخرى . فالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية التي نشأت بين البيض والزوج في الولايات المتحدة أو بين الألمان واليهود في أوروبا هي التي أوجدت الاتجاهات النفسية عند البيض وعند الألمان من جهة وعند اليهود والزوج من جهة أخرى .. وكانت هذه الاتجاهات هي المسئولة الأولى والأخيرة عن تكوين سلوك التحامل والتعصب عند كلا الجانبين ، وبمعنى آخر فإن تركيب العلاقة أيا كان نوعها وعناصرها يولد مجموعة شبه ثابتة من الأحكام والقيم والاتجاهات التي تنشأ عن خبرة التعامل والاحتكاك ، وهذه المجموعة الشبه الثابتة تكون مسئولة عن توليد حكم إحدى الجماعتين على الأخرى .

فالرجل الأبيض في أمريكا أو في جنوب أفريقيا له علاقة من نوع خاص بالرجل الأسود ، هي علاقة صاحب السلطة والسيطرة بالخاضع المستسلم الذي لا حول له ولا قوة ، وبطبيعة الحال فإن دور الرجل الأبيض هو أن يأمر ودور الرجل الأسود أن ينفذ ، وبالتالي سوف تكون الفرصة سانحة أمام الأمر النهائي أن يصف العبد المنقذ بالكسل وعدم القدرة على تحمل المسئولية والغباء ونقص القدرات الابتكارية ، كما أنه سوف تكون الفرصة أيضا سانحة أمام العبيد لأن يصفوا السادة بالمجرفة والفسرة والقسوة ونقص الأخلاقيات والقيم وعدم التسامح وغلظة القلب .

ويتم توارث هذه الصفات في كل من الناحيتين عند السادة وعند العبيد . وذلك عن طريق ما سبق وصفه وتسميته بعملية التطبيع الاجتماعي ، حتى تتطور هذه الصفات والنوع وتكون اتجاهات حادا تسميه هنا بالاتجاه المنعزى هو خلفية سلوك التحامل والتعصب .

وصورة أخرى تؤكد ما ذهبنا إليه في تأصيل التحامل والتعصب وإرجاعه إلى نوعية العلاقات القائمة بين جماعتين هي صورة من التاريخ ، حيث نرى كيف بدأ التحامل على اليهود أو بمعنى أصح كيف تكونت الاتجاهات العنصرية عند بعض الشعوب تجاه الجاليات اليهودية التي رافقتهم داخل النسيج العام للمجتمعات التي تعيش فيها وأصرت على كونها الجالية المختارة المتميزة ، كما يقول سيمون وينجر⁽²⁾ : لقد كان اليهود أغنياء يسيطرون على القدرات الاقتصادية لبعض المجتمعات وكانت الوظيفة الرئيسية لليهود في أي مجتمع هي وظيفة المرابي الذي يقرض ماله بأشعار مضاعفة من الربا ، ففي القرن العاشر والحادي عشر تكونت المجتمعات المدنية - بعد الانقطاع والعبودية - وعليه أصبحت الحالة ملحقاً بطلب رأس المال سواء للتجارة أو الانشاء والتعمير . وهنا نشط اليهود في عمليات الربا والإقراض ، وخاصة عندما أمرت الكنيسة . وهي السلطة القوية آنذاك - رعاياها من المسيحيين يعلم اقراض أموالهم بالربا ، ولكن لا مانع من أن يقرضوا بالربا من اليهود ، وهنا امكن لليهود أن يتحكموا في المجتمع الأوروبي اقتصاديا ، سواء بمنع الإقراض أو برفع سعر الفائدة .

(1) Back man, C., *Origins of Prejudice and Discrimination* 1964.

(2) Simpson, G., and Yinger J., *Racial and cultural Minorities*, N.Y. Harper, 1958.

وهكذا تكونت لليهود صفات اصحاب رأس المال المستغلين التهازين للفرص . وتأسست هذه الصفات حتى أصبحت « اتجاهات عنصرية » عند طوائف عديدة من بني الإنسان ضد اليهود ، جعلتهم يتحاملون عليهم ويتعصبون ضدهم . وفي الناحية الأخرى تكونت لدى اليهود اتجاهات عنصرية مضادة تحمل في ثناياها النفور المعاكسة للطوائف والشعوب الأخرى من غير اليهود مثل السلاجقة والقبائل والبعد من الواقعية وهكذا (١) .

وليس من المستبعد أن تكون الأساليب اليهودية هذه قديمة قدم هذا الشعب ، وليست وليدة ظروف القرن العاشر والحادي عشر كما يقول (سيميسون وينجر) بل ربما عادت إلى ما قبل ذلك بالآلاف السنين ، حيث أن التاريخ يحدثنا دائماً عن مثل هذه الأزمات التي أحدثها اليهود في مجتمعات شتى ، ومن ظروف التحامل والاضطهاد التي تعرضوا لها في كل مكان على الكرة الأرضية إلا في مكان واحد فقط عاشوا فيه ولم يعانون من قلق أو اضطهاد - بل قاموا هم فيه بدور المضطهد الظالم - وهذا المكان هو رقعة الدول العربية (٢) .

وصورة أخيرة تؤكد أرجاع سلوك التحامل والتعصب في أصله إلى نوع العلاقات السائدة بين جماعتين يتحامل كل منهما على الأخرى وتعصب ضدها ، وهي صورة من التاريخ الحديث . فقد نشر سينها وأوباد هيايا (١٩٦٠) دراسة حول الاتجاهات العنصرية للشباب الهندي نحو الصين قبل وفي أثناء النزاع الهندي الصيني المسلح حول الحدود المشتركة بينهما ، ومن نتائج هذه الدراسة أن اتجاهات الشباب الهندي نحو أهل الصين في فبراير ١٩٥٩ أي قبل النزاع المسلح كانت توضح أن أهل الصين مسالمون وتقدميون ، واثقون ووطنيون وشجعان ومتحضرين ونشطاء .

بينما كانت اتجاهات نفس هؤلاء الشباب نحو أهل الصين في ديسمبر من نفس السنة ، أي خلال هذا التوتر ، كانت توضح أن أهل الصين عدوانيون وغشاشون وأنانيون ومصاصو دماء وقساء وأقبياء .

وأضح مما سبق أن أصل التحامل يرجع إلى نوعية العلاقة القائمة بين الفئتين المتحاملتين كل منهما على الأخرى والتعصبين كل منهما ضد الثانية .

ومن هنا نريد أن نخلص إلى تعريف وتحديد لمعنى التحامل ، حتى يمكن أن نستعرض في المناقشة التحليلية لمحتويات هذا النوع من السلوك .

فالتحامل والتعصب نتاج اتجاه عنصري غالباً ما يكون سالباً (أو مضاداً) وينحو بالفرد إلى أن يتخذ قراراته مصحوبة بشحنة انفعالية غير عادية أي أعلى وأكثر من ذلك الانفعال الذي يصاحب الاتجاه النفسي العادي . والاتجاه العنصري هو ما يتكون نتيجة خبرة العنصر الذي قد يكون - أي هذا العنصر - الدين والعقيدة أو المميزات المورفولوجية (مثل اللون) التي ترجع إلى

(١) يمكن الرجوع في هذا إلى بروتوكولات حكماء صهيون .

(٢) فارس جلوب « إسرائيل خلقت لتبقى ١٩٦٦ » اتحاد طلبة جامعة لندن ١٩٦٢ (مناقرة عامة)

(3) Sinha, A, and Upadhyay, O., "Stereotypes of Male and Female Students", J. Soc. Psychol 1966.

الأصل أو القومية أو اللغة والتقاليد الحضارية . وبناء على ذلك يمكن أن نحلل محتويات اتجاهات التحامل والتعصب إلى ثلاثة مكونات رئيسية هي :

١ - **المكونات العرقية** ، وهي عبارة عن المдрكات ، أى ما يدركه الإنسان حسياً أو معنوياً وهذا يرتب على حصيلته خبرته السابقة . ثم **المعتقدات** ، أى مجموعة مفاهيمه المتبلورة والتي ثبتت بصورة أو بأخرى في المحتوى النفسى والعقلى للفرد . ثم **التوقعات** ، أى ما يمكن للفرد أن يتنبأ به بالنسبة للآخرين أو يتوقع حدوثه منهم . هذه المдрكات والمعتقدات والتوقعات هى الأساس المعرفى للاتجاه المعنصرى المتكون عند إحدى الجماعات ضد جماعة أخرى .

ولنا أن نتصور في هذه الناحية نوع التفكير (المعنصرى) الذى يبنى على هذه الأبعاد الثلاثة : فمن البداية الأولى نجد أن هذا التفكير من النوع النمطى أو القالبى (١) (Stereotype.....) الذى قد يتضمن بعض الأوصاف والمميزات الخاصة بالجماعة المتحامل عليها ، فمثلاً قد تسود فكرة تتصل بالصفات الظاهرة فقط مثل « جميع اليهود لهم أنوف طويلة » أو « جميع الزوج قبضو الخلقة » . أو قد تتصل الفكرة بالخواص الشخصية والعقلية مثل « الزوج أغبياء » « اليهود عابرة » « الألمان علماء موهوبون » « الإيطاليون انفعاليون » « الأتراك أقذر » .. وهكذا ..

وقد يعمد هذا التفكير النمطى مستوى الأوصاف والمميزات إلى مستوى العقيدة والفكرة التى تعتنقها الجماعة المتحامل عليها ، والتعصب ضدها (٢) فقد يكون المكون المعرفى للتحامل فكرة سائدة مثل « العقيدة اليهودية تستحل دم الآخرين من غير اليهود » أو أن « الكاثوليك يخلصون للكنيسة أولاً ثم للدولة ثانياً » أو أن « الإسلام انتشر بحد السيف » وهكذا ..

ولهذا السبب فإننا نجد أن معظم البحوث والدراسات التى دارت حول المكونات المعرفية للتحامل والتعصب قد تركزت بصورة أو بأخرى على ما يمكن تسميته بالمعتقدات المعنصرية التى هى في حقيقة الأمر مجموعة المفاهيم النمطية والأفكار القالبية التى تعتنقها جماعة ما ضد جماعة أخرى ، ومن الدراسات الرائدة في هذه الناحية التى قام بها كاتس وبرالى (٣) على مائة من طلبة جامعة برنستون حيث طلب الباحثان من هذه المجموعة من الطلبة أن يختاروا الصفات والمميزات التى تناسب كل مجموعة من المجموعات البشرية التالية : الأمريكيين - الصينيين - الإنجليز - الألمان - الإيرلنديين - الإيطاليين - اليابانيين - اليهود - الزوج - الأتراك .

ومما لفت النظر في هذه الدراسة الاتفاق شبه الكامل بين آراء المائة طالب بالنسبة لأوصاف هذه المجموعات البشرية العشرة رغم أنهم - أى الطلبة - لم تسبق لهم خبرة الاحتكاك المباشر بمعظم هذه الجماعات .

(١) التفكير النمطى أو القالبى هو ذلك النوع من التفكير الذى ينقله الفرد عن زعيم أو قائد أو عضو آخر في جماعته يمثل سلطة من نوع ما دون التسق والتسب في أصول ومقومات هذه الطريقة في التفكير

(2) Chein, I., "Some considerations in combating Intergroup Prejudice," J. educ. Social, 1946, 19.

(3) Katz, D., and Brnly, K., "Racial Stereotypes", J. abu. Sec. Psychol., 1933, 28.

وقد كانت نتائج هذه الدراسة كما يلي : (١)

الألمان	: ذوو عقلية علمية - مجدون - غير عاطفيين
اليهود	: متميزون - ممرزقة - مجدون
الزنج	: خرافيون - كسالى - يميلون الى المرح
الإيطاليون	: فنانون - مندفعون - ذوو عاطفة
الانجليز	: ذوو روح رياضية - اذكياء - تقليديون
الأمريكان	: مجدون - اذكياء - ماديون
الإيرلنديون	: مشاكسون - سريعو الانفعال - حاضرو البديهة
الصينيون	: خرافيون - ماكرون - محافظون
اليابانيون	: اذكياء - مجدون - تقدميون
الأمراء	: قساة - متدينون جداً - لا يوثق بهم .

وواضح من هذه النتائج وخاصة من اتفاق آراء مائة طالب حول هذه الصفات بصورة تكاد تكون شبه كاملة رغم عدم احتكاكهم الفعلي بمعظم هذه الجماعات - واضح من ذلك ان الفكرة النمطية المنقولة هي اساس المكون المعرفي لاتجاه هؤلاء الطلاب ضد أو مع هذه الجماعات . وبطبيعة الحال فان هذه الاتجاهات هي خلفية التحامل والتصيب .

ومن التجارب الطريفة الاخرى في هذا الميدان تلك التي نشرها داديشا(٢) في ١٩٤٢ وفيها يوضح كيف يتكون سلوك التحامل تدريجيا حيث درس اتجاه طلاب الجامعة في بعض المدن الامريكية نحو الألمان في ١٩٣٦ ، ثم في ابريل ١٩٤٠ ، ثم في سبتمبر ١٩٤٠ ، حيث اوضحت هذه الدراسة تطور الفكرة النمطية من القالب الموجب الى القالب السالب متأثرة في ذلك بظروف الحرب العالمية الثانية .

وايضا تذكر تجربة سيجو(٣) التي بداتها في ١٩٤١ ، وانتهت بها في ١٩٤٥ ، وذلك على خمس مجموعات متتالية من طالبات احدى الجامعات الامريكية ، وقد قامت الباحثة بقياس الفكر النمطي عند كل مجموعة تجاه الزنج واليابانيين والامريكان والالمان . . وقد وجدت الباحثة ان نمطية التفكير عند هؤلاء الطالبات تغيرت بصورة واضحة وخاصة بالنسبة لليابانيين قبل وبعد كارثة بيرل هاربور الشهيرة .

ب - المكونات الانفعالية والعاطفية :

اذا كنا قد تعرضنا فيما سبق للمكونات المعرفية للتحامل على انها المبركات والمعتقدات والتوقعات فاننا نرى ان المعرفة والمعتقد في خلفية التحامل والتصيب ليست اهم على الإطلاق من الانفعال والعاطفة ، لان هذه الاخيرة هي الشحنة التي تصحب رد فعل الفرد التحامل المتعصب ،

(١) اعاد هذه الدراسة جيايرت في سنة ١٩٥١ م (اي بعد ١٨ سنة) على طلاب نفس الجامعة (برنستون) ومن الغريب انه وجد ان الفكرة النمطية لم تتغير على الإطلاق بالنسبة لهذه المجموعات الا في حالة الالمان واليابانيين

(2) Dudyca, G., ,, The Attitudes of college students — J. Soc. Psychol 1942, 15.

(3) Seago, Df, ,, Stereotypes before Pearl Harbor and after J. Psychol 23, 1947.

وهي ايضا ذلك اللون الذي بناء على درجة كثافته وشدهته نسمي هذا السلوك او ذلك تعصبا او غير تعصبي . ولذلك فان معظم الدراسات والبحوث التي اجريت حول المكونات العاطفية والانفعالية كانت تهتم اكثر ما تهتم بعمق وكمية الانفعال الذي يصاحب اتجاه الفرد نحو موضوع او شيء معين . فعلى سبيل المثال يروى دويتش وكولينز (١) ما كتبه سيدة يضاء سكنت في حي مختلط من البيض والزوج :

« انهم دائما (تقصد الزوج) سكارى معربدون ويتبعون النساء ليلا . »

« بعضهم يعني ذات ليلة عندما كنت في طريقى الى العودة . »

« اننى لن اخرج اطلاقا . . بعد غروب الشمس . . »

فالتحليل البدئي لهذه العبارات يوضح ان العاطفة والانفعال فيها هو الاحساس بالخوف والكرهية . وهذا امر متوقع ، لانه ربما كان تعامل الرجل الابيض على الزوج حالة كونه لم يختلط بهم يختلف تماما من ناحية المحتوى العاطفي والانفعالي بالذات من تعامله عليهم عندما يمارس بالفعل خبرة الاحتكاك المباشر بهم . فقد كان الرأى السائد بين المشتغلين بالعلوم الانسانية وخاصة علم النفس الاجتماعى أن من الاساليب التي يمكن ان نستخدمها لتهديب سلوك التعامل والتعصب هو ان نتبع الفرسه امام المجموعتين المتعاملتين كل منهما على الاخرى للتفاعل الحر المباشر حيث يؤدي ذلك الى ازالة اسباب التعصب . ولكن هناك احتمال قائم بل وايدته كثير من الدراسات التي نشرت اخرا لمجموعة من الدارسين في هذا الحقل (٢) وهو انه في حالة اختلاط هذه المجموعات المنصرفة قد تنشأ اتجاهات التعامل والتعصب ان لم تكن موجودة أصلا ، وفي حالة سابق وجودها فانها ربما تزيد وتتجسد وخاصة في العاطفة والانفعال حيث ان هذه الناحية هي حصيلة ونتاج الافراد منذ تكوين الخبرات العاطفية والانفعالية مثل الخوف والكرهية والاحترار والحب والتقدير والاحترام وما الى ذلك من خبرات انفعالية تمثل المحتوى العاطفي في سلوك التعامل والتعصب .

ج - المكونات النزوعية :

بعد المعرفة والعاطفة يأتي دور النزوع والسلوك الفعلي للتعبير عن هذه العاطفة وهذه المعرفة ، فعندما يكون لدى الفرد رصيد من المعرفة (المنصرفة) وتتوفر عنده الشحنة الانفعالية العالية فلا يبقى سوى النزوع العملي ممثلا في الكيفية والطريقة التي يجب ان يعامل بها اعضاء الجماعة التي يتعامل عليها ويتعصب ضدها ، ومن هنا تبارى الكثير من العلماء والدارسين في تقدير وقياس هذه المكونات النزوعية في اتجاهات التعامل والتعصب . وكان اهم ما نشر في هذا الميدان دراسة بوجاردس (٣) حيث تلخص في ان يسأل الفرد عما يفعله بأعضاء الجماعة الاخرى على النحو التالي :-

١ - الزواج المتبادل بين الجماعتين (جماعة الفرد والجماعة الاخرى) .

٢ - اتخاذهم اصدقاء مقربين

(1) Deutsch, M, and Collins, M, *Interracial Housing*, uni. Minnesota Press, 1957.

(2) James, H.E.O. and others, a series of Unpub. theses, London Uni. 1959-1964.

(3) Bogardus, E.S., "Measuring Social Distance", *J. app. Social*, 1925 b, 9.

- ٣ - السكنى بجوارهم في نفس الشارع
- ٤ - الاشتراك معا في نفس العمل والوظيفة
- ٥ - منحهم حق المواطنة في نفس البلد (امريكا) .
- ٦ - منحهم فرصة الزيارة فقط للبلاد
- ٧ - يمنعون من دخول البلاد .

وعندما طبق بوجاردس (١) هذا النوع من المقاييس على ١٧٢٥ من المواطنين الامريكيين الذين ولدوا فعلا في الولايات المتحدة . وجد النتائج التالية وذلك بالنسبة الى عدد من الجماعات العنصرية :

الانجليز	الالان	اليهود	الزنوج
١ - الزواج	٩٤٪	٥٤٪	٨٪
٢ - الصداقة	٩٧٪	٦٧٪	٢٢٪
٣ - السكنى	٩٧٪	٧٩٪	٢٦٪
٤ - الاشتراك في العمل	٩٥٪	٨٣٪	٤٠٪
٥ - حق المواطنة	٩٦٪	٨٧٪	٥٤٪

ولتوضيح هذه النتائج يمكن ان نقول ان ٩٤٪ من افراد العينة وافقوا على الزواج المتبادل بينهم وبين الانجليز ، ٩٧٪ وافقوا على صداقتهم ، ٩٧٪ رغبوا بالسكن في جوارهم ، ٩٥٪ وافقوا على الاشتراك معهم في العمل ، كما ان ٩٦٪ وافقوا على منحهم حق المواطنة . وعلى هذا النوال يمكن توضيح بقية النتائج في حالة الالان واليهود والزنوج .

ومما يجدر ذكره ان بوجاردس نفسه أعاد تجربته هذه مرة أخرى بعد عشرين سنة كاملة (٢) حيث طبق مقياسه السابق على ١٩٥٠ فردا من المواطنين الامريكيين الذين ولدوا في الولايات المتحدة الامريكية ، ومن الطريف انه لم يجد تغيرا يذكر في النتائج التي حصل عليها سابقا .

وبعد ان استعرضنا المكونات الثلاثة الاساسية لاتجاهات التحامل والتمسب وخاصة الاخير منها - أي المكون الزنوعي - يجب ان يقف امامنا السؤال التالي :

« هل ما يقدمه الفرد كتابة كنوع من الاستجابة لقياس بوجاردس على سبيل المثال هو ما يقوم بادائه عمليا اذا مارس الموقف فعلا ؟ .. او بمعنى آخر هل كل هؤلاء الذين وافقوا كتابة على الزواج من الزنوج يقومون فعلا على هذه الخطوة ؟ .. »

هناك كثير من التجارب الطريفة تجيب على هذا السؤال ومن اقدمها واسبقها الدراسة التي قام بها لاير في سنة ١٩٢٤ (٣) حيث صحب رجلا وزوجته من الصين في رحلة قطع فيها الولايات المتحدة

(1) Bogardus, E.S., *Immigration and Race Attitudes*, Boston : Heath, 1928.

(2) Bogardus, E.S., " changes in Racial Distances," *Int. J. opin.*, 1947.

(3) La Pierre, R., " Attitudes vs. Actions ", *Soc. Forces*, 1934, 13.

وتوقف الزوجان الصينيان في هذه الرحلة عند ٦٦ فندقا و ١٨٤ مطعمًا ولكنهما لم يعملًا كملايين (أى لم يقبلا بالفندق أو المطعم) إلا مرة واحدة فقط .

وبعد نهاية الرحلة أرسل لابرير عن طريق البريد استفتاء خاصًا لأصحاب هذه الفنادق والمطاعم المائتين والخمسين يسألهم فيه عما إذا كان يمكنهم قبول الصينيين للأقامة أو تناول الطعام عندهم .

وقد قام بالرد على هذا الاستفتاء ١٢٨ فندقًا ومطعمًا . رفض ٩٢٪ منها قبول الصينيين للنوم أو لتناول الطعام .

وتجربة أخرى قام بها كنثر وويلكنز (١) في سنة ١٩٥٢ فقد قامت سيدتان أمريكيتان (من البيض) وسيدة أمريكية زنجية بزيارة ١١ مطعمًا بأحدى المناطق الشمالية الشرقية بأمريكا . وفي كل مرة كان يحسن استقبال السيدات الثلاث ويقدم لهن الطعام دون أدنى تأخير . وبعد أسبوعين من زيارة كل مطعم كان يقوم الباحثان بإرسال خطاب إلى صاحب المطعم يطلبون فيه حجز المطعم للحفل أو مناسبة اجتماعية ، وكانا يوضحان في الخطاب كذلك أن الحفل خليط من البيض والزنجي . ولكن لم يتلق الباحثان أى رد حتى بعد مضي سبعة عشر يومًا من إرسال الخطابات ، وبناء على ذلك اتصل الباحثان تليفونيا بأصحاب هذه المطاعم ، حيث تلقوا رفضها جميعًا ما عدا قلة وافقت على استقبال الحفل بصورة مبدئية وباحتفاظ خاصة .

وإذا كان لنا أن نعلق على هاتين الدراستين فلا بد أن نقول انهما تؤديان إلى ما نذهب إليه ضمنا وهو وجود فرق واضح بين التعامل في صورته اللفظية وبينه في صورته العملية أو الادائية .

ولكن الذى يلفت النظر بصورة حقيقية هو أنه من المعتاد أن يكتب الإنسان الاستجابة الحسنة والمقبولة اجتماعيًا أى التى ترضى عنها معايير الجماعة ولكنه قد يسلك سلوكًا يختلف من ما قدمه كتابة . وفي مثالنا هذا نجد ما يؤكد ذلك . فنجد أن أصحاب المطاعم والفنادق يقبلون الملونين في حالة وجودهم وجها لوجه ولكنهم يرفضونهم في حالة استجابتهم لعبارات الاستفتاء اللفظية .

وبالتالى فإنه أمامنا احتمال من اثنين : فاما أن يكون التفاعل الحر المباشر (أى وجها لوجه) بين الملونين وأصحاب الفنادق يغير من حدة تعاملهم وتعبيرهم فيسمحون لهم باستخدام فنادقهم أو مطاعمهم . وفى هذا يمكن أن نسأل ماذا يحدث عند ما يلتقى الجنديان وجها لوجه في ميدان القتال دون سابق معرفة ودون ما لار أو جريرة ومطلوب أن يقتل أحدهما الآخر ؟ هل نظرة كل منهما في وجه الآخر تغير من سلوكه التفاعلى التعصبى إلى سلوك من نوع آخر ... أم ماذا ؟ .

والاحتمال الثانى هو أن يكون الفرد الأمريكى بخبرته وأنفعاله ومطافه لا مانع عنده من أن يشارك الزنجي حياته في شتى صورها ولكن المعايير والقيم التى أنشأها مجتمع البيض أصبح مبدأ لها بحيث لا يمكن للأمريكى الأبيض أن يخرج من سمته هذه القيم فيرميه المجتمع بالشذوذ وعدم السواء . وبالتالى فإن الاستجابة اللفظية للفرد الأمريكى تختلف بوضوح عن استجابته العملية أو الادائية . وهنا لا نتردد إذا صح هذا الاحتمال في ادانة المجتمع الأمريكى بقيمه التى فرضت على أعضائه سلوكًا لفظيًا يختلف عن سلوكهم الادائى بالنسبة إلى جماعة الزنجي .

(1) Kutner, B., and others, "Verbal attitudes and Overt Behaviour, J. Abn. Soc. Psychol., 1952, 47.

وقد يطول الحوار في هذا فنقول ان البيض انفسهم هم الذين انشأوا هذه القيم ثم اعتنقوها وعمعوا بها ، ولكن ليس كل البيض بل هم الآباء والاجداد الذين ورثوا هذه القيم لإنسانهم والزمهم ان يلتزموا بها ، وبقي ان نسأل انفسنا : كم من الصحة والصدق في هذا الحوار ؟ ... ؟

ولنناقش الآن بعض ما كتبه بيتجرو (1) في كتابه عن شخصية الزنيجي الأمريكي . فقد تجيب هذه المناقشة عن كثير من الاسئلة التي تقف امامنا بين الحين والحين يقول الكاتب ان الدور الاجتماعي للفرد الزنيجي يبدأ بكونه حائزا على ذلك اللون الأسود الذي يعيزه عن بقية الافراد الآخرين في نفس المجتمع . ويطلق (بالدوين) على ذلك بقوله ان ذلك اللون هو جزء من الثمن الذي يدفعه ذلك الرجل اللون ضمانا لبقائه في المجتمع الأمريكي . لان ذلك اللون اعطاه مكانة اجتماعية معينة لو أنه أراد التخلص منها لوجد نفسه دون ماوى في لحظات .

ونحن - من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي - لا نتردد في أن نقول ان مثل هذا الدور الاجتماعي يؤدي بالرجل اللون الى حالة من الانفصام الاجتماعي والنفسي حيث يشعر بالعزلة والانفصال عن مجتمعه ثم بالعزلة والانفصال من ذاته ونفسه . ونقول كذلك ان حواجز اللون والعنصر هي المسئلة الاولى والاخرة عن ذلك . فالرجل الأبيض والرجل الأسود يمكن أن يفهم كل منهما الآخر ويتعايشا معا دون تحامل أو تعصب في حالة خروجهم من حواجز أو قوالب اللون والعنصر ، لانه في وجود هذه الحواجز لا يمكن لاي منهما أن يدرك المعاني الانسانية والمشاعر البشرية الموجودة فيما وراء هذه الفشوات العنصرية . ولا نريد أن نكرر ما ذابنا على توضيحه من خلال سطور وفقرات هذه الدراسة ، وهو ان عملية التطبيع الاجتماعي بجميع مقوماتها وعناصرها ومؤسساتها هي صاحبة المسؤولية في خلق وتكوين وانشاء هذه الحواجز والقوالب . فمن طريق عملية التطبيع اكتسب الطفل الأمريكي الأبيض انجاسا من نوع خاص ، ومن درجة خاصة نحو الطفل الأمريكي الأسود . بدأت عملية التطبيع بقصة السادة والعبيد والفرقياء السوداء وجلد الرنوج وصبرهم وقدرتهم على العمل الشاق ، ثم ذكاء الرجل الأبيض وقدرته على احداث المعجزات بحسن تفكيره وتدريبه .

ولا أريد أن أقول ان هذه الاشياء قد تضمنتها بالضرورة قصص الام لأطفالها في أمريكا أو في جنوب أفريقيا ، لانه ينقصني الدليل والبرهان على هذا القول والزم .

ولكن لننظر الى وسائل الاعلام في أمريكا أو في جنوب أفريقيا كما يقول لوجان (2) فانا سوف نجد أن الموديلات أو عارضات الأزياء أو الرجال في الاعلانات التجارية من البيض - أي صورة الرجل الأبيض - كما ان أبطال القصص التي تتداولها الأيدي من الرجال البيض ، بينما نجد ان دور الرجل اللون سواء في افلام السينما أو القصص هو دور الرجل الغني أو الساذج - على احسن الفروض - أو الذي يقوم بعمل من الاعمال البسيطة التي لا تحتاج الى مهارة ذهنية مثل أعمال التنظيف أو الخدمة العامة في الفنادق والمطاعم ، أو اذا أريد باللون خيرا ظهر في هذه القصص في ادوار التسلية والفكاهة .

وسائل الاعلام هذه تخاطب النوعين الأبيض والأسود ، فتكون بناء على ذلك احساس السمو والعظمة عند الطفل الأبيض ، كما يتكون احساس النقص والانحباب عند الطفل الأسود ، واذا أمكن للطفل الأبيض ان يعيش في سلام مع نفسه عندما يشعر انه أعلى وأعظم من الطفل

(1) Pettigrew, T., A profile of the Negro American, 1964, Van Nostrand.

(2) Logan, R., The Negro in American Life and Thought., Nadir, N.Y. 1954.

الاسود ، وعند ما يعامله المجتمع معاملة تقوم على هذا الاساس ، فان الطفل الملون لا يستطيع ذلك اى لا يمكنه ان يعيش في سلام مع نفسه ، لانه - وان احس بالنقص والقلة بالنسبة للطفل الأبيض - الا انه غير مقتنع بذلك .

ولهذا فان الطفل الملون محق في ان يسأل نفسه دائما ... من انا ؟ ... ومن اكون ؟ ولماذا اكون هكذا ؟ وهذه اسئلة لها خطرها بالنسبة لطفل او مراهق يحاول ان يؤكد وجوده وشخصيته . وتتجلى اخطر هذه الازمات عندما يبلغ الطفل الملون سن المدرسة ويبدأ الابوان كثيرا من الحرج والقلق في اخبار طفلها ما معنى انه ملون ، وان لونه القاتم سوف يجعله مختلفا عن بقية اقاربه واترابه من البيض . وقد سأل أحد الآباء : ايها افضل ؟ هل نخبر طفلنا بالحقيقة او نحجبها عنه اطول مدة ممكنة ، ونتركه ليتلمس الحقيقة بمفرده عن طريق ما يقابله في مجتمع البيض من صدمات وازمات . وقد أجرى العديد من الدراسات حول اجابة هذا السؤال الذى يؤرق الآباء والامهات في مجتمعات الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب أفريقيا ، وهى المجتمعات العنصرية التى تزاوُل التمييز في شيء من الرسمية والوضوح .

فتقول جودمان (١) ان الحساسية العنصرية تبدأ عند الاطفال عند نهاية السنة الثالثة ثم تزداد بشدة ووضوح . وقد وجدت الباحثة ان أهم ما يستلفت النظر ان الاطفال الملونين - في مدارس الحضنة - يفضلون ان يكون لونهم أبيض . كما انهم يفضلون اللعب (بالكراس) البيضاء ، ويتخلدون اصداقاهم من الاطفال البيض . كما انهم لا يشعرون بالحواجز العنصرية بنفس السرعة التى يشعر بها الاطفال البيض ، وغالبا ما يتقمصون شخصيات ابطال من غير الملونين .

وتقول الباحثة ان هذه دلائل « كراهية الذات » وهى تخف تدريجيا كلما نما الطفل واقترب من السن التى يدرك فيها انه ملون ، وعليه ان يقوم بهذا الدور الاجتماعي . وان كانت هناك - حتى عند البالغين والراشدين من الملونين - بعض المخلفات والبقايا من هذه الاحساسات والمشاعر - (الاحساس بكرهية الذات) .

وكان ايضا من نتائج هذه الدراسة ودراسات اخرى ان تعاليم الآباء لاطفالهم قبل ذهابهم الى المدرسة لا تبنى شيئا ولا تغل محل الخبرات الحادة التى تتكون لدى الاطفال من ازمات التفاعل بينهم وبين البيض .

هذا بالنسبة للاطفال - اما بالنسبة للمراهقين من الملونين فتأتى مشكلة الجنس في المكان الاول ، وتصبح حادة وملحة ، وخاصة في المجتمعات المختلطة بين البيض والزنج ، ففى بعض المناطق المتسامحة مثل الشمال في الولايات المتحدة قد يكون للطفل الملون عدد من الاصداقات البيض يدعى الى منازلهم وحفلاتهم ، ولكنه بمجرد ان يبلغ بداية مرحلة المراهقة تومد في وجهه جميع ابواب البيض فلا يلقى الى منازلهم او حفلاتهم ، وذلك مصدره خوف الآباء البيض ان يحدث نوع من العلاقة قد يؤدى الى زواج فتى ملون من فتاة بيضاء .

ثم تترامق المشاكل على المراهق الملون وخاصة عندما يتعامل مع معلميه في المدرسة وزملائه واصداقاته في الجوار ممن هم على صلة بعالم البيض ، فيتأكد لديه انخفاض قيمته الاجتماعية وأنه لا يمكن ان يكون في يوم ما صاحب مكانة من الدرجة الاولى . وهذا الاحساس لا بد ان يؤدى بذلك الفتى اليافع من أبناء الملونين الى ازمات عاطفية وانفعالية حادة تؤثر على سلوكه في ذلك

(1) Goodman, M., Race Awareness in young children, Addison-Wesley, 1952.

المجتمع الذي بدأ علاقته معه بالرفض والازدراء . ولنفرض جدلاً أن هذا الفتى الملون قد تغلب على هذه الازمات الرحلية وتمدها بصورة أو بأخرى ، فإن هذا لا يعني نهاية مشاكله في مجتمع البيض ، فانه سوف يلتقى مرة أخرى بالتمييز العنصري عندما يقدم على طلب العمل أو الوظيفة التي أصبح مؤهلاً لها ودرب من أجلها ، فسوف تكون الأفضلية دائماً للرجل الأبيض (١) وقد يحرمه التمييز والتفريق العنصري من أن يسكن في المكان الذي يحبه وتهو إليه نفسه . وهكذا لا تنتهي مشاكل الرجل الملون بل تزيد وتتعدد كلما طال به الامل والاجل .

ويقول كاتز وبنيامين (٢) أن آذان الزوج في أمريكا لم تسمع من البيض المتعصبين - وما أكثرهم - سوى نغمات التفوق والعظمة والسيادة التي تميز الرجل الأبيض عن الرجل الملون حتى أن كثيراً من الملونين قبلوا هذه الحقيقة وآمنوا بها حتى أنه - كما يقول الباحثان - إذا قدم الدليل التجريبي للرجل الملون على أن ذكاه وقدراته لا تقل على الإطلاق عن ذكاه وقدرات الرجل الأبيض تردد كثيراً في فهم مضمون هذا الدليل ، بل أنه يرفض كثيراً أن يقبله (وذلك في صورة شعورية أو لا شعورية) .

وإذا دققنا النظر فيما قاله كاتز وزميله نجد أن الفكرة التي سيطرت على الرجل الملون بخصوص ذكائه وقدراته إنما نبعت من البيئة البشرية المحيطة به ، حيث لقى إياها من خلال عملية التطبيع والتنشئة غير المقصودة .

وهناك رد فعل متوقع لهذا - سواء على مستوى الشعور والارادة ، أو على مستوى اللاشعور - وهو أن يحس ذلك الرجل الملون بأن هذه البيئة تكرمه وتعامل عليه دون ما سبب أو جريزة ، أو كما يعبر عنه أحد الزوج في أحد الاستفتاءات التي أجرتها مجلة النيوز ويك في ١٩٦٣ - « إنني أشعر بالحزن والقلق لأنني أعاقب طيلة حياتي على ذنب لم أرتكبه ، فانا لم اختر ذلك اللون الذي يسبب لي المتاعب والمشاكل . »

ويحدثنا التاريخ أيضاً عن تعامل البيئة البشرية على الملونين سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو في جنوب أفريقيا أو « مجتمعات اللعنة » كما تسميها حركات تحرر الزوج في كلا المجتمعين

فالعبودية والرق كان لهما أثر عميق في شخصية الرجل الملون ورثها جيلاً بعد جيل رغم أنه وفوق إرادته ، فلم يعترف نظام الرق في أمريكا وجنوب أفريقيا بالعبيد كإنسان على الإطلاق : أي جرده من بشريته وإنسانيته على جميع المستويات البيولوجية والمعنوية (٣) وهذا غير ما حدث في أسبانيا والبرتغال حيث كانت لها تين الدولتين خبرة القرون في أعمال الرق من قبل اكتشاف العالم الجديد ، ولذلك تطورت فيهما الأمور حتى أصبح للعبيد بعض الحقوق المحددة وإن كانت محدودة .

وأما بالنسبة لبريطانيا التي لم يكن لها خبرة أسبانيا والبرتغال فإن نظامها في الرق الذي

- (1) Hollander, E., and Hunt, R., *Current perspectives in Social Psychology*, Oxford, 1967, 157.
- (2) Katz, I., and Benjamin, L., " Effects of White Authoritarianism in Biracial Work groups," *J. Abu. Soc. Psychol.*, 61, 1960.
- (3) Elkins, S, *Slavery* Uni of Chicago Press 1959.

انتقل الى جنوب افريقيا وروديسيا ثم تبنته امريكا في مستعمراتها لم يعترف بالعبد أو الرقيق الا كقطعة من ممتلكات سيده حتى من الناحية الشرعية والقانونية .

ومعقب ماكسويلاند (١) على ذلك بقوله ان الرق والعبودية في اى صورة وعلى اى صورة تقتل عند الرجل الملون الحاجة الى المعرفة والتحصيل والابداع فبعد انتزاع « العبد » من بيئته الاصلية في افريقيا يوضع تحت ظروف مفارقة تماما ، حيث يكافأ بالاطعام او الايواء اذا اظهر سلوك الطاعة والخضوع والخنوع ، والعكس اذا ظهر منه سلوك المباداة او التصرف الاستقلالى .

ولم يكن ذلك هو النتيجة الوحيدة للرق والره في شخصية الرجل الملون ، فهناك ما هو ابعد من ذلك ، فاصحاب العبيد من السادة كانوا يدفعون بهم الى صالة المراد وخاصة الذكور منهم - دون مراعاة لاي علاقة من اى نوع نشأت بين مبدذكر وأمة من الاناث فلم يعترفوا - اى السادة - بزواج العبيد - وينبى على هذا ان يباع الابن المراد ، وينشأ الطفل المولود بين يدي امه فقط ، وبالتالي يلتصق بها ذكرا كان او انثى ، وبذلك تتأثر شخصيته بشخصية الام وسلوكها ، وهذا امر له خطره على شخصية الطفل الذكر .

وقد نزع ان مثل هذه الآثار قد تختفي بنمو الطفل واحتكاكه بشير الام من أعضاء المجتمع الخارجي ، ولكن للأسف لا نستطيع ان ندعم هذا الزعم وتقويه لأن ظروف الفقر والاملاق التي يعاني منها الملونون في امريكا وفي جنوب افريقيا متضاربة مع ظروف الهجرة والانتقال من مكان الى آخر دعمت ارتباط الطفل الملون والتصاقه بامه ، ومن ثم تأثرت شخصيته ببعض الخصائص الاثنية التي تؤدي في كثير من الاحوال الى الخضوع والانسحاب ، فهناك كثير من الدراسات تؤكد أهمية وجود الأب في تطبيع وتشئة الاطفال الذكور اجتماعيا (٢ ، ٣) ، فمعض الامهات اللاتي يربين أطفالهن في غير وجود الآباء يبالغن في الرعاية والعناية بهؤلاء الاطفال وخاصة الذكور منهم ، وتصل هذه العناية والرعاية الى حد التدليل البالغ الذى يتلف شخصية الطفل ويجعله دائما معتمدا على غيره .

ويمكن ايضا تدعيم هذه الفكرة - فكرة التصاق الطفل الملون بامه بان نقول ان الرجل الملون - وخاصة من غير ذوى المهارة - لا يمكنه ان يجد العمل الثابت بنفس السهولة التي تجده بها الاثنى من اللونين وخاصة كخادمة او مربية او عاملة نظافة في البيوت الخاصة ، ولذلك فان الأسرة تعتمد غالبا وربما بصورة شبه دائمة على دخل الام من عملها ، فتتجسد بذلك صورة الام كصدر للرزق والعيش في المحتوى النفسي لاطفالها ، بينما لا يكون الحال كذلك بالنسبة للاب الذى يفقد عمله من حين لآخر .

ويتدخل عامل الهجرة والانتقال ليضيف الجديد الى هذه الصورة ويمعن في فصل الاب عن بنيه بغرض العمل أو كسب القوت وتقوم الام على تربيتهم تحت ظروف من الحياة غير طبيعية فينشأون على النمط والشكل الذى سبق ان عرضنا له بالوصف والتعليق .

(1) McClelland, D.C. *The Achieving Society*, Van Nostrand, 1961.

(2) Bandura, A., and Walters, R., *Adolescent Aggression*, N.Y. Ronald, 1959.

(3) Mussen, P., and Distler, L., "Masculinity.....," *J. Am. Soc.* 1959.

ولنا هنا تعليق آخر قد يكون ذا أهمية خاصة لما سميناه سابقاً « بمجتمعات اللعنة » وهو جملة كتبها هنري مايرز (١) نستعيرها بنصها :

“ A nation established in the name of equality must keep the faith or lose its best excuse for being.”

نستطيع أن نقول الآن أننا قد تعرضنا في شيء من التحليل لسلوك التحامل والتعصب من ناحية ما يمكن في خلفيته من اتجاهات ومعتقدات عنصرية كما أننا أشرنا أيضاً على هذا النحو إلى أصل هذه الاتجاهات والمعتقدات ونشأتها وتطورها وبقي أمامنا الآن أن نناقش أمرين كلاهما على جانب كبير من الأهمية أولهما الظروف والعوامل التي تساعد على بقاء واستمرار التحامل والتعصب بين جماعتين عنصريتين وثانيهما العوامل التي يمكن أن تساعد على تخفيف وتقليل حدة التوتر الناتج عن الاتجاهات والمعتقدات العنصرية .

فأما من الأمر الأول وهو عوامل الإبقاء والاذكاء فيمكن أن نصنفها على الوجه التالي :

أ - عوامل تتعلق بالتركييب الاجتماعي لكل جماعة عنصرية على حدة .

ب - عوامل تتعلق بالعمليات النفسية الفردية .

ج - عوامل تتعلق بالقومات الحضارية الخاصة بكل جماعة

١ - عوامل التركييب الاجتماعي : وهذه يمكن تقطيعها على الصورة التالية :-

١ - الاذعان لمعيار التحامل والتعصب :

نريد أن نوضح شيئاً في بدء المناقشة وهو أن هناك ما يسمى بالجماعة الداخلية وما يسمى بالجماعة الخارجية ، فالأمريكي الأبيض يعتبر جماعة البيض جماعة داخلية بالنسبة إليه بينما يعتبر جماعة السود أو الملونين جماعة خارجية والمكس صحيح بالنسبة للأمريكي الملون فالجماعة الداخلية بالنسبة إليه هي جماعة السود ، وأما جماعة البيض فهي الجماعة الخارجية .

والاذعان لمعيار التعصب والتحامل الذي ينشأ في الجماعة الداخلية تجاه الجماعة الخارجية هو أول نواتج الطاعة الاجتماعية التي سبق الإشارة إليها كناتج أيضاً من نواتج عملية التنشئة والتطبيع الاجتماعي .

فعندما يتكون الاتجاه العنصري والعقيدة العنصرية وتتوفر الشحنة الانفعالية العالية لانتاج سلوك التحامل فإنه يصبح من الضروري أن يتكون معيار خاص تكون وظيفته المحافظة على هذا المستوى من التحامل والتعصب .

وهذا المعيار الخاص لا يكون - في جميع الأحوال - صريحاً واضحاً ولكنه دائماً ما يختفي وراء عديد من القيم والمعايير الأخرى التي تنتشر في الجماعة .

ومن الدراسات التي أجراها بيتجرو (٢) في جنوب أفريقيا حول مسألة المعيار الخاص

(1) Myers, H.A., Are Men Equal, the Meaning of American Democracy, Great Seal, N.Y. 1963 P. 153.

(2) Pettigrew, T.F. "Personality and Socio cultural factors in Intergroup attitudes, J. Conflict Resolut. 1958, 2.

بالمحافظة على مستوى التعامل والتعصب ضد السود ظهرت نتائج مؤلنا فيما نذهب اليه من وجود هذا الميار الخاص ووجوده مختلطا بغيره أو مختفيا وراء المعايير الأخرى . فقد عين الباحث درجة تعصب البيض في جنوب أفريقيا ضد السود مستخدما في ذلك مقياسا خاصا بالاتجاهات العنصرية ثم قسمهم (اى البيض) الى فئتين فئة شديدة التعصب والتعامل ضد الأفريقيين السود وفئة قليلة التعصب والتعامل . ثم عاد الباحث وعين درجة اذعان هؤلاء البيض ، وكانوا جميعا من طلبة الجامعة - للمعايير الاجتماعية ، مستخدما في ذلك مقياسا خاصا بالطاعة الاجتماعية وقسمهم مرة أخرى الى فئتين : فئة شديدة الطاعة والأذعان للمعايير الاجتماعية ، وفئة قليلة الأذعان ، ومما تلفت النظر أن الباحث وجد أن الفئة شديدة التعصب تكاد تكون هي بنفسها الفئة شديدة الأذعان للمعايير الاجتماعية .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية ربما كان الأمر أوضح من ذلك وخاصة اذا تكلمنا عما يترتب على هذه الطاعة وهذا الأذعان من الالة أو عقاب ، حيث يتمثل ذلك في نتائج الانتخابات الأمريكية وخاصة في الجنوب عند نجاح من يذكي نار التعصب والتعامل ضد السود ، ويؤكد استمرار التمييز العنصرى ونشل من يحاول أن يستجيب لنداء خاص في نفسه بأن الانسان هو الانسان مهما اختلف اللون أو الجنس أو اللغة أو ما هو غير ذلك .

وواضح من ذلك أن عملية الاتابة والمكافاة عند الأذعان لهذا الميار والعقاب عند الخروج عليه إنما سوف تعزز سلوك التعامل والتعصب عند افراد الجماعة الداخلية ضد افراد الجماعة الخارجية .

٢ - أنماط التفاعل الاجتماعي :

مما لا شك فيه أن أنماط السلوك والتفاعل بين الجماعات سوف تعزز موقف التعامل والتعصب ، وخاصة اذا كان الاتجاه العنصرى قد سبق وتكون وتدم ، وهنا تقوم كل جماعة أو كل فرد بتفسير أنماط سلوك الجماعة الأخرى أو الفرد الأخرى في ضوء هذا الاتجاه العنصرى أو العقيدة العنصرية ، فعلى سبيل المثال اذا ارتكب أحد الملونين في جنوب أفريقيا جريمة من الجرائم الاجتماعية فأننا نجد أن درجة التماسك والتعاطف بين البيض قد ارتفعت ردا على هذا النمط من السلوك ، وبالتالي فان هذا سوف يؤدي بالضرورة الى الاحتفاظ بمستوى تعامل البيض على الملونين كأحد ردود الفعل التي تحمي حدود جماعة البيض وقياسا على ذلك فان اى سلوك من جانب الملونين سوف تفسره جماعة البيض على أنه نمط خارج عن نوااميس المجتمع وبالتالي فهو ذنب وجريمة تستوجب الوقوف في وجهه ومما نعتبه . وربما تكون أيضا محققين عندما نسوق مكنس هذه الصورة ، اى اذا كان الرجل الأبيض هو الذى ارتكب ذلك الخطأ ونصبت جماعة الملونين من نفسها حكما عليه وعلى ما يقدمه من تصرف وسلوك .

٣ - تصنيف الإزاعات لمفايم التعامل والتعصب :

سوف يظهر زعيم أو أكثر في كل جماعة . ومن هؤلاء من يعتمد على مواقف الإزاعات ليؤكد وجوده وقيادته ويرفع درجة تماسك افراد الجماعة من حوله . ومن المبادئ الأساسية في علم ديناميات الجماعة أن درجة التماسك الداخلى لاي جماعة من الجماعات ترتفع وتبلغ درجتها القصوى عند ظهور عدو خارجي يهدد كيائها ووجودها ، فقد يكون أعضاء الأسرة الواحدة في شغل شاغل عن بعضهم البعض ولكنهم يتعاطفون ويتماسكون في حالة مرض أحدهم بصورة تهدد بكارلة أو فجيعة .

ولهذا السبب فإن الزعيم سوف يحرص الحرص كله على أن يجسم الخطر الخارجي ويجسده ويبرز صورته واضحة جلبة في التمسك النفسي الاجتماعي للأفراد حتى يلتفتوا من حوله وفي حالتنا هذه - حالة الجماعات الداخلية والخارجية - ليس هناك خطر أشد وأتمنى على البيض يعادل خطر الملونين ، ولا على الملونين يعادل خطر البيض . وبذلك فإن الزعيم سوف يؤكد جميع مفاهيم التحامل والتعصب من أجل بقاءه ويقام نفوذه وسلطته .

٤ - تعصيد البيئة للمفاهيم التحامل والتعصب :

كثير من مقومات البيئة الخارجية يساعد على استمرار التحامل والتعصب ويحفظ مستوى ثابتا من التوتر والقلق تتميز به شبكة العلاقات بين الجماعتين الداخلية والخارجية ، وأول هذه المقومات هي وسائل التواصل المنتشرة والمتداولة مثل القصة والسينما والراديو والتلفزيون والاعلان والأفاني والأمثال الشعبية المتداولة والصحافة والفكاهات وما إلى ذلك .

ولا أعتقد أنني في حاجة إلى كثير من الشرح والتوضيح في هذا المجال ، فجماعات الأقلية - مثل الزنوج في أمريكا - يظهرون دائما في هذه الوسائل في أدوار حقيرة غير ذات أهمية أو تأثير وذلك كما سبق أن أسلفنا .

وربما كان من الطريف أن نسوق مثالا من الأمثلة الشعبية الدارجة في أمريكا يدل على الفرد الذي تتجمع فيه جميع الخصال السيئة أو بمعنى آخر شخص لا فائدة فيه ولا نفع - يقول المثال (لنجبي يهودي وأهور)
A negro, a jew and one eyed Jack.

وأطرف من ذلك الفكاهة التي يرويها الأمريكيون عن طالب ملون أراد الرئيس الراحل إيزنهاور أن يكرمه فدهاه إلى تناول الشاي معه في البيت الأبيض ، فذهب الطالب الملون واشترى كتابا يشرح أصول التعامل مع كبار الشخصيات من الناس ثم حفظه عن ظهر قلب . والتقى الطالب الملون بالرئيس حيث قدم له الشاي بنفسه فنهض الطالب واقفا وانحنى في أدب وقال « شكرا لك يا سيدي أو يا سيدي حسب ما تقتضيه الظروف » .

وهكذا فإن القصة المقروءة أو المثل الشعبي الدارج أو الفكاهة المتداولة بجانب كل وسائل الاعلام والاعلان سوف تساعد ولا شك على استمرار اتجاهات التحامل والتعصب وعلى حفظ المستوى المطلوب من التوتر والقلق .

ب - عوامل تطاق بالمفاهيم النفسية الفردية :

وهذه يمكن توضيحها وتحليلها على النحو التالي : -

١ - الشعور بالإحباط :

لقد كان فرويد أول من ناقش في شيء من تفصيل العلاقة بين احساس الفرد بالإحباط أي احساسه بأنه لم يستطع تحقيق أهدافه وأشباع حاجاته وبين لجوء الفرد إلى نوع خاص من السلوك العدائي ، وقد أبد هذا الرأي عديد من الدراسات التي تلت فرويد ومدرسته ، فيقول دولارد وآخرون (١) أن العنصر الذي يسبب الإحباط غالبا ما يكون غير مناسب لأن يمثل هدف

(1) Dollard, and others, Frustration and aggression, New Haven, 1939.

الكراهية والعداونية ، وذلك لانه غالبا ما يكون سلطة او قوة تفوق امكانيات الفرد الذى يحس بالاحباط ، وبالتالي فانه - اى هذا الفرد - يبحث عن كبش فداء يسلط عليه عدوانيته وكراهيته ، وغالبا ما يكون هذا الآخر ضعيفا مسالما .

فعلى سبيل المثال اذا تقدم رجلان احدهما ابيض والاخر ملون لوظيفة واحدة ، واخذ الحكم' باسباب العدل والموضوعية وفضل احدهما على الآخر معتمدا في ذلك على الكفاءة فقط ، فان الرجل الآخر - وقد احس بالاحباط لايستطع عدوانيته وكراهيته على الحكم حيث انه قوة وسلطة بالنسبة اليه ، ولكنه سوف يتجه الى الفرد الآخر متحاملا عليه .

وربما يمكننا ان نوضح اكثر من هذا اذا اخذنا في اعتبارنا المستوى العام ، وحاولنا ان نفسر ما قاله فارس جلوب في مناظرته العامة في لندن - وقد سبق الإشارة الى ذلك من أن اليهود اضطهدوا في جميع المجتمعات تقريبا ما عدا المجتمعات العربية ، حيث يمثلون هم الآن دور المضطهد الظالم ، فقد كان لعمليات القمع الشديدة التي عانى منها اليهود في ألمانيا النازية أو في دول شرق أوروبا ، أو حتى في دول الغرب دور واضح في تكوين شعور عام بالاحباط تكون لدى اليهود نتيجة عدم تمكنهم من تحقيق مآربهم وأهدافهم ، ومما لا شك فيه أن هذه المجتمعات كانت هي السلطة والقوة بالنسبة لليهود ، فلم يستطيعوا أن يسلطوا عليها كراهيتهم وعدوانيتهم ، وبحسبنا من كبش فداء فوجدوه في شعب طيب مسالم غير عدواني .

ونقول اخيرا انه اذا كان الاحباط يسبب العدوانية فان السلوك العدائى الناتج سوف يحفظ للتحامل استمراره وثباته ، وتفسير ذلك أنه طالما أن السبب الأساسى في الاحباط لم يتمكن الفرد من إزالته فان الكراهية والتحامل سوف يعيشان دائما من خلال بحث الفرد الدائم عن كبش الفداء .

٢ - الحاجات الشخصية :

قد يكون من الحاجات الشخصية للفرد والملحة عليه أن يصل الى درجة اجتماعية أعلى من تلك التى يشغلها ، ولا يمكنه أن يحقق هذه الحاجة ويشبعها الا اذا اتخذ من سلوك التحامل نمطا مميزا لسلوكه وتصرفه . فعلى سبيل المثال نجد أن بعض الناس الذين يريدون أن يرتقوا الى طبقة اجتماعية أعلى أبرزوا تحاملهم وتحيزهم ضد طبقة الخدم أو العمال البسطاء ، وفى ذهنهم تصور واحد هو أنهم لن يكونوا سادة الا اذا تحاملوا على المبيد .

وقد يكون من الحاجات الشخصية الملحة أيضا حاجة الفرد للامن والطمانينة ، الامر الذى لا يتحقق الا اذا لفظ ورفض الاختلاط بأعضاء الجماعة الخارجية ، محافظا بذلك على حدود أمنة مطمئنة بينه وبينهم ، وذلك من طريق التعصب والتحامل .

٣ - الدين والمذهب :

وهذا أمر يجب أن ننظر اليه على أنه مكون نفسى شخصى وعلى هذا الأساس ظهر اتجاهان رئيسيان في دراسة علاقة الدين والمذهب بوضوح التحامل والتعصب ، أولهما : يرى أن الدين يحو فروق اللون والعنصر ، وأنه اى الدين يأتي في المرتبة الأولى من حيث التمييز بين البشر ،

وقد تزعم هذا الاتجاه روكيش وآخرون (١) حيث قاموا بإجراء دراسة على مجموعة من البيض في الولايات المتحدة فسالوا الأفراد من أى الأنواع التالية يختارون أصدقاءهم :-

- ١ - شخص أبيض متدين
- ٢ - شخص زنجى متدين
- ١ - شخص أبيض متدين
- ٢ - شخص أبيض ملحد

ومن هذه الدراسة خرج الباحثون بأن الدين أهم من اللون .

والإتجاه الثانى يرى العكس أى أن اللون والعنصر أولاً ثم الدين والمذهب ثانياً ، أو بمعنى آخر كما يقول أحد البيض المتدينين « هؤلاء السود أصبحوا على ديننا لأننا أفضل منهم » وتزعم هذا الإتجاه تريانديس (٢) حيث انتقد دراسة روكيش وقال أنها لا صلة لها بموضوع التعصب والتحامل ، بل تدور حول الصداقة والاختيار ، وبذلك استخدم وسائل أخرى لقياس التحامل والتعصب ، فوجد أن اللون والعنصر يأتيان في المركز الأول بالنسبة للتمييز بين الأفراد بلى ذلك الدين والمذهب .

وهناك دليل آخر يؤيد تريانديس فيما ذهب إليه ، وهو ما وصفه بتيجرو (٣) عن تجربته في جنوب الولايات المتحدة عندما قارن بين ستة أبعاد اجتماعية مختلفة ، حيث وجد أن : النساء أكثر تعصبا من الرجال - والمتدينين أكثر تعصبا من غير المتدينين - وذوى الطموح أكثر تعصبا من القانمين - وأعضاء الحزب الديوقراطى أو الجمهورى أكثر تعصبا من المستقلين - والشباب أكثر تعصبا من الشيوخ - وغير المثقفين أكثر تعصبا من المثقفين .

ج - عوامل تتعلق بالقوميات الحضارية لكل جماعة :

وهذه العوامل تتركز غالباً في القيم الحضارية السائدة في الجماعة ، حيث يتحول الإتجاه العنصرى شيئاً فشيئاً ناحية الثبات والاستقرار ، فيصبح جزءاً من الأيديولوجية الحضارية للجماعة التى هى عبارة عن الكتل المتكامل من الأفكار والاتجاهات والمعتقدات والقيم وهذه الأيديولوجية فى هذه المجتمعات - مجتمعات التمييز العنصرى - تذى لهب التعصب والتحامل ، إذ ربما قال الجيل الحالى « هذا ما وجدنا عليه آباءنا » فلم يكن لهم سبيل الى التغير أو التبديل ، لأن هذه هى فكرة الجماعة التى انضلت صفة التقديس والاحترام . ومرة أخرى لا نريد أن نكرر الانتهاء لعملية التطبيع والتنشئة إذ أنه واضح ثابت ، فهى المسؤولة أصلاً وأساساً عن تكوين هذه الأيديولوجية واحاطتها بالحدود الفاصلة المقدسة .

والأمر الثانى الذى لا بد من مناقشته أيضاً هو العوامل والأسباب التى يمكن أن تأخذ بها لتخفيف حدة التحامل والتعصب .

ولنبداً هذه المناقشة فنقول انه طالما أن المسؤولية الكبرى فى هذا المجال تتعلق بالعملية الأساسية فى انشاء البشر وتعليمهم وثقيفهم وتحضيرهم - أى عملية التطبيع الاجتماعى - فانه يمكننا أن نقول بلا تردد أن السبيل الوحيد لازالة وتعطيل الاتجاهات والعقائد العنصرية وما

(1) Rokeach, M, *The Open and closed Mind*, N.Y. basic books 1960.

(2) Triandis, E.P., "a note on Rokeach's Theory of prejudice," *J. Abn. Soc. Psychol* 1961, 62.

(3) Pettigrew T.F., "Personality and Socio cultural Factors", *J. Conflict Resolut* 1958.

يترتب عليها من تحامل وتمصّب هو عملية تطبيع اجتماعي صحيحة سليمة يقوم بها ويشرف عليها افراد اصحاء اسوياء اجتماعيا ونفسيا ، ومن المبادئ الهامة والاساسية لعملية التطبيع الاجتماعي الصحيحة هو أن تؤمن أولا أنها اى عملية التطبيع ليست بسيطة ، ولكنها معقدة ومتعددة الجوانب والزوايا ، وبالتالي فاننا كمنستطيع ان نقترح حلا وحيدا أو نموذجا محددا لما يجب ان تكون عليه عملية التطبيع ، ولكنه لا بد ان نقول انه اذا اردت حل صحيح لمشاكل هذه العملية فلا بد ان تعالج جميع الجوانب والاطفاء في وقت واحد ، حتى يمكننا ان نتوقع تغييرا يمكن تقديره والاحساس به ، فعلى سبيل المثال يجب ان تعالج اخطاء القوانين العنصرية في الولايات المتحدة الامريكية او في جنوب افريقيا في نفس الوقت لتعدل فيه خطة وسائل الاعلام ومحتواها ومناهج التعليم وفلسفته واسسه ، وبالتالي فانه يصبح من المتوقع في هذه الحالة - وفي هذه الحالة فقط - أن نلاحظ تغييرا في العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العنصرية كما يجب أيضا أن تكون واقعيين في أحداث هذه التغييرات المنهجية أو تلك التي تتعلق بالمحتويات ، فلا يكون مرجعنا في التفكير هو المثالية الكاملة حيث تنصرون أن تدوب جميع الاجناس والجماعات العنصرية في جماعة واحدة بلا حدود أو فواصل من الناحية المادية ، ولكن من الاجدى ان نهم اصول عملية التطبيع الاجتماعى سواء من طريق وسائلها المقصودة أو غير المقصودة بتوضيح معنى الجنس والعنصر توضيحا علميا موضوعيا دقيقا ، مع ابراز الظروف والملابسات التاريخية التي احاطت وتحيط بكل جماعة عنصرية ، وهذا يعنى اذابة الحدود والفاصل العنصرية بصورة معنوية عندما تأتى العقيدة التي يمكن ان تعتنقها جميع الاجناس والعناصر في المكان الاول .

ومن المبادئ الهامة والاساسية أيضا لعملية التطبيع الاجتماعى الصحيحة ان تقوم على فكرة الانتماء والانساع ، وليس على المحلية الضيقة التي تكون عند الطفل ، ومن ثم الفرد البالغ نوعا من الدّهن اللّغوي والفكر الجامد فلا يصبح من الممكن تغيير اتجاهه أو اقتناعه بفكرة جديدة .

وتحقيقا لهذا المبدأ - يجب ان تعنى عملية التطبيع في اى جماعة من الجماعات ليس بحضائرها النوعية فقط ، بل تمتد الى حضائرات الجماعات الاخرى وخاصة التي تقرب منها ماديا أو معنويا وليكن هذا الاهتمام موضوعيا منصفا ، فلا يكون اهتمام البيض بحضارة الزنوج مبنيا على ابرار دور الحضارة والبدائية في حياتهم أو معنى مثلث التجارة فقط (نقل المبيد من افريقيا) ، بل يجب ان نهم أيضا بغض العبودية عن اللون وأن تبرز امكانية القدرة والابداع عند جميع الاجناس والالوان .

وتحقيقا لهذا المبدأ أيضا يجب أن نهم عملية التطبيع بفرض اللقاء وتبادل الخبرة بين اعضاء الجماعات العنصرية ، وذلك تحت الظروف الملائمة والتي تتيح تكوين الاتجاهات الموجبة عند كلا الجانبين ، فلا يكون هناك لقاء بين مجموعة من المثقفين من البيض ومجموعة من المزارعين السود فانه وان توفر لدى الفرد المثقف أن يفهم المزارع بظروف حياته وامكاناته فان المزارع الاسود سوف لا يفهم المثقف الابيض من اى ناحية من نواحيه .

كما يجب أن نهم عملية التطبيع أيضا بنشر المعلومات الصحيحة وغير المشوهة أو الموجهة توجيهها سلبيا خاصا من الجماعات العنصرية الاخرى حتى تتيح الفرصة لاضاء الجماعة لتكوين المعرفة الصادقة عن اعضاء تلك الجماعات ومن عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم .

ومن المبادئ الهامة والاساسية الاخرى لعملية التطبيع الاجتماعى الصحيحة انها عملية ليست قصيرة الابد- اى انها لا تأخذ في حسابها الحاضر فقط بل يجب ان تنظر دائما بعين التنبؤ الى المستقبل اذ انها عملية دائمة ومستمرة ومتصلة الطبقات .

وتحقيقاً لهذا المبدأ يجب أن تهتم عملية التطبيع بمستقبل الطفل بقدر اهتمامها بحاضره فتعده للغد من ناحية الفكر والاتجاه والقيمة والمعتقد ، وبذلك تبني له طريق الاتصال بالحضارات الأخرى ليفهم أسسها ومبادئها ويتعرف على قوانين تطورها ونموها وهو في ذلك ناقد علمي موضوعي . وربما كانت هذه هي أهم النقاط جميعاً ، فإن تكوين الاتجاه العلمي الموضوعي هو بمثابة تحصين ضد تكوين اتجاهات التحامل والتعصب . وتكوين الاتجاه العلمي لا يحتاج إلى تفهم النظرية والمبدأ بقدر ما يحتاج إلى الممارسة والمران .

وتحقيقاً لهذا المبدأ أيضاً يجب ألا تتوقع الجماعات العائد السريع من أبنائها كمكافأة لها على تطبيعهم وتشتتهم اجتماعياً وحضارياً ، بل يجب أن تعطيهـم الفرصة للإشراك في حضارات وثقافات أخرى . وتحقيقاً لهذا المبدأ أيضاً يجب أن تعمل عملية التطبيع الاجتماعي على إبراز الأهداف الإنشائية الأصلية التي تسمو فوق كل جماعة عنصرية بحدودها الضيقة ، وذلك من أجل تدريب أفراد كل جماعة لأن يكونوا أعضاء بصورة أو بأخرى في مجتمعات أوسع وأشمل مما يعيشون فيه حالياً وبذلك تكون أي عملية التطبيع قد أكدت دوامها واستمرارها واتصال حلقاتها .

ويبدو بذلك أن الأمر شاق وعسير ، وأن الطريق صعب وطويل ولكن لا بد أن يكون هناك أمل في التغيير ، فإن رحلة الألف ميل تبدأ دائماً بخطوة واحدة .

خاتمة وتعليق :

لقد ادخرت بعض نقاط المناقشة إلى هذه الخاتمة حتى أشعر وأنا بصدد الانتهاء من هذه الدراسة كما لو كنت مقبلاً عليها من جديد .

فقد وضع من تيار المناقشة السابقة وخاصة في تحليل العلاقة بين عملية التطبيع الاجتماعي وبين سلوك التحامل والتعصب أن معظم مجتمعاتنا العالمية المعاصرة تعاني من هذه الأزمات ، سواء بصورة مفتوحة واضحة ، كما هو الحال في جنوب أفريقيا وروديسيا والولايات المتحدة الأمريكية وما بقي للبرفال من مستعمرات . أو بصورة مغطاة ولكن لها رالحة نفوح كما هو الحال في بعض المجتمعات الغربية الأخرى مثل المجتمع الانجليزي أو المجتمع الألماني .

وقد يتبادر إلى اللهن أن منابتنا في هذه الدراسة قد اقتصرت على التحامل والتعصب ضد السود أو غيرهم من الأقليات الأخرى في أمريكا وجنوب أفريقيا ، ولكن في حقيقة الأمر هناك صور كثيرة أخرى من التحامل والتعصب كنت أود أن أعالجها بالمنهج العلمي الذي أعتقد أنني التزمت به خلال المناقشة والتحليل ، ولكن ما كتب من هذه الصور من التحامل والتعصب لا يعطينا الفرصة لذلك ، فمظمه انطباعات شخصية أو ملاحظات عابرة لا تتوافر فيها العلمية الموضوعية .

ومن أهم هذه الصور : التحامل والتعصب بين الروس والأمريكان وخاصة في السنوات العشرين الأخيرة (أي بعد الحرب العالمية الثانية) وما كتب في هذا مجرد انطباعات شخصية أو ملاحظات لبعض الرحالة الأمريكيين في روسيا والروس في أمريكا . ولو أنه معلوم ولا شك أن ما بين النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي قد يؤدي إلى التحامل والتعصب .

وكذلك المسلمون في روسيا كإقلية عنصرية فلم يكتب عنهم إلا القليل وحتى هذا القليل كتب من وجهة نظر غير محايدة (١) .

(1) Wheeler, G., *Racial Problems in Soviet Muslim Asia*, Oxf. Uni. 1967.

وكذلك العربي اسرائيل كمواطنين من الدرجة الثانية ، فلم تتوافر لدينا المعلومات العلمية الموضوعية منهم حتى يمكن إبراز هذا الموضوع الذي هو على جانب كبير من الأهمية .

ونعود فنسأل في هذه الخاتمة « هل يمكن لثان نعتزف بفشل عملية التطبيع الاجتماعي على الصعيد العالمي ؟ حيث أن نواتجها كما نرى ونشعر ونحس وخاصة منذ بداية عصر التكنولوجيا الحديث أصبحت تؤكد ذلك .

وهل هناك طريق لاصلاح ما أفسدته أيدي أجيال سابقة لهذه الأجيال الناشئة ، أو بمعنى آخر أكثر دقة ومراحة هل من سبيل لاصلاح ما أفسدته أيدينا نحن ؟؟ ..

لقد سبق أن أشرنا إلى ذلك في سطور سابقة وخاصة عندما حاولنا أن نناقش العوامل التي من شأنها أن تخفف حدة التحامل والتعصب ويمكن أن نعود إليها مرة أخرى عندما تؤكد أهمية تدريب هذه الأجيال الناشئة على الطريقة العلمية الموضوعية في التفكير وفي اتخاذ القرارات وفي فهم وقبول الآخرين . أن الطريقة العلمية هي التي سوف تكون عند الفرد اتجاهها علميا وقيمة علمية تمكنه من الحكم على الأشياء حكما موضوعيا مجردا بعيدا عن الهوى والذاتية ، وربما كان المثال الذي أريد أن أسوقه هنا قاسميا بعض الشيء وهو قصة يرويهما ويتندر بها اللونون في أمريكا ، فقد حدث في يوم أن تقابل البيض والزوج في إحدى الولايات ، وجرح من الجانبين عدد كبير ، منهم من نقل إلى المستشفى وكان بحاجة ماسة إلى عملية نقل الدم . وكان الجريح أبيض ولم تنفق فصيلة دمه إلا مع فصيلة دم ممرض زنجي ، فأمر الطبيب وهو أبيض بنقل الدم لاتخاذ الجريح ، ولكن الممرضة المشرقة على ذلك - وهي من البيض أيضا - احتالت حتى كسرت الزجاجاة التي أعطاها من دمه متبرعا ذلك الممرض الزنجي ، وتركت الجريح يموت ، وتكتمل القصة عندما تقول الممرضة مند حسابها « انني لم أستطع أن أرى دم هؤلاء الأشخاص يختلط بدم السادة من البيض ... » .

وواضح أن الطبيب أبيض ، ولكنه يتمتع بالاتجاه العلمي والقيمة العلمية ، وواضح أيضا أن الممرضة من البيض ، ولكنها اتخذت قرارا بعيدا عن الموضوعية كل البعد متأثرة في ذلك بالذاتية والهوى .

وفوق الطريقة العلمية في التفكير تأتي العقيدة التي يمكن أن تعتنقها جميع الألوان والأجناس البشرية ويشعرون جميعا في ظلها بالانتماء إلى الأصل الواحد والجلود الواحدة فالإسلام والمسيحية ، وهما من أبرز الديانات التي ملأت العالم حبا وطمانينة ، فاما على التسامح وقبول الآخرين مهما كانت ألوانهم وأجناسهم ، بل وأديانهم أيضا ، فالحل إلى الله وإلى الله يعود ..

فهل نحن في حاجة إلى مسيح آخر أو محمد آخر حتى تنتهي أزمات التعصب والتحامل التي تشعل نلر الخوف والقلق والفزع في شعوب باكلمها من حين لآخر ؟ ..

اعتقد ان المسيح ومعبدا هما ما تركاه من تراث وتعاليم ..

ولا أجد خيرا من هذه القصة الطريفة لاختتم بها هذه الدراسة وهي قصة ذلك العبد الأسود الذي كان يعمل في بناء كنيسة حتى أرققه التعب والنصب فلجا إلى داخل البني ونام ، وهنا أيقظه السيد الأبيض في غلظة وقسوة قائلا له ... « أيها الغبي ألا تخجل من نفسك كيف تنام في مكان يوجد فيه الرب ؟ ... » .

فقال العبد : « دلتى يا سيدى على مكان لا يوجد فيه الرب وأنا أتنام فيه » .

من المراجع

1. Backman, C, "Origins of Prejudice and Discrimination," in *Social psychology*, 1964
2. Barker, R G, and Wright, H F, *Midwest and its children*, Evanston III, Row, Peterson & Co, 1954
3. Bogardus, E S, "Measuring Social Distance", *J. App. Social*, 1925 b, 9
4. Bogardus, E S, *Immigration and Race Attitudes*, Boston Heath, 1928
5. Bogardus, E S, "Changes in Racial Distances," *Int. opin. attitude Res.*, 1947, 1, No 4
6. Brown R, *Social Psychology*, Col McMill 1965, P 193
7. Chein, I, "Some considerations in combating intergroup prejudice," *J. educ. Sociol.*, 1946, 19
8. Child, L I, in *Hand book of Social Psychol.* Ed G Lindzey, P 655, 1954
9. Crandall, S, Orleans, A, Preston & Rabson, *Child Develop* 1958, 29, 429-444
10. Deutsch, M, and Collins, M, *Interracial housing*, Uni Minnesota, 1951
11. Dollard, J and others, *Frustration and Aggression*, N Haven 1939
12. Dudycha, G, ,, The attitudes of college students toward War and the Germans " *J. Soc. Psychol.*, 1942, 15
13. Elkins, S, *Slavery.*, Uni of Chicago Press, 1959
14. Goodman, M, *Race awareness in young children*, Addison-Wesley, 1952
15. Hollander, E, and Hunt, R, *Current perspective in Social Psychology*, Oxford, 1967, 151-157
16. James, H E O, *Lectures in Social Psychol.*, 1961, London Uni.
17. Jame, H E O, and others, *A Series of Unpub. theses*, London Uni Ins of Educ 1959--1964
18. Katz, D, and Braly, K, "Racial Stereotypes of 100 college Students", *J. Abn. Soc. Psychol.*, 1933, 28
19. Katz, I, and Benjamin L, ,, Effects of White Authoritarianism in Biracial Work Groups," *J. Abn. Soc. Psychol* 1960, 61
20. Kuo, Z Y, "The Genesis of the Cat's Response to the Rat", *J. Comp. psychol.* 1930, 11, 1-30
21. Kutner, B, and others, "Verbal attitudes and Govert Behaviour", *J. Abn. Soc. psychol.*, 1952, 47
22. Lambert, W W, and Lambert, W B, *Social Psychology*, Foundations of Modern Psychology series, PP 7-27
23. La Piere, R, "Attitudes US Actions", *Soc. Forces*, 13, 1934
24. Logan, R, *The Negro in American Life and Thought*, Nadir, NY 1954
25. McClelland, D C, *The Achieving Society*, V N 1961

26. Miller, N., and Dollard J., *Social Learning and Imitation*. N. Haven, 1941.
27. Mussen, P., and Distler L., „Masculinity Identification and Father-son Relationships “*J. Abn. Soc. Psychol* 59, 1959.
28. Myers, H. A., *Are Men Equal, The Meaning of Amer democracy*, Great Seal, N.Y. 1963, P. 153.
29. Pettigrew, T. F., “ Personality and Socio cultural Factors in Intergroup attitudes “, *J. Conflict. Resolut.* 1958, 2, 29-42.
30. Pettigrew, T. F., *A profile of the Negro American*, V. Nostrand 1964.
31. Rokeach, M., *The Open and Closed Mind*, N.Y. basicbooks, 1960.
32. Schein, E. H., *Psychiatry*, 1956, 149-172.
33. Seago, D., “ Stereotypes before Pearl Harbor and after “, *J. Psychol.* 23, 1947.
34. Sears, R., and others, *Patterns of child Rearing*, Evanston III, Row, Peterson, 1957.
35. Sears, R., in *J. Abn. Soc. Psychol.* 1961, 63, 466-495.
36. Secord, P., and Backman C., *Social Psychol.* McGraw Hill, 1964.
37. Simpson, G. and Yinger, J., *Racial and Cultural Minorities*, N.Y. Harper, 1958.
38. Sinha, A., and Upadhyaya, O., “ Stereotypes of male and female students,,,,,,,,,,,,, “, *J. Soc. Psychol.* 1960.
39. Tagiuri, R., and Petrullo, L., *Person perception and Interpersonal Behaviour*, Stanford Uniè Press, 1958.
40. Triandis, E. P., “ a Note on Rokeach's Theory of prejudice “, *J. Abn. Soc. psychol.* 1961, 62.
41. Wheeler, G., *Racial Problems in Soviet Muslim Asia*, Orford Uni. Press, 1967.
42. Whiting, B., *Six Cultures, Studies of Child Rearing*, N.Y. 1963.



(٥) محمد عبد الهادي أبو بريدة

تمهيد :

كل من نظر في أشياء هذا العالم ولاحظ ما يجري فيه من حدوث وتغير وزوال ، سواء كان الناظر إنساناً بدائياً يتبع ميلاً فطرياً للعقل البشري أو مفكراً متقناً يتبع طريقة التفكير العلمي والفلسفي ، خطر له أن يكون وراء ما يشاهده من حدوث وتغير وزوال قوى فاعلة مدبرة ، وكان ذلك بمقتضى مبدأ في العقل البشري هو مبدأ العلة الكافية Principle of Sufficient Reason (١)

والعقل البشري ، في تفسيره للأشياء ، لم يقف عند تحليل الظاهرات والاحداث الجزئية ، كل منها على حدة ، ولا هو اكتفى بالرجوع إلى المؤثرات القريبة المباشرة ، بل هو ، بفضل ترقبه في التفسير وبسبب ملاحظة الارتباط بين الأحداث والظاهرات ، توصل إلى ضرورة وجود علة واحدة يرجع إلى فعلها أو تأثيرها كل شيء .

✽ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريفة أستاذ الفلسفة الإسلامية ، ورئيس قسم الفلسفة والاجتماع بجامعة الكويت كان وكلاء كلية الآداب بجامعة عين شمس . له عدة كتب مؤلفة ومترجمة في الفلسفة الإسلامية .

(١) إذا رأى الإنسان شيئاً أو حادثاً فإنه يفكره يسأل عن سببه ويبحث عن حقيقته ، وكل العلم قائم على هذا الأساس . وقد اعتبر ليبنتز Leibnitz الفيلسوف الألماني (١٧١٦م) القول بالعلة Causality مبدأ فكرياً رئيسياً ، ووضع صيغته على هذا النحو : « لا واقع يمكن أن يكون حتماً أو موجوداً ، ولا حكم يمكن أن يكون حتماً ، إلا وتكون هناك علة كافية لكونه كذلك لا على خلافه ، وإن كانت العلة في الغالب لا يمكن أن تكون مبررة لنا » (Monac ologie 32)

ومع أن هذا المبدأ يشير إلى الصوامع الموجودة في العالم الواقع تحت حواسنا ، فإنه مبدأ صادر عن العقل ، وكل مبادئ الفكر من شأنها أن تطبق على شيء ما ، حتى على العقل نفسه ، ومع ذلك فهي عقلية . والعقل يتجاوز الحس ويمكن عليه ، لأن هذه هي مهمة العقل .

ومع أن آراء المفكرين في كلامهم من علة الأشياء قد تنوعت ، فإن الغالبية الساحقة منهم رأوا أنها علة غير مادية (١) وغير مشابهة لما نراه في هذا العالم ، وأنها علة عاقلة ، وأضافوا لها من صفات الكمال بحسب ما تخيلوا ، على تفاوت حظوظهم من سمو في التفكير ومن توفيق في إصابة الحق ، ومقدرة على التعبير عنه .

ورأت غالبية المفكرين أيضاً أن علة العالم ، إلى جانب كونها المصدر الذي يفسر ظهور الموجودات هي أيضاً رمز القيم ومصدرها . هي حق وخير ، وإليها يرجع كل حق وخير ، وإليها يستند نظام الأخلاق في هذه الحياة .

وأطلقت على تلك العلة عبارات كثيرة ، كما سنرى ، وسُميت بالاسم الذي يقابل كلمة الإله ، في اللغة العربية .

وهكذا أصبح القول بوجود الإله هو التفسير الكامل لهذا العالم ، والعماد الذي تقوم عليه القيم الخلقية ، واستقرت في القلوب طمأنينة نشأت من ثقة الإنسان بنظام العالم ونظام الحياة ، وعن شعوره بما يرضى حاجات روحه ويحقق آماله ، وصار مفهوم الألوهية محور كل تفكير فلسفي والفكرة العليا في العقل البشري .

وكان الوصول إلى هذه الفكرة ثمرة لمحاولات العقل الباحث من الحقيقة ، وهذا أدى إلى ما سُمي « علم الربوبية الطبيعي » Natural Theology أو « علم الربوبية الفلسفي » Philosophical Theology ، أي الذي تكون عند الإنسان المعتمد على ماله من ملكات النظر ، والذي صارت له صورة واضحة على يد فلاسفة اليونان (٢) ، وذلك في مقابل تصورات أخرى للألوهية ، خصوصاً علم الربوبية المبني على الوحي الإلهي والبحث فيه .

ويقدر ما تنوعت آراء الفلاسفة وأهل الأديان فيما يتصل بالإله وعلاقته بهذا العالم ، تنوعت في بيان الأدلة على وجوده . وبعض ذلك كان راجعاً إلى تنوع وجهات النظر في طبيعة هذا العالم نفسه .

والناظر في ذلك كله يتبين مقدار ما بدله العقل البشري من جهد في محاولة معرفة الحقيقة ، ومقدار عظم هذه الحقيقة ، سواء فيما يتعلق بمصدر العالم أو بالعالم نفسه .

ولا عجب أن يتحير العقل البشري ، الذي تقيده قيود كثيرة ، في تصووره للكائن الذي لا يشبه شيئاً معروفاً له ، وأن تقصر ملكاته عن الإحاطة بكنهه ، بل بكنه ما صدر عنه من أشياء لا تعرف حدودها وتكاد لا تعرف شيئاً من حقيقتها .

(١) أن الماديين الذين يزعمون أنه لا موجود إلا المادة التي تشاهدنا قليلون جداً بين المفكرين ، وهم في الحقيقة ، ليسوا أصحاب مذهب في تفسير الكون ، بل أصحاب رأي في طبيعة الوجود ، وهو رأي سطحي تصفي وغير نقدي ، لأن المادة كما نراها لا تفسر شيئاً ، وليست علة حقيقية لشيء . وهذا سيئين من كلاًهما فيما يلي . والمذهب المادي « لم يخرج قط فيلسوفاً من الفراز الأول » (راجع مكتبته A E Taylor في E.R.E دائرة معارف الدين والأخلاق ، مجلد ١٢ ص ٣٦٢ ، ج ١ .

(٢) كان التدين سابقاً على التأمل ، وقبل ظهور الفلاسفة اليونان كانت هناك ديانات منزلة معروفة وأخرى غير منزلة . ولا شك في أن فلاسفة اليونان عرفوا ذلك وانظمت عقولهم بالتدريج منه خصوصاً الأفلاطون ، لكن اليونان كانوا يوجه عام ، في تصوراتهم للألوهية وكلامهم عنها ، يستمدون على الملكات الفكرية الطبيعية .

والهم أن البحث في الآله أجل موضوعات النظر وأعضائها ، وأنه لم يتخلّ مذهب فلسفي أو علمي من تناوله بالبحث . وكانت محاولات إثبات وجود الآله أكبر ما شغل علماء الأديان ، ومن أهم ما تعرض له الفلاسفة والعلماء على السواء .

ومرجع ذلك إلى الأهمية الكبرى للموضوع في ذاته وإلى ما يترتب على الاعتراف بوجود الآله ، أو الإنكار له ، من نتائج نظرية وعملية تتوقف عليها قيمة كل شيء .

ومع أن الأمم ذات الحضارة الفكرية توجه عام ، وجميع أهل التفكير العميق التزّن ، متفقون على القول بصانع قادر حكيم ، صدرت عنه الأشياء ، وهو يدبرها على مقتضى الحكمة ، فإن الأمر لم يتخلّ من أفراد يتكروّن وجود هذا الخالق ، ويجدون من ينخدع بأقوالهم . وهم في الأغلب من غير المحققين في العلم بهذا العالم ، أو من الناكسين عن الاستجابة لما يطلبه العقل من تفسير نهائي وصحيح وشامل للكون والحياة ، أو من المخالفين للحق على علم به ، أو الذين لا يريدون أن يسيروا في تفكيرهم وحياتهم بحسب ما تقتضيه المعرفة بالآله وحكمته ، أو المتظاهرين بكياسة زائفة ، أو المغلوبين على أمرهم ، أو نحو ذلك من ظروف الإلحاد وأسبابه التي لا حصر لها .

ونظرا لأن الاستدلال على وجود الآله الحق ، سواء تفكر الإنسان في الكون أو رجع إلى التفكير في نفسه ، أشبه بالاستدلال المباشر الذي لا يدفع أساسه أو نتيجه إلا مكابر معاند لحكم العقل ، فإنه يمكن الشك في إخلاص المنكرين لوجود الله فيما يقولونه ، كأنهم يجحدون بشيء يؤمنون به في قرارة نفوسهم .

ولكن لما كان الكلام في إثبات وجود الله ، في الحقيقة ، تفسيراً للعالم ومسنداً للقيم ، فإن الموضوع يصبح بالضرورة نظرية علمية فلسفية من الطراز الأول ، ويتجلى ذلك من كلام العلماء المحدثين من وجود الله .

ولما كان الإيمان بالآله الحق هو أساس العقيدة في الأديان المنسلة فإن المفكرين المؤمنين سلكوا في إثباتهم لوجوده طريق العلم والفلسفة . ومما سهل ذلك في بعض الأديان ، وهو الإسلام ، أنه بنى الإيمان بوجود الله على أساس النظر العقلي في الكون والإنسان .

وعلى هذا فإن ذكر الأدلة على وجود الله ، سواء جارت على لسان العلماء والفلاسفة أو المؤمنين العلماء المتفلسفين ، هو ذكر الأدلة التي صدرت من العقل الإنساني من وحى تفكيره في مشكلة هذا العالم والوجود بوجه عام .

وهذا لا يتعارض مع استنارة العقول بالهدى الذي جاء من عند الله وكان العقل ميزانا وحافذا من الزلل في الحق الذي هو مصدر كل حق .

ومن الطبيعي لمن يتناول المشكلة أن يراعى الترتيب التاريخي ، فيبتدئ بالمفهوم الفلسفي للآلهية والأدلة الفلسفية عليها ، لأن ظهور هذه الأدلة كان سابقاً على ظهور أدلة المتفلسفين من علماء الديانات المنزلة من النصارى والمسلمين (١) .

(١) مع أن اليهودية أقدم من الفلسفة فإنه لم يظهر بين اليهود تلمذ إلا بعد ظهور الفلسفة اليونانية بقرون كثيرة وكان ذلك على يد فيلون الإسكندري (٢٠٠ ق.م - ٥٠ م) . فكتلاً نجد عنده نظراً عقلياً وتفسيراً علمياً فلسفياً لهذا العالم ، ولا أدلة نظرية لإثبات وجود الله ، بل نجد عنده تأويلاً رمزياً للتوراة ونزعات روحية صوفية ، فيها عناصر اللاهوتية مع دفاع من الدين . أما فلاسفة اليهود الكبار من أول نشوء التفكير الفلسفي بين اليهود إلى ظهور موسى بن ميمون (١٢٠٤ م) فإنهم نبهوا في ظل الحضارة العربية الإسلامية ، وهم ينتمون من الناحية الفلسفية إلى التيارات الكبرى في التفكير بين المسلمين .

ان بدايات « علم الربوبية الطبيعي (أو الفلسفي) » ، وكذلك ظهور الأدلة النظرية لآليات الاله تعالى ، كانت عند فلاسفة اليونان (١) ، وان كانت فكرة الالهية قد كانت معروفة من قبل ، خصوصا عند المنتسبين للديانات المنزلة .

واول ما نجد ذلك عند سقراط (ت ٣٩٩ ق . م) الذي تدل محاورات افلاطون على ايمانه باله حكيم كان يشعر بانه ، بطريقته بالتفكير وبأسلوب حياته ، يستجيب لنداء منه ، كما تدل روايات على أنه كان يستدل على وجوده مستندا الى ما في هذا العالم من نظام واحكام ، فهو في تاريخ الفلسفة في الغرب اول معتل لوجهة نظر تليولوجية أى غائية (Teleological Conception) فيما يتعلق بالكون والانسان .

فاذا نظرنا في مصنفات افلاطون ، خصوصا « الجمهورية » و « القوانين » وبعض محاوراته مثل : Theaetetus, Timaeos, Buthyphron, Phaedros, Politicos, Phaedon وجدنا محاولات جدية ذات صبغة فلسفية - دينية لبيان فكرة الالهية واقامة الأدلة على وجود الله ، ووجدنا بيانا لشخصية الاله التي ينسب إليها نظام الأخلاق ، ولقبول هذا العالم باعتبار أنه خير ، لصدوره من اله خير ، وذكر أفكار مثل : ان الاله هو « الراعى » وان البشر «غنمه» ، وان نفوس الاخيار في يديه ، وهى تصير اليه بعد الموت ...

ومن أدلة افلاطون على وجود اله ، الدليل الموجود في الكتاب العاشر من « القوانين » ، وهو مبنى على ظاهرة الحركة ، خصوصا الحركة الدائرية المنتظمة التي تتجلى في حركات الاجرام السماوية والتي لا يمكن ، بحسب تصور افلاطون ، ان تكون صادرة الا من نفس لها حركة ذاتية بها تحرك تلك الاجرام . واذن فهناك نفوس هى علل فاعلة ، ولما كان فعلها يجرى على نظام فهى علل عاقلة . وافلاطون يطلق في كلامه عنها لفظ Theoi (Gods = آلهة) ، لكنه كان في ذلك ، كما يرى بعض العلماء (٢) يصبر عما يناسب التصور الشعبي عند اليونان . اما هو فكان يرى ، كما يدل كلامه في محاوره طيماوس ، ان الاله واحد ، بدليل ان العالم واحد وأنه منظم .

وقد يمكن الاستدلال على ذلك بما يقوله افلاطون من مثال الجمال ومثال الخير في كلامه من عالم المثل الفارق لهذا العالم المحسوس .

فمثال الجمال فوق كل وصف ، وهو أزلي ابدى ، ومصدر كل الجمال المتفرق في الأشياء ، وهو منتهى ما يمكن ان تنزع اليه الارادة الانسانية (٣) .

ومثال الخير في قمة عالم المثل ، فوق كل وصف ، وهو منتهى ما يمكن تعقله : « هو الذي يعطى موضوعات المعرفة حقيقتها ويمطى الدوات العارفة القدرة على المعرفة . يجب عليك ان تعتبره علة المعرفة وعلة الحقيقة ، من حيث ان هذه يمكن ان تعرف . ومهما بلغ جمال المعرفة

(١) كان تلميذ اليونان اساس تطور الفكر الفلسفي الاكروبي . والفكر الفلسفي والديني في الاسلام له علاقة وليقة بالفكر اليوناني من حيث القول والتفند والرفع والتصحيح والكمال . ولذلك نهتم هنا بالفكر اليوناني . اما الفكر الديني والفلسفي عند ادم الشرق القديم والشرق الاقصى ، فانه ، الى جانب ما فيه من نفوس وما يحوزه من المنصر العلمي العقلي ، لم يكن له كبير شأن بالنسبة للفكر الديني عند الاسلاميين او للفكر الديني عند الاوربيين .

(٢) مثل تيلور Taylor في ERE مادة Theism ، مجلد ١٢ ص ٣١٣ ج ٢ .

(٣) القلبية ١٢١ - ١٢١٢

وجمال الحقيقة أن الخير أجل من ذلك بكثير . وكما أن الضياء قوة الإبصار شبيهان بالشمس، لكنهما ليسا الشمس ذاتها ، فكذلك المعرفة والحقيقة شبيهان بالخير ، لكنهما (لا الواحدة ولا الأخرى) ليسا ذات الخير وكما أن الشمس المحسوسة تجعل للأشياء صفة أن ترى ، وليس ذلك وحسب ، بل هي أيضا وأهبة الصيرورة والنماء والغذاء من غير أن تكون هي حادثة ، فكذلك الخير يجعل لموضوعات المعرفة صفة أن تعرف ، وليس هذا وحسب ، بل هو يعطيها الوجود والحقيقة ، على حين أنه هو فوق الوجود شرفا وقوة اعلم أن الخير والشمس ملكان : أحدهما على عالم المقولات ، والآخر على عالم المحسوسات » (١) .

وأفلاطون يصف مثال الجمال بأنه خير ، ومثال الخير بأنه جميل ، ويصف صانع العالم بأنه خير جميل . ويؤخذ من جملة كلامه، كما يستنتج بعض العلماء ، أن مثال الخير عنده هو الإله وأنه إله واحد .

لكن أفلاطون لا يفرق بين الإله وبين النفوس والمثل من حيث الماهية والحقيقة ، ولا يفرق الإله بالازلية ، بدليل أنه يقول بالزلية عالم المثل ، وبوجود ما يشبه مادة أزلية ، سماها : « القابل » (dekhomenon) أى القابل لتأثير المثل ، وهي أساس تشكل هذا العالم ، ويقول بنموذج سابق بحسبه صُنعت السموات والأرض .

وهو إذا كان في محاوراة طيمائوس يتكلم عما يسميه « الصانعين » (Demiurges) فإن هذا الصانع ليس مبدا بالمعنى الحقيقي ، وإنما هو يصنع من شيء موجود - ويؤخذ من كلام أفلاطون أن هناك مبادئ كثيرة تشترك في صنع العالم . وهذا كله يشوب التوحيد عند أفلاطون ، ويجعل أمر الإله في تفكيره ملتصبا غامضا . ثم أن تصور هذا العالم كائنا حيا له نفس كليسة بواسطتها يؤثر عالم المثل في عالمنا لا يستند إلى أساس علمي .

مهما كان الأمر فإن أفلاطون يقول بوجود إله حكيم يعلم الخير . وفعله مشابه له ، فهو الذى ينظم كل شيء ويعنى بالعالم . ويقول بعالم غير مادي فوق عالمنا ، منه جاءت النفس الإنسانية وإلى بصير بعد الموت في حياة أخرى خالدة . وهذا كله يكون وجهة نظر دينية أخذ أفلاطون عناصرها من مصادر شتى لا داهي للكلام فيها . وكل تصوره للإله والكون ، رغم ما فيه من نزعات عقلية وروحانية ، مشوب بعناصر القصة والأسطورة .

لكن المهم أنه حاول إثبات وجود صانع مدبر ، مستندا في ذلك إلى النظر في العالم ، وجمع في برهانه ، كما لاحظ تيلور (٢) ، بين الدليل المبنى على ما نشاهده في الأشياء من حدوث وتغير يدل على استنادها إلى مؤثر وبين الدليل المبنى على ملاحظة الارتباط والمقابلة في نظام الكون .

فدليله ليس من النوع الاستنباطي المبنى على الأوليات ، « هو ليس أوليا a priori » بل هو دليل مبنى على التجربة (argumentum a posteriori) يسير من صفة معلوم معلوم إلى صفة علته . فوجود عالم من أشياء متغيرة ، وكون مايجرى في عالم التغير هذا ينبئ على نحو متزايد شيئا يكشفه لنا النظر العلمي ، وهو خضوعه لقوانين يدركها العقل ، كل ذلك يعتبر حقائق نعرفها بالتجربة ، والدليل لا ينهض بدون هذه المقدمات التجريبية » .

(١) الجمهورية ، ص ٥٠٦ - ٥٠٩ ، حسب فشرة بگر .

(٢) E R B ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

أما دليل أفلاطون المبني على نظريته في المثل ، وملخصه أن تفاوت هذه الأشياء المحسوسة في صفاتها يدل على أن صفاتها ليست ذاتية بل هي ناشئة عن مشاركتها في شيء تكون له الصفات ذاتية وكاملة ، وهو عالم المثل الذي رباطه مثال الخير ، فهو يستند إلى ملاحظة صحيحة ، لكن أفلاطون لم يحسن الاستنتاج منها (١) .

أما أرسطو فقد استدل على وجود الآله ، كما استدل استاذُه ، مبتدئاً من النظر في العالم وما فيه من تغير وحركة .

هو يقول من جهة أن هذا العالم مسرح للتغير والصيرورة ، والتغير عبارة عن أن شيئاً « بالقوة » ، أى في حالة « الإمكان » ، يخرج إلى حالة « الفعل » ، أى « الوجود المتحقق » . وهذا لا يكون إلا بشرط وجود شيء يكون « بالفعل » . ولما كان التسلسل ، أعني رجوع الشيء إلى ما قبله وهكذا إلى ما لا نهاية له في الماضي (infinite regress — regressus in infinitum) ، مستحيلاً ، فإنه ينحتم الانتهاء إلى شيء موجود بالفعل دائماً ، وهو العلة الأولى .

ومن جهة أخرى هناك الحركة الدائرية المنتظمة التي نشاهدها في نظام الأفلاك . وأرسطو يرد إلى فعل النفس ، لكنه يرى أنها ليست مجرد حركة ذاتية بل هي حركة عن « شوق » (appetition — orexis) نحو شيء تدركه النفس ، وبذلك تكون النفس عقلاً (nous) . وهذه الحركة وإن كملت في رأي أرسطو أزلية أبدية ، فإنها لا بد أن ترجع إلى « محرك أول غير متحرك » (Unmoved Mover) .

وأرسطو يقول « بمحركات أول » بقدر عدد الأفلاك كما تصورهما ، لكن هناك فلكا محيطيا بها جميعاً ، وهو فلك النجوم الثابتة أو « فلك الثوابت » ، كما عبر العرب . وهو يحرك كل ما فيه : فهو المحرك الأول غير المتحرك بالمعنى الحقيقي المطلق . وأرسطو يسميه الآله (٢) ، وهو واحد أزلي أبدي لا يتغير . والعالم كائن حي واحد يتحرك من الأول إلى الأبد حركة عشق للمحرك الأول ونشبهه به .

ويضيف أرسطو لآله صفات كثيرة ، بعضها لا يخرج له من أسس نظريته ، وبعضها استحسان منه بلا دليل .

فهو مثلاً يبنى على فكرة أن المحرك الأول غير متحرك ، وأنه ثابت لا يتغير ، فكرة أنه لا يعلم إلا ذاته ولا يعقل غير ذاته ، فلا يعلم أحوال الأشياء لأنها متغيرة . فحياته عبارة عن تعقل دائم لذاته أو هي كما يعبر أرسطو « تعقل لكونه عاقلاً » (noesis noesios) . وقد فهم أرسطو من العلم العلم الكسبي الانفعالي الذي ينشأ عن التأثر بالمعلوم ، ولم يصل تفكيره إلى العلم الفعلي الذاتي الذي توجد الأشياء طبقاً له ، وهو علم واحد يحيط بها في جميع أحوالها .

وهو يصف الآله بأنه متلذذ لذة « بسيطة » وأنه مبتهج سعيد (٣) . ولا يضيف إليه صفة القدرة أو الإرادة .

(١) انظر أدلة وجود الله عند الطاهر بن طاهر القمصاني فيما يلي .

(٢) Metaphysics ١٩٠٧٢ إلى ١٩٠٧٣ . Physics ٢٥٨ ب س ١٠ فما بعده

(٣) الأخلاق إلى نيقوما خوس ١١٥٢ - ١١٥٤

لئلا له عنده « عقل مفارق للمادة » أو « صورة خالصة » (١) . ولما كان أرسطو يقول بهيولي
أولي ازلية « وبصور » ازلية أيضا وبأن المادة تحركت من نفسها عن شوق إلى المحرك الأول ونزوع
نحو الوجود الكامل، فإن الله عنده لا يمكن أن يكون خالقا لشيء ، وهو لما كان لا يعلم الأشياء فإنه
لا يمكن أن يكون له في العالم تدبير ولا عناية .

ويؤخذ من كلام لأرسطو (٢) أن المحرك الأول موضع تقديس وعبادة ، لكن كيف يتسنى
ذلك ، وهو لا يعلم من أمر الإنسان شيئا ، هذا الإنسان الذي تصدر أفعاله عن عقل وضمير وقدره
واختيار فلا بد له من الله يعلم نواياه ويقدرها ويجازيه عليها .

الحق أنه يخيل للإنسان أن أرسطو تصور شخصا روحانيا كاملا ورفعته إلى مرتبة
الألوهية (٣) ، لكنه جرده من الصفات التي تجب للاله الحق كالقدرة والإرادة والعلم ... الخ .
وكان قصده بذلك أن ينزه الله عن العلم بالأشياء التي دونه أو بالأشياء المنفردة ، فجعله جاهلا
بكل شيء .

فإذا كان أفلاطون ، نظرا لقوله بالله يعني بالعالم وبالإنسان ، قد يعتبر مؤسسا للمذهب في
التأليه يتضمن هذه المعاني وهو ما سمي Philosophical Theism ، فإن تلميذه أرسطو ، نظرا
لقوله بالله هو مجرد علة ، ولا شأن له بالعالم وما فيه ، يعتبر مؤسسا للمذهب في التأليه يشتمل
على هذه الأفكار ، وهو ما سمي Philosophical Deism

على أن تصور كل من أفلاطون وأرسطو للاله لا يمدو القول بأنه موجود أو علة مؤثرة على نحو
ما ، وهما لا يفردان الله بمعنى خاص به ، لا من حيث الماهية والحقيقة ولا من حيث الوجود
الازلي الأبدى الذي يليق بالوجود المنزه عن مشابهة غيره من الموجودات . وتصورها للاله
لا يفسر هذا العالم تفسيراً كاملاً ، لا من حيث أحواله وأظهاره إلى الوجود ولا من حيث تعليل ما
فيه من صنع بدیع ونظام محكم ، ولا من حيث النهاية من ظهوره ، وخصوصا ظهور الإنسان .

ومن تصورات الألوهية التي يمكن أن تذكر عن العصر القديم تصور الفلاسفة الرواقيين (٤)
Stoics ، لأن له صبغة خاصة .

مند الرواقيين أن العالم كل كبير منظم مرتبط الأجزاء ، وهو كائن حي كبير خاضع لقوانين ،
فيه غاية شاملة وحتمية أو ضرورة (ananke) شاملة أيضا ، فلا محل فيه لما يسمى الصدفة .
وهناك أيضا قدر لا مفر منه heimarmene

(١) للقصود بالصورة الوجود الانمادي .

(٢) Ethica Eudemea ، ١٢٤٩ ، ج ٢ .

(٣) يقول تيلود أن تصور أرسطو للاله هو « ما يتبنى أرسطو أن يكونه لو أن ظروف الحياة الإنسانية تسمح
بذلك ، وهو أن يكون مجرد مفكر علمي متمرد في نفسه ولا صلة له بالطبيعة »

(٤) مؤسس المدرسة الرواقية زينون Zenon (بين ٣٦٠ و ٢٦٠ ق م تقريبا) ، وكان تلميذه وخليفته هو
كليانتيوس Cleanthes صاحب الإنشودة المشهورة في التوحيد والوجهة إلى زيوس ، وخلفه كريسبوس
Chrysippos الذي كان مؤلفا كبيرا وقد عاشت المدرسة الرواقية إلى ما بعد الميلاد بقرون .

وعلة هذا المالم مقل logos كلى ، هو الاله ، وهو سار immanent في الكون ، كالبدرة التي تنفتح وتصور شجرة logos spermaticos ، وهذا العقل الكلى يشمل جملة القوى البدرية logoi spermaticoi التي تنفرع منه ، ولكل منها خاصة تجعل للمادة التي تسرى فيها كيفية معينة .

وكل شيء مظهر للاله ، وفيه المبدأ الالهى والعقل ، والاله ليس مجرد القوة التي تبعث الحياة بل هو عقل الكل logos toti pantos ، هو العناية الشاملة ، وهو حكيم كامل ، وهو أساس القانون الطبيعى الذى يأمر بالخير وينهى عن الشر ، هو يثيب ويعاقب ، هو كائن حى سعيد الخ .

ويسمى الرواقيون الاله بأنه « نار صائمة تسير بنظام نحو تكوين العالم محتوية في ذاتها على كل القوى البدرية التي بحسبها تظهر الأشياء على نظام الضرورة » (١) .

لكن الرواقيين يقولون أن كل موجود لا بد أن يكون ماديا جسمانيا ، ويؤيدون رأيهم هذا بأن يزعموا أن ما ليس ماديا لا يمكن أن يفعل ولا أن يفعل . وعلى هذا لا بد أن يكون المبدأ الالهى في نظرهم ذا طبيعة مادية ، وأن كانت بالضرورة طبيعة مادية لطيفة إذا قورنت بالطبيعة المادية الكثيفة .

إن مذهب الرواقيين عبارة من قول بوحدة وجود يسرى فيها المبدأ الالهى Pantheism فالاله ليس منفصلا عن العالم المادى ، كما هو منفصل عنه في مذهب أرسطو أو أفلاطون ، بل نسبة الاله إلى العالم المادى كنسبة القوة إلى مظهرها ، أو كنسبة الفاعل إلى محل فعله ، أو كنسبة الروح إلى الجسد ، لكن من غير فصل بين الطرفين . فالعالم إذا نظرنا إليه من جهة القوة الفاعلة الثابتة فهو الاله وإذا نظرنا إليه من جهة القوة المتفعلة الثابتة فهو المادة .

فها هنا مثال من تصور الالهية ومن الواضح أنه تفسير للكون رغم ذكر اسم الاله والمبدأ الالهى . ويخيل للمتفكر في مثل هذه التصورات أن الاله قوة ما مؤثرة في الأشياء .

نعم إن الاله بحسب التصور الصحيح ، موجود قادر فعال ، لكنه لا يدخل في تركيب العالم ولا يتقيد به ولا ينحصر فيه ، وما ذلك إلا لأن العالم أثر وفعل ، فله فاعل . لكن الفاعل أكبر من فعله ومغاير له من كل وجه ، ولولا ذلك لما كان فاعلا له . وكل زعم بأن المبدأ الفاعل في الكون متفرق فيه وأنه أجزاء سارية في الأشياء ، زعم لا يرتفع إلى مرتبة التفكير الفلسفى ، لأنه يفضي إلى استحالة تفسير العالم تفسيراً حقيقياً . هذا إلى ما فيه من خلط بين الملة والمعلول أو بين الفاعل وفعله .

وإذا لاحظنا أن الرواقيين يتصورون أن العالم كائن حى له عقل وجسد ، وأن كل شيء في العالم مثل لكل ، وأن الاله أشبه بوعاء شامل لآلهة مثله ، أو بوعاء كل شيء يخرج منه ويرجع إليه ، استطعنا أن نقطع بأن تصور هؤلاء الفلاسفة للعالم وموجده لا يتجاوز القياس على ما نشاهده من أحوال الإنسان ، ولا يتجاوز التصور الحسى .

والحق أن الرواقيين كانوا يتصورون الكون عالماً كبيراً Macrocosm وذلك في مقابل الإنسان الذى هو العالم الصغير Microcosm . ونفس الإنسان تشبه في ماهيتها العقل الكلى وجسده يشبه جسم الكون .

الايان بالله في عصر العلم

اما دليل الرواقين على وجود الله فهو ليس دليلا من النوع الذى تقدم ذكره . وهو يمكن ان يفهم في ضوء نظرهم الى الافكار والآراء السائدة بين الناس .

فمن هذه الآراء ما يكون خاصا بافراد او جماعات معينة ، فهي نتيجة لظروف فردية او ثقافية او اجتماعية خاصة .

ومنهما ما يكون ذاتيا مشتركا بين الناس على اختلاف البيئات والظروف والأحوال ، كان العقول السليمة أجمعت عليها . وهذا الدبرع يدل على انها صادقة .

هذه هى نظرية « أجماع الامم » Consensus Gentium التي بنى عليها الرواقيون دليلهم على وجود الله .

فبما ان جميع الامم تؤمن بوجود آلهة او اله يدبر الكون ويعنى بالانسكان ، فلا بد ان يكون هذا الايمان صحيحا لان العقول انتهت اليه .

ومن الواضح ان هذا ليس دليلا بالمعنى الدقيق ، وان كان يشير الى اقتناع اصيل في نفس الانسكان بوجود خالق مدبر وهو ربما كان ناشئا من تفكير باطن مبهم وغير مفصل .



ومن تصورات الالهية ذلك التصور الذى نشأ عند اصحاب الافلاطونية المحدثة (Neoplatonism) التى يرجع تاسيسها الى افلوطين (ت. ٢٧٠م)

الاله في هذه الفلسفة هو المبدأ الاول التعالى عن ملابسة المادة ، السابق لكل شىء ، والذى صدر عنه كل شىء ، وهو فوق كل المفهومات حتى مفهوم الوجود والخير والجهوهر .

وعلاقته بالعالم هي انه علة للعالم لا بمعنى انه سابق على العالم بالزمان ، بل بمعنى ان العالم صدور أو فيض (Emanation) أقل كمالاً من المبدأ وان معنى صدور الاشياء عن الاله ، او « الواحد » او « الاول » كما يسمون ، هو انها تستند في وجودها اليه ، وان كانت مظاهر متدرجة للكمال الذى لا يزال يتناقص كلما نزلنا في المراتب .

والاشياء تفيض من الاول لانه خير ، واول المراتب عقل nous وتفيض من العقل نفس ، والاجسام التى نشاهدها في العالم هي صور images او مظاهر Appearances او ظلال للنفس ، واخيرا تأتى المادة الاولى prote hyle التى هي « ظل الظل » .

وهذه الاشياء الصادرة عن الاول ترجع نحوه بالتأمل وتنزع الى الاتحاد به لانه خير . فالنفس تعرف ذاتها بتأملها للعقل ، والعقل يعرف ذاته بتأمله للاول .

وهكذا تكون الموجودات كلها وحدة تصدر عن الواحد وتستند اليه وتأمله ، والاول هو الشامل لها .

هذا تصور للكون وعلمته ، ولا شك أنه تفسير للكون لا يستند الى مبادئ عقلية يستتبع منها ، ولا هو نتيجة لنظر علمي في هذا العالم . ويمكن القول انه خيال فلسفي جاء نتيجة لنزعات صوفية . ولا توجد مقعدة عقلية او حسية واحدة يمكن ان تستند اليها قضية واحدة مما يقوله القوم .

وان كل كلام عن الآله وعن ادلة وجوده يجب ان يبدأ من النظر في هذا العالم المائل امامنا ، في ضوء الحس والعقل . وكل بداية اخرى ، مثل الاستدلال من المفهومات او المبادئ الالهية ، فانه يمكن إثارة الاشكالات عليها ، كما سنرى .



كان للفكر اليوناني ، ممثلا في المذاهب التي تقدم ذكرها ، تأثيره وصداه في الآراء التي ظهرت بعد ذلك .

وكان ظهور المسيحية واختلاط عناصر من الفلسفة بتصورات علماء العقائد والمفكرين المسيحيين مجالا لظهور آراء في الالهية ، لا نعرض لها هنا ، ولحاولات للبرهنة على وجود الله .

وأول كلام له وزن فيما يتعلق بالبات وجود الله هو ما نجده عند القديس أوغسطين St Augustin (ت ٤٣٠ م) .

وهو يستدل على وجود الله من النظر في هذا العالم المحسوس الذي يدل تنبره على انه مخلوق ، وبذل نظامه البديع على انه مصنوع (١) .

غير ان أوغسطين يذكر الى جانب هذا الاستدلال المستند الى الحس والعقل دليلا يصدر فيه من نزعات افلاطونية - افلوطينية . وهو يبني دليله على يقيننا بالقضايا البديهية الرياضية والمنطقية والقضايا التي يوجها العقل والضمير ، مثل وجوب طلب الحكمة والامتثال للفضائل من العدل والشجاعة والعفة .

ويقول ان هذه القضايا يقينية في ذاتها ، وهي ليست من صنع عقلنا ، لانها قانون ثابت لا يتغير يحكم عقلنا ويعلو عليه ، فلا بد ان تكون تلك القضايا موجودة في شيء يكون هو الحق المطلق ، وهو الآله .

وقد يكون هناك وجه لما يذهب اليه أوغسطين من انه ، اذا كانت هناك حقائق وقيم مستنوعة ، فلا بد ان تشير هذه الحقائق والقيم الى حق مطلق يكون هو المعيار الثابت لكل الحقائق والقيم وهو الآله (٢) .

لكن هذا الدليل غير محكم وهو لا يؤدي الى مفهوم واضح وكامل للالهية ، وخصوصا ان أوغسطين سار مع تصورات خيالية مثل قوله : ان مثل الأشياء ونماذجها التي قال بها افلاطون

(١) للقديس أوغسطين كلمات في ذلك ، ذكرها يوسف كرم في كتابه « تاريخ الفلسفة الايوبية في العصر الوسيط » القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ ص ٣٣ .

Messer (A.) : Geschichte der Philosophie, I, p. 114 — 115, Leipzig, 1930

موجودة في العقل الالهي ، واعتبرها نماذج معقولة يخلق الاله الأشياء على مثالها وطاقت روحانية نورانية تشرق في النفس الإنسانية وتساعد على ادراك أصول الماهيات والحقائق .

على أن أوغسطين يرى أن ذات الاله لا يمكن ادراكها بالمفاهيم الإنسانية ، فهو « يعرف بأنه لا يعرف » . وهو قد خلق الأشياء عن لاشيء بفعل ارادى حر . ومعنى هذا أنه يرفض ما ذهب اليه افلاطون وأرسطو من وجود هيولى قديمة الى جانب علة العالم ويرفض القول بالصدر Emanation على ما هو معروف في الافلاطونية المحدثة Neoplatonism



على يد القديس آنسلم Anselm رئيس أساقفة كنتربري (ت ١١٠٩ م) ، والذي كان معاصرا للقرن الثاني (٥٠٥ هـ - ١١١١ م) نجد تحولا في طريقة اثبات وجود الاله .

فمع أنه في كتابه الذى عنوانه Monologion يحاول اثبات وجود الاله مستندا الى فكرة افلاطونية هي القول بتفاوت الأشياء في الوجود والخير والكمال وبأن الأشياء المتفاوتة في الكمال تستمد وجودها من مشاركتها في ميذا واحد هو أعلى منها ، وهو الاله ، فإنه يريد اثبات وجود الاله على أساس استنباطي . وفكرة الألوهية هنا هي التى يقدمها لنا الوحى .

فهو في كتابه بيمون Proslogion (١) يشير الى أن « الجاهل يقول في قلبه : ليس اله » (٢) وبين أن هذا الجاهل الذى ينكر وجود الاله قد لا يعقل المقصود من هذه الكلمة ، ولذلك يوضحها آنسلم بأنها تدل على « الشيء الذى لا يمكن تصور شيء أعظم منه » (quo maius cogitari nequit)

فإن كان الجاهل المنكر لوجود الاله لا يعقل معنى الألوهية ، فهو لا بد يدرك معنى « الشيء الذى لا يمكن تصور شيء أعظم منه » . فإذا كان يدرك هذا المعنى ، فإنه لا يمكن أن ينكر وجود الاله . والدليل الذى يقدمه آنسلم يسير على هذا النحو :

نحن نتصور ونعقل وجود كائن لا يمكن تصور ما هو أعظم منه . لكن هذا الكائن لا يمكن أن يكون في الدهن in intellectu فقط ، لأنه إن كان كذلك فنحن نستطيع أن نتصوره موجودا في الحقيقة in re ، أى خارج الدهن . وهو في هذه الحالة يكون أعظم .

واذن ، فلو كان الكائن الذى لا أعظم منه موجودا في الدهن فقط فلكاننا نقول : ما لا يتصور أعظم منه يمكن أن يتصور أعظم منه ، وهذا تناقض .

وعلى هذا فالكائن الذى لا أعظم منه لا بد أن يكون موجودا في الدهن كمفهوم وخارج الدهن كشيء حقيقي موجود بالفعل .

هذه هي صورة الدليل المسمى : « الدليل الانطولوجي » أو « الدليل الوجودي » (Ontological Argument) الذى صار مشهورا منذ أيام آنسلم ، والذي يقوم على :

١ - تحديد تعريف للألوهية ، وهو تعريف مبهم ، بصرف النظر عن تشكل بعض العلماء (١) في أن يكون له معنى ، لأنه يشبه قول القائل مثلاً : « عدد لا يمكن أن يتصور عدد أكبر منه » . فهل مثل هذا العدد موجود في الدهن ؟ كذلك الحال بالنسبة لمفهوم الشيء الذي لا يمكن تصور ما هو أعظم منه .

٢ - القول بأن الوجود الذهني وجود ما ، لكنه أدنى من الوجود المتعين خارج الدهن .

٣ - إمكان الاستدلال من الوجود الذهني على الوجود الخارجي أو من تصور شيء على وجوده بالفعل ، وهذا ما كان موضع اعتراض منذ أيام آتسلم نفسه .

فقد تقدمه مفكر معاصر له هو جاونيلسون Gaunilon (٢) على أساس أن تصور الشيء أو القضية لا يدل على أن الشيء موجود بالفعل أو على أن الحكم الذي تتضمنه القضية حكم صحيح ، وعلى أساس أن الاستدلال من الوجود الذهني ، وهو وجود متصور ، على الوجود بالفعل ، وهو وجود متحقق ، غير جائز ، كما أنه لا يجوز مثلاً الاستدلال من تصور جزيرة سعيدة في وسط المحيط مملوءة بالثروات على وجودها بالفعل .

وقد حاول جاونيلون أن يضع تعريفاً آخر لمفهوم الآله ، وهو أنه : الكائن الذي هو أكبر من كل ما يمكن تصوره ، ويبدو أنه حتى هذا التعريف لا ينتج شيئاً إلا إذا أبتنا أولاً أن مقابلته موجود بالفعل ، فاما استنتاج واقع من فرض فهو غير جائز .

وقد وضع دانس سكوتوس John Duns Scotus المفكر الانجليزي (ت ١٣٠٨) (٣) صيغة أخرى لتعريف الآله ، وهي أنه : « الشيء الذي يمكن تصوره بدون تناقض ، لكن لا يمكن تصور ما هو أعظم منه إلا مع الوقوع في التناقض » .

لكن هذا كله لا يقدم الاستدلال في شيء .

على أن آتسلم رد على جاونيلون بأن الانتقال من الوجود الذهني الى الوجود الحقيقي لا يجوز إلا فيما يتعلق بالكائن الذي لا يمكن أن يكون هناك أعظم منه . فتصور جزيرة سعيدة لا يتضمن ضرورة داخلية لوجودها ، على حين أن فكرة الألوهية لها وحدها خاصة أننا لا يمكن أن نتصور أن مدلولها غير موجود .

لكن هذا انزاع غير مقنع ، لأنه لا يمكن الانتها . الى أنه يستحيل تصور أن الآله غير موجود إلا على أساس آخر مثل أن يقوم الدليل العقلي على وجوده بالاستناد الى النظر في هذا العالم أو نحو ذلك .

وظل « الدليل الوجودي » موضع خلاف بين الفلاسفة ، فمنهم من قبله ومنهم من رفضه .

فقد رفضه أكبر علماء العقائد في العصور الوسطى ، وهو القديس توماس الاكوينسي Thomas Aquinas (ت ١٢٧٤) ، معتبراً أنه مسفطة .

(١) مثل ليون Taylor في E.R.B. مجلد ص ٣٨

(٢) في رسالة له بعنوان Liber pro insipiente = كتاب للدماغ من الجاهل

(٣) راجع E.R.B. ، مجلد ١٢ ص ٢٧٠

وكان توماس يرى ، كما رأى متكلمو الإسلام قبله (١) يوجه عام ، أن المعرفة بالله ليست بدائية ، أو « ضرورية » كما يقولون ، يقصدون أن العقل لا يمكنه إنكارها .

وهو يقول أننا في هذه الحياة ، لا نترك الحقيقة الإلهية . ويرد على أتسلم بأن يذكر أنه ليس من الواضح أمام عقلنا ذلك « الشيء الذي لا يتصور ما هو أعظم منه » وأن كل ما يمكن أن نستنتجه من هذه العبارة هو أنه لا تناقض في تصور ما تدل عليه .

والهم أن توماس يرفض الأدلة الأولية أو البديعية *a priori* أو : القبلية ، كما يعبر بعض المحللين ، يقصدون أنها لا تعتمد على « التجربة » ، بمعنى الاستدلال من شيء نلزمه بحواسنا .

وهو يذكر (٢) خمس طرق لاثبات وجود الله ، على أساس التجربة .

١ - طريق الاستدلال بالحركة Motion المشاهدة في هذا العالم . واستدلاله لا يخرج عن استدلال أرسطو الذي تقدم ذكره .

٢ - طريق الاستدلال بالعللة الفاعلة Efficient Cause

فنحن نلاحظ فيما حولنا عللا فاعلة ، لكننا لا نلاحظ أن شيئا منها يحدث ذاته ، بل له عللة . ولا يمكن الارتقاء في سلسلة العلل الفاعلة إلى ما لا نهاية بل لا بد من الانتهاء إلى عللة أولى وإلى فاعله لا يوجد شيء ، لأن كل عللة فاعلة سابقة هي عللة لما يليها ، فلا بد من الانتهاء إلى عللة فاعلة لا عللة لها ، وهي الإله .

٣ - طريق الاستدلال بمفهوم الممكن والواجب :

نحن نرى أشياء تحدث وتزول ، فهي يجوز أن تكون موجودة ، ويجوز ألا تكون موجودة ، ولا يمكن أن تكون موجودة دائما .

فلو كان كل شيء موجود يمكن أن لا يكون ، لكان هناك وقت فيه لم يكن شيء موجودا . ولو كان هذا صحيحا لما كان هناك شيء الآن ، لأن ما ليس موجودا لا يصير موجودا إلا بفعل شيء موجود .

وعلى هذا لا تكون الأشياء كلها مجرد «ممكّنات» ، بل لا بد أن يكون بينها شيء « واجب » . وهذا الواجب إما أن يكون وجوده واجبا إلى غيره أو لا يكون .

فإن كان واجبا إلى غيره فإن هذا لا يمكن أن يتسلسل ، بل لا بد من الانتهاء إلى واجب بذاته *Per se* ، وجوده لا يرجع إلى غيره ، وهو عللة كل ما عداه ، وهو الإله .

٤ - طريق الاستدلال من ملاحظة تفاوت الأشياء في صفات الحق والخير والشرف ونحوها . فهذا التفاوت معناه أن الأشياء تتفاوت في قربها من شيء له هذه الصفات على أعظم ما تكون .

وإذاً فهناك شيء هو الأعظم حقا وخيرا وشرفا والأعظم وجودا *Maxime ens* ، لأن الأعظم من حيث هو حق هو الأعظم من حيث هو موجود .

(١) هو قد عرف مذهبهم وتأثر بها من وجوه شتى - راجع بحثا فيما للمستشرق والراهب الإسباني آسين بلالوس Asin Palacios, Un aspecto inexplorado de los orígenes de la teología escolástica, Bibliothèque Thomiste, II, 1930

(٢) في كتابه Summa theologiae ، القسم الأول المسألة الثانية ، فقرة ٣ .

وهنا يشير توماس الى قول أرسطو في الكتاب الثاني من « ما بعد الطبيعة » (١٣٣ ب ٢٧ - ٣٠) .

« ان ما هو حق على الوجه الأعظم هو علة الحق في الأشياء الأخرى التي هي حق ويكون للشيء من الوجود بقدر ما يكون له من الحق »
ثم يقول :

« ان ما يوصف في جنس من جنس الأشياء بأن له صفة على أعظم ما تكون هو علة كل الأشياء التي من ذلك الجنس واذن يوجد موجود هو بالنسبة لكل الأشياء علة وجودها وخيرها وكمالها ، وهو الذي نسميه الإله » .

٥ - طريق الاستدلال من « تدبير الأشياء » (ex gubernatione rerum) ، أى من ملاحظة ان الأشياء الجمادية التي لا عقل لها تعمل متمشية مع غاية ، بدليل أنها تعمل على نحو واحد ، بحيث تحقق ما هو أحسن . ومن هذا ينتج أنها تحقق غايتها ، لا على سبيل المصادفة بل على سبيل القصد . لكن الكائنات التي لا عقل أنما تحقق غاية إذا كان لها مدبر عاقل (١) .
واذن ، يوجد موجود عاقل رب الأشياء الطبيعية نحو غاية ، وهذا هو الذي نسميه الإله .

ونلاحظ أن من أدلة توماس ما يرجع الى أرسطو أو أفلاطون ، ومنها ما يقوم على تحليل الحوادث الظاهر في الطبيعة ، سواء من حيث ضرورة وجود علة فاعلة أولى أو واجب وجود . وأدلتها بوجه عام كما لاحظ تيلور بحق (٢) ، تستند الى مبدأ العلية ومبدأ استحالة التسلسل في العلل وضرورة الانتهاء الى علة أولى ، وهما مبدأان يؤيدهما العقل .

لكن بعض استدلاله لا يقوم على ضرورة عقلية ، مثل قوله بأن « ما يوصف في جنس من جنس الأشياء بأن له صفة على أعظم ما تكون هو علة كل الأشياء التي من هذا الجنس ... الخ »

فالتبعية لا تلزم من المقدمة ، لأنه يجوز أن تكون تلك الأشياء كلها معلولة بعلة خارجة عن الجنس ومخالفة لكل ما فيه . وهذا موجود في عالم المادة وعالم الحياة ، فالأشياء تتفاوت في صفاتها ، وبعضها له من الصفة المشتركة أعظم نصيب ، ولكنها كلها معلولة .

والإله الحق ليس مجرد كائن يشارك الموجودات في صفة ، ثم كل ما في الأمر أنه أعظمها حظا من تلك الصفة ، بل ان ذاته مخالفة للأشياء ، وصفاته مخالفة لصفات الأشياء ، رغم الاشتراك في التسمية ، والافاق لا يمكن أن يكون موجدا لها .



ثم جاء أبو الفلسفة الحديثة في ناحيتها النظرية ، وهو الفيلسوف الفرنسي ديكارت René Descartes (١٦٥٠ م) بأدلتها لإثبات وجود الله .

ومن هذه الأدلة ما يربط بالتراث السابق ، مثل الدليل المزدوج الذي يستند الى وجود فكرة في عقلنا عن كائن لا نهاية لكماله ، وهو الإله . وهذه الفكرة يستنتجها ديكارت استنتاجا منطقيًا من ادراكه لنفسه أنه كائن محدود غير كامل .

(١) يشبه هذا الدليل ابن رشد - راجع ما على ص ١٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٣٧ .

وهو بعد أن يقول أن مفهوم « اللانتهائي » Infini في ذهننا ليس مجرد نفى Négation لفهوم « التناهي » Fini ، بل هو متقدم في اللذهن على « التناهي » - يقول :

« كيف كان يمكن أن يتسنى لي أن أشك أو أرقب في شيء ، أعني أن ينقصني شيء وأن أكون غير كامل ، لو لم يكن في عقلي فكرة من كائن أكمل مني ، بالقياس إليه أعرف نقائص طبيعتي ! » (١)

ويؤكد ديكارت أن فكرة الكائن الذي لانهاية لكماله لا ترجع في وجودها إليه ، لأنه غير كامل وهي ليست مكتسبة من الأشياء التي يعرفها ، لأنها كلها محدودة وغير كاملة ، ولا هي مصنوعة بتوهم الكمالات التي يعرفها وتكبيرها ، لأن ذلك لا يعطينا فكرة اللانتهائي ، فلا يمكن أن يكون مصدرها إلا الكائن الكامل ذاته .

وعلى هذا الأساس يضع ديكارت لآليات وجود الله دليلاً يمكن إجماله على هذا النحو :

في عقلي فكرة من كائن كامل لانهاية لكماله ، وبما أنني لا يمكن أن أكون أنا الذي أوجدتها في عقلي ، ولا هي ترجع إلى الأشياء ، ولا هي من وضع قوة التخيل ، فانه لا يمكن أن يكون الذي أوجدتها إلا الكائن الكامل الذي أوجدني . يقول ديكارت (٢) .

« لا شك أنه لا ينبغي استغراب أن يكون الإله ، إذ خلقني ، وضع في عقلي هذه الفكرة لتكون « ماركة » (طابع) (Marque) الصانع على ما صنع . وليس من الضروري أن يكون هذا الطابع مغايراً للصنع ذاته : بل أنه بمقتضى أن الإله خلقني فمن المقبول جداً أنه خلقني بوجه ما على صورته وشبهه وإنني أدرك هذه المشابهة (التي تتضمن فكرة الألوهية) بنفس المكة التي أدرك بها ذاتي . . . وكل قوة الدليل الذي اصطنعه هنا لإثبات وجود الله تتلخص في أنني أدرك أنه يستحيل أن تكون طبيعتي ما هي عليه ، أي أن تكون في عقلي فكرة وجود الله ، لو لم يكن الإله موجوداً حقيقة ، هذا الإله ذاته الذي فكرته في عقلي ، أعني الذي له كل هذه الكمالات العالية التي يستطيع عقلاً أن تكون لديه فكرة منها ، لكن من غير أن يحيط بها جميعاً » .

ويحدد ديكارت مفهوم الإله بأنه « جوهر لانهاية له ، أزلي أبدي ، لا يتغير ، قائم بذاته عليم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، هو الذي خلقني وخلق الأشياء الموجودة كلها » (٣) .

وهو يقول أن فكرة الإله ، أو الكائن الذي لانهاية لكماله ، واضحة متميزة ، أوضح من فكرة الجوهر Substance بل هي أوضح فكرة في ذهنه وفيها من الحقيقة الموضوعية réalité objective أكثر مما في أية فكرة أخرى .

ويستطيع الإنسان أن يلاحظ عند ديكارت في « تأملاته » نزعة صوفية نحو التامل الباطن . وكلامه من أدراكه لذاته وأدراكه لتفكيره ولما في عقله من أفكار ، وكلامه خصوصاً من فكرة الألوهية وأنه يدركها أدراكاً فريداً ، وقوله أنها مقرونة بالفطرة ذاتها ، يؤكد هذه النزعة الصوفية ويدعو إلى ربطها ليس فقط بالنزعات الصوفية التي عرفها في الأفلاطونية المحدثة أو نحوها بل بنزعات صوفية أخرى لا شك أنه عرفها في أثناء عزلته في هولنده .

وهناك شبه بين كلامه عن فكرة الألوهية المطبوعة في عقله وبين آراء مفكرين إسلاميين قالوا بأن المعرفة بالله فطرية في كل روح إنسانية ، لكن بين الرايين فرقا كما سيتبين فيما يلي .

مهما يكن من شيء، فإن ديكارت يبنى على فكرة الكائن الكامل التي يجدها في عقله دليله الآخر لاثبات وجود الله ، وهو صورة من « الدليل الانطولوجي » المعروف منذ ايام القديس آتسلم .
ودليل ديكارت هذا موجود في اكثر من كتاب من كتبه (٢) .

ويمكن للخصمه بمنتهى الاختصار على هذا النحو :

الاله ، كما نتعلل مفهومه ، كامل من كل وجه .

وبما ان الوجود بالفعل كمال

فالاله الكامل لا بد ان يكون موجودا بالفعل .

ويجد ديكارت ان فكرة الاله الكامل تتضمن وجوده بالفعل ، كما ان فكرة الثلث المستقيم الاضلاع تتضمن ان مجموع زواياه يساوى قائمتين .

وفرق ديكارت بين استنباط وجود الكائن الكامل بالفعل من مفهومه في عقلنا وبين استنباط وجود شيء تخيله من مجرد تخيلنا له بان فكرة الكائن الكامل تتضمن منطقيا ضرورة الوجود على حين ان افكارنا التخيلية لا تتضمن سوى امكان الوجود (٣) .

ويبدو كانما المعرفة بوجود الله او حكمنا بانه موجود ، في نظر ديكارت ، عبارة عن قضية تحليلية ، اعني اننا عندما نحلل مفهوم الالهية ، وهو يتضمن عنده كل صفات الكمال ، فاننا نعرف انه لا بد ان يكون موجودا .

والحقيقة انه لو كان مفهوم الالهية مرادفا لمفهوم الوجود باطلاق معناه لكان القول : الاله موجود ، قضية تحليلية يخرج محمولها من تحليل موضوعها ، ولا يستطيع احد عند ذلك ان يقول ان الوجود غير موجود .

لكن مفهوم الالهية ، من حيث الذات والصفات ، اكثر من مفهوم مجرد الوجود .

ويمكن ان يوجه على دليل ديكارت ما وجه على دليل آتسلم من اعتراضات .

ويمكن ايضا اثاره اشكالات اخرى :

فيقول ديكارت مثلا انه بادراكه لذاته كجوهر يجد اساسا لادراك جوهر لا نهاية له ، لا يعتبره تبدل ولا تغير ، قادر على كل شيء عليم بكل شيء لكنه يقول ان عقله محدود . فكيف يمكنه ادراك الجوهر الذي لا نهاية له ؟

واينما يمكن للانسان ان يقبل ان تكون فكرة « اللامتناهي » او فكرة « الكائن الكامل » ، في ذهننا مقابلا منطقيا لادراكنا لنهاية ذاتنا او نهاي الاشياء او لكوننا غير كاملين . لكن هذا التقابل المنطقي لا يعطينا فكرة « اللامتناهي » ولا يعطينا مفهوم « الاله الكامل » ، كما يتحدث منه ديكارت ، الا اذا كنا قد اخذناه من مصدر آخر كالتراث الديني . وهل يمكن ان يمد عقل محدود انه يدرك اللامتناهي ادراكا حقيقيا ؟؟

ولا يمكن على اي حال دحض اعتراض من يقول ان المقابل المنطقي : « اللامتناهي » ، الذي يتكلم عنه ديكارت ، هو من صنع الخيال .

(٢) في التاملات ، التامل الخامس ص ٦٤ فما بعدها وفي كتاب : Principes de la Philosophie ،
فقرة ١٤ (باختصار) .

(٣) في ظل ديكارت من معانيه الاله Essence هي عين وجوده Existence (التاملات
ص ٦٦) وهذا من اسس دليله . اما بالنسبة لا سوى الاله فانها غير الوجود .

على أنه يمكن. يقول أن الذي أوجدنا وجعلنا كائنات محدودة غير كاملة أراد بذلك أن يدلنا على وجوده استدلالاً ، لأن المحدود أو غير الكامل لا يمكن أن يوجد ذاته ، فلا بد له بحكم النقل من موجد مخالف له .

إن هذا التفكير موجود عند ديكارت ، وهو من أدلته على وجود الله إلى جانب أدلة أخرى مثل : أن مجرد بقائنا في الوجود يدل على وجود الله . وذلك أن وجودنا يدخل في الزمان ، والزمان أجزاء منفصلة ، بعضها مستقل عن بعض ، ووجودنا في أية لحظة لا يقتضى وجودنا في اللحظة التالية ، فلا بد من أن الذي أوجدنا ، وأوجد الأشياء ، يحفظ وجودنا ووجودها . وهكذا يدل مجرد استمرارنا في الوجود على وجود الله (٧) .



إن أدلة وجود الله عند ديكارت تسير في تيار الأدلة النظرية الاستنباطية ، وربما كانت مسيرة الفهم أو القول بسبب اعتمادها على مفاهيم مجردة يمكن إثارة الإشكالات حولها بأنها خيالية من جهة كما يمكن من جهة أخرى التشكك في سلامة الاستنتاج منها .

وعلى يد الفيلسوف الإنجليزي جون لوك John Locke (ت ١٧٠٤) تأخذ المشكلة صورة أقرب إلى التفكير الطبيعي البعيد عن التعقيد ، فهو في الكتاب الرابع من كتابه الكبير : « بحث عن العقل الإنساني » (An Essay Concerning Human Understanding) يعقد فصلاً (العاشر من الكتاب الرابع) عنوانه « معرفتنا بوجود الله » . وهو فصل طريف يبتدئه بما يدل على روح فلسفته وطريقته في التفكير ، يقول لوك :

« إنه وإن كان لم يعطنا أفكاراً فطرية Innate ideas .. من ذاته ، ولم يطبع حروفنا أصلية في عقولنا نستطيع بها أن نقرأ وجوده ، فإنه بما أودعه في عقولنا من ملكات لم يجعل ذاته بلا شيء يشهد له ، لأن لنا الإحساس والأدراك والعقل ، فلا نحتاج إلى برهان وأصح على وجوده ما دمتا نحمل ذاتنا معنا ، ولا نحن نستطيع أن نشك من جعلنا في هذه النقطة الكبرى ، لأنه هيبا لنا من كثرة الوسائل لمعرفة بقلوبنا ما يلزم للثبات من وجودنا ولحرصنا الكبير على سعادتنا .

لكن هذا وإن كان أوضح حق يمتد إلى العقل ، وكان وضوحه (أن لم أكن مخطئاً) يمثل اليقين الرياضي ، فإنه يحتاج إلى تفكير وانتباه ، ويقتضى من العقل أن يسير على أساس من الاستنتاج السليم من بعض معرفتنا الحسية ، والأفاننا في هذه المسألة تكون جاهلين وغير متيقنين على مثل ما نحن عليه في مسائل أخرى هي في حد ذاتها قابلة للبرهنة الواضحة .

ولذلك فإننا لكي نثبت أننا قادرون على أن نعرف ، أي أن نتأكد ، أنه يوجد الله ، ونبين كيف نتوصل إلى هذا اليقين ، فإني أرى أننا لا نحتاج لأن نذهب أبعد من أنفسنا ونحن تلك المعرفة اليقينية بوجودنا » .

يبني لوك على هذا الأساس ، أسمى المعرفة اليقينية عند الإنسان بوجود ذاته وبأنه شيء موجود بالفعل ، ويقول أن من يشك في ذلك فهو لا يستحق أن نتكلم معه ولتدفعه : « يتمتع بما يحبه من السعادة بأنه لا شيء إلى أن يقنعه الجوع ، أو ألم آخر بمكس ذلك »

فالإنسان يقطع بأنه شيء موجود بالفعل Real Being ، وهو يعلم يقيناً حديسي Intuitive certainty أن العدم لا يمكن أن يصدر عنه موجود فعلي ، « وأذن يقوم الدليل البين على أنه كان هناك شيء من الأزل ، لأن ما ليس أزلياً فله بداية ، وما له بداية لا بد أن يحدث بفعل شيء آخر »

ثم يستنتج لوك على نحو منطقي ، ان ذلك الكائن الأزلي لا بد أن يكون تام القدرة والعلم، ومصدر كل قدرة وعلم في الموجودات الحادثة ، لانه من غير المقبول في العقل أن يكون في الانسان احساس وإدراك وعلم ويكون صادرا عن شيء ليس له هذه الصفات كالمادة مثلا .
واذن فلا بد أن يكون هناك اله .

ويلخص لوك رأيه قائلا :

« واذن فمن النظر في أنفسنا وفيما ندركه في كوننا على نحو لا يتطرق اليه الشك ، يؤدي بنا عقلنا الى معرفة هذه الحقيقة الاكيدة الواضحة ، وهي أنه يوجد كائن أزلي تام القدرة والعلم، أن كان أي انسان يحب أن يسميه « الاله » فله ذلك ، لأن الامر يتبين . ومن هذا الفكرة ، اذا نظر الانسان فيها على الوجه الصحيح ، يمكن استنتاج كل تلك الصفات الأخرى التي يجب أن نصف بها هذا الكائن الأزلي » .

ويرى لوك ، بناء على دليله المتقدم ، أن المعرفة بوجود الله أكثر يقينا من المعرفة بأي شيء خارج ميدان إدراك حواسنا ، بل أنها أكثر يقينا من معرفتنا بأي شيء خارج ذاتنا ، بشرط أن تحسن استعمال عقولنا .

وهو يندد دليل إثبات وجود الله ، المبني على فكرة الكائن الكامل . وهو يقصد ديكارت بلا شك ، فحين يقصد ، لكنه لا يذكر اسم أحد يمثل هذا الدليل . وهو بعد أن يشير الى تنوع أمزجة المفكرين ونزعاتهم في تفكيرهم واختيار الأدلة لاثبات الشيء الواحد يقول فيما يتعلق بالاساس الذي يقوم عليه « الدليل الأنطولوجي » :

« أنه ليس من السداد عند محاولة اثبات هذا الحق واسكات منكرى وجود الله أن يجعل أحد كل الاهمية في مسألة خيرية كهذه لذلك الأساس وحده : فيعتبر أن كون بعض الناس منهم في أذهانهم فكرة اله (لانه من البين أن بعضهم ليس عنده فكرة اله ، وعند بعضهم ما هو أسوأ من عدم وجود فكرة وعند معظمهم أفكار مختلفة كل الاختلاف) هو الدليل الوحيد على وجود اله . وهم من فرط حبهم لذلك المخترع الأثير لديهم يلفون ، وأهم على الأقل يحاولون أن يجرحوا ، كل الأدلة الأخرى ، وينهوننا عن الاصغاء لتلك البراهين قائلين أنها ضعيفة أو زائفة ، وهي التي يقدمها لعقلنا وجودنا والأجزاء المحسوسة في العالم على نحو واضح وملزم ، بحيث أني اعتقد أنه يستحيل أن يدفعها انسان مفكر . فاني أرى أن القول « بأن الأمور الالهية التي لا ندركها ترى بوضوح من خلق العالم وهي مدركة من طريق الأشياء المخلوقة ، حتى قدرته والوهيته الأزلية » لهو قول حق مؤكد وواضح بمقدار ما يكون أي حق يقال » .

ويؤكد لوك بعض آرائه مرة أخرى، وهو يحرص على تأكيد وجود شيء أزلي وإنه قادر حكيم غير مادي ، ويدقق في دحض المذهب المادي دحضا يقوم على المنطق ، وكلامه مثال جيد على النقد الفلسفي للمادية .



على يد ليبنز Leibnitz (ت ١٧١٦) لا نجد فيما يتعلق بالاستدلال النظري الاستنباطي والدليل الأنطولوجي أكثر من تعقيد وتدقيق وتحليل لا تفيد في شيء .

فهو يربط بين القول بأن « الاله موجود » وبين مسألة التمييز بين ما يسميه « حقائق العقل » Truths of Reason التي هي قضايا تحليلية فهو فاضحتها باستخراج مفهوم محمول لها من

تحليل موضوعها في ضوء مبدأ التناقض وما يسميه « حقائق الواقع » *Verités de Fait* *Truths of Fact* التي هي قضايا تركيبية تعرف بالرجوع إلى الواقع في ضوء مبدأ العلة الكافية ، لكنها لكي تأخذ صورة حقائق العقل تحتاج إلى خطوات تحليل لا تنتهي ولا يحيط بها إلا الإله الذي يعلم كل شيء ، والذي يعلم الأشياء كلها لا يعلم استدلالاً كملتنا .

ومن الواضح أن هذا ليس برهانا بأي معنى، وفيه شيء من روح النزعة الأفلاطونية .

وليبنتز يقبل الدليل الأنطولوجي عند آنسيلم وديكارت على أساس أن القول بوجود إله ينتهي آخر الأمر إلى أن يكون من حقائق العقل التي يوصل إلى صدقها بالتحليل لمفهومها، وأن كل ما تحتاج إليه القضية هو أن يكون مفهوم الإله خالياً من التناقض ، لأن قولنا الإله هو « الكائن الأعلى تحقّقاً في الوجود » *Most Real Being = Ens Realissimum* أو « الكائن الأكمل » *Ens Perfectissimum* برىء من التناقض ، لأننا لا نضيف للإله في هذه الحالة سوى محمولات (صفات) لا تناقض بينها .

لكن هذا لا يقدم الدليل الأنطولوجي خطوة واحدة .

على أن من الأدلة على وجود الله عند ليبنتز :

(١) لا بد من موجود بذاته *Ens a se* ، وإلا لا أمكن خروج الممكنات إلى حيز الوجود الفعلي الذي نشاهده .

(٢) الدليل الكوني أو الكوسمولوجي *Cosmological Argument* وهو يتلخص في الاستدلال من وجود العالم على وجود الله .

(٣) الدليل المستند إلى ما يسميه ليبنتز «الحقائق الأزلية» *Verités Eternelles* ، فهي لا تتقيد بزمن أو مكان ، ولا ترتبط بموجودات حادثة ، فلا بد أن تكون في عقل أزلي أبدي هو الإله .

(٤) الدليل المبني على تصويره لنظام الوجود، وهو مذهب : المونادولوجيا *Monadology*،⁴⁵ الذي يتلخص في القول بأن العالم مؤلف من وحدات روحية منفردة منفصل بعضها عن بعض ، فيما أنها منفصلة ، لكن بينها اتساقاً والنسجام فلا بد لها من منظم خالق قادر حكيم .

وهذا الدليل وإن كان من الناحية الصورية مقبولا ، فإنه يقوم على مقدمات لا يقدم عليها ليبنتز برهانا كافيا .

وربما يكون هناك تناقض ، كما لاحظ البعض (١) ، بين قول ليبنتز بأن كل « موناد » يحوى في ذاته بذور صفاته وتطور أحواله وبين القول بعلّة للمونادات خارجة عنها . لكن ليبنتز يقول بأن عالم المونادات مخلوق « ضربة واحدة » ، وهو في هذا يشبه اللذين من أهل السنة ، تماماً .

وهكذا لا نجد عند ليبنتز ، فيما عدا الدليل الكوني ، أدلة مقنعة ، بل أدلة مرتبكة في تراث سابق أو قائمة على تصور للعالم يحتاج إلى دليل .

ويكفي لبيان نوع تصور ليبنتز للمشكلة قوله عن الآله مثلا :

هو الوحدة الأولى والجوهر البسيط الأول ، وكل المونادات « المخلوقة أو المشتقة » هي

مخلوقات ، وتنشأ من لحظة الى أخرى بواسطة اشعاع مستمر كالبرق يصدر من الاله . وهذه الاشعاعات تصير لها حدود بسبب قابلية المخلوقات التي من جوهرها أن تكون محدودة .

وقوله من المادة :

كل قطعة من المادة تشبه حديقة مملوءة نباتات أو حوضا مملوءا أسماكاً ، لكن كل غصن أو عضو حديقة أو حوض . .

ومن الواضح أن في كلامه عن الاله والعالم خيالا كثيرا ، فلا يصح أن يستسهل أحد الكلام عن الاله الحق بمفاهيم وتصورات ممانع . وإذا كنا لا نزال في بداية المعرفة بعالم المادة فإننا لا يصح أن نسترسل في الكلام عنها مع خيالاتنا الى هذا الحد .



ثم جاء الفيلسوف الانجليزي ديفيد هيوم David Hume (ت ١٧٧٦) بنزعه الفلسفية وما فيها من روح النقد ومحاولة التمهيد الذي لا يصل الى الشك بمعناه الحقيقي . وهو قد تبين الصعوبات التي تعترض النزعة العقلية الروحية كما نجدها عند ديكارت وأصحاب الميتافيزيقى العقلية ، لكنه من جهة أخرى لم يطمئن أطمئنانا كاملا للمذهب الصفي - المادي . وهو يقبل على أساس علمي أو عاطفي بعض ما ينكره نظريا بسبب عدم وجود المعرفة الواضحة أو الأدلة الكافية .

وفيما يتعلق بالموضوع الذي نحن بصدد نجاه قد وضع المشكلة في كتابه : « محاورات حول الديانة الطبيعية » Dialogues Concerning Natural Religion

وتدل الأفكار التي تصدر من الأشخاص الذين يتناقشون على أن أحدهم ، وهو كليانثيس Cleanthes متفلسف يمثل « علم الروبوتية الطبيعي الفلسفي » ، والثاني ، وهو ديميا Demia يمثل المتشدد في الإيمان بالوحى مع نزعة صوفية ومع قبول الأدلة النظرية البديهية ، والثالث ، وهو فيلو Philo متشكك غير جاد .

والذي يحكى المحاوره شخص مؤمن بوجود اله

وتوضع المشكلة على هذا النحو الجدي :

« أى حق هو من الوضوح بقدر وضوح القول بوجود اله ؟؟ وإى حق هو من الأهمية مثل هذا الحق الذى هو عماد كل آمالنا ، وأوثق أساس للاحلاق ، وأثبت دعامة للمجتمع ، والمبدأ الوحيد الذى يبنى إلا يغيب لحظة من مجال أفكارنا وتأملاتنا ؟ لكن عند معالجة هذا الحق الواضح العظيم الشأن أى مشاكل غامضة تعرض فيما يتعلق بطبيعة ذلك الوجود الالهى وبصفاته وبمجارى إرادته (IDecrees) وخطة مناته IPan of Providence »

وكلام المتحاورين يحتاج الى طول نظر والى تحليل دقيق . والمهم أن المحاورات تدور حول الأمور التى تشير إليها هذه العبارات التى تضع المشكلة كلها .

لكن أهم ما فيها أنها تذكر أنواع الأدلة التي ظهرت لاثبات وجود الله عند فلاسفة اليونان ومن جاء بعدهم من مفكرى القرون الوسطى الأوروبية ، وتشير الى ما يمكن أن يوجه الى بعضها من اعتراضات ، وإلى عدم كفاية بعضها في إثبات المقصود . وهي تدل أيضا على الارتباك الناشئ عن التصورات غير الصحيحة فيما يتعلق بالاله (مثل تصوره بحسب المعايير الإنسانية) أو بعلاقته بالعالم (كالقول بأنه سار في العالم) أو فيما يتعلق بالعالم (مثل تصوره كأننا حيا) وعلى الارتباك الناشئ من أوهام المذهب المادى : فلماذا لا يكون الوجود الحقيقي هو هذا العالم المادى ، أو من الآراء الفاسدة فيما يتعلق بالإنسان وأنه كائن شقي بالأس - وهذا رأى مصدره الجهل برسالة الإنسان ، أو من الحل السطحي لمشكلة الشر المزعوم في هذا العالم وهكذا .

والنقد الموجه للأدلة على وجود الله ينصب على الأدلة النظرية الاستنباطية ، وعلى الأدلة المستندة الى النظر في العالم ، جميعا . وهذا النقد يرجع بطبيعة الحال الى روح الشك الناقذ عند هيوم . لكن تلك الأدلة كما كان السابقون قد وضعوها لم يتم أحكامها ، ولذلك كانت موضع النقد .

ولا ضرورة للدخول في تفاصيل هذا النقد ، لأن بعضه تبين مما سبق وبعضه سيرد فيما يلي من كلام كنت عن الأدلة التقليدية .

وجه كنت Immanuel Kant (ت ١٨٠٤) في كتابه « نقد العقل الخالص Critique of Pure Reason » نقداً لأدلة وجود الله جمع خلاصة الاعتراضات التي وجهت اليها ، وأضاف اعتراضات جديدة ، لكن في نقده مبالغة حقيقية ترتبط بجملته فلسفته النقدية وموقفه من امكان المعرفة الميتافيزيقية .

والناظر في آراء كنت في هذا الباب يتبين بسهولة أنه يريد أن يهدم ما يسمى علم الربوبية الطبيعي Natural Theology أى المعتمد على العقل الإنساني ومفهوماته .

على أن كنت ، في كتبه السابقة على المرحلة النقدية (١) من فلسفته كان يثبت وجود الآله على أساس مبدأ العلية ، والقول بأن خروج الوجود الممكن الى حيز الوجود لا بد أن يسبقه وجود موجود واجب ، وإلا لما حدثت الممكنات أصلا ، وهذا الموجود الواجب يجب أن يكون واحدا ، عاقلا ، مطلقا ، أزليا ، لا يتغير . فالاله الواحد هو المبدأ الواجب المطلق الذى تستند اليه جميع الممكنات .

وكان يثبت وجود الآله على أساس مذهب لينتز في القول بجواهر روحانية منفردة : فيما أنها منفصلة ، لكنها تؤلف نظاما فيه انسجام ، فلا بد لها من علة واجبة خارجية عنها (٢) .

وكان يرفض « الدليل الأنطولوجى » عند ديكارت ، لأن هذا الدليل يقوم على اعتبار أن الوجود صفة ، وهو في نظر كنت ليس كذلك ، وإنما وجود الشيء هو الشيء نفسه .

على أن كنت كان ينقد الأدلة الأخرى على وجود الله ، ويشير الى أنها لا تثبت وجود الآله الحق ، ومنها الدليل الكونى والدليل الغائي .

(١) مثل كتابه بعنوان : « الأساس الوحيد الممكن لاثبات وجود الله »

The only possible foundation for the demonstration of the existence of God.

(٢) هذا في كتابه « صورة ومبادئ عالم الحس والعقل » The form and the principles of the sensible and intelligible world.

لكن كنت في كتابه «نقد العقل الخالص» (١) ، وبعد حوالي عشر سنين لم ينشر فيها شيئا ، أظهر هذا الكتاب وفيه نقد جميع الأدلة على وجود الله نقدا منظما ، فهو يعرض الدليل ثم يبين انه زائف او غير كاف . وهو بعد ان يتكلم عن الأدلة التي استخدمها العقل النظري لاثبات وجود موجود اعلى يقرر ان هناك ثلاثة طرق لاثبات وجود الاله على اساس العقل النظري ، ويقول ان هذه الطرق :

اما ان تبدأ من تجربة محددة وادراك التكوين الخاص لعالم الحس وترتقى بحسب مبدأ العلية الى وجود علة عليا منفصلة عن العالم .

واما ان تبدأ من تجربة غير محددة أى من وجود تجربى ما .

واما ان تبدأ من مفهومات مستقلة تماما عن كل تجربة .

ويرى ان الأدلة بحسب هذا الترتيب هي :

- ١ - الدليل الفيزيقي - الدني
- ٢ - الدليل الكوسمولوجي
- ٣ - الدليل الانطولوجي

ويزعم انه لا توجد ، ولا يمكن أن توجد ، أدلة غيرها .

وكل اهتمامه يتركز حول اثبات ان العقل النظري لا يستطيع ، بقوته الخاصة وحدها ، ان يخلق فوق عالم الحس .

اما فيما يتعلق بالدليل الانطولوجي فان نقده له هنا تفصيل لنقده السابق ، مع انكار ان يكون الوجود بالفعل صفة او محمولا للشيء والقول بان وجود الشيء هو ادراكنا لوجوده او لصفة له ادراكا مباشرا وتأكيدنا لذلك ، فقولنا مثلا : الاله موجود ، هو ادراك لوجود ذاته وصفاته وتأكيد ذلك .

ويذهب كنت الى ان اساس الدليل الانطولوجي ، وهو القول بكان كامل او واجب يستحيل ان لا يكون موجودا ، ليس ملزما للعقل ، لان العقل يستطيع ان يفترض عدم وجود مفهوم في الدهن ، وبالتالي عدم الاستنباط منه . وهذا ينطبق حتى في ميدان الرياضيات ، فالغاء مفهوم المثلث في الدهن يسمح بالغاء كل احكام المثلث .

ويقرر كنت ان استنتاج وجود الشيء من مفهومه تحصيل حاصل نفس Miserable Tautology وأنه لا يرضى العقل السليم ولا يثبت أمام الفحص الفلسفي .

اما الدليل الكوسمولوجي فهو في رأى كنت لا يقوم على الاستنتاج من مفهوم ، بل على الاستنتاج من وجود شيء واقع على وجود شيء واجب لا بد ان يكون موجودا ، وهو يسمى بحسب عبارة ليبنتز Leibnitz الاستدلال من امكان العالم Argumentum a Contingentia Mundi وصورته هكذا : اذا كان هناك شيء موجود ، وليكن « انا » ، فلا بد من وجود موجود واجب الوجود .

بعبارة أخرى : الممكن الوجود لا بد له من علة ، وبما أنه لا يمكن التسلسل في الملل فلا بد من الانتهاء الى علة أولى هي واجب الوجود ، او الكائن الذى له كمال التحقق Ens realissimum وهو يسمى الدليل الكوسمولوجي ، لأن موضوعه هو العالم (Cosmos) باعتباره شيئا موجودا ، دون نظر الى مميزاته كالنظام او الغائية او نحو ذلك ، ولهذا فهو يتميز عن الدليل الفيزيقي الديني الذى سيأتي الكلام عنه .

ونظراً لأن تحديد مفهوم واجب الوجود وصفاته لا يتيسر إلا من طريق الاستنتاج من مفهومه ، لأن التجربة لا تعلمنا شيئاً عن ذلك ، فإن كنت يرى في الدليل الكوني صورة أخرى للدليل الانطولوجي .

هذا إلى أن كنت يرى في مبدأ العلية أو القول بأن كل ممكن لا بد له من علة ، أنه مقصور على حوادث هذا العالم وليس له انطباق وراء ذلك ، وهو لا يدمونا إلى البحث عن علة للعالم .

ويذهب كنت في نقده لهذا الدليل إلى حد القول بأن استنتاج ضرورة علة أولى من استحالة التسلسل في العلل لا يبرره العقل في عالم التجربة فضلاً عما وراءه .

ولا حاجة للمضي في ذكر اعتراضات كنت على هذا الدليل وتكفي أن نلاحظ ما في نقده من مبالغة تصادم العقل والواقع معاً .

وهو مع أنه يترف بأن الدليل الكوسولوجي يقوم على القول بأن وجود أى شيء يقتضى استنتاج واجب الوجود ، وأن هذا الاستنتاج طبيعي ، فإنه يزعم أنه يمكن تصور عدم وجود هذا الواجب ، فإن التصور مقياس لصحة الآراء ، بل هو يذهب إلى أن مفهوم الوجوب (Necessity) والإمكان (Contingency) مبدآن ذاتيان في العقل « الوجود الأعلى » Supreme Being في نظره ، وليساً موضوعيين (١) ، بل أن مفهوم « الموجود الأعلى » Regulative Principle مجرد « مبدأ تنظيم »

والمبالغة واضحة في كلام كنت ، لكن الدليل الذي ينتقده نظري ومجرد إلى حد كبير ، ولا شك أن وضعه على هذه الصورة مأخوذ عن ليبنتز ، وهو قد أخذه عن مفكرى المصور الوسطى ، وهم أخذوه عن الفارابي وابن سينا ووضعوه على صورة معينة .

أما الدليل الفيزيقي - الديني الذي يمكن أن يسمى أيضاً الدليل الفائي Teleological Proof فإن كنت يقف منه موقفاً آخر . يقول كنت :

« إن العالم المحيط بنا يفتح أمام بصرنا منظراً هو من الروعة في النظام والتنوع والجمال والملاءمة لغايات إلى حد أننا ، سواء مضيئين في ملاحظتنا للانهائية الفضاء في اتجاه أو للاتسام التي لا حدود لها في اتجاه آخر ، سواء نظرنا للعالم في أعظم مظاهره أو في أصغرها ، حتى بعد أن تكون قد بلغنا أعلى ذروة في العلم يمكن أن تصل إليها عقولنا القاصرة ، فإننا نجدنا أمام عجائب تفوق كل تصور ، وأمامها تفقد اللغة قدرتها على التعبير ولا تنفي به بل يصعب الفكر عن الإدراك ، وينحل تصورها لكل إلى دهشة نفقد معها القدرة على التعبير ، وتكون أفصح عبارة لنا أن تكف عن الكلام .

فنحن نلاحظ أننا نظرنّا حولنا سلسلة من الأسباب والمسببات ، من الوسائل والغايات ، من الموت واليولاد . ولما كان لا شيء قد دخل من نفسه في الحال التي نجده عليها ، فإنه لا بد لنا دائماً من الرجوع إلى شيء آخر ، هو يبدو ويبحث أيضاً على التماس علة له . . . وهكذا فإن العالم لا بد أن يفرق في بحر الأشياء ، إلا إذا سلمنا بأنه إلى جانب السلسلة التي لا نهاية لها من الممكنات يوجد شيء هو أول وقائم بذاته ، شيء هو الذي ، باعتباره علة عالم الظاهرات هذا ، يضمن بقاء عالم الظاهرات ويحفظه .

هذا المبدأ الأعلى ، أى عظم ينبغي أن نضيف اليه ؟ أننا نجهل محتوى العالم ، ونحن لا نستطيع تقدير عظمه بالقياس الى مجال الامكان . لكن هذا المبدأ الأعلى ، نظرا لأنه ضرورة بقتضيا العقل الانساني المشترك ، فما الذى يعنينا أن نضيف اليه من الكمال ما يجعله فوق كل ما هو ممكن ، وهذا ما نستطيع أن نفعله بسهولة ، وأن كان ذلك بمساعدة الاطار الضعيف لفهوم مجرد ، بأن نمثل لانفسنا هذا الموجود حائزا كل كمال ممكن . »

ويرى كنت « أن هذا الدليل يستحق دائما أن يذكر بالاحترام ، وأنه أقدم الأدلة وأوضحها وأكثرها اتفاقا مع العقل الانساني . وهو يبعث الحياة في دراسة الطبيعة ، لأنه يستمد وجوده من ذلك المصدر ، ويستمد منه قوة متجددة دائما . فهو يتبين أغراضا وغايات في ميدان ما كانت ملاحظتنا تستطيع أن تكتشفها من نفسها ، ويوسع معرفتنا بالطبيعة ، بأن يوجه انتباهنا الى وحدة يوجد مبدؤها خارج الطبيعة . ثم ان المرفه بالطبيعة يصبح لها تأثير في هذه الفكرة ، أعني علة الطبيعة ، وبذلك يرتفع اعتقادنا بوجود الاله الصانع للعالم الى مرتبة اقتناع لا يمكن مقاومته (١) »

ان كنت يقدر هذا الدليل ولا يرى جدوى من محاولة تجريح سلطانه او التشكيك فيه ، لان الشك يتبدد بمجرد أن يلقى الانسان نظرة على عجائب الطبيعة وعظمة الكون .

لكنه يلخصه على النحو الآتي :

- ١ - في الطبيعة نظام
- ٢ - هذا النظام في الأشياء ليس من ذاتها
- ٣ - إذن لا بد من منظم ماقبل .
- ٤ - هذا المنظم واحد على اساس وحدة الطبيعة وتربط اجزائها .

ثم يقول : ان الطبيعة اذن كالعقل الفنى ، واستدلنا على مصدرها بالاستدلال من الاثر الفنى على مصدره . ولا يصح ان نذهب الى نوع آخر من الاستدلال ، لان العقل لا يفي بكل ما يطلبه اذا عاين من علية يعرفها الى مبادئ لتفسير لا يعرفها . ولا يمكنه ان يبرهن عليها (٢) .

فالدليل لا يثبت الا حدوث الصورة التى عليها العالم وجود صانع ، ولا يثبت حدوث المادة التى صنع منها العالم . ولما كان الدليل يقوم اساسا على الاستدلال من اشياء هى في ذاتها محدودة ، فانه لا يثبت أكثر من وجود صانع قدرته مقيدة بقبالية المادة ولا يثبت وجود خالق للعالم بالمعنى الحقيقي .

هذا الى اننا ، في رأى كنت لا نعرف كل العالم ولا مدى دلالاته على القدرة المطلقة ولا مدى دلالة النظام والحكمة في العالم على الحكمة العليا ، ولا دلالة وحدة العالم على وحدانية موجد .

والدليل اذا كان يسل على ان صانع العالم يتصف بالجلال والقدرة والحكمة فانه لا يدل على ما لئله من كمالات مطلقة لا نهاية لها ولا ينبعث فيها أكثر من الاجلال والتعظيم والثناء .

ويرى كنت اننا في هذا الدليل نبدأ بملاحظة نظام الطبيعة ونستنتج انها ممكنة الوجود ثم نستنتج وجود الموجود الواجب وبذلك نمود الى الدليل الكوسمولوجى الذى هو صورة مقنعة للدليل الانطولوجى .

(١) نقد العقل الخالص ، ص ١٨٧ ع ٢

(٢) المصدر نفسه

واذن فلا بد من اكمال الدليل الفيزيقي -الديني بالدليل الوجودي . وعند ذلك يتنهاى ، من الناحية النظرية وعلى اساس مفهومات العقل النظري ، الدليل الوحيد الممكن لاثبات وجود الاله وذلك بشرط ان يكون من الممكن اثبات قضية من طريق تجاوز حدود الاستخدام التجريبي للعقل .

ومن الواضح ان كنت مسرف كل الاسراف في نقده . لانه اذا قام الدليل القطعي على ان هذا العالم ممكن الوجود فان العقل يقضي بضرورة وجود موجود واجب مخالف للممكنات في ذاته وصفاته ، وبمجرد هذا الاستنتاج يقضى العقل بان ذاته وصفاته وكمالاته مطلقة ولا ندرك عنها بعقلنا المحدود ، بحيث يدل العالم على اله حق واجب الوجود ، فوق كل تصوراتنا ومفهوماتنا النسبية .

ومن جهة اخرى فان هذا العالم مهما كان من العظمة ومهما صغر من امثاله من الاله منذ الازل ، ومهما يصدر منه الى الابد ، فان ذلك كله لا يصلح مقياسا للقدرة المطلقة التي لانهاية لها والتي لا ينضب لها معين .

ان كنت على حق في قوله ان العالم لا يدل على الاله الحق دلالة كافية . فالحق ان العالم محدود ، ولكن اكمال الدليل لا يكون من طريق الدليل الوجودي ، بل من طريق الاستدلال من النظر في العالم ، لكن مع التنزيه للاله ومع الادراك الكامل لمفهوم الوجود الواجب .

وكننت على حق في قوله ان الدليل أثبت وجود الصانع ولم يثبت حدوث المادة .

وكل النقائص التي يبينها كنت في هذا الدليل الذي يقتره تقديرا خاصا قد تلافيتها أدلة مفكرى الاسلام لاثبات وجود الله . خصوصا أدلة المتكلمين من المعتزلة والاشاعرة .

لقد كان فرض كنت من نقده لادلة وجود الله ان يهدم « علم الربوبية الفلسفي او الطبيعي » الذي يعتمد على العقل النظري .

والانسان يستطيع ان يقبل كلام كنت في ان النزعة النقدية عند هيوم هي التي ايقظته من سبات مذهب الجزم الميتافيزيقي . لكن نقد هيوم لا يخرج من الفلسفة التجريبية الانجليزية ، وليس له فيها مقدمات كافية . ولذلك يربط بعض العلماء بين نزعة النقدية وبين آراء الفزالي ، كما فعل العلامة الاسباني ميجل آسين بالايوس Miguel Asín Palacios

والسؤال الآن هو : هل عرف كنت آراء الفزالي ، على الاقل من الترجمة اللاتينية لكتاب « تهافت تهاافت الفلاسفة » لابن رشد او من مؤلفات مفكرى العصور الوسطى الكثيرين الذين ردودوا آراء الفزالي في التهافت ؟

يوجد بين موقف الفزالي من الميتافيزيقي العقلية ، سواء فيما يتعلق بالعالم او النفس او الاله ، وموقف كنت شبه واضح . والذي يصبر على قراءة كتاب « تهافت الفلاسفة » للفزالي وكتاب « نقد العقل الخالص » لكنت ، يلاحظ في مواضع كثيرة شبيها في بعض الافكار وفي الروح

وخصوصا في محاولة هدم علم الربوبية الفلسفي وعلم الوجود العقلي وفي نقائص العقل^(١)، مما يجعل الدراسة المقارنة لآراء حجة الاسلام وآراء فيلسوف الالمان ، من اشيق الدراسات واعظمها شأنًا . على ان كنت ، وان كان ينقد الادلة العقلية النظرية على وجود الله ، فانه يؤمن بوجود الله ، ويحاول ان يثبت وجوده من طريق آخر ، هو طريق العقل العملي او العقل الخلقى .

ان العقل يدرك الخير ويقضي باحترام قانون الواجب الذي هو الفضيلة والخير الاعظم في نظر كنت . لكن مع ان الفضيلة في ذاتها خير اعظم ، فانها ليست الخير التام الكامل بالنسبة للانسان في حياته هذه ، لان الانسان الواقع ، ان كان يطمح الى الفضيلة ، فانه ايضا يطلب السعادة بطبعه وما فيه من احساس انساني ، فلا بد ان يكون الخير التام له مشتتلا على السعادة بقدر ما هناك من فضيلة . لكن الواقع والتجربة في هذه الحياة لا يدلان على ذلك .

وكننت هنا يخالف الفلاسفة القدماء الذين اعتبروا ان السعادة والفضيلة مرتبطتان . هو يخالف الرواقيين الذين كانوا يقولون ان الحكيم هو الفاضل السعيد ، وان شعور الانسان الحكيم بفضيلته سعادة . ويخالف الابيقوريين الذين كانوا يرون في اللذة الخالصة سعادة . ويقول كنت انه لا طلب السعادة يزيد في الفضيلة ، ولا الفضيلة تجلب السعادة . والسبب في ذلك هو ان عالم الحس الذي نعيش فيه ليس فيه اتفاق بين ما هو حسي وما هو عقلي ، وليس بين الفضيلة والسعادة اقتران على معمول . ومع ذلك فان الانسان يريد هذا الاقتران ، ويريد ان يكون مع الفضيلة سعيدا ، لكنه ليس هو الذي وضع نظام الطبيعة ولا يمكنه ان يسيطر عليه .

فيما ان الانسان يجب عليه ان يمثل لقانون الواجب والفضيلة ، ولا تتحقق له السعادة ، فلا بد للانسان من ان يؤمن بوجود اله حكيم خير هو الذي وضع نظام الاشياء ونظام الاخلاق ، يعلم نوايانا الطيبة ويجازينا عليها ، ويكون هو الضامن لتحقيق السعادة مع الفضيلة .

ولما كانت الإرادة الخيرة لا تستطيع في هذه الحياة ان تحقق كل ما يطلبه القانون الخلقى ، وكانت لا تزال تريد ذلك ، فان الموت لا يمكن ان يكون نهاية حياة الانسان ، ولا بد ان تكون الروح خالدة لكي تستطيع مواصلة طموحها والاقتراب من غايتها . وهذا يكون بطبيعة الحال في حياة اخرى .

هذا هو دليل كنت لاثبات وجود الله بناء على حاجات العقل العملي او حاجة النظام الخلقى ، وذلك بعد ما زعمه من انه لا يمكن على اساس العقل النظري اثبات وجود الاله الحق .

ومن المصعب ان كنت صاحب « قانون الواجب » و « الامر المطلق » يرى ان هذا الايمان القائم على الاعتبارات العملية والخلقية ايمان اختياري ، وانه ، رغم عدم الزامه ، يقوى بواعث الخير . ومع « انه في احيان كثيرة قد يتزجرع ، حتى عند الاختيار ، فانه لا ينقلب ابدا الى الحاد » .

انتهت الى كنت تجربة فلسفية كبيرة تشتمل على آراء شتى في الالهوية والادلة على وجود الله . وقد نقدها نقدا ثائرا لا يشبه في الروح وفي بعض التفاصيل الا نقد الفزالي للفلسفة في كتابه « تهافت الفلاسفة » .

وقد ادى نقد كنت الى شيء من التشكك في مقدرة العقل النظري عند البعض ، لكنه لم يؤد الى زلزلة الثقة بالعقل ، واستمر المفكرون يصوغون الادلة على وجود الله ، لكن مع ميل عند البعض الى نزعات وحدة الوجود .

(١) لاحظ بعض العلماء شيئا بين آراء الفزالي وكننت في موضوعات جزئية مثل مسألة الإيمان والكان
راجع كتاب (J. Obermann بعنوان : Der Philosophische u. Religiöse Subjectivismus Ghazalis , Leipzig, 1921, S. 112 ff.

كان مجيء الاسلام بكتابه الحكيم نقطة تحول في تاريخ الدين المنزل والتفكير الديني والعلمي والفلسفي على السواء

فقد جاء فيما يتعلق بالالوهية بالمفهوم الواضح الكامل لئلا ، بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة .

وجاء يبني الايمان على نظر العقل وثمرة المعرفة ، وجعل موضوعات العقائد مسائل بحث وموضوع دليل وبرهان .

ورسم منهجا في المعرفة ، كما رسم الطريق للمعرفة بوجود الله وما له من صفات الكمال .

والذي يعني هنا بنوع خاص هو أن القرآن يعظم امر العلم والحكمة ، ويأمر بالنظر في آيات هذا الكون الظاهرة ويشوق الانسان الى معرفة اسراره الخفية وينبهه الى أن الله جمل له الحواس والعقل فيجب عليه ان يستعملها .

وهو اذ يتكلم عن الاله وصفاته وافعاله وتديره لهذا العالم يبين ان الطريق الى معرفة ذلك هو النظر في هذا العالم ، وهو يتكلم عن العالم وما فيه من وجوه كثيرة، وكلامه يشتمل على جميع المظاهر التي تبحثها العلوم الكونية والانسانية ، هذا الى ان القرآن تكلم عن هذا العالم في قضايا، هي احكام عامة يهتدى بها الباحث ، ونبه الى جوانب رئيسية لكي يجعلها الباحث موضع البحث الحسي والعقلي .

والمقصود من كلام القرآن عن العالم وتنبهه الى آياته هو ان يستدل الانسان على وجود الاله تعالى من النظر في العالم وأن يعرف طبائع الاشياء وخواصها وقوانينها لكي يستخدمها ، لانها كما يقرر القرآن مسخرة للانسان .

والقرآن يدور حول فكرة الحق والعلم الصحيح في كل شيء .

وهو يعيب اهل التقليد الذين لا يستعملون عقولهم في قبول الحق المخالف لما نشأوا عليه ، ويؤكد مفهوم العلم الحق الذي لا تشوبه الشكوك والظنون ، وينهى عن اتباع الظن والهوى في الحكم على الاشياء ويطلب بالبرهان كما يقدم البرهان على ما يقرره من قضايا .

وهو يذكر ما عند الانسان من الحواس والعقل ، ويعتبرها نعمة كبرى ، ويقرر مسؤولية الانسان عنها .

والمعرفة الانسانية ، بحسب القرآن ، ثمرة الحس والعقل معا ، ويخص القرآن بالذكر من بين الحواس ، السمع والبصر ، ويكثر من ذكر البصر الامر بالنظر للاشياء .

وهو لا يزال عند كلامه عن آيات الكون ينه الى ان فيها آيات ، اي علامات دالة ، لمن يستعمل حواسه وعقله ولن يتفكر ويريد ان يعلم ويؤمن بالعقائد من علم بها .

وهو يعتبر ان مقاصد آياته ومعانيها اما تنجلي للعلماء ، وان العلماء هم احق الناس بان يدركوا ضرورة وجود الاله الحق وان يعظموه ويخشوه (١) .

(١) لاجابة لذكر شواهد على ما تقدم ، ومن السهل ، على من يريد ، ان يتصفح القرآن ويستخرج الشواهد

وإذا كان القرآن يشير في بعض آياته الى ان المعرفة بالله مغروزة في الفطرة الاصلية ، اعنى فطرة الروح الانسانية على حالتها الاولى ، قبل ان تظهر في هذا العالم وتستخدم فيه هذا المركب البدعي الذي هو البدن وما له من حواس ظاهرة وباطنة ومن جوارح ، فانه يوجه عقل الانسان الى الطريق لمعرفة الله بان يشبهه الى النظر في العالم وفي نفسه .

« وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون » (س ٥١ - القاريات ، ٢٠ - ٢١)
« ان في السموات والأرض لايات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » (س ٥٥ - الجنات ، ٣ - ٤)

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » (س ١٠١ - فصلت ، ٥٣)

« افي الله شك فاطر السموات والأرض » (س ١٠١ - ابراهيم ، ١٠)

فالقرآن يجعل نقطة البداية لمعرفة الله ما يشاهده الانسان في الكون وفي نفسه ، وتدل آيات كثيرة في القرآن على ان المقصود مما يشاهده الانسان في نفسه هو نشأته وتقلبه في مراحل الخلقة وبنيته واعضائه وجوارحه الى جانب ما يدرسه الانسان في حياته الباطنة : حياة الفكر وحياة النفس ، بالمعنى الواسع لهاتين الكلمتين .

فالقرآن لا يجعل اساس النظر المؤدى الى معرفة الله مفهومات مجردة ، ولا معاني ذهنية ، ولا قضايا نظرية جدلية ، وهو حتى عندما يريد ان يجادل لا يجعل موضوع الجدل خارجا عن نطاق المشاهد الذي يدرسه الانسان مباشرة .

وهذه هي البداية الطبيعية التي يجب ان يعتمد عليها الانسان في هذا العالم ، وهي البداية العلمية - الفلسفية التي يشترك في فهمها الجميع ، وهي لا تتعارض مع طريق آخر للمعرفة بالله ، سنشير اليه فيما يلي (١) وهو يتميز عن الطريق النظري المجرد الذي كان موضع خلاف بين المفكرين ويتسم بأنه ادراك حقيقي لشيء واقعي وان كان في اعماق الروح الانسانية .

وإذا اردنا مثالا على طريقة القرآن في الارشاد الى معرفة الله فلندكر الآيات الآتية :

« والهمك اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم * ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لايات لقوم يعقلون » (س ٢ - البقرة ، ١٦٣ - ١٦٤) .

تلاحظ ان الآية قد وضعت القضية أولا ، وهي وجود الاله الواحد ، ثم نهبت الى الطريق للمعرفة به وان هذا الطريق ان يستعمل عقله .

« نسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون * يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون * ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم

أروجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوالتكم إن في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من في السموات والأرض كل له قانتون * وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو اهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم من ما ملكت ايماكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهتدى من أضل الله ، وما لهم من ناصرين * فأنم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * (س ٣٠ - الروم ١٧ - ٣٠) .

في هذه الآيات نجد وضع القضية وهي : معرفة الله وتعظيمه ، ثم يأتي الكلام عن تدبيره للأشياء وعن آيات الكون ، ثم تأتي الإشارة الى الذين ظلموا انفسهم باتباعهم طريق الهوى ، اى الميل الذى لا يستند الى علم أو عقل ، ولم يسلكوا طريق العلم المؤدى الى المعرفة بالله ، ثم يأتي التوجيه الى الدين الحق مع الإشارة الى ان الدين القائم على العلم يطابق الفطرة الانسانية ، اى الفطرة الاولى الاصلية والفطرة الحالية التى تلخص في العلم والعقل واستعمالهما الاستعمال الصحيح .

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون * وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لمهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون * وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون » (س ٢١ - الانبياء ، ٣٠ - ٣٣) .

هذه الآية تتعلق بموقف الذين ينكرون وجود الله ، وهي تنبههم الى نظام السموات والأرض وتطالهم بأن يفسروا هذا النظام بحسب قوانين العقل الذى يقضى بأن الشيء الحادث والواقع والموجود على نحو معين لا بد أن تكون له علة كافية .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (س ٢١ - لقمان ، ٢٠) .

هذه الآية تنبه الى القوانين الطبيعية التى يخضع لها نظام العالم ، وإلى أن هذه القوانين فى مجراها تحقق مصالح الإنسان وتشير الى أن الجاحدين بوجود الله لا يستندون فى ذلك الى سند من علم بالامر أو منهج أو حجة علمية محققة مدونة .

هذه الآيات انما تذكرها لكى يتبين ان نقطة البداية لآيات وجود الله هي النظر فى هذا العالم ، كما ان نقطة البداية للسرد على الجاحدين هي النظر فى هذا العالم أيضا .

ولا بد من هذا التنبيه لأن القرآن انفرد بين الكتب المنزلة ، على صورتها التى وصلت إلينا ، بهذه الطريقة فى المعرفة بالله ، وجعل مسألة آيات وجود الله مسألة بحث علمى فى ضوء العقل والحس . ويؤخذ من آيات كثيرة فى القرآن أن الإيمان بالله ثمرة العلم وأن الجود بوجوده سببه الجهل .

وعلى أساس من آيات القرآن امكن للعلماء ان يستخلصوا ادلة على وجود الله ، ولا يزال المجال مفتوحا امام المفكر .

فعلى اساس من جملة آيات القرآن التى تتكلم عن العالم وتنبه الى اياته ومعجابه واسرارها استخلص مفكر الاسلام ، خصوصا علماء الكلام والمستغلين بالعلوم الطبيعية والتكنية بوجه عام دليلا على وجود الله هو المسمى : « دليل التدبير » او « دليل الاتقان » او « دليل الاحكام » وهو يتلخص فى الاستدلال من النظر فى نظام العالم على وجود صانع قادر حكيم طبقا لمبدأ على هو مبدأ العملية الذى يقضى ، كما تقدم القول ، بأن كل حادث وكل شيء يقع على نحو ما لا بد له من علة كافية .

وهذا الدليل بقى على صورته الاجمالية الى ان جاء ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م) فنظر فى آيات القرآن نظرا فلسفيا تحليليا ، وميز بين دليلين يمكن اخذهما من آيات القرآن :

الاول دليل الاختراع ، ومعنى الاختراع هو اليجاد والاحداث . والقصود منه فى نظر ابن رشد هو اختراع جواهر الاشياء واختراع الحياة فى المادة . ويقوم هذا الدليل فى نظره على نوع من الدلالة التى يدركها الانسان بالحوس والعقل ادراكا مباشرا .

نعتلا فيما يتعلق بعالم الكائنات الحية نحن نلاحظ حدوث النبات والحيوان ، وهذا يدل بحكم الضرورة العقلية على ان للحياة علة .

وفيما يتعلق بنظام السموات نحن نلاحظ ان الاجرام السماوية تلتزم فى سيرها حركات معينة تؤدى الى تحقيق غايات ، وخصوصا فيما يتعلق بالارض وما عليها .

معنى هذا ان الاجرام السماوية مسخرة مقهورة . والعقل يقضى بان المسخر مخترع مخلوق بالضرورة .

والدليل الثانى سماه ابن شد دليل العناية ، وهذه العناية محورها الانسان خاصة . فنحن نلاحظ ان جميع نظام العالم من الشمس والقمر والليل والنهار ، وكل ما على ظهر الارض ، ملائم للحياة الانسانية ، بل ان تركيب الانسان نفسه ملائم لحياته على الارض . هذا شيء نلاحظه بالحوس ، والعقل يقضى بان تكون هذه الملاءمة ناشئة من فعل صانع مدبر حكيم قصد ذلك واراده .

وبلاحظ ابن رشد ان من آيات القرآن ما يتضمن التنبيه على دليل الاختراع ، ومنها ما يتضمن التنبيه على دليل العناية ، ومنها ما يتضمن التنبيه على الدليلين معا (١) .

واذا اردنا مثالا آخر يبين لنا كيف اخذ المفكرون الاسلاميون من بعض آيات القرآن ادلة نظرية علمية - منطقية فى بنائها ، فلنذكر استدلال الاشعرى (٢) فى كتابه « اللع » ، اى الادلة اللائمة ، على وجود الله . فهو عندما يجيب عن سؤال من يسأل عن الدليل على ان للخلق صانعا مدبرا ، يستند الى آيات القرآن التى تتكلم عن الانسان وتطوره فى مراحل الخلقة ، قبل ولادته وبعدها .

يقول الاشعرى :

الانسان الذى نراه فى حال كمال نموه البدني ، قد تطور من مبادئ بسيطة - ونلاحظ ان هذه مقدمة حسية .

(١) راجع التفصيل فى كتاب ابن رشد : « الكشف عن مناهج الادلة »

(٢) هو ابو على الحسن بن اسماعيل الاشعرى ، التوفى حوالى ٣٢٤ هـ

ولكن الإنسان يعلم أنه ليس هو الذي ينقل نفسه من طور إلى طور ، لأنه حتى وهو في حال كمال قوته لا يستطيع أن يخلق لنفسه حاسة أو جارحة . وهذا يدل على أنه ، عندما كان في بداية أمره ، أجبر عن أن يخلق لنفسه ذلك .

وأيضا يعلم الإنسان أنه ليس هو الذي ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم ، بدليل أنه لا يستطيع أن يرد نفسه إلى الشباب — وتلاحظ أن هذه المقدمات تستند إلى الحس والاستدلال الواضح .

وإذن فيما أن الإنسان ليس هو الذي يطور نفسه ، وبما أنه محمول رغم أنه على التطور ، فإنه ليس هو الذي أوجد نفسه ، ولا بد له من موجد هو الذي أوجده وهو الذي يدبر أمره وينقله من طور إلى طور .

بعد هذا ثبت الأشعري ضرورة وجود علة كافية لكل شيء حادث ويقرر أن من يجحد ذلك يصادم قوانين العقل .

وثبت الأشعري أن صانع العالم لا يمكن أن يكون جسما ، كما يثبت صفات الكمال التي للاله الحق وهي صفات الخلق والتدبير .

ومع أن دليل الأشعري يدور حول ظاهرة واحدة هي ظاهرة الإنسان ، فإن الفكرة التي يقوم عليها تشمل كل شيء حادث يسير بحسب قوانين ، وعالمنا كله كذلك .

والى جانب الآيات التي اخذ منها المتكلمون « دليل الايقان » توجد في القرآن آيات ، هي في ذاتها ، أشبه بالادلة المنطقية لإثبات وجود الله .

ففي القرآن مثلا هذه الآيات القصيرة الموجهة إلى منكرو وجود الله .

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون يوم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون » إلى قوله تعالى « أم لهم اله غير الله ، سبحانه الله عما يشركون » (س ٥٢ — الطور ، ٣٥ — ٣٦ ، ٣٧) .

والتأمل لهذه الآيات القصيرة يبين له أنها تتضمن بيان الاحتمالات الممكنة ، بحسب العقل ، فيما يتعلق بتعليل هذه الأشياء الحادثة التي نراها : ما هي العلة الحقيقية لوجودها ؟ ولذكور الاحتمالات على صورة الاستفهام المقصود منه تأكيد النقيض :

هل الأشياء الحادثة حدثت من غير علة ؟ هذا شيء يرفضه العقل .

هل هي أحدثت نفسها ؟ هذا أيضا يرفضه العقل لما فيه من تناقض .

ولو فرضنا أن بعض الكائنات يؤثر في وجود بعضها ، فمن الذي أوجد نظام الكون في جملة من السموات والأرض ؟!

وإذن فلا بد من علة لهذا النظام الكوني كله ، وهي الإله الخالق الحق .

والى جانب ما تقدم يوجد دليل آخر سماه العلماء « طريق إبراهيم » ، وهو يسعى في القرآن « حجة » ، وهو يؤخذ من الآيات التي تبين لنا موقف إبراهيم (ع) من قومه الذين كانوا يقدمون الأصنام ومناقشته لهم وتفكره في نظام الكون واهتماده من تغير أحوال الأشياء إلى أنها حادثة لا بد لها من محدث مخالف لها لا يتغير (وهذه الآيات هي : س ٦ — الأنعام ، ٧٤ — ٨٣) .

وفي القرآن آيات تتكلم عن شعور الإنسان عندما تحيط به الاضطراب المهلكة ، وأنه في أوقات الشدة يلجأ إلى موجد الكون الذي بيده قوى الطبيعة . وهذا الشعور في حقيقته ناشيء عن

معرفة ضمنية وعميقة في نفس الإنسان بأن له خالقاً هو خالق العالم ومدبره، لكن هذا الشعور الذي تغمره عوامل التقليد أو الإنكار أو الشك أو المكابرة والعناد أو الغرور، يتجلى في وقت الشدة . فهنا يتجلى ما في الفطرة وما في أعماق تفكير الإنسان . وقد أقام بعض العلماء دليلاً على وجود الله يستند إلى هذا الشعور ، كما فعل الطاهر بن طاهر المقدسي (ت حوالي ٢٤٠ هـ) في كتابه : « البدء والتاريخ » ، فهو يقول :

« من الدليل على إثبات الباري سبحانه وله النفوس وفزع القلوب إليه ، إذا حوت الحوادث ، اضطراباً ، إذ لا يوجد مضطر وقد مضته نائية ولدفته ناكبة يفرغ إلى حجر أو شجر أو مدر أو شيء من الخلق إلا إليه ، ويدعوه بما هو معروف عنده من اسم أو صفة - هذا مشاهد عياناً - كما تفرغ النفس عند المكاره المخوفة إلى طلب المهرب والنجاة ، وكما يفرغ الطفل إلى ثدي أمه ضرورة وخلقاً . كذلك الله في معرفة خلقه إياه ، إلا أن أثر الدلالة في الخلق عليه أعظم من أثر ميل الطبع إلى ما يلائمه وأزواره مما ينافره .

ولا يمكن الملحد المنكر ، وإن غلا وتعمق في الإلحاد ، الامتناع في معرفة الله وأجراء ذكره واسمه على لسانه ، شام أم أبي ، في حال عمده ونسيانه ، لأن قلبه ولسانه على ذلك خلق ، كما أن طبعه على الميل إلى المحبوب والأزوار عن المكروه جبل » .

على أننا نجد في القرآن ، إلى جانب هذا كله ، آيات كثيرة توجه الإنسان إلى الإيمان بالآله الحق من طريق الترهيب والترغيب ، أي من طريق التأثير النفسي ، مع الاستعانة بما بهز الخيال وبالأمثال التي تعبر عن حقائق وبروح الموضوعة الحسنة ، من أمثلة ذلك هذه الآيات :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تأتكل كل مرضعة مما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » إلى قوله تعالى « حشاه لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق (س ٢٢ - الحج ، ١ - ٢ ، ٣١) .

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظلمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » أو كظلمات في بحر لحي يفساه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (س ٢٤ - النور ، ٣٩ - ٤٠) .

« له دعوة الحق ، والذين يسمعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغة ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (س ١٣ - الرعد ، ١٤) .

« مثل الذين كفروا يرميهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يتقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد » (س ١٤ - إبراهيم ، ١٨) .

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال : يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » وإلى لا أصب الذي فطرنى وإليه ترجعون » اتخذ من دونه آلهة أن يردن الرحمن بضر لا تن منى شفاعتهم شيئاً ولا ينقلدون » أتى إذا لقي ضلال مبين » أتى آمنتم بربكم فاسمعون » قبل أدخل الجنة ، قال : يا ليت قومي يعلمون » بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » (س ٣٦ - يس ، ٢٠ - ٢٧) .

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم أن الله

لا يهدى من هو مسرف كذاب * يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله أن جعلنا (س ٤٠ غافر ، ٢٨ - ٢٩) .

ونلاحظ أن هذه الآيات الأخيرة تجمع بين روح الموعظة وبين التفكير المنطقي على صورة طبيعية بسيطة ، وتنجو نحو الافئدة والتوجيه للسامع أو القارئ من طريق دعوته إلى الموازنة .

وإذن ففي القرآن أنواع من الأدلة على وجود الله ، منها ما هو ذو طابع علمي فلسفي ، ومنها ما له طابع نظري منطقي ، ومنها أدلة اقناعية متنوعة تكفي لاقناع الإنسان على أساس سيكولوجي . وكلها جميعا لا تقطع الصلة بين الفكر والواقع .

والقرآن يفترض أن فكرة الألوهية موجودة في أذهان من يخاطبهم ، وهو يريد أن يقيم الدليل على وجود الله وعلى وحدانيته وتنزهه عن صفات الكائنات الحادثة المتغيرة التي نشاهدها ، ومن كل المفهومات والتصورات الانسانية .

« ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير » (س ٢ - الشورى ، ١١) .

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (س ٦ - الأنعام ، ١٠٣) .

على أن القرآن إذ يبين الطريق لمعرفة الله بالاستدلال على وجوده من النظر في العالم ويصفه بكل صفات الكمال الألفية بالأله الحق ، يشير إلى أن كنه ذات الله تعالى لا يدرك . وهو لذلك لا يتكلم عن « ماهية » الله أي عن حقيقة ذاته ولا عن « هويته » ، أي من هو ، حتى مع وجود المناسبة الدامية إلى ذلك ، وإنما يتكلم عن أفعاله وأنه الخالق المبدئ ، ويدل على ذلك الآيات التضمنية للمناقشة بين موسى عليه السلام وبين فرعون ، في موضعين من القرآن :

« قال فرعون : وما رب العالمين * قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله : ألا تستمعون * قال : ربكم ورب آبائكم الأولين * قال : أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون * قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » (س ٢٦ - الشعراء ، ٢٣ - ٢٨) .

« قال : فمن ربكما يا موسى * قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال : فما بال القرون الأولى * قال : علمها عند ربى في كتاب ، لا يضل ربي ولا ينسى * الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أضواجا من نبات شتى * كلوا واربعوا اتعلمكم ، أن في ذلك لآيات لأولى النهى » (س ٢٠ طه ، ٤٩ - ٥٤) .

على أساس هذه الآيات يستدل المفكرون المسلمون على أن ذات الله تعالى لا تدرك ، أعني أن العقل لا يحيط بكنه ذاته وأن كان يقطع بأنه موجود ، بالأدلة التي لا يمكن اتكارها .

وأيضا استنتج مفكرو الإسلام أن ذات الله لا يمكن أن تعرف التعريف المنطقي ، لأنه فريد في وجوده ، فلا يدخل في المفهومات العادية ، ولأن التعريف المنطقي يتألف من الجنس القريب والفصل ، وهو تعالى لا يدخل في جنس ولا نوع .

وعلى أساس الآيات المتقدمة أيضا قام البحث بين مفكرى الإسلام : هل لله « ماهية » بالمعنى الذي يطلق على الأشياء الحادثة التي يميز البعض فيها بين « ماهية » أو حقيقة يدركها العقل كالانسانية وبين وجود متميز بعميزات ومشخصات فردية مثل أفراد الإنسان وهو ما يسمى « الهوية » ؟ وذهب الجميع إلى أن الله تعالى لا يمكن أن تكون له ماهية يتضاف إليها الوجود كما في الممكنات المتكررة ، وأن له حقيقة مخصوصة لا يملها إلا هو .

ومن الطبيعي أن العقل الحادث المحدود لا يحيط بكنه المطلق الذي لا نهاية له .

ولذلك فإن القرآن عندما يتكلم عن الله فانه يذكر صفاته ويشير الى افعاله ، وايات القرآن في ذلك غنية عن الإشارة (انظر مثلا س ٢ - البقرة ٢٥٥ ، آية الكرسي ، س ٥٩ - الحشر الآيات الأخيرة ، س ١٠ - يونس ٣٠ س ٧ - الأعراف ٥٤ . س ١٣ - الرعد ٢٠ س ٣٠ - الروم ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٤) وقد يتكلم القرآن عن صفات الله على صورة التشبيه والرمز (س ٢٤ - النور ٢٥) .

مهما يكن من شيء فإن القرآن يعتبر أن ما فيه من ارشاد الى المعرفة بوجود الله وبكمالهِ ومن تنبيه الى هذا الكون وعجائبه كاف في بعث الايمان بالله والخشية له :

« لا ازلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (س ٥٩ - الحشر ، ٢١)

على انه اذا كان القرآن من جهة يرشد المتفكر الى الطريق المؤدى الى الايمان بوجود الله ايمانا استدلاليا يقوم على النظر العلمي والفلسفي في هذا العالم ، فانه من جهة أخرى يشير الى أن أساس الايمان بالله ، اثنى المعرفة بأنه موجود وأنه خالق الأشياء ، موجود في الفطرة الانسانية . ففي القرآن هذه الآية :

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (س ٣٠ - الروم ٣٠)

وفي الحديث الصحيح ما يدل على أن كل مولود يولد على فطرة الايمان بالله الحق ، ثم يتدين بدين والديه .

وفي القرآن ايضا ما يدل على أن الايمان بالله الى جانب انه معرفة أصلية فهو عهد وميثاق اخذه الله على الارواح الادمية كلها في عالمها ، قبل أن تظهر متلبسة بالابدان في هذه الدنيا .

« واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا من هذا غافلين » أو تقولوا انما اشرك آبؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتنهلكنا بما فعل المبطلون » وكذلك تفصل الآيات ولعلمهم يرجعون » (س ٧ - الأعراف ١٧٢ - ١٧٤)

ومعرفة الروح بوجود الله وبأنه هو الخالق لها ، تلك المعرفة الأصلية في عالم الارواح ، ليست معرفة استدلالية ، بل هي معرفة ضرورية أو تجربة روحية ، فيها تدرك الروح وجود ذاتها وتدرك أن الله هو مصدر وجودها .

وعلى أساس القرآن قام البحث حول المعرفة بالله ، وهل هي في هذه الدنيا استدلالية أو هي ضرورية بديهية مغروزة في الفطرة .

وقد ذهب البعض الى أن كل عقل فيه المعرفة بالله ، ولكنها مغمورة أو لا يستطيع الانسان أن يعبر عنها ، أو هي مغمورة بتأثير عوامل كثيرة .

وذهب البعض الى أن المعرفة بالله استدلالية ، وأنها نتيجة للنظر العقلي في العالم . والأولون هم في الغالب من الصونية الذين يعرفون بطبيعة الحال طريق النظر العقلي ويسلكونها ، وإلى جانب ذلك يسلكون طريق التصفية الروحية ليدركوا المعرفة بالله في أرواحهم ادراكا ذوقيا ويدركوا تدبير الله في كل شيء .

والآخرون هم أصحاب النظر والاستدلال ، و هم جماعة المتكلمين والفلاسفة بوجه عام ، وكل المؤمنين المشتغلين بالعلوم الطبيعية والكونية .

على انه لا تناقض بين الطريقتين ، لأن النظر والاستدلال لا يعارضان طريق التصفية ، وهما يؤيدان من طريق البرهان ما تثمره التصفية من معرفة ذوقية ، وان كانت هذه المعرفة اشبه بحياة حقيقة بالله وفي الله .

والصوفية يرون ان المعرفة بالله الموجودة في النفس من مهد : « الست بربكم » كالخط المكتوب على لوح وقع عليه غبار ، ثم ازيل ، فنعد ذلك يظهر الخط (١) . ويرد ذكر هذا العهد مع الله في اشعارهم ، مثل شعر ابن الفارض وشعر سمدى الشيرازي وغيرهما .

والصوفية المحققون في حضور دائم بين يدي الله ، حتى قال بعضهم : ما رايت شيئا الا ورايت الله فيه ، وقال الآخر : ما رايت شيئا الا ورايت الله قبله (٢)



ادلة مفكرى الاسلام على وجود الله كثيرة وهى متنوعة بحسب مدارسهم الكبرى ، من متكلمين وفلاسفة .

فاما المتكلمون من معتزلة واشاعرة فانهم جميعا يعتبرون ان اول واجب على الانسان هو ان ينظر بمقله ليعرف الدليل على وجود الله ويعتبرون ان حجة العقل هى الأساس للدين كله لان المعرفة بالدين المنزل وانه حق وان الانبياء الذين جاءوا به صادقون ، كل ذلك يقوم على العقل وهم يرون ايضا ان الفاعل لا يمكن ان يعرف الا بما يصدر عنه من افعال دالة عليه . وعلى هذا الأساس يؤكدون مبدأ العلية أى ان الحوادث لا بد له من علّة ، وانه يدل على علته بحسب ضرورة العقل .

وبناء على هذا كله فان دليل المتكلمين الرئيسى لاثبات وجود الله هو « دليل الحدوث » ، أى انه يستند الى النظر في هذا العالم والاثبات حدوث ما فيه من اجسام ، ثم اثبات وجود محدث له ، بمقتضى ضرورة عقلية لا شك فيها .

واذا نحن نظرنا في كتب متكلمي المعتزلة ، في مرحلة نضج علم الكلام عندهم (٣) وجدنا ان الدليل الذى يفضلونه يسير على الترتيب الآتى :

١ - هم يشيرون ان الاجسام « معاني » ، أى اشياء ندرکہا، هى الاجتماع والافتراق والحركة والسكون ، وهم يسمون هذه الامور الاربعة : « الاكوان » ، يقصدون انها الاحوال الرئيسية التى يكون عليها وجود الاجسام .

٢ - ويشيرون ان تلك المعانى حادثة .

٣ - وان الاجسام لا تنفك عن هذه الاكوان ولا تسبقها .

٤ - يبينون انه بما ان الاجسام لا تخلو من الاكوان ولا تسبقها فلا بد ان تكون حادثة مثلها .

(١) « فوائج الجمال وفوائج الجلال » لتجم الدين الكبرى ، ط القاهرة ص ١١ (تحقيق فريتر ماير)

(٢) هم يرون ان الله تعرف لامة النفس بضمته ، والى خاصتهم بكلامه ، والى الانبياء بنصه (راجع اعتراف للبحر اهل التصوف للكلابى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٣ - ٦٦)

(٣) راجع مثلا كتاب « شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، القاهرة ١٩٦٥ (مكتبة وهبة)

وفي بيان كل مقدمة من هذه المقدمات التي يسمونها : الدعاوى الأربع ، يردون على الاعتراضات التي توجه إليها ، مستندين في ذلك الى العقل . وبخصون بالرد مذاهب الفلاسفة المخالفة للحق .

وإذا نظرنا في كتب الأشامرة وجدنا الترتيب التالي :

بعد أن يعرفوا مفهوم « العالم » وأنه كل ما سوى الله تعالى وصفاته وأنه مؤلف من جواهر وأمراض ، أي من ذوات وصفات لها ، وأن الجسم يتألف من جواهر يقولون :

١ - توجد أمراض

٢ - الأمراض حادثة

٣ - الجواهر يستحيل أن تكون بلا أمراض

٤ - يستحيل أن تكون هناك حوادث لا أول لها ، بمعنى أنه يستحيل أن يكون قبل كل عرض مرض في الماضي الى ما لا نهاية .

٥ - الجواهر لا تسبق الحوادث التي تعرض فيها

٦ - إذن الجواهر حادثة ، لأن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث .

وبعد أن ثبت المتكلمون وجود المحدث يقيمون الدليل على أنه لا يمكن أن يكون جسماً ، وأنه لا بد أن يكون واحداً ، بدليل ثبت نظام العالم وتناسق أجزائه .

وهم يثبتون لله الصفات ، لا بحسب ما يتخيلون ، بل على أساس النظر والاستدلال من وجود العالم وأحواله :

مجرد وجود العالم يدل على القدرة ، وهم يبدعون بالثبات هذه الصفة لأن العالم نتيجة لها . ووجود العالم على نحو معين ، ووجود الأشياء ، كل بحسب أحواله الخاصة به ، يدل على أن الإله مريد وأنه فعال لما يريد .

ووجود الأحكام والأنساق في نظام الأشياء يدل على أن الله عالم حكيم .
والإرادة والعلم والحكمة تدل على أن الإله حي . . وهكذا الاستدلال على بقية الصفات .
والمتكلمون في إثباتهم لوجود الله يؤكدون التنزية الكامل لذاته عن مشابهة الكائنات الحادثة ، ويردون على المذاهب المادية وعلى القائلين بالطبيعة وفعلها ردوداً تستند الى النقد لمفهوم الطبيعة وكل استدلالهم يقوم على العقل والواقع الذي يشاهده الإنسان في الكون أو في نفسه .

ولا نجد عندهم تصورات خيالية كعند فلاسفة اليونان ولا مشكلات مصطنعة من قبيل القول بأن كون العالم محدوداً يثير مشكلة عدم دلالاته على القدرة المطلقة والعلم والحكمة التي لا نهاية لها . وهم بحكم قولهم بحدوث العالم يقولون بأنه محدود منته ، ولكنهم يقولون أن ما يمكن أن يصدر عن الله لا نهاية له ولا حدود ، ولكنه يظل دائماً شيئاً حادثاً منتهياً ، وأن كانت قدرة الله صالحة لإيجاد ما لا نهاية له .

وهذا ناشيء من تمييزهم الواضح بين الفاعل الحق أي الخالق القادر المبدع ، وبين الأشياء المخلوقة المحدودة .

- على أن بعض المتكلمين انفرد بأدلة على وجود الله اختص بها
فيذكر لإبراهيم بن سيار النظام ، المتكلم المعتزلي الذي نبغ في النصف الاول من القرن
الثالث للهجرة دليل على وجود الله يمكن تلخيصه فيما يلي :
- الاشياء في هذا العالم مختلفة متضادة بطبيعتها ؛ لكنها مجتمعة ومقهورة على خلاف طبيعتها .
ولما كان الضدان لا يجتمعان من ذات انفسهما فان اجتماعهما يدل على فعل لهما على خلاف
طبيعتهما ، والخاضع لقهر غيره ضعيف حادث محتاج الى محدث .
- وللأشياء دليل على وجود الله تقدم ذكره (ص ١٦٢ - ١٦٤) وهو يستند الى تغير احوال
الاشياء تغيرا خارجا عن قدرتها وارادتها مما يدل على صانع لها يدبر أمرها .
- وعند المطهر بن طاهر المقدسي (١) الذي نبغ في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة اجمال
كثير من الأدلة على وجود الله ، وأهمها :
- ١ - الدليل الذي يمكن أن نسميه « دليل الاضطراب » او « دليل الافتقار » ، وقد تقدم
ذكره (ص ١٦٣ - ١٦٤) وهو يتلخص في التجاء الانسان في أوقات الشدة الى موجد نظام الكون ،
إيمانا بذلك في قرارة نفسه .
- ٢ - الدليل المستند الى اجماع الامم على وجود صانع مدبر ، على نحو ما لاحظنا عند
الرواقيين (٢) .
- ٣ - الدليل الثاني ، مع مزجه بالدليل الكوني ، وصورته هكذا :
- « ومن الدليل على اثبات الباري سبحانه هذا العالم بما فيه من مجيب النظم وبديع
التركيب ومحكم الصنع ولطيف التدبير والاتساق والاتقان ، فلا يخلو من ثلاثة أوجه :
- أما أنه لم يزل كما هو ،
وأما أنه لم يكن ، فكان بنفسه ،
وأما أنه كونه مكون ، هو غيره ،
- فلما استحال أن يكون قديما لم يزل ، لمقارنة الحوادث اياه وأن (ما) لم يخل من الحوادث
فحادث مثلها ،
- واستحال أن يكون الشيء نفسه ، لاستحالة الكائن أن يَبْقِيَ نفسه - فكيف يجوز توهّم
المعْدوم أن يتركّب فيصير عالما ،
- لم يبق غير الوجه الثالث وهو أنه كونه مكون هو غيره ، غير معدوم ولا محض ، وهو الباريء
جلّ جلاله »
- ٤ - الدليل المستند الى تساوت المخلوقات في درجاتها : فلو كانت الاشياء راجعة الى ما
يسمى الطبيعة لاستوت أحوالها وتكاسفات أسبابها ولم تتفاوت ،
- فلما وجدناها على خلاف ذلك فلا بد لها من مدبّر ، وهو الله .
- ٥ - الدليل الثاني المستند الى الاتقان والدقة والنظام في كل شيء ، مما يدل على تدبير
قادر حكيم ،

(١) في كتابه البهيم والتاريخ ج ١ ، بيروت (مكتبة خيال) ، ص ٩٤ فيما بعدها .

(٢) ص ١٤١ مما تقدم .

ويرد القدسي على القائلين بأن هذا العالم في نظامه وتركيبه يرجع الى فعل الطبيعة ، على النحو الآتي :

« فان زعم أن تركيب هذا العالم على هذا النظم والتركيب من فعل الطبايع ، فالطبايع اذن احياء قادرة حكيمة مالة . ولم يبق بيننا من الخلاف الا تحويل الاسم وتغيير الصفة .

وان اكرر حياة الطبيعة وحكمتها وقدرتها ، فكيف يجوز وجود فعل محكم متقن من غير حكيم حي قادر !

ولا محيص للملحد من حجج الله وآياته ، فكيف وهو حجة بنفسه ولغيره ... »

وهناك اشارات عند المقدسي الى ادلة اخرى اقناعية مثل :

مجرد اثاره السؤال : هل الاله موجود ؟ يدل على وجوده .

وكذلك شك الشاكين في وجوده له نفس الدلالة

وايضاً وجود الخير والنشر والثواب والعقاب يقضى بضرورة وجود الاله



والتكلمون يهتمون باليات مبدا الملة على اساس مستمد من الواقع والتجربة ومن طبيعة العقل . وهم ايضا يهتمون بأقامة الدليل على انفراد الله تعالى بالازلية ويبينون ان القول بقدم المادة مستحيل ، لانها تتغير ، ويصيرها الانفعال والاعتماد ، سواء كانت ميتة او حية ، وهذا يناقض مفهوم الازلية والقدم .

وجميع المشتغلين بالعلوم الطبيعية والكونية والانسانية من علماء الاسلام لا يفلتون في كتبهم عن الاشارة المستمرة لوجود الله وتدبيره للعالم وآياته صنعته الظاهرة في نظام العالم ونظام العقل واحوال النفس ، بحيث يمكن القول ان طائفة كبيرة جدا من مفكرى الاسلام تقيم الأدلة على وجود الله على اساس علمي مستمد من صميم الواقع .

وقد اكتسبت العلوم الطبيعية عند الاسلاميين بواعث كثيرة من تنبيه القرآن للكون وآياته ، وهنا تصدق كلمات كنت في قوله ان الدليل الفيزيقي الديني بمد البحث الطبيعي ببواعث وغايات . وكما ان العلم المتزايد بالصنع يؤدي الى ترايد العلم بالصانع فان العلم بوجود صانع لا نهاية لقدرته وعلمه وحكمته بمد الباحث في الكون بروح تساعد على اكتشاف متزايد لاسرار الكون .



ولفلسافة الاسلام ادلتهم على وجود الله . ولا بد من التمييز بينهم ، نظرا لتنوع طرقهم في اقامة هذه الأدلة .

فالكندي ، مؤسس الفلسفة الاسلامية ، يمثل اتجاهها مستقلا . ولو نظرنا في كتبه لوجدنا ادلة على وجود الله تقوم على مقدمات واضحة : اما من البديهيات الرياضية والمنطقية ، واما من النظر في الواقع الكوني . وهم ادلته على وجود الله :

١ - الدليل الذي نستطيع أن نسميه : « دليل التناهي » ، لانه يقوم على اثبات تناهي هذا العالم من حيث امتداده المكاني ، ومن حيث مدة زمانه ، ومن حيث حركته .

والكندي يربط بين الجسم والزمان والحركة ، كما فعل أرسطو ، لكن على حين قال أرسطو بأزلية هذه الأشياء بلا دلائل كاف ، فان الكندي أقام الدليل على تناهيها ، وبذلك أثبت بداهتها وحدوثها ، أي حدوث العالم وضرورة محدثه . ودليله يستند الى فكرة مقبولة منذ أيام أرسطو وهي : أن كل ما يحدث ويخرج الى حيز الوجود متتابعاً على هيئة وحدات أو اجزاء ، لا بد أن يكون متناهياً من أوله ومن آخره ، والا أدى خلاف ذلك الى التناقض .

فنحن لو فرضنا أن امتداد هذا العالم في المكان او مدة وجوده في الزمان او حركته وحركة

ما فيه ، شيء لا نهاية له ، ثم نظرنا من نقطة ما ، فإن الامتداد المكاني أو الزماني يكون بلا نهاية بحسب الفرض . فلو اتنا نظرنا من نقطة أخرى تكون مع النقطة الأولى على خط مستقيم وتبعد عنها ، لكان عندنا أيضا ، بحسب الفرض شيء لا نهاية له . لكن ذلك يؤدي إلى تفاوت الامتناهي أو إلى أن يكون الجزء مثل الكل . والتفاوت يدل على التناهي ، والقول بأن الجزء مثل الكل تناقض .

ومن جهة أخرى فإن انتهاء الحوادث إلى حادث يصل إلينا ، شيئا كان أو زمانا ، يقتضي أن يكون ما سبقه من حوادث وأشياء جاء هو في الترتيب بعدها ، شيئا متناهيا .

ولذا ثبت تناهي الزمان والحركة من جهة البداية في الماضي ثبت حدوث العالم ووجود محدث له (١) .

٢ - الدليل الذي يستند إلى ما نشاهده في الأشياء من أنها تعتبرها وتتوالى عليها أحوال التغير من وحدة وكثرة وتركيب وانحلال ، فتتابع هذه الأحوال يدل على أنها ليست للأشياء بحكم طبيعتها ، فلا بد أن تكون راجعة لعللة خارجية عنها .

٣ - الدليل المنطقي التحليلي وهو يتلخص في أن الشيء الحادث لا يمكن أن يكون هلة لحدوث ذاته لما في ذلك من تناقض ، لأنه لكي يحدث ذاته لا بد أن يكون موجودا ، وبما أنه لم يكن موجودا ، فانه يستحيل أن يحدث ذاته .

٤ - وعند الكندي الدليل الغائي على صورة واضحة تجمع بين الاعتماد على الحس وعلى العقل ، يقول الكندي :

« أن في الظواهر للحواس ، أظهر الله لك الخفيات ! لاوضح الدلالة على تدبير مدبر أول ، أعنى مدبرا لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكونا لكل مكون ، وأولا لكل أول ، وعلّة لكل علّة ، لمن كانت حواسه الآلية (٢) موصولة بأضواء عقله ، وكان المزكى عنده ، في كل أمر شجر بينه وبين نفسه ، العقل فان في نظم هذا العالم وتربيته وفعل بعضه في بعض واتقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض واتقان هيئته على الأمر الأصح في كون كل كائن وفساد كل فاسد ونبات كل ثابت ، وزوال كل زائل ، لأعظم دلالة على اتقن تدبير - ومع كل تدبير مدبر - وعلى أحكم حكمة - ومع كل حكمة حكيم - لأن هذه جميعا من المضاف . . . » (٣)

والكندي يتكلم في رسالته عن الأحكام والنظام في هذا العالم ويرى أن ما فيه من الدقة والاتقان يفرق ما نجده في الصنائع الدقيقة ، لكن لا يدرك جمال الكون في جملته إلا أصحاب « العيون العقلية الصافية » ، وأهل المرتبة العالية في العلم بهيئة العالم ونظام الطبيعة . (٤)

والكندي يثبت الوجدانية لله ، كما يثبت تنزيهه عن جميع المفومات التي تصدق على الأشياء التي نعرفها ويسميها : « الواحد الحق » أو « الإنية الحق » . وليس معنى ذلك أنه يتصور أن الإله مجرد كائن غير مادي مفارق لعالم الحصر ، كما هو الحال عند فلاسفة اليونان بوجه عام ، بل الإله عنده ذات حقيقية ، وهو ، إلى جانب تنزيهه له عن التصورات الإنسانية ، يصفه بكل الصفات التي لا بد منها للخلق والتدبير : من القدرة والعلم والحكمة والرحمة وكمال العناية بالخلقوقات والتدبير لكل شيء بما يصلح أمره .

(١) راجع لتفصيل هذا الدليل وغيره من أدلة الكندي في نشرتنا لرسالته الفلسفية ، (الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٧٠ فما بعدها .

(٢) أي أعضاء الحس عنده ، أي إله يحس ويقرر فيما يدركه بحواسه .

(٣) رسائل الكندي الفلسفية ، ج ١ ص ٢١٤ - ٢١٥

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٧

عند الفارابي نجد أساسا جديدا وطريقة جديدة لا ثبات وجود الله . كان الفارابي فيلسوفا ميتافيزيقيا مثالي النزعة . وهو وإن كان يسلم بدلالة هذا الصنع البديع المتجلى في نظام الكون على وجود صانع حكيم ، فإنه لا يفضل سلوك هذا الطريق ، ويؤثر طريق التأمل لمفهوم الوجود وتحليل هذا المفهوم . يقول الفارابي :

« لك أن تلاحظ عالم الخلق فتري فيه أمارات الصنعة (١) . ولك أن تعرض عنه وتلاحظ عالم الوجود المحض (٢) ، وتعلم أنه لا بد من وجود بالذات ، وتعلم كيف ينبغي أن يكون عليه الوجود بالذات . فإن اعتبرت عالم الخلق فانت صاعد (٣) ، وإن اعتبرت عالم الوجود المحض فانت نازل ، تعرف بالنزول أن ليس هذا ذاك (٤) وتعرف بالصعود أن هذا هذا (٥) - «سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق (٦) ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٧) » .

« ففس : إذا عرفت أولا الحق ، عرفت الحق وعرفت ما ليس بحق ، وإن عرفت الباطل أولا ، عرفت الباطل ولم تعرف الحق على ما هو حقه ، فانظر إلى الحق ، فانك لا تحب الأفلين ، بل توجه بوجهك إلى وجهه من لا يبقى إلا وجهه (٨) »

وتفصيل الطريق التي يؤثرها الفارابي تتجلى في قوله : الموجودات على شريين :

أحدها إذا اعتبرنا ذاته لم يجب وجوده ، وهو يسمى ممكن الوجود .

والثاني إذا اعتبرنا ذاته وجب وجوده ، وهو يسمى واجب الوجود .

فإذا فرضنا أن ممكن الوجود غير موجود لم يلزم من ذلك محال ، فإذا وجد فلا غنى لوجوده من ملة . ولا يجوز أن تمر السلسلة بلا نهاية ، بل لا بد أن تنتهي إلى شيء واجب الوجود هو الموجود الأول .

هذا الدليل يمكن أن نسميه « دليل الامكان » .

وعند الفارابي دليل آخر يقوم على التمييز بين حقيقة الأشياء أو ماهيتها (مثل الإنسانية بالنسبة لأفراد الإنسان) وبين وجودها المتشخص المشار إليه أو هويتها (مثل أفراد الإنسان) ، فبما أن للممكنات « ماهية » « هوية » ، وليست الأولى داخلية في الثانية ولا الثانية في الأولى ، ولا أحدهما تقتضي الأخرى ، فانهما إذا اجتمعتا فلا بد لهما من مبدأ مقارن لهما ماهيته عين هويته .

ومع أن الفارابي يعترف بأن مفهومات « الوجود » و « الوجوب » و « الامكان » ، مفهومات عقلية أولية ، فإنه يمكن إثارة الإشكالات حولها ، كما يمكن إثارة الإشكال حول عدم كفاية « دليل الامكان » في إثبات وجود الإله الحق . ولو قال قائل أن هذا العالم واجب الوجود ، ووجوده من

(١) وتستعمل بها على وجود الصانع

(٢) فتري أنه إما أن يكون وجودا بالذات يعني وجودا واجبا لله وإما أن يكون ممكنا وجوده من غيره .

(٣) من الطول إلى القصر .

(٤) أي تستطيع أن تفرق بين الواجب والممكن .

(٥) أي ربما لم تتخطى من التصورات المتطرفة بالأشياء فلم تتردد ذات الواجب من ذات الممكنات .

(٦) هذا هو الطريق الأول الذي يسلكه الحكماء الطبيعيون الذين يستدلون بالخلق على الخالق .

(٧) هذا هو طريق الحكماء الإلهيين الذين يستدلون بالخالق على الخلق ، أي يعرفونه أولا ثم ينظرون إلى الطولات .

(٨) فصوص الحكم الفارابي .

ذاته ، فإنه لا يمكن إبطال دعواه إلا بالثبوت حدوث العالم وأنه ملول بالمعنى الحقيقي . وهذا الاعتراض قد وجهه المتكلمون المتفلسفون ، مثل فخر الدين الرازي (١) ، على دليل الفلاسفة .

ولا يخرج دليل ابن سينا على وجود الله ، كما نجد هذا الدليل في كتاب « الاشارات » ، مما يقوله الفارابي ، وإن كان كلام ابن سينا أكثر تفصيلا وأحسن أسلوبا من كلام الفارابي .

والمهم أن الفلاسفة الميتافيزيقيين يبنون دليلهم على الاستنباط من مفهوم الوجود وأنهم يستنبطون صفات واجب الوجود استنباطا نظريا وينزهونه من صفات الكائنات الحادثة .

ودليلهم على إثبات الواجب يتضمن إثبات أن الجملة المؤلفة من ممكنات لا بد أن تكون معلولة لعلة خارجة عنها ، وبذلك لا يتوجه على دليلهم الاعتراض الذي أثاره كنت فيما تقدم ، حيث أثار أشكال دعوى أن تكون الجملة المؤلفة من ممكنات شيئا واجبا بذاته ، على خلاف حكم الممكن الجزئي .

ويمكن تلخيص الكلام في طريقة الفلاسفة والمتكلمين على النحو الآتي :

« طريق إثبات الواجب عند الحكماء : أنه لا شك في وجود موجود : فإن كان واجبا فهو المرام ، وإن كان ممكنا ، فلا بد له من علة بها ترجع وجوده فننقل الكلام إليه . فاما أن يلزم الدور أو التسلسل ، وهو محال ، أو ينتهي إلى الواجب وهو المطلوب .

وعند المتكلمين : أنه قد ثبت حدوث الصالح ، أو : لا شك في وجود حادث ، وكل حادث لبالضرورة له محدث : فاما أن يدور أو يتسلسل ، وهو محال ، واما أن ينتهي إلى قديم لا يفتقر إلى سبب أصلا ، وهو المراد بالواجب .

وكلا الطريقتين مبني على امتناع وجود الممكن أو الحادث بلا موجد وعلى استحالة الدور أو التسلسل .



أن موضوع هذه الدراسة هو الإيمان بالله في عصر العلم . والقصد ، بطبيعة الحال ، هو العلم بمعناه الحديث .

لكن المعرفة العلمية بوجه عام بدأت منذ زمان بعيد ، خصوصا على يد اليونان ، وارتقت ارتفاعا كبيرا على يد العرب ، وعاش مفكر العصور الوسطى الأوروبية على التراث اليوناني كما عرضه العرب وأصلحوه ، سواء في الناحية النظرية أو العملية التطبيقية .

ثم ظهرت الحركة العلمية الحديثة في أوروبا مع عصر النهضة ، وازدهرت على يد فلاسفة علماء ، إلى أن تميز العلم بمنهجية وتحديد موضوع اهتمامه ، خصوصا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

وكل الأدلة التي تقدم ذكرها لإثبات وجود الله هي في عصر العلم بمعناه الواسع ، وإن كان بعضها له صبغة نظرية مجردة ، وبعضها الآخر يتكلم عن الطبيعة والاستدلال منها كالأدلة لا يستند إلى علم كاف بالطبيعة .

وتتميز المرحلة الحاضرة للمعرفة العلمية بمميزات كثيرة جدا من الناحية الحسية التجريبية ومن الناحية النظرية على السواء .

(١) في مؤلفاته مثل : « المطالب العالمة » و « نهاية المقول » ، وهذا لا يزال مطبوع .

(٢) شرح القصد الفلاس والفلاس من كتاب القاصد للتتالي ، مطبوع بباريس رقم ١٦٦٥ ورقة ٢ ب

وكثير من المفاهيم والتصورات والاحكام العلمية الماثورة من القدماء ، بل التي كانت مقبولة عند العلماء في الصور الحديثة ، تغيرت تماما وحلت محلها مفاهيم واحكام أخرى .

والعرفة بالكون ازدادت زيادة كبيرة ، سواء فيما يتعلق بالاشياء التي لا نهاية لها في الكبر او التي لا نهاية لصغرها . ومع ذلك فان العالم الكبير يشعر بضالة ما وصل اليه من معرفة ، بل هو اليوم أقوى شعورا بذلك منه في أي وقت مضى . وانتهى عصر الغرور بالمعرفة العلمية السطحية وبالنظريات والآراء العلمية التي سيطرت على العقول فترة طويلة وكانت نتيجة لتسرع لمعرفة سطحية ولامزجة غير متزنة ، مثل التصورات المادية في تحليل ظهور الاشياء والتصورات الميكانيكية في تفسير ظاهرات الحياة وتطورها والفكر ونشاطه ، وانتهى ذلك الغرور بفضل ازدياد المعرفة العلمية اتساعا وعمقا على نحو يشر باستمرار لا ينقطع ويفتح مجالات للمعرفة وتطبيقاتها لا تقف عند حد . والان يقف العلماء امام هذا العالم في نوع من الفطة العقلية بسبب ماوصلوا اليه من معرفة بالعالم جديرة بان تؤتي صاحبها للذة لا مثيل لها ، وفي نوع من الاتزان والتريث في الحكم على الاشياء وخصوصا في نوع من الثقة المستنيرة بالانسان وبنظام عالمه وبمركزه في عالمه ، وان كانت هذه الثقة لا تزال تحتاج الى سند لروح الانسان أكثر مما تمنحه اياه استنتاجاته السليمة من ملاحظاته للطبيعة وشعوره بمركزه فيها .

وفد بعثت المعرفة العلمية في عقول المشتغلين بالعالم حدودا وافكارا كثيرة تتجاوز معطيات التجربة بكثير ، وبعثت في قلوبهم انوعا من الاحاسيس والاحوال النفسية تحركت منذ ازمة بعيدة في قلوب المالمين لنظام العالم واحكامه ودقة صنعهم وعالمه ، فوقفوا منه موقف التقديس الماطفي الشعري ، لكنها في نفوس العلماء المحدثين ، بفضل ما اكتشفه امام عقولهم من آفاق المعرفة العلمية ، تأخذ صبغة أخرى تجمع الى الماطفة عنصرا عقليا منطقيا .

ويخطيء من يتصور أن العالم بالمعنى الحديث مجرد انسان يستعمل ملكات الملاحظة والتفكير في دراسة موضوعية للاشياء ، دون أن يكون له موقف فكري منها ، ودون أن يتطلع عقله الى معرفة اعمق بكثير من الاسرار التي لا تزال الملاحظة تعيط عنها اللثام .

ان العالم الحديث انسان يعيش في حضارة وثقافة ، وهو في تعامل معها ، لانه وليدها ، وهو في كثير من الاحيان يعود الى الافكار الدينية أو الفلسفية ويراجعها في الجو الذي يعيش فيه ، ويكون له رأيا في قيمتها الحقيقية ، ويدرك علاقتها وأهميتها لحياهه .

ولا يكون الانسان بعيدا عن الصواب اذا قرر ان الكثيرين جدا من العلماء يعودون الى وجهات النظر الدينية بعد فترة ابتعاد عنها ، وأن العلم يدعو الى الايمان بالخالق القادر الحكيم . وبين السند والاساس للرسالة الخاصة للانسان .

على أنه كما كانت الاديان المنزلة لم تفهم الفهم الكامل بسبب اشتغالها على امضل موضوعات المعرفة ، وهي : حقيقة هذا الكون ، وحقيقة الانسان ، ومصدر وجودهما ، وبسبب قصور المعرفة الإنسانية عن حل هذه المعضلات حلا صحيحا ، فان بعض العلماء يصبحون بينهم وبين انفسهم فلاسفة ولاهوتيين ، بل صوفية ، ويشيرون من الاسئلة الجوهرية فيما يتعلق بالعالم والاله والانسان ما يحتاج الى توضيح ، لكن لما كان الاشتغال بذلك ليس من مصمم بحثهم فان كثيرا من العلم الذي وصلوا اليه ، وبغيد في توضيح المشكلات ، يظل خاصا بهم ، الا اذا استفاد منه أصحاب الميادين الأخرى في الباث ما يفهمهم . والعلماء في المادة لا يتكلمون في هذه الميادين خصوصا ميدان

الإيمان الا عند الضرورة : اذا سئلوا عن ذلك(١)أو أنكروا متفلسف أو عالم (٢) وجود الله أو زعم أن العلم يتناقى مع القول بوجود الله ، فعند ذلك يتكلمون في الموضوع من حيث هم علماء مؤمنون لا من حيث هم علماء عقائد متخصصون .

وقد كان لا بد قبل الكلام عن الإيمان في عصر العلم من بيان نوع الأدلة على وجود الله ، لكي تتبين أسسها ومقدار قوة السند الذي تستند إليه ، سواء من المعرفة بنظام العالم أو بنظام الفكر ، ويتبين مدى ما بلغت المحاولة الإنسانية في سيرها نحو المعرفة بالحقيقة الكبرى التي هي مصدر كل حق وكل حقيقة .

ولا يمكن ادراك أهمية العلم الحديث في إثبات وجود الله إلا اذا عرفنا :

أولا : سبب الالحاد في العصر الحديث خاصة

ثانيا : نظرة العلم الحديث للعالم وكيفية دراسته للأشياء وتفسيره لها .

وقد كان هناك الحاد وملحدون دائما ، لم يخل منهم عصر ، ومعظم الحادهم نتيجة الهوى أو الجهل أو الى مزاج شخصي غير متزن انحرف بصاحبه عن الحكم السليم . وبعض الحادين يعتمد الأمر أو آخر ، محاربة الإيمان بوجود الله .

اما في العصور الحديثة فان الالحاد يرجع — بالإضافة الى ما تقدم ، الى مذاهب فلسفية زائفة في تفسير الكون يقلبها المعاجزون عن الاستقلال في التفكير ، أو الدين ينفون من وراء إجاباتها تحقيق افراض شخصية .

من هذه المذاهب المذهب المادي الذي صار يمثل في العصور الحديثة أفراد كثيرون من المشتغلين بالعلوم الطبيعية . وهم كثيرون خصوصا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر منذ أيام الطبيب الفرنسي لامتري La Mettrie (ت ١٧٥١) في كتابه الذي سماه : « الإنسان الآلة » (L'Homme Machine) الى أيام عالم الأحياء الألماني ارنست هيكل Ernst Haeckel (ت ١٩١٩) الذي دافع عن نظرية التطور وزعم أن المادة هي الموجود الوحيد ، وأن الحياة نشأت من المادة على نحو غير مقصود . وفيما بين هذين الرجلين ظهر كثيرون جادوا بتأكيدات يدل تطرفها على عدم صحتها ، من قبيل ذلك ما زعمه البارون فون هولباخ P.H.D. von Holbach (ت ١٧٨٩) من أنه لا يوجد سوى المادة والحركة والمليئة ، وما ادعاه ج . كالبانيس G. Cabanis . من أن الدماغ (المخ) يضم الانطباعات التي تأتي من الحواس وأنه يفرز الأفكار على نحو ما ، وما ذهب اليه

(١) مثل الكتاب الذي نشره John Clover Monsma بعنوان :

The Evidence of God in an expanding Universe, G.P. Putman's Sons, 1958, New York

وذلك بعد ان سال اللاتين هانا من مختلف التخصصات في العلوم الكونية والطبيعية والرياضية عن رأيهم في وجود الله . وقد اجاب كل منهم مستندا الى ملاحظات وتائج من ميدان تخصصه وكلم يؤمنون بوجود الله إيمانا علميا. وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية الأستاذ : د. دمرداس مرجان ، ونشره مؤسسة فرانكلين بالقاهرة بعنوان : العلم في عصر العلم .

(٢) مثل الكتاب الذي ألفه العالم Cressy Morrison بعنوان

Man does not stand alone (الإنسان لا يثق وحده ، أي : الإله موجود وهو خالق الكون والإنسان) ردا على كتاب Julian Huxley بعنوان : Man stands alone = الإنسان يثق وحده = لا يوجد الله . وقد ترجم الأستاذ محمود صالح الطائي الكتاب الأول بعنوان : العلم يدعو الى الإيمان ، نشره في القاهرة منذ ١٩٥٢ — مؤسسة فرانكلين .

الفيولوجي الهولندي . مولشوت J Moleschott (ت ١٨٦٣) من أنه بدون فوسفور لا يكون هناك تفكير ، وما قاله ل . بوخنر L. Buechner من أن المادة هي الأساس الأول لكل الوجودات ، وأن في المادة كل قوى الطبيعة وكل القوى الروحية ونحو ذلك من تأكيدات مطلقة لا يقبلها العقل العلمي الحديث .

وكان من أسباب هذه الفلسفة المادية مالموظ من أن الصور الكبرى للوجود الذي نعرفه، وهي : المادة والحياة والفكر ، توجد في عالمنا هذا متداخلة ومربطة . ولغير سبب ظاهر أو دليل مقنع رد الماديون الحياة والفكر إلى المادة ونشاطها، وساعد على ذلك دعوى مأثورة من قدماء اليونان لم يتناولها الباحثون بالنقد ، وهي القول بأن المادة أزلية، فقبلها البعض وحاولوا تأييدها بتجارب كيمائية تسئل على أن وزن المادة في مركب نخضعه للتحليل والتصفيد لا يتغير ، فذهبوا إلى أن المادة لا تفنى ولا تستحدث . وتمسك البعض بمثل هذه التجربة التي لا يصح أن تتخذ دليلا على أكثر مما فيها ، إلى أن جاء العلم الحديث فغير مفهوم المادة وأثبت تبعا لذلك حدوثها وإمكان فناها .

وكان من أسباب الاتحاد نظريات التطورات التي كانت نتيجة للملاحظات جديرة بالتقدير ، لكنها لم تفسر نشأة الحياة ولا تطورها تفسيراً يقنع العقل المستقصي ولا هي نظرت الحياة ضمن محاولة لتفسير العالم . فالبعض انخدع بهذه النظرية وتشكك في وجود الله مع أن هذه النظرية، حتى على فرض صحتها ، لا يمكن أن تدل على أنه لا يوجد الله ، وإن كانت قد تتعارض مع الفهم الحرفي لبعض النصوص الدينية التي يمكن تأويلها للداع عقلي قطعي ، وهذا غير متوافر في نظريات التطور .

ثم أن كثيرا من العقول انخدع بمذاهب فلسفية أخرى هي مزيج من دعاوى يكذبها الواقع مثل المذهب الإرادي (Voluntarism) الذي مثله شوبنهاور A. Schopenhauer (ت ١٨٦٠) أو مزيج من الخيال الفلسفي والأسلوب الأدبي كالمذهب الحيوي (Vitalism) الذي مثله برجسون H. Bergson (ت ١٩٤٠) ، وكلها مذاهب تكلم أصحابها من الكون والحياة من غير أن يكونوا علماء متخصصين فيما تكلموا فيه .

وكان للنظريات المثالية المتطرفة دورها في إبعاد بعض العقول عن الطريق السليم للمعرفة بوجود الله ، وهو النظر في هذا العالم .

إن طريقة العلم الحديث في دراسة هذا العالم تعتمد على الحس والعقل ، دون شرود الخيال . وإذا كان العلماء يستعينون بالخيال فهو ما يسمى « الخيال العلمي » الذي يخدم تفسير الظواهر ويتقيد بالواقع .

فالحواس تنطبع بمؤثرات من أشياء في هذا العالم ، وتؤدي هذه الانطباعات إلى العقل ، والعقل يتناولها بقوالبه ومقولاته فينظمها من جهة ويحاول التفسير من جهة أخرى . وهو في تفسيره يتقيد بالواقع ولا يخرج عنه إلا بخطوة منطقية ، باحثا عن صلة قريبة أو علاقة ثابتة مطردة بين الظواهرات ، أو منتها إلى حكم منطقي يبنيه على مبدأ المثلثة ، وعلى ما يقضي به العقل في حدود الاستنباط الذي يكاد يكون دائما استنباطا مباشرا .

والطريق الأول للمعرفة بوجود الله عند العلماء المحدثين هو المتفق مع الروح العلمية الحديثة .

هم يبدعون من دراسة الواقع دراسة دقيقة تشمل كل جوانبه .

فهم يدرسون طبيعة الأشياء ووظيفتها ، من ذرات المادة في عالم الطبيعة ، وكرات الدم في الانساني ، الى الأرض وما عليها ، والشمس وما يدور حولها .

ويدرسون الانتظام والتوافق ، لا في داخل الشيء الجزئي وحسب ، بل في جملة النظام كله .

ويلاحظون الترابط والغائية والوحدة .

وهم في تفسيرهم للأشياء لا يقبلون المفاهيم غير الواضحة ، مثل مفهوم الصدفة ، ولا التفسيرات غير الكافية ، مثل التفسير الميكانيكي للثألية الظاهرة في الطبيعة أو التفسير التطوري أو نحوها .

وادلهم على آرائهم تستند من حيث المبدأ الى الواقع وملاحظته ، ولا تستند الى الجدل الا عند تحليل المشكلة ، أو عند تلخيص نتيجة الاستدلال على صورة قياس منطقي بسيط واضح .

على أن هذا لا يمنع من أن بعضهم يحاول أن يتجاوز الحدود الضيقة للاهتمام العلمي الحديث الى شيء من روح التفلسف ، لكن باعتبار أن « كل انسان ، حتى أولئك الذين يشتغلون بالعلوم الطبيعية لديه ميل أو نزعة نحو التفلسف » (١) .

ولما كانت الطريقة العلمية تقتضي العرض المحدد للأداء والتعبير عنها بأبسط عبارة ممكنة ، فإنه يتحتم علينا مراعاة ذلك في بيان رأى العلم والعلماء اليوم في النقطة الرئيسية المتصلة بالإيمان بالله وبإقامة الدليل على وجوده .

وأول ما ينبغي أن نشير اليه هو التجربة الدينية عند العلماء . ونحن قد ذكرنا أنهم يعيشون في تراث ثقافي - روحي يحملونه في أرواحهم ، لأنهم يتلقونه في التنشئة الروحية والفكرية . ومنهم من يؤكد هذا العامل ويضم اليه عامل الخبرة والأحاسيس الداخلية العميقة التي لا تصل الى أعماقها المجادلات الفكرية ، ويعتبرون أن تجاهل هذه المعرفة الكامنة في النفس ينافي روح العلم ، لأن العلم بطبيعته لا يتجاهل أي واقع .

لكن معوّل العالم الحديث سواء في تقوية إيمان جاء من التراث الروحي وفي توضيحه أو في الوصول الى إيمان لم يكن موجوداً ، هو على نظر العلم .

والإيمان بوجود الله يقوم على أسس كبرى أهمها :

١ - أثبات أن هذا العالم حادث في الزمان .

٢ - أن حدوثه لا يمكن أن يرجع الى الصدفة ولا الى المادة ولا الى شيء محدود ، بل الى خالق قادر حكيم مخالف للأشياء ولا نهاية لكماله وقدرته وعلمه وحكمته . وهذان المبدأان موجودان في كل إيمان وفي كل بيان لأدلة الإيمان .

وبعد هذا يأتي ذكر الأدلة على وجود هذا الخالق من النظر في العالم ، ويكون الكلام في صور الألوهية على أساس الاستدلال العلمي .

(١) راجع كتاب : الله يتجلى في عصر العلم ، نشر جون كولفر مؤسسا - القاهرة (دار احياء الكتب العربية ،

عينى . البابى الطبعي)

ففيما يتعلق باقامة الدليل على حدوث هذا العالم في الزمان لا بد ، قبل ذكر أدلة العلم الحديث ، من اشارة الى طريقة القدماء .

لم يكن عند فلاسفة اليونان قول بالحدوث المطلق لأشياء هذا العالم ، كما تقدم القول ، وذلك لأنهم كانوا يقولون بازلية المادة وتأثير علة العالم فيها أو تأثرها من تلقاء نفسها بعله العالم . ولم تظهر أدلة الحدث المطلق لهذا العالم الا على يد مفكرى الاديان المنزلة ، لاعتقادهم بالخالق المبدع بالمعنى الحقيقي الكامل . وقد رأينا - مثلاً - دليل الكندي على حدوث العالم ، وهو يقوم على اثبات تناهى الزمان الماضي ودليل المتكلمين الاسلاميين ، وهو يقوم على اثبات أن الأجسام محل للحوادث ، وهي الأعراض ، فلا بد أن تكون حادثة كالأعراض نفسها .

أما العلم الحديث فهو يثبت حدوث العالم في الزمان على أسس واقعية :

فمثلاً يمكن تقدير عمر العالم على أساس وجود عناصر مشعة . فلو كان العالم أزلياً - أى مضى على وجوده زماناً - لنهاية له لكان الاشعاع قد انتهى منذ زمان لنهاية له .

وأيضاً تدل قوانين الديناميكا الحرارية على أن هذا العالم حادث ، لأن الثابت أن الأشياء الحارة تفقد حرارتها تدريجياً وتسير نحو حالة حرارة منخفضة لا تسمح بوجود طاقة ولا حياة . فلو كان العالم أزلياً لانتهى مع مرور الزمان الذى لا بداية له الى الخلود التام .

وإذا كان هذا هو الواقع الذى تشهد له التجربة فإنه لا يصح إثارة اعتراضات تمسفية وتضليلات تنقص ما يؤخذ من الواقع على نحو واضح .

وإن ، فلهذا العالم بداية ، وله عمر ومدة محددة يقدرها العلماء على نحو تقريبي (حوالى خمسة بلايين من السنين) ، وهو لا بد أن يزول بعد تحقق الحكمة التى اقتضت وجوده .

إن الانسان لا يملك نفسه أمام ما يقرره العلم ، من وجود قوانين وحكمة في هذا العالم وأنه محدود الوجود الزماني ، من تذكر ما ورد في القرآن من أن هذا العالم وكل ما فيه ظهر بحسب الحكمة وله مدة محددة ، مثل قوله تعالى ، مشيراً الى المعرضين من البحث الهادى الى معرفة الله :

« أولم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى ، وإن كثيراً من الناس يلقاها ربهم لكافرن » (س - الروم ، ٨ - وقارن س ٤٦ - الأحقاف ، ٣)

فإذا ثبت أن هذا العالم لم يكن ثم كان ، فإن العقل يقضى بأن له مبدعاً ، ولا بد لمن يؤمن بالعلم أن ينتهى الى هذه النتيجة .

ومعنى ذلك أن المادة ، على صورتها التى نراها ، شئ حادث .

وأن القول بوجود خالق مبدع هو التفسير العقلى الواضح لحدوث الأشياء وطبائعها وقوانينها

لكن البعض يقول بما يسمى الصدفة أو الاحتمال . وهذا ما لا يمكن أن يسلم به العلم ، والا انهيار من أساسه .

إن معنى الصدفة هو وقوع حادث من غير علة محددة مطردة تسبب حدوثه ، مثل أن نأخذ عدداً من أشياء متشابهة ونجسّل لها أرقاماً متسلسلة ، ثم نضعها في كيس مثلاً ، ونخلطها

على أنه لا بد من التنبيه الى مصدر الخطأ في التصور الميكانيكي للعالم . ففي عالمنا هذا الذي لم يقم الدليل على أنه العالم الوحيد الموجود ، تتداخل صور الوجود : المادة والحياة والفكر . ومظهر الحدوث والفعل في هذا النوع من العالم مظهر ميكانيكي ، لكن المبدأ المؤثر فيه ليس ميكانيكا . وهذا شيء يسهل ادراكه بأبسر نظر : سواء تأملنا نشاط المادة أو وظائف الحياة ، أو مظاهر الحياة الفكرية . فلا توجد علة واحدة مرئية بين العلل التي لا تحصى والتي تؤثر في المادة ومظهرها الميكانيكي . ومن ينظر الى النبات أو الحيوان أو الانسان الفكر ويلحظ المظهر الميكانيكي للوظائف ويقف عنده ، كيف يستطيع ان يتكلم عما نسميه الحياة أو الفكر ان لم يقل بشيء غير ميكانيكي ومظهر فعله في هذا العالم ميكانيكي .

ومن التصورات التي اثبت العلم الحديث عدم كفايتها في تفسير نشأة الحياة وتطورها نظريات التطور ، وهو يعيل الى اعتبار أن التطور نتيجة وليس سببا ، فهو يحتاج الى تفسير .

وينبغي تصور العلم الحديث للالوهية على الاساس الاستدلالي الذي يستند اليه العلماء .

وأول ما يمكن أن يقوله العلم عن الاله أنه ليس ماديا ، وهذه هي النتيجة المنطقية التي تنتج من بطلان المذهب المادي في تفسير العالم . وهو اذا كان ليس ماديا فانه لا يمكن أن يعرف بالطرق المادية . لأن لكل شيء طريقة ، بها يعرف وجوده .

ولما كان هذا العالم قد صدر عن الاله على هذا النظام المحكم فانه لا بد أن يكون قادرا عالما حكما . وهذا يلزم من بطلان المادية من جهة ومن جهة أخرى عن حكم عقلنا بأن الوجود والنظام والغاية في الصنع لا يمكن أن تصدر الا عن صانع له هذه الصفات وله كمال التدبير والعناية بالمخلوقات .

وإذا فالاله عند العالم فاعل حقيقي ، وهو لا بد أن يكون ذاتا تتمتعها بصفات تحدد مفهومها في أذهاننا ، وهو ليس فكرة مجردة ، أو مجرد كائن غير مادي منزول من العالم ، كما تصوره ارسطو مثلا ، بل هو فاعل حق ، خالق مدبر منزله عن كل تصوراتنا ، وعن مشابهة هذه الاشياء التي نعرفها والمشتغلون بالعلم ، الذين ينزهون النزعة الفلسفية نحو التعليل الكافي والشبهل ، يشعرون بالتقاء مفهوم الالوهية كما توصل اليه عقولهم مع مفهوم الالوهية الذي جاءت به الكتب المنزلة .

والحق أن العالم الحق يقف من الدين ومن الكتب المنزلة موقفا علميا يتسم بالتأني في الحكم . فهو ينظر الى الامور الجوهرية في هذه الكتب ، ولا يرى أن من شأنه البحث في التفاصيل . وأهم ما يعجبه هو ما تضمنته هذه الكتب من فكرة الالوهية الصحيحة التي هي القول بخالق قادر مخالف للاشياء ، وذلك ما يؤدي اليه النظر العلمي في هذا العالم .

وإذا رأى العالم في ظاهرها النصوص الدينية ما يخالف معطيات العلم فانه يفضل الانتظار حتى تنتكشف له معرفة جديدة ، فلعلها تأتي متفقة مع فهم ما للدين . والعالم بحكم مهمته التي يعيش لها مضطرا الى أن يثير مشكلة الايمان بمعناه العام الواسع وبمعناه الخاص .

فهناك الايمان بمعنى تصديق المختصين فيما اختصوا به واصحاب التجارب من العلماء فيما جربوه . والحق أن كثيرا من معارفنا وتصرفاتنا مبني على ما اخذناه من الغير ممن نثق فيهم ، لأنه لا يمكن لأحد أن يحصل بنفسه كل المعارف ولا أن يقوم بنفسه بكل التجارب .

وهناك الايمان العلمي بوجود طبائع الاشياء وتأثير بعضها في بعض ، وبوجود قوانين تعبر عن نظام مطرد وعليه لا تتخلف ، لكن العالم ، نظرا لقوله بحدوث هذا العالم واستناده في وجوده وبقاء نظامه الى خالق حقيقي ، فانه بعيد عن الظن بأن قوانين الطبيعة « واجبة » (Necessary)

بل هي قوانين « ممكنة » (Contingent) ، لأنها تتوقف على القدرة والإرادة المبدعة المدبرة للأشياء .

وهناك الإيمان بالآلة باعتبار أن هذا الإيمان يرضى أولا العقل العلمي الذى يطمح الى تفسير الكون ، لأنه يفسر طبيعى وبسيط وكاف ، ثم هو يرضى حاجة عميقة في روح الإنسان الى سند متين مطلق يثبت في نفسه الثقة بالحياة ، ويترى له معنى هذا العالم، ويؤدى الى السكينة والطمأنينة، هذا الى أن الإيمان بوجود الله يزيد المعرفة بالكون ، كما أنه يقوى ويرسخ بازدياد هذه المعرفة ، وقد لاحظت كنت هذه العلاقة بين النظر في العالم وبين الإيمان ، كما تقدم القول .

وأقل ما يمكن أن يكون للإيمان بوجود الآله الحق بالنسبة للعالم هو أنه فرض كبير يساعده على فهم العالم وما فيه ، ويبحث فيه الطموح نحو مزيد من العلم بأسرار عالم صدر عن القدرة الحكيمة التى لا نهاية لها ونحو مزيد من إمكان استخدام هذا العلم لمصلحة الإنسان . ومن المسير حقا على أى عالم أن يشتغل بالعلوم الطبيعية بحثا عن أسرار الطبيعة وقوانينها ، وهو لا يؤمن بأن وراء هذه الطبيعة تدبيرا حكيما لضالقات قادر . وهو لا بد له من الإيمان بخالق مدبر أو بقوة ما تصدر عنها الأشياء بقوانينها ، ولا بد من الاعتراف بأن هذه القوة حكيمة عاقلة ، والا ناقض العالم نفسه أو تقضى أساس معارفه .

أن الإنسان ليس محتاجا الى أن يذهب الى رأى ديكارت في ضرورة إقامة العلم الطبيعي على الثقة بوجود الله كامل قادر حكيم ، قدرته التى لا نهاية لها ضمان ثابت للنظام الكوني ، وكما له وخيرته ضمان للثقة في الوسائل التى منحنا إياها لتحصيل المعرفة ، لكن للإنسان الحق في أن يسأل من كرامة العقل الباحث في الكون ، وكيف وعلى أى أساس من المنطق يبحث عن طبائع وأسرار وقوانين في الكون مع تجاهل واع لما وراء هذه الأغراض العلمية العالية ؟

أن الإيمان عند العلماء إيمان هو أقرب الى الانسياق العقلى ، وهو إيمان « بسيط » بمعنى أنه « خالص » من شوائب التعقيد واثارة المشكلات المعقدة التى لا ترقى بمفهوم الألوهية ، ومن صفات العالم الحق أنه لا يتكلم فيما لا يعرف . وكما أنه لا يدرس الحسوسات بالتحليل العقلى فإنه لا يدرس المعنويات بالمنهج الحسى . ولذلك فإن العلم الحديث أقرب الى تنزيهه الآله عن التصورات العادية وعن اللفاظ التى نستخدمها في الكلام عن أشياء هذا العالم .

فإذا أردنا أن نحدد نوع استدلال العلماء على وجود الله وجدنا ذلك واضحا وتلقائيا كالمعرفة العلمية الواضحة .

ولا شك أننا يجب أن نفرق من أول الامر بين المفكر المنصف النزىه في حكمه في هذا الموضوع وبين التحيز المائل عما يقتضى به دليل الحسى والعقل .

والعلماء لا يعتبرون أن من عملهم إثبات وجود الله ، ولا حتى البحث عن الملل الأولى للأشياء ولا البحث في القيم والغايات . ولذلك فإن كلامهم في الألوهية يكون بحسب المناسبة الداعية الى ذلك كما تقدم القول (١) إلا أن العقل لا بد أن يثير السؤال عن مصدر هذا العالم . وهنا يكون الطريق العلمى واضحا لكل إنسان ، لأنه طريق النظر في الواقع : الكون والإنسان نفسه .

ومن شأن العلماء أن ينظروا للأشياء نظرا مباشرا ، فلا يدعون بمفاهيم ذهنية مجردة ، ولا بظاهرة جزئية ولا حتى بالنظر للعالم من حيث هو مجرد ظاهرة معلولة، بل هم يلاحظون الواقع الكوني من خلال ما كشفه العلم من دقة واحكام في الأشياء وارتباط وانسجام بينها وفائقة ظاهرة فيها . وهم حتى عندما يوجهسون الانتباه الى ظاهرة كبيرة يدرسونها في سياقها ، ويتبينون وظيفتها أو دورتها . وعلى هذا الاساس يبنون استدلالهم المباشر طبقا لمبدأ العلية الذي يؤمنون به إيمانا عمليا يشهد له الواقع ويقره العقل . وهم لا يشيرون شكوكا حول هذا المبدأ ، ولا يتكفون الزعم بأنهم لا يرون شيئا يسرى من العلة في المعلول ، كما يقول هيوم ، ولا هم يدعون أن مبدأ العلية لا انطبق له الا على عالم الحس ، كما يقول كنت ، لأن هذه اشكالات متكلفة .

واذن فدليل العلم الحديث على وجود الاله هو الدليل الغائي Teleological Proof القائم على مبدأ العلية Principle of Causality ولا تكاد نجد دليلا غيره ، رغم تنوع مقدماته بحسب المجال الذي ترجع اليه .

والحق أن نظر العلم ، في أي ميدان من ميادين التخصص العلمي التي لا تقع تحت الحصر ، يكشف الباحث عن تنظيم يدع عن دورات للظواهر وقوانين دقيقة تحكمها ، بحيث يمكن وضع الدليل الغائي على صور شتى تجمعها النظرة التي توصل اليها العلم ، وهي : أن العالم في جملته وحدة متناسقة ، طبيعتها واحدة وقوانينها شاملة .

ونحن نعلم أن البحث العلمي اظهر لنا أن مادة الاجرام العليا ليست مادة مفارقة لمادة الارض ، هي ليست « طبيعة خاصة » ، كما زعم اليونان وسار على اثرهم من جاء بعدهم الى ان جاء عصر نقد المعرفة عند العلماء الاسلاميين والعلماء الاوروبيين في العصور الحديثة من بعدهم .

فمادة العالم واحدة والقوانين التي تحكم جزءا تحكم الجزء الآخر ، وهذه الوحدة تدل على تدبير واحد ومدير واحد .

ولا يصح أن نشير امتراضات من النوع الذي اثاره كنت واعتبره قادحا في الاستدلال على وجود الله ، وهو قوله : انا لا نعلم كل العالم . ومع اننا لا نعرف كل العالم فاننا نقطع ان هذا الذي نشاهده شيء موحد النظام ، فإذا كان هناك عالم من نوع آخر ، وهذا جائز عقلا وحاصل بالفعل ، فان دلالاته ، بحسب احواله ، على موجوده ، هي دلالة عالما ، لأن وجه الدلالة لا يختلف فيما نراه من حوادث وظواهرات عنه فيما لا نراه منها .

ولا شك أن العلم ، اذ يهتم بدراسة العالم لكي يصل الى القوانين ، فان من الطبيعي أن يسأل نفسه عنها : ما مصدرها ؟ لأن موقف العلم لا ينتهي عند الملاحظة بل هو يقتضي التفسير .

مهما يكن من شيء فان العقل العلمي ، حتى عندما يفسر الأشياء ، لا يقتنع بتفسير جزئي أو تفسير يبين علة قريبة ، بل هو يطمح الى التفسير الكلي الشامل ، والدليل على ذلك هو النظريات والفروض الكبرى المتملئة بهذا العالم عند العلماء فيما يتعلق بنشأته وكيانه ومصيره وطبيعة قوانينه .

ومع أن المعطيات العلمية واحدة فان التفسير العلمي يتنوع ويختلف ، ومن هنا كان اختلاف العلماء كما اختلف الفلاسفة : بين مادي ينظر الى العالم على أنه مادة ميتة وحركة ، ويفسر العالم وظواهراته تفسيراً ميكانيكياً ، وقائل بمبدأ حيوي سار في كل شيء فهو يفسر العالم في ضوء هذا المعنى ، وقائل بالصدفة والاتفاق في تحليل ظهور العالم وتشكل ما فيه ، وقائل بأن العالم يرجع الى عقل قادر مبدع مستقل عن الكون ، وناكص عن التعليل الشامل الكامل الذي

ينظر العالم على أنه جملة حوادث ، وأن كل شيء عبارة عن سلسلة حوادث لا هدف لها ولا غاية (١) . وهكذا

لأجل ذلك لا بد للعالم الذي يقتنع بوجهة نظر أن يجادل عنها ، وهذا ما يفعله العلماء المؤمنون بوجود الله أحيانا . فقد يسير الواحد على الطريقة المنطقية المعروفة المسماة طريقة الفحص والتحليل أو « طريق السير والتقسيم » كما يسميها العرب ، فيبين وجوه الاحتمالات الممكنة لحل مشكلة ثم يفند الباطل منها ليتبين ما هو حق .

وهذه طريقة أحد العلماء في مشكلة انكار الخالق ، فهو يضعها على هذا النحو :

« كثيرا ما يقال أن هذا الكون المادى لا يحتاج الى خالق . ولكننا اذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟ هناك أربعة احتمالات للاجابة على هذا السؤال :

فاما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ، وهو ما يتعارض مع القضية التى سلمنا بها حول وجوده

واما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم

واما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية .

واما أن يكون له خالق »

ثم يبين أن الاحتمال الاول ، الى جانب تناقضه مع الفرض ، يؤدى الى أن العالم وهم لا حقيقة له ، وهو يخالف الواقع ، فلا يصح ان نعتد به .

وأن الرأى الثانى مستحيل ، لانه لا يتصور أن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة ظهر من العدم بلا علة .

وأن الرأى الثالث باطل على أساس قوانين الديناميكا الحرارية التى تقدم ذكره .

وينتهى الى صحة الاحتمال الاخير وأنه « لا بد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، علم محيط بكل شيء ، قوى ليس لقدرته حدود . ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه (٢) »

ثم هو يبين في ضوء نتائج العلم ومكتشفاته التناقض والغالية التى تتجلى مثلا في ملامة الارض للحياة الإنسانية بكل جوانبها المادية والفكرية والروحية ، وذلك بفضل وضعها بالنسبة للشمس وحجمها وحرارتها ، ووظيفة التلاف الجوى الذى حولها .

ويثبت أن نظريات المصادفة والاحتمال لا يمكن أن تؤدى الى تفسير شيء من هذا لأن الفرصة لتكوين جردى بروتوني واحد من العناصر التى يتألف منها لا تنهى الا بنسبة : ١ : ١٠ (١٠) واحد بالنسبة الى رقم ١٠ مضروباً في نفسها مائة وستين مرة . وهذا لا يتيسر الا في عالم تنهيا فيه مادة

(١) هذا هو رأى الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل Bertrand Russel الذى تولى هذا العام (١٩٧٠)

وقوله : أن العالم وما فيه عبارة عن سلسلة حوادث قول صحيح ، لكن هذا يدل على أن له محددا . وراسل ينكر الغاية والهدف دون أن يقوم أى دليل : مع أن دليلهما واضح لكل انسان ، وهو الواقع الذى لا يمكن أن ينكره أحد .

(٢) مؤتمعا ، ص ٧ - ٨ .

اكثر مما يسع عالمنا بما لا يقاس . فكيف بإمكان تكوين النظام المائل في كل شيء والتنسيق الهائل بين أجزاء هذا العالم ؟ ان هذا يحتاج الى عقل لا نهائي (١) .

هذا مثال من طريقة عالم من علماء الفيزياء الحيوية في تفسير نشأة العالم . ومع ان طريقته المنطقية التحليلية تشبه من حيث الروح طريقة المقدسي ، فانها تقوم على نتائج نظر علمي .

وعالم آخر من علماء الكيمياء والرياضة يشير الى خضوع أجزاء المادة لقوانين محددة لا يمكن ان تكون راجعة الى الصدفة مثل : التشابه بين خواص العناصر الموجودة في كل قسم من اقسام الترتيب الدوري لها حسب وزنها الذري ، ومثل القوانين التي تحكم تركيب الذرة ، على اختلاف العناصر ، ثم يقول ، ناقدا للمذهب المادى:

« نهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد ان المادة المجردة من العقل والحكمة قد وجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ، أو انها هي التي اوجدت هذا النظام وتلك القوانين ، ثم فرضته على نفسها ؟ لا شك ان الجواب سوف يكون سلبيا . بل ان المادة عندما تتحول الى طاقة أو تتحول الطاقة الى مادة ، فان كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها » .

وهو يشير الى ما دلت عليه الكيمياء من « ان بعض المواد في سبيل الروال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك فان المادة ليست أبدية ومعنى ذلك انها ليست أزلية » ، إذ ان لها بداية » ، ثم يقول :

« فاذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التي يخضع لها ، فلا بد ان يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى . وتدل الشواهد جميعا على ان هذا الخالق لا بد ان يكون متصفا بالعقل والحكمة . الا ان العقل لا يستطيع ان يعمل في العالم المادى كما في ممارسة الطب والعلاج السيكلوجى دون ان يكون هنالك ارادة ، ولا بد ان يتصف بالارادة ان يكون موجودا وجودا ذاتيا . وعلى ذلك فان النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على ان لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لا بد ان يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا على كل شيء حتى يستطيع ان يخلق هذا الكون وينظمه ويديره ، ولا بد ان يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته في كل مكان . وعلى ذلك فانه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون وموجهه (٢) » .

ان طابع هذا الكلام ، وان كان يشبه استدلال المتكلمين الاسلاميين على وجود الله وعلى صفاته ، فانه ، كالكلام السابق، نتيجة لمقدمات علمية . وطريقة العلماء فى الكلام عن العالم سهلة ميسرة لم يعرف اصطلاحهم العلمى ، لان منهجهم هو فى الغالب المنهج المنطقي الرياضى ، وان قراءة مرضهم لراى يقصد الياته او دحضه تشويق العقل السليم .

وعالم ثالث ، هو مهندس متخصص في تصميم ما يسمى : « العقول الالكترونية » ، يشير في الياته لوجود الله الى الخبرة النفسية والتجربة الشخصية ، ثم يصرح بان عمله في تصميم الاجهزة منهن كثيرة جملة يقدر التصميم والإبداع اينما وجد ، ثم يقول :

-
- (١) نفس المصدر ص ١١ - ١٢ .
(٢) راجع كلامه في ما تقدم .
(٣) مونسا ص ٣٦ - ٣٧ .

« وعلى ذلك فإنه مما لا يتفق مع العقل والمنطق أن يكون ذلك التصميم البديع للعالم من حولنا إلا من إبداع أعظم لا نهاية لتدبيره وإبداعه وعميقته. حقيقة أن هذه طريقة قديمة من طرق الاستدلال على وجود الله ، ولكن العلوم الحديثة قد جعلتها أشد بيانا وأقوى حجة منها في أى وقت مضى .

إن المهندس تعلم كيف يمجّد النظام ، وكيف يقدر الصعاب التي تصاحب التصميم عندما يحاول المصمم أن يجمع بين القوى والمواد والقوانين الطبيعية في تحقيق هدف معين . أنه يقدر الإبداع بسبب ما يواجهه من الصعاب والمشكلات عندما يحاول أن يضع تصميمًا جديدًا .

لقد اشغلت منذ سنوات عديدة بتصميم مخّ الكهروني يستطيع أن يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية « الشد في اتجاهين » . ولقد حققنا هدفنا باستخدام مئات من الأنابيب المفرغة والأدوات الكهربائية والميكانيكية والدوائر المعقدة ووضعها داخل صندوق بلغ حجمه ثلاثة أضعاف حجم أكبر « بيانو » . ولا تزال الجمعية الاستشارية العلمية في لانجلز قيد تستخدم هذا المخّ الكهروني حتى الآن . وبعد اشتغالي باختراع هذا الجهاز سنة أو سنتين ، وبعد أن واجهت كثيرا من المشكلات التي تطلبها تصميمه ووصلت إلى حلها ، صار من المستحيلات بالنسبة إلى أن يتصور عقلي أن مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير استخدام العقل والدكاء والتصميم .

وليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم . ويرغم استقلال بعضها عن بعض ، فإنها متشابكة متداخلة ، وكل منها أكثر تعقيدا في كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخّ الكهروني الذي صنعته . فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم أعلاّ يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجي الكيمى البيولوجى الذى هو جسمى ، والذى ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائى في اتساعه وإبداعه ، إلى مبدع يبدعه !!

إن التصميم أو النظام أو الترتيب أو سمها ما شئت ، لا يمكن أن تنشأ إلا بطريقتين :

طريق المصادفة ،

أو طريق الإبداع والتصميم .

وكلما كان النظام أكثر تعقيدا ، بعد احتمال نشأته من طريق المصادفة، ونحن في خضم هذا النظام اللانهائى لا نستطيع إلا أن نسلم بوجود الله .

أما النقطة الثانية التي أريد أن أشير إليها في هذا المقام ، فهي أن مصمم هذا الكون لا يمكن أن يكون ماديا . وإني أعتقد أن الله لطيف غير مادي . وإني أسلم بوجود اللاماديات ، لأننى بوصفى من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة إلى وجود سبب أول غير مادي .

إن فلسفتى تسمح بوجود غير المادى ، لأنه بحكم تعريفه لا يمكن إدراكه بالحواس الطبيعية. فمن الحماسة إذن أن أكرر وجوده بسبب عجز العلوم عن الوصول إليه . وفوق ذلك فإن الفيزياء الحديثة قد علمتني أن الطبيعة أصغر من أن تنظم نفسها أو تسيطر على نفسها .

وقد أدرك سير إسحاق نيوطن أن نظام هذا الكون يتجه نحو الانحلال ، وأنه يقترب من مرحلة تنساوى فيها درجة حرارة سائر مكوناته ، ووصل من ذلك إلى أنه لا بد أن يكون لهذا الكون بداية ، كما أنه لا بد أن يكون قد وضع تبعا لتصميم معين ونظام مرسوم . وأيستد دراسة

الحرارة هذه الآراء وساعدتنا على التمييز بين الطاقة الميسورة والطاقة غير الميسورة . وقبد وجد انه عند حدوث أى تغيرات حرارية فإن جزءا معيناً من الطاقة الميسورة يتحول الى الطاقة غير الميسورة ، وأنه لا سبيل الى أن يسير هذا التحول في الطبيعة بطريقة عكسية ، وهذا هو القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية .

وقد اهتم بولتزمان بتحصيص هذه الظاهرة ، واستخدم في دراستها مبقريته ومقدرته الرياضية ، حتى أثبت أن فقدان الطاقة الميسورة الذى يشير اليه القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ليس إلا حالة خاصة من ظاهرة عامة تشير الى أن كل تحول أو تغير طبيعى يصحبه تحول أو نقص فى النظام الكونى . وفى حالة الحرارة يعتبر تحول الطاقة من الصورة الميسورة الى الصورة غير الميسورة فقداناً أو نقصاً فى التنظيم الجزيئى ، أو بعبارة أخرى : تفشتا وتحللاً للبناء . ومعنى ذلك بطريقة أخرى أن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها ، لأن كل تحول طبيعى لا بد أن يؤدى الى نوع من أنواع ضياع النظام أو تصدع البناء العام . وفى بعض الحالات قد يسير النظام من البسيط الى المركب ، ولكن ذلك لا يتم إلا على حساب تصدع أكبر للتنظيم والترتيب في مكان آخر .

إن هذا الكون ليس إلا كتلة هائلة تخضع لنظام معين ، ولا بد له اذن من مسبب أول لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولا بد أن يكون هذا المسبب الأول غيرمادى في طبيعته (١) » .

إن ذكر هذا النص كاملاً يبنى من تحليله ، والمهم أن نلاحظ طريقة بيان الرأى والبرهنة عليه ، وهى طريقة مميزة للروح العلمية الحديثة من حيث نقطة البداية في الاستدلال والسير فيه الى نتيجة .



نحن نعرف أن ديكرات استدل على وجود الله من تفكيره في نفسه ، وإدراكه وجود ذاته في عملية تفكيره ، واعتبر إدراكه لذاته كمثل أو كجوهر مفكر حقيقة أولية واضحة متميزة ، ولم يزل يفكر حتى اكتشف في عقله فكرة كائن كامل وجعلها أساساً للدليل الأنطولوجي في إثبات وجود الله ، وهو الدليل الذى تقدمه مفكرون كثيرون كما تقدم القول .

وها هو عالم متخصص في الرياضيات يصف لنا الأساس الذى يقوم عليه إيمانه بوجود اله :

« هل هناك اله ؟ سؤال ينطوى على الفكر أو القدرة على التفكير ، وأنا لا أستطيع أن افكر في هذه القدرة دون أن اسلم بوجود لها .

فأنا لست جهازاً آلياً ، وتفكرى يذهب الى أبعد مما يمكن أن يذهب اليه عقل من العقول الآلية ، فالمثل الآلى الحديث وظيفته تطبيق قاعدة معينة أو إيجاد علاقة معينة تبعاً لأصول محددة مرسومة . أما عملية التفكير فتختلف من ذلك اختلافاً بيناً ، فهى تستطيع أن تتقيد بالقواعد

كما تستطيع أن تتفانها . ان التفكير يتضمن استخدام المنطق والقدرة على الحكم ، كما يتضمن تدورق الجمال والاستمتاع بالموسيقى وتقدير الفكاهات والطرائف .

ان المنطق يستطيع ان يقرر صحة أحد البراهين أو خطأها ، ولكن الفكر هو الذى يبدأ المناقشة في أمر هذه البراهين ويوجهها ، وهو الذى يستطيع أن يخترع النظريات الرياضية الجديدة وقيم الدليل على صحتها، والفكر يتضمن القدرة على تحليل النفس وتقددها . ومن الممكن تصميم آلة تلعب الشطرنج ولكن هذه الآلة لن تسعد بما تحققة من النجاح ، أو تشمت في خسارة اللاعب الآخر أو تحزن على ما وقعت فيه من الأخطاء .

فالفكر يتضمن أكثر مما تستطيع الآلة والقواعد الآلية أن تحققة . واني اعتبر ان تفسير السلوك الانساني تفسيراً آلياً لا يستند الى أساس سليم ، لاني أستطيع أن افكر .

وأنا اعتقد أيضاً بوجود الله بسبب ما زودني به من الانفعالات ، ولكن هل أضعفت حجتي بهذا القول ؟ هل اترفت بأن إيماني لا يقوم على المنطق واني اومن لاني أخشى الا اكون مؤمناً ؟ كلا فطبيعتنا الانفعالية دليل على حكمة الله وتديبه ، والا فكيف تكون حياة الإنسان بغير هذه الانفعالات ؟ وكما يمكن أن يعمر الإنسان على سطح الأرض بغير الدافع الجنسي وما يتصل به من الانفعالات ؟ ولماذا تنخفض نسبة وفيات الأطفال عندما يرداد حب آبائهم لهم ؟

اني اعتقد بوجود الله لأنه وهبني التمييز الاخلاقي، فالجنس البشرى لديه احساس فطرى بما هو خطأ وما هو صواب . وكما يقول لويس في كتابه : « قضية المسيحية » : « قد تختلف افكارنا ومع ذلك فانا جميعا ندافع عن حقوقنا ونشدد العدل » .

ان اعتقادي في الله يقوم ايضا على حرية الإرادة وذكائها – الإرادة الانسانية التي وصفت بأنها العملية الشعورية الكاملة التي تقود الإنسان الى اتخاذ قرار معين ، الإرادة التي هي إحدى الاقسام الكبرى التي يقسم علماء النفس قوى العقل اليها (القوتان الاخريان هما : الادراك والشعور ، فانا عندما أرغب أو أريد شيئاً معيناً يتخذ عقلي قراراً به ، وارادتي هي التي تنفذه .

ويختلف الإنسان في جميع هذه الصفات والمزايا عن سائر الكائنات الأرضية الأخرى فهو خليفة الخالق على الأرض ، ولعل هذا هو عين ما يعنيه القديس بولس بقوله : « ان للإنسان نشأة مقدسة » .

ويتفق ما وصلت اليه العلوم حول وجود الله مع ما جاء في الكتب السماوية من أن الإنسان يحصل على العلم بطريقتين : البصر والبصيرة . اما البصر فهو ما نتعلمه في حياتنا وما نتكسبه من طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة . وأما البصيرة فهي ذلك النور الذي يفرغه الله في قلوبنا فيكشف لنا ما لا نعلم . وكذلك الحال فيما يتصل بالإيمان بوجود الله ، اذ لا بد أن يقوم أولاً على البصر وملاحظة ظواهر تلك التي أشرنا اليها سابقاً ، ثم نلتجئ بعد ذلك الى الله لكي يكمل إيماننا ويلمعه .

ان رجال العلوم يعتمدون على التجربة ، وأنا مقتنع بوجود الله اعتقاداً يستند الى أدلة

تجريبية ، ولكنها تجارب شخصية صرف . ومع ذلك فهي أقوى لدى من كل دليل ، وأشد اقناعاً لي من أي برهان رياضي . لقد لمست هذا الدليل في نفسي منذ اثنتي عشرة سنة عندما كنت بحجرتي في القسم الداخلي بجامعة كورنل ، يوم جاءني البرهان وافدق الله على قلبي نور الإيمان . لقد أصبح الله لدى أكبر من كل ما سواه ، حتى أنني أرى أن أفقد كل شيء في هذا الوجود ، ولا أرتد إلى حالتي السابقة .

لقد كان هو سبحانه صاحب الفضل في هذا البرهان ، فهو الذي أنزله على قلبي وجعلني أعتقد في وجوده » .

من السهل أن نتبين هنا نزعة صوفية . تقوم على تأمل الذات والاستدلال مما يدركه الإنسان في نفسه من الأحوال الداخلية ، وصاحب هذا الكلام يذكر نوعاً من النور الذي يفيض من الإله على قلب الإنسان والذي يتحدث عنه الصوفية . ومن الشيق أن يقارن الإنسان بين كلام هذا العالم وما يحدثنا عنه الغزالي من نور اليقين الذي قدّفه الله في صدره فأخرجه به من حيرة الشك وظلامه .

فهذا العالم المفكر يجمع بين الإدراك الذاتي والاستدلال منه وبين نزعة تصوف ، لكنه لا يبين تجربته الصوفية الكشفية . وكلامه يدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من دلالة نفسه على مبدأ وجودها ولا من نزعات التصوف .

وإذا كان العلم يؤدي إلى كشف الوحدة في نظام العالم من نواح شتى فإنه يؤدي بالضرورة إلى وحدانية الخالق المدبر ، فبدلاً من إثبات وحدانية الإله من طريق منطقي تطيلي يتلخص في إبطال التعدد على أساس أنه يبطل ذاته أو يؤدي إلى المحال أو إلى فساد النظام العام ، وهذا ما نجده عند متكلمي الإسلام^(١)، نجد عند العلماء دليلاً على الوحدانية يخرج من دلالة وحدة الصانع على وحدانية الصانع .

وكان بعض المفكرين السابقين ، مثل ابن رشد ، يقولون أيضاً بوحدة العالم ودلالاتها على وحدة صانعه ، لكنهم بنوا ذلك على ملاحظة الغائية في العالم . أما العلم الحديث فهو يثبت وحدة المادة الكونية ووحدة القوانين التي تحكم العالم ، وخضوع كل الأشياء لقوانين منسقة تدل على قدرة واحدة مهيمنة وحكيمة شاملة .

كان هذا الكون دائماً موضوع تأمل الإنسان . وكان يتأمل بعقله الباحث من حقيقة الأشياء وقوانينها ، وبخياله الفني والشعري . وكانت الدلالة المستمدة من العالم دلالة إجمالية . وقال البعض في تفسير الكون أقوالاً لا سند لها ، حتى جاء العلم الحديث فتناوله بالدراسة على المنهج العلمي . وكما كان ذلك مسبباً في الاستفادة الخضبة من تطبيق المعرفة فإنه أيضاً فتتح المجال لدلالات لا تحصى ، وخصوصاً الدلالة القاطعة على وجود الخالق القادر الحكيم .

(١) هذا هو « دليل التمام » أو « دليل المائتة » الذي استخرجه المتكلمون من قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدا » ، ووضعه على صورة تطيلية مشهورة موجودة في كتب علم الكلام . وتلخص في أنه لو كان هناك إلهان مثلا ، مع الخترائي قدرة كل منهما وفعله لا يريد ، وتعلقت إرادة أحدهما وقدرته بعلل شيء على نحو معين وتعلقت قدرة الآخر وإرادته بعلل ذلك الشيء على نحو آخر ، لنشأ من ذلك ما يبطل الوهية أحدهما أو كليهما أو انحلال النظام الكوني ، فلا بد أن يكون الإله الواحد القادر الحكيم واحداً .

وإذا كان العلم الطبيعي الذي كان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا يزال ناشئاً قد اغتر بكتشفاته القليلة ، فارتفعت أصوات فردية بالألحاد ، فإن العلم الحديث يقترب من الإيمان بالله اقترباً حقيقياً . ولا يمكن غير ذلك ، لأن الإيمان بالله هو التفسير الوحيد الصحيح للعالم وما فيه .

ونظراً لأن بعض المشتغلين بالعلم وبعض الدين - لسبب أو آخر - يعادون الأديان يدهون أن العلم ونتائجه تعارض الإيمان بالله الخالق القادر الحكيم ، فإنه قد ظهرت في القرن الحالي كتب لا تحصى لاثبات وجوده ، وكتبها قوم ينتمون إلى كل طائفة من طوائف المفكرين والمشتغلين بالعلم ، ومن أحسنها وإسرها فهماً وأقواها حجةً وأشدها اقتناعاً كتب المشتغلين بالعلم بمعناه الحديث . وبعض الكتب تشتمل على آراء متخصصين من جميع فروع العلم ، ولعل أراؤهم على روح جديدة في النظرة للعالم ، وهي أنه نظام حكيم عقل يبدل على خالق حكيم . وبعض القاريين لهذه الكتب يمدى الشعور بالاعجاب والروعة أمام عظمة الكون ونظامه الحكم البديع ، وهو شعور متميز عن التقديس الماطلي للكون كما تجلى عند مفكرين مثلسفين ذوي نزعة صوفية شعرية ، لأنه احجاب عقلي .

وإذا كان البعض يرى أن هناك روحاً من الإيمان تسرى في العلماء وتزداد قوة كل يوم فإن المتحدث إلى هؤلاء العلماء وقراءة كلامهم يدلان دلالة لا شك فيها على رغبة نزوية في تقوية الإيمان بالله ، باعتبار أنه قضية علمية ، هي أساس قضية أكبر شأنًا ، وهي قضية الإيمان .

ومن جهة أخرى نلاحظ أن كثيراً من المؤمنين يحاولون التعرف إلى العلم ونتائجه ، وأن كثيراً من العلماء المؤمنين يلبون حاجة النفس الإنسانية إلى أفق أوسع من أفق الحياة العادية وشؤونها المادية ، فيكتبون في إثبات وجود الله ، كل منهم بحسب تخصصه .

ومن أع الألحاد أو التشكك في حقائق الإيمان لا يزال موجوداً عند قوم مغرضين أو غير جادين في طلب الوضوح في تفكيرهم وحياتهم فإن الحادهم لا ينطلي إلا على جاهل بالعلم . ومن الملحدين من يكون مغلوباً على أمره فيجهر بخلاف ما يؤمن به في قرارة نفسه .

وإذا كان العلم بما كشفه من أسرار الطبيعة يثبت دعائم الإيمان فإن تأمل الإنسان لنفسه في ظاهر أمره وبواطن نفسه يهديه إلى مصدر وجوده ووجود الأشياء .

فإن كان البعض ، لسبب أو آخر باخلاص أو بغير اخلاص ، يجحد بما يرشده إليه عقله عند تأمل هذا الكون فإن الإنسان في العادة لا يمكنه أن يجحد ما يصل إليه من النظر في نفسه ، حتى لو لم يكن معه إلا نفسه .

يقول أحد علماء الإسلام ، وهو النهرييندي من علماء القرن الرابع الهجري :

ولم يحلْ أقطارُ السمواتِ عاقلٌ	أو احتلْ في أقصى بلادِ تِهَادُ
ولم يَرْ مخلوقاً يدلُّ على هدى	ولم يأنه وحى من الله قاصد
ولم يرَ إلا نفسه كان خلقها	دليلاً على يار له لا يماند
دليلاً على إبدانها واختراعها	منيراً على مرّ الدهور يشاهد (١)

وهذا الكلام الالمالم بشرى الى نقطة بداية مؤكدة يمكن منها التفكير المؤدى الى معرفة الله.

واذا كان يجوز الملمال حول حقيقة المفهومات والمصورات الملمدة وامكان امثالها اساسا للاستلال ، فانه لا يجوز حول ادراك الانسان لدائه وادراكه لهذا المالم الذى يقع فى مالمول حواسه ويتمثل فى وعيه على نحو مباشر .

والآن لا بد من السؤال :

الى اى ملى يسر بنا العلم فى طريق الالمان ؟ وهل ما نصل الىه من طريق العلم يكفى عقولنا ويرضى حاجة ارواحنا ؟ وما هو مالموى ما يمكن ان نسميه الململ العلمى وما ملى كفايته وارضائه لمحات روح الانسان ؟ .

قلنا ان العلم لا يتكلم الا بقدر ما يدرك من الوقائع ، وبقدر ما يستنتج منها فى ضوء المنطق العلمى . والمعلماء ، فى الملمة ، لا يتكلمون خارج دائرة تخصصهم . لكن للملم اهمية بالنسبة لكل انسان لانه يمس اصل الانسان ومصيره ومعنى حياته وغايتها ، وله شأنه فى تنظيم حياة الانسان فمما بينه وبين نفسه وفمما بينه وبين غيره ، هذا الى انه يتكلم عن موضوعات هى اصول كبرى لوجهة نظر خطيرة فى الكون والحياة ومصدها .

فلا شك انه من الخير ان يساهم العلم بنصبيبه فى توضيح هذه الاصول الكبرى وتثبيتها وخصوصا انه يدرس الشىء الوحيد الذى يمكن ان يكون موضوع المرفة ومصدها ، والذى يحوى فى ذاته من الاسرار والامعاق ما قد يعين على درك اسرار وامعاق ابعده .

لكن العلم مهما مضى فى طريقه فانه مقيد بملود موضوعه وامكان الاستنتاج منه وبملود العقل الطبيعى وقيمة مفهوماته ومصوراته .

ولا شك فى انه اذا كان هذا المالم بما فيه الانسان ، امنى جملة نظام الكون وجملة نظام النفس والعقل ، مظهرا تجلت فيه قدرة المالم الملمد ، وظهرت فيه آيات علمه وحكمته ، فانه يحمل الدلالة الملمومة على خالقه . لكن المالم مخلوق ملال ، مللود فى وجوده وصفاته ، على حين ان خالقه ازل املدى لا نهاية لوجوده ولا كماله .

فالعلم ان دل على المالم فان دللته رموية صرفة ، هى ملرد اشارة لشىء مطلق ملللف تماما ، هى دلالة فعل على فاعل ، قشلمان ما بينهما ؟!

. واذن فان استنتاجات العلم فمما يتعلق بالاله وصفاته لها قيمة كبيرة ، لانها دلالة عقلية ، لكن يجب علينا ان نلمبر ما يوصلنا الىه العلم ملرد علامة او املارة . ومن اطرف اسرار هذه اللغة العربية ان الكون الذى نشاهده ، هو وجملة نظام المالم ما نراه منه وما لا نراه ، يسمى بكلمة : « عالم » التى معناها : « العلامة الكبيرة » .

فاذا كنا مثلا نعرف من النظر فى هذا المالم ، وفى ملود الاستنتاج الملمق ، ان ملود المالم ليس ماديا ، وانه ملال حكيم ، مللمد ، ملرد ، الى غير ذلك من الصفات ، فان ما نراه لا يكفى فى ان يدل على ان صفات الملمد لا نهاية لها الا بملوة عقلية مللمدة هى : ان الشىء

الحادث لا بد أن يرجع آخر الأمر إلى فاعل حق موجود بذاته ، كما تقدم القول أكثر من مرة . ثم إن ما نراه لا يدل على كل صفات المبدع ، لأن الملة أكمل من معلولها ، لا من جهة أن صفاتها أعظم من صفات المألول بما لا يقاس وحسب ، بل أيضا من جهة أن لها من الصفات الذاتية ما لا يظهر في المألول ، ولا يمكن أن يظهر .

وإذن فلا بد من إكمال المعرفة العلمية بكمال الآله وجلاله ، وهذا الإكمال لا يصح أن يؤخذ من تصورات عقلنا المحدود ، ولا من تخيل كمال أو استحسان صفات نضيفها إليه ، لأن هذا كله تصورات شخصية نسبية . بل يجب علينا التماس المعرفة بالآله من الآله نفسه ، بأن يعرفنا بنفسه بذاته وصفاته ، ويكشف لنا من أسرار إرادته وحكمته ما لا نصل إليه ، وذلك يكون بتعليم منه يأتي إلينا ونحاول أن نفهمه فهما صحيحا .

ومهما كان الأمر فإن على من يعلم إلى المعرفة العليا بالآله أن يحاول تحطيم حجاب الحس والعالم الحسي والوصول إلى المعرفة المباشرة بالآله ، وهي تجربة خاصة أو معرفة ذوقية بقدر ما تسمح لها طاقة العقل ، لأنه لا يعرف الآله حق المعرفة إلا الآله نفسه .

ثم إذا آمنا من طريق الاستدلال العلمي بوجود الآله الخالق ، فكيف نعرف الحكمة من صدور هذا المخلوق منه ، والعوالم التي خلقها غير عالمنا ، وأنواع الموجودات التي نحتل مكانا بينها ، وحكمته من خلق الإنسان والمعنى الذي أراده من وضع الإنسان على هذا الكوكب ، وما هو القانون والمثل الأعلى الذي يجب أن يحكم حياة الإنسان ، وما سر وجود العقل مع القدرة والاختيار في الإنسان وصلاحيه ذلك لفعل الخير والشر ، وماذا يفعل الإنسان بحياته وماذا يكون موقفه إزاء خالقه ، وما مدى مسؤوليته من هذا كله ، وما مصيره بعد هذه الحياة ، هل الروح خالدة ؟ وهل من حياة أخرى للروح ؟ وأي نوع من الحياة هي ؟

كل هذه أسئلة لا يمكن تفاديها ، لأنها إنسانية ، وهي مجال المشكلات والحاجات والأزمات الإنسانية ، وقد عبرت الإنسانية عن الحاجة إليها تعبيرا نظريا وعمليا . لكن العلم لا يجيب عنها ، وليس له وسيلة لذلك ، ولا العقل له وسيلة لذلك .

أنه يمكن ، ولا شك ، بعد الوصول إلى الإيمان العلمي بوجود الآله الخالق القادر الحكيم ، أن نستنتج على نحو منطقي دقيق دقة الاستنتاج الرياضي بمض الآراء ، لكن ذلك يبقى شيئا كليا عاما ، ولا نستطيع أن نعرف المحتوى أو التفاصيل .

فمثلا : إذا قام الدليل العلمي القطعي على وجود خالق حكيم لهذا العالم ، فإنه ينتج لنا منطقيا أنه لا يخلق عبثا ولا باطلا ، وأنه لا يخلق العالم ثم يترك تدبيره ، ولا يخلق الإنسان العاقل الذي يتوهم عقله إلى المعرفة إلا ويعطيه علما فوق ما يصل إليه بوسائله المادية ، فيجده من عوالم وموجودات لا يعلمها . وهو لا يتركه بلا تعليم يبين له الحكمة من وجوده والواجبات عليه في حياته نحو ربه ونحو نفسه ونحو غيره ، ويوجب له من استلته من الحياة وما بعدها . وهكذا .

لكن هذا كله ، وإن كان استنتاجا صحيحا ، فإنه لا يعين لنا شيئا .

ولا يمكن مهما تكلف الانسان أن يصل في هذه الأمور الى تحديد ، وهذا من ادلة الحاجة الى التعليم الالى وافنتقار الخلق اليه ، لا لان عقولهم في ذاتها عاجزة عن الحكم على الأمور ، بل لانه ليس من شأنها التحديد بين الجاذبات ، ولانه رغم ادراكها للقيم ليس من شأنها إيجاب الواجبات . لان العقل وسيلة للمعرفة والادراك ، وليس مشرعا في أمور تتجاوز ميدانه .

فلا بد من اكمال المعرفة العلمية التي يتوصل اليها العقل من النظر في نفسه وفي الكون بمعرفة تأتي من مصدر الكون والعقل فتساعد العقل على رؤية العالم في ضوء جديد . وفي هذا فائدة للعلم وللدن وللانسان .

وكما لا غنى لعالم الدين عن معرفة الثمرات الكبرى للعلوم الكونية والطبيعية والانسانية ، لانه يؤمن بخالق الكون والانسان ، فكذلك لا غنى لعالم الكونيات وعالم الطبيعة عن الاستشارة بهدى الدين ، لانه من طريق العلم يؤمن بالله قلدر حكيم .

ان العلم يؤمن بمبدأ العلية وبعلة العالم ، وهو يؤمن بما لا يرى ولا تتركه الحواس القاصرة ، ويؤمن بأن هذا العالم تصميم عقلي يدخل في اطرار عقلنا ، فليس في العالم ولا في العقل ما يمنع العالم من قبول الدين المنزل .

لانه ، لما كان الدين المنزل من عند خالق العالم والانسان ، وكان موجها للانسان المزود بالعقل والحواس ، وهو في هذا العالم ، فانه يتحتم من حيث المبدأ أن يكون هناك اتفاق بين حقائق الدين وبين ما يصل اليه العقل من علم ، يشترط أن يكون الدين المنزل على حالة صحته الأصلية ، وان نفهمه فهما صحيحا ، وان يكون العلم الذي نصل اليه صحيحا ، وان نعرف حكم العقل الصحيح وحدود احكامه .

وهذا امر جدى عظيم الاهمية ، حقيق بأن يعنى به الانسان المفكر . ولا خوف من النتيجة ، فقد دلت التجربة على نجاح المحاولة في الاديان المنزلة كلها ، على نحو مرض ، اذا صرفنا النظر عن المتطرفين في جانب أو آخر ممن لا يعتد برأيهم . واذا نظرنا في الاسلام مثلا وجدنا ان « المتكلمين » اقاموا مذاهبهم على اساس العقل ، وان الفلاسفة من ايام الكندي الى ايام ابن رشد اكدوا اتفاق الدين والفلسفة .

فالكندي (١) يقول : إن كل ما جاء به الدين الاسلامى يمكن ان يفهم « بالمقاييس العقلية » التي لا يرفضها الا جاهل ، وابن رشد يقول : انه لما كان الدين حقا فانه لا يمكن ان يناقض العلم البرهاني ، لان الحق لا يضاد الحق بل هو يوافقه ويشهد له (٢) .

ولما كان الاسلام دين عقل وعلم ، وكان القرآن قد تكلم عن العالم ونظامه ، وامر بالنظر فيه بالحس والعقل ، للاستدلال على وجود الله ، فان العالم المسلم جدير بأن يؤمن بالعلم كما يؤمن بالدين ، فيطلب العلم بالكون لانه مسيل المعرفة بالله .

(١) راجع رسالته الفلسفية ، ج ١ القاهرة ، ١٩٥٠ خصوصا رسالته في « الاشارة من سجود اليوم الاقصى وعاشته لله - جل وجل » ورسالته « في كمية كتب ارسطو »

(٢) فصل القتال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ، لابن رشد

ومنذ اتصال الإسلام بالعلوم والفلسفات قبل المسلمون على طلبها وتناولوها بالدراسة والنقد وإنشأوا علومهم وفلسفتهم . وقد واجهوا لمرات العلوم والفلسفات أكثر من مرة ، في العصر المباني الأول وفي القرن التاسع عشر ، ونجحوا في تمثل العلوم والفلسفات ، وفي تثبيت الإيمان — الذي هو علم يقوم على العلم — بفضل تجديد المعرفة . وهم اليوم يواجهون المهمة نفسها .

وقد ظهرت في الفترة الأخيرة كتب كثيرة لعلماء ومفكرين مسلمين وفيها نظروا للعلم الحديث وثمراته في ضوء آيات القرآن التي تتكلم عن العالم وعجائبه وظواهره وأسرارها ، لكنها لا تزال محاولات متفرقة .

وقد ظهرت في عشرات السنين القليلة الماضية كتابات كثيرة لعلماء ومفكرين مسلمين حاولوا فيها فهم آيات القرآن التي تتكلم عن الكون وآياته في ضوء نتائج العلم ، أو هم حاولوا تفسيرها تفسيراً علمياً . لكن ذلك كان محاولات متفرقة ، فما أجدر العلماء المسلمين أن يجتهدوا في العلم وأن يدرسوا ما في القرآن من إشارات كونية ، وأن يستفيدوا مما اشتمل عليه من تنبيهات وأحكام كلية تتعلق بالكون ، وأن يتأملوا دقائق المعاني الكامنة في آياته وكلماته . وأن هذه دراسة تشوق العقل وتفتح أمامه آفاقاً عليه أن يدرسها دراسة تعمق وتمحيص .

إن القرآن ، كما يقول من نفسه « ذكر حكيم » و « علم » و « حكمة » ، فهو ينبه الحس والعقل ويوجههما إلى آيات الكون في ضوء أحكام وقضايا كلية أو شاملة .

وليس الغرض من ذلك مجرد تثبيت الإيمان بالله ، وهو أعلى معرفة علمية فلسفية ، بل أيضاً الاستمتاع بلذة العلم والبحث العلمي .

ولا يصح الظن بأن العلماء الغربيين الماكفين على البحث في العلوم بعيدون عن منابع الفكر الديني أو الفلسفي القديم والحديث ، كلا ، أنهم يعرفون تاريخ علومهم ، ويلعبون بنصوص الدين وآراء علمائه ، ويزاولون معلمهم العلمي في جو من ثقافة متكاملة . وإذا كان منهم معرضون عن ذلك فإنهم ، وإن كانوا يصلون في العلم إلى ما يصل إليه غيرهم — لأن وسائل المعرفة العلمية مطيعة لمن يريد استعمالها ويجب في الوصول إليها — فإنهم تنقصهم روح البهجة الناشئة عن إدراك ما في الكون من آيات الدقة والروعة الدالة على الخلاق العظيم .

وإذا كان دليل العلم قد أثبت وجود إله القادر الحكيم ، فإنه بذلك يضع العالم أمام مسئولية كبرى ، فيما يتعلق بواجبه نحو هذا الإله وحكمته من وجود الإنسان ، وفيما يتعلق بواجبه نحو ما يترتب على استعمال نتائج البحث العلمي . فهي قد تستعمل لخير الإنسان أو للاحاق الضرر به ، ومن هنا يجب على العالم الحديث أن يهتم بالنتائج التي تترتب على استعمال المعرفة العلمية اهتمامه بالبحث العلمي نفسه .

ومن هنا يصبح الإيمان بالله باعثاً على معرفة حكمته وعلى احترامها ، فيكون العلم مؤيداً للإيمان وعاملاً على كمال الإنسان وسعادته .

كان العلم الحديث سبباً في زعزعة الإيمان أحياناً ، وذلك يرجع الى أنه لم يكن علماً صحيحاً ولا كافياً ، واليوم أصبح العلم داهياً الى الإيمان ، وذلك بفضل ازدياده وصحته .

قال لورد كيلفن ، أحد علماء الطبيعة البارزين :

« اذا فكرت تفكيراً عميقاً فان العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد بوجود الله » .

وكان الفيلسوف الانجليزي فرانسيس بيكون يقول :

« ان قلباً من الفلسفة يقرب الانسان من الالحاد ، اما التعمق في الفلسفة فانه يردّه الى الدين » .

والله يقول في القرآن الكريم بعد تنبيهه الى بعض آيات الكون :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (س ٣٥ - فاطر ، ٢٨) .

وهو يقول مؤكداً انتصار العلم بالله والإيمان به ، بعد اكتمال المعرفة الانسانية :

« سنزيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، اولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد » (س ١) - فصلت ، ٥٣) * .



(١) فيما هذا المصادر المذكورة في مواضعها اعتمدت ، في نقل لم تيسر مراجعتها ، على المقالة الممتازة التي كتبها تيلور في دائرة المعارف الدين والأخلاق عن الإيمان بالله Theism وقد اشترت الى دائرة المعارف هذه بالعروف (Encyclopaedia of Religion and Ethics) B.R.E.

أزمة العلوم الإنسانية

في الاجتماع السنوي الذي عقدته الجمعية الأمريكية لعلوم الاجتماع American Sociological Society في مدينة شيكاغو عام ١٩٥٨ ، ألقى العالم الأمريكي الشهير تولكوت پارسونز Talcott Parsons محاضرة بعنوان « علم الاجتماع كمهنة Sociology as a Profession » ألزمت كثيرا من الجدل والمناقشات حول ماهية ذلك العلم وميدانه ومناهجه ونظرة المشتغلين به الى انفسهم ، وهل يعتبرون انفسهم حرفيين ومهنيين يلتزمون بأصول المهنة في كل خطوة يخطونها ؛ وما هي تلك الاصول والقواعد ؛ وما اثر ذلك الالتزام على مستقبل علم الاجتماع نفسه ونوع المشاكل التي يجب عليهم دراستها والتعمق فيها . وقد ادى هذا كله الى انقسام العلماء الى فئتين ، ترى احدهما وجوب توفر العالم على دراسة مشاكل محددة بالدات للتعرف على كل دقائقها وتفاصيلها بما يتفق مع مستلزمات التخصص المهني الدقيق حتى وان كان ذلك على حساب النظرة العامة الشاملة الى الحياة الاجتماعية ككل ، او الى الخصائص الاساسية التي تميز المجتمع الذي يدرسها الباحث تلك المشكلة او المشاكل المحددة فيه ؛ بينما ترى الفئة الثانية انه على الرغم من اهمية التخصص الدقيق والدراسة التفصيلية لمشاكل جزئية محددة فان المبالغة في ذلك الاتجاه تؤدي في آخر الامر الى تحديد مجال علم الاجتماع وتضييق افق الباحث نفسه ، وعزله عن التيارات والاحداث العالمية

(*) دكتور احمد ابو زيد ، استاذ الاثنولوجيا الاجتماعية بجامعة الكويت (بالاطارة من جامعة الاسكندرية) . عمل خيرا لشئون الجامعات القبلية بمنظمة العمل الدولية بجنيف ، كما قام بابحاث حقلية بين الجماعات البدوية في معالم الدول العربية .

من مؤلفاته : « البناء الاجتماعي : مدخل لدراسة المجتمع » ، وقد ظهر منه لآن جزآن عن « المفاهيم » و « الإتصال » ويأتي في كتاباته بين الاثنولوجيا وعلم الاجتماع .

نتيجة للتركيز على مشكلة واحدة محدودة بحدود الزمان والمكان ، وهو الامر الذى يتعارض مع ماهية علم الاجتماع باعتباره احد العلوم الانسانية التى تهدف قبل كل شىء الى دراسة الانسان فى ذاته . وحسم الخلاف احد اساتذة جامعة شيكاغو حين ذكر زملاءه بالتقاليد القديمة التى كانت سائدة بين علماء الاجتماع الأوائل الذين كانوا يجمعون بين اتساع الثقافة وشمول النظرة ، وانه يعتقد بناء على ذلك ان علماء الاجتماع هم من اصحاب الثقافة الواسعة المتنوعة ، وليسوا من اصحاب النظرة الضيقة المتزمتة وان « هذه الجمعية » ، اى « الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع » هى فى الحقل الأول جمعية علماء مثقفين وليست جمعية حرفيين ومهنيين . ومن الطريف ان الرأى استقر بعد الاجتماع على تغيير اسم الجمعية ، فاصبحت « الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع » وقد علق بعض الظرفاء على ذلك بأن تغيير اسم الجمعية كان خير ما تمخض عنه ذلك الاجتماع السنوى ، اذ لو كانت الجمعية تمسكت باسمها القديم وقبلت فى الوقت نفسه الدعوة الى اعتبار علم الاجتماع حرفه او مهنة لصدق على الجمعية وعلى العلماء الاسم الذى تشير اليه الحروف الاولى من اسم الجمعية ذاتها وهو A.S.S. ، اى (جشش)

ومع ما فى هذه الملاحظة الاخيرة من طرافة وقسوة ، فان لتلك المناقشات مفرها العميق ، ليس فقط بالنسبة لعلم الاجتماع ، بل وايضا لكل لعلوم الانسانية ، لانها تكاد تلخص حقيقة الازمة الراهنة التى تواجهها هذه العلوم ، والنشئة التى تتمثل بوجه خاص فى اختلاف الآراء حول طبيعتها ، ودقة المناهج واساليب البحث التى تتبعها ، ونوع الالتزامات التى يجب ان تلزم بها ازاء الانسان والمجتمع ، والعلاقات المختلفة التى تقوم بين فروعه ومدى الاعتماد المتبادل الذى يمكن ان يقوم بين هذه الفروع والتخصصات وما الى ذلك . وعلى الرغم من ان معظم هذه المشكلات قديم ودارت حوله مناقشات طويلة منذ اواخر القرن الماضى ، وبخاصة فيما يتعلق بعلم الاجتماع ، ثم تجددت هذه المناقشات بعد الحرب العالمية الاولى وبخاصة فيما يتعلق بالانثروبولوجيا ، فان الظروف الحالية التى يمر بها المجتمع الانسانى والتقدم الملحوظ الذى حققته العلوم الطبيعية والبيولوجية ، وتختلف العلوم الانسانية فى الوقت ذاته وعدم قدرتها على اللحاق بتلك العلوم ، ابرزت اهمية هذه المشكلات بشكل غير عادى . ومن الخطأ ان نعتقد ان الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية والسياسية وغيرها من المشكلات الانسانية احدث هذا بكثير من الاهتمام بالظواهر الكونية او الفيزيائية . بل ان العلوم الانسانية وبالذات علم الاجتماع او علم المجتمع ، كانت فى بعض فترات التاريخ تبدو اكثر تقدما من على الطبيعة (الفيزياء) كما هو الحال مثلا فى ايام اليونان وبخاصة ايام افلاطون . ولكن بمجرد جليليو Galileo ونيوتن Newton احرزت العلوم الطبيعية من النجاح ما لم يكن مرتقبا ، وتوقفت كثيرا على غيرها من العلوم . ومنذ عهد باسستير Pasteur ، نظير جليليو فى علم الحياة ، احرزت العلوم البيولوجية نجاحا يكاد يعادل ما احرزته العلوم الطبيعية . ولكن العلوم الاجتماعية لا يبدو لآن أنها وجدت من يحقق لها ما حققه جليليو للعلوم الطبيعية (١) . ومن هنا كان لا بد للمشتغلين بالعلوم الانسانية من أن يترفوا على اسباب ذلك التخلف الذى تعاني منه العلوم الانسانية من ناحية والطريقة المثلى للخروج من ذلك التخلف الذى يكاد يشبه الجمود ، ومن هنا

(١) : بوبر ، كارل : علم الذهب التاريخي ، دراسة فى مناهج العلوم الاجتماعية - ترجمة الدكتور عبد الحميد صبره ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٥٩ ، صفحة ٩ . . .

أيضا كان لا بد لهم من الاهتمام بالمسائل المنهجية وبخاصة المناهج التجريبية المتبعة في العلوم الطبيعية بالذات . وهذه أيضا حركة قديمة ترجع الى أيام جون ستوارت ميل : J. S. mill الذي أراد « اصلاح » علم الاجتماع بالاستعانة بالمناهج التجريبية مثلما فصل فونت Wundt في محاولته « اصلاح » علم النفس . ومع ان هذه المناهج حققت كثيرا من النجاح في علم النفس فهناك كثير من الشك في مدى ما حققته من نجاح في العلوم الإنسانية .

ولقد ترتب على سرعة التقدم العلمى والتكنولوجى في السنوات الأخيرة مع تخلف العلوم الإنسانية أن زاد التشكك في قيمة وجدوى هذه العلوم ، على الأفل في حالتها الراهنة . وساعد على ذلك مظهر من انزال كثير من المشتغلين بهذه العلوم عن الأحداث الهامة في مجتمعاتهم وعجزهم عن ملاحظة التفريعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والايديولوجية التي يمر بها العالم الآن . وانعكس ذلك واضحا في موقف كثير من الحكومات من كلا الفئتين من العلوم ومدى اهتمامها بها ، وهو اهتمام يمكن ان نقيسه بحجم الاتفاق على كل منهما . وقد تكفى بعض الامثلة القليلة لتوضيح ذلك : فالعروف مثلا ان حكومة الولايات المتحدة الأمريكية اتفقت على تدعيم البحوث العلمية والهندسية في عام ١٩٦٦ ما يزيد على خمسة عشر بليون دولار ، وهو مبلغ ضخم ، ولكنه يرتفع الى ما يقرب من العشرين بليون دولار اذا اخذنا في الاعتبار المساعدات الاخرى الثانوية وغير المباشرة التي بدلت في هذا المضمار . ويزيد هذا المبلغ زيادة هائلة ليس فقط عن كل ما تكلفه الجهود العلمى خلال الحرب العالمية الثانية ، بل انه يزيد ايضا على كل ميزانية الحكومة الفيدرالية في السنة السابقة مباشرة على الهجوم على بيرل هاربور (١). وقد ارتفع حجم الاتفاق اكثر من هذا بكثير بعد عام ١٩٦٦ نتيجة لتشعب البحوث العلمية والهندسية وتعقدتها وامتدادها الى ميادين جديدة بعد ان دخل العلم مرحلة غزو الفضاء . وبعد ان كان البحث العلمى في أمريكا يكاد ينحصر في الجامعات ومراكز البحث العلمى وبعض الشركات الصناعية الكبرى نزلت الادارات الحكومية المختلفة الى هذا الميدان بقوة عارمة وميزانيات ضخمة وأعداد كبيرة جدا من العلماء المتخصصين الكفاء ، وهو امر جديد لم يكن لأمريكا سابق عهد به . وليس المهم هنا هو ضخامة الاتفاق على العلوم الطبيعية في ذاتها ، فهناك بغير شك ما يبرر ذلك الاتفاق او بعضه على الأقل . وإنما المزعج حقا هو ذلك التقدير المقابل في الاتفاق على العلوم الإنسانية وعدم الاهتمام اهتماما كافيا بتعليم البحوث في هذه المجالات على الرغم مما يرتبط في الاغلب بالتقدم العلمى والتكنولوجى من ظهور كثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحتاج الى حلول سريعة حاسمة ، وما يتطلبه هذا كله من ضرورة دراسة الاوضاع الجديدة وفهم منطق العلم والتكنولوجيا وآثارهما في الحياة الإنسانية . وليس من شك في ان هذا كله خليق بأن يلقى اعباء جديدة على المشتغلين بالعلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية على السواء، حيث يمتحن على كل من الطرفين محاولة فهم الطرف الآخر والتعرف على ميادين أبحاثه واهتماماته والعمل على تعديل نظريته في ضوء ذلك الفهم الجديد ، على أساس انه لا بد من تصحيح إتوازن بين العلوم الطبيعية والإنسانية أو تضييق الهوة التي تفصل بينهما بقدر الامكان . والشئ الغريب هو انه على الرغم من الشعور المتزايد بخطورة الموقف الناجم عن اختلال

التوازن ورجحان كفة العلوم الطبيعية الى الحد الذى يهدد مستقبل المجتمع البشرى بأسره ، فان الخطوات الإيجابية التى اتخذت للأن قليلة وغير فعالة . ففى إنجلترا - مثلاً - وهذا مثال آخر له مغزاه وان لم يكن مثلاً صارخاً كامريكا ، نجد ان مجموع ما ينفق على العلوم الاجتماعية اقل من جزء من ألف جزء مما ينفق على العلوم الطبيعية ، وان هذه النسبة الضئيلة تزداد تضاعفاً لو أخذنا فى الاعتبار ما تنفقه الصناعة أيضاً من أموال على البحث العلمى والتكنولوجيا (٣) .

وقد يرجع بعض هذا التخلف الذى تعانيه العلوم الإنسانية الى قلة الإنفاق على البحوث ، وان كان يمكن فى الوقت ذاته تفسير الانصراف عن تدعيم هذه البحوث ذاتها الى قلة العائد الملموس منها ، وإلى اخفاق المشتغلين انفسهم بهذه العلوم فى تدعيم مركزهم واقتناع الحكومات والمجتمع بجدوى إقبالهم التى كثيرا ما يشوبها الجدل والافتراضات الغضاضة والتعميمات التى لا تستند الى أساس متين من الواقع . وربما كان هذا من بين الأسباب التى دفعت بارسونز الى القيام بدعوته المتطرفة التى أشرنا اليها ، وإلى الاهتمام الزائد باتباع المناهج التجريبية ومحاولة محاكاة العلوم الطبيعية فى أساليبها ، على أن يؤدى ذلك الى إحراز التقدم المأمول . ومن الصعب ان نناقش هنا بالتفصيل أزمة العلوم الإنسانية المختلفة ، ولذا سنقتصر فى معظم الأحوال على الإشارة الى اثنين فقط من هذه العلوم ، وهما علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، او كما يسميان أحيانا ، علم المجتمع وعلم الإنسان ، كمثالين يوضحان الوضع القائم فى المجموعة كلها . فالتساؤل على أية حال واحدة أو متشابهة الى حد كبير .

ولكن مهما يكن من امر تخلف العلوم الإنسانية ، فليس لمة شك فى أنها خليفة بأن تلعب دوراً هاماً فى حياة الإنسان المعاصر وإنسان المستقبل ، بل وقادرة على الاضطلاع بهذا الدور بشكل لم يتيسر لها من قبل ، وان ساعد على حل كثير من المشكلات والأزمات التى نجمت عن التقدم التكنولوجى الحديث . والمعروف ان علم الاجتماع بالذات ظهر كنوع من الاستجابة للأزمة التى كان يمر بها المجتمع الأوروبى خلال المرحلة الديناميكية التى ترتبت على ظهور الثورة الصناعية

(٢) Eysenck, H.J.: *Sense and Nonsense in Psychology*, Pelican 1966, P. 12.

ويذكر آيزنك كمثال لتفتتير فى الإغفال على الدراسات الإنسانية ما يحدث فى مجال علم النفس باعتباره أحد العلوم الإنسانية المتقدمة ، ويقارن فى ذلك بين ما تتكلفه مشالاختبارات قياس ذكاء الأطفال لتتعرف على قدراتهم وميولهم ، وما يساعد على وضع خطة علمية سليمة لتوجيههم منذ صغرهم فى الحياة وبين ما ينفق على بعض الأمور الأخرى التى لا تكون لها كل هذه الأهمية فى حياة الإنسان . ومع أن اختبارات ذكاء أطفال المدارس بين سن السادسة والحادية عشرة لا يكلف الواحد منها سوى تسعة سنتات وان الأمر يحتاج الى تطبيق خمسة اختبارات على فترات متباعدة ، بحيث تقل تكاليف الاختبارات كلها من أربعة شلنات وهو مبلغ زهيد جداً ولا يمكن قياسه بما ينقله أى شخص عادى على اصلاح أداة يلعبها الطفل من الأدوات التى يستخدمها فى حياته اليومية ، فإن هناك صعوبة بالغة فى توليف المال اللازم لتطبيق هذه الاختبارات على كل تلاميذ المدارس فى تلك السن على الرغم من الفائدة الكبرى التى سوف تعود على الفرد نفسه وعلى المجتمع ككل ، وعلى الرغم من أن ذلك قد يوفر على المجتمع كله وعلى الفرد ذاته كثيراً من المتاعب وخيبة الأمل والمجهود الصانع التى قد تحدث فى المستقبل إذا لم تطبق هذه الاختبارات وامثالها . انظر فى ذلك صفحات ١٢ - ١٧ من كتاب آيزنك السابق ذكره .

والثورات السياسية والظروف التي أحاطت بعصر التنوير وحروب الاستقلال والثورات في أمريكا وأوروبا والغزوات والحروب النابليونية . وكان الغرض من قيامه حركة جديدة هو إيجاد وسائل وطرق واساليب يمكن بها تحليل العلاقات الاجتماعية المتشابكة المعقدة وتقريبها إلى الإذهان . وهذا معناه أن علم الاجتماع نما وترعرع في عالم سريع التغير نسبيا كان يبدو حينذاك على أنه ينحرف بسرعة فائقة عن الأوضاع الراسخة الموروثة ، كما كان الإنسان نفسه يبدو فيه ضائعا لا يعرف أين يسير ، كما كان يشعر بأنه أصبح عاجزا تماما أمام نتائج أعماله وأفعاله التي لم يكن يقدر نتائجها حق التقدير . لقد كان علم الاجتماع بذلك بمثابة المطلب العقلي لنوع جديد من العلماء يختلفون كل الاختلاف ممن سبقهم من الكتاب الذين لم يدخروا وسعا رغم إمكاناتهم المتواضعة في فهم الإنسان والمجتمع^(٤) . ولقد كان العلماء الأوائل يرون في علم المجتمع - حسب قول فريدريش يوخولتس Friedrich Buchholz - نوعا من الدراسة الغدة الفريدة التي لم تكن المصور السالفة تحلم بإمكان قيامها ، كما كانوا يرون في المشتغلين بذلك العلم الجديد طرازا خاصا من المفكرين يركزون كل اهتمامهم ويحصررون كل أهدافهم في محاولة تقرب العلم من حالة المجتمع وأوضاعه ، وبالتالي يعملون على تكييف ذلك العلم الجديد للمجتمع . ومع ذلك فلم يحاولوا أن يلقوا عليه أسما معينا . والمعروف أن الذي سمي علم الاجتماع بذلك الاسم هو أوجيست كومت Auguste Comte الذي كان يخضع ذلك العلم للقول الفرنسي المأثور : *Savoir pour prévoir, prévoir pour pouvoir* أي أنه كان يعتبر الغاية الأخيرة من علم الاجتماع هي التنبؤ أو التكهّن ، وإن الغاية من التنبؤ هي التحكم والتوجيه والإرادة ، وبالتالي فإن علم الاجتماع كان من ضمن أهدافه التغلب على الجموح الأعمى والنتائج غير المرئية وغير المقصودة التي قد تترتب على أفعال الإنسان^(٥) . وهذا هو بالضبط ما يبدو عليه الوضع الآن مع كثير من الفوارق في الدرجة بطبيعة الحال . فالعالم يمر في الوقت الحاضر بسلسلة طويلة من التغيرات العنيفة السريعة المتلاحقة ، وقد زهوت هذه التغيرات نفسة الإنسان وإيمانه في كثير من القيم الموروثة ، وجعلته يشعر بالضيايق والغشالة إزاء التقدم العلمي والتكنولوجيا الهائل ، ولم يعد يدري تماما إلى أين المصير . وكان لا بد للإنسان إزاء ذلك من أن يرجع إلى نفسه مرة أخرى يبحث فيها وفي المجتمع الذي ينتمي إليه ، وفي العلاقات الإنسانية والقيم الاجتماعية والروحية ، وكذلك في الظروف الراهنة التي تحيط به عن موطنه قديمه ، ويحاول أن يستشف منها شيئا من حاضره ومستقبله ، ولكنه يصطدم في أثناء بحثه بالوضع المؤلم الذي انحدرت إليه العلوم الإنسانية التي كان يمكن أن يسترشد بها، بالإضافة إلى حالة التشكك وعدم اليقين التي تسيطر على المشتغلين بهذه العلوم ذاتها فيما يتعلق بتحديد الهدف منها ومنهجها والدور الذي تقوم به في الحياة بعد أن فقدت ، على ما يبدو ، كثيرا من مقوماتها الأصلية القديمة . وهذا يصدق على علم الاجتماع في المحل الأول . ولكنه يصدق أيضا على الأنثروبولوجيا . ولقد دفع ذلك كله كثيرا من المشتغلين بالعلوم الإنسانية وبخاصة الشباب منهم إلى أن يفتخروا بعقل ناقد وضع

Gerth, H. and Landau, S.; "The Relevance of History to the Sociological Ethos" in Stein M. and Vidich, A. (eds) : *Sociology on Trial*, Prentice - Hall, N.J. 1963, P. 26.

(٥) انظر المرجع والصفحة .

هذه العلوم في الوقت الحاضر بقصد التعرف على سر الأزمة التي تمر بها ، وعناصر تلك الأزمة وطريقة الخروج منها .

١ -

وأزمة العلوم الإنسانية هي في أساسها أزمة كيان ، ان صحت هذه التسمية ، نشأت من الرغبة في إثبات وجود هذه العلوم وتحديد مكانها بين بقية العلوم والمعارف تحديداً واضحاً نهائياً ومعترفاً به من الجميع ، أي من المشتغلين بالعلوم الطبيعية والبيولوجية من ناحية ، والمشتغلين بالعلوم الإنسانية ذاتها من الناحية الأخرى ، على الرغم مما قد يبدو في هذا القول الأخير من غرابة . فليس هناك حتى الآن اتفاق تام بين المتخصصين في العلوم الإنسانية انفسهم على تحديد هذه العلوم (١) والاعتراف بمجالات تخصصها ومدى التعاون الذي يمكن ان يقوم بينها ، بل والاكثر من ذلك الاعتراف ببعضها بعضاً . وهذا الموقف التشككي في أهمية بعض التخصصات من جانب المشتغلين بتخصصات أخرى ضمن دائرة العلوم الإنسانية ذاتها موقف قديم . فواجبست كونت في تصنيفه للعلوم الذي وضعه في كتابه الشهير «دروس في الفلسفة الوضعية *Cours de Philosophie Positive* » يربط العلوم ترتيباً تصاعدياً من البسيط الى المعقد ، مبتدئاً بالرياضيات التي يعتبرها أبسط العلوم ، لانها هي الأساس الأول الذي تعتمد عليه كل العلوم الأخرى ، دون ان تستند هي الى أي علوم أخرى أبسط منها ، ومنتهياً بعلم الاجتماع الذي يعتبره أكثر العلوم تعقيداً . الا انه يسقط علم النفس من هذا التصنيف ، لانه ليس علماً خليقاً بالذكر . وقد اخذ دوركايم *Durkheim* ايضاً موقفاً معادياً من علم النفس وان لم يصل الى حد الإنكار التام له ، ولكنه كان يرفض الاستعانة به في فهم ودراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية ويحذر من الوقوع في التاويلات السيكلوجية لتلك الظواهر ، وان كانت كتاباته هو نفسه لم تخل من مصطلحات علم النفس (٢) . وقد نجد دليلاً واضحاً على مدى تحيز العلماء في هذا الصدد لو قارنا موقف دوركايم باعتباره عالم اجتماع ، بموقف

(٦) يطلق اصطلاح (العلوم الإنسانية) في العادة على الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد والسياسة ، وقد يدخل في دائرتها ايضاً التاريخ وفي بعض الأحيان الإدارة العامة . وتختلف العلوم الإنسانية عما يعرف عادة باسم الإنسانيات *Humanities* التي تقسم الأدب والفلسفة والفن وما إليها .. وسوف نمود لذلك فيما بعد .

(٧) ربما كان الفصل مثل ذلك هو كتابه عن « الانتحار » دراسة في علم الاجتماع *Le Suicide* ; *Etude de Sociologie* ، الا على الرغم من انه يحاول في المصطلح الأولي ان يدحض الفكرة السائدة لدى كثير من الكتاب من ان الانتحار مشكلة تتعلق بالفرد من حيث هو فرد وانه لا يمكن لذلك تفسيرها في ضوء علم النفس وبالإشارة الى الحالات النفسية التي يمر بها الفرد فانه لا يثبت ان يفارق بين ثلاثة أنواع من الانتحار يسميها النمط الثاني الذي ينشأ من انعدام تكامل الفرد في المجتمع ، والنمط الأول الذي ينشأ من رغبة الفرد في التضحية بحياته خصوصاً ليعطي الأوامر والتقاليد ، ثم الانتحار النافسي ومن الانحراف عن المعايير الثابتة او الضروج عليها . ولا يكاد تحليل دوركايم للانتحار يختلف عما قد يكتبه الآن احد علماء الانثروبولوجيا السيكلوجية من أمثال هالويل *Hallowell* . انظر في ذلك كتابنا عن « البناء الاجتماعي : مدخل لدراسة المجتمع » ، الجزء الأول ، التفهومات .. دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٨ ، صفحات ٨٥ - ٨٥ .

مالينوفسكي Malinowski — باعتباره من علماء الأنثروبولوجيا علم النفس والتاريخ باعتبارهما علمين من العلوم الإنسانية .

فبينما يرفض دوركايم علم النفس على ما رأينا ويشادى بأهمية التاريخ في فهم الظواهر الاجتماعية يقف مالينوفسكي موقفاً مناقضاً لذلك تماماً . فهو يرفض التاريخ ولا يعترف به كوسيلة أو أداة في فهم المجتمع ، ولكنه يستعين — في بعض دراساته على الأقل — بعلم النفس لفهم بعض الظواهر الاجتماعية ، بل أنه كان يأخذ على المدرسة الفرنسية إغراقها في توكيد الجانب الاجتماعي من الطبيعة البشرية على حساب التغيرات الفردية وحاول ، على هذا الأساس ، أن يعيد نظرية دوركايم عن طريق الاستعانة بالنظريات السيكلوجية عند بافلوف Pavlov وفوننت وكذلك الاستعانة بالتحليل النفسي (A) .

وظهر هذا الاتجاه واضحاً بوجه خاص في دراساته للدين والسحر حيث حاول تفسير هلمعغيره من العلماء من أمثال مارييت Maritt ولوى Lowie ورادين Radin — على أساس المشاعر والحالات الانفعالية كالكرهية والجشع والحب والخوف والرهبة وما إلى ذلك . ثم نجد من الناحية الثالثة إيفانز بريتشارد E.B. Evans-Pritchard وهو تلميذ مباشر لمالينوفسكي يقف موقفاً معادياً تماماً لعلم النفس على عكس أستاذه ، ويرى أن التاويلات التي تعتمد على علم النفس بداخلها كثير من الخلط وعدم الترابط ، كما أن فيها كثيراً من اللغو والهراء (٩) .

ويبدو أن التشكك في أهمية العلوم الإنسانية — أو بعضها على الأقل — يمتددي دائرة المشتغلين بهذه العلوم أنفسهم إلى غيرهم من المفكرين والعلماء ، كما يبدو أن موجة الشك تبلغ ذروتها بالنسبة لعلم النفس بالذات الذي أثر حوله كثيراً من السخرية والتهكم اللاذعين وبخاصة فيما يتعلق بمنهجه وطرق البحث فيه ، وهي مناهج وطرق تهدف إلى توكيد الناحية « العلمية »

(٨) يظهر هذا الاتجاه بوضوح في كتابات مالينوفسكي الأولى حيث حاول تفسير الكبت والصراع اللذين يظهران في العائلة الأوربية نتيجة لوظيفة الحضارة الحديثة بالاستعانة بالتحليل النفسي وكتابات فرويد ومدروسته ، كما يظهر أيضاً في كتابته عن « الجنس والكبت في المجتمع الهيميسي Sex and Redression in Savage Society » وأن كان عارضاً فيه التفسيرات الفرويدية ويبين عدم انطباقها على المجتمعات البدائية وبخاصة المجتمعات الأمومية Matrilineal . وعلى أي حال فقد نيز مالينوفسكي في كتاباته المتأخرة هذه الاتجاهات وبخاصة نظريات التحليل النفسي التي يصلها بأنها نظريات فاحشة مسرفة ، وأن حججها وهاتئة غامضة كما أنها تستخدم المصطلحات ومصطلحات معقدة . انظر في ذلك الجزء الأول من كتابته عن « البنية الاجتماعية » — المرجع السابق ذكره صفحتي ١٠١ — ١٠٢ .

(٩) انظر ترجمتنا لكتاب : إيفانز بريتشارد : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى (١٩٥٨) صفحة ٧٥ ، ويأسف إيفانز بريتشارد حين يرى أن « العصر الذي تلاه العلماء السابقون لم يودع الأنثروبولوجيين المحدثين — وبخاصة في أمريكا — عن محاولة صياغة النتائج التي وصلوا إليها في ذلك الطيف من علم النفس السلوكي والتحليل النفسي ، وهو ما يطلق عليه اسم سيكلوجيا الشخصية أو سيكلوجيا الدوافع والاتجاهات (صفحتي ٧٥ — ٧٦) وهو يرى ، على العموم ، أن كلا من علم النفس والأنثروبولوجيا يدرسان نوعاً خاصاً به من الظواهر وأن ما يدرسه أحدهما لا يمكن فهمه على أساس النتائج التي توصل إليها الآخر . وحتى يدركنا نفس الأمثال في السلوك الواقعي فإنهما يدرسان تلك الأمثال على مستويات مختلفة من التجريد . (صفحة ٧٦) .

فيه وتقريبه من العلوم الطبيعية . وكثيرا ما تعرض لهذه السخرية أساطين علم النفس والتحليل النفسى من امثال بافلوف وفرويد . ولقد كان بافلوف بالدات موزعا لسخرية برناردشو في روايته « زنجية تبحث عن الله The Black Girl in Search of God » حيث يسخر شو من تجارب بافلوف المشهورة حول الافعال العكسية الشرطية . وبصرف النظر عن مدى جدية برناردشو في نقده وتهكمه وعن مدى فهمه لتجارب بافلوف ، فالهم هنا هو عنصر التشكيك وما يليه من ظلال قاتمة على هذا العلم في اذهان الكثيرين من الناس - بل والاذكاء منهم - الذين قد يخطئون ادراك الغرض من اجراء التجارب العلمية . فعلى الرغم من ان بافلوف يعتبر من اعظم علماء النفس فان شو يظهره على انه امير العلم الزائف ، وان كل ما فعله في العلم هو انه اضاع خمسة وعشرين عاما من عمره في اجراء تجارب غريبة على الكلاب لجمع المعلومات التي يقيم عليها نظريته البيولوجية حول اذا ما كان اللعاب يسيل من فم الكلاب حين تتعرض لبعض المنبهات والمثيرات مثل رؤية الطعام او شم رائحته وسماع بعض الكلمات او الاصوات في اثناء ذلك ، وكيفية ذلك اللعاب مقدرة بمدد القطرات التي تتساقط من الفم ، وانه بذل كثيرا من الجهد والوقت في فتح ادمنة عدد لا يحصى من الكلاب وعمل ثقبوب وفتحات في انكاها وخدودها لكي يسيل اللعاب منها بدلا من ان يسيل من طرف اللسان وهكذا . . . وتسال الفتاة الزنجية البسيطة بافلوف « لماذا لم تسألني انا ؟ لقد كان بوسعى ان اجيبك على ذلك في خمس وعشرين ثانية دون ان تضطر الى تمذيب كل هذه الكلاب المسكينة » ويستنكر بافلوف السؤال وينعى على الفتاة جهلها وقصر عقلها ، فقد كان يعرف تلك الحقيقة عن سيل اللعاب طيلة الوقت ، ولكنه لم يكن برهن عليها تجريبيا في المعمل وبذلك لم تكن هذه الحقيقة معروفة على المستوى العلمى من قبل . «لقد وصلنى كنوع من التخمين الفج ولكنى اوصلتها للاخرين كحقيقة علمية (١٠)»

ونفس تسمية « العلوم الانسانية » بهذا الاسم يثير كثيرا من الجدل والبلبله نظرا لانه يجمع بين مجالين مختلفين تماما من مجالات المعرفة ، سواء من حيث الموضوع او المنهج او اساليب الدراسة ويشبه احد كبار علماء الانثروبولوجيا المعاصرين ، وهو الاستاذ روبرت ردفيلد Robert Redfield الوضع في امريكا ، على الاقل ، بمادبة ضخمة تضم مختلف المعارف والتخصصات ، وقد جلست العلوم الاجتماعية او الانسانية والى يمينها العلوم الطبيعية والبيولوجية والى يسارها الانسانيات ، وفي الوسط تماما يجلس علم الاجتماع وعلم السياسة اللذان لا يكادان يدخلان في اية علاقة رسمية مع جيرانهما على كلا الجانبين ، بينما يظهر علم النفس الى اليمين بالقرب من العلوم الطبيعية والبيولوجية وان كان يبلورغم ذلك غير والقي تماما مما اذا كان يتعين عليه ان يقوى علاقاته وصلاته بالبيولوجيا او بالعلم الاجتماعى ، بينما تعمل الجغرافيا جهدها للتقريب بين بعض الدراسات الاخرى التى تهتم بالجنس البشرى من ناحية والارض من ناحية اخرى . اما الانثروبولوجيا فانها تجد نفسها في موقف غريب وفريد . فهى ترسل مندوبين عنها يمثلونها في « مجلس البحوث للعلوم الاجتماعية Social Science Research Council » كما ان لها مقعدا محجوزا بين علماء

أزمة العلوم الإنسانية

البيولوجيا والفلك في « مجلس البحوث القومي National Research Council » بالإضافة الى
تمتصها بمضوية « المجلس الأمريكي للجمعية الثقافية American Council of Learned Societies »
حيث تشارك في أعمال المشتغلين بالفنون والآداب .

وأيا ما يكون نظام توزيع المقاعد وترتيب الجلوس فإنه لا يساعد على تبادل الحديث والرأى بين هذه
العلوم . فالعلماء الاجتماعيون على العموم يدبرون ظهورهم للمشتغلين بالانسانيات الذين يجلسون
الى يسارهم ، مثلما يدبر العلماء الطبيعيون على العموم ظهورهم للاجتماعيين . وتوزيع المقاعد بهذه
الطريقة يعبر في الحقيقة عن مواقف واتجاهات معينة تعكس نوعا من تفاضل المكانة والمزلة بين
مختلف التخصصات ، وبالتالي ترتيب هذه التخصصات في مراتب عليا أو دنيا بالنسبة لبعضها
بعضا . فبعض التخصصات يعتبر « اصعب » من البعض الآخر وبالتالي افضل منها وأعلى
مركزا . وقد يكون المقصود بذلك صعوبة بعض هذه العلوم أو التخصصات على الفهم وكذلك
اعتمادها على الرياضيات ، وهذا هو السبب في تميز علم الاقتصاد على بقية العلوم الإنسانية .
ولكن كثيرا ما تكون « الصعوبة » مرتبطة في أذهان الناس بنفس طبيعة العلم ومجالة والموضوعات
التي يبحث فيها . وهذا هو السبب في اعتبار العلوم الطبيعية والبيولوجية اصعب من غيرها .
ومن هذه الناحية بالذات ، وعلى هذا الأساس ، تعتبر الانسانيات ، كالأدب والفنون « اسهل »
الدراسات والتخصصات ، بينما تعتبر الانثروبولوجيا « اصعب » وبالتالي ، أعلى مركزا ومكانة من
علم الاجتماع نظرا لأن لها - أو لبعض فروعها على الأقل - صلة بالبيولوجيا ، وهكذا . والمهم
هنا هو أن « العلماء » والتخصصين في دراسة « الكائنات البشرية في ذاتها » لا يشعرون على العموم
بانتمائهم الى فئة « العلماء » بالمعنى الدقيق الضيق للكلمة ، وأنه لا يدخل من بين المشتغلين
بالعلوم الإنسانية في تلك الفئة سوى علماء الانثروبولوجيا ، وربما كان ذلك - حسب تعبير ردفيلد
اللاذع : « لأن لهم صلة بدراسة الجماع » (١١) .

وتقد ترب على ذلك الموقف الوسط الذي تقفه العلوم الإنسانية بين العلم الطبيعي
والانسانيات أن وجدت نفسها في شبه مزلة عن كلا الفئتين من المعارف والتخصصات . وادى
هذا نفسه الى تخبط المشتغلين بهذه العلوم في اختيار الطريق التي يسلكونها وإن كان ثمة ميل
قوى واضح للارتباط بالعلوم الطبيعية واتباع طريقها . ورغم طول المناقشات والجدل فلا تزال
المشكلة قائمة ، وهي مشكلة تتعلق بالمنهج في المحل الاول وثير كثيرا من الخلاف والشقاق
وبخاصة بين الاجتماع والانثروبولوجيا . وسوف نعرض هنا لجانب من تلك الخلافات والجهود
التي بذلت - ولا تزال تبذل - لحل المشكلة لكي نتبين الى أي حد أفلحت هذه الجهود في حلها أو
في زيادتها تعقيدا .

٢ - ٢

وجزء كبير من مسئولية قيام هذه الأزمة يقع على عاتق العلوم الإنسانية ذاتها لتردها في

Redfield, R., « Social Science Among the Humanities », in Id: *Human Nature and the Study of Society*, Chicago 1962, Vol. I, PP. 42-44.

تحديد مجالات تخصصاتها بدقة وإتباع مناهج خاصة محددة في الدراسات والأبحاث التي تقوم بها، ثم في تحسبها آخر الأمر لطرق البحث الخاصة بالعلوم الطبيعية ومبالتها في تطبيق هذه المناهج والطرق على الظواهر التي تقوم هي بدراساتها، اعتقاداً منها أن ذلك سوف يرتفع بها إلى المستوى الرفيع من الدقة والتقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية والبيولوجية . ومع أن هذا الاتجاه ساعد بالفعل على تحقيق نتائج طيبة في بعض المجالات وبخاصة فيما يتعلق بإمكان قياس بعض الظواهر الاجتماعية والنفسية على ما سنرى فيما بعد، فإنه أدى من الناحية الأخرى إلى إبتعاد العلوم الإنسانية عن موضوعها الأساسي ، وهو فهم الإنسان والمجتمع فهما يجمع بين الدقة والعمق والشمول . ويقول آخر، فإن جزءاً من الإزمة الحالية ناشئ من محاولة تلك العلوم الاقتراب من العلوم الطبيعية والتشبه بها ، أو على الأصح الطريقة التي تسلكها في ذلك . وتظهر هذه المحاولة للتشبه في أبسط مظاهرها في أصرار « العلوم » الإنسانية على أن تطلق صفة « العلم » على نفسها وموضوعات تخصصها على ما نجده في « علم » الاجتماع أو السوسيولوجيا ، و « علم » الإنسان أو الأنثروبولوجيا و « علم » النفس و « علم » الاقتصاد . بل إن الناس لم يعودوا يتكلمون عن السياسة أو فلسفة السياسة وإنما عن « علم » السياسة، أو « العلم » السياسي Political Science فالتشبه بالعلم واضح إذن . وليس المقصود بذلك هو دراسة الظواهر الإنسانية المختلفة دراسة موضوعية منزهة من الميول والأهواء والتحيزات - وإن كانت هناك اعتراضات على إمكان تحقيق هذه الموضوعية أو حتى جدواها - وإنما المقصود هو التمسك الشديد بتطبيقات أساليب وطرق البحث المتبعة في العلوم الطبيعية على ما ذكرنا . وقد ارتبط هذا كله بطبيعة الحال بالاتجاه نحو التخصص الضيق ، تمثيلاً مع مقتضيات العلم الحديث وما يؤدي إليه هذا التخصص الضيق من تفتيت لموضوعات الدراسة بحيث ينتهي العالم إلى أن يعرف أكثر وأكثر عن أشياء أقل فأقل . وليس لمة ما يعيب التخصص الدقيق ما دام يؤدي إلى البحث العميق . فكل ما حققته العلوم الطبيعية والبيولوجية من تقدم يرجع إلى التخصص الضيق . ولكن التخصص الضيق في العلوم الإنسانية أدى إلى انحصارها في دراسة موضوعات جزئية وإبتعادها عما هو « إنساني » وانفصالها عن أحداث العالم والحياة ، وهو ما يؤخذ الآن بشدة عليها وعلى المتخصصين فيها .

ويختلف هذا الموقف اختلافاً كبيراً عن تصور العلماء الأوائل لمجال ورسالة العلوم الإنسانية بعامة و علم الاجتماع بخاصة . وربما كان سبب ذلك هو اختلاف الظروف والأوضاع التي لايسبب نشأة علم الاجتماع من الظروف التي يعمل فيها العلماء الحاليون . والواقع أن الرميل الأول من علماء الاجتماع لم يكونوا «أكاديميين» بالمعنى الشائع الآن للكلمة ، بل أن الكثيرين منهم كانوا غرباء تماماً عن الحياة الأكاديمية الضيقة ولا ينتمون إليها . ويعتبر بوخولتز Buchholz وتونث نفسه وهربرت سبنسر Herbert Spencer من أفضل الأمثلة لذلك النوع من العلماء . لقد كان بوخولتز صحفياً حراً وناقداً ، وكان كارل ماركس ، الذي يطلق عليه « اليهودي غير اليهود » اقتصادياً وفيلسوفاً وعالم اجتماع ومؤرخاً ومصالحاً اجتماعياً ومفكراً ثورياً . بل أن بعض العلماء الأوائل الذين اشتغلوا فعلاً بالتدريس مثل فرديناند تونيز F. Tonnies وماكس فيبر Max Weber وزيميل Simmel ودوركايم وغيرهم كانوا بطبيعة تكوينهم العقلي والثقافي الواسع غرباء ، نسبياً ، على الحياة الأكاديمية الضيقة ، ولم يكونوا يحملون فكرة « الأستاذ » أو « المعلم » بالمعنى الضيق

الكلمة الذى يحصر صاحبه في حدود تخصصه بحيث يفرق فيه تماما . وعلى الرغم من كل الإضافات التى اضافوها لعلم الاجتماع فانهم لم يحصروا انفسهم في ذلك الفرع وحده من فروع المعرفة ، بل ان معظم الفضل في اسهامهم المتنوع العميق في علم الاجتماع يرجع الى تلك النظرة الواسعة المتعمقة (١٧) . كذلك كان الحال بالنسبة لعلماء الانثروبولوجيا الاوائل ، اذ كان سير هنرى مين Sir Henry Maine وماكينان Mac Lenan وباخوفن Bachofen ولويس مورجان Lewis Morgan يشتغلون بالحمامة ، وكان فوستيل دوكلانج Fustel de Coulanges مؤرخا للمعصر الكلاسيكية الوسطى ، وكان تاييلور E. Tylor من المهتمين بدراسة اللغات الاجنبية ، وكان وليام روبرتسون سميت W. Robertson Smith راعيا في الكنيسة الاسكتلندية ومتخصصا في دراسات العهد القديم كما كان سير جيمس فريزر Sir James Frazer متخصصا في الاداب الكلاسيكية ، وهكذا (١٨) . ومن هنا جاءت نظرتهم الى الظواهر الاجتماعية والانسانية التى يدرسونها نظرة شاملة واسعة تتمدى في المادة حدود المجتمع المطلق الضيق الذى يمشون فيه ، وتحاول الاحاطة بقدر الامكان بالانسانية ككل وان كان ذلك لا يخلو من مثالب .

والظاهر ان ذلك كان هو الطابع الغالب على معظم العلوم الانسانية . فلقد كان المؤرخون يهتمون في المحل الاول بالتاريخ العالمى ككل اكثر من اهتمامهم بالتاريخ القومى ، ويظهر هذا واضحا في كتابات آدم سميث وهيجل وماركس ويوركهارت Purkhardt ورائكه Ranke ، ولا زلنا نجد روااسب ومخلفات هذا الاتجاه في كتابات توينبى Toynebee . ولقد كان لورد اکتون Lord Acton يطلب من تلاميذه من طلبة التاريخ ان يدرسوا « المشكلات التاريخية » التى هى في صميمها « مشكلات انسانية » ولا يقتصروا على دراسة المعصور التاريخية التى كان يعتبرها دراسة ضيقة محدودة الافق ، كما كان كولنجوود Collingwood يوصى تلاميذه في علم الآثار بان يدرسوا المشكلات لا الاماكن الاثرية (١٩) . وليس من شك في انه كان للاوضاع العامة السائدة ، حينذاك ، دخل كبير في اتخاذ ذلك الموقف . فالتغيرات السريعة الهائلة نسبيا والتطورات المتلاحقة التى صاحبت تحول المجتمع الاوروي في عصر الانقلاب الصناعى على ما راينا كانت تتطلب من المشتغلين بالعلوم الانسانية ان يحيطوا بكل هذه التغيرات واسبابها ، وان ينظروا الى العالم المتغير نظرة شاملة لا تتوافر الا ان يقف - ولو جزئيا - خارج اسوار الحياة الاكاديمية العالية الضيقة المحكمة ، وهو ما كان يتوافر بالفعل في هؤلاء العلماء .

ويعتبر علماء الاجتماع الأميركيون وعلماء الانثروبولوجيا البريطانيون مسئولين في المحل الاول من ذلك الاتجاه نحو التخصص الضيق ، وبالتالي نحو النظرة الضيقة في اثنين من اهم العلوم الانسانية . وساعد على ذلك ظهور النزعة الوظيفية في التفسير الاجتماعى بعد ان انحصرت موجة التأريخات التطورية التى كانت تسود في القرن التاسع عشر نتيجة لما وجهه العلماء المحدثون لتلك

(١٢) Gerth & Landau; op. cit., PP. 26-27

(١٣) ايلغاز بيرتشاود : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، المرجع السابق ذكره ، صفحات ١١٠ - ١١١ .

(١٤) ايلغاز بيرتشاود : المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٢٠ .

التاويلات من انتقادات وطعون . فلقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الاولى تحتل مكانة مرموقة في المجتمع العالمي وتفرض نفسها وثقافتها على العالم بأسره ، بحيث يمكن القول مع جيرت ولانداو انه بدأ عصر جديد في تاريخ العالم هو عصر الولايات المتحدة (١٥) الذي يتميز بالسيطرة الأمريكية ليس فقط في الميدان الاقتصادي أو السياسي ، بل وأيضا في مختلف ميادين العلم . وقد دخل علم الاجتماع الأمريكي بالذات مرحلة جديدة لها خصائصها واتجاهاتها المميزة التي تتعارض تمام التعارض مع الاتجاهات القديمة . فبينما كان العلماء الأوائل يهتمون بدراسة الابنية العالية اخذ العلماء الأمريكيون يركزون اهتماماتهم على دراسة المجتمعات المحلية ، او المشاكل الجزئية المحددة ، وظهر بذلك ما يعرف على العموم باسم علم الاجتماع البيئي الذي يهتم بدراسة الوسط أو المجتمع المحلي ، وذلك على يد روبرت بارك Robert Park في شيكاغو منسب العشرينيات من هذا القرن . وازاء هذا الاتجاه الأمريكي الجديد بدأ علم الاجتماع بصورته القديمة التي كانت مالوفة في القرن التاسع عشر والتي يمثلها علماء من امثال كونت وسبنسر ودوركايم يخفى بالتدريج واعتبرت نظرياته مجرد نظريات ميتافيزيقية على احسن الفروض . ثم اخذ الاتجاه نحو التخصص الضيق يزداد وضوحا ، ولم يعد السوسيولوجي بذلك مجرد متخصص في علم الاجتماع فحسب ، ولكنه أصبح متخصصا في فرع محدد بالذات مثل سوسيولوجيا العائلة ، او سوسيولوجيا الرأي العام ، او سوسيولوجيا المعرفة او العلاقات السلافية ، وما الى ذلك . ولم تعد الاولوية في الدراسات والبحوث الاجتماعية الحديثة تعطى لاختيار المشكلة التي يراد بحثها او لنوع المعلومات التي يراد جمعها ، وانما أصبحت الاولوية تعطى لطرق واساليب البحث التي يمكن استخدامها او الاستعانة بها في جمع المعلومات وترتيبها وتبويبها وتحليلها . واختفى بذلك الى حد كبير ما كان رايت ميلز Wright Mills يسميه بالمخيلة الاجتماعية Sociological Imagination واصبحت تلك (المخيلة) تعتبر مسألة غير عملية وغير علمية على السواء ، كما اختلفت النظرة الى الكثيرين من العلماء الأمريكيين الافذاذ الذين اسهموا اسهاما له قيمته ووزنه في التفكير الاجتماعي النظري في أمريكا ذاتها من امثال بيتيريم سوروكين Pitirim Sorokin فاصبح العلماء الأمريكيون يعتبرونهم متخلفين وتقليديين ويصفون آراءهم بانها آراء متيقة وبالية ، كما كادت اسماء كونت وسبنسر ودوركايم وغيرهم من علماء الاجتماع الكلاسيكيين تتوارى وتسقط في زوايا النسيان والاهمال ، ولم يعد يرجع الى كتاباتهم سوى قلة ضئيلة من المتخصصين المتصمقين ، ولاسباب تاريخية فقط في الغالب (١٦) .

ولقد شاركت الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا مشاركة فعالة في تعميق هذا الاتجاه ودفعه الى الامام . ولقد فرضت طبيعة الدراسات الأنثروبولوجية ذاتها ذلك الاتجاه على العلماء والباحثين . فحين ظهرت الأنثروبولوجيا الحديثة كعلم متميز وجهت كل اهتمامها الى دراسة الاشكال البسيطة من التجمعات الإنسانية التي اصطلح على تسميتها بالمجتمعات البدائية ، وهي بحكم الواقع جماعات صغيرة ومتعزلة بعضها من البعض الآخر الى حد كبير ، وبذلك لم يكن ثمة بد امام الأنثروبولوجيين

(١٥) Gerth & Landau, op. cit., p.29

(١٦) Ibid, pp. 29-30

من قصر جهودهم في الوقت الواحد على دراسة مجتمع واحد من هذه المجتمعات الصغيرة المنعزلة بكل ما فيه من أحداث ونظم وقيم وما يطرأ عليه من تغيرات وتطورات سريعة متلاحقة، وكانت طبيعة المنهج الأنثروبولوجي تضطر الباحث إلى الإقامة فترة طويلة من الزمن في الجماعة التي يدرسها حتى يتسنى له جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات الدقيقة التفصيلية ، ويحيط بكل مظاهر الحياة ويتعرف على العلاقات الاجتماعية المتشابكة التي تولف نسيج البناء الاجتماعي هناك . وحتى بعد أن اتسع مجال البحوث الأنثروبولوجية وامتد إلى المجتمعات الأكثر تقدماً وتمقداً ظل الأنثروبولوجيون مخلصين إلى حد كبير لطريقة البحث التقليدية ، ولذا فإنهم يحرصون على اختيار الجماعات الصغيرة المحدودة كي يتمكنوا من دراستها دراسة تفصيلية مركزة . وعلى ذلك فإن الجهود الضخمة التي كانت تبذل في القرن التاسع عشر للوصول إلى نظريات عامة تصدق على المجتمع الإنساني بأسره وفي مختلف صورته أخذت تقل وتتضاءل وتختفى بالتدرج ، لتحل محلها دراسات وبحوث أقل طموحاً وأقل اعتماداً على التفكير النظري البحث . كان علماء القرن التاسع عشر يهتمون ببحث المسائل العامة الواسعة مثل المعنى الاجتماعي للدين . أما العلماء المحدثون أو المحدثون منهم على أي حال - فإنهم يفضلون دراسة الموضوعات الأكثر تحديداً مثل الدور الذي تلعبه عبادة الأسلاف في النسق الاجتماعي الذي يقوم على نظام البنات المنقسمة في بعض المجتمعات الأفريقية . ولم يعد الأنثروبولوجي الحديث يحاول رسم صورة مريضة شاملة لتطور فكرة المسؤولية مثلاً أو تطور الدولة عند الجنس البشري كله، وبدأ يقنع بفحص مشكلات معينة بالذات وملاحظتها بطريقة مباشرة، كان يدرس مثلاً العداوة أو مركز الرئيس في أحد النظم السياسية بالذات ، وذلك بالإشارة إلى المجتمعات التي تؤثر فيها العداوة أو الرئاسة تأثيراً واضحاً في بقية النشاط الاجتماعي . كذلك لا يحاول الباحث الأنثروبولوجي المعاصر أن يروج بنفسه في المناقشات النظرية العامة مثل البحث فيما إذا كانت المجتمعات البدائية تنزع نحو الشيوعية أو الفردية ويتجه بدلاً من ذلك إلى دراسة كل أنواع الحقوق الجماعية الفردية أو الخاصة المتعلقة مثلاً بملكية الأرض أو الماشية أو غيرها في مجتمع معين بالذات ، وذلك لكي يحدد نوع العلاقات القائمة بين كل هذه الحقوق من ناحية وعلاقتها كلها بالنسق الاجتماعي التي تتأثر بها مثل نسق القرابة والنسق السياسي والنسق الشماعري وما إليها من ناحية أخرى (١٧) . يضاف إلى ذلك عامل آخر حاسم كان له أثره في اتجاه الأنثروبولوجيا هذه الوجهة « العلمية » أو الإمبريقية الجديدة ، وأغنى به تسمية علماء الأنثروبولوجيا في بداية القرن العشرين وطبيعة تخصصاتهم الأصلية ، فإذا كان العلماء الأوائل من أمثال مورجان وماكلينان وفريزر وروبرتسون سميت قد تخصصوا في الأصل في الدراسات الإنسانية والإنسانيات ، كالقانون والفلسفة واللغات الكلاسيكية على ما رأينا ، فإن الكتاب الذين خلفوا من بعدهم كانوا في الأغلب من العلماء الطبيعيين . فقد كان هادون Haddon مثلاً عالماً في الحيوانات البحرية ، وسلجمان Seligman متخصصاً في علم الأمراض (الباثولوجيا) ، واليوت سميث G. Elliot Smith من علماء التشريح ، والفور Balfour من علماء الحيوان ، ومايلنوفسكي وبواز Boas من علماء الفيزياء ، وهكذا . وكان لهذا أثره بغير شك في الاتجاه نحو

الدراسات الحقلية التي تعتبر الآن الخاصة المميزة للدراسات الأنثروبولوجية (١٨) . ولقد أدى هذا الاتجاه الأمبريقي خدمات جليلة للعلم . فقد ساعد مساهمة فعالة على تطوير وتهديب أدوات البحث العلمي ، مما أدى في النهاية إلى تحقيق درجة عالية جدا من الدقة والضغط في النتائج . كما ساعد على امتداد اهتمام العلماء والباحثين إلى أنماط من الحياة الاجتماعية لم يكن يخطر ببال العلماء السابقين دراستها ، مثل دراسة المناطق السكنية المتخلفة في المدن الحديثة أو عصابات اللصوص ومحتري الجريمة أو مدمني المخدرات والنار أو مجتمعات المقاهي والنوادى الليلية ، وما إلى ذلك من الجماعات الصغيرة المحدودة أو المشكلات الاجتماعية المحدودة . إلا أن المبالغة في هذا الاتجاه الأمبريقي - أو على الأصح الاقتصاد عليه - كانت له بعض النتائج الضارة التي تتمثل بوجه خاص في تقسيم المجتمع إلى قطاعات متميزة للتمكن من القيام بالدراسات المركزة، وفصل هذه القطاعات عن المجتمع القومي ، فضلا عن المجتمع الإنساني ، وكان لهذا أثره في انصراف العلوم الإنسانية ، تدريجيا ، من رؤية المجتمع والإنسان في عمومهما كما ذكرنا من قبل .

وليس المقصود بذلك هو الإغلاء من شأن الدراسات العامة الشاملة أو إعطائها من الأهمية والتقدير أكثر مما تستحق . فلقد كان لهذه الدراسات التحليلية الشاملة عيوب كثيرة واضحة ، وبخاصة في القرن التاسع عشر حين لجأ كثير من العلماء التطوريين إلى افتراض حدوث أمور لم تحدث بالفعل في تاريخ الإنسانية (١٩) ، ولكن مهما يكن من شأن هذه العيوب فإنه يبقى لهؤلاء العلماء التحليليين الأوائل الفضل في محاولة رؤية الأمور في علاقاتها المتبادلة وعلى مستوى المجتمع الإنساني كله وإقامة دراساتهم ضمن بناء اجتماعي ديناميكي دائم التغير . فلقد كان كل منهم يرى العصر الذي يعيش فيه عصر أزمت وانتقال وتحول وتغير وأنه يحتاج بذلك إلى الإلام بكل ما يحدث فيه ، ليس فقط على الصعيد المحلي أو القومي بل على الصعيد العالمي ككل . وبذلك كان ماركس مثلا ينظر إلى عصره على أنه عصر انتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وكان سبنسر من قبله يراه عصر صراع بين المجتمع الصناعي المسالم الذي يسير حسب القانون الطبيعي والمجتمع الحربي الديكتاتوري الذي يقوم على الطغيان والاستبداد ، وهكذا . وهذه ناحية فتنقر إليها النظرة الحديثة في معظم الأحوال ، على الرغم من أن العصر الذي نعيش فيه هو أيضا عصر أزمت

(١٨) الرجوع السابق ، صفحة ١١١ .

(١٩) من أفضل الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها هنا ، ذلك النظام الملكي النظري البحث الذي أقامه لويس مورجان ليصور به تطور الطوائف الجنسية ، أو على الأصح تطور الزواج . وتتلخص نظرية مورجان في أن المجتمع كان يتألف في البداية من أسرة اجتماعية بسيطة تعيش في حالة بدائية لا تحكمها عواطف أو قوانين أو قواعد خلقية ، وبذلك كان أفرادها يعيشون حياة إباحية وتعد دون أن تكون هناك أية عواطف تحكم في علاقاتهم الجنسية . ويسمى مورجان هذه المرحلة بمرحلة الإباحية الجنسية . ولم تلبث هذه الحالة أن خضعت لكثير من التنظيم بحيث نشأ عنها أشكال القرابة المختلفة في مراحل تالية من التاريخ . وكان أول شكل في رأيه هو العائلة البدوية التي تقوم على زواج الأخوة والأخوات ، ثم تلاها ما سمي به زواج الجماعة حيث كان الزواج يتم بين جماعة من الأخوة وعدد من النساء لا يشترط أن يكن أخواته أو على العكس من ذلك بين جماعة من الأخوات وعدد من الرجال الذين لا يشترط فيهم أن يكونوا أخوة ، ومن هذا الشكل ظهر شكلان جديدا هما تعدد الزوجات بالنسبة للرجل الواحد أو تعدد الأزواج للمرأة الواحدة قبل أن يظهر آخر شكل من أشكال العائلة وأكثرها رقا في الوقت نفسه ، وهو الذي يقوم على زواج الرجل من امرأة واحدة في الوقت الواحد . وليس هناك ما يدل إطلاقا على أن نظام الزواج مرهلا بهذه المراحل ، كما أنه لا يوجد ما يشير إلى أن المجتمع الإنساني عرف بالفعل زواج الجماعة .

وتغير وتحول ليس لها مثيل في كل تاريخ الانسانية . وقيل من العلماء المعاصرين هم انديسن يحاولون ان ينظروا الى عالنا المعاصر من خلال الصراع القائم بين المثل والقيم المختلفة او الصراع بين الانسانية والآلة التي هي احدى منجزات الانسان نفسه . وليس من شك في ان المسؤل الاول عن التغير الواضح في النظرة الى موضوع علم الاجتماع وغيره من العلوم الانسانية هو الميل الشديد الى التخصص الدقيق الضيق الذي اربط باعتبار هذه العلوم مهنا او حرفا واعتبار المشتغلين بها « مهنيين » او « حرفيين » أكثر منهم مجرد مثقفين متعددي الجوانب في ثقافتهم ونظرتهم الى الحياة والمجتمع والانسان (٢٠) . ويبدو ذلك واضحا بين علماء الانثروبولوجيا بوجه خاص . فالغالبية العظمى من بين هؤلاء العلماء يربط اسمهم ليس بنظريات معينة او حتى بدراسة مشاكل انسانية عامة وانما بدراسة مجتمع محلي واحد صغير ، كما هو الحال ، مثلا ، بالنسبة لمالينوفسكي الذي يربط اسمه بجزر التروبريداند Trobriand Islands التي وقف عليها كل حياته وجهوده . ولم يعط صفة الشمول والشمومية لكتابه الا بعض علماء الاجتماع الفرنسيين من ذوي النظرة الواسعة والقدرة على صياغة النظريات والوصول الى احكام عامة كلية من تحليل المعلومات الانثروجرافية التي جمعها مالينوفسكي ومقارنتها بغيرها من المعلومات الانثروجرافية التي جمعها غيره من علماء الانثروبولوجيا من شتى المجتمعات . وهذا وحده هو الذي اعطى كتابات مالينوفسكي معنى ومغزى تعدت بهما الحدود المحلية الضيقة التي كانت تنحصر فيها . وما يصدق على مالينوفسكي يصدق على غيره من علماء الانثروبولوجيا الى حد كبير (٢١) .

ولسنا نتوقع ، بطبيعة الحال ، من العلماء المحدثين ان يخرجوا علينا الآن بدراسات عامة واسعة وشاملة تشبه كتابات فريزر او تايلور التي تملأ في العادة مجلدات عديدة كما هو الحال في كتاب فريزر « الفصح الذهبي » الذي يقع في اثني عشر مجلدا . فلقد تغيرت الظروف التي يعمل فيها العلماء كما تغيرت طريقة التأليف العلمي مما كانت عليه في القرن التاسع عشر . ولكن الذي يؤخذ على « العلماء » المحدثين هو ابتعادهم الى حد كبير عن الانشغال بدراسة الاوضاع والحركات والنظم الاجتماعية المعاصرة والتغلغل في معرفة اصولها واسبابها ونتائجها وتفضيلهم على ذلك الانحصار في مشكلاتهم الجزئية الضيقة . ولقد لاحظ جيرت و لاندو (٢٢) في ذلك ان مجلة علم الاجتماع الامريكية American Journal of Sociology رغم كل الازمات والشدائد التي مرت بالعالم قبل الحرب العالمية الثانية ورغم اقتراب العالم من تلك الحرب بسرعة هائلة ومخيفة لم تنشر مقالا واحدا من الحزب النازي الا في عام ١٩٤٠ ، اي بعد ان كانت الحرب قد نشبت بالفعل ، وأنه خلال الفترة الطويلة بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٤٧ لم يظهر في تلك المجلة ذاتها - رغم عصريتها واهميتها بالنسبة لعلم الاجتماع سوى مقالين اثنين من (الاشتراكية القومية) ، وان فهرس المجلة التحليلي خلال خمسين سنة

Gouldner, A.W.; «Anti-Minotaur: The Myth of a Value-Free Sociology» in Stein & Vidich, op. cit, p. 45.

(٢١) انظر مقالنا عن (الطريقة الانثروبولوجية لدراسة المجتمع) ، مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية ، المجلد العاشر ، ١٩٥٦ صفحات ٨٥ - ١٠٠ .

(٢٢) Gerth & Landau, op. cit , p 31

كاملة لم يرد فيه ذكر كارل ماركس والماركسية سوى ثلاث مرات فقط بينما لا توجد فيه إية إشارة على الإطلاق إلى لينين والألبنينية . ولا يزال كثير من علماء الاجتماع في أمريكا بوجه خاص يفضون الطرف عن الازمات الطاحنة التي يمر بها العالم الآن والتي تتمثل بالنسبة لأمريكا نفسها في التفرقة العنصرية وحرب فيتنام والظلم الاجتماعي الذي تتعرض له بعض فئات الشعب وانتشار الجريمة وما إلى ذلك ، ويركزون اهتمامهم على نفس المشاكل التي كانوا يهتمون بدراساتها من قبل ، أو يدرسون موضوعات غريبة وبعيدة عن المؤلف لجذبوا الأنظار إليهم، بينما يفتلون دراسة بعض الظواهر الهامة مثل الثورة الثقافية في الصين التي تؤثر في حياة ما لا يقل عن ستمائة مليون نسمة والتي يعتبرها كثير من المفكرين أكبر حركة جماهيرية في تاريخ الجنس البشري (٢٢) والمسئول الأول من ذلك هو - كما ذكرنا من قبل - الرغبة الجامحة في محاكاة العلوم الطبيعية في نظرتها إلى موضوعات تخصصها وطريقتها في معالجة هذه الموضوعات واتباع نفس المناهج والطرق وما يطلبه هذا كله من التخصص الضيق الدقيق .

- ٣ -

ولقد كان من الطبيعي أن تمتد هذه الثورة إلى كثير من النواحي التي تعتبر مسلمات أولية في العلم والتي اقتبسها العلوم الإنسانية بالضرورة حين اختارت لنفسها أن تسلك طريق العلوم الطبيعية والبيولوجية وتطبق مناهجها وتلتزم بنظرتها إلى موضوعاتها . ولعل أهم ما يميز والدارسين بحيث يعتبر الحديث في موضوعية البحوث للظواهر التي تعنى بها . وقد نادى العلماء الأوائل في مختلف العلوم الإنسانية بالالتزام الموضوعية في دراستهم أيضا للظواهر الإنسانية ، وظهرت هذه الدعوة واضحة في كتابات علماء الاجتماع الأوائل ، وتلقفتها منهم الأجيال التالية من البحوث والدارسين بحيث يعتبر الحديث في موضوعية البحوث من أول الدروس التي يتلقاها طالب الاجتماع أو الأنثروبولوجيا باعتبارها شرطا أساسيا في البحث « العلمي » الدقيق . ولقد كان أميل دوركايم ، شيخ الاجتماعيين الفرنسيين ، من أهم وأكبر الدعاة بضرورة التمسك بالموضوعية العلمية لتحقيق « علمية » علم الاجتماع ، وظهر ذلك واضحا في بداية كتابه الهام من « قواعد المنهج في علم الاجتماع » حيث تنص القاعدة الأولى على ضرورة اعتبار الظواهر الاجتماعية كمال كانت أحياء . والمقصود بهذه الشئئية هو - على العكس مما كان يعتقد الكثيرون من أعداء وناقدي دوركايم - أن تعالج تلك الظواهر الاجتماعية بنفس الروح ونفس النظرة ونفس الأسلوب التي يعالج بها الباحث الفيزيائي أو الكيميائي أو البيولوجي الظواهر التي يدرسها كل منهم في معمله . والمبدأ الهام الذي يحكم الموضوعية ويضمنها هو السعي في طلب الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة . . وأن يقول العالم الحق ولا شيء غير الحق ، على حد تعبر بوبر Popper (٢٤) . وهذا معناه أن الباحث لا بد أن يكون بعيدا عن التعصب وأن ينتزه عن الميول والمصالح الخاصة أو حتى الميول والمصالح السائدة في فترة تاريخية معينة ، سواء أكانت هذه ميولا سياسية أو اقتصادية أو طبقية . ومن هنا كانت القاعدة

(٢٢) لنس الرجوع والمصلحة .

(٢٤) بوبر ، الرجوع السابق ذكره ، صفحة ٢٦ .

الثانية من قواعد المنهج عند دوركايم تنص على ضرورة التخلّص من كل الآراء والافكار واللاهواء السابقة ونبذها . وهذا معناه في آخر الامر « ضرورة اجتناب كل وجهة انتقائية » (٢٥) ، وبالتالي الامتناع عن الوقوف موقفا نقديا او ابداء وجهة نظر معينة وعدم اصدار أية احكام تقييمية فوظيفة العالم الاجتماعى او الانثروبولوجى - كمثالين للمشتغلين بالعلوم الانسانية - هي الملاحظة والوصف والتحليل والتفسير فحسب . ولقد وجدت هذه الدعوة لتحرير العلوم الانسانية من الاحكام التقييمية صدى هائلا عند الغالبية العظمى من المشتغلين بهذه العلوم ، واتخذت الدعوة - على ما يقول جولدنر - شكل وصية اخرى تكاد تضاف الى « الوصايا العشر » وتقول « لا تصدر حكما تقييميا » ، وهي وصية تملئ بها الآن كل الكتب المدرسية (٢٦) .

وتثير هذه الدعوة كثيرا من شكوك العلماء الشبان الآن مثلما اثارت من قبل كثيرا من المناقشات والجدل بين علماء الجيل السابق . ولكن الشكوك الحالية تتخذ شكل الازمة نظرا لحدة المناقشة وطبيعة الموضوعات التى تتعرض لها ، وهى موضوعات فيها كثير من الحساسية وتمس الحكومات وكثيرا من الهيئات الرسمية في الدول المختلفة ، كما توجه كثيرا من التهم للمشتغلين بالعلوم الانسانية . ويتساءل العلماء الثائرون عما يقصده اصحاب تلك الدعوى بالضبط من ضرورة تحرير العلوم الانسانية بعامة والعلوم الاجتماعية بخاصة من عنصر التقييم . فهل المقصود بذلك هو ان يتجنب الباحث اصدار أى حكم تقييمى على المشاكل الاجتماعية التى تعترض حياة المجتمع والتى يقوم الباحث نفسه بدراستها ؟ او هل المقصود هو تجنب التعرض بالدراسة اصلا لهذه المشاكل حتى لا يتعرض الباحث لاختصاصها بالنظرة الفاحصة واحتمال اتخاذها موقفا معينا منها وبالتالي احتمال الحكم عليها ؟ او هل المقصود هو ضرورة الترفع عن المقتضيات الاخلاقية للعلوم الانسانية وبذلك يكتفى الباحث ببرد الوقائع بامانة مع الامتناع تماما عن استخلاص أية مبادئ من تلك الوقائع ؟ ليس هناك رأى موحد ومتفق عليه من جميع العلماء حول هذه المسألة .

وهناك اسباب منهجية ، ولا شك ، وراء هذه الدعوى . ولكن على الرغم من اعتراف العلماء المعارضين بوجاهة هذه الاسباب فانهم لا ينفلون مع ذلك الدوافع الاخرى الخاصة التى تكمن وراء هذه الدعوى ، والظروف التى احاطت بالعلماء الذين تبناها ودعوا لها . وانفصل مثل ذلك هو ماكس فيبر Max Weber باعتباره أحد كبار العلماء الذين تركوا اثرا واضحا في تاريخ الفكر الاجتماعى الحديث ، كما له يتلقى الآن كثيرا من الطعنات التى يوجهها بعض العلماء الشبان الثائرين لانصار الموضوعية العلمية في العلوم الانسانية والنادين بإمكان التنزه عن اصدار الاحكام التقييمية في تلك العلوم . فلم تكن دعوى ماكس فيبر بإمكان التخلّص من الاحكام التقييمية ناشئة فقط من رغبته في تطبيق قواعد المنهج تطبيقا دقيقا على علم الاجتماع ، وانما كان يرى الى جانب ذلك ان هذه النظرة ترفع بالعلوم الانسانية وبخاصة علم الاجتماع عن أن تكون أداة في خدمة السلطات الحكومية

(٢٥) نفس المرجع ، صفحة ١٨١ .

(٢٦) Gouldner, op. cit., p. 35.

(٢٧) Ibid, pp. 36-37

والاحزاب السياسية وتساعد الجامعة بالتالى على الاحتفاظ باستقلالها وتماسكها وابعاد أى تدخل خارجى في شئونها العلمية ، فلقد كان واضحا له ان الاساتذة الذين يخرجون عن الموقف « المحايد » الذى يجب ان يتمتع به العالم في دراسته للمشكلات الانسانية والذين يعبرون في انشاء دروسهم ومحاضراتهم عن آراء خاصة تعكس نظرة تقييمية ووجهة نظر شخصية لآراء هذه المشكلات يجذبون الى محاضراتهم اعدادا من التلاميذ اكبر مما تجذب محاضرات الاساتذة « المحايدين » او « الموضوعيين » . وكان التعبير عن الآراء الشخصية في الجامعات الالمانية يتخذ وسيلة للتنافس بين الاساتذة وبالتالى تحقيق المكاسب الشخصية وبخاصة المكاسب السياسية ، ولذلك كان فيبر يرى في التسكك بالموضوعية الخالصة وسيلة للتضاء على ذلك الاتجاه الخطير الذى كان يهدد الجامعة والحياة العلمية السليمة . يضاف الى ذلك ان التعبير عن الآراء الشخصية في مشكلات المجتمع والانسان امام الطلاب قد تكون له نتائج خطيرة على تفكيرهم ، اذ قد يتخذ شكل ما يعرف الآن باسم عملية « غسل المخ » ، خاصة وان الطلاب في المراحل الاولى من حياتهم الجامعية لا يكونون على درجة من العلم والثقافة والقدرة على فحص الآراء وتحليلها بطريقة نقدية ، وبذلك يتقبلون ما يلقى عليهم اساتذتهم كقضايا مسلم بها ، وفي ذلك خطورة بالغة على التفكير الشخصى وبالتالى على حرية التفكير اذ يخرج الطلاب نسخة مكررة من استاذهم . والاغلب ان فيبر كان في هذا كله يحارب التعبير عن القيم السياسية بالذات وليس القيم الجمالية او الدينية ، او هو على الاقل لم يعارض بنفس العنف والقوة مناقشة شئون الفن والدين والتعبير عن الراى فيها بصراحة . فلقد كان همه الاول هو الاعتماد بالجامعة على الخصومات السياسية التى كانت ناشبة في المانيا على ايامه ، واعتقد ان الجامعة حين تنأى بنفسها عن مثل تلك المشارك تستطيع ان تؤدى رسالتها على اكمل وجه كما يستطيع اساتذتها ان ينصرفوا بكل جهودهم الى العمل الاكاديمى الخالص الذى يجب ان يقفوا حياتهم عليه وحده . يضاف الى ذلك ان مناقشة الشئون السياسية تخضع دائما - في نظر فيبر - لكثير من القيود والمؤثرات والضغوط ، وبذلك لا يمكن ان تكون حرة بالمعنى الصحيح للكلمة ، ولذا فقد يكون من الخير الامتناع عن مناقشتها اصلا . « فالكلية الذاتية » القائم على امتناع الشخص من تلقاء نفسه عن مناقشته هذه الامور هو افضل طريقة لتجنب التعرض للقمع الخارجى . الا ان العلماء الشباب ينعون على فيبر هذه السلبية ويرون ان شأنه في هذا الموقف شان من يرى ان الانتحار هو افضل وسيلة لتجنب التعرض لخطر القتل ، وان النتيجة المحتومة لهذه السلبية هي ابعاد الجامعة تماما عن احدى وظائفها الاساسية ، وهي محاولة اكتشاف الاهداف الرئيسية للحياة الانسانية من طريق حرية المناقشة والجدل (٢٨)

والواقع ان هناك من الشواهد ما يبرر موقف التشكك الذى يفتقه العلماء الشباب الآن من مسألة موضوعية البحث في العلوم الانسانية . ذلك ان الحكومات كثيرا ما تتدخل في توجيه البحوث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتحدد موضوعات معينة بالذات تعطىها اولوية مطلقة ، وتطالب العلماء بدراستها قبل غيرها من المشاكل التى قد تكون اقرب الى ميول هؤلاء العلماء ،

كما أن تمويل معظم الدراسات والبحوث في الوقت الحاضر يأتي من مصادر حكومية أو شبه رسمية على العموم . واعتماد العلماء في هذه المجالات على الهيئات الرسمية بغرض بلا شك قيوداً معينة على آراء الباحثين والعلماء في المشكلات التي يدرسونها . وكثير من العلماء والباحثين في مختلف الدول هم في الحقيقة مجرد « موظفين » في الإدارات الحكومية ، يقتصر نشاطهم العلمي على دراسة المسائل التي تعينها لهم الدولة أو الإدارة الحكومية التي ينتمون إليها . وثمة فارق كبير يفرض شك بين أن تسهم الحكومات والشركات في الاتفاق على البحوث التي يقوم بها العلماء حسب رغبتهم الشخصية وبدون تدخل من تلك الحكومات والشركات من ناحية ، وأن تقوم هيئة معينة بتحديد مشكلة معينة وتختار لدراستها باحثين معينين تقوم بالاتفاق عليهم في أثناء مدة البحث والدراسة . فمعظم الدراسات والبحوث التي تدخل في هذه الفئة الأخيرة إنما تجرى لخدمة أغراض معينة ، ولذا فهي تخضع في كل خطوة من خطواتها لتدخل تلك السلطات ورقابتها وتوجيهها مما قد يؤثر في النتائج التي تصل إليها. بل أن الكثير من هذه الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية والسياسية والاقتصادية يتم بتوجيه إدارات المخابرات في الدول المختلفة . والمثل الذي يفرض نفسه هنا بقوة هو وكالة المخابرات المركزية (C.I.A.) في أمريكا التي تنفق أموالاً طائلة على ذلك ، وتسخر أعداداً كبيرة من العلماء المتخصصين في مختلف فروع العلوم الإنسانية - وغيرها - لقيام بدراسات معينة ليس في أمريكا وحدها بل وإيضاً في كل بلاد العالم . وقد نارت شبهات كثيرة حول علاقة بعض الجامعات الأمريكية الكبرى مثل جامعة كولومبيا ومعاهد البحوث والدراسات العليا بتلك الوكالة، وكان ذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى ثورة الطلاب في تلك الجامعات احتجاجاً على تسخير العلوم الإنسانية في خدمة أهداف «غير إنسانية» .

ومن الإنصاف أن نذكر أن استعانة الحكومات بالمشتغلين بالعلوم الإنسانية لتحقيق أهداف معينة ظهر بشكل واضح وعلى نطاق واسع خلال الحرب العالمية الثانية ، حين عمل بعض العلماء الأنثروبولوجيين وعلماء التاريخ بالذات في المخابرات العسكرية للدول المتحاربة ، وتولى بعضهم بالفعل شؤون الحكم والإدارة في المناطق التي تم فتحها ، وقاموا بعدد من الدراسات في أثناء ذلك (٢٦) . وقد لا يكون هناك غبار في استعانة الدولة بخبرة علمائها في الجهود الحربية لكسب

(٢٦) من أهم الأمثلة على ذلك مشاركة العالم الأنثروبولوجي البريطاني إيانز برينشارد في حروب شمال إفريقيا وتوليه منصب الحاكم العسكري في برقة لبعض الوقت ثم تأليفه كتابه المشهور عن السوسيين في برقة تحت اسم *The Senegal of Cyrenaica*

كذلك أهتم عدد من علماء الأنثروبولوجيا في أمريكا لأسباب تتعلق بالدعاية والحرب بدراسة شعوب الأديان والطفاء على السواء ، واستعملوا في ذلك بغيرتهم الطويلة في دراسة المجتمعات البدائية والسياسة ، وكذلك بخبرتهم في تركيب الثقافات الأولية البدائية والتي على وشك الانقراض ، ثم إبرازها كوحدة متكاملة من المعلومات الميترية التي كانوا يحصلون عليها من الشيوع الأحياء في تلك المجتمعات . وقد قاموا بتطبيق ذلك النهج نفسه على الشعوب المشتركة في الحرب وبغضاه على اليابان بقصد تركيب ثقافتهم وفهم مزاجهم وطبائعهم الخاص أو ما يعرف عموماً باسم « المطلق القومي » أو « الطابع القومي » عندهم . وقد اهتموا في ذلك على الكتابات والمعلومات التي كانت في متناول أيديهم نظراً لاستحالة القيام بدراسات حقلية مباشرة في أثناء الحرب . وقد رفعت هذه الدراسات منذ ذلك الحين باسم « دراسة الثقافة من بعد » . وقد اشترك في تلك الدراسات بعض كبار العلماء هناك من أمثال كلاون Cluckhohn ومارجريت ميد Margaret Mead وجورج Goror ومترو Metraax .

انظر في ذلك الجزء الأول من كتابنا : البنية الاجتماعية ، المرجع السابق ذكره ، صفحات ٢٣١ ، ٢٣٢ .

المعركة ، ولكن الامر لم يلبث ان خرج عن ذلك النطاق الى مجال استخدامهم في عمليات التجسس من اجل فرض السيطرة والنفوذ على البلاد الاخرى في زمن السلم ، وهو وضع يعتبره العلماء والمتمردون الثائرون منافيا للاخلاق . والاكثر من ذلك هو ان بعض العلوم الانسانية ، وبخاصة الانثروبولوجيا ، استعين بها في توطيد اركان الاستعمار على ما كان يحدث في المستعمرات البريطانية في افريقيا . فقد كانت الحكومات الاستعمارية تستعين بمن تسميهم بالانثروبولوجيين الحكوميين ، لاجراء دراسات خاصة بين القبائل والشعوب الخاضعة لحكمها ، وجمع معلومات حول موضوعات معينة بالذات ، لكي تسترشد بها في سياستها وادارتها لتلك المجتمعات بطريقة لا تعارض مع القيم والنظم التقليدية السائدة هناك ، وبذلك كانت الحكومات الاستعمارية تتمكن بمعونة هؤلاء الانثروبولوجيين الحكوميين من تفادي كل ما من شأنه اثاره تلك الشعوب ، فلا تطالب بحريتها واستقلالها ، ويعتبر ذلك العمل ايضا في نظر العلماء الثائرين المتمردين منافيا للاخلاق . صحيح انه في بعض الاحيان كان يسمح لهؤلاء الانثروبولوجيين الحكوميين بالقيام بالدراسات التي يرغبون هم انفسهم في اجرائها والتي تتلاءم مع ميولهم او تجيب على بعض الاسئلة العلمية التي تدور في اذهانهم ، وكذلك فحص بعض النظم التي لا تهم الحكومات بشكل مباشر مثل النظم الديني او القرابي او الاداب والفنون الشعبية والاساطير وما الى ذلك ، ولكن هذا كان يعتبر في العادة عملا جانبيا يقومون به حين يفرغون من عملهم الاساسي . ومما له دلالة في هذا الصدد ان نجد عالما مثل ايفانز بيرتشارد الذي بدأ حياته في خدمة حكومة السودان ايام الحكم الثنائي كانثروبولوجي حكومي يقول بعد ان انتهت هذه الفترة من حياته العاملة وانصرف الى البحث الاكاديمي انه لكي « لا تضار المثل والقيم العلمية ينبغي على الانثروبولوجيين الابتعاد على العموم عن مسائل السياسية والحكم . بل انني اذهب في ذلك الى حد القول بان الاعتماد - حتى في البحث الخالص عن الحقائق - على تعضيد الحكومات ومؤازرتها فيه شيء من الخطر على الانثروبولوجيا ، كما قد يؤدي الى الصراع والتنازع بين وجهة نظر الانثروبولوجي وراى الحكومة في مكونات البحث الانثروبولوجي . فقد يكون للانثروبولوجي شغف خاص ببعض مشكلات الدين البدائي ويود لو يقف عليها جانبا كبيرا من عنايته ، بينما تفضل الحكومة - والحكومات على العموم لا تهتم كثيرا بالدين - لو يوجه تلك الجهود لدراسة المشكلات الناجمة عن هجرة الابدئ العاملة مثلا، او قد تريد الحكومة منه ان يقصر دراسته على نظام ملكية الارض فقط عند شعب من الشعوب ، بينما يرى هو ان من الصعب فهم هذا النظام الا بدراسة كل الحياة الاجتماعية هناك . ومن الطبيعي ان ينصرف اهتمام الانثروبولوجي الى الموضوعات الانثروبولوجية بغض النظر عما اذا كانت لها - او لم يكن لها - اهمية عملية على الاطلاق ، كذلك من الطبيعي ان تكون حكومات المستعمرات مهتمة بالمشاكل العملية بغض النظر عن قيمتها النظرية . وقد نشأت صعوبات واشكالات كثيرة حول هذه المسألة » (٣٠) . ومن شأن هذا كله ان يلقى ظلالا كثيفة على ادعاء الكثيرين من المشتغلين بالعلوم الانسانية بانهم يتوخون الموضوعية في دراساتهم وبحوثهم ، في الوقت الذي يقومون فيه في الواقع بابحاث موجهة ومفرسة ومتحيزة ، وتهدف الى تحقيق اهداف معينة حددتها لهم هيئات لاتصل بالعلم ولا بموضوعية البحث من قريب او بعيد . ولذا كان الكثيرون من العلماء المتمردين يرون في

دعوى الموضوعية العلمية في العلوم الإنسانية نوعاً من التفاف العلمي الذي يجب فضحه وكشف النقاب عنه .

وليس في هذا كله انكار لقيمة الموضوعية في ذاتها أو لأهميتها في البحوث العلمية إذا كان المقصود بها هو تسجيل كل الحقائق والوقائع المتصلة بموضوع الدراسة . والموضوعية بهذا المعنى لا تمنع من إبداء الرأي الشخصي في تلك الحقائق والوقائع بعد أن يتم تسجيلها بكل دقة وإمانة ، فضلاً عن أنها لا تتعارض بحال مع دراسة الأحداث الكبرى التي تؤثر في حياة المجتمع والإنسان والعالم . أما أن يمتنع العلماء عن إبداء رأيهم الصريح في أمور حياتهم ومجتمعهم فتلك هي السلبية في أشنع صورها ، لأنها تنصف بالأنزواء والانعكاش والجبن عن مواجهة الواقع ونقده وتحديه أن احتاج الأمر لذلك ، وبذلك تصبح الموضوعية مرادفة لخيانة الرسالة والتراخي عن تحقيق الهدف الحقيقي للعلوم الإنسانية ، وهو محاولة فهم الإنسان والمجتمع من كل الجوانب وفي مختلف الإبعاد والأعماق (٢١) .

وعلى أية حال فإذا كان البحث العلمي يعاني الكثير من النقص إذا لم يتمسك الباحث بالموضوعية العلمية في دراسته للوقائع والحقائق وتحليلها فإن الاضرار المترتبة على الموقف السليم أو الموقف الحيادي المطلق كثيرة وخطيرة في تقدير أعداد ذلك الاتجاه ، خاصة أن المبالغة في تحاشي نقد ما يحدث في المجتمع وتقويمه قد يؤدي في آخر الأمر بالمجتمع كله . وللعلوم الإنسانية في ذلك عظة وعبرة بما حدث في العلوم الطبيعية ذاتها ، فقبل الحرب العالمية الثانية كان الرأي السائد في العلوم الطبيعية ينادي بضرورة التمسك بالموضوعية العلمية المطلقة مع عدم التقيد بالقيم الإنسانية على اعتبار أن العلم لا ينبغي له أن يخضع لأية أحكام تقويمية . وظل الحال كذلك حتى ألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما فبدأ العلماء يراجعون أنفسهم ولم يعد الكثيرون منهم والقيمن من صحة هذا الرأي . وهذا نفسه ينطبق على العلوم الإنسانية . فلو اقتصر اهتمام علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرهم على تحسين أساليب البحث ومناهجه وتطويرها بقصد التوصل إلى نتائج أكثر دقة دون إبداء اهتمام مماثل بتنمية المسؤولية الأخلاقية لدى العلماء والباحثين فقد نشأ جيل لا يهتم بالأخلاقيات ولا بالإنسانية ككل . وإذا كان للعلم - على ما يقول جولدنر في ذلك - تطبيقاته النابعة والهدامة على ما يمثله بوضوح في تفتيت الذرة فإن هذا لا يبرر إغفال الفوارق بين الناحيتين أو تجاهلهما ، خاصة أن تبين هذه الفوارق لا تتعارض مع معايير الموضوعية

(٢١) Stein & Vidich (eds), in op. cit., pp. 1-2

ويلاحظ جولدنر في مقالته التي سبقت الإشارة إليها والتي عالج فيها ما يسميه بظلم الاجتماع الخالي من القيم أن الجري وراء دعوى الموضوعية والتحرر من الأحكام التقييمية حوائل ثلاثة من ظلمات العمل والشيوعية للهيئة ، كما أنه أقر ومضة في المطالب الشابة البريئة Goulgnier, op.cit.p.35 بالإضافة إلى أنه يؤدي إلى خلق نوع من التبدل الظلني عند هؤلاء العلماء ، ويساعد على تطبيق الأنماط والمكاسب الخاصة عن طريق التفتي وراء ستار الموضوعية العلمية . والملاحظ مثلاً أن بعض علماء الاجتماع الأمريكيين قاموا بدراسات وبحاث من شأنها أن تساعد على زيادة انتشار التنخين وترويج تجارة المسجاء بالتالي رغم ما يعرفونه من العلاقة بين التنخين والسرطان Ibid, p. 42.

العلمية ، وكل ما يعنيه هو التخلص من تلك اللامبالاة الاخلاقية التي تصبغ سلوك الكثيرين من المشتغلين بالعلوم الانسانية الآن (٢٢) .

- ٤ -

ولقد سبق ان اشرنا الى أن الازمة التي تمر بها العلوم الانسانية الآن نشأت في الاصل من الرغبة الجامحة في استخدام مناهج وطرق واساليب العلوم الطبيعية وتطبيقها بحدا فبرها في دراسة الظواهر الانسانية والاجتماعية ، على امل ان يساعد ذلك على الوصول الى نفس الدرجة من الدقة التي بلغتها العلوم الطبيعية والبيولوجية . والدعوة الى اتباع المناهج العلمية في العلوم الانسانية قديمة ، وقد ظهرت بوضوح عند أوجيست كوت لم عند ميل . وهناك بلا شك كثير من النواحي المشتركة بين هاتين الفئتين من العلوم ، وهي تتمثل بأبسط صورها في الاعتماد على الملاحظة والتحليل . بل ان الدعوة لا استخدام المناهج الكمية والطرق الاحصائية قديمة ايضا ، وترجع - فيما يتعلق بالانثروبولوجيا على الاقل - الى تايلور . انما الجديد في الامر هو تسليم الغالبية من المشتغلين بالعلوم الانسانية الآن يقول لورد كلفن Lord Kelvin ان المعرفة التي لا يمكن قياسها هي معرفة هزيلة وغير مقنعة (٢٣) . وسيطر الفكرة القائلة بان نجاح العلوم الانسانية وتقدمها واداءها لمجتها على الوجه الاكمل رهن بقدرتها على استخدام مناهج العلوم الطبيعية وطرق البحث فيها وبخاصة استخدام القياس والاحصائيات والاستبيانات والجداول وما اليها . ولقد أصبح كثير من علماء الاجتماع بالذات ، وبخاصة في امريكا ، يرون انفسهم اقرب الى علماء الفيزياء والكيمياء ويتصرفون في دراساتهم على هذا الاساس ، بغض النظر عن رأى الفيزيائيين والكيميائيين انفسهم في ذلك . كما ظهرت نزعة قوية للمقارنة بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية كانت كلها في الاغلب تنتهي الى اقرار ان الفارق بينهما هو فارق في الدرجة فقط ، ويتمثل على الخصوص في اختلاف كل منهما في صياغة المشكلات وحل تلك المشكلات . ومهما يكن من شيء فهناك في الواقع عنصر مشترك بين مناهج هاتين الفئتين من العلوم كما ذكرنا ، ويرجع ذلك الى أن العلوم الانسانية فرع من فروع المعرفة التي تحاول الجمع بين الجانب النظري والجانب التجريبي ولو الى حد محدود . والمقصود بالجانب النظري هنا هو الميل الى تفسير الحوادث والتنبؤ بها من طريق النظريات او القوانين الكلية التي تحاول تلك العلوم اكتشافها ، بينما نقصد بالجانب التجريبي أن لتلك العلوم سندا من التجربة ، بمعنى أن الحوادث التي تفسرها وتنتبئ بها هي وقائع يمكن مشاهدتها ، كما أن المشاهدة أو بالاحرى الملاحظة هي الاساس الذي تعتمد عليه تلك العلوم في قبولها أو رفضها لآية نظرية من النظريات . واذا كانت العلوم الانسانية تحاول الوصول الى نفس النجاح الذي حققته العلوم الطبيعية فان ذلك لن يتم على

(٢٢) Ibid, p. 52

(٢٣) Redfield, op. cit. pp. 44- 45.

الوجه الاكمل الا اذا تمكنت من الوصول الى مثل التنبؤات او التكهينات الدقيقة التي تصل اليها العلوم الطبيعية ، والمحك في ذلك هو أن تؤيد التجربة تلك التنبؤات أو التكهينات (٢٤) .

وليس هنا مجال الدخول في مناقشة مناهج العلوم الطبيعية والانسانية بالتفصيل ، فقد عولجت هذه المسائل بكثرة في الكتب المدرسية التي تهتم بوجه خاص بتبيين خصائص العلم والمنهج العلمي . ولكن يمكن القول مع سكينر Skinner ان العلم - بعامة - مجموعة من المواقف التي تتمثل في الاتجاه نحو دراسة الاشياء ، وليس ما يقوله الآخرون عن تلك الاشياء . ولذا فهو يرفض الركون الى ما هو وارد في الكتب ويهتم بدلا من ذلك بدراسة الواقع ذاته ، كما انه لا يقبل اي رأى أو قول - مهما كان شائعا - اذا تعارض مع ملاحظة الواقع والطبيعة . فالعلم هو تقبل الحقائق والوقائع حتى وان تعارضت مع الرغبات والاهواء الذاتية، وهو بذلك يتطلب درجة عالية من الامانة العقلية. ومع ان العلماء ليسوا أكثر امانة من غيرهم من البشر فان العلم وممارسته يعطيان اولوية خاصة لتلك الامانة كما يقول يردجمان Bridgman ، فالامانة العقلية اذن هي وسيلة التقدم في العلم ، وهذا هو السبب في أن كل الاحكام تخضع للتجارب العديدة المتكررة ، وهذا ايضا هو ما يخلق الجو العلمي الذي يفترض توافر الدقة ، كما يساعد هو نفسه على الوصول الى تلك الدقة المطلوبة . ولكن بالإضافة الى كون العلم مجموعة من المواقف والاتجاهات فانه بحث عن النظام او الترتيب والاطراد ، وعن العلاقات الممكن وجودها بين الاحداث والظواهر في الطبيعة . ويبدأ العلم في المادة بملاحظة حالات فردية يصل منها الى التعميم أو الى القانون العلمي الكلي . ومع أن الانسان يكتشف مثل هذه العلاقات في خبراته اليومية فان العلم يكتشفها بطريقة أكثر دقة ومنهجية ، ويميز عنها أيضا في أسلوب دقيق محكم (٢٥) . وهذا هو الفارق الهائل بين نظرة الرنجية ونظرة بافلوف الى سيل اللعاب من فم الكلب .

والوصول الى القوانين العلمية عمل طويل شاق ، ويحتاج الى تضافر كثير من القوى خلال فترة طويلة من الزمن . فهو ليس من عمل الفرد ، كما انه لا يتوقف على اكتشاف فرد واحد ، وانما على المعلومات التي توفرها اجيال متتالية من العلماء . ولذا فان الخاصية الاساسية للعلم هي تراكم هذه المعارف والمعلومات . ويقول آخر ، فان العلم ينتمي الى ذلك النوع من المعرفة الذي يعرف باسم المعرفة التراكمية Cumulative . وتخضع هذه المعرفة التراكمية - او العلم - لنوع من المحكات تساعد جميع المشتغلين بها على الحكم عليها بالصدق أو الكذب ، وذلك على العكس من المعرفة اللا تراكمية ، كالادب ، فهي لا تخضع لمثل هذه المحكات ، ولا يمكن أن تؤدي الى اتفاق عام . ومن هنا كان الحكم عليها بأنها غير مفيدة بل وأن من الخطأ تسميتها « معرفة »

(٢٤) كابل بوير ، الرجوع السابق ذكره ، صفحات ٩٩ - ١٠٠ .

(٢٥) Skinner, B.F; Science and Human Behavior, The Free Press, N.Y. 1953, pp. 13- 14.

على الإطلاق ، إذ ليس لها معنى بل - وهذا هو المهم في نظر المعترضين على هذه التسمية - ليس لها أى أثر حقيقي في السلوك البشرى . (٢١)

ولقد خُطت العلوم الإنسانية خطوات كبيرة حقا في سبيل تطبيق المنهج العلمي في ميادين دراساتها الخاصة . وكثير من هذه العلوم - وبخاصة علم النفس وعلم الاجتماع ، وإلى حد ما الأنثروبولوجيا - تستعين بالقياس إلى جانب الملاحظة . وقد أدت الملاحظة الدقيقة في كثير من الأحيان إلى اكتشاف نوع من النظام أو الاطراد بين الظواهر التي تهتم بها هذه العلوم ، مما ساعد على إصدار بعض التكنينات أو التنبؤات حول السلوك الإنساني . والواقع أنه لولا اكتشاف هذه الاطرادات لما أمكن معالجة كثير من الشؤون التي تعرض لحياة الإنسان والمجتمع . وتهدف المناهج العلمية بأساليبها الرياضية والمنطقية والتجريبية إلى توضيح هذه الاطرادات وإبرازها ، وهذا نفسه هو ما يحاول الكثيرون من علماء الأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي تحقيقه من خلال دراساتهم الحقلية ، وما يهدف إليه أيضا علماء النفس من استخدام الطرق التجريبية التي تمارس في العيادات والمختبرات ، والتي تخضع لكثير من الضبط والتحكم (٢٢) . ومن هنا كان الجاح الكثيرين من المتخصصين في العلوم الإنسانية في ضرورة الاستعانة بالمناهج والطرق الرياضية والتجريبية لكشف عن تلك الاطرادات والتعبير عنها ، على أساس أن هذه المناهج

(٢١) تمثل المعرفة التراكمية بأفضل صورها في العلوم الطبيعية ، فبعد البدايات الأولى لدراسة الملك والطبيعة مثلا منذ آلاف السنين في شرق البحر الأبيض المتوسط بدأت معلوماتنا عنها تترام وتتراكم كي تتحول إلى علم الملك والفيزياء الحديثين . وقد استعرت عملية التراكم طيلة هذه القرون رغم ما كانت تعرض له أحيانا من ركود ، كما أن كثيرا من الأفكار القديمة احتفظت بصحتها الآن ، وإن كان البنى الآخر ظهر كذب ومدد دقته فاسلف من الاعتبار . وكانت النتيجة من هذا كله هو ظهور علم متماسك معنودومتمايز وله نظرياته المقبولة من الجميع . وإذا كان لمة اختلالات بين العلماء في بعض مجالات العلم فإن هذه الاختلالات لا تتعلق بالأسس أو بمبادئ العلم ذاته وإنما تدور حول المسائل الفرعية والجديدة . وهذا لا ينفي إمكان قيام ما يمكن اعتباره « لثورات » في العلم تعمل من بعض هذه الأسس . وفي هذه التواحي بالذات تختلف المعرفة التراكمية من المعرفة اللاتراكمية والتي يشتر الأدب خير مثال لها . فعلى الرغم من أن الأدباء كانوا منذ القديم يكتبون حول أدور معينة مثل الحق والخير والجمال والإنسانية وما إليها ، وهي الموضوعات ذاتها التي لا يزال الأدباء المعاصرون يكتبون عنها ، فليس لمة ما يدل على حدوث أى تغير خلال القرون الطويلة للنسبة نتيجة لتراكم هذه الكتابات والخبرات ، كما حدث في العلم . وبينما يعرف عالم الملك أو الفيزياء الآن من فروع تخصصه اصناف اصناف ما كان علماء اليونان يعرفون ، فلا يزال الأدباء - على ما يظهر - في نفس الموقف الذي كان أدباء اليونان يجدون أنفسهم فيه . ويقول برنتون C. Brinton : ذلك أنه لو بحث أحد الأدباء اليونانيين مثل أرسطو فإن أو أحد الفلاسفة مثل أفلاطون لما وجد صعوبة كبيرة في متابعة ما يقال الآن في الأدب أو الفلسفة ، أما لو بحث أرسطو فسوف يحتاج إلى سنين طويلة جدا حتى يستطيع فهم مبادئ الفيزياء أو الرياضيات الحديثة . وبينما يستطيع أرسطو فإن أن يتابع بسهولة ما يكتبه جودج برناردشو مثلا ، ويستطيع أفلاطون أن يتابع بسهولة أيضا ما يكتبه فيلسوف مثل جون ديوى ، فإن يكون من السهل على أرسطو أن يفهم كتابات بوهر Bohr أو اينشتاين . انظر في ذلك على العموم :

Brinton, C.; The Shaping of Modern Thought, Prentice- Hall, Spectrum Books. N.J. 1963, PP. 9- 12

وانطرق ملك « للعلم » في ذاته ، ولا يمكن أن تكون وقفا على علم دون آخر ، وأنه يحق للعلوم الإنسانية بناء على ذلك أن تستعين بها ما دام ذلك يؤدي الى تحقيق درجة أكبر من الدقة والضبط .

ومع التسليم بهذا كله، فإن السؤال المهم الذي يتردد في الأذهان ولم يجد اجابة نهائية حتى الآن هو : الى أي حد يمكن استخدام مناهج العلوم الطبيعية وطرقها واساليبها في العلوم الإنسانية، وبالتالي الى أي حد يمكن اعتبار العلوم الإنسانية علوما طبيعية ؟ هناك صعوبات كثيرة تقف حائلا بين هاتين الفئتين من العلوم رغم كل ما يبدو من تقارب وتشابه بينهما ، ويكفي للتدليل على ذلك ضرب بعض الأمثلة من مناهج العلوم الطبيعية ومدى انطباقها على العلوم الإنسانية دون أن ندخل مع ذلك في تفاصيل كثيرة لا داعي لها .

وأول هذه الأمثلة - وهو في الوقت ذاته يمثل أولى الصعوبات - هو التجريب أو اجراء التجارب العملية كمنصر متميز من الملاحظة التي تستعين بها العلوم الطبيعية والإنسانية على السواء . ويعتبر منهج التجربة المنهج الأساسي في العلوم الطبيعية ، وهو يعتمد على عزل الظواهر الطبيعية صناعيا ، والتحكم فيها بقصد التوصل الى تحقيق الظروف المتعاقبة المرة تلو المرة ، وما يترتب على هذه الظروف من نتائج ثم تكوين النظريات . ومن المسلم به أن العالم الفيزيائي يتميز على العالم الاجتماعي أو الأنثروبولوجي مثلا باستخدام الوسائل العملية واجهزة القياس والملاحظة الدقيقة ، ويستعين بها في اخضاع الظواهر التي يدرسها المراقبة والملاحظة الدقيقتين . ومع أن هناك معاملا ومختبرات لبعض العلوم الإنسانية في كثير من الجامعات ومراكز البحوث فانه من الصعب اجراء التجارب فيها بالمعنى المفهوم من كلمة « تجربة » . والواقع أن هناك كثيرا من الاعتراضات على امكان القيام بمثل هذه التجارب ، ومعظم هذه الاعتراضات ذات طابع نظري أو منطقي . فمنهج التجربة يعتمد - كما يقول كارل بوبر - على الفكرة القائلة بأن الامور المتعاقبة تحدث في الظروف المتعاقبة ، وهو أمر يصعب تحقيقه في العلوم الإنسانية . وحتى لو أمكن تطبيقه فلن تكون له فائدة كبرى ، بل انه قد يكون عديم الفائدة تماما ، لأن الظروف المتعاقبة لا يمكن أن تتحقق الا في حدود الفترة التاريخية الواحدة ، ولذا فلن يكون لأي تجربة تجريها الا دلالة محدودة جدا . يضاف الى ذلك أن عزل الظواهر الاجتماعية صناعيا من شأنه أن يستبعد العوامل التي لها الأهمية العظمى في العلوم الإنسانية . « فنحن لن نجد ابدا في دروينسون كروسو وفي نظامه الاقتصادي الفردي المنزول نموذجا مفيدا للنظام الاقتصادي الذي لا تشأ مشكلاته الا عن التأثير المتبادل بين الافراد والجماعات . » (٢٨) بل إن أزمة استحالة كاملة في اجراء التجارب المفيدة في بعض العلوم الإنسانية مثل علم الاجتماع . وتتمثل هذه الاستحالة في أن التجارب الاجتماعية الواسعة النطاق - مثل توزيع المكيات الكبير - لا يمكن اعتبارها تجارب بالمعنى الفيزيقي أو الدقيق للكلمة ، « اذ ليس الغرض منها العمل على تقدم المعرفة من حيث هي كذلك ، بل يقصد بها تحقيق النصر السياسي . وهذه التجارب لا تجري في العمل بمعزل عن العالم الخارجي ، بل

الأحرى أن نقول أن إجرائها يغير الظروف الاجتماعية نفسها ، وليس من الممكن تكرارها في ظروف مماثلة ، من حيث أن الظروف تغيرت نتيجة لإجرائها في المرة الأولى (٢٩) ، وذلك كله بالإضافة إلى إمكان تحكم العالم الطبيعي في اختيار الظروف التي يجري فيها تجاربه وتغيير هذه الظروف كيفما شاء ، وهو الأمر الذي لا يتيسر للعالم الاجتماعي أو الأنثروبولوجي . صحيح أنه أجرى عدد من التجارب في ميدان علم النفس وبخاصة علم النفس الصناعي وفي ميدان علم الاجتماع الصناعي ، وكان لبعض هذه التجارب دلالة عميقة مثل تجارب « مصانع هوثورن Hawthorne Works » المشهورة ، كما أجريت بعض التجارب التي تتسم بالجرأة لقياس بعض الاستجابات في أثناء العملية الجنسية على أشخاص من كلا الجنسين تقدموا من تلقاء أنفسهم ومارسوا العملية الجنسية تحت عدسات التصوير وعيون الملاحظين وتعتبر فتحاً جديداً في الدراسات التجريبية على البشر (٤٠) ، إلا أن هذا كله لا يمكن أن يقارن بالتجارب الدقيقة المتكررة التي تجرى في معامل الفيزياء والكيمياء تحت ظروف تكاد تكون مثالية ، وذلك بعكس الحال بالنسبة للتجارب التي قد يود العالم الاجتماعي أو الأنثروبولوجي إجرائها فتتفقد دونها كثير من العقبات والصعوبات الفنية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية . فلقد أثارت تجارب ماسترز W. H. Masters وجونسون V. E. Johnson لقياس الاستجابة الجنسية عند البشر رد فعل عنيف بين رجال الكنيسة والمتدينين عموماً في أمريكا والغرب ، ولولا أنها أجريت سرا وفي الخفاء لمدة إحدى عشرة سنة لما قدر لها أن تتم (٤١) . ولذا فإن كثيراً من التجارب التي نرغب في إجرائها إلى أقصى حد سوف تبقى في عالم الأحلام زمناً طويلاً ، وذلك رغم أن هذه التجارب هي من النوع الجزئي وليس من النوع اليوتوبي ، ولا مفر للعالم الاجتماعي من أن يعتمد في عمله أكثر مما ينبغي على التجارب التي يجريها في ذهنه ، وكذلك على التشريعات السياسية التي تصدر في ظروف وبطريقة ينقصها الكثير مما نرغب فيه من وجهة النظر العلمية (٤٢) . بل إن ثمة كثيراً من الشك يخالج

(٢٩) نفس المرجع والصفحة .

Masters, W.H., & Johnson, V.E.; *Human Sexual Response*, Little Brown & Co., (٤٠) Boston 1966.

ولقد أجريت هذه التجارب - التي تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ دراسة العلاقات الجنسية - على ٢٨٢ امرأة و ٢١٢ رجلاً طوعوا في القابل للقيام بالعملية الجنسية تحت شروط معملية حددتها القائمان بالبحث (وليام ماسترز والسيدة فريجينيا جونسون) . وتقع الناقية المعلمية من الأشخاص الذين أجريت عليهم التجارب من كلا الجنسين بين سن العشرين والخمسين وإن كان هناك عدد قليل من النساء تراوحت أعمارهن بين العادة والخمسين والثمانين (٢٩ امرأة) وعدد محدود أيضاً من الرجال بين سن العادة والخمسين والتسعين (٣٩ رجلاً) . وبالإضافة إلى الطموحات الكثيرة التي توصل إليها الباحثان - من طريق الملاحظة والقياس - ليس من طريق السؤال كما كان يحدث في كل الدراسات التي سبقت هذه التجارب - عن التأثيرات الفيزيائية التي تحدث في الجسم أثناء الاستثارة الجنسية مثل سرعة ضربات القلب والنفس وتصبب العرق والتغيرات التي تطرأ على الأضواء التناسلية ، فقد أمكن لهما أيضاً تسجيل الكثير من الملاحظات عن أتمات السلوك والملاحظات الجنسية والنظرة إلى الجنس عند مختلف الأعمار ودرجات التعليم وما إلى ذلك .

(٤١) انظر في ذلك .

Brecher, R&E.; *An Analysis of Human Sexual Response*, Andre Deutsch, London 1967

(٤٢) كاتل بيور : المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٢٢ .

المرء في مدى دقة ودلالة هذه التجارب ، وفيما إذا كان هؤلاء الأشخاص يتصرفون بطريقة طبيعية حين يتم عزلهم في حجرات خاصة للملاحظة سلوكهم وقياسه ، وبخاصة حين تكون المسألة متعلقة بالسلوك الجنسي وممارسة العملية الجنسية . ولذا فكثيرا ما يوصف العلماء الذين يقومون بعمل هذه التجارب أنهم يحنون بتجاربيهم من قوانين لا تنطبق في الحقيقة إلا على تلك الحجرات المعزولة (٤٣) .

وهذا ينقلنا إلى المثال الثاني: إذا كان أحد أهداف الملاحظة والتجريب في العلوم الطبيعية هو الوصول إلى القوانين الكلية المبسطة، فإلى أي حد يمكن تحقيق ذلك في العلوم الإنسانية ؟ الواقع أننا إذا استثنينا علم الاقتصاد فإن الحصيلة من هذه «القوانين» في بقية العلوم الإنسانية تبدو ضئيلة للغاية . بل إن ما يسمى «قوانين» فيها - أو في بعضها على الأقل مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا - لا يخلو من العيوب وأوجه النقص . والمعروف أن نجاح التعميمات في العلوم الطبيعية يرجع إلى إطراد الأحداث الطبيعية ، وهو الأمر الذي لا يتوافر دائما في أحداث الحياة وشؤون المجتمع وأحوال الأفراد ، ولذا فإن كثيرا من الأحكام العامة الكلية التي أطلقها بعض السوسولوجيين أو الأنثروبولوجيين ليست في حقيقة الأمر إلا أقوالا بديهية لا ترقى إلى مستوى القوانين ، ولا تلبث عموميتها أن تنهار أمام الفحص الدقيق . وبالإضافة إلى ما تمتنع به القوانين في العلوم الطبيعية من الصدق فإنها تتميز عادة بالوضوح والإيجاز والخلو من اللبس والفوض ، كما أنه يمكن التعبير عنها في الأغلب في صيغ رياضية دقيقة ومحكمة ، وذلك على العكس تماما من الأحكام الكلية التي تصادفها في العلوم الإنسانية ، فهي تصاغ في العادة في قالب من الكلمات الطنانة ، ويدخلها كثير من الفوض، كما يحوطها الكثير من التحفظات (٤٤) . وعلى ذلك فإن الدعوى بأن الانساق الاجتماعية مثلا انساق طبيعية تجد كثيرا من المقاومة ليس فقط من جانب العلماء الشبان الثالثرين الذين خلقوا بثورتهم الأزمة الحالية التي تمر بها العلوم الإنسانية - أو جزءا من هذه الأزمة على الأقل - بل وأيضا من عدد من كبار العلماء «المحافظين» . فايلفانز بريتشارد يصف هذه الدعوى بأنها «الوضعية النظرية في أسوأ صورها» ، ويرى أن من حقّه أن يطالب الذين يقررون أن غاية الأنثروبولوجيا وبالتالي العلوم الإنسانية هي الوصول إلى قوانين اجتماعية تشبه القوانين التي يصوغها العلماء الطبيعيون أن يقدموا لنا أمثلة من هذه القوانين الاجتماعية . « ولكن لم يظهر لأن أي شيء يشبه ولو من بعيد قوانين العلوم الطبيعية ، وكل ما يمكن الوصول إليه هو بعض الأحكام الحتمية أو الغائية أو العملية . وقد أتت كل التعميمات التي حاول بعض العلماء إطلاقها غامضة مبهمة فضفاضة ما يقلل من قيمتها وأهميتها ، هذا على فرض صدقها . والحق أن هذه التعميمات ليست سوى مجرد تكرار للمعاني الجزئية وإبراز الأشياء العادية المألوفة في صور أخرى وعلى مستوى استدلالى ساذج بسيط . » (٤٥) ولقد درأت على صفحات مجلة Man منذ سنوات مناقشات طويلة تجمع بين العنف والطرافة حول إمكان وصول الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالذات إلى قوانين عامة تشبه قوانين العلم

(٤٣) كيميني ، جون ، الفيلسوف والعلم - ترجمة الدكتور أمين الشريف ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بإشراف مع مؤسسة فرانكين ، بيروت ١٩٦٥ : صفحة ٣٥٧ ، بوير ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٨ .

(٤٤) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٢

(٤٥) إيلفانز بريتشارد ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٩١

الطبيعي في صدقتها وعموميتها . ولقد تزعم الانثروبولوجي البولندي اندرييسكي Andrzejewski الدفاع عن البعوى القائلة بإمكان صياغة التعميمات أو القوانين الصادقة ، بل ذهب الى أن هناك قوانين بالفعل من هذا النوع ، وضرب لذلك بعض الأمثلة ، مثل ارتباط انتشار نظام تعدد الزوجات بالتفاوت الاقتصادي الشديد في المجتمعات البدائية ، وأن الحروب تؤدي الى ظهور الحكم الانفرادي ، وأن الزيادة الكبيرة في عدد السكان تؤدي الى الحرب . ويرى اندرييسكي أن ثمة أمثلة أخرى يمكن ذكرها للتدليل على وجود القوانين الاجتماعية ، وأن كان العلماء مع ذلك لم يصوغوا حتى الآن إلا عددا قليلا نسبيا من هذه القوانين ، وذلك نظرا لحدالة العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بالذات) . وبلاحظ اندرييسكي أن الناس كانوا دائما يقفون موقفا مدائيا من كل العلوم في أول عهدها ، ولو صدقت المرامم التي كانت تنكر إمكان الوصول الى قوانين في العلوم الطبيعية لما كانت هناك الآن علوم الفيزياء والكيمياء والحياة « البيولوجيا » وغيرها . ولكن أحد الانثروبولوجيين البريطانيين وهو لورد راجلان Lord Raglan تصدى للرد على اندرييسكي على صفحات المجلة ذاتها ، وحاول أن يفتد ما ذهب اليه عن طريق التشكيك في أن القضايا التي ذكرها تؤلف قوانين مطلقة . وبين راجلان مثلا أنه ليس ثمة تفاوت اقتصادي عند قبائل أستراليا ، ومع ذلك فهم يعمرون نظام تعدد الزوجات ، وأن قبائل الماساي Masai في شرق أفريقيا من أشد الشعوب حبا في الحرب ومع ذلك فالحكم ديمقراطي ، ولم يظهر فيها ديكتاتور واحد ، وأخيرا فإن بلاد البنغال متخمة بالسكان ، ومع ذلك فإنهم من أشد الشعوب حبا في السلام (٤٦) . وعلى أية حال فإن قيام مثل هذه المناقشات حول موضوع لم يعد محل بحث على الإطلاق في العلوم الطبيعية منذ زمن طويل يدل دلالة واضحة على مدى اختلاف وجهات النظر بين المشتغلين بالعلوم الإنسانية ، كما يدعو الى التشكك فيما إذا لم تكن كل الجهود التي يبذلها هؤلاء العلماء للكشف عن مثل هذه القوانين هي جهود ضائعة وغير مثمرة وأن كل ما سوف تؤدي اليه هو « إثارة بعض مناقشات جوفاء من المناهج » (٤٧)

والمثال الثالث والاخر هو محاولة العلوم الإنسانية استخدام المناهج الرياضية والكمية في وصف وتفسير الظواهر التي تدرسها . وقد أفلح علم الاقتصاد في ذلك الى حد كبير كما صادف علم النفس وعلم الاجتماع بعض النجاح ، وامتدت المحاولات أخيرا الى الأنثروبولوجيا التي أخذت تنحو بسرعة منذ الأربعينيات نحو المناهج الكمية ، وتحاول أن تصوغ الوقائع الاجتماعية في حدود وألفاظ كمية مثلما يفعل علماء الاجتماع المحدثون ، خاصة بعد أن ظهر عدد متزايد من العلماء الذين يراوون في دراساتهم بين المناهج السوسولوجية والأنثروبولوجية، ويمزجون بين الوصف الكيفي والبحث والتحليل الكمي ، على أساس أن هناك من الحقائق عن الإنسان والمجتمع مالا يمكن فهمه فهما دقيقا إلا من طريق الإحصاء والاستعانة بالمناهج الرياضية . فالسلوك الإنساني في مظاهره الجماعية يمدنا بنوعين أو فئتين من المعلومات أو الحقائق : حقائق لها دلالات كمية

(٤٦) انظر في ذلك مجلة Man, May 1951 and October 1951.

لكذلك راجع الحاشية التي أضفناها في آخر صفحة ٩٢ من كتاب إيفانز برتشارد السابق ذكره .

(٤٧) إيفانز برتشارد ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٩٢

تشير إلى الحجم والقدار ، وحقائق ذات دلالات كيفية تحتاج إلى مجرد الوصف والتفسير . (٨)
والسائد عند الكثيرين من علماء الأنثروبولوجيا الآن هو أن تطور العلم سوف يؤدي بالتدريج إلى إخضاع المعلومات التي تعالج الآن في حدود والفاظ كيفية للتفسيرات والتعطيلات الكمية أو العددية ، وأنه إذا كانت دراسة البناء الاجتماعي في المرحلة الحالية من مراحل تطور العلم الاجتماعي بعامة والأنثروبولوجيا بخاصة تحتم وصف الثقافة السائدة في المجتمع فإن ذلك سوف يخفي بتقديم الدراسات الكمية لهذه الحقائق (٩) ، وأنه لابد من استخدام القياس في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية بنفس الطريقة التي يستخدم بها في الدراسات السوسولوجية الحديثة وأعطاه العناصر غير المتغيرة في الحياة الاجتماعية قيمة عددية حتى يمكن إضفاء بعض الدقة العلمية على الدراسات الكيفية . ويذكر ليفي ستروس - الذي يعتبر من أشد الدعاة لاستخدام المناهج الرياضية في الدراسات الاجتماعية حماساً - في مقال هام له بعنوان « الرياضيات والانسان Les Mathematiques et L'homme » . أن الشيء المؤكد هو أن الشبان الذين سوف يتخصصون في العلوم الاجتماعية لا بد أن تكون لهم ثقافة أساسية متينة في الرياضيات حتى لا يظردوا من الميدان العلمي . (١٠)

ولقد استشهدت هنا بما يحدث في الأنثروبولوجيا بالذات نظراً لحداثتها كعلم إذا قيسَت بالعلوم الإنسانية الأخرى من ناحية ولأن منهجها - بحكم الظروف التي تجري فيها الدراسات العقلية في المجتمعات البدائية والمتخلفة التي يصعب الحصول فيها على معلومات عديدة - هو منهج كيفي وصفي إلى حد كبير . ولكن الملاحظ على العموم هو أنه على الرغم من قوة الدعوة لاستخدام المناهج الرياضية فليس هناك من بين العلماء المعاصرين في الأنثروبولوجيا على الأقل من يرى أن هذه المناهج كفي بلإنها لفهم الحياة الاجتماعية ، وإن كانت تساعد على دراستها بطريقة

(٨) يمثل النوع الأول من الطائفتين - كما يراه الأنثروبولوجيون مثلاً - في مقدار مهر العروس واتساع نطاق القرابة وعمق البنات مقدار بعدد الأجيال التي تفصل بين المؤسس الأول للقبيلة أو العائلة الكبيرة والأعضاء الإحياء من أفراد تلك القبيلة أو العائلة ، ومنى أرباب ومراعاة إحدى اللوائح الثلاثية أو التثلاثية الخلفية وما إلى ذلك من العلاقات الاجتماعية التي تحتاج إلى القيام ببعض الإحصائيات ، على الرغم من أن الوسيلة لتحقيق ذلك قد لا تكون ميسورة في كل الأحوال . أما الطائفتان ذات الدلالات الكيفية فتتمثل في الالتزام بدفع المهر بما لفظوا ومراسم وطقوس محددة ، والاعتقاد في السحر والشعوذة ، والشعائر الدينية وما إلى ذلك - نظر في ذلك الجزء الأول (المعلومات) من كتابنا عن « البناء الاجتماعي » - الرجوع السابق ذكره ، صفحة ٥٥ .

Fortes, M. : « Time and Social Structure: An Ashante Case Study » in Id (ed): (٩)
Social Structure: Studies Presented to Radcliffe- Brown. O.U.P. 1949, PP. 95- 68.

Levi- Strauss, C. : « On Social Structure » in Kroeber (ed): Anthropology To day, (١٠)
Chicago U.P. 1960, PP. 524- 53; Guryitch, G., « Le Concept de Structure Sociale », Cahiers Internationaux de Sociologie, XIX, 1955.

انظر أيضاً الجزء الأول (المعلومات) من كتابنا عن البناء الاجتماعي - الرجوع السابق ذكره صفحات ٥٤ - ٦٢ حيث يوجد عرض أكثر تفصيلاً لهذا الاتجاه مع الإشارة إلى أهم الاختلافات بين التطليل الكيفي والتعطيل الكمي لأحدى القوامير الاجتماعية هي ظاهرة الطائفتين في المجتمعات الإفريقية .

أكثر دقة من السرد الوصفي الخالص . وفورتريس نفسه ، الذي أشرنا إلى مقالته القيم الذي يدعو فيه إلى انتحال المناهج الرياضية في دراسة المجتمعات البدائية ، والذي يعتبر من أشد التحمسين للتحليلات الكمية للظواهر الاجتماعية يقول في نهاية مقاله الذي يدرس فيه بعض الظواهر عند قبائل الأشانتي « لقد حاولت أن أبين في هذا المقال أن التحليل الإحصائي الأولي أمر لازم لتوضيح بعض مشكلات البناء الاجتماعي الذي يمر بعملية تفاضل اجتماعي . فمن الواضح أن استخدام مصطلحات وعبارات مثل « الزواج والاقامة عند أهل الزوج » ، أو « عند أهل الزوجة » ، لن يفيد في مثل هذا المقام شيئا ، بينما استخدام المعلومات العددية تساعدنا على أن نرى تنظيم الحياة العائلية عند الأشانتي هو نتيجة لتفاعل وتداخل عدد من العوامل المحددة تحديدا لا يخلو من الدقة والتي تعمل في وقت معين بالذات أو على مدى فترة محددة من الزمن . (٥١) وهذا يعني أن استخدام العمليات الإحصائية الأولية تساعد فقط على إزالة ما يحيط ببعض المصطلحات الكيفية من غموض وليس . ولم تفلح كل المحاولات التي بذلت حتى الآن ، في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بالذات في الوصول إلى صياغة قوانين اجتماعية في الفاظ وحدود كمية مثلما أفلحت العلوم الطبيعية حيث يعتبر الوصف الكمي للكيفيات الفيزيائية شرطا أساسيا لصياغة القوانين العلمية في قالب رياضي محكم . ولو نظرنا مثلا إلى صيغة مثل « يزداد الميل نحو التوسع الاستعماري بزيادة شدة التصنيع » لتبين لنا على الفور ، كما يقول كارل بوبر ، أننا لا نملك طريقة لقياس الميل نحو التوسع أو لقياس شدة التصنيع . (٥٢) ومما قد تكون له دلالة في هذا الصدد أن كبار علماء الرياضيات أنفسهم تجاهلوا تطبيقاتها على العلوم الإنسانية نظرا لصعوبة هذه التطبيقات . (٥٣)

- ٥ -

والاختلافات المنهجية بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية أوسع وأشمل بكثير مما ذكرنا (٥٤) ، ولكننا نكتفي بهذا القدر لأنه ليس من أهدافنا هنا أن نكتب بحثا في المناهج بقدر ما نهدف إلى إبراز أهم عناصر الأزمة التي تمر بها العلوم الإنسانية الآن ، مع العلم بأن جدور المشكلة قديمة وأن معظمها يدور حول المناهج . ومع التسليم بأنه ليس ثمة ما يفسر العلوم الإنسانية في استعانتها بمناهج العلوم الطبيعية وأساليبها في البحث إذا كان ذلك يساعدنا على

(٥١) Fortes, op. cit., P. 83.

(٥٢) كارل بوبر ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢٦

(٥٣) كيميني ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢٥٩

(٥٤) يمكن القول أنه يجب عرضا معتقلا لأوجه الشبه والاختلاف بين مناهج العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية في كتاب كارل بوبر العلم الذهب التاريخي « الذي سبقته الإشارة إليه في أكثر من موضع ، فليكتفب - كما يقول الترجمة - « دراسة متسلسلة في مناهج العلوم الاجتماعية من حيث مقارنتها بمناهج العلوم الطبيعية ، فيصنع المؤلف كثيرا من الاختلاف الشائعة عن النتائج ويتناول موضوعات عامة ، كالتبديل بين التنبؤ والتنبؤ والتفسير التاريخي والتزعة الكلية ووحدة النهج العلمي » .

الوصول الى نتائج أكثر دقة مما تصل اليه بالفعل من طريق الملاحظة البحتة أو الملاحظة بالمشاركة، فان المعارضين لذلك الاتجاه - أو المتدلين منهم على الاصح - يرون ضرورة تعديل هذه المناهج بما يتلاءم مع طبيعة العلوم الانسانية ذاتها وطبيعة الموضوعات التي تهتم بدراستها وهي موضوعات تصل في آخر الأمر - بشكل أو بآخر - بالطبيعة الانسانية ذاتها . والنشي والمعين لمعلم هذه العلوم هو أن موضوع دراستها - أي الطبيعة الانسانية - يؤلف في الوقت ذاته جزءا من المنهج، وأنه بناء على ذلك يتعين على الباحث في هذه العلوم أن يستخدم « انسانيته » في محاولته فهم النظم الاجتماعية وأنماط السلوك المختلفة والحوافز والدوافع الكامنة وراء هذا السلوك ، وهو الأمر الذي لا نجده في العلوم الطبيعية . فليس هناك تعاطف بين الباحث الفيزيائي مثلا والدرات أو بين الباحث البيولوجي وذباب الفاكهة وهكذا . فهناك نوع مسن الحوار اذن بين الباحث وموضوع بحثه في العلوم الانسانية ، وهو حوار ضروري لفهم المشكلة فهما حقيقيا عميقا ، بينما لا تعترف العلوم الطبيعية بوجود مثل هذا الحوار ، وذلك لانها لتتقى بموضوعات بحثها على انها اشياء وليس كاشخاص كما يحدث في العلوم الانسانية أو بعضها على الأقل . وواضح ان هذا القول الاخير يتعارض معارضا تاما مع ما يقوله دوركايم في قاعدته الاولى المشهورة من قواعد المنهج في علم الاجتماع من ضرورة اعتبار الظواهر الاجتماعية كما لو كانت اشياء حتى تتوافر الموضوعية العلمية في الدراسة . والواقع ان كثيرين من المشتغلين بالعلوم الانسانية انتبهوا منذ زمن طويلا الى ضرورة اهتمام الباحث الاجتماعي والانثروبولوجي بوجه خاص بهذه المشاركة الوجدانية أو التعاطف واعتبارها جزءا من علمها بعكس ما يقول دوركايم تماما . وقد أطلق كولبي Cooly منذ زمن غير قريب على هذه العملية اسم الاستبطان التعاطفي Sympathetic introspection واعتبرها جزءا من منهج الدراسة على الرغم من انها تثير كثيرا من الصعوبات امام الباحث الذي يجد نفسه بذلك موزعا بين متطلبات الموضوعية العلمية وبين التعاطف مع الاشخاص الذين يدرس حياتهم وسلوكهم وأفكارهم وقيمهم . وقد عاد هذا الاتجاه الى الظهور من جديد في السنوات الاخيرة على ايدى عدد كبير من العلماء الشبان الذين يريدون ان يعيدوا الى العلوم الانسانية « انسانيتهما » . ونجد كثيرا من ملامح هذا الاتجاه واضحة على الخصوص في كتابات بعض الانثروبولوجيين الذين خرجوا على النمط الكلاسيكي في الدراسات الانثروبولوجية التقليدية التي كانت تتمسك بحرفية المناهج المتبعة في العلوم الطبيعية (٥٥) :

والرأي الذي يسود الآن عند هؤلاء الكتاب هو أنه مهما تظاهر المشتغلون بالعلوم الانسانية بأنهم يسرون في نفس الطريق الذي سلكته العلوم الطبيعية وأنهم يطبقون في دراساتهم وبحوثهم مبادئ الموضوعية العلمية التي تحتّم عليهم اعتبار الظواهر الاجتماعية والانسانية على العموم كمال كانت اشياء فانهم لا يستطيعون التخلص من حقيقة هامة وهي انهم يعنون أصلا بالحالات الذهنية وأنهم يكونون اقرب الى موضوعات تخصصهم حين يتكلمون عن المشاعر والعواطف والأفكار والمثل

(٥٥) من أهم هؤلاء العلماء اوسكار لويس Oscar Lewis الذي يعتمد الآن اعتمادا متزايدا في دراسته للمجتمعات البسيطة على دراسة العائلات وتاريخ حياة اشخاص معينين كما ترد على انفسهم ولم انفسهم . ويظهر هذا على الخصوص في كتابين من أهم كتبه هما Five Families و La Vida . وكذلك الانثروبولوجي البريطاني الشاب جوليان بيت ريفرز Julian Pitt-Rivers الذي يطبق كتاباته أهمية بالغة لتحليل القيم الاجتماعية كما يظهر في دراسته لاحدى القرى الاسبانية في كتاب له بعنوان The People of the Sierra

والعلاقات والدوافع والنظم والقيم الانسانية وما اليها . والواقع انهم يتعرضون لهذه الامور في كتاباتهم حتى وان لم يقولوها بصراحة او لم يذكروها في تلك الالفاظ والحدود . ويبدو هذا واضحا في كتابات اثنين من كبار المدافعين عن « علمية » علم الاجتماع والانثروبولوجيا وهما دوركايم ورواد كليف براون . (٥٦) فالذين مثلا لن يمكن فهمه عن طريق معرفة عدد المساجد او الكنائس او المعابد في المجتمع وعدد المترددين عليها في كل صلاة او عدد الذين يتقدمون بتظلماتهم لافرحه الاولياء والنوع التظلمات التي يرفعونها الى هؤلاء الاولياء واذما ما كانت هذه التظلمات والشكاوى تكتب بالحبر او الرصاص كما ظهر في كتاب حديث عن هذا الموضوع في مصر . كذلك لن يمكن فهم العائلة كنظام اجتماعي عن طريق دراسة عدد البيوت وعدد طوابقها وعدد الغرف فيها وطريقة بنائها والمواد المستخدمة في البناء ووسائل التهوية والاضاءة ولا حتى عدد افراد هذه العائلات الذين يعيشون معا تحت سقف واحد او في بيوت متفرقة وما الى ذلك من المعلومات المدنية التي لا شك في اهميتها ولكنها لا تكفي اطلاقا لفهم هذين النظامين الاجتماعيين ، انما الذي يجدي في فهم النظم هو دراسة الحالات الذهنية المتصلة بها واثرها في فئات معينة من الناس في مواقف معينة بالذات . ويصدق هذا بشكل او باخر على كل العلوم الانسانية . بل ان علماء الاقتصاد انفسهم كثيرا ما يفتقرون بحدود وقيود النظريات الاقتصادية الصورية ويثيرون عليها ويعطون بعض اهتمامهم لدراسة الدوافع الحقيقية لسلوك الناس في مواقف اقتصادية معينة وبذلك يدخلون ميدان الفلسفة دون ان يدركوا ذلك ، مثلما فعل سمنر Sumner ولبل Veblen ونابت F.H. Knight وغيرهم . وربما كان هذا هو السبب في الاهتمام الزائد الذي يوليه علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بالذات لدراسة نسق القيم . اذ مهما بلغت المعلومات التي يحصل عليها السوسيولوجيون والانثروبولوجيون عن سلوك الناس في المجتمع من الدقة والتفصيل والكثرة فلن تكون لها اهمية حقيقية الا اذا درست في ضوء نسق القيم السائد في ذلك المجتمع ، وذلك على اعتبار ان اختيارات الانسان وتفضيلاته والمعايير التي تحكم في عملية الاختيار والمفاضلة هي التي تؤثر في الحقيقة موضوع العلم الاجتماعي . وهذه المعايير هي قبل كل شيء مستويات خلقية وعقلية ، ومن هذه الناحية فانها تكون اقرب الى مجال الادب والفلسفة منها الى العلوم الطبيعية (٥٧) . وكما يقول جون كيميني « انني في الصعب ان تبقى المعاني العاطفية بمعزل عن الفرضيات ، فكل منا يهتم لما تنطوي عليه الافعال من تضمينات اخلاقية . ذلك لانه من الصعب ان يصار الى صياغة النتائج المتوقعة للجهود البشرية في قالب خلو من الشعور . ونحن نذكر اليوم في دراسنا لتاريخ قوانين حركات الاجرام السماوية كم كان حظ علماء الفلك عظيم لانه لم يكن يهمهم ما هي مدارات تلك الاجرام طالما كان باستطاعتهم وصفها بدقة . . اما العلوم الاجتماعية فان الصعوبة هي ان الضغط للوصول الى نتائج مرغوبة لا ياتي من خارج نفس العالم بل من داخلها . فهو يود لو يستطيع الاعتقاد بان بعض الافعال تؤدي الى المرغوب من النتائج » (٥٨) .

(٥٦) انظر الى الخصوص Durkheim, E , Les Formes Elementaires de la Vie Religieuse, Radcliffe-Brown, A. R . The Andaman Islands rs.

(٥٧) Redfield, op. cit, PP.48-49

(٥٨) كيميني : المرجع السابق ذكره ، صفحتا ٣٩١ ، ٣٩٢

- ٦ -

وهذه أمور تشير الى ان لمة علاقة قوية بين العلوم الانسانية والانسانيات وتردنا الى ما ذكره ردفيلد من تصويره للوضع القائم الآن بأنه اشبه بالمأدبة التي تجمع بين مختلف المعارف والتي تجلس فيها العلوم الانسانية بين العلوم الطبيعية من جهة والانسانيات من جهة اخرى . فجزء كبير من المعلومات والحقائق والوقائع والاكتاثر التي تتردد في الكتابات الاجتماعية والانثروبولوجية وغيرها تصادفها في كتابات الفلاسفة والادباء ، بل ان الاعمال الفنية ذاتها تعبر في كثير من الاحيان عن الاهتمامات والاتجاهات السياسية والدينية والاقتصادية والقيم الاجتماعية وكلها أمور تدخل في نطاق العلوم الانسانية . وليس المهم - كما يقول ردفيلد ان يقال ان الفلاسفة يستمدون آراءهم وانكارهم ومعلوماتهم من الكتب بينما يستمدونها الاجتماعيةون والانثروبولوجيون من واقع الحياة ، انما المهم هو ان الاثنين يهتمان بالحالات الذهنية وانساق القيم عند البشر . صحيح ان هناك اختلافات بين الانسانيات والعلوم الانسانية ، وهي تتركز في الغالب في ان الانسانيات تهتم بوجه خاص بابداعات المخيلة الخالقة التي تصدر عن الافراد نتيجة لمجهودهم الخاص الواسع ، بينما تهتم العلوم الانسانية بالنظم التي تظهر تلقائيا خلال الزمن والتي لا يرتبط وجودها ويقاؤها بالفرد من حيث هو فرد ، ووضيحه ايضا ان الفلاسفة يعطون من الاهتمام والانتباه للفكرية مالا تنجده عند معظم المشتغلين بالعلوم الانسانية وهكذا ، ولكن الخط الفاصل بين الانسانيات والعلوم الانسانية ليس قاطعا تماما . فهناك من بين علماء الانثروبولوجيا مثلا من يهتم اهتماما بالغا بالماير الجمالية عند الينداليين - مثلما فعلت روث بنزل Ruth Bunzel بدراساتها للأنماط الجمالية عند صانعي الفخار عند هنود البويبلو ، وما فعل بول بوهنان Paul Bohannan في دراساته للفن الافريقي - ومنهم من يهتم بدراسة الفلسفة البدائية مثل بول رادين Paul Radin الذي أعطى كثيرا من الاهتمام لأنماط التفكير عند بعض قبائل الهنود الحمر وفكرتهم عن الكون ومركز الإنسان فيه ، وضمن كثيرا من النتائج التي وصل اليها في كتابه عن « الرجل البدائي كفيلسوف » « Primitive Man as Philosopher » . وهناك ايضا من علماء الاجتماع وبخاصة من الفرنسيين من يغالج في كتاباته مشاكل الفلسفة من زاوية سوسبولوجية مثل جورج جيرفنتش G. Gurvitch . والواقع ان كتابات علماء الاجتماع الفرنسيين اقرب في طابعها العام الى الكتابات الفلسفية المجردة منها الى الكتابات السوسبولوجية التي تصدر عن علماء الاجتماع الأمريكيين أو البريطانيين (٥٩) كما ان هناك من علماء الاقتصاد ايضا من يكتوبون بطريقة اقرب الى كتابات الفلاسفة كما هو الحال في كتابات هارولد آينيس Harold Innis . وهكذا . ولكننا نجد من الناحية الاخرى ان علم النفس وهو احد العلوم الانسانية - الى حد ما على الاقل - يعطى الاولوية في دراسته للفرد كفرد يعكس الجيال في بقية العلوم الانسانية الاخرى التي تهتم في المحل الاول بالناحية الجماعية في حياة الانسان وبذلك يكون اقرب في هذه الناحية بالذات الى الانسانيات . وهذا كله علاوة على الاتجاهات الحديثة في الانثروبولوجيا التي اخذت تعنى عناية فائقة بدراسة الشخصية وعلاقتها بالثقافة بحيث

(٥٩) اهتم كثير من علماء الاجتماع الفرنسيين بتبيين المسائل المشتركة بين الفلسفة وعلوم الاجتماع . ومن الكتب الهامة في ذلك كتاب دوركايم عن « الفلسفة وعلوم الاجتماع Philosophie et Sociologie » رغم صغر حجمه وقد ترجم حديثا الى العربية بعنوان « الفلسفة والاجتماع » . كذلك يمكن للراي ان يجد عرضا وافيا ومفيضا لبعض هذه المسائل المشتركة في الكتاب القيم الذي اصدره الدكتور لباري صمد اسماعيل عن « علم الاجتماع والفلسفة » (الدار القومية لطباعة والنشر - الاسكندرية) . وهو يقع في ثلاثة اجزاء طالع فيها مسائل المنطق والمعرفة والأخلاق .

أصبحت مدرسة الثقافة والشخصية Culture and Personality من أقوى وأهم المدارس الأنثروبولوجية الآن (٦٠) .

فهنالك إذن أرض مشتركة بين العلوم الإنسانية والانسانيات ، وإن كان هناك في الوقت نفسه ميل واضح للتفاؤى عن وجودها وإغفال شأنها جريا وراء التشبه بالعلوم الطبيعية ، أو على الأصح نتيجة للتشبث بما يسميه هايك Hayek بالنزعة التمالية Scientism (٦١) . وهو اتجاه فيه كثير من الخطر على العلوم الإنسانية لأنه يقوم على التقليد الأعمى لمنهج العلم ولفته مع إغفال طبيعة العلوم الإنسانية ذاتها ومتطلباتها. والاحساس بهذا الخطر هو من أكبر الدوافع التى تحفز العلماء الشبان الآن الى إعادة النظر في موقف العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع بالذات وصلتها بالعلوم الطبيعية من ناحية والانسانيات من ناحية أخرى ، كما انه هو السبب المباشر في محاولة التقريب بين العلوم الإنسانية والانسانيات بعد أن طال انفصالهما واقتراحهما ولقد انتبه كثير من العلماء البريطانيين فجأة - كمن يصحو من النوم بفتة سالى أن العلوم الإنسانية والانسانيات تفرقت من اصل واحد يرجع الى دراسة الثقافة الكلاسيكية ، وتنبه كثير من العلماء في ألمانيا فجأة ايضا الى ان العلوم الإنسانية والانسانيات تنتميان الى شيء واحد يطلقون عليه كلمة Gristerwissenschaft وأنه خليق بهم لذلك أن يكتشفوا من جديد تلك العلاقات التى طال إغفالها أو تجاهلها . وكان السؤال التقليدى الذى يواجههم هنا ايضا هو ما الشيء المشترك بين العلوم الإنسانية والانسانيات ؟ ثم ما الذى تستطيع العلوم الإنسانية أن تأخذه من الانسانيات في المرحلة الراهنة من تطورها وبعد أن ارتبطت بالعلوم الطبيعية ارتباطا قويا لا سبيل الى انكنازه ؟

والجواب على هذا السؤال يبدو سهلا في نظر بعض العلماء الذين تعرضوا لهذه المشكلة . فهم يرون بكل بساطة ان الشيء المشترك بينهما هو « الإنسانية » ذاتها . وكما يقول ردفيلد في ذلك : ان الإنسانية تعتبر عاملا مشتركا بين الذين « ينظرون » الى الإنسان كما يظهر في الكتابات الأدبية والأعمال الفنية « أى المشتغلين بالإنسانيات » والذين « يدرسون » الإنسان كما يتبدى في التنظيم الاجتماعية والأنماط السلوكية الظاهرة امامهم . فالإنسانية هي الموضوع المركزى الذى تدور حوله اهتمامات المشتغلين بالعلوم الإنسانية والانسانيات على السواء (٦٢) . ولو أعيد توزيع الدراسات الأكاديمية من جديد حسب موضوعاتها وليس تبعا للمناهج التى تستخدمها في الدراسة والبحث لوضعت العلوم الإنسانية مع الانسانيات في مجموعة واحدة متميزة عن بقية المعارف والعلوم الأخرى ، لأنه مهما قيل من ان العلوم البيولوجية ، مثلا تدرس الإنسان فان « إنسانية » الإنسان ليست هي موضوع اهتمام هذه العلوم البيولوجية فضلا عن العلوم الطبيعية ، بينما هي

(٦٠) Redifield; op- cit., PP. 50-51 .

(٦١) «أورد هايك آراءه عما يسميه بالنزعة التصالفية في مقال طويل ظهر في اول الأمر على ثلاث دفعات في مجلة Economica (المجموعة الجديدة في الإصدار ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٦) لم جمع الأجزاء الثلاثة معا ونشرها في كتاب بعنوان « النزعة التمالية ودراسة المجتمع » Hayek, F A Von; Scientism and the Study of Society (٦٢) وحتى في الحالات التى تتألف فيها العلوم الإنسانية موضوعات تبدو بعيدة تماما من مجالات اهتمامات الإنسانية مثل الدراسات الديموجرافية التى تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على النتائج الإحصائية بحيث يبدو البشر كما لو كانوا مجرد أعداد وإرقام فإن مشكلات هؤلاء البشر تفرض نفسها بشكل أو بآخر على الباحثين ، ولا بد من أن تأخذ هذه المشكلات في الاعتبار على أساس ان ذلك يساعد على فهم أساليب وطرق الحياة والسلوك .

الموضوع الاساسي للعلوم الإنسانية (١٦) . وهذه اقوال غامضة وغير محددة ، لان كل ما تعنيه في الواقع هو ان المشتغلين بالعلوم الإنسانية يمكنهم ان يجدوا في فنون وآداب وفلسفات العالم مصادر غنية لدراسة الانسان والمجتمع وان الاستعانة بها تؤدي الى فهم اعمق وافضل للمشكلات التي يعالجها هؤلاء العلماء (١٧) . وهذا يصدق ايضا على موقف الادباء والفلاسفة ورجال الفن من العلوم الإنسانية وضرورة العمل على استيعاب نظريتها الى الانسان والمجتمع والاستعانة بالنتائج التي تصل اليها هذه العلوم في كتاباتهم واعمالهم الادبية او الفلسفية او الفنية .

ومهما يكن من شيء ، فالواضح ان العلوم الإنسانية - ربما باستثناء الاقتصاد - لا تزال تتخبط حتى الآن بين الفلسفات التقليدية التي تدور حول الطبيعة الإنسانية والرغبة في قيام علم طبيعي للسلوك البشري تحت اسماء مختلفة . فعلى الرغم من كل ما بذل في سبيل تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية فان هذا الاتجاه يلقى الكثير من المعارضة ، ليس فقط نتيجة للصعوبات التي يلاقها العلماء في تطبيق هذه المناهج في دراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية ، بل وايضا كرد فعل للنتائج التي ترتبت على محاولة تطبيق هذه المناهج واغفال طبيعة هذه الظواهر . وقد اخذ الاتجاه الذي يسيطر على الدراسات السوسولوجية بالذات منذ اوجست كونت - والذي بمقتضاه كان ينظر الى علم الاجتماع على أنه علم طبيعي - في الانصرار . وهذا هو ما يحدث ايضا فيما يتعلق بالنظرة التي سادت ردحا طويلا من الزمن في الابحاث الانثروبولوجية والتي كانت تعتبر النسق الاجتماعي نسقا طبيعيا ، فالعلوم الإنسانية لم تسقط تماما الفلسفة التقليدية من الطبيعة الإنسانية كما انها لم تقبل تماما وجهة النظر العلمية . ولا يزال الاتجاهان يعيشان جنبا الى جنب ويصارع احدهما الآخر (١٨) . وليس هذا مجرد اختلاف اكاديمي ، اذ يترتب عليه في الواقع نتائج عملية هائلة تتصل بموقف الانسان من الحياة ذاتها . انه يقول آخر اختلاف يتصل بمسألة الحرية الإنسانية من ناحية او خضوع الفرد لعوامل خارجية تتحكم فيه وفي سلوكه ، كما انه يتصل بالنظم السياسية ونظم الحكم ذاتها . ومن هنا نجد ان الازمة الراهنة التي تمر بها العلوم الإنسانية الآن والتي تبدو في ظاهرها ازمة خاصة بالمناهج لها في حقيقة الامر ابعاد ايدولوجية ، كما انها متائرة الى حد كبير بالازمة الناشبة بين نظم الحكم المختلفة ، نظرا لما لهذه النظم من صلة وثيقة بطبيعة السلوك الانساني . وسوف يظل هذا الاختلاف على المناهج وعلى طبيعة العلوم الإنسانية ومدى ارتباطها بالعلوم الطبيعية والإنسانية قائما ومحتدما طالما كان هناك خلاف في الرأي حول طبيعة السلوك الانساني نفسه . ولكن هذا موضوع آخر جدير بدراسة مستقلة .

(١٦) Ruth B. nellet ، وقد لعبت روث بنديكت kodfield, op cit , P. 47 . الى ان طبيعة المشكلات التي يعالجها المشتغلون بالإنسانيات والادب منهم بصلة خاصة فريدة في تفاصيلها الى موضوعات الانثروبولوجيا ، بل انها تلعب في ذلك الى حد القول بان الادب الغربى من بقية العلوم الإنسانية الى الانثروبولوجيا في هذا الصدد ، وبناء على ذلك فان الانثروبولوجيا الغربى الى الانسانيات منها الى الاجتماع او علم النفس او الاقتصاد ، على الرغم من انها كلها تندرج تحت مقولة العلوم الإنسانية . انظر في ذلك مقالها عن الانثروبولوجيا والإنسانيات، Ant.ropology and the Humanities، American Anthropologist, Dec. 1948; P. 585.

وربما كان السبب في ذلك هو ان الانثروبولوجي يعتبر « الانسان » وبخاصة في المجتمع الطبى الصغيرة هو موضوع الانثروبولوجيا . ويساعد المنهج الذى يتبعه الانثروبولوجيون في ابحاثهم على ذلك التقارب ، فهو منهج يعتمد على الملاحظة المباشرة وعلى للمشاركة في نشاط المجتمع ليجمع اكبر قدر ممكن من المعلومات والحقائق والوقائع عن الناس في شتى نواحي حياتهم مما يؤدي الى قيام علاقات قوية بين الباحث وموضوع بحثه وهم سكان ذلك المجتمع .

(١٧) الواقع ان هذا يحدث فعلا في بعض الدراسات السوسولوجية والانثروبولوجية وبخاصة تلك التي يقوم بها باحثون اجانب في بعض المجتمعات ذات الثقافة الفريدة ، كذلك الدراسات التي يقوم بها المستشرقون بوجه خاص وبعض الانثروبولوجيين البريطانيين في الصين والهند ، اذ يحتاج الاس مناهج الى دراسة ثقافة ذلك المجتمع بما فيها اللغة والادب والفن وما اليها للوصول الى فهم اعمق للنظام الاجتماعية السائدة في تلك المجتمعات .

- Brecher, R. & E., *An Analysis of Human Sexual Response*, Andre Deutsch, London, 1967.
- Brinton, C. ; *The Shaping of Modern Thought*, Prentice-Hall, N. J. ; 1963.
- Eysenck, H. J. ; *Sense and Nonsense in Psychology*, Pelican, 1966.
- Fortes, M., (ed) *Social Structure*, Oxford U. P. 1949.
- Kroeber, A. (ed) ; *Anthropology Today*, Chicago U.P. 1960.
- Masters, W. H. & Johnson, V. E. ; *Human Sexual Response*, Little-Brown & Co., Boston 1966.
- Nelson, W. R. (ed) ; *The Politics of Science*, Oxford University Press, N. Y. 1968.
- Redfield, R. ; *Human Nature and the Study of Society*, Chicago University Press, 1962.
- Skinner, B. F. ; *Science and Human Behavior*, The Free Press, N.Y. 1953.
- Stein M. and Vidich, A. I. (eds) ; *Sociology on Trial*, Prentice-Hall, N. J. 1963.

آفاق المعرفة

العلاقات بين العلماء في العصر العباسي دراسة عن القرن

الثاني

ودعته طه النجم

والثالث

والرابع

للمهجرة

تمهيد :

يكن الجاحظ في نقله لهذه الصور الحية عن الواقع إلا فاتحاً لطريق سلكها من بعده جملة من الكتاب في تسجيل النشاط العلمي لعلماء عصرهم وكان من أبرزهم في القرن الرابع الهجري أبو حيان التوحيدى الذى كان هو نفسه ناسخاً ووراقاً كما كان عالماً جليلاً .

ومما يضاعف أهمية هذه المادة التى ينقلها كل من هذين الكتّابين انهما كانا متصلين اتصالاً حياً وشخصياً بأكثر ما كان يدور في عصرهما من تلك النشاطات ، وهما شاهداً عياناً لما يرويان أن لم يكونا من ذوى المشاركة الفعلية فيها . ومن هنا

لقد طالما خطر لى وأنا أنظر في كتب أبى عثمان الجاحظ ، وفي تلك المحاورات والمناقشات التى ينقلها أو يختلقها قلমে البارع ، من التكلمين والنحويين والمؤدبين وأصحاب الحفقات والرواة . . . الخ ، جملة من التساؤلات التى لا أوتاب في أن كل باحث يجيئها في ذهنه وهو يعيش مع أبى عثمان في حربوسلمه مع أصحاب الفرق والأديان والكتّاب في مجالسهم وحفلاتهم وبيوتهم ، لاسيما أن عصره عصر نشط فيه التأليف واحتدم فيه الجدل بين أصحاب المذاهب في شتى اتجاهاتهم . ولم

• الدكتور ديدة طه النجم استاذة الأدب العربى بجامعة الكويت . كانت استاذة مساعدة للأدب العربى بجامعة بغداد . لها بحوث منشورة في المجلات العلمية في العراق وسوريا ومن أهم مؤلفاتها : الجاحظ والحاضرة العباسية (١٩٦٥) .

تشر كتاباتهما جملة من المسائل في ذهن القارئ ،
أبرزها :

ترى كيف كان العلماء يعيشون في عصر نشاط
العلم والثقافة ؟ كيف كانت منزلتهم في مجتمعاتهم
وكيف كانت علاقاتهم ببعضهم البعض وبأولئك
الذين اتصلوا بهم خارج دوائرهم ؟ وما هي العوامل
التي تتحكم في مناقشاتهم ومناظراتهم وتنافسهم
الشخصي ؟ وما هي الأمور التي تعمل في الخفاء
متحركة في تلك الآراء المنبثة في كتبهم ؟

وكان على ، للإجابة على بعض هذه التساؤلات
أن يبحث عما خلف الظاهر من علاقات خفية بين
العلماء ، علاقات لم تخرج من حد الجمالة إلى
المصارحة ، ومن حد المصارحة إلى المناقشة ،
ومن حد المناقشة إلى الهاترة . فما هي المواقف
التي يتخذها العلماء - بصفتهم الفردية أو الطبقية
تجاه هذه العوامل ؟

وأخيرا وجبت الأمر يستحق الوقوف عنده ،
ومحاولة الكتابة فيه مستتية عليه بدراسة شيء
من حياة العلماء ومحاولة استكشاف الدوافع
الحقيقية للمواقف التي يتخذونها . وقد كشف
البحث من حقائق طريفة تتصل بالنشاط العلمي
عند المسلمين في عصر التكوين العلمي ، هو كل
من القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة .

والفضل - أوله وآخره - أن نبه على هذه
العلاقات أولا بأول حينما خصها بالذكر إجمالا
وتفصيلا في أكثر ما كتب والف ... ذلك هو أبو
عثمان الجاحظ .

فاذا وفقت للصواب فيما اذهب إليه في بحثي
هذا ، فذاك لأنه أنار لي الطريق ، وإذا أخطأتني
الحظ فلاني لم أعرف كيف أعتدى به .

ومن ظن أنه يتقن كل شيء فقد خذله عقله
وخائته بصيرته (وينبغي لاهله أن يدأوه) - كما
يقول أبو عثمان - .

من هم العلماء الذين نعتى بهم في دراستنا هذه ؟
ان العصر الذي ندرسه هو الذي يملئ علينا
تحديد مفهوم هذه الطبقة ، إذ يجب أن نحترز

من المفاهيم الحديثة التي نعلمها في أذهاننا .
فالعصر الذي ندرسه هو عصر نشاط العلوم
الإسلامية في جميع مظاهرها النظرية والعملية .
ولعل أهم ما يميز هذا النشاط العلمي تشعبه
واتساع نطاقه وأن كان ينطلق ميدانيا في أدواره
الأولى من الدراسات الدينية فالعلوم العقلية
والقوية والفقهية تتفرع من دراسات القرآن ، وما
تليثان يتسع نطاقها وتتعقد شعبها فيتضح فيها
التخصص بمرور الزمن . فلم الكلام ينشأ عن
مشكلات ومسائل تتصل بالدين أول الأمر ،
والدراسات اللغوية تنشأ متصلة بالقرآن ، والفقه
والشريعة ينبع من القرآن ، وهكذا شأن كل نشاط
علمي أو غير علمي يقوم في مجتمع يرتبط فيه الدين
بحياة الناس بأواقيع الروابط ..

فالعلماء في هذا البحث هم المتكلمون والفقهاء
والنحويون واللغويون ونقله الأدب وداوسوه
والمؤرخون .. بفرض النظر عما ينظرون فيه أو
يختصون به دون سواه .. لكنني أخرجت
الشعراء من جملة العلماء إلا إذا كانت للشاعر
عناية علمية خاصة دون الشعر .

فالعالم بمفهومه العام - هو من يبحث عن
الحقيقة - أبة حقيقة بوسيلة من الوسائل
الموضوعية . وهذا كاف لكي يبعد الشعراء
عن دائرة العلماء . لكن هذا التعريف لا يخرج
الأدباء ومؤرخي الأدب واللغويين . فهؤلاء جميعا
على اختلاف مناهجهم ووسائلهم - يتفقون في
صفة واحدة هي أنهم يطلبون الحقيقة الموضوعية .

فما هي الصفات التي يجب أن تتوفر في العالم
- كما يرتئها هذا العصر الذي نحن بصده ؟
وما هي الصفات المكونة للشخصية العلمية ؟ .

قد يصعب علينا أن نحكم على الشخصية
العلمية ، وأن نرسم حدودها في عصر لم تستكمل
فيه المناهج العلمية نظامها ، بل كانت لا تزال
تمر في دور تكوينها . ولذلك سأحاول تتبع الصفات
التي يفضلها هذا العصر من طريق استقراءها من
أخبار الشخصيات العلمية نفسها . فقد تبادر
العلماء وتذاوسوا وتنافسوا وتنايوسوا واختلفت
الأحكام في شخصياتهم كما اختلفوا هم أنفسهم
فيما بينهم ، نتيجة تشعب المذاهب وتفرق الناس
بينها . ولن ندخل في مناقشة ما ذهب إليه
أصحاب المذاهب في العيب على خصومهم ، لكن
الخصومة نفسها قد تقودنا إلى ما كان يلزم به
من خلق علمي .

صغير ، وإن كل كثير قائما هو قليل جمع الى قليل « (٢) ويبدو أن عابيه لم يكف بذلك بل نسبته الى كل مذهب كتب فيه أو بحثه ، على تناقض الاهتمام ، ولذلك قال الصحاح : « وعيت معارضة الزيدية وتفضيلي الاعتزال على كل نحلة ... » وهذا مناقض القول الاول (زعمت أني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الى حد الزيدية) . ويرد الجاحظ على عابيه قائلا « وأنت سمعتني أقول في أول كتابي قالت الثمانيّة والضاربة كما سمعتني أقول قالت الرافضة والزيدية ، فحكمت علي بالنصب لحكايتي قول الثمانيّة ، فها حكمت علي بالتشيع لحكايتي قول الرافضة ، وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتي حجاج النالية » (٣) فالجاحظ - في ظن نفسه - يعرض حجاج المذاهب المختلفة عرضا تقريريا دون أن يكون تعبيرا من وجهة نظره هو . فهو يتجرد للموضوع من ميوله وانجاساته ، وهذا ما نسميه في عصرنا بالوضوعية ، وهي صفة مهمة من صفات العالم . ولكن يبدو أن هذه الصفة العلمية لم تتضح معالها بعد في القرن الثالث الهجري ولذلك لقي الجاحظ بسببها هجومًا عنيفًا ، وما دمنّا في معرض الحديث من الجاحظ ، فقد وجهت اليه طاعن أخرى تتصل بالطريقة العلمية ، أهمها - في نظري - أنه سلخ معاني كتاب الحيوان من كتاب الحيوان لأرسطوطاليس وهذا الاهتمام الخطير - بغض النظر عن مدى صحته - يجعل دليلًا على أن الكاتب في أي موضوع من الموضوعات عليه أن يشير بصراحة الى من سبقه في الكتابة في موضوعه ، وأن من تمام الشخصية العلمية نسبة العلم الى مصادره . وفي هذا المعنى يقول الاصمعي « من حق من يتبسك علمًا أن ترويه منه » (٥)

لم يرجع صدى هذه التولية بعد قرون منذ السيوطي فيفرد بابا في (آداب الفقيه) ويصنع بين فصوله فصلا بعنوان (جزو العلم الى قائله) يقول فيه ومن بركة العلم وشكره عروء الى قائله وباني بأشلة على ذلك .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أن الموضوعات التي كتب فيها المؤلفون المسلمون ربما انتقلت من جيل الى جيل ، وأعيد التأليف فيها أكثر من

فهدا ابن قتيبة الدينوري (من علماء القرن الثالث الهجري) في خصوصته مع الجاحظ يأخذ عليه جملة أمور . ولسنا في معرض مناقشة مدى صدق ابن قتيبة أو كذبه على الجاحظ ، لأن ابن قتيبة يذهب مذهبا مخالفا لمذهب المعتزلة الذي عرف به الجاحظ . لكن بهما مما يعرضه ابن قتيبة الصورة التي يراها الشخصية العلمية ، وهي في رايه منتفية من الجاحظ بأسباب أهمها ،

أن الجاحظ - وهو من المتكلمين - كان من « أحسنهم للحجة استشارة وأشدهم لطفًا لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتقصير العظيم حتى يصغر » ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء وتقيضه .

لعل هذه الالتفاتة من ابن قتيبة - وهي التفتاة طريقة - تذكرنا بما وصف به السفسطانيون اليونانيون الذين كان الجاحظ يتمتع بقسط وافر من قابلياتهم على إقامة الحجة وتقيضها في نفس واحد .

ونستنتج مما يذهب اليه ابن قتيبة أن وضوح المذهب ، دون الخلاف بالحجة لإقامة الشيء وتقيضه ، صفة علمية يجب أن يلتزم العالم بها . فكيف ينظر الجاحظ نفسه الى هذه الصفة هل يوجهها توجيهًا آخر ، هل يعللها أو يبررها .

يأتينا الجواب على هذا في أول كتاب الحيوان الذي ألفه الجاحظ وهو واضح أن هناك من سيعيب عليه طريقته في عرض الصحيح المتناقضة ، فينظر الى الموضوع من وجه آخر . وبعد أن يعدد جملة من العيوب التي أخذت على مؤلفاته ورسائله ويرد عليها ، يعضي قائلا :

« وعيتني برسالي الهاشميات واحتجاجي فيها واستقصائي معانيها وتصويري لها في أحسن صورة وإظهارها لها في أتم حيلة . وزعمت أني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الى حد الزيدية ، ومن حد الاعتزال في التشيع والاقتصاد فيه الى حد السرف والأفراط فيه . وزعمت أن مقالة الزيدية خطية مقالة الرافضة وإن مقالة الرافضة خطية مقالة الغالية ، وزعمت أن في أصل القضية والذي جرت عليه العادة أن كل كبير فاوله

(٢) الحيوان ج ١ ، ص ٧ ، ١٢ .

(٤) الفرق بين الفرق ، ص ١٢٢ .

(٦) الزهر ج ٢ ، ص ٣١٩ .

(١) نقول مختلف الحديث ص ٧١ - ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٥) مصمم الأدبار ، ج ١ ص ٨١ .

قواعد نظرية حاولوا تطبيقها على أمثلة من العلماء المتقدمين بعد أن عارف عليها المتأخرون . وقد شرحها السيوطي مفصلاً في (الزهر) . (٨) .

ومع ذلك هناك شبه اتفاق - عبر العصور - حول صفات معينة للشخصية العلمية أو لمن يحمل العلم . فمن أهم صفات العالم ، فضلاً عن الثبوت ودقة النظر والتعمق وصفاء الفكر وحسن الاستنباط . . . الخ الخ ، أن يعرف أين يضع علمه وكيف يفيد منه . فيض العلماء قدينته حسن التصرف لذلك فهو رغم غزارة علمه لا يدرى كيف يقدم مادته العلمية ، فينفرط عقد علمه بسبب ضعف شكله . ومن عيب عليه هذا ، أبو عبيدة معمر بن المثنى الرواية المعروف . فقد قيل عن مجلسه أنك إذا آتيت مجلسه اشترت الدر في سوق البهر ، أي أنه رغم سعة علمه لا يعرف أسلوباً مناسباً يقدمه به . وقد قيل أن علمه بالكتب على سمته كان نظرياً ، ولم يعتن بالجانب التطبيقي لهذا العلم . وقد روت أكثر المصادر عنه وعن الأصمعي نادرة تروى بلسان الأصمعي - وهو خصم أبي عبيدة ومنافسه الشديد في علمه - . يقول الأصمعي :

حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال ، كم كتابك في الخيل ، فقلت مجلد واحد فقال أبا عبيدة عن كتابه فقال ، خمسون مجلداً . فقال له ، قم إلى هذا الفرس وأمسك عضواً عضواً منه وصممه . فقال ، لست يبطراً ، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب ، فقال ، قم يا أصمعي وافعل ذلك . فقمتم وأمسكت ناصيته وجعلت أذكر عضواً عضواً واضح يدي عليه وأشد ما قالته العرب إلى أن بلغت حافره . فقال ، خذته فأخلفت الفرس ، فكنيت إذا أردت أن أفيظمه ركبته وأيته . . . (٩)

وليس بمستبعد أن تكون العصبية ضد أبي عبيدة هي التي أثارت هذا الاختلاف من مكانته وحفزت عليه ، ولعل شيوع النظائر بين الخصوم كان من حوافر هذا الوضع على سداحية الرواية المرة الذكر . إلا أن دلالتها أهم لدينا من مدى

مرة ؟ بل ربما أطلق على مؤلفات تطرق لموضوعات معينة العناوين نفسها أيضاً . لكن الأمانة العلمية تقضي بالاعتراف بفضل المتقدم على التأخر مهما كانت منزلة المتقدم ، ما دام قد سبق إلى هذا الموضوع وإلى التسمية . ومن طريف ما وجدته كاتب من كتاب القرن الرابع الهجري في هذا الضدد - هو المصنن التنوخي - حينما عزم على تأليف كتابه (الفرج بعد الشدة) أن كتاباً آخرين قد سبقوه إلى التأليف في هذا الموضوع ، وإلى استعمال العنوان نفسه ، لكنهم تجاهلوا فضل السابق عليهم ، والتنوخي لا يدرى كيف حدث مثل هذا الأمر ، عمداً أو سهواً ، يقول : وقرأت أيضاً كتاباً للقاضي أبي الحسين معمر بن القاضي أبي عمرو محمد بن يوسف القاضي رحمهم الله في مقدار خمسين ورقة قد سماه - كتاب الفرج بعد الشدة - أودعه أكثر ما رواه المدائني وجمعه وأضاف إليه اختياراً آخر أكثرها حسنة وفيها ما هو غير محال فتدري لما مناه ولا مشاكل لما نجاه ، وأنى في كتابها بابيات شعر يسيرة ، من معادن لأمثالها حجة كثيرة ، ولم يلم بما أوردته ابن أبي الدنيا ولا أعلم تمتد ذلك أم لم يقف على الكتاب ووجدت أبا بكر بن أبي الدنيا والقاضي أبا الحسين لم يذكر المدائني كتاباً في هذا المعنى فإن لم يكونا مرفاً هذا فهو طريف ، وإن كانا تعمدوا ترك ذكره تنقيهاً لكتائيهما ونظيفة على كتاب الرجل فهو أطرف . (٧)

وجه الطرافة فيما يقوله التنوخي أن ما فعله هذان المؤلفان لا يستقيم مع المعايير العلمية والأمانة التي يجب أن يتصف بها العالم . لكن يبدو أن المآخذ التي رآها المتأخرون على المتقدمين من العلماء المسلمين كانت نتيجة لتوصل المتأخرين إلى مرحلة من النضوج العلمي بحيث انضمت لديهم قواعد النهج وتحددت أصوله وصار تطبيقها التزاماً ، على حين كانت متفاوتة الأثر وغير ملزمة في الطور الأول من تكونها . فمناهج المتقدمين تنفادت بين الدقة المنتهية والأعمال السام في تطبيق القواعد التي تعينت حدودها عند المتأخرين فلا يصح أن تؤخذ دائماً مقياساً للأمانة العلمية أو علمها . . ومع ذلك وضع المتأخرون

(٧) الفرج بعد الشدة ص ٧ .

(٨) الزهر ، ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٢٨ . وانظر البحث الطريف الذي كتبه فرانتز روزنتال . عن : فناهج العلماء المسلمين - ترجمة أنيس فريضة - بيروت - ١٩٦١ .

(٩) بنية المولا ج ٢ ص ١١٣ ، وبغلة البقليل في الألفاظ : أنباء الرواة ج ٢ ص ٢٠٢ .

والقرب وإن كان بعيدا ، والقدر وإن كان ناقصا والوجود وإن كان بخيلا والحياء وإن كان سلفا ، والمهابة وإن كان وضيعا والسلامة وإن كان سقيما ومع ذلك فلهؤلاء آفات وعيوب وإخلاق ردية يحتاج إلى تجنبها ، منها : الكبر والعجب والافتخار . . . ومنها كثرة الخلاف والمنازعة فيه وطلب الرياسة به والتعصب والعداوة والبغضاء فيما بينهم (١٢)

هذا ما يرثيه أخوان الصفاء في العلم والعلماء نظريا . فكيف كان الشأن في واقع هذا العصر ؟ وهل كان رأيهم منسجما مع ظروف العلماء أو كان رد فعل لها ؟ .

لعل الجواب على هذه المسائل يأتينا بلسان رجل خبر العلماء وجلس في مجالسهم وشارك في نشاطهم ، بل لقد قيل أنه كان متصلا بجامعة أخوان الصفا ، ذلك هو أبو حيان التوحيدي . فلا عجب أن نجد صدى لأقوالهم في كتاباته وأن يحاول تطبيق مفاهيمهم العقلية التجريدية على الشخصيات العلمية في عصره . فماذا نجد ؟ .

لقد سأله الوزير البويهري مرارا أن يصف له (أصابة العلماء) - كما يسميهم - أو يصف له أخلاق العلماء الذين كان أبو حيان على صلة بهم . وقد جالس أبو حيان هذا الوزير فترة من الزمن ، وكتب يصف مجالسهم له في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) . فيعرض أبو حيان مجموعة من علماء عصره ، فقهاهم ومتكلميهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم . فنجد نماذج من الشخصيات العلمية تمثل لنا نظرات هذا العصر إلى العلم والعلماء :

يقول أبو حيان في وصف أبي عبد الله الحسين ابن علي ، وهو فقيه ومتكلم انتهت إليه رياسة علم الكلام في هذا العصر . وله كتب في الفقه وفي الكلام ، « كان الرجل ملتبه الخاطر وأوسع اطراف الكلام ، مع غشالة اللفظ . وكان يرجع إلى قوة مجيبة في التدريس ، وطول نفس في الاملاء ، مع ضيق صدر عند لقاء الخصم ومعاركة القرن ، بعيد العهد بالمصاع والدناع والوقائع ،

صحتها . وهي أن هناك تفاضلا في دوائر العلماء بين المرتبة المجردة من التطبيق والمعرفة التطبيقية التي ترتبط بالحياة العملية . وأن هناك أدراكا للطريقة التي تستحصل فيها المعارف وتقدم . وقد عيب على بعض العلماء اعتزالهم الناس وبعدهم بعلمهم من الحياة . وللجاحظ ملاحظة طريفة في مدى ما يبغضه أعجاب العالم بما يكون منه فيؤدي ذلك الاصجاب إلى الاعتزاز بكل ما يصدر عنه ليستحسن من نفسه ما قد يقع في عين غيره . وكان الجاحظ عالم نفساني في أصالة ملاحظته إذ يقول : وأعلم أن العاقل أن لم يكن بالتتابع كثيرا ما يعتبره ما يعتبره من ولده أن يحسن في عينه القبح في عين غيره . فليعلم أن لفظه أقرب نسبيا منه من ابنه ، وحركته أمس به رحما من ولده ، لأن حركته شيء أحده من نفسه وبلذاته ومن عين جوره فصلت ومن نفسه كانت . . . ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته . . . (١٠)

والجاحظ يقرن الحرص على العلم بالحرص على المال ، بل قد يبلغ حرص الإنسان على العلم مبلغا أشد وأقوى من حرصه على المال ، « لأنه سمي لا حاجة وإيفاض لا لبنية . (١١) .

وحين نتقدم في الزمن إلى القرن الرابع الهجري نجد معالم الشخصية العلمية تتضح في أذهان الفلاسفة ، أو المهتمين بالعلوم أو المباحث النظرية . ومن طريف الصفات التي يرثيها علماء هذا العصر للعالم تلك الصفات التجريدية التي توصل إليها أخوان الصفا من طريق محاولتهم التوفيق بين الإديان والفلسفات ولذلك فالعالم عندهم تجتمع فيه صفات روحانية وعقلية تجعله في مرتبة الأنبياء فأهم ما يشترط توافره في العالم ، خصال سبع هي :

السؤال والصمت ، ثم الاستماع ثم التفكير ثم العمل به ثم طلب الصلح من نفسه ثم كثرة الذكر أنه من نعم الله ، ثم ترك الاصجاب بما يحسنه . والعالم عندهم يكسب صاحبه مشرا خصال محمودة : أولها الشرف وإن كان فقيرا والعز وإن كان مهينا ، والفني وإن كان فقيرا والقوة وإن كان ضعيفا والتبذل وإن كان حطيرا

(١٠) الحيوان ج ١ ص ٨٩ .

(١١) رسالة في كتاب السر ، رسائل الجاحظ ج ١ ص ٥٦ .

(١٢) الرسالة التاسعة من رسائل أخوان الصفا مجلد ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

وأنا أعطيته في هذه الأيام (صنفو الشرح لايساغوجي) و (قاطغوريوس) من تصنيف صديقنا بالري ... وربما شاهد أبا سليمان وليس له فراغ ولكنه محض في هذا الوقت للحسرة التي لحقت فيها فاته من قبل ... (١٧) .
والسبب في هذا أن مسكويه على ما يبدو لنا من قول أبي حيان لم يضمن اختيار ما يناسبه من العلوم ، ولم ينتهز فرصة نشاط العمر وفراغ اليال للتفرغ لها ، « هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته الضرورية والشهوية والعمر مفسر والصاعقات طائرة ... » . وقد كان مسكويه خازن كتب ابن العميد ، فتهيات له فرص الاطلاع لكنه لم يعرف كيف يستغلها ، لذلك يقول فيه أبو حيان ، « ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيميائي الرازي ، مملوك الهمة في طلبه والعرض على أصابته مفتونا بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان ... (١٧) » .

ولعل التوحيدى يرمز هنا بمسكويه لعرضه على المال ، إذ شاع بين المسلمين في هذه العصور أن طلب الكيمياء يتصل بأسرار صناعة الذهب ويسمى عندهم بعلم الصنعة . وقد أترك بعض فلاسفة المسلمين العربيين كابن سينا والكندى هذا العلم وردوا على المشتغلين به (١٨) . ومما يؤيد هذا المعنى الذى يوحى به كلام التوحيدى ما يقوله هو أيضا عن مسكويه في موضع آخر : « ولقد قطن العامرى (١٩) الذى خمس سنين جمعة (٢٠) ودرس وأملى وصنف وروى ، لما أخذ مسكويه منه كلمة واحدة ولا وهى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سدة » ، ولقد تجرع على هذا التواني الصاب والعقم ومضغ بقمه حنظل الندامة في نفسه ، وسمم بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله . وبعد فهو ذكى حسن الشعر تقي اللفظ وان بقي فصاه بتوسط هذا الحديث . وما أرى ذلك مع كلفة بالكيمياء ،

وكان سبب هذا الجبن والخوف قلة الضاروة على هذه الأحوال ، ولقد خزي في مشاهد عظيمة . وأما يقينه فكان ضعيفا ، وأما سيرته فكانت واقفة على حب الرئاسة وبدل المال والجاه إذا حضرا ، مع تعصب شديد لمن قنمته وأحبه وانحاء مفرط على من عاداه ... (١٢) .

ثم يقول في ابن المعلم ، وهو من رؤساء الشيعة الإمامية في الفقه والكلام والآثار « وأما ابن المعلم لحسن اللسان والجدل ، صبور على الخصم ، كثير الحيلة ظنين السوء ، جميل العلانية (١٤) . وأما ابن خيران فشبح لا يمدو الفقه وفيه سلامة . وأما الداركي فقد أخذ الشهادة مكسبة وهو يأكل الدنيا بالدين ... وهو اليوم قارون ، وقد علت ربيته في الكلام حتى لا مزيد عليها ، إلا أنه مع ذلك نفل الباطن خبيث الخسب قليل البقية ... (١٥) » .

وينصّب نقد أبي حيان على أولئك الذين يظهرون غير ما يبطنون ، ويجعلون العلم طريقا للكسب والمنفعة الفردية . ولا يتورع أبو حيان من ذكر عيوب الشيوخ الذين يجعلهم ويأخذ من علمهم ، فقد سأله الوزير ذات مرة عن أبي سليمان السجستاني النطقي ، وهو أشبه بأستاذ لأبي حيان ، فقال أبو حيان بصفه : « أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظرا وأقهرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع في العبارة ، ولكنها ناشئة من المجمة ، وقلة نظر في الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرة على تفسير الرمز ، ويخل بما عنده من هذا الكثر ... (١٦) » .

أما مسكويه ، المؤرخ المعروف ، وهو من أصحاب أبي حيان أيضا ، « ففقر بين أغنيائه وهي بين أبنائه ، لأنه شاد - كما يقول أبو حيان - ،

- (١٢) الاتع والمؤانسة ج ١ ص ١٤٠ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .
(١٥) المصدر نفسه ، ص ١٤١ - ١٤٢ .
(١٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
(١٧) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٥ .
(١٨) انظر : كشف المكنون مجلد ٢ ص ١٥٢٦ .

- (١٩) فيلسوف من المتأخرين بالفلسفة اليونانية ، اتصل بابن العميد ، وتولى سنة ٢٨٠ هـ - .
(٢٠) أي مجموعة .

في حياته ظروف لم تكن كلها مما يمكن التحكم فيه ، ولم تكن حياة أبي حيان نفسه بأقل أسي وشقاء ، ولقد أصابهما من ريب الزمان ما أصابهما . ولقد شقي أبو حيان بطلعه فانتفى بأحراق كتبه تشبها بعلما من الجيل الأول سابقين عليه - كما يقول - وبدلا من أن ينال الحظوة والنزلة بطلعه ، كان هذا العلم مجلبة للتعاسة والشؤم ، عرف بهما أبو حيان في حياته .

هذا قد يقودنا إلى السؤال التالي :

ما هي منزلة العلماء ماديا وأديبا في العصر الذي نتحدث عنه ، ما هي وسائل كسبهم ؟ كيف كانت منزلتهم في المجتمع ؟ وما هي علاقتهم بالخلافة العباسية ؟ . . .

تأرجح منزلة العلماء في المجتمع الاسلامي الذي ندرسه بين الاجلال لهم والازراء بهم . ويتحكم في هذه المنزلة أمور ، منها ما يتصل بشخصياتهم ، ومنها ما يتصل بمنزلة علمهم وخلفهم ، أو بمقدار ما لهم من الشهرة أو الخول .

ولعل أبرز ظاهرة في هذا العصر الذي ندرسه أننا لا نكاد نجد علما مقصورا على جماعة دون غيرها ، فالعلم مشاع لمن يطلبه ، بغض النظر عن العمر أو الاصل أو الطبقة أو الحرفة ، وأن كان العلم وحده لا يكفي لكي يرفع من صاحبه في السلم الاجتماعي ، أو يجعله مقربا عند الخليفة ، كما منرى في الامثلة . فالكسائي يطلب النحو متأخرا ويرتحل ، في طلبه ، من الكوفة إلى البصرة ويجلس في حلقة الخليل بن أحمد (٢) . وسيبويه كان في أول أمره يطلب الحديث ويأخذه على حماد ابن سلمة ، حتى يمرض به حماد ذات يوم ، لأنه لحن ، فيعزم على دراسة النحو ، فمضى ولزم مجلس الأخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين (٣) . ولزجاج قصة طريفة في بدء اهتمامه بالنحو ، يقصها هو علينا ، يقول :

« .. كنت أخطر الزجاج ، فاشتبهت النحو فلزمت البرد لتعلمه ، وكان لا يعلم مجانا ولا

وإنفاق زمانه وكذا بدنه وقلبه في خدمة السلطان واحتراقة في البخل بالدقائق والقرط والكسرة والخرفة ، نموذ بالله من مدح الجود باللسان وإبشار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومغارته بالعمل ، وهذا هو الشقاء بالصوب على هامة من يلي به ، والبلاد المعصوب بانصية من غلب عليه .. » (١)

فمكويه أضاع عمره في طلب أمر لا طائل من ورائه للعقل والمعرفة ، وأولسج به بوائز من الحرص والشح ، ولقد لاهه أبو حيان على حسده لأولئك الذين كانوا ينالون عطاء السلطان إذ كان مسكويه يرى أن هذا المال قد ضاع فيمن لا يستحقه . فردد عليه أبو حيان قائلا « إيهما الشيخ أسالك عن شيء واحد وأصدق فاتة لا سبب للكذب بيني وبينك ، ولا هوب لربح التوبة علينا ، أو غلط صاحبك فبك بهذا العطاء واضعافه واضعاف اضعافه أكتت تتخيله في نفسك مخطئا ومبدرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال .. فاعلم أن الذي يبدد مالك وردد مقالكا إنما هو الحسد وشبه آخر من جسد ، فأتت تلمي الحكمة وتكلم في الأخلاق وتؤلف منها الزائف ومختار منها المختار ، فافطن لأمره ، وأطلع على سره وشركه .. » (٢)

ومع ذلك فقد خلف لنا مسكويه آثارا جليلة ، منها كتابه المشهور في التاريخ (تجارب الأمم) كما كان حاذقا في فلسفة الأخلاق وله كتاب في (تهذيب الأخلاق) ، وقد كتب مع أبي حيان التوحيدى كتابا هي أشبه بالمحاورات بينهما ، فضلا عن وصية خلفها بعاهد فيها الله على رياضة النفس ومجاهدتها في مطامعها وأن « يعف ويشجع ويحكم ، .. وعلامة حكمته : أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يثوبه بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة » (٣) . وتبدو روح الزهد واضحة في الوصية . ونتمم أن مسكويه عاش أواخر أيامه في ضنك من العيش إذ يقول عنه باقوت أنه « لم يخل من نوالب الدهر » .

لقد كان هذا هو شأن العالم حينما تحكمت

(٢١) الامتاع والمأنة ص ١ ص ٣٦ ، كذلك يذكر الكيمياء فلا ، ومن طلب المال بالكيمياء افتر ، ص ١٢٢ .

(٢٢) مثالب الوزيرين ص ١٨ .

(٢٣) معجم الأديب ، ج ٥ ص ١٩ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ج ١٢ ص ١٦٨ .

(٢٥) مجالس العطار ص ١٥٤ - ٥٥ المجلس ٩٩ .

منى جميع ما لديك من الكتب جوزة ما أعطيتك ... » (٢٨) .

لكن أكثر العلماء الذين كانت لهم حلقات أو مجالس علمية ، كانوا إلى جانب ذلك يمارسون نشاطا تجاريا أو حرفة يكسبون منها عيشهم . قبل من تلعب ، وهو من أشهر نحاة الكوفة ، أنه بعد موته « خلف إحدى وعشرين ألف درهم والنفي دينار ودكاكين بباب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار ، وشاع له قبل أحمد الصيرفي ألف دينار . وكان يتجر له بها . » (٢٩) .

ولعل في هذا دلالة على أن العلم لم يكن دائما طريقا لكسب ، وإنما يصبح كذلك بين طبقة المعلمين والمؤدبين ، لا سيما أولئك الذين يتصلون بالخليفة ، وإن كان يمرض هؤلاء أنهم يبيعون علمهم أو يأخذون على العلم أجرا . روى عن أبي العيناء - وهو أديب بصرى فصيح اللسان - بعد من الظفراء - أنه حضر مجلس المتوكل فأراد المتوكل أن يعذب به ، فأتهمه بلسان ابن سعدان بأنه رافضي . فاندفع أبو العيناء متهجما على ابن سعدان فقال : « ومن ابن سعدان ، والله ما يفرق بين الإمام والموذن ، والتابع والمتبوع . أتما ذلك حامل درة ومعلم صبية ، وأخذ على كتاب اللهجرة . فقال : لا تفعل لأنه مؤيد المؤيد ، فيقول أبو العيناء ، يا أمير المؤمنين ، أنه لم يؤدبه نخبة وإنما أدبه بأجرة ، فإذا أعطيته حقه فقد قضيت ذمامه » (٣٠) .

إننا لا نستطيع أن نرسم صورة ثابتة لطبيعة العلاقة القائمة بين العلماء والسلطان ، لأنها متفاوتة وتتحكم فيها ظروف قد لا تتصلل بالمقاييس العلمية أبدا . لكننا نحسن أن بعض العلماء قد أدرك هذا الجانب من التقدير فأنف أن يتقرب بيلمه من ذوي السلطان أو أن تكون منزلته قائمة على غير ما يراه العلماء . روى عن أبي العباس لمب قال : « قال لي محمد بن عيسى بخره محمد بن عبد الملك ، نحن نقدمك لتقدمه الأمير . فقلت ، يا شيخ ، أتني لم أعلم

يعلم بأجرة إلا على قدرها . فقال لي ، أي شيء صناعتك ؟ قلت ، أخرب الإجاج وكسي في كل يوم درهم . ودانقان أو درهم ونصف ، وأريد أن تبائع في تعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهما وأخرب لك أن أعطيك إياه أبدا إلى أن يفرق الموت بيننا ، استغفنت أو أحتجت إليه » (٣١) .

وهذا يشير إلى انعدام الطبقة العلمية - إن صح أن نسميها كذلك - ، فليس العلم وقفا على جماعة معينة بل يناله كل من يرغب أو يظهر قابلية معينة فيه ، بنفى النظر عن حرفته أو من حلة عمره أو حتى دينه . وقد شاعت في المجتمع الإسلامي علوم معينة كان يتقنها النصارى دون غيرهم ، كالطب والترجمة .

ويتفاوت علماء هذا العصر في طبيعة كسبهم ، وأكثرهم كانوا يمارسون مهنة أو حرفة من الحرف التي يمارسها الناس في حياتهم المدنية . ولم تقف المادة حائلا بين العالم وبين ممارسة نشاطه العلمي ، لكن العامة لا تزال في شك من أمر هذه الحقيقة ، فقد شاع عن أهل بغداد من أمثالهم السائرة قولهم (جهل) يعولني خير من علم أهله) وقولهم (كف بخت خير من كرم) (٣٢) . ولعل إيمان الناس بالبحث دون المجتمع العباسي لوزات جسيمة لم يعد الناس يمانون فيها على شيء . أما حملة العلم فقد خبر المتصلون بالخلافة منهم ظروف ومصائر لا يمكن دائما التكهن ، تتأرجح بهم بين رفعة وذلة . روى عن الأصمعي - في هذا الصدد - خبر طريق يقول فيه :

« كنت في البصرة أطلب العلم وأنا مقل ، وكان على بابنا بقال ، إذا خرجت بكرة يقول لي : إلى أين فأقول : إلى فلان المحدث وإذا عبت المساء يقول لي : من أين ؟ فأقول : من عند فلان الأخباري واللوى . فيقول يا هذا أقبل وصيتي : أنت شاب فلا تضع نفسك وأطلب معاشا يعود عليك نفعه وأعطني جميع ما عندك من الكتب أطرحها في هذا الدن وأعصب عليها من الماء للشرقة أربعة وأنبذه وانظر ما يكون منه . والله لو طلبت

- (٢٦) معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
(٢٧) القديس ، نقل من التاليف ، الطائفة والقرائف ص ٢١ .
(٢٨) الفرج بعد الشدة ص ٢٢١ .
(٢٩) معجم الأدباء ، ج ٥ ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(٣٠) القصص لنفسه ، ج ١ ص ١٥٤ .

الشأن . فقد كان الزجاج مقربا من القاسم بن عبيد الله قبل أن يصبح وزيراً للمعتضد . فطلب إليه الزجاج أن يعده أنه إذا ما أصبح وزيراً أن يمنحه مئتين ألف دينار . فلما ولي هذا الوزارة بعد أبيه ذكره الزجاج بوعده ، فلم يدر كيف يحتال له على المال خوفاً من أن يتكشف الأمر للمعتضد . ففولاه عملاً ليس من اختصاص نحوي أو مؤدب القيام به . إذ قال له القاسم (اجلس للناس وخذ رقاعهم في الحوائج الكبار واستجعل عليها ولا تمنع من مسالتي شيئاً تخاطب فيه ، صحيحها كان أو محالاً إلى أن يحصل لك مال النذر) ، ففعل ذلك وكان ربما راجع الوزير في الأمر فيقول له هذا أنك غيبت وكان يجب أن تأخذ من القسوم أكثر فيذهب (ويماكسهم) فيزيدونه حتى يبلغ الحد الذي رسمه له الوزير . (٣٦) .

وليهب التعطف بأخوين لا يقبل فلساً واحداً على علمه . وقد رويت النادرة التالية عن إبراهيم الحريري - وقد مر ذكره قبل قليل - : حدث أبو بكر الشافعي قال قال إبراهيم الحريري ، ما أدخلت على علم قط أجراً إلا مرة واحدة ، فأنني وقفت على يقال فوزنت له قراماً إلا فلساً فسألني عن مسألة فاجبت فقال للفلام : امض بقرامك ولا تنقصه شيئاً فرادى فلساً . (٣٧) هذا رغم أن مجموعاً شخفاً من الرواة قد أخذوا عنه ودرسوا عليه ، منهم موسى بن هرون الحافظ ، وأبو بكر الأنباري النحوي وأبو عمر الزاهد، وخلق كثير غيرهم - كما يقول باقوت (٣٨) . فسو كان إبراهيم يأخذ أجراً على علمه لغنى بهؤلاء لكنه كان يعيش في حاجة وفقر شديد ، وقد كان يملك ما لا يقل عن اثني عشر ألف جزء من أنة وغربب كتبها بخطه ، ولم يجزى على بيع واحد منها في حياته بل كان يرضن بها رغم حاجة أهله إلى قوت يومهم .

ومن العلماء الذين ذاقوا طعم الضنك هالم فيلسوف شغل نفسه بالفلسفة اليونانية ، وكان مقدماً عند أبي الفتح ابن العميد ، هو أبو سليمان السجستاني المنطقي ، وقد مر ذكره على لسان

المسلم لتقدمي الأمراء وإنما تعلمته لتقدمي العلماء (٣٩) . وهذا شبيه بمعنى أبيات ينسب قولها إلى علي بن عبد العزيز الجرجاني القاضي ، جاء فيها :

ولم اتض حق العلم إن كان كلما
بدا طمع صيرته لي مسلماً
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي
لاخدم من لاقيت لكن لأخدمها
أشقى به غرساً وأجنيه ذلّة
إذن فابتاع الجهل قد كان احزماً
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عطفوه في النفوس تعظماً (٣٩)

ومن هؤلاء العلماء من كان يأنف أن يأخذ جائزة من الخليفة أو سواء وكان يعيش في أمس الحاجة المادية . روى عن إبراهيم بن أسحاق الحريري - وهو محدث وعالم درس على أحمد ابن حنبل - وقد عاش في خلافة المعتضد (وتوفي بعشرة آلاف درهم وسأله أن يفرقها بمعرفته ، فرد المال قائلاً الرسول الذي جاء به ، عافاك الله ، هذا مال لم تشغل نفسك بجمعه فلا تشغلها بتفرقه . قل لأمر المؤمنين أن تركتنا : ولا تحولنا من جوارك (٣٤) . وقد قيل من الخليل بن أحمد أنه لم ير أفضل منه في التلطف عن الكسب بالعلم ، كان الناس يأكلون بعلمه وهو في خص له . وخرج إلى مكة والناس يقولون في الحريرين قال الخليل وذكر الخليل ، ورجع إلى البصرة ولم يعلم بمكانه (٣٥) . وقد ذكر منه أبو حيان خيراً مع والي البصرة سليمان بن علي يؤكد صفة الترفع من قبول المال على العلم من الوالي (٣٥) .

لكن العلماء يتفاوتون في طبيعة نظرهم إلى التكسب بالعلم ، فمنهم من ظل يعلم بأجرة على طول شأنه ، وقد مر بنا حديث البرد مع الزجاج . والزجاج نفسه قصة طريفة تظهر جانباً من منزلة العلماء وعلاقتهم بعصرهم وبالخلفة أو بملوك

- | | | | |
|--------|-------------------------------|--------|--------------------------------|
| (٣٥) | مثالب الوزيرين ، ص ١٤٨ - ٥٠ . | (٣١) | المصدر نفسه ، ج ٥ ص ١١٢ . |
| (٣٦) | معجم الأدباء ، ج ١ ص ١٣٢ . | (٣٢) | المصدر نفسه ، ج ١٢ ص ١٧ - ١٨ . |
| (٣٧) | المصدر نفسه ، ج ١ ص ١١٩ . | (٣٣) | المصدر نفسه ، ج ١ ص ١١٢ . |
| (٣٨) | المصدر نفسه ، ص ١١٢ . | (٣٤) | معاجرات الأدباء ، ج ١ ص ٢٤ . |

وقد كان على هؤلاء العلماء أن يحسنوا التصرف في مجلس الخليفة ، وأن يتمتعوا ببديهة حاضرة ليمتعوا بأحاديثهم وأخبارهم وأن يكون لهم - فضلا عن العلم - معرفة بحسن الجالسة فقد ائرن الاصمعي قوله (وصلت بالعلم ونلت بالعلم) لأن ما يتطلبه مجلس الخلافة هو غير ما يتطلبه المجلس العلمي القائم على العلم وحده . ويبدو أن العالم يجب أن يراعى آدابا خاصة في حضرة الخليفة ، ومن سها عن هذه الحقيقة لم يجد رضى عند الخليفة على علمه وفضله .

حكى عن الكسائي أنه قامت بيته وبين اليزيدى مناقشة في حضرة الرشيد ، على بيت من الشعر . فلم يحسن الكسائي الجواب ، وتحسن اليزيدى « فحزب يقلنوسه الأرض ، وقال أنا أبو محمد ، الشعر صواب ... » مبينا الوجه الصحيح من الإجابة . فقال له يحيى بن خالد ، اكتنى بحضرة أمير المؤمنين ، وكشف من رأسك ؟ . والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء فطرك . فقال « لذة الفلبة انستنى من هذا ما أحسن ... » (٤٢) .

ومن العلماء ، على سعة علمه وقدره في المجالس والحفلات العلمية ، من لم ينل حظوة عند أصحاب السلطان ، لا أقله علمه لكن لسبوه من قوامد المجاملة التي يأخذ بها الخلفاء أو الوزراء مجالسهم . ولعل هذا كان من أهم الأسباب التي تكثرت عيش أبي حيان عند الصاحب بن عباد . فقد كان الصاحب - وهو من وزراء البويهيين - على عنائه بالعلم والعلماء ، مولما بالمدح والثناء ، يحب أن يقال له ذلك في وجهه . فلما قصده أبو حيان أراد أن يعيش في ظله كاديب وعالم له سعة في العلم . لكن أبا حيان لم يعرف طبيعة الصاحب من هذه الجهة ، فلم يجامله بل كان صريحا معه صراحة أفضته وأثارت حفيظته عليه ، فحاول بكل ما يستطيع أن يقلل من شأن أبي حيان وأن يظهر احتقاره له . وكان من نتائج تلك العلاقة تلك الرسالة القاسية التي كتبها أبو حيان فيه وفي ابن العميد ، وكان قد قصده هو أيضا ولم يفلح عنده . (٤٣)

ولم ينعم أبو حيان بالسعادة إلا فترة وجيزة

أبي حيان التوحيدى سابقا . فقد مرت بأبي سليمان هذا أيام كان لا يجد فيها رغيما يأكله ، فلما سمع بحاله وزير صمصام الدولة أرسل إليه مبلغا من المال بواسطة أبي حيان نفسه ، فنسج التوحيدى يخاطب الوزير قائلا « والله أيها الوزير ، ما أعرف ببنداد . وهي الرقة القسيحة الجامعة والعرصة العريضة القاسية - أنسانا أشكر لك وأحسن ثناء عليك ، وأذهب في طريق الصودية معك ، منه ... » (٣٩) ثم يقول له « فلما وصل إليه ذلك الرسم - وهو مائة دينار - وحاجته ماسة إلى رغيف وحوله وقوته قد عجزا عن اجرة مسكنه ومن وجهه غدائه وعشائه ، عاش » (٣٩) .

لكن هذه الحال لم تكن هي السائدة ، لأن الخلفاء والوزراء كانوا يسمون تحت ظلمهم جماعة من العلماء يحيون بهم مجالسهم ، فضلا عن المؤيدين الذين استندوا لتأديب أولادهم . وهم يختارون من جلة العلماء ، بعد أن يعقد لهم مجالس هي أشبه بامتحان عام ليختار منهم أحسنهم تصرفا في علمه . قيل « لا أراد المتوكل أن يسمهم بالتخاذل المؤيدين المعتصر والمعتز جعل ذلك إلى ابتناخ ، فأمر بابتناخ كتابه أن يتولى ذلك ، فبعث إلى الطوال والأحمر وابن قادم وأحمد بن عبيد ابن ناصح وغيرهم من الأدباء ، فأحضرهم مجلسه ، فجاهد أحمد بن عبيد ففقد في آخر الناس ، فقال له من قرب ، لو ارتفعت ؟ فقال ، حيث انتهى بي المجلس . فلما اجتمعوا قال لهم الكاتب ، أن تذاكرهم وقفنا على موضعكم من العلم فاخترنا ... » (٤٠) .

إلا أن علم الرجل لم يكن دائما هو المقياس الأول في تقدير شخصيته وفي رفعة منزلته عند الخليفة . وقد روى بهذه المناسبة خبر طريف من الفراء ، إذ طلب لتأديب المعتصم ، فلزمه نحو من شهرين ، ثم ما لبث أن جاء وجل يقال له أبو إباد فطلب القمود معه ، فستل لينظر ما مقداره في العربية فقليل له ، كيف تقول يا زيد أقبل ؟ فقال « يا زيد أقبل . قيل فما هذه الضمة ؟ فقال أراو التي في قوله وأقبل . يقول الفراء فارضى وأقعد مع المعتصم فاستغنى ، وأزلت أنا ... وكان يصحب بهذا ويتعجب منه ويقول : الدنيا لا تاني على استحقاق (٤١)

(٤٢) مجمع الأدباء ، ج ٢ ص ١٧٨ .

(٤٣) هي رسالة (مثالب الوزراء) .

(٤٩) الاستيعاب والمؤسسة ، ج ١ ص ٢٩ ، ص ٣١ .

(٤٥) مجالس العلماء ، ص ٦١ ، مجلس ٢٧ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

وحضور البداية . فما يتطلبه مجلس الخليفة أو الوزير قد لا يكون العلم الخالص أو التعمق في النظر ، بقدر ما يتطلب النادرة وحضور الجواب والقبالية على التخلض . بالحق أو بالباطل . وكتب الأدب القديم تحفل بأشئلة لامتحان العلماء من قبل الخلفاء ، لكن النجاح في هذه المواقف لا يقوم على مقدار العلم أو التعمق فيه ، بل قد يقوم على حسن مداراة المسؤول ومزاج السائل .

فهذا أبو عثمان الجاحظ معتزلي صاحب مذهب في الاعتزال يدافع عنه ويكتب في تفصيله ، يظن من ينظر في علاقته القوية بالمعتزلة أنه قد تورط معهم كما تورطوا في تبريرهم من الخلافة العباسية ، ودخولهم المعتزلة السياسي . فقد تمتعت فرقة المعتزلة بمنزلة ليس بعدها منزلة في خلافة كل من المأمون والمعتصم والواقع ، الذين جعلوا الاعتزال مذهباً رسمياً للخلافة بدلاً من السنة التي جرت عليها الخلافة . ويموت الواقع ويولي المتوكل الخلافة ، تجاه المعتزلة معنتها السياسية ، إذ ما لبث المتوكل أن ضرب على أيديهم ، وأعاد الخلافة إلى السنة . وحينما تلقى القبض على محمد بن عبد الملك الزيات وزير الواقع وممثل المعتزلة في البلاط العباسي ، ثم يقتل في التنوير الذي كان يقتل هو فيه خصومه ، يهرب الجاحظ ويختبئ ، وحينما يسأل من ذلك ، يجيب قائلاً : (خفت أن أكون ثاني اثنين اذهبا في التنوير) (٤٦)

يقول الجاحظ هذا وهو في موقف لا أظن أن أحداً يجرؤ فيه على النادرة والسخرية ، وحياته تعرض لخطر حاسم . ولكننا ما تلبث حتى نجد أبا عثمان في مجلس أحمد بن أبي دؤاد الإبادي - خصم الزيات - ، يعاوده ويدأبه ويحاول أن يتخلص من حرج الموقف بشارة وحسن تخلص وبديهة عرف بها الجاحظ في كل مجال . ولا تمضي فترة حتى نسجع به يكتب رسائل باسم الخلافة ، ويطلب إليه الفتح بن خاقان وزير التوكل ، أن يعمل بانجاز رسالته (في الرد على النصارى) لينال مشاهرتهم ، بل يعده بالدفن مقدماً أن هو فعل ، يقول الفتح في كتابة إلى الجاحظ : « أن أمير المؤمنين - أي التوكل - يجب بك ، ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسك لعلمك ومعر فتك لحال بيتك وبينك من مجلسه

من حياته ، يتردد صداها في كتاب (الامتناع والقرآنسة) الذي كتبه مسجلاً فيه الليالي التي تادم فيها ابن سعدان وزير صمصام الدولة في بغداد ، بعد عودته من الصحاب وابن العميد . ويبدو أن تجربته مع الصحاب وابن العميد قد علمته كيف يداري مجالس الوزراء هذه . ولذلك فأول ما يقوم به أبو حيان - في الليلة الأولى من اجتماعه بالوزير ، هو أن يستأذنه باستعمال كاف الخطاب ، لكي يحسن بشيء من الحرية في المخاطبة ولا تصد نفسه عن الحديث بتكلف الكتابة والالتقاء . يقول حاكياً خطابه للوزير وطلبه ذلك إليه :

« كل شيء أريد أن أجاب إليه يكون ناصري على ما يرد مني ، فاني أن منعتك تكلمت ، وإن تكلمت قلّ إقصائي عما أطلب به وخفت الكساد وقد طمعت بالنفاق ، وانقلبت بالخبية وقد عقدت خنصري على المسألة . فقال حرس الله روحه ، قل ، ما فاك الله ، ما بدا لك ، فأنت مجاب إليه ما دمت ، قلت ، يؤذن لي في كاف المخاطبة وتاء المواجهة ، حتى أتخلص من مزاحمة الكتابة ومضايقة التعريض وأركب جدد القول من غير تقية ولا تحاش ولا محاباة ولا محاباة ولا تحاش . قال : لك ذلك وأنت المأذون فيه ، وكذلك غيرك وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة ؟ إن الله تعالى - على علو شأنه وبسطه ملكه وقدرته على جميع خلقه - يواجه بالثناء والكاف . ولو كان في الكتابة بالهاء رفعة وجلالة وقدر وربية وتقديس وتمجيد لكان الله أحق بذلك ومقدماً من .. » (٤٤)

لكن هذا من الشاذ على المألوف . فالوزراء في هذا العصر يطلبون طريقة معينة في المجالسة وتقديم الطاعة ، ويبدو أن أبا حيان نفسه لم يصدق أذنيه حين سمع هذا الكلام ، ولذا نسمع مخاطب الوزير قائلاً : « أيها الوزير ، قد خالطت العلماء وخدمت الكبراء وتصفحت أحوال الناس في أوقالهم وأعمالهم وأخلاقهم ، فما سمعت هذا المعنى من أحد على هذه السياقة الصنعة والحجة الشافية .. » (٥٠)

ومع ذلك يبدو أن قوة الشخصية قد تفرض نفسها على هذه العلاقات أحياناً ، وعماد ذلك - في هذا العصر الذي ندرس - حسن التخلص

(٤٦) نسج الأدباء ، ج ١٦ ص ٧٦ .

(٤٤) الامتناع والقرآنسة ، ج ١ ص ٢٠ - ٢١ .

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

ولفصيك رايك وتديرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه . وقد كان ألقى الي من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كف بها من تحشيك ، فأمر في هذه الحال واعتد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى ، وأفرغ منه وجعل به الي ، وكن من جدا به على نفسه ، تنال مشاهرتك ، وقد استطلقت لما مقسي ، واستلقت لك لسنة كاملة مستقبلة . وهذا مما لم تحكم به نفسك ، وقد قرأت رسالتك في بصيرة غمام . ولولا اني أزيد في مخيلتك لمرتك ما يعتريني عند قراءتها ، والسلام .. (٤٧)

ولا تهم أبا عثمان بالفاق والمداواة .. لماذا ؟
ان الجاحظ من الكتاب القلائل الذين جعلوا علمهم وأديهم في خدمة الناس جميعا ، وفي تصوير دقائق الاشياء وحقائق العلاقات في عصر خفيت علينا كثير من اموره ، لتقلبا وتناقضا . فبقي أبو عثمان مختصا قللمه رغم كل شيء فلم يبقه على خدمة فرد معين أو على خدمة فكرة واحدة ظل يدور في دائرتها مغمض العينين . فالجاحظ كتب للخاصة والعامة ، للمتحرر والمتحرس للعالم والمتعلم .. الخ ، وان عطفه على عامة الناس ليشير الإعجاب . ومن هنا شامت كتبه وقرأها العامة وكذاولوها، وهي كتب قدم أكثرها الجاحظ هدية الى وزير أو كاتب ، ونال عليها جوائز عظيمة من الخلفاء أحيانا ، وقد بلغت النظر أنه لا يقدمها الى الخليفة نفسه ! . وليس غريبا أن يعجب الخليفة بغضل الجاحظ وعلمه ، لكن العجب حقا هو أن التوكل نفسه يعجب بعلم الجاحظ ومعرفته ، والأخبار التي بين أيدينا لا تؤيد أصحاب التوكل بالملم والعلماء . ولقد سخر بهم في مجلسه وتندر على بعضهم . ولقد قرب بعض العلماء ورفقهم الى درجة مريبة من الإبهة ، ثم ما لبثت أن أوقع بهم بصورة مفاجئة . وان قصته مع الطبيب بختيشوع بن جرائيل تقف مثلا بارزا على جلد مزاجه وسرعة انقلابه . فقد كان بختيشوع طبيبا سراليا حاذقا ، منذ خلافة الواصل . لكن بعض أصحاب الواصل القريبين منه ، أوقعوا به فتكبه وقبض أملاكه وبقاه السى

جنديسابور . فلما ولي التوكل قريته وأفسد عليه الأموال فبلغ مبلغا عظيما حتى « كان يضاهي التوكل في اللباس والفرش » (٤٨) . وكان التوكل يتبسط معه دون تخرج . وفي ذات يوم قال التوكل له ، ادعني . فقام بختيشوع بأضافة التوكل في داره « وأظهر من التجمل والثروة وأنفق في الإضافة ما أمجب التوكل والحاضرين . واستكثر التوكل لبختيشوع ما رآه من نعمته وكمال مروءته .. وحقد عليه وكتبه بعد أيام يسيرة » (٤٩) .

ولقد كان في حاشية التوكل شخصيات عرفت بالكيده والإيقاع بكل « من ذكر بالتقدم في معرفة » . ولقد كان محمد وأحمد ، أبنا موسى بن شاكس مقدمين عند التوكل حتى لقد « دبرا على الكندي (الفيلسوف المعروف) حتى ضربته التوكل ووجهه الى داره فأخذها كتبه بأسرها وأفردها في خزانة سميت الكندية .. » (٥٠)

ولعل جزءا كبيرا من اللوم واقع على المتقرب من الخليفة ، لأن العالم يدرك بعقله كيف يقف عند حد في علاقته بالناس ، ولذلك وصف بعض هؤلاء العلماء الذين لم يدركوا هذه الحقيقة بأن علمهم أكثر من قلوبهم . فهذا أحمد بن محمد السرخسي يمدد القفطى أحد فلاسفة الاسلام له تصانيف جلية في علمه . وكان تلميذا ليعقوب بن إسحاق الكندي ، وكان متفطنا في علوم القدماء والعرب . كان مؤدبا للمعتضد ورفع المعتضد الى رتبة النمامة ، ولم يكتف بذلك حتى بدأ يفضي اليه بأسراره ويستشير في أمور مملكته . وكان هذا بالتالي سببا لقتل المعتضد له . وقد أثار تقريه من الخليفة حفيظة وزيره القاسم بن عبيد الله وكان الخليفة قد أفضى اليه بسر يتصل بالقاسم ، فاحتال هذا عليه حتى أدخل أسسه خلسة في قائمة جماعة حكم عليهم أن يقتلوا . ووقع المعتضد بقتله دون طمحه . (٥١) ولقد وصف القاسم بن عبيد الله هذا بأنه من (دهاء العالم) ، وهو الذي قتل ابن الرومي بالسم (٥٢) .

- (٥٠) حيون الأتيام ، ص ٢٨٦ .
(٥١) تاريخ الحكماء ، ص ٧٧ - ٧٨ .
(٥٢) الفطرى ، ص ٢٥٧ .

- (٤٧) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .
(٤٨) حيون الأتيام ، ص ٢٠١ .
(٤٩) تاريخ الحكماء ، ص ١٠٢ .

أصبحت تحكمه شروط وإداب كان على جميع الأطراف أن تخضع لها. وتعد العلاقات التعليمية من أوائل مظاهر نشاط الحركة العلمية في المجتمع الإسلامي، كما يعد العصر العباسي من العصور المهمة في تطور الحركة العلمية، وبالتالي تطور العلاقات التي تربط بين العلماء من جميع الأطراف.

تمتاز العصور العباسية بظاهرة مهمة كان لها شأنها في الحياة الأدبية والعلمية، وكان لها شأنها في نشاط حركة التأليف وفي انتشار الكتاب بنطاق لا حدود له. وأعطى لهذه الظاهرة نضوج الكتابة وشيوع أدائها ورخصها، بحيث تمكنت لكل المهتمين بتعلمها، وأصبح من الممكن لأي مؤلف أن يتصل بقرائه عن قرب وأن يوجه إليهم كتاباته ويعني بمختلف مستوياتهم العقلية، وأن يجعل كتبه، إذا شاء وأسطرة للتعليم. والكتابة - وإن لم تكن معدومة في العصور السابقة - كانت أدائها من الكلفة بحيث لم تنهيا لجميع الناس يسير. فقد كان استعمال البردي هو الشائع وهو غالي الثمن، ولذلك كان يقتصد في استخدامه حتى في الدواوين الإدارية. (٥٤) فقد قيل عن عمر بن عبد العزيز - الخليفة الأموي - أنه كان يأمر كتابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوابع، فكانت كتبه إنما هي شبر أو نحوه. (٥٥) ويبدو أن البردي كان هو الشائع في دواوين الخلافة، حتى في خلافة المنصور. (٥٦) وربما استعمل في غرض التأليف في نطاق محدود، لاسيما في الكتب التي ألفت للخليفة نفسه، كما يستدل من قطعة باقية من كتاب (تاريخ الخلفاء) للسدي ألفه ابن اسحاق للخليفة المنصور. (٥٧) ثم أخذ المسلمون صناعة الورق من الصين عن طريق سمرقند، وقد كانت بداية ذلك

لكن من الطريف أن نجد كتابا من هؤلاء القريبين عند الخليفة يتأسي على زمان ضاعت فيه مفاهيم الحق، لأنه غالب خصمه عند الخليفة بالباطل الزورق بحسن اللفظ، لا لأن الحق كان معه، ذلك هو إبراهيم بن العباس الصولي، وكان المتوكل قد ولاه ديوان الضياع، فرفع أحمد بن المدير شكوى عليه إلى المتوكل ينهم فيها كاتبه باختلال الإدارة وتضييع المال. فلما سأل المتوكل إبراهيم في ذلك بادره إبراهيم ببينين من شعره يتقرب فيهما من المتوكل، فاستحسنهما المتوكل وخلع عليه ولم يستمع إلى قول ابن المدير فيه. لكن إبراهيم أحس بالقبح وبتأنيب الضمير، وحينما سأل من ذلك، يقول يا بني، الحق أولى بعثلي وأشبه، أنني لم أدفع أحمد بصحة، ولا كذب في شيء مما ذكر ولا أنا ممن يشتره في الخراج، كما أنه لا يعثرني في البلاغة، وإنما فلجت برطانة ومخرقة، ألا إني، فضلا عن أن اغتم من زمان بدفع ذلك كله؟ (٥٨) لكن هذه، في ظني، من الأخبار الطريفة النادرة.

تعد العلاقات الشخصية بين العلماء في القرون الهجرية الثاني والثالث والرابع من أكبر المظاهر حيوية، ومن أدها على نشاط الحركة العلمية في العصر العباسي. ولم تقم العلاقات بين العلماء على نمط واحد، بل تعددت مظاهرها، فمنها علاقات تعليمية بين عالم ومتعلم، وعلاقات مذهبية، وعلاقات انسجام وتنازع يعبر عنها في حلقات المساجد ومجالس البيوت وفي الأسواق منذ المناظرة أو الجدل أو تبادل الرأي. ولقد تطور كل مظهر من مظاهر هذه العلاقات حتى

- (٥٢) معجم الأدباء، ج ١ ص ١٧٩، ص ١٩٥ - ٩٦.
(٥٤) راجع في هذا مقالة المستشرق (جب) بعنوان - خواطر في الأدب العربي، بد التأليف النثرى -، باللغة العربية ل كتابه Studies On The Civilisation of Islam (1962)
وقد ضمنها صلاح الدين المنجد في (المنقذ من دراسات المستشرقين - ١٩٥٧).
(٥٥) الوزراء والكتاب، ص ٥٢.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٢٨.
(٥٧) القطعة نشرها المستشرق N. Abbot في شيكاغو - ١٩٥٧.
(٥٨)

في السنة الأولى أو الثانية من حكم العباسيين ، ثم انتقلت صناعته إلى العراق في زمن البرامكة ، والظاهر أن جعفر البرمكي قد استبدل استعمال الرقوق بالورق في دواوين الحكومة » (٥٨) .

لقد أصبحت الكتب في هذا العصر وسيلة من وسائل التعليم ، ولعل الباحث يتوقع أن تنوب الكتابة مناب الحفظ كوسيلة للتعليم ، وذلك لكثرة انتشارها وسهولتها في هذا العصر ، لكن الحال لم تكن كذلك . ولذلك يختلف كتاب هذا العصر في المفاضلة بين (الكتابة) و (السماع) المباشر أو الاتصال بالشخصية العلمية مباشرة ، أو الحفظ كوسيلة لأخذ العلم ونشره . فقد شاع القول من جهة على السن بعض العلماء أن الكتابة أكثر وثوقاً لأجل المحافظة على العلم ، وأن الحفظ وحده ربما اضاع على المتعلم علمه . وقد قال بعضهم في هذا الصدد : « كنت عند بعض العلماء ، فكنت أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً ، فقال لي ، أكتب كل ما تسمع ، فإن أخس ما تسمع خير من مكانه أبش . »

وقال الخليل بن أحمد : تكثر من العلم تعرف وتقل منه تتحفظ . . (٥٩) ومع ذلك فالعلماء لا يتفقون على شيء في هذا الأمر ، وهم فوق ذلك يرون أن الكتب وحدها لا تحيي الموتى ، ويقصدون بذلك أن الإنسان الذي ليس له أدنى قبول لتلقي المعرفة ، لن ينفعه كتاب ولا علم . ويبدو أن الكتاب عندهم لا يفتي عن السماع والاتصال بالشخص . فالمعروف مثلاً أن كتب الجاحظ قد شامت وانتشرت في حياته حتى بلغت المغرب وقد أدخلها إلى الأندلس أولئك الذين أخذوا عنه ، وينشئ على كتابين دخل الأندلس في حياته ، هما البيان والتبيين - وأسلوبه التعليمي واضح - ، ورسالة التريب والتدوير . فالثابت كتبه فضول المتعلمين هناك ، فقصده تلاميذ من المغرب ليتصلوا

به من قرب وليسمعوا منه بعد أن بلغت شهرته الأفاق . وقد قال عنه أحد هؤلاء : « كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند موتنا بلقاء أبي عثمان » (٦٠) وهكذا قصده هؤلاء التلاميذ . لكن الطريف في هذا الصدد ، أن الجاحظ ، على علو منزلته ، وبلوغه سن الشيخوخة ، وعلى شهرته في المشرق والمغرب ، كان لا يزال عند مجيء هؤلاء المغاربة يعلم الصبيان الصغار . وهو أمر غريب حقاً بعد أن ارتفع الجاحظ إلى منزلة من الخلافة بحيث كان ناصحاً لأولاد المعتصم ، وطلب ليكون مؤدباً لأولاد المتوكل فاعتلر . . . وهو ، فضلاً عن ذلك ، أول من يصنف المعلمين إلى صنفين ، معلمي الصبيان ، والمؤدبين . وبعد الصنف الثاني أرفع منزلة في العلم والمجتمع ، وقد هزى من الصنف الأول وكتب فيهم حكايات لأذمة ، ومع ذلك كله ، يظل هو يمارس تعليم الصبيان إلى فترة متأخرة من حياته . ولعل هذا من أوجه الغرابة في طبيعة التعليم في المجتمع الإسلامي . فرغم الاحتقار الذي تلقاه المهنة ، نجد أنها مع ذلك من أكثر المهن شيوعاً ، وقد مارسها العلماء أكثر من أية مهنة أخرى .

فالكتاب إذن ، مهما بلغ فضله في الانتشار في الأفاق ، لا يعوض من اللقاء الشخصي والاتصال المباشر بالمالم . على أن بين علماء هذا العصر من كان يعتمد اعتماداً كلياً على السماع والحفظ دون الكتابة ، وقد اشتهر من هؤلاء النحوي الكوفي أحمد بن يحيى ، لمب ، حتى لقد كان يشغل حفظه وسيلة ومنهجاً في حفظه ولا يعتمد على شيء مكتوب قط . قيل عنه : « وأبو العباس لا يس كتاباً إلا كالأعلى حفظه وثقة بصفاة ذهنه » . ويقابله في الطرف الثاني أبو سعيد السكري الذي كان « كثير الكتب جداً ، فكتب بيده ما لم يكتبه أحد ، فكانا في الطرفين لأن أبا سعيد كان غير مفارق للكتاب عند ملاقاته الرجال . . » (٦١) ، وهذا وهما متعاصران .

- (٥٨) محاضرات في تاريخ العرب والإسلام ص ٣٦ .
(٥٩) كتاب الحيوان ، ج ١ ص ٥٨ .
(٦٠) صجم الأدباء ، ج ١٦ ص ١٠٤ - ١٠٥ .
(٦١) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ١٠٧ .

تدعوني اليه ، قلت حاجتهم اليّ فيها . وإنما كانت غايته الثالثة ، فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوم حلوه ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا . وإنما قد كسبت في هذا التدبير إذ كنت إلى التكبس ذهبت » . (٦٤) فالأخفش إذن يخشى أن يقلل الناس على كتبه وتنتفي الحاجة إليه . لكن كتبه على صوابيتها قد وضعت لغاية تعليمية . والأخفش قصة المازني والجرمي في أمر كتاب سيبويه . فالعروف أن الكتاب لم يأخذه أحد من سيبويه غير الأخفش . فخشي المازني والجرمي أن يدمي الأخفش الكتاب لنفسه ، فأخذه وأشاعه بين الناس برواية عن الأخفش . (٦٥)

لقد كان العلاقة بين الشيخ والتلميذ أو على طبيعة حركة التأليف في هذه العصور ، لأن أكثر ما شاع من كتب الشيوخ كان في الحقيقة ما كتبه التلاميذ من مذكرات أخذوها عن الشيخ ، فيشيع الكتاب برواية التلاميذ . فهذا كتاب الكامل للمبرد وصل إلينا برواية الأخفش الأصغر ، (٦٦) لتلميذ المبرد . ولا يكفي التلميذ برواية الكتاب عن أستاذه نصا دون أن يتدخل فيه ، بل يقوم بتنظيمه والتعليق عليه وإدخال آرائه المميزة عن أراء شيخه بقوله (قال أبو الحسن الأخفش) . ولا يكفي بالتعليق بل قد يقوم بموازنة بين الروايات التي أخذها من المبرد في غير هذا الكتاب فيقول مثلا ، (حدثنا المبرد في غير الكامل) ، (٦٧) والطريف أن الأخفش قد أخذ أيضا من تلمذ ، أمام مدرسته الكوفيين في عصره وخصم المبرد البصري المذهب . ويقوم الأخفش بتصحيح روايات أستاذه المبرد في

ومع ذلك نفهم من أخبار تلمذ أنه ربما أخذ عن شيوخ لم يناصرهم بل استعان على ذلك بكتبهم ، وربما أخذه عنهم لتلاميذهم ، فقد قيل عنه أنه كان يروي عن أبي نجدة كتب أبي زيد وعن الأثرم كتب أبي عبيدة ، وعن أبي نصر كتب الأصمعي ، وعن عمرو بن أبي عمرو كتب أبيه . (٦٨) فمن الواضح أنه لم يناصر أحدا من هؤلاء العلماء الذين درس كتبهم بل قرأها على تلاميذهم . لكنه يميل إلى حفظ ما يأخذه ، وكان يقوم بالإملاء على تلاميذه من حافظته .

وهناك أكثر من دليل على أن هذه الكتب التي تسمى (كتباً) هي في الواقع أشبه بـ (مذكرات) يأخذها التلميذ عن أستاذه ، فهي ليست كتب مؤلفة بالمعنى الذي نفهمه ، أي أن المؤلف قام بكتابتها وتنظيمها ، بل هي محاضرات المجالس التعليمية وإمالي الشيخ على تلاميذه ، ولا بد أن تلمذا قد درس هذه المذكرات على تلاميذ الشيوخ . ولقد كان لاستعمال الكتابة كوسيلة من وسائل التعليم نتائج مهمة على طبيعة انتشار العلم ، حتى لقد خشي بعض العلماء أن تشيع كتبهم وقرأ فيستغنى بها عنهم ، فكانوا يتعمدون وضعها موضعاً صعبا لتبقى الحاجة معها إليهم ، سئل الأخفش في ذلك ، يقول الجاحظ : « قلت لأبي الحسن الأخفش ، (٦٩) أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالتنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض المومض وتؤخر بعض المفهوم ؟ . قال ، أنا رجل لم أضع كتبتي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الموضع الذي

(٦٢) معجم الأدباء ، ج ٥ ص ١١٩ .

(٦٣) أبو الحسن الأخفش هذا هو سعيد بن مسعدة ، مولى بني مجاشع بن دارم - وكان من نحوي البصرة ، ويعرف بالأخفش الأوسط ، توفي في سنة ٢٢١ هـ . وقيل ٢١٥ هـ (التاريخ الأدب العربي) الترجمة العربية - ج ٢ ص ١٥١ - ٥٢ .

(٦٤) كتاب الحيوان ، ج ١ ص ٩١ - ٩٢ .

(٦٥) نزهة الألباب في طبقات الأدباء ص ٩١ - ٩٢ .

(٦٦) هو علي بن سليمان العروف بالأخفش الأصغر وهو من نحوي بغداد ، توفي سنة ٢١٥ هـ .

(٦٧) الكامل للمبرد ، ج ١ ص ١٢٨ .

الكامل بروايات اخذها عن ثعلب أو عن الكوفيين عامة . (٦٨)

وقد بلغ الثقة بين الشيخ والتلميذ مبلغا يجعل الشيخ يقدم لتلميذه كتابه بخطه دون أن يعلمه عليه أو يسمعه التلميذ منه كاملا . قيل عن إبراهيم بن أحمد الطبري أنه قرأ قصيدة شبل بن عروة الضبي على أبي عمر الزاهد ثم تناولها من عبد الله بن جعفر بن درستويه ، لكنه لم يتمها قراءة عليه ، فقال له ابن درستويه : « قد دفعت اليك كتابي بخطي من يدى إلى يدك ، وقد أجزت لك القصيدة فاروها عني ، فإن هذا ينوب عن السماع والقراءة ... » (٦٩) . لكن التلميذ إذا اشاع علم استأذنه كان من حق الأستاذ عليه أن ينسب إليه ما أخذه عنه ، وهذا من آداب العلم التي اصطلح عليها المسلمون .

ومن الطريف في هذه العلاقات التعليمية أن عالين من العلماء في منزلة واحدة قد يأخذ أحدهما عن الآخر في العلم الذي اختص به وتفرغ للعمل له ، فيفيد أحدهما من الآخر في موضوعه . قيل عن الرياشي والمازني ، وهما من علماء النحو في القرن الثالث للهجرة ، أن الرياشي قرأ على المازني النحو وقرأ عليه المازني اللغة ، وكان المازني يقول : « قرأ الرياشي عليّ كتاب سيبويه فاستفدت منه أكثر مما استفاد مني ، يعني أنه أفادني لغته وشعره ، وأفاده هو النحو » (٧٠)

وليس العلاقة بين العالم والمتعلم قائمة على التعليمية المجردة من صوافف الالف والمحبية والتعاطف ، فقد يتفقد الشيخ تلميذه ويعينه في معاشه ، وكذلك يفعل المتعلمون فيما بينهم . حكمي عن إبراهيم بن سعيد بن الطيب ، وهو

(من عبيد السبي ، وكان ضريرا) ، أنه قدم واسط وأراد أن يتعلم القرآن ، فجلس إلى حلقة أحد الشيوخ « فكان معاشه من أهل الحلقة » ثم اصعد إلى بغداد فصحب أبا سعيد السرياني - العالم اللغوي المعروف في القرن الرابع - وقرأ عليه شرح كتاب سيبويه ، وسمع منه كتب اللغة والدراوين . وقد عده ياقوت بين الادباء الذين ترجم لهم . (٧١)

وهذا أبو يوسف تليد أبي حنيفة صحبه « على فقر شديد ، وكان ينقطع بملازمته من طلب الماش فيعود إلى منزله إلى فقر شديد ، وكانت أمه تحتال فيما يقتاته يوما بيوم » . حتى كان ذات يوم فلم يجد ما يأكله ، فبات جائعا وتأخر من غد عن المجلس حتى احتال فيما أكلوه . فلما جاء إلى أبي حنيفة ، سأله عن سبب تأخره فصدقه ، فقال ، ألا عرفتنى فكنت أملك ولا يجب أن تفتن » (٧٢) وللجاحظ قصة في أول حياته شبيهة بقصة أبي يوسف حتى في تفاصيلها . فالرابطه التي تربط بين العلماء اشد من رابطه الدم والقربى ، هي رابطه العلم والمقاساة في سبيله .

لقد كان انتشار التعليم ونشاط الحركة العلمية، منذ القرن الهجري الثاني، سببا من اسباب تعدد المذاهب والمدارس العلمية والاتجاهات العقلية . وعلى حين كانت الاختلافات المذهبية في المصور الإسلامية الأولى تتخذ مجرى المجاهرة العنيفة التي تقوم على السيف ، وعلى المجاهرة اللسانية التي تعتمد على الخطابة والבלافة العربية الأصيلة التي أساسها التأثير المباشر في النفوس وفي كسب الأمن ، تتخذ هذه الخلافات في العصر العباسي

(٦٨) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٠ ، ج ٣ ص ٥٠ .

(٦٩) معجم الأديب ، ج ١ ص ١١٠ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ج ١٢ ص ٤٤ .

(٧١) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٧٢) الفرج بعد الشكوة ، ص ٢١٨ .

أن الحديث تفرُّ القوم خلوته
حتى يلج بهم حي واكثار

ومتثلاً بقولهم (كل مجر في الخلاه يسر) ذلك
أن الذي يجري فرسه منفردة يعجب بها لمدم
وجود خيل يقيس سرعتها بها ، وكذلك الأمر
فيهم ! خلا يعلمه عند فقد خصومه ، وأهل المنزل
من أهل صناعته) - كما يقول - (٧٤) .

ثم نرى الجاحظ يتهم نفسه قبل أن يتهمه
خصومه ، فيعتدل عن كتابه بملاحظة جاحظية
أصلية ، يقول : « وأنا أعوذ بالله أن أفر نفسي
عند غيبة خصمي وتصفح العلماء لكلامي فإني
أعلم أن فتنة اللسان والعلم أشد من فتنة النساء
والحرص على المال ... » (٧٥) ويطلب على ظني
أن هذا لا يكون إلا في عالم شغل بالعلم من كل
ما عداه !

فالرقابة العلمية الذن - وهي رقابة الخصوم -
خير وأزع ضد الغرور ، تفرض نفسها على العالم
في هذا العصر الذي نشطت فيه الحركة العلمية
مصحوبة بخصومات ومماندات وتحديات . ولعل
هذه الرقابة أشد على الكاتب من أية رقابة أخرى .

يرى الجاحظ - وهو خير من يمثل المتكلمين
في هذا العصر - والمتكلمون من أوائل من عني
بالجذل العقلي ، قصة جدلية طريفة جرت لبعض
التكلمين في مجلس الخليفة المأمون ، تصور مدى
أهمية المجابهة بين العلماء وأهمية هذه الرقابة
التي اسميها (رقابة علمية) . يقول الجاحظ :

« قال لي بشر المُرسي : عرض كتابي على
المأمون في تحليل النيد ، وبخبرته محمد بن
العباس الطوسي ، فأنبرى لطلعن عليه والمعارضة
للحجج التي فيه ، وأسهب في ذلك وخطب ، وأكثر
وأطنب ، فقلق المأمون واحتدم وهاج واضطرم

سبلاً جديدة ، أهما الاتجاه إلى المحاجات العقلية
القائمة على أسس من المنطق أصبحت
واضحة في مناهج المسلمين بعد اتصالهم بأصول
الفلسفة الأرسطوطالية خاصة . ولم تعد الخطابة
بمفهومها العربي القديم وسيلة مهمة في حياة
الناس ، لا سيما بعد أن أصبح بالإمكان اتخاذ
الكتابة وسيلة لنشر المحاجات والمسائل واجوبتها .
وهنا تلعب العلاقات بين العلماء دوراً مهماً في
توجيه الحركة العقلية ، فكلما زاد الاحتكاك بين
العقلانيات المتباينة والمذاهب المختلفة ، زادت حدة
الشرارات المنبعثة من هذا الاحتكاك ، وبذلك
اندفعت الحركة العلمية قدماً إلى الأمام .

ولعل من أهم آثار هذه المحاجات العلنية في الحركة
العلمية أننا بلداناً نلاحظ في هذا العصر حرص
العلماء وزيادة توفيقهم في البحث والنظر وفي التمييز
عن آرائهم خوفاً من الزلل ، لأن مناوئتهم يقفون
لهم دائماً بالمرصاد . ونحن نعلم أن الخطأ
المكتوب أصعب على التصحيح من خطأ شفوي
يسمع ولا يدون ، ولذا ، فزيادة التوقي تضاهف
في الآراء المدونة والآراء التي يترقبها الخصوم
ليتلقوها بالنقد والتعميق . ولعل الجاحظ خير
من عبّر عن هذا الأمر بقوله :

« وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس
كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ
له ... » (٧٦)

فاذا اتخذ المؤلف هذه الحيطة ، راجع نفسه
فيما يقوله أو يكتبه ولم يصدر رأياً فطرياً . وأظن
أن الذي دفع الجاحظ إلى هذا القول خبرته
الشخصية وعرضه لكثير من المحاجات والتحديات
من كتبه التي أدامها في الناس ، فهو ينظر إلى
الأمر نظرة خبير ونظرة عالم نفسي ، مستشهداً
بقول الشاعر :

(٧٣) كتب الحيوان ، ج ١ ص ٨٨ .

(٧٤) المصدر نفسه .

(٧٥) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٠٧ .

لاستحقاق الطوسي وخلاء المجلس له . وكان يحب أن يزعج وازع يكفه بحجة سمكته ، فلما لم ير أحدا يحضره يذهب عن كتابي ، قال متمثلا :

يا لك من تبرة بمهمر
خلا لك الجو فيفضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

فما كان إلا ريث فراغه من التمثيل بهذه الإبيات، حتى استؤذن لي فدخلت عليه . فقال يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول في النيب ؟ قلت حل طلق يا أمير المؤمنين . فقال ، فما تقول فيما أسكر كثيرة ؟ قلت ، لمن الله قليله إذا لم يسكر إلا كثيره . ثم قال ، أن محمدا يخالفك . فأقبلت على ابن أبي العباس ، فقلت له ، ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال ، لا خلاف بيني وبينك ؟ كلما يومهم به أهل المجلس ، حبا للتسليم مني والتخلص من مناظرتي ، لا على حقيقة التحطيل له . فاستغنيت ذلك منه وقلت له ، فما لي لا أرى السر قواه في مثلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيت ضحكه أظنيت في معاني تطويل النيب ، وابن أبي العباس ساكت لا ينطق ، وكان قبل دخولي ناطقا لا يسكت . فلما رأى المأمون سكوته عند حضوري مع كثرة كلامه في لب كتابي وميجه - كان - قبل دخولي ، قال متمثلا :

مالك لا تلبس ياكلب الحوم
قد كنت نباحا فما لك اليوم

ثم نظر الي فقال ، أن الكتب عقول قوم وراها عندهم حجج لها ، فما ينبغي أن يقضي على كتاب إلا إذا كان له دافع عنه ، وخضم بين مما فيه ، فإن أبناء النعم وأولاد الأسد مصسودون . . . (٧٦) فالختملي بحججه ليس كالمرض عقله على خصومه ، لأن من يلزم المعطة من الخصم ، يكون أشد توقيا ودقة .

وتعد القدرة على المناظرة والمحااجة صفة لازمة

العالم الذي يتمتع بالقابليات العلمية . وذلك أن انصام الذي اعتاد أن يسلم له بالامر دون نقاش أو سؤال أو تشكيك فيما يقوله ، يثق من نفسه بامور لا تستحق أن يوثق بها ، فيضل عن الحقيقة ويضل . ولعل المتكلمين من أوائل العلماء الذين اتفقتوا الى هذه الحقيقة ، فعنوا بالجدل عنابة ما بعدها عنابة ، وامتاز فيهم جماعة بالقدرة على استغلال آلة الجدل العلمي ، المنطق . ولقد قيل من النظام ، أنه كان من أقدر المعتزلة على الجدل ، يروى عنه أنه جرت بينه وبين أبي شمر أحد أمة القدرية المرحجة ، مناقشة في دار أيوب بن جعفر بن سليمان العباسي ، وهو من الأوائل لابي شمر .

« وكان أبو شمر ، إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه حتى كان كلامه أنما يخرج من صدره صخرة . . » (٧٧) . لكن النظام اضطره بالحجة حتى « حرك يديه وحل جبهته وحبا إليه حتى أخذ يديه . وفي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر الى قول إبراهيم النظام ، وعلق الجاحظ على هذا قائلا :

« وكان الذي غر أب شمر وموه له هذا الرأي أن أصحابه كانوا يستمعون منه ويسلمون له ويميلون اليه ، ويقبلون كل ما يورده عليهم وينبته عندهم . فلما طالت عليه توقيرهم له ، وترك مجاذبتهم إياه ، وخفت مؤونة الكلام نسي حال منازعة الأكفاء ومجادبة الخصوم » (٧٧)

فالتحدى الذي يجابهه العالم خير حافظ له على مراجعة ما يأخذ به ويسلم له . والشك عند المتكلمين أول ما يبدا به للتوصل الى اليقين ، ولعل أكثر العلماء تعرضا للتحديات والخصومات ، أولئك الذين كانت لهم وجهة نظر معينة أو كانوا ينتمون الى مذهب من المذاهب العقلية أو الفقهية أو العلمية . . الخ ، التي شاعت في هذا العصر واتقسم العلماء بينها الى اتجاهات شتى ، ومدارس ينتمون اليها ، كما انقسم الناس متأثرين بهم ومتعصبين لظرف أو لآخر .

(٧٦) كتاب فصل ما بين العداوة والصود ، رسائل الجاحظ ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٣

(٧٧) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٩١ - ٩٢ .

فلم يكن الأمر للصدفة حين كانت البصرة مهد الاعتزال وبلد المعتزلة ، في حين كانت الكوفة مهد التشيع وبلد الرافضة . وبين الاعتزال والتشيع ما بين الطابع العقلي والطابع الباطني أو ما بين العقلية اليونانية والعقلية الكلدانية .

ولم يكن الأمر للصدفة أيضا حين كانت نشأة النحو في البصرة على ذلك الأسلوب التنظيمي الدقيق ، فمرجع هذا أيضا لذلك الطابع العقلي الأرسطاطلي الذي غلب على البصرة فوجهها إلى ذلك النحو من الاستقراء والتصنيف والتنظيم واستخراج قوانين اللغة من خلال ذلك . ثم لم يقتصر الأمر على ذلك بل لقد ظهر أثر هذا الطابع وأصاح قويا على أبحاث النحو منذ نشأته ، فهو أول أمره متأثر بالروح الكلامية خاضع لاساليب الفلسفة اليونانية . (٧٨)

لكننا ما نكاد نسمع بمجاهدة بين الكوفة والبصرة طيلة الفترة التي كانتا فيها قائمتين وحدهما ، حتى نشأ بغداد وتحتل مركزها الأول في الحركة العلمية ، فتتسخط المجاهدة وتشتد المنافسة بين علماء البلدين . ولن تكون بعيدين عن النضوب إذا قلنا ان بغداد بعد أنشائها وعمارتها قد أصبحت مركزا تجتلب إليها علماء الطرفين ، فاتاحت بذلك فرصة لم تكن لتتاح لعلماء الكوفة والبصرة ان يلتقوا وان يتواجهوا مواجهة حيوية فكان ذلك من أهم الدوافع للحركة العلمية ، وازدهارها . ولو لم تكن بغداد قد جمعت بين هؤلاء العلماء من جميع الأطراف لما كان هناك مجال للتمييز أو التوفيق بين البلدين ، ولقد سعى علمائهما إلى مدينة السلام .

والعلماء عندي يشكلون الجانب الحي من الحركة العلمية ، فمواجهاتهم تكشف لنا عن جوانب طريفة للوضعية العلمية أو العصبية التي قد تجني على الطرفين . فالتحديات التي كان يحويروا الكوفة والبصرة يتبادلونها أصبحت مضرب المثل في الحركة العلمية لهذا العصر . وتتخذ هذه التحديات أشكالا مختلفة ، علمية

ولعل أشهر خلافات في تاريخ الحركة الفكرية الإسلامية لهذا العصر ، تلك الخلافات التي نشبت بين الكوفة والبصرة بجميع اتجاهاتها العقلية والسياسية واللغوية . . الخ فالكوفة عرفت بميل علمائها في الفقه إلى التأويل وفيها نشأت مدرسة الرأي وكانت ميولها السياسية علوية ، فاتخذتها الدعوة العباسية مركزا في أول نشاطها ، حين كانت الدعوة العباسية علوية الميل ، فلبت الكوفة دورا إيجابيا مهما منذ قيام الخلافة العباسية ، ولقد كانت عاصمة الخلافة عند أول قيامها . ثم أصبحت مركزا مهما لنشاط فرق الشيعة المختلفة ، واتجه الفقه فيها ودراسة اللغة والنحو إيجابا له طابعه الميل . أما البصرة فقد كانت العوامل المؤثرة في تكوينها ذات طابع مخالف . فهي عثمانية في ميولها السياسية الأولى . وقد احتضنت في أول قيام الدولة العباسية ، حركات ولورات مناوئة للحكم العباسي وقد لعب المعتزلة - وهم المتكلمون الأوائل الذين هضموا الفلسفة الأرسطوطالية ، وطعموا بها العفيدة الإسلامية - دورا رئيسا في الحياة البصرية . وقد تأثرت العلوم العربية بهذه الحركة الجدلية ، وكان للمنطق اليوناني أثر في نحو البصريين .

فالخلاف بين الكوفة والبصرة خلاف منهجي قائم على طبيعة (التأويل) للموضوعات المختلفة . ويعزو الأستاذ طه الحاجري هذا الخلاف إلى عناصر البيئة القديمة المكونة لكل من - هاتين المدينتين ، ويقول :

والواقع ان البصرة والكوفة ما كان لهما ان يلتقيا ، إذ كانت كل منهما تمثل واحدا من هذين الطابعين المتقابلين بمعنى أنه كان اطلب عليها وأقوى أثرا فيها . فالبصرة تمثل الطابع العقلي ، والكوفة تمثل الطابع الباطني السري . فعلى قدر ما بين هذين الطابعين من خلاف كان الأمر بينهما في شتى نواحي الحياة العقلية ، فذلك تأويل هذه الخصومة العتيقة الدائبة المتصلة بين البلدين . .

صاحبه ، واتخاذ المؤلفون الى أحدهما دون الآخر حسب ميولهم الى البصريين أو الكوفيين ، فالبرد بصري درس كتاب سيويه ، أما أحمد بن يحيى فكوفي المذهب . وقد أتاحت الفرصة لهذين العالمين أن يتصلا ويتوجها مواجهات شخصية بعد مجيء كل منهما الى بغداد . وكانت لكل منهما حلقة في المسجد ، وأن كان بعض تلاميذهما مشتركا بينهما .

وقد يتعصب أتباع عالم من العلماء تمصبا شديدا له حتى يفضوا له أن يواجه خصمه أو يذهب اليه بنفسه ، خشية أن يقول الناس عنه أنه اتصل به أو تتلمذ عليه . . روى ابن الأنباري قال : « سمعت أبا العباس ، يعني ثعلبا ، يقول ، عزمت على المضي الى المازني لاناظره ، فانكر ذلك علي' اصحابنا وقالوا : مثلك لا يصلح أن يمضي الى بصري ، فيقال هذا انه تلميذه ، فكرهت الخلاف عليهم » (٨٠) . وقد ذكر ابن الأنباري

هذا الخبر في بعض مصنفاته ليفسر ثعلب ، لكن العلماء المسلمين قالوا : « أراد ابن الأنباري أن يرفع من ثعلب ، فوضع منه ، » وكان متمصبا للكوفيين . ومعنى هذا أنهم وجدوا هذا الموقف من العصبية المسيئة الى العالم ، إذ لم يجد العلماء في هذا العصر خفاضة حتى في الأخذ من خصومهم والتعلم منهم . فهذا الكسائي ، رغم مواقفه الصريحة من تحوي البصرة ، انحدر الى البصرة فلقى الخليل بن أحمد وجلس في حلقة وأخذ منه . (٨١) ولا اظن هذا القول من باب الوضع على العلماء أو الانحياز للبصريين ، لأن الأخذ الكسائي من علماء البصرة لم يقل من منزلته . بل زاد من شأنه عند الكوفيين والبصريين معا . لكن هذا الامر ، مضافا اليه شدة المنافسة التي زادت حدة في الجبل التالي ، وفخر الكوفيين على البصريين ومقربهم من الخلافة في بغداد ، هو الذي جعل الجاحظ - وهو بصري منشأ وتكويننا

أو شخصية . فقد بعث أحد الجانبين بمسألة من المسائل بواسطة أحد تلاميذه الى خصمه ، يتحدها فيها رساله منها ليختبر علمه ولتعرف منزله عند الناس . وكان كل جانب من المتخاصمين يخشى أن ينازح تلميذه الى حلقة خصمه ، لا سيما أن تلاميذ الشيخ كانوا اشبه دعاة له

ومؤيدي للمذهب ودافعين عنه امام خصومه . فهو لا يريد أن يفقدهم . لهذا الكسائي ، وهو عالم جليل بين نعاة الكوفة وقرائنها ، رقى بعلمه حتى بلغ بلاط الرشيد ، ولم يكن مؤدبا لأولاده فحسب بل ارتفع الى مرتبة الجلوس . كان يحيط نفسه بجموعة من التلاميذ كانوا اشبه بدرع يتقى به الضربات الاولى لخصمه . ويبدو انه لم يكن يواجه خصومه منفردا ، بل نجده في المناظرات العلنية يقدم تلاميذه لناوذة الخصم أولا ، وما لبث أن يحضر الى المجلس بهيته ووقاره ، يقول كلمة الفصل ، كما يظهر في مناظرته لسيويه . ولقد كان التلاميذ فضلا من ذلك اشبه بطقعة

وصل بين مجالس العلماء ، لهم حرية التنقل بينها ولهم الحرية في التوفيق بين المذاهب التي يأخذونها من شيوخهم ، كما أن لهم حرية المناظرة يحيى من ثعلب أن ختنه - وهو زوج ابنته - كان يخرج من منزله وهو جالس على باب داره فيتخطى أصحابه ويمضي معه دفتره ومسيرته فيقرأ على أبي العباس البرد كتاب سيويه ، فيعاتبه أحمد بن يحيى على ذلك ويقول له ، إذا راك الناس تمضي الى هذا الرجل اقرأ عليه يقولون ماذا ؟ . ولم يكن يلتفت الى قوله . . (٧٩) . وسئل مرة ، كيف صار محمد بن يزيد البرد أعلم بكتاب سيويه من أحمد بن يحيى ، أي ثعلب . فقال ، لأن محمد بن يزيد قرأه على العلماء وأحمد بن يحيى قرأه على نفسه . .

ولقد رويت عن البرد وثلعب مناظرات كثيرة اختلف الناس فيها وفي تفضيل أحدهما على

(٧٩) معجم الأدياب ، ج ١ ص ١٢٠ - ٢١ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ١١٥ .

(٨١) المصدر نفسه ، ج ١٤ ص ١٦٩ .

سيبويه ، وهو الشاب الناشئ الذي يتعرض لشيخ مكين المنزلة ، على مشهد من الناس ، فالعامة قد تتحاز بدافع الحماس الماطفي إلى سيبويه بغض النظر عن قيمة الحجج التي يوردها الطرفان . ولذلك خشي تلاميذ الكسائي حاقبة هذا التعرض فعرضوا أنفسهم للمناقشة دون شيخهم .

ومن جهة أخرى ، حاول بعض العلماء أن يستغل هذه الماطفة وهذا الحماس الذي تصدر عنه العامة في حكمها ، فالكراهة ثم غلب خصمه بالحق أو بالباطل ، وهو واع أن الحجة ليست إلى جانبه ، والعامة يجبرون بنمط من الكلام القصيص بصيب اسماءهم دون الالتفات إلى دقائق المعاني أو التمتع فيها . ولقد كان هذا الخلق في العامة من العوامل التي أمانت القصاص في المساجد الإسلامية على أن يتحفظهم بأنواع من الملاهي والاحاديث المتعة والمفصاة بالمبالغات ، بحجة الوعظ الديني والتفسير القرآني ، فكان العامة ينجدون إليهم دون الالتفات إلى مدى الانسجام المنطقي في هذه الأحاديث .

وللأصمعي حكاية مع سيبويه من مناظرة جرت بينهما في المسجد علنا ، سندع الأصمعي يحدثنا بها ، وفيها من الدلائل على هذه الأمور ما فيها . يقول الأصمعي :

« .. أنه عرض علي شيء من الآيات التي وضعها سيبويه في كتابه ، ففسرتها على خلاف ما قرره ، فبلغ ذلك سيبويه فبلغني أنه قال ، لا ناظره إلا في المسجد الجامع . فصليت يوما في الجامع ثم خرجت فتلقاني في المسجد فقال لي : اجلس يا أبا سعيد ، ما الذي أتكرت من بيت كذا وكذا ؟ ولم فسرت على خلاف ما يجب ؟ . فقلت له ، ما فسرته إلا على ما يجب ، والذي فسرته

ومذهبا . - بغض على الكوفيين قائلا : « وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان وسيبويه الذي اعتمدتم على كتبه وجدتم فصله .. » (٨٢)

ولا يعاب العالم إذا اعترف بغلبة خصمه ورجحان رأيه ، لا سيما إذا كانت هذه المناقشات طريقا قويا للوصول إلى الحقيقة ، لا وسيلة للمعاندة أو الالة العواطف . وما دامت هذه المناقشات تدور في دائرة العلماء ، فلا خشية منها . لكن أكثر ما كان يخشاه العلماء هو أن تغلب روح العامة على الروح العلمية فتوجه هذه الاختلافات وجهة خطيرة على الحياة العلمية وعلى المجالس العلمية . ونفهم مما يتروى على ألسن بعض العلماء أن خشيتهم ليست بسبب العلماء المخالفين لهم في الرأي ، بل من أن تشبك العامة في النزاع . وهذا أكبر ما كان يخشاه المعتزلة في نزاعهم مع أحمد بن حنبل في أحداث الحنة ، وقد انحازت إليه العامة بصورة صريحة حتى هاجموا سجنه وحاولوا إخراجها بالقوة ، فأقلت زمام الأمر من يد المعتزلة ولم يكديستتب لهم بعد ذلك . (٨٣)

والعامة تحكم بالظاهر وتحكم بمواقفها دون الالتزام بمنهج علمي ، ولذلك فقد يتوقى العلماء من تدخل هؤلاء في مناقشاتهم ، لا سيما تلك التي كانت تجري على مسجع من العامة في المساجد . قيل حين جاء سيبويه من البصرة إلى مدينة السلام ، أي حلقة الكسائي وفيها غلمانه الفراء وهشام ونحوهما . فقال الفراء للكسائي : « لا تكلمه ودعنا وإياه فان العامة لا تعرف ما يصري بينكما ، وتغليبها بالظاهر ، فدعنا وإياه .. » (٨٤) . ولعل ما كان يخشاه الفراء هنا هو أن يشبك الكسائي مع سيبويه في المسجد . - وهو محل عام يرد الناس بجميع طبقاتهم - وقد عرف الكسائي بفضلهم ومنزلته في بغداد ، فإذا ناظره

(٨٢) المصدر نفسه ، ج ١٦ ص ١٢٢ .

(٨٣) من أحداث الحنة ، راجع :

W. M. Patton, Ahmad b. Hanbal and al-Mihsa, (Brill - 1897)

(٨٤) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٩٧ .

وجلس للتدريس هناك ، املى كتابه (الامالي) كله من حفظه . (٨٦) ومع نباهته وعلو شأنه يمرض يوما للامتحان ، اذ نراه يخطيء في اقامة وزن بيت من الشعر كان قد رواه مستشهدا به في بعض مذكراته مع الادباء ، فانشد بيت عبدة بن الطيب .

نمت قمنا الى جرد مسومة

اعرافهن لايدنا منادبل

فانشد مخرج البيت على هذه الصورة : (اعرافها لايدنا منادبل) .

فانكرها ابن رفاعه الالبيري ، فاستعاد البيت مرتين ، وانشده ابوطي على هذه الصورة ، فلوى ابن رفاعه عنه منصرفا وقال : مع هذا يوند على امر المؤمنين وتجنشم الرحلة العظيمة ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس ، لا يغفل الصبيان فيه . والله لايمتته خطوة . وانصرف من الجماعة (٨٧)

وهذا المبرد ، من اشهر علماء البصرة في النحو ، واولقهم في نحو سيبويه ، يطلب من قبل عيسى بن ماهان ، فيرد عليه من المراق وقد ذاع صيته فيها ، بعد ان اتصل بالخليفة المتوكل وبسالة عيسى بن ماهان ، ذات مرة ، عن معنى (الشاة المجشمة) ، فيقول ، هي الشاة القليلة اللبن ، مثل اللجنة وبسالة من شاهد ، فيأبى بقول راجح :

لم يبق من آل الجعيد نسمة

الا غنيل لجبة مجشمة

ثم يدخل على ابيه ابو حنيفة الدينوري فيسأله عن المعنى فيقول في الشاة المجشمة ، هي التي جشمت على ركبتيها ونحرت من قفاها نقيل له ، كيف تقول وهذا شيخ العراق ابو

انت ووضعتة خطأ ، تسألني واجيب . ورفعت صوتي نسبح العامة فصاحتني ونظروا الى لكتنته فقالوا : لو غلب الاصمعي سيبويه ، قسرتي ذلك ، فقال لي ، اذا علمت انت يا اصمعي ما نزل بك مني ، لم التفت الى قول هؤلاء . ونفض يده في وجهي ومضى . ثم قال الاصمعي ، يا بني فوالله لقد نزل بي منه شيء وددت اني لم اتكلم في شيء من العلم . (٨٥)

لقد كان العلماء المسلمون يتعرضون لامتحانات قاسية تعرض فيها معارفهم للاختبار بصورة مختلفة . ولا اقصد بهذا تلك القابلات التي كان يجريها الخلفاء لجملة من العلماء ليختاروا منهم مؤدبين لاولادهم ، فهي كثيرة وترد في كتب تاريخ الادب ، وقد كاد كل عالم ان يتعرض لها لاسيما النحاة .

ان الطريف من هذه الامتحانات هي تلك التي يقوم بها العلماء بعضهم لبعض في المجالس العلمية بسبب تلك المنافسة على المنزلة العلمية ، وليس هناك مؤسسة مسؤولة عن منح القاب علمية او منح رتب معينة ، ولذلك يترك الامر للنتائج التي تترب على هذه المناظرات او التحديات التي يتبادلها العلماء . وقد كان لبعض المناظرات اثر عظيم في تقرير مصير العلماء - كما سيكتبين لنا بعد .

ان نباهة عالم من العلماء في اى علم تعرضه لهذه التحديات العلمية ، ويحرص العالم هو ايضا على ان يحافظ على اسمه ومنزلته ، اذ ليس هناك منزلة يوصل اليها ويوقف عندها ، فتؤخذ بالتسليم له . اذ لا يزال العالم معرضا للامتحان حتى اخر رفق من حياته ، حتى وان بلغ املى مرتبة في العلم والمعرفة . فهذا ابو على القالي يعد من ائمة اللغة والادب ، وكان احفظ اهل زمانه ، حتى انه حين استبدى من المشرق الى الاندلس

(٨٥) سجع الادباء ، ج ١٦ ص ١٢٥ .

(٨٦) ذكر القالي ذلك نصا في مقدمة كتابه ، الامالي ج ١ ص ٢ .

(٨٧) نفع الطيب ، ج ٢ ص ٢٩ ، عن مقدمة الامالي بقلم الاصمعي .

تعليمات لم يكونوا قد سمعوا بها . وبعد ان يجتاز هذا الامتحان العلمي ، يحل من المصاحب محلا رفيعا فيخلع عليه ، ثم يبدأ باستشارته ، ويطلب اليه ان يؤلف له كتابا في الامراض التي تعرض من الراس الى القدم ، ثم يمنحه عليه - بعد اتمامه - الف دينار فكان جبرائيل كثيرا ما يفخر قائلا صنف مائتي ورقة اخذت منها الف دينار (٩٠)

وما دامت هذه المناظرات تقوم مقام امتحان تقرر مصير العالم نتاجه ، فلا حجب ان تعقد عليها اهمية عظيمة ، وتقوم بتنظيم وعلم سابق ويعين لها تاريخ معلوم . فهي اشبه بمناقشات الرسائل الجامعية التي تقيمها بعض الجامعات في عصرنا هذا . لكنها غير مقصورة على المتدربين في اول درب البحث العلمي ، بل تعرض لها كبار الشخصيات العلمية الذين قطعوا من الدرب شوطا طويلا . ولقد اشتهرت مناظرات في تاريخ الحياة العلمية الاسلامية ، كان لها شأنها في توجيه الحياة هذه . وتتركز هذه المناظرات بجملة سمات ، بشهرتها وتنظيمها وبناتجها الحاسمة . واسبق هذه المناظرات زمانا المناظرة بين سيبويه والكسائي .

تتفق المصادر الاسلامية على امور تتصل بهذه المناظرة وتختلف في امور ، تبعا لميل المؤلفين نحو البصريين أو الكوفيين .

فسيبويه النحوي البصري ، نشأ وثقف في البصرة ، واتقن النحو وهو شاب وكانت له حقة في شتى المعارف الادبية وهو في مستقبل العمر . (٩١) ولم يكن قد اكمل ببغداد او بالخلافة قبل هذه المناظرة . اما الكسائي ، وهو من قراء الكوفة وشيوخها في النحو ، فقد كان قبل المناظرة مؤدبا في بلاط الرشيد لولديه الامين والمأمون ، وقد صحب الرشيد حتى موته .

العباس المبرد يقول هي مثل اللجة وهي قليلة اللبن ، وانشد البيت . فقال ابو حنيفة ، ايمان البعثة تلزم ابا حنيفة ان كان الا لسامته هذه . هذا التفسير وان كان البيت الا لسامته هذه . فقال ابو العباس المبرد ، صدق الشيخ ابو حنيفة اتفت ان ارد عليك من العراق وذكرى ما قد شاع فاول ما تسألني منه لا امره (٨٨) . فهذه المواقف شديدة على العلماء .

ونسمع ان المعنى بالادب من الامراء والقواد كان اذا دخل بلدا قام بجمع علمائه في مناظرات علمية ومجالس تنظم لهذا القصد ، لكي يختار منهم صفوة يتخلد بهم نصحاء وحاشية ، ولكي يفاخر بهم بقية الحاكمين . فهذا ابو الفتح ابن العميد حين دخل بغداد عقد مجالس مختلفة للفقهاء يوما ، ولادباء يوما وللمتكلمين يوما ، وللفلاسفيين يوما وفرق امورا خطيرة وتفقد ابا سعيد السيرافي وعلى بن عيسى الرماني وغيرهما وعرض عليهما المسير معه الى الري . (٨٩) . ولعل هدفه من ذلك ان يباهي بهؤلاء المصاحبين مباد وغيره من خصومه الوزراء والامراء البويهيين الذين جمعوا حولهم حاشية من العلماء .

وحين تعرض للمصاحب بن عباد حاجة لطبيب من الاطباء ، يكتب الى عضد الدولة في بغداد ان يتمس له طبيبيا ، وبعد السؤال والمشاورات ، ينصح ان يبعث بابي عيسى جبرائيل لا لملحه بالطلب فحسب ، بل لانه متكلم جيد الحجة عالم باللغة الفارسية ، وكأنه يختار عالما للمناظرة والاحتجاج لا للعلم بالطلب فقط . قلما وصل الى الري لقيه المصاحب وانزله احسن منزل ، حتى اذا مضت على اقامته مدة اسبوع اهد له يوما عنده اهل العلم باصناف العلوم وربب لمناظرته انسانا من اهل الري . فيسأله هؤلاء في مسائل تتصل بالطلب فيشرحها لهم شرحا وافيا ، ويطلب

(٨٨) انباء الرواة ، ج ١ ص ٤١ .

(٨٩) مثالب الوزيرين ، ص ٢٧٠ - ٢٢ .

(٩٠) عيون الاثبات ، ص ٢١١ .

(٩١) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٩٧ .

فلماذا ترى تقوم مناظرة بين عالين بهائين
التزلتين ، هل الغاية منها أن تقرر منزلة البصرة
من الكوفة في النحو ؟ . هل تكن وراءها مصلح
شخصية تروى الى الشهرة والتباهة ؟ .

تقول بعض المصادر ان سيبويه قصد يحيى
بن خالد البرمكي ، وزير الرشيد ، فقال له :
« جئت لتجتمع بيني وبين الكسائي » . وتختلف
الروايات في رد يحيى البرمكي على سيبويه ،
فينقل ياقوت عن جماعة من نحوي الكوفة
والبصرة بينهم البرد ولعلب ان يحيى رد عليه
قالا : « لا تفعل فانه شيخ مدينة السلام وقارئها ،
ومؤيد ولد امير المؤمنين » ، وكل من في المص له
ومعه » (٩٢) . ونفهم من كلام يحيى البرمكي ان
هناك محاذير من التعرض لشيخ في منزلة كمنزلة
الكسائي ، ليس عند الخليفة وحده بل عند اهل
بغداد ، اذ ان « كل من في المص له ومعه » . وفي
هذا مجازفة تكفي لمنع شاب قدم بغداد وحده
وليس له فيها مؤيدون . لكن البغدادي ينقل
روايته عن رواة الكوفة وحدهم ، فيأتي فيها رد
يحيى بصورة مختلفة ، اذ يقول لسيبويه :
« الكسائي مثنا رجل عالم لا يمتنع من مناظرة
احد ، وأنا اقدم اليه في الحضور » (٩٣) .
والفرق بين الجوابين اوضح من ان يدل عليه .

على ان بعض المؤرخين المتأخرين يذهب الى ان
يحيى البرمكي هو الذي اراد أن يجمع بينهما
لانهما اماما الكوفة والبصرة في زمانه . فجمع
بينهما قصدا - (٩٤)

واخيرا يعين يوم للمناظرة بعد ان يستأذن

الخليفة في ذلك ويدي كلا الطرفين . ويبدو ان
سيبويه لم يكن في صحبته احد من اصحابه او
من مؤيدي مذهبه ، « قلما كان ذلك اليوم » ، فلما
سيبويه وحده الى دار الرشيد « (٩٥) . وكان
الكسائي قد احاط تلاميذه علما فحضر منهم جماعة
قبل حضور شيخهم ، كان منهم القراء والاحمر
وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان . . (٩٦) .
ولقد ساعد هؤلاء التلاميذ على توهين قسوى
خصمهم اذ بدأوا بمناظرته واثاء المسائل عليه ،
قبل حضور شيخهم الكسائي . ولم يقف الامر
عند حد المناقشة بل تعداه الى التعريض والاثارة ،
اذ كلما اجاب سيبويه بجواب ، قال له الاحمر
« اخطأت يا بصرى » ، على مسمع من المجلس
كله ، فغضب سيبويه وقال « هذا سوء ادب » ،
وامتنع عن المناظرة حتى يحضر الكسائي . واخيرا
يحضر الكسائي ، وكأنه يدخل حلبة للمصارعة بعد
ان وهنت شوكة خصمه ، وتبدأ المناظرة بينهما ،
ويختلفان في المسألة النحوية المشهورة ، لم تقوم
قضية ، اذ من سيحكم بين الطرفين وهما عالما
مصريهما . ويقال انهما رجعا الى بعض الاعراب
الذين يوثق بفصاحتهم ، فيحكم هؤلاء بما يراه
الكسائي ويردون قول سيبويه . وهنا نسمع
اتهامات البصريين توجهت الى الكوفيين . فقد
ذهب اصحاب سيبويه الى ان « الاعراب الذين
شهدوا للكسائي من اعراب العظمية الذين كان
الكسائي يقوم بهم وياخذ عنهم » (٩٧) . وقد
قيل اكثر من ذلك في وصف نتيجة المناظرة ، يقول
ياقوت « وتمصبوا عليه وجعلوا العرب جعلاء حتى
واقفوه على خلافه . . » (٩٨) بينما يرد
الكوفيون على رواياتهم بقولهم « فقال بعض

(٩٢) معجم الادباء ، ج ١٦ ص ١١٨ - ٢١ .

(٩٣) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٠٤ .

(٩٤) الباء الرواة ، ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٩٥) معجم الادباء ، ج ١٦ ص ١١٨ .

(٩٦) المصدر نفسه . لكن البغدادي لا يذكر من تلاميذ الكسائي الذين حضروا غير القراء والاحمر .

(٩٧) معجم الادباء ، ج ١٦ ص ١٢١ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ١١٦ .

فأبو بكر الخوارزمي يعد من أشهر أدباء القرن الرابع الهجري ، طلب الأدب وقام بنشره وكان له أتباع . وقد تقلب في البلاد بين العراق والشام وفارس ، واتصل برجال عصره ، فلقى سيف الدولة الحمداني وخدّمه ، ثم مضى إلى بخارى فنيسابور فسيستان . وقد كان مفضلاً عند صاحب بن عباد ، حتى لقد جعل له صاحب رسماً يصل إليه كل سنة ، وهو مقيم بنيسابور (١٠١) وقيل عنه أنه « كان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً » ، ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلته يتعرض لظروف قاسية في حياته ، وهيات هذه الظروف جوا من التألم عليه ، ساعد عليه إعلان الخوارزمي عن رأيه في سياسة بعض القواد ، إذ كان « بغض من سلطان خراسان ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه » - كما يقول الثعالبى - (١٠٢) . إلى أن كانت أيام تماش الحاجب ورجع من خراسان إلى نيسابور منهزماً . فشمّت به وجعل يقول ، قبّحاً له وللوزير أبي الحسن العتبي ، أ ، فأمر هذا بمصادرة أمواله وقطع لسانه . وقبض عليه فعلا وأخلت أمواله ، إلا أنه استطاع أن يهرب إلى صاحب بن جرجان . وحدث أن قتل العتبي وقام مقامه أبو الحسين المزني ، وكان من أشد الناس حبا للخوارزمي ، فاستدعاه وأعاد إليه ما أخذ منه فأرفع شأنه عند ولاية نيسابور . وإن كان بعض وجوه نيسابور ظلوا مستوحشين منه . (١٠٣)

أما بديع الزمان ، فقد كان حين لقائه للخوارزمي ، أدبياً شاباً لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر ، يطلب الشهرة وقد استقرت أصولها عند الخوارزمي ، ويطلب التقرب من حكام عرفهم الخوارزمي وكان ذا مثولة رفيعة عندهم .

نما هو الطريق نحو الشهرة والمثولة ، ولم

الجهال أن الكسائي وإطاع الأعراب من الليل حتى تكلموا بالذي أرادوه . وهذا قول لا يرجع عليه لأن مثل هذا لا يخفى على الخليفة والوزير وأهل بغداد أجمعين » (٩٩) . فالكونيون فخورون بشيخهم ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن بدرة المال التي دفعت إلى سيبويه لم تكن من يحيى البرمكي بل كانت من الكسائي نفسه ، أو بإيعاز منه ، وكأنه أشفق على سيبويه بعد ما لحقه من خزي الخيبة والفشل .

لقد كان لهذه المناظرة أثر ظلل يذكره الرواة حتى عصرنا هذا . ولعل من أهم آثارها عندنا ، ما أصاب سيبويه نفسه من خيبة وألم ، حتى لقد خرج وصرف وجهه تلقاء فارس ، وأقام هناك حتى مات فعما بالدر ، ولم يلبث إلا يسيراً ولم يعد إلى البصرة . ولهذا القول ، عندى ، احتمالان هما : إما أن المناظرة كانت من الأهمية في حياة العالم بحيث أنها توشك أن تقرر مجرى حياته ، لا العلمية فحسب بل حتى مصيره . أو أن الرواة المؤيدين للبصريين قد زادوا في وصف أثر المناظرة في سيبويه نفسه فجعلوها سبباً في موته فعما وهو لا يزال في مرحلة مبكرة من حياته ، إذ تذهب هذه الروايات إلى أنه مات ولم يبلغ الأربعين من العمر . (١٠٠) وأنا أرجح الاحتمال الأول ، وذلك لأهمية هذه المناظرات العامة في الحياة العلمية ، ودليلنا على ذلك أمثلة أخرى من هذه المناظرات التي سجلتها لنا كتب تاريخ الأدب من كل عصر .

ففي القرن الرابع الهجري تجرى مناظرة لا تقل أهمية من هذه المناظرة ، وهي شبيهة بها من جهات كثيرة ، ومختلفة عنها في أمور أخرى . تلك هي المناظرة بين بديع الزمان الهمداني وأبي بكر الخوارزمي التي كان لها شأن عظيم في حياة هذين الرجلين .

(٩٩) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٠٤ (رقم الترجمة - ٦٥٤٤) .

(١٠٠) صحيح الأبناء ، ج ١٦ ص ١١٥ .

(١٠١) نيتة المهر ، ج ٤ ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ - ٩ .

فعل الكسائي - يتقدم اليه بنفسه . وكأنه قرين له أو مساو لمنزلته . وهذا يكفي اعترافا ضمنيا لا قراره له بالمنزلة المادلة له ، وهو الأديب الشيخ الذي أقر الرؤساء له بالمنزلة . لكن يبدو أنه لم يكن للخوارزمي يد من ذلك .

وستستمر المناظرة بينهما أكثر من يوم . فبعد اللقاء الأول تدوم المناظرة حتى وقت متأخر من الليل ، حتى بات القوم في مجلسهم وقد غلب عليهم النعاس ، ثم أصبحوا فثفروا .

ويقوم البدیع بمناورة أخرى محاولا إصداق الظفر للجولة التالية ، وقد وثق من نفسه بعد أن وجد الجو ملائما له . فيزور أبا بكر ويعتدل اليه عما يدور منه في مناقشته الأولى فيتصافيان . ويبدو أن الجو تهيأ فعلا لبدیع الزمان عند أهل نيسابور ، إذ كان « بعض الرؤساء مستوحشاً من الخوارزمي وهياً مجعماً في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير » (١٠٦) ، وكان ذلك للمرة الثانية ، وحضره جماعة من العلماء . وقبل بدء المناظرة يلتقي بدیع الزمان قصيدة في مدح آل البيت ، متقرباً بها من شيوخ المجلس .

وتبدأ المناظرة بينهما في مسائل أدبية وشعرية ولغوية . وأو صدقنا ما نقله الروايات من وصف لهذه المناظرة ، لرأينا مدى غلبة صلف الشباب واندفاعه على بدیع الزمان ، وقد وجد الاسماع تنحدر اليه . وأذكر مثلاً على ذلك هذا الجزء من المناظرة :

ينشد بدیع الزمان البيتين التاليين :

سهلاً أبا بكر فزئلك اضيق
وأخسر فأن أخلك حسى يزرق
يا أحقما وكفلك تلك فضيحة
جبروت فار مصرى هل تحرق

لا يتحدث أدبياً وشيخاً معروفاً ، ولم لا يكون هذا المتحدث على مشهد من علماء عصره ؟؟ . انتهى فرصة إذا خسرها لم يضر إلا جولة ، وهو لا يزال شاباً في أول التدريب .

إن أول مناورة يقوم بها البدیع في هذه السبيل هي أنه حالماً وصل إلى نيسابور ، وقد عاد إليها الخوارزمي واستقر بها ، كتب اليه كتاباً بالتعظيم والتبجيل في المخاطبة يطلب فيه لقاءه . وبعد أن يلتقي به أول مرة ، يكتب بدیع الزمان كتاباً آخر اليه يعاتبه فيه على سوء قتاله . (١٠٣) ويعتدل الخوارزمي اليه ويتكاتبان باللقاب التعظيم والمخاطبة ، ب (الشيخ سيدى) و (الاستاذ سيدى) ، التي على المبالغة فيها ، لا تعني شيئاً خاصاً ، لأنها سمة من سمات التاديب التي عرف بها العصر ، وهي مالوفة في المخاطبات الفارسية بصورة خاصة . وقد أثبت ياقوت رسائلهما بهذا الشأن . (١٠٤)

ولا يكتفي البدیع بذلك بل يسمى إلى لقاء الخوارزمي في مجلس عام . ويبدو أن هناك اتجاهاً في نيسابور كان يسمى لتحدث منزلة الخوارزمي ، يقول أبو الحسن بن أبي القاسم البیهقي « وأما البدیع الهمداني قوم من وجوه نيسابور كانوا مستوحشين من أبي بكر ، فجمع السيد تقي السيادة في نيسابور أبو على بينهما وأراداه (أى أبا بكر الخوارزمي) على الرياسة ، وداره بأعلى لقاء فترفع ، فبعث اليه السيد مرقويه . » (١٠٥)

وهكذا يشطر الخوارزمي إلى لقاء هذا الأديب الشاب في ظروف لم تكن صالحة تماماً ، كما كانت للكسائي عند قتاله مسيبويه . ويحضر الخوارزمي تحيط به جماعة من تلاميذه ، لكنه بدلاً من تقديم بعض تلامذته الحليلة أولاً - كما

(١٠٣) معجم الأدباء ، ج ١ ص ١٨٦ - ٨٧ .

(١٠٤) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٧ - ١٨٨ - ١٩٦ .

(١٠٥) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٣ .

(١٠٦) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٩ .

هذا هو شأن هذه المناظرات في الحياة العلمية لهذه العصور . ولا يقل شأنها عن مناقشات الرسائل العلمية في عصرنا ، بل لقد كان أثرها أبعد وأسبر غورا ، لأنها شملت ذوى المكتبة والتمرس في العلم ولم يسلم منها الشيوخ ، ولم يكن أثرها بأقل شأنًا في تقرير مصيرهم عند معاصريهم .

لقد شملت هذه المناظرات أصحاب العلوم والمناهج المختلفة ، ولم تقتصر على المختصين بعلم واحد . ولقد شهد القرن الرابع الهجري أصنافًا من هذه المناظرات كان لها من الصيت ما جعلها تفرض نفسها على المؤلفين فرغسا ، فنقلت بدقة أكبر لأنها دونت أثناء جريانها . ولعل من أشهر مناظرات هذا القرن ، تلك المناظرة التي قامت بين شيخين ، لكل منهما - في علمه الذي اختص به - منزلة لا تقل عن منزلة صاحبه . وقد زاد من قيمة هذه المناظرة أن آراء هذين الشيخين تمثل اتجاهين بارزين في هذا العصر . وقبل الحديث عن هذا الأمر لا بد من عرض شيء يتصل بهما .

الشيخان هما : الحسن بن عبد الله أبو سعيد السمرقي ، العالم النحوي المعروف . قال عنه ابن الأثير : « أنه كان من أكابر الفضلاء وأفاضل الأدباء ، زاهدا لا نظير له في علم العربية . وكان أبوه مجوسيا . وصنف تصانيف كثيرة أكبرها (شرح كتاب سيبويه) ولم يشرح كتاب سيبويه أحد أحسن منه . ولو لم يكن له غيره لكفاهه فضلا ... » (١١٠) . وكان ممن أظم الناس بنحو البصريين . وقد فضله أبو حيان التوحيدي على كثير من نحوي عصره لأنه أجمع لشمل العلم وانظم للمذاهب العرب وأدخل في كل باب وأخرج من كل طريق والزم للجدادة

والتمريض بأي بكر الخوارزمي ، في هذين البتين لا يحتاج إلى الدلالة عليه والإشارة إليه . ومع ذلك ، تقول الرواية ، أن الخوارزمي قال : « يا أحمتقا ، لا يجوز فاته لا ينصرف » . فيجيبه البديع : « لا نوال نصفك حتى ينصرف وتنصرف معه » (١٠٧)

ولو صح هذا الأمر فانه خروج ظاهر على أدب المناظرة ، لا سيما إذا كان يصدر من منظر شاب نحو شيخ كبير السن . ولا أدري كيف يسكت أهل المجلس على سوء الأدب هذا ، وبخاصة إذا علمنا أن المناظرات كانت تلتزم بأداب معينة مرسومة كان على الطرفين أن يراعيها . إلا أن يكون هناك تواطؤ على إحراج الخوارزمي . أما آداب المناظرة ، فسامري لها فيما بعد ، وهي أن دلت على شيء فالتمنا تلي على نضوج العلم والعناية به ، حتى إذا بلغنا القرن الرابع للهجرة ، رسخت كثير من عاداته وأصبحت قواعد يلتزم بها .

ولا يتكفي البديع بهذا حتى يهزأ بالخوارزمي على مسمع الناس وفي مشهد منهم ، إذ يقال أنه قام وقبل رأس الخوارزمي ويده وقال « أشهدوا أن الغلبة له . قال ذلك على سبيل الاستهزاء » (١٠٨) .

لقد كان لهذه المناظرة آثار بعيدة في حياة هذين الرجلين ، فالخوارزمي يذهبون إلى أن نجم بديع الزمان قد تالق على أي ذلك ، وقد خلا له الجو ، وخاصة بعد موت الخوارزمي الذي قيل عنه أنه « عاد إلى بيته وانخزل انخزالا شديدا واتكسف باله وانخفض طرفه ، ولم يعل عليه الحول حتى خاته عمره ، وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ... » (١٠٩) . وكان مولده في سنة ٣٢٣ هـ .

(١٠٧) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٦ .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٨٢ .

(١٠٩) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٨٠ - وثيقة العصر ، ج ٤ ص ٢٠٩ .

(١١٠) نزهة الإياد ، ص ٢١١ - ١٢ .

فالفيلسوفون (وآلهم النحو) يرون جانباً من الحقيقة يختلف عما يراه الفلاسفة (وآلهم المنطق) منها . والمفاضلة تجري بين هاتين الآلتين .

ورب سائل يسأل : ما هي المناسبة بين النحو والمنطق حتى يقوم شيخان من شيوخ هذا العصر ليتناظرا فيهما ؟ . ولعل الإجابة على هذا السؤال تكمن في طبيعة النشاط العلمي لهذا العصر وظروفه المحيطة به .

يمتاز القرن الرابع الهجري بنشاط ملحوظ في العلوم العقلية وباتجاه المشتغلين بهذه العلوم إلى الاستفادة من الفلسفة اليونانية بنطاق واسع تأسست على أثره قواعد الفلسفة الإسلامية مستقلة شيئاً فشيئاً عن الدراسات الدينية والعلوم الشرعية والعقلية . ولقد كان أكثر القائمين بهذا النشاط الفلسفي ذوي ثقافة يونانية أو اطلاع على العلوم اليونانية بواسطة السريانية . ولقد أدى هذا النشاط إلى ضرورة التمييز بين منهج العلوم العقلية - وعلى رأسها الفلسفة - ومنهج العلوم الشرعية - وعلى رأسها الشريعة - ثم التفسير واللغة ، وهو منهج يختلف في السبيل التي يسلكها إلى الحقيقة . ولقد عيب على بعض متكلمي هذا العصر خلطهم بين المنهجين ، إذ تناولوا الشريعة والفلسفة بمنهج واحد ، فلم يأتوا بشيء . ولعل ما قام به أخوان الصفا للتوفيق بين العلوم المختلفة والفلسفات والأديان والمقائد يقف مثالا بارزاً على هذا الخلط المقصود بين مناهج متعددة المجالات . ولعل خير من مير عن هذا التمييز بين منهج الشريعة والفلسفة ، أبو سليمان السجستاني المنطقي ، وقد مر بنا

الوسطى في الدين والخلق ، وأدرك في الحديث وأقصى في الأحكام وافقه في الفتوى وأحضر بركة على المختلفة وأظهر أثرها في التنبؤ . (١١١) .

أما الطرف الآخر في المناظرة فهو متى بن يونس القناني ، وهو من العلماء النصارى ، وصفه القناني بأنه عالم بالمنطق شارب له ، مكث وطيد الكلام قصده التعليم والتفهم ، وعلى كتبه وشرحه اعتماد أهل هذا الشأن في عصره ومصره (١١٢) . وقال عنه ابن النديم أنه من أهل دير قنن من نسا في أسكول مرماري . . . وأليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره . (١١٣) . ويبدو أن شروحه في المنطق يعول عليها الناس في القراءة . وقد نقل عن السريانية وشرح كتب المنطق اليوناني . (١١٤)

فالمناظرة إذن بين نحوي ومنطقي . أما موضوع المناظرة فهو المفاضلة بين النحو والمنطق . وليس هناك من شك في أن محاولة كهذه قد جرت فعلاً . (١١٥) فهي فضلاً عن وصولها إلينا بدقة ، لأن الزادتين أحضرنا محابره والواحد كتبوها عندما كانت تجري ، (١١٦) وفي هذا من الدليل ما فيه على ما يلقاه العلماء من الأهمية على هذه المناظرات . أقول ، فضلاً عن ذلك ، ليس بغيره أن تقوم مفاضلة بين النحو والمنطق بين شيخين من شيوخهما ، لأنها تعبر عن الدفاع عن منهجين مختلفين من مناهج الفكر في هذا العصر . كل منهج يتخذ آلة معينة للتوصل إلى الحقيقة التي يطمح إليها ، وبالتالي ينظر إلى الحقيقة من الوجهة التي توصله إليها وسيلته .

(١١١) الاتع والمجانسة ، ج ١ ص ١٢٩ .

(١١٢) تاريخ الحكماء ، ص ٢٢٢ .

(١١٣) الفهرست ، ص ٣٨٢ .

(١١٤) تاريخ الحكماء ، ص ٢٢٢ .

(١١٥) انظر المقالة التي كتبها المستشرق Margolio.th مناقشا مدى صحتها التاريخية في :

Journal of the Royal Asiatic Society. (1905) PP. 79-91

(١١٦) الاتع والمجانسة ، ج ١ ص ١٢٨ .

العلماء في هذا القرن للاطلاع على ما ينسخ من كتب في دكاكين الوراقين . كانوا يلتقون فيها فيلقى بعضهم على بعض مسائل يختبرون فيها علمهم وقابليتهم على المناظرة . ومن هذا المعين الزاخر استقى أبو حيان التوحيدى مادة كتبه ، فجايت مقعمة بتلك المناظرات التي كانت تدور في كل مناسبة بين اصحاب المذاهب المختلفة .

ومن اقرب هذه المناظرات الى الموضوع الذي نحن فيه ، تلك المناظرة التي تدور بين المقدسى (وهو أبو سليمان محمد بن ميمش البيهقي) والحريري (غلام ابن طرارة) في المفاضلة بين الشريعة والفلسفة . وقد اتيها أبو حيان في الامتاع . (١١٩)

اما مناظرة السيراقي ومتى بن يونس ، فهي على اهميتها لم تقرر شيئا في مصر النحوي او المنطق . ولعل اول ما يلتفت النظر في هذه المناظرة انها مرتجلة لم تها بسابق موعد ، ولم يتبع المتناظران منهجا مرسوما ، ولذلك قد تبدو المسائل فيها مرتبكة وغير واضحة العلاقة .

جرت المناظرة في مجلس الوزير ابن الفرات ، وزير القنطرة . وكان ذلك سنة ٣٢٦ هـ .

وقد حضر المجلس جمع من جلة العلماء . ويبدو ابن الفرات اصحاب المجلس قائلا : الا يندب منكم انسان لمناظرة متى في حديث المنطق ، فانه يقول ، لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين ، الا بما حوينا من المنطق ومكنا من القيام به واستفدنا من واضعه على مراتبه وحدوده ، فاطلعنا من جهة اسمه على حقائقه ... فاجم القوم واطرقوا . (١٢٠)

ذكره في اول هذا البحث ، وهو ممن عني بالفلسفة وعاش في مقعمة هذا القرن . وقد كان أبو سليمان نفسه تلميذا لمتى بن يونس ، قرا عليه وتصدر لافادة هذا الشأن وقصده الرؤساء والاجلاء . وكان أبو حيان - كما رأينا سابقا - أحد المتصلين المعتصمين به . (١١٧) ولقد عرض أبو حيان عليه جملة من رسائل اخوان الصفا كان قد وجدها ماثورة في سوق الوراقين - كما يقول - ، فحملها الى شيخه ليعرف رايه فيها . فنظر فيها اباما واعادها اليه . وكان اول نقد يوجهه السجستاني الى هذه الرسائل قوله :

« تمبرا وما افنوا ونصبوا وما اجدوا وحاموا وما وردوا وفنوا وما طربوا ، ونسجوا ففهلوا ، ومشطوا فففلوا ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا انهم يمكنهم ان يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والافلاك والجسفي والقادير وكانار الطبيعة والموسيقى التي هي معرفة التفهم والايقاعات والنقرات والاوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الاقوال بالاضافات والكميات والكيفيات - في الشريعة ، وان يفسوا الشريعة الى الفلسفة .

وهذا مرام دونه حدد وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا احدث انبياء واحضر اسبابا واعظم اقدارا وارفع اخطارا واوسع قوى واولق عرا ، فلم يتم لهم ما ارادوه ، ولا بلغوا منه ما امثله وحصلوا على ثلوث قبيحة ، ولطخات فاضحة والقباب موحشة ، وهواقب مخزية واوراق مثقلة ... » (١١٨) فالفرق بين الشريعة والفلسفة فرق جوهري في المنهج الذي تسلكه كل منهما في الوصول الى الحقيقة . ومن هنا قام علماء هذا القرن بالمناقشة والمفاضلة بين هذين الاتجاهين في كل مناسبة . ولقد جرت تحديثات بهذا المعنى بين اصحاب الشريعة واصحاب الفلسفة في سوق الوراقين التي كانت اشبه بمنتهى يجتمع فيه

(١١٧) تاريخ الحكماء ، ص ٢٨٢ .

(١١٨) الامتاع والملائسة ، ج ٢ ص ٦ .

(١١٩) الامتاع والملائسة ، ج ٢ ص ١١ - ١٨ .

(١٢٠) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٠٨ .

ويبدو أن متى بن يونس كان مستبدا بهذا العلم وقد اثار حفيظة من حوله بكبريائه . ومع ذلك تهيب العلماء من مجابته في هذا المقام . فيعتنهم ابن الفرات على احجامهم وتزامزهم وتزامزهم ، وهو يمدح في العلم (بشارا) - كما يقول - . فيجيبه السرياني قائلا :

امدر ايها الوزير فان العلم المصون في الصدر غير العلم المروض في هذا المجلس على الاسماع المبخية والعيون المحدثه والمقول الحادة والالباب النافذة ، لان هذا يستصحب الهيبة ، والهيبة مكسرة ، ويحتجب الحياء ، والحياء مغلبة . وليس البراز في معركة خاصة كالمصاع في بقعة عامة (١٢١)

لكن السرياني ما يلبث حتى يقدم ، مترددا اول الامر ، ثم وثقا من نفسه بعد قليل . ويبدو ان تحيز المجلس له كان من الدوافع التي نشطته فدهش الحاضرين بتدقيقه بكلام ما كان يظن انه قادر عليه . وقد نقل علي بن عيسى الرمانى احد العلماء الذين حضروا المجلس ، وصفا لما انقض عليه المجلس ، يقول فيه : وتقوض المجلس واهله يتعجبون من جاش ابي سعيد الثابت ، ولسانه المتصرف ووجهه المتهازل وفوائده المتابعة (١٢٢) . ويسال ابو حيان على بن عيسى قائلا : اما كان ابو علي القسوى (وهو من ائمة النحر في هذا العصر ايضا) ، حاضر المجلس ؟ . قال ، لا ، كان غائبا ، وحدث بما كان ، فكان يكتم الحسد لابي سعيد على ما فاز به من هذا الخبر المشهور والثناء (١٢٣) .

والسبب في هذا التحاسد ان ابا علي كان هو الآخر ممن انصب على النصوص ، وكانت بينه وبين ابي سعيد السرياني مناقسة في هذا العلم . وقد قام ابو علي بشرح كتاب سيبويه

هو كذلك ، لكنه - على ما يقول ابو حيان - متقذ بانقبط على ابي سعيد وبالحسد له ، كيف تم له تفسير كتاب سيبويه من اوله الى آخره ، بقرينه وامثاله وشواهده واياله (١٢٤) . ولقد بلغت المناقسة بينهما حدا حتى ان ابا علي اشترى شرح ابي سعيد للكتاب الا ان اصحابه ابوا الاقرار بذلك وزعموا انه اراد النقص عليه واظهار الخطا فيه . ولعل هذه المناقشة بين هذين العالمين قد اثارت معاصريهما ودفعت احد امراء هذا العصر الى التفكير في الجمع بينهما في مناقرة عامة ايضا ، فلم يقض له ذلك - كما يقول ابو حيان - لان ابا سعيد مات في رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة . (١٢٤)

فالمناظرات في هذا العصر امتحانات علمية منظمة ، وتناجها تنتشر في الدوائر العلمية فتثير اهتمام جميع العلماء من حضر او لم يحضر المجلس . ويبدو من اخبار ابي سعيد السرياني التي ينقلها ابو حيان ، وهو تلعيده في النحر ، ان الشيخ قد تعرض لهذه الموافقات غير هذه . ويبدو انه لم يكن موافقا فيها جميعا . فقد جوبه بمسالة في مجلس ابي الفتح ابن العميد ذات مرة ، وقد تحداه العامري ، وهو احد فلاسفة هذا العصر ، مر بنا ذكره سابقا ، وواجهه بسؤال لم يكن يجول في ذهنه . لكن ابا سعيد تخلص من الجواب بلافة لسانية لا قيمة لها في الميزان العلمى او الفلسفى لهذا العصر . ويبدو ان ابن العميد نفسه قد التفت الى حرج موقف السرياني ، فادار دفة الحديث نحو وجهة اخرى . وقيما يلي الخبر عن ابي حيان لما فيه من طرافة في وصف هذه المواقف ، يقول :

انعقد المجلس في جمادى الآخرة سنة اربع وستين وثلاثمائة ، وفص بأعله . قرأت العامري

(١٢١) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(١٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

(١٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

(١٢٤) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٢١ .

العالية ، لا يزال يعرض لهذه الامتحانات العلنية .

لقد اصبحت المناظرات ذات شان في القرن الرابع ، تخضع لنظام واضح المعالم ، لا يقل في درجة نضوجه ، من نظام (المناقشات الاكاديمية) التي تعرف في الجامعات اليوم بـ (Seminars) ولست اقصد الى المبالغة فيما اذهب اليه ، فقد اجتلب انتباهي في وصف هذه المناظرات ، وبخاصة في القرن الرابع ، أنها منتظمة تنظيمًا تخضع فيه لقواعد وآداب معينة لا بد أنها قد تطورت عبر العصور حتى وصلت الى صورتها الناضجة هذه . ولا شك ان العلماء قد توصلوا الى هذه القواعد العامة نتيجة لخبراتهم التي مروا بها في المناظرات المختلفة فمجالس العصور الاولى بسيطة ومباشرة ، وهي في الاقل ، لا تقوم بسابق تنظيم ، فكانت تجري في حلقات المساجد والمجالس العامة عرضاً . حتى تنبه الى اهميتها بعض الخلفاء ، فاصبحت تعقد بسابق علم . ولعل المأمون من اوائل الخلفاء العباسيين الذين عنوا بالجدل وباقامة مجالس خاصة لهذا الغرض . وربما شارك هو نفسه في ادارتها وتوجيهها . وما تلبث هذه التحذبات ان تنتقل من (المنافرة) العاطفية المرتجلة التي تقوم على اساس أخرى ، الى (المناظرة) التي تقتضى التخصص العلمى والتعمق في هذا التخصص ، والتعرف على جميع دقائقه . لان النتائج المترتبة عليها اصبحت عامة ولم تعد فردية ، واصبحت تعبيراً عن المدارس الفكرية والعلمية وعن المنافسة الشديدة بين مناهجها المختلفة . ولقد كان للمعتزلة الفضل الاول في العصر العباسي في احلال الجدل هذا المكان الاول في مجالسهم . وقد ادرك المتجادلون بخبرتهم ان هناك قواعد يجب ان تخضع لها الاطراف المتجادلة ، اذا كانوا يطلبون الحقيقة ، وهي مطلب العالم ، لا الاتالة العاطفية التي هي اولى بالعمامة . وتسمع من آداب المناظرة قولهم : قبل لا يحيل الى الجلبة واللباج الا من عجز عن التلبه بالحجاج .

وقد انتدب نبال ابا سعيد السيرافي ، فقال ، ما طبيعة الباء من (بسم الله الرحمن الرحيم) ؟ فمجب الناس من هذه المطالبة ، ونزل بابي سعيد ما كاد يشده به . فانطقه الله بالسحر الحلال ، وذلك انه قال ، ما احسن ما ادبنا به بعض الموفقين من المتقدمين فانه قال :

وإذا خطبت على الرجال فلا تكن

خطل الكلام تقوله مختللاً

واملم بأن من السكوت لباسة

ومن التكلف ما يكون محالاً

والله يا شيخ ، لميتك اكبر من فراك ، ولراك اوفى من دخلتك ، ولنشورك أبين من مطوك . فما هذا الذي طومت له نفسك ، وسدد عليه راك . اني اظن ان السلامة بالسكوت تماك ، والفنيمة بالقول ترغب عنك . والله المستعان . « وهنا يتدخل ابن العميد ويظهر اعجاباً بالسيرافي فينشد ابياتا من الشعر لم يقول : هاتوا حديثاً آخر فقد شئنا من هذا . ثم اقبل على ابن فارس معلمه فقال ، شئنا من كلام اصحابك في الفرضة والشط . ثم يقول ابو حيان فلما خرجنا قلت لابي سعيد السيرافي ، ايها الشيخ ، رأيت ما كان من هذا الرجل الخطير عندنا ، الكبير في انفسنا . فقال ، ما ذهبت قط بمثل ما ذهبت به اليوم . ولقد جرت بيني وبين ابي بشر متى صاحب شرح كتب المنطق مسنة عشرين وثلاثمائة في مجلس ابي الفتح جعفر بن الفرات ، لمحة كانت هذه اشوس واخرس منها (١٢٥) . وكان العامري اخذ بثار المناطقة من النحويين . وبهذه المناسبة يحدث السيرافي ابا حيان بتفاصيل مناظرته مع متى (بروفيرا) ، كما يقول التوحيدي ، رغم مرور اكثر من اربعين عاماً عليها - كما جاء في تاريخ السيرافي لها . ومن الجدير بالذكر ان السيرافي الآن قد جاوز الثمانين من العمر . فهو ، على منزلته العلمية

وقال المأمون لهاشمي حضر مجلسه فنأظره
وشغب :

لا ترفع صوتك يا عبد الصمد
ان الصواب في الاسد لا الأشد (١٢٦)

وقيل « اجتمع متكلمان فقال احدهما ، هل
لك في المناظرة ؟ . فقال ، على شرائط : ان لا
تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تحكم ،
ولا تقبل على غيري وأنا اكلمك ، ولا تجعل الدعوى
دليلا ، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبي
الا جوزت الى تأويل مثلها على مذهبي ، وعلى
ان يؤثر التصديق ، وتناقد للعارف ، وعلى ان
كلامنا مثا بني مناظرته على ان الحق ضالته
والرشد غايته . . (١٢٧) .

ويبدو من مناظرات القرن الرابع انها لم تكن
تعقد بتعيين مسبق فنصيب ، بل هي منظمة
تنظيما دقيقا ، لا سيما اذا كانت المناظرة بين
مجموعة من العلماء ، لا بين شخصين فقط .
حينذاك نجد عالما يترأس المجلس ويقوم بترتيب
الكلام ، ويغطي المناظرين القرص المناسبة للسؤال
والرد . وهو أشبه بما يعرف متدنا اليوم برئيس
الجلسة (chairman) :

ذكر أبو حيان مجلسا شهده في عصره الدولة
في بغداد ، وكان يرأس الجلسة أبو الوفاء
المهندس . يقول أبو حيان : « ولقد رأيت أبا
عبد الله البصري في مجلس من الدولة سنة ستين
(يعني وثلاثمائة) ، في شهر رمضان . والجماعة
هنا أبو حامد المرورودي ، وأبو بكر الرازي ،
وعلي بن عيسى ، وابن نهان ، وابن كسب
الانصاري ، والأبهري ، وابن طراوة ، وأبو
الجيش شيخ الشيعة ، وابن معروف ، وابن أبي
شيبان ، وابن قريصة ، وثامس كثير . وهو في

أبو ان فسيح في صدره من حضروا من أجله .
وأبو السوفاء المهندس نقيب المجلس ومرب
القوم ((١٢٨) . ويبدو من كلام أبي حيان ان
رئيس الجلسة كان منحازا الى أحد الأطراف
المناظرة ، إذ كان مع أبي عبد الله البصري الذي
تحدثه القوم بجملة مسائل ، لانه كان قد كفرهم
وادعى مذهبا معينا . فلما وجد أبو الوفاء ان أبا
عبد الله البصري قد ارتبك ولم يعد قادرا على
الجواب ، تدخل ليعفيه من الإجابة ، محتجاً بأنه
مريض ويخشى عليه الانتكاس ، يقول :

« ثم قام لي بن عيسى الشيخ الصالح وقال :
هذا مجلس ينتهي بحضوره لشرفه ويفتخر بالكلام
فيه لكثرة من يعرف وينصف . والمخالطة فيه
مأمونة ، وليس في كل أوان يتفق هذا الجمع .
وبيننا وبين هذا الشيخ - يعني أبا عبد الله -
مسألة من أجلها ومن أجل نظائرها قد استجاز
تكفيرنا وتقسقنا والتشنيع علينا ، وتنفير
المقتسبين منا . وهانذا قد ابتدأت سائلا ،
فلينصر مذهبه كيف شاء ، وانما هو دين يجب
ان نبحث عنه من العارفين . فقال عز الدولة :
كلام منصف ، ما أسمع بأسا ولا أرى ظنة تحت
بذلك على الجواب . فاصفر أبو عبد الله وقلق ،
وفطن أبو الوفاء ، وكان ضلعه معه وصفوه له ،
فحال بينه وبين الأمر وقال ، الشيخ عليل ، وانما
حضر للخدمة ، وبعض علمانه ينوب عنه ، ولا
ينبغي ان يتعب فيحمي جسمه ، وبخاف نكسه
ويصير ما قصد من قضاء حقه في التجميل
بحضوره سببا للتألم » (١٢٩) .

ويمضي أبو حيان في نقل اجراء أخرى من هذا
المجلس . ومن الواضح انه يمي أهمية هذه
المجالس ، فلا يكتفي بنقلها في كتبه ، بل نجده
يعني عبارة خاصة بتاريخها بالسنة والشهر ،
بل واليوم ان أمكنه ذلك . ومن الطريف انه ، مع

(١٢٦) صحاحرات الأدباء ، (باتو - ١٩٦١) ، ج ١ ص ٧٧ .

(١٢٧) المصدر نفسه ، ص ٧٨ .

(١٢٨) مثالب الوزيرين ، ص ١٢٧ - ٢٨ .

(١٢٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

أشدها عليه تلك الخصومة بينه وبين صاحب وابن العميد التي أضاعت كثيرا من طاقاته العلمية، وفوت علينا أمورا أكثر طرافة وأهمية في هذا المجال . فقد اعتلر من نقل المناظرة مع أبي عبد الله ، مارة الذكر ، قائلا : « ولولا أن هذه الرسالة (يعني مثالب الوزيرين) لا تحمل المسألة والجواب ، بما فيها من فنون القول ، لأليت بالمجلس على وجهه » (١٢١) .

وهكذا نشأت الحركة العلمية في المصنوع العباسية ، وتطورت وسط معقدة من الخصومات العلمية التي لم تخل أحيانا من الاندفاعات العاطفية التي لا تخلو منها الحياة الإنسانية . ولذلك فهي ، بصورها المختلفة ، إنسانية في هيكلها وطبيعتها ، دفعت رغم كل شيء بالحركة العلمية إلى الأمام . وحملهم الله جميعا .

جيلة من الوراثين ، ربما أحضروا أوراقهم ومحاورهم فيقومون بنقل الحديث متناولين . فقد روى ذات مرة حديثا مفصلا للصاحب بن عباد عن أبي حامد المروزي . فيسأله صاحب كيف استطاع أن يحفظه ، فيجيبه قائلا « كنا جماعة نتماون على ذلك ويرسم في الواح » (١٢٠) . ولذلك تأتي كتب أبي حيان ، أحيانا كثيرة ، أشبه بمحاضر لهذه المجالس . فقد كان كتاب المقاييس تدوينا لما كان يدور في مجلس أبي سليمان السجستاني من محاورات بينه وبين فلاسفة عصره ، وهي محاورات لا تقل أهمية في طبيعة الموضوعات التي تطرقها ، عن محاورات أفلاطون . لكن مما يؤسف له أن أبا حيان ، على اهتمامه بهذه المناظرات ، قد اعتلر أحيانا من نقلها كاملة ، لأنه شغل بموضوعات أخرى ،



(١٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

(١٢١) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

- ١٨ - المرافب الأصمغاني - معاصرات الأدباء (بيروت - ١٩٦١) .
- ١٩ - روزنتال (فرانتز) - مناهج العلماء المسلمين ، ترجمة أنيس فريضة ، (بيروت - ١٩٦١) .
- ٢٠ - الزجاني (عبد الرحمن بن إسحاق) - مجالس العلماء (اثراث العربي - الكويت - ١٩٦٢ - تطبيق عبد السلام هرون) .
- ٢١ - السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) - بغية الوعاة (القاهرة - ١٩٦٤ / ٦٥) .
- ٢٢ - السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) - الزهر (ط - البابي الحلبي - سنة ؟) .
- ٢٣ - ابن الخططا (محمد بن علي) - الفهرست في الأدب السلطانية (صادر - بيروت - ١٩٦٦) .
- ٢٤ - الطيباوي (عبد اللطيف) - معاصرات في تاريخ العرب والإسلام (بيروت - ١٩٦٢) .
- ٢٥ - القالي (اسماعيل بن القاسم) - الأمالي (الكتب التجارية - بيروت - من طبعة دار الكتب المصرية) .
- ٢٦ - ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) - تأويل مختلف الحديث (القاهرة - ١٣٣٦ هـ) .
- ٢٧ - القفطي (علي بن يوسف) - انباء الرواة على انباء النحاة (القاهرة - ١٩٥٠ / ٥٢) تطبيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٢٨ - القفطي (علي بن يوسف) - تاريخ الحكماء (لبيد - ١٩٠٢) .
- ٢٩ - المبرد (محمد بن يزيد) الكامل في الأدب - مكتبة النهضة المصرية (١٩٥٦) .
- ٣٠ - ابن التميم (محمد بن إسحاق) - الفهرست (القاهرة - سنة ؟) .
- ٣١ - غاوت الحموي - معجم الأدباء (القاهرة - ١٩٣٦ / ٢٨) .
- ٣٢ - Patton (W.M.), Ahmad b. Hanbal and al-Mihna, (Brill-1897)

المصادر

- ١ - مقالة بمنوان (خواطر في الأدب العربي) من كتاب : 1. Gibb (H.R.A.), Studies on the Civilization of Islam, Routledge and Kegan Paul, 1962 .
2. Margoliouth, Journal of the Royal Asiatic Society, 1905.

- ١ - ابن أبي أصيبعة (مولى الدين أحمد بن القاسم) - عيون الأنباء في طبقات الأطباء (دار الحياة - بيروت - ١٩٦٥) .
- ٢ - أخوان الصفا - رسائل (بيروت - ١٩٥٧) .
- ٣ - الأثيري (كمال الدين عبد الرحمن بن محمد) - نزهة الألباء في طبقات الأدباء (مطبعة المعارف - بغداد - ١٩٥٩) .
- ٤ - بروكلمان (كارل) - تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد العظيم النجار ، (دار المعارف - القاهرة - ١٩٦١) .
- ٥ - البغدادي (أحمد بن علي) - تاريخ بغداد (مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٢١) .
- ٦ - البغدادي (عبد القادر بن طاهر) - الفرق بين الفرق (القاهرة - ١٩١٠) .
- ٧ - التوحيدى (أبو حيان) - الانتاع والمؤانسة (لجنة التأليف - القاهرة ١٩٥٢) تطبيق أحمد أمين وسيد صلي .
- ٨ - التوحيدى (أبو حسان) - مثالب الوزيرين (تطبيق إبراهيم كيلاني - دمشق - ١٩٦١) .
- ٩ - التتويحي (الحسن بن علي) - الفرع بمد الشكفة (بغداد - ١٩٥٥) .
- ١٠ - الثعالبي (عبد الملك بن محمد) - اللطائف والقرائف ، ترتيب القاسمي عن مؤلفين لثعالبي هذا اللطائف والقرائف واليوافيت في بعض المواقيت (القاهرة - ١٩٠٠) .
- ١١ - الثعالبي (عبد الملك بن محمد) - بجة الدهر (مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٥٦ / ٥٨) .
- ١٢ - الجاحظ (عمرو بن بحر) - البيان والتبيين (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٨ / ٤٩) تطبيق عبد السلام هرون .
- ١٣ - الجاحظ (عمرو بن بحر) - الحيوان - (ط - البابي الحلبي الثانية - القاهرة - تطبيق عبد السلام هرون) .
- ١٤ - الجاحظ (عمرو بن بحر) - رسائل الجاحظ (القاهرة - ١٩٦٤ - تطبيق عبد السلام هرون) .
- ١٥ - الجعشيارى (محمد بن يعقوب) - السوزاد والكتاب (ط - البابي الحلبي - ١٩٢٨) تطبيق مصطفى السقا وآخرين .
- ١٦ - الجعجري (طه) - الجاحظ حياته وآثاره (دار المعارف - القاهرة - ١٩٦١) .
- ١٧ - حاجي خليفة - كشف القنون (طهران - ١٩٤٧) .

برتراند راسل

الفياسوف الذي سعى إلى الإلحاط بمسائل العصر (١٠)

ترجمة : صفحي خطاب

في ليلة الاثنين الثاني من فبراير (شباط) ١٩٧٠ مات إيرل رسل (عضو الجمعية الملكية والحائز على وسام الاستحقاق) في منزله في بلاس برين في مقاطعة ميروث ، وقد بلغ من العمر السابعة والتسعين .

تقوم أحقية برتراند رسل في أن يذكره التاريخ على أساس وطيده ألا وهو مؤلفاته في المنطق الرياضي والرمزي ، وفي الفلسفة ، تلك المؤلفات التي جعلت تأثيره شاملا وعميقا . إن قصة المنطق الرمزي وفلسفة الرياضة في القرن العشرين هي قصة توسع البناء الشامخ الذي وضع أسسه رسل وفريجه Frege . لقد جرت أعمال رئيسية في تجديد البناء ، ولكنها كانت أعمالا من الداخل . ففي الفلسفة العامة عندما تفكر في مور G.E. MOORE ولودفيج فيتجنشتاين LUDWIG WITTGENSTEIN باعتبارهما مشككي الفكر في النصف الأول من هذا القرن ، فإثنا تكون حينئذ نفكر في رجال أثر فيهم رسل وألروا فيه . ولم يتترك رسل مريدين وحواريين وإنما هناك بدلا من ذلك عشرات من الفلاسفة الذين دفعتهم الأسئلة ، التي كان رسل أول من سالها ، إلى البحث والاستقصاء . ولم يكتف رسل بأن يجمع بين صلابة المنطق وصديق الفنان وإنما كان يجمع إلى جانب هذا كله شعورا حيا بالمسحكات . فإذا كانت هناك من سخافات منطقية مختفية ضمن تركيباته المجردة ، فإله يعرضها بلا رحمة وهو مبتهج بذلك . ولقد أصبحت التناقضات التي لم يكن يتستر عليها تؤلف معضلات الفلسفة .

شأننا عنده - قضية نزاع السلاح الذري من جانب واحد ، كان رسل قد وصل في منتصف الثمانينات عندما ألقى بنفسه في خضم هذه القضية بحماس لا يخبر ، وقد استحوذ عليه شعوره بمسؤوليته في إيقاف زملائه على الخطر المحيط بهم . كما سيطرت عليه جسارة الشر الذي يمكن أن تعود به هذه الأسلحة . وفي حدة استنكاره ، ومع

لقد تمثلت في رسل جميع صفات آل رسل ونزواتهم . كان يعبر عن رأيه دون أن يابه بالنقد الذي قد يلغاه من الزعماء أو من أصحاب المعتقدات ، أو بالقانون الذي ألقى به في غياهب السجن مرثين . لقد ظل طوال حياته حلية ومكسبا لأنواع مختلفة من القضايا العامة ، ومعظمها لم تكن تحظى بعطف شعبي . وكانت آخر هذه القضايا - وأخطرها

(١٠) نشرت في نصي رسل في صحيفة التايمز عدد ١ فبراير ١٩٧٠ بعنوان

"Earl Russel, O.M; F.R.S.; Philosopher who sought involvement with Problems of the Age".

مجالات تفكيره . ورسل أول من يعترف بأن جانباً كبيراً من حياته قد جددته السنوات الأولى من حياته ، إذ لم يقصد بها أن تخرج مواطناً تقليدياً . لقد تحول والده - قبل ولادة برتراند - من الإيمان المستقيم إلى اللا أدبية . وماتت أمه وهمسره سنتان ، ومات والده وعمره ثلاث سنوات ، فكفله جده « التي كانت متزمنة وصارمة في مقاييسها الأخلاقية » ، كما وصفها ، وقد أبقته على وجود توحيد غامض في قصر بيمبروك . وكان أبوه قد أوصى بأن ينشأ ولده تنشئة لا أدبية ، وعين وصيين حري التفكير عليها ، ولكن الحكمة لم تأخذ بالوصية ، وعينت قاضي القضاة وصياً على الطفلين .

ظل برتراند رسل يعيش في البيت (حياة لم تكن سعيدة جداً) حتى ذهب إلى كيمبردج وتعلم في البيت على يد مربيين ومعلمين خصوصيين . وقد كانت كيمبردج هي أول انطلاقة له إلى العالم الخارجي ، كانت - كما وصفها - « عالماً جديداً لا حد لهيجته » ، عامراً بالأصدقاء من أمثال لويس ديكنسون وذكوتور تريفيليان وماكتا جارت وجودج ادوارد مور . وقد افترقت بمكتا جارت ومور . وأصبح بفعل تأثير ماكتا جارت من تلاميذ هيجل أو بمبادرة أدق من تلاميذ برادلي ، ولكن مور - الذي كان اثره على ذلك الجيل كله في جامعة كيمبردج عميقاً وموفقاً - أبطل سحر هيجل .

التحق رسل بكلية ترينيتي كدارس في عام ١٨٩٠ . وكان ترتيبه السابع في درجة البكالوريوس فئة أولى في الرياضيات في عام ١٨٩٣ . ويمكن تفسير تدني تقديره نسبياً إلى أنه لم يكن يهتم بالرياضيات للحالها ، وإنما كان يهتم بها باعتبارها مثلاً لمعرفة معينة ، لقد كان اهتمامه فلسفياً . وحصل في العام التالي على درجة البكالوريوس فئة أولى في العلوم الأخلاقية بامتياز فذ . فلما

النشاط المؤثر لقراءه التي أخذت تضعف أخذ مكان التقدير الرفيع للوسائل السياسية للخلاص من هذا المصير يهت شتياً قشياً أمام ناظره .

لقد كان رسل هو رجل الفكر في القرن العشرين الذي حل مشكلة الاتصال ، ولعله سبق الآخرين في انجلترا إلى ذلك . فقد وجد رسل طريقه للاتصال بالعامه واستغفها حتى النهاية ولا سيما - وبشكل متمم - في أخريات حياته . لم يكن هناك شيء جديد في هذه الطريقة . فالأمر لا يتجاوز التعبير عن أفكار واضحة بأسلوب واضح . ولكن ما أقل الفلاسفة أو الفنانين ممن عاصروه الذين استطاعوا أن يحققوا نصف ما حقق !

وبعادل هذا في الأهمية قدرته لا على استخدام اصطلاحات لغوية مفهومة لعامه الرجال والنساء ، وإنما أيضاً قدرته على استخدام اشارات مفهومة للعامه ، لأنها من صميم تجاربهم . فصاحبنا من الخاصة في نسبه ، وفي ثاقفه الفكري ، وفي عاداته العقلية ، وفي سلوكه ، ومع ذلك كان يخاطب العامه بيسر ، كما كانوا يصفون إليه بيسر . والسرف في ذلك نجده في التناقض الظاهري ، وهو أنه مع هذا كله كان يشترك معهم في أسلاف من العامه . لقد كان فكره انجليزيًا صميمًا .

ولد برتراند آوثر ولیم رسل (الأول الثالث في آل رسل) في رالفيز كروفث Ravenscroft بالقرب من تينترن Tintern في مقاطعة مونموت Monmouthshire في ١٨ مايو ١٨٧٢ . وكان الابن الثاني للأنكاونت أمبرلي Ambesley ، وفخيد لورد جون رسل الذي أصبح في نهاية حياته السياسية إيرل رسل ، وأمه كاترين ابنة اللورد ستانلي الأولدري الثاني Lord Stanley of Alderley . وقد كان برتراند يشبه آل رسل كما كان أخوه الأكبر ، الأولدري الثاني ، يشبه آل ستانلي . فقد وجدت مقبرة آل رسل تصميراً منها في مظهره وفي صفاته الفنية وفي تعدد

على فكره . ويفضل هذه الاكتشافات ، ويفضل لايبنتس ، أعطى العالم في عام ١٩٠٢ كتابه (أصول الرياضيات Principles of Mathematics) الذي كان الغرض منه « أولا بيان أن جميع الرياضيات تتبع من المنطق الرمزي ، وثانيا كشف أصول المنطق الرمزي نفسه ما أمكن ذلك » . وقد قصد بكتاب (أصول الرياضيات) أن يكون الجزء الأول الذي يتلوه جزء ثان يشتمل على عرض استنباطي للنتائج . ولكن هذه المهمة نفلت في كتاب مستقل ألفه بالتعاون مع الفرد نورث وابتهد . وبدا في تأليف كتاب (أسس الرياضيات Principia Mathematica) في عام ١٩٠٠ وأتمه بعد عشر سنوات في ثلاثة أجزاء نشرت على التوالي في الأعوام ١٩١٠ و ١٩١٢ ، ١٩١٣ . وأعيد نشر الكتاب مع مقدمة جديدة في عام ١٩٢٥ ، وفي السنوات التالية . وقدمت الجمعية الملكية التي انضم إليها رسل في عام ١٩٠٨ منحة لنشر الكتاب من أموال الحكومة . وكتب رسل فيما بعد ما يلي عن تأليف هذا الكتاب : « أن فكرى لم يشف تماما من الاجهاد أبدا . ولا شك أنني منذ ذلك الحين أقل قدرة على تناول التجريدات الصعبة كما كنت أتناولها من قبل » .

أن كتاب (أسس الرياضيات) من الكتب الفاصلة في تاريخ الرياضيات والمنطق مما . فقد تحقق في هذا الكتاب - بصورة أوفى وأفضل مما تحقق في أي كتاب سابق - تحويل الرياضيات إلى فرع من فروع المنطق . وقد برزت في أثناء عملية التحويل في أيد ماهرة رمزية جديدة ذات قوة منطقية كبيرة . ولقد كان آدم ما قدمه رسل للفكر الفلسفي وأثبت سمة من سمات جميع كتاباته الفلسفية هو استخدامه لهذه القوة .

ترك كيمبريدج أمضى بضعة شهور كملحق شرقي في السفارة البريطانية في باريس ، وبعد ذلك ارتحل إلى برلين فدرس المسائل الاجتماعية والاقتصادية ، وقد جاءت مرة هذه الدراسة مبكرة في عام ١٨٩٦ حين التي في مدرسة الاقتصاد في لندن ست محاضرات عن ديمقراطية الماليتا الاجتماعية . ولكنه ترك العمل السياسي الذي بدا وكأنه قد وده .

انتخب في عام ١٨٩٥ محاضرا في كلية تروينتي Trinity College ، وفي عام ١٨٩٦ حاضر في أمريكا من الهندسة المغايرة لهندسة إقليدس . ونشر (مقالا حول أسس الهندسة) وقاده تحصيله في الرياضيات والفلسفة إلى دراسة المفكر الذي كان أفضل مثل على الجميع بينهما . فنشر في عام ١٩٠٠ كتابه المتناثر (عرض نقدي لفلسفة لايبنتس) (٢) وهو أول أعماله الكبرى . ووقع في هذا الكتاب من قدر فكر لايبنتس Leibniz كثيرا ، وأكثر مما كان يلاقي من تقدير في ذلك الحين - ولم يتحول من هذا التقدير أبدا ، فقد وصف لايبنتس في كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) History of Western Philosophy بأنه « أحد رجال الفكر الأفذاذ في كل الأزمان » . ولا شك أن حكم رسل قد بني على اعترافه بلايبنتس « كرائد في المنطق الرياضي ، أدرك أهميته عندما لم يدركها أحد غيره » . وهذا هو الميدان الذي أنجز فيه رسل أكثر أعماله ثروة ، وقد شابه لايبنتس تماما في نظريته وفي إنجازاته .

وفي عام ١٩٠٠ لفت رسل الأنظار ، في مؤتمر الرياضيات في باريس ، إلى مؤلفات بيانو Peano ، كما لفتها في عام ١٩٠٢ إلى مؤلفات فريجييه Frege . وفي ذلك الحين كان لهما أوقى التأثير

1 — An Essay on the Foundations of Geometry.

2 — A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz

« هناك كائن ما هو س بحيث أن عبارة » ص كئيب رواية ويفرلي » صحيحة إذا كان س هو ص وغير موجود » تعني » ليس هناك كائن ما هو س بحيث أن » ص ذهبي وجبلي » صحيحة منلما تكون س هي ص ، وليس غير ذلك . وهكذا فإن » الوجود » لا يمكن أن يكون غير تأكيد للأوصاف . ولعل رسل لم يكن يبالغ حين تحدث عن هذه النظرية فوصفها بأنها عملت على انتشاع التي سنة من الاضطراب الذهني حول »الوجود» بادلة بمحاورة Theaetetus لافلاطون .

وقد استخدم رسل خلال خمسين عاما من التأليف الفلسفي قوة هذا الأسلوب المنطقي الهدامة في فحص المشاكل التقليدية والفلسفات التقليدية، وسواء كانت استنتاجاته مقبولة أم غير مقبولة فإن مجرد استعمال الأسلوب كان مصدرا للتوضيح والتنوير ولا سيما في تحليل العلاقات وللثبات والاستمرار واللانهاية والصور اللغوية . وأخذ أعمال رسل العظيمة مده المستمر للشك النهجي الى كل ميدان من ميادين البحث الفلسفي ، ان ما يميز تجريبية رسل التحليلية الحديثة - كما يقول هو نفسه - عن تجريبية لوك وباركلي وهيوم هو وحدة الرياضيات وتطوير أسلوب منطقي قوي ، لقد كانت المعرفة التجريبية والمعرفة الاستنباطية هما النوعين الوحيدين من المعرفة اللذين كان رسل على اعتماد الاعتراف بهما . لقد كان يبحث عن اجابات على مسائل الفلسفة التي كان لها « صفة العلم اكثر من صفة الفلسفة » . وقد اعترف بانسه قد توجد هناك مسائل لا يستطيع العلم والفكر ان يجد اجوبة لها ، ولكنه رفض ان يعترف بان هناك طريقة اخرى ، حديثة او غير ذلك ، يمكن ان تعطي اجوبة .

ولعل تجريبية رسل هي اصوب ما في طفلاته على الفلسفة السياسية ، وهي طفلات شادة ،

وقد سمي هو نفسه هذا الاسهام « النظرية المنطقية » Logical Atomism ، وهو تعبير يوفي مهارته ونفاذ بصيرته في التحليل المنطقي حقهما - في محاولته حل الأفكار المقعدة الى عناصر ان لم تكن بسيطة فانه لا يمكن دحضها .

ان تفاصيل انجازات رسل التي تجعل المرء يتحدث دون ادنى مبالغة - بالنسبة للفكرس البريطاني على الأقل - عن فلسفة ما قبل رسل وعن فلسفة ما بعد رسل ، هي موضوع اهتمام طاب الفلسفة . ولكن حتى رجل الشوارع يستطيع ان يفهم قيمة تحرير التحليل المنطقي من طغيان النحو العادي والأعراب . لقد كان تقويم رسل المتواضع الذي قوم به في المرحلة المتأخرة من حياته انجازاته على النحو التالي « ان نفع تركيب الجمل الفلسفي بالنسبة للمشاكل التقليدية عظيم جدا » .

وأحسن ما يوضح هذه النقطة تلخيص لأهم ما اكتشف رسل وهو نظرية الوصف التي طورها في مقالته « حول الدلالة » التي نشرها في مجلة Mind في عام ١٩٠٥ . ان عبارات مثل مبالرة « رئيس الولايات المتحدة الحالي » قد سببت كثيرا من الاتهام الذي لا نفع منه للفلاسفة اللذين حاولوا ان يجدوا معنى الوجود . فلنفرض انني قلت « ان الجبل الذهبي غير موجود » ولنفرض انك سألت « ما هو الجبل الذهبي ؟ » فانه يبدو انني قلت « انه الجبل الذهبي » فاني اكون حينئذ اؤمر اليه نوعا من الوجود . فالفرق في العبارتين « الجبل الذهبي غير موجود » و « المربع الدائري غير موجود » في الالفاظ وحدها . ان كلا من « الجبل الذهبي » و « المربع الدائري » تدل على شيء يختلف عن الآخر بالرغم من انهما غير موجودين . وهذه هي المشكلة التي حاول رسل ان يجاهاها بنظرية الوصف . فبموجب هذه النظرية نفسر جملة « سكوت S. ott هو مؤلف رواية (ويفرلي) » على انها تقول

ومنع في سبتمبر من ذلك العام من دخول اية منطقة محظورة ، كما أن كتيب العدل ابان الحرب Justice in Wartime الذي أصدره فيما بعد، وشبه فيه تحارب الأمم بعراك الكلاب تستفسر راحة فريق منها الفريق الآخر ، جلب له سخطا عظيما . واخيرا حكم عليه في فبراير (شباط) من عام ١٩١٨ في محكمة شرطة العاصمة في لندن بالسجن ستة اشهر لانه علق في نشرة رابطة عدم التجنيد على الجيش الامريكي تعليقات « قصد بها - ومن المحتمل أن تؤدي الى - اسلاء العلاقات بين حكومة جلالته وبين الولايات المتحدة » . وعندما استؤنف الحكم حول القاضي السجن من الدرجة المتوسطة الشدة الى الخفيفة . وكتب في اثناء فترة سجنه كتابه (مقدمة للفلسفة الرياضية) Introduction to Mathematical Philosophy. وبعد الحرب ارخى عقله الضنان ، فجال في جميع الفواست الانسانية تقريبا . زار روسيا في عام ١٩٢٠ مع وفد من حزب العمال البريطاني فلم يعجب « بدكتاتورية البلشفيين العسكرية » . وأعلن على الفور تطهيره الأول من حقيقة البلشفية - في كتابه (التطبيق والنظرية في البلشفية) The Practice and Theory of Bolshevism وظل ينتقد الشيوعية السوفيتية حتى في اثناء حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ، متعلما وصلت شعبيته رسل الى ذروتها . وجالات بعض مخاضراته التي القاها في لندن على صورة كتاب (تحليل العقل) (١) نشر في عام ١٩٢١ . وذهب في اثناء عام ١٩٢٠ الى الصين لمدة قصيرة كاستاذ للفلسفة في جامعة بكين . ومن ثمرات هذه الزارة كتابه « مشكلة الصين » (٢) الذي كان مشجبا علق عليه عداوه للحضارة الغربية والابابية . وعندما رجع من الصين رشح نفسه في منطقة شيلسي عن حزب العمال في عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ ولكنه فشل . وقد كتب بالتعاون مع زوجته الثانية كتابه « مستقبل الحضارة الصناعية » (٣)

ولكنها لطيفة في الاغلب . فلم يكن رسل فيلسوفا سياسيا . ولكن رجلا ولدا وفي عروقه دماء آل رسل قد لا يستطيع أن لا يحمل روح لوك Lock. كتب في عام ١٩٤٧ في كتابه الفلسفة والسياسة Philosophy and Politics يقول : ان الفلسفة الوحيدة التي تقدم تبريرا نظريا للديمقراطية ، والتي تتفق مع الديمقراطية في مزاجها العقلي هي التجريبية . لقد بين لوك الذي يمكن اعتباره مؤسس التجريبية مدى الترابط الوثيق بين هذا وبين آرائه حول الحرية والتسامح . ومن هنا مضى رسل يقول : « ان جوهر النظرة الليبرالية لا يكمن في نوع الآراء المتبناة وانما في طريقة تبنيها ، فهي تتبنى بشكل تجريبي بدلا من أن تتبنى بشكل جازم » . غير أنه لا يمكن القول بان رسل قد انزم بهذا المبدأ في جميع تصريحاته وخطبه العامة .

رشح رسل نفسه في عام ١٩٠٧ للبرلمان من منطقة ويمبلدون مطالبا بحق المرأة في الانتخاب ولكنه فشل . ولكن حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ هي التي هيأت متفعا لدافع لم يشبع عنده هو دافع الخير . فقد انخرط بدون تردد وباخلاص في حملة السلام . وقد جعلته النتائج السيئة مركز عاصفة وطنية ، ولا نستطيع أن نثبتها هنا الا جملة . أكد رسل في صحيفة التايمز انه مؤلف نشرة من (رابطة عدم التجنيد) ومن ثم حكم عليه مقر ليس بلدية لندن بفرامة قدرها مائة جنيه ، وأبعد بطريقة تصفية ووضيعة من التدريس في كلية ترينتي . وصودرت مكتبته هناك لتسديد الفرامة . وكان من المفروض أن يذهب في خريف عام ١٩١٦ الى جامعة هارفارد ليحاضر فيها ، ولكن المسئولين في هارفارد افهموا ان الحكومة البريطانية لا ترى ان من المصلحة العامة اصدار جواز سفر له يمكنه من مغادرة البلاد .

1 — The Analysis of the Mind

2 — The Problem of China

3 — The prospects of Industrial Civilization

إطار العصر الذي ولد هذه الأفكار . ولكنه يختلف في تأليفه عن الكتاب الثاني ، فالتركيب فيه أكثر من التحليل ، ويضم شيئا من كتاباته المضبوطة .

وبالرغم من أن نجاح قوة حتمية كالهتيرية هو كثيرا من نوعاته العقلية - كما هو الكثيرين - وجعله يهجر دعوته إلى السلام ، وبالرغم من أنه حاول (ولكنه فشل) أن يحلل طبيعة (القوة) (١١) في كتاب مشهور ، كان يفتقر إلى التجسير السياسي الذي يمكنه من تحقيق وصف شاف لمشكلة القرن العشرين السياسية . ويظهر هذا في محاضراته التي ألقاها في عامي ١٩٤٨ - ١٩٤٩ في برنامج محاضرات ريث The Reith Lectures وهي بعنوان (السلطة والفرد) . فقد أخطأ في اختيار الموضوع الذي تحدث فيه ، ولكنه لم يشك في قدرته على ربط الأفكار المعقدة بتجارب الناس العاديين اليومية .

وأصبح رسل في السنوات الأخيرة عرضة لأن يفقد شخصية شعبية ومحترمة بل ومبجلة . فقد منح في عام ١٩٥٠ جائزة نوبل في الأدب ، وكان قد منح قبل ذلك بعام وسام الاستحقاق ، وفي عام ١٩٥٣ انتخب مشاركا شرفيا في معهد نيويورك الوطني للفنون والآداب ، وهو الذي كان قد حكم عليه من قبل بعدم اللياقة لشغل الكرسي الجامعي في إحدى الجامعات الأمريكية ، وقد كان

بين كتابيه « الذرات » (١) (١٩٢٣) و « الف باء النسبية » (٢) (١٩٢٥) ، وهما كتابان يمتازان بالشرح الجميل الواضح .

وقد أدى اهتمامهما (هو وزوجته) بالتربية إلى إقامة مدرسة في عام ١٩٢٧ بالقرب من يترز فيلد ، ومنح الأطفال فيها قدرا كبيرا من الحرية ، ونقلت زوجته المدرسة في عام ١٩٣٤ إلى مقاطعة ميرتفورد . وكتب حول هذا الموضوع كتابين هما (في التربية) (٣) عام ١٩٢٥ ، و « التربية والنظام الاجتماعي » (٤) عام ١٩٣٢ ، وفي هذين الكتابين أسراف في الحديث عن الاتجاهات الحديثة . وظهر بين هذين الكتابين كتاب « تحليل المادة » (٥) وهو استعراض رائع للفيزياء الحديثة مع استنباطات ميتافيزيقية أكثر عرضة للجدل . وتلته كتب أخرى هي : « الوجود في الفلسفة » (٦) و « مقالات في الشك » (٧) و « الزواج والأخلاق » (٨) و « اكتساب السمادة » (٩) .

ونشر في عام ١٩٢٤ أهم أعماله خارج ميداني المنطق والفلسفة ، وهو كتاب « الحرية والتنظيم » (١٠) وقد تتبع فيه الأسباب الرئيسية للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أوروبا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر . وقد غطى هذا الكتاب كتابه الضخم « تاريخ الفلسفة الغربية » حين حاول أن يرى الأفكار من خلال

- 1 --- The A.B.C. of Atoms
- 2 --- The A.B.C. of Relativity
- 3 --- On Education
- 4 --- Education and the Social Order.
- 5 --- The Analysis of matter
- 6 --- An Outline of Philosophy
- 7 --- Sceptical Essays
- 8 --- Marriage and Morals.
- 9 --- The Conquest of Happiness.
- 10 --- Freedom and Organisation.
- 11 --- Authority and the Individual.

على خرق السلام بدعوتهم الى مظاهرة بالجلوس في ميدان البرلمان . ولا رفض ان يتعهد بأن يكون حسن السلوك حكم عليه بالسجن لمدة شهرين ، وخفض القضية المدة الى سبعة ايام على اثر احتجاج محامي رسل . وقضى مدة الحكم في سجن بريكستون الذي عرّفه قبل ثلاثة واربعين عاما .

وفي مطلع عام ١٩٦٢ استقال رسل من رئاسة لجنة المائة ، ومن الأسباب التي أوردها في تبرير هذه الاستقالة أنه أصبح مشغولا بعمل من نوع آخر وان كان موجها الى نفس الغاية . وفي أواخر ذلك العام أعلن عن إقامة مؤسستين هما مؤسسة برتراند رسل للسلام ، ومؤسسة الأطلسي للسلام ، ويهدفان الى تنمية المقاومة الدولية لتهديد الحرب النووية ، وازدادت هزله في السنوات الأخيرة من حياته ، حيث كان يعيش في بلاس بنزين في بيته الريفي في شمال ويلز ، وظل أمين سره السيد رالف شومان يصرف معاملات رسل مع العالم الخارجي فترة من الزمن بينما أخذت مشروعاته العامة التي ربط اسمه بها تزداد غرابة ، كمحاكمته الدولية لجرائم الحرب التي قضاتها من رجال الفكر المشهورين الذين حاكموا الولايات المتحدة غيبا على التهم الناشئة عن سياستها في فيتنام ، وبعد ان واجهت المحكمة بعض الصعوبات بخصوص مكان مقدها ، عقدت جلستها الأولى في ستوكهولم ، وأصدرت قرارها بالاجماع بتجريم الولايات المتحدة .

ولقد كان نشاط رسل مثيرا للجدل ، وملهما لفريق من الناس ورآه الفريق الآخر مضحكا أو موجها في غير وجهته الصحيحة . وقد حجب هذا النشاط في السنوات الأخيرة من حياة رسل إنجازات عمره المديد الخارقة : اثره على الفلسفة ، وشيء آخر على الجمهور أن يتذكره جيدا وهو مثيرته في تيسيل أو أريد الأفكار وصعابها . وقد امتلك ناصية أسلوب جملة في مصاف باركلي

يمكن أن تكون شيخوخته صافية كشيخوخة فيلسوف عاقل وحكيم اليق ، مكرم ، يصني اليه يود واحترام ، ويعطي بين العين والآخر التعليق الساخر والحاد بما يبقى على أسطورة التأثير حية .

ولكنه اختار سبيلا غير هذا ، فلا زالت تتردد في الذاكرة أصداة كلمة أذاها في عام ١٩٥٤ بعد انفجار القنبلة الهيدروجينية الأولى ، حين ارتفع صوته النحيل الريب يملؤه زخم محابذ لبني « تذكروا انسانيتمكم وانسوا ما دون ذلك . فاذا استطعتم أن تفعلوا ذلك ، فإن الطريق أمامكم مفتوح الى الجنة الجديدة ، فإن لم تستطيعوا فليس أمامكم سوى الموت الشامل » . وهو تحذير ظل يكرره بصوت حاد ومرتفع حتى وافته المنية .

لقد ساعد في ولادة حملة نزع السلاح النووي في لبراي عام ١٩٥٨ وأصبح رئيسها ، وحاول قبل هذا وبعده حشد آراء العلماء لتأييد وجهات نظره . وفي سبتمبر من عام ١٩٦٠ ضاق ذمرا بأسلوب حملة نزع السلاح النووي المتقيد بالقانون ، ووجد أن رئيسها كولينز Canon Collins شخصا « من المستحيل العمل معه » فانتش منها مؤلفا لجنة المائة « للعصيان المدني ضد الحرب النووية » . وقد أثبت العصيان أنه من النوع المنظم ، واستمر رسل - الذي كان قد أدرك الثامنة والثمانين حينئذ - يطوف بالبلاد طولا وعرضا داعيا للحملة ، ويصدر البيانات الحاجة للصحف ، وينظم المظاهرات العامة بقدر ما كانت صحته تسمح له . ودأب على إرسال برقيات التحذير لزعماء العالم ، ولا سيما في عنفوان الأزمة الكوبية في أكتوبر عام ١٩٦٢ .

ومرة أخرى أدى به تحديه للسلطة الى السجن في سبتمبر عام ١٩٦١ فقد استدعى ومعه بعض أعضاء لجنة المائة الى المحكمة لتحريضهم الجمهور

يشمل الفترة الواقعة ما بين ١٨٧٢ - ١٩١٤ ، ثم أعقبه بجزئين آخرين .

تزوج رسل أربع مرات . وكانت زوجته الأولى اليس ويتال بيرسول . وقد انحل هذا الزواج في عام ١٩٢١ ، فتزوج في نفس هذا العام دورا وينيفرد . وانحل هذا الزواج في عام ١٩٣٥ . وتزوج في عام ١٩٣٦ بالبريشيا هيلن ، وانحل هذا الزواج في عام ١٩٥٢ وتزوج في نفس هذا العام اديث فينش من نيويورك . وقد رزق رسل من زوجته الثانية طفلين هما جون كونراد فايكاونت امبرلي ، وليدى كاترين جين رسل ، ومن زوجته الثالثة طفلا هو الشريف كونراد سيپاستيان روبرت رسل . ويخلف رسل في اللقب فايكاونت امبرلي الذي ولد في عام ١٩٢١ وتزوج في عام ١٩٤٦ من سوزان دوينفان التي أنجبت له بنتين وانحل زواجهما في عام ١٩٥٥ .

وهيوم اللذين حيا الأدب والفلسفة . ومواء اكتب بالرموز أم بالألفاظ فإنه كان بلعما في كليهما وسلسا في كليهما . ويحسده كل من يحاول الكتابة لطباقة المحكم ، ولثقته الزائدة بنفسه الرائعة ، ولقسوته المهدية في محاورته، ولتناقضاته الباهرة ، ولذكائه ومرجه . وعند ما يكتب رسل ويتدخل في الماطفة ، ويتمص الناثر الفيلسوف، فان كتابته يجب ان توضع في مصاف اشرف ما كتب في اللغة الانجليزية . وكان ايضا فارسا من فرسان المدياع ، وقد ألقى بعد الحرب عدة سلسلات من الأحاديث الاذاعية التي لا تنسى . ان الصور الموجزة التي رسمها لعلام معاصريه تمتاز بالوضوح والبراعة ، وشيء من السخرية وشيء من العطف ، وهي تذكرنا بـحيوية صور (اسكتشات) جون أوپري البارعة . وقد نشر رسل في عام ١٩٦٧ الجزء الأول من سيرته وهو

تجارت مع الطب القديم

الطبيب الأزلي بول غليونجي

لقد شاهدت هواية تاريخ الطب وهي تنمو وتتواصل في قلب صديق في سني ، عرفته منذ طفولته ، ثم احببته وصادقته ، ولازمني ولازمته وكأني هو ، والهوايات تنشأ دون وعي من تهواه ، كأنها تنبت اتفاقا على شكل نروة حين او تسلية فينة او واجب مفروض ، وقد تكون بيضة الدبك ولا تعاد ، او يكسر نكرارها ، وهي تفرس في هدوء جلورها في اعماق البرء وتواصل مدحا الى كل ميدان من ميادين فكره الى ان تحتله تماما ، لوقوعها في تربة معدة ، تتغلى منها وتقلدها ، كما يتغلى الثبات من الارض ويغنيها .

بدأت قصة صديقي بالآلة تصوير اهديت اليه ، اطلع بها فامست لعبة فراقه ، ثم ما لبث ان شغلت جل باله وفتحت له ، كسمسة على بابا ، عالم الفنون التصويرية والتشكيلية ، اذ اخذ ينقل التماثيل والنقوش ، ويستفسر معانيها وتواريخها ، ومن لم عني بتاريخ الادب وسيرة الفن ، وعن طريقها بالتاريخ عامة . ثم شاهد هواياته تنمو وتتفرع ويشبك بعضها بعض كالاشجار الاستوائية التي تدمج فروعها حتى تجعل منها كتلا صلبة متماسكة تسدل ظلالها على الغابات ، ففاس في سحر الفن وفي فن السحر ، وهو في كل هذا يتفقد العنصر الانساني فيها ، فانحدر الى علوم الانسان ووجد - آخر مطاف للطب ، الذي يدمج الجسد والروح والشخص والبيئة في صورة متكاملة للانسان ، اقوم سبيل الى المثل التي اشدتها ترانس (1) والتي اتخذ منها شعلا : « اني من البشر وما من شيء بشري غريب عني » . فصور كل ما احبه في معدن لم كالكرة في ذهنه وعكس شعاعا سفرت في ضوءه اعمال لم يسبق له رؤيتها ، وقد استمدته من النظرة التاريخية التي تثير اليوم بشملة الاس .

اللغائف المترامية ترسم سيماء شخص قصد في مواجهتنا في هدوء وكأنه ينتظر منا بده الحديث . لم ندر كيف دخل ولا من أين اتي ، شكله متبوج وهندامه متغير تبعا لنزوات الابخرة ، تملو راسه قلنسوة فرعونية تارة وعمامة مصرية تارة او قبة

كنت ذات يوم في صحبته نطلع حسب عادتنا على بعض النصوص القديمة وتجادل في معانيها ، الى ان اعيانا التعب ، واحرقت ميوننا ابخرة اللغائف المحترقة ، واطبقت جفوننا . وعندما فتحناهما راينا موجات السحب للتصامدة من هرم

• الاستاذ الدكتور بول غليونجي اخصائي الفند الصم بوزارة الصحة العامة بمستشفى الصباح .
كان استاذنا بكلية الطب بجامعة عين شمس .

Homo sum : humani nihili a me alienum puto

1 - من كلام ترانسي : شاعر لاتيني ولد بقرطاجنة (نحو 110 - 109 ق.م.) ، الف اعطيليات على طراز الكتاب الأفريقي ، وصل ست منها ايتنا ، وقد ورد النص المذكور في احدها ومثواتها : « فارجل الذي طالع نفسه » .

الفرنجية تارة أخرى ، وأوضح ما في وجهه إيتسامة
دمثة تم طريقة وطبية في مزيج من السخرية التي
لا تغلر من العطف والحنو .

ساله صديقي : « من أنت ؟ »

فاجاب : « متى ؟ »

قلت : « أنا يسالك عن اسمك ، وقد اقتحمت
داره ، فكيف تجيبه : متى ؟ »

اجاب بهدوء : « انا الطبيب الازلي الخالد ،
وان كنت اليوم فلانا والغد فلانا ، فان روحي
هي روح الطب وقلبي وذهنى لا يتبدلان . ليس
عمرى هو الذى اضاف بعدا رابعا الى ابعادنا الثلاثة
ثم فرسه بأنه الزمن ؟ اكتملت أية قضية ان لم
يذكر سيرها الزمنى اذا سالتنى عن لون السماء
حق لى سؤالك : انتظلب لونها في الصباح ام في
المساء ؟ واذا استفهمتنى ارتفاع البحر اجبتك :
« متى » ! اعند المد ام الجور ؟ لقد حملت
اسماء شتى في ازمته مختلفة (٢) . كنت ، منذ
خمسین قرنا ، طبيب الانسان (حسى - رع)
زميل (امحتب) الذى الهه الفرس والاfrican ،
لم كنت « ايروى » طبيب الميرون والاعماء والشرح
وحاكم العقارب ، والفث فنا في الطب عندما كنت
(تنجر حتب) ، وانهمت عندما كنت (ايروى)
في مؤامرة لقب رمسيس الثالث (٣) ، واعمدت بناء
مدرسة سايس بأمر سيدى (دارا) بعد أن دمر
قميز معابد مصر ومدارسها عندما عاد من
حملته الفاشلة في الجنوب وشاهد الاحتفال بعيد
الحصاد فظن الشعب يتنهج لهزيمة (٤) .

سكنت اذن (ادجا حور سبت) القند اعجبتى تماثلك
في متحف الفايكان وقرات وصف حركتك المتقوس
عليه ، ولكن لقد ذكرت أنك كنت اخصائيا في
الانسان ، ثم في امراض الميرون والبطن وهذا قبل
اليوم بأربعة آلاف سنة وزيد ، فهل يادر الاطباء
يتخصصون منذ ذلك الوقت السحيق ، ونحن نعد
التخصص تقدما حديثا ؟ ثم ما معنى لقب (حاكم
العقارب) ؟

فحكك وقال : « اننا لمعجزنا ازمان لسع العقارب
ولدغ الثعابين كنا لنجا الى الصلوات والدعاءات ،
وقد مارست هذا اللون من الطب اللاهوتى الى جانب
الطب التجريبي ، ومن هنا جاء لقبى هذا ، أما
سبب التخصص المبكر فهو ان سر وحدة الجسم
الاذمى ، البنية على اتصال اجزائه بواسطة الدم
الساير في الاوعية والقوى الجارية في الاعصاب ،
كان خفيا عنا بعد ، فقسمنما الجسم ، تبعا لشكله
الخارجى ، الى رأس وبطن وقدم ومين وأسنان
وما اليها ، ولا يخفى عليك ان هذه الصورة المتصلة
في اذهاننا ، وان كانت اقرب الى التعاريف اللفظية
منها الى الحقائق التشريحية ، تكشف بوضوح
تام في خلال الاضطرابات النفسية غير العضوية
التي تصيب بالشلل او فقدان الحس اضطرا من
الجسم تابعة لهذا التوزيع ، وقد راق هذا التقسيم
البديهي في عيون اولئك الافريق من المتأخرين
الذين توهموا وجود روابط بين الكواكب والاطراف
تسيطر بحكمها الاولى على الثانية ، وهي فكرة سادت
عالم الطب حتى عهد النهضة وبعده ، وما زال
الكثيرون منكم اخذين بها ، كما انها شاعت بين
طبقات الشعب غير المثقفة ، التي استبدلت بالافلاك
القديسين والاولياء ، فاستندت الى هؤلاء شبيه
تخصص ، يفرد بموجه كل منهم بمرض يشفيه (٥)
قلت في اعجاب :

انك جمعت في صورة واحدة مظاهر تبدو ،
اول وهلة ، مستقلة ، اذ انى لم تصور قط وجود
ابة علاقة بين الشلل المسترئ وتخصص الاطباء
في باكورة التاريخ فقد افهمتنى في لحظة حقيقة
فاتنتى سنين ، وما دمت كريبا هذا الكرم
بمعلوماتك هل لى ان اسال عن تاريخ وصول
التخصص الى اوجه ، وهل كان له الشأن نفسه
في البلاد الاخرى ؟

— عربزى ، ان تاريخ التخصص وازي خط
سير النظريات الفسيولوجية ، لان الطب ما هو
الا ثمرة من ثمار مصر ، يتفقد مئته ويتلو به ، يختلف
بدو المرض في عينه عند كل منمطف يسلكه ، لقد

٢ - في (تاريخ) هرودت ٢١ (٢ و ١٢٢) ان المصريين آمنوا بتناسخ الانواح وان كانت هذه الفاعلة لا تبدو جلية في
دينهم ، وقد آمن بها بعض الفلاسوفس وانبياؤفليس وذكرها المليون .

٢ - Papyr. jurid. de Turin (de Buck, A., 1937., J. Eg. Archaeol., 23, 152).

٤ - انظر تفاصيل سيرة هؤلاء الاطباء وغيرهم من اطباء مصر الفرعونية في : « الحضارة الطبية في مصر الفرعونية » .
تأليف بول غليونجي وزينب الدواخلي ، طبع دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٦٥ الباب الاول .

• - Early specialization in Ancient Egyptian Medicine and its possible relation to an archetypal
image of the human organism, Med. Hist., 1969, XIII, 4, p. 383.

الجسم ووزعوا اجزائه على آلهة مختلفة ، فكان السحرة يتلون مثل هذه التعميلة (٧) :

هاجم (الاشواك) الرأس

هاجم (النملارو) الحية

هاجم (الانوكو) قفا العنق

هاجم (السو) الشرير - الصلور

هاجم (جالو) الشرير - اليد

هاجم (اكيمو) الشرير - البطن

هاجم الاله الشرير (القدم)

ومن اساطير (سومر) التي تمت على مثل هذا التفكير ان الالهة (نهرساج) بعد ان اولعت المرض على ثمانية اجزاء من جسم زوجها (انكي) لعقابه على اكله ثمانية نباتات انجبتها له زوجته (اوكي) الاله النبات وابنة حفيده ، ارادت ابراهه بايماز من الثعلب فظقت له ثمانية آلهة ، واحدا لكل جزء مريض .

— هل تميز لنا بين طب المصريين والاغريق والبابليين ؟

— يمكن القول اجمالا وبكلمات قليلة ، ان طب المصريين كان خبرة ، وطب الاغريق مرآة فلسفية ، وطب بابل سحرا وشعوذة ، وكان يُحكّم على الطبيب في مصر بامانته في تطبيق التعاليم السلم بها ، وفي اليونان بسلامة منطق او بمهارته السفسطية ، وفي بابل بدارته بالطوالع والقؤول ، وانما تميز هذا الاخير بالقسوة في العقاب ، اخلا بمبدأ المثل بالمثل ، المصرح به رسميا في قانون حامورابي (٨)

قال صديقي — ما نزال نشاهد اليوم ، بين اطبائنا ، امثلة من كل من هذه النماذج وكان التاريخ يعيد نفسه دوريا .

قلت — بل انه يجري جريا حلزونيا بين طفتين يتراوح بينهما وانما على مستويات متباعدة ، وهذان القطبان يمثلان نظريتين مختلفتين ، ترجع الاولى اولى المزاج في احداث الامراض ، والثانية اولى البيئة ، او بتعبير آخر : أهمية التربية

حسبت القرون الوسطى المجدولين من المعونين ونبتتهم من بين ذويهم ، ولم ير انسان عهد النهضة حرجا من العدوى التناسلية ، وتلون المدن قس العصور الرومانياتيكي بلون شامو اتيق ، في صلب عصر الصناعة عدلت الامراض الصناعية اسوأ العمل الطبيعية .

علقت على هذا :

ولكل شعب ما هو جدير به من الطب .

قال :

اجل ، ولا يفيد الا ما يوائمه اذ ان فطنا ينح من اذهاننا ومقالدنا واهامنا وكل ما سماه فلاسفة الالمان نظرتنا الكونية Weltanschauung كافرأز منها ولذا فان التخصص العضوي لم يدم طويلا ، وقد زال تماما عندما انتشرت النظريات الجديدة التي صورت الجسم في صورة وحدة متماسكة وبالتالي لم يحظ عند اطباء الاغريق بالمكانة التي وصل اليها عند المصريين ، لان طبهم — كما اعتدنا تميزه — هو انتاج القرن السادس ق . م . ، أي عهد ابقراط ، الذي تلا ذروة الطب المصري بعشرة قرون ، والذي دمج في عضونه فلاسفة الاغريق — لشغفهم باقامة النظريات العقلية — افكار (ثثاقورس) بشأن الارقام وبخاصة قداصة الرقم { الذي مزي اليه الكمال ، في نظريات (اناقليس) التي تصورت العالم مؤلفا من اربعة اركان هي الماء والهواء والتار والتراب ، مرتبطة بابعاد خواص هي الرطوبة واليبس والبرودة والسخونة ، وحينئذ لكل عنصر واغتلوا له اربعة اخلاط خمنوا الجسم مكونا منها ، هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء وربطوها بالاركان الاربعة والخواص الاربعة وادعوا ان نسبها تحدد الصحة او المرض . قلم يكن في هذا النظام المتناسك مجال لتقسيم الجسم تقسيما قد نسميه « اقليميا » . ومع ذلك فان الشعب الاغريقي — ربما لتصور كامن في ذهن كل انسان — كان يقدم الترابين لاله الطب اسكلايوس على شكل الجزء المريض من الجسم غير مبال بنظريات فلاسفته .

وما دمنا نتحدث عن تأثير العقائد في الطب فان البابليين — بدافع من عقائدهم — آمنوا « ببلقنة » (٩)

٦ — بلقنة : لفظة مستعارة اطلقت على تقسيم الدول الكبرى لمنطقة الهلال الى دويلات مستقلة .
٧ — انظر : Contenu, G., 1938, La Medecine en Assyrie et en Babylonie, Maloine, Paris.

٨ — حامورابي : ملك من ملوك بابل (١٨٤٨ — ١٨٠٦ ق . م .) مؤسس الملكة البابلية ، شرع قانونا يعد اهم قانون معروف ، موجود منه نسخة منحوتة على الحجر في متحف اللوفر ببريس ، يحدد مسؤوليات اطباء وعقوبات اذا ما اخفقوا في العلاج .

والبلولة . فإين كان موضعكم من هذين القطبين ؟

قال : اتنا تصورنا - أول عهدنا بالطب - أن المرض يأتي نتيجة لأمراض دخيلة ، قد تكون أرواحاً أو حشرات أو ديداناً أو ما إليها ، فتتحم هذه العناصر الجسم وتدخل أوعيته وتسرى فيها فتحدث أما عوارض عامة كالحمى والأعياء ، وأما ظواهر انتشالية كالخراج والقرح والأورام (١٠) ثم أن أفريق مدرسة فيلوس (١١) اقتبسوا منا هذه الفكرة ، وهي الآخذة بالعناصر الأرضية السارية في الجسم ، وحلها بعدهم أسئلة مدرسة قو (١٢) ، التي نبغ فيها إبقراط ، إلى عناصر طبيعية ، فدمجوها في صلب نظرياتهم الرباعية التي أسلفنا ذكرها ، وهرقوا (المزاج) بأنه تابع لنسبة الأخلاط الأربعة في الجسم ،

وأولوه المنزلة الأولى في أعداد الجسم لهذا المرض أو ذاك ، وبهذا انتقل مركز الثقل من البلورة إلى التربة .

تابع صديقي الحديث فقال - وقد دارت اللولية وجاء أمثال بيشا (Bichat) و (لانيك) Laennec (١٣) ففارقوا الأمراض بالأحشاء وفرضوا Virchow (١٤) الذي اعتمد على المجهر النظري فأنشأ علم الباثولوجيا الخلوية ، فأهملت الأخلاط المسألة ، وأتجه النظر إلى الأنسجة النصلية ، ثم جاء باستور Pasteur (١٥) الذي كشف عن الجراثيم ، فأعيد العامل الدخيل إلى منزلته الأولى واستبدل بأرواحكم وديدانكم وحشراتكم ، ونظر إلى المرض على أنه من فعل الجراثيم على الأنسجة .

Ghalioungui, P., 1963, Magic and Medical Science in Ancient Egypt, Hodder & Stoughton, ٩ - London.

Ghalioungui, P., 1968, La notion de maladie dans les textes égyptiens et ses rapports avec ١. la théorie humorale, Bull. Inst. Fr. Archéol. Or., le Caire, LXVI, p. 37.

١١ - قتيوس : مدينة على الشاطئ الآسيوي القابل للوق ، نشأت بها مدرسة نافست مدرسة قو المعاصرة لها ، وأنجبت الطاحل أمثال الفلكي أودكوس (٤٠٩ - ٣٥٦ ق.م.) الذي حدد أيام السنة بأنها ٣٦ يوماً وربع يوم والعماري سترابو الذي شيد منارة الاسكندرية ، وبعض العلماء الذين جنحوا فيما بعد إلى الاسكندرية ، وقد لميزت بنظريات كان لها ، سابقاً ، شأن كبير في التفكير الطبي المصري القديم وربما ورثتها عنه ، فهوها إن اجتياز الهضم حدوده الإعتيادية ينتج عنه ظهور مواد غير طبيعية تسرى في الجسم وتسبب المرض .

١٢ - قو : جزيرة صغيرة تجاه شاطئ آسيا الصغرى ، حل بها شعب دوري الأصصل ، نزع إليها من (إيدورس) بالبلوبونيز ، حيث عبادة أسقليبيوس رب الطب عند الأفريق وشيد معبدا لهذا الإله كان يزوره المرضى للاستشفاء ، وقد تشف فيها من معابد يتراوح تاريخها بين القرنين السادس والثاني ق.م.

١٣ - لانيك René Laennec (١٧٨١ - ١٨٢٦) طبيب فرنسي ، من أوائل الذين دأبوا على تشريح من يموت من المرض ، ومقارنة أحشاهم بظاهر مرضهم ، ابتكر طريق الفحص بواسطة السمع ، وكان يفحص - أول الأمر - أذنه على الجسم مباشرة ، إلا أنه خجل يوماً ما من وضع أذنه على صدر سيدة شابة تعانق بطنه من البدانة ، ففكر في آلة يلبسها الأولاد وهذا فوجوه لطف فطاسا على شكل أسطوانة لفرفة ، استعملها لتوصيل الصوت من الصدر إلى أذنه ، ومن ثم اخترع أول سماع (سماعة) وكان على شكل أسطوانة من الخشب ، وتمكن بهذه الآلة من وصف كل العلامات السمعية الصروفة إلى اليوم .

١٤ - فرشو Rudolph Virchow (١٨٢١ - ١٩٠٢) عالم ألماني اهتم بالسياسة الاجتماعية وابتكر علم الباثولوجيا الخلوي بدأ به على لفحص الأنسجة الكريفة بالمجهر .

١٥ - باستور Louis Pasteur (١٨٢٢ - ١٨٩٥) كيميائي فرنسي من أشهر العلماء ، له فيمادين التخمير والكيمياء الحيوية Stereochemistry بحوث ثورية ، يدين له العالم بمع أنه لم يكن طبيياً ، بالكشف عن الجراثيم وعن دورها في الأمراض المعدية ، والتثنية لزراعة الفنب وتربية الطراف في فرنسا من الألاس ، ببحواله في أمراض الكسروم والمجوعة الفييئة وابتكر علاج الكلب بقتن الفعار متزايدة من الفيروس بعد كرويضه في الجسرين معداً متزايدة تنظيف وطائه ، وقد عمل أول من شفى من هذا المرض الفتاك بآية عمره حارساً بالمهد الذي أطلق عليه اسم باستور بياريس ، احترافاً بجعله ، واستشهد دفناً منه في خلال الحرب العالمية الثانية .

قلت :

في هذا الحقل ويؤوا أيضا الأشكال ، ويربطوا بين كل من الشكل والطابع والأراج والإحشاء والأمراض ، وبين الأجرام المهيمنة وقت الولادة . وما أنتم ما زلتتم تمتعون المتهوين بالقمرين Lunatic وتقولون عن كثرى المزاج أنهم زحلويون ومن محبى السلطة وسريعى الغضب أنهم اسديثون .

اعترض صديقى وكأنه في حلم :

ان حاسة الشعراء اصدق من تحقيق العلماء ، لقد قال شيكسبير : « ليس العيب في ذلك وانما العيب فيك » وكأنه تنبأ بجريثات نوابا الخلايا التي نسميها (الجينة) Genes الحاملة منذ لحظة تكوين الاجنة للصفات الوراثية ، بفضل مراكز قوى تحويرها ، تحدد كل مميزات الجسم ، كلون العينين أو طول الرامعين ، وبوساطة خمارى تسيطر على التفاعلات الكيميائية ، وقد يكون الكشف عنها ملقى حاملى لواء الكيمياء بمعضى فكرة التسجج ، واندماج النظريات الخلوية في النظريات الكيميائية ونهاية التوبة التي حيرت الطب منذ نشأته بانطباق قطبيها .

ضحك محاورنا ضحكة كاتمة :

اراكم تمررون ماضينا اهمية لم يتبادر الى اذهاننا امارته مثلها ، وقد راقت جهودكم المضيئة دون تفهم دوافعها ، انتطلعون حقاً الى حقائق تاريخية ثابتة ؟

اجابه صديقى :

ايها الزائر الجليل ، ان على المؤرخ ، اذا ارتفع الى المستوى الذى يؤهله الى هذه التسمية ، أن يستخدم كل الوسائل الممكنة للحصول على يافته ، والاكتفى بجمع الاحداث ومعرفة تواريخها والاطلاع على النصوص والروايات والتفتيح من المبانى المنفرة والقبايا البشيرة الهالكة وما اليها ، وانما عليه امتحان حصيلته في اشواء مختلفة ، كالخبر الذى يسقط على الرسوم الاشعاعات السينية والبنفسجية وتحت الحمراء قبل البت

لم يعض زمن طويل قبل ان يتقدم البحث للسوائل المرضية في صورة مجمدة ، على ايدي امثال فيدال Widal (١٦) الذين دأبوا على تحليل السوائل تحليلا كيمياويا فطحت البولينا والسكر والكولسترول محل السوداء والصغراء والبلغم ...

تمهل محادثنا ونظر الينا نظرة غامضة وقال :

ولكنكم ما تزالون في حيرة شديدة ، افى قدرتمكم تعريف المرض ، اى مرض من تلك الامراض التي تكثر مشاهدتها ؟ كيف تعرفون مرض التيفود الذى يسببه بشلوس ابرس Ebers هل هو مجرد احتحام هذا الكروب للجسم ؟

— كلا ، فان الجرثومة قد تؤم الجسم وتاوى فيه سنين طويلة دون حدوث مرض ظاهر ، كما فعلت في (ماري التيفويدية Typhoid Mary) تلك الطاهية الاميريكية التي تسببت في ما لا يقل عن ثلاث وخمسين حالة تيفود امقيت الوفاة ثلاث منها ، دون ان تصاب باى اذى .

— اهو الحمى التيفويدية ؟

— كلا ، فان حياتنا مائلة قد تصاحب اصابنا بجراثيم اخرى ، كما ان جرثومة ابرس قد تصحبها حالات تختلف عنها كل الاختلاف كالخراج او التهاب السحايا او انواع من الرومازم او التهاب حويصلة الصفراء .

قال صديقى : عدنا اذن الى اهمية التربة او الزواج ، الذى يكفى استجابة الجسم الى اى غزو او اعتداء ، وهذا يرجح ما ذهب اليه كرتشمير Kretschmer (١٧) وامثاله ممن يؤوا طبائع الانسان حسب شكله ونسب مقاييسه ، وقد بحث صحة استنتاجهم الى حد بعيد .

تحدثنا محادثنا :

اعد هذا جديدا ؟ لقد سبقكم الاغريق والرومان

١٦ - فيدال Fernand Widal (١٨٦٢ - ١٩٢٩) طبيب فرنسي كان بالغ الاثر في اتجاهات الطب الحديثة ، حتى بامراض الكلى والصلبيات ، وهو اول من اعار تحليل الدم ما هو جدير به من الاهمية ، وكان اول من وصف ارتفاع نسبة البولينا في الدم نتيجة لامراض الكلى ، وابتدع تشخيص حمى التيفود بلباس لثلام الجراثيم في فصل المرض ..

١٧ - كرتشمير Ernest Kretschmer (١٨٨٨ -) : طبيب نفساني ألماني ، لفت نظره وجود ارتباط وظيف بين شكل الجسم أو نسب اجزائه وبين ما يعانيه مرضاه من اضطرابات نفسية ، وقسم الاشكال الى ثلاث فئى كلاجنها لون من المرض ، ثم توسع ديريير George Draper ولاهها الكثيرون في هذا الاتجاه وربط بين الشكل والامراض الجسمانية ،

في أصلاتها ، إما الأضواء التي يجب علينا إعدادها لتسلطها على قضايانا ، فهي تلك التي نستخدمها من مميزات الحقبة التي نحن في صددتها ، أي من الجو الذي سادها ، وهو يشمل العقائد الدينية والأوضاع الاجتماعية والأطوار السياسية والمناخ الإقليمي وبشكل عام فلسفة العصر وبيئته .

قال :

استحلون في أنفسكم موسوعات مصنفة من العلم باللغات القديمة وعلم الأديان وتفسير النقوش والرسوم والأنتاج الفني والقبائش البشرية والمنزلية والقصص والروايات ، مع ما في كل هذه الأبواب من صعوبات ومموقات تحول دون اجتيازها ؟ أنه لم يبق مني - على سبيل المثال - قسط الاجتهاد في نقل علمائكم النصوص الهروغليفية أو المسماة إلى اللغات الحديثة ، كيف يدمون الاحاطة بمدلولات النصوص وهم قلما يتفقهون عليها ، لقد ترجم إبل Ebbell « تيدة : » نوزيف من تلقه ختان » (١٨) وأخرى : « علاج سقوط الرحم » (١٩) في حين أن جرايو Grapow ترجمهما : « نرف بسبب فوكة سعط » وهلاج لرفع لدين المرأة ؟ (٢١) (٢٠) أتني عندما تقلت في القرن الخامس عشر ق.م. نسخة من المؤلف البدي الطلقت عليه « برودة ادوين سميت » (٢٢) لأطلع عليها تلاميذي اضطرت إلى حشوها بهوامش تفسر العبارات القديمة التي كانت أهملت ونسيت معانيها بعد أن مضى على وضعها خمسة عشر قرنا .

مددت يدي إلى خزانة الكتب وأخذت منها نسخة من هذه البردية :

أجل أنك خلقت على الحالة السابعة : « أن حبل الفك هو مجموعة الأوتار التي تربط طرف الفك ،

وعلية الرأس هي متوسط قمتها بالقرب من الخنق ، وقد شبت بالعلية » ، وعلى الحالة الرابعة : « أن عبارة : أربطة في مرصاه » يعني بها : دمه يلزم نظام حياته السابق دون وصف أي دواء » وكانى بامبرواز بارى Ambroise Paré (٢٣) يصرح بمدك بثلاثة آلاف سنة : « أتني غمدته والله أبراه » ، فإذا كنت تقمصت أيضا (بارى) قل لي ، بالله ، هل صحيح ما قاله كاتب منك ، أنك إذ دميت لعلاج هنرى الثالث ملك فرنسا من الجرح البليغ الذي أصاب عينه في أثناء مبارزة ، قست عمق الجرح واختبرت خطوره بأدخال مصا في عين مجرم حكم عليه بالموت ، في موضع جرح الملك وفي اتجاهه وعمقه (٢٤) ؟

حول مجرى الحديث واستطرد قائلا :

وما أكثر ما أخطأتم فهمي ! أن الألفاظ كالأحياء لها تاريخ طبيعى ، تولد وتنمو وتتطور ، وقد تقنى وتزول ، ولكنكم تأخذونها على آخر معانيها . فما أكثر ما وقمتم في الحيرة ! أخذ مثلا وصف الإغريق لحبة (زيا Zia) وهى لعنى اليوم اللدة ، وكانت عندهم الحنطة ، وأنتم تعلمون أن اللدة لم تصل إلى بلادنا إلا عند عودة بحارة كولومبوس من القارة الأمريكية ، وكم من لفظة استعملت مجازا أخذتموها على لفظيتها . هل من المعقول أن ندهك (سن الحمار) أو رأسه (٢٥) في دهان أو نشربه في شراب كما ادعى المترجمون المتمسكون بعرفية الكلام ، بينما سن الحمار وما إليها من التسميات الوصفية كانت أسماء نباتات ؟ ما بالكم لو أن كتابا من القرن الثلاثين الميلادى ادعى أنكم تأكلون (عين الجمل) أو تستعملون النباتات التي أسماها الخيال الشعبي نشفة الذباب Silene rubella أو دم الأخوين Dracaena cinnabari

Ebbell, G., The Ebers papyrus, 1937, Levin & Munksgaard, Copenhagen, No. 808. - ١٨

Ebbell, ditto, No. 732. - ١٩

Grapow, H., Grundr. d. Med. d. Alten Aeg. Akademie Verlag, Berlin, IV, 1, 285. - ٢٠

Grapow, ditto, IV, 1, p. 213. - ٢١

Edwin Smith papyrus, ed. by Breasted, The Chicago University Press, Chicago, 1930. - ٢٢

بارى Ambroise Paré : (حوالى ١٥١٠ - ١٥٩٠) جراح فرنسي لازم هنرى الثاني ، وشاول التاسع ، وهنرى الثالث من ملوك فرنسا ، صاحب العيوش في خلال حروب المائة سنة واستبدل بطريقة الكى القديمة ديف الشرايين لوقف النزف ، وله تصنيف والف . - ٢٣

Histoires d'Amour de l'Histoire de France, II, p. 292, par Guy Breton, Ed. Noir & Blanc, Paris. - ٢٤

P. Ebers 18, No. 770. - ٢٥

هو الأبلز في ترجمته الذهب الحر (٢٨) في حين أن الأبلز هو طى النيل ، ثم أن الاعتماد على التراجم والأقتباسات دون الرجوع إلى الأصول يخطئ أخطاء المترجمين والمعلمين ، وأفضل مثال لهذا ما لحق بنظريات علائق الطب القديم ، الفاضل جالينوس ، منذ أن نشرها في القرن الأول الميلادي ، فقد عرضها حينئذ بن اسحاق في العهد العباسي على شكل ، ثم ترجمهما لينانك *Linnaeus* ترجمة مباشرة من أصولها اليونانية على شكل آخر ، وانضج من آخر تحقيق أجراه سيجل *Siegal* أن جالينوس أهم أطباء بالووقع مدة أخطاء ، فقد نسب إليه القول بأن حركة الدم في الأوعية تتم على شكل مد وجزر ، وهذا ما لم يجرى في كتاباته (٣٩) ، وقامت حملات عنيفة ضده أخذت عليه فرضه وجود مسام خفية في حاجز القلب بنفذه عبرها الدم ، وكل ما قاله في هذا الصدد أن هذه المسام تكون معاً اضافياً لفائض الدم ، وهو عندما فرض وجود مسام غير مرئية لم يشط أبعد من هارفي *Harve* إذ فرض وجود وصلات بين الشرايين والأوردة لم يكن له إلى رؤيتها سبيل قبل اختراع ليونهورك *Leeuwenhoeke* (٤٠) المجهز النظري ، ثم أن صعوبات اللغة ليست المواقف الوحيدة التي يجابهها المؤرخون ، فأتى كثيراً ما انتقضت على تفسير علماء الآثار لبعض البقايا التي كان أخرى بهم استرشاد المختصين فيها ، وقد درجت بعض الحكومات على تشكيل لجان تضم اختصاصات مختلفة على شكل (لوازم) من الباحثين ، لتعرض عليهم كل ما يتوسم فيه علاقة بفهمهم ، ودعى أذكر على سبيل المثال لما قد يقع فيه المؤرخون وصف دارسي *Daresy* عالم الآثار الفرنسي لنقش بمقبرة ميريوكا بقارة ، يمثل صاغة صوفون قلادات من الذهب ، ويتميزون بقصر أطرافهم السفلى بالنسبة إلى طول جلودهم . استغرب دارسي هذا الشذوذ لغيره بمسألة

أو لسان الفرس *Daphno alexandroia* أو غيرها من تلك التي أطلقت عليها أسماء تشبيهية ؟ هل في استطاعة قارئ عادي قراءة (قانون) ابن سينا أو (الحاوي) الرازي دون الرجوع إلى أهميات اللغة والمعاجم المتخصصة ؟ اتنا ، نحن العرب ، نمشي بالخوخ نوما من الفاكهة في لبنان ونوما آخر في مصر ، أن كلام العرب من السعة بحيث لا يحيط به إلا نبي (٣٦) — حسب قول الفقهاء — وقد ملق عليهم ابن فارس بقوله « هذا كلام حري أن يكون صحيحاً ، وما يلغنا أن احدا ممن مضى ادمى حفظ اللغة كلها » ، أضف إلى الصعوبات اللفظية الاصطلاحات اللفوية التي تختص بها كل لغة كسنت العرب في مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، وحذف أداة النفي ، كقولهم « والله أفعل ذلك » تريد « لا أفعل » ، وذكر الواحد والمراد الجمع ، والمكسر والفرق بين شدين بحركة ، كقولهم : « يخفر اذا نقض من أخفر ، ويخفر اذا أجاز من خفر ، واستعمال اللفظة لشئين متضادين كقولهم الجون للأسود والأبيض ، والرجاء للرغبة والخوف ، والجلل للشئ الصغير والكبير ، وأمثالها سلات كتب الافاز ، ثم انكم تفسرون الالفاظ بما لا علاقة له بأصلها ، كزعمكم أن اسم منقطة « السيف » مقتبس من لفظة *CIF* (٣٧) وهي مختصر عبارة يستعملها مورود البضائع اللواتي ، بينما السيف اسم فصيح لساحل البحر ..

— صدقت والله ، لقد ورد علي مثل لهذه الصعوبات في ترجمة انجليزية لكتاب : « الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » الذي وضعه موفق الدين عبد اللطيف البغدادي نحو سنة ١٢٠٠ م ، فقد ورد في المقال من فضان النيل وآثره على أرض مصر أنه « يأتيها طين أسود ملك فيه دسومة كثيرة يسمى الأبلز » ويبدو أن المترجمين ظنوا الأبلز

- ٢٦ — الزهر في علوم اللغة واتواعها : تأليف عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة جزء ١ ، ص ٦٤ (ب) ص ٢٨١ .
- ٢٧ — لفظة *CIF* مختصرة عبارة *Cost Insurance Freight* ومعناها أمن ولابن وشحن .
- ٢٨ — موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الافادة والاعتبار .. تأثر ص ٢٢ من : *The Eastern key, Zand, K.H., Videan, J.A., and Videan, I, E., 1965 G. Allen, London.*
- ٢٩ — *Siegal, R., Galen's system of Physiology and Medicine, 1968 Krager, Basel.*
- ٣٠ — ليونهورك *Anton van Leeuwenhoeck* (١٦٣٢ — ١٧٢٣) أشهر من هنري بكم المجهز ، وكان يحضر مسماته بنفسه ، فصنع آلات كانت مع صيوبها الآلية ، أجود صنع عصره ، ولكن من كثرة الأشياء ٢٧ مرة ، وتعد التحالف اليوم بما بقي من صنعه .

ثلا يسمحوا له بالتمتع بحياته الثانية ، ولهذا السبب ، ولهتكهم أغلب آثار عاصمته (تمل العمارة) (١٢٧) لن يتاح لكم الوصول الى الحقائق كاملة ابدا .

وهنا سألته في فضول وقلة لياقة :
وما الذي دعاكم الى تحنيط الوتى ؟
اجابني غاضبا :

انى مندهش لجهالتك ، فضلا عن حماقتك .
انما حنطنا موتانا لايماننا باستمرار حياتنا بعد الموت في البيوت التي سيدناها لاستئناف عيشتنا على نمطها الاول ، وهي التي اسميتموها انتم مدافن ونحن نطلق عليها « دور الخلود » .
لم نؤسوس قط بفكرة الموت - ككرم بعضكم - ،
وانما عتينا بالمداخن لوسوستنا بالحياة ، ولشغفنا بها ، ومن لم اهتمامنا بحفظ اجساد اهلنا سليمة ، لتقف امام الاله صحيحة ، ولنستمتع بملذات الحياة كاملة ونستشيق صبا الشمال لئلا ، وتتلذذ بحرارة الشمس نهرا ، ونستطعم الوان الطلعة المتوقشة على الجدران ، ونتم بحب الزوجات والاولاد الى الابد .

اجبت :

- ان لكل عادة غريبة سببا معقولا ، لقد وصل اهتمامكم هذا الى استبدال اطراف صناعية بالاطراف المتروكة ، واني تركيب الجائر على الاذرع الميتة اذا كسرها (الحانوتية) ، وكسا نجهل الدافع الى سلوككم الذي ، اقل ما يقال عنه ، انه يبدو غريبا . ولكن الاذى في هذا ان هذه العادة ، التي كانت طبقا دينيا بحتا ، افاد منها الطب فوائد غير منتظرة ، فان لف الجثث بالاربطة بطرق في غاية الفن درب فئدة من الناس تخصصوا في الاربطة ، فماتوا الاربطة في تجبير الكسور والخلوع عند الاحياء كما كانوا يفعلون بالاموات ، وقد ذكر هذا في بردية اذوين سميث ؟

معد فتفتحت البردية وقرأت :

« ان الطعام الذي يستعمله الطبيب هو رباط

فنانى هذا العهد ، فنجح الى انهم قصدوا تمثيل الصافة راكعين ، ولكنهم تسرعوا فرسوا المائدة التي يعملون عليها قبل رسم اطرافهم ، فشظلت الجبال امدد للاطراف ، ولم يجدوا مقرا من وضع الاطراف منبسطة في ارتفاع كان مخصصا لها وهي منثنية ، ومن هنا قصرها النسبي . غير انه فاته - وكيف لا - ان اللرايين تميزا بالقصر نفسه لان اولئك الصافة كانوا من الاقزام المصابين بعمالة (الاكوندروبلالزيا) التي تمتاز بقصر الاطراف لتوقف نموها في سن مبكرة .

اصبت بابنى وتشخيصك للعاهة سليم ، كانت الاقزام تكلف بصياغة الحلي وب حفظ الامتعة والكنوز ، لسهولة العثور عليهم اذا ما فروا بها .

اعترض صديقي :

« ان عكس هذا الخطأ أكثر خطورة » ، واتجه نحوى : « وقد وقعت انت فيه ، فقد يفسر الاطباء تفسيراً طبييا ظاهرة ذات مدلول رمزي ، انك استندت بميامة شكل الفرعون اخناتون الى خلل في غددته (١٢١) ، كما ظننه ما سيبرو من قبلك امرأة ، والحقبة انه اراد تجسيم عقيدته ، وهي ان الاله (اتون) هو الخالق الواحد ، لم يشاركه في الخلق غيره ، فهو ابو الكون واهمهما ، جمع في نفسه خصب الذكور والاناث ، فكان لابد عليه وهو صورة الاله المتجسدة - من تمثيل نفسه على شكل لاجنسي . »

قلت :

هذا راي فئدة من علماء الآثار ولكننا ، معشر الاطباء ، لن نصدقهم حتى يتم الكشف عن موميائه .

اختفت ابتسامة الزائر وغشت الكتابة وجهه :

لن يحدث هذا ابدا . ان سيدي اخناتون كان اول من نادى بالتوحيد ، وكان مصدر ايمان بني اسرائيل ، وناهض عبادة الالهة التي تسمونها اصناما وكان اقوامهم آمون ، وقد انتهك موميائه والاسفاه كمنة هذا الاله انتقاما منه ، واهدموها

٢٢ - تل العمارة (خوت تان ، اى اقل قرص الشمس) الماصدة التي شيدها امحتب الرابع ليبيدع من نفوذ كهنة آمون بريدية (طيبة) ، عندما اتخذ اسم اخن - اثن ليتجود من اسمه الاول الشامل لاسم الاله آمون ، تقع هذه المدينة في متوسط الطريق بين القاهرة واسوان ، واسمها العربي نحت من اسمي قرية (اقل) وقبيلة (بني عمران) القاطنة حاليا بها ، وقد هدمها لاحق اخناتون بعد موته لشدة كرههم للعبادة الجديدة ، ويدل ما بقي منها على تقدم كبير في الفن وعلى ظهور نزعة طبيعية في الرسم اثرت على الفن المصري طيلة من ائتم .

كشفت عنها في هذه الجبنة أو تلك . اهو الزهرى أو الجذام أو التهاب غير نوعي أو ورم ؟ وحول رينج أول ما وصل الزهرى الى قارتنا ، اوقد عليها هدية من أمريكا بوساطة بحارة كولومبوس .

أم كان متوطنا عندنا من قبل ؟ أما فيما يخص عهدكم ، فاننا أكثر دراية بحالتكم الصحية لحفظكم الأنسجة الرخوة في حال تسمح بتفحصها على ادق وجه ، وليس بالمجهر النظري فحسب ، وإنما بالمجهر الإلكتروني الذي وقفنا على ادق دخائل الخلايا ، كالميتوكوندريا mitochondria وقد اظهر (روفر) Ruffer (٢٤) ميتوفايتو بغض احتفاظ الأنسجة بهذه الحال الجيدة ، بويضات البلها رسميا ، وآثار تصلب الشرايين ، فضلا عن امراض أخرى ، وعرفنا ان رسميس الخامس توفي عقب مرض الجدرى ، وأن الملكة نفرتاري والفرعنة آمنوفس الثالث وسيتي الأول ورسميس الثاني كانوا صلما ، والعق يقال اننا عرفنا بغضلكم عن حالة الفرعنة الصالحة ما لا نعرفه من ملوك القرن الحالي . وما دمنا في ذكر عادات نستفريها ان لم نجد حوافز معقولة لها ، فاسمح لي ان استفسر عن امر مائة أخرى لدهشنا ، وهي الزواج من الأخوة والأخوات .

اعاد آخر حديثي الغضب الي محيا محادلي بعد ان كان ازاله أكثراني بغضل التحنيط علينا .

— انك ما تزال تحكم علينا بمنطق النصف الثاني من القرن العشرين ، أعلم إنها الشاب القرير أن نساونا كن يتمتعن في مجتمعنا بمركز أرفع مما تتمتع به نسائكم في أكثر بلادكم حضارة وتقدما ،

موجود بين ايدي المحتلطين « ،والى هذا فان اعتياد فتح الرؤوس والبطون أرشد الى مواضع الأحشاء واشكالها ، وأسهم في رفع الحظر عن شرع الموتى في عهد البطالة .

قال :

اجل لم تقم السلطات الاسكندرية صعوبات مثلما قمنا مع زميلي هيروفيلس (٢٢) وابرازستراتوس (٢٤) باجراء الصفات التشريحية والتجارب على الاعصاب والعضلات التي مكنتنا من تصحيح اخطاء الذين كانوا يحرقون موتاهم أو يحجمون عن تشريحهم فلما منهم انه انتهاك لتعاليم الدين ، كما ان مقابلة اصابات الأحشاء بالأعراض المرضية رجحت كفة القائلين بان المرض مبني على اسس عضوية .

قلت :

وفيما يخصنا ، فاننا ندين لمادة التحنيط بمعلوماتنا عن حالتكم الصحية ، لأن القيا الشربة نفشى بأمانة اسرار العضارات المنصرفة ، لو أنها لا تتعرض للتلط ، ولذا فان معرفتنا لأمراض الماضي تكاد تقتصر على امراض العظام والكسور وما استعمل في سبيل علاجها من اربطة وجبائر ، ومع ذلك فان تشخيصها ليس بالامر السهل بعد ان نضرب فيها الدهر ، وهو يشتر مناقشات حادة بين اخصائى الصلم الذى اطلق عليه اخيرا (باليوباثولوجي) palaeopathology أى علم امراض الاحالة والآثار ، حيث نراهم يتجادلون في مؤثراتهم حول سبب تكاليف العظام التي

٢٢ — هيروفيلس (حوالي ٢٠٠ ق.م.) : عالم اسكندري يعوى التشريح ووصف اجزاء عديدة من الجسم عنها الاثنى عشر والمخيط والناعج الشوكي والأوعية اللمفاوية ، وافرغ بين الاعصاب والأوعية ، وأورد ان الاعصاب تنقل الحس وتدفع الى الحركة ، وكان أول من هذا التبش مستعينا بساعة مائية ، وقد يكون التنبس هذا ابتكار من تعاليم مصرية قديمة ، حيث ان عد التبش مذكور في برديات ادوين سميت وابرز وبرلين ، وأن هناك نماذج معروفة من الساعات المائية ترجع الى عصر تحتمس الثالث ، كما انه حاول حل مشكلة الدودة الدموية؛ ذاتها أكثر من غيره .

٢٤ — ايرازستراتوس (٢١٠ - ٢٥٠ ق.م.) : من تلاميذ مدرسة فيندوس المنافسة لمدرسة ألو' الإبراهيمية ، وكان مشرعا دؤوبا ، لم تقل معلوماته في رأى بعضي المحاصرين من معلومات فيزاليوس في القرن السادس ق.م . استند - على ما يبدو أول مرة في التاريخ - الى التجربة والعلوم التجريبية لتصيل القواهر الجسدية ، منها فيزياء الفراغ وفكرة لقوى الطبيعة من الهواء التي انطقت منها اسماها للفسيولوجيا الجديدة . فقال ان الساع الصدر في أثناء الشهيق يمتص الهواء داخل الرئة ، وبالتالي ان انقباض القلب يجتذب الهواء من الرئة ، ولعب الى ان الشرايين لها خاصية انقباض ذاتية لجذب بوجيها الهواء (أو النفس) من القلب الأيسر ، حيث ان الدم ، في رايه ، محصور في الأوردة والقلب الأيمن ، أما النزف فلن سببه اندفاع الدم من الأوردة الى الشرايين بدافع الفراغ الناتج في الشرايين عند فتحها وخروج الهواء منها ، فاستنتج وجود صلات متفرقة بين الأوردة والشرايين يجتازها الدم وإنما في حالات مرضية فقط .

Ruffer, M.A., 1921 : The Palaeopathology of Ancient Egypt, Chicago University Press, Chicago.

أضفت :

أو من شظية شجرة جسدت شخصا كما روى في قصة الأخوين (٢٨) وماتزال بعض القبائل المتخلفة تؤمن بمثل هذه العقائد ، ونسحب الصبيات من ملقحات مزعومة كالأرواح والرياح والأعاصير والحيوانات البرية .

استطرد :

ومع ذلك فقد بكرنا الى دور الذكور في التكاثر حتى أن بعض أميراتنا كالأميرة (ادوت) كانت تلقب بـ (ابنة الملك التي من جسده) (٢٩) وإنما ، لما للكهنة المحافظين من نفوذ ، تحجرت تقاليدنا ، وأصبح الزواج من الأخوات محبوبا لهدفه الى امرين : أولهما الاحتفاظ بالآثار من الوقوع في أيدي غريبة ، وثانيهما ضمان انحدر السلالة من أصلها الإلهي ، اذ أن الإله كان أصل الأسرة المالكة ومصدرها للحق في الملك ، ونتيجة لهذه الاعتبارات قيد حق الجلوس على العرش بالزواج من أميرة منحدره من أصل ملكي من طريق الملكات ، لا عن طريق الإماء أو الأميرات الغريبة التي كان القصر الملكي مكتظا بها ، وهذا حتى يتحقق في الأولاد النسب الى الإله . فكان لزاما على فرعون ، وإن كان ابن الملك - الزواج من أخت أنجبته الملكة الكبيرة وكانت تسمى الزوجة الكبرى ، وإلى هذا فإن الصبيان والصبيات كانوا يربون تربية منفصلة فلم تنشأ بينهم مشاعر الأخوة التي استنكرتم من أجلها هذا النوع من الصلات .

أنهم كن يشاركننا تمايلنا ومشغولياتنا ، وبصاحبنا في رحلات القنص وصيد الأسماك وفي الولائم والاستقبالات الرسمية ، وكان لبعضهم شأن خطير في إدارة دفة الدولة ، منهم (حاتشيسوت) (٢٧) التي جمعت بين قوة الرجال ودهاء النساء ورشاقتهن ، وانتزعت الصولجان من يدي تحتمس الثالث وأستولت على الحكم ، والملكة نيتوكريس (٢٨) التي حكمت مصر وانتقلت لآخوها شر انتقام ، والملكة (تيبى) التي سيطرت على ابنها أختانور والتي بلغ ولع زوجها بها - وهو الخرف المزاج أمونفيس الثالث - الى حد حفر بركة واسعة خصصها لتزاهها المائية وإلى توزيع جمران نقش عليه هذا الحادث لحفظ ذكره ، وكل سيدات الأسرة الطيبة اللائي لعبن دورا فلدا في الأحداث الهامة التي انتهت بتحرير مصر من حكم الهكسوس ، ولعل الملكة التي نالت أعظم صيت الهكسوس ، (مع - حتب) زوج (سقنرئ) بطل الحملة التي طردت الفتحصين ، والتي ورد على شاهدها بعدد كثر أنها هي التي ضمت صفوف عسكر مصر وأخذت الثورة . وكانت الوراثة - أحيانا كثيرة - تؤول من طريق النساء ، لأن الأم مدت وصلة السلالة وواجهت الحياة ، اذ كانت مقيدة أسلافنا - بادئ ذي بدء - أن الذكر ماهو إلا ميلا منيلا لانتقال البوصة ونموها ، وقد جهل بعض البدائيين علاقة العملية الجنسية بالحمل جهلا تاما وانصرفوا الى أن المرأة قد تلقح من الهواء ألجن أو أرواح الأجداد . .

٢٦ - حاتشيسوت (١٥١٦ - ١٤٨١ ق.م.) : نرى على تماثيلها سيماء الحزم وقوة الشجاعة ، كانت ابنة تحتمس الأول وزلية العرش ، تزوجت أخاها تحتمس الثاني وأنجبت منه ابنتين ، أحدهما زوج تحتمس الثالث ابن زوجها من مصرية . وطغت في من مبكرة ، ونسملت زمام الحكم بحزم وقوة ، وأحببت السلم ووصلت بالبلاد الى أعلى رهاهاة . وقد ابنتت ميمبا ليريا في (دير البحري) ، قيمته التاريخية ليست في ابتكار طراز معماري جديد فحسب ، وإنما في تشييدها على جدرانها على شكل ملك ، ولتقليدها بالقب (الملك) والشمس الأئشى .

٢٧ - نيتوكريس . روى هروث (٢ و ١٠٠) أن امرأة تدعى نيتوكريس حكمت مصر ، وأهلكت الكثيرين من المصريين النقلابا لتفهمهم بالحياة خلال حكمه ، وقد أولوها الملك بعد قتله ، فقد ابنتت قامة واسعة تحت الأرض ودمت الى وليمة معدا كبيرا منهم وبخاصة أولئك الذين علمت أنهم كانوا من التماسين على قتل أخيها ، وأهبطت عليهم في أثناء الوليمة ماء النهر من قننة خفية ، وبعد أن قامت بملتها هذه القتب نفسها في غرفة مليئة بالرماد حتى لا تصاب ، مما يزيل حرق الرواية - وإن كان دخلها شيء من الخيال وليس من أسطورة أوزيريس وإيزيس - أن مصر كانت في هذا العهد ساحة صراع وتفنن ومؤامرات بين الفراعنة في مصرش ، وإن مانيشيو (Manetho) المؤرخ المسمندوى ذكر (نيتوكريس) ووصلها بأنها كانت أبلا وأحب نساء عصرها .

٢٨ - قصة الأخوين ، انظر :

Lefebvre, G., Romans et Contes, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1949.

٢٩ - Macramallah, R., 1935, Le Mastaba d'Idout, Fouilles de Saqqara, Public. Serv. Ant. p. 23.

مثلين من طرائق مذكورة في بردية ابرس، وتسلسل استعمالها دون انقطاع من القرن الخامس عشر ق.م. الى الطب الشعبي اليوم من طريق الاغريق والقرون الوسطى الأوروبية والعرب، هي تشخيص الحمل وجنس الجنين بملاحظة فعل بول الحامل في بعض النباتات، وهو ما يزال يمارس في الأناضول (٤٠ ر ٤١)، وعلاج بعض امراض النساء بوساطة دم الحيض الذي شاهدنا استعماله بين بدو شبه جزيرة سيناء (٤٢) وما يزال جاريا في بعض القرى الأوروبية، بل ان مثل هذه العقائد والمعادن ما يزال فاشيا في فئة ممن يدعون ثقافة نالقة ولكنهم يضعون العجب والمجرات فوق العلم المحقق.

على ان المنهج (التولكوري) يسهل على من انغمس في حياة الشعب موضوع دراسته منكم طفولته، بينما يصير على المستشرقين بحكم (أورويتهم) التي تبعدهم عنه وقد تؤدي بهم الى التخطئ واركاب اخطاء جسيمة في تأويل مسائل غابت عنهم وان كانت عندنا بديهية. خذ مثلا ما ورد من ماكين تناولوا موضوعا واحدا، هو ترجمة ابن النفيس. فان مايرهوف Meyerhoff (٤٣) المستشرق الألماني الذي أمضى قسما طويلا من حياته بمصر، تشكك في تسمية هذا العالم (أبو الحسن) لانه لم يتزوج البتة ولم ينجب ابنا يسمى (الحسن)، وكاد الكاتب الاسباني كوريزي دل أجوا C rices del Agua (٤٤) ينفي حقيقة تاريخيته ويؤكد انه شخص خيالي لان اسمه ورد في بعض المخطوطات (على)، وفي الأخرى (أبو الحسن)، وميب تمترهم جهلهم عادة الكنى التي لم تكن لشعب الا للعرب.

سألتني محدثي :

أفدني عن هذه المادة ؟

قلت : ان مثل هذه المعاديات ما يزال ساريا في بعض أنحاء العالم دون ان نترك دوافعها التي بينتها لنا بالصدفة الى الماضي، فان أحداث الحضارة ليست مظاهر عابرة تنشأ في مكان ما او زمان ما، ثم تنقطع وتفتي، وانما هي سلسلة، تطبع كل حلقة منها أثرا عميقا في الحلقة التالية، وهذا الأثر يبدو على صعيدين، الفردي والجماعي، فيحق لنا اذن دراسة هذه الآثار لتعطينا على تحري بعض نواحي التفكير الانساني، فالمرء يولد شيئا كتهل بتأريخ اسلافه، ويتبع في تكوينه المخطوات التي مروا بها، وقد يتوقف نمو عند حد يماثل مرحلة من هذه المراحل او ينتكس اليها، ومن ثم يبدو عليه علامات عدم الثبات الاجتماعي التي تتراوح حسب مرحلة تنطوحيها من الشذوذ المقبول والاضطراب الذهني الكامل أو الجنون، وكلما تقدمت حضارتنا زاد عدد الذين لا يقفرون على اللحاق بها، ومن هنا الزدياد في عدد المستشفيات التي تعالج فيها الاضطرابات النفسية. وقد تسنى لملء تحصيل النفس أمثال فرويد Freud و يونج Young تفسير عمليات الذهن الباطن باعتباره مودة الى تفكير الإنسان البدائي، وهذا بتطبيق المشاهدات التولكورية على مشاهدات تتناول سلوك المرضي الموسمين او تفكير الاطفال او بعض مظاهر التفكير اللاواعي كالاحلام والأوهام، وبالعكس فقد أمكنهم فهم عمليات الذهن البدائي بمقارنتها بها في الاطفال والشواذ، ولذا فان العالم بعلوم الإنسان (الانثروبولوجيا) قد يكون أقدر على تفسير النصوص القديمة أو المعاديات الغابرة من زميله عالم اللغات.

وإذا اعتبرنا الطب وجدنا وسائل التشخيص والعلاج القديمة ما تزال تمارس في قرانا وبين الشعوب التي لم تهد الى العلم بعد، ودمتي أضرب

Ghalioungui, P., Ammar, E. & Khalil, Sh., 1963 : On an ancient method of diagnosing pregnancy and determining faetal sex, Med. History, Vol. 7., No. 3, 241.

Kawancigli, T.R., Sur les traces d'Hippocrate en Qnatie, XVII Cong. Int. d'Histoire de la Médecine, Athens, 1960, p. 79.

Ghalioungui, P., 1966 : On the persistence of the use of catamenial blood in folk medicine, - ٤٢ Bull. Inst. d'Ég., in the press.

Meyerhof, M., 1935 : Quellen u. Stüden z. Geschicht. d. Naturwiss. u. d. Medizin, Band 4. - ٤٣

Curiese del Agua, A., 1967, Gac. med. Espan., Nos. 491 : 273 ; 492 : 311 ; 493 : 365. - ٤٤

اجته :

ان الذي دعا العرب الى الكنى هو الاجلال من التصريح بالاسم باستعمال الكنية ، وهذه السنة وهي من مفاخرهم ، لم يخصوا بها الا ذوى الشرف من قومهم - وقل من مشاهير الاسلام من ليست له كنية .

تتم صديقي :

اكتبه حين اناديه لاكمه

ولا اقبله والسوء اللقب (٤٥)

فقهه الزلزال من مير القرون وقال :

الا ترى انك تؤكد شكوكي بالتصريح بصعوبة لتكم ؟ فابن تجدون اذن المصفاة التي تفصل بين العصف والصوب في اقول اولئك الذين تسميهم مؤرخين وما هم الا رواة يبتغون - اولاً وآخر - امر مستعجبهم بمعجب يزعمون انهم شاهدوها . اصدق تلك القصة الساذجة التي رواها هردوت عن سيدي فرعون اذ زعم ان العمى اصاب مولاي عقابا على تجارة على النيل اذ سقط عليه وقدف رمحا وسط دواماته لافرطري فيضائه الذي غمر الزروع ، ثم ان حيا جاده بعد مضي عشر سنوات ، بانه سوف يسترد بصره اذا غسل عينيه ببول امرأة لم تجتمع الا بروجها فقط ، فحبر بول امراته كم ، على التوالي ، بول كثيرات من السيدات ، ولما عاد اليه بصره احرق جميع النساء اللاتي جربهن حاشا تلك التي ابصر بعد الافئسال ببولها فقد اتخذها زوجا له (٤٦) ؟

- ان هذه القصة تمثل حقا ما لا سبيل للمقل الى تصديقه ، وهناك رواية اخرى من رواياته كذبها القرائن وهي ان بابل لم تعرف مهنة الطب وان المرضى كانوا يعرضون بها في قاعة الطريق على المارة لمل احداً من هؤلاء يوصي بعلاج شاف (٤٦ ب) ، مع ان المؤكد ان الاطباء كونوا بها مهنة موزوعة تحت رعاية الدولة ومنتمية الى طوائف عدة وقد كشف من اختار بعضهم تذكروا اسماءهم ، فكيف جاءت تلك الروايات على لسان « هردوت » وقد مجده المؤرخون وقلوبه (ابا التاريخ) ؟

- يابني ، لانجو احد مهما اشدت شخصيته

من تاثيرات التيارات السياسية والمصالح العنصرية ولم يخلص « هردوت » من الدعاية السيئة التي نشرها بنو اسرائيل حول سيرة مولاي .

- هذا رأى استاذنا الدكتور احمد بدوي (٤٦ ج) الذي رجح ان سيلك كان فرعون « الخروج »

فاشار الشيخ الى وف من ارفف المكتبة وقال : اري عندك كتاب « هردوت يتحدث من مصر » الذي صدره هذا العالم بمقدمة ثمينة ، دهنى افنتحه واظلو عليك ما كتبه منه بعد ان اهدق عليه الاطراء ووصفه بأنه « ملا الدنيا وشغل الناس » تناولت الكتاب معجبا بعلم الشيخ وسعة اطلاعه ولاوفر تعبه قرأت ما يلي :

« ما اكثر ما خدع المؤرخون بين ايدي الترجمة كما يخدع السالكون اليوم وما اكثر ما ظهرت بساطة « هردوت » حين صدق ما جاء منهم ... ومن المضحق ان « هردوت » قد خدع فيما سمع من روايات الادلاء والترجمة ... ليس من السهل علينا ان نمضي في تصديق « هردوت » دون ان نتصور حوالم من الشك لا مناص من الوقوف عندها »

وان كانت امانة احمد بدوي العلمية املت عليه التشككي انصاف حكمه اذ اضاف : « الله يشهد ان الشك لم يثر في نفسي بالنسبة لهردوت وعنده ولكن بالنسبة للكثيرين غيره » وقد يكون سبب ذلك هو طول النظر في تاريخ وطني الطويل ، وما عانى اسلافنا وعائتنا نحن من غدر المستعمرين قديما وحديثا .

وهنا تدخل صديقي وقال :

وما رايتكم في سترابو Strabo الذي يعد ثبنا من اثبات الجغرافيا التاريخية والذي ، بعد ان صرح بان سنة الختان نشأت في مصر ، زعم ان بنى اسرائيل اخذوا من المصريين عاداتي ختان الصبيان وخفض البنات ، مع علمنا علم اليقين بان اليهود لم يخفصوا بناتهم البتة (٤٧) ؟

لم يجبه عن سؤاله وكان الحديث في الامور الدينية جرم عليه ، فأصرعت ، لرفع حرجه :

٤٥ - الزمخشري في « دبيع الايراد » ذكره المصوبى (٣٦ ص) ٣٤٤ .

٤٦ - تاريخ هردوت ، انظر « هردوت يتحدث من مصر » ، تاليف محمد صقر خواجه وشرح احمد بدوي ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٦ : ٢ : ١١١ و ١١٢ (ب) و ١٩٧ (ج) ص ٢٣ و ٢٦ (د) ١٤١ .

٤٧ -

The Geography of Strabo, Loeb Class. Lib., Heinemann, Harvard, XVII, 5.

حياته في قبره ، وهذا هو ما فعله كنهة آمنون بأخنائون ، وتحتسب الثالث بحتشيسوت ، ولكن ما أسرع استنتاجاتكم وما أحققها ، بل اني ذكرته وأعطينته حقه من المدح والتقدير ، وكيف لا افعل وقد عرفتم معرفة جيدة وزاملته في دمشق ثم في القاهرة قبل ان اغادر ارض مصر قاصدا صفد ونشأت بيننا أواصر صداقة وطيدة ، الا ان ما قلته عن القرشي - كما كنا نسميه أحيانا - جاء ضمن جزء من مذكراتي لم يرد على مولر Muller ناشر اول طبعة المؤلفي ، وقد وفق الباحث السوري يوسف العشي الى الكشف في المكتبة الظاهرية بدمشق عن الاثبات الناقصة من الطبعة الاولى والي نشرها فبراني من هذه القرية . (٤٩)

وما ان انتهى من هذا الكلام حتى رأيته يكر في نظري ، واذا بالرازي يجلس تلقائيا ويشكر في مرارة : « اعتاد منتحلو لقب المؤرخين ، في سداجة وقد يكون في سوء نية ، نقل اقرب الروايات المختلفة ، لقد حكى ابن خلكان ، مقتبسا من ابن جليل ، اني كنت صنفنا للنصور كتابا في الآيات صناعة الكيمياء (٥٠) فأعجبه وجاني بالف دينار ، وطلب الي ان اخرج ما ذكرته في الكتاب الى الفعل ، واحضر لي كل ما احتاجه من آلات ومقايير وما يليق بالصناعة كاملا ، ثم انني عجزت من انجاز زعمي وان النصور قال لي : ما اعتقدت ان حكيما يرعى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة ويشغل بها قلوب الناس ، وحمل السوط على رأسي وامر بان اضرب بالكتاب على رأسي حتى يتقطع ، وكان ذلك الضرب السبب للمروم في نزول الماء في عيني وفقداني البصر »

افاق صديقي من تأملات انفسي فيها كالثرثيق وقال :

ان حزننا من القدامى لا يقل عنه ممن هم اقل منهم قديما ، كيف نوفق بين اجلال الدهر لابن سينا وبين رأي البندادي فيه اذ صرح - تبعا لابن أبي أصيبعة - بأنه كلما آمن في كتب القدامى ازداد فيها رغبة وفي كتب ابن سينا زهادة . . . وان اقوى من اضله ابن سينا بكتابه في الصناعة الذي تم بها فلسفته التي لا تزداد بالتمام الا نقصا (٤٨) .

تكاثفت النجوم المتصاعدة من اللغائف واطبقت على الشيخ ستارا اخفاها هنا لحظة ، ثم اسفرت من خطوط اخلت ترسم وجهها تحيفا وعينين ثابتتين ، وعمامة مقلمة ضخمه .

انه قال عني هذا الكلام وانما اوتي بالمثل ، وقد اشرت في حياة اخرى الى حدة لسانه في (طبقات الاطباء) وان كنت قد توخيت الخفة والركة اللتين تليقان بعالم كان صديق جليي واستاذ والدي وعمي .

اجبته في لهفة :

قل لي ، افادك الله ، ان كنت تجسدت في ابن أبي أصيبعة فما سبب افلاك ابن النفيس في مصنفك الثمين الذي لا غنى عنه في معرفة اطباء الاسلام ؟ احقني ما رواه مايرهوف من ان وقيرة وقعت بينكما فأردت الانتقام منه بعدم ذكر اسمه ، وعدم ذكر اسماء الاعداء كان من سنن كهنة المصريين وملوكهم اذا ما أرادوا محو ذكرى اعدائهم .

عادت اليه سيماءه القرومية لحظة وقال :

ان الكلام لم يكن في نظرنا اداة اجتماعية وانما قوة كونية تملك القدرة على الخلق ، وكنا نؤمن بان الكلمة هي الشيء وبان الاسم هو الشخص ، وان محوه يبديد صاحبه فيمنعه من استئناف

٤٨ - ابن أبي أصيبعة : ميون الأتياء في طبقات الأطباء ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٧ ، الجزء الرابع .

٤٩ - يوسف العشي ، مطبوعات دار الكتب المصرية ، الترخيف وملحقه ، مطبوعات الجمع الطبي السوري بدمشق ، ١٩٤٧ ، ص ٣٠٦ .

٥٠ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، الجزء الثاني .

المضمار كان قسطنطين الافريقى الذى رحل من شمال افريقيا الى جنوب ايطاليا محملا بمؤلفات العرب والافريق ، وترجمها الى اللاتينية دون ذكر اصولها ، فاكسب شهرة اغتصبها من غيره وعندنا زمننا طويلا جهلنا من عمالة الطب (٥١)

اعترض محادثنا :

لا تنس ان الامانة العلمية لم تكن من مميزات هذه العصور ولا من متطلبات التصنيف ، ولا ان الفضل لقسطنطين في بحث الطب في سائرنا بجنوب ايطاليا وفي زرع بذرة نثرت ظلمها الى سائر ايطاليا والى مونبلى في فرنسا ، فاننتجت الزاد الذى غذا النهضة الطبية الاوروبية ، والغريب ان عدم التقيد بذكر المراجع استغل استفلا عكسيا ، فان الكثيرين من الكتاب دأبوا على اسناد اقوالهم الشخصية الى مشاهير الاسلاف لدعم نظرياتهم او للتويهى بسمة ثقافتهم ، كما تنظون اليوم اسماء جحا او ابي نواس (ج . ب . شو) G. B. Shaw في تكلمك للارادة ضحك مستعصم .

اضفت :

ان هذا اللون الفردى من الانانية لا يكاد يحسب له حساب اذا قورن بما هو ادهى وأمر ، وهو نوع من الاعتماد الطائفى او المنصرى الذى يتخاطف لقم الشهرة ليفلج بها صيت مواطنيه مهما كانت تفاهتهم ، فيحرف التاريخ بطرق علمية مزيفة . وقد اخذت هذه الظاهرة تبرز حديثا على شكل بشير الى حملة دعائية منظمة دخلتها حوافر نبتت من الحمال السياسية الراهنة وهى شبيهة بتلك التى ادت منذ ثلاثين قرنا الى ابتكار رواية عمى فرعون ، وقد استهدفت هذه الهجمات اخيرا الطب الاسلامى فادعى بعضهم ان الملع صفحاته كانت من انتاج غير العرب .

علمتنى الايام رد اية رواية لاستندها القرائن والبراهين ، حتى اذا زعم راويها انه عابتهها بنفسه . لقد كنت اعمل - منذ ثمان وثلاثين سنة - بقرية متاخمة للقناطر الخيرية بقرب القاهرة ، الوجه اليها صباحا واعود منها مساء ، وحدث ان منطاد « جراف زبلين » زار القاهرة خلال طوافه الاعلامى وهبط بمكان مسعد له بالصحراء لمدة ساعات معدودة ، وغداة هذا اليوم ذهبت الى القرية واجتمعت فيها كمادى بالاعيان ، منهم العمدة وشيخ التجار ورئيس الكتبة وانصت في اعجاب لا ينفوقه الا تعجيبى وذهولى ، الى رواية المنطاد ، وقد اصبحت على السنتهم اسطورة ، ونحوها ان اهل القرية شاهدوا المنطاد وهو يحوم فوقهم ، ثم وهو يطوف على سطح النيل ، ويهب من فوق القناطر لمتابعة رحلته النهرية ، واكدوا انهم راوه يقلع من فوق سطح النهر الى السماء ، ثم يهبط على اليابسة ليود الى القاهرة على الطريق الزراعية ، فساورتنى عندل فكرة مقلقة ، وهى ان مثل هذه الشهادة من قبل اعيان القرية وسلطانها كانت في العصور المنصرمة تدوّن في السجلات الرسمية وتبلغ للسلطات المركزية وتدخل صلب التاريخ . اما ان الخيال الجماعى يصل الى هذا الصعيد من الابداع في الابتكار بعد وقوع الحادث بساعات ، فهذا ما يشفع لهردوت وابن خلكان وغيرها اذ تقلوا نوادر حكيت بعد حدوثها بقرون قلت :

اهى سلاجحة منهم حقاً ؟ ام هل هناك دوافع اخرى تحفز الرواة الى افتعال قصصهم ؟ لقد عرفنا حافزا منها وهو التشهير السياسى ، وآخر هو الرغبة في جلب اعجاب الجماهير ، ولكن هناك ما هو اخطر وهو الانانية وانتحال اقوال الغير للاعتداد بالنفس ، وبرز بطل في هذا

٥١ - قسطنطين الافريقى (١٠١٥ - ١٠٨٧ م) طبيب من قرواجنة الم الماما ثاما باللفات الشرقية . وطاف بهمر وسوريا والعراق والهند والحبشة ، واحاط فيها بطبوعها ، ثم فر الى سائرنا هربا من تهمة السحر ، وانتخب بها معلما مرموقا بين الاساندة والممارسين ، واصبح امين دوق ابوليا ، وانتهى بالرهينة في دير جبل كاسينو ، وبعد قسطنطين رائد الطب العربى في اوروبا ، فقد ترجم مؤلفات ابقراط وجالينوس والجوسى وغيرهم ، ويؤخذ عليه انه انتحل الفلاس في وضع كتبه دون ذكر الذين انتلح بسابق طعمهم ، ونسبها لنفسه ، وكان مؤلفاته نفوذ دام طيلة من الزمن في اوروبا .

استطعنا صقل ازهي حضارة شاهدها العالم .
 اطبق علينا سكون كثيف هنيهة ، ثم اشرق
 وجهه عن ابتسامة فضول ، وبعد تردد قصير
 تشجع فقال بسرعة وبني نفس واحد :

أراكم تمضون الليالي في دراسة ماضى مهنتنا
 وتقفون عليها قدرا وفيرا من جهودكم ، هل لي
 ان استفهمكم الفالدة التي تتوقونها منها ، وهي
 اصيحت ضياع وقت ومشغلة عقيمة بعد التقدم
 الذي احرزه فننا في القرن الماضي - وقد قيل
 ان عدد المعلمين في خلال خمسين سنة مضت
 فاق عددهم منذ بدء التاريخ ، لقد كان هدفنا
 من قراءة المؤلفات القديمة البحث من اصول
 العلم ، لاعتقادنا انه اوتي اسلافنا كاملا ثم تناقص ،
 اما انتم فما هو علمكم في نفخ غبار المكتبات ؟
 اليندوني ، افادكم الله ، هل تجدون في التاريخ
 متعة مرضية مردها الود الى طفولتكم للتهرب
 من اعباء سنيكم الرشيدة ؟ أم هي اناقة ذهنية
 تبهرون بها غيركم ؟ او اعتداد بالماضي لتعويض
 فراغ الحاضر كشأن (اولاد اللوات) الذين لا
 مفرجة لهم الا في ذكر اجدادهم ؟ ما هي حاجتكم
 في جعلها علما مستقلا ذا نظم ومناهج ومؤلفات
 ومؤتمرات خاصة ؟ هل تتوقصون المثور على
 معلومات جديدة ، أم تبثفون منها التعالى على
 الاسلاف ؟

تمجيت من طول هذه اللداهة وشهدتها وقلت :
 أيها الاستاد الجليل حاشي أن أعزأ بما وصلت
 اليه من المعرفة واتعالي عليكم ، ليس دور المؤرخ
 الحكم على صواب النظريات العلمية او خطئها ،
 وحسبه ان يضعها بين ما سبقها وما لحق بها ،
 ليحدد دورها في تكوين الفكر البشري ، وليتعرف
 على ماضيه وبالتالي على نفسه كما نصحه سقوط
 على ماضيه وبالتالي على نفسه كما نصحه سقراط
 عندما قال لاحد مريديه : « اعرّف نفسك » .

لاحرج هليكم ان كنتم اقمتم
 نظريات اخطاها الزمن ، وما النظريات سوى
 محاولات ، لا معدى من افتراضها ، لضم حصيلة
 المعلومات المجمعة في صورة موجدة ، على ان يقام
 البرهان لها او ضدها بحكم الاختيار ، أما

قاطننى صديقى :

ان لهذا النوع من التاريخ الالتزام ، او الوجهه -
 على نمط الادب الالتزام والوجهه - دوافع قوية
 معروفة ، ولكن ما بالك في اتكار بعض العرب -
 وهم عرب اما يحكم اصلهم او يحكم دينهم او
 لغتهم او حضارتهم او يثبتهم - أمثال ابن
 سينا والرائي ومحاولتهم النيل من الطب
 الاسلامي .

قال محاورنا وقد ازدادت عمامته وضوحا
 وبهاء :

لهم ذرية يتحجبون بها في تكران مآثر الطب
 الاسلامي ، وهي ان هذا الطب لم يكن اسلاميا
 اذا حتى بهذه التسمية اتنا ، كلنا ، كنا ندين
 بالاسلام ، ولم يكن مرييا اذا قصد بهذا اتنا
 كلنا كنا من ابناء شبه جزيرة العرب ، وما اوهى
 هذه الحجة فان ازدهار العلوم والفنون خارج
 شبه جزيرة العرب وعلى ايد غير مربية في صدر
 الاسلام لم يحدث الا بفضل هذا الدين الالهي
 الذي ابر : الكفادات العقيمة وكشف الميوس
 المظسوة وجمع في ارضه الطبية وتحت رعايته
 المتنورة ورود كل الاجناس وزهور كل الادبان ،
 لما فيه من السماح الذي حرر البشر من الحبال
 الازلية التي كبلت الفكر من قبله . الم يامر
 الامبراطور قسطنطين بقصر دراسة مؤلفات
 ارسطو على ابوابها الاولى وتحريم ما يلي (الصور
 البلاغية) ؟ الم نهبر من الاسكندرية ومن اثينا
 لتضييق الخناق علينا ؟ الم لم يهوى لنا بنو امية
 ومن بعدهم العباسيون الجو الملائم للانتاج ؟ هل
 فرق الخلفاء بين اطباطهم المسلمين والنصارى
 واليهود والمجوس والصابئة ، وقد سمح النبي
 عليه الصلاة والسلام باستشارة الاطباء ولو من
 غير المسلمين ، اذ يروى انه لما مرض سعد بن
 أبي وقاص في حجة الوداع عاده النبي وقال له
 « اني لارجو ان يشفيك الله حتى يضر بك قوم
 وينتفع آخرون » ، لم قال للحارث بن كدة «
 عالج سعدا مما به » والحارث على غير دين
 الاسلام ، ان هؤلاء الفضلين المفاطن يتناسون
 حقيقة اكيدة وهي اتنا ، لولا الاسلام ، ما

والطب ، شأنه شأن سائر العلوم المعتمدة على الخبرة ، حري بأن يتخذ من هذا الحديث الشريف شعاعا ونبراسا .

قال :

وما الطب في عرفك ؟

— أن الطب ملتقى يتقابل عنده انسانان كل منهما لمرّة عصره ، وهما الطبيب والعليل ، وقد خضعت العلاقات التي ربطت بينهما لموضع كل منهما من القوى الدينية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة له ، وتاريخ هذه العلاقات هو تاريخ الطب ، وأنا عندما نتحدث عن العليل نعينه على شكله الفردي والجماعي ، وفي كلا الحالتين نتيج معرفة ماضيه استقراء مستقبله والتخطيط له ، اذا وضعت احداثه الماضية موضع الاحداثيات الرياضية التي تجيز معرفة بعضها التكهن بالمجهول منها ، ورسم مخطط بياني كامل لها .

أما حرمان الطالب من ادراك حفظ النظريات المتقلب ، فانه لا يخفى على احد ما في مثل هذا التصرف من الاجحاف بصفه وبحق العلم ، اذا ن تلقين العلم على انه حقيقة ثابتة بجهد الدهن ويطلق ابواب التقدم .

واذا انتقلنا من الفرد الى الجماعة فان الحاجة الى الخبرات المكتنزة أمس والزم ، وبخاصة حين تستهدف ازالة مرض متوطن او الوقاية من وباء او التكهن بسيره .

قال محادثنا وقد توجت ملامحه واستقرت في شكل ضابط روسي :

لو ان قائد جيوشنا الكونت الكسي اندريفتش اركشييف Alexei Andreivitch Arakhtchejev وزير دفاع القيصر اسكندر لمس هذه الحقيقة عند ظهور الكوليرا على حدود روسيا والهند ، لتجنب القول : « انه لا أثر للجمال ان تنفذ من سم الضباط من أن تخترق الكوليرا صفوفنا » وجنب بلاده هذا الوباء ، ولو أن مولاي القيصر نقولا ادركها لتربث قبل أن يدفع بجيوشه من بلاده الموبوءة نحو أوروبا لخماد الثورات المندلعة بها ، ورحم مئات الآلاف من موت اليم ، من

قائلتها فهي انها تكون قاعدة لفروض جديدة تستحث الباحث الى ابتداء مزيد من التجارب للبرهان عليها ، فاذا ظهرت المتناقضات وجب افعالها وتشبيد بناء جديد يوفق بين كل المعطيات ، وهكذا تثير حلقة لا تنطبق الا بالوصول الى الحقيقة ، اذا قدر للانسان يوما أن يعثر عليها .

وهنا اعترضني صديقي وقال : ومع ذلك فكيف من نظرية مجانبية للحقيقة ادت الى كشوف جديدة وقامت بخدمات جليلة . ان حصارنا وكل انجازنا قد بنتها فروض ادركنا اليوم ادراك اليقين بطلانها ، وقد ارغمنا على افعالها التقدم ذاته الذي هي خلفته وما اشك في ان اهر نظريتنا التي تنبأى بها ، سرفطنا ما ستخلفه من التقدم على وضعها في رف مهملات التاريخ ، وقد محونا من اذهاننا حتى تلك التاملات التي اوسخنا عليها تصورنا لاركان الكون ، فقد اجبرتنا نظرية الكم quantum التي تقسم شتى مظاهر الطاقة الى اقدار محددة لا تقبل التجزئة ، الى استبدال صورة جديدة بتلك التي كانت ترسم الكون على شكل متصل قابل لتقسيم لا نهاية له، وفتشت الفيزياء الحديثة اللغز — التي مددناها غير قابلة للقسمة او للتحويل وبنينا عليها الكيمياء التقليدية ، كما اتاحت تحويل المادان الذي لم يكن بأذهاننا الى قبوله سبيل في ظل النظريات القديمة ، واتكر العلم الحديث وجود الجوهر الذي سماه الفيزيائيون (اثير) ، وهو قوام ميكانيكا الامواج التي وصلت بعلوم الضوء والاشعاع الى ما وصلت اليه ، فبرر موقفه السابق بالتصريح بان الموجات المزمومة انما كانت انسب تصوير للمعادلات الحسابية التي تحكم اغلب خواص الطاقة دون غيرها .

ثم ليس الغرض من جهودنا الوقوف على معلومات جديدة وان كنا نجد أحيانا في كنف الماضي افكارا تبدو طريقة لانها وقعت فقرة في طي النسيان .

اما اذا كنا اسمينا هويتنا (تاريخ الاخطام) فاننا لم نطلق عليها هذه التسمية لنسخر منها وانما لتأكيد قيمتها التعليمية ، فقد قال النبي « عليه الصلاة والسلام » : السعيد من اعطف بغيره »

قال صديقي ساخرا :

لم تنقص هذه العجاسة المستعمرين الذين
تغلبوا على قاطنى امريكا الاصليين بتوزيع ثياب
مرشاهم المصابين بالجدرى عليهم ، فاهلكوهم
بسلاح افتك من الرماح والمدافع ،

صمتنا هنيئة غائصين في انكارنا ثم رفع
محادثنا السكون الذى خيم على النفرة العجاسة
بالدخان :

يا بنى من اهل فنى ، انكم تقفون موففا
« يطيب فيه النظر الى الفد كما يطيب فيه النظر
الى الامسن » فلا يفرد فيه الفخر الاباء دون الامل
في الابناء (٥٥) « اتى اشيد بجولاتكم فى ماضى اشعل
شعلة ضئيلة حولتوها الى نور متلألئ وهاج ،
واثنى يوفالكم لاجيال من الاطباء تناقلوا ميثا كنتم
عليه اقدر منهم ، الا انه اذا خلت ناحية منه ،
تناقلت نواحيه الاخرى ، ان المرض لن يزول ولن
ينتهي ولن يغلب ، وانما كالمعدو الماهر ، يتغلل
من حصن الى آخر ، اذا زققتوه فى جحر » شن
عليكم هجماته من جحر آخر ، كان كنتم تغلبتم
على الامراض العديدة التى كانت تفتك بنا ، فقد
خلقت لكم امراض الشيخوخة والسرطان مشاكل
علاجية واجتماعية اخطر شأنا واعقد حلا . لقد
كهكت قطان اكثر البلاد حفسارة ، وحملت
الدول اعباء لن تقدر عليها فى المستقبل ، فليكن
الآن ، فضلا من المرض ، دراسة الانسان باكملة
على انه جزء من بيئته ، فقد قال فرشوف ان انتشار
الوبئة مظهر من مظاهر عدم التوافق الاجتماعى
والثقافى وخلل فى توازنها . وهو الذى انصح
برايه بان الطب علم اجتماعى ولن يتم الا بالتغلب
على عناصر ثقافية سلبية طالا آخرت المشروعات
الصحية ، لا تنسوا المعارضا الشديدة من قبل

بينهم قائدان من كبار قواده ، المارشال دييتش
والامير قسطنطين اللذان ، بسبب اصابتهما اطلق
الجيش على الكوليرا (مرض المارشالات) (٥٦) .

طمس بعينيه وكأنه استعراض شريط ذكرياته :
« لقد حولت الامراض مجرى التاريخ بدفع اقوى
من احكام الشرعين وبطش الاباطرة ، وهلا ما يجب
درجه ليس فى مناهج كليات الطب فحسب ،
وانما فى دراسات كليات الاقتصاد والكليات
الحربية ، لقد شاهدت بعيني هزيمة (سنحرب)
ملك اشور فى القرن الثالث ق . م . عندما
انقضت علينا الفئران ونحن ممسكون على منافذ
مصر ، وقرضت الجصب والافواس وحمايل اللدوع
فولينا الادبار وسقط منا الكثيرون (٥٧ د) ،
وصاحبت جند (سبارتا) عندما فكتنا ، رغم
انوفنا ، حصار اثينا خوفا من العدوى بالطاعون
الذى فكت بها (٥٨) ، وقد اهلك الاسقربوط
الاساطيل وحال دون كشف القارات المجهولة
قرونا عديدة ، وفشل اول مشروع فتح قناة
باناما بسبب تفشي الحمى بين العاملين به ،
وفتكت الانتهايات الحوية بجيوش الحلفاء فى
جاليبولى ابان الحرب العالمية الاولى ، وكنت
اجهل وانا اناود جورج الثالث ملك انجلترا ، ان
شذوذه السياسى ، وقيل جنونه ، الذى ادى
الى ضياع مستعمراته واستقلال الولايات
المتحدة ، نتج عن (كروموزوم) مرضى ورثه من
آبائه بسبب ما تطلقون عليه اليوم اسم (پورفيريا)
Porphyrin (٥٩) ولو ان السلوك والساسة
وهبوا تكة من العاسة التاريخية لاجموا من
الزواج من الاقارب وحالوا بهذا دون انحلال
سلالاتهم وضياع امباطورياتهم وهو امر شمر
معالم العالم واسهم ، دون شك ، فى دفع العالم
نحو الديمقراطية .

٥٢ - Winkle, St., 1969, Die gelben Hefte, 17, p. 868 : Die Cholera mit ihren vielfaltigen kultur-historischen Wechselbeziehungen.

٥٣ - تاريخ تومسيد : ٥٧ ، ٥٢ .

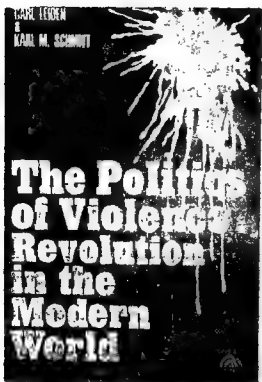
٥٤ - Macalpine, I., Hunter, R., 1968, Porphria, a royal malady.

٥٥ - عباس محمود العقاد ، الى العرب فى الحضارة الاوروبية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ٧ .

اشعاع كربون ١٤ ، وما الى هذه الطرائق التي ما يبرح الانسان يبتكرها ، هل الا تنسوا العنصر البشرى فيها ، فان العلم اذا فصل عن الادب لمسى آليا غاشما ، كما ان الادب اذا سحب منه قوامه العلمي كان دوى طبل اجوف .. لا تنقضي سنة واحدة دون اعادة فتح ملفات قضايا كان يحسب امرها منهيا ، .. انها ه واية ، اذا استخدمت استخداما نفعيا ، لارساء قواعد تنطلقون منها الى مستقبل افضل ، واذا وضعت التذكر في خدمة الآمال البشرية ، انها ه واية جديرة بكل احترام وبكامل العناية ، .. انها دراسة لا نهاية لها ..

وما ان تلفظ بهذه الكلمات الأخيرة حتى سمعنا دوى زجاج ينكسر ، ولفحتنا ريح هبت فجأة من النوافذ ، وغمرتنا أوراق متطاربة ، واذا بعيني تنفتح على سحب ذائبة ، حاملة معها وجهها محبوبا ، مخطفة وراها ابتسامة عطف ، ابتسامة بدون وجه ، كالوجات التي سحب من تحتها الفيزائيون قوامها الاثيرى .

اصحاب الاملاذ على مشاريع صرف الفضلات ومن قبل اصحاب الصناعات على اجراءات منع تلوث الهواء والمياه لانها تمارض مع حقوق الملكية الخاصة ، وقد اصبحت هذه المشاكل على رأس قائمة المسائل التي تستوجب حولا جارية . فاذا اردتم الاعتاط بالماضي وجب عليكم التلوع بقدر كبير من الصبر والمثابرة . لقد أصبح البحث من تاريخنا عملا معقدا جصل من كل متحيف معهد بحوث يحوى طبعا من التحف واطباقا من المختبرات ، وتعددت وسائل البحث واقتنيسست لها كل الطرائق المستحددة فضلا عن الفنون المعهودة ، انكم لن تكتفوا بالتصوير الشمسي بل عليكم إضافة الاشعاعات السينية وتحت الحمراء وفوق البنفسجية . لا يكتفى ان تعرفوا انواع الأخشاب بل عليكم مقابلة سمعة خطوط نموها بجداول معروفة dendrochronology وعليكم تقويم المعادن النادرة في الخزف والزجاج لمعرفة مصادرها ، وتحديد المحاور المغنطية في الافران التي (طبخت) فيها لمقارنتها بانحرافات محور الارض المغنطى على مر القرون ، وقياس



عَرْضُ الكُتُب

سياسات

العنف أو الثورة

في عالمنا المعاصر

عرض وتحليل : دكتور اسماعيل صبرى مقلد

السياسية وإن كان لا يدعى لنفسه أنه يصدد تطوير نظرية يمكن من خلالها تحليل هذه الظاهرة تحليلاً نهائياً وشاملاً ، إذ أن ذلك كما يقول المؤلفان ليس في مقدورهما ، ولكنه بدلاً من ذلك يقدم عرضاً مختصراً ومركزاً للتحليلات النظرية التي كتبت من أسباب هذه الظاهرة وعوامل نموها ، وإلى جانب ذلك يعرض لمدى من الثورات التي حدثت في منطقتي الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية على أساس من الدراسة المقارنة . .

ومنذ البداية يحاول المؤلفان أن يضعوا تعريفاً مقبولاً لظاهرة الثورة ، على الرغم من أنها أتمراً بصعوبة التوصل إلى مثل هذا التعريف ، نظراً لتفاوت الاتجاهات من هذه الظاهرة . فينبغي أن ينظر البعض إلى الثورة على أنها تغيير غير شرعي لنظام الحكم ، يعتقد البعض الآخر أن مفهوم الثورة

من أهم الظواهر السياسية التي تميز عالمنا المعاصر انشاق الثورات على نطاقات ومعدلات فاقت كل تصور . وطبيعي أن هذه الثورات تتميز من حيث دوافعها ، وملابساتها ، وبيئاتها ، والأطوار التاريخية الذي يحيط بكل واحدة منها ، وكذلك من حيث التراكيب الاجتماعية والسياسية والنفسية والأيديولوجية للزعامات التي تهيمن عليها وتقسود ناصيتها ، فضلاً عن الاختلاف في الأهداف والغايات التي تحاول كل ثورة بلوغها . ومن هنا ظهر إلى حيز الوجود الكثير من التحليلات التي تحاول التعمق في دراسة هذه الظاهرة من مختلف أبعادها وجوانبها .

والكتاب الذي نحن بصدد عرضه هو أحد هذه الدراسات المتخصصة في موضوع الثورة . وهو يحاول تشریح ظاهرة الثورة في المجتمعات

لا ينصرف الا الى التغييرات الاجتماعية العميقة البذور ، والتي تجد تعبيراً لها في اجراء تحويرات في الهيكل السياسى العام للمجتمع ، وأحياناً ما تؤدي هذه التحويرات في النهاية الى بلورة ايدولوجية معينة ، أو رفع شعارات معينة، ولكن الثورة تبقى بعد ذلك كله عملية تغيير اجتماعى في الاساس .

وقبل ان يختار المؤلفان تعريفاً مقبولاً لهما ، يستعرضان نماذج مختلفة من التعريفات التى قيلت في هذا الشأن . فـ **فيسيجوند نيومان** وهانا **أرينت** ينظران الى التغيير الاجتماعى على أنه ركيزة أساسية من ركائز الثورات الحديثة . وفي رأى نيومان أن الثورة هى بمثابة تغيير جدرى وشامل ، ليس فقط في نمط التنظيم السياسى القائم ، وإنما في الهيكل الاجتماعى ، وفي نموذج الملكية الاقتصادية المسيطر . وهو بذلك لا يركز على معيار الحرية كأساس يرتكز عليه الثورة .

ويعرف **شالرز جونسون** الثورة بأنها « قبول العنف كأداة لا ممدى عنها في أحداث التغيير المطلوب » ، ويعرفها **هفريت** ، بأنها « وسيلة غير قانونية لإحلال حكومة بأخرى » أما **فليكس جروس** فهو يميز بين شكلين من أشكال التغيير بالقوة في نظم الحكم : الأول وهو عبارة عن نقل السلطة السياسية من مجموعة حاكمة الى أخرى ، وهذا يشكل انقلاباً ، والشكل الثانى هو اجراء تغييرات اجتماعية جدرية بواسطة القوى التى تنبثق من أسفل هذا النظام ، وهذا ما يمكن تسميته بالثورة الاجتماعية. وفي رأى **جروس** أن الثورات السياسية تكون في بعض الأحيان ثورات اجتماعية . أما الثورات الاجتماعية فهي دائماً ثورات سياسية .

.. أما **جيمس دوتون** فهو يميز بين ثلاثة أنواع من الثورات : الثورات التى تظهر بسبب صراعات شخصية حول التوزيع القائم للأدوار داخل النظام السياسى ، وهذه الثورات تقع بأحداث تغيير في هذه الحدود ولا تمتدداها الى أحداث تغييرات أساسية في هيكل المجتمع . وأمريكا اللاتينية هى أبرز الأمثلة لهذا النوع من الثورات ، ثم هنالك النوع الثانى من الثورات التى تحدث بسبب الرغبة

في تغيير الترتيبات القائمة للسلطة السياسية ، والكتيفية التى تشغل بها المراكز والأدوار داخل الهيكل السياسى العام ، وهى - مثل النسوع السابق - حين تقوم بهذا التغيير لا تمتداه الى تغيير هذا الهيكل على أى نحو جدرى . والثورات ضد السلطة الاستعمارية أو الثورات التى تستهدف إحلال بعض الانظمة الأوتوقراطية بأنظمة أكثر ديمقراطية هى من بين النماذج البارزة لهذا النوع من الثورات . وأخيراً يبقى النسوع الثالث من الثورات وهى التى تحدث لا بسبب تغيير الأدوار الشخصية ، أو ترتيبات السلطة السياسية ، وإنما لتغيير المجتمع نفسه ، ومن هذا النوع : الثورات الشيوعية والثورات التى تطالب بتحديد الملكية .. الخ .

ويعرف **دليل يودو** الثورة الحقيقية بأنها هى التى تحدث تغييراً جوهرياً في الاتجاهات والقيم الاجتماعية التى يرتبط بوجودها استمرار المؤسسات التى يرتكز عليها النظام التقليدى .

وهناك تعريفات أخرى كثيرة يوردها المؤلفان لكاتب ومحللين سياسيين مثل **رگس هوبس** ، **وجود فرى التون**، و**وليام ستوكس**، وهى لا تخرج في مضمونها عن التعريفات السابقة .

وينتهى المؤلفان الى القول بأن التعريف الذى يقبلانه للثورة لا يعتبر جديداً بالمقاييس السابقة ولذا فإنهما يخلصان الى ان تعريف **كالفرت**، للثورات بأنها « التدخل بالقوة اما لتغيير الحكومات القائمة أو تغيير المؤسسات التى يستند عليها وجود هذه الحكومات » ، يعتبر تعريفاً مقبولاً وكافياً من وجهة نظرهما .

وفي فصل آخر يتخذ المؤلفان من العنف كأحد جوانب الثورة فيقولان أن كثيراً من الثورات تقتزن باستخدام العنف ، ويرجع ذلك الى كون ان التغييرات التى تحدث تتم بوسائل غير قانونية ، وفي هذه الحالات يبدو العنف ضرورياً لمواجهة المقاومة التى تظهرها الحكومات التى يستهدفها التغيير الثورى .

والعنف كأحد أدوات القوة السياسية يمكن

حدوث ثورة اجتماعية ، وإنما تتركز جهود القائمين بالانقلابات على محاولة إضفاء طابع من الشرعية على عملية استيلائهم على السلطة ، كما قد يلجئون إلى استخدام أساليب الترويح الدماغي وترديد ادعاءات الثورية، واغتفال بعض الشعارات أو إجراء بعض التغييرات السياسية الشكلية ، ويكون الهدف من وراء ذلك كله هو دعم وجودهم في مراكز السلطة التي استولوا عليها .

أما الثورات فهي التي يعتمد قيامها واستمرارها ومقدورها على تحقيق غاياتها السياسية والاجتماعية بمدى التأييد الذي تمنحه الجماهير لها ، وبدون هذا التأييد الجماهيري ، تفقد الثورة أهم ركائزها .

ولنح نقبل هذا المعيار للفرقة بين الثورة والانقلاب ، ففي رأينا أن الذي يميز هاتين الظاهرتين عن بعضهما هو عمق التحول الاجتماعي الذي تستهدفه عملية التغيير في مراكز السلطة ، وكذلك طبيعة الأطوار الأيديولوجي الذي يتم التغيير في داخله . فإذا كان التحول عميقاً ، وكانت الأيديولوجية التي تحكمه ذات إبعاد ومضامين تستجيب للاحتياجات العامة للتغيير كما تعبّر عنها الغالبية المطلقة في المجتمع ، أمكننا أن نسمي ذلك ثورة . أما إذا كان التغيير شكلياً ، وكان نقل السلطة يتم أساساً لصالح فئة طامعة في الحكم ، أو كانت الأيديولوجية التي يروج لها فارغة من أي محتوى اجتماعي حقيقي ، فإن هذا الوضع لا يمكن وصفه إلا أنه مجرد انقلاب لا أكثر .

وبعد هذا التمييز بين موضوعي الثورة والانقلاب ، يحاول المؤلفان أن يقدموا تحليلاً لأسباب الثورات وكذا الظروف البيئات التي تنشأ فيها . وهما يؤكدان في بداية تحليلهما أن الثورات لا تظهر بطريقة عفوية ، وإنما تنبثق من صميم الاستجابات وردود الفعل الانسانية تجاه الأوضاع المتغيرة للبيئة بمفهومها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي . . الخ . ولا تقتصر إبعاد البيئات التي تحدث فيها الثورات على النواحي الداخلية بل تمتد إلى الظروف الدولية التي تؤثر على نحو أو آخر في تطور هذه الظواهر الثورية .

أن ينبثق من أحد المصادر التالية : فهو قد ينشأ لأسباب ذاتية أو تلقائية يولدها تيار الأحداث التي تحيط بعملية التغيير ، كما قد ينشأ العنف نتيجة تقوض الأجهزة التي تقوم على تنفيذ القانون وفرضه ، فانهارها يعني إطلاق تيار العنف دون ضوابط تردمه أو تستطيع تجميده وإيقافه . وفي حالات أخرى يكون العنف نتيجة تدبير سابق . بمعنى أنه يشكل الأداة الرئيسية التي يركّز عليها أحداث التغيير المطلوب .

ويقترن بتنوع مصادر العنف اختلاف مبادئ في كفاة هذا العنف ، ومدى استمراره ، والكيفية التي يستخدم بها ، وكل هذه أمور تنتج أساساً بسبب الاختلاف في التجارب التاريخية وفي مستويات النمو السياسي والاقتصادي والثقافي للبيئات التي يحدث فيها هذا العنف .

وفي هذه النقطة ينتقل المؤلفان إلى التمييز بين الانقلاب Coup D'Etat ، والثورة Revolution فبالنسبة للانقلاب هو عملية إحلال مجموعة حاكمة بمجموعة أخرى ، ويتم ذلك إما بالاستخدام الفعلي للعنف أو التهديد باستخدامه ، وغالباً ما يتم هذا بشكل غير متوقع اطلاقاً . ومن أمثلة الانقلابات غير العنيفة ، الانقلابات العسكرية في أمريكا اللاتينية، والانقلاب التركي في عام ١٩٦٠ ، وانقلاب أيوب خان في الباكستان عام ١٩٥٨ ، والانقلاب العسكري الذي حدث في غانا في عام ١٩٦٦ . الخ . أما عن الانقلابات العنيفة فمن أمثلتها : انقلاب السلالة في اليمن في عام ١٩٦٢ ، والانقلابات التي حدثت في العراق في عامي ١٩٥٨ ، ١٩٦٣ ، والانقلاب الذي حدث في نيجيريا في عام ١٩٦٦ . وهناك انقلابات تتم بطريقة غير عنيفة ، ولكن استخدام العنف يظهر في مرحلة لاحقة على وقوعها ، مثلما حدث بعد انقلاب موسوليني في إيطاليا عام ١٩٢٢ ، وانقلاب اتاتورك في تركيا عام ١٩٢٣ ، وانقلاب شينج كاي شيك في الصين عام ١٩٢٧ ، وانقلاب أدونيسيسيا عام ١٩٦٥ .

والانقلاب هو الاستيلاء على مراكز السلطة السياسية في الدولة وأدوات القسر التي تتركز عليها ، وليس ضرورياً أن يؤدي الانقلاب إلى

برنتون ، وجيمس دافيز ، وأرنو لويس الذي يقول إن قيام فئات اجتماعية واقتصادية جديدة ، لا سيما في الدول حديثة العهد بالاستقلال ، والتغير الذي يحدث في الأنماط التقليدية للدخل ، وعدم توازن النمو الاقتصادي ، والتفاوت في توزيع الثروة ، كل هذا يؤدي إلى القلاقل والثورات . وباختصار يمكن القول بأن كل هؤلاء الكتاب والمحللين يتفقون في أن اتجاه الجماهير من أوضاع الاقتصاد وظروف حياتها المادية ، هو من أهم العوامل التي تقع بسببها الثورات . والمصدر الآخر للشورة يكمن في النزاعات والصراعات السياسية الداخلية التي كثيرا ما تظهر بسبب انفصال النظام السياسي من قاعدته الاجتماعية المتغيرة . وفي حالات أخرى تحدث الثورة بسبب ضعف النظام السياسي وعدم قدرته على مواجهة تحديات المشاكل التي تظهر في الدولة . ويكون هذا الضعف من الحوافز القوية التي تدفع إلى محاولة تغيير هذا النظام والاستيلاء على السلطة السياسية .

وفي مكان آخر يتحدث المؤلفان عن مراحل الثورة وهما يشاركان جودفري التون اعتقاده بأنه لا يمكن تحديد نقطة البدء في نمو أي ثورة من الثورات ، لأن للثورات جذورا تمتد إلى الماضي الذي قد يصبح من المتعذر التعرف على أطواره الزمني الحقيقي . ونفس هذا الرأي أكدته كرين برنتون الذي ذهب بالأمر إلى حد أن قال « أن المراحل المبدئية للثورة لا يمكن تحديدها حتى بواسطة الثوار أنفسهم » ، على أنه في حالات كثيرة تكون البداية المعروفة للثورة من الثورات هي وقوع انقلاب ، ثم يتبع ذلك تطور هذا الانقلاب إلى ثورة اجتماعية . وفي حالات أخرى تحرك الثورة نتيجة حدوث بعض الاضطرابات الصنفية ومنها تبرز الزعامات التي تقود هذه الثورات ، ومن أمثلة ذلك : الثورة المكسيكية في عام ١٩١٠ ، وكورة بوليفيا في عام ١٩٥٢ .

وأذا تجاوزنا هذه المرحلة المبدئية للثورة إلى المرحلة التي تليها ، فإنها المرحلة التي يطلق عليها المؤلفان « مرحلة العنف الثوري » ، إذ أن حدوث الثورة يستتبعه تدمير النظام القديم ، واستبعاد المجموعة الحاكمة التي كانت تقوده وتوجهه ،

وبالنسبة لأسباب الثورات فإن حصرها كما يقول المؤلفان عملية صعبة ، نظرا لتعقيد الشديد الذي تتصف به ظاهرة الثورة ، وإن كان هناك بعض الدارسين ممن حاولوا أن يحددوا هذه الأسباب ، فمنهم مثلا من يميز بين العوامل البعيدة المدى التي تزيد من درجة السخط وعدم الاستجابة للاوضاع القائمة ، والعوامل المباشرة أي التي تعجل بأحداث هذا التغيير ، أو بمعنى آخر هناك أسباب أساسية وأسباب ثانوية . ويحيى فسي مقدمة هذه الأسباب الأساسية - كما يقول شارلز جنسون - اختلال توازن النظام الاجتماعي بشكل حاد مع عدم اتخاذ إجراءات تصحيح هذا الاختلال أو تخفيف من حدته ، وبهذا يصبح استمراره أمرا متعلما ، ومن هنا تظهر الثورة ، كأداة لاستبدال هذا النظام بأخر أكثر توازنا وأكثر استجابة وارضاء للاحتياجات الاجتماعية المتغيرة . أما الأسباب الثانوية فهي اللابسات التي تسرع بوقوع الثورة وأصلد ما يمكن أن يقال عنها هي أنها عوامل تفجير .

ونفس هذه التفرقة يقرها هاري إيكستين الذي قسم أسباب الثورة إلى نوعين : الأسباب الأساسية أو الحقيقية التي تخلق إرادة التغيير وتبرز الحاجة الملحة إليه ، والأسباب التي تؤدي إلى نشوب الثورة تحت تأثير ظرف من الظروف .

وبوجه عام يحاول المؤلفان تحليل أسباب الثورات فيما يلي : هناك أولا السيطرة الأجنبية ، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية ، فهي تؤدي إلى تغذية الإحساس بالتبعية وخلق التصميم على ضرورة إنهاء هذه الرابطة غير المتكافئة التي تقوم على أساس الاستغلال غير العادل للدولة من الدول . ومن أمثلة ذلك معظم الثورات الهادية للاستعمار التي حدثت في آسيا وأفريقيا ، أو الثورات التي حدثت ضد التسلط الشيوعي في المجر وبولندا عام ١٩٥٦ . أما المصدر الثاني فهو الظروف الاقتصادية وهي الموضوع الذي تركزت حوله تحقيقات كارل ماركس الذي ربط الثورة الاجتماعية بالمعامل المادية والاقتصادية . وكذلك هناك عدد من المفكرين الذين يفلون أهمية هذا العامل في تغذية الثورات ومنهم الكسيس وتوكفيل وجودفري التون ، وكريس

وهناك مفكر آخر مثل **أريك هوفر** الذي أمكنه أن يحصر خصائص القيادة الثورية في حوالي اثني عشرة خصلة ، وأن كان قد اعتبر أربعا منها خصلا أساسية وهي : (١) الجراءة التي تصل إلى حد التهور ، (٢) القدرة على اجتذاب واستقطاب ولاء مجموعة من الأفراد المتحمسين ، (٣) القدرة على توحيد الإلصاق وضم الصفوف وراء هذا القيادات ، (٤) التعصب في الاعتقاد بأنها - أي هذه القيادات - هي وحدها التي تملك الحقيقة وأنه ليست هناك حقيقة أخرى بجانبها .

ومن بين الصفات الأخرى التي حددها **هوفر** للقائد الثوري : الإرادة الحديدية ، والاعتقاد بأنه الإنسان الذي اختارته الأقدار لهذه المهمة الثورية، وجاذبية الشخصية Charisma التي تمكنه من فرض الطاعة العمياء على تابعيه ، والقدرة على تفهم واستيعاب الطبيعة الإنسانية . ويستمد هوفر من هذه الصفات القيادية : الذكاء الخارق، والأصالة ، وفيل الشخصية ، وهو يرى أنها ليست مقومات ضرورية للقيادات الثورية ، لأن هذه الصفات تضائل وتفقد تأثيرها بجانب صفات أخرى : مثل الصلف ، والنزعة المتمردة على العالم القائم، والاستهانة بأراء الآخرين أو حتى احتقارها. وهتلر وموسوليني بعيان مثلا وأضحى على ذلك .

أما المؤلفان فانهما يخلصان من ذلك كله إلى القول بأن هناك عدة خصائص تجمع بين القادة الثوريين ، ومنها أن هؤلاء القادة يجب أن يكونوا على قدر معين من التعليم وليس ضروريا أن يكونوا مثقفين Intellectuals كما يجب أن يكونوا قادرين على خلق أيديولوجية تعبر عن أفكارهم وترجم سطهم على الواقع الذي يسعون إلى استبداله .

وحول خصائص التابعين ، يقول المؤلفان ، أن الثورات الاجتماعية تتميز بعدموجود فوارق أساسية في صفات القادة والتابعين ، بعكس الحال مع الانقلابات التي تظهر فيها هذه الفوارق والاختلافات فالثورة الاجتماعية تجيء تعبيرا عن أوضاع معينة يتفعل بها القادة والتابعون على حد سواء ، بعكس الانقلابات التي تجيء تعبيرا عن أوضاع تشرع بها أقلية مغامرة ، ومن ثم يكون هناك مجال لظهور اختلافات في هذه الخصائص والصفات .

وبجانب هذه الملاحظة التي يبديها المؤلفان حول خصائص التابعين في كل من حالي الثورة

وهذه المجموعة لا تستسلم بسهولة للثورة ، وإنما تلجأ إلى أسلوب المقاومة باستخدام العنف المضاد، وهذه المماومة التي يبديها العديد ازاء الجديد هي التي تلعب على هذه المرحلة طابع العنف . وفي هذه المرحلة التالية على وقوع الثورة مباشرة تحدث اشياء أخرى كثيرة منها تدمير النواعات والارتباطات الأيديولوجية والسياسية النظام الذي تغير ، واستبدالها بولاءات سياسية وإيديولوجية جديدة ، كذلك يتم الترويج لقيم معينة مضادة لقيم النظام المنهار ، ووضع دستور جديد يكون بمثابة وعد بالتغييرات الكبرى التي ستفعلها الثورة .

وعلى العموم فأن هذه المرحلة هي مرحلة اختلال عنيف بين ما تحاول الثورة القضاء عليه ، وبين ما تحاول أن تستحدثه وتدفع به إلى الوجود ، أو بمعنى آخر ، فإن طبيعة هذه المرحلة هي أنها عملية هدم وبناء ، هدم للتقديم وبناء للجديد .

وتعقب ذلك مرحلة أخرى ، هي مرحلة ما بعد استقرار الثورة وتخلصها من كل مراكز المقاومة القديمة ، وهذه المرحلة تتركز في محاولة تثبيت كيان الثورة ، وإيديولوجيتها ، وقيمتها ، ومؤسستها ، وتفسير الاستقرار الضروري لأحداث التغييرات التي بسببها قامت الثورة .

ثم ينتقل المؤلفان بعد ذلك إلى مناقشة نقطة حيوية أخرى تتعلق بخصائص القادة الثوريين ، وكذلك خصائص التابعين الذين ينتظمهم إطار الثورة . وهما يطرحان تساؤلا مبدئيا عما إذا كان هناك حقيقة ما يمكن أن نسميه بالنموذج الثوري في القيادات ، وللإجابة على هذا التساؤل يلجأان أولا إلى استعراض بعض مما كتب في هذا الخصوص ، **فكولين برنتون** مثلا يقول أن هناك بعضا من الشواهد التي لا يختلف سلوكهم عن سلوك المجرمين في المجتمعات المستقرة ، وأن لم يكن هذا النموذج هو المسيطر بالضرورة على سلوك القيادات الثورية . وتستند نظرية **كولين برنتون** على أن معظم هؤلاء الثوار ينحدرون من أصول اجتماعية غير راقية . أما **جودسييف** فهو يعتقد أن القادة الثوريين يختلفون عن الأفراد الماديين في أنهم يجمعون بين قوة التصميم وعدم المرونة أو العناد في التعبير عن آرائهم السياسية ، هذا بالإضافة إلى طبيعتهم العاطفية غير العادية ، واقتناعهم المطلق بصحة القضايا التي يدافعون عنها ويروجون لها .

الأيديولوجية الثورية ، فيذكران أنه لا يمكن أن تكون هناك ثورة بدون دليل أو تبرير نظري وأيديولوجي بلازمها ، حتى يعطيها مضمونا يحدد اتجاهها من قضية التغيير التي تطرحها على المجتمع . وهذه هي الحقيقة التي أشار إليها لينين حين قال أنه ليس هناك عمل ثوري بدون نظرية ثورية .

ووظيفة الأيديولوجية ، كما يطلها المؤلفان ، هي تبرير الصنف الذي يصاحب قيام الثورة ، كما أنها الأداة التي تستخدم في تبرير عملية التدمير للنظام القديم ، وتحديد معالم التغيير الذي سيتم بعد نقل السلطة السياسية من مراكزها القديمة إلى مراكزها الجديدة .

ورغم هذه الأهمية لدور الأيديولوجية في الثورة فإن مضمون هذه الأيديولوجيات الثورية يغاوت تفاوتاً كبيراً من ثورة إلى أخرى . فالثورة البولشفية ارتكزت على أيديولوجية ذات إبعاد واقتراضات نظرية كثيرة متشابكة ، بينما استندت الثورة الأمريكية على وثيقة نظرية واحدة هي إعلان الاستقلال ، وكذلك الثورة الفرنسية التي اقترنت بإعلان حقوق الإنسان ، والثورة المصرية التي اقترنت بكتاب فلسفة الثورة .. وهكذا . وفي رأي المؤلفين أن الثوريين الفرنسيين والروسية هما من أبرز الثورات التي تولدت عنها أيديولوجيات ولم تكن إحداها العاصفة إلا نتاج تراكمات أيديولوجية على مدى سنوات طويلة سابقة على وقوعها .

ويتناول الكتاب بالتفصيل عناصر أبرز الأيديولوجيات الثورية التي شهدتها المجتمعات الإنسانية المعاصرة ، وهي الأيديولوجية الماركسية ، والأيديولوجيات القومية ، والأيديولوجيات الثورية المعارضة أو التي ليس لها مضمون محدد أو محتوى متكامل ، وإنما تسبحت على نحو يستطيع أن يبرر ما حدث وهي ما يطلق عليه Make - Shift Idea - Logy . وهذا النوع الأخير من الأيديولوجيات - كما يؤكد المؤلفان - هو الناتج العملي لجزء الغرض والاضطراب الذي تخلقه بعض الثورات بحسب ظروفها والبيئات التي تنشأ فيها ، وعلى ذلك فهي تختلف من وقت إلى وقت ، ومن شعب إلى شعب .

والجزء الآخر من الكتاب هو بمثابة دراسة تطبيقية مقارنة لعدد من الثورات التي حدثت في بعض أجزاء من العالم ، هي على التحديد أمريكا

والانقلاب ، فإن هناك كتاباً آخرين ممن تصدوا لهذه النقطة بالتفصيل . ومنهم أريك هوفر الذي أجمل عدة خصائص رأى ضرورة توافرها في التابيين الذين يقفون وراء القيادات الثورية ومنها: قوة الشعور بالغبية والمرارة من جراء استمرار نظام معين ، وتوافر الرغبة الأكيدة في تدمير هذا النظام واستئصال جذوره ، هذا إلى جانب صفات أخرى مثل الخضوع والطاعة والاستعداد الكامل لتنفيذ ما يطلب منهم من مهام وتكليفات . وهناك أيضاً هوزن يوم الذي يرى ضرورة وجود نزعة مثالية خيالية في هؤلاء التابيين ، لأنه بدونها لا يمكن أن يحدث ثورات كبرى ، ويضرب مثلاً لذلك بالثورتين الفرنسية في عام ١٧٨٩ ، والروسية في عام ١٩١٧ .

ويوجه عام ، ينظر المؤلفان إلى فئات الفلاحين على أنها أقل فئات المجتمع ثورية ، وذلك لكونها بعيدة من التيار بالأيديولوجيات التي تغلب الرغبة في التغيير الاجتماعي ، بعكس الفئات العمالية التي تقطن المدن ، فهي بحكم تنظيمها وانفتاحها على الأفكار والأيديولوجيات المختلفة ، تكون هدفاً سهلاً للحمات الثورية ، وتربة خصبة لنمو الثورة وازدهارها .

وهذا الانتقاد من جانب لاين وشيتم يلتقي مع تحليلات النظرية الماركسية التي ترى في العمال أو طبقة البروليتاريا ركيزة الثورة وعمودها الفقري ، وذلك بسبب قوة احساسهم بالظلم والاستغلال الواقع عليهم من طبقة البورجوازيين المتمكنين لأدوات الإنتاج من جهة ، وبسبب قدراتهم التنظيمية العالية والمكثسة من واقع دورهم الخاص في العملية الإنتاجية من جهة أخرى ، ولكن إذا أخذنا بهذا المعيار الماركسي في التفرقة بين العناصر الثورية ، والعناصر غير الثورية فإن ذلك يعني تحديد احتمالات الشورى الاجتماعية في المجتمعات الزراعية أو غير الصناعية ، على الرغم من أنه قد تكون هناك مصادر للاستغلال الاجتماعي لا تقل في شراوتها عن الاستغلال الذي عناء ماركس ، الأمر الذي يجعل من احساسهم بضرورة التغيير أمراً ملحاً . والأمر الأكثر واقعية وموضوعية ، من وجهة نظرنا هو أن ينظر إلى المشكلة برمتها من زاوية الظروف الذاتية لكل مجتمع ، وما إذا كانت الأنظمة السياسية والاجتماعية السائدة تستجيب أولاً تستجيب للاحتياجات الاجتماعية العامة .

وفي فصل آخر من الكتاب يتحدث المؤلفان عن

استخدام العنف للأطاحة بدكتاتورية ديالو القائمة في المكسيك آنذاك .

وهذه الثورة المكسيكية العظيمة التي ترعها فرانشيسكو ماديرو أطلقت القوى الاجتماعية من مقالها بشكل اتاح امادة تصميم الهيكل الاجتماعي وما يرتبط به من اوضاع وعلاقات على نحو جيد مختلف .

اما شخصية ماديرو ، الذي لم يكن قد تجاوز حينذاك الحادية والثلاثين من عمره ، فلم تكن من الطراز الثوري بالهنيئ والصحيح وان كانت قيمته قد تركت في انه استطاع ان يظهر كشخصية قومية ، وكرم يمكن ان يجمع حوله الشعب السائح على الاوضاع التي خلقتها الدكتاتوريات الجائرة في المكسيك وبدون هذه المعاني التي كانت ترمز اليها شخصية ماديرو ، كان من الممكن لدكتاتورية ديالو ان تجهز على بوندو الثورة التي بلغت تنتشر في اجزاء متفرقة من الدولة .

وثورة المكسيك هذه لم تكن لها ايديولوجية ثورية تحدد طابعها العام من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، كما لم تعلن عن اي برنامج ثوري ذي ابعاد ومضامين دولية ، كما حدث مع بعض الثورات وبالاخص الثورتين الفرنسية والروسية . وربما كان ذلك راجعا الى كونها ثورة محلية تمت في ظروف مكسيكية خالصة ، وكانت متوجهة بالدرجة الاولى الى تغيير واقع الشعب المكسيكي نفسه .

وقد استطاعت هذه الثورة خلال مراحل تطورها المختلفة ان تقلل من استخدامات العنف الى الحد الأدنى الضروري الذي يستوجب أمن الثورة ويهيئ لها القدرة على الاستمرار . وقد امكن تجنب الاسراف في استخدام العنف ، رغم ان الثورة كانت قد بدأت تنفذ سلسلة من برامج اصلاح الاجتماعي الجلسي . والذي جعل تجنب العنف المتطرف امرا ممكنا هو طبيعة العناصر التي هيمنت على قيادة الثورة ، فقد كانت كلها عناصر معتدلة ، استطاعت ان تبعد الغلات المتطرفة من التأثير في اتجاهاتها واساليبها . وطيلة هذه المراحل التي قطعها تطور الثورة المكسيكية امكنت ان تباور عددا من الافكار التي استخدمت كأداة لتوجيه الحكم . وقد استقرت هذه الافكار واكتسبت من القوة والاحترام ما جعلها موضع القبول التام حتى من قبل الرعامات الحاكمة حاليا .

وبالنسبة للثورة التركية التي قادها مصطفى كمال اتاتورك في عام ١٩٢٣ فانها لم تكن ثورة

اللاتينية ، والشرق الاوسط ، وهذه الثورات هي الثورة المكسيكية في عام ١٩١٠ ، والثورة اليونانية في عام ١٩٠٩ ، والثورة التركية في عام ١٩٢٣ ، والثورة المصرية في عام ١٩٥٢ . وربما كان اختيار هذا النطاق الجغرافي بالذات راجعا الى خبرة المؤلفين به اكثر من غيره ، حيث ان احدهما وهو الدكتور كارل لايدن هو استاذ علم الحكومات بمركز دراسات الشرق الاوسط التابع لجامعة تكساس وهو صاحب خبرة طويلة ومتعمقة باحوال منطقة الشرق الاوسط ، اما الدكتور كارل شميت فهو استاذ علم الحكومات بنفس الجامعة ، وهو خبير في الشؤون السياسية لأمريكا اللاتينية ، وله فيها عدة مؤلفات اهمها : الشيوعية في المكسيك ، وديناميكيات السياسة والحكم في أمريكا اللاتينية .

وقد اتبع المؤلفان في اجراء هذه الدراسة المقارنة نهجا منظما Systematic اي انهما حاولا دراسة كل ثورة من خلال المقاييس النظرية التي اسبغوا في عرضها وتطليلها في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وهي على وجه التحديد :

١) ظاهرة القوة والعنف وما اذا كانت تدخل ضمن خصائص أي من هذه الثورات ، أي هل تم الالتجاء الى العنف أو ان الثورة قد حدثت بطريقة سلمية ؟

٢) الاسباب التي أدت الى نشوء كل واحدة من هذه الثورات .

٣) مراحل التطور المختلفة التي قطعتها كل ثورة ، والخصائص والمسئوليات التي اقرنت بكل مرحلة .

٤) طبيعة القيادات ومجموعات التابعين الذين ينظمهم الأطار الثوري .

٥) ايديولوجية الثورة .

وقد انتهت هذه الدراسة المقارنة الى اعطاء بعض النتائج الحيوية حول كل واحدة من هذه الثورات بطريقة تحدد معالمها العامة في النهاية .

فبالنسبة للثورة المكسيكية في عام ١٩١٠ كانت من أكثر هذه الثورات عنفا ، ويرجع ذلك الى ان ظاهرة العنف المتطرف كانت الطابع المميز للسياسة المكسيكية حتى اواخر القرن التاسع عشر ، وكان النظام الداخلي يرتكز في الأساس على عنصر الكبت السياسي . ولذا فانه لم يكن هناك ثمة مفر من

٤ - تركيز السلطة الاقتصادية وسلطة التخطيط الاقتصادي في يد الدولة
Etatism

٥ - الفصل الكامل للدين عن الدولة
Secularism

٦ - الثورة أي أن الثورة مستمرة وأنها لم تكن لتنتهي بمجرد حدوثها ، بل أنها ظاهرة تتطور مع الوقت .

وإذا ما تعمقنا في تحليل التأثيرات وردود الفعل التي تسببت منها هذه الثورة في خارج تركيا ، فإن هذه التأثيرات ، في رأي المؤلفين ، كانت أوضح وأقوى ما تكون في إيران وأفغانستان . ففي إيران قام رضا خان بانقلاب في عام ١٩٢١ ، ثم أعلن نفسه شاهاً لإيران في عام ١٩٢٥ ، وقد اقتبس رضا شاه كثيراً من أفكار أتاتورك ومبادئه ، وكذلك فعل نفس الشيء أمان الله ملك أفغانستان .

بعد ذلك ينتقل المؤلفان إلى تطويل الثورة المصرية في عام ١٩٥٢ ، فيقولان أن هذه الثورة تمت دون عنف ودون إراقة دماء . ويرجع ذلك في رأيهما إلى أن الطابع الغالب على تاريخ السياسة في مصر ، هو طابع المسالمة وعدم العنف .

وفيما يتعلق بالأسباب التي أدت إلى تفجير هذه الثورة فمنها : مظاهر الضلل والانهيار شبه الكامل التي أصابت أجهزة الحكم قبل الثورة ، وفقدان النظام القديم كل مقدرة حقيقية على معالجة المشكلات الحيوية المرتبطة بواقع الحياة المصرية ، فالملك السابق فاروق لم يكن عنده أدنى شعور بالمسؤولية ، كما أن السواد الأعظم من الشعب كان يحيا حياة الشظف والتخلف ، بالإضافة إلى أن الاحتلال الأجنبي كان جائئاً على مصر مصر ، ثم هناك المرأة القاسية التي خلقتها الهزيمة القاسية في حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ ، والتي جرحت كبرياء الجيش وأوجدت فيه شعوراً بالذلة والمهانة .

ويقول المؤلفان أنه ما من عامل كان له أكبر الأثر في التمجيد بوقوع هذه الثورة مثل الفساد الذي كان ضارباً أطنابه في صفوف الجيش ، وبخاصة على مستوى القيادات ، وقد ولد هذا الفساد سلسلة من ردود الفعل النفسية العنيفة في أوساط صفاء الضباط الذين كانوا ينتمون بطبيعة تكوينهم الاجتماعي إلى الطبقات المتوسطة ، وبدأ هذا أوضح ما يكون بعد عام ١٩٤٨ ، أي في أعقاب الهزيمة في حرب فلسطين . وقد شهدت هذه

منية على العنف كما حدث في غيرها من الثورات . أما عن الأسباب التي قادت إليها فهي ترجع إلى حاله السخط التي عمت تركيا عدة أجيال ، وأن كان الذي حركها وأسرع بها هو هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وتحول إمبراطوريتها وانهارها ، والاستيلاء على ممتلكاتها ، واحتلال جانب هام من الأراضي التركية نفسها بواسطة الدول الأجنبية ، وهي أمور نتج عنها أن أصبحت مؤسساتها السياسية بما يشبه الشلل التام .

ويرجع نجاح أتاتورك في قيادة هذه الثورة إلى كونه البطل العسكري الحقيقي الذي برز من الحرب ضد الغزو والاحتلال الأجنبي لتركيا ، وهو الذي استطاع أن يحمي إرادة المقاومة في وقت كان كل ما فيه يدعو إلى قبول الهزيمة والاستسلام للأمر الواقع ، وهذه الحقيقة هي التي أدت إلى تركيز جانب هائل من الولاء السياسي للشعب التركي في أتاتورك ، كما أنها هي التي أدت إلى الإبقاء عليه في مركز السلطة والقيادة دون منازع .

وبعد نجاح ثورة أتاتورك أخذ يحولها من الطابع الوطني البحت إلى النواحي السياسية والثقافية ، وهو لم يكن معنياً بالأمور الاقتصادية بقدر ما كان معنياً بنقل تركيا إلى دائرة الحضارة والثقافة الغربية ، ومع كل أثر لثقافتها الشرقية التي اعتقد أنها كانت السبب المباشر وراء تخلفها وما ألم بها من هزائم وتكبات .

وقد أدى ذلك بأتاتورك إلى تنفيد العديد من البرامج التي كانت لها أصداء واسعة داخل تركيا وخارجها .

أما من إيديولوجية ثورة أتاتورك فإنها تبلورت على شكل عدد من المصجحات والأفكار التي استخدمت في تبرير التغييرات التي استخدمتها الثورة ، وعموماً يمكن تحديد عناصر الإيديولوجية الكمالية في ستة عناصر متميزة هي :

١ - التمسك بالمبدأ الجمهوري .

٢ - القومية .

٣ - الشعبية Populism ، بمعنى تلميع الامتيازات الاجتماعية والتركيز على معيار الكفاية الفردية ومبدأ الفرص التكافؤ للجميع دون تمايز تمييز .

د - ايمان لا يتزعزع بالله ورسوله وكتبه المقدسة التي نزلت لتهدى الانسان الى الحق والعدل .

ثم يتعرض المؤلفان للمحن التي صادفتها الثورة المصرية ، فيقولان ان هذه الثورة قد نزلت بعدد من المحن والازمات ، وان كان أبرزها تدخل مصر العسكري في اليمن الذي خلق لها العديد من المشاكل ، ثم هزيمة مصر مرتين امام اسرائيل في خلال عشر سنوات .

وينتهي المؤلفان من تحليلهما الى القول بان هذه الثورة كانت اهم ثورة وقعت في تاريخ العرب الحديث ، ويرجع ذلك الى عمق التأثيرات التي خلقتها لا في الشرق الاوسط فحسب ، وانما

في اجزاء ومناطق أخرى من العالم ، وان كانت الهزيمة التي حدثت لمصر سنة ١٩٦٧ قد حدثت من هذا التأثير وأضعفته الى حد كبير .

ومن الثورة المصرية ينتقل المؤلفان الى تحليل الثورة الكوبية في عام ١٩٥٩ فيقولان انها انبثقت من صميم الأوضاع المنهارة التي وجدت في كوبا قبل الثورة ، ومنها : سيطرة الشعور بخيبة الامل ، والقلق والتوترات الاجتماعية ، والفضاضة الاقتصادية ، وشعور المثقفين بالعزلة . . الخ . وقد ظهر فيدل كاسترو ليمهد الطريق امام التغيير الثوري الشامل ، واهم ما يميزه كفائد ثورة هو انه رجل قول وعمل في الوقت نفسه ، فهو الذي استطاع ان يدير ويخطط للثورة التي اقتلعت دكتاتورية باتريستا من جذورها ، كما انه هو الذي وضع الأساس لما سيكون عليه حال كوبا بعد تدمير النظام القديم ونجاح الثورة .

ولورة كاسترو في كوبا أمكنها ان توفر ايدولوجية ثورية وبرامج وشعارات تستطيع ان تبرر التغيير الثوري الذي كانت بصدد إحداثه ، كما انها بذلك وضعت القاييس التي يمكن بواسطتها ترشيح كل ما تلجأ اليه الثورة من سلوك وافعال . ومن خصائص الثورة الكوبية انها لم تلزم بقوالب وصيغ ايدولوجية متزمته ، وانما حاولت ان تصور فيها بما يضيف الى التجارب والايدولوجيات الثورية عناصر مستمدة من واقع التجربة الكوبية نفسها .

ويضيف المؤلفان انه لم يحدث في تاريخ أي من الثورات الحديثة في العالم أن بدأ لقائد واحد مثل هذا التأثير الذي يعارسه كاسترو على ثورة كوبا ،

الفترة نوبة متزايدة من العنف السياسي الذي وصل اقصاه مع حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ ، وذلت الفترة التي أصعبت هذا الحريق طليئة بالاضطراب وعدم الاستقرار السياسي والتغيير المستمر في الحكومات ، وقد انتهت في يوليو ١٩٥٢ بوقوع الثورة .

وبنسبته لايدولوجية الثورية ومناصرها الرئيسية ، فانه وحما يقول المؤلفان ، لم يكن للقائمين بالثورة في ذلك الوقت فكرة واضحة من أهمية الثورة الاجتماعية ، وانما كانت الفترة التي تلت قيام الثورة ولادة هامين تقريبا ، متكررة على النواحي السياسية الداخلية التي انتهت ببروز جمال عبد الناصر كزعيم لمصر .

على ان الثورة بدأت تطور لها ايدولوجية فيما بعد ، وهي الايدولوجية التي أصبحت تصرف بالاشتراكية العربية التي قامت على تأميم الصناعات ورؤوس الأموال ، وتنفيذ برامج اصلاح النزراحي ، والاخذ بنمذجة التخطيط الاقتصادي ، واصدق وصف لهذه الايدولوجية الميثاق الوطني الذي وضع في عام ١٩٦٢ والذي أوضح ان هناك مبادئ قامت بسببها ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وهذه المبادئ هي :

- ١ - القضاء على الاستعمار وأموانه من المخونة المصريين .
- ٢ - القضاء على الاقطاع .
- ٣ - انتهاء سيطرة رأس المال على الحكم .
- ٤ - إقامة العدالة الاجتماعية
- ٥ - إقامة جيش وطني قوى
- ٦ - إقامة الديمقراطية السلمية .

وقد أوضح الميثاق الوطني ان هناك عدة أوضاع حيات الطريق نحو تنفيذ مبادئ الثورة هذه ، وفي مقدمتها :

- أ - وجود ارادة التغيير الثوري التي ترفض أي قيد يحد من حرية الجماهير .
- ب - وجود طليعة ثورية أمكنها ان تصل الى السلطة ، وتستعملها لا لخدمة المصالح الانانية لطبقة معينة ، وانما لخدمة الشعب كله على اختلاف فئاته .
- ج - وجود عقل مفتوح لكل التجارب الإنسانية يأخذ منها ويعطيها دون ما تعصب أو تحيز .

المفككة اجتماعيا وسياسيا كانت باستمرار التربة الخصبة لنمو الثورات ، وهي مستغل هكذا . كذلك فإن المشكلات الداخلية والخارجية التي تعاني منها البلاد التي استقلت حديثا تضغط على كثير منها في اتجاه الثورة .

ويضيف المؤلفان الى ذلك قولهما بأنه على الرغم من أن الثلث الأخير من القرن العشرين يبدو مليئا بالثورات ، إلا أن هذه الثورات ستختلف من منطقة الى أخرى ، فاحتمال هذه الثورات في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية وأستراليا والاتحاد السوفيتي أقل منه في مناطق أخرى مثل أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا والشرق الأوسط وذلك بسبب سوء الأحوال الاقتصادية ، وضعف الهياكل السياسية والاجتماعية التي تجعل من الثورة في هذه المناطق الأخيرة العمل الذي يستطيع أن يحسم هذه التناقضات . ومعنى هذا كله هو أننا مقلون ، ولا ريب ، على مصر جديد بشهد العالم فيه اندلاع الثورات ، وبمعدل وعلى نطاق لم يحدث قط من قبل في تاريخ المجتمعات الإنسانية .

هذا باختصار أهم ما ورد في الكتاب من أفكار ، وإذا كان لنا من ثمة ملاحظات على هذا الكتاب سواء من ناحية المادة التي اشتمل عليها ، أو منهاجه في التحليل ، أمكننا أن نقول أن الكتاب لم يوف هذه الظاهرة حقها من البحث والتحليل ، وينطبق ذلك على كل من الجوانب النظرية والتطبيقية التي تعرض لها هذا المؤلف .

وأغلب الظن أن الكتاب وضع لإعطاء فكرة عامة عن موضوع الثورة ودورها في المجتمعات الحديثة ، ولم يحاول التعمق في دراسة مختلف جوانبها الفلسفية والإيديولوجية والإنسانية والسيكولوجية والاجتماعية والسياسية على نحو يحلوكل غوامض هذه الظاهرة المعقدة . ومن ناحية أخرى ، فإن الثورات التي اختيرت للتحليل تمثل عينات محدودة ومتميزة من الثورات التي وقعت في القرن العشرين ، وقد تجاهلت ثورات هامة حفرتها أقدام عميقات في مجرى التطور الإنساني ، ومن أمثلتها الثورة البولشفية في عام ١٩١٧ ، والثورة الصينية في عام ١٩٤٩ . الخ .

ورغم هذه الهنات ونقاط الضعف ، استطاع الكتاب بما احتواه من جهد علمي قيم أن يلقي بعض الضوء على واحدة من أخطر الظواهر التي ظلت تؤثر في تطور المجتمعات الإنسانية على مر الأزمان ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين .

وبدون قيادة وزعامة كاسترو ، فربما لم تكن الثورة الاجتماعية لتحدث في كوبا بالشكل الذي حدثت به ، وكان أقصى ما يمكن عمله هو انتهاء دكتاتورية بايستا ، والعودة بالأوضاع السياسية والاقتصادية الى ما كانت عليه قبل وصول بايستا الى الحكم ، وهي أوضاع لم تكن لتفيد منها أولا وقبل كل شيء إلا الطبقات العليا والوسطى في المجتمع الكوبي .

والى كاسترو ورفاقه القليلين ، يرجع الفضل في تمهية قوى الجماهير وراء الثورة بعد أن تحقق النصر على النظام القديم ، معتمدين في ذلك على البرامج الراديكالية في الإصلاح الاجتماعي التي قاموا بتنفيذها مستجيبين في ذلك لحاجات الجماهير ومطالبها الملحة ، ولكن في أطوار الإيديولوجية ، وبالإساليب التي اعتقدوا أنها أكثر مقدرة على أرضاء هذه المطالب الجماهيرية من غيرها .

ومن الخصائص الأخرى التي تنفرد بها الثورة الكوبية الى جانب مرونتها الإيديولوجية ، هو أن المجموعة القائدة أو الحاكمة استطاعت أن تبقى على نفسها في الحكم لفترة تزيد على عشر سنوات تقريبا دون تغيير أو تطهير في صفوفها ، كما حدث مع غيرها من الثورات التي كانت لتتهم قادتها وزعمائها الأسليين ، وإنما التغيير الذي حدث هو في القيادات على المستويات الأقل .

ويخلص المؤلفان الى القول بأنه مهما حدث في كوبا فإن ثمة حقيقة مؤكدة وهي أن كوبا لن ترجع بحال الى ما كانت عليه في عام ١٩٥٩ حين انفجرت فيها هذه الثورة التي أحدثت دوبا هائلا ليس في كوبا أو في أمريكا اللاتينية فقط ، وإنما في المعمورة بأسرها .

والفصل الأخير في هذا الكتاب بخصيصه المؤلفان للحديث عن مستقبل الثورة ، وهما يتساءلان في مقدمة هذا الفصل : هل انحصر المد الثوري اليوم مما كان عليه طيلة القرنين الماضيين ؟ أم أن ظهور الدول الحديثة العهد بالاستقلال يؤدى الى الاتساع المستمر في نطاق الثورة ؟ وهل تؤدي ثورة الاتصالات الهائلة في العالم اليوم الى توليد ضغوط نفسية وسياسية واجتماعية تدفع بعض بلدان العالم في اتجاه الثورة ، أم أن تأثير ثورة الاتصالات لم يصل بعد الى هذا الحد ؟

ويجيب المؤلفان على هذه التساؤلات بقولهما أننا نعيش في حقبة ثورية جديدة ، فالمجتمعات

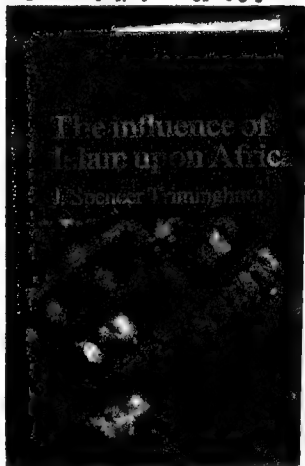
اثر الاسلام على افريقيا

عرض وتحليل : الدكتور أبو الوفا التفتلاوي

١ - مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور ترمجهام رئيس قسم اللغة العربية والدراسات الاسلامية في جامعة جلاسجو بانجلترا سابقا . وهو يعمل حاليا استاذاً زائراً في الجامعة الأمريكية في بيروت وقد صدر هذا الكتاب في « سلسلة التراث العربي » بإشراف الأستاذ نقولا زيادة بجامعة بيروت الأمريكية .

ويعد ترمجهام من أكبر الرواد الأوائل الذين تخصصوا في دراسات الاسلام في افريقيا ، ومن دراساته في هذا الميدان : « الاسلام في السودان » ، لندن ١٩٢٩ ، « الاسلام في البويريا » ، لندن ١٩٥٢ ، « الاسلام في غرب افريقيا » ، لندن ١٩٦٢ ، « الاسلام في شرق افريقيا » ، لندن ١٩٦٤ .

ويذكر ترمجهام نفسه أن تلك الدراسات كانت تتناول أقاليم معينة ، أما دراسته الجديدة التي نحن بصددھا فهي محاولة لنظرة كلية شاملة على الاسلام في افريقيا من ناحية آثاره الحضارية والثقافية والمدنية على الافريقيين .



وقبل أن نتناول أبرز الاتجاهات والإنكسار الواردة في الكتاب بالمناقشة والتقييم والنقد ، لا بد لنا من القاء نظرة إجمالية على مضمونه ، تحدد للقارئ الخطوط العامة له والمنهج الذي اتبعه المؤلف فيه ، فهذا مما يسهل على القارئ بعد ذلك فهم مناقشتنا لبعض جزئيات الكتاب أو قضاياها الكلية وذلك حين يضمها في إطارها في العام الذي لا تفهم فهما صحيحا بدونه ، وفيما يلي هذه النظرة الإجمالية :

٢ - يشمل كتاب ترمينجهام (١) مقالة وخمسة فصول :

فالمقدمة تتناول أفريقيا من حيث علاقاتها بحضارة ومدينة العالم الإسلامي (٢) المتأخر لها . وفي رأيه أن العالم الإسلامي مع كونه قد احتوى شعوبا مختلفة في مناطق متباعدة بصعب الاتصال بينها ، كان يشكل فيما مضى وحدة لم يعد لها وجود الآن . والإسلام حضارة دينية حيث أن الدين هو أساس وجودها وتوحيدها ، وجميع نظمته وأخلاقياته وشرعيته وعلومه وفنونه هي تعبير عن روحه ، وبهذا تميزت هذه الحضارة من غيرها من الحضارات . على أن هذه الحضارة لم تكن ذات نموذج واحد ، فكان هناك مثلا الانقسام العميق بين السنة والشيعة ، وكانت هناك أيضا اختلافات كبيرة بالنسبة لمستويات المدنية ، فقد كان ثمة تباين بين البدو والفلاحين وسكان المدن كما كانت هناك اختلافات اقليمية . وقد انعكس هذا كله على حضارة

الإسلام في أفريقيا فقد تأثر الأفريقيون بمستويات اسلام الحضارية على اختلافها ، ولم تكن منطقة جنوب الصحراء (الحزام الأفريقي) بمعزل عن العالم الإسلامي الأوسع ، فهي متأخرة له وترتبط به صلات . ويرقر ترمينجهام أن مدينة الاسلام في أفريقيا ظلت بدائية Primitive وحتى لا يسمى الأفريقيون فهم بهذا التعبير يضرب لهم مثلا بحضارة اليونان القديمة ، فبينما كانت هذه الحضارة متقدمة جدا كانت مدينة اصحابها بالنسبة لها بدائية ، وعلى العكس من ذلك كان الرومان . ان امتناق الأفريقيين للإسلام أحدث تغيرا طفيفا في قدرتهم على السيطرة على أحسوال وجودهم (المادية) لان ملتهم بمذنيات الشعوب الإسلامية الأخرى كانت سطحية . ولكن امتناق الاسلام ، من ناحية أخرى ، أدى بمرور الزمن الى تغير حضارى (ثقافي) عميق ، الا أنه كما يقول ترمينجهام ليس بالمعق الذي كان يحدث لو أن الأفريقيين تلقوا التأثير الكامل للحضارة الإسلامية . لقد كان من الممكن - نظريا - أن يفتحوا على كل مصادر هذه الحضارة ، ولكن لم يكن في استطاعتهم ذلك ، كما كانت هناك عوائق من العقيدة الأفريقية وبنيية المجتمع الأفريقي ذاته تقف حاجلا بينهم وبين المصادر التي أتاحت لهم أحيانا .

وفي أفريقيا أربع مناطق حضارية كبيرة : المصرية والمغربية ، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وهما في نطاق حضارة العالم الإسلامي

(١) أكتائر : لونجمانز - مكتبة ليلان . لندن - بيروت ١٩٦٨

(٢) يشير ترمينجهام هنا أنه يستخدم الاصطلاح : civilisation المدنية و culture الحضارة بمعناها عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، فالمدنية ههنا كل متعلق بالمدنية ، وهى ذلك الجانب من الحضارة الذى يحتل أساسا فيما يتخلد الإنسان من وسائل للسيطرة على ما حوله ، فهى إذن الصورة الطارحية أو المادية للحضارة . أما الحضارة فهى ما كان معنيا بحياة الإنسان ذاته وبالطريقة التى يعيشها بها وهما وجهان لا ينفصلان ويبلهما علاقة متبادلة من حيث التغير .

متميزة عن الحضارتين الغربية والنيلية الاثيوبية،
والهبرية أكثر اختلافا من هاتين عنهما ، فهي
تنتمي كلية الى الاسلام العربي، وان كانت سماتها
المميزة لها تظهر عند الفلاحين في نظمهم . ان
نتيجة التفرع الحضاري في افريقيا كانت دائما
مزيجا من عناصر افريقية وعناصر اسلامية ،
وهذه الأخيرة هي التي تشكل النظرة الحضارية
العامة للحياة .

ان الافريقيين لم يقبلوا الحضارة الاسلامية
ككل ، فان الذي اثر فيهم هو الاسلام من حيث
هو حضارة تشريعية Legal أما قيمه
المقاتلدية والفلسفية والادبية والفنية فانها لم
تنفذ اليهم ، انهم لم يرفضوها ، ولكنها لم
توضع امامهم ابدا ! لقد دخل الاسلام الى غرب
افريقيا من المغرب ، والى شرقها من حضرموت
وهما من اقل مناطق العالم العربي تطورا .

ومن السمات المميزة للحضارة الاسلامية في
رأى ترمنجهام انها قائمة على اساس حضارة
المدن Urban Civilisation ، وافريقيا ليس
فيها نسبيا الا عدد قليل من المدن ، وحيث لا توجد
مدن كما هو الشأن بالنسبة للبانتو Bantu
والقبائل النيلية ، كان الاسلام لا يجد
طريقه الى السكان ، لقد ازدهر الاسلام في افريقيا
حيث كان ثمة أساسا لمدينة المدينة جنباً الى جنب
مع وجود العلاقات التجارية التي كانت تصدور
عن المدينة أساسا .

٣ - ويفصل المؤلف بعد ذلك ، في الفصل
الاول ، الكلام عن مناطق الحضارة في افريقيا
ويقسم المنطقتين الواقعتين جنوب الصحراء الى

والسوداء (Negro) والحامية (Hamitic) (١)
في جنوب الصحراء الافريقية ، وهما على هامش
تلك الحضارة . ولم يكن المسلمون قديما يعرفون
عن هذه المنطقة الواقعة جنوب الصحراء أكثر
من انها المنطقة المجاورة التي يأتي منها العبيد
والذهب ! لقد كانت الصحراء حاجزا طبيعيا
وحضاريا في نفس الوقت . وفي رأى ترمنجهام
أن الفارق الأكبر بين المنطقتين الشمالية والجنوبية
يعود الى أن الأولى (مصر والمغرب) قد دخلت
في الاسلام منذ وقت مبكر فوجدت فيها حضارة
اسلامية متكاملة ، وكانت هذه الحضارة المتكاملة
مصدرا رئيسيا للتيارات الاسلامية الوافدة
الى السود والحاميين (وان كانت هناك أيضا
تيارات أخرى اسلامية وافدة الى افريقيا من
جزيرة العرب) ولكنها لم تفد الى افريقيا قبل
القرن الحادي عشر الميلادي . ولم يسيطر الاسلام
تماما على منطقة جنوب الصحراء إلا منذ القرنين
الثامن عشر والثاسع عشر . ومنذ ذلك الحين
الى اليوم نجد أن هذه المناطق الواقعة جنوب
الصحراء ما زالت في مرحلة انتقالية او موقف
انتقالي ، لقد كسب الاسلام معتنقين كثيرين
له إبان حكم الاستعمار أيضا ، وهذا يعني أن
الافريقيين لازالوا في كل مستويات التحول او
التكامل الاسلامي .

وكل حضارة من تلك الحضارات الأربع الفرعية
تختلف عن الأخرى من حيث الدرجة التي تمثلت
بها الاسلام وصافته ، ومن حيث نوع الحضارة
الكائنة في منطقتها قبل دخول الاسلام اليها .

فالحضارة الفرعية الافريقية السوداء الاسلامية
(Negro-African Islamic Subculture)

(١) يشير ترمنجهام الى ان تفرقة بين الاسلام الاسود Negro Islam والاسلام العربي Hamitic Islam لا تتضمن اي تفرقة عنصرية ، وإنما هي راجعة منه الى الاختلاف بين نمطين من العنلية الافريقية ومن الحضارات المتفرقة الى الحياة ، ومن ردود الفعل بآراء الاسلام وتمثل حضارته ، فالاسلام واحد ، والاختلاف هو في فهمه والتعبير عنه .



مناطق التسمية الإسلامية

التي سيطرت على بعض تلك المناطق ، كحركات الطرق الصوفية وحركات الجهاد الإسلامي والمهدية ، ونوع الحكومات التي قامت فيها قبل الاستعمار الأوروبي ، وأثر الاستعمار فيها ، وما إلى ذلك من التفصيلات التاريخية والحضارية المتعلقة بها .

وننتقل ترمينجهام في الفصل الثاني إلى دراسة عملية التغير الديني والحضاري في كل منطقة من المناطق الحضارية السبع ، بادئا بالكلام عن انتشار الإسلام واستيعابه في تلك المناطق ، وأدوار ذلك ، والعوامل المؤثرة فيه ، ومراحل تحول الفرد إلى الإسلام ، ونتائج اعتناق الإسلام وعمق التغيير الذي أحدثه في الديانة الأفريقية والمجتمع الأفريقي ، ونظم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ومراحل انتشار الإسلام في أفريقيا أربع : -

١ - فتح شمال أفريقيا (٦٣٨ - ١٠٥٠ م)

٢ - انتشار الإسلام في الحزام الأفريقي (١٠٥٠ - ١٧٥٠ م)

٣ - فترة الحكومات الدينية Theocracies أو الدول التي تجسّد الإسلام دين الدولة (١٧٥٠ - ١٩٠٠ م)

٤ - فترة الاستعمار إلى اليوم الحاضر .

وكان الإسلام حين يدخل إلى منطقة ما من المناطق الحضارية يتفاعل مع حضارتها السابقة ويسيطر على العقائد والمبادئ والنظم الاجتماعية والسياسية بمقادير متفاوتة ، وهسو يلخص سير عمليات التغير في المعادلة التالية : -

مناطق أخرى فرعية ، فيبلغ عدد المناطق الحضارية في رايه سبعا (١) بيانها على النحو التالي :

١ - مصر : وحضارتها أساسا هي الحضارة الإسلامية ، مع حضارة نيلية تظهر نفسها في قرى الفلاحين .

٢ - المغرب : حضارة إفريقية تنتمي إلى البحر الأبيض المتوسط ، ولكن مع أسس من حضارة البربر الأقلية .

٣ - السودان الغربي : الإسلام الأسود .

٤ - السودان الأوسط : الإسلام الأسود .

٥ - السودان النيلي أو الشرقي : الإسلام الحامي - الأسود .

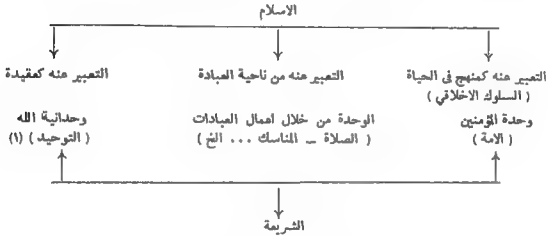
٦ - المنطقة الحامية الشمالية الشرقية (في أرتيريا - إثيوبيا - الصومال) : إسلام البدو في القرن الأفريقي الشرقي .

٧ - الساحل الشرقي الأفريقي : الإسلام السواحلي .

ودراسة ترمينجهام لهذه المناطق الحضارية هي دراسة لتاريخها وخصائصها وما يمكن أن يكون بينها من تأثير متبادل . وتقسيمه لها على ذلك النحو يستند إلى خلفية متعلقة بالنواحي السكانية والجغرافية والتكنولوجية والحضارية ، وإلى كيفية تقبلها للإسلام ومدى تأثيره فيها . وهذا الفصل من الكتاب - وإن كان يُلَبّ عليه الطابع التاريخي - تضمن معلومات هامة تتعلق بالاتجاهات الدينية والمذهبية والحركات الدينية

(١) انظر أيضا بحثا ترمينجهام من مراحل انتشار الإسلام ومناطق الحضارة الإسلامية في أفريقيا التي في الحلقة الدراسية العالمية الخامسة لأفريقيا بجامعة أحمد ويلو ، زاريا ، يناير ١٩٦٤ ، ونشر بكتاب « الإسلام في أفريقيا الاستوائية » Islam in Tropical Africa ، لندن ١٩٦٦ ، من ص ١٢٧ إلى ص ١٣٩ .

هـ - اما الفصل الثالث من الكتاب ، فهو دراسة علمية دقيقة للحياة الدينية للمسلمين الافريقين ويبدؤه ترمينجهم بدراسة من الاسلام في ذاته ، مبينا ما فيه من وحدة المعتقد والعبادة والنظم واتكامله ، وان الممارسة العملية لاحكامه اهم في تثبيت دعائمه من المعتقدات النظرية . وشرعية الاسلام في رأى ترمينجهم - وان كانت لها مجالات مختلفة في التعبير عن احكام الاسلام - ذات وظيفة واحدة متكاملة ، وهو يوضح مجالات هذه الشريعة بالرسم البياني التالي :



من المسلمين في العالم الاسلامي ، وكذلك الجهاد كان له دور هام في افريقيا فقد كان شعرا لبعض الحركات الدينية الافريقية ، ومن مظاهر الاسلام في افريقيا ايضا الاخذ بنظام التقويم الهجري لاهميته بالنسبة للعبادات وغيرها من الاحتفالات

الاسلام الحضارة الافريقية = تفاعل = مركب اخر .

ان هذا الفصل من الكتاب يظهرنا على عمق معرفة ترمينجهم بالديانة الافريقية المحلية الوثنية Paganism والاعتقادات الافريقية كالايمان البدائي بالارواح animism وطقوس الاتصال بالارواح الاسلاف Kinship ritual ، والسحر والكهانة (Magic and divination) وغير ذلك ، ودقة رصده للتفاعلات التي حدثت بينها وبين الاسلام .

ويتناول ترمينجهم في هذا الفصل ايضا نوع تعليم رجال الدين في افريقيا ، وعبادات الاسلام العملية على اختلافها كالصلاة والركاة والحج والجهاد ، ودور هذه العبادات عند الافريقين ، فالحج مثلا كان من العوامل الهامة في ربطهم بغيرهم

(١) يوضح هذا الرسم البياني ان الاسلام عقيدة وشرعية واخلاق ، فالعقيدة هي التوحيد وما يستتبعه من الصلوات الالهية الاخرى ، والشرعية بالمعنى الخاص (الفقه) تشمل احكام العبادات والمعاملات وما اليها ، والاخلاق تشمل كل ما ينظم علاقة الفرد بربه ونفسه ومجتمعه وبأسرته ، فلاذلال وظيفتان : فردية واجتماعية ، فالاسلام ان دين متكامل يغطي جميع نشاطات الفرد ومختلف نواحي المجتمع ، ومجالاته الثلاث التي يشير اليها ترمينجهم هي الشرعة بالمعنى العام . ومن الغريب ان يلهم الكورييون الاسلام على هذا النحو - ومنهم ترمينجهم - لم يقولوا بإمكانية اخذ المسلمين بملاماتية الغرب التي تفصل الدين عن الدولة ، او تنزله من التشخيص السياسي والاجتماعي وتصره فقط في نطاق العقيدة وجانب من الشرعة هو العبادات ، فالعلمانية تسقط اعتبار الدين منهجا في الحياة يشكلها وفق قيمة ومبادئ .

ويرى ترمنجهام أن تقديس الأولياء (Saint Cult) والطرق الصوفية لم يكن لهما أثر كبير على الأفريقيين السود ، فلم يكن لديهم من هذه الطرق إلا القادرية والتيجانية ، على حين كان يوجد منها لدى الحاميين المئات . ولم تنتشر الطرق بين الأفريقيين السود إلا في القرن التاسع عشر ، وبشكل محدود ، بظهور حركة الإحياء الديني على يد اثنين من أقطاب التصوف هما أحمد التيجاني (١٧٣٧ - ١٨١٥) ، وأحمد بن إدريس (١٧٦٠ - ١٨٢٧) ، وهما مغربيان ، وقد انتشرت الطريقة التيجانية في إفريقيا ، ليس فقط في اتجاه الجنوب عبر الصحراء إلى السودان الغربي وإنما انتشرت أيضا في السودان النيلي بين الأفريقيين الغربيين المتجمين هناك ، وفي الوقت نفسه اخترقت قبائل الجالا الإثيوبية ، ومنذ سنة ١٩٢٠ نجد أنها نمت نموًا كبيرًا في غرب إفريقيا ، وأصبح لها منذ سنة ١٩٥٠ شعبية خاصة في وسط السودان . وفي شمال نيجيريا أصبح هناك تنافس بين أتباعها وأتباع الطريقة القادرية . أما أثر النهضة الأدبية فقد جاء من جزيرة العرب حيث عاش أحمد بن إدريس ووضع تعاليمه ، فامتد أثرها إلى الصحراء الشرقية ، وشرق السودان ، والمنطقة الشمالية الشرقية ، خصوصا الصومال . وقد تحقق انتشار الطرق في هذه الأماكن بفضل تلاميذ أحمد بن إدريس ، ومنهم على الأخص محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧ - ١٨٥٩) ومحمد شعثان الميرغني (١٧٩٢ - ١٨٥٣) وإبراهيم الرشيدى (توفي سنة ١٨٧٤) وقد أصبح لكل من هؤلاء التلاميذ طريقته الخاصة ، وقد أصبح للسنوسية نفوذ قوى على ليبيا ووحدها الدينية ، ومنها انتشرت جنوبا إلى تشاد . وتفرعت عن الرشيدية طريقة أخرى هي الصالحية (سنة ١٨٨٧) انتشرت في الصومال . ومع ذلك ظل للطريقة القادرية نفوذ في كثير من المناطق الإفريقية ،

الدينية . وفي الفصل أيضا حديث مستفيض عن الأخلاق الإسلامية الفردية والاجتماعية التي اتخذت الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى لها ، ويشير المؤلف إلى أن الأخلاق الاجتماعية في الإسلام كانت تهدف دائما إلى إيجاد صلافة تعاضد الأمة .

ومن المعلومات الهامة الطريقة التي تضمنها هذا الفصل توزع المذاهب الفقهية الإسلامية في مناطق إفريقيا ، فالمذهب المالكي يسود أسلام الحاميين والسود والمغرب وصعيد مصر ، والمذهب الشافعي يسود معظم مصر وشرق إفريقيا بما في ذلك إثيوبيا والصومال ، والمذهب الحنبلي جاء إلى إفريقيا بعد الحركة الوهابية . أما المذهب الإباضي (أحد مذاهب الخوارج) فيوجد فقط في مجموعات صغيرة في الجزائر وزنبار ، ويوجد المذهب الحنبلي في مصوع وأجزاء من أريتريا وفي أجزاء داخل الحبشة ، ويوجد أيضا في مدينة هور (وهو أثر من آثار العثمانيين لما كانوا في مصر) ، ويوجد المذهب المالكي أيضا في داخل أريتريا ، جاءها من السودان النيلي ، كما يوجد المذهب الشافعي أيضا في أجزاء من أريتريا .

ولما كانت الطرق الصوفية عاملا مهما في نشر الإسلام في إفريقيا (إلى جانب انتشاره عن طريق التجار المسلمين) ، فقد خصص ترمنجهام جانبًا من هذا الفصل للكلام من هذه الطرق من ناحية معتقداتها ورياضاتها العملية وأثرها في حضارة الأفريقيين (وإن كان قد تناول شيئا من تاريخها في فصول الكتاب الأخرى ، خصوصا عندما تحدث في الفصل الأول عن سيادة الطرق في المغرب ، واعتبار التصوف طابعا لحضارته) ، وهي دراسة لم تحظ إلى الآن بعناية تليق من جانب الباحثين في إفريقيا أو في غيرها ، ومعظم ما كتب من الحركة الصوفية ودورها الفعال في إفريقيا بالذات مكتوب بلغات أجنبية .

التي قاموا بها للقرآن باللفات الإفريقية ، ولهذا فهي لم تحظ بانتشار يذكر .

وبالجملة فإن المذهب الذي ساد إفريقيا مقائديا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ولم يكن للمذاهب الفرق الإسلامية الأخرى من أثر يذكر على الإسلام في إفريقيا قديما وحديثا .

(هـ) ويبين ترمينجهام بعد هذا في الفصل الرابع من الكتاب أثر الإسلام على الحياة الاجتماعية ، ويحدد الطريق الذي أمكن بواسطته تفسير المجتمعات الإفريقية . أن مجتمعات إفريقيا بطبيعتها مجتمعات اقليمية ، ولكنها بعد امتناق الإسلام ، وهو دين ذو صبغة عالمية ، استطاعت أن تخلق موقفا جديدا ونظرة جديدة إلى الحياة والمجتمع والعلاقات الاجتماعية في نطاق عالمية الإسلام (Islamic Universalism) .

ولكن ماذا كانت وسائل تحقيق ذلك ؟ أنها عبادات الإسلام وطبيعة تكوين مجتمعه ونظمه . على أن التغير الاجتماعي قد اختلف مساره عند الإفريقيين السود من مساره عند الإفريقيين الهاميين ، وكلما كان التغير الاجتماعي يسير جنباً إلى جنب مع التعريب (Arabization) فإنه لم يكن يلقى مقاومة كما كان الشأن في المغرب والسودان النيلي ، حيث ساد نظام المجتمع الإسلامي العربي والعبادات العربية ، على أن بعض القبائل احتفظت بصور مجتمعتها الخاص ومبادئه ، منهم بدو قبائل البجة في منطقة جبال البحر الأحمر ، ومنهم النوبيون الجنوبيون ، والبربر في جبال مراكش ، وبدو الهاميين في الشمال الشرقي مثل عقار والصوماليين .

وكان النموذج الإسلامي الاجتماعي (The Islamic Social pattern) ممثلاً في المدينة ، ففي المدن كان الإسلام يحقق غرس صورته الاجتماعية بشكل أظهر كما هو واضح في مدن

وعلى الرغم من أن الرغبة قد أصبح لها نفوذ سياسي في السودان الشرقي ، إلا أن القادرية منتشرة في الحقيقة في إفريقيا الإسلامية كلها . أن أثر الطرق الصوفية في إفريقيا — على حد تعبير — ترمينجهام كان قويا سواء على السطح أو في الأعماق ، لقد استطاعت أن تدخل أفراداً في البعد العميق للإسلام ، الذي يتجاوز الفهم الفقهي الظاهري إلى الفهم الأخلاقي الروحي العميق له . لقد كانت هناك عناصر صوفية وراء حركات الجهاد كما هو الشأن في حركة الحاج عمر في غرب إفريقيا ، وحركة محمد أحمد المهدي في السودان النيلي . ولم يكن الانتماء للطرق حائلاً بين اتباعها وبين المشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية كما هو ظاهر عند الإفريقيين السود في أخدهم بنظام الطرق .

ولمة موضوع آخر غير موضوع الطرق الصوفية يحظى باهتمام المؤلف في هذا الفصل ، وأمنى به تاريخ حركات المهدي في إفريقيا ونوع الاعتقادات الكائنة وراءها ، وهو يركز على حركة المهدي في السودان تركيزاً خاصاً . ثم يتعرض بعد ذلك لما يمكن أن يكون موجوداً من أثر للفرق الإسلامية في إفريقيا ، فيتحدث عن الشيعة (ومنهم في رأيه الإسماعيلية اتباع آغاخان) مبيناً أنها لم تحظ في إفريقيا بانتشار ما . أما مذهب الخوارج ، وهو في الطرف المضاد للشيعة من ناحية العقائد فآثره ضئيل في زنبار التي يوجد فيها بعض الإباضية من الخوارج ، ويشير إلى فرقة جديدة هي فرقة القاديانية التي أسسها ميرزا غلام أحمد الخوفي سنة ١٩٠٨ ، ويتعرض لتاريخ دخولها إلى إفريقيا الغربية سنة ١٩٢١ ، وإلى شرق إفريقيا سنة ١٩٣٤ ، ولكن مسلمي إفريقيا وقفوا في وجهها باعتبارها فرقة منحرفة تختلف عقائدها عن عقائد الإسلام ، وقد أثر القاديانيون خلافاً وجداً شديداً حول الترجمات

نصول الكتاب ، بل ان القارىء له ان يشعر ان جميع القصول السابقة عليه هي بمثابة التمهيد له . ان موضوع هذا الفصل هو حاضـر إفريقيا الإسلامية ، وعنوانه « الأفريقي المسلم في عصر من عصور التفرع » . ويعنى ترمينجهام بعصر التفرع الفترة الزمنية التي تمتد من الاستعمار الأوروبي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الى العصر الحاضر . وهي الفترة التي استهدف الأفريقيون فيها ويستهدفون لضغوط قوى جديدة اما دينية متمثلة في المسيحية ، أو علمانية متمثلة في الفكر الغربي ، ونظم الحكم والحياة السياسية والاجتماعية . هذه القوى الجديدة تعتبر ظاهرة مضادة في التفرع ، ويجب وضعها في الحساب حين ندرس تفرع المجتمعات الإسلامية الأفريقية المعاصرة ، فهي حاليا في فترة تفرع ديناميكية . ومهما تكن التبريرات التي يبرر بها ترمينجهام انتشار الإسلام بشكل موسع في عهد الاستعمار فاننا نرى ان هذا الانتشار كان ولا يزال - في المحل الأول - بمثابة رد فعل مضاد للتحدى الغربي الدينى والحضارى . لقد حاول الاستعمار يشتى الوسائل اضعاف الإسلام والحد من انتشاره ، ولكنه لم ينجح في ذلك . ان الاستعمار سبعا تراف ترمينجهام نفسه - كان يعمد الى عزل المناطق الإسلامية عن غيرها في بعض الاحيان ، ويكفى أن نذكر مثلا واحدا ذكره ترمينجهام هو عزل الاستعمار الإنجليزي جنوب السودان من شماله (في الفترة من ١٨٩٨ - ١٩٥٦) بحجة ترك الجنوب ليتطور في خطوته الخاصة ! وقد أدى هذا الى عدم انتشار الإسلام وحضارته بين مجتمعات الوثنيين في الجنوب (ص ١٥٠) لقد حمى الإسلام - على حد تعبير ترمينجهام - المسلمين من تأثير المدنية العلمانية التي اعتبرها الأفريقيون مسيحية (ص ١٠٧) ، ومن ناحية أخرى اتخذ المستعمرون سياسة عزل الإسلام عن واقع المجتمع ، فيقول ترمينجهام ما نصه :

غرب ووسط السودان مثل تمبكتو ، وجن ، وسركو ، ومايدوجورى ، فهي مدن لا تختلف عن مدن إفريقيا العربية ، كأم درمان عند التقاء النيلين ، أو فاس أو مراكش أو القيروان ، ولكن ثنائية المجتمع تصبح ظاهرة لو تحركنا خارج المدن السودانية المذكورة الى القرى المجاورة لزادعي سونجهاى ، بولو ، هوسا ، أوكانتورى ، ولكن من ناحية أخرى فان قرى النيل السودانى لا تختلف عن أم درمان في مجتمعها .

ويتبع ترمينجهام أثر التفرع الاجتماعى في مجال الأسرة ونظام الزواج ، ومدى أثر الإسلام في نظام الأسرة الإفريقية المنتسبة الى الأم (Matrilineal) ، وأثره على طبقات المجتمع ، ونظام المدينة والتجارة والاقتصاد ، والمحرمات (Taboo) ، والدولة والنظام التشريعى ، مبينا مستويات هذا الأثر على اختلافها .

ومن النقاط الهامة التي تعرض لها دور العرب واللغة العربية في المجتمع الأفريقي ، وفي رأيه ان انتشار الإسلام جنبا الى جنب مع اللغة العربية كان أنفـل تأثيرا في المجتمعات ، ففهم الإسلام من مصادره الأولى العربية شيء هام بالنسبة للتغير ، لقد أثرت اللغة العربية في اللغات الإفريقية بالانفاظ اللغوية ذات المعاني المجردة . على ان تأثير العلمانية الغربية قد امتد الى مجال اللغة العربية ، ووجد عند الأفريقيين رغبة في كتابة لغاتهم بالحروف اللاتينية ، التي يرى المؤلف - ونحن نختلف معه في رأيه - انها أكثر ملائمة للكتابة من الحروف العربية بالنسبة للغات الإفريقية ، وعلى الجملة فان دور العرب في إفريقيا من الاتساع بحيث لا يمكن توفية الكلام عنه في هذا الكتاب كما يقول المؤلف .

(٦) ونأتى بعد هذا كله مع المؤلف الى الفصل الخامس والآخر من كتابه ، وهو في رأينا أهم

الأخر في مجتمع واحد بدرجات متفاوتة (ص ١١١) . أما في العالم العربي فلا يوجد فيه الا حضارتان هما الاسلامية والغربية العلمانية .

ويعطينا ترمينجهام صورة أخرى لآخر حضارة الغرب بالنسبة لنظم الحكم المعاصرة في افريقيا فمعظم الدول الافريقية قد استقل في الفترة من ١٩٥٦ - ١٩٦٢ ، ولكنها اتجهت في نظام الحكم الى الاخذ بفكرة القومية العلمانية Secular Nationalism . لقد وقف رجال الدين موقفا سلبيا تجاه هذا التحول . على انه حيث توجد أغلبية مسلمة يكون ثمة نفوذ للاسلام كما هو الحال في موريتانيا والسنغال ونيجيريا الشمالية والنيجر والسودان والساحل الشرقي (الصومال) ولكنه في غير هذه المناطق معدوم الاثر . اما الشمال الافريقي فهو متجه بآمانيه الى الشرق الاوسط وليس الى افريقيا . ويظهرنا ترمينجهام على امر بالغ الاهمية ، وهو ان الحكام الجدد في الدول الافريقية الآن قد ورثوا عن الاستعمار غالبا عدم الاكتراث بالاديان التي تمارسها شعوبهم ، وهم يتطلعون الى السلطة الكاملة ، ويرتابون في كل قوة أخرى كالاسلام أو المسيحية يمكن ان تواجههم ، وهم لهذا يسهون القيود على نشاط المنظمات الدينية ، ويحولونها اذا اقتضى الامر ، ولا يظهرون احتراما للقادة الدينيين ، وبالجمله فهم يرون ان قوتهم تستمد من القومية ، ولتتهمهم في نفس الوقت حفرن تجاه الدين الذي يمثل في رأيهم قوة تنتمي الى الماضي الذي لا رجعة له ، ويرغبون في عزله عن السياسة تماما (ص ١١٤) وهناك الى جانب هذا شيوع علمانية التعليم ، وتناقص عدد مدارس تعليم القرآن بالتدريج ، وضعف الطرق الصوفية ، والنقطة الهامة في نظر ترمينجهام ان الاسلام لا يقوى على صرخة يستجيب بها قواه ! (ص ١١٥) ، وبالجمله فان الصورة التي يرسمها ترمينجهام للاسلام هي صورة قائمة للغاية لملك

« وأكثر من هذا ، فانه كان من سياسة الحكومات الاستعمارية إبقاء المسلمين في عزلة . فكان رد فعلهم (رد فعل المسلمين) الانسحاب كدفعهم من الذات » (ص ١٠٧) ، ولنا ان نتساءل : هل انسحب المسلمون من الميدان فعلا ؟ الاجابة على هذا السؤال هي بالنفي ، والا فكيف نفسر انتشار الاسلام ابان حكم الاستعمار مع حرص المستعمرين على مزله بعيدا عن المجتمع ؟ بل كيف نفسر انتشاره في العصر الحاضر - كما يذكر ترمينجهام نفسه - في غينيا وسيراليون ومالي وأجزاء من نيجيريا وشمال الكاميرون وشرق افريقيا (ص ١٠٦) ؟ ان هذه المسألة كانت تحتاج من ترمينجهام نظرة أكثر موضوعية ، فانتشار الاسلام في أي مكان وفي أي عصر قد يفسر بأسباب أخرى من بينها وضوح مبادئه وقابلية العقل الانساني للاقتناع بها .

ويرى ترمينجهام وجود ثلاثة أنواع من الحضارات في افريقيا الآن : فهناك المناطق الحامية التي رسخ الاسلام فيها ، والحصارم الافريقي ، وخط رفيع على الساحل الشرقي ، والاسلام فيها هو اسلام العصر الوسيط بطابعه الشرعي ، وهو يحكم نظرتها للامور ، وان كان في هذه المناطق مشاركة في الحضارة الاوروبية بدرجات متفاوتة ، وهناك مناطق أخرى دخل اليها الاسلام في المائة السنة الأخيرة مع التأثيرات الغربية المصاحبة للاستعمار ، وسلمو هذه المناطق متأثرون بالعلمانية بدرجات متفاوتة ، والاسلام فيها لا يعتد الى جميع مظاهر الحياة ، وهناك بعد هذا وذاك مناطق في أساسها الوثنية مع وجود نفوذ مسيحي وعلماي ، والاسلام فيها ضعيف . فهناك بحسب هذه المناطق اذن ثلاث حضارات : الحضارة الاسلامية الافريقية ، والحضارة المحلية الافريقية ، والحضارة الغربية العلمانية ، التي قد يتشابه بعضها مع البعض

مكونات متعددة ، فهو حين يعالج موضوع الإسلام في أفريقيا نجده يستفيد إلى أبعد مدى من معرفته بعلم سثنى كالتاريخ والحضارة والفلسفة والاجتماع والانثروبولوجيا والانتولوجيا وغيرها في تفسير التطور الحضارى له ، ومدى الأثر الذى تركه على شعوبه الافريقية . وليس من شك في أننا في المالمين العربى والإسلامي في أشد الحاجة إلى مثل هذه الدراسات الجادة من الناحية الأكاديمية ، والصريحة في نفس الوقت في اطلاع المسلمين على أخطائهم وواقفهم المولم ، فهي تفتح أمامهم آفاقا جديدة لفهم ما يجرى في مجتمعاتهم المعاصرة فهما علميا بما تقدمه اليهم من قوانين التنشئة الاجتماعية التي تحكم تطور المجتمعات ، ولتدفعهم إلى إعادة النظر في أوضاعهم وتطويرها نحو ما هو أفضل . ونحن نأمل أن تتجه الجامعات العربية والإسلامية إلى التوسع في دراسة المجتمعات الإسلامية المعاصرة على هذا النحو العلمي المتكامل ، ولا تكتفي بالتركيز على دراسات التراث الإسلامي في مجالته الفلسفية والتاريخية والحضارية والتشريعية ، ولا بد في رأينا من أن يرتبط التراث بقضايا العصر .

ومع ذلك نحن نختلف مع ترمنجهام حول العديد من النتائج والقضايا والإنكار التي يوردها في كتابه نكتفي هنا بأن نتحدث من أهمها :

فمن ذلك تصويره لوضع المرأة في المجتمع الإسلامي حيث يقول : « ومن الأصوب أن يقال أن الرجال داخون في الإسلام بشكل أعمق على حين أن مشاركة النساء فيه هامشية ، لأن الإسلام يعيد للنساء مجالا ضئيلا للقيام بالشعائر (ص ٤٦ - ٤٧) . وهذا غير صحيح لأن الإسلام يساوى بين الرجل والمرأة في التكليف الشرعي (١)

تبيينها من قوله : « أن الإسلام يفقد قيمه السابقة واعتباره كمدنية ، ويبدو أنه يقود إلى غير مكان ! أن الإسلام بالنسبة للرجال الجدد بما قيمهم المسلمون ، أصبح شيئا مرتبطا بكل الأمور التي تقيد وتؤخر ، ومن بينها التعليم التقليدي واللغة العربية وطريقة كتابتها في أفريقيا غير الناطقة بالعربية ، وفي نفس الوقت يتباطأ انتشاره ، ويضمحل نفوذه . أن هذه التغيرات مرتبطة بالجزء العام التنشئة في أفريقيا ! » (ص ١٠٦) .

ويقرر ترمنجهام في ختام كتابه وجود إسلام افريقي جديد (Neo-African Islam) في بعض أماكن افريقيا ، يمثلها أفراد اعتنقت مجتمعاتهم الإسلام خلال المائة عام الأخيرة في نفس الوقت مع دخول الاستعمار بما يحمله من حضارة مسيحية وعلمانية إليها ، وقد تأثروا في نظرهم العامة بهذه الحضارة الجديدة ، وقد أوجد أولئك الأفراد ، ومنهم أناس عاديون وفلاحون وسكان مدن ، نظرة عامة مكونة من مناصر إسلامية وأخرى غربية ، وتوجد هذه النظرة العامة بين ولوف في السنغال ويوروبا في غرب نيجيريا ، كما توجد في غينيا وسيراليون وأماكن أخرى من المناطق الفرنسية السابقة . أن الذين اعتنقوا هذه النظرة لم يمتنعوا النظرة المحافظة للمسلمين التقليديين بسبب موقفهم المتأثر بالحضارات الثلاث الموجودة الآن في أفريقيا ورغبهم في الملامة بينها .

٧ - تلك هي أهم النتائج التي توصل إليها ترمنجهام في كتابه عن أثر الإسلام على إفريقيا ، وهي في الحقيقة ثمرة دراسات علمية عميقة متأنية اتفق فيها سنوات طويلة من عمره ، ولعل على علميه في التفكير ، واتخاذ منهج دقيق في التحليل والموازنة والترييب . ومن الواضح من خلال هذا الكتاب أن المؤلف قد نهى له ثقافة عميقة ذات

الإسلامية السبع ، ان انتشار الطرق الصوفية فيه منذ القرن الخامس عشر الميلادي بصورة شعبية هو الذي أعطى الاسلام المغربي طابعاً خاصاً مميزاً (ص ٨) . ونحن نختلف معه في هذا التخصيص ، لان انتشار الطرق الصوفية انتشاراً شعبياً لم يكن خاصية انفرد بها المغرب وحده ، بل كان نظام الطرق موجوداً في مصر أيضاً ، وله اثره العميق في الحياة الدينية فيها منذ القرن الثالث عشر الميلادي وما بعده . بل ان الحركة الصوفية كانت نشيطة جداً في افطار اخرى اسلامية غير المغرب ومصر ، ففي العراق مثلاً ظهر قطبان صوفيان كبيران من أصحاب الطرق هما عبد القادر الجيلاني مؤسس القادرية ، وأحمد الرفاعي مؤسس الرفاعية . وكانت هناك هجرات صوفية - اذا صح هذا التعبير - تأتي الى مصر من المغرب كهجرة الشاذلي وابناه الى مصر (٢) ، وكان للمدرستهم الصوفية فيها اثر لا يقل عن اثرها في المغرب ان لم يكن ازيد . هذا كله فضلاً عن الاثر العميق الذي تركه انقطاع آخرون كأحمد البدوي وابراهيم الدسوقي في مصر (وهما معاصران للشاذلي تقريباً) مما لا يزال موجوداً الى اليوم في المجتمع المصري . ولا يخفى على ترمنجهما أيضاً ان التصوف ابان حكم العثمانيين لمصر منذ القرن السادس عشر قسداً انتشر فيها انتشاراً شعبياً واسعاً بحيث يمكن القول بأنه كان طابعاً عاماً للحياة المصرية ، بل ان الازهر وهو المركز العلمي الاسلامي الاكبر كان مطبوعاً في ذلك العصر بالطابع الصوفي وكان يفند اليه الكثيرون من أبناء افريقيا ، فيتأثرون بما كان سائداً فيه من العلوم بما فيها علم التصوف ، وكان كثير من شيوخه الكبار يمسكون في نفس

فيهم مكلفة بجميع العقائد والعبادات والمعاملات والاخلاق . وللرأى - كما هو معلوم من الاسلام - ان تحضر الصلاة في المسجد ، وكانت تخرج مع المسلمين في الفترات على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد تفضل المرأة الرجل في مجال التقوى والعبادة والعلم . يقول ابن حزم مبيناً مساواة المرأة للرجل في التكليف الشرعي : « ان الخطاب من الله تعالى عموم للرجال والنساء ، لا يجوز ان يخص به الرجال دون النساء ، فيكون من فعل ذلك مغترباً على الله . ويبقى يدرى كل مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى النساء كما بعث الى الرجال (١) » . ويرى بعض علماء اصول الفقه ان قول الله تعالى : « وما كان لؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » (الاحزاب : ٣٦) دليل على ان المرأة والرجل سواء بالنسبة للاحكام الشرعية واعتقاد وجوب المأمور به او نفيه ، وفعله على ما هو عليه ، ان كان واجباً فواجب ، وان كان ندياً فندي (٢) . لقد مساوى الاسلام بين المرأة والرجل في العمل بالاحكام الدينية والجزاء عليها ، واعطاها الى جانب ذلك جميع حقوقها الانسانية ، وانصرفت بعض المسلمين في افريقيا او في غيرها من العمل بالاحكام الاسلام في هذا الصدد لا ينهض دليلاً على الاسلام ذاته ، بصورة اخرى لا يجوز ان تؤخذ مبادئ الاسلام او تفهم على ضوء واقع المسلمين لوجود التفاوت بينهما الآن .

ومن ذلك أيضاً ما يتعلق بكلام ترمنجهما عن الطرق الصوفية في افريقيا : فهو يرى عند كلامه عن المغرب باعتباره منطقة من مناطق الحضارة

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ١٣٢١ ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ .

(٢) الاممى : الاحكام في اصول الاحكام ، القاهرة ١٩١٤ = ١٣٣٢ هـ ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

(٣) انظر كتابنا : ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٥ - ٥٦ .

نقطة تحتاج الى مزيد من البحث العلمي ولمس يكتب عنها - فيما نعلم - شيء الى الآن .

وهناك بعد ذلك موضوع آخر نحب أن نناقشه مع ترمينجهام وهو مدى أثر الحضارة الأوروبية العلمانية على الحضارة الإسلامية في إفريقيا ، وقد لاحظنا أنه يضح هذا الأمر الى الحد الذي يجعله يقول « أنها (أى النظرة الغربية العلمانية) أقوى من الإسلام على التغيير » (ص ١٠٩) . وهو يفرق بين نوعين من الإسلام في إفريقيا اسلام تقليدى (Traditional) واسلام معلن (Secular) وهو يستخدم مصطلحين مختلفين كل واحد منهما له مضمونه الخاص في هذا الصدد . فهناك العلمانية (Secularism) والعلمنة (Secularization) وهو يعميل الى القول بأن ما جرى في إفريقيا الآن هو علمنة وليس علمانية ، لأن العلمانية ايدولوجية او موقف تجاه الحياة يرفض القيم الروحية والنظرة الدينية تماما . اما العلمنة فهي التفر الذي يسير من حضارة دينية الى حضارة معلمنة كل مجالات الحياة فيها يستقل بعضها عن البعض الآخر ، والعلمنة في رأيه أمر لا يمكن تجنبه هنا وهناك في العالم . أنها تحدد وتضيّق المجالات التي يستوعب فيها الإسلام حياة معنوية ، فنظرتها تختلف من نظرة المسلم التقليدى ، فبالنسبة لهذا المسلم كل ما هو روحي لا يمكن فصله عن وجوه الحياة الأخرى . ان العلمنة تنظر الحياة الى أجزاء ، ويصبح الإسلام معها عاملا واحدا بين عوامل متعددة في المجتمع . والعلمنة في رأى ترمينجهام لا تؤدى بالضرورة الى العلمانية ، وكل ما في الأمر أنها تفتح الطريق أمام موقف معلن تجاه الحياة . ونحن نجد في إفريقيا أولئك الذين يكون الإسلام بالنسبة لهم قوة روحية وأخلاقية

الوقت من أقطاب التصوف كاللدردير والحفنى والشرقاوى وغيرهم . (١) فلا يصح إذن أن نفعل ما يمكن أن يسمى «ترابط الحسنة والصوفية» في عالم اسلامي موجد ، والمؤلف نفسه يشير الى بعض مظاهرها في إفريقيا . فقد كانت الطرق الصوفية في حركة مستمرة تنتقل أحيانا من المغرب الى الشرق ، كالطريقة الشاذلية ، التي استقرت في مصر ومنها وجدت طريقا الى الشام والجزيرة العربية بل والى الملايو ، وأحيانا أخرى كانت تنتقل من الشرق الى المغرب ، كالطريقة القادرية التي نشأت بالعراق ثم سرعان ما امتد انتشارها الى الشمال الإفريقي ومنه عبرت الصحراء الى مناطق عديدة في إفريقيا أشار اليها المؤلف ، فكان دورها في إفريقيا أكبر بكثير من دورها في الشرق العربي . يضاف الى ذلك أن طرقا صوفية عديدة جاءت من الجزيرة العربية الى إفريقيا ، وكان لها فيها أثر اعمق بكثير من أثرها في المناطق التي نشأت فيها كالطريقة السجانية (النسوبة الى محمد السمان أحد شيوخ الخلوتية وهو مدفون في المدينة المنورة) ، والطريقة الإدريسية التي أسسها أحمد بن إدريس وافرمت عنها الميرغنية في السودان ، والنسوسية في ليبيا . وهذا كله يدعو الى القول بأن تقسيم ترمينجهام لمناطق الحضارة الإسلامية في إفريقيا ، يعد اعتبارا لا حقيقيا ، على الأقل بالنسبة لدور الحركات الصوفية في إفريقيا .

ولمة نقطة أخرى يغفلها المؤلف وهي الأثر المتبادل بين الطرق الصوفية في مصر والسودان ففي العصر الحاضر مثلا نجد طرقا صوفية مصرية لها فروع في السودان كالاحمدية والبرهامية ، ونجد في نفس الوقت طرقا سودانية لها فروع في مصر كالإدريسية والميرغنية . وهذه

(١) انظر في تفصيل هذا بحثا لنا عنوانه : الطرق الصوفية في مصر ، نشر بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون ، الجزء الثاني ، ديسمبر ١٩٦٣ ، (ظهرت المجلد في ١٩٦٨) .

في العصر العباسي ولكنه تغلب عليها وتجاوزها ، وكذلك كان شأنه في جميع العصور التالية ، وكان دائما يؤكد اصالته وقدرته على البقاء والتغيير في المجتمع . لقد ظن خصوم الاسلام انه اذا لم تهزم الاسلام القوى العسكرية فلتهمزه المبادئ والافكار المضادة له ، ان العصر الذي نعيش فيه هو عصر الصراع الايديولوجي العنيف الذي لم يشهد له تاريخ الانسانية مثيلا ، ونجاح الاسلام في هذا الصراع ليس في ايجاد صيغة جديدة للربط بين الدين والحياة كما يقول ترمينجهام ، بل في قدرته على احتواء ايديولوجيات العصر المتحدية له ، وهو قادر على ذلك لو كان المسلمون في العصر الحاضر على قدر كبير من الوعي بما يدور حولهم ويراد بهم وليس هذا هو موقف الاسلام وحده ، عصر سادت فيه الفلسفات المادية وشاع الانحلال النطقي في كثير من مجتمعاته ، بل هو موقف الاديان جميعا .

ونعود مرة اخرى الى موضوع العلمانية فنقول انها تتعارض مع الاسلام وان اتفقت مع المسيحية (الى حد ما) على اعتبار ان المسيحية لم تكن في اصولها الاولى تشتمل على أنظمة سياسية للدولة وانما كانت ديننا ينظم علاقة الفرد بربه ، ويقوم على اساس مبادئ اخلاقية معروفة كالحب والرحمة والتسامح وما الى ذلك . اما ما يوجد الان في العالم المسيحي من نظم للحكم ، او نظم اجتماعية اخرى ، فهو وضيع ، فالعلمانية حين تفصل الدين عن الدولة لا تشكل خطرا على المسيحية . ولا كذلك الاسلام فان اصوله المنزلة (القرآن والسنة) تضمنت قواعد شريعة متعلقة باصول الحكم والاقتصاد والحرب والعلاقات الدولية وما الى ذلك . والاسلام يستند الى سلطة الدولة اسما ، فاذا عزلته الدولة عن الواقع الاجتماعي ، ضعف شأنه واصبح مهددا بالزوال . ان مفهوم كلمة « دين » في الغرب غير مفهومها في الاسلام والخلط بينهما غير جائز .

ولكن علاقة لها بالحياة ، مع احتفاظهم بالولاء للإسلام باعتباره الوسط الحضاري الذي ينتمون اليه . وشان الحضارة الاسلامية في ذلك شان الحضارة الفريقلية فاما قد فصلنا بالتدريج عن جذورهما الدينية . ان مستقبل الاسلام يتوقف على تلفيق صيغة جديدة للعلاقة بين الدين والحياة مختلفة من أي شيء آخر عرف في الماضي (ص ١٢٥) . ونحن لا نقر ترمينجهام على هذا الكلام خصوصا انه يعترف في مواضع كثيرة من كتابه بتكامل الاسلام . ان الاسلام التقليدي في رأينا هو الاسلام الكامل ، اما الاسلام المظلم (الجديد) الذي ينحصر في نطاق بعض العقائد الضيقة والممارسة الشكلية لمبادئ الدين ، فهو اسلام ناقص لا فائدة منه ، وقد يخرج معنقيه من الاسلام بالرة ، فكل نواحي النشاط الاجتماعي او الحضاري او المدني او السياسي في المجتمع الاسلامي هي من الاسلام بدليل قول ترمينجهام نفسه : « حينما تواجه الاسلام كحضارة فان أي تغير (مهما كان مجاله) هو ديني » (ص ١٢١ - ١٢٢) .

نأخذ ببعض جوانب الاسلام دون البعض الآخر - من وجهة النظر الاسلامية - لا يجوز بل لا يمكن .

ويسجني وضع ترمينجهام للمشكلة التي يواجهها الاسلام في العصر الحاضر قائلا ان المشكلة التي يواجهها المسلمون هي : كيف يمكنهم الاحتفاظ بقيمهم المستمدة من تراثهم وايجاد التكامل بينها وبين القيم الجديدة (ص ١٢١) فاذا نجح المسلمون في هذا الميدان وضخوا حدا للصراع القائم . وفي رأينا ان الصعوبات التي يواجهها الاسلام الان في افريقيا بل وفي أي مكان اخر هي صعوبات مرحلية والاسلام بطبيعته دين صراع ، دخل منذ يومه الاول في صراعات عقائدية وخرج منها ظافرا ، وكانت الاخطار العقائدية محدقة به من كل جانب

اشتراكية ذات دلالة هامسة ، فما هو موقف الإسلام من مثل هذه التحولات ؟ هذا ما لم يحاول المؤلف أن يذكره أو يجيب عليه . كذلك لم يتعرض المؤلف للتكتل الإفريقي الذى تمثله منظمة الوحدة الإفريقية التى أعلن ميثاقها سنة ١٩٦٣ ، وماذا يمكن أن يكون له من الأثر .

وبعد : فانه مع هذه الملاحظات التى مرت بك من كتاب ترمينجهام ، فان هذا الكتاب يظل فى رأينا من أدق وأمتع ما كتب عن الإسلام فى إفريقيا . وهو جدير بأن ينقل الى اللغة العربية ، فهو يحتوى على حقائق علمية من تاريخ الإسلام وواقعه المعاصر فى إفريقيا ، ويجب على كل مثقف عربى أو مسلم أن يقف عليها ويعى دلالاتها .

الدكتور

أبو الوفا التفتازانى

ولا يصح أن يقال - من وجهة النظر الإسلامية البحتة - دولة دينية ودولة علمانية ، بل يقال : دولة إسلامية ، لأن الدولة فى الإسلام تجمع بين ما هو دنى وما هو زمنى أو مدنى . ولعل ملاحظة جديرة هنا بالاعتبار وهى أن ما يصلح فى مجتمعات الغرب لا يكون صالحا بالضرورة لمجتمعات العالم العربى أو الإسلامى ، فالمجتمع الأوروبى ليس نموذجا لكل مجتمع بشرى ، والإنسان الأوروبى ليس بالضرورة مثالا لكل انسان ، وقد تتجاوز البشرية حضارة الغرب الى نوع آخر من الحضارة .

بقيت ملاحظة أخيرة وهى أن ترمينجهام ركز على أثر الحضارة الغربية وحدها فى إفريقيا ، ولم يتعرض لأثر إيديولوجيات أخرى ذات طابع مختلف فى السنوات القليلة الماضية على المجتمعات الإفريقية . فقد اخلت كثير من الدول الإفريقية بالنظام الاشتراكى ، وتشهد إفريقيا الآن تحولات

من الكتب الجديدة

كتب وصلت لإدارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الأعداد القادمة

Chorley, R. J. ; (ed) : **Water, Earth and Man : A Synthesis of Hydrology, Geomorphology and Socio-Economic Geography**, Methuen, London 1969.

Crowther, J. G. ; **Scientific Types**, The Cresset Press, London 1968.

Devons, S. (ed) : **Biology and the Physical Sciences**, Columbia U.P., N.Y. 1969.

Ebling, F. J. ; (ed) : **Biology and Ethics**, Academic Press, London, 1969.

Fisher, P. & Bender, A. ; **The Value of Food**, Oxford U.P., London 1970.

Foulkes, S. H. & Prince, G. S. (ed) : **Psychiatry in a Changing Society**, Tavistock, London 1969.

Gittings, J. ; **Survey of the Sino-Soviet Dispute**, Oxford U.P. ; London 1968.

Goffman, E. ; **The Presentation of Self in Everyday Life** ; Allen Lane, The Penguin Press, London 1969.

Harre, R. ; (ed) : **Scientific Thought 1900-1960**, Clarendon Press, Oxford 1969.

Hayter, A. ; **Opium and the Romantic Imagination.**, Faber and Faber, London 1968.

Kermode, F. ; **Continuities** ; Routledge & Kegan Paul, London 1968.

Nakayama, S. ; **A History of Japanese Astronomy : Chinese Background and Western Impact**, Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1969.

O'Neil, W. M. ; **Fact and Theory : An Aspect of the Philosophy of Science**, Sydney U.P. ; 1969.

Rescher, N. ; (ed) : **Studies in the Philosophy of Science**, Blackwell, Oxford 1969.

في الإعداد التالية من المجلة :

العدد الثاني - المجلد الأول
يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٧٠.

قسم خاص عن عالمنا المتغير

للدكتور محمود رياض	الإلكترونيات - وتقارب الثقافات
للدكتور نور الدين حاطوم	خصائص حضارة العصر
للدكتور صلاح طلبة	المقول الإلكترونية
للدكتور حسن طه نجم	مستقبل التفدية في العالم
للدكتور محمد ناصر	التربية في عالمنا المتغير
ديفيد ميكائيل ليفين	البنائية والوجودية

غير الأبواب الثابتة

العدد الثالث - المجلد الأول

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

الإنسان والكون

٢٠٠٠ قرش	سوريا	٤ ريالات	الخليج العربي
٢٠ قرشا	ج ٢٠٤٠	٤ ريالات	السعودية
٢٠ قرشا	السودان	٢٠٠ فلس	البحرين
٣٠ قرشا	ليبيا	٧ شلنات	اليمن
٤٠٠ مليم	تونس	٢٥٠ فلزا	العراق
٤٠٠ مليم	الجزائر	٢٠٠ قرش	لبنان
٤ دراھم	المغرب	٢٠٠ فلس	الأردن



المجلد الأول - العدد الثاني - يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٩٠

والمعالم الحديثة

- العقول الالكترونية
- مستقبل التغذية
- التربية والتعليم
- الالكترونيات وتقارب الثقافات
- الفكر والحضارة

عالم الفكر

رئيس التحرير : أحمد مشاري العدواني

مستشار التحرير : دكتور أحمد البوزيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت • يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٧٠
الرسائل باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية • وزارة الإرشاد والأنباء - الكويت ص ٥ ب ١٩٢

المحتويات

عالمنا المتغير

٣	مقدم مستشار التحرير	تمهيد
		النكر والحضارة :
١١	دكتور عبد الرحمن بنوي	(١) الثورة الفكرية المعاصرة في القلوب
٢٢	دكتور نوري الدين حاطوم	(٢) خصائص حضارة العصر
٣٧	دكتور محمود رياش	الإلكترونيات وتلفاز الثقافات
٥١	دكتور صلاح الدين طيبة	المقول الإلكترونية
٩٣	دكتور حسن طه النجم	مستقبل التقديرة في العالم
١٣١	دكتور سعيد ناصر	التربية في عالمنا المتغير

★ ★ ★

آفاق المعرفة

١٥٥	العقل الانساني	دكتور علي حافظ
٢٠٢	الادب الهجري الآخر	شافي مصطفى
٢١٩	الفوضوية	علي ادحم

★ ★ ★

تجارب وخبرات

٢٤١	تجارب مع العشرات	دكتورة سميرة الزبيدي
-----	------------------	----------------------

★ ★ ★

عرض الكتب

٢٥٩	نظرة الى قلبى	
٢٦٧	لا فيدا او الحياقة	
٢٧٥	ازمة جنك	

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

عالمنا المغمى

تمهيد

في كتاب حديث بعنوان « المغمى في الآلة » The Ghost in the Machine (١) يقص الكاتب الشهير آرثر كيسلر Arthur Koestler قصة خرافية عن تاجر باحد الأسواق الشرقية القديمة لم يكن يجيد الحساب مما كان يفرض به عملاءه ويشجعهم على غشه وخديعته ، وذلك على عكس المألوف في الأسواق الشرقية حيث يتوقع من التاجر ان يفش عملاءه ويخدعهم . وضاق الرجل بحاله فابتهل الى الله ان ينعم عليه باحدى آلات المد البسيطة التي يستخدمها الأطفال في أول عهدهم بتعلم الحساب والتي تتألف من بعض حبات الخرز المنظومة في عدد من الأسلاك أو القضبان الحديدية الرفيعة للاستعانة بها في عمليات الجمع ، وحمل تلك الرقبة الى السماء مغرقت خبيث ولكنه أرسلها الى غير القسم المختص . وفي صباح اليوم التالي ذهب التاجر ليفتح حانوته الصغير فإذا به أمام محل تجارى ضخم يتألف من عدد من الطوابق من البناء الحديدى ومزود بالحدث الأجهزة الحاسبة الالكترونية بما فيها آخر جهاز كمبيوتر أخرجه شركة آى . بي . ام I.B.M. . ودخل التاجر في دوامة حسابية من نوع آخر . فقد حار أمام كل هذه الآلات والأجهزة الدقيقة المعقدة ، وأخذ يعمل أصابعه في مفاتيحها كيما اتفق دون جدوى . وارتبكت أعماله التجارية أكثر من ذي قبل ، واستبد به الغضب فأخذ يضرب الجهاز بمنف يديه ، ولكنه لاحظ أثناء ذلك أنه حين يبدق على مفتاح معين بالذات عدة مرات يبرز له رقم يختلف باختلاف عدد الدقات . وشيئا فشيئا بدأ سر العدد البسيط يتكشف له ، واستطاع بذلك ان يستخدم ذلك « العقل » الالكترونى

(١) صدر عام ١٩٦٧ ويعتبر الحلقة الثالثة من سلسلة كتبها أدباً فحجة حين نشرها لأول مرة وهما كتاب The Sleepwalkers وكتاب The Act of Creation وفيهما يتناول كيسلر الكشف العلمى واللاهوت الذى للذين يتمثل فيهما مجد الإنسان وعظمته - بينما ينتهى الكتاب الحالي « المغمى في الآلة » بالتعرض لمشكلة النواحي الداخلية التى تدفع الإنسان الى تعمي نفسه ، وهذا - فى نظر كيسلر - هو اقتدر الإنسان ومصيره .

الحديث في تسير أمور البسيطة المتواضعة التي لم تكن تتمتع بعمليات الجمع . ومرت آلاف السنين وتتابعت الأجيال وتوارث أبنائهم وأحفاده وأحفاد أحفاده ذلك الجهاز العجيب ، وأمكنهم خلال تلك الآلاف الطويلة من السنين أن يصلوا الى بعض العمليات الأكثر تقدماً والتي لم تعد على أية حال عمليات الضرب البسيطة . ولم يدرك التاجر أو أحفاده أن هذه الآلة التي قنعوا منها بتلك العمليات الحسابية الساذجة هي نفس الجهاز الذي يحسب بكل دقة دوران الأفلاك وحركة الأجرام لسنوات عديدة مقبلة ، كما أنه هو نفس الجهاز الذي يساعد الإنسان الآن على غزو الفضاء وسوف يساعده على هتك الكثير من أسرار الكون .

ويصرف النظر عما قد تشير اليه القصة -وما قد نستخلصه منها لأنفسنا - من تخلف الشرق عن الغرب في هذه الفنون والعلوم - وهو أمر لا جدال فيه - فان للقصة مغزى أبعده وأعظم من هذا بكثير . والمغزى الحقيقي الذي يهدف اليه كيسلر بلا ريب هو أن الإنسان كان يحمل دائماً ومنذ نشأته الأولى عقلاً قادراً على التفكير وعلى الوصول الى أشد العمليات تعقداً وأكثرها دقة وعمقاً ، ولكنه عاش مع ذلك آلاف السنين دون أن يدرك قيمة ذلك العقل الذي يحمله فلم يستخدمه بذلك الا في أبسط الأمور ، شأنه في ذلك شأن التاجر الشرقي الساذج وذريته الذين لم يدركوا قيمة « العقل » الإلكتروني . فلقد كان إنسان كرومانيون Cro-Magnon الذي ظهر منذ حوالي خمسين ألف الى مائة ألف سنة مضت والذي انحدرت منه السلالات الأوروبية البيضاء الحديثة يحمل في جميعته مخاً يقارب في الحجم والشكل مخ الإنسان الحديث أو الإنسان العاقل Homo Sapiens ، ولكنه ظل مع ذلك يعيش في الكهوف ولم يفلح في أن يتعدى حدود حضارة العصر الحجري Stone Age . وبعد عشرات الآلاف من السنين من التطور البطيء المذهني استطاع الإنسان أن يكشف عقله بكل قدراته وطاقاته الهائلة . ولكنه ما أن توصل الى ذلك السر الذي ظل حبيساً لعشرات القرون حتى تغير كل شيء . فلقد تغيرت نظرة الإنسان الى نفسه وإلى العالم الذي يحيط به وإلى العلاقة التي تربطه بذلك العالم . ولقد اتخذ من عقله وتفكيره وسيلة وأداة للكشف عن أسرار الكون وتغيير وجه الحضارة ووجه الحياة ذاتها .

وليس من شك في أن المجتمع الإنساني كان دائم التغير وإن الحياة الإنسانية هي عملية تغير طويل مستمر . ولقد أغرم الكتاب - وبخاصة علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا - بمحاولة رسم وتحديد المراحل التي مر بها الجنس البشري منذ ظهوره ومنذ نشأة المجتمع الإنساني حتى الآن ، وساد هذا الاتجاه بوجه خاص في القرن التاسع عشر ، وظهرت بذلك نظريات عديدة نظرت اليها الآن بكثير من الاشتياق والحذر لعدم استنادها الى معلومات كافية ، وإن كانت في الوقت ذاته تستحق كل تقدير نظراً للظروف الصعبة القاسية التي كانت تحيط بالتفكير العلمي حينذاك . وعلى الرغم من تعدد واختلاف هذه النظريات في كثير من التفاصيل فإنها تجمع كلها على أن المجتمع كان في معظم فترات تاريخه يتقدم ويتطور من حالة التخلف والوحشية الى حالة الحضارة الحديثة وما يرتبط بذلك من نضوج في قوى الإنسان العاقلة وتخلص تفكيره من أوهام الأساطير والخرافات والفتنات والميتافيزيقا وتقدمه بالتالي نحو آفاق العلم الوضعي الذي لا تحده أية حدود . وهذا معناه أن التغيرات التي طرأت على الجنس البشري وعلى المجتمع الإنساني في عومه لم تكن مجرد تغيرات في التكوين الفيزيقي للإنسان أو في العادات أو المظاهر السلوكية أو حتى في مظاهر

سوف تسيطر عليه العلوم البحتة والعلوم الطبيعية بالذات ، وأن التفريعات الواسعة الهائلة والسريعة في مجال العلوم لابد من أن تستتبع تغيرات هامة في حياة الإنسان ونظم المجتمع وبقية المعارف الإنسانية الأخرى . وارجو ألا يؤخذ هذا القول على أنه إجحاف بحق الإنسانيات أو أنه هجوم عليها وتشكيك في أهميتها وضرورتها للإنسان والمجتمع على السواء . إنما لابد من أن ندرك مدى وطأة العلم الحديث والتفكير العلمي الدقيق على الإنسانيات والعلوم الإنسانية وأن نتوقع اشتداد هذه الوطأة . وإنا نجد من الآن بعض الاتجاهات التي تدعو لخضاع الشعر للسيبرانية Cybernatics التي تعتبر من أكثر مراحل استخدام الرياضيات تطوراً وتقدماً، كما نجد كثيراً من المحاولات الجادة التي يقوم بها بعض العلماء - وليس الأدباء أو المشتغلين بالإنسانية - للتعرف على العلاقة بين العلوم والإنسانيات ومستقبل الإنسانيات وشكلها تحت تأثير العلم الحديث ، على ما فعل مثلاً سير پيترمدور Sir Peter Medawer في محاضرة شهيرة له عن « العلم والأدب » ، وكما عالج المشكلة كذلك منذ سنين اللورد سنو P.C. Snow في محاضرة شهيرة أيضاً هما اسمها « الثقافتين The Two Cultures » ، وهي محاضرة ألقاها أصلاً في جامعة كمبريدج وإثارت كثيراً من الجدل والمناقشة ثم تحولت إلى كتاب لا يقل شهرة من المحاضرة الأصلية (٤) .

ولقد حاول « سنو » أن يبين الانفصال الخطير بين « الثقافة التقليدية » أو « الإنسانية » كما يسميها و « الثقافة العلمية الحديثة » مما أدى إلى استقطاب المجتمع الغربي في مجموعتين متعارضتين تماماً لدرجة أنه لم يعد ثمة أي حوار بينهما . ففي جانب يقف « المثقفون » ويعني بهم جميع المتعلمين باستثناء « العلماء » والمهندسين الذين يؤلفون فئة متميزة لها ثقافة مشتركة تتمثل في موقف موحد من العالم وفي استجاباتهم لأحداثه بطريقة معينة وهي - في رأي سنو - استجابة ذات طابع إيجابي ، وذلك بعكس الحال بالنسبة للمثقفين الذين يتسم موقفهم بالسلبية وبالخلو من صفات « الثقافة العلمية » . فالثقافة التقليدية في رأيه ليست فقط ثقافة « لا علمية » ولا لكان الأمر يهون ، بل إنها أيضاً - وهذا هو الخطر في الأمر - تقف موقفاً عدائياً من العلم وهو موقف مؤسف بغير شك . ولم يتردد سنو في أن يرى أن العلاج الوحيد لذلك ، وهو علاج يحل في طبياته تضيقق الهوة بين موقفي الإنسان المتعارضين من الحياة كما ذكرنا ، هو في تحويل الثقافة التقليدية إلى ثقافة علمية ، وسيلة ذلك هي التعليم بحيث يتعرض الدارسون في كل فرع لتأثيرات الفرع الآخر ، ولكن - وهذا هو المهم حقاً - على أساس أن يصطبغ التعليم في الوقت ذاته بصبغة علمية قوية ، ويُعطى الطالب مزيداً من العناية والاهتمام للتدريب في ميادين العلم (٥) . فالعصر الحالي - الذي سوف يمتد إلى المستقبل - هو عصر العلم قبل كل شيء . ولقد وجدت هذه الدعوة صدى قوياً في كثير من الجامعات الحديثة بوجه خاص بحيث ربطت هذه الجامعات نفسها بالصناعة والتكنولوجيا ، لدرجة أنه منذ أسابيع قليلة فقط ظهر أن مجلس إدارة

(٤) ظهر الكتاب بعنوان : Snow, P.C., The Two Cultures, and a Second Look, New American Library, N.Y. 1964.

(٥) Nelson, W.R., "Science: A Means or an End ?" in Id (ed): The Politics of Science, Oxford University Press, N.Y. 1968, P. 478.

جامعة وارويك في بريطانيا يتألف كله - باستثناء شخص واحد - من رجال الصناعات مما أثار الطلاب وادى الى قيام أعنف معارضة يتزعمها الآن الناقد الشهير ليفيس R.F. Leavis من جامعة كمبرج .

ومهما يكن من تعارض وجهات النظر فالذى لاشك فيه هو ان العلم يعتبر عنصراً هاماً وخطيراً في حياة المجتمع الانساني المعاصر وان اهميته وخطوره سوف تزدادان بمرور الزمن ، كما ان تتابع الاكتشافات في كل فروع العلوم الطبيعية والحيوية أصبح يشد الاهدان الى العلم بشكل لم يكن مانوفا من قبل ، خاصة وان تقدم وسائل الاتصال والثقافة والتعليم وتنوعها ساعدا مساعدة فعالة على نشر العلوم في كل انحاء العالم وتقريبها الى الافهام ، ويستوى في ذلك التعريف بالمعلومات او المادة العلمية ذاتها او المنهج او التطبيقات المرتبطة بها او النتائج المترتبة عليها . وكل هذا يضع الانسان في المجتمع المعاصر في موقف فريد ازاء العلم والتعليم والتربية . ويتمثل هذا الموقف الفريد في التفريات الحديثة التي بدأت تطرا على التعليم ووسائله المختلفة ، بحيث أصبح التعليم ذاته يعتبر - حسب تعبير رودنيك (صفحة ٢٠٥) - أحد المشروعات الكبرى في هذه المرحلة الحضارية الثالثة التي بدأنا ندخل فيها . وليس من شك في ان التعليم سوف يعطى اهتماما متزايدا بالمستقبل ومشاكله المرتقبة بعد ان كان معظمه موجها للماضي أو الحاضر على أكثر تقدير . وهذا معناه ان كثيرا من الموضوعات التي تظهر الآن في مناهج المدارس والجامعات سوف تختفي ويظهر بدلا منها موضوعات وتخصصات أخرى جديدة نتيجة لتقدم العلم وتغير الظروف العامة التي يمر بها المجتمع الانساني ، كما ان تدريس العلوم سوف يحتل مكانا بارزا في أي خطة دراسية بالإضافة الى محاولة المزاوجة بين العلوم الطبيعية والانسانيات . وكل هذا من شأنه ان يؤدي في آخر الأمر الى تغيير النظرة الى الحياة وموقف الانسان منها بحيث تصطبغ حياة الفرد وخصراته وعلاقاته بذلك الطابع العلمي المتميز بالدقة القاطمة . وحينئذ سوف يصبح العلم حضارة بقدر ما هو أداة للحياة ولتغيير تلك الحياة .

أحمد أبو زيد



الفكر والحضارة

١- وجهة نظر فيلسوف

الثورة الفكرية المعاصرة في الغرب

عبد الرحمن بدوي *

(أبرز الأحداث في السنوات الخمس الأخيرة في أوروبا وأمريكا هو التمرد :)

تمرد المجتمع الناشئ في احضان التطور المدني الهائل ، على هذا المجتمع الذي نصفه بأنه « مجتمع الاستهلاك » .

وتمرد الأبناء على الآباء ، في محاولة لاستقلال الشباب عن الشيوخ أيا من كانوا : آباء بالعدم ، أو بالروح .

وتمرد الأدنى على الأعلى في كل نظام يقوم على الترتيب : في السياسة ، والاقتصاد ، والدين .

وتمرد البداوة والقطرة والفريضة على الحضارة والآلة ، والتعقيل ، والنمطية .

وتمرد اللاوعي على العقل المنطقي المجرد ، والعلم على الواقع .

وما حركات الشباب في الجامعات الأمريكية على اختلافها ، والشباب الفرنسي في أحداث مايو ١٩٦٨ المشهورة ، والشباب الإيطالي بأحداثه الدامية المتواصلة من شتاء سنة ١٩٦٨ حتى اليوم ، ونظائر هذه الحركات كلها في سائر بلدان أوروبا وأمريكا ، وما تمرد الطبقات الدنيا من الكليروس المسيحي على سلطات الكهنوت العليا وعلى رأسها سلطة البابا . . الأما ظاهر لحركة التمرد العامة هاتيك .

لقد أرادت هذه الحركات كلها ان تطلق الرغبات المكبوتة والغرائز المقهورة ، والنوازع المتصاعدة والامتصاصي بها أو المصروفة من تيارها ومجراها الاصيل ، تطلقها من حيث ترقد

* الدكتور عبد الرحمن بدوي استاذ ورئيس قسم اللسانيات بجامعة عين شمس ج.ع.م. ويصل الآن استاذًا بالاعارة بالجامعة الليبية ، له كتب ودراسات عديدة باللغة العربية والفرنسية والالمانية كما اسمهم في تعريف التاريخ العربي بالوجودية .

في كهوف الاشعور تحت وطأة صمامات جياور من الوان التحريمات التي تكسدت وتصلبت على مضي الزمنة تحت تأثير قواعد السلوك الاجتماعي وتقويمات الاخلاق واوامر الاديان ونواهيها وذرائع السلطة الطاغية ومبرراتها .

وكانت الحملة على الآلية والآلة اول ارهاص بهذا التمرد : لقد قصد الانسان من صنع الآلة الى ان يحرق نفسه من عبودية العمل ، وان يسخرها لتأدية وتحقيق مآربه وحاجاته ومتطلباته ، واذا بالآلة تصبح كالعفريت الذي خرج من القمقم ولم يعد في وسع الساحر ان يعيده اليه بعد ان استحضره وسخره في قضاء بعض اعماله ، فنشأ عن التقدم الصناعي الهائل تلك الظاهرة التي كثيرا ما يتردد اسمها اليوم وهي « تجريد الانسان من انسانيته »

des humanisation de L'homme وتسمى أحيانا أخرى باسم « الاستلاب » aliénation أى استلاب شخصية العامل بالنسبة الى ناتج عمله ، ومن هنا لم يعد للانسان في هذا المجتمع الصناعي العالي الآلية إلا بُعد واحد ، على حد تعبير هيربرت ماركوزه Marcuse في كتابه الشهور : « الانسان الأحادي البعد » L'Homme unidimensionnel ، هذا الكتاب الذي أصبح بمثابة إنجيل لحركات الشباب التي أيقنا على ذكرها منذ قليل .

ثم ان مجتمع الاستهلاك يجعلنا نلثث دائما وراء كل مبتكر في التقدم الصناعي : بالأمس لم تكن تعرف السيارة ولا التلجاجة ولا الفسالة ولا أدوات الإذاعة والتسجيل ، فاذ بنا اليوم ليس فقط نعد هذه الأشياء كلها من الضرورات الأولية للانسان ، بل وايضا نحرص كل الحرص على ان نقتني أحدث أنواعها ونماذجها ، والدماية التي تلجأ اليها شركات الإنتاج لتصرف منتجاتها تكاد تدفع الناس دفعا الى أطراح النماذج الأقدم واتخاذ الاحداث ، وزاد في تقوية هذه الدعاية وسائل الاعلان الجذابة بالصقعات وفي الاذاعة والإذاعة المرئية (التلفزيون) ، ثم التنافس بين الناس لاسباب عدة منها التباهي على الآخرين ، فصار الناس فيما يشبه الحمى يسلمهم جلاذ التقدم الصناعي الهائل الذي يلهب ظهورهم بسيطا لإذاعة باستمرار .

وهكذا انقلب الهدف من المدنية ، حتى آلت الحال الى النحو الذي وصفه سيوران (١) فقال : « ان المدنية تعلمنا كيف نتعلق بالأشياء ، مع ان واجبها هو ان نلتفتنا فن التخلي عن الأشياء ، لانه لن توجد حرية ولا « حياة حقيقية » بدون تعلم التخلي وعدم الامتلاك ، اني استولى على شيء ، واحسب نفسي سيدا له ، والواقع اني عبد له ، كما اني عبد أيضا للآلة التي اصنعها وادبرها » .

وينتج عن ذلك ان ينقص الانسان من قدر نفسه ، لانه سيقسها بالنسبة الى هذه الآلات ، فيحبط من قدر نفسه بقدر تقديره لكفاءة الآلة ودقتها وكمالها ، كما يلاحظ جوتنر اندرز في كتابه « الانسان المتقادم » (٢)

لقد كان الانسان صنعا ، فصار بالتقدم الصناعي الهائل ، صنعا مصنوعا معا : اذ تصنع مفهومه عند الناس وفي نظر نفسه روابطه مع الآلات ومنتجاتها ومصانمها وكيفية استفادته منها ومقدار ما يتبعها له الحصول عليه منها ، ثم ما هو دور الانسان في ادارة هذه الآلات؟ انه دور يتضائل باستعراة ، وكلما قل دوره كان التقدم في الصناعة أعظم ، ليس المثل الأعلى في المصانع الآن هو تحقيق أكبر قدر من الآلية automation ان لم يكن الآلية التامة ؟ ولا يقتصر هذا على الصناعة

(١) في مقال له بـ « المجلة الفرنسية الجديدة » Nouvelle Revue Française عدد يوليو ١٩٦١ .

(٢) راجع في ذلك كتابنا « دراسات في الفلسفة الوجودية » ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٦

بالمعنى المحدد، بل والزراعة، بل والتجارة والنقود والأمان، والتقدم الرائع للالكترونيات على وشك ان يحدث بدوره ثورة هائلة في الآلية لا نستطيع الآن ان نتنبأ بمدى نتائجها البعيدة، نظرا « للمعجزات » التي تحدثها الاجهزة الالكترونية الآن، ولكي نعرف الى اى مدى صار الانسان مستعبدا لآلة وغريبا *aliéné* عن الانتاج، قارن حال العامل اليوم في مصنع تسوده آخسر صرخة في الآلية *automation*، وبين حال العامل صاحب الحرفة *artisan* في القرون الماضية، بل في اوائل هذا القرن العشرين، ان ثمرة حقيقة بينهما، ولا تطور هناك ولا اتصال، بل طفرة هائلة .

ويبدو لي ان الانسان، وقد يش من التحرر من سلطان الآلة والآلية، رآى نفسه مضطرا الى التنفيس من نفسه بواسطة الوان من التمرد على السلطات التي اتيها على ذكرها في اول هذا المقال، وتعلق هذا التنفيس باسم واحد ذي مظاهر متنوعة حتى الآن، الا وهو : الإيروس *Eros* (غريزة الجنس وما يرتبط بها)، اى انه تعلق باسم ربولوجي عريق حرصت المجتمعات الانسانية منذ عهد سحيق على احاطته بهالة من الاسرار والوان التحريم وانواع القيود والحرمان *tabous*، ولعب فرويد وحواريه من اصحاب تهويل التحليل النفسي بزمزه وطقوسه وتاويلاته التي تشبه السحر القديم والكهوتية العتيقة، ورطاناته الجوفاء ذات التهويل - نقول ان هؤلاء لعبوا دورا كبيرا في توجيه النفوس نحو هذا الهدف، وتركيز معظم الاهتمام عليه . ووجد ذلك في النفوس هوى فاقبلت عليه في اندفاع مبهور الانفاس، خصوصا وقد ربط هؤلاء بين الإيروس وبين علاقات انسانية عديدة لا يبدو ان لها به ارتباطا، مثل علاقات الابناء بالآباء والامهات، وعلاقات السلطات العليا الرئيسة مع السلطات الادنى المؤوسسة، الخ . . واستعانوا على ذلك بجهاز من الرموز والتاويل الرمزي المفرط في الغلو، جهاز فاق بالآف المرات اجهزة التاويل الباطن التي برع فيها الباطنية من بين المذاهب الاسلامية (٣) . ووجد عامة الناس في هذه التفسيرات حولا او مبررات سهلة ممتعة، فاستندوا اليها في تصرفاتهم وتبريراتهم .

لقد ذهب مركزه *Marouse* (٤) وهو الشيخ اليفن الذي عقيد له اليوم لواء هذه الحركات رغم انه قد جاوز السبعين - الى ان تحرير المجتمع ان يتم الا بتحرير هذا « الإيروس » *Eros* وتحقيق كل نوازمه دون حدود ولا قيود. وزعم بعد ذلك ان هذا التحرير بواسطة « الإيروس » هو في الوقت نفسه تحرير للخيال . ذلك ان ديكرات وكنت *Kant* ومن سار في اثرهما راوا في الخيال انه العقل بوصفه متوجها نحو الجسم، وانه الرابطة بين المحسوس والمقول، فافاد مركزه من هذه الفكرة من اجل تشخيص وعلاج مجتمعه المتحور هذا، فقال ان الحساسية ينبغي ان تنقاد للخيال بدلا من انقيادها لسيطرة العقل « الزائفة »، اذ سيتولى الخيال التوسط بين الملكات العقلية والحاجات الحسية . و « بالإيروس » يحقق الانسان اخيرا وجودا مستريحا يشجع فيه السلام *(une existence pacifiée)*

وهذا التحرير الكلي للانسان لا يستطيع تحقيقه الطبقة العاملة، لانها صارت متمنعة في الرأسمالية، شيئا فشيئا، بل سيقوم به الثأرون الجدد وهم كل المضطهدين في العالم وكل المحرومين

(٣) راجع نشرتنا كتاب الفزالي : « فصالح الباطنية »

(٤) راجع احاديثه مع فرانسوا روبرو

Francois Perroux interroge Marcuse ... qui répond, Aubier éditeur, Paris 1969.

وراجع منه مقالا في جريدة « لوموند » بتاريخ ١٢ نوفمبر سنة ١٩٦٩ بقلم جان لacroix.

والمهاتنين والمستضعفين في الأرض ثم التلاميذ الذين ينحدرون من الطبقات الوسطى - هكذا يرى مركزه !

ومن عجب ان بعض هؤلاء - وهم بعض الطلاب في إيطاليا في عام ١٩٦٨ - دموا شيخهم هذا الى لقاء ، فكان المهزوم فيه هو مركزه نفسه ، لقد ضجوا وصاحوا فيه حتى منعه من التفوه بكلمة ! وهكذا كان أول ضحايا دعوته . . !

وكان من مظاهر هذه الدعوة الى التحرر بواسطة « الايروس » الاتجاه نحو التجرد البدني او التعري: وقد بدأ خفيفا في المسارح الاستعراضية ثم أصبح رقما ضروريا فيما عرف باسم الاستريپز - (Stripase) أى خلع العارضة « الفنانة » للابسها الداخلية قطعة فقطعة في محاولة تثير الإغراء حتى تصير كما كانت امهاحوا قبل الخطيئة الأولى ، ولكن في الظلام . . وإذا به اليوم يخطو الخطوة النهائية في مسارح برودواي في نيويورك ، إذ صار لم روايات مسرحية يكون فيها الممثلون والممثلات عرايا تماما لا يستتر أجسامهم أى شيء اطلاقا ، ومن الأمثلة على ذلك روايات : « الايروس اللبد » و « السيد الشاب دانتى واخيرا » « أى كلكتا » O'calcutta التي بلغت القمة في التعري والفجور مما ، ولا يهدف اصحاب هذه الروايات لمجرد الإثارة الجنسية ، بل وراء ذلك هدف سياسي هو رفض المجتمع ، ورفض المدنية الصناعية الآلية ، والرغبة في التحرر من ارهاق مجتمع الاستهلاك ، والا فان التعري في ذاته امر تعود الناس عليه في الأقاليم الاستوائية في افريقيا وآسيا وامستاليا وامريكا الوسطى ، ولا يرتبط بأى معنى من معاني التمرد او الأباء او الرفض ، وكل شيء إنما يقاس بالبيئة التي يجري فيها ، ولكن الذين يلجأون الى هذا التعري في مسارح برودواي إنما يقصدون ان يكون ذلك مجرد وسيلة للاعلان عن سخطهم على المجتمع الصناعي ، أو مجتمع الاستهلاك ، فالقصد اذن هو مجرد الالة الانتباه الى أمد ما بوسيلة من الوسائل الخارجة عن الألف .

وتم ظاهرة أخرى لسنا ندرى هل نربطها بهذه الدعوة الى التحرر بواسطة « الايروس » أو بأمر أخطر منها وهو التحرر من السلطة المنظمة biérarchie ، ونعني بها الثورة العامة التي شبت في الكنيسة بعامة ، والكنيسة الكاثوليكية بخاصة منذ خمس سنوات ولا تزيد مع الأيام إلا عنفا ، وكان الاكثيوس الهولندي الكاثوليكي هو الطليعة الجسور لهذه الحركة ، والجانب الذي يربطها بدعوة التحرر بواسطة « الايروس » هو ان مطالبها الرئيسية السماح لرجال الدين بالزواج ، والا يقتصر ذلك على المراتب الدنيا (الشماس والقسيس) بل يمتد الى الأسقف والطران ، ومن يدري ربما البابا كذلك ؟! وقد عقد الاكثيوس الهولندي في شهر يناير سنة ١٩٧٠ مجمعا روحيا كان من أهم مقرراته السماح للقسيس بالزواج (وهو امر محتمل فقط ، ولكنه مكروه ، في الكنائس الشرقية) ، ثم التقليل من شأن السلطة البابوية والاسقفية ، ورفض كثير من الحقوق التي يدعيها البابا لنفسه فيما يتعلق بسلطته في الفتوى والتشريع واصدار القرارات الملزمة لرجال الدين .

واتخذت هذه الثورة طابعا لاهوتيا أوضح عند التساوسة الألمان ، والماتيا منذ عهد باور (Bauer) وملمسة توبنجن ويوهان فريدلش اشتراوس عريقة التقاليد في نقد النصوص المسيحية القدسة ، وفي الفكر كثير من العقائد التي تعد أساسية في الكاثوليكية بل والمسيحية بعامة ، ولكنها بلغت درجة خطيرة جدقا السنوات الخمس الماضية حتى كادت ان تأتي على كل مقدسات الكنيسة العقائدية والكتابية !

وعيشا ضاعمت المحاولة الجبارة التي قام بها كارل بارت Karl Barth لوضع ما عرف باسم «لاهوت الأزمات» أو «اللاهوت الديالكتيكي» لقد أصدر في سنة ١٩١٩ شرحا على رسالة القديس بولس إلى أهل روما، كان له ضجيج هائل في الأوساط البروتستانتية الألمانية، وأثار مجادلات عنيفة بقيت أصدؤها تتردد حتى عهد قريب جدا، لقد أراد بارت أن ينقل المسيحية من الوضع الذي أوصلها إليه أشلير مآخرا (Schleiermacher) بدعواه إلى «دين الماطقة». لهذا قرأ ولا وجوب المحافظة على الفساق اللامتناهي بين المخلوق والخالق، بين العبد والرب، فقال إنه ليس ثم بين الإنسان والله انتقال ديالكتيكي، بل طفرة كيفية، على حد تعبير كيركجور إبي الوجودية الذي تأثر به بارت كثيرا، أن الفرد في حضرة الله وحيد، خاطيء، في علاقة سلب، ومقولة الخطيئة هي التي تميز فردانيته، ولا يمكن ملء الهوة التي بين الإنسان وبين الله إلا بالطفة الإلهي، والطف أمر خارق، معجزة، وليس فعلا من أفعال المعرفة، والسلب ينطوي على الإيجاب، والوجود في نفس الوقت مرض قاتل وهو حياة: فسلبية الخطيئة.. إذا انكسر الطف الإلهي ارتفع الإنسان إلى الإيجاب المتجني. أن الله هو الله، والإنسان هو الإنسان، والإنسان ليس هو الله، أي أنه إنسان بقدر ما هو ليس الله، فوجود الله هو لا وجود الإنسان، ووجود الإنسان هو لا وجود الله، وهو الله مطلق، أصيل، لا يحتمل أي مقارنة بينه وبين الإنسان، وأذن فبارت قريب الشبه من تصور المعتزلة المسلمين لله وصفاته.

ولهذا هاجم بارت كل دعوة إلى تقريب المسافة بين العبد والرب، وبالجمل كل محاولات الصوفية للاتس والقرب والوصل وسائر المقامات في الطريق إلى الله، وحتى أعمال العبد لا قيمة لها عند الرب.. فانها أمام الله ليست صالحة ولا طالحة، بل الله هو الذي يعطيها الأسماء والأحكام حسب ما يريد، ووفقا لتدبيراته التي لا ينفذ إلى سرها أحد، وفي هذا يختلف تمام الاختلاف عن المعتزلة المسلمين، ويقترب من ابن حنبل والأشعرية وأهل السنة بعمامة، أعني القائلين بالتفويض التام، وقد بالغ كارل بارت في هذا التفويض إلى درجة أن قال إن حكم الله يمكن أن يكون تفسيقا (القديس) فرنسيسكو الأسيزي وبرير أو المغفرة لتشيرايرى بورجيا (الفاسق الأكبر عند الناس)؟ ويمكن أن يحول كل «نعم» إنساني إلى «لا»، وكل «لا» إلى «نعم». ويستوى لديه أن ندخل الجنة أو ندخل النار.. والقديسون وهم يناضلون في سبيل الله يناضلون ضد الله.. والرجل المتدين هو خاطيء بما هو كذلك، والدين هو موته أمام الله، والإيمان يأتي من الله نفسه.. أن الإنسان يعرف الله لأن الله يعرفه، وإن يبحث عن الله أن لم يكن قد وجده من قبل، فالإيمان إذن هبة كونية، منحة من «لأن الله فضل» إلهي معطي.

ولكن لا هوت بارت عفى عليه قبل وفاة بارت منذ عامين، إذن امتد الهجوم إلى دعائم الإيمان الديني المسيحي نفسه، وراح رجال الدين هم أنفسهم يتساءلون عن مدى الصدق التاريخي في الأحداث الكبرى في نشأة المسيحية، والصدق العقلي للمقائد الرئيسية، حتى عصفوا بمقائد أساسية مثل: التجسيد، والحتم بلادتمس، والقيامة، الخ..

وفي الولايات المتحدة الأمريكية قامت حركة مناظرة السمعت وتجاوزت بحيث تجاوزت أحيانا المدى الذي وصلت إليه ثورة رجال الدين في هولندا وألمانيا.

وحتى في أشد البلاد محافظة في أمور المقائد الدينية المسيحية عند رجال الدين، أعني في إيطاليا وفي فرنسا، قامت حركات، صحیح انها ليست بنف ما حدث في هولندا أو ألمانيا، ولكنها على كل حال هزت السلطات الكنسية العليا ودعمتها إلى المود على نفسها لتغيير مواقفها، والتكيف مع الحركات السائدة في العالم.

وهذا يقودنا الى الحديث عن التمرد على السلطة : سلطة الأب بالنسبة الى الولد ، وسلطة الدولة بالنسبة الى الفرد ، وسلطة الدول الكبرى ازاء الدول الصغرى ، وسلطة الاستاذ بالنسبة الى الطالب ، وسلطة رب العمل بازاء العامل .

والجديد في هذه الألوان من التمرد هو تمرد الابناء على الآباء : سواء كانوا آباءهم بالدم ، او آباءهم بالروح (أى أساتذتهم) .

وكلنا يعلم ما جرى من أحداث عنيفة في مختلف حرمات الجامعات في أمريكا وأوروبا واليابان ، حيث جاوز الأمر أحيانا كل معيار ، وصار الهجران هو الأساس ، والانتظام هو الشاذ والنادر ، وتبطلت تلك الاضطراب خصوصا في سنتي ١٩٦٧ — ١٩٦٨ ، ولكن الموجة انحسرت في النصف الثاني من العام الماضي حتى أشك المذ أن ينحصر كله بعد أن يش أصحابهم من إمكان تحقيق شيء إيجابي ملموس ، وبعد أن ملوا هم أنفسهم من عيب ما انساؤوا فيه دون أهداف واضحة ولا أغراض مقصودة ، لكن الهزة التي أصابت التعليم العالي من هذا الاضطراب في تلك البلاد لا تزال جروحها لما تندم ، بل ربما احتاج الأمر الى وقت طويل قبل أن تروى آثاره المدمرة ، على أن هذه الحركات كان مقصيا عليها بالاخفاق منذ البداية ، لسبب واضح جدا وهو أن الطلاب ليسوا عناصر انتاج وليس لهم بالتالي استقلال اقتصادي ، بل هم ميسال على الآباء ، لا يستطيعون أن يعيشوا بأنفسهم ، ولا بد للولد الضال أن يعود الى بيت الوالدين أن أجلا أو عاجلا ، بل هو أضعف — اقتصاديا — من أن يبقى بعيدا عنه أكثر من أيام معدودات !

وتمردهم على آباءهم بالروح — أعني أساتذتهم — هو الآخر لا بد منقش بعد وقت قصير وإن كانت الحاجة ما هنا أقل إلحاحا ، وذلك لافتقارهم الى التحليل العقلي الكافي ، وإلى التجربة في أمور هي بطبيعتها معقدة مثل أمور السلم ، إذ لا يكفي المرء أن يلوك بعض الشعارات ، وأن يربط باسماء ماو ، وتشى جيفارا ، وكاسترو ، لأن هؤلاء رجال أفعال ، ولا يمكن الاستغناء بهم من رجال الفكر والعلم والاقتصاد ، وتجربة جامعة فنسني Vincennes المفقطة اخفاقا شنيعا صدق دليل على ذلك ! وحتى أشد الاساتذة « اللاتنيين » حماسة لإنشائها قد أصبحوا بخيبة أمل مروعة ، كما اعترفوا لي في العام الماضي في باريس . . كان الاستاذ يبدأ المحاضرة في الأدب الفرنسي مثلا في القرن السابع عشر ، فيصيح بعض « الأشداء » : دعنا من راسين وموليير وكورني ، أولئك المتعنفين ، وأشرح لنا قصائد ماو تسيه تونج ! فيستجيب الاستاذ ويقرأ هذه القصائد في ساعة أو ساعتين — ثم يقول للطلاب : وماذا بعد هذا أو العام طويل ؟! وكذلك الحال في دروس الفلسفة والتاريخ ، ورسائل الواد ، ورسائل ما أدرك الطلاب أنفسهم عقم هذا الذي نادوا به ، وأذعنوا — متبرمين طبعاً — للمحاضرات تتخذ مجراها الطبيعي المعتاد ، وتمرد الطلاب على ما يسمى باسم « المحاضرات التي تلقى من أعلى المنصة » Cours Magistraux وطالبوا بالمناقشات يجريها الاساتذة والطلاب على سواء ، فانسح الاساتذة للطلاب المجال ونزلوا لهم من « عروشهم » — فماذا كانت النتيجة ؟ « أرتجى » على الطلاب بعد دقائق لقلة بضاعتهم أن لم يكن انعدامها في المادة موضوع الدرس ، فلم يكن ثم غير واحد من اثنين : إما التوقف ، او أن يعود الاستاذ الى المحاضرة « مين » « كلر » كما كان ، وطبعاً انتهى الأمر الى الرضوخ الى الوضع الثاني ، أعني المعتاد !

على أن ثم جانباً آخر في تمرد هؤلاء الشباب على الآباء ، وهو جانب انغلاق الفرائز المكتوبة وعلى رأسها الفريضة الجنسية ، مما يكون مظهر من مظاهر حركة التحرير عن طريق « الأبروس » التي تحدثنا عنها من قبل ، ولا دامي للعود اليها ، وإنما نشير فقط الى أنه فيما يتعلق بالشباب

ارتبطت هذه الحركة أحياناً بظاهرتين خطيرتين أكثر شيوعاً في الشباب وهما : تعاطي المخدرات، وارتكاب الجرائم الدامية، واستقرأ أسباب هاتين الظاهرتين مما يخرج عن نطاق هذا المقال .

ولقد أثرت بمناسبة تمرد الشباب هذا وحركة التحرر بواسطة « الإيروس » مشكلة ما أصبح يطلق عليه اسم « مجتمع الترخّص » Permissive Society ، نعمنا للمجتمع الأمريكي والأوروبي الحالي ، ويعتون به المجتمع الذي يرخص لابنائه بكل شيء ، ويريل عنهم كل الوان القيود والحرمات وعوامل الكبت التي فرضت على المجتمع منذ آلاف السنين ، وراح البعض يستدل من قيام « مجتمع الترخّص » هذا على مصير الحضارة الأوروبية ، ويقارنها بما وقع للحضارات الكبرى في فترات انحلالها من أقبال على « الإيروس » واكتفاء بالخبز والألعاب panem et circenses واقبال على الشهوات العنيفة والمخدرات والتهاويل والمخاريق ، بدلاً من المذاهب العقلية والأفكار المنطقية ، وإنجاز الأعمال البطولية التي تعتمد على التقشف والقضاء ، فأثيرت من جديد المشكلة التي أثارها اشبنجر Spengler في سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢٢ في كتابه « انحلال الغرب » (٥) .

وأيدت التيارات الجديدة والأحداث الجديدة دعوى اشبنجر . فالوجودية ترى الوجود أسياً ، يكتنفه المدم من كل نواحيه ، وترى في الإنسان موجوداً مستلماً إلى ذاته ، محصوراً — وهو الحر الأكبر — في نطاق مواقف حدية تأخذ بتلابيب حريته ، مترنحاً بين الإمكانات المتجاذبة المتعارضة التي لا مناص له من الاختيار الحر بينها ، محاطاً بالامتعول في أفعاله وحر كاته ، مهجن السلات بالادوات في عالم من الادوات ، والوضعية الجديدة ترد كل معرفة إلى شكلية لغوية ، فنفصرغ المضمون من مدلوله ، وترده إلى مجرد شكل لفظي ومن هنا وجدنا طوفاناً من الأبحاث اللسانية واللغوية يكتسح العالم في السنوات الخمس الأخيرة ، خصوصاً بتأثير البنيوية structuralisme الضاربة أطنابها في الدراسات اللغوية في فرنسا وأمريكا بخاصة .

أما الأحداث الجديدة فأهمها القنبلة الذرية التي أحدثت ثورة هائلة في ادوات تدمير الإنسان لنفسه ، مما أطلق صيحات الفلاسفة والمفكرين من كل اتجاه : من كارل يسرز ، الوجودي (٦) حتى برتراند رسلل الواقعي المحدث (٧) وحتى اللاهوتيين المسيحيين مثل هـ . ثيليكة H. Thielicke (٨) ، وبيكارد M. Picard (٩) ، وأخيراً د. دوبارل D. Dubarle (١٠) . وكل هذه الأبحاث تدل على مدى الرعب الذي انتاب الإنسان مما ينتظره بواسطة آلات الدمار الشامل التي اخترعها ليقتضي بها على نفسه بنفسه . ولم يعد الأمر مجرد تشاؤم هام به اشبنجر ، أو مزاج سوداوي انتاب بعض النفوس المريضة فاشاحت بوجهها عن الحياة واكتفت على الموت تستعذب التأمل فيه ، مثلما أخذ على هيدجر في اهتمامه بالموت، وكما أوضحناه تفصيلاً في رسالتنا « مشكلة الموت » (بالفرنسية ، القاهرة سنة ١٩٦٥) .

(٥) ولقد عرضنا لذلك تفصيلاً في كتابنا « اشبنجر » (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١ ، القاهرة) .

(٦) في كتابه « القنبلة الذرية ومستقبل الإنسان » ، منشور سنة ١٩٥٨ ، ولقد طللناه تفصيلاً (راجع مجلة « حوار » العدد الأول) .

(٧) في بحثه بعنوان « العصر العام والعصر النووي » (نيويورك ، سنة ١٩٥٩) .

(٨) في كتابه « القنبلة الذرية كمسألة من الأخلاق المسيحية » (توبنجن ، سنة ١٩٥٨) .

(٩) في مقال بعنوان « النظرية الانشائية » (أي جعلها مثل الملة — مقال في مجلة Universitas سنة ١٩٥٨ ص ٣٦٧ — ٣٧٠) .

(١٠) في كتابه بعنوان « الحضارة والذرة » (باريس ، سنة ١٩٦٢) .

وتلونها في الأهمية تقدم المواصلة الجوية والاسلكية بحيث صار العالم وحدة واحدة لا يحدث حادث في أي ركن منمزل من أركانه حتى يحس به سائر العالم ويتخذ منه موقفاً ، فما من انقلاب يحدث في دولة حتى تعلم به سائر الدول في الحال ، وتتخذ بازائه موقفاً مستمداً من اعتبارات خاصة بها ، وما من تقدم علمي يجري في بلد حتى يشارك في الاستفادة منه سائر الدول ، مهما أحيط بالسرية التامة المزعومة ، وما من اضطهاد يقع على شعب أو حزب أو جماعة أو فرد حتى يشارك فيه الجميع ، ومن هنا صارت المسؤولية على مستوى الكرة الأرضية ، ولم يعد في استطاعة أحد أن يقف ذلك الموقف الذي وقفه صاحب الفندق في رواية « هرن ودوروتيه » لجيته وهو عدم الاكتراث للحروب التي تجري خارج حدود الوطن ، ثم ان المسؤولية لم تعد مسؤولية حكومات ، بل امتدت فشملت الشعوب نفسها ، وفي التحليل الرابع الذي كتبه كارل يسبرز Jaspers عن « مسؤولية الألمان » عن الحرب العالمية الثانية وما سبقها من مقدمات كشف عن هذه المسؤولية التي على عامة الشعب اثرها ما يصدر عن زعمالهم من قراوات وافعال .

فمن رأى يسبرز (١) ان هذه المسؤولية قائمة ، لا يشفع في تخفيفها ان يقال ان الكل مدنيون لان الشر كامن في نفوس الناس جميعا . « انه سيكون تهرباً واعتذاراً زائفاً من جانبنا نحن الألمان اذا شئنا ان نخفف من مسؤوليتنا بان نحيل الى حال الانسان بوجه عام ، فمثل هذه الفكرة لا تجعل ذنبنا اخف ، بل هي تزيد من تعميقه ، ومشكلة الخطيئة الاصلية ينهى ان نستغلها للهرب من مسؤوليتنا الالائية » .

ثم انه صار من العسير جداً ، ان لم يكن من المستحيل ، اخفاء الحقائق عن الناس ، فقد اقتضت الوسائل الاسلكية كل الجنان والعوازل ودخلت الى اعماق المخادع ، وتطوع باذاعة الحقائق كثيرون ، بحيث عادت عبارة الاسرار وهما من الاوهام ، كل ما هنالك ان افشاها قد يأخذ بعض الوقت ، ولكنه من المحتوم عليها ان تفشي في امد قصير بحيث تحدث كل آثارها ، خصوصا وان استخدام الاقمار الصناعية ، وطائرات الاستكشاف الدائمة الدوران ، كل ذلك قد جعل ان لا حرمة لشيء اليوم !

على ان لهذا الامر وجهه العكسي : صحيح انه قضى على السرية والانفراد بالمستضعفين ، ولكنه في الوقت نفسه اعطى من يملكه ويتقنه اداة لا يمكن أي فرد ولا جماعة الدفاع من نفسه بازائها ، والا فمادما يفعل فرد أو جماعة محدودة أمام أجهزة اعلام هائلة التنظيم ترهقه كل يوم بتوجيهات في خط معلوم ؟! ثم ان ملكية هذه الأجهزة لا ينهض بها الا الحكومات القوية او جماعات الضغط الكبرى - وامام هؤلاء واولئك ما أشد أمرلية الفرد ؟!



ومن الخير هنا ان نعرض بعض مواقف المفكرين المعاصرين من مشكلة الصناعة الفنية (التكنيك) .

ونعرض بوجه خاص لما يقوله نيقولا إينيانو « المولود في يوليو سنة ١٩٠١ ، وهو استاذ في

(١١) راجع «مسألة الذنب» ص ١٨٤ - ١٨٥ من الترجمة الفرنسية Karl Jaspers : Die Schuldfrage, tr. franc., Paris, 1948.

كلية الاداب بجامعة تورينو في شمالى ايطاليا « يرى ابنيانو في بحث له عن « مفارقات الصناعة الفنية » (١٢) ان التعارض بين الانسان والتكنيك هو الموضوع المفضل عند اصحاب النزعات الى التنبؤ وتحديد مصير العالم في العصر الحاضر . فمؤولو أشهر التشخيصات لما يسمى بالازمة الحالية ، والمتنبئون بالانحلال وبموت المدنية الميكانيكية الغربية ، والمدافعون عن الروحية الخالصة - كلهم متفقون على عد الآلة هي الد اعداء الانسان واعتبارها السبب المباشر او غير المباشر لانحلاله الروحي - فالعالم الذى تسوده الماكينة عالم بلا روح ، مشبع للانحطاط ، وللموت ، هو عالم فيه اخذ لكم نهائيا مكانة الكيف ، وفيه توقيير قيم الروح قد استبدل به توقيير قيم الآلات والمنافع .

« ان التقدم التكنيكي وفر للانسان اليسر والسهولة ، لكنه صرفه عن اعتبار الحياة الروحية ، وبهذا سلبه الهيزة الحقيقية الوحيدة التى يمكنه ان يستخلصها من اليسر والسهولة .. الا وهى ان يستطيع تكريس نفسه لتربية ذاته على نحو افضل ، ذلك ان الآلة تدخل في العمل نظاما رتيبيا ينعكس اثره الضار على حياة العامل باسرها تماما يدفعه الى البحث عن وسائل منشطة للتهرب ، ان التكنيك قد بدد العمل الى اشتات من العمليات الرتبية التى تتكرر كما هى باستمرار ، وتولد الملل والارهاق ..

« والتكنيك قد سلب العامل للذة رؤية العمل الذى قام به وقد تم على يديه ، وسلب عمله الحرية والمبادأة اللتين ينعم بهما صاحب الحرفة artisan والفلاح ، ولهذا يبدو ان التكنيك ينحل الى ا تكرار للشخصية الانسانية والفردانية ، وهو يقتضى عملا من نمط واحد ، يكفى للوفاء به تنظيم سلبى لا يهيم السبيل الى النمو وتوكيد الذات الفردية ، والتكنيك يشبع الانحطاط : لان الاعمال التى يقتضيها هى بحيث يمكن ان يحل محله فيها غيره على سواء . وبهذا يفقد العمل كل طابع شخصى .

« ومن الناحية الفنية أيضا يبدو التكنيك على أنه من فعل عقل يدمى لنفسه القدرة على تقدير كل شيء وترتيبه مقدما وعلى نحو تجريدى ، ويرد الحياة ، وليس فقط العمل ، الى رتوب يستبعد كل جيد وكل مفاجأة ، ويستبدل بتلقائية الحياة الفعل الرتيب للجهاز الآلى ، واخيرا فان التكنيك يوجه الانسان نحو كل ما هو كم ، وكتلة ، وامتداد ، وبهذا يربطه بتخارج المادة ، ويركز في هذا التخارج extériorité كل طاقاته ، مانفاياه من التأمل في ذاته ومن الاستجابة الى دعوة اوسعطين الى التأمل في داخل الذات ، ولهذا السبب فانه بالتوجيه الذى يطبع به الحياة الانسانية فانه مضاد مباشرة للمبدأ الذى تقوم عليه الروحية ، التى هى طبيعة الانسان الحق » .

فيماذا يشير الشخصون لهذه الحالة ؟ اما العودة الى الطبيعة ، مفهومة بمعنى العودة الى الزراعة الحرة والحرف الصغيرة - فامر خيالى وهى ، خصوصا ونحن نعلم ان التنظيم

N. Abbagnano : (IL Paradosso della Tecnica), in Filosofia, Religione, Scienza, (١٢)
PP. 147-156. Torino, 1967.

الصناعى الحديث انما هو منبثق من الحرف الصغيرة ، كما ان مثل هذه المودة تجعل الحياة على مستوى الجماهير الاجتماعية مستحيلة وتردها الى مستوى في غاية الانحطاط .

لكن الحجج التى يدلى بها المدافعون عن التكنيك ضئيلة هي الأخرى ، أو على الأقل لا تحل المشكلة التى نحن بصدد حلها وهي مشكلة العلاقة بين التكنيك والإنسان بوصفه عقلاً ، إذ لا شك في ان التكنيك يقلل من التعبد المادى عند العامل ، وأنه شرط لا غنى عنه للرفاهية الاجتماعية ، وأنه ينظم العمل ويخضعه لضوابط ثابتة - كل هذه مزايا لا يعارى فيها انسان ، لكنها لا تتعلق بالمشكلة الأصلية وهي كيف ينهض الانسان بنفسه عقلياً ؟ ان التكنيك يضع الانسان في منحرجة وأمام مفارقة paradoxo : ذلك ان الانسان اخترع الآلات للفداء بحاجاته ، لكن يبدو ان هذه الآلات امسكت بنلابيب هذا الانسان ، وتمردت عليه وصارت سيده بعد ان كانت عبده ، وإداة اخضاع بعد ان قصد منها ان تكون أداة تحقيق لسيطرته على المادة . لقد كانت الآلة وسيلة ، فصارت غاية ، ولما صارت غاية اخفت أو أبطلت الغاية الحقيقية التى كان عليها ان تخدمها ، وهكذا وقع الانسان في دور فاسد .

فما الحل ؟ لا يريد انبيائنا ان ينساق وراء الدعاوى المريضة الى اطراح التكنيك ، بل يتخذ موقفاً إيجابياً قوياً ، يرى ان العلاقة بين الانسان والتكنيك (الآلة) لا يمكن ان تحل لصالح الانسان اذا استنكر الانسان التكنيك . فلو أهمل الانسان البحث عن أدوات الاشياء ، والانتفاع بالآلات في تحصيل الحاجات ، فإنه بهذا لا يلقى علاقته مع العالم ، بل يسيء فهم هذه العلاقة ، ويصير بعيداً لها لانه صار عاجزاً عن اشباع حاجاته ، حتى أبسطها . « ولهذا فان الموقف الوحيد البديل لهذا هو ان يقبل وان يعترف - الى اقصى مدى - علاقته مع العالم ، وان يدع بشجاعة الى الامام ، بقدر المستطاع ، البحث العلمى والتنظيم التكنيكى لعمله ، ولربما كانت كل الشرور المشار اليها ناشئة ، لا عن التكنيك ، بل عن عدم اوقلة القبول للتكنيك ، ولهذا فان الدواء الوحيد الفعال يقوم في القبول الجذرى الواضح التام لكل ما هو تكنيك بما هو عليه وبما ينبغي ان يكون عليه ، وفي هذه الحال ، لن يتم اصلاح التكنيك الا بالتكنيك نفسه ، وعدم انسانية التكنيك ناشيء فقط من كونه ليس بعد تكنيكاً بدرجة كافية ، وأنه لم يتحقق بعد بوصفه كذلك ، وهذا التحقيق الناقص ناشيء بدوره من جبن الانسان وهربه امام التكنيك ، وعن الخوف الذى ينتاب الانسان في مواجهته » .

ويتضح هذا من التأمل في الاعتراضات الموجهة على التكنيك ، انه يؤخذ عليه انه يشتت العمل الى اجزاء صغيرة مما يتولد عنه اللال والرتوب والامانة للمبادأة الشخصية ، لكن الواقع ان هذه مرحلة ناقصة للتنظيم التكنيكى للعمل ، وكلما نما التكنيك وتطور واكتمل ، اى كلما صار تكنيكاً حقاً ، تصير مهمات العمل أشد تعقيداً وصعوبة ، والمآئنة المقددة تتطلب عقلاً واعياً يخططاً نشيطاً يتحكم والادارة والضبط والمبادأة ، وعدل الفنين والعمال المؤهلين المتخصصين يتزايد في الصانع المجهز تكنيكياً واستعمال اليد لا يزول ولكنه يصير خارج التكنيك ، والتكنيك يستغل كل الواهب ويمكن من الافادة منها وبهذا يسر لكل انسان ان يتولى من الاعمال ما هو ميسر له ، ويشجع على التنوع والتفاضل في الاعمال وفي الناس العاملين على السواء ، وبهذا يتحقق نظام تربيبى من المهمات والوظائف يوكل التوجيه فيها والادارة الى العقل والارادة القوية ، وهذا التنوع والتفاضل

في المهام يستبعدان الانحطاط والآلية والرتوب، والتعقيد المتواصل الذي يحدثه التكنيك من شأنه ان يقضى على الملل، وقضلا عن ذلك فان التكنيك مزود بمرونة وقدرة على التكيف هائلتين: فكل تغيير في احوال الانتاج، وكل تقدم في الآلات، يحدد تشكيلا جديدا للتنظيم التكنيكي بأسره، وكل هذا يشجع التحجر والرتوب والملل.

كذلك يقيم التكنيك علاقة تضامن من فعالية بين العاملين، لان تقسيم العمل يفترض وحدة الجهود وتضامنها، ومن هنا فان من شأن التكنيك ان يساعد على ادراك المرء انه لا يستطيع ان يستقل بنفسه عن الآخرين، ويجعله على وعى تام بمسؤوليته قبيل الآخرين.

لكن لا بد - حتى يتحقق هذا - الا ينظر الى التكنيك على انه امر عقلي خالص، لان القول او توكيد الطابع العقلي او المجرد النظري للتكنيك معناه ان ينظر الى ما هو مرحلة انتقالية موقته ناقصة على انه مرحلة كاملة ونهائية، ومعناه الا ينظر في التكنيك الا الى الماكينة... الماكينة البسيطة التي ترد فيها وظيفة الانسان الى مجرد محرك لرافعة او ضاغط على زر...

لكن التكنيك ليس هو الماكينة، بل الابتكار والاستكمال الواسع لماكينات يتزايد تعقيدهما وتحتاج الى مزيد من المبادأة الفردية والتضامن بين المهام، والتكنيك يولج الماكينة في شمول التنظيم الانساني، الذي لا يمكن الهيمنة عليه او تنميته الا على اساس موقف انساني حقا، وبالتالي روجي، « ان التكنيك يقتضى كشرط اولي واساسي له: فهم التكنيك، وفهم التكنيك هو الانسان في موقفه الاساسي ».

وهذا الفهم والقبول للتكنيك يفترض تحقيق شروط: اولها ان يتخطى الانسان عن الدعوى الوهمية التي تزعم ان الانسان يمكن ان يتحقق، بوصفه روحية، بغض النظر عن كل علاقة مع العالم، او بالانطواء على ذاته داخل الشعور، « ان الروحية الحققة فعالة، ومحقة، ولهذا فانها لا تزدرى العالم ولا تخارجه، بل تنفتح عليه، وتعرفه وتمتد به بوصفه طرفا في علاقة جوهرية بالنسبة اليه وانه انما يتحقق حقا في اطار هذه العلاقة. ولا شيء اشد مضادة للانسانية الحققة للانسان من التعارض بين الخارج والداخل، الظاهر والباطن، ولا شيء اكثر بطلانا من المنخرجة التي تضع الانسان في مواجهة هذا التعارض. ان الانسان جزء من العالم، ولا يمكن ان يتجاهل طبيعته المتناهية هذه دون ان يخدع نفسه بوهم الامتناهى الزائف » (ص 104).

وبهذا الدفاع الحار عن التكنيك، ودوره في تمكين الانسان من تحقيق ذاته، لان الانسان موجود - في العالم - بالضرورة يختم ابنيا بوجعته المتع هذا، والذي فيه يعبر خير تعبير عن موقف الوجوديين من مشكلة العلاقة بين الانسان والتكنيك، فالوجودية كما نعلم تقوم على تحقيق المكنت، وعلى ضرورة تقرير ان الانسان - في العالم -، وان هذا العالم عالم ادوات، فمن الطبيعي اذن ان نتحسس للدفاع عن التكنيك، لانه كفيل بتحقيق هذا كله على اسر نحو، وان لم يكن كافيا، ان التكنيك شرط اساسي لتحقيق الذات الوجودية الحققة، ولكنه شرط فحسب.

هذا عن مشكلة العلاقة بين الانسان والآلة:

وأما دعا إليه « كوزه » من التحرير بواسطة الأيروس فقد رأى برو Perroux في كتابه المذكور آثفا « أنه وإن صح التشخيص الذي وضعه مركزه ، فإن النتيجة غير ما يهدف إليه : أنه يهدف إلى الثورة ، ولكن دعوته لن تؤدي في الواقع إلا إلى التخريب ، ذلك إن أساس فكرة مركزه أساس واه ، لأن فكرة « الحياة المشبعة » و « الوجود الناعم بالسلام » هي فكرة تتنافى مع طبيعة الإنسان ، فالأيروس غليان غامض لقوى معقدة ، لا يمكن أن تشبهه بخلق الجمال ، والإنسان الشهواني الحي إنسان مبتور ، وتاريخ الإنسانية كله يدلنا على أن الإنسان سعى دائما إلى الحكم على الأيروس ووضع الضوابط « وأخضاعه للقول العقلي » . والإنسان صراع داخلي وتمزق مستمر بين سيدين صارمين هما « الأيروس » و « اللوغوس » أو « الشهوة » و « العقل » . وآفة تفكير مركزه أنه يفترض نوعا من البراءة الأولية في أصل الإنسان ، بالعود إليها ينحل الاشكال ، وهذا تفكير لاهوتي ، رغم أنه مركزه ، ومهما ادعى الفصاحة الذهنية ، ولن تكون نجاة الإنسان بالعودة إلى البداية ، بل بالسعي قدما نحو تفاضل أوفر ، وذلك بالاعلاء على نفسه باستمرار ، وتجاوز المراحل ، وبالجمل : بالسعي إلى الإنسان الأعلى الذي دعا إليه نيتشه .

وهكذا نرى أن الطريق الذي ينبغي أن يسعى فيه الإنسان هو ذلك الذي رسمه نيتشه وسلكه الوجوديون .

الفكر والحضارة

٢- وجهه نظر مؤرخ

خصائص حضارة العصر

نور الدين محمد حاظم*

حضارة عصرنا المعاصر سلبية عصور عريقى القدم ، ولعمرة جهود بشرية متضاربة ومتصلة عبر الاجيال ، وحصيله انتاج آخذ بالتقدم يوما عن يوم . واذا كان هنالك من نمت تنعت به فهي انها حضارة عالية لا تعرف لها موطنها خاصا ، اوبئة معينة .

لقد جرت بعض السلام الغرب على وصف الحضارة الحديثة بالحضارة الأوروبية وبخاصة حضارة أوربة الغربية ، ولكن هذه الحضارة مالمبت أن امتدت عبر المحيط الأطلسي ونمت في أمريكا . وهذا ما دعا آخرين الى تسميتها بالحضارة الغربية ، لأن أوربة وأمريكا من حضارة واحدة ، وذلك تمييزا لها عن الحضارات الشرقية لأنها تختلف عنها كليا . ولكننا اذا حللنا هذه الحضارة نفسها وجدناها تنحل الى عناصر مختلفة كثيرة ، ولا ترجع الى الحضارة الافريقية - الرومانية وحدها ، لأن هذه الحضارة الأخيرة نفسها ليست وليدة بيتها فحسب ، بل انها تتألف من عناصر حضارات شرقية سبقتها بزمان بعيدة .

واذا كان الاعتزاز بهذه الحضارة يدفع بعض الكتاب الغربيين الى القول بان هذه الحضارة من صنع الانسان الأبيض الذى انشأها ونماها ونشرها في أرجاء كوكبنا الأرض أداء لرسالته التي حملها وحده دون غيره ، فان هذا القول يجب أن نعتبره مقلوبا في القرن التاسع عشر ، عندما كانت أوربة تسيه بتقدمها وازدهارها الحضارى ، وسبقها التقنى الحديث والى ما هنالك من عوامل تجمعت وساعدت الدول الغربية الكبرى على استعمار القارتين القديمتين : آسيا وافريقية .

وفي الربع الثانى من القرن العشرين اخلت نعمة الانسان الارى مبدع الحضارة تفرع الاسماع وتعلو ، وبخاصة في عهد هتلر ، الذى تبنى آراء ونظريات بعض العرقيين ، وأحل الانسان الارى مكانا عليا ، ووصف برقه بالتفوق وإبداع الحضارة ، وغيره بالتخلف والركود .

*الدكتور نور الدين محمد حاظم ، استاذ التاريخ الحديث في جامعة الكويت ورئيس قسم التاريخ بجامعة دمشق . كان معيدا بكلية الآداب بجامعة دمشق . له مؤلفات كثيرة في التاريخ الحديث والتاريخ العرقات القومية . يقوم الآن بنشر الموسوعة التاريخية الحديثة .

ولي بحثنا عن الاسباب التي دعت الى هذه المزايم ونشرها لوجدناها ترجع الى الغرور الذي تملك بعض المفكرين بعد ان راوا حكوماتهم تفتح البلاد وتستعمر اهلها وتسخرهم لخدمتها بسا يسدرون اليها من مواد أولية وسلع غذائية ، وبما يستوردون منها من منتجات مصنوعة ، وافكار ، وعادات وتقاليد وفلسفات .

ان نظرة فاحصة الى هذه الادعاءات تدلنا بوضوح على تجاهلها الحقيقة التي يجب ان تقال بحق وصدق : وهي انه ما من انسان او عرق معين اختص بابداع الحضارة دون غيره ، بعد ان اثبتت التحاليل المخبرية فساد النظرية العرقية، وتقاوة الجنس ، ودلت الأبحاث العلمية على ان بني البشر كانوا على اتصال وثيق ، مهما كانت طرق المواصلات بطيئة ، منذ اقدم العصور ، واختلطوا بعضهم ببعض ، واعطى كل واحد منهم الآخر واخذ عنه ، وان الحضارة ليست حكرة خاصة ، بل هي من ابداع البشر جميعا قديما وحديثا والى الابد . فهي اذن حضارة عالمية ، ومن حق الجنس البشري كله ان يفخر بها ، لانها حضارته ، ومن خلقه ، لا فرق في ذلك بين انسان ابيض وانسان ملون ، او بين عرق وآخر (١) . اما ان تكون هذه الحضارة قد نمت وتطورت وتقدمت في بعض البيئات أكثر من غيرها فذلك امر آخر ، ومرهون بشروط وظروف عديدة ساعدت على هذا النمو والتطور والانتشار .

ولا ننكر ، بعد ، ان هنالك حضارات سادت في أقاليم معينة ثم بادت ، وتميز هذه الاقاليم عن غيرها ، كحضارة بلاد ما بين النهرين . والحضارة المصرية القديمة ، ولكن هذا لا يمنع من وجود اتصال حضارى قديم ومستديم بين البشر واغناء بعضهم بتجاربه بعض . ولكن الحضارة الحديثة تمتاز من غيرها بانها عصاردة تلك الحضارات التي سبقتها وآلت اليها ، وانها لا تريد في عصرنا ان تكون مقصورة على بلد بلذاته او قارة بعينها ، بل ان تم العالم اجمع بابداعها ومنجزاتها ، وكلما تقدمت طرق المواصلات وتسايرت وجدت سبيلا الى الانشطار ، ولم تبق جزءا من اجزاء كوكبنا الأرضي الا نفلت اليه بوسيلة او باخرى ، حتى انها صعدت الى القمر بغية اخذاه رأس جسر لانطلاق جديد نحو العوالم الأخرى . وقد لا يكون هذا اليوم عنا بعيد ، حتى وكان طموح هذه الحضارة لا يقف عند حد ، فلالتبث ان تحقق كسبا حتى تتعبه بأخر ، لتحقيق ذاتها في عالم الافلاك واطار الكون .

وهذه الحضارة مطبوعة بطابع التقدم العلمي الحثيث والسرير ، مع ما يلازمه من تقدم في التكنولوجيا . وهذا النمو العظيم والمتوازي لكليهما مما يعطى انسان النصف الثاني من القرن العشرين الايضاح الشامل الذي ينتظره من التامل في الكون والمادة والحياة مع ما يشارك ذلك من فلسفة لفهم هذا الوجود . ومن الملاحظ ان التقدم في ميدان العلوم الرياضية يعتبر حداً أساسيا ، لان تأثيرها أصبح واضحا وقطعيا في مختلف مجالات الفكر البشرى . لقد كثرت النظريات وتعددت بتقدم المعرفة ، واخذت كل قضية مطروحة او محولة تولد بذاتها قضايا كثيرة واسئلة عديدة ، ولم يعد الواحد منا يامل ، حيث يعمل ، الا في معرفة عميقة في جزء من اجزاء المعرفة . ولكن الرياضيات تجاوزت ميدانها الخاص واستمرت في تطورها الصاعد منذ آخر القرن التاسع عشر حتى أصبحت لغة مجردة ولغة التعبير عند العلوم الأخرى .

وهذا التقدم العلمي يطعم اليوم ، كما كان يطعم من قبل ، ولكن بشكل افضل ، الى فهم الكون وفهم اسرار وجوده . وفي هذا الميدان تلتقي فروع المعرفة ، وان بدت ظاهرا متباعدة :

(١) راجع « قاء الحضارات » ، للمؤلف في مجلة الجمعية التاريخية المصرية الجزء الاول للعام ١٩٦٩ .

فالميكانيكا والفيزياء والكيمياء وعلم الحياة والطب والجغرافيا وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) ، والراديو الفلكي (علم ملاحظة الكون) والملاحة عبر الكواكب تنتهي كلها إلى مفهوم مقبول غالبا يكون لا ينتهي في الزمان والمكان . ولأول مرة تحققت مكاسب عظيمة ودقيقة في معرفة مركبات الكون من نجوم ونظام كوكبي .

وفي قضية تركيب المادة بدلت جهود لمعرفة المركبات النهائية لها ، وأثارت البحوث في هذا الحقل قضايا هامة وصعبة كقضية الصلة بين بنية اللزعة وبنية الكون ، وقضية مبدأ التقييد بقانون العلة والمعلول ، التي يقول بها الأمير الفرنسي لوي دوبروي الحائز لجائزة نوبل ١٩٢٩ ، وعدم التقييد للفيزيائي الألماني فرنر هايزنبرغ الحائز لجائزة نوبل أيضا عام ١٩٢٢ . وكلا هذين العالمين يأمل الوصول إلى الهدف الأساسي لجميع الأبحاث القائمة حاليا وهو نظرية الساحة الواحدة ، أي معادلة المادة التي بحث بها أينشتاين وتوضح جميع القوانين الفيزيائية . وبعبارة أخرى ، أن ظواهر النجوم تتضح بالفيزياء النووية ، وأن النظرية العامة للكون ترتبط ارتباطا وثيقا بنظرية النواة الذرية (١) .

وفي معرفة الحياة تم الوصول في علم الحياة (البيولوجيا) إلى اكتشافين هامين : الأول ، هو اكتشاف المضادات للحيويات (انتيبايوتيك) . فقد سبق هذا الاكتشاف الحرب العالمية الثانية بعشرة أعوام عندما رأى الطبيب البريطاني السير ألكسندر فليمنغ ، الحائز لجائزة نوبل عام ١٩٤٥ ، أن وجود العفن على سطح الزرع الجرثومي يقاوم نمو هذا الأخير . وفي ١٩٣٩ قامت فئة من باحثي أكسفورد بدراسة منظمة لهذا التأثير وهزلت البنسيلين ، وفتحت بذلك الطريق لاكتشاف مضادات أخرى للحيويات ، في وقت بدلت فيه المعالجة بمركبات السولفاميد تفقد نفاذها بظهور سلالة جرثومية مقاومة لها .

والاكتشاف الثاني ، كان على الصعيد النظري ، وفي مضمار علم حياة الخلية : ففي عام ١٩٤٥ ظهرت النتائج الجزئية الأولى التي حصل عليها بواسطة الفحص بالجهرية الإلكترونية وتشرح الخلايا والكائنات الحية الصغيرة تحت الجهرية وكيمياء الخلية ، وأظهرت مقارنة التجارب قيمة الحوامض النووية والدور الذي تلعبه في حياة الخلية ، لأن هذه العناصر تعتبر مسؤولة عن النشاطين المميزين للمادة الحية وهما : التمثيل أي القدرة على صنع مادة مماثلة تماما لمادتها الخاصة ، والتكاثر أي الاستعداد لبناء خلايا جديدة . وهذه الأبحاث ما زالت نظرية ، ولكن من الممكن القول بأنها ستنتقل في المستقبل القريب من نطاق النظر إلى نطاق التطبيق وتدخل في علم الوراثة ودراسة الأورام الخبيثة (السرطان) .

ولعبت الكيمياء دورها الحديث ، فقد استطاعت بإمكاناتها التركيبية الجديدة أن تشكل أجساما عديدة لا تقف عند حصر ، وحققت ما حلم به السيميائيون في العصور الوسطى ، وجهزت بعنتجاتها وسائل الإنتاج لجميع الفاعليات البشرية ودخلت في مختلف درجات حياتنا اليومية وفي صناعة المنسوجات كمنقو ، وفي أعداد الأصباغ والألوان والصناعات التحضيرية والتجريب بالمواد الأولية والضرورية للزراعة وفي ميدان المستحضرات الصيدلانية والغذائية والمشروبات الجسدية . وليس بعيدا في المستقبل أن يستغنى إنسان العصر الحاضر عن المأكول والأطعمة بشكلها الطبيعي المعروف والمكلف والمضيعة للوقت ، ويكتفى ببضع حبيبات تغذية وتدفع عنه ألم الجوع ، وتغني عن

(١) راجع : Marcel Pacaut et Paul Boujau, le Monade Contemporaine, P. 19, Arm — and Colin, Paris 1964.

المطابخ والطهو وما إليها من أدوات الطعام، وتجعل منه انسانا نحيلاً وأكثر روحانية ، وأقل تعرضاً للأمراض ، وأعظم مناعة .

وهكذا يبدو أن التقدم العلمى الصامق صفة مميزة لحضارتنا الحديثة . أما إن يقال إن العلماء يستطيعون أن يجيبوا عن كل شيء اليوم أو في مستقبل قريب أو بعيد ، فذلك قضية خاطئة ، ولا يمكن طرحها على العلماء لأنها تنفرهم ، وهم أعلم من غيرهم في الحقل العلمى وملابساته . ولكن المهم هو أن الدراسات العلمىة المختلفة التى حققت مكاسبها أصبحت تؤلف عدة كبرى وأجهزة عظيمة في فتح المجهول ، وأن العلماء يؤلفون اليوم وجهة سلمية في معركة العلم لتلقى فيها أنواع الدراسات وتعاون بها في تقدمها (١) .

وصفة أخرى لحضارتنا الحديثة : هى إنها مطبوعة أيضاً بطابع التقنية ، وهذه نتيجة من نتائج الثورة الصناعىة الدائمة والمتطورة . وقد عرف تاريخ البشرىة ثورات صناعىة ثلاثا : كانت الأولى عندما اخترع الإنسان القديم الأداة وسخرها لأغراضه وحاجاته اليومية الطارئة . ولكن هذه الأداة كانت بطيئة الإنتاج ، ولا يؤمن كل ما يطلب منها ، لأن التقنية توارثها ، وهذا الفقر في التقنية كان عاملاً من جملة العوامل التى دفعت إلى الرق لاستغلال الحقول والمناجم في أمريكا عقب الاكتشافات الجغرافىة الكبرى ، هذا فضلاً عن أن الرقيق لا يحسن استخدام الآلة ، وأكثر من ذلك أنه غير قادر على العناية بها وصيانتها (٢) . ومهما يكن فإن هذه الأداة المستعملة على بساطتها كانت في حينها تعتبر تقدماً محسوساً وكسباً صناعياً وتقنياً .

وبدأت الثورة الثانية منذ استخدم الإنسان الآلة البخارية والفرن العالى في أواخر القرن الثامن عشر، ونشأت عن هذا الاختراع علاقات اقتصادية واجتماعية ، وتميزت هذه العلاقات بمالتيقتيات التى نشأت من هذه الثورة . ولا مربية في أن إدخال الفحم الحجرى والآلة البخارية والحديد والتقل بالبوخر والخطوط الحديدية قد قلب العلاقات الاجتماعية ، وولد المجتمعات الصناعىة وساعد على تحرير الرق ، لأن تقدم التقنية دعائى الاستغناء عنه وتحريره ، ولقد كانت انكساراً رائدة في هذا الميدان ، وهى أولى الدول التى ارتقت عندما التقنية قبل غيرها (٣) .

غير أن تسارع التقدم التقنى زاد في التناقضات وتعارض المصالح والمقاومة بين طبقة المنتجين وطبقة العمال في مجتمع منتجين ، أى في اقتصاد مجتمع يعمل قبل كل شيء للتعجيز وصنع وسائل الإنتاج . وقد ظهر التناقض جلياً أيضاً بين التقدم التقنى والعمل ، لأن العلاقات الاجتماعية أخذت شكلاً جديداً وهو التضاد بين اقلية منتجة وأكثرية مستهلكة .

ولم تكن هذه الثورة الصناعىة ممكنة لولا تقدم الحركة العلمىة وتطبيق العلم في ميدان التقتيات التى نشأ عنها نمو صناعات جديدة كاستخراج المناجم والصناعة المعدنية والحديدية التى تنتج العتاد الصناعى والأشغال الماسية والأجهزة الرفاعة والصناعة الكىماوية وتجديد الصناعات التقليدية وتجنيد الأيدى العاملة في الصناعة ووسائل النقل الحديثة .

ونشأ عن هذا التطور حادثان عظيمان هما : أولاً ، التزايد السريع في إنتاج العتاد ووسائل

(١) راجع مجلة « Realités » عدد حزيران ١٩٦٢ .

(٢) راجع : Henri Van Ier, le Nouvel Age, p. 17 Casterman, 1962

(٣) راجع : Otto de Habsbourg, Bientôt l'après 2000, Hachette paris 1969

الانتقال والمواصلات بشكل جديد يختلف تماما عن الوسائل المعروفة التقليدية . ثانيا : تشكيل الطبقة العاملة وقد بدأ شأنها يعظم يوما بعد يوم . ولقد أدخل الحادث الأول تمييزا واضحا لا سابق له بين البلاد والناس ، بين من يصنعون ويملكون وسائل الإنتاج الجديدة والمواصلات ، وأدوات التدمير ، وبين من لا يملكون هذه الوسائل ويعترضون إلى الخضوع لقانون الأولين .

ووضع الحادث الثاني تصنيفا جغرافيا واجتماعيا للسكان : فقد كانت الصناعة الناشئة في القرن التاسع عشر تتركز جغرافيا في مناطق الإنتاج التي تجهزها بالطاقة أو بالقنوات المدنية ، وفي مراكز عقد المواصلات وفي مناطق النفوس ، وفي النصف الثاني من ذلك القرن أصبحت المدينة نتاج النمو الصناعي أو التصنيع .

وساعدت الأبحاث التي قامت في هذا السبيل على تخفيض سعر الكلفة وحث الاستهلاك المتزايد ، وتخفيض زمن العمل وعدد العمال المستخدمين لتحقيق إنتاج معين ، وإدخال الكم والكيف في مراحل تحضير الإنتاج ، وفي طبيعة اليد العاملة المستخدمة ، وفي تحقيق آلات ميكانيكية جديدة تعمل للإنتاج ، والإقلال من تعقيد الجهود والحركات المبذولة بتقسيم متزايد للعمل وتحييده وتسلسله وتوقيته .

والثورة الصناعية الثالثة بدأت منذ تعاقبت التحولات الصناعية وظهرت مصادر جديدة للطاقة ومواد أولية جديدة وفهارس كبرى للمنتجات الصناعية ، لأن الآلة لم تعد مساعدا بسيطاً للإنسان ، بل أخذت تنوب عنه ، وفي الحالات النهائية تتجاوزه بتحقيق عمليات لا يستطيع القيام بها في مضمار الميكانيكية والمقل الإلكتروني وفتح الفضاء وخرق حجاب الصوت وغير ذلك مما يائسنا به المستقبل القريب والبعيد من مفاجات تمدد نطاقنا الخاص في التحقيق والإنجاز والعمل ، مما زاد في عدد المنتجات الصناعية دون انقطاع ، وفي عدد القطع الداخلة في بناء الآلة أو الجهاز المستعملين وفي تعقيدهما أيضا .

ويظهر الدور الحالي بخاصة متميزاً بتحول أساسي في العلاقات بين الإنسان والآلة . وإذا كان حقا أن العامل يخشى دوما أن ترده الآلة إلى البطالة فإن العلاقة بين هذا الإنسان والآلة أخذة اليوم في التغيير . لقد ظلت الآلة ، في القرن التاسع عشر ، العمل القبول لتحقيق إنتاج معين بتبسيط عمل الإنسان وزيادة قوته ، ولكنها بقيت لمساعدة ، ولولا وجوده لظلت دون حراك ودون نفاذ . أما اليوم فإن مراحل يكملها من الإنتاج أو الحركات أصبحت الآلة تقوم بها وحدها ، وغدت رقابة العمليات الصناعية أو غيرها من عمل الأجهزة ، ولا يتدخل الإنسان إلا من بعد ليووجه العمليات في تسيير المراحل الميكانيكية الضرورية ، وهو يعلم عن بعد ، بواسطة وسائل الاتصال التي تقع تحت يده ، الحوادث الطارئة ليصحح الخطأ ، كما يظهر ذلك في تسيير الأتومر الصناعية ، والسفن الكونية والأجهزة المستعملة في صنع الخطوط الحديدية والصناعة الميكانيكية ، وفي أعمال المكاتب تحت اسم أصبح معروفاً وهو الآلة الأوتوماتيكية .

وعلى هذا النحو أصبحت الآلة نفسها معملا لصنع القطع وتركيبها لصنع أجهزة جديدة . وأخذت الأجهزة الإلكترونية تساعد على القيام بسرعة فائقة جدا بعمليات وتصنيفات وحسابات لو جرت في أحسن الشروط لاحتاجت إلى عدد عظيم من العمال خلال ساعات أو أسابيع . كما فتحت العقول الإلكترونية أمام الصناعيين والتجار وأصحاب البنوك وشركات التأمين والطالبيين النصع والإرشاد والضاربين الاستخارة في قضايا الزواج والمتبئين بنجاح الحروب والراجمين بالغيب ، آفاقا جديدة واسعة لا تقف عند حد أو قيد .

وهكذا نرى ان بعضا من حاضرتنا اخذت بتحريك بفاعليات وتسلسل حركات آتية لم تحذف الانسان ، ولكنها على أقل تقدير ، قللت تدخله وورثته الى حده الأدنى ، وبعثت في فكرنا عالما جديدا ومستقبلا قريبا أو بعيدا بكل ما يسر أوفى .

وربما يكون من السابق لأوانه ان نفكر بأن جميع الأعمال البشرية ، يمكن ان تكون في وقت قصير آتية . لان بعض قطاعات النشاط قلما تكون على استعداد لآلية مريحة ومفيدة اذا كانت الحصيله الانتاجية فيها تنمو بسرعة قليلة جدا ، لا سيما أن الآلية الحديثة تتطلب كالمبحث الدرى مستوى تقنيا عاليا واحتياطيا ماليا عظيما ، وهذا ما يجعلها امتيازاً من امتيازات الشركات الصناعية الكبرى والقوة جدا ، لأن هذه الشركات تستطيع بما لديها من امكانيات متعلدة على غيرها ان تتجه نحو قطاعات نشاط جديد في حقل الانتاج والاستهلاك والخدمات . وقد يقول بعضهم ان هذا الأمر يمكن ان ينافى براسمالية جديدة ، بينما يرى آخرون انه يتعلق بالانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، عند شعب تحرر من أشكال العمل القديمة ولديه من الوقت الجاهر ما يستطيع التصرف به .

ومهما يكن فان الجغرافيا تميز بين البلاد التي يمكن ان تؤدي فيها الآلية ، بعد فترة من الزمن ، الى تغييرات عديدة في مواطن الانتاج والاستهلاك ، وبين البلاد التي لا يمكن ان تشبهها ، ولو من بعيد ، وتجد نفسها مضطرة الى البحث عن شكل من أشكال التعاون والمبادلات مع البلاد التي تسحت بالأجهزة الميكانيكية والآلية ، هذا فضلا عن أنه يمكن النظر الى هذه القضية من وجه آخر : وهو ان تتساءل ما هو وضع البلاد الفاسدة بالأيدي العاملة العاطلة عن العمل التي يتضاعف سكانها في فترة جبل واحد اذا دخلتها الآلة او اضطرت لدخولها ؟ لا شك ان البون يصبح أساسا بينها وبين البلاد الممكنة القليلة السكان نسبيا . وعالم اليوم يزداد اختلافا وبتباينا أكثر من أى وقت مضى مع ما فيه من ظواهر تدل على تقارب البشر ووحدهم .

وإذا قلنا ان حضارتنا اليوم تنصف بتقدم العلم وتقدم التقنية فيجب ان نتصور ان لا فاصل يحجز بين العلم والتقنية ، بل هما يعيشان معاً مشتركاً وكل تقدم يصيب احدهما ينال منه الآخر وينعكس عليه ، ولا يمكن تعيين الحدود بين العلوم والتقنيات . ونمو هذه الأخيرة يفرض على العلم القيام بأبحاث واكتشافات ، كما ان تقدم العلم يدعو الى تقدم التقنية . وهكذا يتم احدهما الآخر ولا يفصل عنه . ولندكر على سبيل المثال ان الصواريخ التي وضعت وحسنت قد أصبحت الآن من أفضل وسائل اكتشاف الفضاء ومعرفة الكون ، وأن المؤسسة القومية للملاحة عبر الفضاء الأميركية جعلت مهمتها العمل على تقدم علم وتكنولوجيا الفضاء ، وارسال اميركيين الى القمر ، وان ما يقارب نصف المليون من الرجال مسخرون للنفوذ الى أسرار الكون وتعريف ظروف نظامنا الشمسي ، وان كل هذه الأجهزة جميعها تقتضى تعاوناً وثيقاً وواحياً بين العقل والآلة ، وأن العلم والتقنية المتلازمان يسيطران على العالم ويلعبان في تطوره دوراً أساسياً ، وأن الامكانيات التي تتيحهاها للانسان النصف الثاني من القرن العشرين والقرن الحادى والعشرين تبدو بغير حدود وتتمى عنده العاطفة بضرورة القيام بجهد مستمر وشاق ومكلف وأحياناً مخيب ، ولكن هذا لن يفت في عضد العلماء ، لان الحياة متدهم علم ومعرفة وتفكير .

وقد أدى تقدم العلم والتقنية وتعاونهما الوثيق للانسان المعاصر خدمات جليلة في حياته اليومية . فنقدم الطب ومنه المعالجة وصناعة الأدوية والعمليات التي تجري في أحسن الشروط والوعي الصحى وتنظيم توزيع الأغذية ، ان كل ذلك قد ساعد ولا شك على تخفيض نسبة الوفيات وزيادة السكان : فالمجاعات والأوبئة والأمراض التي اعتبرت زمناً طويلاً من غضب الآلهة أو

ظواهرات من ظواهر القضاء والقدر زالت اليوم من سطح كوكبنا الأرضى أو على الأقل ، لم تعد كما كانت عليه بشكلها المخيف والمبيد والمزمن .

ولكن البشرية ما زالت تشعر بتناقض عظيم بين رغبتها الدائمة في تحسين ظروفها المعاشية وبين التزايد المتسارع في عدد السكان الذين يجب اشباعهم ، لأن الإنسان حين يأتى الى هذا الوجود ، يأتى خالي الوفاض مستهلكا ، وليس بالإمكان دوما إعطاؤه الطرق والوسائل التى يصبح بواسطتها منتجا ليؤمن التوازن بين الانتاج والاستهلاك ، أضف الى ذلك أن الحاجات والرغبات الجديدة والمتجددة باستمرار قد ازدادت بنسب عظيمة فى العقود الأخيرة من هذا العصر، حتى ان اشباعها لم يتحقق الا للعدد القليل من الناس ممن توافرت في بلادهم شروط التقدم الصناعى ، أو ممن تهيأت لهم الأسباب التى مكنتهم من ارضاء رغباتهم .

اما الاكثورية العظمى من الناس فان تكاثرها المزدى أصبح عائقا ومائعا يحول دون الوصول الى الحياة المتقدمة ، ولا يوجد الا بالنزول السريع ، وما ذلك الا لأن الفاض التزايد للسكان يقف أمام كل اسل يرفع المستوى الاقتصادى والاجتماعى ويجعل بلوغ الرفاه العام أمرا صعبا المنال .

وقد تهرب على هذا الفاض ازيداد التناقض بين البلاد المتقدمة حضاريا التى تريد ان يكون ازيداد عدد سكانها مائل غنى لها لأنه يساعدها على تسارع حركة الانتاج والاستهلاك ، وينتج دورة الانتاج ، وبين البلاد المتخلفة التى تظهر عقيما اقتصاديا واجتماعيا بسبب طفيان السكان .

لقد تزايد سكان الأرض بشكل سلسلة هندسية : ففى اول هذا القرن كان رقم السكان ١٥٠٠ مليون نسمة . وفى حوالى العام ١٩٥٠ تجاوز الرقم المليارين ونصف المليار ، مع تزايد يقارب المائة مليون فى العام ، أي بما يربو على مائتى ألف نسمة فى اليوم .

وتشير التنبؤات الى أن رقم السكان سيكون سبعة مليارات فى العام ٢٠٠٠ أى بعد ٣٠ عاما . وإذا مددنا منحني الأوهام حتى ٢٣٠٠ ، فهذا التمديد معناه القد فى عمر المصور الجيولوجية ، ولكنه يعتبر كافيا للوصول الى رقم للسكان لا يجد فيه الانسان موطنًا لتقديمه على سطح الأرض .

وقد رأى المؤرخون ان رقم السكان فى العالم فى بداية التقويم الميلادى ارتفع الى ٢٥٠ مليون نسمة ، وأن هفة آلاف من السنين مضت حتى انتقل من ١٠٠ مليون أو ١٢٠ مليوناً الى هذا الرقم ٢٥٠ مليوناً .

ولكننا اليوم نرى تزايد السكان يشم فى سنوات قليلة ، وليس هذا التزايد واحداً فى جميع القارات : فقد تضاعف سكان أوروبا بمن فيهم سكان القسم الآسيوى من الاتحاد السوفياتى فى قرن واحد من ١٨٦٠ الى ١٩٦٠ ، كما تضاعف سكان آسيا فى ال ٦٠ سنة الأخيرة ، ومثل ذلك سكان أفريقيا فى الوقت نفسه . وتضاعف سكان أمريكا الشمالية فى ٤٠ عاما ، وسكان أمريكا اللاتينية فى ٣٠ عاما . هذا مع العلم ان انطلاق التسارع لا يوضع فى تاريخ واحد بالنسبة لجميع البلاد .

وهذه الزيادة الرهيبة المخيفة فى عدد السكان تدعو الى التشاؤم خوفا من حدوث المجاعات بسبب قلة الأغذية ، غير أن آراء رجال العلم فى موضوع المجاعات وزيادة السكان ليست مجمعة ، فضلا عن أن هذه الناحية لم تدرس دراسة جدية بعد ، ولم تعتمد بعد على احصاءات وثيقة ، لا سيما ان التقارير الادارية التى تتناول السكان كثيرا ما تشوبها المبالغة والإبهام ، وتدخل

في هذا الحقل كثير من الاعتبارات الدينية والاقتصادية والسياسية ، ويرى بعضهم اباحة استعمال الموانع وآخرون عدم معاكسة الطبيعة ، ويتساءل الاقتصاديون اليابانيون المختارون ما اذا كان تنظيم الولادات والتخطيط العائلي ، بفسية ارضاء رغبات المستهلكين المباشرة ، يمكن أن يحول أو أن يبطئ التقدم العلمي والاقتصادي ، وهم يرون أن زيادة النفوس قد تشجع الهمم في البحث لاجداد الألفية الكفيلة بسد الحاجات ، وتساعد بالتالي على التقدم العلمي ، وما زالت هذه القضية بين أخذ ورد .

وحضارتنا الحديثة مطبوعة أيضا بطابع السرعة المتسارعة : لقد كان الإنسان القديم يريد الوصول الى قايته دون أن يسأل عن الزمن ، أما انسان اليوم فيسأل الوصول الى لباتته في أقرب وقت وبأسرع سرعة ، ويحاسب نفسه على الدقة المتدرة سدى ، لقد أصبحت المواصلات آتية ، وتنقل الأشخاص بالكيلومترات الساعية ، والطائرات التجارية تجوب الفضاء بسرعة تفوق سرعة الصوت ، والتوصيات عليها قائمة على قدم وساق ، والذهب من أوروبا الى أمريكا نزهة يومية ، ورجال السياسة والأعمال والخبراء والمهندسون والأطباء ينتقلون بسهولة وسرعة لا تتصور بين قارة وقارة ، وبسر أكثر من انتقالهم بين اقليم وآخر في بلادهم . لقد انعدمت المسافات أو أصبحت في حكم العدم ، وغدا العالم بلدا واحدا ، وبالرغم من ذلك فإن تحديد العلاقات بين البشر واتقائهم ليس متعلقا بتدخل المسافة الزمنية ، بل بتدخل السلطات والادارة والتأثيرات والمسافة السعرية .

حقا لقد أصبح الاتصال سهلا بين جميع أمم العالم ، رغم التمييز بينها ، وفقرت اساليب الحياة بفضل هذا الاتصال السهل القريب البعيد ، ولكن هذا لم يمنع من وجود التناقض : وإذا كان بعض الناس يفكرون ويعملون على صعيد الناقدة والبحر ، أو على صعيد الكيلومتر ، فإن أكثر الناس في العالم المتقدمين يفكرون ويعملون ويتعاملون اليوم على المقياس القاري والعالمي ، وعلى صعيد الشمول واللمحظات : فمن الممكن لأسطول جوي أن ينتقل من نقطة على سطح الأرض وبغنى حياة الملايين من البشر ، ويجعل البلاد خرابا يبابا ، والديار بلاقع ، في أقل من بضع ساعات ، ويعود الى قواعده سالما آمنا . وتستطيع الطائرة في الوقت نفسه أن تنقل الامراض والأوبئة من مسافات بعيدة لولا الوقاية والحجر الصحي .

وإذا كانت هذه السرعة تتجاوز المسافات الطوال ، كالمحيطات ، والبوادي ، والجبال ، فسير مبالية بعقبة ، فإن سرعة العلاقات المحلية والإقليمية ما زالت تشكو البطء : فمشاكل المواصلات بين المدن لم تحل بعد ، ولا يبعد أن تكون بين الأحياء في المدينة الواحدة ، وقد تعزلنا العوامل المناخية كالثلج والمطر والفيضان عن أقرب قرانا الى مدينتنا ، وبقي على اتصال مع العالم بالراديو والتلفزيون ، وهكذا يصل الترانزستور ابن البادية وهو على ظهر راحلته يقطع البیداء على أنغام الموسيقى العالية وخطب الزعماء السياسيين وأحداث المدينة ويصطب مما يدرك ولا يدرك ، ولكنه على كل حال يتقشف نفسه بهذا الجهاز وطوله لا يتجاوز طول الكف ، وليس بعيد على البدوي أن يتقشف نفسه بعد أيام معدودات بتلفزيون لنفسه الأبعاد والحجم ويجمع بين الصوت والصورة وبين لذة السماع ومتعة المشاهدة ، وسيستغنى ابن المدينة عن جريدته اليومية فلا يهتم بها بعد أن انته متاخرة عن سماع الأخبار بالراديو وبؤيتها على الشاشة ، وستخاطب عن قرب من نريه ونرى صورته أمامنا على الجهاز الذي نخا به ، وهو بيننا حاضر غائب . وهكذا وصل الملاحون الثلاثة على ظهر ايلول 11 و 12 الى القمر في خمسة أيام أو أقل ، كما نقطع البحر المتوسط على متن الباخرة في خمسة أيام ويضع ساعات .

ولكن هذه السرعة المادية ، مهما بلغت ، أبعد من أن تصل أو توأكب السرعة النفسية في لغة العاطفة والحب ، لأن هذه لا تعرف حداً لقوتها عندما نبغي الوصول الى ما نريد ، حيث تقول : « غشدي في هوك يسبق امسى » . ومثل هذه السرعة لم يتوصل اليها فرسان الفضاء الخارجي ، غير أننا في متعة الحب الصافي نستعمل الزمان ونرجو دوام الليل ، ونقول للشمس : « تعالى تعالى بعد ستة مئى قبل سنة » .

ومن هذا التناقض في العلاقات البشرية على مقياس كوكبنا الأرضى نستخلص فكرتين :

الأولى - هى الشعور بالمشاركة مع بنى البشر مع ما فى هذه المشاركة من مخاطر والتزامات : فما من أحد يستطيع اليوم أن يكون غير مبال بالحوادث الجارية ، مهما كانت بعيدة ، والتي يمكن أن تتسلسل بسرعة فائقة وتكون مفعمة بالنتائج التى تم الكرة الأرضية جميعاً : ان القضية الفلسطينية وحرب فيتنام تشغلان بإبهامهما المتصاعدة وجدان العالم بأسره .

والثانية - هى اتساع نطاق القضايا الاقتصادية والسياسية على المقياس العالمى ، بينما تضيق فكرة الجوار وتفرض انشاء نظم للتنسيق والتوحيد بين البشر ، مثل عصبة الأمم فى فترة ما بين الحربين، ومنظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، وإلى ما هنالك من منظمات دولية فى حقل الغذاء والعمل والصحة والتعليم والعلم والثقافة والتربية والمساعدة الفنية والتنمية والتبئية والإعلام والمعرفة العميقة لكل ما يتعلق بحياة حاضر العالم ومستقبله ، وقد نجحت هذه المنظمات قليلا وأخفقت كثيرا ، وما زالت تتمتع فى سريها ، رغم الجهود المبذولة لتقويتها .

ولكن الهوة ما زالت مسحية أمام هذه المحاولات الكثيرة فى تعميم المواقف وشمول النظم، ولعل انتقام العالم الى كتلتين : الكتلة الرأسمالية برعامة الولايات المتحدة ، والكتلة الاشتراكية برئاسة الاتحاد السوفياتى ، ليس الا الشكل الأساسى والوحيد فى الاختلاف والتنوع .

وتبدو قضية التخلف شائكة فى حضارة اليوم ، لأن البلاد التى تتصف بهذا الوصف يحكم ظروفيها التاريخية وجدت خارجه من حركات التصنيع الكبرى التى أقامت الاقتصاد الصناعى وطورت المجتمعات ، وما زالت رغم نموها الحديث محافظة على بنائها الاجتماعى العتيق ، وراثة تحت وطأة طفرات ديموغرافية مذهلة تحاول حلها فلا تجد لها حولا جديرة .

ومهما يكن أمر هذه البلاد المتخلفة فإن التطور السياسى ، فى ظروفه الخاصة والعامة ، أدى الى استقلالها وخلصها من نير الاستعمار الذى اقل عليها وكان من جملة عوامل تأخرها فترة غير قصيرة من الزمن ، وهى الآن تمانى أزمة النمو التى تنتاب عادة البلاد الحديثة الاستقلال . وإذا كانت مصادر ضعف الحكم فيها ناشئة عن عدم التجربة وقلة الخبرة والجهل بالقضايا الاقتصادية والسياسية مع ما يصحب ذلك من الفساد وأتانية الزعماء ووجدانية الحزب الحاكم والشدة المذهبية والصرامة العقائدية التى تهدب الى درجة التطرف وتخوين الغير ، فيجب أن نتعرف أن هذه الحالات رغم أخطارها الجديده ، ليست نوعية وخاصة خطيرة وأشارت حرام تحول دون التقدم الى الامام ، وأن وعي الشعوب النامى والمتكامل كفى مع الزمن ، بإزالة الإبهام ودفع الأخطار وإحلال الرضاد محل الضلال .

وإذا استقلت هذه البلاد سياسيا ، فاستقلالها ما زال سريع العطب ، ومحفوقا بالكاره من كل نوع ، لأن الخلاص من الاستعمار سياسيا لايعني الخلاص منه اقتصاديا ، وهى مضطرة بحكم ظروفها الموضوعية الى مد يدها الى عدوها بالأمس فى سبيل المعونة الفنية والتنمية الاقتصادية

والتطور الاجتماعي ، أو الى التعامل مع بلاد لم يلقها مرارة الاستعمار ، أو للحوار مع البلاد الاشتراكية في جو الصداقة والسلام والتفاهم والاحترام المتبادل والمساعدات غير المشروطة .

وما من شك في أن الحوار الاقتصادي ضروري للبلاد الراقية كما هو ضروري للبلاد المتخلفة . وإذا كانت هذه الأخيرة تنتظر من الحوار الحصول على الوسائل المخففة لوطاة التخلف ، أن لم تستطع إزالته ، فإن الأولى ، أي البلاد الراقية ترى في البلاد المتخلفة متممًا لاقتصادها يمتص منها ، طوعا أو كرها ، زيادة الخبراء والفنيين ووسائل التجهيزات الحديثة ، كما تمتص منه بالضرورة احتياطياتها من المحاصيل الخام أو تقاسمه رزقه الطبيعي الوفير والتحتي بين تبادل الخبرات والمنافع والحفاظ - في هذا التعاون المبني على المصالح المتبادلة - على الصيغ القانونية والحقوقية التي تنجو من طغيان الاستعمار الحديث أو من مخلفات الاستعمار القديم . وفي مضمار هذا التعاون يقوم التنافس بين العملاقين ، بين الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي ، في الاهتمام والبحث ، قبل كل شيء ، عن البلاد ذات القيمة الاستراتيجية والاقتصادية ، وليس التدخل السياسي تحت رداء الاقتصاد والثقافة ألوانا عميقة أو زاهية تختلف حسب درجة الإغراء وقوة المقاومة .

ولا يخلو هذا التعاون الوثيق أحيانا من أخطار ، وله مناقبه بالقدر الذي يساعد على النمو والتقدم وتحقيق المكاسب والأخذ بأسباب الرقي ، وله مثالبه بالقدر الذي تكون فيه المساعدات مشروطة ظاهرا أو مستترة ، لأنها تضع المتخلف شاء أو لم يشأ ، من وهي أو عن غير وهي - تحت رحمة المتقدم الرأقي ، وتجعله يأتمر بأمره ويعمل بإيعانه ولو كان مستقلا سليما معافا ، ولعل الدول الكبرى المعلقة ، على ما فيها من حول وقوة ، لا تظهر قيمتها الا بقدر ما يدور في فلكها من دول صغرى .

ولكن هذا التقدم ، الذي تحققه البلاد المتخلفة والسائرة في ركب الحضارة الحديثة لا يبدو عن أن يكون صغرا وقليلًا إذا ما قيس بالنسبة الى التقدم بخطا الجبايرة الذي تحققه البلاد المجهزة صناعيا وتقنيا والعريقة بحضارتها . وهذا ما يدعو فعلا الى اليأس ، رقم قوة الإيمان ، حتى كان نوعا من جبرية تفرض على البلاد المتخلفة لتبقى حيث هي ولو حاولت الرقي والتقدم . وبالرغم من هذا الوضع الذي يدعو في بعض الأحوال الى القنوط ، فلا مبرر للبقاء على التخلف المقيم ، ولا بد من السعي حثيثا في طريق النهوض والرقي .

وآخر ما نصف به حضارتنا الحديثة هو أنها تعاني اليوم أزمة (١) : أن عصرنا الذي نميش فيه تركيب يضم عناصر مختلفة وغير متجانسة من ركائز الحضارة وأفانيتها في الخلق والإبداع ، أنه عصر الكثرة والوفرة والتناقض والاختلاف والتنوع في كل شيء : في أنماط الحياة ومستواها ، وفي الأفكار والمعتقد والمذاهب ، وفي شتى أنواع التطور من قديم وحديث ، وكلها تجتمع على صعيد واحد ، وفي البلد الواحد ، وحتى في البلاد المتقدمة أكثر من غيرها .

واليوم - وقد بلغت الحضارة ما بلغت - يثور الإنسان الولوى على هذه الحضارة وعلى ما خلفت من طرق ومناهج وقيم ومذاهب وتقنية ، ويحاول أن يقيمها ويقدمها ، ويجعل ما كان بالأمس منها عقيدة راسخة وحقيقة مقبولة . ومعطيات مسلما بها ، موضع شك وتساؤل ، ولا غرو إذا وجدنا حضارة العصر تعاني أزمة بل الأزمات ، وأبرز هذه الأزمات ثلاث :

الأزمة العقلية ، والأزمة القومية ، والأزمة الاشتراكية .

لقد حاولت الحضارة الحديثة ، بما فيها من علم وتقنية ، وبمد تلمسات عديدة في مختلف الميادين ، أن تجعل من العقل رائدا لتسير على هذه فلا تضل السبيل ، وتوصلت الى الطريقة التي تجعل الإنسان سيد الطبيعة ومالكا لها . وقد هيات له هذه الطريقة جميع الأسباب التي « عقلت » وجوده وسهلت ظاهرا عليه سيطرته على العالم وسلوك حياته ، ولكنها في الوقت ذاته أفقدته أو تحاول أن تفقده أسباب حياته وحريته ، لقد أوجدت هذه الطريقة تكنوقراطيين يؤخذون بالميكانيكيات الاقتصادية دون اعتبار كاف للعوامل البشرية ، وعقولا مجردة ومتحجرة تحمل سيطرتها ويصبر عليها . وقد بلغت هذه القوى كامل سلطانها في الدول الدكتاتورية ، وتحاول أن تتسلل الى الأنظمة الديمقراطية من طريق الخطط ووضع المناهج وجميع التدخلات التي لا يمر لها للدولة ، والحق القيم الإنسانية والروحية بهؤلاء التكنوقراطيين والبيروقراطيين التحكمين . من هنا تخرج صرخة الضمير الواعى على العقلانية المستبدة التي تريد أن تسير الإنسان حسب هواها وتحرمه لذة العيش كما يتصور ويريد ، وهكذا ينادى الثائرون اليوم : « العالم ليس عقلا »

والأزمة القومية تتجلى في أن الحركات القومية التي قامت في العالم أدت في النهاية الى تشكيل دول قومية حلت حلو بسمارك وكافور وهورنر وموسوليني وستالين . وعلى ما يبدو أن التصبب للقومية دفع الى التفوق في الاطراف الاقليمية ، ولكن هذا الوضع دعا الى التساؤل وطرح القضيتين الآتيتين :

أولا : هل البلاد المحصورة في داخل حدودها ولا تقوم بأى تحديد لسيادة بعضها حيال الأخرى تتوصل الى تأمين سلام العالم ؟

ثانيا : هل الحكومات المركزية الخاضعة للتفوق الدولة ، ولو كانت شعبية ، تتوصل الى تأمين الحريات وانقاذ الديمقراطية ؟

ان التساؤل في مثل هذه القضايا دعا الى الخروج على القومية والانتقال الى مرحلة جديدة وهى مرحلة الفوقمية (الفوق قومية) وذلك بوجوب تصعيد الحدود القومية وجمع الأمم التي تؤلفها في منظومة قادية على توكيد وجودها وقوتها أمام الكتلتين الكبيرتين ، وهذا ما ظهر في محاولات التنظيم الأوربى في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، كما في **النظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي** التي تشكلت في ١٦ نيسان ١٩٤٨ وتضم ١٦ دولة ، وفي **منظمة الأطلس الأوربى** ، الذى جعل مركزه مدينة ستراسبورغ وضم ١٥ عضوا وهدفه تحقيق اتحاد أوثق وتشجيع تشكيل رأى عام أوربى ، وفي « المنظمة الأوروبية للفحم والفولاذ » التي اختارت مدينة اللوكسمبورغ لتكون مقرا للسلطة العليا لهذه المنظمة ، وفي « الأسرة الاقتصادية الأوروبية » أو « السوق المشتركة » وفي « الأسرة الأوروبية للطاقة الذرية » أو « اليورانيوم » وفي « الرابطة الأوروبية للتبادل الحرة » ، وكلها كوات تطل على عالم يتجاوز حدود القومية ويتطلع الى اتحاد أعم وأوسع .

والأزمة الاشتراكية نشأت من الإفراط في تطبيق القواعد العقلانية على الحياة السياسية والاجتماعية ، لأن التجربة الإنسانية أظهرت عيوبها وانقسامها على نفسها في الخلاف القائم اليوم بين الاتحاد السوفياتى والصين ، بين نظام يريد أن يتخطى من قيوده ، ونظام ما زال في حدة سنة وعز صرامته ، وهذه الأزمة الاشتراكية توضح لنا النفرة التي حدثت في قلب العالم الشيوعي

وتعميد العلاقات التي يريد شدها مع العالم الغربي ، كما توضح أيضا تطورها نحو تحقيق مقمن من الحرية ما زال محدودا وضعيفا .

ومهما يكن من أمر هذه الحضارة فيجب الانكسر أنها حققت منذ مطلع هذا القرن رقما عظيما وأعمالا باهرة ، وآخر ما حققت نصران مبینان ، هما تطعيم القلب والوصول الى القمر ، ولن يكون هذان النصران الوحيدين والآخرين . وقد كانت هذه المغامرات الفائقة ، قبل سنوات قليلة في حيز الأحلام والخيال ، أما اليوم فقد فتحت آفاقا لاتحد في تقوية الأعضاء المتضررة أو البالية التوهنة ، وفي المواصلات الحرة عبر الكواكب بفضل العلم الحديث والتقنية الحديثة المتجددين دون انقطاع . وإن اخراج العقل الإلكتروني يؤكد لنا عن يقين بأن تسارع التقدم ، وهو صفة مميزة لحضارة العصر ، أبعد ما يكون عن بلوغ حدوده القصوى ، لأن البحث العلمي الدائب المستمر ، بما لديه من عقول بشرية وادمغة الكترونية ساعد على التفز فوق الحسابات العادية المملة ، وسار بالإنسان ، خلال جيل ، الى الأمام في معرفة الكون والعالم معا لم تعرفه البشرية منذ آلاف السنين . ولعلنا نتساءل بعد هذا من المفاجآت العديدة التي ننتظرها في العام ٢٠٠٠ (١) .

لقد بلغ المجتمع البشري في الشعوب الطليعية النمو مستوى الرفاه والأمن والوفرة ، ونعمت الاكثية الساحقة في هذه الشعوب بما لم تنعم به في عصر سابق ، ولا شك في أن مجتمعات بشرية أخرى ما زالت تعتبر محرومة ، ولكن ما نجده تحت تصرفها وفي متناول يدها من نعم الحضارة الحديثة وخيراتها يفوق أضعافا مضاعفة ما كان ينعم به الأمراء الإقطاعيون في العصور الوسطى ، والبورجوازيون في القرن الفائت ، وإذا قلنا تحسين شروط الحياة في عصرنا الحالي بزيادة متوسط عمر الإنسان وقبلنا أن التقدم يتفاوت حسب البلاد وحسب الشعوب فإننا نقبل أيضا أن التقدم حاصل في كل مكان بل وفي المناطق المحرومة ، وأن هذا التقدم قد تسارع كثيرا في مختلف الميادين فزبد من التعميم والسعادة وطول العمر والفراغ ونحدي الطبيعة والموت ، وفي سبيل مساواة أعظم وتوزيع للخيرات أشمل . وأصبح معروفا بالبداهة أن هدف هذه المجتمعات الحديثة ليس الوصول الى الحد الأدنى من الحياة ، بل بلوغ الزيد والمزيد المتسارع دوما وأبدا ، ويتسارع في هذا السباق العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي ، وما دام الأمر كذلك فهل هذا السباق ينتهي الى لقاء بني البشر على صعيد واحد تلدوب فيه العقائدية ويصبح بنو البشر أقل تعصبا لداهمهم ، وهي في حقيقتها وسائل لبلوغ النى ، ولا تنأخر بعد اليوم ؟!

ولكن هذه الحضارة على ما قدمت وأحرزت ، ما زالت موضع شك ، ويعتقد بعضهم بإغلاسلها وعدم قدرتها على منح الإنسان الكرامة والشرف . ولا شك في أن هذه الضجة القائمة حول حضارة العصر لم تلق صداها لولا أنها عبرت بنفسها عن القلق الذى يخامر النفوس . لأن هذا القلق ناشئ عن التقدم نفسه ، رغم سرعته المتزايدة ، وبسبب هذه السرعة نفسها . والإنسان المعاصر يشعر بتبعيته لانتاج الخبرات المادية واستهلاكها ، ويرى نفسه خاضعا لعدة هيئات فنية ومكتبية تؤمن القيود والعوائق ، ورغم أن التقدم العلمى والتقنى والاقتصادى حل العظم من مشاكله ويحاول أن يحلها بشكل أسرع ، فإن هذا التقدم نفسه يخلق للإنسان مشاكل جديدة ويضعه أمام صعوبات وتحديات لا يمكنه التنبؤ بها . وهو في كل يوم أمام تغيرات أوسع وأكبر تعقيدا ، فلا يكاد يستقر حتى تتدخل تغيرات أخرى تعترض سبيله فيحاول التكيف معها أيضا . وهكذا يظهر تأخره

عن تقدمه ، وهذا التأخر آخذ بالتزايد . ومن الأخطار الجديدة الناشئة عن تسارع التقدم قضية استئناس الدرة والنتائج الخطيرة التي ترتب عليها في الحال والمستقبل على مصير البشرية والأرض .

وهناك قضايا أخرى أساسية لا تتعلق بظاهرة خاصة بنتائج التقدم ، بل بقانون التقدم نفسه ، كزيادة عدد السكان وضرورة أطعامهم وإقامتهم بعد أن أشارت التنبؤات إلى أن عدد سكان العالم سيصبح ٧ مليارات في العام ألفين أي بعد ٢٠ عاما . وهذه المدة كافية للوصول إلى رقم لا يبقى فيه على سطح الكوكب موطن لقدم إنسان ، وقد يقال إن الأرض إذا استغلت استغلالا عقلانيا أمكنها أن تغذي سكانها الحاليين بل وسكانا أكثر منهم ، وأكثر من ذلك إذا استخدمت الموارد الأوقيانوسية والموارد الشمسية ، ولكننا نجدنا أمام حد لسكنى الكوكب لا يمكن تجاوزه .

كذلك يضع ثبات السكان قضية طول العمر والشيخوخة المديدة ، والتنافس بين الأبناء والأبناء، والأجيال القديمة والجديدة، ويتمتع تزايد حاجات الاستهلاك المصاحبة للاستهلاك العديدي بحسب الرأس ، لأن تزايد الاستهلاك يعتبر صفة مميزة للمجتمع الحديث وتبريرا لجهده نحو التقدم ، ولعلنا نتساءل ماذا يمكن أن تكون في العام ٢٠٠٠ ، على سبيل الفرض ، حاجات الاستهلاك لسكان الأرض وقد بلغ عددهم سبعة مليارات نسمة ووصلوا إلى مستوى حياة الولايات المتحدة حاليا ؟

لقد فكر بعضهم باستعمار الكواكب الأخرى، وليس الوصول إلى القمر إلا ظاهرة لهذا التفكير ، فإذا فرضنا أن هذا الاستعمار مشعر ، فإن أقرب الكواكب إلينا ، وهو الزهرة ، على ٤٠٠ درجة حرارة منا ، والربيع دون مولد حموضة (أوكسجين) غير صالح لحياة الجسم البشري ، فما بنا بالكواكب الكبرى البعيدة والكواكب الأبعد منها حيث تقترب الحرارة من الصفر المطلق ، ويكون الأوزون سائلا والتناقل أعظم من تناقل الأرض بمئات المرات . أما منظومة الكواكب الأخرى فإن المسافة بينها وبيننا تقاس بالسنين . إن لم تكن بمئات السنين - النوبة ، وهذا يعني أن أسرع السفن الفضائية التي يمكن تصورها للوصول إليها تتطلب حياة أجيال وأجيال ، بما يعادل ٤٠ عاما على سفينة سوبرا بولو أسرع بعشرة آلاف مرة من أبولو التي نزلت على سطح القمر .

ولذا فمن المعقول والمقبول أن نحكم بأن التوسع لا يمكن أن يكون غير محدود في عالم محدود ، أو أن نفكر بتقدم مادي غير محدود ، أما الشكوك والمخاوف التي تخلق حولنا « أزمة تقدم » فربما تكون منيرة بعصر ما يزال بعيدا عنا ، ولا نتمتع بعد هذا أن التقدم والتوسع قد استنفدا غاياتهما ولظفا أنفاسهما ، فلهيما من السرعة والتسارع ما يجعلنا ننظر منهما فتوحات جديدة وانتصارات مبهنة ، ومكاسب حقيقية تنكشف أمامها مكاسبنا الحقيقية منها والوهيمة ، لأن لقن الحياة لما يحل ، ولأن العمل البشري لما ينته ، ولأن القافلة الحضارية ما زالت تتقدم السير نحو آمال وأحلام بغير حدود .

وبعد فما هو موقف الإنسان أمام معطيات حضارة العصر ؟ إن الفلسفة والأدب والفن التي ظهرت بعد ١٩٤٥ تشيد كلها بقيمة الإنسان وجهده وموقفه الحر وأرادته وحيته التي يكشفها في الخبرات التي تنتزع من كل ماضيه ومن كل ما يمتد بأنه كان كائنه والتي تؤلف وجوده الخاص . وإن الإنسان يشعر بضرورة إعادة النظر في كل شيء وطرحه على بساط البحث من جديد . وإن التقاليد بقديمها وحديثها قد اهتزت عروشها بقوة ، وإن ظاهرة العصر

الحاضر تريد قبل كل شيء أن تعطي الإنسان من جديد ، وأنتى انسان فى الناس مكانه الحقيقي وكرامته الحقيقية وعظمته الثمينة التى لا تقدر . وأن افضل النظم وأحدثها ليس لها إلا قيمة نسبية ، وليست أقوى من الناس الذين يضعونها: ومن الممكن إقامة السدود ضد الفيضانات المهددة، وإصلاح الحق العام ، وتعزيز الاستقلال وتجديد الطرق التشريعية ولكن كل هذا يظل غير كاف ولن تكون له قيمة إلا إذا اعتمد على أساس روحي وأخلاقي متين ، لأن هذا الأساس وحده يمكن أن يعطى الإنسان الحر القوة التى تساعد على إنهاء مشاكل العصر اللرى والثورة التقنية ، وفوق كل شيء يجب الاهتمام بإقامة النظم التى تحمى حرية اختيار الإنسان لمن هم أحياء يعيشون معنا أو للذين يأتون فى المستقبل و يرون القضايا بشكل مغاير لنا لئلا يكشفوا أننا استنفدنا من غير نفع ونبون ، امكانات اختيارهم وأفسدنا عطيمهم الطبيعي والاجتماعي . ولن تكون للحضارة قيمة إلا اذا صانت كرامة الإنسان وساعده على التحرر ، وإن من حق كل انسان أن يثور لحرية وكرامته ، وإذا نارت الشبيبة الجامعية فى هذا العصر فلأن لها مطالب تريد تحقيقها : لقد وجدت نفسها محرومة من كل أمن على مستقبلها وقد تبددت أوهام الماضي، فثارت على الآباء والأسالدة ولن تهدأ هذه الثورة إلا بالمزيد من الحرية والتحرر من قيود الماضي البغيض .



الالكترونيات وتقارب الثقافات

مقدمة

إذا التقينا نظرة عامة على تاريخ تقدم البشرية منذ عصورها الأولى نجد ان هناك علامات واضحة على طريق هذا التقدم تشير الى تطورات هامة كان لها اثر بالغ في دفع عجلته الى الامام وازدهاره ، ولا تكون مبالغين إذا ذكرنا ان الاكتشافات الحديثة في علوم الالكترونيات هي من أهم هذه التطورات ، تلك الاكتشافات التي أدخلت تنوالياً منذ مطلع هذا القرن وتشعبت في تطبيقاتها حتى شملت نواحي كثيرة في حياتنا اليومية سواء منها ما يتعلق بالعمل والإنتاج أو ضروب الثقافة والفكر الإنساني أو وسائل اللهو والتسلية، ناهيك بما لها من استخدامات خطيرة أدت الى تقدم الأسلحة ووسائل التدمير في الحروب الحديثة ، ولقد أصبحت الأجهزة الإلكترونية في عصرنا جزءاً لا يتجزأ بل هي بمثابة القلب النابض في معظم الآلات الحديثة التي لا غنى عنها في حياتنا المصرية .

ولقد دعت هذه الأسباب هيئة الأمم المتحدة ومختلف الدول والهيئات العلمية الى العناية بهذا الفرع الخطير من فروع العلم الحديث فعددت له العديد من المؤتمرات والندوات لتبادل الرأي والوصول الى اتفاقيات دولية تتناول بعض شؤونه الهامة مثل توزيع اللبديبات ووضع حدود للمواصفات الفنية وما إليها .

ومن الواضح انه لكي تتقارب الثقافة بين مختلف الشعوب ، يجب خطوة أولى ان نتقارب

• الدكتور محمود محمد رياض - استاذ الالكترونيات بجامعة الكويت اشتغل بالتدريس بكلية الهندسة جامعة الاسكندرية .
ساهم في بناء اول مفاعل ذرى بالجمهورية العربية المتحدة ، في سنة ١٩٦٤ عين وزيرا للمواصلات - أمين عام الاتحاد العربي للمواصلات السلكية اللاسلكية ، قام بأبحاث في التوجيه اللاسلكي وله مقالات علمية منشورة بالجلات العلمية العربية والاجنبية .

هذه الأفكار ، من علم وادب وفن بأشكالها المختلفة ، وتداول بين الناس حتى يطلعوا عليها ويتفهموها وعندئذ تأتي الخطوة التالية بأن تؤثر الثقافات الجيدة على غيرها وتزداد انتشاراً ، وبذلك تتقارب الأفكار ويزداد عمق التيار الذي يربط بينها ، وهنا يبرز الدور الكبير الذي تلعبه وسائل الاتصال الالكترونية الحديثة في نواحي نقل هذه الثقافات والربط بينها .

وسوف تقتصر في هذا المقال على القاء نظرة شاملة على النواحي التطبيقية لعلوم الالكترونيات الحديثة التي كان لها اثر واضح في تقارب الثقافات بين شعوب مجتمعنا الانساني الكبير ، نظراً لما لهذا التقارب من نتائج بعيدة المدى تتمدى حدود المسافات الشاسعة والفوارق الحضارية واللغوية والدينية والثقافية ، تلك الفوارق التي ظلت قروناً عديدة تقيم الحواجز المنيعة بين الشعوب وتكاد تعزلها عزلاً تاماً عن بعضها البعض ، وسيتناول بحثنا في هذا السبيل النقاط الآتية :

— اكتشاف اشياء الموصلات والترانزستور .

— التلفزيون .

— الاتصالات اللاسلكية عبر الفضاء بواسطة الأفعار الصناعية .

— الآثار غير المباشرة لبعض المخترعات الالكترونية .

١ — اكتشاف اشياء الموصلات والترانزستور

Semiconductors & Transistors

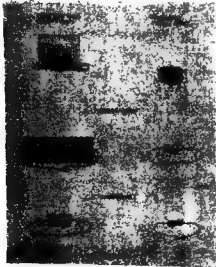
ظل الصمام الإلكتروني (Thermionic Vacuum Tube) على مدى حقبة طويلة من الزمن بمثابة الاداة الرئيسية التي تستخدم في صناعة اجهزة استقبال الاذاعات الصوتية والمرئية (الراديو والتلفزيون) . وقد ادى هذا الوضع الى فرض قيود بالضرورة على امكانيات انتشار هذه الاجهزة، اذ انها كانت تحتاج في أغلب الاحيان الى استخدام التيار الكهربائي العادي في المدن ، وقد حاول المهندسون التغلب على هذه الصعوبة بأن بذلوا محاولات عديدة لتصميم اجهزة وصمامات تعمل بالبطاريات السائلة والجافة بحيث يمكن حملها ونقلها من مكان الى مكان الا ان هذه المحاولات كانت محدودة الاثر نظراً لارتفاع تكلفة هذه البطاريات وسرعة استهلاكها فضلاً على ان حجم الاجهزة نفسها كان لا يسمح بسهولة حملها ونقلها ، وهكذا ظل استخدام جهاز الراديو مقصوراً على المدن والقرى الكبيرة التي يتوفر فيها التيار الكهربائي وعلى فئة محدودة من الناس الذين تسمع مواردهم المالية بتحمل نفقاته .

وفي عام ١٩٥١م وقع حدث هام كان بمثابة ثورة عارمة في عالم الالكترونيات وترتبت عليه آثار بالغة في تطوير صناعة الاجهزة الالكترونية ، فقد اكتشف فريق من العلماء في مختبرات الابحاث بشركة « بل » الامريكية خصائص جديدة للمادتي الجرمانيوم والسليكون امكن بواسطتهما استخدام هاتين المادتين في صناعة رقائق دقيقة أطلق عليها اسم « اشياء الموصلات والترانزستور » . فقد اثبتت التجارب والابحاث بان الترانزستور يمكنه ان يحل محل الصمام الإلكتروني ويؤدي

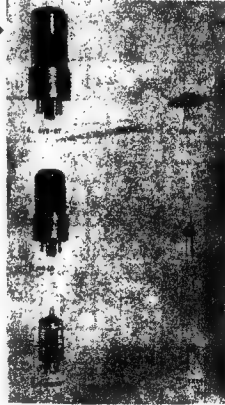
جميع الوظائف المطلوبة منه في الاجهزة الالكترونية بكفاءة تامة فضلا على انه يمتاز عنه بميزات كبيرة تتضح من الجدول الآتي للمقارنة بينهما :-

(الصمام الالكتروني)	(الترانزستور)
يحتاج الى طاقة كهربائية كبيرة نسبيا لتسخينه حتى يتولد فيه التيار الالكتروني ويتطلب مرور بعض الوقت حتى تصل درجة الحرارة في بعض أجزائه الى حد معين .	لا يحتاج الى اية طاقة كهربائية للتسخين ويتولد التيار الالكتروني فيه فوراً بمجرد توصيل البطارية .
يستلزم جهداً كهربائياً عالياً (Voltage) لتشغيله وهذا يحتاج الى استخدام التيار الكهربائي المادي او بطاريات خاصة كبيرة الحجم	لا يستلزم سوى بطاريات جافة صغيرة الحجم لتشغيله بنفس الكفاءة .
حجم الاجهزة التي تستخدم فيها - مهما روعي تصغير حجم الصمامات - يكون كبيرا نسبيا .	يمكن بناء الاجهزة في احجام صغيرة جدا للدرجة ان بعضها يستخدمها شعاع السمع بوضعها داخل الاذن .
تؤثر فيه الاهتزازات وتصدر عنها اصوات غير مقبولة في الاجهزة Microphonic Noises	لا تؤثر فيه الاهتزازات لدقة حجبها .

صورة (١) تبين صغر حجم الترانزستور بالنسبة لبعض الصمامات الالكترونية الشائعة الاستعمال

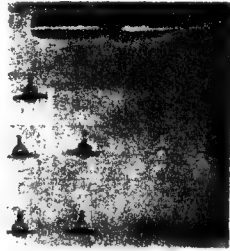
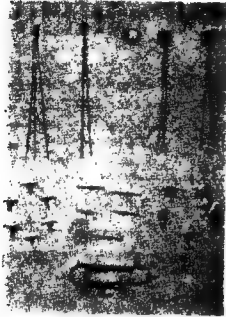


صورة رقم (٢) تبين صغر حجم المكونات Components التي تستخدم في دوائر الترانزستور بالنسبة لتلك التي تصحب الصمامات الالكترونية .



توضح الصورتان رقم (٢) ، (١) صغر حجم الترانزستور والمكونات التي تستخدم معه في

الدوائر الالكترونية بالمقارنة مع الصمامات الالكترونية ومكوناتها ، وهذا هو السر الذي يكمن وراء تطور صناعة الاجهزة الالكترونية بهذا الشكل المذهل في السنوات الاخيرة حتى اصبح جهاز الراديو بما يحمله من البطاريات من صغر الحجم بحيث يمكن وضعه في الجيب .



صورة رقم (٣)

صورة رقم (٤)

(توصعان مجموعة من اشياء الموصلات والترانزستورات الحديثة المتناهية في الصغر)

ولقد اطرذ التطور في صناعة اشياء الموصلات والترانزستورات المتناهية في الصغر وكذلك الاجهزة الالكترونية التي تستخدمها بحيث أصبحت فنا في التصنيع قائما بذاته Mi iaturigaton وصار في الامكان استحداث اجهزة خاصة لمختلف الأغراض العلمية والانسانية لم يكن في الحسبان الوصول الى صناعتها من قبل ، بل ان هذا الفن الجديد قد ادى الى تحسين اداء الاجهزة وخفض اسعارها بتقليل اسلاك التوصيل الداخلية ومراحل التصنيع فضلا على تقليل استهلاك الطاقة الكهربائية من البطاريات اللازمة للتشغيل .

هذه التطورات الكبيرة كان لها اثر كبير في انتشار اجهزة الراديو بالذات ، فقد ادى انخفاض اسعارها وصغر حجمها وقلة استهلاكها من البطاريات الجافة الصغيرة الى ان أصبحت في متناول ايدي ذوي الدخل المحدود من الناس أينما كانت محال اقامتهم .

وهكذا دخل جهاز الراديو الصغير خيمة الاعرابي في الصحراء وبيت الفلاح في الريف بل تنقل هذا الجهاز الى الغابات والادغال ووصل الى البقاع النائية في أقصى المعمورة حتى لقد أصبح يمد باللايين في أي دولة ، وكان من المثير ان أصبح الانسان في أي ركن من اركان الأرض يشارك بشعوره وجدانه عن طريق الاذاعات العالمية ، فيما يجري من احداث تقع على بعد آلاف الاميال ويسمع انباء ما يجري في البلاد الاخرى لحظة وقوعها ، أضف الى ذلك ما تسعى اليه كثير من الهيئات المستنيرة من نشر ثقافة بلادها وتروائها عن طريق الاذاعة وبلغات أهل البلاد التي توجه اليهم ، وقد كان لهذا كلفا بالغ في تقارب الثقافات بين الشعوب المختلفة

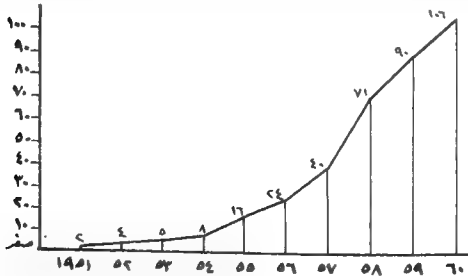
واخذ ابناء البشرية جميعا يقتريون من الناحية الفكرية من بعضهم البعض ، ويكونون ما يسمى بالترأى الصام العالي بالنسبة لعظم الأحداث الكبيرة التي تقع من حين الى حين في انحاء العالم .

وهناك مجالات أخرى لاستخدام الاذاعة الصوتية لم تزل في بدايتها وسوف تتضح آثارها البعيدة في المستقبل ، ومن اهم هذه المجالات على سبيل المثال تعليم القراءة والكتابة للسواد الأعظم من الشعوب النامية ، اذ ان هذه الطريقة تؤدي الى محو الامية في سنوات قليلة وينفقات زهيدة لا تذكر بجانب ما يتطلبه انشاء العدد الكبير من المدارس ، اخف الى ذلك نشر الثقافة العامة بين ذوى الدخل المحدود ممن لا تيسر لهم ظروفهم الاقتصادية أو المعيشية كثرة الاطلاع على الصحف والمجلات ومصادر المطبوعات .

ويمكننا ان نتصور مدى التقارب الفكرى الذى يحدث بين الشعوب اذا ما اختفت الامية وأصبحت الغالبية العظمى من بني الانسان على مستوى من الثقافة يؤهلهم لاستيعاب ما يجرى في العالم من أحداث والحكم عليها حكما منطقيا صحيحا .

٢ - التلفزيون

بدأت تجارب الارسال التلفزيوني في عدد من البلاد قبل الحرب العالمية الثانية وكان بعضها يستخدم في ذلك الوقت خليطا من الأجهزة الالكترونية والميكانيكية ، وقد اشرنت بعض هذه التجارب على الوصول الى نتائج تبشر بالنجاح ، الا انها ما لبثت ان توقفت جميعا عند نشوب الحرب ، وقد ساعد التقدم الكبير الذى احرزته علوم الالكترونيات تحت ضغط ظروف الحرب على انتاج اجهزة أكثر دقة وكفاءة مما أدى الى نجاح الارسال التلفزيوني في كثير من البلاد عندما استؤنف فيها بعد ان استتب السلام ، وقد انتشرت بعد ذلك الاذاعات التلفزيونية في كثير من الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية ، وزاد عدد أجهزة الاستقبال ونما نموا مطردا لاسيما ان معظم هذه الدول استطاعت صنع الأجهزة في مصانعها المحلية فضلا على ان حكوماتها قدمت كل معاونة ممكنة للابحاث والاختبارات التي يقوم بها علماءها كما يتضح لنا من الرسوم البيانية المرفقة في الصورتين رقم (٥) ، (٦) .



شكل (٥) يوضح الزيادة في العدد الإجمالي لملكات الارسال التلفزيونية في البلاد اعضاء الهيئة الدولية للاذاعة والتلفزيون

وكان من الطبيعي أن تنمو هذا النمو خطوة هامة هي ربط محطات الإرسال بشبكة من الكابلات الأرضية أو الموجات اللاسلكية المتناهية القصر بحيث يتسنى للمشاهدين رؤية البرامج التي تنبثق في البلاد الجاورة ، وقد انتظمت البلاد الأوروبية في شبكتين رئيسيتين أحدهما هي شبكة (Eurovision) التي تضم دول أوروبا الغربية والثانية هي شبكة (Intervention) التي تضم دول أوروبا الشرقية ، وما لبثت الشبكتان أن تبادلنا كثيراً من البرامج الإخبارية والثقافية والترفيهية على مدى الأعوام العشرة الأخيرة ، أما الولايات المتحدة الأمريكية فلها شبكتها الخاصة التي تغطي تلك البلاد الواسعة من أقصاها إلى أقصاها .

ثم جاء بعد ذلك دور الأقمار الصناعية في ربط هذه الشبكات التلفزيونية الرئيسية عبر المحطات والقارات في خلال السنوات القليلة الماضية - كما سيأتي ذكره فيما بعد - وهكذا أصبح في مقدور المشاهد من طريق هذه الوسائل الفنية الحديثة أن يرى وهو في منزله ما يجري من أحداث على بعد آلاف الأميال ، ولعلنا ما زلنا نذكر بعد ما قامت به محطة تلفزيون الكويت منذ شهور قليلة إذ نقلت لنا الأحداث التاريخية التي صاحبت رحلة الصاروخ أبولو ١٢ إلى سطح القمر وعودة الرواد بسلام من تلك الرحلة إلى المحيط الهادي .

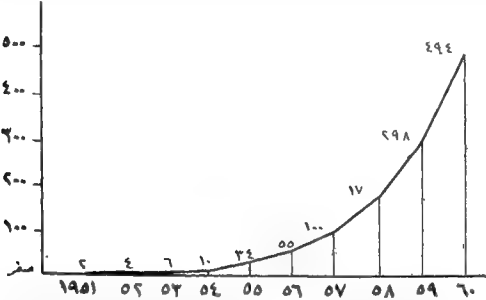
وهذا عرض موجز لمراحل التقدم في الإذاعة التلفزيونية في أوروبا وأمريكا ، أما بالنسبة لأفريقيا فيمكن القول إجمالاً بأن التلفزيون في هذه القارة يزال في بدايته ، فقد دخلت هذه الإذاعة إلى أفريقيا لأول مرة في عام ١٩٥٣ عندما انشأت إحدى الشركات الخاصة محطة في المملكة المغربية ، ثم تلتها بعد بضع سنوات كل من الجمهورية العربية المتحدة ونيجيريا وروديسيا الجنوبية وغيرها من الدول التي أخذت تدخل في هذا المضمار تباهاً ، إلا أن انتشار التلفزيون في بعض البلاد الأفريقية يعاني شيئاً من المصاعب ، وثاني على رأسها مسألة أعداد البرامج بسبب عدم رسوخ قدم الفن المسرحي أو الأفلام السينمائية ، مما أدى في كثير من الأحيان إلى أن تعتمد برامج التلفزيون على الأفلام المستوردة التي قد لا تروق لبناء البلاد ، كما أن النواحي المالية تشكل صعوبة أخرى نظراً لأن انخفاض مستوى الدخل في بعض البلاد الأفريقية لا ييسر لكثير من الأفراد شراء أجهزة الاستقبال المرتفعة الثمن ، أضف إلى ذلك عدم توفر الكهرباء في أماكن كثيرة من تلك البلاد .

أما بالنسبة للقارة الآسيوية - فيما عدا اليابان - فإن الحال لا يختلف كثيراً عن أفريقيا ، إلا أن التقدم السريع الذي طرأ على الخدمة التلفزيونية في اليابان قد دفع كثيراً من تلك الدول التي حصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية إلى الاهتمام بهذه الوسيلة الحديثة كمظهر من مظاهر التقدم وأحدى السمات الأساسية التي تركز عليها النهضة التعليمية والثقافية والترفيهية .

ويمكن القول إجمالاً بأن عدداً كبيراً من الدول النامية في آسيا تعاني من نفس المصاعب التي تواجه مثيلاتها في أفريقيا من حيث الافتقار إلى البرامج الجيدة والنواحي المالية وعدم توفر الكهرباء .

بعد هذا العرض التاريخي الموجز لانتشار التلفزيون في أنحاء العالم ، يهمني أن أعرف أثر هذا الاختراع الحديث على تقارب الثقافات بين الناس في مختلف الدول ، فمن الواضح أن الإذاعة التلفزيونية تعتمد في كثير من برامجها على الأفلام المستوردة والمنقولة على الشبكات الرئيسية من البلاد الأخرى سواء أكان ذلك بسبب الرغبة في التبادل الثقافي أم لعدم كفاية الإنتاج المحلي كما أسلفنا ، أضف إلى ذلك استخدام الأقمار الصناعية في نقل الأحداث الهامة صوتاً وصورة وقت وقوعها ، وإيا كانت الأسباب فقد أصبح في استطاعة الفرد العادي وهو جالس في عقر داره

ان يرى ويسمع ما يجرى في انحاء العالم من اخبار وتنايع تطورات الاحداث على الطبيعة ويطلع على عادات الناس في البلاد الاخرى وأساليبهم في الحياة وحكمهم على الاشياء والمواقف المختلفة من خلال الافلام الترفيهية والمسرحيات فضلا على مدى تقدمهم في فنون الموسيقى والرقص . . الخ ، وهكذا اخذ الانسان في هذا العصر يشارك مشاركة فعالة بشعوره وفكره ووجدانه فيما يجرى في عالمنا من احداث ، وزدادت الروابط الفكرية وتوثق بين مختلف الاجناس الى درجة كبيرة لم تكن لتصل اليها بدون هذا الاختراع الحديث ، والامثلة على ذلك كثيرة : فاذا وقعت كارثة من كوارث الطبيعة كالزلازل في بلد من البلاد شعرت به جميع بلاد العالم ، بل رأت مشاهدته المروعة بعد حدوثه بساعات قلائل ، فتبادر الشعوب المختلفة الى مديد المهونة الطبية والمادية الى المتكويين ، واذا شنت احدى الدول حربا عدوانية على دولة اخرى انتشرت اخبارها وصورها بسرعة البرق وظهرت على شاشات التلفزيون في انحاء العالم فتبادر الشعوب التي تأخذ جانب الحق الى تأييد الشعب المعتدى عليه ماديا وادبيا ، وقد ادى ذلك الى قيام رأي عام عالمي يحسب حسابه وتعمل الدول كبيرها وصغيرها على كسب تأييده بمختلف الزاواى المناسبة .



شكل (٦) يوضح الزيادة في عدد استوديوهات التلفزيون في البلاد اعضاء الهيئة الدولية للإعلام والتلفزيون

وهناك عاملان اساسيان سوف يكون لهما بالغ الاثر في زيادة تأثير التلفزيون في تعميق التيارات الفكرية والثقافية بين مختلف الشعوب :-

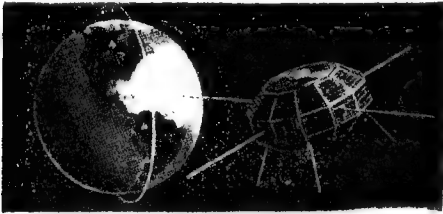
العامل الاول هو بدء استخدام اشباه الموصلات والترانزستور والدوائر الالكترونية المتناهية الصغر في صناعة اجهزة استقبال التلفزيون - شأنها في ذلك شأن اجهزة الراديو - مما يؤدي الى صغر حجم الجهاز وسهولة نقله من مكان الى مكان وامكان تشغيله بالبطارية دون الكهرباء ، وقد بدأت هذه الاجهزة تظهر في الأسواق الا انها ما زالت مرفعة الثمن ، فاذا امكن التغلب على هذه العقبة واصبحت في متناول ذوى الدخل المحدود فسوف تنتشر انتشارا سريعا لا سيما في المناطق التي لا يتوفر بها التيار الكهربائي في البلاد النامية في افريقيا وآسيا ، ولا يخفى ما لهذا الانتشار من آثار كبيرة على زيادة الروابط الفكرية والثقافية بين مختلف الشعوب .

اما العامل الثاني فهو استخدام التلفزيون كوسيلة تعليمية لمكافحة الامية ونشر الثقافة على نطاق واسع بين سواد الشعب ، ومما لا شك فيه ان هذا الأسلوب في التعليم له اثر اكبر كثيراً من استخدام الراديو لان مصاحبة الصورة للصوت لها اثر فعال في تسهيل مهمة المدرس وترسيخ مضمون الدرس في ذهن الطالب ، وان كان التلفزيون التعليمي لا يزال في بدايته الا اننا نتنبأ له باثار كبيرة في النواحي الفكرية عندما يؤدي رسالته في محو الامية ونشر المعارف بين اعداد كبيرة من الناس ، وقد بدأت بعض الدول - ومنها دول متقدمة مثل الولايات المتحدة - في تطبيق هذه الوسيلة الحديثة بان امدت عدداً كبيراً من المدارس والنوادي باجهزة استقبال تلفزيوني واعادت برامج تعليمية خاصة تداع في اوقات معينة ، وقد روعي في اعدادها ان تناسب المستوى الثقافي للغات المختلفة من المشاهدين .

٣ - الاتصالات اللاسلكية عبر الفضاء

بوساطة الأقمار الصناعية

عندما استطاع الانسان في السنوات القلائل الأخيرة ان يطلق اقماراً صناعية تدور في أفلاك حول الارض ، وان يتحكم بدقة في مدارها من حيث السرعة والاتجاه ، بدأ التفكير في استخدام هذه الوسيلة الجديدة في الأغراض السلمية ، ومن بينها الاتصالات اللاسلكية ، وبذلك برز على العالم فجر جديد ففرت فيه الاتصالات اللاسلكية ففرقهاالة الى الامام وتحقق حلم الانسانية بإنشاء شبكة موحدة تربط أرجاء الكرة الأرضية بعضها ببعض .



صورة (٧) توضح دوران قمرين صناعيين حول الأرض في مدارين متعامدين

كانت الاتصالات بين القارات تتم حتى عهد قريب ، اما بوساطة كابلات بحرية (Submarine Cables) تعبر المحيطات او باستخدام موجات لاسلكية ذات ذبذبات عالية (High Frequency Radio Communications) اما الوسيلة الاولى - وان كانت ذات كفاءة عالية - فهي باهظة التكاليف سواء من ناحية رأس المال او نفقات الصيانة والتشغيل ولذا اقتصرت استخدامها على الحالات التي تشدد فيها الحركة بين النهايتين ، واما الوسيلة الثانية فكفاءتها منخفضة ، اذ ان حيز الذبذبات (Frequency Band) الذي يمكن نقله بوساطتها محدود جداً عدا انها تخضع الى حد كبير للظروف الجوية والإشعاعات الفضائية كالبقع الشمسية وغيرها .

اما الأقمار الصناعية فلها ميزات فائقة في هذا المضمار : اولها ان القمر الصناعي يستطيع

ان « يرى » رؤية لاسلكية مباشرة - لا يحجبهاى عائق - مساحات شاسعة على الكرة الأرضية بحيث يستطيع الإنسان عن طريقه ان ينشئ اتصالات لاسلكية على مستوى عال جدا من الكفاءة بين جميع البلاد التي تقع في افقه ، الامر الذي لم يكن متيسرا بالوسائل التقليدية التي كانت معروفة من قبل ، ومن بين هذه الميزات ايضا ان التراسل (Transmission) بهذه الطريقة الحديثة يجرى على الموجات المتناهية القصر (Microwaves) مما يجعل الاستقبال واضحا غابة الازدحام ويسمح بنقل حيز كبير جدا من اللبذبات ولذلك يتسنى نقل البرامج التلفزيونية والاذاعات الصوتية والمئات من المكالمات التلفزيونية والبرقيات في وقت واحد ، الامر الذي كان في حكم المستحيل قبل استخدام الاقمار الصناعية .

ولعله من المناسب هنا أن نسرّد بعض المعلومات الطريفة عن هذه الوسيلة الحديثة قبل ان يتطرق بنا الحديث الى دراسة أكلها : -

كيف يوضع القمر الصناعي في مداره ؟

كان هذا الامر في بدايته على جانب كبير من الصعوبة الى ان استطاع العلماء اخيرا انتاج الصواريخ ذات الطاقة الهائلة والتحكم في مسارها بدقة ، والمعروف ان اي جسم قريب من سطح الارض يقع تحت تأثير قوة الجاذبية الأرضية (Gravity) وهذه القوة تتناسب تناسباً طردياً مع وزن الجسم وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة التي تقع بينه وبين مركز الكرة الأرضية ، وعلى ذلك فكلما بعد الجسم عن سطح الأرض قل وزنه وضعف تأثير الجاذبية الأرضية عليه ، ومن المعروف ايضا ان اي جسم يدور بسرعة كبيرة يقع تحت تأثير قوة أخرى تتناسب مع سرعته وتحاول أن تبعده من مركز الدوران ، وتسمى هذه بالقوة الطاردة المركزية Centrifugal Force .

وعلى هذا فلكي يدرك القمر الصناعي مداره يجب ان يدفع به الى طبقات الجو العليا ويبدأ دورانه حول الأرض بسرعة مناسبة تتساوى عندها القوتان المتعارضتان اللتان تؤثران عليه وهما قوة الجاذبية الأرضية والقوة الطاردة المركزية ، وكلما زاد ارتفاع القمر فوق سطح الأرض انخفضت السرعة اللازمة لحفظ هذا التوازن ، فالقمر الذي يرتفع الى ١٠٠ ميل مثلاً يجب أن يتم دورة واحدة كل ٨٧.٥ دقيقة ، في حين انه اذا ارتفع الى ٦٠٠ ميل يتم دورته كل ١٠٤ دقيقة ، أما اذا امكن رفع القمر الى ارتفاع شاهق يبلغ ٢٢٢٧٠ ميلاً فإن وقت الدورة الواحدة يصبح ٢٤ ساعة تقريباً أي نفس سرعة دوران الأرض ، وفي هذه الحالة يسمى بالقمر المتزامن (Synchronous Satellite) ومثل هذا القمر اذا اتجه شرقاً وكان مداره اسياً فوق خط الاستواء فانه يظهر (اذا امكن رؤيته) وكأنه ثابت في السماء بالنسبة للأرض .

الاقمار التي يمكن استخدامها في الاتصالات اللاسلكية وأنواعها :

يمكن تقسيم هذه الاقمار بوجه عام الى ثلاثة أنواع رئيسية هي : -

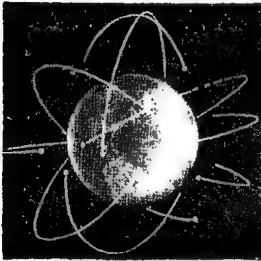
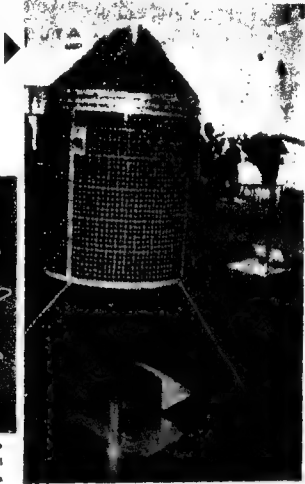
القمر غير العامل او العاكس :

ويمتاز في تركيبه بالبساطة اذا أنه يتخذ شكل بالون كبير مغلف بفلز معدني ولا يحتوي على اية اجهزة بداخله ، ويستخدم لمجرد انعكاس الاشارات اليه من الأرض فتصل بذلك الى مسافات بعيدة ، وقد اطلق أول قمر من هذا النوع في أغسطس عام ١٩٦٠ تحت اسم (Bbo I) على مدار يبعد ١٠٠٠ ميل عن الأرض ، وقد استخدم هذا القمر على مدى

سنوات في ارسال موجات اذاعية تحمل الصوت والموسيقى وحتى بعض البرامج التلفزيونية لمسافات شاسعة .

واهم عيوب هذا النوع من الاقمار هو القوة الهائلة التي يتطلبها جهاز الارسال الارضي لكي يتسنى استقبال اشارات واضحة عند جهاز الاستقبال .

صورة (٨) قمر صناعي عامل ويحتوى في داخله على
اجهزة الاستقبال والارسال وسطحه الخارجى مغطى
بالبطاريات الشمسية .



صورة (٩) بازم ٥٠ او اكثر من الالعامر المنخفضة
الارتفاع غير المترابطة لكي تحقق الاتصال بين اى نقطتين
على سطح الارض .

القمر العامل غير المترابن :

وفي هذه الحالة فان القمر يحتوى في داخله على جهاز واحد او اكثر من اجهزة الاستقبال والارسال تملها بالقوة اللازمة لتشغيلها مجموعة كبيرة من البطاريات الشمسية (Solar Batteries) تمتص اشعة الشمس وتحول طاقتها الى طاقة كهربائية (صورة ٨) ، ولتتقط جهاز الاستقبال في داخل القمر الاشارات التي ترسلها المحطة الارضية فيزيد من قوتها ثم يرسلها بالتالي الى محطة استقبال ارضية اخرى ، وبهذه الطريقة فان الامر لا يستلزم ارسال اشارات بالقوة من الارض ، وهذا ما يؤدى الى خفض تكاليف المحطات الارضية ، وبطبيعة الحال فان الاجهزة التي تستخدم داخل القمر يجب ان تكون على درجة عالية جداً من الجودة والكفاءة ، اذ ان المطلوب منها ان تعمل بانتظام وبدون اية صيانة لعدة سنوات .

أما كون هذا النوع من الأقمار غير متزامن فلأنه يطلق على مدار منخفض نسبياً - وبسرعة مدارية عالية - بغية الاقتصاد في نفقات الصواريخ، إلا أن القمر الواحد في هذه الحالة لا يبدو ظاهراً بالنسبة لمحطتين أرضيتين في وقت واحد إلا لفترة قليلة من الوقت ثم يختفي وراء الأفق ولا يظهر ثانية إلا بعد فترة طويلة أخرى ، ولذلك فإن استخدام هذا النوع من الأقمار عن طريق عدة أزواج من المحطات في نفس البقعة من العالم لا يتأني إلا بزيادة عدد الأقمار المرئية في وقت واحد (صورة ٩) ، وهذا قد يكون سبباً في عدم ملائمة هذه الوسيلة من النواحي الاقتصادية ، إلا أنها قد تستخدم في أغراض أخرى كالإرصاد الجوية والبحوث العلمية والفلكية .

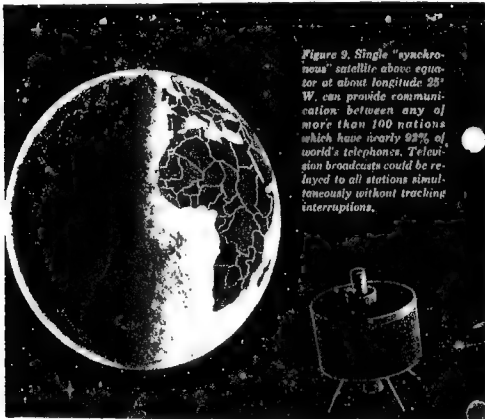


Figure 9. Single "synchronous" satellite above equator at about longitude 25° W. can provide communication between any of more than 100 nations which have nearly 95% of world's telephones. Television broadcasts could be relayed to all stations simultaneously without tracking interruptions.

صورة (٩) : قمر صناعي متزامن يقع فوق خط الاستواء عند خط الطول ٢٥ غرباً يستطيع أن يخدم ١٠٠ دولة بها ٩٥% من التلوكولات العالم وينقل الاتصالات الصوتية والتلفزيونية إليها بلا انقطاع

القمر العامل المتزامن :

وهو لا يخرج في تركيبه من النوع السابق بوجه عام مع اختلاف في أجهزة الضبط والتحكم ، ونظراً للارتفاع الهائل الذي يجب أن يبلغه هذا النوع قبل أن ينتظم في مداره فإن الصواريخ الحامل له تزيد تكاليفه بدرجة كبيرة ، ويقابل هذا خفض كبير في تكاليف المحطات الأرضية لأن القمر ثابت في موضعه بالنسبة لها في السماء ، أضف إلى ذلك أن مدى هذا القمر كبير جداً للدرجة أن ثلاثة أقمار فقط من هذا النوع تكفي لإيجاد اتصال مباشر عبر الفضاء بين جميع أنحاء المعمورة (انظر

الصورتين (١٠ ، ١١) ، ويمكن عن طريق هذا الاتصال نقل الاذاعات الصوتية والتلفزيونية ومئات من المكالمات التلفونية والبرقيات في نفس الوقت كما سبق ذكره .

لهذه الأسباب فان هذا النوع من الاقمار هو الذى يستخدم الآن في الاتصالات اللاسلكية عبر الفضاء .



صورة (١١) : ثلاثة امار صناعية متزامنة تستطيع ان تغطي بلاد العالم كافة بمواصلات الفضاء .

وقد تبنت الدول الى خطورة هذه الوسيلة الجديدة من وسائل الاتصال ، فعرض الأمر على هيئة الأمم المتحدة التي اتخذت بدورها قراراً يقضى بأن تكون مواصلات الفضاء متاحة لجميع الدول لاستخدامها على مستوى عالمي دون تمييز بين دولة وأخرى ، ومعنى هذا القرار انه لا يسمح لأية دولة باحتكار هذه الوسيلة حتى ولو كانت هي التي تطلق الاقمار الصناعية .

كما يادر الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية الى عقد أول مؤتمر دولي للمواصلات اللاسلكية عبر الفضاء في جنيف بسويسرا خلال شهر نوفمبر عام ١٩٦٣ ، وقد اتخذ هذا المؤتمر عدة قرارات هامة منها ما يتعلق بتخصيص مجالات جديدة من الترددات للاذاعات الصوتية والتلفزيونية والمكالمات التلفونية والبرقيات ، فضلاً على مجالات أخرى لإبحاث الفضاء وعلم الفلك اللاسلكي والارصاد الجوية وغيرها من النواحي العلمية ، ومن هذه القرارات ما يتعلق باستحداث خدمات جديدة لسفن الفضاء في حالات الاستغاثة والطوارئ وما إليها .

بعد هذه الدراسة الموجزة يجدر بنا أن نلقى نظرة على الآثار الخطيرة التي تترتب على استخدام هذه الوسيلة الحديثة في ربط بلاد العالم بعضها ببعض من النواحي الثقافية ، علماً بأننا ما زلنا في هذا المجال بعد في بداية الطريق ، ويمكننا ان نتصور ما سيكون الحال عليه بعد عشر سنوات مثلاً : حين يجلس المرء في داره فيرى على شاشة التلفزيون ما يجري من أحداث في أقصى الأرض لحظة

وقومها ، أو يستمع في الراديو الى اذاعات واضحة لا تشويش فيها تأليه ليلا ونهاراً من جميع اتجاه العالم ، أو يدبر قرص تلفونه فيتصل في ثوانٍ بمددوات باقربه وأصدقائه في القارات الأخرى . . لا ريب أن هذه الصورة التي ينتظر أن تتحقق في المستقبل القريب تحوى أبعاداً من التقارب الثقافي والتآلف الفكرى سوف يكون لها أعمق الآثار على الأجيال القادمة من البشر ، ومما لا شك فيه أنها سوف تؤدي الى أن يكون الناس أعمق فهماً لمشاكل بعضهم البعض وأكثر استعداداً لتقبل وجهات النظر المختلفة أو تفهماً على الأقل .

٤ - الآثار غير المباشرة لبعض المخترعات الإلكترونية

سوف نتناول هنا الآثار غير المباشرة التي تترتب على استخدام الإلكترونيات في استحداث أو تطوير بعض الأجهزة والتنظيمات . Systems التي تلعب دوراً هاماً في تسهيل الاتصال الفكرى والثقافى بين أرجاء العالم ، على أننا سوف نقتصر على الإشارة في إيجاز الى بعض هذه المخترعات وذلك على سبيل المثال لا الحصر :-

أجهزة تسجيل الصوت :

ظلت أجهزة التسجيل سائرة في نفس الطريق الذي بدأه توماس ادیسون المخترع الأمريكى حين توصل في مطلع هذا القرن الى تسجيل الصوت على أسطوانات ثم على أقراص من الشمع ، وأخلت هذه الأجهزة بعد ذلك بتطور يبطء الى أن اكتشف الصمام الإلكتروني وإمكاناته الكبيرة ، وحينئذٍ قفزت الأنواع المستخدمة فيها قفزة واسعة الى الأمام : منها ما يسجل الصوت على أقراص من البلاستيك زهيدة الثمن ، ومنها ما يستخدم الأشرطة المغناطيسية التي تستوعب الساعات الطوال من الأحاديث والموسيقى والغاني ، أضف الى هذا صغر حجم الأجهزة نفسها وقلة النفقات اللازمة لتشغيلها وسهولة حملها من مكان الى مكان .

كل هذه التحسينات أدت الى اتساع مجالات استخدام هذا النوع من الأجهزة ، ولعل أهم هذه المجالات في نظرى هو تعليم اللغات الحية بطرق حديثة سهلة ، وعلى أسس فنية جديدة ، فقد أصبح في متناول الفرد أن يقتني جهاز تسجيل ومعه مجموعة كاملة من الدروس اللازمة لتعلم أي لغة مسجلة على « أسطوانات » كما أن الجامعات ومعاهد العلم أخذت تستخدم هذه الوسيلة الحديثة على شكل « مختبرات . . لغات » حيث يستطيع الطالب وهو جالس في مكانه أن ينعص الى مختلف التسجيلات اللغوية مما يساعد الأستاذ مساعدة كبيرة في أداء مهمته ، ويمكننا أن نتصور مدى مساهمة الإلكترونيات - حتى في هذا المجال المحدود - في نشر الثقافات وتقارب الأفكار ، إذ أن انتشار اللغات يؤدي الى تيسير سبل التفاهم بين مختلف الأجناس .

أجهزة الملاحة البحرية والجوية :

انتشر استخدام الإلكترونيات في السنوات الأخيرة انتشاراً كبيراً في الأجهزة الخاصة بتيسير الملاحة البحرية والجوية ، وأصبحت هذه الأجهزة تعتمد اعتماداً كلياً على الدوائر الإلكترونية الحديثة في هداية السفن في أعالي البحار والطائرات ذات المدى البعيد ، وتحديد أماكنها بدقة على الخريطة في أية لحظة على مدار الأربع وعشرين ساعة ، بل أن هناك من الأجهزة ما يستخدم حالياً في المطارات الدولية لأرشاد الطائرات ومنع تصادمها عند النزول في أسوأ الظروف الجوية ، بل أنها تستطيع انزال الطائرات تلقائياً دون تدخل من الطيار نفسه عند الحاجة

الى ذلك ، ولعل ابلغ دليل على ما وصل اليه التقدم في هذا المجال ما لمسناه اخيراً في رحلات ابولو الأمريكية الى القمر وكيف استطاعت الأجهزة الإلكترونية ان تحدد في دقة متناهية مكان هبوط الكبسولات التي تحمل رجال الفضاء في المحيط الهادئ ، ووقت هذا الهبوط بالضبط مما سهل عمليات انتشالهم وانتشال الكبسولات بما تحمل من معلومات لا تقدر بثمن .

ولننظر الآن فيما يترتب على ذلك من آثار بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده : فمما لا شك فيه ان تأمين سلامة المسافرين والبضائع بالبواخر والطائرات قد أدى الى تقريب المسافات البعيدة بين أنحاء العالم واصبح الانتقال من مكان الى مكان مهما بعدت الشقة في تناول عدد كبير من الناس باجر معقول وفي ساعات قلائل ، مع توفر وسائل الأمان بدرجة لم يعرفها الانسان من قبل في تاريخه الطويل على وجه الأرض ، وكما سبق ان اسلفنا فان اختلاط الناس بعضهم ببعض يزيل الحواجز بينهم ويمتق التيارات الفكرية التي تربطهم .

أجهزة التنبؤات الجوية :

أخلت هذه الأجهزة في السنوات الأخيرة اعتماداً كلياً على الإلكترونيات ، واصبحت محطات الارصاد الجوية المنتشرة على وجه الكرة الأرضية - بل وفي سعاتها داخل الاقمار الصناعية - تستقي بياناتها ونشراتها وقياساتها عن طريق الدوائر الإلكترونية العديدة المركبة بها ، وقد أدى هذا الى تقدم ملموس في صحة التنبؤات الجوية ومقاربتها للواقع .

اما الدور الذي تلعبه هذه النشرات في حياتنا اليومية فهو مهم وأساسي لا سيما بالنسبة لتأمين الملاحة البحرية والجوية وكفاءة الاتصالات اللاسلكية وغير ذلك من أوجه النشاط ، وهنا يتضح الدور غير المباشر الذي تلعبه الإلكترونيات في حياتنا الفكرية والثقافية .

العقول الالكترونية

عَمَلُهَا واستعمالاتها وأشارها

١ - عصر آلات التفكير

يحتاج الإنسان في كفاحه من أجل الحياة والسيطرة على الطبيعة إلى استخدام حواسه ، وذهنه ، وعضلاته . فحواسه تكشف له الدنيا حوله ، وذهنه يرشده إلى ما يجب أن يفعل تجاه البيئة التي يعيش فيها ، وعضلاته هي وسيلته المادية في تنفيذ ما يرشده إليه ذهنه .

ولما كانت قوى عضلات الإنسان محدودة فقد قدح ذهنه لتسخير قوى الطبيعة في خدمته ، وكان نجاحه في ذلك هائلاً ، فقد اخترع الآلة البخارية ، ومواد الكهرباء ، والمحرك الكهربى ، وآلة الاحتراق الداخلى ، وبهذا أضاف إلى قوى عضلاته قوى أخرى تبرزها مرات ومرات وتؤدي له خدمات من ثلاث درجات : فهي تساعد في إنجاز أعمال كانت تثقل كاهله ، وتؤدي له أعمالاً أخرى من نوع هذه الأعمال ولكنها تزيد عليها عشرات المرات ، كما تقوم له بأعمال من أنواع جديدة ما كان يستطيع القيام بها بدون هذه الآلات .

كذلك كان مدى رؤية الإنسان وسمعه محدوداً ، على أنه بقدر ذهنه أمكنه اختراع التلسكوب ، والميكروسكوب ، وآلة التصوير ، والسينما ، والتليفون ، والتغراف ، والراديو ، والتليفزيون . وبذلك اتسعت أمامه الأفاق وأبصر دقائق الأشياء ، ورأى وسمع ما يحدث في أجزاء الأرض الأخرى وهو بعيد عنها آلاف الأميال .

ولقد اخترع الإنسان كل الآلات السابق ذكرها دون أن يجد ذهنه من المساعدات سوى

(*) الدكتور صلاح الدين طلبة . استاذ الإحصاء بجامعة الكويت ورئيس قسم الإحصاء والتأمين بكلية التجارة بجامعة الإسكندرية . له بحوث منشورة في المجلات العلمية العربية والأوروبية في الرياضيات والإحصاءات الحيوية والتأمين . من مؤلفاته : مقدمة الطرق الإحصائية (دار المعارف - الإسكندرية) .

تلك التي قدمت لها الآلات الحاسبة التقليدية الهزيلة، وعدد من الجداول الرياضية المهيئة بالأخطاء وبعض المعلومات التي سجلها بنو جنسه في الكتب والمجلات. على أنه كلما ازداد تقدمه في تسخير قوى الطبيعة استجدت له احتياجات حسابية ورياضية جبرارة ولم تمد الآلات الحاسبة التقليدية والجداول الرياضية القديمة كافية لتلبية هذه الاحتياجات، كذلك تراكمت الكتب والمجلات وأصبح البحث فيها عن المعلومات من أشق الأمور .

وهكذا أزم الإنسان أن يبحث عن وسائل من نوع جديد تساعد ذهنه في حل المشاكل الرياضية المويصة ، وتقوم له بالأعمال الحسابية الروتينية المتراكمة ، وتخزن له المعلومات وتمده بها منقحة عند الطلب بأقل جهد وبدون انتظار .

ولقد أوشك الإنسان في القرن الماضي على النجاح جزئياً في هذا السبيل عندما اهتدى عالم الرياضيات الإنجليزي تشارلز بابيدج (1) إلى المبادئ الأساسية اللازمة لتصميم الآلات المساعدة للذهن في حل المشاكل الرياضية ، وفي أداء الأعمال الحسابية . على أن التكنولوجيا في عصره لم تسمح له في تمام صنع آلة صممها لذلك وسماها « الآلة التحليلية » ، ونامت أفكار بابيدج قرناً من الزمان .

وأخيراً - ومنذ ربع قرن فقط - وتحت ضغط الاحتياجات الحربية - جاءت النجدة لمساعدة الأذهان الناس في شكل آلات يحب البعثران بسميها « المقبول الإلكترونية » ، ويفضل العلماء أن يطلقوا عليها اسماً أكثر دقة مثل « الآلات الحاسبة الإلكترونية » - أو شيئاً من هذا القبيل . ولم يكن نجاح الإنسان جزئياً في هذه المرة ، وإنما كان كلياً وفوق كل ما كان يسعى إليه أو يتوقعه ، فقد صنع آلات من نوع جديد تماماً تحل أصعب المسائل الرياضية ، وتؤدي الملايين من الأعمال الحسابية الروتينية في ثوان معدودة . كما أنه في الاستطاعة توسيع « ذاكرتها » لتسع أي قدر من المعلومات بعد تنقيحها ، ثم تعطيها في الحال عند الطلب .

وهي تفعل كل ذلك بدون أن تتعب، وبدون أن تمل ، وبدون أن تخطئ .

ولقد كان من باكورة إنجازات هذه الآلات عمل الجداول اللازمة لإطلاق المدافع ، وحل العديد من المسائل الرياضية اللازمة لتصميم وصنع كل من المفار النوى ، والقنبلة الذرية ، والطائرات النفاثة ، والصواريخ الجبرارة ، والقنبلة الهيدروجينية . ولم تكن الآلات الأولى تستخدم للأغراض التجارية لكثرة تكاليفها ، وكبر حجمها ، وعدم توفر المتخصصين في مجال استعمالها وتشغيلها .. على أن التقدم التكنولوجي السريع جعل في الإمكان صنع أنواع جديدة من هذه الآلات بتكاليف أقل وحجم أصغر مع كفاءة أكبر ، سواء من حيث سرعة الأداء أو سعة الذاكرة ، كما أن الناس تعلموا كيف يستعملون هذه الآلات ، وبذلك نزلت الآلات الحاسبة الإلكترونية إلى الأسواق بال عشرات ، ثم بالمئات ، ثم بالآلاف ، وأصبحت صناعتها واحدة من أكبر الصناعات ، وفي أقل من ربع قرن أصبحت نجد هذه الآلات في خدمة العلم، والطب ، والهندسة ، والصناعة ، والتجارة والاقتصاد وغيرها .

ولكن ما هي الخدمات التي تؤديها الآلات الحاسبة الإلكترونية في هذه المجالات ؟ أنها تساعد ذهن الإنسان في حل المشاكل الرياضية والعلمية ، وفي تذكر المعلومات ، وفي تشخيص الأمراض ، وفي تصميم مختلف الأنواع من الآلات ، وفي الإدارة الآلية للمصانع ، وفي استخدام الموارد المحدودة

بأكبر فائدة ، وفي الأعمال الاحصائية بإدارات الحكومة، والأعمال المحاسبية بالمصارف والشركات : بالإضافة الى كثير غير ذلك . .

ولكى يتبين الى أى حد تساعد هذه الآلات ذهن الإنسان في المجالات المختلفة يكفى ان نقول بان الآلة الواحدة الكبيرة منها تستطيع ان تحل في دقائق من المسائل الرياضية أكثر مما يستطيع مائة من الرياضيين في عام كامل ، وأن تؤدي في يوم واحد من الأعمال الحسابية ما يشغل ملايين الكتبة في أسبوع ، وأن تحفظ في ذاكرتها ما يملأ مئات المجلدات . وعما قريب سيأتي اليوم الذي نسمع فيه ذاكرة بعض الآلات ما يوجد بمكتبة عامة كاملة .

ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بالمدى الذي ستصل اليه نتائج اختراع هذه الآلات الجديدة التي يقابل دورها في مساعدة الذهن ذلك الدور الذي تقوم به الآلات التقليدية في مساعدة العضلات . فالآلات الحاسبة الالكترونية تؤدي للذهن خدمات من ثلاث درجات : فهي تساعده في إنجاز أعمال كانت ترهقه ، وتؤدي له أعمالاً أخرى من نوع هذه الأعمال ولكنها يمكن أن تزيد عليها آلاف المرات ، وتقوم له بأعمال من أنواع جديدة ما كان يستطيع القيام بها بدون هذه الآلات .

ولئن جاء اختراع الآلة البخارية إعلاناً للثورة الصناعية فما هو الإعلان الذي جاء به اختراع الآلات الحاسبة الالكترونية ؟ ان الناس يحبون أن يقيسوا التفردات بمقدار نتائجها المادية ، ولذلك يقول البعض منهم ان اختراع هذه الآلات جاء إعلاناً لثورة صناعية ثانية . على أننا نكون أكثر دقة لو قلنا ان ما جاءت به هذه الآلات هو « ثورة ذهنية » سيكون لها من الآثار ما لا يقاس به اثر اختراع الآلة البخارية . اليس من أول آثار الآلات الجديدة ان دخل الإنسان عصر الفضاء ؟ وهل كان يمكن بدون هذه الآلات إطلاق الصواريخ في الاتجاه الصحيح ، ثم تتبع مساراتها ، وتوجيهها في ذهابها الى القمر ، وعودتها منه ؟

ولا تقتصر آثار الآلات الحاسبة الالكترونية على مواقع منزلة (مثل الصواريخ عابرة الفضاء ، او البحوث النووية) وإنما تمتد آثارها الى ميادين واسعة ، فقد نتج عن وجودها ظهور علوم وطرق جديدة تغطي مجالات الإدارة ، والصناعة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والحرب . ومن هذه العلوم والطرق الجديدة : « البرامج الخطية » (1) ، و « المحاكاة » (2) و « تقويم المشروعات » (3) ، وغيرها مما سنتكلم عنه فيما بعد . ولأشك أنه سيترتب على اختراع الآلات الجديدة ظهور علوم وطرق أخرى لم يعلم بها الإنسان ، ولعله من أخطر الآثار التي تترتب على اختراع الآلات الحاسبة الالكترونية ان الإدارة الآلية او « الأوتوميشن » (4) في الصناعة أصبحت أمراً ممكناً . . ولقد ظهرت بداية ذلك في صناعات تكرير البترول وبعض الصناعات الكيماوية والكهربية ، وهكذا ستدير « العقول » الالكترونية المصانع ، وتشرف على الآلات الأخرى ، وتقضي شيئاً فشيئاً على احتياجات الصناعات القائمة للأيدي البشرية . ولابد ان مجرد ظهور هذه الفكرة يقض مضاجع علماء الاجتماع والاقتصاد ، ورجال السياسة . فهل ستؤدي « الأوتوميشن » في الصناعات الى ان تتم البطالة - بما يترتب على ذلك من آثار اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة ، ام سننشأ من ذلك صناعات جديدة تحتاج الى عمال جدد (مليونين في هذه المرة بدرجات متفاوتة) فيكون الأمر في صالح العمال والناس جميعاً في النهاية ؟

ولو أمعنا الفكر في هذا السؤال فربما وجدنا ان الأرجح الا تتم البطالة في المجتمعات

المتقدمة ، فمستشفاً فيها دائماً صناعات وأعمال جديدة . وإنما الويل كل الويل للمجتمعات التي ستبقى في المؤخرة العلمية والتكنولوجية .

ولعله جاء الوقت الآن لكي نصف الآلات الحاسبة الجديدة ونصفها ، على أنه قبل أن نعمل ذلك نصب أن نتفق على أن نعطي هذه الآلات اسمها العلمي المتفق عليه وهو الـ « كمبيوتر » (٦) .

والكمبيوتر كلمة معناها في اللغة الانجليزية « الحاسب » على شريطة أن يستلزم الحاسب تفكيراً وخطوات . والكلمة مشتقة من لفظ لاتيني (٧) معناه « يفكر » . على أن الاستعمال الفني للفظ « كمبيوتر » أصبح الآن مقصوداً على آلات معينة تتمشى صفاتها مع التعريف التالي :

« الكمبيوتر آلة تلقى أوامر وبيانات ثم تتصرف لتقوم بأعمال « حسابية » تتألف من خطوات * . وتتم عملها كله في تلبية الأوامر بدون تدخل الإنسان . وعندما تصل إلى النتيجة المطلوبة تعطي هذه النتيجة أو تبدأ عملاً مبنياً عليها » .

لملل القارئ لاحظ أننا لم نعط للكمبيوتر في هذا التعريف صفته « الالكترونية » المشهور بها . لقد فعلنا ذلك عمداً لأنه يمكن صنع كمبيوتر لا يستعين بالوسائل الالكترونية ، فالإلكترونيات دقائق صغيرة تسبح في مسالك لها ، ومن الممكن تصميم جهاز تقوم فيه جزيئات الهواء أو الماء بنفس الدور الذي تقوم به الإلكترونيات في الكمبيوتر الالكتروني . كما أنه من الممكن تصميم كمبيوتر لا يستخدم فيه سوى الوسائل الميكانيكية مثل الروافع والمجلات المسننة « التروس » . ولقد صمم تشارلز بابيدج أول كمبيوتر على هذا الأساس فعلاً (وكان ذلك كما سبق أن ذكرنا قبل أكثر من مائة سنة من أتمام صنع أول كمبيوتر عرفه الناس) .

على أن الفارق الأساسي بين الكمبيوتر الالكتروني والكمبيوتر غير الالكتروني هو أن الأول يقوم بعملياته بسرعة مذهلة بترآف المرات سرعة أي كمبيوتر غير الكتروني .

وم سواء كان الكمبيوتر الكترونياً أو غير الكتروني فإنه لا يزيد عن كونه آلة من اختراع الإنسان ، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً من نفسه ، ومن التجاوز أن نسميه « عقلاً » . . على أن هذا لم يمنع بعض العلماء من التفكير في اختراع آلات « ذكية » تستجيب للمؤثرات بطريقة التجربة والخطأ ، ولن نناقش هنا إمكان وجود مثل هذه الآلات . وعلى كل حال فليس الكمبيوتر من الآلات التي يمكن وضعها تحت قائمة « الآلات الذكية » حسب التعريف السابق .

على أن هذا يجب ألا يجعلنا نحط من قدر الكمبيوتر ، والواقع أن له من القدرات ما يجعله قادراً على « اتخاذ القرارات » في مواقف معينة (على أساس قواعد تلقى له) إذا كانت « الأوامر » الصادرة إليه من الإنسان تتطلب منه ذلك وكان تصميمه مبنياً على أساس الاستجابة لهذه الأوامر . وهناك كمبيوترات يمكنها أن (تلعب) الشطرنج وتتخذ بعد كل حركة من الخصم قراراً يتوقف على الوضع القائم وقتئذ .

وهذا ينقلنا إلى الكلام عن أنواع الكمبيوتر والتصنيفات المختلفة التي يمكن إيجادها بين هذه الأنواع .

(6) computer (7) computare

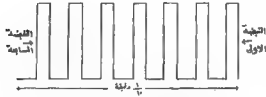
(*) تتم الخطوات واحدة بعد أخرى في الكمبيوتر الرقمي بخلاف الكمبيوتر التناظري الذي تتم فيه « الخطوات » معاً في وقت واحد (سيأتي وصف أنواع الكمبيوتر فيما بعد) .

٢ - أنواع الكمبيوتر

تستخدم الكهربية في أنواع الكمبيوتر الحديثة المختلفة ، وسيكون من الملائم أن نراجع بعض المعلومات الكهربية الأولية التي تلزمنا للتمييز بين النوعين الرئيسيين من الكمبيوترات .

النبضات الكهربية (٨) :

لعله من المفيد أن نراجع أولا معلوماتنا عن نبضات القلب التي نعرفها جيدا . . من المعلوم أن نبضات القلب تحدث بمعدل ٧٠ نبضة في الدقيقة (في المتوسط) ، ولسنا نقصد بالنبضة ذلك الصوت الذي نسمعه من القلب ، وإنما نقصد بها ذلك الاندفاع في الدم . أو الضغط ، الناشئ عن انقباض القلب . وهنا يجدر بنا أن نذكر أن هذا الانقباض يتبعه ارتخاء ، وإذا قسمنا الدقيقة إلى ٧٠ فترة متساوية فاننا نجد أنه إذا شرع القلب في النبض في بداية الفترة الأولى فإن النبضة تستغرق جزءا من هذه الفترة ، يليها ارتخاء القلب في باقى الفترة ، ثم تبدأ نبضة أخرى في بداية الفترة الثانية ، وهكذا .



شكل (١) يمثل ٧ نبضات قلب يتبقي بمعدل ٧٠ نبضة في الدقيقة .

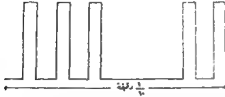
ويمثل شكل (١) سبع نبضات قلب يتبقي بمعدل ٧٠ نبضة في الدقيقة ، والخط الرأسى الأيمن يبدأ من أسفل متجهاً إلى أعلى ممثلاً ضغط الدم يزداد فجأة (في بداية الفترة الأولى) إلى ارتفاع معين . ويتلو ذلك خط أفقى ممثلاً أن ضغط الدم يبقى مرتفعاً أثناء النبضة . أما الخط الرأسى الثانى فيبدأ من أعلى متجهاً إلى أسفل ممثلاً أن الضغط ينخفض فجأة عند نهاية انقباض القلب وبداية ارتخاءه ، ويتبع ذلك خط أفقى ممثلاً أن الضغط يبقى منخفضاً طوال بقية الفترة الأولى . وهكذا بالنسبة إلى باقى النبضات .

ومن الواضح أن هذا تبسيط شديد في تمثيل التغيرات التي تحدث لضغط الدم نتيجة حدوث حركة القلب ، فالواقع أن ضغط الدم لا يرتفع فجأة (عند بداية الانقباض) بالطريقة الظاهرة في الشكل ، ولا بد أن اتسام الارتفاع يستغرق وقتاً ، مهما كان هذا الوقت ضئيلاً . على أن كل ما يهمنا هو أن نعتبر أن القلب يرسل « اشارات » متتابة في شكل نبضات ، وربما كانت الضغوط غير متساوية في هذه الإشارات ، ولكن هذا لا يهمنا ، فلا إشارات تحدث بصرف النظر عن مقدار الضغوط فيها ، ومن تساوى هذه الضغوط أو اختلافها فيما بينها .

والآن دعنا نقارن بين نبض القلب وعمل موظف التلفراف الذى يطلس إلى آلة الإرسال . يمكننا أن نطلب منه أن يقلد عمل القلب ويرسل « اشارات » في فترات زمنية متساوية في شكل « نبضات كهربية » . ولو كانت سرعة إرساله هي ٧٠ نبضة في الدقيقة فمن الممكن أن نمثل النبضات الكهربية التي يرسلها في ١/١٠ دقيقة بنفس الرسم الموجود في شكل (١) .

ولنفرض أن هذا الموظف قسم الدقيقة إلى ٧٠ فترة متساوية كما طلبنا ولكنه بعد إرسال

الاشارتين الاولى والثانية لم يرسل الثالثة والرابعة تم ارسال الاشارات الثلاث التالية في مواعيدها . عندئذ يمكننا أن نمثل الاشارات (النبضات) التي ارسلها كما في شكل (٢) .



شكل (٢) يمثل حدوث نبضتين ثم غياب نبضتين ،
ثم حدوث ثلاث نبضات (في $\frac{1}{4}$ دقيقة) .

على أن هناك من الأجهزة الكهربائية ما يمكنه إرسال مئات الآلاف من النبضات في الثانية ، ومن الممكن أن نجعل جهازاً من هذه الأجهزة يرسل نبضات في الفترات التي نعينها له ، وأن يتوقف عن الإرسال فيما بين هذه الفترات .

وقد يكون زمن النبضة $\frac{1}{4}$ ميكرو ثانية أو أقل (تحتوي الثانية على مليون ميكروثانية) ، مع وجود فاصل بين نبضتين متتاليتين قد يمد ميكرو ثانية واحدة أو اثنتان .

((الضغط الكهربى)) :

عندما تقترب من محطة لتوليد الكهرباء قد نرى لافتة عليها العبارة « خطر . ضغط كهربى عال » . وربما ذكر تحت هذا التحذير العبارة « ٥٠٠ فولت » مثلاً . ولا بأس من استعمال لفظ « ضغط كهربى » في دراستنا ، وإن كان من الأفضل استخدام كلمة أخرى هي « الفولتية » (أو فرق الجهد) . والضغط الكهربى لا تصل في منازلنا إلى هذا القدر الخفيف ، فآجهزتنا مجهزة لتحمل ٢٢٠ فولتاً أو ١١٠ فولتات أو شيئاً من هذا القبيل . أما في السيارة فإن الضغط الكهربى يكون دون ذلك بكثير ، فالبطارية الموجودة في السيارة تكون قوتها الدافعة الكهربى ٦ فولتات أو ١٢ فولتاً ، ذلك لأننا لا نحتاج إلا إلى مقدار ضئيل من الكهرباء في سياراتنا . والضغط الكهربى هو ما يعمل على دفع الكهربى في الأسلاك والأجهزة . وكلما زاد هذا الضغط زادت « شدة » التيار الكهربى .

ثلاثة أنواع من الكمبيوتر :

تقوم الأعمال الحسابية إما على أساس العد ، وإما على أساس القياس . وغالباً ما يبنى القياس على فكرة التناظر . فالإنسان مثلاً يقيس درجة الحرارة بتحديد ارتفاع سطح الزئبق في الترمومتر ، وكل ارتفاع لهذا السطح « يناظر » درجة حرارة معينة . وكذلك تقاس سرعة السيارة باستعمال جهاز معين ذى مؤشر ، وكل وضع لهذا المؤشر يناظر سرعة معينة لدوران عجلات السيارة . وهكذا .

وهناك ثلاثة أنواع من الكمبيوترات هي :

- ١ - الكمبيوترات التناظرية (٩) التى تعمل على أساس القياس .
- ٢ - الكمبيوترات الرقمية (١٠) التى تعمل على أساس العد .
- ٣ - الكمبيوترات الهجينة (١١) وهى تجمع بين القياس والعد .

الكمبيوتر التناظري :

يتقلى هذا الكمبيوتر البيانات في شكل ضغوط كهربية تسمى « اشارات » وتعالج كل « البيانات » في وقت واحد (أى أنها لا تعالج واحدة بعد أخرى كما هو الحال في الكمبيوتر الرقمى) . وتتحدد القيم العددية لهذه الاشارات بمستوى الضغط فيها. ويقوم الكمبيوتر التناظري بعمليات الجمع ، والضرب ، والقسمة ، ووظائف رياضية أخرى (كالتكامل المحدود) .

ومن غير الممكن أن تصل دقة القياس الى درجة دقة العد . ولذلك نجد أن درجة الدقة تقل في الكمبيوترات التناظرية عنها في الرقمية . على أنه يمكن بتحسين التصميم وتطوير التكنولوجيا صنع كمبيوترات تناظرية ذات درجة عالية نسبيا من الدقة . ومنذ سنوات يوجد بالأسواق آلات من هذا النوع تصل فيها درجة الدقة الى ٩٩.٩٩ ٪ . إلا أنه قد يكتفى من الكمبيوتر التناظري بنتيجة تصل فيها درجة الدقة الى ٩٩ ٪ .

وفي مقابل ان دقة الكمبيوتر التناظري ليست عالية جدا (ويفوقه الكمبيوتر الرقمى في ذلك بكثير) ، نجد أنه نظرا لأن عمل هذا الكمبيوتر مبنى على القياس فان بإمكانه اعطاء النتيجة المطلوبة في الحال ، ويكون لذلك شأن كبير في المواقف التي لا تسمح فيها الظروف بالانتظار .

وتستخدم الكمبيوترات التناظرية في اطلاق القذائف الموجهة وتصحيح مساراتها ، وفي عمليات الرادار ، وفي العمليات الصناعية الآلية (الآوتوميشن) ، وفي أشياء أخرى كثيرة . ومن أهم استخداماتها إنشاء نماذج « تحاكي » نظاما معقدة يصعب فيها حساب النتيجة بالطرق العادية ، ولكن الكمبيوتر التناظري يعطى هذه النتيجة فوراً .

ويتركب الكمبيوتر التناظري من عدد من الدوائر الكهربية التي تقوم بالعمليات الحسابية . والأنواع الرئيسية لهذه الدوائر قليلة . ولكن الدوائر المتشابهة تتكرر عددا كافيا من المرات للقيام بالأعمال الحسابية المطلوبة ، ونقص الدوائر المتشابهة تلك التي تقوم بنفس النوع من العمليات الحسابية . وعندما يراد حل مسألة رياضية توصل أجزاء الكمبيوتر معا بحيث تتناظر العمليات فيه مع التغيرات التي يراد إيجاد نتائجها . وفي الكمبيوترات التناظرية الحديثة تستخدم لوحات خارجية للتوصيل حتى يتسنى تحضير لوحة جديدة لكل عملية مقبلة أثناء عمل الكمبيوتر في عملية أخرى . وبذلك لا يبقى الكمبيوتر عاطلين عمليتين .

والنتيجة التي نريد الحصول عليها من الكمبيوتر التناظري قد تكون جوابا رقمياً يظهر على واجهة الآلة في شكل ضغط ثابت ، وقد تكون هذه النتيجة قياس التغيرات المتتالية التي تحدث لمغير خارجي (مثل سرعة جسم أو المسافات التي يقطعها في فترات متتالية من الزمن) فتظهر هذه في شكل رسم يظهر على شاشة الجهاز، كما قد يكون المطلوب من الكمبيوتر إصدار إشارة كهربية يبدأ بها عمل معين (مثل اطلاق قذيفة على طائرة معادية ، أو أحداث تغيير في عملية صناعية) .

الكمبيوتر الرقمى :

يتم العمل في الكمبيوتر الرقمى على أساس العد باستخدام نبضات كهربية نسميها اشارات. والمهم هنا هو وجود إشارة أو عدم وجود إشارة ، ولا يهم اطلاقا مقدار الضغط في النبضة ، بخلاف الحال في الكمبيوتر التناظري .

وبالإضافة الى العمليات الحسابية العادية فان الكمبيوتر الرقعي يمكنه أن يقوم بعدد من العمليات « المنطقية » . وكما سبق أن ذكرنا يقوم الكمبيوتر الرقعي في عمله بخطوات متتابعة ، بخلاف الكمبيوتر التناظري الذي يمالج كل « القيم » التي تلقن له في وقت واحد .

ويكون تلقين الأوامر والبيانات للكمبيوتر الرقعي الحديث في شكل سلاسل من النبضات الكهربائية بنظام معين ، يتوقف على « اللغة » التي « يخاطب » بها كما سيأتي فيما بعد . وينشأ من هذه النبضات سلاسل من نبضات أخرى تؤدي الى النتيجة المطلوبة .

وتفسر الفقرة السابقة هو ان الأوامر والبيانات تلقن للكمبيوتر الرقعي - باستعمال شفرة معينة - في شكل « نبضات » تتخللها « فراغات » بنظام معين يتوقف على نوع الأوامر والبيانات ، وبصمم الجهاز على أساس أن ينشأ من كل امر بعينه سلسلة خاصة من النبضات تتوقف على البيانات وعلى النتائج السابقة ، وفي النهاية نحصل على النتيجة الرقمية المطلوبة .

ويعطى الكمبيوتر الرقعي النتيجة بكل دقة ما لم يحدث في العمليات التي يقوم بها تقريب (بسبب طبيعة العلاقات الرياضية في المسألة المعروضة للحل) ينشأ عنه تراكم الخطأ ، وخاصة في الأحوال التي تتماد نفس العملية على النتائج الجزئية مرات عديدة (قد تصل الى آلاف المرات) . على انه يمكن الحصول من الكمبيوتر الرقعي على أى درجة نريدها من الدقة بزيادة الوقت المخصص للحل .

وليس من النادر أن يوجد مشرون رقما في بعض العمليات التي يقوم بها الكمبيوتر الرقعي .

وقد صنعت الكمبيوترات الرقمية الأولى بفرض حل مسائل رياضية معقدة في الفيزياء ، ولعمل جداول إطلاق المدافع، ولحل مسائل نشأت عند صنع القنبلة الذرية الأولى ، وقد تلا ذلك تصميم كمبيوترات أخرى لأغراض علمية وحربية مشابهة . على انه سرعان ما ظهر انه بالإمكان استغلال الكمبيوتر الرقعي في أغراض تجارية ، وخاصة عندما ظهر جيل جديد من هذه الكمبيوترات قليل التكاليف نسبيا، وساعد على ذلك انه ظهرت للكمبيوترات الرقمية فوائد جانبية كثيرة ، فالى جانب قدرة هذه الآلات على حل المسائل الرياضية المعقدة التي لا يتم حل بعضها الا بعد اجراء الملايين من العمليات الحسابية ، فان هذه الآلات يمكن ان تستخدم في تنظيم وتنقيح المعلومات ، ثم في استرجاعها بمجرد الطلب عندما يلزم الأمر ، كما يمكن ان تستخدم في اتخاذ القرارات المبنية على معلومات جديدة او معلومات « مخزونة » . ومن أهم استخدامات الكمبيوتر الرقعي الكبير ما يكون في الدراسات المبنية على « محاكاة » النظم المعقدة التي تسير فيها الأمور عشوائيا ، أى بطريقة يصعب معها التنبؤ بالنتائج ، وقد امكن باستعمال طرق المحاكاة عمل دراسات حربية واجتماعية واقتصادية وبيولوجية ما كان يمكن ان تتم قبل اختراع الكمبيوتر .

الكمبيوتر الهجين :

قد يكون من الأفضل او من الواجب في بعض الحوافظ أن يكون العمل في بعض اجزاء الكمبيوتر على أساس التناظر، وفي البعض الآخر على أساس العد ، أى أن يكون الكمبيوتر « هجيناً » مكونا من اجزاء تناظرية وأخرى رقمية . وفي هذه الحالة يلزم أن يحتوى الكمبيوتر على واحد على الأقل من النوعين الآتيين من المبتكرات :

أ - « محولات تناظرية/رقمية » (١٢) ، وهى مبتكرات تحول تغيرات الضغوط الكهربائية (الناشئة من التغيرات المادية) الى ارقام .

ب - « محولات رقمية/تناظرية » (١٣) ، وهى مبتكرات تحول الأرقام الى تغيرات فى الضغوط الكهربائية .

وعلى سبيل المثال نجد أنه قد يلزم فى بعض الصناعات أن يتأثر الكمبيوتر بالتغيرات غير المرغوبة فى عملية الإنتاج ، وأن يعطى نتيجة لذلك « أمرا » بالتعديل اللازم فى سير العمل . هنا نجد أن كلا من التلقين واعطاء النتيجة يكون على أساس التناظر . فإذا كان يرى أن يكون الحساب فى الكمبيوتر على أساس رقمى فإنه فى هذه الحالة قد يحتوى الكمبيوتر المستعمل على الاجزاء الآتية:

- أ - أداة تلقين تناظرية
ب - محول تناظرى/رقمى
ج - قسم للحساب على أساس رقمى
د - محول رقمى/تناظرى .

٢ - تصنيفات أخرى للكمبيوتر

إذا قسمنا الكمبيوترات حسب الغرض الذى أعدت من أجله (بصرف النظر من نوعها القائم على أساس التقسيم السابق ذكره) نجد أن هناك صنفين من الكمبيوترات هما :

١ - الكمبيوترات ذات الغرض الخاص (١٤) التى لا يستخدم الواحد منها إلا للغرض الذى أنشئ من أجله .

٢ - الكمبيوترات ذات الغرض العام (١٥) التى يستخدم الواحد منها فى أغراض متعددة .

ومن الكمبيوترات ذات الغرض الخاص تلك التى توجد فى المصارف لبيان أرصدة العملاء ، أو التى تستخدم فى مكاتب الطيران لبيان وجود مقاعد خالية وحجز هذه المقاعد فى مكاتب للشركات قد توجد فى أقطار أو قارات مختلفة ، أو التى تستعمل مع الجيوش لتصحيح اتجاه إطلاق المدافع ، أو التى توجد فى العيادات الطبية الكبرى لتشخيص مرض بعمومية أعراضه والتاريخ المرضى للمريض .

ويكون الكمبيوتر التناظرى ذا غرض خاص فى الغالب .

أما الكمبيوتر الرقمى فإنه يكون ذا غرض خاص أو عام .

ويقابل حصر فائدة الكمبيوتر ذى الغرض الخاص فى نطاق ضيق أن اعطاء الأوامر إليه يكون عملية بسيطة لا تستلزم وقتا تقريبا ، بالإضافة إلى قلة تكلفة أنشائه نسبيا .

(12) analog/digital converters

(13) digital/analog convertors

(14) special purpose computers

(15) general purpose computers

وتنقسم الكمببوترات الرقمية ذات الفرض العام الى فئتين هما :

ا - الكمببوترات العلمية (١٦) .

ب - كمببوترات الأعمال (١٧) .

وتصمم الكمببوترات العلمية على أساس إمكان الاستجابة للعديد من الأوامر المختلفة اللازمة لطلول المسائل العلمية بأنواعها ، بينما تصمم كمببوترات الأعمال على أساس الاستجابة لعدد قليل نسبيا من الأوامر المختلفة مع وجود مقدار كبير من البيانات . وبذلك يختلف عدد الأوامر المتنوعة التي يمكن للكمببوتر أن ينفذها حسب الفئة التي ينتمى إليها . ويتراوح هذا العدد عادة بين ١٦ أمرا و ٢٥٦ أمرا مختلفا .

ويرغم هذا التقسيم للكمببوترات الرقمية ذات الفرض العام الى فئتين فإنه من الممكن استخدام الكمببوترات العلمية لأغراض الأعمال . على أنه من الوجهة الاقتصادية يحسن استخدام كمببوترات الأعمال لهذه الأغراض .

ومن الممكن أن تستخدم كمببوترات الأعمال في أعمال الحاسبة وفي بعض الإدارات الحكومية ، وفي أعمال الشركات .

على أن هذا لا يجب أن ينسبنا أن هنالك كمببوترات رقمية ذات غرض خاص تستطيع القيام ببعض هذه الأعمال . فهناك مثلا كمببوترات رقمية خاصة لأعمال الحاسبة ، وأخرى خاصة لحجز المقاعد في شركات الطيران ، وهكذا .

وقبل أن تنتقل الى نقطة أخرى يحسن بأن نميز بين « الأعمال » و « علم إدارة الأعمال » الذي تطور في السنوات الأخيرة تطورا كبيرا جدا باستخدام الطرق الرياضية الكمية والمنطقية . ومن المسائل المستحددة في هذا العلم أنواع تحتاج الى استعمال كمببوتر رقمي علمي ذي سعة تخزين كبيرة جدا .

٤ - البرامج (١٨) ولفات الكمببوترات

« البرنامج » هو مجموعة الأوامر التي تبين للكمببوتر جميع الخطوات التي يلزم تأديتها بترتيب معين لحل مسألة معينة ، ويجب أن تكون كل التفاصيل الدقيقة موجودة وصحيحة . وعندما يفسح كل من شخصين برنامجا لحل نفس المسألة فإن البرنامجين يكونان مختلفين عادة .

وتختلف المدة اللازمة لوضع البرنامج من مسألة الى أخرى ، فقد يستلزم وضع البرنامج من شخص مدرب أسابيع أو أشهراً ، وربما احتاج وضع برنامج الى عمل فرقة بأكملها مدة سنة كاملة .

وهناك قول شائع أن في كل برنامج خطأ على الأقل ، والمقصود هنا طبعا هو البرنامج عند وضعه لأول مرة وقبل تجربته .

وكلامنا هنا يدور حول البرامج التي تعد للكمبيوتر الرقمي ذي الغرض العام ، أى المد
لحل أنواع مختلفة من المسائل . أما الكمبيوتر ذو الغرض الخاص فإنه يكون مصمما بحيث لا يحتاج
إلا إلى أمر بالبدء مع إعطاء البيانات اللازمة . « يخاطب » الكمبيوتر الرقمي باستعمال رموز تبدا
لشفرة خاصة تتوقف على تصميم الكمبيوتر تسمى لغة الكمبيوتر ، على أنه نظراً لصعوبة استعمال
لغة الكمبيوتر الأصلية فإنه قد اخترعت لغات كثيرة تكتب بها البرامج وتلقن إلى الكمبيوتر
فيترجمها إلى لغته الخاصة وذلك باستعمال برنامج معد لذلك يختلف من كمبيوتر إلى آخر .

وسوف نعطى فيما بعد شيئاً من التفاصيل في هذا الموضوع . (انظر لتدليل ١) .

٥ - نظم الكمبيوتر (١٩)

قد يكون الكمبيوتر جزءاً من « نظام » يحتوى على آلات أخرى متصلة بعضها ببعض
الأخرى ، وربما كان بعض هذه الآلات كمبيوترات أخرى . وبقولنا « نظام كمبيوتر » نقصد مجموعة
من الآلات المختلفة التي يؤدي فيها كمبيوتر معين دوراً جزئياً . وسنذكر فيما يلي عن بعض النظم
المختلفة .

نظم كمبيوتر الوقت الحقيقي (٢٠) :

يستطيع الكثير من الكمبيوترات أن يصل إلى القرارات في أجزاء من ألف من الثانية بعد
تلقيها الأوامر والبيانات . وفي كثير من الأحيان نجد أن هناك عدداً كبيراً من المسائل المطلوب
مريضها على الكمبيوتر ، ويكون عرضها عليه مما يستدعي انتظار كل مسألة حتى يحين دورها ،
ولكن هناك من المواقف ما يستدعي أن يكون التلقين بدون انتظار ، حيث أنه يلزم إعطاء النتيجة في
الحال .

ومن هنا نشأ نوع جديد من نظم الكمبيوترات، الغرض منه التحكم في بيئة معينة ، وذلك بتلقى
الأوامر بدون انتظار الدور ، وإعطاء النتيجة المطلوبة بالسرعة الكافية للتأثير الأمثل في البيئة .
والنظم من هذا النوع تسمى « نظم كمبيوتر الوقت الحقيقي » .

وفي هذه النظم يكون الكمبيوتر من بعد في الغالب ويكون لتلقين المعلومات بطرق مختلفة منها
استعمال أزرار متصلة بالآلة . وبعد مرور وقت وجيز - يسمى وقت الاستجابة - يتلقى العامل
الإجابة المطلوبة . وقد يكون هذا الوقت بعض أجزاء من ألف من الثانية كما في استعمال الرادار،
أو نحو ثانيتين كما في نظم حجب مقاعد الطيران ، أو نصف دقيقة كما في نظم الرقابة على المخازن ،
أو خمس دقائق كما في نظام الرقابة في مصنع ورق .

نظم الوقت المشترك (٢١) :

يميل الاتجاه في المراكز الصناعية والطبية والتجارية الكبيرة في الدول الصناعية الكبرى إلى
إقامة نوع من الكمبيوترات الرقمية يتصل بالواحد منها عدد من العملاء لكل منهم نقطة تحكم

(19) computer systems

(20) real-time computer systems

(21) Time-sharing computer systems

مستقلة في مقر عمله يعطى منها الاوامر والبيانات ويتلقى فيها الاجابات . وهذه النظم التي يخدم فيها عدد من العملاء في وقت واحد تسمى نظم « الاشتراك في الوقت » .

ومن الامثلة على هذه النظم نذكر نظاما (٢٣) لشركة جنرال الكتريك الاميركية مصمما لعمليات الاشتراك في الوقت على نطاق واسع ، وفي هذا النظام يمكن للشماعة فرد ان يستخدموا الكمبيوتر في نفس الوقت ، ويمكن لاكثر من الف « نهاية » (٢٣) ان توصل بالنظام .

ويمكن للكمبيوتر في هذا النظام ان يستجيب في اجزاء من الف من الثانية ، وان يجيب بصوت مسموع على انواع من الاسئلة ، وان يحل المسائل البسيطة ، كما يمكنه ان ينفذ عمليات طويلة كاملة بالطريقة التقليدية للكمبيوترات العادية .

ويحتوي هذا النظام للاشتراك في الوقت على مبتكرات مختلفة السرعة منها كمبيوترات رقمية صغيرة ، وآلات طباعة (تايب ريتير) تكتب عن بعد ، ومبتكرات للعرض المرئي ، وكمبيوترات تناظرية .

٦ - عباقرة الكمبيوتر الرقمي

يجمع الكتاب على ان الكمبيوتر الرقمي جد هو الرياضي الانجليزي « تشارلز بابيدج » (٢٤) ، واب هو الرياضي الهنغاري المولد « جون فون نيومان » (٢٥) . وبجانب هذين العبقريين هناك الفيزيائي الامريكي « هوارديكن » (٢٦) الذي كان له الفضل في صنع اول كمبيوتر رقمي . وسنورد فيما يلي شيئا من حياة كل من بابيدج وفون نيومان ودورهما في اختراع الكمبيوترات الرقمية، وكذلك شيئا من دور ايكن في ظهور الكمبيوترات الرقمية الى حيز الوجود .

تشارلز بابيدج (١٧٩٢ - ١٨٧١) :

ولد تشارلز بابيدج، الذي يعتبر جد الكمبيوترات الرقمية ، في ديفونشير بانجلترا ، وتلقى في صغره تعليما غير منتظم، على أنه قام بتعليم نفسه الرياضيات الى درجة أنه عندما ذهب الى كمبريدج الالتحاق بالجامعة وجد نفسه أكثر علما بالجبر من المشرف الذي وكل امره اليه . وقد رفض بابيدج التقدم لامتحانات كمبريدج للحصول على درجة الشرف في الرياضيات ، وكان هذا خطأ منه ، على أنه مع ذلك اخترع في سنة ١٨٢٨ استاذا للرياضيات في الكرسي (٢٧) الذي كان يشغله نيوتن في القرن السابع عشر ، وقد احتفظ بابيدج بهذا المنصب احد عشر عاما دون ان يعطى محاضرة واحدة في الجامعة .

وفي احد ايام سنة ١٨١٢ كان بابيدج جالسا في مكتبه في « الجمعية التحليلية » (٢٨) ينظر الى جدول لوغاريتمات ، يعلم أنه ملئ بالأخطاء، عندما خطرت له فكرة حساب الجداول الرياضية باستخدام الآلات ، وكان بابيدج وقتئذ يستعرض في ذهنه عملا كان قد تم في فرنسا . فقد كانت الحكومة الفرنسية قد قامت بعمل جداول رياضية عديدة بطرق جديدة بان وضع ثلاثة او اربعة رياضيين فرنسيين طريقة حساب الجداول، وقام ستة آخرون بتقسيم العمليات الى خطوات

- | | | | |
|-------------------|------------------------------------|-------------------------|-----------------------|
| (22) GE-645 | (23) terminal | (24) Charles Babbage | (25) John von Neumann |
| (26) Howard Aiken | (27) Lucasian Chair of Mathematics | (28) Analytical Society | |

بسيطة لا تحتوي الا على عمليات الجمع والطرح ، ثم قام باداء هذه الخطوات ثمانون شخصا لا يعلمون من قواعد الحساب سوى الجمع والطرح . وقد جعل ذلك بابدج مأخوذا طول الوقت بفكرة أن الآلات يمكنها أن تقوم بأعمال مثل هؤلاء الرجال غير المدربين وبطريقة اسرع وأكفا ، واذ ذلك قام بعمل نموذج لآلة مبنية على فكرة رياضية بسيطة (فكرة جداول الفروق) وعرضها في سنة ١٨٢٢ فقولبت بحماس عظيم مما جعله يفكر في انشاء آلة أكبر كثيراً ، وقد عضدت « الجمعية الملكية » (٢٦) المشروع وقابل وزير المالية بابدج ووعدته بمنحة يدفع منها تكاليف الإنشاء ، كما أقامت الحكومة مبنى يؤدى فيه العمل .

وبينما كان العمل متوقفا لمدة عام مسنة ١٨٣٣ خطرت لبابدج فكرة آله « التحليلية » (٢٠) التي كان يرى أنها أكثر قدرة بكثير من آلة « الفروق » وأنها سيمكنها القيام بالعمليات الحسابية من أى نوع . على أنه بينما كانت تصميماته للآلة تتضمن جميع الأفكار الرئيسية في الآلات الحاسبة الرقمية الحديثة إلا أن حالة التكنولوجيا في عصره لم تكن تجارى اطماعه في بناء الآلة الكبيرة الحجم والقدرة التي صممها ، فلم يتمكن من اتمام صنعها أبدا ، وفي سنة ١٨٤٢ توقفت الحكومة عن مده بالمال . على أن ابنه هنرى الذي كان ضابطا في الجيش البريطاني أخذ يحاول اتمام عمل أبيه بعد موته وبني قسما من الوحدة الحسابية قامت بطبع النتائج على الورق مباشرة .

ومن الأفكار الرئيسية التي أدخلها بابدج استعمال البطاقات المثقبة في تلقين المعلومات للآلة ، فقد كان عليه أن يجد طريقة آلية للتحكم في عمليات الآلة وفي تقديم الأعداد في صورة « تفهمها » . وقد وجد الحل لهذه المشكلة في البطاقة المثقبة التي كان الفرنسي جاكوار (٣١) قد اخترعها سنة ١٨٠١ للتحكم في انوال النسيج .

(بعد وفاة بابدج بنحو عشرين عاما اخترع الدكتور هرمان هولرث (٣٢) - الذي كان مشرفا على تعدادات السكان في الولايات المتحدة - طريقة تسجيل البيانات بعمل ثقوب في البطاقات ، ثم اخترع سلسلة من الآلات لغزل وتحليل البيانات المسجلة بها) .

هوارد ايكن :

بينما كان هوارد ايكن يقوم بأبحاثه في سنة ١٩٣٧ للحصول على الدكتوراه في الفيزياء من جامعة هارفارد في الولايات المتحدة فكر في صنع آلة حاسبة يستخدمها في حل المسائل العددية ، وقد اخترع آلة بسيطة لذلك ثم طورها لكي تحل مسائل أكثر تعقيدا ، وفي أثناء ذلك كله فكر في صنع آلة حاسبة ذات غرض عام يمكنها أن تحل مسائل من أنواع مختلفة ، وبالاتفاق مع شركة آى بي ام (٣٣) صنع كمبيوترا رقميا ذا غرض عام أطلق عليه اسم « مارك ١ » (٣٤) وأقيم في جامعة هارفارد في سنة ١٩٤٤ .

وقد كانت هذه الآلة التي استغرق صنعها خمس سنوات أول كمبيوتر رقمي تم صنعه ، ولكن بالرغم من أنها كانت آلة ميكانيكية كهربائية فإنها لم تحرز تقدما محسوسا في تصميمها المنطقي على آلة بابدج الميكانيكية ، ويختلف الكتاب في تحديد الوقت الذي علم فيه ايكن بأفكار بابدج ، فبعضهم يقول أنه لم يعلم بها إلا بعد اتمام تصميمه لآله ، وبعضهم يقول ان هناك ما يوحي بأن أفكار بابدج هي التي أوحى بتصميم الآلة « مارك ١ » .

(29) Royal Society (30) Analytical Machine (31) Joseph-Marie Jacquard
(32) Dr. Herman Hollerith (33) International Business Machines (IBM) (34) MARK 1.

على أن الاستاذ إينكن اكتسب سمعة كبيرة باتمام صنع هذا الكمبيوتر وبما أداه بعد ذلك في مجال تصميم الآلات الأكثر تقدماً ، وعندما عقد المؤتمر الدولي لمعالجة المعلومات « تحت رعاية اليونسكو في ١٥ - ٢٠ يونيو ١٩٥٩ بباريس عقدت له رئاسة المؤتمر .

جون فون نويمان (١٩٠٣ - ١٩٥٧) :

عندما توفي العالم الرياضي - الهنغاري المولد - جون فون نويمان في واشنطن بالسرطان في أوائل سنة ١٩٥٧ كتبت النيويورك تايمز تقول عنه :

« لقد عرف بأنه الرائد العالمي في تطوير وصناعة الآلات الحاسبة العالية السرعة . . التي جعلت في الامكان حل مسائل كانت تحتاج بدون هذه الآلات الى أعمال عدد كبير من الناس لحلها »

ولد فون نويمان في بودابست وحصل على الدكتوراه في الرياضيات في سن الثالثة والعشرين ثم سافر في عام ١٩٣٠ الى أمريكا ليعمل في جامعة برنستون ، وفي خلال ثلاث سنوات حقق لنفسه مكانة بين اعظم الرياضيين . وتلا ذلك تعيينه في معهد الدراسات العليا في برنستون . وأصبح ، مع اينشتين ، واحدا من أوائل أعضائه الدائمين .

كان فون نويمان متمعد المواهب ، فقد قام في أوائل سنوات عمله باضافات عديدة في علم ميكانيكا الكم ، وكان كذلك ممهدا في المنطق الرياضي لطريق جودل (٣٥) وقام بإدخال علم جديد هو علم « استراتيجية الألعاب » عندما اشترك مع العالم الاقتصادي الكبير أوسكار مورجنسترن (٣٦) في تأليف كتاب « نظرية الألعاب والتصرف الاقتصادي » (٣٧) الذي ظهر سنة ١٩٤٤ . وترفعه أعماله في هذا الكتاب وحده الى منزلة نيوتن . وفي أثناء الحرب العالمية الثانية دعمته الحكومة البريطانية للقيام بإبحاث في مجال الأرصاد الجوية وصناعة الطائرات .

وفي سنة ١٩٤٥ أحدث أكبر قفزة في صناعة الكمبيوترات عندما اقترح تخزين البرامج داخل الآلة بدلا من استعمال لوحة سدادات (٣٨) وأسلاك للتحكم من الخارج ، وقد أوضح في نفس الوقت ان تصميم الكمبيوتر على اساس استخدام النظام الثنائي للأعداد (الذي لا يستخدم فيه من الأرقام غير الصفر والواحد والذي سنقوم بدراسته فيما بعد) يوفر قدرا كبيرا من التجهيزات اللازمة للآلة . وبالإستعانة بأخرين من ذوي الكفاءة قام بتصميم سلسلة من الكمبيوترات الرقمية على الأساس الجديد ، ولم يترك أدق التفاصيل في تصميم الدوائر الالكترونية . وقد أدت أفكاره في مجال تصميم الكمبيوترات الرقمية الى أن الكتاب أصبحوا يقسمون تاريخ هذه الآلات الى عهدين : عهد ما قبل فون نويمان، وعهد ما بعد فون نويمان، فيفضل التخزين الداخلي للبرامج يمكن الآلة أن تعالج الأوامر حسابياً و « منطقياً » وبذلك يكون لها القدرة على أن تغير وتمثل الأوامر التي تعطى لها مما فتح آفاقا جديدة واسعة للعروة والتحكم الذاتي في الكمبيوتر .

وفي سنة ١٩٥٥ أصبح فون نويمان عضوا في لجنة الطاقة الذرية الأمريكية وحصل على جائزة فريمي (٣٩) وقدرها خمسون ألف دولار .

(35) Kurt Goedel (36) Oscar Morgenstern (37) " Theory of Games and Economic Behavior." (38) plugboard (39) Fermi

٧ - الكمبيوترات الرقمية الأولى

لم يكن من الممكن إنتاج الكمبيوترات الرقمية الأولى بالجملة . فالكمبيوتر الأول الذي صممه إينك كان « نسخة » واحدة لم تتكرر وقد أعطى له اسم خاص به لا يطلق على أى آلة أخرى .

وكذلك كان كل من الكمبيوترات الرقمية الأولى مختلفا في تصميمه من الكمبيوترات الأخرى وله اسمه الخاص به، ولم يحدث إنتاج الكمبيوترات بنسخ متعددة على أساس نفس التصميم الا عندما أصبح ذلك اقتصاديا بتقديم التكنولوجيا .

وبالإضافة الى ما ذكرناه من الكمبيوتر « مارك ١ » الذي صممه إينك فاننا سنورد فيما يلي شيئا من تاريخ بعض الكمبيوترات الأولى ذات النسخة الواحدة، ثم عن بداية ظهور الكمبيوترات التي صنعت لأغراض تجارية .

الكمبيوتر « أنياك » (٤٠) :

بالإضافة الى الكمبيوتر « مارك ١ » تم صنع عدد من الآلات الحاسبة الإلكترونية في المدة ١٩٣٨ - ١٩٤٤ ، كما كان عدد آخر غيرها في دور التصنيع ، على أن أول تقديم تكنولوجي على « مارك ١ » كان بصنع الكمبيوتر « أنياك » . فمع أن هذا الكمبيوتر لم يكن له تفوق « منطقي » محسوس على « مارك ١ » إلا أنه كان أول كمبيوتر الكتروني ..

وقد صنع الكمبيوتر « أنياك » في مدرسة مور (٤١) للهندسة الكهربية في جامعة بنسلفانيا ، وكان الغرض من صنعه عمل جداول رياضية لازمة لإطلاق قذائف المدفعية ، وصمم الآلة الدكتور أكرت (٤٢) والدكتور موشلي (٤٣) من مدرسة مور بالتعاون مع الميجور جولدستين (٤٤) من مدفعية الجيش الأمريكي ، وقد التحق بهذا الفريق أفراد عديدون ، وكان مصممو الآلة من الشباب ، فقد كان جولدستين في الثانية والثلاثين من عمره ، وكان أكرت في العشرينات الأولى ، وبعد ثلاث سنوات من العمل تم صنع الآلة في صيف ١٩٤٦ ، وقد كانت التكنولوجيا الهندسية في أطوارها الأولى وقت صنع الآلة ، وكان معدل احتراق الصمامات الإلكترونية كبيرا ، وكانت الآلة تحتوى على ١٨٠٠٠ صمام الكتروني (٤٥) مع ١٥٠٠ متابع كهربي) ، ولم تكن تستطيع أن تعمل بكفاءة مالم تكن كل هذه الصمامات صالحة، ومع ذلك نجحت الآلة ، وكان من أولى المسائل التي أعطيت لها مسألة معقدة في الفيزياء النووية فقامت بحلها في ساعتين ، ولو كان هذا العمل قد وكل الى مائة شخص لزمهم سنة كاملة ، وقد تمكن لهذه الآلة حل العديد من المسائل التي تراكمت أثناء الحرب العالمية الثانية .

على أنه كان يعيب هذه الآلة - بمقياس الكمبيوترات الحاضرة - أنه لحل كل مسألة جديدة كان يلزم الإعداد اليدوي لتوصيلات كهربية تلائم هذه المسألة ، وكان في ذلك تقييد للدور « المنطقي » للآلة ..

(40) ENIAC (Electronic Numerical Integrator and Calculator).

(41) The Moore School of Engineering.

(42) J. Presper Eckert

(43) John Mauchly

(44) Herman Goldstine

(45) vacuum tube (electronic valve)

وفي سنة ١٩٤٤ كان فون نويمان يعمل مستشارا لجامعة تعمل في مشروع القنبلة الذرية في لوس الألاموس عندما سمع ، بطريق الصدفة تقريبا ، بنبا مشروع الآلة الحاسبة التي كان يجري إعدادها في مدرسة مور للهندسة الكهربائية بجامعة بنسلفانيا . ولما كان مشروع القنبلة الذرية يحتاج إلى إجراء أعداد هائلة من العمليات الحسابية فقد عمل بالتعاون مع الجيور جولدستين ومع بيركس (٤٦) من جامعة متشيجان في دراسة الموضوع . ونتيجة لهذه الدراسة صدرت سلسلة من التقارير قدمها فون نويمان ، وقد تضمنت هذه التقارير الأفكار الأساسية التي أدخلها فون نويمان والتي سبق الإشارة إليها . (وقد بين فون نويمان في أحد هذه التقارير أنه بينما كانت الآلة « أنياك » تعمل بواسطة ١٨٠٠٠ صمامات الكتروني باستخدام النظام العددي العشري فإنه باستخدام النظام العددي الثنائي كان يكفي نحو ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ صمام) .

وفي سنة ١٩٤٧ اقترح فون نويمان طريقة لتحويل « أنياك » إلى آلة ذات تخزين داخلي وقام بالدور الرئيسي في تصميم أدق التعديلات اللازمة . وهكذا أصبحت الآلة « أنياك » أول كمبيوتر ذا تخزين داخلي - بالإضافة إلى كونها أول كمبيوتر الكتروني .

الكمبيوتر « أدفاك » (٤٧) :

في أحد التقارير الأولى التي قدمها فون نويمان بشأن الآلات الحاسبة الإلكترونية نتيجة للدراسات تمت سنة ١٩٤٥ جاء تعريف بالآلة مقترحة أطلق عليها اسم « أدفاك » . وفي سنة ١٩٤٦ ظهر تقرير آخر ، بالاشتراك مع جلدستين وبيركس ، وفيه تفصيلات أكثر ، وقد قام أكرت وموشلي بتصميم تجهيزات الآلة « أدفاك » التي تم صنعها في مدرسة مور أيضا في سنة ١٩٥٠ . وكانت أول كمبيوتر الكتروني يتم صنعه في أمريكا على أساس التخزين الداخلي منذ البداية وعلى أساس النظام العددي الثنائي . وكان يمكن لهذه الآلة تخزين ١٠٢٤ « كلمة » كل منها مكون من ٤٤ رقما ثنائيا ، أي صفرا أو واحدا .

الكمبيوتر « أدساك » (٤٨) :

كان تقرير « أدفاك » حافلا لتصميم اثنين من الآلات الحاسبة الإلكترونية في إنجلترا ، وقد بدأ العمل في صنع أحدي الآتين في أوائل سنة ١٩٤٧ في المختبر الرياضي بجامعة كامبردج وأطلق عليها اسم « أدساك » وقد قامت هذه الآلة بأول عملية حسابية في مايو ١٩٤٩ ، وهكذا كانت « أدساك » أول آلة تم صنعها على أساس أفكار فون نويمان .

وقد أشرف على صنع هذه الآلة الأستاذ ويلكس (٤٩) (الرئيس الحالي للمختبر الرياضي بجامعة كامبردج) الذي اشتهر اسمه كواحد من أكبر مصممي الآلات الحاسبة الإلكترونية في إنجلترا .

الفترة التالية :

تلا ظهور الأنياك والأدفاك في أمريكا والأدساك في إنجلترا ظهور سيل من الآلات الحاسبة الرقمية على أساس أفكار فون نويمان ، وجاء اختراع الترانزستور سنة ١٩٤٨ عاملا جديدا في

(46) Arthur W. Burks (47) EDVAC (Electronic Discrete Variable Automatic Computer

(48) EDSAC (Electronic Delayed Storage Automatic Computer) (49) M. V. Wilkes

التكنولوجيا ، وفي السنوات الوسطى من الخمسينات ظهرت كمبيوترات تستعمل الترانسستورات بدلا من « الأنابيب المفرغة » (التي كانت تستخدم كصمامات في الآلات الالكترونية السابقة) مع عدم تغيير الأساس المنطقي لتصميم الكمبيوتر . وفي البداية كان صنع الآلات من النوع الجديد لخدمة الأغراض الحرة التي كان يمهأصفر حجم الآلة وخفة وزنها .

وفي الخمسينات الأخيرة ظهرت حاسبات الترنستور للأغراض التجارية (مثل هانيول ٨٠٠ (٤٧) ومثل آي.بي.ام ٧٠٤ (٨)) وتلا ذلك فيض من الطرازات المختلفة من صنع شركات عديدة .

وفي الستينات أدخلت «الدوائر المتكاملة» (٤٩) في صناعات الكمبيوتر ، وتحتوى الدوائر من هذا النوع على عدد كبير من المبتكرات الالكترونية والكهرية العادية وكلها موجودة في مساحة ضيقة جدا ، وبذلك امكن صنع كمبيوترات الكترونية رقمية غاية في الصغر ، والعامل الأساسي الذي يحد من الحجم الأدنى للكمبيوتر هو وسائل النقلين واستخراج النتائج من الآلة ، حيث ان الانسان لا يستطيع استعمال الآلات إذا نقص حجمها من حد معين .

على انه لن يكون بعيدا ذلك اليوم الذي يحمل فيه الانسان كمبيوترا رقميا الكترونيا كاملا في محفظة جيبه ، ولا يستطيع المرء ان يتنبأ بما ستتمخض عنه التكنولوجيا في مجال صناعات الكمبيوتر ، والأقلب أن ما سيستجد سيكون سابقا للحلم في كثير من الأحيان .

٨ - النظم العددية :

في تاريخ الأرقام :

اننا متعددون على النظام « العشري » للعد، فعندما نصل الى العدد « عشرة » نبدأ من جديد فنقول « أحد عشر » قاصدين واحداً بعد العشرة الأولى ، وتنبع ذلك بقول « اثناء عشر » ، وإذا قلنا مثلاً خمسة وثمانون فاننا نقصد ثمانتي عشرات وخمس مفردات ، وعندما نصل الى عشر عشرات نقول مائة ، وعندما نصل الى عشر مئات نقول الف .. وهكذا ..

وليس النظام العشري للعد نظاما عاما لا يستخدم الناس غيره ، فالحنود الحمير يستخدمون نظاما « خمسيا » . فبعد أن يصلوا الى العدد « خمسة » يقولون « خمسة وواحد » ثم « خمسة واثنان » ، وهكذا .. والاستراليون الاصليون يستخدمون نظاما ثنائيا غير كامل ، فبعد أن يصلوا الى اثنين يقولون « اثنان وواحد » ثم « اثنان واثنان » . على أنهم يقولون « كثير » إذا زاد العدد عن ذلك .

وقد علل أرسطو استخدام النظام العشري بأن الناس كانوا يستخدمون اصابع اليدين في العد ، ولو كان أرسطو يعلم بأمر الحنود الحمير واستخدامهم للنظام الخمسي لعل ذلك بأنهم يستعملون اصابع يده واحدة. اما الاستراليون الاصليون فالأغلب أنهم يستخدمون اليدين دون الاصابع في العد .

(47) Honeywell 400 and 800

(48) IBM 704

(49) integrated circuits.

ولكل نظام مددي « أساس » . فنظامنا العددي أساسه عشرة ، ونظام الهنود الحمر أساسه خمسة، ونظام الامراتيين الأعلىين أساسه اثنتان .

وليست العشرة أكبر أساس مستعمل للعد في بعض الصناعات في الخارج نجد أن الأساس المستعمل هو « الدرزن » (٥٠) (الدسته) أي اثنا عشر فيقال مثلا « درزان وأربعة » يليها « درزان وخمسة » وهكذا ، والدرزن من الدرزن تسمى « جروسة » (٥١) ، والدرزن من الجروسات تسمى « جروسة كبيرة » (٥٢) ، أما لماذا يفضل الأساس الدرزني في تلك الصناعات فذلك لأنه يمكن تقسيم الدرزن بدون باقي إلى نصفين ، أو ثلاثة أثلاث ، أو أربعة أرباع ، أو ستة أسداس ، بينما لا يمكن تقسيم العشرة بدون باقي إلا إلى نصفين أو خمسة أخماس ، ولو أن الناس خلقوا بسطة أصابع في كل يد فمن المؤكد أنهم ما كانوا فكروا في النظام العشري ، ومن الراجح أنهم كانوا استعملوا النظام الدرزني في حياتهم اليومية .

والرموز التي استخدمها الناس في الماضي لتدوين الأعداد تختلف باختلاف المكان والزمان ، فالمصريون القدماء رمزوا الواحد بخط رأسي ، وللاثني بخطين رأسيين ، وهكذا حتى العدد ٩ الذي رمزوا له بتسمة خطوط ، أما الأعداد عشرة ومائة وألف وعشرة آلاف ومائة ألف فقد استخدموا رمزا خاصا لكل منها ، وإذا وضعوا شيئا من الرموز بجوار بعضها البعض فإن العدد الناتج يساوي مجموع قيم الرموز ، وفيما يلي بعض الأمثلة .

العدد	١	٢	٣	١٠	٢٣
الرمز عند قدماء المصريين	١	١١	١١١	١١١١	١١١١١

وقد اتبع الرومان نفس الطريقة بتحوير بسيط ، فاستخدموا رمزا لكل من الواحد ، والخمسة ، والعشرة ، والخمسين والمائة والخمسمائة ، والألف ، وإذا جاء رمز إلى يسار رمز أكبر منه كانت قيمة العدد الذي يدل عليه الرمزان معا تساوي الفرق بينهما ، وفيما عدا ذلك نحصل على قيمة العدد كله بالتجميع . وفيما يلي بعض الأمثلة :

العدد	١	٢	٥	٤	٧	٢٦	١٠٠٠	٩٠٩
الرمز الروماني	I	II	V	IV	VII	XXVI	M	CMIX

ولقد بقي الأورييون يستعملون الرموز الرومانية للأعداد حتى نقلا الأرقام الهندية عن العرب وسموها « الأرقام العربية » ، وأقدم مخطوط أوربي معروف يحتوي على تلك الأرقام كتب في إسبانيا سنة ٩٧٦ ميلادية .

ولم يكن رمز الصفر موجودا في مبدأ الأمر في الأرقام الهندية ، كما أن شكل تلك الأرقام تغير من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان . وربما جاء ادخال رمز الصفر في القرن التاسع الميلادي . وكان هذا الرمز على شكل دائرة . وكان العرب يكتبونه بهذا الشكل ونقلوه إلى أوروبا بصورته الهندية ، وما زال عرب المغرب يكتبونه بالشكل الدائري إلى الآن . على أن عرب المشرق استعملوا النقطة بدلا من الدائرة عندما حدث اللبس بينهما وبين رقم الخمسة الذي كان يشبه عندهم قلبا فتمت إلى أعلى .

والميزة الحقيقية للأرقام الهندية هي اختلاف القيمة التي يدل عليها الرقم باختلاف موضعه ، أى منزلته من العدد ، فالرقم ٤ يدل على أربعة في المنزل الأولى ، ولكن على أربع عشرات في المنزل الثانية ، وعلى أربع مئات في المنزل الثالثة ، وهكذا . ويحافظ على المنازل بإدخال الصفر إن لزم الأمر ، فمثلا نكتب ٤٠٥ حيث يكون لدينا أربع مئات وخمسة مفردات بدون وجود عشرات بجانب ذلك .

والنتيجة أنه بفضل الهنود والعرب أصبح لدى الناس الآن عشرة أرقام مختلفة هي : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ومن هذه الأرقام يمكن أن نرسم لأي عدد صحيح . فمثلا :

$$٨٠٧٥٦ = (١ \times ٦) + (١٠ \times ٥) + (١٠٠ \times ٧) + (١٠٠٠ \times ٥) + (١٠٠٠٠ \times ٨)$$

$$أو ٨٠٧٥٦ = ٦ + ١٠ \times ٥ + ٧٠ \times ١٠ + ٥٠٠ \times ١٠٠ + ٨٠٠٠ \times ١٠٠٠$$

ولقد أدى إدخال الأرقام الهندية العربية إلى تسهيل العمليات الحسابية إلى حد أنها أصبحت لعبة إذا قيست بالصعوبات التي كان يعانيها الأقدمون في حساباتهم . ولكي يدرك القارئ مقدار تلك الصعوبات فليحاول مثلا أن يقوم بعملية ضرب ٢٨٤ في ٢٨٢٧ باستخدام الرموز اللاتينية لهذه الأعداد وهي : CCLXXXIV ، MMDCCLXXVII .

النظام العشري للأعداد :

ولنفرض أن الناس جميعا ادركوا موايا النظام العشري التي ذكرناها وأرادوا التحول إليه مع الاحتفاظ بطريقة المنازل في الكتابة ، فماذا يفعلون ؟ أن الأرقام الهندية العشرة (بما فيها علامة الصفر) لا تكفيهم وعليهم أن يضيفوا رقمين آخرين إذا كانوا ما زالوا معجبين بشكل تلك الأرقام ، وقد يطون هذه المشكلة بكتابة (ع) رمزا للعشرة ، وكتابة (ح) رمزا للأحد عشر ، مثلا .

والآن هب أن صانعا أحصى مفردات بضاعته فوجد أن لديه إحدى عشر جروسة كبيرة ، وخمسة جروسات ، وعشرة درازن ، وثلاث مفردات أخرى ، فكيف يكتب هذا العدد في النظام العشري ؟

من الممكن أن نكتب نحن بيان البضاعة كالتالي :

٢٣	٤	٥	جروسات	جروسات كبرى
٢٣	٤	٥	جروسات	جروسات كبرى

الإنشاء هي ما قامت على النظام العددي الثنائي . وقد كانت الآلات السابقة مصممة على الأساس العشري . وهذه نقطة كثيراً ما يتجاهلها الكتاب حتى أن عدداً كبيراً من مستخدمي الكمبيوتر الرقمي يظنون أن الطريقة الوحيدة لتصميم الكمبيوتر هي أن يبنى على النظام الثنائي .

وإذا كان النظام العشري يحتاج إلى الصفر وتسعة أرقام ، والنظام الدرزي يحتاج إلى الصفر واحد عشر رقماً ، فإن النظام الثنائي يحتاج إلى الصفر والواحد فقط ، وتكون قيمة الواحد في أي منزلة بعد الأولى ضعف قيمته في المنزلة التي يليها ، فالواحد قيمته في المنزلة الأولى « ١ » وفي المنزلة الثانية « ٢ » وفي المنزلة الثالثة « ٤ » وفي المنزلة الرابعة « ٨ » وفي المنزلة الخامسة « ١٦ » وهكذا ..

مثلاً ١٠١ في النظام الثنائي = $1 + 2 \times 1 + 4 \times 0 + 8 \times 1$ = أحد عشر .

وفي الجدول التالي بعض الأعداد العشرية وما يقابلها في النظام الثنائي :

جدول (١)

عشري	ثنائي	عشري	ثنائي	عشري	ثنائي
١	١	٨	١٠٠٠	١	١٠٠٠٠
٢	١٠	٩	١٠٠١	١٠٠٠١	
٣	١١	١٠	١٠١٠	١٠٠١٠	
٤	١٠٠	١١	١٠١١	١٠٠١١	
٥	١٠١	١٢	١١٠٠	١٠١٠٠	
٦	١١٠	١٣	١١٠١	١٠١٠١	
٧	١١١	١٤	١١١٠	١٠١١٠	
		١٥	١١١١	١٠١١١	
				١١٠٠٠	٢٤

والميزة الحقيقية للنظام الثنائي للأعداد هي أنه يجعل في الإمكان استخدام وسائل مادية بسيطة في تسجيل الأعداد وإجراء العمليات الحسابية عليها . فمن الممكن مثلاً أن نعتبر المصباح المضيء ممثلاً للواحد ، والمصباح المطفأ ممثلاً صفراً ، وباستخدام أربعة مصابيح يمكننا أن « نسجل » أي عدد صحيح واقع بين صفر وخمسة عشر ، ففي شكل (٣) مثلاً نجد أن المصابيح تمثل العدد الثنائي ١٠١١ (أحد عشر) . لاحظ أن المصباح الثالث من اليمين مطفأ وحده .

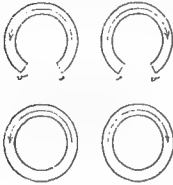
ولتمثيل العدد « ١ » نضيء المصباح اليمين وحده ونطفىء الباقي . ولتمثيل العدد ٢ نضيء المصباح الثاني من اليمين ونطفىء الباقي ، وهكذا .



شكل (٣) . هذه المصابيح تمثل العدد الثنائي ١٠١١ ويساوي أحد عشر .

ولماذا اخترنا المصابيح باللات ؟ ذلك لأن المصباح يكون على إحدى حالتين : فهو إما مضيء وإما مطفأ . (ويمكن أن نختار إحدى الحالتين ممثلة للواحد ، فتكون الأخرى ممثلة للصفر) وليس الإمكان قاصراً على استخدام المصابيح في هذا المجال . فالبطريات التي تستخدم فيها مواد مغناطيسية تكون من أحسن الوسائل للتعبير عن حالة من إحدى حالتين . فإذا أخذنا قضيباً مصنوعاً من مادة مغناطيسية مثنيّاً على شكل حلقة مفتوحة كما في شكل (٤) فإنه من الممكن

منظمة القضيب بحيث يكون طرف معين منه قطبا شماليا ، كما يمكن عكس اتجاه المنقطة ليصير نفس الطرف قطبا جنوبيا . ونستطيع ان نختار احدى حالى الحلقة ممثلة للواحد ، فتكون الحالة الأخرى ممثلة للصفر . ومن الواضح أنه لو كانت الحلقة مقفلة فان مناقشتنا لا تاتر . فالفهم انه اذا كانت المنقطة في اتجاه معين تمثل « الواحد » فان المنقطة في الاتجاه المضاد تمثل « الصفر » .



شكل (٤) . يمكن ان نأخذ احدى الحلقتين المفتحتين تمثل للواحد فتكون الأخرى ممثلة للصفر ، ويصح هذا الكلام على الحلقتين المغلقتين كما يصح على الحلقتين المفتحتين .

العمليات الحسابية في النظام الثنائي :

من السهل ان يتحقق القارىء من القواعد الآلية للعمليات الحسابية الأربع في النظام الثنائي .

الجمع	الطرح
$0 = 0 + 0$	$0 = 0 - 0$
$1 = 1 + 0$	$1 = 0 - 1$
$1 = 0 + 1$	$0 = 1 - 1$
$1 + 1 = 1 + 1$	$1 - 1 = 0$
$1 + 1 = 1 + 1$	
الضرب	القسمة
$0 = 0 \times 0$	$0 = 1 \div 0$
$0 = 1 \times 0$	$1 = 1 \div 1$
$0 = 0 \times 1$	ولا يجوز القسمة على الصفر .
$1 = 1 \times 1$	

(ويمكن اجراء عملية طرح باستخدام الجمع ، كما يمكن اجراء عملية الضرب بتكرار الجمع ، واجراء عملية القسمة بتكرار الطرح) .

نظم عديدة أخرى :

من النظم العددية الأخرى الهامة في عمل بعض طرازات الكمبيوتر ، النظام الثماني (٨) والنظام السادس عشرى (١٦) . والنظام الأولى أساسه ٢ والثاني أساسه ١٦ .

وفى النظام الثماني يكتفى استعمال الصفر والارقام من ١ الى ٧

اما في النظام السادس عشرى فيلزم استخدام ارقام ترمز الى الاعداد الصحيحة من عشرة الى خمسة عشرة بالإضافة الى الارقام العربية الهندية .

النظام العشرى بالشفرة الثنائية (٥١)

أحياناً يستخدم النظام العشرى مع استخدام الشفرة الثنائية لكل رقم عشرى . وبالنظر الى جدول (١) نجد أنه يلزم أربعة ارقام ثنائية لتمثيل الرقم ٩ وهو أكبر رقم عشرى . واذا كتبنا الاعداد باستعمال الشفرة الثنائية من أسفل الى أعلى نجد ان العدد ١٨٩٠٢٧ مثلاً يمكن الرمز له كالآتي : -

٠١١٠٠

٠٠٠٠١

٠٠٠١١

١٠١٠١

حيث العمود اليمين هو « ٠١١١ » مكتوباً رأسياً من أسفل الى أعلى (ويساوى ٧) والعمود الثاني من اليمين هو « ٠٠١٠ » ويساوى ٢. وهكذا .

النظام السادس عشرى بالشفرة الثنائية :

رائناً كيف يمكن استخدام ٤ صفوف من الارقام الثنائية لتمثيل عدد عشرى مثل ١٨٩٠٢٧ . على أنه يمكن استخدام نفس العدد من الصفوف لتمثيل عدد سادس عشرى . فمثلاً يمكن ان نأخذ في النظام الأخير الحروف ع ، ح ، ن ، ل ، ر ، خ لتمثل الاعداد من عشرة الى خمسة عشر كالآتي :

العدد	الرمز في النظام السادس عشرى
عشرة	ع
أحد عشر	ح
اثنا عشر	ن
ثلاثة عشر	ل
أربعة عشر	ر
خمسة عشر	خ

ومع استعمال الارقام الهندية العربية بنفس قيمها ، فان العدد ٥٤٣٢١ السادس عشرى والذي يساوى

$$٤١٦ \times ٢ + ٢١٦ \times ١٥ + ٢١٦ \times ٢ + ١٦ \times ١٠ + ٥$$

يمكن الرمز له باستعمال الشفرة الثنائية من أسفل الى أعلى كالآتي :

٠١٠١٠

٠١٠٠١

١١١١٠

٠١١٠١

٩ - الأقسام الرئيسية للكمبيوتر الرقمي

بالرغم من أن الكمبيوترات الرقمية تختلف فيما بينها اختلافات بينة في التفاصيل فإن الأفكار الرئيسية فيها واحدة . وبين شكل (٥) الأقسام الخمسة الرئيسية للكمبيوتر الرقمي وهي :

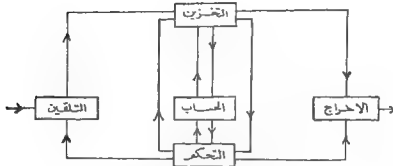
١ - التلقين (٥٧) (أو الإدخال أو التغذية)

٢ - التحكم والتوجيه (الكنترول) (٥٨)

٣ - الذاكرة (٥٩) أو التخزين (٦٠)

٤ - الوحدة الحسابية (٦١)

٥ - الإخراج (٦٢) .



شكل (٥) . الأقسام الرئيسية الخمسة للكمبيوتر الرقمي .

١ - التلقين :

تلقى الآلة الأوامر والبيانات من طريق التلقين (الإدخال) . وهناك طرق مباشرة وطرق غير مباشر لذلك . للتلقين المباشر يمكن استخدام « تيرستر » كهربى أو أزرار تحكم . ولا تستخدم هذه الوسائل البطيئة الا عند الضرورة (لتصحيح خطأ في البرنامج أو لاختياره مثلا) .

ومن الوسائل المباشرة الأخرى للتلقين المفاتيح والأزرار الموجودة على واجهة التحكم . وتستخدم هذه في التحكم اليدوى بإمطاء الأمر للكمبيوتر بالشروع في العمل أو في إيقافه وفي عمليات أخرى .

وللتلقين غير المباشر تستخدم وسائل مختلفة يتوقف اختيارها على عوامل التكلفة والسرعة وسهولة الاستعمال والمرونة . ومن الوسائل غير المباشرة للتلقين : البطاقات المثقبة . شريط الورق المثقب . الشريط المغنطيسى . الكتابة بالحبر المغنطيسى . الحروف الضوئية . الطنبور المغنطيسى . البطاقات المغنطيسية . الأقراص المغنطيسية . ونستكمل من بعض هذه الوسائل فيما بعد .

(57) input	(58) control	(59) memory	(60) storage	(61) arithmetic unit
(62) input				

٢ - التحكم والتوجيه :

ينظم قسم التحكم والتوجيه ترتيب عمليات الكمبيوتر ، فيفسر الأوامر ، ويوجه جميع الأقسام الأخرى (وفق ما تقتضي به الأوامر) بترتيب معين . ولهذا القسم القدرة على تغيير ترتيب العمليات حسب النتائج الجزئية أو نتيجة مقارنات معينة .

٣ - التخزين :

عندما تدخل المعلومات الى الكمبيوتر عن طريق وسائل التلقين فإنه لا يمكنها الانتقال الى قسم الحساب مباشرة ، فعليا أن تنتظر حتى يستدعيها التحكم بعبء الأوامر البرنامج . والتخزين هو مكان الانتظار ، ويتفاوت وقت الانتظار من كسر شئيل جداً من الثانية الى زمن طويل وإلى أن تدعو الحاجة الى الاستدعاء .

وينقسم تخزين الكمبيوتر الى قسمين : التخزين الرئيسي (١٢) والتخزين المساعد (١٤) وللتخزين الرئيسي (الذاكرة الرئيسية) ثلاثة وظائف وهي :

أولا : التخزين المؤقت للأعداد والأوامر الواردة من التلقين أو التي في طريقها الى الخارج .

ثانيا : تخزين جميع البيانات والأوامر اللازمة للمسألة التي يعالجها الكمبيوتر .

ثالثا : التخزين المؤقت للنتائج الجزئية للحساب .

أما التخزين المساعد (الذاكرة الإضافية) فله وظيفتان هما :

أولا : تخزين المعلومات والبرامج لحين الحاجة إليها في المستقبل .

ثانيا : زيادة سعة التخزين الرئيسي .

ويتصل التخزين الرئيسي اتصالاً مباشراً بقسم التحكم والحساب ، ويقوم بدور أساسي في معالجة البيانات . ويجب أن يكون لعن السعة ما يكفي الأوامر والبيانات اللازمة للمسألة تحت الحل ، وعند اللزوم يستخدم جزء من التخزين المساعد لتوسيع التخزين الرئيسي .

وينقسم التخزين الرئيسي الى أجزاء متساوية الحجم لكل منها عنوان (١٥) في التخزين ، وعندما يبحث التحكم عن معلومات معينة في التخزين فإنه يطلبها عن طريق عنوانها .

وبعد معالجة البيانات في قسم الحساب تنقل الى التخزين الرئيسي أو التخزين المساعد (أو كليهما) حيث تبقى الى وقت الحاجة إليها .

وأكثر مبتكرات التخزين الرئيسي استخداماً في الوقت الحاضر هو « اللب المغنطيسي » (١٦) الذي يتكون من حلقات صغيرة من مواد مغنطيسية . وهو مرتفع الثمن نسبياً بالمقارنة بالوسائل الأخرى . وتدخل البيانات أو تستدعي من اللب كلمة فكلية في وقت يتراوح بين نصف ميكرو ثانية وخمس ميكرو ثانياً (الميكرو ثانية جزء من مليون من الثانية) . ويسمى هذا الزمن باسم « زمن الاتصال » (١٧) .

ومن وسائل التخزين الرئيسي الأخرى « الشريط الرقيق » (١٨) . وعندما تلزم بعض

(63) primary storage (64) auxiliary storage (65) address (66) magnetic core
(67) access time (68) thin film

البيانات من التخزين المساعد فان قسم التحكم يوجه عملية نقلها الى عنوان معين في التخزين الرئيسي . وعندما يلزم الأمر تعاد البيانات مع نتائج الحساب الى التخزين الإضافي .

ويكون الإدخال (التلقين) الى التخزين الرئيسي بواسطة « قارئة » للوسيلة المستخدمة للإدخال (التلقين) تختلف باختلاف تلك الوسيلة. ويكون انتقال البيانات من التخزين الرئيسي الى التخزين المساعد بواسطة نبضات كهربية في الأسلاك الموصلة يتبعها تسجيل تلك البيانات .

ومن وسائل التخزين المساعد : الشريط المغنطيسي ، والطنبور المغنطيسي ، والقرص المغنطيسي .

§ - الوحدة الحسابية :

يقوم القسم الحسابي بعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة (و في الكمبيوترات العلمية باستخراج الجذور وعمليات حسابية أخرى) .

وقد سبق ان ذكرنا ان العمل يتم في الكمبيوتر الالكتروني الرقمي باستخدام نبضات كهربية . ويمكن ان نقرر النبضة بوجود الرقم « 1 » وعدم وجود نبضة بالرقم « صفر » والرقمان 1 ، صفر هما الرقمان الثنائيان ، اي المستعملان في النظام العددي الثنائي .

والإدخال والتخزين والإخراج تعتمد كلها على مبركات « ثنائية » . فالوضع المميز في بطاقة قد يكون مشقبا ، فيفسر بوجود « 1 » أو غير مشقب فيفسر بوجود « صفر » . والبطاقة المغنطيسية قد تكون ممتلئة في اتجاه معين يفسر بوجود « 1 » أو في الاتجاه المضاد فيفسر بوجود « صفر » ، وهكذا .

§ - الإخراج :

تقوم وسائل الإخراج بوظيفتين هما :

أولا : تسجيل نتائج معالجة البيانات .

ثانيا : اعطاء البيانات المسجلة أو المحسوبة في صورة يفهمها الانسان .

وقد تسجل البيانات الناتجة من المعالجة على شريط مغنطيسي أو قرص مغنطيسي أو طنبور مغنطيسي أو بطاقة مغنطيسية . وفي هذه الحالة قد يحتفظ بالمعلومات لاستعمالها أوتوماتيكيا بواسطة الكمبيوتر تبعاً لأوامر البرنامج . وكذلك قد يكون الإخراج بالتسجيل على بطاقات مثقبة أو شريط مثقبي .

ومهما كانت الطريقة التي تسجل بها النتائج في الإخراج (مغنطيسية أو غيرها) فإنه يمكن تحويلها الى صورة مطبوعة بلفة يفهمها الناس على الورق ، أو تحويلها الى صورة مرئية على شاشة تشبه شاشة التلفزيون ، أو الى كلام مسجوع عن طريق التلفزيون .

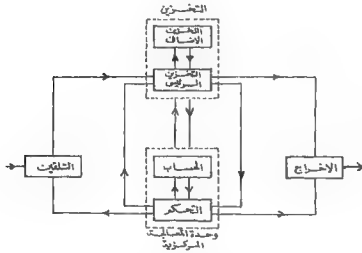
ولا يقتصر الإخراج اذن على الصورة المطبوعة ، أو المرئية على الشاشة ، أو المسجوعة بواسطة التلفزيون ، فالواقع أن مجرد تسجيل النتائج بصورة من الصور (التي يمكن تحويلها الى صورة مفهومة للناس) يعتبر إخراجاً .

وحدة المعالجة (التشغيل) المركزية (١٩) :

يجتمع القسم الخاص بالتحكم مع القسم الخاص بالحساب في وحدة مادية واحدة يطلق عليها اسم « وحدة المعالجة المركزية » وهذه الوحدة هي الكمبيوتر الحقيقي . ففيها مصدر التحكم والتوجيه ، كما أن العمليات الحسابية تتم فيها .

وبذلك تكون العمليات الرئيسية في الكمبيوتر هي : التلقين - التخزين - المعالجة المركزية - الإخراج .

ومن الممكن الآن أن نعيد رسم الأقسام المختلفة للكمبيوتر كما في الشكل (٦) .



شكل (٦) . الأقسام الرئيسية للكمبيوتر الرقمي .

١٠ - بعض مبتكرات التلقين والإخراج والتسجيل

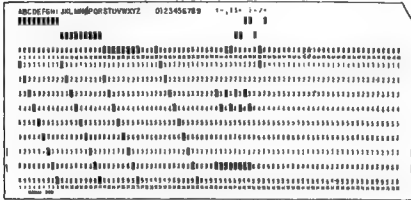
البطاقة المثقبة :

هناك أكثر من نوع من البطاقات المصنوعة من الورق المقوى التي تستخدم لتسجيل المعلومات بواسطة ثقب بشقفة خاصة . وسنشرح هنا بطاقة آي . بي . أم .

هذه البطاقة مستطيلة الشكل في حجم كف اليد ومقسمة إلى ٨٠ عموداً رأسياً . ويوجد بكل عمود ١٢ موضعاً للتثقيب . والمواضع التسعة السفلى تسمى مواضع « عديدة » . أما الثلاثة العليا فتسمى « مناطق (٧٠) » وموضع الصفري يكون موضعاً عددياً ومنطقة في نفس الوقت .

ويمثل كل رقم بثقب واحد في الموضع المناظر بالعمود ، أما الحروف فيمثل الواحد منها بثقب في موضع عددي وبثقب في منطقة ، وبعض العلامات والرموز الخاصة تمثل بثقب أو اثنين

أو ثلاثة في عمود واحد . وتسهلا لقراءة البطاقات تكون الأرقام مطبوعة على كل عمود على حدة ويكتب رقم كل عمود في أسفله ، وتكون كل البطاقات مشطوفة من الجانب الأعلى من نفس الجهة حتى يمكن وضع البطاقات كلها في وضع متناظر .



شكل (٧) . بطاقة IBM أو Hollerith المثقبة . طولها ١٨٧ سم وعرضها ٨ سم وسكها ١٨ سم .
طبعاً تقريباً وتحتوي على ٨ عموداً .

وقد استخدمت البطاقات المثقبة لسنتين عديدة كوسيلة للاتصال بالآلات الحاسبة ، سواء لإدخال المعلومات إليها ، أو لتسجيل المعلومات الخارجة منها .

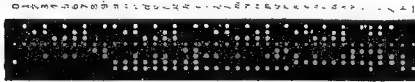
وميزة البطاقات المثقبة أنه يمكن استعمالها لإدخال المعلومات إلى الكمبيوتر أكثر من مرة ، إذ أنه من السهل الاحتفاظ بها .

وتثقب البطاقات إما يدوياً أو باستخدام لوحة أزرار (كهربية) أو أوتوماتيكياً في وحدة إخراج لتسجيل نتائج الحساب . وبعد الانتهاء من تثقيب بطاقة (في غير وحدة الإخراج) يلزم مراجعة التثقيب باستخدام آلة تحقيق ، إما يدوية أو كهربية .

شريط الورق المثقب (٧١) :

تمثل البيانات على شريط الورق بواسطة ثقوب بشفرة معينة تختلف من نظام إلى آخر . وفي المادة يمثل الحرف أو الرقم بنظام من الثقوب في صف يعرض الشريط . وعدد مواضع التثقيب بمرض الشريط يختلف من خمسة إلى ثمانية . ويكون مرض الشريط حوالي بوصة عادة . ومن الشائع أن تحتوي البوصة من طول الشريط على ما يمثل عشرة أرقام أو حروف .

وهناك أنواع متعددة من آلات تنقيب شريط الورق . ويكون التنقيب باستخدام لوحة أزرار كهربية أو أوتوماتيكية في وحدة اخراج لتسجيل النتائج .



شكل (٨) . شريط ورق مثلب ذو لمائية للوب بعرض الشريط (مع الشقوة الخاصة بالأرقام من صفر الى ٩ والحروف اللاتينية وبعض العلامات في نظام EIA) .

الشريط المغنطيسي (٧٣) :

من الشائع استعمال الشريط المغنطيسي في تسجيل البيانات . وقراءة البيانات عليه بواسطة الكمبيوتر أسرع من قراءة البطاقات المثقبة أو شريط الورق المثقب . والمبدأ الذي يبنى عليه تسجيل البيانات على الشريط المغنطيسي بمائل ذلك الذي يبنى عليه تسجيل الأغاني والأحاديث على شريط التسجيل العادي . ويكون قطر الشريط المغنطيسي $10/4$ بوصة وطولته ٢٤٠٠ قدما تقريبا . والعرض الشائع للشريط يتراوح بين $1/4$ بوصة وبوصة عسادة ، وتتراوح سرعة قراءة الكمبيوتر له بين ٣٠ بوصة في الثانية و ١٥٠ بوصة في الثانية .

ويوجد بعرض الشريط سبعة مسارات في الغالب . وبذلك يكون هناك ٧ مواضع ممغنطة أو غير ممغنطة في شقوة خاصة .

وهناك نوع جديد من الشريط المغناطيسي موضوع في علبة مستطيلة (٧٣) كتلك التي تستخدم في التسجيل العادي ولكنها أكبر حجما .



شكل (٩) . شريط مغنطيسي وقد قهرت عليه الاجزاء الممغنطة القابلة للأرقام والحروف اللاتينية والعلامات المبينة في العمود

الطنبور المغنطيسي (٧٤) :

يكون الطنبور المغنطيسي على شكل اسطوانة من الالومنيوم مطلية بمادة مغنطيسية ، ويدور بسرعة كبيرة أثناء التسجيل عليه . ويتفاوت عدد مسارات التسجيل عليه ، كما يتفاوت الطول

المستعمل . وقد تصل سرعة الطنبور الى ١٥٠٠ دورة في الدقيقة ، ومن الشائع ان تكون سعة تخزينه حوالي نصف مليون رقم ثنائي وقد تصل الى ٤ ملايين أو أكثر .

القرص المغنطيسي (٧٥) :

تستعمل الأقراص المغنطيسية كأداة تخزين اضافي ، ولها سعة تخزين كبيرة جدا . وهي تشبه أقراص (اسطوانات) جرامافون كبيرة وتكون مغطاة بطبقة رقيقة من أكسيد الحديد . وتدور الاسطوانات حول محور رأسي مشترك بعمل الف دورة أو أكثر في الدقيقة . وتكون المسارات على القرص في شكل دوائر ذات مركز واحد . وتتوقف سعة تخزين القرص على كل من سرعة الدوران ، وقطر القرص ، والكثافة المغنطيسية المستعملة لكل رقم ثنائي . وقد تصل سعة التخزين على القرص ذي ٤ بوصة والمطل من وجهيه الى عشرة ملايين رقم ثنائي . وباستعمال عشرين قرصا معا قد تصل سعة التخزين الى ٢٠٠ مليون رقم ثنائي .

ومن الممكن إعادة استعمال القرص الذي سجل عليه بيانات (أو برامج) مرات عديدة . وعندما يخزن عليه معلومات جديدة تمحي المعلومات القديمة التي كانت مكانها .

ومن الممكن ابقاء الأقراص متصلة بالكمبيوتر اتصالا دائما . كما انه من الممكن استبدالها بغيرها ، مما يعطي مقدرة على التخزين غير المحدود .

اللب المغنطيسي (٧٦) :

يستخدم اللب المغنطيسي للتخزين الرئيسي في الكمبيوتر الحديثة (ولم يكن يستعمل قبل الخمسينات الأولى) . ويتكون اللب من حلقات صغيرة بدرجات متفاوتة مصنوعة من مادة مغنطيسية . والصغير منها قد يكون قطره الخارجي ٠.٢ بوصة وقطره الداخلي ٠.١٥ بوصة . وقد يحتوي نظام الكمبيوتر الواحد على ٢٠ مليون حلقة . وتسجل البيانات على الحلقات بمغنطتها بواسطة تيارات كهربية تمر في اسلاك يمر كرها أو تلف حولها . ويمكن « قراءة » الحلقات بواسطة تيارات كهربية أيضا .

ويمتاز اللب المغنطيسي بأن الكمبيوتر يستطيع ان يسترجع منه المعلومات بطريقة « الاتصال العشوائي » (٧٦) بمعنى ان الحصول على بيان موجود في موضع معين بالذاكرة لا يستلزم المرور على المواضع الموجودة قبل ذلك .

الطابع السريعة :

قد يكون من اللازم الحصول على النتائج من الكمبيوتر في صورة مطبوعة ، ولذلك تستخدم طابع خاصة ذات سرعات عالية ، وهناك انواع مختلفة من هذه الطابع ، فبعضها يطبع بواسطة دوران اسطوانة عليها حروف بارزة ، وبعضها يطبع بواسطة مطارق . وقد تصل سرعة الطبع الى ٥٠٠ سطر في الدقيقة مع مسافات ضيقة أو واسعة بين السطور ، وبحسب السطر على ١٢٠ أو أكثر من مواضع الطبع (حروفا أو أرقاماً) . ومع السرعة الكبيرة لالة يمكن طبع صفحات كبيرة في ثوان .

١١ - الكمبيوتر والأوتوميشن في الصناعة

الأوتوميشن (٧٨) :

في العمليات الصناعية يستعمل لفظ « أوتوميشن » بمعنى استعمال الآلات للرقابة والتحكم في آلات أخرى . واللفظ مشتق من كلمة اغريقية (٧٩) معناها العمل التلقائي .

وفي عمليات الأوتوميشن يوجد طوران :

في الطور الاول يصدر الكمبيوتر الأوامر الى آلة الإنتاج .

وفي الطور الثاني ترسل نقطة العمل تقريراً الى الكمبيوتر بلفظه فيه بالتغيرات التي حدثت في حالة العمل . ويطلق على التقارير من هذا النوع اسم « التغذية المرتدة » (٨٠) .

وعندما يتلقى الكمبيوتر التغذية المرتدة سأل التقرير بتغيرات الحالة - فإنه يعدل عمل آلة الإنتاج ، أو يوقفها ، أو ينتقل الى طور آخر ، حسب ما يعلى عليه البرنامج ، وبسبب قدرات الكمبيوتر الفائقة لا يلزم غير زمن ضئيل للغاية لانعام تحليل المعلومات الواردة بتقرير التغذية المرتدة واصدار الأمر التالي .

والأوتوميشن شائع الاستعمال في صناعة تكرير البترول التي كانت من أولى الصناعات في هذا المجال ، وهناك عدد من الصناعات الكيميائية شاع فيها العمل بنظام الأوتوميشن ، منها صناعات النايلون والدائن (البلاستيك) والتقطير والطحين .

وفي الصناعات الهندسية نجد أيضاً أمثلة على الأوتوميشن وان كان ذلك لا يشمل في الغالب غير بعض اطوار العمل ، ومن الأمثلة على ذلك بعض اطوار صناعة السيارات . على ان اليوم الذي سنرى فيه الأوتوميشن يسم المصانع الهندسية الكبرى ليس بعيداً ، وفي الواقع هناك من المصانع اليوم ما يسير كله على هذا النظام .. مثال ذلك بعض مصانع أجزاء الآلات اللاسلكية . وهناك بطبيعة الحال رجال يعملون فيها ، ولكنهم فنيون مدربون تدريباً عالياً مهمتهم مراقبة عمل الآلات الأوتوماتيكية ، وصيانتها ، واصلاحها ان لزم الأمر .

ولا يعلم أحد، حتى العلماء انفسهم ، امكانيات الكمبيوتر في مجال الأوتوميشن . ولكن من المؤكد ان استعماله ستزيد يوماً بعد يوماً . واذا كانت الثورة الصناعية الاولى قد اتت ثمارها بعد نحو مائة وخمسين عاماً ، فان الكمبيوتر قد اعطى نتائج مذهلة وهو وليد بعد . ومن المظاهر « البسيطة » للأوتوميشن تحكم الكمبيوتر في سفن الفضاء ، فهو يرسل لها الأمر ، فتدرد عليه ، فيرسل لها أمراً آخر - كل ذلك في لحظة العين . ومن مظاهر الأوتوميشن أيضاً ان بعض الطائرات المجهزة بكمبيوترات تستطيع الهبوط في المطارات بدون مساعدة من القائد ، كما يستطيع بعضها ان تطير بدون قائد وتؤدي عملاً حروبياً ثم تعود وتهبط في الممر المحدد لها .

المقول الالكترونية

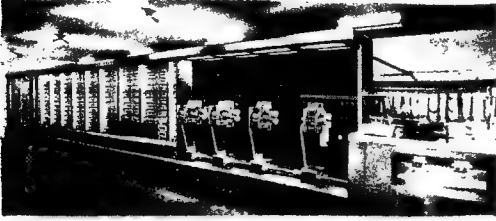
الى اليمين : « جد المقول الآلية »
تشارلز بابيج (١٧٩٢ - ١٨٧١)
كان استاذاً للرياضيات في كمبريدج .



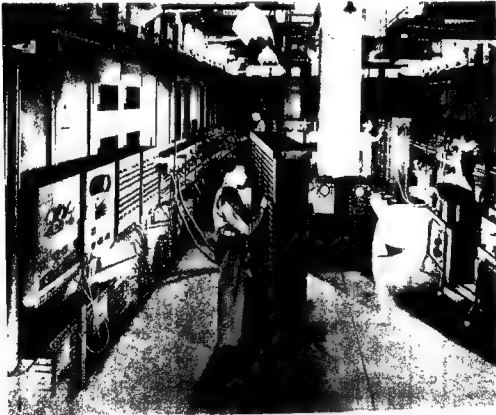
تحت الى اليسار : الرجل الذي
اعطى اكبر دفعة للمقول الالكترونية ..
جون فون نيومان (١٩٠٣ - ١٩٥٧)
كان استاذاً للرياضيات في معهد
الدراسات العليا في پرستون .

تحت الى اليمين : والد علم
« السيبرنتكس » نوربرت فينو (١٨٩٢ -
١٩٦٤) . كان استاذاً للرياضيات
في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا .





المظهر الأمامي للكمبيوتر « مارك ١ » MARK I الذي تم صنعه في سنة ١٩٤٤ وكان أول كمبيوتر رقمي ذي فرش عام ، ولكنه لم يكن إلكترونيًا .



الكمبيوتر « إنياك » ENIAC الذي تم صنعه سنة ١٩٤٦ وكان أول كمبيوتر رقمي إلكتروني . لاحظ أن قامته تدور حول القاعة على شكل حرف U .

المحول الالكتروني

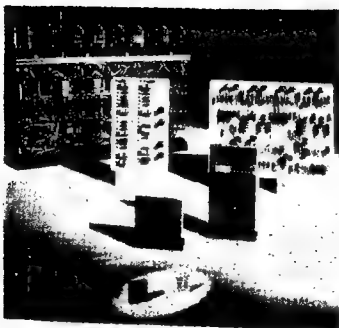
صورة مخترعي الترانزستور من علماء شركة بل
الأمريكية للتليفون ، أخذت لهم سنة اختراعه
(١٩٤٨) ، وهم من اليسار الى اليمين :

و . شوكلي W. Shockley

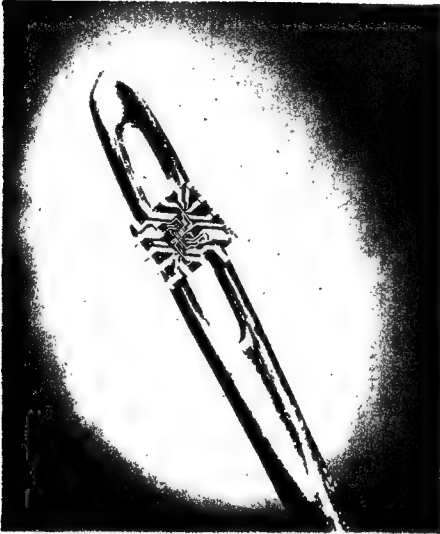
و . هـ . براتين W. H. Brattain

ج . باردن J. Bardeen

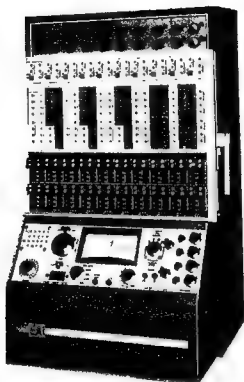
وقد نالوا لاختراعهم جائزة نوبل سنة ١٩٥٦



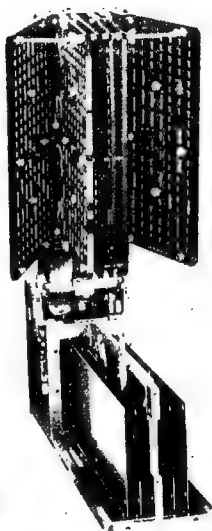
دوائر في ثلاثة اجيال متعاقبة
من الكمبيوترات الرقمية :
(١) في الخلف - دائرة
« انابيب مفرغة » . (٢) في
الوسط - بطاقات « الحالة
الصلبة » التي جاءت نتيجة
اختراع الترانزستور وحلت محل
الانابيب المفرغة . (٣) في
المقدمة - تحت المسود
« قايان » للاموار الدقيقة
يؤدي كل منهما جميع الوظائف
« المتقطعة » للكمبيوتر . ويرى
خلفهما مجموعة من ٦ قوالب
والأخرى من ١٢ قالب من هذه
القوالب الدقيقة .



نموذج للصناعات الإلكترونية الدقيقة مما يستخدم في تركيب الكمبيوترات الحديثة :
على قلب ابرة طولها ٤م سنتيمترا تترك لوحة عليها ١٨ صمما ثنائيا ، واربعة ترانزستورات ،
ولمائية مقاومات كهربية .
بقي ان نشير الى ان هذا النموذج يعتبر « كيرا » بالنسبة الى آخر ما وصلت اليه ذلة الصنع
في المكونات الإلكترونية .

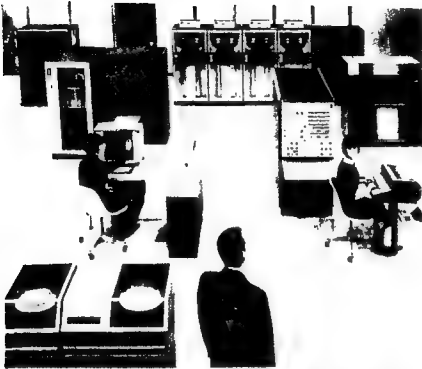


الى اليسار -
الكمبيوتر التناظري Pace TR-20 وفيه تصل دقة
الحساب الى ٩٩.٩٩٪ وهي مرتفعة بالنسبة
للكمبيوترات النظرية ، منخفضة اذا قورنت بدقة
الكمبيوترات الرقمية .
(Electronic Associates Incorporated)

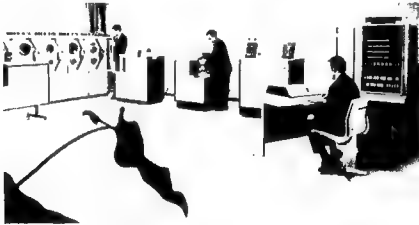


الى اليمين والى اسفل -
الكمبيوتر الحربي المحمول بالجو Alert Airborne
(هانيويل Honeywell)





نظام كمبيوتر من سلسلة آي . بي . إم / 360 System IBM . وترى وحدة المعالجة المركزية في يمين الوسط ، وخلفية بيانات في يسار الخلف ، ومجموعة اقراص في يسار الامام .



نظام كمبيوتر متوسط الحجم طراز يونيفاك ٩٤٠٠ UNIVAC 9400 System



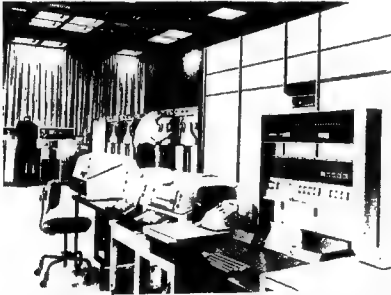
نظام كمبيوتر كبير الحجم طراز يونيفاك ١١.٨ UNIVAC 1108 System



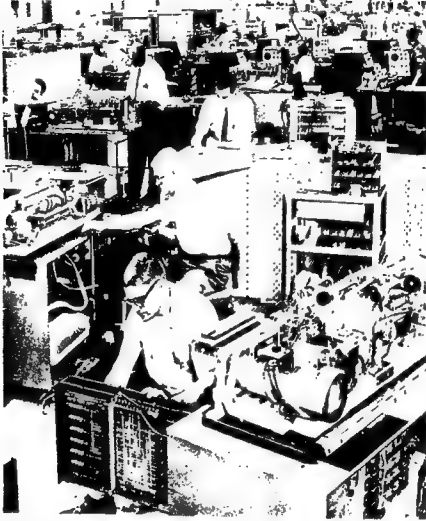
نظام كمبيوتر كبير الحجم طراز آي.سي.ال ١٩٠٦ / ICL 1906-A



نظام كمبيوتر كيه « لولت الطيقى » طراز يونيفاك ٩١ UNIVAC 494 System تستخدمه
الطوط الجوية ويلب دورا هاسا في مشروع «الانسان الى القمر - ناسا»
NASA Man to the Moon Program



مركز شركة Keydata Corporation «الكمبيوتر على الخط» للخدمة التجارية العامة ،
حيث يستخدم نظام الكمبيوتر يونيفاك ٩١ UNIVAC 491 (لولت الطيقى) لمعالجة
البيانات المرسلة عبر خطوط تليفونية مؤجرة من المشتركين في منطقة بوسطن (أمريكا) .

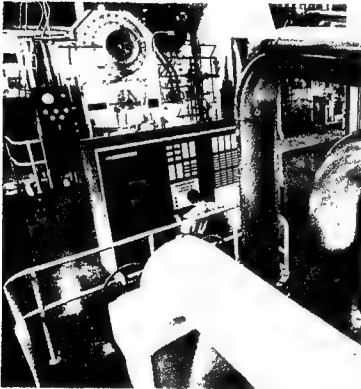


يحتل صالحو الكمبيوترات بأرقامهم سرا لسنوات عديدة . ولكن « لجنة الأوراق الصناعية » الميثاقية من « لجنة أمريكا لاستثمارات البتوك » قدرت في أواخر الستينات أنه في سنة ١٩٧٠ ستكون المبيعات الأمريكية من تجهيزات « معالجة البيانات » في مستوى ٢٠ ألف مليون دولار . وليس هذا خيالا . ففي سنة ١٩٦٢ مثلا ألق من ميزانية الدفاع الأمريكية وحدها ١٢٠٠ مليون دولار لشراء الكمبيوترات ، كما أن صناعات الكمبيوتر تنمو بمعدل من ١٠ إلى ١٢ في المئة سنويا .

والصورة العليا ، التي أخذت في سنة ١٩٦٤ ، تبين تركيب الأسلاك الداخلية في بطابع نظم الكمبيوترات في خط الإنتاج في إحدى منشآت شركة آي.بي.ام IBM .

الكمبيوتر في الصناعة :

عامل يشاهد الكمبيوتر PDP-8/L من إنتاج Digital Equipment Cor. يطبع أوامره لتغيير الآلات . ويعطى هذا الكمبيوتر كذلك البيانات التي تساعد عمال الصيانة على تحديد موضع العيوب في الآلات وتصليحها بدون ضرورة البحث في النظم الكهربائية والميكانيكية والهيدروليكية .

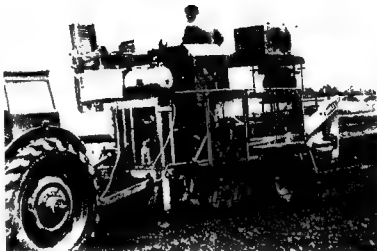


يمكن لنظام IBM 1800 Data Acquisition and Control System

ان يقوم بوظائف مختلفة في
كثير من الصناعات العامة
وتطبيقات البحوث ، مثل
الإشراف على خط التجميع ،
والتحكم في عملية صناعة
الصلب ، والتحكم في العمليات
للديانة التاراطلها .

الكمبيوتر في التجارب

الكمبيوتر PDP-8/L
المشاهد الى يمين المفاعل
الذي يستخدم هنا لمصطة
للمعهد الوطني الاسكتلندي
للهندسة الزراعية فسررب
ادبرته لاختبار جهاز جديد
(قبل انتاجه) لجنى
البطاطس يستعين بالثمة
آس في رفض كل السواد
الغريبة .



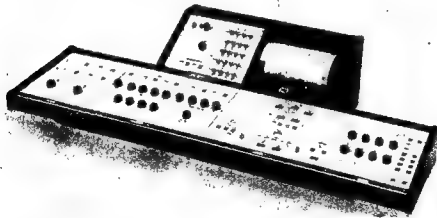
باحث في الكمبيوتر
التطبيقية في مجلس البحوث
الوطني في أوتواوا يستعمل
تالما لشركة Digital
Associates Ltd.
على الكمبيوتر PDP-8/L
لدراسة الرنين المغناطيسي
النوى .



الكمبيوتر في التعليم



في مشروع « لوكال » LOCAL تشترك خمس مدارس عليا في منطقة بوسطون في استكشاف استخدام الكمبيوترات في الفصول الدراسية ، وذلك باستعمال نظام الاشتراك في الوقت Digital Equipment Corporation Tss-8 والذي يمكن الاتصال به عن بعد بواسطة التليبرتر او خطوط التليفون العادية .

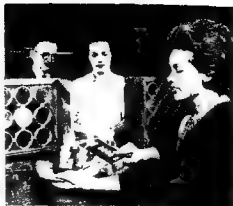


كمبيوتر التدريب Arkay CT-630 Trainer الذي يحتوي على ٦ « قوالب » قابل الوحدات الأساسية الست الموجودة في معظم الكمبيوترات ذات القرص العام .



الكمبيوتر في مساعدة التصميم الهندسي

- باحث في أحد مطبرات شركة جنرال موتورز للسيارات . يستعمل نظام GM DAC-1 لاختيار برنامج كمبيوتر يسمح بتعديل « رسم » تصميم جزء من سيارة .



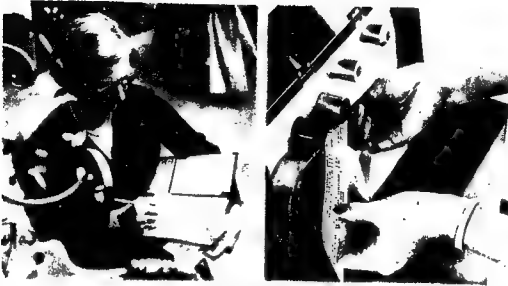
الكمبيوتر في البنوك

باستخدام بطاقة العميل وسماطة التليفون والآزرار الموجودة بجانبها تتصل الموظفة بكمبيوتر البنك وتستعلم منه عن رصيد العميل ، وتغيره بمبلغ العملية فتتلقى منه قيمة الرصيد النهائي للعميل .



الكمبيوتر في المعاهد العليا

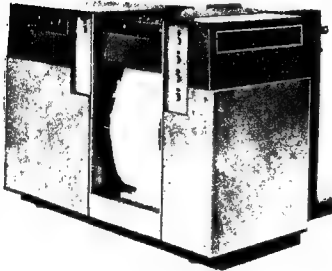
أحد الطلاب في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا يتصل بكمبيوتر كبير للمعهد لأجراء عملياته الحسابية أو حل مسائله العلمية دون أن يغادر مكتبه .



من وسائل التلقين والاخراج

قارئة شريط مثقب (ICL)

الارقام والعروف المكتوبة بالحبر العادي وباليدي يمكن ان
تقرؤها « قارئة حروف بصوية » optical character reader
وترسلها مباشرة الى الكمبيوتر (IBM)



الطبعة الالكترونية آي.سي.سي.
ال ICL 1933 1934
ان طابع لقاية ١٣٥٠ سطر في
الخطية ويحتوي السطر على
٩٦ او ١٢٠ او ١٦٠ حرفا او
وقعا حسب الطلب .

بعض وسائل العرض

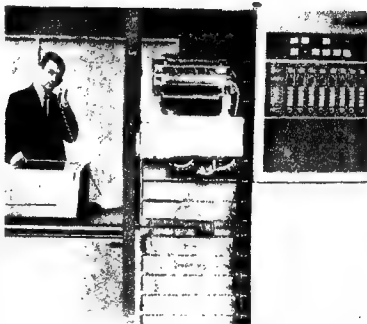
باستعمال هذه « النهاية »
يتصل هذا السجار بكمبيوتر
بمعد غير خط صوتي فينتلي
الاجابة على شاشتين منفصلتين،
التي منها للبيانات الرقمية
والحرفية ، واليسرى للرسم
التي تكون بتجميع التطف .

والنهاية المستخدمة هي

Bunker Ramo Teleq-
note 70 terminal.



ودا على سؤال التي باستعمال
قرص التيليفون يتلقى هذا
المهندس اجابة صوتية عن
الوحدة المستخدمة وهي وحدة
IBM 7770 وتصل الوحدة على
البيانات من كمبيوتر يجمع
كلمات الاجابة من « قافوس »
كلمات مسجلة على الطيور
المقتنسة القاهر في اطل وسف
الصورة .



بعض وسائل التسجيل والتخزين



طبوع مغنطيسي نموذجي من التاج يونيفاك UNIVAC



القرص المغنطيسي الوحيد UNIVAC unidisc
القابل للنقل .



« بنك بيانات » يتكون من مجموعات
قابلة للنقل من الأقراص المغنطيسية .
يمكن الاتصال بها بعد ٧٥ جزء من
الف من الثانية (IBM) .

١٢ - وسائل وعلوم جديدة

علم « رجل سكان السفينة » (٨١)

في سنة ١٩٣٨ قرر نوربرت فينر (٨٢) أستاذ الرياضيات بمعهد ماساوسيتش للتكنولوجيا (٨٣) مع طبيب القلب روزنبلوث (٨٤) استكشاف « الأرض المحايدة بين مجالات العلم المتوسطة المختلفة .. تلك المناطق المتاخمة لحدود العلم والتي تحوى أعظم الفرص للباحث الموهل » . وقد أطلق فينر على العلم الجديد اسم « سيبرنتكس » وهي كلمة أفريقية معناها « رجل سكان السفينة » .

وقد نمت الفكرة بسرعة وجذبت عدداً كبيراً من العلماء ذوي التخصصات المختلفة ، وهكذا نشأت أنواع جديدة من علم « رجل سكان السفينة » ذات اتجاهات رياضية وإلكترونية ، وبيولوجية ، وتكنولوجية ..

وفي أوسع المعاني يشمل علم « رجل سكان السفينة » كل مجالات الرقابة والتحكم والمواصلات في الآلة والإنسان .

واليوم يشمل هذا العلم كلا من المواضيع الآتية :

نظرية المعلومات (٨٥) - المواصلات الحسابات الأوتوماتيكية (٨٦) - الأوتوميشن - تفسير الظواهر البيولوجية - التكيف (٨٧) - التغذية المرتدة في « الحيوانات » الإلكترونية ، أى الآلات التي تستجيب بالتجربة والخطأ - الترجمة الميكانيكية - نظرية ألعاب الاستراتيجية - التنبؤ واتخاذ القرارات ، وبحوث العمليات (٨٨) - الاستنتاج الأوتوماتيكي .

ويتصل الكثير من هذه المواضيع بالكمبيوتر أو استمالاته .

البرمجة الخطية :

عرفت « بحوث العمليات » بأنها « استعمال الطريقة العلمية ، وخاصة طريقة القياس ، للوصول إلى قرارات يبنى عليها العمل التنفيذي » .

ولا شك في أن البرمجة الرياضية هي أهم صور بحوث العمليات ، وأول فصل في البرمجة الرياضية هو « البرمجة الخطية » والتي يمكن تبسيطها بالقول بأنها طريقة رياضية للإجابة على السؤال التالي :

إذا كان لدينا موارد محدودة ذات استخدامات متعددة فكيف نستخدمها للوصول إلى أكبر فائدة ممكنة (أو لتحمل أقل قدر من النفقات) ؟

(وبطريقة أدق : البرمجة الخطية هي النظرية الرياضية لإيجاد النهاية العظمى أو الصغرى لدالة خطية لتغيرات متعددة مع وجود قيود في صورة « غير متساويات » خطية) .

(81) cybernetics	(82) Norbert Wiener	(83) M.I.T.	(84) Rosenbluth
(85) information theory	(86) automatic calculations	(87) adaptation	
(88) operations research.			

وقد كان احسن الحلول لمشكلة الموارد المحدودة المتعددة الاستعمالات هي الطريقة (٨٩) التي توصل اليها الرياضي (الالماني المولد) دنترج (٩٠) مع اثنين من زملائه ، وكان وصولهم للحل سنة ١٩٤٦ لصالح البنتاجون ، على أن الحل لم ينشر الا في سنة ١٩٥١ عندما تأكيد الأمريكيون ان الروس قد وصلوا الى نفس الحل .

ولقد جاء الكمبيوتر في الوقت الملائم لخدمة الحل الذي وصل اليه دنترج وزملاؤه والمبنى على عمليات حسابية طويلة لا يمكن اجراؤها باستعمال الآلات الحاسبة التقليدية الا في ازمة طويلة جدا ، بحث لا يحصل على الاجابة الا بعد فوات وقت الافادة منها .

وهكذا بدأ علم البرامج الخطية . وتبعه علم البرامج غير الخطية .

ولقد جاءت البرامج الخطية حلا لمشاكل تقابل رجال الحرب عندما تكون مواردهم محدودة . على ان هذا النوع من المشاكل يقابل الناس في الصناعات أيضا ، وبغفس القوة . ومن هنا جاء دور علم « البرامج الخطية » في علوم الادارة .

تقويم المشروعات :

في « اهرام » الجمعة ١٩٧٠/٤/٢ كتب محمد حسنين هيكل :

« انني لا اجادل لحظة في ان اسرائيل دولة متقدمة تمتلك كل الوسائل التي انتجها العلم لتحقيق التقدم » .

« لديها جامعات ومعاهد فنية على مستوى ممتاز بأى مقياس عالمي » .

« ولديها مقدر على استيعاب علوم الادارة الحديثة التي هي محرك التقدم المادى » .

« ولديها نسبة سكانها اكبر عدد من العقول الإلكترونية في العالم وكانت هذه العقول هي التي حسبت لهاضربة الجو الحاسمة صباح يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ، بطريقة ال PERT وهي « معادلة التنسيق الكامل في اطار واحد بين خطوات متعددة لكي تتم جميعا في نفس الوقت وبأعلى درجة من الكفاءة ... »

ونحب ان نضيف الى تعريف « الأهرام » لطريقة « برت » أنها تستخدم عندما يوجد مشروع له مناطق متعددة ، بعضها يجب ان تتم فيه النتيجة في وقت ضيق ، والبعض الآخر له فائض من الوقت - وذلك مع وجود موارد محدودة ، ويستعمل استخدام هذه الطريقة تحليلا دقيقا للمشروع بأكمله لكي تعمل قائمة بكل النشاطات أو الأعمال الفردية التي يجب اداؤها لكي يتحقق الهدف النهائي ، ويحتاج الأمر الى استخدام كل المواهب والخبرات لكي يكون التحليل كاملا تماما ومحتويا على كل التفاصيل ، وبعد وضع قائمة النشاطات تنظم هذه في شبكة تعرض فيها العلاقات المتتابعة بها ، وبذلك يلقي الضوء على المناطق التي ليس لها فائض من الوقت للضياع عند تنفيذ المشروع ، والمناطق التي لديها ذلك الفائض .

علم الكمبيوتر (٩١)

لم يحدث قط لاخترع واحد أن ظهرت له الآثار العميقة في المجالات المختلفة في سنوات قليلة مثلما حدث للكمبيوتر ، ولقد تبين بعد أن أدخل فون نويمان الإنكار التي أتى ذكرها فيما سبق أن هذا الاختراع جاء فاصلاً بين عهدين ، فلا محب أن رأينا الإقبال منذ البداية على ميدان الكمبيوتر من علماء الرياضيات والفيزياء ، والمهندسين ، ورجال التكنولوجيا ، وأصحاب رؤوس الأموال . ولقد نشأ من ذلك علوم وتكنولوجيا وصناعات جديدة . ومن العلوم الجديدة في هذا المجال « علم الكمبيوتر » .

وبهذا هنا أن نتكلم من بعض الفروع التي تدخل تحت اسم هذا العلم الجديد . .

في سنة ١٨٥٤ نشر الرياضي والفيلسوف الإنجليزي جورج بول (٩٧) (١٨١٥ - ١٨٦٤) كتابه المسمى « بحث عن قوانين الفكر التي تبني عليها النظريات الرياضية للمنطق والاحتمالات » (٩٧) ولم يكن بول قد نشر قبول ذلك شيئاً يستحق الذكر من البحوث الرياضية الأصيلة التي لها مثل العمق الذي ظهر في هذا الكتاب . وبذلك أصبح أول شخص ينشر باكورة بحوثه العلمية الخلاقة في سن الأربعين ، على أن أفكار بول لم تقابل في مبدأ الأمر بالتقدير الذي تستحقه ، إذ لم يكن واضحاً أى قيمة عملية للنتائج التي وصل إليها ، أو تلك التي وصل إليها الرياضي الإنجليزي الآخر دى مورجان (٩٤) في نفس المجال ، ولم تظهر هذه القيمة إلا عندما كتب كلود شانون (٩٥) في سنة ١٩٣٨ رسالته للمجستير في العلوم من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا ، فقد بحث شانون في رسالته طريقة إيجاد أبسط وكفا توصيلات المفاتيح (٩٦) والمتابعات (٩٧) في الدوائر الكهربائية باستعمال تعبيرات رياضية مبنية على العلاقات بين المتغيرات على أساس المنطق ، تلك العلاقات التي أوجدها جورج بول والتي يطلق الآن على قواعدها اسم « الجبر البولي » .

ومن هنا أصبح الجبر البولي أحد الفروع الأساسية في الرياضيات اللازمة للكمبيوتر . كذلك نشأ فرع جديد لعلم الكمبيوتر باسم « نظرية دوائر المفاتيح » (٩٨) ويتضمن تطبيقات الجبر البولي في التوصيلات الكهربائية .

ولعل القارى يدهش إذ يعلم أن « تصميم الكمبيوتر الرقمي » أصبح الآن تطبيقاً للجبر البولي (في الواقع لنسرع له يعرف باسم « الجبر البولي الثنائي » (٩٩)) .

علوم وفروع أخرى :

في مجال وضع البرامج للكمبيوتر توجد دراسات كثيرة لإنشاء لغات جديدة للكمبيوتر

(91) computer science (92) George Boole (93) "Investigation of the laws of thought on which are founded the mathematical theories of logic and probabilities"

(94) Augustus De Morgan (95) Claude E. Shanon (96) switches

(97) relays (98) switching circuit theory (99) binary Boolean algebra

تكون أكثر صلاحية واسهل استعمالا من اللغات الحاضرة . وتتماون اقسام الرياضيات واللغات في الجامعات فيما يطلق عليه اسم «لغات البرامج» .

ولما كان عمل الكمبيوتر متعلقا أساسا بالبيانات فقد نشأت صلة وثيقة بينه وبين علم جديد يعرف باسم « نظرية البيانات » (١٠٠) .

وفي علم الفيزياء زاد الاهتمام بفرع « فيزياء الحالة الصلبة » (١٠١) نظرا لتطبيقاته في صناعة الكمبيوتر . واليوم يدرس الباحثون كيف يمكن الاستفادة من أشعة « الليزر » (١٠٢) في صناعة كمبيوترات من جيل جديد تتم فيها العمليات بسرعة الضوء .

١٣ - علوم الكمبيوتر واستعمالاته في الجامعات والمعاهد العليا

لقد رأينا كيف إن الفضل الأول في مجال الأفكار الأساسية في تصميم الكمبيوترات كان لأساتذة الجامعات وعلى رأسهم :

- الرياضي بابدج من جامعة كمبردج
- الرياضي فون نويمان من جامعة برنستون
- الفيزيائي إيكس من جامعة هارفارد
- التكنولوجي ويلكس من جامعة كمبردج

ولا عجب إذن أن نرى الاهتمام المتزايد بعلوم الكمبيوتر وتطبيقاته في الجامعات والمعاهد العليا في البلاد المتقدمة ، وفيما يلي بعض المعلومات التي تبين مدى اهتمام الجامعات في هذا المجال ..

في بريطانيا * ينخصص في علم الكمبيوتر وتطبيقاته والعلوم المتصلة به اتصالا مباشرا أكثر من ٢٥٠ من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات والمعاهد العليا ، موزعين كالآتي :

- ١٤٢ عضوا في أقسام « علم الكمبيوتر »
- ٧١ عضو في أقسام « علم البيانات »
- ٣٨ عضوا في أقسام « الرياضيات »

ويوجد في جامعة لندن وحدها معهد متخصص باسم « معهد علم الكمبيوتر » بالإضافة إلى قسمين من أقسام « علم الكمبيوتر » .

وفي جامعة كمبردج يعمل في « مختبر الرياضيات » ستة من أعضاء هيئة التدريس

التخصصين في علوم الكمبيوتر وعلى رأسهم الاستاذ ولكن عضوا الجمعية الملكية الذي صمم الكمبيوتر « ادسالك » .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية * يوجد أكثر من ألف كمبيوتر رقمي في حوالي أربع مائة جامعة ومعهد عال ، ويزيد نصيب علوم الكمبيوتر وتطبيقاته عنه في بريطانيا بكثير بطبيعة الحال، وأمامي الآن دليل الدراسات العليا باحدى الجامعات (جامعة سيراكيوز) فاجد ٧ مقررات من علوم الكمبيوتر .

وأما في البلاد العربية فالأمر مختلف بطبيعة الحال . ولست أقصد ان افارن بلادنا في مجال علوم الكمبيوتر بالبلاد الصناعية الكبرى التي تسبقنا في مجال العلم والتكنولوجيا بمسافات تزيد كل يوم ، ولكن مما يشجع أن نجد ان هناك أربع جامعات حكومية في الجمهورية العربية المتحدة بها مراكز حساب الكتروني وذلك بالإضافة الى مختبر الحساب الالكتروني بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وهذه الجامعات (بترتيب بدء استعمالها للكمبيوتر) هي : الاسكندرية (كمبيوتر امريكي) عين شمس (كمبيوتر امريكي) القاهرة (كمبيوتر انجليزي) ، الأزهر (كمبيوتر هولندي) والأتان الأخيرتان كبيرتا الحجم حديثتان وسعة التخزين الرئيسية في كل منهما قابلة للنمو الى ٢٦٢ ألف كلمة ، أما التخزين الإضافي فيمكن أن يصل الى مئات الملايين ، وعندما تكمل أجزاء كمبيوتر جامعة القاهرة فاته سيملكه تنفيذ ١٦ برنامجا في وقت واحد .

وفي البلاد العربية الأخرى ، مثل الكويت ولبنان ، يوجد كمبيوترات ببعض الجامعات ، كما ان البعض الآخر في طريقها الى انشاء مراكز حساب الكتروني .

١٤ - تكاليف الكمبيوتر

تقسم نظم الكمبيوترات الى ست مجموعات حسب حجمها ، وفيما يلي بيان بالإيجار الشهري بالتقريب في الولايات المتحدة لكل من المجموعات كما كان سنة ١٩٦٧ :

المجموعة	الإيجار الشهري بالدولار
المجموعة الأولى (كبيرة جدا)	من ٥.٠٠٠ الى ١٤.٠٠٠
المجموعة الثانية (كبيرة)	من ٢.٠٠٠ الى ٥.٠٠٠
المجموعة الثالثة (متوسطة)	من ١.٠٠٠ الى ٢.٠٠٠
المجموعة الرابعة (صغيرة)	من ٥٠٠ الى ١.٠٠٠
المجموعة الخامسة (صغيرة جدا)	من ٢٠٠ الى ٥٠٠
المجموعة السادسة (اصغر المجموعات)	من ٣٢٥ الى ٢٠٠

* بيانات ١٩٦٦ ولا بد انه قد حدثت تغيرات كبيرة منذ ذلك الوقت .

١٥ - خاتمة

في سنة ١٩٢٠ هاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية شاب من مواليد بودابست يحمل الدكتوراه في الرياضيات، وكان عمره عند وصوله الى الولايات المتحدة سبعة وعشرين عاما .

وفي سنة ١٩٣٥ هاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية شاب آخر من مواليد بودابست أيضا يحمل الدكتوراه في الفيزياء . وكان عمره عند وصوله الى الولايات المتحدة سبعة وعشرين عاما كذلك .

وقد عرف الرجل الأول فيما بعد باسم « والد الكمبيوترات الحديثة » .

اما الرجل الثاني فقد عرف فيما بعد باسم « والد القنبلة الهيدروجينية » .

وقد عرفنا الرجل الأول فيما تقدم فهو يانوس فون نويمان الذي غير اسمه الاول الى جون .

اما الرجل الثاني الذي يدعى ادوارد تلر (١٩٠٢)، فلم نذكر عنه شيئا فيما سبق . وربما يظن القارئ أننا ذكرناه هنا لنبين أن شخصين من أمة صغيرة لا حول لها ولا قوة قد قاما بجهود علمية ستغير نتائجها وجه العالم الذي نعيش فيه، وأن في هذا عبرة لنا . فلعله يشب يوما ما في بلادنا شخص يغير وجه هذه الأرض بأعماله العلمية .

اتنا لم نقصد ذلك تماما ، وإن كنا نتمناه بطبيعة الحال ، ولكننا قصدنا شيئا آخر . فقد جاءت أفكار فون نويمان أثناء عمله في لجنة الطاقة الذرية الأمريكية ، وكذلك جاءت أفكار ادوارد تلر أثناء عمله في نفس هذه اللجنة . وهناك مثل يقول « بعد الحرب تتحول السيوف الى نصال للمحاربت » ، فصنع السيف سيؤدي يوما ما الى حرث الأرض . وها نحن قد رأينا كم أفاد الناس في وقت السلم من الكمبيوتر ومن الطاقة الذرية . ولعله يأتي اليوم الذي يستطيع فيه الناس تسخير الطاقة النووية الهيدروجينية لخدمة البشر .

معتقد سيتغير كل شيء على هذه الأرض . فالهيدروجين من أكثر العناصر انتشارا ، ولا يكاد يكون له ثمن . والطاقة النووية التي يمكن توليدها منه ليس لها حدود .

وهناك بارقة أمل في نجاح الإنسان في هذا السبيل بعد نتائج بحوث علمية أعلنت حديثا في روسيا . وكل ما نتمناه أن يعم الخير كل البشر .

ولي أمنية ، أرجو من صميم قلبي أن تتحقق : هي أن يكون للعرب قسط ، أي قسط ، في الجهود العلمية التي ستقود الإنسان الى الكونز التي لن تنضب ما بقي من الناس أحياء على هذه الأرض .

تذييل (١)

أنواع البرامج ولغات الكمبيوتر

يتألف البرنامج من سلسلة من الأوامر تلقن للكمبيوتر وتخزن في ذاكرته الرئيسية قبل العمل، وتختلف هذه السلسلة عادة من برنامج إلى آخر، ويقتضى وضع برنامج لحل مسألة معينة ما يأتى :

- ١ - تجزئة المسألة إلى خطوات أولية يستطيع الكمبيوتر أن ينفذها .
- ٢ - كتابة الخطوات في تسلسل سليم .
- ٣ - ترجمة البرنامج المكتوب إلى لغة يفهمها الكمبيوتر .
- ٤ - اختبار البرنامج باستخدام مجموعة بسيطة من البيانات .

والكمترول ، أى التوجيه والتحكم ، هو الذى يفسر كل « أمر » بعد أن يتلقاه في دوره من التخزين الرئيسى مكتوبا بشفرة ثنائية (في معظم الكمبيوترات الرقمية) تعرف باسم « لغة الآلة » (١٠٤) . وتعرف الأوامر في هذه الصورة باسم « أوامر الآلة » (١٠٥) وتتوقف لغة الآلة على تصميمها .

وفي الأيام الأولى للكمبيوترات الالكترونية كان واضعو البرامج يكتبونها بلغة الآلة التى ستنفذ عليها ، وكانوا يلاقون في ذلك مشقة كبيرة . وعلى سبيل المثال اذا كانت الآلة المستخدمة هى آى . بى . ام / ٧٠٤ (١٠٦) فإنه كان يكتب :

0001 0000 0000 0000 0000 0000 1011 0111

للامر بجمع محتويات « الموضع رقم (١٨٣) » في الذاكرة إلى « المراكم » (١٠٧) وهو المكان الذى تخزن فيه نتائج الجمع والطرح الخ .. تخزيننا وقتيا أثناء عملية الحساب .

على أنه قد أمكن التخلص من معظم العناء الذى كان يلاقيه واضعو البرامج باختراع لغات سهلة الاستعمال نسبيا تترجم فيما بعد إلى « لغة الآلة » باستخدام برنامج خاص يتوقف على اللغة المستخدمة وعلى تصميم الآلة . وتزيد اللغات التى اخترعت في هذا المجال وشاع استعمالها في أوقات مختلفة من ١٢٠ لغة ، وذلك بخلاف اللغات التى كان استعمالها محليا .

اللغة الرمزية (١٠٧)

وقد كانت أولى اللغات التى اخترعت للتخلص من مصاعب لغة الآلة تسمح لواضع البرنامج بكتابة « الأوامر » في صورة تحتوي على مختصرات لغوية وأعداد عشرية . وعلى سبيل المثال اذا أريد جمع محتويات « الموضع رقم ١٨٣ » إلى « المراكم » (وهو الأمر السابق ذكره) فإنه قد يكتب

ADD 183

(104) machine language

(105) machine instructions

(106) IBM 7040

(107) accumulator

(108) symbolic languages.

وكذلك كانت أوامر الطرح والضرب والقسمة والقراءة والوقوف تكتب في بعض البرامج (المعدة لتنفيذ على آلات معينة) كما يلي على التوالي (من اليسار الى اليمين) :

SUB, MUL, DIV, RD, HLT

ومن السهل تذكر صور هذه الأوامر اذا انها اختصارات للألفاظ الانجليزية :

SUBtract, MULtiply, DiVide, ReaD, HaLT

والتي لها المعاني المقصودة في الأوامر (وقد كتبنا الحروف المحدوفة في اللغة الرمزية بخط صغير) .
والشفرة من هذا النوع تسمى « شفرة تذكيرية » (١٠٩) لانه من السهل تذكرها . ويطلق على البرنامج الذي يستخدم لترجمة اللغة الرمزية المكتوبة بهذا الشكل الى لغة الآلة اسم «مجمع» (١١٠) كما يطلق على عملية الترجمة اسم «جميع» (١١١) .

وقد اخترعت فيما بعد لغات أخرى ذات مستوى عال (١١٢) (لا تستخدم مع الكمبيوترات ذات السعة الصغيرة جدا) . ومن هذه اللغات ما عم استعماله مثل لغات «فورتران» و «كوبول» و « الجول » وقد اشتقت هذه الأسماء كما هو مبين فيما يلي :

FORTRAN (FORMula TRANslator)

COBOL (COMMON Business — Oriented Language)

ALGOL (ALGebraic — Oriented Language).

والأمر الواحد المكتوب باحدى هذه اللغات يترجم الى سلسلة كاملة من « أوامر الآلة » والبرنامج الذي يستخدم لهذه الترجمة يتوقف على اللغة وعلى تصميم الكمبيوتر ويطلق عليه اسم «مجمع كبير» (١١٢) كما يطلق على عملية الترجمة اسم « التجميع الكبير » (١١٤) .

ونستخدم لغتا فورتران والجول في النواحي العلمية (١١٥) بينما تستخدم لغة كوبول في النواحي التجارية (الأعمال غير العلمية) .

وهناك لغة حديثة نسبيا تستخدم في كل من الناحيتين العلمية والتجارية وتعرف باسم :

PL/I (PROGRAMMING LANGUAGE I)

لغة فورتران :

اعلنت شركة آي . بي . ام هذه اللغة سنة ١٩٥٧ بعد سنوات من البحوث ، وكانت اللغة تتكون من ٢٥٠٠ سطر من الرموز . وقد اكتشفت بعض الأخطاء فيها في مبدأ الأمر . وقد صححت هذه الأخطاء واستمر العمل في تطوير اللغة مدقوقة وظهرت عدة صور منها .

ولغة فورتران ذات قيمة عظيمة في حل المسائل العلمية التي تعتمد على معادلات أو علاقات رياضية . وتستخدم هذه اللغة في الوقت الحاضر مع كمبيوترات من صنع العديد من الشركات .

(109) mnemonic code	(110) assembler	(111) assembly	(112) high-level languages
(113) compiler	(114) compilation	(115) scientific	

لغة كوبول :

في سنة ١٩٥٩ فكرت وزارة الدفاع الأمريكية في تشكيل لجنة من الحكومة ومن ممثلي شركات الكمبيوترات للقيام بتطوير لغة تتكون من الفاظ دارجة الاستعمال في أمريكا وذلك لاستخدامها في معالجة البيانات باستعمال أي كمبيوتر رقمي ذي سعة تخزين معقولة . وكانت لغة كوبول لمرّة لجهود هذه اللجنة .

وتتكون هذه اللغة من الفاظ انجليزية معينة وتركيب جملها حسب قواعد خاصة . وعندما يتم شخص وضع برنامج بهذه اللغة فإنه يكون من السهل على شخص آخر يعرف اللغة الإنجليزية ان يفهم هذا البرنامج وان لم يكن في استطاعته وضع برنامج مماثل له .

لغة الجول

كانت الجول اول لغة كبيرة تصممها لجنة مشتركة من منظمات مختلفة . وفي الواقع كانت اللجنة التي صممتها دولية . وفي مارس ١٩٥٩ صدر في كوبنهاجن اول عدد من (نشرة الجول) (١١٦) وفي سنة ١٩٦٨ صدرت صورة معدلة من هذه اللغة .

لغة PL/ I

منذ بداية استعمال لغة فورتران كان واضحاً ان هذه اللغة تعاني من قصور لعدم إمكان استعمالها في عدد من الآلات الموجودة بالأسواق . وذلك بالإضافة الى صعوبات فنية أخرى . وللمعالجة ذلك وافقت منظمة « شير » (١١٧) وشركة آي . بي . ام في سنة ١٩٦٣ على تأليف لجنة مشتركة لتصميم لغة ذات مستوى عال تخلص من قصور فورتران . وقد تلقت اللجنة مساعدات من افراد وهيئات أخرى . وفي اقل من ثلاث سنوات ظهرت هذه اللغة وكان لها تأثير كبير على صناعة الكمبيوتر . ويعتقد البعض انها ستحل في المستقبل محل لغات فورتران وكوبول والجول .

برنامج المصدر (١١٨) وبرنامج التطبيق (١١٩)

عندما يتم برنامج ويعد لتلقيته للكمبيوتر لترجمته الى لغة الآلة فإنه يسمى «برنامج المصدر» والبرنامج الذي ينتج من الترجمة يسمى « برنامج التطبيق » والبرنامج الآخر هو الذي يستخدم مع البيانات للحصول على النتائج المطلوبة .

تذييل (٢)

نبذة تاريخية عن الكمبيوترات التناظرية

كما سبق ان ذكرنا ان الكمبيوتر « اتياك » اول آلة حاسبة رقمية الكترونية . على ان اول التطورات الالكترونية في صناعة الآلات الحاسبة كان في مجال الكمبيوترات التناظرية . فبفضل التكنولوجيا الالكترونية التي نشأت أثناء الحرب العالمية الثانية امكن صناعة صور الكترونية لالة

ميكانيكية تعرف باسم « المحلل التفاضلي » (١٢٠) كان الدكتور فانيغر بوش (١٢١) من معهد ماساوسيتش للتكنولوجيا قد اخترعها سنة ١٩٢٠ وتم صنع نسخ عديدة منها بين هذه السنة وسنة ١٩٤٢ . وكانت هذه الآلة مبنية على فكرة مبتكر صنعها الفيزيائي البريطاني الكبير اللورد كلفن سنة ١٨٧٦ ويعرف باسم « مكامل كلفن » (١٢٢) على أنه من المرجح أن بوش وزملاؤه قد عملوا مستقلين عن أفكار كلفن .

وقد كانت « المحللات التفاضلية » مفيدة للغاية في دراسة النظم المعقدة التي يمكن تمثيلها بمعادلات تفاضلية . على أنه سرعان ما ظهر أن الكمبيوترات الرقمية الجديدة أكثر قدرة وأوسع افقا ، مما جعلها تحل بسرعة محل الكمبيوترات التناظرية كلما سمحت طبيعة المسائل المعروضة بذلك .

شكر

أود أن أقدم جزيل الشكر للهيئات والشركات الصانعة للكمبيوترات التي تفضلت بتقديم صور توضح نظم الكمبيوترات ومكوناتها واستعمالاتها مما جاء بعضه في هذا العدد من مجلة (عالم الفكر) . ولا شك أن المجلة ستقوم بتقديم البعض الآخر في فرص قادمة .



(120) differential analyzer

(121) Vannevar Bush

(122) Kelvin integrator

المراجع

1. BARTEE T. C. : Digital Computer Fundamentals ; Mc Graw-Hill, 1966.
2. BOWDEN B. V. : Editor : Faster than Thought ; Pitman, 1967.
3. BRAZEE J. G. : Semiconductor and Tube Electronics ; Holt, Rinehart and Winston, 1968.
4. BROWN J. A. : Computer and Automation ; Arco, 1968.
5. BURROUGHS CORPORATION : Digital Computer Principles ; Mc Graw-Hill, 1962.
6. CRAWFORD F. R. : Introduction to Data Processing ; Prentice-Hall, 1968.
7. CULBERTSON J. T. : Mathematics and Logic for Digital Devices ; Van Nostrand, 1966.
8. DEPARTMENT OF EDUCATION AND SCIENCE AND THE BRITISH COUNCIL : Scientific Research in British Universities and Colleges, Vol. I, Physical Sciences ; Her Majesty's Stationery Office, London, 1969.
9. DESMONDE W. H. : Computers and their Uses ; Prentice-Hall, 1964.
10. EADIE, D. : Introduction to the Basic Computer ; Prentice-Hall, 1968.
11. ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 1967.
12. EVANS, G. W. : WALLACE, G. F. and SUTHERLAND, G. L. Simulation using Digital Computers ; Prentice-Hall, 1967.
13. FARINA M. V. : Computers ; Prentice-Hall, 1969.
14. FLORES, E. : Computer Software ; Prentice-Hall, 1965.
: Computer Design ; Prentice-Hall, 1967.
16. FONTAINE G. : Diodes and Transistors ; Centrex Publishing Co., Eindhoven, 1963.
17. FUCHS W. R. : Mathematics for the Modern Mind ; Macmillan, 1967.
18. GERRISH H. H. : Electricity and Electronics ; The Goodheart-Willcox Co. Home-wood III, 1968.
19. GREEN B. F. Jr. : Digital Computers in Research, an Introduction for Behavioral and Social Sciences ; Mc Graw-Hill, 1963.
20. HARTEE D. R. : Calculating Instruments and Machines, Cambridge University Press, 1950.
21. HELLERMAN H. : Digital Computer System Principles ; Mc Graw-Hill, 1967.
22. KRIEGER M. : Basic Switching Circuit theory ; Macmillan, 1967.
23. LAURIE E. J. : Computers and How They Work ; South Western Publishing Co., 1963.

24. LYTEL A. : Digital Computers in Automation ; The Bobb-Merrill Co. 1966.
25. MALEY G. A. and HEILWEIL M. F. ; Introduction to Digital Computers ; Prentice-Hall, 1968.
26. MANDL M. : Fundamentals of Electronic Computers ; Prentice-Hall, 1967.
27. MARCUS M. P. : Switching Circuits for Engineers ; Prentice-Hall, 1967.
28. MARTIN F. F. : Computer Modeling and Simulation ; Wiley, 1968.
29. MARTIN J. : Design of Real-Time Computer Systems ; Prentice-Hall, 1967.
30. : Telecommunications and the Computer ; Prentice-Hall, 1969.
31. McCORMICK, E. M. : Digital Computer Primer ; McGraw-Hill, 1959.
32. MILLERMAN and TAUB : Pulse, Digital and Switching Waveforms ; McGraw-Hill, 1965.
33. RICHARDS R. K. : Digital Computers and Circuits ; Van Nostrand, 1965.
34. SAMMENT J. E. : Programming Languages ; Prentice-Hall, 1969.
35. SAY M. G. : Concise Encyclopaedia of Electricial Engineering ; Elsevier (Amsterdam) 1962.
36. SIPPI C. J. : Computer Dictionary and Handbook ; Sams, 1967.
37. STIBITZ G. R. and LARRIVEE J. A. : Mathematics and Computers ; Mc Graw-Hill, 1957.
38. TATON, RENE, : Science in the Twentieth Century ; Thames and Hudson, 1964.
39. TECHNICAL EDUCATION AND MANAGEMENT Inc., Computer Basics Vols. I-VI, Sams 1968.
40. Thomas H. E. : Handbook of Transistors, Semiconductors, Instruments and Micro-electronics ; Prentice-Hall, 1968.
41. WILLIAMS J. B. : Digital Computing Systems ; McGraw-Hill, 1959.
42. WRUBEL M. H. : A Primer of Programming for Digital Computer ; Mc Graw-Hill, 1959.

مستقبل التغذية في العالم

لعل من بين أبرز مظاهر التغير التي يواجهها عالمنا الحاضر هو النمو المدي الرمح لسكانه، وبشكل يفوق حد التنبؤ والحساب ، بحيث أصبح يكون حالة من التحدي الخطير للجنس البشري بواجهها في نواحي حياته المختلفة : في حصوله على الطعام ، على السكن ، على التعليم ، على العمل الذي يرتقي منه ، وعلى أمور كثيرة أخرى ، وهي حالات تدفعه جميعا إلى استنزاف موارد بيئته ما أمكن ، وإلى حد ربما أدى في بعض الأحيان إلى تدمير هذه الموارد ، وذلك لأنه مهما كانت هذه الموارد ثميرة وكامنة القابليات إلا أنها على نقيض السكان ، لا يمكن أن تنمو بدون حدود ، تلك الحدود التي يعينها كيائها الطبيعي والمربط بأوضاع المناخ ومساحة السطح وما تحت السطح من ثروات معدنية وما فوقه من مظاهر التربة .

صحيح أن الإنسان الحديث بعلمه وبفنونهِ الصناعية قد تمكن من تغير الكثير من معاني الموارد الطبيعية وحول ما كان سلبيا منها وجعله ايجابيا ، وهو لا يزال ماضيا في هذا الطريق ، ولكن لا شك في أن الجواب النهائي على امكانية استمرار هذا التغير تعطينه البيئة الطبيعية نفسها .

وفي خضم هذا التغير أصبحنا نجد العالم اليوم ، لا سيما اصحاب الشأن فيه ، يزداد قلقا من امر هذا التزايد المتفجر لسكانه ، وذلك نظرا لما لهذا الوضع من علاقة بامر انقاف الحاجات الغذائية ، هذه الحاجات الغذائية التي يسبب نقصها الاخلال في الكثير من مواقف الانسان وسلوكه ، حيث قد تضطره مثل هذه الحالة إلى الهجرة ، وقد تدفعه إلى الاستجداء والتسول ، وقد تدفعه إلى بيع ابنائه ، وقد تدفعه إلى اكل لحوم أخيه ، وقد تدفعه أخيرا إلى مهاوى الفناء

* الدكتور حسن طه النجم . استاذ الجغرافيا المساعد بجامعة الكويت . وجامعة بغداد . اشترك في تأليف وترجمة عدد من الكتب في الجغرافيا الاقليمية والاقتصادية .

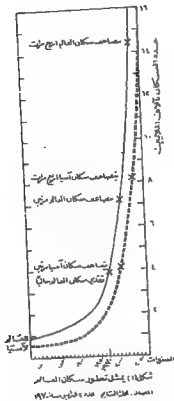
جوعاً. ويؤيد قلق العالم من ذلك أكثر فاكتر كلما نشرت إحصائية جديدة عن تعامل أعداد سكانه ،
ففي عالم اليوم ينتج في كل دقيقة حوالي ١٣٠ فما جديداً طالباً الطعام، وسيزداد عدد هذه الإفواه
المفتوحة أكثر فاكتر كلما مرت السنون .

إن تفاقم مشكلة التقلية بما لها من علاقة بتزايد سكان العالم يمكن أن تتجسم لنا بدرجة
أكبر لدى القائنا نظرة خاطفة على التقديرات الإحصائية لمختلف سكان العالم عبر التاريخ
الحديث ، والتي ستربنا بوضوح أن أعداد السكان هؤلاء قد اخلت بالتنامي المطرد ولا سيما منذ
بداية القرن التاسع عشر ، وهو القرن - الذي بدأت فيه نتائج الثورة الصناعية تتجاوب اصداؤها
في أنحاء مختلفة من العالم وتؤتى أكلها في رفع مستويات المعيشة وتحسين سبل الحياة - فخلال
التمة سنة الواقعة بين ١٨٠٠ و ١٩٠٠ زاد سكان العالم من حوالي ٩٥٥ مليون نسمة الى ١٦٥٥
مليون نسمة أو بنسبة ٧٣٪ تقريبا ، في حين قفز الرقم الى ٢٥٠٠ مليون نسمة بعد خمسين سنة
فقط من بداية القرن الحالي ، أو بنسبة ٥٢٪ ، وهذا على الرغم مما أصاب العالم خلال هذه الفترة
من القرن العشرين من مأسى الحروب المائتين الأولى والثانية ، والحروب الحلية والإقليمية
الأخرى ، والتي عملت جميعها على إزهاق أرواح الملايين من السكان الذين معظمهم في عمر الإنتاج
والتكاثف، كما خلفت ما خلفته من الأوبئة والأمراض الكاسحة التي اختطفت ملايين أخرى وذلك
كنتيجة لتفتش الجماعات وسوء التقلية وقلة العناية الصحية .

على أن هذه النسبة من تزايد السكان التي حدثت في النصف الأول من القرن الحالي لم
تلبث أن تكررت بعد عشرين سنة فقط من بداية النصف الثاني من هذا القرن، حيث بلغ عدد سكان
العالم في مطلع سنة ١٩٧٠ أكثر من ٣٦٠٠ مليون نسمة ، وذلك كنتيجة لانتشار الومي الصحي
وشبوع التعاطف الإنساني الباحث على إغاثة المصابين بالمجاسات منها وعلى تبني برامج
المساعدات المختلفة ، وعلى الرغم من أن هذا التفجر السكاني للعالم وبهذا النمط قد أخذ
يرعب المعينين في مختلف أنحاء العالم بحيث أدى ذلك إلى تعالي الدعوات إلى تحديد النسل وبلل
كل الجهود لتحقيقه ، ولكن دون جدوى . . فان جميع الدلائل تشير إلى أن هذه الزيادات بهذا
الشكل المربع مستمرة ، بل تتأمل تقارير الأمم المتحدة بأنها ستكون بدرجة أشد مما كانت عليه
سابقا بحيث سيتضاعف سكان العالم في نهاية القرن الحالي (أي بعد ثلاثين سنة من الزمن)
مرة أخرى ويصل عددهم إلى حوالي ٦٦٠٠ مليون نسمة ، ثم يتكرر تردد التضامف هذا في
فترات أقل فاقل إذا ما استمرت الزيادة على هذا المعدل بحيث يؤمل أن يصل سكان العالم إلى
حوالي ٢٥٠٠٠ مليون نسمة بعد مئة سنة من الآن - هذا إذا لم تحدث كوارث مبيدة تحد من
هذا التكاثر (١) ، (انظر الشكل ١) .

فهل إذن مع هذه الحقائق المفرقة من تنامي سكان العالم سيتمكن هذا العالم من أن يحقق لسكانه
فعلاً أفضل ينعم فيه أفراداه بحياة حرة من مخاوف الجوع - التي هي أشد المخاوف المنفصدة للعيش
والمودبة به أحياناً - وهل سيتمكن التقنيّة الحديثة من أن تحقق المعجزات التي تراود دائماً
وابداً أفكار المواطنين في التفاؤل ، فنضفى نتائجها بذلك حل الرفاه والخير المعمم على سكان
هذا الكوكب ؟ أم أن قدرة الإنسان ستحددها فعلاً القدرات الطبيعية المحدودة وبذلك يصديق
جدس (المالطوسيين الجدد Neo-Malthusian) والذي يعبر عنه أحد روادهم - الأستاذ أريك
Ehrlich بجامعة ستانفورد الأمريكية - في قول بان « النطاق الحيائي لهذا الكوكب Biosphere

(١) انظر صحيفة الـ Guardian التقنية ، عدد ٢، فبراير ٧، كذا لصحيفة Time « لايم » عدد ٢، فبراير ١٩٧٠ .



سوف لن يكون قادراً على إطالة هذه البلايين من السكان ، وأذن فليس هنالك بد من حدوث المجاعات والأوبئة والحروب التي تعمل على تقليص سكان العالم . (١)

إن الإجابة على هذه الأسئلة وأمثالها مستحيلة الهدف الأساسي الذي سيقتضيه هذا البحث ، حيث سيحاول أولاً تحليل الوضع الغذائي لسكان العالم كما هو عليه في الوقت الحاضر ، ثم كما يحتمل أن يكون عليه غداً ، وبيان مدى قدرة مصادر هذا العالم على اكتفاء حاجات سكانه الغذائية المتنامية ، وبما أن هذه الحاجات الغذائية المتنامية لا يمكن أن نضع لها حدوداً منظورة إذ ما زال سكان العالم في تزايد متفجر وما زالت مطالبهم في توسع مع ارتفاع مستوياتهم المعيشية ، إذن لا بد أن نضع نحن لبحثنا حداً نقف عنده لتحقيق مثل هذا التحليل . وسنستخدم نهاية القرن الحالي - أي سنة ٢٠٠٠ - نهاية وحدنا لذلك ، هذا الحد الذي يعتقد البعض بأن مصادر العالم المتوفرة حالياً ستجابه من بعده الصعوبات في سبيل توفير ما يفي بحاجات السكان الغذائية .

و تحقيقاً للهدف فإن هذا البحث سيعتمد على اتخاذ مصادر الأمم المتحدة - لا سيما منظمة الغذاء الدولية - معيماً مهماً لقياس المعلومات خاصة الإحصائية منها ، لفرض التحليل ، هذا على الرغم من نقص هذه المعلومات أساساً ، وذلك بسبب تعذر الحصول عليها من جزء كبير من مناطق العالم المختلفة ، وعلى الرغم من نقص المصادر ذاتها محلياً ، ولكن مع ذلك فإنه بحدود ما توفر من المعلومات من هذه المصادر ومن غيرها فإن البحث سيحاول تحليلها للوقوف منها على صورة التغذية بوضعها الحالي وللوصول إلى بعض النتائج التي تمت بصلة إلى مستقبلها .

ونظراً لأن البحث الحالي لم يصمم لأن يكون دراسة شاملة لمشكلة متشعبة الأبعاد عميقة الجذور ، كمشكلة التغذية في العالم ، فإتينا سوف تلجأ إلى التعميمات بدل الدخول في التفاصيل الدقيقة ، لا سيما فيما يخص بتوزيع الظواهر المتعلقة بالمشكلة ، ولأجل تحقيق ذلك فإتينا سنلجأ إلى تقسيم العالم إلى أقاليم ومناطق جغرافية كبرى نعتقد أن الدول التي تضمها كل واحدة منها تشترك مع بعضها البعض في بعض الخصائص التي تمت بصلة إلى وضع التغذية وانتاج مواردها ، كما أن مثل هذا التنظيم الإقليمي للعالم هو الذي يبنته معظم المصادر التي عالجت هذه المشكلة ، عالية منها أم خاصة .

هذه المناطق المقترحة للبحث هي : أمريكا الشمالية (وتضم كندا والولايات المتحدة) ، وأوروبا (هذا الاتحاد السوفيتي) ، والاتحاد السوفيتي (بضميه الأوربي والآسيوي) ،

والأوقيانوس (ويشمل استراليا ونيوزيلندا) - وهذه جميعا زائدا اليابان تكون ما يسمى بدول العالم المتقدمة ، أما المجموعة الأخرى من المناطق فتشمل : الشرق الأقصى (عدا اليابان) ، والشرق الأوسط (بما في ذلك الجمهورية العربية المتحدة والسودان وليبيا) ، وأفريقيا (عدا دول الشرق الأوسط منها) وأمريكا اللاتينية (وتضم أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية وجزر البحر الكاريبي) - وهذه جميعا تسمى بالمناطق النامية .

وضع التغذية والغذاء في العالم اليوم :

لا شك في أن تقييم الوضع الغذائي الحالي أو التخطيط لتحسينه للمستقبل ، سواء كان ذلك على المستوى الإقليمي أو المستوى العالمي ، ليس بالأمر الهين ، إذ أن ذلك (كما أوضحنا سلفا) يحتم توفر المعلومات اللازمة والكافية من الأنماط والمستويات والاتجاهات الواقعية لاستهلاك المواد الغذائية ، وهذا يتطلب وجود مصدرين هامين :

١ - ميزانيات الطعام Food-Balance Sheets والتي مجرد مجموع إنتاج الأغذية المعدة للاستهلاك (معدلة بالنسبة لما يدخل التجارة منها) على أن تأخذ بعين الاعتبار ما يوفر من هذا الإنتاج لأغراض الصناعة والعلف الحيواني والبدار والضياع الناء النقل والتخزين .

٢ - مسوحات الاستهلاك الغذائي (Food-consumption surveys) وهي التي توضح الأنماط والمستويات الحقيقية للتغذية لمختلف جماعات المجتمع ، سواء كان ذلك بالنسبة لطبقاتهم أو أعمارهم أو لأجناسهم (١) ولا كان من المتعذر الحصول على القدر الكبير والدقيق من مثل هذه المعلومات لكثير من مناطق العالم ، لا سيما النامية منها - وذلك بسبب بعض المشاكل المحلية من أمثال صعوبة النقل والاتصال ، والجهل بأهمية المسوحات الغذائية ، وكيفية القيام بها - فقد أدى كل ذلك إلى استنباط المعدلات الخاصة بمستويات التغذية بالاستناد إلى دراسة بعض الحالات المحدودة والتي يرجى منها أن تكون ممثلة لمجموعات سكان القطر الواحد المختلفة ، رغم أنها لا تعكس الصورة الصحيحة للوضع الغذائي في الدولة .

ففي محاولة سابقة من قبل صاحب البحث لتقييم الوضع الغذائي لأقليم معين ، وجد أن معظم الدراسات المتيسرة قد تمت نسبة إلى بعض الجماعات المقيمة بالقرب من المدن ، لا سيما العاصمة ، والتي لا شك في أنها جماعات لا يمكن أن تمثل الجماعات الريفية البعيدة ، وذلك بحكم اتصال الأولى بالخواص ذات المستويات المعيشية العالية بالنسبة إلى الأرياف ، هذا مع العلم بأن سكان الأرياف والمدن الصغرى في معظم الدول النامية يتكونون النسبة الساحقة للسكان . ثم أن استنباط معدلات التغذية للدول النامية ذات المستويات المعيشية المتباينة لا يمكن أن يشير إلى الواقع الفعلي لمستوى التغذية العام فيها . ذلك لأن مثل هذه المعدلات تخفى بين طبقاتها الكثير من الوقائع العملية للوضع الحقيقي لتغذية الطبقات الفقيرة والضعيفة الدخل والتي تكون نسبة غير قليلة من السكان .

ومع كل ذلك فقد ساعدت مثل هذه الدراسات على إعداد ميزانيات طعام ومسوحات غذائية عامة لكثير من دول العالم ، مكنت للمنظمات الدولية وغيرها الخروج منها بدراسات مفيدة

(١) انظر : W. Schulte, statistics of Food Consumption " Agricultural Planning Studies, No. 7, F.A.O., Rome, 1966

لتقييم الأوضاع الغذائية للعالم ومناطقه المختلفة وبصورة متتابعة ، وهي عملية لا تزال مستمرة في طريق التطور .

★ ★ ★

من هذه الدراسات ومن غيرها من الإحصائيات المتوفرة ، تتوارد الأدلة جميعا على ان الانتاج المطلق للمواد الغذائية في العالم قد تزايد تزايداً ملحوظاً ، لا سيما خلال العقد الأخير من الزمن . بحيث بلغ ٣٪ سنوياً للفترة الواقعة بين ١٩٥٧ و ١٩٦٧ والجدول رقم ١ - يرينا توزيع هذه الزيادات بحسب نسبها المئوية لمختلف مناطق العالم الكبرى ، ومنه نستشف لأول وهلة بان نسب الزيادات كانت عموماً اعلى في مناطق الدول المتقدمة مما هي عليه في مناطق الدول النامية :

جدول - ١ -

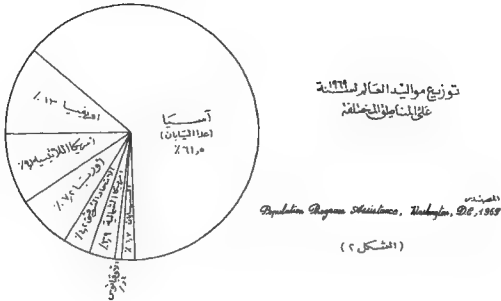
نمو انتاج المواد الغذائية للعالم واقاليمة المختلفة :

المنطقة	النسبة المئوية لصافي زيادة الانتاج السوى : ١٩٥٧ - ١٩٦٧
اوربا الغربية	٢٠٧
اوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى	٢٠٧
امريكا الشمالية	٢٠٢
الاوقيانوس	٢٠٨
الاقطار المتقدمة الاخرى	٢٠١
المعدل العام للاقطار المتقدمة	٢٠٩
امريكا اللاتينية	٢
الشرق الاقصى (عدا الصين واليابان)	٢٠٦
الشرق الاوسط	٢٠٩
افريقيا (عدا جنوبها)	٢٠٢
المعدل العام للاقطار النامية	٢٠٧
المعدل العام للعالم	٢٠٨

(F.A.O., The State of Food and Agriculture, 1969.

المصدر :

هذه الصورة لنمو الانتاج وان كانت تبدو على درجة جيدة من الاطراد ، ولكنها لا تبدو ايجابية جداً عند مقارنتها بنسب تزايد السكان في العالم ، والتي تتصاعد جيلاً بعد جيل بحيث بلغت خلال النصف الاول من عقد الستينات نسبة تقرب من ٢٪ ، وهي نسبة يتباين مداها بين حوالى ٣٪ لأمريكا اللاتينية واقل من ١٪ لجميع القارة الاوربية ، وذلك كما يبدو لنا من الجدول التالى : (كذلك انظر الشكل - ٢ -)



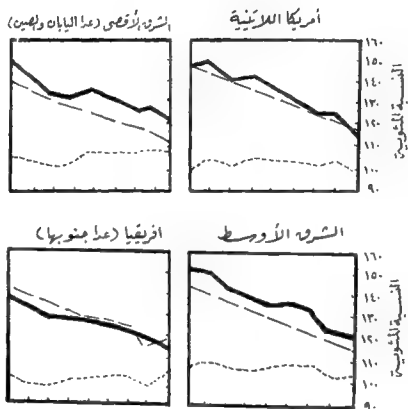
جول - ٢ -

النسبة المئوية لزيادات السكان السنوية للفترة ١٩٦٠ - ١٩٦٤ :

المنطقة	النسبة المئوية للزيادة
أوروبا	٠,٩
أمريكا الشمالية	١,٦
أمريكا اللاتينية	٢,٨
أفريقيا	٢,٤
الشرق الأقصى (عدا اليابان)	٢,٥
الشرق الأوسط	٢,٤
الاقيانوس	٢,٢
المتوسط العام للعالم	١,٨

وإذا قلنا مثل هذه الزيادة للسكان بنسبة زيادات إنتاج المواد الغذائية لمناطق العالم المختلفة المبينة في الجدول - ١ - فإنه سيظهر لنا أنماط التخلّف الذى يتسم به إنتاج المواد الغذائية (بمعدل الشخص الواحد) في الدول النامية مما هو عليه في الدول المتقدمة ، وذلك كما يظهره الجدول - ٣ - والشكل - ٣ - والخريطة في الشكل - ٤ - .

(الشكل ٣)



اتجاهات إنتاج الأغذية وتزايد السكان

في المناطق النامية
(سنة ١٩٠٥ / ١٩٦٨ = ١٠٠)

— إنتاج الأغذية
- - - السكان
... معدل إنتاج الغذاء للفرد

المصدر F.A.O. The state of Food & Agriculture 1969

جدول - ٣ -

معدل صافي النسبة التوبة لزيادة انتاج المواد الغذائية للشخص الواحد سنويا : للفترة ١٩٥٧ - ١٩٦٧ :

المناطق المتقدمة	المناطق النامية
أوروبا الغربية ١٨٨	أمريكا اللاتينية ٠١
أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي ٢٠٤	الشرق الأقصى (عدا الصين واليابان) ٠١
أمريكا الشمالية ٠٦	الشرق الأوسط (عدا فلسطين) ٠٣
دول متقدمة أخرى ١٩	أفريقيا (عدا جنوبها) ٠٣
الأوقيانوس ١٦	
معدل المناطق المتقدمة ١٦	معدل المناطق النامية ٠١
المعدل العام للعالم ٨٠	

(F.A.O., The State of Food and Agriculture, 1969.

المصدر :

يتبين لنا من مطالعة الجدول الانف الذكر والشكل (٣) والخريطة التي توضحهما بان تزايد انتاج المواد الغذائية ، لا سيما في الدول النامية ، لا يتكافأ مطلقا مع حاجات السكان فيها. فلو اخذنا بنظر الاعتبار حقيقة كون الفرد في هذه المناطق غالبا ما يعيش بمستوى غذائي واطئ - يعادل بمقياس السعرات الحرارية ما لا يزيد على ٢١٠٠ سعرة يوميا ، بالمقارنة مع معدل ٣٠٠٠ سعرة أو أكثر بالنسبة للفرد في الدول المتقدمة - فضلا على ما ذكرناه سابقا من أن مثل هذه المعدلات لا تمثل الصورة الحقيقية لوضع التغذية للنسبة العظمى من السكان ، إذن لتبين لنا النقص الكبير الذي تعانيه الدول النامية في انتاج المواد الغذائية نسبة إلى الوفرة الكبير الذي تحققه الدول المتقدمة، وتحدث لنا الإحصائيات الحديثة عن انتاج المواد الغذائية في الدول المتقدمة بان بعض هذه الدول قد اخذت تعاني من تكديس يفيض المواد الغذائية بصورة مستمرة خلال عشر السنوات الماضية ، بحيث يؤمل أن تصل بالنسبة لبعض هذه المواد - مثل القمح - حدا يصعب معه تخزينها ، لذا فلا يجب أن نستغرب إذا نجد بلدا كالولايات المتحدة الأمريكية مثلا ، ينتج من المواد الغذائية ما يعادل ١١٠٠٠ سعرة حرارية يوميا للفرد الواحد ، في الوقت الذي لا تزيد حاجة هذا الفرد على ٣٠٠٠ سعرة . وفيما يلي جدول يوضح لنا مدى التكدس الذي تحقق لبعض المواد الغذائية في بعض دول الانتاج الوفير خلال العقد الحالي من الزمن . (١)

جدول - ٤ -

مقادير التكدس من بعض الحاصلات الغذائية (بملايين الطن) :

التيبوه	١٩٦٧	١٩٦٧	١٩٦٦	معدل ١٩٦٣ - ١٩٦٥	معدل ١٩٦٠ - ١٩٦٢	
١ - القمح :						
في الولايات المتحدة	٢٢١	١٤٧	١١٦	١٤٦	٢٦٤	٣٦٧
في كندا	٢٢٦	١٨١	١٥٧	١١٤	١٣٢	١٤٥
في الأرجنتين	٠٧	١	٠٣	٠٢	٢	٠٧
في إستراليا	٧٥	١٤	٢٣	٠٦	٠٦	٠٩
في فرنسا	٢٧	٢٤	١٧	٢٥	٢٥	٢
المجموع	٥٥٦	٣٧٦	٣١٦	٢٩٤	٤٤٧	٥٤٨

F.A.O., The State of Food and Agriculture — Rome 1969.

(١) انظر :

٢ - الحبوب القليظة (من الليرة والشعير وفيرهما)

٤٤٢	٤٤٢	٣٤٦	٢٨٦	٥٧	٧٠٢	في الولايات المتحدة
٦٧	٤٤	٥١	٤٥	٤٨	٤	في كندا
١٨	١٨	٠٦	٠١	٠٣	٠٤	في الأرجنتين
١	٠٨	٠٩	٠٦	٠٣	٠١	في استراليا
١٤	١٦	١١	١٢	١٣	١٦	في فرنسا
٥٤٨	٥٢٨	٤١٩	٤٥	٦٣٧	٧٦٣	المجموع

٣ - الزيدة :

...	٠٥٨	٠٤٥	٠٣٤	٠٣٣	٠٣٥	المجموع العالمي
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----------------

٤ - السكر :

١٧٢	١٨٧	١٨٧	١٨٦	١٣٢	١٥١	المجموع العالمي
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----------------

استناداً الى هذه الحالة القائمة في عدم تكافؤ انتاج المواد الغذائية بالنسبة للفرد الواحد في مختلف دول العالم ، ونظراً لان أكثر من ثلثي سكان العالم هم من سكان المناطق النامية ، وان هذه النسبة ستزداد مع تزايد السكان في المستقبل (١) فان من المتوقع ان تنحصر مشكلة التغذية في العالم ، وستبقى محصورة بهذه المناطق النامية . يؤيد ذلك ما توصل اليه المسح الغذائي العالمي الثالث الذي نشرته منظمة الغذاء الدولية سنة ١٩٦٣ من ان ٦٠٪ من سكان المناطق النامية تعاني اما من نقص التغذية او من سوءها ، واذا اضفنا الى ذلك الجماعات التي تعاني من مثل هذه المشاكل في الدول المتقدمة (حيث قد اشارت الانباء مرة ان في الولايات المتحدة وحدها يوجد حوالي ١٨ مليون نسمة من السكان ، او حوالي ٩٪ من المجموع يعانون من سوء التغذية) فانه يمكن القول بان ما يقرب من نصف سكان العالم يعانون اما من علائم المجاعة او من نقص التغذية (٢) . واذا فسيكون من قبيل تحصيل الحاصل ان يقتصر اى بحث عن مشكلة التغذية

(١) انظر : Sukhatme, Basu, and Schulte, Problem of Population and Resources with

Reference to Land Use and Food Supply.

(مقالة خاصة)

F.A.O., Third world food survey, Rome, 1963, P. 51.

(٢) انظر :

في المالم على المناطق النامية بالدرجة الاولى ، والتي تشير جميع الدلائل الى انها في طريق التازم بسبب التزايد الكبير الذي تشهد هذه المناطق في سكانها .

عوامل وملاص سوء التغذية :

ان سوء التغذية او نقصها عند سكان المالم ، ولا سيما سكان المناطق النامية ، لا ينشأ فقط عن تخلف الانتاج النسبي للعواد الغذائية ونقص ما يتوفر منها للأفراد ، وانما ايضا عن نوعية الغذاء وانماط التغذية ففي الوقت الذي نشاهده فيه المواطن في دول المالم المتقدم يستمد غذاءه من مصادر متعددة ، نجد الفرد في الدول النامية يستمد غذاءه من مصدر رئيسي واحد او من بضعة مصادر قليلة ، ففي الهند مثلا تكون الحبوب الغذائية اكثر من ٦٠٪ من مواد الغذاء للسكان - خاصة الريفيين منهم- بينما هي لا تزيد على ١٠٪ من وجبة الفرد الامريكي ، هذا فضلا على ان الاعتماد على الحبوب الغذائية والمواد النشوية آخذ في التناقص في الدول المتقدمة لاسباب المصادر الغذائية الاخرى مثل الخضروات والفواكه والمنتجات الحيوانية ، وهذا ما يؤدي الى اخلال التوازن بين عناصر التغذية المختلفة من السعرات الحرارية والبروتينات والفيتامينات المختلفة والتي تعتبر جميعا ضرورية لبناء جسم صحي وسليم للفرد ، وذلك على النقيض من الاقتصاد على مصادر محدودة في التغذية ، التي وان كانت احيانا تحقق وفرا من السعرات الحرارية ، الا انها تشكل نقصا في العناصر الاخرى المذكورة اعلاه ، وهذا النقص الذي يعزى اليه الكثير من الامراض التي تلام الاطفال وتصيب البالغين في الدول النامية امثال الكساح والبلجرا وفقر الدم وغيرها ، حيث يقدر بان المالم يفقد يوميا حوالي ١٠٠.٠٠٠ نسمة من السكان (معظمهم من الاطفال) بسبب الامراض التي ينشأ جزء لا يستهان به منها من سوء التغذية (١) . ففي مقارنة ثانية بين مكونات الغذاء للفرد الامريكي ومكوناته للفرد الهندي نجد بان مقدار البروتينات المتوفرة للفرد الامريكي يبلغ حوالي ٩٥ جراما يوميا ، ٦٤ منها (او حوالي ثلثها) من البروتينات الحيوانية المهمة ، في حين ان ما يتوفر للفرد الهندي لا يزيد كثيرا على معدل ٥ جراما يوميا ، عشرين فقط من البروتينات الحيوانية ، وفي الصين الوطنية التي تعتبر الآن احسن مستوى في التغذية من كثير من الدول الاسيوية الشرقية الاخرى (عدا اليابان) ، نجد ان هذه الارقام هي ٢٤،٦٨ على التوالي (٢) ولكنها على اى حال دون مستوى البروتينات المتوفرة للفرد في الدول المتقدمة كما نوهنا .

وفي الجدول التالي انتخبنا بعض الدول التي تمثل كلا من المناطق المتقدمة والمناطق النامية على التوالي ومن مختلف قارات المالم وذلك لتوضيح مدى التباين الذي تتكون منه مصادر الغذاء المتوفر للفرد الواحد يوميا وبين فترتين من الزمن : فترة سابقة وفترة حالية (٣) ، والتي من المقارنة بينهما يمكن الاطلاع بسهولة على مدى ونوع التطور الذي تتسم به التغذية في مناطق المالم المختلفة .

(١) من رسالة خاصة للرئيس نيكسون الى مجلس الكونجرس الامريكي في تموز ١٩٦٩ .

The State of Food and Agriculture, P. 149.

(٢) انظر المصدر السابق الذي :

(٣) نفس المصدر

جدول - ٥ -

معدل ما يصيب الفرد الواحد من بعض المواد الغذائية المعدة للاستهلاك :

(غرام/يوميا)

الدول	الفترة	حبوب فدائية	بطاطس ونشويات	سكرات	خضروات	فواكه	لحوم	حليب
١ - أ - المقدمة								
١ - إنجلترا	١٩٣٤ - ١٩٣٨	٢٦١	٢٢٦	١٢٢	١٤٩	١٤٤	١٨٤	٤٠١
	١٩٦٧ - ١٩٦٨	٢٠٠	٢٨٢	١٢٥	١٧٢	١٣٩	٢٠٤	٦٠٠
١ - إيطاليا	١٩٣٤ - ١٩٣٨	٤٤٠	١٠٠	٢٢	١٥٣	٨٧	٥٥	٢١٦
	١٩٦٦ - ١٩٦٧	٣٦٠	١٢٠	٧٢	٤٣٠	٣٢١	١٠٦	٤١٨
١ - المجر	١٩٦٠ - ١٩٦٢	٣٧٢	٢٦٢	٧٥	٢٢٠	١٦٧	١٣٢	٢٩٥
	١٩٦٧ - ١٩٦٨	٣٦٨	٢٣٢	٨٨	٢٢٣	١٩٢	١٤١	٢٨٨
٤ - الولايات المتحدة	١٩٣٥ - ١٩٣٩	٢٥٣	١٨٢	١٢٥	٢٩٠	٢٧١	١٩٧	٥٦٠
	١٩٦٧ - ١٩٦٨	١٧٧	١٣٣	١٣٣	٢٦٦	٢٣٩	٢٩٥	٦٦٥
٥ - اليابان	١٩٣٤ - ٣٨	٤٣٢	١٢٧	٣٩	١٩٣	٤٢	٨	٩
	١٩٦٧ - ١٩٦٨	٣٨٠	١٨٨	٥٧	٣٦٢	١٢١	٣٧	١١٨
٦ - استراليا	١٩٣٥ - ٣٩	٢٩١	١٨٠	٧٤	٦٧	٢٢٩	٢٩٢	٤١٩
	١٩٦٦ - ١٩٦٧	٢٦٨	٢٠٢	٩٠	١٢٤	٢٢٩	٣٠٩	٣٣٩
ب - الدول النامية								
١ - الهند	١٩٣٤ - ٣٨	٣٧٧	٢١	٣٦	٦٨	٧٢	٨	١٧٧
	١٩٦٥ - ٦٦	٣٤٦	٣٩	٥٠	٩	٤٤	٤	١١٠
٢ - الجمهورية العربية المتحدة	١٩٤٨ - ٥٠	٤٧٤	٢٩	٣٩	١٢٥	١٣٨	٢٨	١٦٣
	١٩٦٥ - ٦٦	٥٥١	٣٨	٤٩	٢٤٢	٢٣٠	٣٦	١٢٢
٣ - تركيا	١٩٣٤ - ١٩٣٨	٥٢٠	١٦	٢٠	٨٧	١٥٦	٤١	٢١١
	١٩٦٠ - ١٩٦١	٦١١	١٠٥	٥١	٢٨٨	٣٤٠	٣٧	٢٢١
٤ - جابون	١٩٦٠ - ١٩٦٢	٤٤	١١٣٩	٨	١٠٨	١٤	٨٢	١٦
	١٩٦٣ - ١٩٦٥	٥٦	١١٠١	١١	١٠٥	١٢	٧٣	٢٧
٥ - المكسيك	١٩٥٤ - ١٩٥٦	٣٤٦	٤٥	٨٨	٥٣	١٣٦	٥٤	١٩٠
	١٩٦٥ - ١٩٦٦	٣٥٦	٢٤	١٠٩	٦٧	١٨٧	٥٣	٥٦
٦ - فنزويلا	١٩٥٢/١٩٥٢ - ١٩٦٦	٢٢٣	٢٣٨	٨٨	٢٧	١٠٨	٥١	٢٠٠
		٢٥٤	٣٣٥	١٠٦	٤١	٢٩٥	٨٠	٢٠٢

وكتيجة لهذا التباين في مصادر الغذاء عند مختلف شعوب العالم ، لا بد ان تكون ميزانية الغذاء من السعرات الحرارية والبروتينات التي يستعملها الفرد من غذائه متباينة ايضا ، يبدو لنا ذلك واضحا من استنباط مثل هذه الميزانية للدول التي ورد ذكرها في الجدول - ٥ - والتي يظهرها لنا الجدول التالي :

جول - ٦ -

تقرير السعرات الحرارية والبروتينات التي تصيب الفرد الواحد من معدل مواد الغذاء الاستهلاكية :

الدول	الفترة	السعرات	مجموع البروتينات الحرارية	الحيوانية منها
١ - المتقدمة				
١ - إنجلترا	قبل الحرب	٣١١٠	٨٠٠٢	٤٣٠٩
	٦٨/١٩٦٧	٣١٥٠	٨٧٥٥	٥٣٠٨
٢ - إيطاليا	قبل الحرب	٢٥١٠	٧٦٦٦	٢٠٠٢
	٦٧/١٩٦٦	٢٨٦٠	٨٥٤٤	٣٥٥٥
٣ - المجر	٦٢/١٩٦٠	٢٠٣٠	٩١٠٧	٣٧٠٢
	١٩٦٧	٢١٤٠	٩٦٤٤	٣٦٤٤
٤ - الولايات المتحدة الأمريكية	قبل الحرب	٢٢٨٠	٨٦٠٣	٥١٠٧
	٦٨/١٩٦٧	٣٢٠٠	٩٥٠٦	٦٨٠٦
٥ - اليابان	قبل الحرب	٢٠٢٠	٥٩٠٧	٧٠٧٧
	١٩٦٧	٢٤٦٠	٧٤٠٧	٢٨٠٢
ب - الدول النامية :				
١ - الهند	قبل الحرب	١٩٥٠	٥٢٠٢	٨٠٢
	١٩٦٦	١٨١٠	٤٥٤٤	٥٤٤
٢ - الجمهورية العربية المتحدة	٥٠/١٩٤٨	٢٣٦٠	٦٩٠٣	١٢٠١
	١٩٦٦	٢٨١٠	٨٠٠٨	١١٠٨
٣ - تركيا		٢٤٩٠	٨١	١٥٠٩
	٦٢/١٩٦٠	٣١١٠	٩٧٥٥	١٥٠٩
٤ - جايبون	٦٣/١٩٦١	١٩١٠	٣٥٠٩	١٥٠٧
٥ - المكسيك	٦٢/١٩٦١	٢٥٠٠	٦٥	١٥٥٥
	١٩٦٦	٢٥٥٠	٦٥٠٧	١٥٠٢
٦ - فنزويلا	٦٢/١٩٦١	٢٣٠٠	٥٨٠٧	٢٣
	١٩٦٦	٢٤٩٠	٦٥٠٩	٢٦٠٤

The State of Food and Agriculture, 1969.

المصدر :

وإذا ما اتمدنا ميزانيات الغذاء التي اعدتها منظمة الغذاء والزراعة الدولية لـ ٨٤ دولة خلال فترة النصف الأول من عقد الستينات أساساً لتقييم الوضع الغذائي في العالم ، وفارناها بمعدل حاجات الفرد الواحد من الغذاء بمقياس السعرات الحرارية ، كما توصلت إليها دراسات المنظمة ذاتها نسبة إلى الأعمار والظروف المناخية العامة التي تميز المنطقة (١) ، وبمقياس البروتينات كما اقترحت نسبها لجنة الطعام والتغذية لمجلس البحث القومي الأمريكي (٢) National Research Council فإننا نستمكن من تمييز عدد من المستويات الغذائية كما يعيشها عالمنا اليوم، والتي

ملاحظة: تعتبر البروتينات - خاصة من المصادر الحيوانية - ذات أهمية شديدة في بناء الجسم ، إذا أنها تكون نصف جسم الإنسان بعد استنزاف الياء منه .

(١) انظر : F.A.O., Calorie Requirements, Nutritional studies No. 15, Rome 1958

(٢) انظر : U.S. Department of Agriculture, Food, (the year book of Agriculture,

1959 p. 61)

بعد تدقيقها وجدنا ان من الممكن ان تنتظم في خمس مجموعات رئيسية تتوزع جغرافيا في مناطق العالم المختلفة بالصورة التي تظهرها لنا الخارطة في الشكل - ٥ - وهذه هي :-

١ - مناطق الفيض القذائي : وهي المناطق التي يزيد معدل ما يصيب الفرد الواحد فيها من السعرات الحرارية على ٣٠٠٠ وحدة يوميا، ومعدل البروتينات التي يتناولها على ٨٠ جراماً يوميا والتي أكثر من نصفها من مصادر حيوانية ، وتشمل هذه امريكا الشمالية واوروبا الغربية والوسطى والافقيانوس .

٢ - مناطق عالية التغذية : وهي التي يتراوح معدل نصيب الواحد من السعرات الحرارية فيها بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ وحدة يوميا ، ومعدل البروتينات بين ٦٠ و ٨٠ جراماً ، أكثر من ربعها من مصدر حيواني ، وتشمل الاتحاد السوفيتي والدول الاسكندنافية وشرق اوربا ودول البحر المتوسط الاوربية وتركيا والمكسيك والبرازيل والارجنتين واورجواي وباراجواي وافريقيا الجنوبية واليابان .

٣ - مناطق معتدلة التغذية : ويتراوح معدل استهلاك السعرات الحرارية فيها بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ وحدة للفرد الواحد يوميا ، ومعدل البروتينات بين ٥٠ و ٦٠ جراماً يوميا ، أقل من ربعها من مصدر حيواني ، وتشمل الصين ودول الشرق الاوسط (عدا الجزيرة العربية) ، وافريقيا (عدا واسطها وشرقها) ودول غرب امريكا الجنوبية .

٤ - مناطق ضعيفة التغذية : ويبلغ معدل استهلاك السعرات الحرارية للفرد الواحد كما في المنطقة الثالثة ، إلا ان معدل البروتينات التي تصيب الفرد الواحد يقل من ٥٠ جراماً يوميا وأقل من ربعها من مصدر حيواني ، وتشمل هذه بقية دول الشرق الاقصى واواسط افريقيا وموزمبيق وملاياسيا وكولومبيا في امريكا الجنوبية .

٥ - مناطق رديئة التغذية : ويقل معدل استهلاك السعرات الحرارية فيها من ٢٠٠٠ وحدة يوميا للفرد الواحد والبروتينات عن ٥٠ جراماً يوميا ، حوالي عشرين من مصادر حيوانية ، وتشمل الجزيرة العربية (عدا بعض مناطق الخليج العربي الصغيرة) والصومال والفلبين وجزائر جنوب شرقي آسيا وبوليفيا واكوادور ومقاطعات شيانا .

ولدى تدقيقنا الخارطة في الشكل - ٥ - والجدولين ٦ و ٧ فاننا نتجمن من استخلاص بعض النتائج العامة لافشاع التغذية في العالم اليوم :

١ - ان دول العالم التي تعاني من انخفاض مستويات التغذية هي تلك التي تقع ضمن المناطق المدارية وشبه المدارية من جميع قارات العالم (عدا البرازيل) ، وهذه هي التي تسمى بدول المناطق النامية ، ولما كانت هذه المناطق تضم حوالي ثلثي سكان العالم ، فان ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه اتفا من ان غالبية سكان العالم تعاني من مشاكل سوء التغذية اليوم .

ومع ذلك فإن تصنيف هذه الدول الى مثل هذه المستويات لا يمثل الا معدلات عامة للاستهلاك الغذائي والذي - كما قلنا - يخفي بين طياته العديد من الحالات التي تسمى هي ادنى جداً من المستوى الذي تنضوي تحته وحتى في مناطق التغذية الجيدة ، كالبرازيل ، هناك مناطق ، مثل

منطقة (السرتاو) في شمال شرق البرازيل التي تعتبر من بين المناطق المتكررة التكتبات الغذائية بسبب تقلب الأحوال المناخية فيها ، فلا شك إذن أن توجد أجزاء في مناطق التغذية الضعيفة هي أسوأ جدا مما تظهر به على الخارطة بحيث قد تصل إلى مستوى الجماعات الكاسحة .

٢ - أن مصادر التغذية عند الشعوب النامية ، كما سبق وذكرنا لا تزال تركز بالدرجة الأولى على المحاصيل الزراعية من الحبوب والنشويات ، لا بل قد تزايد الاعتماد عليها عبر السنين القليلة الماضية حتى الوقت الحاضر ، بينما لا تزال المصادر الحيوانية تحتل مركزا ثانويا جدا في تغذيتها بل ربما شهد مركزها شيئا من التقلص بين بقية مصادر الغذاء .

٣ - يحدونا الحس إلى القول أنه فضلا على عدم التوازن المنظور بين مصادر الغذاء وعناصره المختلفة في الدول النامية ، فإن مثل هذه الحالة قد تزداد اختلالا عبر السنة وبتغير الفصول ، وذلك كنتيجة طبيعية لوفرة مواد الغذاء بعد موسم الحصاد وشحته قبل ذلك ، ومما يزيد اعتقادنا في ذلك هو ضعف وسائل التخزين والحفظ للمواد الغذائية مما لا يمكن معه تحقيق توازن توزيعها عبر السنة ، ومما يؤيد مثل هذه الظاهرة أيضا وقائع المجاعة التي تحتاج الكثير من الدول النامية بين آن وآخر عند تظلف المحاصيل أو فشلها لسبب من الأسباب .

٤ - أما بالنسبة للشعوب المتقدمة ، فإن غذاء أفرادها يتسم بالتوازن بين عناصره المختلفة ومصادره النباتية والحيوانية وإن المصادر الحيوانية تزداد وزنا في تكوين وجبة الطعام اليومية .

٥ - أن الشعوب التي حققت قدرا كبيرا من التقدم وأصبحت في عداد الشعوب الجيدة التغذية ، مثل دول البحر المتوسط الأوروبية ، والتي تمثلها إيطاليا في الجدول ، ودول البلقان ، والتي تمثلها المجر وكذلك اليابان قد حققت تطورا كبيرا أيضا في نمط تغذيتها في الآونة الأخيرة ، حيث زادت من استهلاك المنتجات الحيوانية والخضروات والفواكه ، فحققت بذلك قدرا جيدا من التوازن بين عناصر الغذاء المختلفة .

مستقبل الكفاية الغذائية

إذا كان هذا هو الوضع الغذائي لثلاثي سكان العالم اليوم ، فكيف إذن سيكون غد عندما يستضاف سكان العالم بصورة متزايدة وخلال فترات متقاربة من الزمن ؟ وعندما ستكون معظم الزبادات من نصيب المناطق النامية السيئة التغذية ؟؟ ثم لو أننا سلمنا بإمكانيات العالم على مواجهة حاجات السكان الغذائية المتنامية : فإلى أي حد ستوفر مثل هذه الإمكانيات ؟ وما هو المستوى الغذائي الذي نريد توفيره لسكان المستقبل ؟ أم المستوى السائد ، والذي هو لمعظم سكان العالم دون مستوى الكفاية بحيث لا يتناسب مع القدرة الانتاجية المطلوب أدائها من قبل أفراد مجتمع منتج ومتطور ؟ أم هو مستوى الكفاية الذي تفرضه التوصيات الصحية بإسبغ معدلها ؟

لقد سبق أن أوضحنا في مقدمة البحث أن الرأي السائد في الوقت الحاضر هو أن مصادر الغذاء الحالية في العالم مستجزة عن تلبية حاجات السكان من الطعام بعد نهاية القرن الحالي ، عندما يزيد سكان العالم على ٦٦٠ مليون نسمة ، ولكن إلى جانب ذلك هناك آراء أخرى تشير إلى أن في العالم من الإمكانيات ما تيسر طعاما لضعاف هذا العدد من السكان ، فيقدر الاستاذ كولن كلارك C. Clark

بان العالم يتمكن من اعادة ٧٠٠٠ مليون نسمة وبالمستويات الجيدة السائدة في أمريكا الشمالية و ١٥٧٠٠٠ مليون نسمة بمستويات التغذية في اليابان (١) ، وهذه اعداد يمكن ان يصل اليها سكان العالم خلال ١٢٥ و ١٨٥ سنة على التوالي باعتبار معدل الزيادة السنوية يستمر بمقدار ٢٪ (٢) .

ومع ذلك فان مثل هذه الاعداد الضخمة من السكان ومثل هذه الفترات الزمنية لبلوغها يمكن ان تمثل الحدود القصوى للإمالة على سطح هذا الكوكب ، والتي لو توفرت جميع الظروف المثالية لها فان العالم سيبلغها يوما ما : ولكن يلي ذلك السؤال : هو : ماذا بعد ذلك ؟؟

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان مثل هذه الاحتمالات القصوى لإعالة السكان يتركز تحقيقها على إمكانية تطوير التقنيات « الحديثة » لمصادر الغذاء في العالم بالاعتماد على قدرة التقنية الحديثة ، وهي عملية ، كما سنرى فيما بعد ، مخوفة بالكثير من الشكوك واللبائات ، لذا فاننا نرى تأكيد ما ذهبنا اليه في مقدمة البحث من اننا سنتناول بحث مستقبل التغذية في العالم بما لذلك من علاقة بالمصادر المؤكدة التي قلنا انها ستبلغ طاقة اعالتها القصوى في نهاية القرن الحالي .

لا شك في ان بيان مستقبل الكفاية الغذائية كنسبة ترتبط بمشكلة الجوع وسوء التغذية لا بد ان يتم بتحليل جميع العوامل المرتبطة بهذه المشكلة دون الاقتصار على بعضها ، نقول هذا بسبب ما يحدونا من الاعتقاد بان الكثير من تقديرات الإمالة لسكان هذا الكوكب غالبا ما تستند على العامل المادي لقابلية الأرض الانتاجية في حين ان هناك عوامل أخرى متعددة الجوانب وذات صفة دابنمكية متغرة ترتبط بكل الكيانت : الطبيعي والبشري ، والذي يعطينا تحليها على مستوى ارتباطها مع بعضها البعض الجواب على إمكانية معالجة مشكلة الجوع وسوء التغذية ، وبالتالي تقييم مستقبل التغذية من الوجهة العملية .

فمثلا : ما قيمة انتاج مواد وفيرة لا يتمكن السكان من الحصول عليها بسبب ضعف قوتهم الشرائية ، او انهم لا يرغبون في استهلاكها بسبب عدم تلوقهم لها ؟؟ ولقد وجدنا سابقا مثلا حيا على ذلك من تكلس بعض الافذية في بعض الدول ، بينما كانت شعوب أخرى تعاني نقص الغذاء !

ثم حتى لو افترضنا ارتفاع القوة الشرائية للمستهلك ، ولكن ما أهمية ذلك في رنع مستوى التغذية لديه ان لم يعمل على تنوع وجبة طعامه بالشكل الصحيح ؟؟ وهكذا فان هناك العديد من الامور التي يمكن ايزادها في هذا الصدد .

اننا لذلك نرى بان دراسة مستقبل التغذية في العالم - او في أى جزء من اجزائه - يجب ان تتناول بحث المواضيع التالية :

١ - تقييم الحاجات الغذائية للسكان على ضوء توابدهم خلال الفترة المعينة من الزمن .

(١) انظر : Colin Clark, population Growth and Land use. MacMillan, N. Y., 1967 Chapt. IV.

(٢) انظر : Abercrombie, population Growth and Agricultural Development, monthly Bulletin of Agricultural Economics and statistics, Vol. 18, No. 4, 1969)

- ٢ - تقييم مصادر الارض الانتاجية على ضوء حاجات السكان المتنامية من الغذاء وبمستوى توزيعها الاقليمي .
- ٣ - تقييم اثر التقنية الحديثة في زيادة وتنوع انتاج المواد الغذائية من مصادرها .
- ٤ - تحليل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بانتاج واستهلاك المسواد الغذائية .

١ - تقييم الحاجات الغذائية :

في تقييمنا لحاجات السكان الغذائية على ضوء نموهم حتى نهاية هذا القرن ، سنتخذ من القاييس المقترحة صحيا من قبل منظمة الغذاء الدولية (١) اساسا للبحث ، علما بان مثل هذه القاييس لا تمثل الا الحدود الصغرى التي تكفل للكائن البشرى وجودا مشمرا ومنتجا ضمن منطقته الجغرافية ، وذلك لان مقاييس التغذية الحالية لا سيما في المناطق النامية ، لا يمكن ان تشكل مثل هذا الاساس الصحيح لاحتساب التقييم الغذائي ، كما انها لا تتناسب مع مالم الغذاء الذي يرون فيه الجميع الى حياة افضل .

لقد اوضحنا في مقدمة البحث ان عدد سكان العالم سيصل الى حوالى ٦٦٠٠ مليون نسمة في نهاية القرن الحالى ، موزعا على مناطق العالم الكبرى بالشكل الذى يوضحه الجدول التالى :

جدول - ٧ -

توزيع سكان العالم على مناطق المختلفة خلال فترتين (بالملايين)

منطقة	سنة ١٩٦٥	للمجموع العالم	سنة ٢٠٠٠	% للمجموع العالم	الرقم القياسى للزيادة ١٩٥٦ = ١٠٠
الشرق الاقصى (عندا)	١٦٩٣	٥٠	٣٥٠٠	٥٣	٢٠٤
اليابان	١٤٩	٤٢	٣٥٥	٥٤	٢٣٩
الشرق الاوسط	٢٤٦	٧٣	١٥٠	١٠	٢٦١
امريكا اللاتينية	٢٦٧	٨	٦٧٠	١٠٢	٢٥٠
افريقيا	٢٣٦٠	٦٩٧	٥١٧٥	٧٨٦	٢١٩
مجموع المناطق النامية	٦٧٥	٢٠	٨٨٥	١٣٤	١٣١
اوروپا (ضمنها الاتحاد السوفيتى)	٢١٤	٦٨	٣٥٦	٥٤	١٦٦
امريكا الشمالية	١٧	٥٠	٢٣	٥٥	١٩٤
الاوقيانوس	٩٨	٣	١٢٥	٢	١٢٩
اليابان	١٠٠٠	٣٠٣	١٤٠٠	٢١٣	١٢٩
مجموع المناطق المتطورة	٣٣٦٠	١٠٠	٦٦٠٠	١٠٠	١٩٥
المجموع العالمى					

يتضح لنا من هذا الجدول ان معظم زيادات السكان في نهاية القرن ستصيب المناطق النامية ، اذ سيتضاعف سكانها - نسبة الى احصاء سنة ١٩٦٥ التي اتخذت سنة قياسية في الجدول - ما بين مرتين ومرتين ونصف (عدا الصين التي اتخذت نسبة الزيادة فيها آخرى بالتناقص بسبب شعورها بوطاة الازدحام) وهذه الزيادات هي اعلى من نسبة الزيادة الكلية لسكان العالم والتي ستبلغ أقل من الضعف ، وهي حتما اعلى جدام نسبة تزايد السكان للدول المتقدمة والتي ستقرب من ٤٠ ٪ فقط من مجموع سنة ١٩٦٥ اي ان نسبة زيادة السكان للدول النامية ستبلغ حوالي ثلاث مرات نسبة زيادتهم للدول المتقدمة .

كل ذلك يعني ان سكان المناطق النامية الذين كانوا يكونون حوالي ٧٠ ٪ من مجموع سكان العالم ، سيكونون في نهاية القرن ٨٠ ٪ من هذا المجموع ، وسترتب على ذلك بعض النتائج الاتية والتي أبرزها اشتداد الطلب على المواد الغذائية وحتى لو افترضنا بقسالة مستوياتهم الغذائية الحالية دون تغيير ، بما يزيد على مرتين فكيف اذن في حالة ارتفاع مستويات التغذية كما ونوما ؟ هذا في الوقت الذي ستخلو فيه المناطق المتقدمة من مثل هذه المشاكل ، كما تخلو منها الآن ، كنتيجة لقلّة نمو سكانها ولعودة الانتاج فيها .

هنا نجد التبرير الكافي للقلق الذي يساور المعنيين بشؤون التغذية في العالم ، من ان مشكلة مستقبلها ستصيب بالدرجة الاولى على المناطق النامية ، ومن الممكن تصور هذه المشكلة بشكل اوضح لو عاودنا النظر في الجدول - ٣ - والخريطة في الشكل - ٣ - ، والتي ظهر فيها ان معدل صافي زيادة انتاج المواد الغذائية للشخص الواحد في المناطق النامية كان ا.ر. ١ ٪ سنويا للفترة الواقعة بين ١٩٥٧ و ١٩٦٧ بينما للمناطق المتقدمة كان المعدل ١٦ ٪ سنويا ، ومن الواضح ان هذا التخلف في معدل انتاج المواد الغذائية للمناطق النامية لم يكن ليعزى الى التخلف في مجموع الانتاج الكلي منها ، وانما الى تزايد السكان بشكل سريع ونسبة تفوق احيانا نسبة زيادة الانتاج (كما حدث ذلك مثلاً في القارة الأفريقية) .

واذا كان لمنطقة ما ، او لدولة معينة في هذه المجموعة من امكانية على حفظ مستويات غذائية معينة رغم تفاقم معدل الانتاج للشخص الواحد ، فالتما يعود ذلك اما الى المساعدات الخارجية التي تتوارد على الدولة في اوقات الازمات او الى عملية استيراد الاغذية من الخارج : وهي جميعا عمليات محفوفة بالكثير من المخاطر والمشاكل ان لم تركز على سياسة ثابتة ومستقرة للدولة ، وذلك لان عدم استقرار مستويات التغذية في اية امة من الامم يعتبر من اكبر دواعي القلق الاجتماعى فيها .

ان وجود النسبة العظمى من سكان العالم يعيشون بمستوى الكفاية « الحدية » للتغذية او دونها ، هي حالة تحمل يحد ذاتها الكثير من دواعى الخطر ، فغالبا ما تكون الجامعة حالة استمرارية لظاهرة سوء التغذية ذلك لان الانسان الناقص التغذية لا يتسر له اكتناز اي فائض من الشحوم او عناصر الغذاء الاخرى في جسمه ، لذلك يهوى امام اول علامة من علامات شحة الغذاء باسرع وبأشد مما يتعرض له الانسان الكامل التغذية الذى له قدرة افضل على المقاومة (١) .

(١) الطير : Maselfield, Food and Nutrition Procedure in Times of Disaster, "F.A.O. Nutritional Studies, No. 21, 1967" P.3

من هذا المطلق لا بد ان نخطط لمستويات غذائية افضل لسكان عالم الغد ، تزداد فيها حصة الفرد من الطعام كما وتمدد نوعاً ، ولتقدم مصادر منظمة الغذاء الدولية F.A.O على وضع مثل هذه الخطة التي تستهدف رفع المستوى الاستهلاكي للمواد الغذائية لشعوب الدول النامية في مناطقهم المختلفة ودعم العالم الى التعاون على تطبيقها بمرحلتين : الاولى قصيرة الأمد تحقق ادنى مستويات مطلوبة للتغذية ، وتسمى بمرحلة (عقد الانماء لمنظمة الأمم المتحدة : U.N. Development Decade) والثانية طويلة نستكمل بموجبها مستويات غذائية احسن وذلك عند نهاية القرن الحالي حيث يكون افراد المجتمعات النامية قد وصلوا الى مرحلة جيد من المستوى الصحي والبناء الجسماني ، وتوصي هذه الخطة بشكلها النهائي بان تتوفر المواد الغذائية بالكميات والزيادات المذكورة في الجداول التالية لمختلف المناطق النامية وذلك كي يتحقق مستوى غذائي يتراوح بعبقاس السعرات الحرارية بين ٢٤٠٠ و ٢٦٠٠ سعرة يوميا للفرد الواحد .

جول - ٨ -

مقادير المواد الغذائية المتوفرة حالياً والواجب توفرها للمستقبل ٢ بالنسبة لمنطقة الشرق الاقصى (

المادة الغذائية	التوفر منها حالياً (جرام / يوميا)	الطلب للمستقبل (جرام / يوميا)	نسبة المطلوب الى التوفر ٪
الحبوب الغذائية	٤٠٠	٣٦١	٩٠
الدرنات النشوية	١٦٦	١٤٤	٨٧
السكر	٢٤	٢٥	١٤٦
البقول والمكسرات	٥٠	٨٠	١٦٠
الخضروات والفواكه	١٤٤	٣١٥	٢١٩
اللحوم	٢٤	٦٦	٢٧٥
البيض	٣	٨	٢٦٧
الاسماك	١٢	٣٠	٢٥٠
الحليب	٥٤	١٤٠	٢٥٩
الشحوم والدهون	٩	٢٤	٢٦٧
مجموع السعرات الحرارية	٢٠٦٠	٢٤٠٠	
مجموع البروتينات	٥٦	٧٤	
الحيوانية منها	٧٥	٢٠	

جدول - ٩ -

مقادير المواد الغذائية المتوفرة حالياً والواجب توفرها للمستقبل
(بالنسبة لمنطقة الشرق الاوسط)

المادة الغذائية	التوفر منها حالياً (جرام / يومياً)	الطلب المستقبل (جرام / يومياً)	نسبة الطلب الى التوفر %
الحبوب الغذائية	٤٤٦	٣٧٤	٨٤
الدرنات النشوية	٤٤	٤٤	١٠٠
السكر	٣٧	٥٠	١٣٥
البقول والمكسرات	٤٧	٤٧	١٠٠
فواكه وخضروات	٣٩٧	٣٩٧	١٠٠
اللحوم	٣٥	٠.٦٨	١٩٤
البيض	٠.٥	٠.٢٥	٥٠٠
السمك	٠.٦	١٥	٢٥٠
الحليب	٢١٤	٣.٧	١٤٣
شحوم ودهون	٠.٢٠	٣٠	١٥٠
مجموع السمكات	٢٤٧٠	٢٥٠٠	
الحرارية	٧٦	٧٦	
مجموع البروتينات	١٤	٢٥	
الحيوانية منها			

جدول - ١٠ -

(بالنسبة لافريقيا)

المادة الغذائية	التوفر منها حالياً (جرام / يومياً)	الطلب للمستقبل (جرام / يومياً)	نسبة الطلب الى التوفر %
الحبوب الغذائية	٣٣٠	٢٤٠	١٠٣
الدرنات النشوية	٤٧٣	٢٢٤	٠.٤٧
السكر	٠.٢٩	٣١	١٠.٧
البقول والمكسرات	٠.٣٧	٤٤	١١٩
خضروات وفواكه	٢١٥	٣١٧	١٤٧
اللحوم	٠.٤٠	٧٤	١٨٥
البيض	٠.٤	١٥	٣٧٤
السمك	٨	٢٥	٤٣٨
الحليب	٩٦	٢٠.٣	٢١١
شحوم ودهون	١٩	٢٥	١٣٢
مجموع السمكات	٢٣٦٠	٢٥٠٠	
الحرارية	٦١	٧٥	
مجموع البروتينات	١١	٢٥	
الحيوانية منها			

جدول - ١١ -

(بالنسبة لأمريكا اللاتينية / عدا الأرجنتين وارجواى وبارجواى)

المادة الغذائية	المتوفر منها حالياً (جرام / يومياً)	المطلوب للمستقبل (جرام / يومياً)	نسبة المطلوب الى المتوفر %
الحبوب الغذائية	٢٨٢	٢١٥	١١٢
الدريجات النشوية	٢٢٥	١٦٦	٧٥
السكر	٨٩	٧٤	٨٢
بقول ومكسرات	٥٢	٥٢	١٠٠
خضروات وفواكه	٣٥٥	٣٥٥	١٠٠
اللحوم	٧٢	٨٥	١١٨
البيض	١١	١٦	١٤٥
السمك	٨	١٦	٢٠٠
الحليب	٢٠١	٢٥٠	١٢٤
شحوم ودهون	٢٢	٢٥	١١٤
مجموع السعرات الحرارية	٢٤٢٠	٢٥٥٠	
مجموع البروتينات	٦٢	٧١	
الحيوانية منها	١٩	٢٥	

من دراسة الجداول المدرجة اعلاه يتضح لنا ان خطة التغذية المقترحة للمستقبل ترمي عموما الى التقليل من استهلاك الحبوب الغذائية والنشويات والتي تكون النسبة الكبرى لمصادر التغذية للشعوب النامية بينما تؤكد على زيادة استهلاك المنتجات الحيوانية التي هي فضلا على قيمتها الغذائية الاخرى ، فانها مصدر للبروتينات الضرورية لبناء الاجسام ونموها .

ولدى اتخاذ هذه المطالبات اليومية اساسا لاحتساب الحاجات السنوية منها للفرد الواحد ، فان مقاديرها المطلوبة سيظهرها لنا الجدول التالي موزعة على مناطق العالم المختلفة :

جدول - ١٢ -

(مقادير المواد الغذائية الواجب توفرها للامد الطويل نسبة الى الفرد الواحد سنويا)
« معدلة بالكيلو جرامات »

المادة الغذائية	لنطقة الشرق الاقصى	لنطقة الشرق الاوسط	لافريقيا	لامريكا اللاتينية
الحبوب الغذائية	١٢٢	١٣٦	١٢٤	١١٥
الدريجات النشوية	٥٢	١٦	٨٢	٦٢
السكر	١٢	١٨	١١	٢٧
بقول ومكسرات	٢٦	١٧	١٦	٢٠
خضروات وفواكه	١١٥	١٤٥	١١٦	١٣٠
اللحوم	٢٤	٢٥	٢٧	٣١
البيض	٣	٦	٦	٦
السمك	١١	٦	١٣	٦
الحليب	٥١	١١٢	٧٤	٩١
شحوم ودهون	٩	١١	٩	٩

١. الجداول الاربعة التالية مأخوذة من : The Third World Food Survey السابق الذكر

ولو ربطنا هذه المقادير من المواد الغذائية المطلوب توفرها بما سيكون عليه سكان كل منطقة من المناطق المذكورة في نهاية هذا القرن (بحسب جدول ٧) لتجسدت فيها الكميات الهائلة من المواد الغذائية المختلفة الواجب تجهيزها للاستهلاك للمناطق النامية والتي تتراوح مقاديرها بين أكثر من ٦٠٠ مليون طن لكل من الحبوب الغذائية والفواكه والخضروات وحوالي ٢٠ مليون طن للبيض (أو ما يقرب من نصف بليون بيضة متوسطة الحجم سنوياً) موزعة حسب مناطق استهلاكها بالشكل الذي يظهره الجدول التالي :

جدول - ١٢ -

مجموع المواد الغذائية المطلوب توفرها للاستهلاك سنة ٢٠٠٠

« بملايين الأطنان/سنوياً »

المادة الغذائية	المنطقة الشرق الاقصى	المنطقة الشرق الاوسط	لأفريقيا	لأمريكا اللاتينية	المجموع
الحبوب الغذائية	٤٦٢	٤٨	٨٣	٧٤	٦٦٥
الدرنات النشوية	١٨٥	٦	٥٥	٤٠	٢٨٥
السكر	٤٥	٦٥	٧٥	١٧	٢٦١
بقول ومكسرات	١٠٢	٦	١١	١٣	١٣٢
خضروات وفواكه	٤٠٣	٥٢	٧٧٥	٨٣٥	٦١٦
لحوم	٨٢	٦	١٨	٢٠	١٢٠
بيض	١٠٥	٣	٤	٤	٢٢
سمك	٢٨٥	٢	٩	٤	٥٣
حليب	١٠٨٥	٤٠	٤٩٥	٥٨٥	٢٥٠
شحوم ودهون	٣١٥	٤	٦	٦	٤٨

ولو قارنا هذه الحاجات الغذائية الواجب توفرها في نهاية هذا القرن بما هو متوفر منها للاستهلاك الآن في كل منطقة من المناطق (بحسب معدل أوائل عقد الستينات) فيبدو لنا ان على منطقة الشرق الاقصى ان تضاعف تزويدها من مجموع الاغذية الزراعية المدة للاستهلاك بأكثر من ٤ مرات ومن الاغذية الحيوانية بأكثر من ٦٥ مرات وعلى منطقة الشرق الاوسط ان تضاعفها ٣٣ مرات و ٦ مرات على التوالي ، وبالنسبة لأفريقيا ٣٣ و ٣ مرات على التوالي ، ولأمريكا اللاتينية (هذا دول حوض نهر بلانا) ٣٦ و ٥ مرات على التوالي ، هذا بينما يقدر للدول المتقدمة ان تزيد من تجهيزها من المواد الغذائية الاستهلاكية بما لا يزيد كثيراً على نصف انتاجها الحالي .

ولدى استخلاص هذه الزيادات في انتاج جميع المواد الغذائية المطلوب توفرها في العالم في نهاية القرن الحالي ومقارنتها بوضعية انتاجها الحالي (باعتباره يعادل ١٠٠) ، يبدو ان مجموع الرقم القياسي لانتاج هذه المواد سيبلغ ٢٦٧ موزعا على مناطق العالم المختلفة بالشكل التالي :

جدول - ١٤ -

(نسبة توفر المواد الغذائية في مناطق العالم المختلفة)

المنطقة	النسبة الحالية %	النسبة المطلوبة سنة ٢٠٠٠ عما هي عليه حالياً
الدول المتقدمة	٥٩	٩٢
الشرق الاقصى	٢٧	١٢٧
الشرق الاوسط	٤	١٥
افريقيا	٥	١٥
امريكا اللاتينية	٥	١٨
المجموع العالمي	١٠٠	٢٦٧

«The third world food survey

: المصدر

من هذا يتبين لنا ان على المناطق النامية ان تحتل مراكز اهم في تهئية المواد الغذائية لسكانها ، وان منطقة الشرق الاقصى بالذات يجب ان تتبوأ المركز الاول بدل الدول المتقدمة في توفير مقادير هذه المواد ، كما يبدو من بيانات الجداول التي سبقت الجدول الحالي ان معظم النقص في عملية التوريد الغذائي هذه يقع على المنتجات الحيوانية التي هي اصعب تحصيلاً وافلى ثمناً من المنتجات الحقلية ، وخاصة نسبة لسكان المناطق النامية الذين معظمهم من ذوي الدخل الضعيفة ..

فهل تتمكن المناطق النامية من توفير مثل هذه المطالبات الغذائية ؟ وهل يكون ذلك من مصادرها الاقليمية ام من مصادر خارجية ؟

ان الجواب على ذلك ينقلنا الى العنصر الثاني من بحث مستقبل الكفاية الغذائية : وهو تقييم مصادر الارض الانتاجية :

٢ - تقييم مصادر الارض الانتاجية :

لقد حاولنا على الصفحات السابقة تقييم حاجات السكان الغذائية كما تتطلبه اعدادهم وكما يتطلبه المستوى الغذائي المنشود في نهاية القرن الحالي ، وقد وصلنا الى النتيجة الصارخة من ان العالم سيحتاج الى تحقيق زيادات هائلة من المواد الغذائية تزيد على ١٦٠٪ من مجموع انتاجها الحالي كي يتمكن بها سد تلك الحاجات : فمن اين سيتمكن العالم من تحقيق تلك الزيادات ؟؟

لا شك في ان المصدر الاول والاساسي للحصول على الطعام هي الارض : الارض بمفهومها الانتاجي الزراعي .. ويمكن ان نتأكد من حقيقة ذلك اذا علمنا ان ٨٧٪ من مجموع استهلاك السرعات الحرارية و ٧٠٪ من البروتينات مصدرها المباشر الاراضي الزراعية ، أما اذا اضعنا الى ذلك الاغذية المستمدة من المنتجات الحيوانية (عدا الاسماك) - والتي هي منتجات ارضية غير مباشرة - فان هذه النسب ستزحف الى ٩٩٪ و ٩٦٪ على التوالي (١) .

فهل ستبقى الارض المصدر الاساسي المعول عليه في الحصول على مواد الغذاء بهذا الشكل ورغم تزايد الطلب وفق التقائيس التي شرحناها آنفا ؟

انظر مقالة Sukhatme السابقة الذكر ، كذلك يدعو لنا من هذه النسب ان البروتينات المستمدة من الاسماك (كانتاج بحري) لا تكون اكثر من ٤٪ في التغذية العالمية .

وإذا كان كذلك : فما مدى طاقتها الانتاجية لمواجهة تلك الحاجات ؟

لأجل ان نجيب على هذه الاسئلة وأمثالها ، لا بد لنا من ان نلقي نظرة ولو خاطفة على قابليات الارض الانتاجية ، وخاصة بما لذلك من علاقة باعداد السكان : حاضرا ومستقبلا .

ان التقديرات المعروفة عن مدى قابليات الارض الانتاجية - بمقياس الاراضي الصالحة للزراعة - في غابة التباين ، فهي تتراوح بين ٢٠ و ٦٠ بالمائة من مجموع مساحة اليابس ، ولكن يبدو ان كلتا النسبتين تشوبهما بعض المبالاة ، حيث ان التقدير الواطء قد بني على اساس صلاحية التربة - وهي كما نعلم عنصر قابل للاستصلاح والتغيير بعض الشيء ، بينما التقدير العالي بني على اساس الامكانيات المتاحة ، والتي قد تكون ملائمة دون ملائمة بقية العوامل الطبيعية الاخرى المرتبطة بقابلية الانتاج الزراعي - وسواء كانت تلك النسبة او هذه او اية نسبة وسط بينهما ، فان ما يستغل للانتاج الزراعي حاليا ، وبشكل من الاشكال ، يكون حوالي ١٠ ٪ فقط ، من مجموع سطح اليابس بينما هناك ٢٠ ٪ اخرى هي في عداد المراعي والمروج الدائمة : وهذه جميعا تتوزع توزيعا متباينا بين مناطق العالم المختلفة بالنسب التي يظهرها الشكل (٦)

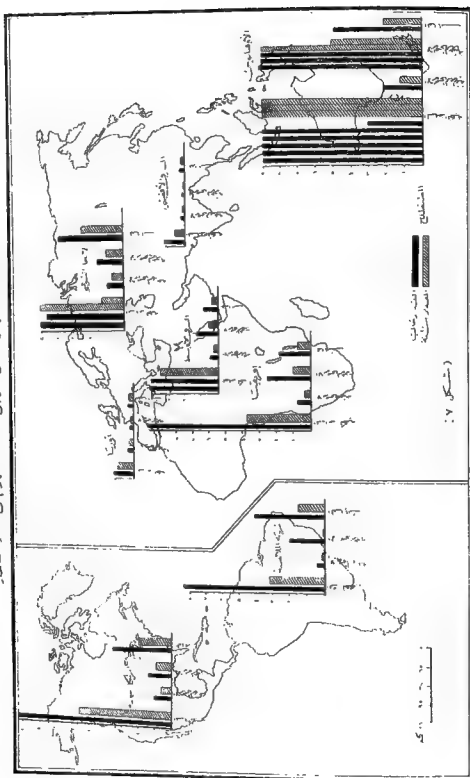
ومن هذا التوزيع يبدو لنا ان مجموع الاراضي الزراعية في المناطق النامية يبلغ حوالي ٥٤ ٪ من مجموع مساحاتها في العالم ، وان على هذه ان تعميل ٧٠ ٪ من مجموع سكان العالم حاليا ، وحوالي ٨٠ ٪ منهم في نهاية القرن ، بينما تبقى في المناطق المتقدمة ٦٦ ٪ من الاراضي الزراعية التي عليها ان تعميل ٣٠ ٪ من سكان العالم وان تحملا لضغط السكان سيكون اقل نسبيا في نهاية القرن .

اما بقية الاراضي التي يعتقد بانها صالحة للزراعة ، ولكنها غير مستغلة ، فلا يمكن تحديد مواطن توزيعها على وجه الدقة ولا تقييم قابليتها الانتاجية بصورة قطعية ، ولكن على اى حال فاننا نعتقد انها على العموم اقل انتاجية واردا موقعا ، وذلك لان الانسان عندما يبعد الى استغلال اية ارض فلا بد ان يعطي الافضلية في ذلك الى جودتها الانتاجية وفقا لما يسمى بقانون الاولوية Law of primacy او الى موقعها الجغرافي المناسب وفقا لقانون الاتصال Law of Accessibility ومع ذلك فان مثل هذه الامور انما هي مواضع نسبية تتغير قيمتها بتغير الظروف الزمانية والمكانية التي تغير من وسائل واقتصادية الاستثمار .

ولعل معظم هذه الاراضي غير المستغلة الان هي تلك التي توجد ضمن المناطق الحضرية والريفية وشبه الريفية حيث يعتقد بان استغلالها في المستقبل سيواجه الكثير من المشاكل ، امثال زيادة ترشيع التربة وصعوبة حراستها بعد جفافها وتعرضها للانجراف الذي اثناء استغلالها وذلك بسبب شدة هطول الامطار في مثل هذه المناطق ، كما يعتقد بان نسبة اخرى يمكن ان تصاف من حصة المراعي فيما لو احسن استغلالها والحفاظ عليها ، لا سيما من عملية انجراف التربة .

على اننا لو اخذنا ما هو مستغل حاليا للزراعة وما هو في عداد المراعي او غيرها من ضروب الاستثمار من حيث توزيعه الجغرافي على مناطق العالم المختلفة وقرنا ذلك باعداد السكان الذين تضمهم كل منطقة من هذه المناطق - حاليا ومستقبلا - لظهر لنا مدى التباين لحدل حصة الفرد من هذه الاراضي في كل جزء من اجزاء المعمورة : (انظر الخريطة في الشكل ٧) . ومن تدقيق الخريطة الموضحة لهذا التوزيع يتضح لنا ان اقل حصة تصيب الفرد من الاراضي الزراعية توجد في منطقة الشرق الاقصى ، حيث يبلغ ٠.٢٢ ر. من الهكتار (عدا اليابان التي تصل حصة الفرد فيها الى ٠.٦ ر. من الهكتار) وان اعلى حصة توجد في الاوقيانوس حيث تبلغ ٢.٢٣ هكتار

مقدار ما يصنفه العرب الوحد من الاراضي حنت استنار تاني انار نالكين



للفرد الواحد ، ولو اضعنا الى هذه المقارنة البسيطة حالة تزايد السكان في نهاية هذا القرن وكما سيتوزعون على مناطق العالم المختلفة والحقائق الأخرى من ظروف الاستثمار التي تنوزع إليها أراضي هذا الكوكب لتتمكن ان نتوصل الى بضعة حقائق عن طبيعة مصادر الأرض الانتاجية .

١ - ان نسبة الأراضي الزراعية - والتي لا تزيد كثيراً على ١٠٪ من مجموع مساحة اليابس - تعتبر واطئة بالمقارنة مع اعداد السكان وحاجاتهم الغذائية ولا سيما في المستقبل ، باعتبار ان هذه الأراضي بوضعها الحالي لم تتمكن من سد حاجات السكان بالمستوى المطلوب ، فكيف اذن ستتمكن من ذلك عندما يتضاعف عدد سكان العالم وتزداد مطالبهم الغذائية في بعض المناطق بمقدار ٣ أو ٤ اضعاف مطالبهم الحالية ؟ ولذا حتى لو ضوعفت بقية الأراضي التي يعتقد انها صالحة زراعية (والتي قد لا تزيد اكثر من مرتين على المساحات المستغلة حالياً) فسان انتاجها بمستوى الاستثمار الحالي سوف لن يتمكن من مقابلة مستوى التجهيز الغذائي المنشود لسكان العالم ، هذا مع العلم بان في الكثير من المناطق المزدحمة السكان قد تناقصت نسبة الأراضي الصالحة للاستغلال وغير المستغلة ، ففي الهند مثلاً بلغت نسبة الأراضي المستغلة فعلاً في الزراعة حوالي ٥٠٪ من مساحة البلاد (١) بالمقارنة مع ١٠٪ للمعدل العالمي ، لذا فلا يعتقد بأنه قد تخلفت هنالك اراض كثيرة غير مستغلة .

٢ - كما سبق وذكرنا : ان هناك اختلافاً بين نسبة الأراضي الزراعية والرعوية الى السكان في المناطق النامية ونسبتها في المناطق المتقدمة ، فبالنسبة للأراضي الزراعية في المناطق النامية هنالك وحدة من الأراضي لكل ثلاثة اشخاص ، بينما هنالك وحدتان لكل ثلاثة اشخاص في المناطق المتقدمة ، اما بالنسبة للأراضي الرعوية فهناك وحدتان منها لكل ثلاثة اشخاص في المناطق النامية ، بينما توجد اكثر من ثلاث وحدات ونصف لكل ثلاثة اشخاص في المناطق المتقدمة (هذا هذا اليابان) .

وستزداد هذه النسبة اختلافاً نحو نهاية القرن ، فتصبح وحدة واحدة من الأراضي الزراعية لكل اكثر من ستة اشخاص ، وحوالي وحدة من الأراضي الرعوية لكل ثلاثة اشخاص في المناطق النامية بالمقارنة مع وحدتين من الأراضي الزراعية واربع وحدات من الأراضي الرعوية لكل خمسة اشخاص في المناطق المتقدمة .

٣ - اما بالنسبة لحصة الفرد الواحد من هذه الأراضي ، فقد سبق ان اشرنا الى مدى التباين الموجود في ذلك في مختلف مناطق العالم والذي يبدو منه ان معدل نصيب الفرد الواحد من الأراضي الزراعية والرعوية في المناطق النامية هو نصف نصيبه في الدول المتقدمة ومستقل مثل هذه النسبة في نهاية القرن لتصبح حصة الفرد في المناطق النامية من الأراضي الزراعية والرعوية ثلث حصة الفرد منها في المناطق المتقدمة .

واذا ما علمنا ان ضغط السكان الريفيين في المناطق النامية على الأراضي الزراعية اشد مما هو عليه في المناطق المتقدمة ، حيث انه في كثير من الاحيان تصل نسبتهم في الحالة الأولى الى اكثر من ٧٠٪ من مجموع السكان بالمقارنة مع حوالي ١٢٪ لبلد مثل الولايات المتحدة و ٧٪ لبريطانيا ، وان هذا

الضغط سيزداد بمرور الزمن بسبب تزايد الأعداد المطلقة للسكان هؤلاء (١) ، إذن يمكننا ان ندرك بصورة آتية صعوبة وجود سوق محلية ملائمة للمنتجات الزراعية في كثير من الدول النامية ، وبالتالي عجز الأراضي الزراعية فيها عن تمييز السكان المدنيين على الأقل بحاجاتهم الغذائية الكافية ، هذا فضلا على انه كنتيجة لشدة الازدحام هذا ، فان كثيرا من الأراضي الزراعية في المناطق النامية تنوء تحت عبء الاستغلال المكثف ، ففي كثير من مناطق جنوب وجنوب شرقي آسيا تستغل حقول الرز لحاصلين أو أكثر خلال العام الواحد ، مما يشير الى عدم توفر اراض اخرى صالحة وجاهزة للاستغلال بدرجة تستحق الاهتمام ، ففي الهند مثلا تقدر الأراضي الصالحة للأنماء الزراعي وغير المستغلة بحوالي ١١ ٪ من مجموع الأراضي المستغلة ، وفي الأرجنتين - حيث السكان أقل ازدحاما - لا تزيد مثل هذه الأراضي على ٣٠ ٪ من مجموع المستغل ، بل وحتى في الدول المتقدمة مثل فرنسا ، لم يبق من مثل هذه الأراضي أكثر من ٢٠ ٪ وفي الولايات المتحدة حوالي ١٥ ٪ (٢) .

هذا من حيث الأراضي الزراعية المهددة لإنتاج المحاصيل الحقلية وغيرها ، أما بالنسبة للأراضي الرعوية ، فإضافة الى ما ذكرناه سابقا من ان نصيب الفرد في المناطق النامية لا يزال اوطا مما هو في المناطق المتقدمة ، فان أهميتها للتغذية بمقياس الانتاج الحيواني لا تزال قليلة بالمقارنة مع أهمية نظيرتها في الدول المتقدمة ، فلو اخذنا انتاجية الماشية (من اللحوم والحليب) أساسا للمقارنة ، فان هذه الظاهرة تبدو مرة أخرى على درجة كبيرة من التباين بين مختلف مناطق العالم ، وذلك كما يظهرها لنا الجدول التالي :

جـعول - ١٥ -

(توزيع اعداد الماشية وانتاجيتها على مناطق العالم المختلفة)

» حسب احصاء ١٩٥٨ « (٣)

المنطقة	اعداد الماشية باللايين	لحوم	حليب	الانتاجية بـلايين الأطنان
أوروبا	١٠٨	٥٩	١١٩	
أمريكا الشمالية	١٠٤	٧٢	٦٥	
أستراليا ونيوزيلندا	٢٣	١٢	١١	
الاتحاد السوفيتي	٦٧	٢٧	٥٧	
أمريكا اللاتينية	١٨٥	٥٩	١٩	
الشرق الأقصى	٣٤٤	٢٩	٢٧	
الشرق الأوسط	٣٤	٠٦	٧	
أفريقيا	١٠٢	١٥	٨	
العالم	٩٦٧	٢٧٠٩	٣١٣	

(F.A.O., Possibilities of Increasing World Food production)

المصدر :

(١) انظر مقالة : Abercrombie الآتية الذي .

(٢) انظر : F.A.O., Production year-book, 1967.

(٣) (لزم ان ارقام الانتاجية تعود الى فترة قديمة بعض الشيء الا ان مقارنتها مع بعض مثيلاتها الحديثة لا تظهر تغييرا كبيرا في نسب الانتاج .

يبين لنا من دراسة هذا الجدول انه على الرغم من ضخامة اعداد الماشية التي توجد في المناطق النامية ، حيث تكون ٧٠٪ تقريبا من المجموع العام ، الا ان انتاجيتها واطئة جدا ، فانتاجية اللحوم منها لا تكون اكثر من ثلث الانتاج العالمي ، بينما للطبيب لا تزيد النسبة على خمس هذا الانتاج منها . تتجلى لنا هذه الحقيقة بصورها واضع اذا علمنا ان انتاجية بقرة الطبيب في الهند بموسم احصاء ١٩٥٨ (تبلغ حوالي ٢٢٠ كيلو جراما سنويا وفي باكستان ٢٠ كيلو جراما ، بينما في هولندا تصل الانتاجية الى حوالي ٢٠٠ كيلو جرام وفي فلسطين نجحت عمليات التهجين في ايسال الانتاجية الى حوالي ٢٠٠ كيلو جرام سنويا .

من هذا الجرد البسيط لمصادر الارض الانتاجية يمكن ان يتضح لنا ان مشكلة توفرها تكاد تتمركز في المناطق النامية ، وان هذه المشكلة ستتفاقم اكثر في المستقبل ، وانه بالنظر لعدم وجود احتياطي كبير من مثل هذه المصادر ، فان مستقبل الانماء الزراعي فيها يكمن بالدرجة الاولى في تحسين وسائل واتمام استغلال المصادر الحالية قبل البحث عن مصادر جديدة .

ولنا من اليابان خير مثل على ذلك ، فالقرود الياباني يستمد معظم غذائه اليوم من ٠.٦ من الهكتار بالمقارنة مع ٣.٠ من الهكتار للمناطق النامية ، ومع ذلك فقد تقلص استيراد بعض المواد الغذائية في اليابان في الآونة الاخيرة ، ومن الرز بالذات بنسبة ٣٧٪ سنة ١٩٦٧ و ٤٧٪ سنة ١٩٦٨ .

ان مثل هذا الوضع يتطلب التأكيد على أهمية التقنية الحديثة والاستفادة من نتائجها في في ميدان الاستغلال الزراعي وانتاج الأغذية .

٢ - أثر التقنية الحديثة في زيادة انتاج الاغذية :

لعل من اهم الخصائص التي تميز عملية استثمار مصادر الثروة في المناطق النامية بصورة خاصة ، هي الهوة السحيقة التي تفصل بين الوسائل والانماط التي يزاؤها الانسان في الانتاج والانماط والوسائل التي ابتدعتها التقنية الحديثة وتوصلت اليها مخبرات البحوث والحقول التجريبية ، وتزداد مثل هذه الهوة عمقا كلما اشتد الانسان تمسكا بوسائله التقليدية ، وكلما توصل البحث العلمي وتوصلت التجربة الى نتائج جديدة في طرق الاستغلال . وتشير بعض الامثلة التي اوردها على الصفحات السابقة او التي سنذكرها فيما يلي على صحة هذه الوقائع .

— اذا ما الذي اوصل انتاجية البقرة من الطبيب في فلسطين الى أعلى المستويات ، في حين ان موارد ارض فلسطين لم تتغير خلال العقود القليلة الماضية ؟

— وما الذي جعل منطقة شلالات نياجرا Niagra في كندا والولايات المتحدة من بين اهم مناطق الصناعة في العالم ، في حين كان الهنود الحمر الاوائل يهربون منها فرعا من صوت هدير الماء المتساقط ؟

— وما الذي حول منطقة السهوب الاسيوية في سيبيريا الى مناطق انتاج زراعي وصناعي هامة بعد ان كانت مسرحا لتساقط قطعان الرعاة ؟

ان الجواب على هذه الاسئلة ومثيلاتها بسيط ويدهي : ذلك ان جهد الانسان العلمي هو المسؤول عن تغيير صورة سطح الارض بهذا الشكل ، وعن تغيير معاني الثروة وتغيير كوامنها ، وعلى هذا

فان مصادر الانتاج في الواقع بالعلاقة مع هذا الجهد العلمى البشرى تحمل مفهوما ديناميكيا متغيراً مدفوعا الى حد بعيد بحاجات الانسان نفسه .

ان البحث الحالى لا يهدف الى شرح جوانب التقنية المتعددة في موضوع الانتاج ، فان ذلك بخرجنا كثيراً من نطاق بحثنا المحدود ، ولكنه يحاول تقصى بعض الالام المهمة التى يمكن ان تنشأ عن استخدام اساليبها والتى يمكن تلخيصها بالمعبرة المختصرة : زيادة الانتاجية نسبة الى عوامل الانتاج المستعملة ، وذلك عن طريق استنباط وتطوير القابليات الكامنة في هذه العوامل .

لقد عملت ولا تزال تعمل التقنية الحديثة على زيادة الكفاءة الانتاجية لمصادر الثروة المختلفة باساليب متعددة امثال التغيرات البيولوجية التى تحدثها في تكوين الكائنات الحية كنتيجة لعمليات التهجين ، وذلك كي تجعل منها كائنات اقدر تكيفاً بيئياً جديدة غير يئتها الاصلية ، او اكثر انتاجية لثرو معينة ، كذلك التغيرات التى تحدثها في بناء التربة الميكانيكي وتكوينها الكيماوى لجعلها اكثر قدرة على الانتاج ، او الاستزادة من مصادر المياه والاقتصاد في استعمالها ، لا سيما في الزراعة (١) حيث تكون الحاجة اليها ماسة جداً في كثير من مناطق العالم او الحصول على بعض عناصر الغذاء من مصادر اصطناعية ، مثل الحصول على البروتينات من الصناعات البتروكيماوية بل وحتى التغيرات الفيزيولوجية التى تعدد اليوم بعض الأبحاث الى أحداثها على الكيان البشرى في سبيل جعله اكثر تحملاً للاجواء المرهقة والبيئات الصعبة ، هذا بخلاف ابتداء الوسائل والانماط الجديدة في الانتاج مثل الآلات الحديثة والدورات الزراعية وعمليات التسميد وغير ذلك .

وتعتبر عمليات التهجين من اهم الجهود التى ينظر اليها العالم اليوم نظرة تفائل في سبيل زيادة انتاجية الارض من المواد الغذائية ، فقد تمكنت المختبرات والحقول التجريبية من ان تنتج هجائن جديدة من البذور تعيش في بيئات غير يئتها الاصلية فتوسعت بذلك مناطق انتاجها ، وان تنتج غلة اكثر فزادت بذلك الطاقة الانتاجية لوحدة الانتاج الواحدة . فمن امثال ذلك التوصل الى بذور القمح الشديدة المقاومة للجفاف والبرودة ، فامتدت بذلك مناطق انتاج هذا الحاصل اكثر باتجاه الاقطاب ، حيث لم تكن الاراضي بذاك امكانية للانتاج الزراعي . كما توسعت نحو حافات الصحاري : وفي كلتا الحالتين استطاع الانسان ان يستغل اراضي اقل ازدحاماً بالسكان ويوفر بذاك حاصلات للمناطق المؤدحة .

كما ادت مثل هذه الجهود الى الحصول على هجائن من الذرة ادت بدورها الى تزايد الانتاجية منها ، لا سيما في منطقة السرة الاميركية حيث تضاعفت انتاجية الهكتار من ١٤٠٠ كيلو جرام الى حوالى ٣٢٠٠ كيلو جرام خلال الاربعين سنة الماضية ، كما ان استعمال الاصناف الجديدة من الرز في بعض مناطق الشرق الاقصى قد ادى الى زيادة انتاجيته الى اكثر من ٧٥ ٪ على مستواها الاعتيادى بحث اصبحت بعض الدول هناك تواجه مشكلة فيض الانتاج دون امكانية تصديره . مما حدا بالمدير العام لمنظمة الزراعة والغذاء الدولية F.A.O. الى استقصاء احتمال عقد اتفاقيات دولية لتسويق الرز لا سيما بين الدول النامية .

غير ان مما يقرل الاستفادة من مثل هذه البذور بشكل واسع هو تلك الكثير من الدول النامية في استعمالها ، لسبب او لآخر ، فكانت النتيجة تخلف جنى الفوائد منها بما يتلاءم وتزايد

(١) لعل من ابرز الامثلة على ذلك هي الزراعة الهوائية Hydroponics التى تستفيد من آخر فطرة من المياه في عمليات ري المحاصيل ..

الحاجة الى المواد الغذائية ، ولكن يبدو ان جهود خبراء منظمة الزراعة والغذاء الدولية وغيرها قد اخذت تفلح في الاونة الاخيرة في ضرورة الاستفادة منها ، ويمتد كنتاج لذلك ان دولة كالهند مثلا مستمكن في سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ من اكفاء نفسها ذاتيا من الحبوب الغذائية ، على ان يصحب ذلك بنى الوسائل الاخرى الكفيلة بتطوير نظام ريقي مناسب يساعد على حسن توزيع الانتاج ويسهل استعمال بقية طرق الانتاج الحديثة ومكافحة الآفات (١) .

وكما ان تهجين البذور الزراعية قد ادى الى زيادة انتاجية الارض ، فان تهجين الحيوانات قد ادى ايضا الى زيادة قابلية الحيوانات على التكيف لبيئات جغرافية جديدة والى زيادة انتاجيتها على السواء ، ففي امريكا اللاتينية مثلا هجنت الابقار الهندية المدارية مع الابقار الهولندية ، فادى ذلك الى الحصول على سلالة جديدة ذات قابلية للعيش في اجواء القارة المدارية بصورة خاصة ، ولكن في نفس الوقت بانتاجية عالية من اللحم والحليب .

ولا تقل عمليات استصلاح الاراضى واحيائها اهمية في مجال توسيع رقعة الاراضى الزراعية وزيادة انتاجيتها ، فتجفيف المستنقعات وازالة الملوحة من التربة وازادة الخصبات والمواد الكيميائية الاخرى لاعادة بنائها وموازنة تركيبها الكيماوى ، وتطوير مصادر المياه وتطبيق الوسائل الاقتصادية في استعمالها ، لا سيما في المناطق الجافة ، بل وحتى استعمال ابحاث الفضاء في الكشف عن مناطق الاصابات والامراض النباتية في الحقول الزراعية والمبادرة الى مكافحتها ، هي امثلة قليلة من ربح هادر من الابحاث التي تجرى الآن في العالم لانماء مصادر الثروة وتطويرها في سبيل تحقيق مستقبل افضل .

على ان استعمال التقنية الحديثة في زيادة الانتاج يجب ان تواكبها الدقة والحكمة في التطبيق ، وذلك لان قوة العلم الحديث قد تقابلها قسوة معاكسة تقضى على الكثير من العناصر القيمة في بيئة الانسان الطبيعية (٢) ففي الباكستان مثلا : في الوقت الذي توسعت فيه مشاريع الري لارواء ٤٠ مليون فدان من الاراضى منذ ١٩٤٩ ، فان هذه المشاريع نفسها دمرت ٥ ملايين فدان بسبب الملوحة وذلك بعد عشر سنوات من الزمن ، ولا تزال باكستان تفقد بين ٥٠ الى ١٠٠ الف فدان سنويا لنفس السبب ، والامثلة على ذلك تتكرر في كل من العراق وايران والولايات المتحدة وغيرها من المناطق الروائية .

وفي الجمهورية العربية المتحدة يقال ان توسيع عمليات الري وتخزين المياه قد ادبا الى تقليل نسبة الطمي الذي يرمي به نهر النيل في مصبه مما ادى الى هجرة اسماك (السردين) عن الشواطئ المصرية بحيث ادى ذلك الى تناقص الانتاج منها بشكل كبير جدا . وفي فلسطين المحتلة ادى استعمال بعض السموم للقضاء على فئران المزارع الى قتل الطيور الساحلية التي كانت تقتات عليها في الوقت الذي اكتسبت فيه الفئران مناعة ضد تلك السموم بمرور الزمن بحيث عادت الى التكاثر وبشكل سريع . ويخشى المجلس البريطاني للبحث العلمي من كثرة تلوث مياه الخزانات التي تستمد مياهها من الانهار التي تستلم قدرا كبيرا من بقايا عمليات التسميد من الفوسفات

(١) انظر مقالة : Loweli Satin, Next Steps to Sustain Agricultural Revolution, (International Development Review, March, 1969).

(٢) انظر مقالة : Edwin Maxtin, Three Critical Issues in Agricultural Development (Inter. Develop. Review, March, 1969).

والنترات ، لان ذلك يؤدي الى نمو بعض طحالب المياه التي تشكل غطاء فوق المياه يمنع تنفيل الشمس ونفوذ الاكسجين ، وهي حالة يقضى معها على الحياة السمكية في هذه الخزانات كما يؤدي الى زيادة فقدان المياه منها بطريق التبخر والنتح .

لذا فيمكن القول ان استعمال وسائل التقنية الحديثة لا يمكن ان يتم بصورة عشوائية ، بل ان مدى نجاح ذلك يتناسب طرديا مع مستوى الثقافة والوعي العلمى في البلاد ، وهذا امر يعتبر في غاية الاهمية بالنسبة للدول النامية .

٤ - العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية :

قد يبدو لنا لأول وهلة ان حل مشكلة التغذية في العالم يمكن ان يتحقق ببساطة عن طريق زيادة انتاج الطعام كماً ونوعاً الى المستوى الذى يمكن ان يسد حاجات السكان الغذائية ، وقد يعنى ذلك من الناحية الموضوعية تبنى الاساليب الحديثة في زيادة وتنوع الغلة من الوحدة الانتاجية الواحدة ، او التوسع الى اراض جديدة عن طريق استصلاحها واعدادها للانتاج .

ان زيادة انتاج الطعام وان كانت فعلاً تكون الهدف النهائي لحل مشكلة التغذية ، الا ان كيفية تحقيق هذه الزيادة وكيفية تمكن المستهلكين من الحصول عليها حيث يحتاجونها تشكل الجوانب العملية في مجابهة المشكلة وحلها ، فلو اخذنا الانتاج العالمى الحالى الاغذية مثلا وقارناه بحاجات الاستهلاك الحالية في العالم ، لا بدت لنا صورة التغذية بهذا الشكل الكثيب والشوه الذى هي عليه فعلاً في كثير من مناطق العالم ، ولقد تبين لنا من الجدول (٤) مدى التكدس الذى نجم عن فائض الانتاج لكثير من المواد الغذائية في بعض دول العالم ، ولو اخذنا من هذا الجدول حالة الفاخص من القمح فقط ، والذي اخذ يتزايد ما بين ١٠ الى ٢٠ مليون طن سنوياً في بعض الاحيان ، لوجدنا انه يمكن ان يسد حاجة ما بين ٧٥ - ١٥٠ مليون شخص سنوياً من الحبوب الغذائية .

كما اننا لو اخذنا حالة انتاج المواد الغذائية في بلد كالولايات المتحدة ، حيث يعادل ١١٠٠٠ سعرة يومياً للفرد الواحد ، وهو معدل يساوى اربعة اضعاف حاجة الفرد الاعتيادية ، لتبين لنا مرة اخرى مدى الفيز الغذائية التي تتميز به بعض الدول نسبة الى « الشحة » في دول اخرى ، بحيث يؤدي مثل هذا الفيز غالباً الى التلبذير والاسراف أثناء التوزيع والاستهلاك .

كما اننا اوضحنا في الجدول ١٥ « وفرة مصادر التغذية الكامنة في الثروات الحيوانية في كثير من الدول النامية التي هي نفسها تعاني من مشاكل التغذية ، ولكنها دون استفادة تذكر بحيث ان شعوب هذه الدول تتعرض الى الكسبر من الامراض الناجمة من نقص العناصر الحيوانية في طعامها .

فالمشكلة من الناحية الموضوعية اذن ليست بتلك الدرجة من التدهور ، ولكن حلها بصورة واقعية ليس بتلك الدرجة من السهولة والبساطة ايضاً ، والذي ربما يترأى بانه مجرد علاقة بسيطة بين اعداد السكان وكمية الانتاج ، بينما يرتبط الحل في الواقع بكثير من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع والتي هي بحد ذاتها تختلف من بيئة جغرافية الى اخرى ، ومن ثقافة الى اخرى ، بحيث يتوجب ان يكون لكل جماعة من الناس في كل بيئة معينة حل خاص بها .

أما من حيث العلاقات الاقتصادية المرتبطة بوضع التغذية وبمستقبلها ، فإنها ذات صلة بمجموع الدخل القومي وبمشاريع التنمية الاقتصادية المتعددة الجوانب في الأمة الواحدة .

فإن الدخل القومي يقرر معدل دخل الفرد الواحد والذي بدوره يحدد قوته الشرائية - القوة الشرائية التي تعتبر اليوم أساسية لتحديد قدرة الفرد على توفير حاجاته الغذائية في الدول النامية، إذ أنه بدون مثل هذه القدرة لن تكون هناك أية قيمة لوفرة المواد الغذائية سواء داخل حدود الدولة أو عبر قنوات التجارة الدولية .

وبلدو لنا أهمية مثل هذه الصلة بين القوة الشرائية ومستوى التغذية من دراسة الجدول التالي الذي يورد نماذج موضحة للعلاقة بين هاتين الظاهرتين من دول ذات دخول مختلفة .

جدول - ١٦ -

« معدل مستوى التغذية نسبة الى معدل مستوى الدخل في بعض اقطا العالم »

الدولة	معدل دخل الفرد السنوي (بالدولار)	مقدار السرعات الحرارية المستهلكة (يومياً)	البروتينات (جرام يومياً)	الحيوانية منها
انكلترا	١١٣٣	٣٢٧٦	٨٩	٥٣ر٤
فرنسا	٩٦٨	٢٩٧٥	١٠٣	٥٩ر٤
الاتحاد السوفيتي	٨١٦	٢٩٩٨	٨٥ر٩	٢٩
إيطاليا	٥٤٥	٢٧٣٤	٨٠	٢٩ر٨
الهند	٥٠	٢٠١٧	٥١ر٥	٦

على أن هذا الجدول لا يظهر فقط مدى العلاقة الإيجابية بين مستوى الدخل ومستوى التغذية ، وإنما يوضح أيضاً بأنه في حالة الدخل العالية فإن عناصر التغذية تكون متكافئة : نباتية وحيوانية (بدليل كثرة البروتينات الحيوانية المستهلكة) ، بينما في حالة الدخل الضعيفة فإن النسبة العظمى من الغذاء مستمدة من مصادر نباتية وهو أمر سبق أن أشرنا إلى خطورته في أحداث سوء التغذية أو نقصه . فمن الأدلة الشاهدة على ذلك هو ما سبق أن ذكرنا من أن الحبوب الغذائية تكون المصادر الأساسية في تغذية الشعوب النامية، حيث تشكل ما بين ٥٠ - ٦٠ ٪ من مقادير الأغذية المستهلكة يومياً في مناطق الشرق الأقصى ، بينما في بريطانيا مثلاً لا تشكل الحبوب الغذائية أكثر من ١٢ ٪ من مصادر تغذية الفرد .

على أنه ليس واضحاً لدينا أيضاً بأن العلاقة الإيجابية هذه بين الدخل ومستوى التغذية لا يمكن أن تستمر في تصاعد وبدون حدود ، بل إنه يحكم عدم مرونة الطلب على المواد الغذائية بعد حد الكفاية فإن استمرار زيادة الدخل لن يحدث آثاراً مشابهة في طلب المواد الغذائية واستهلاكها ، ويبدو ذلك جلياً من دراسة الجدول السابق الذكر، حيث نلاحظ أن الفرق بين مستوى دخل الفرد البريطاني والفرد الإيطالي الذي يبلغ حوالي الضعف ، لم يحدث ضعف الفرق في مستوى التغذية .

من ذلك يمكن أن نستنتج أن مرونة الطلب على المواد الغذائية ستكون شديدة عند الشعوب الضعيفة التغذية والضعيفة الدخل ، وستبقى النسبة العظمى من دخول الشعوب النامية تنفق على المواد الغذائية لمدة غير قليلة من الزمن إلى أن تتحقق لديها مستويات الكفاية الغذائية . يبدو لنا ذلك واضحاً من مقارنة توزيع معدل دخل الفرد على مطالب الحياة المختلفة في كل من

الولايات المتحدة والهند ، ففي الولايات المتحدة يتوزع معدل الدخل على المطالب المختلفة بالنسب المثوية التالية :

الغداء ٣٠٪ ، المسكن ٢٥٪ ، الملابس ١٥٪ ، أمور أخرى ٣٠٪ . اما في الهند فتوزع الدخل يتم بالشكل التالي :

الغداء ٦٠٪ ، السكن ٨٪ ، الملابس ٧٪ ، أمور أخرى ٢٥٪ ، واذن فمن الممكن ان تتوصل الى النتيجة التي لا تقبل الجدل وهي ان تحسن مستويات التغذية عند الشعوب النامية يرتبط ارتباطا وثيقا بتحسين مستوى الدخل القومي ، وبالتالي تحسن الدخل الفردي .

فما هو وضع الدخل القومي للشعوب النامية ؟

لعل من المفيد في هذا الصدد ان نعلم بان شعوب العالم النامية التي تكون حوالى ٧٠٪ من سكان العالم لا تساهم بأكثر من ٢٠٪ من مجموع الدخل العالمى (١) وان الفروق بين مستويات الدخل للشعوب النامية والشعوب المتقدمة تزداد يوما بعد يوم بدل ان تضيق ، وذلك كنتيجة لتزايد سكان المناطق النامية بدرجة اسرع مما في المناطق المتقدمة ، بينما لا تنمو مشاريع الاعمال والانتاء فيها ، وبالتالي لا ينمو مجموع انتاجها القومي بالسرعة المطلوبة . ففي دراسة لمعدل التغير السنوي للسكان ومعدل دخل الفرد الواحد اجريت على ٣٢ دولة من الدول النامية في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية للفترة من ١٩٥٢/٥٦ حتى ١٩٦٠/٦٤ ، وجد ان سكان هذه الدول قد زادوا بمعدل ٢٥٪ سنويا بينما كان معدل زيادة الدخل الفردي ١٨٪ (٢) ، وهذا يعني ان زيادة الدخل بمعدل دخل الفرد الهندي (كما هو مبين في الجدول ١٦) قد لا تعمدى الدولار الواحد سنويا ، بينما هي للدول المتقدمة قد تزيد على ٣٠ دولارا سنويا للفرد الواحد .

ان تزايد سكان المناطق النامية بهذا الشكل نسبة الى زيادة انتاجها العام ، لا شك انه يؤدي الى تزايد البطالة ، الامر الذى يعنى انخفاض مستويات المعيشة وتناقص القدرة الشرائية للاغلبية لدى الكثير من العائلات ، ومع ذلك فسيبقى تزايد السكان ذا اثر كبير في تزايد الطلب العام على الاغذية فيؤدي بذلك الى جنوح اسعارها نحو الصعود مما قد يدفع الدولة الى استيرادها من الخارج وانفاق الكثير من الاموال على ذلك ، في الوقت الذى يمكن ان تستغل مثل هذه الاموال في اقامة مشاريع التنمية التي تؤدي بدورها الى تقليص حجم البطالة عن طريق ابتلاع ايدى عاملة جديدة .

ومن الامور الاخرى التي قد تحدث البطالة بين السكان - لا سيما الريفيين منهم - هو الجبل نحو تنوع المحاصيل الزراعية خاصة وان هذا التنوع يعتبر ضروريا لتنوع مصادر التغذية ، فلقد لوحظ في البرازيل مثلا ، انه نتيجة التحول من زراعة البن كحاصل رئيسي في بعض المناطق - الى تربية الحيوانات للحصول على منتجاتها ، ان قد حصل تقلص مستمر في مقدار العمل المطلوب الذى ربما ادى الى الاستغناء عن ٩٠٪ من الايدي العاملة التي كانت تعمل ضمن وحدة انتاجية لبن ، ومثل ذلك يحصل ايضا في تنزانيا كنتيجة لتقلص زراعة السايال - Sisal - (وهو من محاصيل الالياف الزراعية) لحساب التوسع في انتاج محاصيل حقلي وحيوانية اخرى ، حيث

ان ذلك سيؤدي الى الاستغناء عن اكثر من ٩٥٪ من العمال الزراعيين في بعض الاحيان ، ولا شك في ان هذه الحالة ستتكرر في حالة تنوع الانتاج الزراعي في مناطق الشرق الاقصى التي تبتلع زراعة الرز فيها الملايين من الابدن العاملة ، وعلى ذلك فقد لا يكون لزيادة الانتاج - كما ونوعاً - معنى فعلي في زيادة الاستهلاك عند جماعة كثيرة من الناس نتيجة لتزايد البطالة وانخفاض مستوى معيشتهم .

من هنا اصبح الواجب على مشاريع التنمية التي تهدف الى رفع مستوى الانتاج الغذائي ، وبالتالي رفع مستوى استهلاكه ان تحسب حساب استيعاب هذا القرض من السكان : سواء ذلك الذي يحصل بطريق الزيادة الطبيعية او نتيجة الهجرة من الريف بسبب تقلص الحاجة الى العمل ، وذلك بان تعتمد الدول النامية الى تنمية المشاريع الصناعية والمدنية الاخرى جنباً الى جنب مع مشاريع التنمية الزراعية .

ان وجود مشاريع التنمية المدنية الى جانب الريفية منها يعتبر من الامور الضرورية لاصادة البناء الوطني لمجتمع الدول النامية ، فوجود نسبة كبيرة من السكان الريفيين (الذين قلنا انهم قد يشكلون احياناً لنسبة السكان) يعني ضيق السوق المحلية للانتاج الزراعي القومي ، باعتبار ان معظم هذا الانتاج يستهلك من قبل السكان الريفيين انفسهم قبل ان يصل الى المدينة ففي دولة كالصين مثلاً ، نجد ان حوالي ٨٥٪ من انتاج الرز فيها يستهلك حيث ينتج ، وفي الهند نجد ان ٦٠٪ من هذا الانتاج لا يقادر القرية ، لذا فكلما حصل تكافؤ بين نسبة السكان الريفيين والسكان المدنيين - وذلك من طريق اقامة المشاريع المدنية التي تجتذب العمل الفائض في الريف - فان احتمال توسع السوق المحلية ومساهمة ابن المدينة في استهلاك المواد الغذائية سيرداد بالتبع ، كما ان ذلك يساعد على ان يساهم ابن القرية في الحصول على جزء من ابواب انفاق الدخول لابن المدينة ، فيؤدي ذلك بالتالي الى توزيع احسن لمستوى الدخل العام .

على انه يتوجب على خطط التنمية الزراعية لاجل ان تحقق هدف توسيع الاسواق المحلية العمل على تحسين وسائل تسويق المنتجات الزراعية وبصورة منتظمة وذلك من طريق تطوير وسائط النقل والمواصلات والتوزيع والتخزين وغير ذلك ، والا فان العملية ستصبح ذات جانب واحد تنكس نتيجة السلع وتردى اسعارها فترمي بذلك بالفلاحين في احضان الخسارة ، مما سيدفعهم الى ترك الانتاج .

ولقد لاحظنا سابقاً كيف ان دخول الاصناف المحسنة من الرز الى بعض مناطق الشرق الاقصى قد ادى الى زيادة انتاجيته ، ولكن دون تسهيل عمليات تسويقه ، مما مرض الفلاحين الى بعض الازمات المالية ، فدفع ذلك المدير العام لمنظمة الغذاء والزراعة الدولية الى استقصاء احتمال عقد اتفاقيات دولية - اقليمية للرز لتسهيل تسويقه وتثبيت اسعاره بشكل ملائم للمنتج والمستهلك .

في مجال التنمية هذه ، يتبادر الى الذهن سؤال آخر عما ستكون عليه حالة انتاج المواد الغذائية لو عمدت جميع الدول النامية المجاورة الى تطوير انتاجها من حاصلات متشابهة ، بحيث يؤدي ذلك الى تشبع الاسواق المحلية او الاقليمية منها ، كما انها قد لا تتمكن ان تجد طريقها الى الاسواق العالمية الاخرى ، خاصة في الدول المتقدمة ، بسبب كثرة الحواجز الجمركية المفروضة على استيراد السلع الزراعية اليوم وبسبب سوء السمعة التي تسبق السلعة القادمة من الدول النامية .

لذا فقد أصبح من الواجب على الدول النامية أن تمارس التعاون فيما بينها عن طريق احلال التوافق بين خطط التنمية فيها - على المستوى الاقليمي اولا ثم على المستوى الاوسع بعد ذلك . بحيث يؤدي ذلك الى تقليص فرص التنافس بين انتاج السلع المشابهة بالشكل الذي يتلاءم والظروف الجغرافية لكل دولة من هذه الدول ولعمل الاسواق الاقليمية المشتركة التي بدأت تبرز الى الوجود اليوم هي نموذج على امثال هذا التعاون .

★ ★ ★

اما من حيث العلاقات الاجتماعية ومدى اثرها على مستقبل التغذية ، فهي حالة اخرى تستحق الاعتبار في المناطق النامية ، وان عادات وطبائع انتاج واستهلاك المواد الغذائية والماتمة بالتقاليد والاعتبارات الدينية والدوق ، لمهي عقبات - قد تعتبر اصعب من غيرها في بعض الاحيان - في سبيل حل مشكلة التغذية .

فمن حيث الانتاج ، والذي يتسم في المناطق النامية على العموم بانخفاض الفلة وباقتصارها على حاصل رئيسي او حاصلات قليلة محدودة ، فان ذلك يعود الى عوامل كثيرة مثل نظام الملكية الزراعية وتقاليد الانتاج وكيفية الاستفادة من بعض مصادر الثروة الموجودة في المزرعة ، كالحيوانات .

فيما يختص بنظام الملكية الزراعية ، فانه بما لشدة ازدياد السكان في معظم المناطق النامية ، لا سيما الريفية منها ، وبسبب نظام الميراث السائد في بعضها فان معظم المزارع صغيرة ، بل وتزداد صفرا بمرور الزمن ، الى درجة بحيث انها مع نظام الانتاج الحالي قد لا تفي حتى بحاجات اصحابها من الانتاج - لذا فهي مموما زراعية استهلاكية Subsistence Farming وذات عوائد نقدية قليلة جدا على الفلاح بحيث لا تيسر له استعمال الوسائل الحديثة في التنمية حتى اذا توفرت - كما انها تقتصر على صنف رئيسي واحد في الانتاج بحيث تصبح معه وجبة الفلاح مكونة ايضا من طبق رئيسي واحد تنقصه عناصر الغذاء المختلفة .

وهذا على نقيض ما يميز المناطق المتقدمة ، حيث الانتاجية اعلی : بالنسبة للمزرعة وبالنسبة للفرد المنتج ، بحيث يتوفر معه فائض للبيع ، لذا فاني الكثير من المناطق المتقدمة هناك ما بين ١٠ الى ٢٠ عائلة يمكن ان تستفيد من انتاج عائلة فلاحية واحدة ، هذا فضلا على تنوع الانتاج .

اما الحيوانات التي توجد في المزارع ، فلها قصة اخرى في المناطق النامية ، فانها فضلا على بعض التقاليد الدينية التي تحرم الاستفادة منها ، فانها ان وجدت في المزرعة فانها لا تستعمل الا لمساعدة الفلاح في اعمال الزراعة والنقل دون الاستفادة من منتجاتها ، هذا في الوقت الذي تشارك فيه هذه الحيوانات الفلاح حاصلات الحقل رغم ضعف انتاجيته ، وحتى فضلا عنها - فبدلا من استعمالها في عمليات تسعيد التربة واعادة الخصوبة اليها فانها تحول الى وقود لاستعمالها في الاغراض المنزلية - وهكذا فغالبا ما تكون الحيوانات بهذا الشكل عبئا على مصادر الغذاء بدل ان تكون مصدرا له .

ان من المحتمل ان تستمر مثل هذه الاوضاع والانماط الزراعية في المناطق النامية ما دام الفلاح جاهلا وبعيда عن مصادر الارشاد الزراعي وفتيرا تجاه تكاليف الانتاج الحديث وليس هناك اصعب من تغيير تقاليد الفلاح الجاهل والفقير .

اما من حيث عادات وطباع الاستهلاك فهى امور اخرى ذات اهمية كبيرة في موضوع التغذية ، فقد لاحظنا سابقا ان من اهداف مستقبل التغذية ضرورة التأكيد ليس على زيادة استهلاك المواد الغذائية فحسب ، بل ربما اهم من ذلك تحسين نوعيتها وطريقة استهلاكها ، بحيث يؤدي ذلك الى جعل الناس يأكلون احسن الى جانب ما يأكلون اكثر ، ولكن هل من الممكن تحقيق ذلك ، حتى لو فرض وتحسنت دخول الافراد وتوفرت لهم المواد الغذائية كما ونوعا ؟ .

ان كل الدلائل تشير الى ان تبديل عادات الكثير من الناس في استهلاك المواد الغذائية يعتبر من الامور الصعبة التحقيق خلال فترة قصيرة من الزمن ، مهما تحسنت احوالهم المعاشية وارتفعت دخولهم . فلقد لوحظ بطريق التجربة في كثير من الدول النامية التي ازدادت فيها دخول بعض العائلات بان ربة البيت لا تزال تشتري نفس مواد الغذاء التقليدية وتطبخها بنفس الطريقة التي تعودت عليها - تلك الطريقة التي تقضي على الكثير من عناصرها الغذائية - ولعل مما يؤدي هذه الحقيقة هي ظاهرة تزايد المطاعم الاجنبية (لاسيما الشرقية منها) في الكثير من المدن الغربية الكبرى التي بدأت تتعرض لتوافد الكثير من الزوار والسياح الاجانب من انحاء العالم المختلفة ، هؤلاء الوافدين الذين تشير امكانية قيامهم بالسفر البعيد الى تحسن مستوى دخولهم وارتفاع مستوى معيشتهم ، ولكن مع ذلك يجد هؤلاء من الصعوبة عليهم تغيير ذوقهم في عملية التغذية ، كما ان الكثيرين من المهاجرين الشرقيين ، وخاصة من الهند والشرقيين الذين خلفوا امسورا كثيرة وراءهم في وطنهم الام نازحين الى اوطان جديدة لم يخلطوا في هجرتهم عاداتهم الغذائية ، فما كان من هؤلاء الا ان يأخذوا معهم ما يسمى احيانا بثقافة الرز - Rice Culture - الى حيث هجروا ، فكان ذلك سببا في دخول زراعة هذا الحاصل الى بعض مناطق العالم الجديد .

لذا فنبذو لنا واضحا ان تغيير عادات التغذية لغرض تحسينها لا بد ان يبدأ مع الاجيال الجديدة الناشئة وهنا تبدو اهمية مشاوير التغذية الجماعية ، سواء كان ذلك في المدارس او في غيرها ، في سبيل تحقيق هذا الهدف .

الخلاصة :

ان المحاولة التي قمنا بها على الصفحات القليلة الماضية لعرض مشكلة التغذية كما سيواجهها العالم في المستقبل وبيان الجوانب المرتبطة بملاجه يمكن ان تقودنا الى استخلاص بعض النتائج من هذه المشكلة والتي نوجزها فيما يلي :-

١ - لا شك في ان مشكلة التغذية السائدة تنجم اساسا عن شحة المواد الغذائية المهيئة للاستهلاك ، وذلك كنتيجة لتفوق نسبة تزايد السكان على نسبة توفير هذه المواد الغذائية ، وان المستقبل سيبرز هذه المشكلة تعقيدا مادام مثل هذا التسابق بين الحالتين مستمرا بهذا الشكل .

٢ - ان الحديث عن هذه المشكلة وعن مستقبلها يكاد يقتصر حاليا على المناطق النامية في العالم ، والتي تسم فيها العلاقة بين السكان والغذاء بمثل هذا الطابع السلبي ، وان كل الدلائل تشير الى ان مثل هذه العلاقة السلبية ستتفاقم كنتيجة للتفجر السكاني الذي يحدث في هذه المناطق ، مما يؤدي الى الاختلال بقيمة التزايد الذي يتحقق في انتاج المواد الغذائية فيها ، اذن فلا بد من معالجة هذا التفجر السكاني كمفتاح لحل المشكلة في المستقبل .

٣ - ان مستقبل التغذية في هذه المناطق يجب ان لا يرتبط فقط بسد حاجات السكان الغذائية اي بما يسد رمقهم وبالمستوى السائد اليوم ، بل لا بد ان يعمد الى رفع مستوى التغذية الى ادنى

الحدود الصحية المطلوبة ، بما يكفل تحقيق حياة منتجة للأفراد في وسط مجتمع منتج، لا مستهلك فقط ، فشكلة التغذية في الواقع ليست مشكلة مجاعة أكثر من كونها مشكلة نقص أو سوء تغذية .

٤ - إذا كانت حوادث المجاعة عبارة عن حالات طارئة ومؤقتة ، فإن سوء التغذية أو نقصها أكثر ازمانا بين الشعوب النامية وإن كلاهما يكون عقدة في حلقة مفرغة في موضوع التنمية وزيادة الانتاجية ، فلا يمكن أن نرجو من أفراد خاوي البطن أن يقلعوا انتاجا كفوًا ، كما أن الانتاج غير الكفؤ لا يمكن أن يفسد حاجات الأفراد بالشكل المطلوب .

٥ - أن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن المناطق النامية تمتلك من القابليات والإمكانات الكامنة لزيادة انتاج المواد الغذائية ما يكفل أكفاء معظم حاجاتها منها - على الأقل للامد المنظور - وذلك لأن مواردها الحالية لم تستغل استفلا لا جيداً بسبب ضعف المنتج وضعف أساليبه القديمة والتقليدية ، كما أن تطوير هذه المصادر المحلية أو الإقليمية أمر ضروري لتقليل امل الاعتماد على استيراد من الخارج - ولا سيما من دول الغيظ الغذائي - وذلك بسبب الصعوبات التي تنشأ عن تباین مستويات المعيشة وتكاليف الانتاج ، وبالتالي أسعار تلك المواد المستوردة والتي لا يمكن للدول النامية أن تواجهها نظراً لارتفاعها .

هذا فضلاً على أن تطوير المصادر الحالية وتنميتها يعتبر أكثر اقتصادية ، لأنه فضلاً على كونه يعمل على رفع مستوى معيشة مجموعة كبيرة من الناس المرتبطين بوجودها فهو يتطلب عمليات احياء اراض جديدة أو فتح طرق جديدة أو تنظيم استيطان جديد .

٦ - لما كان هناك ترابط شديد بين زيادة الدخل وتحسن مستويات المعيشة ، فقد أصبح من الضروري ربط مشاريع الانماء الزراعي بمشاريع التنمية الأخرى لتحقيق التوازن بين الجوانب المختلفة للمعملية ، وذلك لأن القطاعات الانتاجية المختلفة في الدولة إنما هي عناصر مترابطة في عملية واحدة تتصل بانتاجها القومي العام .

٧ - أن تباین توزيع مصادر الثروة بين المناطق المختلفة ، نتيجة لاختلاف وتباين العوامل الجغرافية ، يقضي على الدول المتجاورة ، على الأقل بان تتعاون مع بعضها البعض في عمليات التنمية لا سيما في ميدان الانتاج الزراعي ، كي تستطيع أن تحصل على الفوائد الممكنة من ذلك ، وذلك لأنه بسبب هذا التباين لا يمكن لاية دولة من الدول مهما كانت واسعة وغنية بمواردها أن تكفي نفسها بجميع ما تحتاجه من انتاجها المحلي .

مصادر البحث

1. F.A.O. **Third World Survey**, (Basic Study No. 11) Rome, 1963.
2. F.A.O. **Possibilities of Increasing World Food Production**, (Basic Study No. 10), Rome, 1963.
3. F.A.O. **The State of Food and Agriculture**, 1969, Rome, 1969.
4. F.A.O. **Agricultural Commodities — Projections for 1975-1985** Vol. I, II. Rome, 1967.
5. F.A.O. **Calorie Requirements**, (Nutritional Studies, No. 15) Rome, 1958.
7. F.A.O. **Food and Nutrition Procedure in Times of Disaster**, by Masefield, (Nutritional Studies No. 21) Rome, 1967.
8. F.A.O. **Agricultural Planning Course 1965**, (Agricultural Planning Studies No. 7) Rome, 1966.
9. F.A.O. **Incentives and Disincentives for Farmers in Developing Countries**, (Agricultural Planning Studies No. 8) Rome, 1967.
10. U. S. **Department of Agriculture, Food**, (Year-Book of Agriculture, 1959) Washington, D.C.
11. Clark, Colin, **Population Growth and Land Use**. MacMillan and Co., London, 1967.

مقالات وابحات :

1. Sukhatme, P., Basu, D., and Schulte, W., **Problem of population and Resources with special Reference to land use and Food supply**.
2. Martin, E., " **Three Critical Issues in Agricultural Development**," *International Development Review*, March, 1969.
3. Satin, L., **Next steps to sustain the Agricultural Revolution**, *International Development Review*, March, 1969).
4. Abercrombie, K. C., " **Population Growth and Agricultural Development**," *Monthly Bulletin of Agricultural Economics and Statistics of the F.A.O.*, April, 1969.
5. Dovering, F., " **The Share of Agriculture in a Growing Population**," *Monthly Bulletin of Agricultural Economics and Statistics*, September, 1969.
6. Nixon, President R., **Population Growth : Problems and plans**-(a special message to the U.S. Congress, 1969).
7. Yarborough, Senator R., **Hunger and the Population Boom : The Dual Crisis**, Washington, D. C., 1969.
8. Fredrick, Dr. J.S., **Improving Nutrition for World's Population**. Harvard University, Boston, 1969.
9. Thompson, W., " **The spral of population**," *Man's Role in changing the face of the Earth*—University of Chicago Press, Chicago, 1966.

التربية في عالمنا المتغير

محمد ناصر *

تمهيد

لعله من المناسب قبل البدء في مناقشة هذا الموضوع أن نبين أننا سنحاول التأكيد على دور التربية في عالمنا المتغير . أننا بطبيعة الحال نفترض أن عالمنا في تغير ، وأن كانت مناقشة التغير الاجتماعي خارجة عن نطاق هذا البحث من جهة ، كما أنها من اختصاص علماء الاجتماع من جهة أخرى .

وسنستشر فيما بعد إلى بعض التفسيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والتكنولوجية التي تلقى على التربية في العصر الحديث دورا خاصا .

كذلك من المفيد أن نذكر في بداية بحثنا هذا أن مفهوم التربية قد يختلف باختلاف الفلسفات الاجتماعية والتربوية التي يدين بها هذا المرءي أو ذاك . فهناك من يعرف التربية بأنها (حياة) أو (نمو) أو (توجيه) كما يلهمه الفيلسوف الأمريكي المعاصر إلى ذلك (١) . ويرى آخرون بأنها عملية تفتح (شبيهة بعملية تفتح الزهرة) أو ترويض الملكات الذهنية ، وهكذا (٢) . كذلك هناك من يؤكد على الفرد في العملية التربوية ، بينما يؤكد غيره على المجتمع ، ويؤكد ثالث على الانسجام بين الفرد والمجتمع (٣) .

وزيادة على ذلك فهناك تربية نظامية مقصودة تتم في المدارس والجامعات والمؤسسات الثقافية

• الدكتور محمد ناصر استاذ التربية بجامعة الكويت ، كان استاذاً وعييدا في كلية التربية بجامعة بغداد ثم وزيرا للتربية ووزيرا للثقافة والإرشاد في العراق ، من أهم مؤلفاته: التربية الوطنية ، تربية المواطن العربي ، دليل الطالب للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية .

« ١ » انظر جون دوى سربى متى عشراوى وذكريامخايل « الديمقراطية والتربية »

« ٢ » انظر حوز ذلك رونيه اويرى صربى ميد السعيد الدالم : التربية العامة ، وجورج شهلا وعبد السميع حربلي : الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية « ٣ » انظر الصديري السابقين

الأخرى ، وإلى جانبها تربية غير مقصودة تتم خارج هذه المؤسسات وبوسائل أخرى كالصحف والمطبوعات الأخرى والراديو والتلفزيون والسينما والمسرح الخ . .

على أننا لأغراضنا العملية سنقبل التعريف الذى يؤكد على تنمية شخصية التعلم - طفلاً كان أو مراهقاً أو حتى راشداً في بعض الأحيان - وأعداده ليكون عضواً نافعاً في المجتمع ، ويمكن أن قبل التعريف التالي للعربي الفرنسي « أوبر » في هذا الشأن :

« التربية جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنساني في كائن إنساني آخر ، وفي الغالب راشد في صغر ، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن تكون لدى الكائن الصغير استعدادات متنوعة تقابل الغايات التي يعدلها حين يبلغ طور النضج (٤) » .

التغيرات في مجتمعنا المعاصر

إن التغيرات التي حدثت في مجتمعنا المعاصر ، وخاصة منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كثيرة . . لقد حدثت خلال هذه الفترة ثورات سياسية واجتماعية عدة ، وأهم هذه الثورات من حيث مدى تأثيرها في المنطقة التي وقعت فيها وفي العالم كله ثورة الاستقلال الأمريكية (١٧٧٦ م) والثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) والثورة البلشفية (١٩١٧ م) .

ويمكننا القول أن هذه الثورات الثلاث الكبيرة استهدفت ، كل بأسلوبها الخاص ، تحقيق مبادئ الحرية السياسية ، والمعادلة الاجتماعية ، أو الديمقراطية الاجتماعية كما يفضّل الكتاب في البلدان الاشتراكية تسميتها ، مقابل الديمقراطية السياسية التي يؤكد عليها الكتاب في البلدان الرأسمالية ، والأخوة - أخوة البشر - مهما اختلفت ألوانهم وشعوبهم وأجناسهم .

إن تأثير هذه الثورات منفردة أو مشتركة امتد إلى خارج البلدان التي وقعت فيها ويمكننا أن نعزو كثيراً من التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في ما نسميه الآن بالعالم الغربي أو الرأسمالي والعالم الشرقي أو الاشتراكي والعالم الثالث أو غير المنحاز . . إلى هذه الثورات .

وقد تأثر بها عالمنا العربي بطبيعة الحال . وتركزت هذه التغيرات وآثارها السياسية والاقتصادية والاجتماعية طابعها على نظم التربية والتعليم في مختلف أنحاء العالم ، ومنها عالمنا العربي كما سنرى فيما بعد .

وتد تقدمت العلوم ، وخاصة العلوم الطبيعية ، تقدماً كبيراً خلال القرنين الأخيرين بلغ أضعاف ما حققته في تاريخ البشرية السابق بأكمله ، وبلغ تقدم العلوم ذروته في تفجير الطاقة الذرية التي أصبحت نعمة ونقمة في الوقت ذاته - نعمة إذا أحسنت البشرية استخدامها لخيرها ، ونقمة إذا استخدمتها لتدمير نفسها . وتقدمت التكنولوجيا جنباً إلى جنب مع تقدم العلوم ، وأصبح العالم الحديث لا يمكن أن يستغني عن التكنولوجيا إذ معنى ذلك عودته إلى الوراء - إلى عهود التخلف .

ورافق النهضة العلمية والتقدم التكنولوجي تطور كبير في الاقتصاد رفع من مستوى معيشة الإنسان ، وخاصة في البلدان المتقدمة الى حد كبير بما هي له من وسائل مادية وصحية ومعيشية وثقافية ورفيحية لم يسبق أن تهيأت له في الماضي .

كذلك تيسرت طرق المواصلات بين اجزاء العالم المختلفة وقصرت المسافات فيما بينها ، وسهلت الاتصالات بواسطة وسائل الاتصال الحديثة كالصحف والمطبوعات الاخرى والراديو والتلفزيون والسينما الخ ... وهكذا لم يعد أي بلد بمعزل جغرافي أو اقتصادي أو فكري عن بقية انحاء العالم ، ورافق هذا التغير العلمي والتكنولوجي والاقتصادي تنير في الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما سبق واشرنا الى ذلك قبل حين ، وكذلك تغير في قسم المجتمع . وقد وضعت كل هذه التغيرات اعباء كبيرة على التربية في البلدان التي حدثت فيها على نطاق واسع . وقد يكون من المفيد ان نستعرض الدور الذي قامت به التربية في بعض البلدان المتقدمة لكي نتضح لنا العلاقة بين التغيرات العلمية والتكنولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحدث في المجتمع من جهة وبين التربية من جهة اخرى . اننا سوف نستعرض الانجاهات العامة ولن ندخل في التفاصيل التي ان يغني بها كتاب بله أن يكون بحث عام (٥) .

الدولة والمجتمع الدولي والتربية

لقد كانت التربية في كثير من بلدان العالم الى وقت قريب من الاعمال التي تقوم بها الهيئات الخيرية والدينية والثقافية وحتى التجارية وكذلك الافراد ، وبدأ اهتمام الدولة بالتربية في اواخر القرن الثامن عشر على اثر نشوء الحركات الديمقراطية والقومية (٦) .

وفي اعقاب الثورة الفرنسية قام نابليون بالشاؤون نظام قومي للتربية خول فيه الحكومة الفرنسية الاشراف على جميع مراحل التعليم من المدرسة الابتدائية الى الجامعة .

وقد عرف هذا النظام الفرنسي بمركبه الشديدة . اما في انكلترا فلم تكن الحكومة قانونا لتنظيم التربية والتعليم الا في عام ١٨٧٠ م . وقدمت هذا قانون صلاحيات واسعة لما يصرف بالسلطات المحلية ، ولكنه لم يمنح الحكومة صلاحيات تذكر ، وعند اعلان الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) لم يكن هناك نظام تربوي في أي بلد سوى (٧) .

واما الولايات المتحدة فقد شرعت اول قانون يمنح الحكومة الفيدرالية صلاحيات القيام بدور تربوي ، وان كان محدودا جداً ، في عام ١٨٦٢ م . وسمى بقانون مورل (Morrill Act) وهو ينص على تخصيص اراضي حكومية يستفيد منها في مساعدة كليات الولايات « وليس كليات

« ه » يمكن الرجوع الى كثير من الدراسات التربوية الفنية الاحلية والرسمية التي صدرت خلال الحرب العالمية الثانية وبمضيها في كل من الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا والاتحاد السوفيتي مثلاً وليس حصراً في تحديد دور التربية في كل من هذه البلدان لمواجهة التنهات التي حدثت في العالم عامة وفيها خاصة .

(٦) انظر : جورج شهلا وميد السميع حريبي « الوحي التربوي » الفصلان ٢٢ و ٢٥

(٧) انظر : John S. Brubacher. A. History of the Problems Education pp. 64, 65.

تابعة للحكومة الفيدرالية « إذ لم تكن مثل هذه الكليات قائمة ، لكي تقوم بتدريس « فروع المعرفة ذات العلاقة بالزراعة والفنون الميكانيكية » .

ومنه يتضح أن دور الحكومات في أوروبا وأمريكا في إنشاء المدارس أو المعاهد التربوية الأخرى وتمويلها والإشراف عليها أتم متأخراً (في أواخر القرن التاسع عشر) كما أنه كان محدوداً . ولكن هذه الصورة تغيرت تدريجياً في البلدان التي ذكرناها وفي غيرها بحيث أنه لم تنته الحرب العالمية الثانية إلا وقد ازداد دور الحكومات بصورة عامة في شؤون التربية والتعليم ، وما سبب ذلك ياترى ؟

سببه أنه بالنظر للتغير السريع الذى يجرى في المجتمعات الحديثة لم يعد في وسع الحكومات أن تترك السياسة التربوية ، وشؤون التربية والتعليم الأخرى للمجهودات الفردية أو لنشاط الهيئات الدينية أو الخيرية أو حتى للحكومات المحلية أو الإشراف الضعيف للحكومات المركزية أو الفيدرالية .

إن قوة الدولة الحديثة أصبحت تعتمد على استثمار طاقاتها البشرية ، وعلى التقدم العلمي والتكنولوجي والتطور الاقتصادي ، وكل هذه لا تتحقق إلا بتخطيط تربوي ضمن الخطة الاقتصادية ، تلعب الدولة فيه دوراً رئيساً ، وهكذا نجد أن اهتمام اكلترا بشؤون التربية والتعليم تمثل في عدة أعمال من أبرزها سن قانون التربية لعام ١٩٤٤ الذى أسست بموجبه أول وزارة للتربية . بعد أن كان الجهاز الذى يشرف اشرفاً ضعيفاً على شؤون التربية والتعليم قبل ذلك يسمى « مجلس التربية » وأصبحت وزارة التربية بحسب القانون الجديد « تدير وتوجه » السلطات التربوية المحلية من أجل « تنفيذ السياسة القومية بكفاية » . (أ) ولم تمد شؤون التعليم الجامعي في اكلترا من دون سياسة ، وقد اقترحت لجنة اللورد روبنر Lord Robbins التي شكلتها رئيس الوزراء عام ١٩٦١م وألتي نشرت تقريرها حول « التعليم العالي » في بريطانيا عام ١٩٦٣م اهتماماً أكبر بشؤون التعليم الجامعي والعالي ، وتمويله ، وتنسيقه ، وإسهامه في خطة الدولة القومية .

وحدث نفس الاتجاه في الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد دعا كثير من الهيئات التربوية وفي مقدمتها الجمعية التربوية الوطنية (National Education Association) والمجلس الأمريكي للتربية American Council on Education إلى اهتمام وإسهام أكثر من الحكومة الفيدرالية بشؤون التربية والتعليم والعلم . ودعا جيمس كونانت James Connant رئيس جامعة هارفرد سابقاً إلى تطوير « سياسة قومية مناسبة لمواجهة التحديات للعصر الجديد والمخيف الذى تعيش فيه . » (١) وفي الواقع تم تشريع كثير من القوانين التي زادت من إسهام الحكومة المركزية في شؤون التربية والتعليم ، أما عن طريق وزارات الصحة والتربية والشؤون الاجتماعية أو وزارات التربية في الولايات (States) أو عن طريق وزارات أخرى تعنى بالعلوم أو الأبحاث كالزراعة أو القوات المسلحة (الجيش ، والبحرية ، والطيران) أو لجنة الطاقة الذرية ، أو المؤسسة القومية للعلوم .

أما فرنسا التي يتميز نظامها التربوي بالمركزية - أى بسيطرة الحكومة المركزية عليه منذ أول

Nicholas Hans, Comparative Education p. 258.

(أ) انظر :

James Bryant Connant Shaping Educational Policy p. 134.

(١) انظر :

تأسس على عهد نابليون - فانها استفادت من طبيعة نظلمها التربوى هذا فى وضع خطة قومية للتربية تتلادم حسب ما تراه والظروف التى تجتازها ، وفى الوقت الذى منحت فيه فرنسا المقاطعات صلاحيات أوسع فى حقل التربية والتعليم ، إلا أنها - ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية - عملت فى الوقت ذاته على ضمان تطوير التربية فى مراحلها المختلفة وتوجيهها لخدمة الأغراض الوطنية ، وقد كانت لجنة الدراسات (Commission d'études) التى رأسها الأستاذ بول لانجفا (Paul Langevin) وعرفت باسمه فيما بعد ، وضمت عدداً من رجال الفكر والجامعات فى فرنسا . . كانت هذه اللجنة سباقة الى اقتراح إصلاح جذرى (١٩٤٦م) للتربية والتعليم يتلادم والظروف الجديدة التى جابهت فرنسا ، وتخدم أغراضها القومية . (١٠)

اما الاتحاد السوفيتى فاشراقه على شؤون التربية والتعليم كان ولا يزال ، أقوى فى أى من البلدان التى ذكرناها ، فالحرب الشيوعى كان ولا يزال هو المخطط الأول للسياسة التعليمية فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى التى يبلغ عددها ست عشرة جمهورية والتى تكون الاتحاد ، ولا تخلو تقارير الحرب التى تناقش أثناء مؤتمرات الحرب من بحث لشؤون التربية والتعليم وتوجيهها لخدمة الأغراض القومية ، ولذلك فانه بالرغم من وجود وزارة تربية لكل جمهورية ، وعدم وجود وزارة اتحادية للتربية ، فان وحدة النظام والأهداف والطابع العام مضمونة عن طريق الحزب الشيوعى على نطاق الاتحاد السوفيتى ، أما التعليم العالى والتعليم الثانى الاختصاصى فله وزارة مركزية واحدة ، مركزها موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتى ، وهى مسؤولة عن شؤون التعليم الجامعى والتعليم العالى الذى يتم فى المعاهد الاختصاصية العالية (Higher Institutes) والتأسيس الثانوى الاختصاصى الذى يعد الفنانين كالمساعدين الطبيين والعلمين للمدارس الابتدائية والموسيقية الخ . . وتشرف الدولة بطبيعة الحال على النشاط العلمى عن طريق أكاديمية العلوم المرتبطة بمجلس الوزراء والأجهزة الاختصاصية الأخرى .

وهكذا نجد إن الدولة الحديثة أصبحت تدير التربية والتعليم اهتماماً متزايداً بلغ ذروته خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها ، وسبب ذلك أن مصر الأمم أصبح متوقفاً الى حد كبير على استثمار الطاقات البشرية المتوفرة لدى كل منها لضمان تقدمها وأمنها وكذلك ضمان تقدمها العلمى والتكنولوجى ، وبلغ التنافس فى ذلك أشده بين أكبر دولتين فى العالم وهما الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية ، وعلى سبيل المثال يمكن أن نذكر أنه بمجرد إطلاق الاتحاد السوفيتى أول قمر اصطناعى فى الفضاء فان القلق أصاب الولايات المتحدة الأمريكية خشية من أن يتغلب عليها الاتحاد السوفيتى فى العلم عامة وفى حقل الفضاء خاصة ، وكان من نتائج القلق أن الولايات المتحدة صارت تدير دراسة نظام التربية والتعليم بصورة عامة وإعداد العلماء والمهندسين بصورة خاصة فى الاتحاد السوفيتى اهتماماً كبيراً أدى الى القيام بكثير من الدراسات القيمة فى هذا الشأن ، ولم يكن الاتحاد السوفيتى أقل اهتماماً من الولايات المتحدة بدراسة نظم التربية والتعليم عامة وإعداد الاختصاصيين خاصة فى الولايات المتحدة . .

وفى ذات الوقت الذى اهتمت به الدول الحديثة بشؤون التربية والتعليم وتوجيهها فى سبيل خدمة الأغراض القومية ، فان المجتمع الدولى متمثلاً فى هيئة الأمم المتحدة وفى منظماتها الاختصاصية ، وخاصة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) أعلنت التربية والتعليم اهتماماً كبيراً لخدمة الأهداف التى انشئت هيئة الأمم المتحدة من أجلها وهى

السلام واحترام حقوق الانسان الاساسية وكرامة الفرد ، ونصت ديباجة ميثاق اليونسكو على انه ما دامت الحرب تنشأ في عقول بني الانسان فعلينا انتزاعها منها وزرع السلام مكانها، وجاء في المادة السادسة والعشرين من الاعلان العالمي لحقوق الانسان مايلي :

١ - لكل شخص الحق في التعلم ، ويجب ان يكون التعليم في مراحله الاولى والاساسية على الاقل بالجان وان يكون التعليم الاولى الزامياً ، وينبغي ان يعمم التعليم الفني والمهني ، وان ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى اساس الكفاءة .

٢ - يجب ان تهدف التربية الى انماء شخصية الانسان انماء كاملا ، والى تعزيز احترام الانسان والحريات الاساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية او الدينية ، والى زيادة مجهود الامم المتحدة لحفظ السلام .

ان هيئة الامم المتحدة واليونسكو لا يمكن ان تتدخل في توجيه التربية والتعليم في بلدان الدول الاعضاء فيها ولكنها ، وخاصة اليونسكو، تستطيع ان تشجع المؤتمرات والدراسات التربوية التي تخدم اهدافها في السلام والتفاهم الدولي كما تعقد هي مثل هذه المؤتمرات وتشر كثيرًا من الدراسات التي تهدف الى فرض السلام والتسامح الخ

ولم تخل هذه الاعمال من فائدة ، ولكن العالم ، وبالاخص الشديد ، لا يزال بعيداً عن تحقيق السلام والعدالة واحترام كرامة الفرد ، واماننا كثير من الشواهد على ذلك ومن أبرزها ماالحق بالنسب الفلسطيني خاصة وبالأمة العربية عامة من انتهاك لحقوق الانسان على ايدي الاسرائيليين والمستعمرين .

ان تجارب العالم غربياً كان ام شرقياً في الاهتمام المتزايد بالتربية والتعليم واعتبارهما « سياسة قومية » لا يجوز تركها للهيئات الخاصة والافراد، خاصة في هذا العصر ، بل لا بد من « توجيه » الدولة لهما - ان هذه التجارب جديرة بان تثير اهتمام الحكومات العربية وجامعة الدول العربية بشؤون التربية والتعليم ورفعهما الى منزلة « السياسة القومية » للأمة العربية في شتى اقطارها .

الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية والتربية

نقصد بالديمقراطية السياسية تمتع المواطنين في مجتمع ما وعلى الاخص في ظل دولة ما بحقوق متساوية من حيث حق الانتخاب « سواء اكان حقهم في انتخاب ممثلهم في البرلمان ام اية هيئة مماثلة له ، او حقهم في ان ينتخبوا هم كممثلين للشعب » . وقد كافحت البشرية طويلا في سبيل الحصول على الديمقراطية السياسية ، وجعلها شاملة للراشدين والراشيدات بغض النظر عن فقرهم او غناهم ، جلهم او تعلمهم ، او كونهم من اية طبقة اجتماعية ، او من اية عقيدة دينية او راي سياسي الخ .. ولا تزال بالرغم من ذلك كثير من الفئات وحتى في الشعوب المتقدمة كالزنج في الولايات الامريكية المتحدة ، والسكان الاصليين وهم الاغلبية الساحقة في جنوبي افريقيا وريديسيا وفي كثير من المستعمرات لا تتمتع بهذا الحق ، ولكن بالرغم من هذا يمكننا القول بان اغلبية البلدان المتقدمة في اوربا وامريكا وفي اجزاء اخرى من العالم قطعت شوطا كبيرا في تحقيق قدر كبير من الديمقراطية السياسية .

فما هو دور التربية في البلدان التي تؤمن بالديمقراطية السياسية ؟ ان دورها هو ضمان نجاح النظم الديمقراطية السياسية التي تعتمد على التطور في التنشيط الاجتماعي وليس على الانقلابات العسكرية او الثورات ، ويكون ذلك بنشر التربية والتعليم ورفع مستواها واعداد القادة الذين يحتاج اليهم النظام الديمقراطي السياسي . . ومنذ ارسطو في القرن الرابع قبل الميلاد والمفكرون والسياسيون يربطون بين استقرار النظام السياسي وتطوره التدريجي من جهة وبين نشر التربية والتعليم والوعي السياسي من جهة اخرى ، وقد صاحب نشوء القوميات الاوروبية في القرن الثامن عشر الميلادي اهتمام كبير بالتربية ، ويظهر ذلك في الار ما تيرني وغربالدي في إيطاليا و « فخته » في ألمانيا وغيرهم من زعماء الحركات القومية الأوروبية الذين راوا في نشر التربية بين شعوبهم دعما للقومية وللنظم السياسية الديمقراطية التي بنيت عليها ، ويعزى الى احد السياسيين الانكليز قوله : « لنرب حكمانا » قاصدا بذلك ان الشعب الذي يتخلى حكمه ، والذي يختارهم من بينه ، ينبغي ان يتربى ويتثقف لكي يحسن اختيار الحكام ، ولكي يحكم الحكام المنتخبون يهدي من المعرفة والحكمة والعقل ، لا الجهل والعاطفة الملهبة .

وهكذا نجد ان الدول المتقدمة بدأت بتصميم التعليم الابتدائي كحد أدنى للتربية الشيعية مستهدفة من ذلك القضاء على الأمية ، ويسر بتقدير ما تسمح بذلك ظروفها الاقتصادية ، التعليم الثانوي والتعليم العالي ان يستطيع تحمل نفقاتهما والاستفادة منهما ، ويسره على نطاق ضيق للتفوقين من أبناء الطبقات الفقيرة ، ولم يكن التعليم الثانوي والتعليم العالي الى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة متميزين الا لانسبة ضئيلة من الطبقات الاجتماعية الوسطى والعامة في البلدان الأوروبية المتقدمة الرئيسية كالكتنرا وفرنسا وألمانيا بله البلدان الأخرى (١١) .

ولا شك ان عدم تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم الثانوي والتعليم العالي امام جميع الشبان والشابات في هذه البلدان حجة من ممارسة الديمقراطية السياسية التي تؤمن بها هذه البلدان ، ويمكن اعتبار الولايات المتحدة البلد الغربي الوحيد الذي هيا الفرصة لاعداد كبيرة من خريجي المدارس الثانوية للالتحاق بالمدارس العالية ، ولكن بالرغم من ذلك فان اعدادا كبيرة من الأطفال والشبان الزوج لم تنهيا لهم الفرصة على قدم المساواة مع الأطفال والشبان البيض ، كنتيجة لذلك أصبح « الحكام » الذين اشار اليهم السياسي البريطاني على نوعين ، نوع ذي مستوى ثقافي عال ونوع ذي مستوى لثقافي واطل ، الأول يتكون من البيض والثاني يتكون من الزوج ، وأصبح كفاح الزوج في السنوات الأخيرة في سبيل ضمان تكافؤ الفرص امام جميع الأطفال والشبان في الولايات المتحدة وفي سبيل القضاء على عزل مدارس الزوج من مدارس البيض (School Segregation) أصبح كفاحهم شديدا . دعا المحكمة العليا في الولايات المتحدة أخيراً ، وهي أعلى هيئة قضائية فيها ، الى اعلان عدم دستورية العزل ، ويعني هذا انه لم يعد في إمكان ادارة أية مدرسة كانت خاصة بالبيض في الماضي ان تمنع الآن أى طالب زنجي من الالتحاق بها استناداً الى أنه زنجي وليس أبيض . ولا شك ان هذا القرار سيساعد على إزالة الفوارق بين أطفال وشبان الشعب الواحد ومن ثم بين مواطني الشعب الواحد ، ولكن بالرغم من هذا القرار الخطير فاته لا يزال اسماء الولايات المتحدة شحوط كبير في سبيل رفع المستوى الثقافي للمواطنين الزوج الى المستوى الذي حققه المواطنون البيض . .

واذا عدنا الى المستوى الثقافي والتربوي في بعض البلدان المتقدمة وجدنا انه ارتفع ارتفاعاً

ملحوظا في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، الأولى والثانية ، وانه استمر في الارتفاع بعدد الحرب العالمية الثانية ، فقد رفعت الولايات الامريكية المتحدة سن التعليم الاجباري من عمر ١٤ الى عمر ١٨ ، ويسرته بعض الولايات فيها (كاليفورنيا مثلا) من حيث جعله مجانيا الى سن العشرين ، اما اكلترا فكانت قد قررت خلال الحرب العالمية الثانية رفع سن التعليم فيها من ١٤ الى ١٨ ، ولكنها اجلته لاسباب عملية ، وجعلته الى سن ١٦ بدلا من ذلك واما فرنسا فقد رفعتة من سن ١٤ الى سن ١٥ .

وقد رافق رفع مستوى التربية والتعليم في هذه البلدان من حيث السن اعادة النظر في تنظيم الدراسة الابتدائية والثانوية بهدف ان تكون المدرسة واحدة لابناء الشعب الواحد (école unique) كما يسميها الفرنسيون او المدرسة العامة (Common School) كما يسميها الامريكيون ، والفرض الرئيسي من ذلك ان يعمواطنو المستقبل في مدرسة واحدة توحد من نظرتهم الى الحياة والى النظم السياسية التي يعيشون فيها بقدر الامكان وترفعهم لمناهج تربوية واحدة او متشابهة .

وتؤكد هذه المدارس على مقدار معين من دراسة اللغة القومية والتاريخ والجغرافيا والواجبات الوطنية ، اما في مرحلة الدراسة الثانوية فيؤكد المناهج على دراسة اللغة القومية والادب القومي ، والتاريخ وعلى دراسة النظام السياسي ، الى جانب الدراسات الاخرى التي تختلف بين طالب وآخر ، وزيادة على ذلك تحاول المدرسة الثانوية في كل من الولايات المتحدة واكلترا ان تكون شاملة (Comprehensive) اى مدرسة تضم الدراسات الاكاديمية او النظرية التي تؤهل الطالب لدخول الجامعة الى جانب الدراسات المهنية (الصناعية او الزراعية او التجارية او البيتية) التي تؤهل للالتحاق بوظيفة متوسطة . وتهدف هذه المدارس الى اعداد مواطني المستقبل اعدادا واحدا من طريق التحاقهم بمدرسة ثانوية واحدة وتلقيهم الدراسات الثقافية (اللغة والادب) والسياسية او الاجتماعية جنبا الى جنب ، وفيما عدا ذلك تيسر لكل طالب اتباع المنهج الذي يلائم قابلياته ويتفق ورغباته .

وان اهم انتقاد يوجه الى نظم التربية في البلدان المتقدمة والتي تدين بالديمقراطية السياسية ، ان الديمقراطية السياسية وحدها لا تهيم فرصا متكافئة امام الطلاب من مختلف الطبقات الاجتماعية للاستفادة من التربية . . وقد شعرت الدول الغربية ، وفي مقدمتها اكلترا بالعيوب التي ترافق النظام الديمقراطي السياسي الذي لا ترافقه ديمقراطية اجتماعية او اقتصادية ، والقصدود بالديمقراطية الاجتماعية او الاقتصادية ان تقلل الفوارق الطبقيية بين المجتمع من طريق توزيع عادل للثروة ، بحيث لا يعود العامل الاقتصادي مائلا امام الطالب الكفؤ في اختيار الدراسة التي تناسب قابلياته وميوله الى اعلى المستويات ، ولواخذنا اكلترا كمثال على بلاد عرفت بين العالم بقدم ونجاح ديمقراطيتها السياسية لوجدنا انهم منذ عام (١٩٠٢ م) كان التعليم الابتدائي فيها اجباريا ومجانيا من سن الخامسة الى سن الرابعة عشرة ، ولكن هذا التعليم لم يكن يؤدي الى باب مفتوح بالنسبة للتلاميذ الذين ينهون المدرسة الابتدائية ، اي انه لم يكن يوسع الانسبة ضئيلة جدا من هؤلاء التلاميذ الالتحاق بالمدرسة الثانوية التي كانت تتطلب اجورا دراسية من طلابها والتي لم يكن يوسع جميع اولياء امور التلاميذ الذين يرغبون في الالتحاق بها دفعها نظرا الى ان اغلبيتهم الساحقة من الطبقات العاملة او الوسطى ، اما ابناء الطبقة الفنية فكانت تلتحق بمدارس اعدادية (Preparatory Schools) او بالمدارس الخاصة (Public Schools) ومنها تذهب الى جامعتي اكسفورد وكمبرج في الغالب او الى الجامعات الاخرى ، ومعنى هذا حرمان

إنشاء الطبقة العاملة وكثير من أبناء الطبقة الوسطى من التعليم الثانوي والتعليم العالي . (١٢) وقد دعت حركة العمال في أكتلنرا إلى إعطاء فرص متساوية لجميع التلاميذ ، ودعت إلى ما سمته « دراسة ثانوية الجميع » . وقد دعا أحد التقارير التربوية المهمة التي بنى عليها إصلاح التعليم في أكتلنرا - تقرير سبنس (Spens Report) عام ١٩٣٨ إلى إصلاح أخطاء الماضي وذلك برفع سن التعليم الإلزامي إلى ١٥ وسن الدوام الجزئي إلى ١٨ وتنوع الدراسة الثانوية إلى ثلاثة أنواع: تقليدية ، وصناعية ، وحديثة مع إعطاء هذه الأنواع نفس المكانة والامتيازات ، وكانت هذه خطوة في طريق فسخ الفرص أمام التلاميذ الذين ينهون الدراسة الابتدائية للالتحاق بالدراسة الثانوية دون صعوبات أكاديمية ، وتذليل قسم من الصعوبات المالية . وجاء قانون التربية في عام ١٩٤٤ ليعيد تنظيم التربية ويعطى وزارة التربية التي شكلت بموجبه - كما سبق أن ذكرنا ذلك - حق « إدارة وتوجيه » السلطات التربوية لفرض « تنفيذ السياسة القومية بكفاءة » وقد جاء هذا القانون خطوة تقدمية في تنظيم التربية والتعليم في أكتلنرا وأتاح فرصا متكافئة للأطفال والشباب في التربية والتعليم ، ومع هذا فلا يزال أمام أكتلنرا وقت غير قليل قبل أن تتحقق الديمقراطية الاقتصادية فيها إلى جانب الديمقراطية السياسية بحيث يجد جميع الشباب أمامهم فرصا متكافئة للأفادة من التربية والتعليم .

ويمكن القول أن ما يجري في الولايات الأمريكية المتحدة في حق الديمقراطية التربية والتعليم - إذا ما استثنينا مدراس الزنوج والتربية الخاصة للزنوج - شبه بما يجري في أكتلنرا بصورة عامة، ولكن الولايات المتحدة لن تتحقق فيها ديمقراطية تربوية صحيحة ما لم تنح فيها فرص متكافئة أمام جميع التلاميذ من بيض وسود ..

وسارت فرنسا بصورة عامة في سبيل إتاحة الفرصة أمام جميع التلاميذ على قدم المساواة من بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنها لم تصل بعد إلى تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص التربوية في التعليم الثانوي والعالي ، وعلى العموم يمكننا القول أن الدول الغربية التي بدأت بالديمقراطية السياسية شعرت بمرور الزمن وبالتجربة أن - الديمقراطية السياسية وحدها - لا تكفي لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والأخوة وهي المبادئ التي دعت إليها الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية ومن قبلهما ويعدهما النظريات السياسية الانكليزية .

أما الدول الاشتراكية فكانت ولا تزال تصر على أن الديمقراطية السياسية لا معنى لها من دون تحقيق الديمقراطية الاجتماعية أو الاقتصادية ، ولذلك فإن الاتحاد السوفيتي مثلا حاول منذ أول استيلاء الحزب الشيوعي على السلطة في أعقاب ثورة أكتوبر ١٩١٧ أن يزيل الفوارق الاقتصادية بين المواطنين تمهيدا لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة والأخوة بينهم .

لقد كانت روسيا قبل عام ١٩١٧ م مثل غيرها من البلدان الأوروبية ، تقاسم من تأثر نظام التربية فيها بالنظام الطبقي الذي كان سائدا فيها ، فكان هناك سلمان للتعليم :

التعليم الابتدائي الريفي والمدني (ومدته أربع سنوات) وبيدا من سن ٨ وينتهي في سن ١٢ ، والتعليم الابتدائي العالي (ومدته أربع سنوات أيضا) وبيدا من سن ١٢ وينتهي في سن ١٦ ، وكان هذا السلم التعليمي مقصورا على عامة الشعب ، وكان لا يؤدي إلى الالتحاق بالجامعة ، بل إلى دخول دور المعلمين أو المدارس الثانوية للصناعية . وأما السلم الثاني فيتكون من نوعين

من المدارس الثانوية - مدارس الجمنيزيا (Gymnasia) وهي المدارس الادبية او الكلاسيكية ومدة الدراسة فيها ٩ سنوات والمدارس الحديثة (Real) وهي المدارس التي تشمل الدراسات العلمية ومدة الدراسة فيها ٧ او ٨ سنوات ، وبحق لخريجي مدارس الجمنيزيا الالتحاق بالجامعات مباشرة ، أما خريجي المدارس الحديثة فيحق لهم اما دخول المعاهد الصناعية العليا بعد اجتياز امتحان مسابقة واما دخول الجامعات بعد اداء امتحان في اللغة اللاتينية التي لم تكن ضمن منهاج المدرسة الحديثة .

وقد تبلورت إعادة تنظيم المدارس في الاتحاد السوفيتي في ثلاثة انواع من المدارس العامة :
« ١ » مدرسة ابتدائية ذات أربعة صفوف (فصول) في الارياف « ٢ » مدرسة ثانوية غير كاملة ذات سبعة صفوف في المدن والمناطق الصناعية وبعض الارياف « ٣ » مدرسة ثانوية كاملة ذات عشرة صفوف في المدن الكبيرة والمراكز الصناعية الكبيرة ، وقد رفع سن التعليم الاجباري في عام ١٩٥٨ من سن الثامنة الى سن الثانية عشرة في الارياف ، ومن سن الثامنة الى سن الخامسة عشرة في المدن ، وفتحت المدارس امام الجميع على قدم المساواة ، وبذلك سبق الاتحاد السوفيتي البلدان الغربية في تطبيق مبدأ الديمقراطية الاجتماعية او الاقتصادية والعادلة الاجتماعية ومبدأ تكافؤ الفرص التربوية (١٢) . وبامكان الطالب الذي ينهي الدراسة في المدرسة الثانوية الالتحاق بالجامعة بعد اجتياز امتحان خاص في القسم او المعهد الذي يريد الانتماء اليه ، على انه ينبنى على الطالب السوفيتي ان يقضى عامين في الخدمة العسكرية وعامين آخرين في العمل قبل ان يحق له الالتحاق بالجامعة باستثناء طلاب العلوم وبعض فروع الهندسة الذين يحق لهم الانتماء الى الجامعة مباشرة نظرا للحاجة الماسة اليهم ..

وهكذا نجد ان الحالة الاقتصادية للطالب وليه لا تؤثر على تربيته ان سلبا او ايجابا ، اذ ان الفرصة متوفرة لكل الى اقصى حد تمكنهم قابلياتهم من الوصول اليه ..

ويشمل منهج المدرسة الثانوية الى جانب التربية السياسية والعقائدية للطالب وذلك بدراسة النظرية الماركسية ، دراسة اللغة الروسية والأدب الروسي والرياضيات خلال سني الدراسة الثانوية وهذا بطبيعة الحال بالإضافة الى الدروس الأكاديمية الأخرى والدراسات العملية التي يؤكد عليها نظام التربية السوفيتي .

والمدرسة الثانوية العامة واحدة للجميع ، وبذلك تخلص السوفيت من العيوب التي توجه الى التعليم الثانوي في البلدان الغربية والتي تلخص في انه لا يزال طبقيا او لم يتخلص بعد من الطبقة ، اذ توجد هناك المدارس الخاصة الى جانب المدارس الحكومية في كل من انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة .

وتوجه الى جانب المدارس الثانوية العامة : (١) المدارس المسائية التي تقدم دراسات تكنولوجية معادلة للدراسات التي تقدمها المدارس الثانوية العامة (٢) المدارس المهنية الصناعية وهي مدارس لا تؤدي الدراسة فيها الى الالتحاق بالتعليم العالي ومدة الدراسة فيها من سنة الى ثلاث سنوات وتستهدف تدريب التلاميذ في المدن والريف على مهارات مهنية معينة (٣) والمدارس

(١٢) انظر : Nicholas Hans, *Comparative Education* pps. 310, 311

والفصل السادس عشر « النظام التربوي في الاتحاد السوفيتي » بصورة عامة .

انظر كذلك : Lord Robbins (Higher Education) Appendix Five Section XI.

الثانوية الاختصاصية وهى مدارس تقع بين الدراسة الثانوية والدراسة العالية وتدريب الفنيين على أعمال اختصاصية كمساعدى الأطباء والمرضات أو فنىي الأشعة أو معلمى المدارس الابتدائية .

وجميع أنواع المدارس الثانوية المذكورة باستثناء المدارس الثانوية الصناعية (التى تتراوح مدة الدراسة فيها بين سنة وثلاث سنوات)تؤدى الى التعليم العالى .

ويدخل الطالب الثانوى المؤهل اما الى الجامعة او الى المعاهد العليا التى تناسب اختصاصه فى مرحلة الدراسة الثانوية ، وبذلك يكون الطريق امامه مفتوحا للتقدم دون ان يعوقه المال كما هو الامر فى البلدان الغربية .

والخلاصة اننا لاحظنا من دراستنا لتطور التربية فى بعض البلدان الغربية (انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة) انها بدأت بالديمقراطية السياسية ، ولكن ظهر لها بالتطبيق وبالتجربة ان الديمقراطية السياسية وحدها لا تيسر للتلاميذ الذين سيكونون مواطنى المستقبل فرصاً تربوية متساوية ، وبذلك لا تحقق العدالة الاجتماعية والمساواة والاخوة - وهى المبادئ التى ما فتئت هذه البلدان الغربية تدعى انها حريصة على السير بها - ومنذ الحرب العالمية الأولى ، ومن بعد ذلك منذ الحرب العالمية الثانية وهذه الدول الغربية تسير نحو ملافاة الاخطاء التى وقعت فيها وتقترب شيئاً فشيئاً من الديمقراطية الاقتصادية .

كما لاحظنا ان الدول الاشتراكية التى لا تعطى اية قيمة للديمقراطية السياسية ما لم تكن قبلها ديمقراطية اقتصادية ، تعمل على تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص التربوية بصورة احسن مما تطبقه الدول الغربية وترتفع بالمستوى الثقافى لاطنها تدريجياً الى الحد الذى تصبح فيه الديمقراطية الاقتصادية ناقصة اذا لم ترافقها الديمقراطية السياسية ، وهكذا تقترب الدول الغربية والدول الاشتراكية من بعضها البعض على الرغم من الفوارق التى تفصل بينها ..

ويقول هانز مؤلف كتاب « التربية المقارنة » بهذا الصدد ما يلى : « ان هذه البلدان الاربعة كانت فى الماضى كما هى الآن قائدة للبشرية فى بناء مجتمع ديمقراطى جديد كما انها امدتها بالاكتفاء التى اصبحت فيما بعد ملكاً لجميع الشعوب والجناس ، لقد كان لانكلترا نورها قبل الاخريات واوجدت باسم « الحرية » توازناً بين التقاليد والتغير ، وكان لأمريكا وفرنسا نورها فى القرن التالى باسم « المساواة » وقوضتا الى الابد بقايا الامتيازات الاقطاعية ، وبعد قرن آخر افتتحت روسيا اثرهم باسم « الاخوة » فى ثورة عارمة ، وان اكمل هذا الزوال الروحى يحس بها الناس فى جميع أنحاء العالم ، وان نقطة الشعوب اللوثة هى النتيجة الباهرة له . » (١٤) .

وهكذا تكون التربية قد لعبت دوراً مزدوجاً وان لم يصل الى غاياته النهائية بعد - فى محاولة لتحقيق الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية او الاقتصادية فى ذات الوقت فى عالمنا المتغير - ومن أهم النتائج التى جناها العالم المتقدم من ذلك انه رفع من المستوى الثقافى والسياسى للمواطنين فيه بصفة عامة بحيث اصبح هذا المستوى الجديد احد الضمانات لاستقرار النظام الاجتماعى وتطوره ، كما انه فى الوقت نفسه هيا فرصاً متكافئة امام جميع المواطنين للانفاذ من

التربية والتعليم وذلك بمحاولته تحقيق مبدأ الديمقراطية الاقتصادية أما بشكل تدريجي وببطء ونافض كما تفعل الدول الغربية وأما بشكل جذري كما فعلت الدول الاشتراكية .. وتوودنا تجارب العالم الغربي والعالم الاشتراكي بصبر ينبغي علينا في وطننا العربي الكبير ان نستفيد منها ..

العلم والتكنولوجيا والتربية

اصبح العلم والتكنولوجيا من الأمور التي تربط بالتربية ارتباطا وثيقا ، كما انها حازا على اهتمام الحكومات .

ان حياة الامم المتقدمة أصبحت تعتمد الى حد كبير على تقدمها العلمي والتكنولوجي الى جانب متانة نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وزاد من اهتمام الحكومات بالعلم والتكنولوجيا التقدم الهائل في الأبحاث الذرية والاقمار الصناعية والصواريخ الوجهة التي أصبح تفوق دولة واحدة فيها على دولة أخرى أو دول أخرى يثير الخوف في نفس الدولة أو الدول المتخلفة ، واننا نعيش الآن في عصر تحاول فيه أقوى دولتين في العالم - الاتحاد السوفيتي والولايات الامريكية المتحدة - ان لا تتخلف احدهما عن الاخرى في حقل العلم والتكنولوجيا وخاصة في حقل الذرة والصواريخ .

ان للعلم تاريخا يعود الى العصور القديمة ، ولكن التقدم العظيم الذي حققه العلم الحديث يعود الى العصور المتأخرة حيث قام فرنسيس بيكون وغاليليو وديكارت وغيرهم ، بتطوير الطريقة العلمية ، وقد أدى ذلك الى كثير من الاكتشافات والاختراعات العلمية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وكانت هذه الاكتشافات والاختراعات تتم خارج المعاهد العلمية العالية ، وخاصة الجامعات ، وفي داخلها ، كما كانت تتم في الغالب نتيجة للتشبيث الفردي الذي يقوم به العالم نفسه أو بالتعاون مع زملائه أو مساعديه أو بتشجيع من بعض الشركات الكبرى التي بدأت تهتم بالبحث العلمي الذي له علاقة بمجال نشاطها .

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا فقد بدأت الدول تشعر بان التطور العلمي ينبغي ان لا يترك الى الرغبة الفردية للعالم أو الى المصادفات أو الى سياسة « دعه وشأنه » (Laissez Faire) بل لا بد من تدخلها في الأمر .

وكانت الحروب أو الاستعداد للحروب من جملة العوامل التي زادت من اهتمام الدول بالعناية بالعلوم والتكنولوجيا ، وهكذا نجد ان الدول الغربية مثل انكلترا والولايات المتحدة وفرنسا بدأت ببسبيل مساعدات مالية وغيرها لتشجيع البحوث العلمية ، ولعل الولايات المتحدة كانت من أبرز الدول الغربية التي سنت القوانين لتشجيع البحوث من جهة ولاعداد العلماء والباحثين من جهة أخرى ، وهكذا نجد ان مؤسسة الدفاع في هذه البلاد أو بعض الوزارات أو المؤسسات الأخرى تقوم بابرام عقود مع الجامعات أو الشركات الكبرى لكي تقوم لها ببعض البحوث ، كما خصصت مساعدات مالية كبيرة لاعداد العلماء والباحثين ، وعلى سبيل المثال فان الاموال التي خصصتها الحكومة الفيدرالية لمساعدة البحوث والتربية (اعداد العلماء والباحثين) ارتفعت من ٩٥٣ مليون دولار في عام ١٩٤٨ الى ٥٣٤٤ مليون دولار في عام ١٩٥٨ ، وقامت كل من وزارة

الغربية في مالنا المتجر

الدفاع ، والمؤسسة القومية للصحة ، والمؤسسة القومية للعلوم بتوزيع هذه المبالغ . وقد أصاب الجامعات حوالي ٦١.٥٪ منها (١٥) .

وفي سبيل تنسيق البحوث العلمية وتشجيعها والتأكد من أن الولايات المتحدة ستبقى في المقدمة فقد تم إنشاء المؤسسة القومية للعلوم منذ عام ١٩٥١ ، ويعتبر انشائها حدثاً كبيراً في تاريخ العلم .

وظهر اهتمام الولايات المتحدة بالعلم والبحث العلمي في اللجان القومية المتعددة التي عينها رئيس الولايات المتحدة لدراسة قضايا معينة تتصل بالعلم والتعليم الجامعي ، ومن أشهر هذه الدراسات « التعليم العالي للديمقراطية » (Higher Education for Democracy) التي نشرت في عام ١٩٤٧ م والتي أثارت اهتماماً كبيراً في الولايات المتحدة وفي خارجها ، ويشير هذا التقرير بصراحة إلى أن « مستقبل حضارتنا يعتمد على الاتجاه الذي سنتخذه التربية ليس فقط في المستقبل البعيد ، وإنما في الأيام القادمة » وشكل الرئيس لجنة أخرى عام ١٩٥٧ عاجلة قضايا التعليم العالي (١٦) .

والى جانب الاهتمام بالعلماء والباحثين فإن الولايات المتحدة أبدت اهتمامها أيضاً بالأشخاص التكنولوجيين . إذ أنه يشوق على هؤلاء التكنولوجيين تقدم الصناعة والزراعة والهندسة والتجارة الخ . . . ويمكننا القول بأن اهتمام الحكومة الأمريكية الفيدرالية بالكلية الزراعية والتكنولوجية منذ أواخر القرن التاسع يعكس هذا الاهتمام الذي ازداد بمرور الأيام ، ويمكن اعتبار قانون مورل (١٨٦٢) أول خطوة حكومية في سبيل الاهتمام بالتربية التكنولوجية وقد تبع ذلك تشريع آخر في عام ١٩١٧ ، أنشئت بموجبها كلية الزراعة والميكانيك والتي تطورت بعضها إلى ما يشبه الجامعات التكنولوجية في ألمانيا ، وقد قدمت هذه الكليات والمعاهد الحكومية منها والأهلية (ومن أشهر المعاهد الأهلية معهد ماساچوستس للتكنولوجيا المعروف بـ (M.I.T.) خدمات جلي لتقديم الصناعة في الولايات الأمريكية المتحدة .

وبالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت لتنسيق الجهود العلمية والتكنولوجية ، وخاصة بعد إنشاء المؤسسة القومية للبحوث في عام ١٩٥١ ، فإن هناك من يعتقد بأنه ينبغي بذل جهود أخرى لزيادة التنسيق على مستوى الولايات وعلى المستوى الفيدرالي ، ويعتبر جيمس كونانت رئيس جامعة هارفرد السابق في مقعته الدفاع إلى ذلك .

ولعل من المفيد أن نهي ملاحظتنا حول الولايات المتحدة بالعبار التالية وهي مقتبسة من قانون التربية للدفاع الوطني لعام ١٩٥٨ كما عدل في عام ١٩٦٣ :

« يرى الكونغرس ويصرح بأن سلامة الأمة تتطلب التطوير الكامل للمصادر الفكرية والمهارات الفنية لشبابها وشاباتها ، وتتطلب الظروف الطارئة الحاضرة أن تهيأ فرص تربوية إضافية وبصورة كافية « للطلاب » . أن الدفاع عن الأمة يعتمد على اتقان الأساليب الحديثة المتطورة من

(١٥) التقرير : James Bryant Conant, Shaping Educational Policy p. 11.

(١٦) : Presidents Commission: Education Beyond the High School.

وفي هذا التقرير تقرر اللجنة أن يستفيد من فرص التعليم العالي ما لا يقل عن ٥٠٪ من خريجي المدارس الثانوية .

المبادئ العلمية العتدة ، كما يعتمد أيضا على اكتشاف وتطوير مبادئ جديدة ، واساليب جديدة ، ومعرفة جديدة » .

« ويجب ان نريد من جهودنا لتشخيص اعداد اكثر من قابليات الامة وتربيتها ، وتطلب هذا الجهود برامج تضمن ان لا يحرم طالب ذو قابلية من فرصة التعليم العالي بسبب الصوز المالي ، وان نصلح بأسرع وقت ممكن عدم التوازن الموجود حاليا والذي ادى الى أن نسبة غير كافية من نفوسنا حصلت على تربية في العلوم والرياضيات واللغات الأجنبية ، وان تتدرب في الحقول التكنولوجية » .

ان هذه العبارة تبين بوضوح الاهمية التي تعلقها دولة كبرى على التربية العلمية والتكنولوجية بحيث انها وضعتها بمنزلة الدفاع عن الامة .

ويمكن القول ان تطورا مماثلا ، وان كان يختلف في تفاصيله ، حدث في البلدان الغربية وخاصة انكلترا وفرنسا والمانيا ، وقد وصل الاهتمام في انكلترا بالمعلم والتكنولوجيا الى درجة انشاء وزارة للمعلم فيها ، الى جانب وزارة التربية التي تهتم بشؤون التربية والتعليم .

وقد نشطت الدول الاعضاء في منظمة التعاون والتطور الاقتصادي (OECD) لتطوير التربية العلمية والتكنولوجية في كل منها ، كما انها تتعاون فيما بينها بالقيام بدراسات اقليمية للتوصل الى خير السبل في ذلك (١٧) .

واما الاتحاد السوفيتي فيزودنا بأسلوب آخر في التربية العلمية والتكنولوجية .. انه بالرغم من أن لروسيا القصيرة خبرة غير قليلة في الحياة العلمية والتكنولوجية المتمثلة في جامعاتها القديمة ومعاهدها التكنولوجية ، وبالرغم من أن القيصر بطرس الأكبر كان قد خطط لتصنيع روسيا وتقديمها ، الا ان تلك المشاريع توقفت بسبب الحروب ولم يكتب لها ان تتطور بالشكل الذي تطورت به الجامعات ومعاهد التكنولوجيا الغربية .. فانه باستيلاء الشيوعيين على الحكم في روسيا في اعقاب ثورة اكتوبر ١٩١٧ حاولت الحكومة السوفيتية ان تخطط للتطور الاقتصادي ومن ضمنه التطور العلمي والتكنولوجي ، مستفيدة مما كان لها من خبرة في الحقول ، وقد وُضِعَ الاتحاد السوفيتي اول خطة خمسية (لمدة خمس سنوات) في عام ١٩٢٨ ، واستهدفت هذه الخطة الاسراع في تصنيع الاتحاد السوفيتي وتجهيزه بالعلماء والباحثين والخبراء والتكنولوجيين ، وقد شملت الخطة اصلاحا جوهريا لنظام التربية والتعليم بكامله ، واعطت اهمية كبيرة في ذلك للتربية التكنولوجية والمهنية للأيدى أو الكوادر التي سيوكل اليها تنفيذ عملية التصنيع .

وقد تمكن الاتحاد السوفيتي لذلك في خلال عشرين عاما منذ البدء بتطبيق الخطة الخمسية - من تحويل روسيا من بلد زراعي يضم ريفها حوالي ٨٠٪ من سكانها الى دولة صناعية عظيمة (١٨) وبالنظر للحاجة الماسة الى العلماء والتكنولوجيين لتطوير الاقتصاد في اجزاء الاتحاد السوفيتي

(١٧) تضم دول منظمة التعاون والتطور الاقتصادي الدول التالية : النمسا ، بلجيكا ، كندا ، الدانمارك ، فرنسا ، جمهورية النمسا الغربية ، اليونان ، ايسلندا ، ايرلندا ، ايطاليا ، لكسمبرج ، هولندا ، النرويج ، البرتغال ، اسبانيا ، السويد ، سويسرا ، تركيا ، المملكة المتحدة ، الولايات المتحدة ، يوغوسلافيا .

الاخرى ، فان الحكومة عملت على مضاعفة المدارس الصناعية ، وعلى توزيعها بشكل منسجم في انحاء البلاد ، وعلى فتح مدارس جديدة بطرق جديدة ، ومناهج جديدة لسد الحاجة الى الفروع التي لم تكن موجودة في المدارس السابقة (١٩) .

وقد جند الاتحاد السوفيتى العديد من الطلاب للالتحاق بالمدارس والمعاهد المهنية والتكنولوجية ، كممثل على التطور الذى حصل فان نسبة الطلاب الذين كانوا يدرسون التكنولوجيا في عام ١٩١٥ (قبل الثورة) كانت ١٩٪ بينما ارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٣٣ الى ٤٩٪ وكانت نسبة طلاب الزراعة في عام ١٩١٥ حوالي ١٦٪ بينما زادت في عام ١٩٣٣ الى ١٣٪ (٢٠) ولقد كان هذا على حساب الدراسة الثانوية العامة ، ولكن الامور بدلت تكون اكثر موازنة بعد ان سدت الدولة حاجتها الى الابدئ الفنية .

واذا ما اردنا ان نقارن بين الاسلوب الذى اتبمه الاتحاد السوفيتى في التصنيع وفي اعداد العلماء والتكنولوجيين ، بالاسلوب الذى اتبعته الدول الغربية فلا نجد عبارة توضح ذلك خيراً من العبارة التالية للأستاذ هانز :

« بينما لا يكاد أن يسمى الثفر الاقتصادي الذى حدث في انكلترا بثورة بل الاولى ان يسمى « لطوراً صناعياً » استغرق ١٥٠ عاماً لتحقيقه ولتكيف النظام التربوي للبناء الاقتصادي ، فان الثفر في روسيا هو في الواقع « ثورة صناعية-جدرية على خير ما تكون الثورة » فلقد اختزل ١٥٠ عاماً من التاريخ الاقتصادي والتربوي الانكليزي في فترة لا تتجاوز عشرين عاماً ، نتج خلالها ثفر على اعلئ مستوى من الجدرية والسرعة عرفه التاريخ ، وحتى التحول الشهير الذى حققته اليابان والذي اثل خيال العالم الغربي لا يقارن بتحول الاتحاد السوفيتى(٢١)

وهكذا نرى مجدداً ان العلم والتكنولوجيا يعتمدان اعتماداً كبيراً على التربية وانه لكي نحقق التطور الاقتصادي او الصناعي الذى نهدف اليه فلا بد من ان نخطط لذلك تخطيطاً علمياً . . ان الدول الغربية بدأت في اعداد العلماء والتكنولوجيين من دون خطة ، ولكنها وجدت نفسها ، وخاصة خلال الازمات كالحروب ، وفي الوقت الحاضر ، مضطرة لان تعتمد على خطة قومية تنشر ف عليها الدولة ، وقد راينا كيف ان هذا قد تم في انكلترا عن طريق وزارة العلم والتكنولوجيا الى جانب وزارة التربية ، كما انه قد تم في الولايات المتحدة عن طريق المؤسسات الحكومية كالمؤسسة القومية للبحوث ووزارة الدفاع .

اما في الاتحاد السوفيتى فقد كان التخطيط بداية العمل ، ولكل بلد ظروفه التى تملئ عليه اتباع الطريق التى تناسبه ، فما هى الطريق التى تناسبنا في البلاد العربية ؟

★ ★ ★

(١٩) انظر المصدر السابق ص : ٧٧

(٢٠) انظر المصدر السابق ص : ٧٧

(٢١) المصدر السابق ص : ٧٩

التنمية الاقتصادية والتربية

بالرغم من أن كلا من المواضيع الرئيسية التي أفرناها (الدولة والمجتمع الدولي والتربية ، والديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية والتربية ، والعلم والتكنولوجيا والتربية) والموضوع الحالي (التنمية الاقتصادية والتربية) متداخلة مع بعضها، وخاصة الموضوعين الآخرين، إلا أن كلا منها يؤكد على ناحية واحدة دون أخرى .. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه النواحي لا تشمل جميع النواحي التي لها علاقة بموضوعنا الرئيس وهو « التربية في مجتمعنا المتغير » ، إذ أن هناك نواحي أخرى كالتربية الدينية والخلقية والتربية لم نتعرض لها في هذا البحث نظراً لأنها تتطلب بمحسبنا معتقد معالجة خاصة بها - ولذا فسوف نكتفي بمعالجة التنمية الاقتصادية والتربية ، ثم نتنقل من بعد ذلك إلى دراسة التربية والتغير الاجتماعي ، ثم ننهي بحثنا ببعض النتائج والاقتراحات الخاصة بعالمنا العربي .

لقد شاهدت السنوات الأخيرة اهتماماً متزايداً بالتخطيط التربوي نظراً لملافته الوثيقة بمشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وليس الاهتمام بهذا الأمر مقصوراً على الدول المتخلفة فحسب بل أنه يشمل الدول المتقدمة أيضاً ، أما بالنسبة للدول المتخلفة فالأمر ملح جداً نظراً إلى أنه لم يعد في الإمكان ترك التنمية إلى سياسة « دعه وشأنه » (Laissez Faire) إذ أن هذه السياسة لا تستطيع مجابهة المشاكل الملحة التي تتطلب حلولاً سريعة في ضوء العلم والتخطيط، ولم يكن حظ الدول العربية أو دول منطقة الشرق الأوسط قليلاً من حيث التخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ولكن ما قامت به لا يزال في البداية ، فإن البنك الدولي للانشاء والتعمير (I.B.R.D.) بنى على طلب بعض الحكومات العربية ، قام بدراسات حول التنمية الاقتصادية لعدد من الدول العربية كالكويت وسوريا والعراق ، ووضعت بعض الدول العربية لنفسها مستعينة ببعض الخبراء مشاريع سنوات (خمسية أو عشرية) لكي تنمي مواردها الطبيعية والبشرية وتستثمرها لصالحها .

ولم يكن اهتمام الدول الغربية أو الاشتراكية بالتخطيط لأغراض التنمية الاقتصادية والاجتماعية باقل من اهتمام الدول المتخلفة . وقد سبق أن ذكرنا « منظمة التعاون والتطور الاقتصادي » (OECD) التي تضم عددًا غير قليل من الدول الغربية المتقدمة كالولايات المتحدة وكنكندا والمانيا وفرنسا وغيرها ، سبق أن ذكرناها كأحدى المنظمات الغربية التي اهتمت بالتخطيط التربوي العلمي كجزء من التخطيط الاقتصادي العام ، وبالإضافة لهذه المنظمة المهمة توجد هيئات في كل بلد غربي تهتم بالتخطيط الاقتصادي والاجتماعي فيه ..

أما الدول الاشتراكية ، فقد اعتمدت منذ أول تشكيلها على التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وقد سبق أن ذكرنا أن الاتحاد السوفيتي وضع أول خطة خمسية له في عام ١٩٢٨ ، ومنذ ذلك الوقت والاتحاد السوفيتي يضع الخطة الاقتصادية تلو الأخرى ، وقد اقتفت الدول الاشتراكية الأخرى أثر الاتحاد السوفيتي في هذا الشأن .

فإن تكمن العلاقة بين التربية والتنمية الاقتصادية ؟

هناك أولاً عدد من الاقتصاديين والسياسيين الذين يعتقدون بأن استثمار الطاقات الانسانية الكثيرة في الأفراد الذين يكونون الشعوب أو الدول هو شبيه باستثمار المواد الخام ، ولذا فإن البشر يكونون « رأسمال بشري » ، وأن استثمار هذا الرأسمال هو « استثمار للإنسان » ، ويدل

هؤلاء الاقتصاديون على أن التربية والتدريب عامل مهم في عملية الإنتاج الى جانب العوامل الأخرى (٢٣) وهناك ثانياً اعتقاد بأن الصرف على التربية يجب أن يبنى على نفس الأسس التي يبنى عليها الصرف على أى مشروع اقتصادى آخر ، ومعنى هذا أنه ينبغي علينا أن ننظر الى التربية كعملية استثمارية وليس كعملية استهلاكية ، فنحدد استناداً الى ذلك ما نصرقه على كل مستوى تربوي على أساس الأهداف الاقتصادية والاجتماعية التي يحققها . (٢٤)

وهناك ثالثاً شعور بأن علينا لكي نضمن نجاح الخطة الاقتصادية والاجتماعية التي نضعها - أن نعد الأيدي العاملة الفنية والماهرة والكوادر الإدارية والمشرقة والمنفذة والمخططة والعلمية والتكنولوجية التي تحتاج اليها الخطة العامة - ومن الضروري لكي يتحقق ذلك أن نضمن التنسيق بين التربية والتخطيط ، وهناك أخيراً وليس آخرأ ، شعور بأن الخطة الاقتصادية والاجتماعية يجب أن تكون بعيدة المدى ، وأن ذلك يتطلب أن تكون للتربية هي الأخرى خطة بعيدة المدى منسجمة مع الخطة الاقتصادية . (٢٥)

وهكذا برز دور التربية في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ولكن تفر الظروف الاقتصادية والتكنولوجية يريد من مهمات التربية وأنها تفرض على التربية أن تربط نظمها وطرأها ومناهجها باغراض التنمية ، أنها تملئ عليها مهمات جديدة من مثل العناية بالتكوين المهني ، ونشر التقدم العلمي والتكنولوجي ، والأمماد للبحوث العلمية الأساسية والتطبيقية ، وخلق روح الابتكار والتجديد في عصر يقوم فيه الانتاج على هذا الابتكار والتجديد المستمر » (٢٥)

التربية والتفر الاجتماعي

لعل هذا الموضوع يثر كثيراً من الأسئلة ، فهل التربية هي التي تقود المجتمع الى التفر الاجتماعي ؟ أم هل تتبع المجتمع فتتفر تبعاله ؟ أم هل هي عامل استقرار وثبات في المجتمع ؟

يختلف المربون في الإجابة على هذه الأسئلة وأمئالها ، ولكن لو تتبعنا تاريخ التربية من جهة والدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية من جهة أخرى لرأينا أن المجتمع في الغالب أوجد النظام التربوي والمدرسة النظامية لكي ينقل الى الأجيال الجديدة أساليب عيشه ومهاراته وخبراته وتراثه وقيمة بحيث يجعلها - أى الأجيال - كقوة للقيام بدورها عند النضج ، ولقد سبق أن قبلنا تعريفاً للتربية للمربي الفرنسي أوبير يتضمن هذه المعاني ، وقد يرى البعض في قبول هذا المفهوم للتربية تأكيداً على الدور المحافظ للمدرسة وقد يصبح الدور المحافظ أحياناً دوراً رجعياً .. أن لهذا الخوف ما يبرره في المجتمعات المفلقة على نفسها من الداخل أو الخارج ، فالمجتمع من هذا النوع لن يسمح لأحدى مؤسساته الاجتماعية - التي هي من صنعه - أن تعمل على تغيره ، وقد

OECD Forecasting Educational Needs for Economic and Social Development, p. 7. : أنظر (٢٢)

(٢٣) أنظر المصدر السابق « ص أ »

(٢٤) أنظر المصدر السابق ، كذلك أنظر عبد الله عبد السلام « التطبيق التربوي »

(٢٥) عبد الله عبد السلام من محاضرة مطبوعة في

حدث هذا في المجتمعات القديمة بصورة عامة كما حدث في العصور الوسطى ، وخاصة في اوربا حيث لم يكن في وسع المدارس الكاثوليكية ان تتخذ لنفسها منهجا او أسلوبا غير المنهج أو الأسلوب الذي ترسمه الكنيسة الكاثوليكية لها ، وقد حدث مثل هذا في عصور التأخر التي مرت على الشعوب العربية والإسلامية ، إذ اصطفت المدارس الدينية بالصيغة المحافظة ان لم تكن الرجعية ، ولكن المجتمع اذا كان منفتحاً على نفسه من الداخل أو الخارج فإن المدرسة فيه تنسجم بالمحافظة المنة التي تقبل التغير التدريجي البطيء الذي سبق وقبله المجتمع ذاته ، ويمكن ان نورد امثلة عدة على هذا النوع من التطور التربوي ..

فقد تطورت المدارس الانكليزية منذ أول تأسيسها الى الوقت الحاضر تطوراً كبيراً ، بحيث ان المرحلة التي وصلت اليها الآن يمكن ان تعتبر ثورة تربوية اذا ما هي قورنت بما كانت عليه المدارس الانكليزية في الماضي - منذ مائتين أو لثمائة سنة مثلاً - ولكن هذا التطور التدريجي للتربية الانكليزية انعكاس للتطور التدريجي للمجتمع البريطاني .

ولو رجعنا الى الثورات التي سبق وذكرناها في اول هذا البحث كالثورة الامريكية والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية وحاولنا ان نصف تأثير التربية والمدارس في وقوعها لرأينا ان هذا التأثير كان ثانوياً ، ولو اخذنا فرنسا بالذات قبل الثورة الفرنسية (١٧٨٩) كمثال لوجدنا ان المدارس الفرنسية فيها كانت تعاطف مع الاشراف ورجال الدين (٣٦) نعم لقد حاول بعض الكتاب التربويين التأثير على الطلاب ، ولكنهم لم يتمكنوا من التأثير فيهم عملياً ، ولم يتيسر لهؤلاء الكتاب التأثير في الناشئة الا بعد نجاح الثورة الفرنسية وتبنى الدولة للافكار الجديدة (٣٧)

وتبين لنا هذه الامثلة ان المدرسة هي من صنع المجتمع ، وانها لا يمكن ان تقوده الى التغير ، وانما هو الذي يقودها ، وقد اصبحت المجتمعات المتقدمة تدرك النتائج الخطيرة التي تنجم من نظام تربوي لا يتمتع بقدر معقول من الحرية الاكاديمية، وحرية الاختلاف في الرأي وحرية البحث وحرية النقد ، اذ ان الحرمان من هذه الامور يشل العملية التربوية ويؤدي الى الجمود الفكري بدلاً من الإبداع ، ولذا فانا نجد ان المجتمعات المتقدمة صارت تحرص على ضمان هذه الحريات للمعاهد التربوية ، وخاصة المعاهد العليا والجامعات ، ونجد ان هذه الحريات الاكاديمية تتمثل على غير شكل عملي - ولا نقول مثالياً - في انكلترا وفرنسا والبلدان الاسكندنافية ، أما الولايات الامريكية المتحدة ، فبالرغم من انها تنتمي الى التراث والتقليد الأوروبيين ، فان الحريات الاكاديمية فيها لا تتوفر بالشكل الذي تتوفر فيه في البلدان التي سبق ذكرها ..

وبصورة عامة يمكننا القول ان المجتمعات الجمعية (Pluralistic Societies) اي المجتمعات التي تضم فئات مختلفة ذات مصالح مختلفة كما هو الحال في البلدان الغربية اكثر تسامحاً في الاختلاف بالرأي واكثر مراعاة للحريات الاكاديمية ضمن المفهوم الغربي لها - من المجتمعات الكلية (Totalitarian) كما كان الحال في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية ، ومن المجتمعات الاشتراكية - التي لها هي الاخرى مفهومها الخاص بها للاختلاف في الرأي والحريات الاكاديمية - فحيث توجد فئات مختلفة لها مصالح مختلفة ولها فلسفات اجتماعية وسياسية مختلفة واحزاب سياسية مختلفة وديانات وطوائف دينية مختلفة كما هو الحال في الدول الغربية ، فان الاختلاف

الذى يتمثل في المجتمع في بعض نواحي الحياة ينتقل الى المدارس التي تسيطر عليها بعض الفئات ، كالمدارس الدينية او المدارس الخاصة في انكلترا مثلا ، فكل من الكنيسة الانكليكانية والكنيسة الكاثوليكية مدارسها الخاصة التي تكون تابعة لتوجيه الكنيسة التي تنتمي اليها . وليس الى الدولة ، والتي تتبع مناهج خاصة غير مناهج الدولة .

كما ان لنقابات العمال في انكلترا نظاماً تربوياً واسعاً لتربية الراشدين بين الطبقة العاملة ، ولا تخضع هذه المدارس لاشراف الدولة ، وبالنظر الى ان حزب العمال يدين بالاشتراكية فمن المتوقع انه ييسر للاشتراكية بين العمال في هذه المدارس حتى في ظل حكومة محافظة (اعني حكومة يتولاها حزب المحافظين) لا تؤمن بالاشتراكية .

ويعتبر هذا الوضع في انكلترا من المشاكل التربوية المهمة التي تتطلب حلاً عملياً تقبله الاكثرية ولا تعارضه الاقلية او الاقليات معارضة مبنية على العقيدة الدينية ، او الضمير ، او الرأي بحيث تحقق للشعب البريطاني الوحدة ضمن التنوع او كما يقولون في الانكليزية (Unity Within Diversity) وقد قطعت انكلترا شوطاً لا بأس به في هذا المجال ، وخاصة فيما يتعلق بالاشراف على التعليم الخاص ، ولكن لا تزال امامها بعض المشاكل التي لم تحل .

ولكن ، لتتساءل الآن - الا يكون للتربية اول للمدرسة - دور في تغيير المجتمع ، ومتى يبرز مثل هذا الدور ؟ يكون للتربية او للمدرسة دور في تغيير المجتمع حين يعمد اليها المجتمع بذلك ، فان الثورات التي سبق ذكرها (الامريكية ، الفرنسية ، الروسية) عادت الى التربية بالدور الجديد الذي يتطلبه المجتمع الجديد منها ، ويمكن ان تكون الثورة الروسية خير مثل على ذلك ، فانه بمجرد استيلاء الحزب الشيوعي على السلطة في روسيا سيطر على النظام التربوي وحوله من جهاز يؤيد الحكم القيصري الى جهاز يعايد ويؤيد حكماً جديداً مناقضاً تماماً لذلك الحكم .

ومنذ ذلك الوقت والتربية في الاتحاد السوفيتي تخدم النظام الجديد ، واصبح مثلاً في هذا بعد ان استقر النظام الشيوعي مثل المدارس في ظل النظام الديمقراطي الغربي بصورة عامة ، وحدث الشيء ذاته حين استولى الحزب النازي على الحكم في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية ، فان التربية اصبحت وسيلة من وسائل الدولة لتأييد النظام ، وكذلك حدث الشيء ذاته في ظل الحزب الفاشستي في إيطاليا .

ويوجد هناك مفكرون ومربون يعتقدون بانه ينبغي ان لا تكون التربية تابعة للمجتمع ، كما لا ينبغي ان تكون قائمة له ، وانما ينبغي ان تمنى بتربية الرجال والنساء بشكل يساعد على تنمية امكاناتهم وتطويرها كما تساعد على التفكير المستقل ، ويعبر المربي الألماني المشهور فروبل (Froebel) عن هذا الرأي بالعبارة القوية التالية :

« اني لو كنت جهازاً في الدولة لمنيت بعمل أجهزة أخرى ، ولكنني ارجب فقط في تدريب رجال أحرار ، ومفكرين ، ومستقلين » (٢٨) ونجد من بين المربين المحدثين جون ديوي الفيلسوف

التجريبى الأمريكى (١٨٥٩ - ١٩٥٢) يدعو إلى أن لا تنافر التربية بالظروف السياسية والاجتماعية الخارجية للمجتمع ، بل على العكس أن تحدد هي أهدافها مستقلة عن أى تأثير خارجي ، وقد وجدت هذه الدعوة فيما بعد تجاوبا عند مربى أمريكى آخر - الأستاذ جورج كونتس «G. S. Counts» الذى دعا المعلمين وهم الذين يملكون أكبر قوة في توجيه الأجيال القادمة ، ويتسلحون بتراث الماضي وتجارب وحكمته إلى أن يستولوا على السلطة عن طريق تكوين جيل يؤمن بنظام اجتماعي جديد ، ورايه في ذلك أن السياسيين والعسكريين ورجال الدين ورجال الأعمال حاولوا قيادة المجتمع ولكنهم فشلوا في ذلك ، فلملا لا يدلي المعلمون دلوهم في الدلاء ويجربون حظهم في انتقاد المجتمع من منحه التي يقاسي منها . (٢٩) ومع أن الأستاذ المذكور حاول أن يصدر بياناتا مع غيره من المربين يدعو فيه المعلمين إلى هذه المهمة الخطيرة ، إلا أنه لم يكتب لهذا البيان أن يرسى النور ، لأن الذين اجتمعوا لتوقيعه لم يتفقوا على طبيعة النظام الاجتماعي الجديد الذين يدعون إليه (٣٠)

بعض النتائج والاقتراحات بالنسبة لدور التربية في الوطن العربي

بالرغم من أننا لم نستوف معالجة البحث من جميع النواحي ، وإنما اخترنا بعض النواحي المهمة منه ، فإننا يمكن أن نستخلص بعض النتائج من دراستنا تسامدنا على تحديد أكثر وميا ودقة لدور التربية في المجتمع العربي الحاضر ، وربما نكون معبراً عن آرائي الخاصة في أكثر ما سأورده في هذا القسم من البحث . .

إن المجتمع العربي في تغير ، شئنا أم أبينا ، لم أن من مصلحتنا أن نوجه هذا التغير لصالح الأمة العربية وأن يستهدف هذا التغير الوصول بالأمة العربية - متحدة ، أو موحدة أو متضامنة ، أو غير ذلك - إلى مصاف الأمم المتقدمة ، وبأسرع وقت ممكن ، وأود أن أؤكد على نوعية التقدم والسرعة . . إذ المشاهد مع الأسف الشديد أننا نرى بعض مظاهر التغير كاستعمال السيارات أو تشييد العمارات الكبيرة أو إنشاء المستشفيات أو تأسيس المدارس الحديثة ، أو اتباع الأساليب الحديثة في الإدارة . . أننا نعنى بالشكليات دون الجوهر فاستعمالنا للألة يصحبه أهمل لها وعدم صيانتها مما يؤدي إلى توقفها عن العمل في وقت سريع ، وإقامتنا للأبنية يصحبه أهمل لصيانتها والعناية بمرافقها المختلفة مما يؤدي إلى تلفها السريع ، وإدارتنا للمستشفيات والمدارس إذا ما هي قيست بالإدارة الناجمة في البلدان المتقدمة تظهرنا وكأننا بدائيون ، وإساليبنا الإدارية لا تزال حبيسة الأوراق والأضابير والروتين . . واهتمامنا بالمظاهر - التي نعرف أنها لا تمثل الواقع - تجعلنا نعيش في عالم وهمي من التقدم الذي نفتقد أننا حققناه ، ولذا فإن علينا حين نفكر في التغير وفي التقدم أن نفكر في التغير الحقيقي والتقدم الحقيقي . . ولن تصل الأمة العربية إلى

(٢٩) الف الأستاذ جورج كونتس كراسا يدعو فيه إلى هذه الفكرة وعنوانه : هل تستطيع المدرسة بناء نظام اجتماعي

جديد ؟ Dare the School Build a New Social Order?

جديد ؟

(٣٠) انظر : Brubacher History of the Problems of Education, p. 593.

مصاف الأمم المتقدمة ، اذا لم تحقق تغيّراً وتقدماً حقيقيين ، اما السرعة في التقدم فحيوية بالنسبة للامة العربية ، ونحن لا ننتظر اجتياز الفترات التي مرت بها انكلترا مثلا منذ الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر الى الوقت الحاضر ، بل لا بد من اختصار هذه الفترة ، كما اختصرتها اليابان ، وكما اختصرها الاتحاد السوفيتي ، انني لا استطيع تحديد الوقت لتحقيق التغير والتقدم ، ولا شك ان المختصين من بين خبراء الامة العربية والخبراء غير العرب الذين نثق بهم قادرون على تحديد الوقت اللازم لتطور كل بلد عربي او مجموع الامة العربية . ومن العوامل التي تدفعنا الى اختصار الوقت ان لنا عدواً خطيراً سبقنا في مضمار التغير والتقدم . وامنني به اسرائيل والصهيونية المالبسة ومن يؤيدهما ، واننا ليس في وسعنا الانتظار اكثر من مائة وخمسين سنة لكي ننقل من مجتمع متخلف الى مجتمع متقدم ، بل لا بد من اختصار الوقت كما اختصرته اليابان والاتحاد السوفيتي .

وبعد هذه المقدمة اذكر النتائج والاقتراحات التالية :

١ - ان التربية عملية بناء ولم يعد في امكان اقامة تربية البقاء والحياة ان تهمل عملية بناء كيانها ، فلا بد ان تشمل التربية جميع اطفال الامة العربية الذين هم في سن التعليم الانزامي ، وان تيسرها لغيرهم بقدر ما تسمح به الظروف الاقتصادية ولكن بسخاء في مرحلتي التعليم الثانوي بانوامه والتعليم العالي بانوامه .

٢ - ان العالم العربي يمر في تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ولا يمكن ان تمزج التربية عن هذه التغيرات ، بل الواجب على المخططين لمستقبل الامة العربية ان يحسبوا للتربية حساباً مهما في انجاز عملية التغير والتقدم بشكل حقيقي وفي اسرع وقت ممكن .

٣ - لقد تقدمت العلوم المختلفة والتكنولوجيا تقدماً هائلاً ، ولا بد للامة العربية من ان تعد من ابنائها ويناتها من يتفقه في العلوم والتكنولوجيا بنفس المستوى الذي تفقه فيه امثالهم من الدول المتقدمة في هذه الحقول ، ولذا فينبغي العناية القصوى باعداد العلماء والباحثين والتكنولوجيين العرب .

٤ - كذلك تقدم الاقتصاد والادارة تقدماً كبيراً سواء اكان ذلك من ناحية المرفة الهائلة التي وصل اليها الانسان لنجاح العمليات الاقتصادية والادارية ام من ناحية الاساليب الحديثة في الانتاج والتوزيع والادارة ، وينبغي تبني ذلك ان نعد الاقتصاديين والاداريين الذين يستطيعون تطوير اقتصادنا واساليبنا الادارية من اشكالها شبه البدائية الى الاساليب الحديثة حقاً .

٥ - ان التربية عملية سياسية بقدر ماهي عملية بناء ، وهي عملية سياسية بمعنى انها تعد المواطن الذي يكون عاملاً فعالاً في تكوين الامة الحديثة والدولة الحديثة ، كما يكون عاملاً في سبيل استقرارها وتطورها .

ولذلك فلا يسع الامة العربية ان تهمل التربية وان انتقلنا كامة من وحدات عائلية وعشائرية

وطائفية الى وحدات سياسية يضع على الحكومات العربية تأكيد الولاء في نفس التلميذ الوطن قبل العوائل والمشارير والطوائف التي ينتمي اليها . . اي غرس التربية الوطنية الحقبة ، وبالمعمل قبل اللفظ .

كذلك لا بد للامة العربية - وهي ممثلة في وحداتها السياسية الصغيرة - من ان تؤكد على الولاء للامة العربية ، وان تتخذ جميع الحكومات العربية موقفا صريحا - روحا ، وعقيدة وعملا لا لفظا فقط - من وحدة الامة العربية ، ويجب ان لا يقف بحسبما اعتقد اى نظام سياسي - ملكيا كان أم جمهوريا ، اشتراكيا أم غير اشتراكيا - امام وحدة الامة العربية او انحادها في وجه الخطر الاكبر الذي يجابهها - وهو الغزو الاسرائيلي - الصهيوني . .

٦ - اننا في الوقت الذي نرى ان تلعب فيه التربية دورها في التربية للمواطنة الحقبة ، والولاء الصحيح للامة العربية ، فاننا نرى ايضا ان تكون تربيتنا انسانية وعالمية ، تؤمن بالتعاون بين شعوب الارض قاطبة ، وتنمو الى السلام العالمي، وتحارب التعصب المنصري . . وان تأخذ هذه التربية الانسانية شكلا عمليا - لا لفظيا - فقط .

٧ - ان شؤون التربية والتعليم ينبغي ان تكون من اختصاص الدولة لا ان تترك للأفراد والهيئات، ويفضل ان تقوم الدولة بفتح المدارس ومن مختلف المستويات وكذلك الجامعات وتمويل هذه المؤسسات ، واذا شئت السماح لبعض الفئات والهيئات بفتح مدارس خاصة ، فينبغي اولا ان تجهز الحكومة فتح هذه المدارس الخاصة ، وثانيا ان تتبع هذه المدارس المناهج الدراسية المقررة ، وثالثا ان تضمن الحكومة الاشراف على هذه المدارس وتوجيهها .

٨ - ان البحث العلمي الصرف منه والتطبيقي، ينبغي ان يكون من مسؤولية الحكومات العربية ، ولكن ينبغي ان تكون للامة العربية خطة متكاملة للبحث العلمي ، فلا تحاول كل حكومة ان تقوم بما تفعله الحكومات الاخرى ، ان مثل هذا العمل اهدار للمال والطاقت البشرية ، ولن يؤدي الى نتائج تتناسب والجهود التي بذلت والاموال التي صرفت ، وبالنسبة للبحث العلمي داخل البلد الواحد في حالة وجود اكثر من جامعة فانه لا بد من تنسيقه .

كذلك يجب ان يكون هناك تنسيق بين الجامعات وبين مجالس البحوث في البلدان التي توجد فيها مثل هذه المؤسسات ، وباحيدا لو اعادت تلك البلدان النظر في علاقة هاتين المؤسساتين (الجامعة ومجلس البحوث) بعضها ببعض .

٩ - انه بالنسبة للتعليم الثانوى بانواعه والتعليم الجامعي لا بد من ان نفسح المجال فيهما لكل ذوي القابليات التي يمكن ان تفيد من هذين النوعين من التعليم ، دون ان يعوق هؤلاء اى عائق سببه المال ، اى فقر الطلاب او ذويهم ، ولا بد ان نحقق اقصى ما نستطيعه من ديمقراطية اجتماعية بين فئات الشعب كانه من طريق التربية، فالترية اذا احسن استخدامها تغدو احدى الوسائل التي تذيب الفوارق الطبقيية في المجتمع ، وتخلص ذلك المجتمع من الصراعات الطبقيية واجتيازها الى المجتمع العادل الذي تتحقق فيه الديمقراطية السياسية والاجتماعية في الوقت ذاته ، ودليلنا

الأول في تشجيع ذوى القابليات على الدراسة الى الحد الذى تمكنهم قابلياتهم من الوصول اليه هو مبدأ تكافؤ الفرص التربوية أمام الجميع .

١٠ - أنه من الأفضل بالنسبة للتعليم الثانوى والتعليم الجامعي أن يدرس الطلبة على اختلاف الفروع التي ينتخبونها (في المرحلة الثانوية) او الاختصاصات التي يختارونها (في التعليم الجامعي) قدراً مشتركاً عن الدراسات التي توحّد نظرهم الى الحياة « فلسفتهم » وتربطهم بتراتهم الحضارية والثقافي وتبصرهم بمشاكلهم كأفراد وبمشاكل مجتمعهم .

انه ليس من غرضي ان احدد الدروس أو المواد التي ينبغي ان تعطى للطلاب في كل من المرحلتين السابقتين ، ولكن يمكن ان اذكر على سبيل المثال اللغة العربية ، والأدب العربي ، وشيئاً من الادب العالمي ، والحضارة العربية الإسلامية ، مع علاقتها بالحضارة الإنسانية ومادة تتصل بمشاكل الفرد كعلم النفس مثلاً ومادة تتصل بمشاكل المجتمع الحديث مع التأكيد على المجتمع العربي ، ومادة علمية لغير المتخصص في العلوم ..

١١ - انه امام التقدم الذى يحدث في رفـع مستوى التعليم الثانوى بغرومه المختلفة والتعليم الجامعي ورفـع مستواه في البلدان الغربية والاشتراكية لا بد لنا من إعادة النظر في هاتين المرحلتين من حيث المناهج الدراسية والمستوى والوسائل التعليمية وطرق التدريس .

ولا بد ان تكون مدارسنا الثانوية وجامعاتنا ذات مستوى رفيع حقاً ، وان تختص من الشكليات في كل شيء وخاصة الاساليب الادارية الهائلة وان تتحول الى وحدات تربوية كثرة ومؤهلة للقيام بالدور التربوي المطلوب منها في تغيير العالم العربي من عالم متخلف الى عالم متقدم .

١٢ - اننا في المرحلة التي نجتازها لا بد لنا من استخدام التربية - المدارس والجامعات - كوسيلة لتحقيق التغير الاجتماعي الذي نريده ، انه لا يمكن نقل مجتمع متخلف الى مجتمع متقدم وناهض ومتصنع الا عن طريق المدرسة والجامعة ولكننا ينبغي في الوقت ذاته ان نحاذر من ان تكون مدارسنا وجامعاتنا ادوات مسلوقة الفكر ، اذ ان سلب الفكر وعدم تشجيع التفكير المستقل والابداع سيقتل امكانيات الخلق في الشخصيات الانسانية التي تخرج بها مدارسنا وجامعاتنا في طول البلاد العربية وعرضها ، وسنصاب نتيجة لذلك بالجمود بدلاً من الحيوية .

١٣ - تلعب التربية دوراً كبيراً في التنمية الاقتصادية ، ولذلك فلا بد من النظر الى التربية على انها عملية استثمارية وليست عملية استهلاكية كما كنا ننظر اليها في الماضي ، كذلك لا بد للمخططين والسياسيين من ان يدركوا دور التربية في الخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية وان يكون هناك تناسق بين خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبين خطط التربية او التخطيط التربوي .

١٤ - من الضروري ان تتعاون الدول العربية فيما بينها في مشاريع تنمية اقتصادية على غرار المشاريع التي تعاونت بعض دول البحر الايض المتوسط فيما بينها عليها بأشرف منظمة التعاون والتطور الاقتصادي (OECD) .. ان مثل هذه المشاريع التعاونية تمهد لنا الطريق لتعاون

أوثق ، كما أنها تكون بمثابة تجارب واقعية أوميدانية للتعاون في حقل التنمية الاقتصادية والتخطيط التربوي .

وختمًا أود أن أنهي ما كتبت بعبارة شهيرة للكاتب الإنليزي هـ . ج . ويلز ونحوها « أن المدنية سباق بين التربية والدمار » ، فإن وعينا أهمية التربية في بناء مجتمعنا وعملنا على قيامها بدورها الإنشائي في تقدم العالم ازدهر العالم وبقيت مدنية الإنسان ، وإن لم نع ذلك ، وتأخرت التربية عن القيام بدورها ، سبقها الدمار وقوض المدنية .

إن العالم كله عرضة لأن يحقق المدنية أوالدمار ، والإمة العربية تعيش في فترة إن لم تنقلها التربية كان نصيبها الدمار ، فإن انقلدهاوهذا ما نرجوه - كان نصيبها الحياة والتقدم .



العقل الاغريقي

على حافظه *

تمهيد :

كانما تبعث من خلا من آباء فحالفنا وترسل
الحياة فيما وارته احقاب الدهر من آداب
المصريين ، وكانت هذه التجربة كالكتابة المقدسة
وكاشراق المؤمنين تبعث في الروية اسباب
القريب بين الشنتيتين .. وكان ديموستين
الايني حادى هذه التجربة وأول من سالت
عن عقله ودينه وتهديده ، فمتوان المقال «العقل
الاغريقي » كان سؤالاً سالت يومأ عسى أن أفهم
به آيات عقل ديموستين .. وكانت النتيجة ان
تتصل حياة هذا الخطيب بفلسفة افلاطون
وبطولة ابطال سوفوكل وبطولة أنتيجونه
خاصة ، وبذلك ربطت في هذا المقال بين
بطولة أنتيجونه وبطولة سقراط وبطولة
ديموستين ، وأصبحت البطولة قاسماً مشتركاً

لم أرد ان أمشي في اثر قوم يهتفون بأن ما
خلق الاغريق من آداب وفلسفة وفنون كان
معجزة « Miracle grec » كما يقول رينان
ولا اللذين يردون كل علوم المدنية الغربية
وفنونها وسياساتها الى اصول يونانية
ويكرهون ان يردوا اصول المدنية الاغريقية الى
شيء قبلها فهي من خلق أمة النافعين الموهوبين
الانبناء بمقلهم وعلمهم ومعجزة العلوم والفنون،
والذى ودني عن ان أمشي في ركب هذه
المدارس والأخذ بكل ما كتب او تقول تجربة
شخصية استبقيت فيها حريتي في قراءة ما
أحب وفي التأمل في اصول الفكر اليوناني
والاخلاق اليونانية التي تثير كامن ضميرى

(✍) الدكتور على حافظ استاذ ورئيس قسم الدراسات الكلاسيكية سابقاً بجامعة الاسكندرية قام بترجمة اعمال
سوفوكليس الكاملة عن اليونانية .



بين أصلام الأدب الإغريقي وكان الشاصر « بندار » في أول القرن الخامس ق.م يتغنى بهذه البطولة في محافل الألعاب الأولمبية وكان بين شعر بندار ونقوش معابد المصريين نسب قريب في الرمز لدين العدل والخلود وامتدت الأسباب فإذا بمعبدة الإبطال كانت دين المصريين المادلين الأولين ودين من أخذ عنهم من الإغريق صلاة الإبطال - فامتدت بذلك آداب ديومستين إلى أصول المدنية الأولى وأصبحت المعابد صلاة الإبطال من أولياء الله والإنسانية ، وتفسر العقل الإغريقي بهذا الدين يكشف المعدن الصافي والمعدن الخريف فيمن أخذوا بآداب الإغريق في تجربة الرومان وتجربة المدنية الغربية الحديثة .

وفي الأدب اليوناني كتاب كتبه أفلاطون بين منزل الخطر الملاحق الذي أحاط بمدينة العدل والخير - هذا الكتاب هو كتاب بروتاجوراس السوفسطائي الذي يصعب بما جاء به بروميشيوس من علم إنساني جديد .. سرق بروميشيوس النار التي تخلق الفنون والصناعة ووهبها الإنسان وهجر بروميشيوس عن أن يأتي الإنسان بالعدل فهو أب المدنية الحديثة في كل ما تفخر به وفي كل ما تشكو منه .

(١)

عبادة الإبطال

آخر صلاة يودع فيها هيكتور (١) الحياة قبل أن يلقى حتفه أن نادى ربه والآلهة أجمعين أن يهينوا لابنه ما هياوا له حياته فينبغ في الفضل على بني طروادة ، وأن يهينوا له حياة طيبة عادلة ليسمو في ألبين حتى يقول القاتلون أنه بزأباه في مجد القتال وليقتل عدوه ويسلب سلبه وتقر به عين أمه .

وباتت مسألة المسائل في المدنية القديمة ان البطولة والفضيلة لا تورثان إلا ما شاء الله ..

وبذلك أصبح هذا الميراث صلاة بيد الله يؤتي الفضل من يشاء والأيام التي تصاحب حياة كل حي قد تحمل المجد وتحمل الشقاء وتزهر الانساب أحيانا وقد تتردد عقيما .. كالنبات والشجر فلن يفرس الكبر شجرة وإن يعد الإبطال إيمانهم بشمار البطولة التي تنفطع دونها العزائم .. لله رب العالمين وتتلقى ثمرات البطولة من يحمل تاجها ويسعى لها سعيها في أمم مؤمنة بصلاة الإبطال ، فميراث البطولة حي أزلي لا يموت .. قائم خالد حتى يرقى إليه بطل مؤمن في عصر هذه المدنية أو في

١ - هيكتور بن بربرام ملك طروادة وهو بطل طروادة في الإلياذة هوميروس وهو نبد أخيل بطل ملوك الإغريق في هذه القصيدة

سكنت عبادة معابد المصريين وانتشرت في العامة والكافة عبادة دين جديد ضمننت العامة جنة بغير بطولة وسكنت معابد الهيلينيين عن عبادة الإبطال حين نغم الماعنن الإبطال تفردهم بالعدل والعلم والسعادة وجاءهم بروميشيوس (١) بقبس ممروق من معابد زيوس . وجاءهم السوفسطاليون بعلم جديد لا يؤمن بالله ولا يكلف البطولة في شيء والمورد السهل شديد الزحام .

متى هب الصراع بين أولياء العامة وبين الإبطال في تاريخ الأدب القديم ومتى سرق بروميشيوس قبس النار وجاء يدعو به إلى العامة فأغضب زيوس وأحتمل بروميشيوس العقاب متكبكا وثوبا برؤال ملك زيوس . . يوم يحتل ضمائر البشر اله أقوى من زيوس نفسه . . الأساطير التي حدثت بهذا الصراع اكتنفت أصولها سحب القدم ، وما يعجز الآداب الإغريقية القديمة إلا أنها تبدأ فيما بقي من آثارها بأكار الإبطال وأنشيد الآلهة في شعر هوميرو . . ثم يتحدو منحدر المدنية إلى حكومة العامة وآداب العامة . . ويوم تملو كلمة العامة تهجر معابد العدل والخير كتجربة خلت ليس لها وارث حتى في أحلام الإنسانية . . فهل يحل لنا أن نذهب مذهب أولياء الله والعدل ونرمي مدنية العامة بأنها بربرية سعيدة ومدنية مزيفة ؟؟ فبئس هجرت معابد العدل والخير لم يسمع الإنسان موسيقى العدل ولم يقرأ الإنسان بقلبه وجناته صلاة الخلود ولا يكاد الإنسان أن يصدق بدينها لأنه ألف تهذيب العامة وحده وأحل فيه علماءه الأولون الكذب وبدلوا فضائل العادلين رذيلة وصاروا كاجتناس الحديد .

« ألا ليتني لا يتقضى عليّ أن أعيش بين رجال الجنس الخامس قاموت قبل أن يولدوا أو أولد بعد أن يذهب الله بهم من الأرض . . أنهم

صحة الإقذار في أعمار الإنسانية . . آمنت قرية أن اعز ثمرها لا يثمر إلا في ذرع المؤمنين العادلين ، وآمنت مدنية الإبطال أنها لا تتجيب أبطلا بغير الفصل . . وثمار البطولة لثمار الإنسانية العادلة العائبة يتوج بنتاجها كل نابغة طلاع أودية حمال الوية . . أنها ليست ميراث رجل ولا أسرة وهي ميراث النافعين في العالمين في أزل العصر . .

كانت مدنية العادلين المؤمنين الذين عاشوا في حياتهم سعداء فلما ماتوا نشرت الإنسانية ذكرهم في صلاتها وبنت لذكرهم مع الآلهة معابد الأولين . . أنهم أزلوا الإنسانية صلاتهم وموسيقاهم وتفردهم في الآداب والحكمة . . وارتقاءهم إلى المثل الأعلى ، وخلودهم في جزر السعادة ، وخذلت المعابد سيرتهم في الحياة والمعات وخذل الشمر أعمالهم في الحرب والسلام . . ويصبح الإبطال إلى معابدهم من كل فج عميق . . لتتصل أسباب البطولة بين الموت والحياة . . وخلقت هذه المدنية الخلود لأنار البشر الفاني في أفعالهم وأقوالهم وظلت أفعالهم وأقوالهم آثارا خالدة كالآثار معابدهم وصارت حكمتهم كنوز الأبد .

عاشت صلاة الإبطال في معابد مصر ومعابد الإغريق تخلق إبطال الشمر وإبطال الطب وإبطال الفنون والرائي والحكمة حتى مغرب المدنية الإغريقية في مدانها المختلفة ، فكل مشرع كان حريصا على أن يهذب مدنيته بالوروث من سير الإبطال وبمقادير عادلة من شعر الإبطال والموسيقى ورياضة الإبدان ، فعمدا الذي أظفا نور معابد العدل وصلاة الإبطال قبل أن تغرب مدنية المصريين القدماء ومدنية الدائن الهيلينية . . الإنسان الذي عجز فلم يستطع تكاليف العدل والبطولة . .

1 - بروميشيوس Prométhée هو رب من آرباب الأساطير سرق قيسا من نار نظم العلوم والفنون وجاء بها الإنسان وهو أب المدنية الحديثة التي تتن الصناعة وتجهل العدل ، أقرأ اسطوريته في بروناجوراس لالانغون

ويقتل الفاجر المؤمن وتنهض بينهما حرب في التهذيب والإيمان والصدق حتى تصبح معابد العدل والخير أطلالا مهجورة مغمورة في صحراء الزمان .. وفيها كنوز آباء الانسانية وسر التهذيب والأدب ولا نذكر حتى في صلاة العابرين .

متى تفرق الاجيال في عمر الانسانية بين رجلين معاصرين شب أحدهما بتهذيب الإبطال وشب قريته بتهذيب السوفسطائيين وكلاهما بلغ في أئنا في القرن الرابع ق . م منزل الزعامة وغلب المزيف الاصيل على أبواب المجد في الحياة الدنيا .. زعيمان من خطباء أئنا في القرن الرابع ق . م . هما أثنين وديموستين .. كيف تميز الاجيال الاصيل والمزيف في معدن الرجال ومعدن الصدق والزور فيما يقول انصار الصدق وأولياء الكذب ؟

ولا تبلغ القرن الخامس ق . م حتى تكشف آداب هذا القرن عن صراع بين مدرستين : مدرسة الإبطال القديمة ومدرسة التعليم الحديث وكل مدرسة تثبت طرازا من الفكر والمبادئ والرجال .

الفكر الظالم : أنت أيها المعجوز الهرم ..

الفكر العادل : أنت السبب الذي جعل الشباب لا يحبون ان يذهبوا الى المدرسة وسرى الاثينيون يوما أي تعليم علمت جهالهم .. أنت مفسد الشباب والمدينة التي تؤويك مغلوقة على عقلها ..

منشدة الكورس : كفا من الحرب والشتائم .. بين لنا أنت بأي تعليم علمت القدماء وقل لنا أنت (تريد الفكر الظالم) ما هو تعليمك الحديث .. من يبدأ ؟

الفكر الظالم : دعه يتكلم فإذا فرغ من كلامه وميته يساهم من أفكار وجمل جديدة ..

جنس الحديد الذين لا يستريحون من الكد نهارا ويمضون من مناتهم ليلا ، قد رماهم الله بهوم قتال وقد يخلط بشرهم خير ما حتى يذهب الله بهذا الجنس من البشر الفاني اذا ولدوا بمفارق بيض لا يشبه الأب بنيه ولا يشبه الإبناء آبائهم ولا يكرم الضيف ضيفه ولا يحب الصديق صديقه ولا يتصر الأخ أخاه كما ألف الناس ان يفعلوا فيما خلا من الدهر واذا بلغ الوالدان الكبر فلا يكرهما ابناؤهما ولوم الإبناء آباءهم بكلمات فظيمة يا لهم من أشقياء أنهم لا يعرفون خشية الآلهة .. أنهم يابون ان يطمسوا في الكبر من أطعمهم صفارا لا يقيمون وزنا للقسم ولا للعدل والخير ولا يمجدون الا فاعل السوء والغالين ، والعدل عندهم في القوة وضياح الحياة .. ويؤذى أهل السوء الفاضلين بالافتراء والبهتان ويحلفون الإيمان على ما يقتربون ويمضى الحسد في أعقاب البشر المساكين يرميهم بالرب وشميت في مصائبهم ويقتضي آثامهم بوجهه بفيض وحيتل يهجر الأرض العريضة الى السماء الحياء والعدل يخفيان جسمهما الجميل في ثيابهما البيضاء ولا يبقى للانسان في الأرض الا الآلام والعذاب .. (هزيود : ١١ الاعمال والأبام ١٧٤ وما بعده) .

المدنية الاولى وجدت في دين العدل سعادة الدنيا والاخرة فتناولت آمال العاجزين الى جزاء الماديين فالتجسوا أبواب جنة السعادات بشهادة مزورة واحتل الاسكندر الأكبر طرفا من معابد العدل والخير في طيبة مصر ، وسُمي' الظالمون الفاشمون ابطلا اذا غلبوا .. وطردت البطولة الكاذبة الزيفة بطولة الحق والصدق من ضمير الانسانية وغلب الظاهر الكاذب جوهر الحق والصدق وعشيت الضمائر فاطمأنت لباس الانسان وعميت عن لباس الله والعدل ، وينهض في منحنى المدنية صهيوان متشبهان من الرجال يغلب الزيف الاصيل

القانون والعدل ويغلب الرأي الضعيف على القوى ويحل الحرام ويحرم الطلال ..

والمنطق المادل يتخذ هيركل أبا الإبطل اسوة في تعليمه ..

★ ★ ★

الفكر ميزان الرجل والفكرة ثمرة التعليم والرجال الذين تهذبوا بأداب الإبطل شسبوا ابطلا والذين تعلموا علوم الصامة كان هم أكثرهم أن يظلبوا الباطل على الحق ويجحدوا الحق والعدل ويطلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ..

ويميل اريستوفان في كوميدية الضفادع بين تعليمين في اثينا : أثينا ترومين متصارعين في اثينا في القرن الخامس ق . م . :

« مثل مدينتنا فيمن تختار من رجالها المادلين الطيبين كمثل ما تصنع المدينة في اختيار العملة القديمة الاصيلة والذهب الجديد .. اننا لا نستعمل ذهباً صافياً غير مزيف كان أجمل عملة وكانت وحدها اصدق ما صك من عملة في بلاد الهيلينيين والبلاد جميعا وتؤثر عليها عملة من نحاس خبيث صكت بالإميس في أسسوا صكك ونفعل ذلك في اختيار رجالنا » نحن نعلم من كان منهم اصيلاً منسباً وكان حكيماً عالماً عادلاً ومن الصالحين ، ونعلم انهم تهذبوا في ساحات الرياضة وفي الموسيقى ومنشدى الشعر ، اننا لا نختارهم وتؤثر عليهم رجالا مزيفين من نحاس خبيث وهم أشرار أبناء أشرار ، هم رجالنا في كل صوب وهم آخر بلاد ما كانت المدينة في ما مضى لتتخذهم كفترة تكفر بهم من ذنوبها » (٢)

منشدة الكورس : (مخاطب صاحب الفكر المادل) تحدث أنت يا أيها الذي توج الاقدمين بأكمل الاخلاق والفضل ، أفصح عما تحب وبين لنا طبيعتك ..

الفكر المادل : ساعدتكم عن التعليم القديم الذي كان سائدا يوم كنت مزدهراً يقول الحق والعدل ، وكان العلم والحكمة ديناً وكان محرماً على متعلم أن يلزم بالصوت وكنت ترى أبناء الهي كالبنيان المرصوص في طريقهم الى معلم الموسيقى مرأة في صف واحد ولو امطرهم السماء وأبلا من جليد منفوش كانوا يتعلمون نشيداً :

« يا بلاس ، يا لك من قاهرة المدن »

أو نشيد الصوت البعيد ويحافظون على الهارمونية التي ورثوها عن آباؤهم لم يذهبوا الى معلم الرياضة البدنية .

المنطق الظالم : هذا التعليم البالي ..

المنطق المادل : بهذا التعليم البالي علمت ابطل مرآتون وانت تعلم لتلاميذك أن يتلفعوا بمباعاتهم ، وبذلك ثقي بي واتخذني رفيقاً أيها الشاب ، سأعلمك أن تكره التسكع في الأجورا (١) وتناى عن الحمامات العامة وأن تخزى من العار اذا سخر منك ساخر وأن تفسح المكان للشيشوخ وأن تقف أن قدموا عليك ولا ترد القول على أبويك ولا ترتكب عارا يخزى جمالك .. وتقضي زمانك في ساحات الرياضة مزدهراً وضاء ولا تفعل ما يفعله شباب اليوم الذين يعللون « الأجورا » بالثرثرة التي لا تقضي شيئا . » (٢)

والمنطق الظالم سمي بهذا الاسم لانه ينكر

١ - الأجورا : أى الاسواق .

٢ - اريستوفان : السحب ٩٥٢ وما بعده

٣ - اريستوفان : - الضفادع ٧١٧ وما بعده

إذا اجتمع المال المزيف والمال الأصيل في الأسواق اختفى المال الأصيل من الأسواق ..

وما بلغه العقل من الكمال في أوج المدنية الاغريقية كان أهلى قمة سما إليها إبطال العقل في تاريخ هذه التجربة الانسانية .. وكل ما تناولت إليه نفوس الأبطال في عمر الزمان جعل الخلود لله وحده وما يبت الله من روح في حياة الانسان الفاني ..

الانسان حلم من ظل نهار منقش حتى يلقي الله عليه بعضاً من نوره فيرد سعيداً مجيداً . وتجربة إبطال المدنية فيما خلا من الدهر بدت كتعب نهر منحدر من قم جبال شريفة صعد الى أماليها إبطال الموسيقى والطب والبيان والحكمة .. وخلدت فنون مغنياتهم آثار الخالدين .. والفكرة سر من أسرار الله .. في أسرارها موسيقى الخلود وتوقع الانسان الفاني الى مثل الله الأعلى ، لا يزال الانسان مصعداً في ثناياها فان حفره الموت ظل هادياً وحادياً للمصعدين في أعمال الانسانية ، ولا يقصرون شرف المصعدين على أمة من الأمم ولا على نسب من الانساب وجعلوها للموهوبين من الأمم التي أمنت بعبادة الإبطال وتهللت بتهديب الإبطال .. وبنيت المعابد لله والصلاة الخالدين .. قد خلت مدنية الإبطال في مصر وفي بلاد الافريق حتى أطفئت مصابيح كانت تضيئها في معابد العدل والخير إبطال العدل والخير ، حتى سُم الإطسان في مدائن الافريق تكاليف الإطال في القرن الرابع قبل الميلاد ولكن خلود الفكر يهيم لها من بني الانسان اجيالا من بني البشر يتلقون مجد الفكرة ويصعدون في آمالهم الى ما صعد إليه إبطال الأولين ، وهم في حيد شباههم ينشدون أن لرتقوا تشيد الأولين :-

« اني أحمل اليك يا أميري تاجا نسجته لك من زهر مري طاهر .. لا يجزّ راع أن يرقى اليه بأغنامه ولا يصل إليها أبداً حديد المناجل

ولا ترقى إليها الا نطلة الربيع تغدو وتروح في مراعيها الطاهرة ويسقيها الشرف والحياء بحبات الندى ولا يبلغها أحد يعلم مدرّس ولا يبلغها الا الموهوبون الذين آتتهم طبائهم العلم في كل علم .. هؤلاء أحلت لهم زهور المرعى يقتطفونها وحرمت قطفها على الآخرين .. فتقبلي يا أميري المحبوبة من يد تقيّة تقيّة رباطا لشمرلك الذهبي .. اني وحدي من دون العالمين قد نلت هذا المجد .. اني أعيش معك أجيبك بكلامي واسمع دعائك ولا أرى وجهك ، أجملني خاتمة حياتي كأولها . » (١) (يوريد - هبوليت .

قد يولد في عصر الانسانية في بلاد الله رجال ينهضون الى بطولة العلم والفنون ، لأن تجربة الأولين دين انساني لا يتجزأ .. من آمن به في عمر الزمان جاء بمثل ما جاء به أرباب الفكر في مدينة العدل ومن قال بأن الفضيلة لا تورث يرمي خلق الله بالمعم ولا يجد تجود بالخير كالريح المرسلة والذي صرف أبناء الافريق عن دين البطولة في القرن الخامس والرابع ق م نعمة جديدة في الحياة .. آمنوا بالقسوة ولم يؤمنوا بالعدل وجعلوا الانسان ميزان كل شيء وذهبوا الى أن الانسان خلق كل شيء .. خلق آلهته وخلق مدنية مادية ونبي في الكلام واعتد بآسمة وقوته ونسب لنفسه ما خلق الإبطال من قبله وسعى الى مناصب الشرف وكرم منها من هم أحق بها منه .. كل هذا التحول كان من طبيعة البشر في كل دهر ، منهم من بني ومنهم من يهدم ، وكل شيء ما عدا الله باطل .. وقسوة المصير ان يعيش رجال في معابد المؤمنين ثم لا يموتون حتى تقفر المعابد من أهلها ويروا أبناءهم يتولون قصداً عن دين آبائهم الطيبين ومن يفعل ذلك فكأنما قتل آباءه .. وبين الأجيال خلاف في التهذيب، جيل بنى معبداً وآمن بما يقول العلماء :

« ان في السموات والأرض نظاماً بنسي

والفاحشة والفجور وضاعة في موكب عظيم
وعليها تاج وتفني محامدها وتنشد مزايها
وتسمى الاسراف تهديسا والنوضى حرية
والفجور واجهة والفحش شجاعة (١) افلاطون
... الجمهورية الكتاب السابع .

كان انصار التعليم الحديث أشد الناس
يقينا انهم علماء وهم محرومون من الخير
والعدل فنهب سقراط يكشف لهم عن خفايا
نفوسهم فيسخرها عليهم الذي يصور الكذب
بصورة الصدق وقتلوا بطلا من القديسين
المؤمنين العاديين وهزمت أثينا وتولى المؤمنون
من معابد العدل والخير ويومئذ وهب افلاطون
مواعبه ونبوه لينقل ميراث العدل وتهذيب
الابطال فيما خلا من معابد العدل والخير كما
يقول في الخطاب السابع : « لا سبيل الى نجاة
البشر من الشرور قبل ان يصل العلماء حقا
وصدقا الى الحكم او يتولى الله الحاكمين في
الدائن فيأخذوا بالعدل حقا وصدقا »

(٢)

« افلاطون »

في شباب افلاطون في أوائل القرن الرابع
ق . م . غلبت على الفكر الاغريقي مبادئ
بربرية من الايمان بالقوة والتسلط (الترانية)
والكفر والجهل بالوروث من دين العدل والعدل
نهر المدنية من مدائن متقاتلة على القلبة . كل
مدينة تريد ان تبسط سلطانها على ما عداها
من مدائن الاغريق بالحرب أو بالمال حتى
استقطت آمال قليب القدوني فأوقد بين
الدائن الفتنة ليضرب بعضها ببعض ويستعين
ببعضها على بعض ، فأورث المدنية الحديثة
سياسة الجوايس ومصادقة العونة الذين
يخونون اوطانهم والتناق الثام الذي يضلّع
الانسانية فتنتخذ الذب حكما ومستغيث به
كرسول العدل والتقوى ليحمل اعلام الدين
حتى يقتل المؤمنين في محراب صلاتهم ويمحو الدين
بمعرضونه من الأرض .. ويشترى خطباء

بهارمونية العدل لأن الله يزن كل شيء
بجيوميترية محكمة »

والفصول بنات هذا المثل ، والقوانين
الرشيدة ثمرات هذا المثل ، والسلام والعلم
ومكارم الاخلاق طيبات هذا المثل ، ويخلق
هذا الادب طرازا شريفا من مظماء الرجال
والابطال ، ثم ينهض جيل فيتغافل عن هذا
التهذيب ويتهاون بحكمته .. ويفرغ الضمائر
من التهذيب الحكيم : « فاذا شب فتى محروما
من التهذيب وشب على حب المال واستنطم
عسل الدبابير وعاشر الحشرات الضارة التي
تستطيع ان تمتعه بلذات من كل جنس فانه
يضمير حكومة ضميره فيقترب من حكومة العامة
.. فاذا سارع احد لنجدة المبادئ الباقية من
الاولين فقد بنجح لينقل نفس الفتى قبل ان
تحول .. وقد يحدث ان تنمو في نفس الفتى
لذات كبرت سراً وخفاء اذا اغفل الوالد ولده
فلم يهذبه .. واخيراً تحتل هذه الشهوات
قلعة الضمير اذا آنتستها فارغة من التعليم
ومبادئ الاخلاق الفاضلة ومن الحقيقة
والصدق وكلها آمن حراس تحرس عقول
الذين يصمم الله من الناس » .

فاذا كان فؤاد الفتى فارغاً من التهذيب
هبط عليه فزاة من المبادئ الكاذبة الخادمة
ومن باطل الرأي ، تحاصر ضميره كما يحاصر
العدو القلاع لم تستولي عليها ثم توعد هذه
المبادئ الفاسدة باب الحصن ولا تدخل في
الحصن نجدة من نصيحة يوليه اياها من كانوا
اكبر سناً ، قد انتصرت المبادئ الكاذبة ثم
سمت الحياء غفلة وقلته بمزجر الكلب ودعت
الحكمة جينسا ونبلتها مكانا قصيا وقتلعت
التوسط وتهذيب المال وبعد ذلك من شمائل
المرارعين التي لا تليق بالاحرار وتظاهرها
شهوات كثيرة لا نفع لها .

واذا انتصرت هذه المبادئ الكاذبة افترقت
الضمير وطهره كأنما تصدح للولوج في الاسرار
الكبرى وحينئذ ترف الاسراف والنوضى

وحب الإنسانية فيسمى إلى بحر مقدس ليحمل من مائه الطاهر النقي سقاية للظالمين صلاة لله والخير .. وتروم الكتابة المقدسة لصحب العلم بقلب متعلق ببحر العلم الطاهر ومتعلق بالخير ليرى الظالمين بالعلم حسبة لله والخير.



أ - ظهور العلم

الفيلسوف حبيب العلم والخير ، يوم تصبح معابد الأبطال في مصر وفي بلاد الأفريق أطلالا مهجورة ساكنة قد بناها قومها للخلود أثمن تقطعت الأسباب وغاب العلم في المبادئ عمن كفروا بهذا العلم ولا يصدقون بأبطاله ، نظن أن ما آمنوا به من خلود قد طمره تراب الجهل وعماية الضمير .

كيف يرد السمع إلى آذاننا والبحر إلى أعيننا والنور إلى قلوبنا لنسمع موسيقى معابد مصر في طيبة وتنفته في دين العدل في أطي ديان الحقيقة والصدق ونحضر حياة الملك الفيلسوف الذي أصبح ملكا ونشهد مجد الخالدين .. ليست زهرة الفكرة « Pensee »

التي يزرع الطاهرون في حديقتهم .. بشيء حتى تجمع بين الشئتين برهف الفكر والفكرة الحقنة التي نزرع في ضمائرنا ليست بشيء حتى تجمع الأولين الآخرين في وادي الحقيقة والصدق .. والفكرة التي بناها أبطال البيان خالدة ترد إلى أصولها وتسمع أجيال المؤمنين سرها ونجواها ، والفكر الأفريقي الذي آمن بالعدل والخير والخلود امتداد لفكر المصريين الأولين الذين أقاموا مدنيتهم وفكرهم على عمق من دين العدل والخلود .

من يزرع في ضميره لله والخير فكر أفلاطون وشعر بئدار في تمجيد أبطال الألعاب الأولمبية ثم يرتفع إلى أتاشيد هومر في أبطال حرب

المدائن بالمال والوعود ، وأورث المدنية الحديثة « الطابور الخامس » واشترى العلماء والفلاسفة ومن ينحدر من نهر المدنية في أولها فيبصر المعابد حافلة عامرة بأبناء المادلين ، يبصر في القرن الرابع أمس ما أثبتت البربرية من مظالم جرؤ أهلها على أن يقيموا لنصرهم معابد كالتي بنت الإنسانية فيما خلا من الدهر لجد المادلين .. وسميت الصولة والغوز بأى سلاح مدنية وصار المال ديناً والسطوة والبأس ديناً . وصار النجاح ديناً ، وأقام العقل الأفريقي مدارس للكلام يلغو فيها شباب الأمم النص بالفاظ الكلب ، واستفحل الداء من أوله ليجر الشئخ الكبير الغاني إلى القضاة ويسلط عليه بيان كاذب من أشباه المحامين .

في هذا المنحدر يبنى الطفافة ويقتلون سقراط ولا يجد أفلاطون مناصاً من أن يصرف كل همته وتبوغه لحفظ آداب الأبطال المادلين ، فلما رأى أفلاطون فساد السياسة استمسك بالعلم الصحيح (الفلسفة الحقنة) فهي التي تظهر السياسة العادلة وكل أخلاق الفرد ولا تبرؤ البشرية من الأمها حتى يبلغ العلماء الصادقون الحكم أو ينقلب الحاكمون بقدر الهي فيصبحوا علماء وفلاسفة غير مزيغين (أفلاطون الخطاب السابع ٣٢٦) .

حتى أيام الأفلاطون في آخر القرن الخامس ق . م . كانت معابد مصر ما زالت عامرة بالعلماء ومعابد الأفريق التي يفشها سقراط وأفلاطون عامرة فاوى الأفلاطون إلى معابد مصر ليتنقل بها في فقه العمل وليرى فيها ويسمع ما يقول العلماء عن العلماء والفلاسفة الذين صاغوا ملوكا وفلاسفة كانوا فلاسفة ، وفي أفلاطون الفكرة بيتاً وتفصيلاً وتكاد تنصر فكرة الأفلاطون في أوج الفكرة التي بلغها أبطال الإنسانية المادلون في المدنية المصرية وفي مدنية الأفريق حتى القرن الرابع ق . م .

العالم الفيلسوف رجل فطر على حب الخير



والخير بسقاية الظامنين

سائق يحمل اناء يصب منه الماء الذي جاء به من النهر وحيث اتنا نتخذ هذه الرموز كحروف في كتابة مقدسة فلا بد ان نجعل كل رمز متعللا بالله فيكون البحر بحر الله ويكون الحب السقاية لله ، وتكون الرموز الثلاثة



وسقاية الماء كلها تعادل ما حفظت

الكلمة الاثريية في كلمة الفلسفة اى حب العلم والحكمة « Philo orphie »

ب - حب العلم :

والفلسفة التي رفض في حبها افلاطون الملك ، هي علم المقدسات فيما اورثت مدينة الابطال والعدل في مصر القديمة وفي بلاد الهيلينيين .

وان شئنا ان ندخل في اسرار هذا التعريف الذي بنيت له معابد الابطال في مصر وفي بلاد الاغريق فليس لنا من سبيل سوى ان نجتمع هذه الاسرار مما اتقلده افلاطون من جمال اسرار المعابد .

اولى درجات هذا العلم انه صلاة مطهرة لان ماء الله ظهور وهو الذي يخرج الحي من قيود الجسم الى سعاد المقدسات ، ومن الاغريق

طروادة في الحرب والسلام ويقرا شعر هيزيود ثم يأوى الى معابد طيبة في مصر تفتتحه كزهر الفكر اسرار الكتابة والنقوش في معابد المصريين ويعلم بهداية فكرة افلاطون ان المعابد لا تقام الا لعبادة الابطال الخالدين وليست المعابد بناء لباس الملوك الا في زمان الهاوية .

« اذا بلغ (ابطال النافعين) من العمر خمسين عاما فمن نجى منهم ونبغ في كل شيء في العلم والعمل لا بد من دفع هؤلاء الى غاية (البطولة) ولا بد من الزامهم ان يمدوا امين ارواحهم الى النظر الى الكائن الذي يمد الاشياء كافة بالنور . فاذا راوا الخير في جوهره اتخذوه اسوة لهم في اصلاح وطنهم وتجميل انفسهم وتهذيب الآخرين فيما بقى لهم من العمر ، كل منهم على قدره ويقضون جل وقتهم في العلم والفلسفة - فاذا قسم لهم ان يحكموا وطنهم وان يبذلوا جهدا في سبيل قومهم فعليه ليؤدوه كما تؤدي الضرائب ولا يغلونه ابتغاء الجاه وبذلك يعلمون سواهم ليكونوا مثلهم لم يتركوا اذن حراسة الوطن الى جزر السعداء ثم يبنى لهم الوطن معابد وصلوات يذكرون فيها اربابا اذا اذنت (البيتيا) استخارة ابولون فان لم تاذن ذكروا في السعداء الخالدين . » (افلاطون - الجمهورية الكتاب السابع ٥٤٠) .

اذا اقيمت لابطال العدل المعابد ، بني المعبد بموازين العدل مثلما بنيت فكرة الابطال بالعدل . فمماذا تعرف المعابد من العالم الذي بلغ بالعلم آفاق البطولة في العلم والفكرة ، هو رجل تعلق قلبه بالماء من ناحية وبالخير من ناحية فاذا رمزنا للعلم ببهر الله الطاهر



من آمنوا بتطهير النفس بالموسيقى والرياضة: وهو المتبع القديس الذي يرتقى إليه إبطال العلم وهو مثل الله الأعلى ، والرزم الثاني هو القلب المتعلق بالعلم والخير أي الحب وقد كتب أفلاطون عن الحب ونقل الحديث عن قديسة غربية لم يمين في أي المعابد لقيها سقراط لكنها ادخلته في أسرار الجمال والحب (١) . وإذا بهذا الحب هو متعش للجمال والخير وذاب وصبر في سبيل الجمال والخير . . الحماسة والحب يلاحقان الإنسان ليخلقنا من الإنسان الثاني أفرأ باقيا . . خلود المواهب غاية هذا الحب وكلما ارتقى الإنسان كان أشد الناس طلبا للخلود والوهوبين الذين أوتوا النجابة في أرواحهم يلدون الفكرة والنبور في العقل ، ومن هؤلاء الشعراء والمثقفين ، وأعلى الفكر وأجمله ما اتصل بسعادة الأمم والأفراد . . أي الحكمة والعمل ، ومن ينظر إلى هوميروس وهيلزود وسائر الشعراء المأجدين . . يصدهم على ما أنجبوا من خلق أكسبهم مجداً لا يموت وذكرنا خالدا وقوانين (ليكوج) حامية لاسيدايون والهيلاد، وصورون خالدا بقوانينه ، ولهم جميعا أشياء في بلاد الهيلينيين وفي بلاد البربار ، وهذه الآثار أقامت لهم معابد وصلوات في كل مكان وهذا الحب أي التمتع للجمال ارتقى إلى المثل الأعلى .

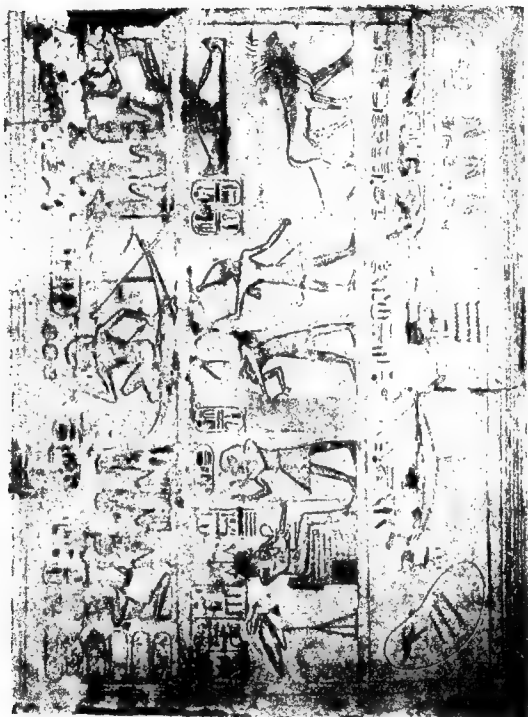
حب العلم والخير قائم في الروح ، والروح خالدة ، في أسرارها قوة الهية ترتفع بجناحين إلى سماء الآلهة ومن صفاتها الجمال وحب العلم والخير . . والأرواح الخالدة ترتفع إلى قمة السماء وتطلع على جوهر الأشياء في السماء وفي قعر السماء - كما يصف أفلاطون هذه المطالع السماوية .

« هذه المطالع التي ترتقى إليها الروح فوق قباب السماء لم ينشد تشيدها شاعر في هذه الأرض ولن ينشد شاعر ما يوقها حقها . . واليكم بيانها : يجب أن نجرا على قول الحق

وخاصة من يبحث عن الحق ، فالحقيقة التي لا تحد بشكل ولا تعين بلون ولا نبلفها بحواس اللمس لأنها حقيقة في صميمها لا تبصر إلا بعين ربان الروح وهي موضوع معرفة الحقيقة وهي التي تقيم فوق هذه المطالع - وعلى ذلك ففكرة الله التي تأخذ غذاءها من العقل والعلو الصافي وكل روح تتغذى بغذاء من معدنها لا تلبث أن تشهد الحقيقة وتحبها وتأمل حقائق الأشياء وتتخذ منها غذاءها وتنعم بذلك حتى تسم دورتها . . في هذه الدورة تنظر الروح العدالة في جوهرها وترى المعرفة في جوهرها ، المعرفة التي لا تمتريها الغير ولا تصور في صورة شيء آخر مما نسميه في الأرض باسمائه وهي الحقيقة في الجوهر الحق الذي لا يتبدل له فإذا شهدت الروح كل الأشياء في حقيقتها وجعلتها غذاءها - أنها إذن تطل على السماء ثم ترجع إلى بيتها فيقف حاديا وسائقها عند حظيرة خيلها ويطمع الفيل ويستقيم بالأمبروز والتيكثار « أي طمام الخالدين وشرابهم » (أفلاطون فيدر ٢٤٨) .

غاية ما تناولت إليه فكرة إبطال الانسانية هي معرفة الحقائق الخالدة ويعبر بلوتارك عن هذه التجربة بقوله (غاية العلماء معرفة الكائن الاول الكائن الملي الأعلى ، الكائن الذي لا نبلفه الا بالفهم الخالص ، الكائن الذي يعيش في ربة العمل إيزيس . . وإيزيس تلمو إلى معبدها من يبحث عن الكائن الاول واسم معبد إيزيس يدل على ان العلم فيه هو معرفة الحقيقة اذا دخله الإنسان خاشعا متفكرا (بلوتارك وإيزيس واويزيريس ٢) .


البطولة التي تبلغ سماء الحقيقة جعلت الإبطال يبلفون آفاق الصديق الإبدى وهم الذين أوتوا الانسانية دين السعد والتقوى وهم الذين آمنوا بظلود الروح . . وقرام فيما



هذه الصور صورها معهد شيكاغو بالأمس تفصل بها رئيس يهتم الأستاذ شارلس ليس

نقش على المعابد من أكلهم يلبسون جلداً أسود ليثبها بهير قتل الذي غلب الأسد المفترس ولبس جلده ... فهو رمز لبطلونة العلم .. « غاية العلم الخير »

والرمز الأخير من كلمة حب العلم هو مقايه

الظالمين  ساق يحمل أثناء يصب منه

الماء وهو أشرف غاية العلم .. غاية العلم الخير كما يفصل آياته أفلاطون .

(٣)

الملك الفيلسوف

« لا تجمع أوجاع الإنسانية حتى يكون الفلاسفة ملوكاً ويكون الملوك فلاسفة ، يجمعون بين سلطان الملك والعلم » .

هذه الحكمة حلم وأمل في فلسفة أفلاطون وما ضرنا أن نرد الحكمة الى مواردها الأولى ونقول غير خائفين ولا ظالمين إن أفلاطون قد جاء بهذه الحكمة من معابد المصريين .. وتكاد نفترض كلما تأملنا ما خلف الناقشون من صور الملك الفيلسوف فيها بنى المصريون من معابد في طيبة أن أفلاطون قد سبقنا إليها وهي عامرة بعلمائها الذين كانوا فقهاء في العلم والعقل وبينوا لأفلاطون معنى ما خلقت المعابد من صور ملك يحرق الأرض وفوق رأسه تاج العادلين ويضم ثمار غلته وفي الصورة قدمه اليمنى .. وقد وفقت عند هذه الصورة والمعابد اطلال لا ترد سؤالي وأول العلم السؤال والتعجب .. وقد رجعت الى هذه الفرقة (في مدينة هابز بالأصغر) أصورها كلما وجدت سبيلاً وهي تهرض عى بروعة الصلاة فكيف يضيع هذا المعنى أن ارتفعت هذه المعابد الى دين الخلود ؟ أليست من بقايا دين الخلود التي أبقاها الأدب الأفريقي أسطورة بطل جميل فلما مات نازسيس ثبتت في موضعه زهرة

الترجس وهذا الملك الحارث بنى مكانه معبد وحمل المعبد زهور اعماله فالمعبد والنقش فكرة من بينات الخلود ولا لموت الفكرة حتى يطعمها الجهل أخ الموت .. ثم أحى هذه الفكرة في نفسي هوميرو وأشييل وأفلاطون وأصبحت هذه الصورة في كتابتها المقدسة تخليداً لحياة الملك الفيلسوف .. أنه الذي يحرق حرث الله في قلبه لا يحرقه الا يحرق الفكرة والعلم لله والخير ، فلما تبينت هذا المعنى أبصرت الملك في صورة مجاورة لبس جلد الأسد فهو قد بلغ البطولة في العلم وفي صورة مجاورة وثاق يربطه « توت » اله العلم والحكمة وله رأس أسد أى رب الحكم .. فهو جامع بين سلطان الحكم والعلم وفي صورة مجاورة (اللمة ربة العدل) تقوده ميتا الى جزر السعداء الخالدين .. وفكرة الإبطال العادلين خالدة يتلقاها أبناء الإنسانية السعداء الذين يرقون الى شرف الخلود .

وأقرب صورة الى هذا النقش نقش إبقاء هوميرو في شعره الخالد وهو أقرب آباء المدينة الأفريقية دينا وفنا ونسب بدين المصريين وفنونهم .. وناقش الكتابة المقدسة في أساطير الأفريقي كان هيغابستوس الذي نقش درع أشييل بطل الإبطال في حرب طراودة ، وبذلك نعلم أن فكرة الخالدين بنيت في عصر الزمان في كل صور فنون الخالدين - النقش والموسيقى والكتابة المقدسة والفلسفة والمنطق وارتفعت بذلك جميعاً الى وادي الحقيقة الأزلية والصدق .. وهيغابستوس نقش على درع بطل الإبطال صورة تنقش معابد المصريين « صور مدينيتين جميلتين من مدائن البشر الفانين .. في إحدى هاتين الصورتين صور هيغابستوس زواجا وأفراح زواج وزفاف العرائس على ضوء المشاعل حول المدينة وتتصاعد من روائها صيحات الفرح من كل صوب .. وفتياتا يرقصون ويدورن في دائرة الرقص وخرجت كل امرأة ووقفت عند عتبة بابها معجبة وتجمع ملا المدينة في ساحة اسواقها هب فيها خصام بين رجلين على دية قتيل اما



احدهما يقول انه دفع الدية كاملة ويعلم ذلك على الملا وينكر الآخر انه اخذ شيئاً وكلا الخصمين قبل ان يضع حداً لهذا النزاع ، وشابهما الملا وكلا الخصمين قبل ان يصبح معه أنصاره .. وفي الجمع منادون .. يدعون الحي الى السكون وشيوخ الملا جالسون على مقاعد من حجر في دائرة مقدسة أمسكوا بأيديهم عصي المنادين ذوى الصوت الجهور . واعتمد الشيوخ على هذه المصى وقضى كل منهم بدوره - وكان وسط القضاة على الأرض قطاران ذهاباً لآخر قاض يقضى بينهما بالعدل ... هومير الإلياذة النشيد الثامن عشر » (١٩٠)

★ ★ ★

وتفسير هذه الرموز ان البطل كان حصناً أفضى السلام والفرح والعدالة في قومه وهذه صفة الملك العادل في السلم .. اما الحرب فقد صورته بصورة كالتى حففتها معابد المصريين حين يهب الملك بعربة الفروسية لرد المعتدين .

وفي النقش صورة أخرى قريبة من صورة الملك الفيلسوف التى نرى وقد نقش هيفايستوس فوق الدرع قتلاً لك .. في هذا الحقل زراع بأيديهم مناجل حادة يحصدون بها (غلة الملك) فتهدى على الأرض فوق مجارى الحرث قطوف الغلة بعضها فوق بعض قد حزمت في حزم .. حزمها الزراع الذين يربطون الغلة في حزم ، ومن هؤلاء وقف ثلاثة يعمل لهم الصبيبة ما يجمعون من منثور الغلة .. يحملونها بين أيديهم ويقدمونها لمن يجمعونها حرماً ولا يكل عملهم .. والمالك واقف ساكن يحمل عصا الملك فوق خطوط حرثه وقلبه فرح سعيد .. والمنادون من بعيد تحت شجرة باسقة يمدون الغداة .. قد قربوا للالهة ضحية عاجلاً سمينا .. والنساء تمد الغداة للزراع وتبشر عليه دقيقتاً كثيراً أبيض (هومير الإلياذة النشيد الثامن عشر . ٥٥٠ وما بعده)

وما تأويل هذا النقش مندى إلا انه تعبير

كتعبير الكتابة المقدسة عن ملك فيلسوف زرع حقل الله في نفسه أى قلبه وعقله فانبت زرعه غلة سعيدة يجمعها الطلبة كتباً (كالجزم التى يحزمها الحازمون) ويدرسها الصغار قطعاً يقرأونها على علمائهم كما يفعل الصبيبة المنتشرون في الحقل والمنادى الذى ينادى الملا بأحكام الملك يقرب خيراته لله والنساء ينثرون دقيقتاً أبيض فوق طعام الزارعين الدارسين - وقد تؤول هؤلاء النسوة بطلومات العلم والفنون muses ثم تفصح أسرار الكتابة المقدسة عن أسرارها التى كانت ميراث الإبطال بلغة أقرب الى عقولنا في شعر القرن الخامس ق.م أى فى جيل الإبطال من آباء افلاطون .. فاشيل شاعر التراجيدية وأحد أبطال ماراثون وسلامين فى الحرب الميديّة يصف فى تراجيدية « السبعة المحاصرون لطيبة » بطلاً نقياً عالماً هو أقرب الصور التى شدا بها الشعر بعد النقش والكتابة المقدسة وهى تفسر معنى الحرب ومعنى ثمار الحرث بما نفهمه من معنى العلم culture وثمار العلم أى الفكرة pensée

الرسول : ذهني أقص عليك نبأ سادسهم انه اعلم الناس وأشجع الناس فى القتال هو نبي يعلم الغيب أنه البطل المجيد امفياروس حمل هذا البطل درماً من صلب قتيل وقال وهو مطمئن الجنان ما كان من قول .. لم ينقش فوق درعه نقشاً لأنه لا يحفل بالظاهر وما يجب إلا ان يكون بطلاً فى الحقيقة - فيما بينه وبين الله قد حرث فى قلبه وعقله حرثاً عميقاً ينبت زهراً غنياً من الرشاد والحكمة ارسل لقاتله إبطالاً علماء عادلين فمن يتقى الآلهة ليس بهين يسير (اشيل « السبعة حول طيبة » ٩٠٠ وما بعدها ..)

★ ★ ★

ورثت الإنسانية حكمة الإبطال من أبطال العلم فى مصر وفى بلاد اليونان - وكانت تجربة سميعة لانهم كانوا فى حياتهم حصون الحياة وكثروا فى خلودهم آباء العقل والفعل والبيان

البطولة في الفكرة كالبطولة في تسليق القيم
الصعبة ، هيات لأبطال الفكرة مجد مصارعة
الفساد في تعليم زمتهم وظلم زمتهم وكانها
يحدث أفلاطون عن نفسه وهو بمعزل في جوار من
خلا من أرباب الفكرة في معابد العدل والخير .

« قليلون بالديمات من يستحقون ان يباشروا العلم الحق والفلسفة : رجل موهوب شب على تعليم سليم فاقصى من وطنه وابعد من المفسدين وظل بطبيعته وفيا للعلم والفلسفة فمن ذاق نعيم العلم والفلسفة وعرف ضلال الاكثرين وجنونهم وعرف انه لم يبق فيمن يحكمون الخدائن قلب سليم وانه لن يجد نصيرا ينصر معه العدل دون ان يلحقه الموت كمن وقع بين الوحوش المفترسة لا يريد ان يظلم معهم ولا يستطيع ان يقاوم وحده كل هذه الوحوش قبل ان ينفع اسدقاره وينفع وطنه ؛ وبذلك ينزوي في مأمن ولا يفعل الا ما يضي عنه فيشأ كمن هب عليه اصهار من تراب فاحتمى بحائط واذا راي الناس من حوله غارقين في الظلم قنع بأن يعيش بريئا من الظلم وان يخرج من الحياة بأمل مطمئن رحيب » (أفلاطون : الجمهورية ، الكتاب السادس - ٤٦٦ ب ١)

من جد بالعلم حتى يصير بالعقل والفكرة
ما خلق الله من جمال لا يهبط من سماء الفكرة
الى صراع الضلّين .

بطولة الفكرة ليست فيما يطلب عامة الناس من علم في كهوف مغلقة يأتيها نور من خارج الكهف وهم فيه قفود مقيدون بسلال في اقدامهم وبأغلال في اعناقهم لا يخرجون من كهوفهم منذ طفولتهم ؛ يسمون الاشياء بما تعكس الاشياء من ظلال في الكهف وما يحل الصوت من صدى ؛ حبسوا حياتهم عن أن ينفذوا الى حقيقة الاشياء والذين ارتقوا في عمر الفكرة الى سماء الحقيقة كانوا احرارا لم تقدمهم عن كشف الحقيقة قيود ولم يطبوا نفسا بالذهب والفضة وظلال الجاه والراحة في كهوف الحياة .. ومن دأب فكرة الابطال اذا غرست في نفس

والحكمة والملوك الفلاسفة والفلاسفة الملوك عند
أفلاطون علماء نشهد حياتهم وعلومهم تفصيلا
.. قد بلغوا بفكرتهم الى سماء العدل والخير
س الى مثل الله الاعلى .»

فاذا بلغنا أفلاطون مسمعنا يحدثنا عن شيم هذا الملك الفيلسوف فهو يحب العلم كله .. لا يقصر همته على الجزء دون الكل ويحب الحقيقة كلها ويكره الكذب وهو عالي الهمة تشرب همته الى ان يعلم حقيقة خلق الله والانسان - وهو شجاع لا يخشى الموت .. فماذا لو سألنا أفلاطون من زمانه وما خلف زمانه من مننيات كالمدينة الهيلينية بفسد الاسكندر والمدينة الرومانية والمدينة الحديثة .. ألم تثبت الطبيعة نفسا عالية تحب العلم والصدق وخصتها بذاكرة ووهبتها حب الجمال وموازين العدل فما بالها لم تنجب ما اتجبت مدينة الابطال ؟؟ والجواب على ذلك ان العدل تهدمت اركانه وفسد زمانه وفسد تعليمه والوهوبون اذا نبثوا في ارض ظالمة فسد نباتهم ونبتوا في الشرور .

« نحن نعلم ان كل بلدة لبنات وكل نقطة في خلق الاحياء تفسد اذا لم تجد ما يلائمها من صالح الارض والهواء والغذاء .. »

ونعلم ان أفلاطون نفسه قد هجر اثينا في شبابه لأنها مفسدة لفكرته .. لقد عرشت عليه اثينا بعد موت سقراط أن يشارك في حكومتها فأبى لأن نظامها السياسي فسد فسادا لا يستطيع معه أفلاطون شيئا فترك اثينا وآوى الى معابد مصر بمعزل عن الناس ليثقف في العسل وتهديب العادلين وليعصم بموهبته ميراث العادلين من الفناء وهو الذي يحدثنا من ارض اثينا وغلانها وغدانها في ايامه وهو الذي يصور تصوير المآبد كيف يتفرد النابثون في زمتهم بالخروج على قيود عامة المتعلمين والارتفاع بجسد الابطال الى شمس العدل والخير .

قلوبهم بأسعد نبضات الحياة .. والذين يحملون هذه الشعلة في عمر الزمان هم زينة الانسانية يحملون نور الله الذي لا يموت وهم جميعا يسكنون ضمائر الاحرار وما كان لله فهو يبقى وما فعل الانسان لذاته وغروره يموت قبل ان يموت فاعله وشجرة الفكرة، أي زرع البطولة والخلود التي زرعها افلاطون، شجرة خالدة تمتد اصولها الى اول المدنية وتنتب نباتا مباركا في عمر الزمان .. وسر هذه الشجرة انها قد تمكنت هشيما في عمر الدهر فيبقى بلدها في باطن الارض فيطمره التراب ان اغفلت ارضه ولكنها لا تلبث ان تزهر ان هيبت على ارضها ظل الندى او حملتها الرياح في اطرافها الى بلد بعيد فتشعر ثمرا طيبعا كزهر الصخور المالية واذا افلحت الثمرت ثمرا كثيرا .. قد ينهض في عمر الانسانية رجال لا تطيب لهم الحياة حتى يتوجوا بالمر من اكار البطولة في الاعمال والاقوال .

واذا اردنا ان نقترّب من آداب الابطال الذين يردون الالاب الاولومبية نجد في قصون ما توجوا به شبيها بين الزهر والفضيلة كالتى ينشد مجدها بندار .

« الفضيلة القيمة (البطولة) لا تنجب لمرها في الاجيال تباه ومثلها كمثل الحرث في الارض السوداء لا يثوي لثمارها كل عام بغير انقطاع والشجر لا يرضى في كل حول ان يحمل ثروة متكافئة من زهره العاطر ولكنه يفارق كل عام في ثمره عاما بوجود وعاما يقتسر .. واحياء البشر الفاتون يتبعون مقادير الزرع » .

ولا نمجب ان نجمع الالاب الاولومبية ابناء كل امة حرة مكلفة بتكليف الحرية .. أي هلبت ابناءها ليكونوا امنع حصونها وليحملوا ميراث الابطال .. ودين الابطال اشتمل على اعز فضائل التهذيب ، وعلى اشرف آداب الانسانية ، قد حرصوا على ان يخلد الشعر والموسيقى ما يتوجونه من اقصان شجرة

صالحة ان تحلم القيود والاغلال فان خرجت من كهفها ابصرت الشمس وعلمت انها مبعث النور .. شبه الطلوع الى سماء الحقيقة وتامل آياتها العليا بارتقاء الفكرة والروح الى سماء الخير .. وهي ان ابصرت بعد جد كانت مصدر كل جمال .. هي مبعث النور ومبعث الحقيقة والعلم ، الارتقاء الى صور الخير المقدسة كان اروع آيات الفنون التي صاغتها يد ابطال الفنون في عمر المدنية والعلم ، ارقى مدارج الفنون وتهذيب الابطال ليس علما يصب في النفس كمن يصب النور في مئتين كفيفتين ، ان للعلم ملكة في الروح تصرف النظر عن كل شيء عارض يرول وتامل الحقيقة الدائمة التي لا تزول .. باى العلوم ترفع هؤلاء الى النور كما ارتفع بعض ابطال الاساطير من ظلال الموتى الى سماء الآلهة ؟

علوم الحساب التي تخرج النفس من عالم العوالم الى عالم الحقيقة والهندسة والفلك ، والهارمونية التي تنتهي الى الواحد الاحد والموسيقى والتطهر والصلاة .

(٤)

خلود الروح

لم تكن فكرة افلاطون خالدة كخلود معابد العدل والخير رمية من غير رام ، ولكنها دليل على خلود البطولة وخلود ارواح الابطال وهي دين الانسانية جميعا وقد يفسر ذلك ان ما سمت اليه افعالهم واقوالهم بات امدأ لبني الانسان من كل جنس كآباد الالاب الاولومبية التي يتسابق على بلوغها وسبقها ابطال الاجيال .. لا يكاد الانسان في عمر المدنية القديمة والحديثة يخرج من كهوف الظلام ويعلم قيوده واغلاله حتى ينطلق في مطالع الفكرة الى ما سما اليه الاولون عند مشارف الجمال والخير .. ففي تجربة اولومبية في عصر الانسانية .. والبطولة ميراث حر لان ينهض من الاحياء والذين يحملون الشعلة الاولومبية تنبض

الثالثة عشرة) وهي كلها فضائل تتعلّق بالإنسان والحيوان والجماد والنبات .

وتأجّج البطولة الذي يتوجّج أحياء أمة لا يخصّ الأحياء وحدهم بل يرفع المجد إلى من خلا من الإبطال ، فتراب القبر لا يحجب عنهم مجدّ أبنائهم وتحمل لهم ربة الأبناء ما وهب الله ذريتهم من مجدّ عظيم في الألعاب الأولمبية (الأولمبية الثامنة ١٠٢) .

« التساج الذي ينال الإبطال في الألعاب الأولمبية هو ثمرة الفضائل الشهيبة (الأولمبية الخامسة : أول بيانها) - بعد الموت يلتقي كل امرئ جزاء أعماله ويلقى الإظهار الطيبون المادلون جزاء الخلود في جزر السعداء » .

لو علم الإنسان ما ينتظره بعد موته .. فإذا صرعه الموت دفع المجرمون ثمن جرائمهم .. هناك اله يحكم على ما ارتكب الأحياء من جرائم في الأرض ويقضي فيهم قضاء صارما .

« في جنة تضيئها الشمس ويستوى الليل فيها والنهار يظلم الإبطال المادلون لا يلقون الأرض بأيديهم ولا يجذفون في البحر طلبا للعيش وهم يعيشون في جوار أولياء الله الذين يحبون الله والوفاء ويعيشون عيشة غير باكية ، أما من ظلم فلهم عذاب اليم » .

« والذين استطاعوا أن يبكوا ثلاث مرات في الدنيا والآخرة اطهروا لا يظلمون أنفسهم ولا يظلمون الناس شيئا ويمضون في سبيل الله إلى أبواب .. كرونوس - إذ يلقون جزر السعداء التي يهب عليها نسيم المحيط وفيها زهور من ذهب منها ما تزدهر في الأرض على شجر باسق ومنها ما تزدهر في الماء ينسجون فيها تيجانا يلبسونها برعاية رادامانت (الأولمبية الثانية ١٠٩ وما بعده) » .

إذا قلنا آثار المدنية الأولى فيما بقي من معابها وفنونها وما خلف هومر من بينات

زيتونة زرعها لهم فيما خلا من أعمال الإنسانية رب البطولة هيرقل وآيات الشعر تفصل ما تهذبت به شعائلهم .. قد هذبت نفوسهم بالتقوى والمعدل والإحسان وبأعزّ فضائل التهذيب والأدب .. التقوى لا تموت وهي التي تصحب الإنسان التقى في قبره والمعدل في كل موازين الحياة .. ولو أننا فصلنا فضائل تيجان الألعاب الأولمبية فيما خلفه « بندار » لعلمنا أن هذه الألعاب كانت صلاة في معابد الخالدين واسمعتنا موسيقى بندار ما حجب الجمل والزمان من دين الخالدين .. وأول النشيد صلاة للآلهة لكي تتقبل في معابها بطلا تقيا عادلا عالما من أبناء تينيدوس :

انه لا تستعجم قيساره ولا أناشيدته في صلاة الآلهة والإبطال ويرمى زيوس رب الضيف الغريب .

ثم أرجوس أم الإبطال الإبطال وإبطال أرجوس هياوا للمهمات العلم والموسيقى بنات زيوس إن يحترن حرثهن :

« مثل البطولة (الفضيلة) كالشجرة التي ترتفع باسقة إذا سقطت حيات الندى الصالح وكذلك البطولة ترتفع باسقة في سماء الأثر إذا سقطت في نفوس العلماء والحكماء المادلين »

« جنس البشر واحد وجنس الآلهة واحد : كلا الجنسين يتنفس أنفاس الحياة من « أم واحدة » وشتان بين قوتنا وقوة الآلهة فقرة البشر ليست شيئا والسماء مقام الآلهة الخالدة الذي لا يغيب ولكن بيننا وبين الخالدين شبه في فكرنا العظيم ، أو في طبيعتنا وإن كنا نجعل ما كتب القدر علينا في الليل والنهار . »

والآن يشهد « الكيميداس » أن ميراث البطولة كثمار الصرث التي تختلف من عام إلى عام - عام مقل وعام خير غزير .

والبطولة تنبت في الوطن الذي يتبع القوانين، والعدالة التي لا تنتظم بغيرها بلد والسلام وأهب الثراء للإنسان والتقوى (الأولمبية

سوفوكل وشعره وموسيقاه ما عقدت له أمته من تيجان العادلين الخالدين وعقدت لديموستين من أفعال ديومستين وبيانه تيجان العادلين الخالدين ثم عقد أفلاطون لسقراط الذي أعدمه السوفسطائيون في أثينا تاج العادلين الخالدين وبقيت آثارهم جميعاً في معابد الإنسانية كنوز الأبد وهؤلاء جميعاً لا يتوجون حتى توزن قلوبهم بميزان العدل الذي يحصى بريشة العدل إيمانهم وأفعالهم ... ويشهد على أفعالهم شهود عدول من قديسي العادل وإبطاله .

وبذلك يقترب تاج ديومستين في آخر القرن الرابع بتاج سقراط فيما كتب أفلاطون في الدفاع عن سقراط (Apologie de socrate) ويقترب من تاج انتيجونه في شعر سوفوكل ويقترب من أناشيد الألعاب الأولمبية وكلها قريبة من تاج العادلين في محكمة العدل في دين المصريين الأولين والنسب بينها جميعاً أن يشهد في معابد مصر علماء العدل ويشهد « بندار » بعمل أبطال الألعاب ويشهد أفلاطون بعمل سقراط ومن كان حياً كديومستين دافع عن حياته وسياسته كمن يدافع عن نفسه أمام حكم الله والعدالة - وبين أيدينا ترجمة لما يتوج به العادلون في مصر قديماً .

« كنت عادلاً صادقاً لم أركب إلها وكنت تقياً أرى الله فأثنى الله الحكمة ، قد جئت عالم الخلود بعد ما فعلت الخير في حياتي ، لم أظلم ولم أآثم ولم أشارك فيما لا يرضى الله والشرف ، ونعمت بقول الحق وكنت مؤمناً أن الصدق ينجي من اعتقه حتى الموت ، وهو خير ما يدافع به المرء عن نفسه أمام هذه المحكمة التي تعلم السرائر وتماقب الآثم » (ترجمة ديوتون للكتاب ١٢٥ من كتاب الموتى)

كل أبطال هذه المدنية يتسامون إلى طراز فرد في الإنسانية يتخذون من خلا من أبطال الأساطير أسوة ليبلغوا المثل العليا التي تشرّف منها ضما نرهم وإبصارهم على آيات الله التي لا تبدل لها ويذكرون في صلاتهم آباء أمثالهم

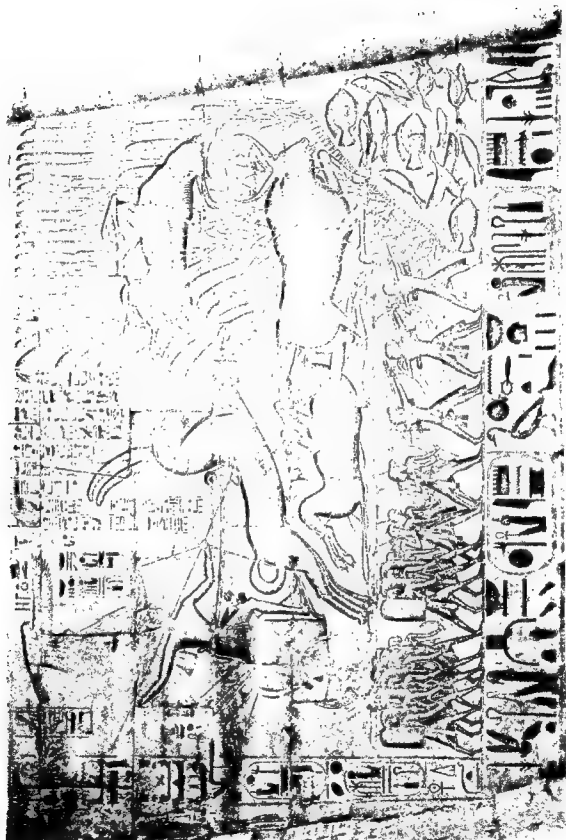
وما أبقت آثار الفنون والشعر من تهاافت أبطال الألعاب الأولمبية حتى آخر القرن الخامس ق.م. على تاج الألعاب الأولمبية ، وإذا علمنا من أي الفضائل الإنسانية نسج تاج الفائزين في الألعاب اقتربت أسباب الخلود في دين هذه المدنية واقترب تاج الفائزين في الألعاب من تاج الخلود الذي يتوج به العادلون في معابد المصريين وهو الذي يصوره « بندار » في وصف جزر السعداء في الأولمبية الثانية ..

ما جزاء العدل .. الذي تطاولت إليه أفئدة العادلين ؟ .. بطولة العدل وتاج الخلود .

(٥)

تاج العادلين الخالدين

كانت الألعاب الأولمبية والتهدب المتصل بدین الإبطال طرفاً من صلاة الإبطال ودين الخالدين ، وقد جعل هذا الدين خلود الروح أسعد آمال العادلين واتصلت غاية الحياة والموت فيما نبغ فيه الحكماء والعلماء وصافته الفنون بهذا الدين ، وحشياً توليت أفكار باقية خالدة متصلة بهذا الدين فيما أبقت هذه المدنية في شعر الشعراء وفلسفة الفلاسفة وما بلغت سماء عقول الخالدين كانت آثارهم ولعبرهم صلاة في معابد الخلود .. وتوج النابغون بتاج الخلود .. فإذا كان دين العادلين الخالدين أساس الحياة والموت استوى جزاء العادلين في كل صوب وحمل تاج الألعاب الأولمبية أيام كانت الألعاب صلاة وتاج النابغين في الشعر والموسيقى وتاج الذين قادوا سياسة أممهم للعدل ودين الخالدين .. هذه التيجان جميعاً رمز لحياة العدل وبطولة الخلود وهي جميعاً من أصل واحد وما قرأنا في « يوريبيد » يقرب إلينا ما نهمل من دين الأولين فهيبوليت بطل مثل أبطال الألعاب الأولمبية ارتفع ببطولته إلى مطالع معجزة في قمم عالية ليأتي منها برزخ طاهر بكر لم تسبق إليه يد لينسج منه تاجاً لربة الطهر والمغاف .. وقد صيغ من أفكار



العقل اليوناني بني أساساً بموازين العدل
فما ظلم يرد إلى موازين العدل وريث الانتقام
يماقن السرفين ومن يسرف في شيء يفسده
فيما تصنع يده وما تصوغ أنامله وما يحكم
عقله من شيء وبنييت السموات والأرض بموازين
العدل ، فإن أسرفت قوانينها في شيء ردت
إلى موازين العدل ومن يسرف في قوانين
الموسيقى لا تعتدل موازينه ، ومن لم يحكم
صياغة التماثيل بالعدل والتسقط وأسرف في
اليدن والرجلين أو ألوان العينين ، انتقم
العدل فافسد عمله .

وقد تعبت المقادير فتخلل الذكي وتنصر
القي فتؤتبه المال والحكم ولكن المقادير
عجزت عن أن تزين ينبوع البيان والفكر إلا من
تهبوا بتهذيب الاحرار وغرسوا فكر النابغين
في فسحاتهم حتى يثمر ثمره الحق الامين .

وعادة الابطال كانت ديناً يعرضون فيه
اصدق ثمرات تهذيبهم في معابد العدل والخير
وقد يتسابقون في الالامب الاولومبية التي
حرمتم على البربار والاعمين ليشهدوا ارواح
سلفهم ويشهدوا آلهتهم ايمهم احسن عملاً
وامتل حياة واملا ، وابعد ثمرات هذه البطولة
ليست فيما تشهد من قوى المتصارعين وسبق
الفرسان والمداين الذين لا يشق لهم غبار
وكل ما قد تقلب فيه بهيمة الانعام ، ولكن
أروع الصور أن يكون هذا الذي يرمي القرص
فلا يبلغ مرماه احد ، قد اشتمل على اشرف
تهذيب في الموسيقى والبيان والحكمة فالانسان
الذي يسمو مصعداً ليسمو الى شرف الحياة
قد يصارع الاحداث والمقادير ، والمقادير قد
تكون اشد هولاً من بأس الانسان وبطل هذه
المدنية يلقي مصارعة المقادير بصراع اشد من
صراع ابطال الالامب الاولومبية وما يلقون به
مقاديرهم قد أبقت الحكمة مثلاً من هذه
المصارعة .

« انما يأمروا القانون ان خير الاخلاق ان

لا يسددهم شيء من نصرهم أكثر مما يقربهم
في ايمانهم إلى لقاء المادلين في جزر السعداء ،
وقدر هذا الدين للانسانية ان تنجب ابطالا
في الشجاعة والراى والشعر والموسيقى والبيان
والحكمة حتى غربت شمس المدنية القديمة ،
ومن آمن بالعدل فيما يحسن من شيء ييده
وقلبه ولسانه وصاغ حياته جميعاً بدين
العدل ، ورياضة العدل يده وقلبه ولسانه
تثمر له الأرض اطيب ثمرها ويمده البحر
بطيباته وتحيط به ذرية سميعة جميلة ويژه
له العلم والفنون آيات صادقة من جمال
الجسم والمقل وتروج يوم يموت بتاج الخالدين
ويخلد مع السعداء في جزر السعداء كل ما
شدا به الشمرء في فضائل ابطال كانوا
حصون امهم وكل ما جعلت به حياة هؤلاء
من الجمال والخير وجمال الجود وحماية
الغريب وجوار المستجير وحمل الضيف
واقشاء السلام والتبوع في الراى وبطولة العلم
والفكر ، أى بلوغ الحقائق الابدية - كان لمره
دين العدل وكل هذه الآمال سقطت على رجال
حولها غير مكربين ، قد كلفت ربة العدل
ارزاق المادلين فلا يشقون في ذل الحاجة
وصرفت كل همهم إلى حب العلم ، أى إلى
ان يردوا مورد العلم المقدس الطاهر النقى
ليأتوا منه بسقاية بنى الانسان وليحملوا النور
إلى من لا نور له ويفعلوا ذلك لله والخير وأول
الخير ان يبنوا بانفسهم وتهذيبهم الحر
ليحققوا بالعدل اجمل هارمونية بين قوة الابدان
وحكمة العقل والبيان وقوة الاجسام ، كما
يقول افلاطون ، لا تطلب كثرة بهيمة الانعام
وانما تراء اولاً وآخرأ لقوة العقل والفضيلة .

العقل اليوناني ميراث مدنية العقل والابطال
الخالدين وقد يرث الانسان الملك ويرث الفضة
والذهب ولا يرث الانسان الفكر والموسيقى
وبنيات الحكمة حتى يسعى لها سعيها وهو
مؤمن ، هي الكثر الخافي في اعماق العقل
لا يدركه إلا الجادون الصامون المظنون الذين
تبرهم الفكرة بجمالها ويتخونها صلاة لانها
قبس من فيض الله في قلب الانسان .

(٦)

خطبة التاج

ميراث العقل الأفريقي فكرة جعلها ديكارت على كل لسان وهي ان الإنسان فكرة . . تقاس القدر كل امرئ بما تبنى فكرته : وتحديد الفكرة في عالم الفكرة المجردة قد يغنى على الأعين وما يبطئها الا أن نصنع منها ما ألف الفن القديم أن يصنع وإن نصوص من الفكرة تمثالا حيا ناطقا لرجل يعرض حياته في تمامها على محكمة العدل التي يتوج عنها الخالدون . .

وإذا تصور الفكرة في حرها المقدس الذي يرفع البشر الثاني الى منازل الأبطال الخالدين وقد اختار الأفريقي منذ أولهم نظاما كنظام القبائل أي نظام المدائن وتسايت كل مدينة على أن تثبت أبطالاً وكان اليونان وأثينا أسبق الهيلينيين الى تقديس الفكرة ، فلما ألفت شمس أثينا السياسية ألفت فكرة البطولة الموروثة وهزمت أثينا وتوالت أعاصير الغناء على المدينة وثابتت النية أطفالها في أحرار المدائن وأحاطت بالعالم ليل حالك من اليأس والخوف والمجز ، وألقى الأحياء البائسون أيديهم بالتسليم للمقادير التي عصفت بأهل ما زرع الإنسان في صحر الزمان . . أي العدل والخير والحريّة وكرامة الإنسان :

وما كان قيس هلكتك واحد

ولكنه ينيلك قوم تهدمنا

بل ببيان الإنسان العزيز البطل الصادق الأمين تهدما . . لتقوم على هدمه امبراطورية الاسكتلر . . وفي ميثم الحرية نظر الاحرار بعضهم الى بعض ولم يكتفوا برثاء الأبطال الذين قتلوا في موقعة كرونيه سنة ٣٢٨ ولكنهم نهضوا امام ربه الموت وقدموا التاج لديومستين فانكر أعداء ديومستين على ديومستين تاج

نستمسك في صراع الاحداث بأقصى ما نملك من سكون الروح ولا نحتاج فرما لأننا لا نستعين ان ما ينزل بنا أهر خير أم شر وقد لا ينفع التوجع في شيء وقد لا يكون في شيء من اشياء البشر ما يستحق الهول والتوجع وقد يحول التوجع بيننا وبين السلامة ان مدت السلامة اليها يدها لتفيثنا على عجل »

فقال : عم تحدثت ؟

« اني اتحدث عن النصح فيما ينزل بنا من نوازل القدر ، اني انصح ان تقف منها كالعاب الترد المعرض للخسارة فيهيء عقله لاحتمال الخسارة قبل أن تقع ويحتمي بأنفع وسائل الاحتمال التي يبدىها له العقل ولا يتلقاها كما يتلقى الطفل اللطمة والضربة بالبكاء والمويل ، وإنما يهيء نفسه لتنهض فتسعف بالدواء ، ويقيم ما تهوى وما أففل ويضع الدواء في موضع التوجع والمويل . . » (أفلاطون : الجمهورية : الكتاب العاشر)

ويكاد ديومستين يوجه هذا النصيح الأولومبي لأثينا وهي تقايل على حريتها فيليب المقدوني :

« اتكم ايها الاثينيون تملكون قوة في البر وفي الخيل والمال أكبر مما يملك سائر الأفريق ولكنكم لم توجهوها وجهة صحيحة حتى يومكم هذا ، واتكم لتصارعون فيليب كما يصارع البربار (أي الذي لم يتهدب بتهديب احرار الأفريق) فهذا البربري اذا تلقى لطمة أمسك بيديه موضع اللطمة ، فان لطم في موضع آخر وضع يده حيث لطم ، لكنه جاهل لا يعرف ان يتقى اللطمة باللطمة ولا أن ينظر ولا ان يحلر أو يتقى . . » (ديومستين الفيليبية الأولى)

Descartes - Discours sur la methode: je pense donc je suis I,

الله وسعادة الانسانية ليدفعوا طوفان الدين الجديد الذي يجرف امامه ما ادخر العادلون لسعادة الانسانية ويخلق اول السيل تعليميا ولغة جديدة ليبحث الابناء بمجد آباءهم ويسعوا الفوضى حرية والشجاعة تهورا والخشونة تأخرا والحلم عجزا والعدل ضعفا ، ويجعلوا النجاح دينا « فما اشتهى سامة النصر والنجاح .. اقدم ولا تتردد فاذا نلنا النجاح البسنا النجاح ثياب العادلين .. اعطني ساعة من نهار واركب ما لا ترضى من السوء والعار ويعدك ستدعى فيما ياتي من الدهر اتقى اتقياء البشر .. » (فلوكنتيسوفو كل)

ومن دين هذه المدينة الجديدة ان تضلّع الناس بكل خديعة حتى يصدقوا انك عادل تقي .. والمعدل الاكمل هو اظلم الناس الذي يقنع الناس انه اعدلهم والعالم الاكمل هو اجمل الناس الذي يقنعهم انه اظلمهم .. وذهبوا في كل مذهب يرمون البرى بصفات المجرمين - انهموا انتيجونه في آداب سوفوكل . بالكفر وهي اتقى القديسين ليحطوا قتلها ، وانهموا اعدل المادلين سقراط بالكفر وبافساد الشباب ، وانهموا اوفى الاحرار ديموستين بالخيانة واصبحت اللغة بغير عدل سلاحا يتارا يقتلون به المؤمنين ويمجدون به الظالمين الجائرين ، وكان القرن الخامس والرابع ق.م. مشهدا رهيبا للاعتداء على اولياء الله الصالحين الاقياء الذين كانوا اجمل زينة ابطل الانسانية .

الف الانسان في مدينة الابطال ان يصوغ من الفكرة تمثالا ، واذا ابصرت تمثالا لبطل فليس بشيء حتى يعبر عن فكرة صاحبه ، وما نعلم من امر انتيجونه في شعر سوفوكل في القرن الخامس ق . م . الا انها تمثال ناطق صور فيه سوفوكل فتاة تحمل جلال فكرة العدل والتقوى ولو صيغ للفكرة في مثلها الاعلى تمثال لاستهوت افئدة الناس اجمعين وانتيجونه كمدارى الاكروبول التي صاغتها

البطولة والعدل فنهض ديموستين يعرض حياته الخاصة والعامة كما كان يمرضها في دين المصريين اولياء الله والعدل وكما الف الابطال في الالعاب الالومبية ان يعرضوا في اناشيد النصر حياتهم المادلة وكما توجت بطولة بطلها بتاج الخالدين ، فتاج ديموستين في خطبة التاج هو خاتمة دين اطفئت مصابجه وغابت معاه وبنييت المابد بعقد الظالين وتليت حياة الطفافة الجابرة على شباب الامم في معاهد العلم ليمجدوا ذكر اعداء الله والانسانية ولا يكادون يذكرون المحسنين الذين قدموا فكرهم واعمالهم والاولاهم ودينهم لسعادة الانسان .. ومن يمنح النظر يجد نسبا قريبا بين فكرة ديموستين في نهاية القرن الرابع ق.م. وفكرة سقراط في نهاية القرن الخامس ق.م. وفكرة سوفوكل من قبلهما في تصوير بطولة انتيجونه .

قد غلب اذن دين جديد على ضمائر الانسان ووقع ما كان يتنبا به بروميتوس من زوال ملك زيوس : سيؤول ملك زيوس يوم يولد اله اقوى منه في ضمير الاحياء ، وقد نسال افلاطون ونسال سقراط ونسال اريستوفان وسوفوكل ويوريبيد وآباء الاداب اليونانية في القرن الخامس ق.م. ما هذا الدين الجديد الذي جاء حربا على معابد العدل والخير وكان اشد فتكا بالمدينة من جيوش الفرس وبربرية الاسويين .. كلهم مجمعون على ان الذي ذهب بمدينة الابطال والعدل هو اله المال والتسلط وحكومة الطغيان ومن قبلهم اتزل المصريون لعنتهم على من علمهم الترف وحب المال وصوروا القضاة صورة قضاة بشر ايدي حتى لا يمدوا ايديهم لرشوة وشيخهم اعمى حتى لا يعاين كبرا ويحتقر صغيرا .. ودين المال لا يعرف العدل والتيرية استحل كل ظلم في سبيل الملك والحكم - وفي الحرب اليدبة رد الابطال جحافل الفرس ولكنهم لم يردوا سحرذهب الفرس الذي سحر ابناءهم وسحر القبة التي غلبت على ابناءهم وقد صحا العادلون يبقظ الكلب الساهر على دين

للخلود انامل فيدياس وتلاميذه وهي ذروة العقل اليوناني .

ومن صفات الإبطال أنهم يحبون الله ويحبون الإنسانية وأنهم ساهرون أبداً على الإبقاء على ما أودعهم آباؤهم وأورثوا الإنسانية من خير . فينهضون في ليل الأحداث كالكلب الأمين لتدفع انتيجونه عن ما بقي من ميراث العدل والتقوى والشرف ويسهر ديموستين كي يدافع عن الحرية والعلم والعدل والشرف ولم تأفل شمس مدينة الإبطال حتى تخطف تماثيل لهؤلاء في معابد العدل والخير وتماثيل في ضمار الأحرار في كل صوب .

ومن صفاتهم أنهم كانوا فوق مغريات المال وأقوى من هول الموت .. فإذا غالهم الظلم والجور قالت الإنسانية جميعاً ما قال ملا طيبة في نجواهم عن انتيجونه وصور ذلك سوفوكل في جواب يميون لأبيه كريون الذي قتل انتيجونه :

يميون : يا باني أن الآلهة حين خلقت العقل والفكرة للإنسان آتته أمر الكنوز وأنا لا أستطيع ولا أتجاسر على أن أقول أنك لم تهتد إلى الحق والصواب ولكن غيرك من الناس قادرين على أن باتوا بالصواب واني خلقت لأسمع كل ما يقال عنك وما يدبر لك المدبرون من شيء وما بلوكم اللاتمنون في شيء ، أن الشعب يخاف رهبة وجهك أن قال ما لا تحب سماعه ولكني أنا اسمعهم في نجواهم - أن المدينة ترى لانتيجونه ، أنها من دون نساء العالمين لاستحق أن تلقى شر العقاب في سبيل امجد عمل يؤديه الإنسان ، أن أخاها قتل وألقى في العراء نهباً للكلاب الجائعة والطير المفترس : الا تستحق (١) لتأج من ذهب ؟؟ أنهم يسرون ذلك في نجواهم ،

وانتيجونه لم تهجج في منامها ليلة أعلن كريون تحريم دفن أخيها وهبت توفظ اختها

التي لم تؤت البطولة مثلها فالبطولة هبة يخص الله بها من يشاء لا تشتري ولا تكسب يعلم ولا تجربة .. وقد قرأتاً في شعر يوريديس أن زهور التاج التي يجنيها من مشارف المرمى حرمت على من يتفونها بتعليم المدارس وحرمت على الآثمين وما يقطفها الا من وهبته الطبيعة مواهبها .. وقد رأينا سقراط وهو يجادل السوفسطائيين الذين يدعون أنهم يعلمون كل شيء ، يقتحمهم بسؤال قد لا يعرفون جوابه وهو أنهم لا يستطيعون أن يعلموا الفضيلة والبطولة فابناء بريكليس لا ذكر لهم في الفضل رغم مجد أبيهم وتوسيديد يخص تيبستو كل هبة من الطبيعة جعلته الإلهي الذي يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمع .. وسقراط لا يدعي العلم وهو عند الله أعلم زمانه وديموستين لا يرد نبوغه في صدق الرأي الى شيء أكثر من هبة طبيعية من عند الله ..

فإذا شهبنا العلم بالبحرث والزراعة فكلوب الإبطال التي يعرثونها بالعلم والفكر هي الأرض المندسة الجامعة لمر الله ومواهبه وسنرى في حرث المغنية الغريبة بفكر يوناني أن التوارث في البلو لا يعني عن التوارث في هبة الإبطال ودين الإبطال ، وإذا قلنا أرباب الفكر في العقل الحديث بلرباب الفكر في المغنية القديمة رأينا الفرق بين معدن الذهب ومعدن أخرى أقل صفاء ونبلًا وخصصنا إبطال الأثريسي وإبطال الفكر الأولين بأنهم كانوا قديسين وأنهم كانوا أبناء الإنسانية الذين لا يرقى إلى شرفهم أحد وأنهم كانوا جنس الذهب الذي وصفه هيزيود منذ وارت الأرض هؤلاء الإبطال ، صاروا أبطالاً سعداء بعشيرة الإله العلي القدير وأرواحهم حارسة تحرس البشر الغالي .. وإذا نحن غرسنا في أجيالنا افكار الأولين فلا نرجو أن تأتي بمثل بطولتهم ولهيبهم ودينهم لأن بطولتهم كانت ديناً طوته الأيام في منحس

**المدنية وهذا المنحدر ليس تاريخيا حديثا ولكنه
منحدر هال العادلين من ابطال العدل في القرن
الخامس ق م .**

لا بد للبطولة من هبة قبل العلم والتعليم . .

« اني لا اخص نفسي بمقدرة فريدة فيما
صدقت فيه فراستي فيما اوليتكم من نصيح
يا رجال اثينا وليست امرف لهذا الفضل سببا
الا امرين اقولهما لكم : السبب الاول يا رجال
اثينا موهبة يخص الله بها من يشاء وهي
عندى فوق العلم والخبرة ، والامر الثاني انني
لا اقضي في اموركم ولا احكم على السياسة
بدافع المال ولا يستطيع احد ان يثبت ان للمال
ادنى سلطان عليّ وكان صوابا ما املت هلي
الاحداث فالثمة . . ضع المال في كفة والرأي
في كفة فستشيل كفة الرأي ويجلب المال الرأي
والمقل اليه ولا يستطيع من ينصح ابتغاء
مال ان ينصح بشيء حق او سليم لانه لا
يستطيع ان يزن شيئا . . لا ديومستين خطبة
السلم ١٢٠١) »

ونحن نذهب الى ان من اراد الفكر بالمال
وللمال قلن باخذ منه الا مايزف بانمو العلم
واله المال في كفة وزيوس ومدنية العدل والخير
في كفة . . كانت مأساة البشرية لان اله المال
كان ساحرا ينفذ ضمائر البشر وهي خالية
من تهذيب المؤمنين والبطولة ودين البطولة في
كفة وذهب الفرس وذهب المقدونيين في كفة
. . قد صرفت الانسانية عن دين والصل
وجعلت العلم تجارة وجرى العلماء والخطباء
والفلاسفة حيث يجدون المال واقفرت معابد
العدل حتى تصلي الانسانية لرب المال وتتقاتل
الانسانية في سبيل المال ويخلل المال جسر
السعداء مع اولياء الله واتقيائه .

كان في ملك كرونوس (أب زيوس) قانون
ما زال ساريا عند الله ، وقد سن هذا القانون
ليسرى على البشر فكل انسان قضى حياته تقيا
عادلا اذا قضى اجله دخل جسر السعداء

وعاش فيها سعيدا مبرحاً من الآلام والسوء ،
اما من ظلم وكفر فيلقى في سجن يكفر فيه من
شروءه .

وفي حكم كرونوس وفي حكم زيوس كان القضاء
الذين يحكمون على حياة من مات ، احياء
يحكمون على احياء ، كانوا يحكمون على الانسان
يوم يبلغ اجله وكانت احكامهم غير صادقة
فشكى حراس الجنة من اختلاط الاشرار
بالاخيار وقد جاء الجنة رجال لا يستحقون
ان يكونوا في الجنة ، جاءوا باجسام جميلة
وجاءوا باهلهم واموالهم وشهد لهم شهود
كثيرون انهم عاشوا اقباء عادلين طيبين
(افلاطون فيدون) .

**ولا تقرب شمس المدنية الاولى مدنية الابطال
والعدل حتى تملو صولة المال والبأس في ضمير
الاحياء ، ويمجد الاسكندر المقدوني بما مجد
به ابطال العدل والخير في طيبة مصر فاختلط
الامر على الانسانية التي وولت عقل الاغريق :**

العدل والبطولة في كفة والبأس والمال في كفة
واقامت هذه الموازين لضمير الانسان في آخر
المدنية الاغريقية حتى سال الدم على جوانب
هذا الميزان الرهيب ولم يعبر الاغريق هذه
التجربة المحزنة حتى اسمع ابطالهم وهم في
قبضة الموت دين الابطال العادلين . . لم يصب
الانسانية بلاد اكبر من حب الذهب ، انه هادم
المدائن وطلود الناس من بيوتهم ، انه هو الذي
علم الانسان السميتات وطمس على العقول
الصالحة وزج بها الى السار والسوء ، وعلم
الانسان التقيجود والكفر في كل زمان . .
(سوفوكل انتيجونه ٢٩٥ وما بعده) .

**والابطال الذين نتوج هم صرعى الطفيلان
والمال ولكنهم اقدار الناس على تصوير نفوس
العادلين قبل ان تفسى الضمائر والابصار
بمساقط المدنية الحديثة ، دين انتيجونه هو**

شئت لا عليك من الجرم الثقيل شيء
(ثم يخاطب أنتيجونه) تكلمي ولا تطيلي
ألم تكلمي أننا نادينا بتحريم ما فعلت؟

أنتيجونه : نعم كيف إجهله وقد كان علانية ؟

كريون : لم تخترقين رغم ذلك قوانين المدينة ؟

أنتيجونه : ان قوانين المدينة لم يأمرني بطاعتها
زيوس ولم تأمرني بها وربة العدالة التي
تعيش بين آلهة الدنيا والآخرة ان الله
والعدالة لم يشرعا للناس مثل قانونك
ولا اعتقد ان قوانينك ذات باس وقوة
حتى اعصى وأنا هالكة لا محالة ،
قوانين الله التي لم تكتب والتسى
لا تضطير مثقال ذرة والتي لم تشرع
اليوم ولا بالاسى وهى اؤلية ابدية
ولا يعلم احد متى ظهرت ، اني لا اكفر
بهذه القوانين خوفا من قوانين احد
من البشر فالتى عقابي عند الآلهة ،
انى اعلم اننى لا محالة ميتة ، كيف
اخر من الموت حتى ولو لم تأمر بما
أمرت به ولو مت قبل اجلى كان ذلك
كسبا لي ، فمن كان مثلى يعيش فيما
لا يحصى من الآلام .. كيف لا يكون
الموت ربحا له ؟ وما ضرني ان التى
ما قدرت علي من عقاب لكننى لو
تركت ابن امي ميتا في المراء فذلك
هو هذابى (سوفوكل أنتيجونه) .

كانت أنتيجونه نبوة بما يلقى ابطال الاحرار
في صراع الجيوس وما لبث داه السوفسطائية
والبحى ان فكت بقدس من اولياء الله والعدل
وحملوا سقراط آلامهم فهم يعلمون كل شيء
فيما يقولون الا المثل وهو لا يعلم شيئا الا
العدل وعدله وتقواه صوت بأمره بالعدل
والاحسان وينها عما يكره الله والعدل ، وكلفه
هذا الصوت ان ينسى نفسه ويذكر وطنه ويمضى
في الاسواق بين المخدمين انهم جاهلون
واستغفلت السوفسطائية فاصبحت لا تؤمن
بما آمن به اولياء الله والعدل وحصرت هم

خلاصة دين الابطال العادلين وهى مؤمنة ان
ماتت انها ملائكية من خلا من قومها وانها
سترقد في الآخرة حبسبة بجوار حبيب ولا
يشئ اواردها شيء عن اداء الواجب .

الحارس : انى اقصى عليك ما كان حينما عدنا
مثقلين بما توعدتنا به ، نفضنا من
الجثة ما كان عليها من تراب وهرينا
الجثة التى بدلت تنقيح ووقفنا فوق
صخرة عالية بعيدا عن مهب الريح
لنتقى نتن الجثة وايقت كل حارس
صاحبه بالسنة حديد خشية ان
يصيبه امياء او كلل ومكثنا على ذلك
حتى الظهيرة وكان الحر لافحا فلم
يفجانا الا اعصار يهب من الارض فملا
أقطار الوادى ترابا وهز الاشجار هزا
عنيفا واطلمت امينتنا وصبرنا على هذا
البلاء الذى نزل علينا من السماء زمانا
طويلا فلما انتقش البلاء ابصرنا هذه
الفتاة وهى تولول وتصيح صيحات
حاددة كام الطير ان رات عشها فارغا
من فراخها الصغار ، وكذلك فعلت
هذه الفتاة حينما ابصرت جثة اخيها
عارية ارسلت صيحات عالية ودمعت
بالثرو على من فعل بأخيها هذه
اللعلة وحملت في ايديها ترابا جافا
في اناء من صلب مطروق وصبت منه
ثلاثا وتوجت بهذا الوضوء جثته فلما
ابصرنا هامشينا اليها وامسكتنا بهافلم
تفرغ شيئا وسألنا عما فعلت من قبل
وعما فعلت الان قم تذكر شيئا .

كريون : (يخاطب أنتيجونه) انت اينها التى
تطرق برأسها تكلمى .. انتكرين ام
تتفرفين بانك انت التى فعلت هذه
الجريمة ؟

أنتيجونه : انى اعترف انى فعلتها ولست انكر
شيئا ..

كريون : (يخاطب الحارس) اذهب انت ان

المقتضية من رمز لربة العدل بربة فوق رأسها ريشة تقيم الميزان وتزن حبة قلب الإنسان بالحق والعدل ، وربة العدل لا تموت أبداً في عمر الإنسانية مهما تردى الإنسان في مجاهل الجحش و لردية ، ثم لا نرى الإنسانية في تاريخها القديم والبعيد تأمى على موت ظالم أو آلم وإنما تأمى على قوم حملوا دين العدل ورفضوا فضيلة العدل الى البطولة أى :لى مثل العدل الأعلى ، نحن لا تأمى على موت أنتيجونه في تراجيدية سوفوكل ولا على موت سقراط في آخر أيام سوفوكل وموت ديموستين في آخر أيام الديموقراطية الاينية لانه بنين قوم تهتما .. وإنما تذهب أنفسنا عليهم خسرات لانهم بلغوا بسلام ودين وبيئة أشرف غايات الإنسان .. أي الرجلين أولى بأن يتقدم ذكره في مقدمة من حياة التراجيدية .لاينية في القرن الخامس ق . م سقراط أم سوفوكل ؟ منطق المعلمين والمدارس التي كنا فيها لا يكاد يجمع بين الرجلين الا عرضا لأن التراجيدية تيارو من عمل الشعراء والممثلين ، وسقراط فيلسوف .. ومنطق المعلمين والمدارس يكره الجمع بين رجلين مهما أم وأحدة ودينهما دين واحد وأملهما أمل واحد وموت سقراط الذي حكم الاينيون باعدامه وهم يعبثون كأنهم شهود يشهدون كوميديا من تيارو شعبي ، كان موت أقدر قيم العدل في حياة اثينا .. لا قدر لكل مدنية ان مات في ضمانها دين العدل ولا جمالاً لأية حياة ان استهانته بدين العدل جهلا أو عن امرار وبيئة ، والتراجيدية هي تصوير كوارث الملوك والأمم الذين انحرفوا عن دين العدل عن قصد أو جهل وأصبحت حياة اثينا في أيام سقراط وسوفوكل ملكاً بشرياً أوله على التقوى والعدل فأثبت الخالدين في الشعر والفلسفة والغنون وطراراً قريداً من عظماء الرجال ، ثم أغرهم نشوة السدان والحكم ومات دين العدل في ضمانهم غيرهم باسمهم فوقعت أصليق تراجيدية شهدهما الاينيون وهي موت اثينا ربة الأقدام والحكمة وتهدم ملك بناء المؤمنون بالعدل ومهما أوترنا من بيئة فلسنا على شيء بجانب ما كتب أولياء

المعلمين والتعلمين في أن ينالوا بكل سبيل ثراء المال وسلطان الملك وما عليهم إلا أن يتظاهروا بالعدل والتقوى فالظاهر أقوى من الحقيقة والإنسان ميزان كل شيء فان خلعت الإنسان ملكته واستحسب هؤلاء النجاح والوصولية بكل سبيل حتى ضيعوا ملك اثينا في آخر حرب البيلوبونيز ثم اتهموا سقراط التقى وأعدل الناس وبلبل الحكمة وبطل الصدق والحقيقة وأعلم أهل زمانه بأنه كان مجرماً مفسداً معلماً أسد تلاميذه وجرا اثينا الى الهاوية وسقراط صامت لم يتكلم فلما قتلوه كما قتل كليون أنتيجونه ودعوا تقواها كفراً هاجر افلاطون وأوى الى معابد مصر ، أى الى معابد إبطال العدل ، وشغل قلبه بما يصر في صور البطولة من حساب الانتقام العادليين الذين يلبسون تاج الخالدين ويأبون بعدلهم الى جزر السعداء فكتب دفاعاً عن سقراط كأنما يعرضه على قضاء الله ومحكمة اللمة ربة العدالة ، وهذا الدفاع آية من آيات البطولة وكثر من كنوز معابد الأولين .

(٧)

موت سقراط

أي شاعر يشر كامن الأسى على قتل قديس بريء كان نسكه وصلاته وحياته ومماته لله ولوطنه والعدل .. ولا سبيل لبيان آية لعدل القدسة في اثينا إلا في موسيقى تراجيدية سوفوكل وفي موت سقراط في آخر أيام سوفوكل .. فموت سقراط ان نفلت إصارتنا الى أعماق التراجيدية الاينية في القرن الخامس ق . م . هو موت لأشرف القيم التي بنيت عليها سعادة الإنسانية في تاريخها القديم .

قد بينا فيما ذكرنا من دين العدل أن لمهمات البيان الموسيقي ارتفعت بالتدوين الذين قبلوا العدل الى ربة العدل الجالسة على عرش « زيوس » وهذاهم فنهم الى تصوير صورة العدل في شيء غير ما ورنث الكتابة

اصلاحه ثم يندول يقوم في امره فان جاء بما يصلح المدينة عفوا عنه وان جاء بما يفسدها ويفسد قوانينها شدوا الجبل على عنقه وشقوقه .. ويهدم السياسيون والحاكمون بساء قومهم بايديهم كلها سخرؤا قوانين امتهم لاهوالهم - وقبل ان يهوى صرح الديموقراطية الاثينية ويقتل قضاة سقراط رب العدل والتقوى شكى الاثينيون من خطر ماحق يهدد الصرح الذي بناه لهم اباؤهم العادلون فقد سلوا على الفاضلين سيف النفس (الاورستراسيزم) وكتب اشيل بمجد عدل محكمة الايوباج وبنى على عدلها شرف اثينا وسعادتها ، وكتب سوفكل تراجيدية نفى فيلوكتيت ، وكتب اريستوفان نقد الديماجوجية والفسطة وغش السياسيين وفساد طوية الخطباء اى المحامين الذين يتهمون الاحرار ويتجسسون عليهم واذا نجحوا في قتلهم باسم الديموقراطية والقانون ورثوا اموالهم .. وكتب اريستوفان في كوميديته الدبابير نقد نظام القضاء في اثينا في القرن الخامس ق.م وكما يكتب مترجم الدبابير في ترجمة اريستوفان الفرنسية : « كوميدي الدبابير هي نقد صارم لاهم نظام في نظم الديموقراطية الاثينية اى نظام القضاء الذى افسده زملاء العامة واستغلوه في قضاء مآربهم وخاصة كليون الذى افسد اخلاق الاثينيين وافسد عقولهم »

ونلخص نظام القضاء في اثينا قبل ان نعرض صوره في نقد اريستوفان وسنرى ان المال وحاجته قد افسد ضمائر القضاء في دبابير اريستوفان ..

لم يكن القضاء في اثينا موظفين ، وكل اثيني بلغ عمره الثلاثين عاما وهو مستمتع بحقوقه السياسية قد تقع عليه القرعة فيكون قاضيا في قضية واحدة . قبل كل قضية يتنزع على قضائها ، ويختلف عدد القضاة حسب أهمية القضية فيختارون لبعض القضايا « ٢٠١ » ، « ١٠٠١ » ، « ١٠٠١ » .

وكان هؤلاء القضاة في اول حياة الديموقراطية

العدل في تصوير ما حل بامتهم من بلاء .. وما يعلم اسرار ضمير العدل والحرية الا القديسون اولياء الحرية والعدل ، وما شربنا ان نسمع تفصيل ما كتب افلاطون عن سقراط وهو بين ايدي قومه الحافلين في قضاء لامة يتهمنه زورا انه كفر بالالهة المدينة وجاء قرعه بالهة غريبة ، وانه افسد شبيب امته وهو اذن سبب ما حل بهم من ضياع ملكهم وما نزل بهم من دمار في زميمة صقلية وما وقع فيهم من فتنة وحرب أهلية ، وصدق قضائه الكثيرون افتراء تلاميذ السفسطة وقتلوا بلبل الحكمة واشرف العادلين وقديس العدل والتقوى ضحى وهم يلعبون وسقراط صامت لم يتكلم حتى عرضه بيان تلاميذه افلاطون في صورة ادنى الى دفاع القديسين عن حياة العادلين امام ربة العدل التي بيدها مفاتيح الخلود .. والتي تتوج العادلين بتاج النصر والخلود ..

للمساءرة سقراط

نظام القضاء اصدق موازين الحرية والعدل مما وقد ترى امة ناعمة البال مزدهرة البيع والتجارة وحديث الاحداث ثم لا يفتنى عنها الجاه والثراء مثقال ذرة ان اختل العدل في خدمة القضاء مثقال ذرة .. والذين قدسوا الحرية قدسوا قوانين امتهم فعلقوها او تقشوها على معابد الهتهم ، والمساواة والحرية والديمقراطية والعدل اسماء كاذبة اذا طمع شريف في حيفك او بنس ضعيف من عدلك ، وذهب الاحرار كل مذهب في الإبقاء على قوانينهم المقدسة فكل تصدع في العدل تصدع في صرح السعادة والحرية ، ويحدث ديموستين من صولون حين سألوه عن عقاب مزيفي القوانين .. قال لهم صولون ان مزيفي القوانين اشد خطرا ممن يزيفون المال المصكوك .. فقد استطاعت امة ان تعيش رغم عطشها المزيفة وما تستطيع امة ان تعيش ابدا اذا زيفت قوانينها ، وشرب ديموستين لامة تكلف من يريد ان يصلح قوانينها رهقا ، كانت تضع في عنقه جبلا ثم تلعه يبسط لاهل المدينة

اسمع اسم « التراتية » منذ خمسين عاماً وهي الآن أهم من الفسيخ واسمها في الاجوار على كل لسان . (١) (الدباير ٨٧ } وما بعده) شر الكوارث ما اقبل عليه الانسان مختلرا بكل جوارحه وهو لا يدري انه مقبل على حتفه، لذة الخمر قاذلة ومن اخلت الخمر براسه لا يرجع الى الحق .. وفي كل الشهوات خمر .. وشهوة الحكم خمر جامحة وقد اخلت خمر الحكم بعامة الاثنيين فلم يستمعوا لما يتلى عليهم من آيات الحكمة وتمردوا في كارتتهم رغم نصيحة سوفوكل وفلسفة سقراط وسخرية اريستوفان وما حملت عقولهم من بينات الحكمة وما اصاب مدينة العلم والحكمة قد يصيب الانسانية كافة الا من عصم الله فاستمسك بالعدل والتقوى وصيحت سوفوكل وسقراط في غمرات سكرات قومهم باتت بلافا للعالمين ونصحا للاحرار في كل عهد .. لله ما علموا وما عملوا، وقد صور اريستوفان خمر الزهو التي اخلت برؤوس عامة الاثنيين اذا قضاوا .

فيولكليون : اني سأبين لكم ان سلطتنا ليست ادنى من سلطة اى ملك وابسط الامر من مطلقه .. هل ترون في الدنيا نعيما وسعادة فوق نعيم القضاء وسعادته ؟ هل من حياة امتع او اكبر هيبة من حياة القضاء وخاصة في شيخوختهم فقبل ان اذهب من مضجعي ينتظرنى عند حنية المحكمة رجال كبار ذوو قامة عالية فاذا اقتربت وضعوا في يدي يدهم الناعمة التي سرقتم اموال الدولة ويستجرون بي خاشعين بصوت مسكين ويقولون : « انى اضرع اليك واستجرك يا ابنتى فربما تكون انت مثلى قد سرفت يوما ما شيئا في حكم توليته او في الجيش في ما اشترت لجوونة رفاقك .. وهذا الرجل لا يكاد يشعر بحياتي لو لم يرد ان ابوته قبل كل شيء »

بدليكليون : هذا شأن المستجبرين وحافظها لك .

يقضون بغير اجر حتى جعل لهم بريكليس اجرا - فياخذ القاضى « اويولا واحدا » عن كل جلسة ودفع اجر للقضاة (كما يقول مترجم الدباير) احدث اثرين اولهما ان الاغنياء والموسرين انصرفوا عن هذا القضاء الذى لا يكافئهم بهذا الاجر الزهيد واما الفقراء والفارغون والكسالى فقد اقبلوا عليه وجعلوه موردا لرزقهم - قبل كل جلسة كانوا يتواحمون على ابواب المحاكم - وقفت المحاكم في قبضة زعماء العوام الديماجوج منذ رفع كليون اجر الجلسة من « اويول » واحد الى اويولات ثلاثة واصبح الفقراء سادة المدينة .

ولم يكن العدل هم القضاء بل كان همهم الاجر وظاهر السلطان والحكم ..

وحرس الديماجوج على ان يبسطوا يدهم على القضاء ليخلصوا من خصوصهم السياسيين وليأكلوا مال من شاعوا من الاثنيين وكان ذلك عهد التجسس والوشاية ..

انبثت ضرورة المرافقة عامة الاثنيين واشترى زعماء العامة ضمانهم بدهامهم ممدودة وهجر العدل الامن ضمانا القديسين الاخيار ، وصارت ديوقراطية سولون وكليستين في حياة القديسين الاخيار ديوقراطية ظاهرا وهى في صيحة الاخيار حكومة الجور والبغى وهى ابغى ما ماكره العادلون من الجور واشقى ما تردى فيه امة من ظلم ، وانبثت التراتية في قلب حكومة الاثنيين وهامتهم لا يشعرون .. كما يقول الكوروس في كوميدية الدباير :

الكوروس : ليس ظاهرا كالشمس حتى للفقراء ان حكومة الطغيان (تراتية) تثبت فينا من حيث لا نشعر - ان كنت انت يا شر الارشاد تنزع منا القوانين التي سنتها المدينة لا لسبب ولا عذر مقبول سوى ان تحكمنا وحده .

بدليكليون : كل شي عندكم حكومة طغيان ومؤامرة في الصغيرة والكبيرة من امورك لم

رادع من شيء ، قد استبدوا مرة واحدة وسلطوا قوانين المدينة على أعدائهم وادعوا الاخلاص للمدينة والشعب وفرضوا لقضاة الشعب اجرا زهيدا « ثلاثة ابرل » كلما اسعد العاطلين الحظ فوقعت عليهم قرعة القضاء وهم بذلك فقراء معلقة آمالهم بحكام الشعب الذين اشترى ضمائرهم وسخروهم كالدبابير على خصومهم وشهروهم كالسيف في قضاء مآربهم :

« ان زعماء الشعب حريصون على فترك (اى قاضى الشعب) وسأين لك ما يريدون من وءاء ذلك - يريدون ان تعرف من يروضك حتى اذا صفر لك مروضك لتتقضى على عدو من اعدائه انقضضت عليه وافترسته كالوحش وما كان ايسر الامر لو جعلوا الناس جميعا اغنياء لو انهم ارادوا (١) لكنهم تترأوا على الشعب وخرجوا هم والمتعلمون بنصيب الأسد واذا تعطشت نفوس الحاكمين فى حكومة ديموقراطية الى الاستبداد بالحكم فمصر المدينة ان تفشأها الرذيلة والظلم والدمار ..

ملك العامة ملكا عظيما فى حياة سقراط فلما بنوا انقضوا كالدبابير المصروعة يقتلون العاديين الإبرياء ، وعلم السفطة الحديث الذى اهل حراما وحرم حلالا وجعل الخطابة سلاحا يتاروا اشرف غاياته ان يغلب حججه فى القضاء وفى الجامع السياسية ظالما او مظلوما - ويحججهم الظالة قتلوا سقراط وقضى الامر ومات سقراط - لكن سقراط سيقف بعد موته امام ميزان ربة العدل والانسانية وتون قلبه الطاهر البريء بريشة العدل فلذا من قتله قومه من عامة الاثينيين وتلاميذ السوفسطائيين يدخل فى ضمير الانسانية فى جنة القديسين والشهداء فينخلد فيها ابدا ..

وما كتبه اقلاطون من سقراط بعد موت سقراط كان نقطة ضمير الانصاف والحق فى

فيلوكليون ؛ حتى ادخل المحكمة فاسمع رجاء المستجيبين ويذهب عنى غضب ، ولا اقل شيئا مما وعدت به واسمع اصوات المتهمين يسألون البراءة ثم تمالوا فانظروا باى تعلق يتوصل المتقاضون الى القاضى، منهم من يبكى فقره ويبالغ فيه ومنهم من يروى لنا قصصا من نوادر « ايزوب » ومنهم من يمزح حتى اضحك ويصرف عنى همى فان لم تنفع هذه الوسائل توسل اليها باطغاله الصفار وجاء فى يده بالبين والبنات ثم استمع انا اليهم وهم مطرقون يتكلمون باصوات كثفاء الفم ثم يتحدث ابوهم نيابة عنهم ويسألنى وهو يرتعد ان ابرئه من الحساب على سوء ادارته ويقول لى اذا كنت تصب صوت الخروف فارحم صوت ولدى وان كنت تصب صوت التعاج .. اثر على بصوت بنيه ونحن نبسط له وجهنا بعض البسط ليست سلطة القاضى سلطة كبيرة كهذا بكل غنى ؟

وامتع ما اجد فى كل ذلك قد نسيته اذا رحت الى دارى ومعى اجر قضائى ، كل اهل الدار يرحبون بى حبا فى قطعة الفضة (التريبول) وينتئ تحمينى وتمطر قدامى وتطلق على وتقبلنى وتنادينى « بابا » وتصيد بلسانها قطعة التريبول من فمى وامراتى تدلننى وتقدم لى فطيرة ثم تجلس بجانبى وتزعم على وتقول كل هذه اللقمة، ترقش هذه اللقمة . (١) الدبابير ٦٠هـ وما بعده

هؤلاء القضاة سعداء بظواهر السلطان لان القضاء فى اينا كان قضاء شعبيا ، وكان الشعب سلاحا فى ايدى زعماء العامة الصامدة « الديماجوج » ولم يكن لزعماء العامة

امك وخلفك في ظل قوانين المدينة ،
تعال فقل هل تميم على قوانين الزواج
شيئا) فساقول (لا لا أعيب عليها
شيئا) (أم هل تشكو شيئا من
القوانين الخاصة بتربية المولود وتعليمه
والتي تعلمت أنت بفضلها والتي
فرضت على أهلك أن يعلمك الموسيقى
ورياضة الإبدان هل تجدونها عيباً ؟)
فساقول (كلا إنها قوانين صالحة)
فقلت (وهو كذلك فمن حيث أنك
ولدت ونشأت وتعلمت فهل تدعى
الآن أنك لست ابننسا وعبدنا
وأنك منا أنت وآبائك وأجدادك وإذا
كان هذا هو شأنك فهل تعتقد أن لك
علينا مثل ما لنا عليك من حق لك
أن ترد علينا ما نقضي فيك - فإن
كنت لا تملك مثل ما لأهلك عليك من
حق ولا مثل ما لسيبك أن كنت علينا
حتى ترد علينا ما يصيبك منهما
فاذا شتمناك شتمتهما وإذا ضربناك
ضربتهما أو شيئا من هذا القبيل -
هل يحل لك أن استطعت أن تهدمنا
نحن القوانين ونحن وطنك إذا نحن
وأنا من الحق أن نقتلك ، ثم تقول
إذا فعلت ذلك ، أن ذلك هو الحق
أنت يا من تعيش للفضيلة بحق
وأنت أبها الحكيم هل يخفى على
حكمتك أن الوطن أحق بالبر والتقدير
من أهلك وأمك وأسلاك أجمعين
وهو ذو منزلة عالية عند الآلهة وعند
الحكماء وأن للوطن علينا حقاً أن
نقدسه وأن نطيعه ونفعل ما يأمرنا به
ونحتمل ما يأمرنا به ، أن نحتمل
بنفس راضية ولا نرد له أمراً
أن ضربنا أو قيدنا أو ساقنا إلى
الحرب لنجرح أو نموت فنفضل ما
يأمرنا به لأن ذلك مثل وحرام علينا
أن نفر من صفونا أو ننحاز منها أو
نتخطى عنها ولا بد أن نطيع ما يأمرنا
به الوطن في القتال أو في المحاكم أو

أثر الحياة الحرة العادلة التي لم ترتكب مثقال
ذرة من السوء وهل ترى في ماضي البشرية
مأساة أكثر من أن يقتل البقية الباقية البرينة
من أولياء الله والمثل في معبد العدل المهجور
- وقد قرأت الإنسانية من بعد سقراط إيمان
سقراط بخلود أرواح المادلين وقرأت هذه
الآية الفريدة من تقديس الوطن وقوانينه . .
نصح كريتون سقراط أن يهرب من السجن
ويتقى الموت فاجابه سقراط :

سقراط : انظر ما أقوله لك . . هب اتنا همننا
بالهرب أو سمه كما تشاء فاذا بقوانين
المدينة نعرض سبلنا وكلنا الصالح
العام ونقول لنا (قل لي يا سقراط
ماذا تريد أن تفعل لست ترى أنك
أنا تقدم فيما تستطيع على هدم
القوانين والوطن جميعاً لست تعلم
أنه لا بقاء للمدينة إذا هان العدل فيها
وميت أفرادها بأحكام القضاة
فسلبوها سلطانها وهلموها ؟) فماذا
تجيب يا كريتون على هذا السؤال أو
على ما يشبه هذا السؤال - قد
لا يعدم الإنسان حجة وخاصة من كان
خطيباً في الدفاع عن القانون الذي
دسنا عليه والذي يأمر باحترام قضاء
القضاة - أنجيب القانون اتنا هربنا
لأن المدينة ظلمتنا وأخطأت في حكمها
علينا ؟ أنرد على القوانين بهذا
الجواب ؟

كريتون : نجيب بذلك الجواب يا سقراط . .

سقراط : ثم ماذا تقول إن قالت لنا القوانين
(أتمتعهد لنا ياسقراط باحترام
ما تحكم المدينة به ؟) فإن استغربنا
لما تقول فقد تقول (لا تعجب لما
نقول ياسقراط ولكن أجبنا فقد
دأبت على السؤال والجواب ماذا
تشكو منا ومن وطنك حتى بهمهمنا
الأتدين لنا بحيالك فقد تزوج أبوك

قوانين الهية خالدة - وأولياء العدل في دين العدل علموا كثيرا من قوانين الله الأزلية الراسخة في الصلح التي لا تحيد عواقبها عن الحق مثقال ذرة وهي التي علمت ،إنسان الرياضة والفلك والحساب وكشفت للإنسان أبواب السعادة والخلود وهذبت الإنسان بما يرضى الله والعدل - وهي في أعمال التراجيدية الأليينية ، كل ملك لا يستند على قوانين الله والعدل لا يلبث أن يهدم وكل حياة حادث مثقال ذرة عن تقوى الله والعدل فعاقبتها الشقاء والبوار .. ومن ملك كل شيء ولم يستمسك بقوانين العدل فقد ملك مالا يفي عنه شيئا ، ومن صفات قوانين الآلهة أنها مغفية في أصول الحياة والموت لا تراها إلا ضحايا الإتيقاف المعادلين ومجد الشعراء والموسيقى في دين العدل أنهم بنوا للإنسان نصيبا من سلطان عدل الله وطاب لشعراء التراجيدية الأليينية أن يصرخوا ملك التراجيدية والسلطان المطلق بقوة عدل الله الذي لا يغفل شيئا وقد رأينا كيف لقيت انتيجونه الموت بجنان ثابت لأنها مؤمنة بدين العدل في أساطير أوديب ، وقد نرى كيف لقي سقراط الموت في أثينا بنفس راضية لأنه مؤمن بدين العدل.

وما رفع أدب أولياء العدل إلى شرف الإنسانية إلا أنهم آمنوا بعدل الله الذي لا يرضى للإنسان عار الفحش والرذيلة ، لا يقبل الله الكاذبين الظالمين المخادعين ويحب الله الخيرين الصالحين الطاهرين - ومين العدل ساهرة تبصر ما يخفى ولا تنيب عنها التواب - ومن شر البلايا أن يعيش المعادلون حتى يصارعوا بموتهم وحياتهم غائلة الظلم الذي لا يبصر الاظواهر الامور - ويتخذ ظواهر الاشياء ميزاتا لكل شيء ويكفر بالعدل والبار الآخرة التي لا تشهدا ابصار الجاهلين ولا تصنف بها افئدتهم .. وفي آداب هذا العهد خاصة خلاف بين الحقيقة الأزلية الموصولة بعدل الله وبين الحكم بظواهر الاشياء وصار الخلاف بين

فيما يشاء الوطن او تنقح الوطن أن يغير حكمه بسبيله المشروعة - أما من يعصى أمه وأباه او وطنه فانما يرتكب ظلما حرمه الله (فمأذا ترد على ذلك يا كريتون ؟ هل تقول القوانين حقاً أم لا ؟

كريتون : اني اعتقد انها على حق ..

سقراط : ثم تقول القوانين (تعال يا سقراط اطع القوانين التي ريتك ، لا تجعل ابنائك ولا حيائك ولا أي شأن من شأنك أغلى من العدل حتى اذا لاقيت الله في آخرتك دافعت بالعدل عن حيائك لدى قضاة الآخرة ، فان هربت وعصيت أمرنا فلن تجد في هذه الأرض خيراً ولا شرفاً ولن ترضى العدل والتقوى وتلحق سيرة السوء بكل أهلك ولن تجد في الآخرة ثواب المعادلين واليسوم تبسرح الحياة ان غادرتها مظلوما لم تظلمك القوانين انما ظلمك أناس من البشر فان خرجت هاربا من سجنك ليست عاراً ودفعت السيئة بالسيدة والشر بالشر وخرقت العهد الذي ماهدتنا عليه ، وأذيت أقل الناس استحقاقا لذلك ، تؤذي نفسك وأصدقائك ووطنك وتؤذي نفسك وسينزل بك غضبنا حيا واذا مت لا تتقبلك قوانين الآخرة وهم اخوتنا قبولا سعيدا لانهم يعلمون أنك هممت بهمتنا بما ملكت بميتك فلا تطع كريتون فيما ينصحب به واتبع ما نأمرك به (١) .

(٨)

دفاع سقراط

الدفاع من هذه الحياة بعد الموت كان طرفا من دين العدل - وعدل الله في الآخرة له

وتجر مخزائمه أمة الخيل ، وقبائل
الظفر السريعة طوقها بشرًا كراقتنصها ،
ووحوش البر والبحر قد أوقمها
الإنسان الذكي في حباله المحبوكه
وملك بشباكه ووحوش الجبال وأخضع
عنق الجواد الناعم شعره لطوق الناف
وأخضع رقاب تيران الجبال التي لا
تكل .

وتعلم البيان والفكر الذي يسرى
كالنسيم وأخلاق المدنية وتعلم أن
يتقي نزلات البرد في العراء وهو ذو
حيل واسعة وهو يمضي لغده غير
عالم بشيء منه والموت وحده لم يجد
منه مفرا والأمراض العvisية صرف
دواءها .

وأوتي من العلم والفن ما جاوز الأمل
حتى إذا أخذ برام الحكم في مدينته
تضاربت عليه الضلالة والهدى
واختلطت عنده قوانين الأرض
والعدالة الإلهية والإيمان .. ليس
أهلا لوطنه من لا يرمي من أركان
السوء ومن لا يدخل في مبادئي (أى
عبادة الملئ) ومن لا يؤمن بما أومن به
(١) سوفوكلي أنتيجونه ٣٢٢ وما بعده

فإنباء أئنا الذين غرهم ملكهم وغرهم قوتهم
نبغوا أذن في البر والبحر ، وعلموا كثيرا
مما كان عندهم علما حديثا واستكبروا على
آداب العادلين فأغروا أمتهم ونهض خطباؤهم
فزوجا بسقراط في محاكمة لم يدافع فيها
سقراط عن نفسه ونجحوا في أمده فكتب
أفلاطون بعد موته محاورات سقراط وكتب
دقعا من سقراط للملئ والإنسانية والله رب
المالين أنه دافع أمام محكمة أئنية وهو في
أماقه كخطابة القديسين المصريين الذين
يعرضون حياة الموتى لربة الملئ ومن تطهرت
كل حياته من الآثم وعمل طول حياته عملا
صالحا توج بتاج النصر والبرادة ليدخل جنة

الطائفين في أئنا أيام سقراط وسوفوكلي
وتوسيديد خلافا بين مذهبين من مذاهب
الحياة والمقل ، وانتصار العامة الفالبة الحاكمة
لظواهر الأمور علما الباطل والكذب ، وأحل
البغى والظلم وهدموا بظواهر الجاه والبأس
ما بنى العادلون بالحق والتقوى - وقد تلخص
حياة العادلين أمثال شعراء التراجيدية
وسقراط أنهم حاربوا يموههم الخارقة خدمة
الظاهر في عقول الخدوعين بظواهر الأمور من
بنى قومهم - وقد عمادت أئنا في الباطل حتى
خدمت عامة المدينة بظواهر الأمور فاستمكت
غير مرة بنصر ظاهرها وجاء خادع كسراب بقيمة
وظلمت انقيادها العادلين المؤمنين الذين لا
يباهون بنصر فعلوه ولا ينقشون فوق دروعهم
آثار فخارهم لأنهم لا يحرسون على أن يكونوا
أبطالًا في ما يظهر للناس ولا يتفنون سوى
الحقيقة التي تورث بميزان عدل الله والذين
حرفوا في قلوبهم حرفا عميقا ينبت نباتا شعيا
من العلم والرأى .. فالتراجيدية الإنسانية
في الإنسان نفسه حين يرتفع أبطال الملئ الى
قمة الخلود ثم لا يكون لقومهم نفعا إذا تردى
قومهم في وهاد الظلم .. وما يكون إلا أن
يتقيموا شعائر الملئ بين قوم مستكبرين ..
ولو أذن مؤذن للصلاة في حي الآثم والبغاء للذهب
دعاؤه هباء - ولو نبئت لمار شهية في حقل
الخبيث من الزرع للذهب الخبيث والطيب
هباء - فهل دعا الشعراء قوما صما عن سمع
آيات الملئ أم كانوا قوما يملعون كثيرا عن
صناعتهم ومياسمتهم وحريتهم ولكنهم سلخوا
طريقا غير التي سلك آباؤهم واستكبروا كثيرا -
ولملك قارئ صورتهم فيما صورده سوفوكلي
في تراجيدية أنتيجونه :

الكوروس : في الخلق عجائب كثيرة وليس فيها
شيء أصعب من الإنسان .. امتطى
أعناق الموج المزمر وسار يرسع
الجنوب العاصفة والأرض الطيبة
القدسة التي لا تكل ولا يفيض معينها
.. أنه يجدها بمخزائمه .. يقلب
أرضها فغدا ورواحا عاما بعد عام

الى لهجته ولغته التي شب عليها فاسمحوا لي
ايضا ان اخطبكم بلغتي واسلوبتي الذي شببت
عليه ، واسالكم هذا الحق الا تقيدوني بأسلوب
واقبلوا أسلوبتي حسنا أو قبيحا ولا تنظروا
الا الى امر واحد - هل اخطبكم بالعدل والحق
ام لا فهذه هي فضيلة القاضي وفضيلة المحامي
ان يقول الحق .

من حقّي يا رجال اثينا أن ادفع من نفسي
التهم القديمة الكاذبة وأدحض التهمين الأولين،
حتى اذا فرغت منها دفعت التهم القريبة
والتهمين الحديثين ، انني بلوت متهمين كثيرين
قد اتهموني منذ عهد بعيد ولم يقولوا الا كذبا
واني اخشاهم اكثر مما اخشى « اتوبوس »
ورفاقه الذين لا استهين بغفرهم ، اما
السابقون فهم عندي اشدّ هولاء ايها الرجال
لانهم استبدوا بقولكم منذ صباكم واقنعوكم
واقترعوا عليّ كذبا وقالوا لكم ان فيكم رجلا
يدعى سقراط وهو رجل عالم مهتم بدراسة
السماء باحث عن اسرار الأرض ويطلب الرأي
الضعيف على الرأي القوي - قد افشوا هذه
التهم ايها الاثينيون وهي اخطر ما اخشى من
التهم لان الذين يسمعونها يؤمنون ان الباحثين
عن هذه الاشياء لا يؤمنون بالالهة وهؤلاء
المتهمون غير قليل اتهموني من اجل بعيد
وخطبوكم وانتم في سن تصدق كل شيء في
طفولتكم وفي صباكم وانهموا من لم يدافع عن
نفسه قط ولم يدافع عنه احد - وانكر ما
في امرهم اذك لا تستطيع ان تسمى احدا منهم
باسمه اللهم الا لشعر كوميدية ، ومنهم قوم
اكل الجسد والحقد قلوبهم فرجعوا فيكم هذه
التهم واشاعوها بين الناس وهؤلاء لا سبيل
الي معرفتهم ولا الي دعوهم هنا ودحض
افتراءهم ولا بد ان تدفعهم كغلال الشياطين
وتدفع بهمهم وهم غيب لا يبيحون ، فاعلموا
ان الذين يتهموني طائفتان : الذين اتهموني في
هذه المحاكمة والذين اتهموني من اجل بعيد ،
وهؤلاء هم اول من ادحض افتراءه لانكم
سمعتوهم قبل ان تسمعوا الآخرين وسمعتوهم
اكثر مما سمعتم هؤلاء الآخرين .

السعداء مع العادلين المؤمنين وما يفتي في عرض
دين العدل ان تكفي باطراف من هذا الدفاع
فهو دفاع في باطنه دين العادلين المؤمنين في
الحياة والموت وهم اولى الناس بان يتحدثوا
عن دينهم وادبهم . . هذا الادب ميراث الاحرار
في كل دهر وما ضرنا ان نتلو آياته كاملة ما
وسعنا الصبر .

١ - مقدمة :

اني لا اعلم يا رجال اثينا مدى تأثركم بخطابة
الذين اتهموني ، اما انا فقد كنت لا اعرف
نفسي لانهم يملكون ناصية البلاغة والافتقار وان
لم يقولوا كلمة صدق واحدة ولكن اكبر ما
حسبت له في كل ما افتروه من الكذب شيء
واحد حين سالوكم ان تكونوا من كلامي على
حذر لاني فيما يدعون خطيب داهية . . اولا
يستحون من الكذب ان كذبتم من نوري واثبت
لهم انني لم اظهر ابدا في حياتي في هيئة خطيب
مقتدر - ان ذلك الكذب اخري ما يخزيهم
ما لم يكونوا يسمون خطيبا داهية من لا يقول
الا الحق فان كان ذلك ما يقولون فانا اتقول
معهم اني خطيب لكني خطيب على غير طرازهم
. . فهم كما قلت لكم لم يقولوا كلمة صدق
واحدة وانا لن تسمعوا مني الا الحق كل الحق ،
لن آتيكم بالله يا رجال اثينا بكلام مزين مثل
كلامهم ولا مثلهم بمبارات بدعية والفاظ ونعم
ولكني سأحدثكم بكلام مرسل على علالة . .
اني مؤمن اني لن اقول لكم الا الحق والعدل
فلا تنتظروا مني شيئا سوى العدل والحق ،
انه لا يجعل بسني ايها الرجال ان آتيكم بكلام
مصطنع منقح كما يفعل الصبية ، ولي عليكم
بعد ذلك رجاء يا رجال اثينا اسالكم ان تحقّقوه
فاذا رايتوني احذلكم واجادلكم بأسلوبتي الذي
الفت ان احذلكم به في سوق المدينة على الموائد
حيث سمعني كثيرون منكم أو حيثما التفت ان
تسمعوني فلا تصحبوا ولا تتوروا - والسبب
في ذلك انني اقف لأول مرة امام القضاء وقد
بلغت من العمر سبعين عاما وانا جاهل بأسلوب
المحاكم واذا جاءكم رجل اجنبي حقا استمعتم

وبذلك أبدا الدفاع واحاول ان انزع منكم هذه الريبة التي حفلتم زمانا طويلا في ساحة ضيقة ، واريد ان اقل ذلك لعل فيه خيرا لكم ولي ، وان دفعت عن نفسي هذه الريبة فقدت كسبت كثيرا ولكني اعرف ان ذلك امر عسير ولا يخفى علي عسره ، فليكن ما يريد الله ولنؤمن بقانون المدينة ونبدأ الدفاع :

تمالوا نعالج الامر من اصوله لنرى متبث الريبة التي اعتمد عليها ميليتوس فرفع علي هذه القضية - انظروا ماذا يتهمني من الهموني ولنقرأ نص اتهامهم : « سقراط ارتكب ظلما نفو دائب البحث من اسرار الارض والسماء وبقلب الرأي الاضعف على الرأي الاقوى ويعلم تلاعبه ان يفعلوا مثل فعله »

ويرجع ذلك الى ما القتم ان تشهدوا في كوميدية اريستوفان ، اذ تشهدون سقراط معلقا يدعي انه يمشي في الهواء ويقول سخافات اخرى ما اتزل الله بها من سلطان ولا أعلم منها صغيرة ولا كبيرة ولست في ذلك بمستعجب مثل هذه العلوم ان علمها احد من الناس - لكني اقول ذلك لئلا يتهمني ميليتوس بهذه التهمة الخطيرة فاني ايتها الاثينيون لا علم لي بشيء منها ، اني استشهد بكثيرين من بينكم واني اسالك ان بغضي بعضكم الى بعض بما سمعتموني اجادلكم فيه فكثير منكم قد سمعوني ، فليجئت بعضكم بعضا ان كان احد منكم سمعني اقول ادنى شيء من هذه المسائل - وستعلمون بذلك ان ما يرميني به عامتكم لا يغدر هذا الباطل ، كل ذلك باطل وكاذب من يقول انني كنت معلما أعلم الناس لقاء اجر من المال .. وانا احمدهم ويستطيعون تعليم الناس كما يفعل جورجياس اللبونيوني وبروديكوس الكيونيوسي وهيبياس الاليسي (١) كل رجل منهم يا رجال ائينا قادر على ان يذهب الى كل مدينة ويقنع شبان المدائن الذين يستطيعون ان يصاحبوا من شاؤوا من رجال

وظنهم بغير اجر وهم يشعرون هؤلاء الشبان ان يقطعوا مصاحبة اهلهم ويصحبوهم هم ويؤجروهم اجورا من المال ويعترفوا لهم بالجميل - وبيننا الان عالم من باروس كما اخبروني ، وحلت اني ذهبت الى بيت كاليبس بن هيبونيوكوس وهو رجل دفع وحده هؤلاء العلماء اكثر مما دفع لهم سائر الناس فسأته هذا السؤال وهو والد له ولدان فقلت له يا كاليبس : لو ان ولدك كانا مهربين او مجلين لمرفت ان اختار لهما معلما باجر يعلمهما ويعلمهما اصالح واجمل .. كل حيوان حسب مواهبه - اذن لاخترنا لهما مروض الخيل او فلانا ، لكن ولدك من الانس فمن عسى ان يختار لهما من المعلمين .. اي المعلمين يستطيع ان يعلم القضية والانسانية والسياسة .. فلا بد انك فكرت في هذه المسألة لان لك ولدين - وقلت « هل نجد هذا المعلم او لا نجده » فقال : « لا شك انه موجود » فقلت : « من هو ومن اي البلاد وكم يتقاضى من اجر لقاء تعليمه » فقال لي : « انه ايفيتوس من اهل باروس يا سقراط وهو يتقاضى خمسة منّا (اي خمسمائة درهم) »

اما انا فقد غيبت نعمة ايفيتوس لو استطاع حقا ان يعلم كما يقولون بهذه الطريقة المحكمة وكما كنت اتيهاى واكثر لو كنت أعلم ذلك ولكني لا اعرف من ذلك شيئا ايها الرجال . وقد يعترض منكم معترض فيقول : « ما خطبك يا سقراط من أين اتتك كل هذه التهم فان كنت لم تفعل سوى ما يفعل الآخرون فما هذه الشهرة العريضة التي كسبت وما هذا الاسم المفرد العلم .. قل لنا ما هذا الخطب حتى لا نتخط في امرك خيط عشواء »

ان هذا سؤال عدل وسأجتهد فابين لكم متبث هذا الاسم والشهرة الباطلة فاستمعوا له ولا يحصين احدكم اني الهو وكونوا على يقين اني لا اقول غير الحق .. ان هذه الشهرة

وناقشته فماذا لتيتمنه ايها الرجال الايتيين؟
قد ظهر لي ان الرجل عالمي في ظاهر الامر عند نفسه وعند عامة الناس وهو في حقيقة الامر غير عالم ، ثم حاولت ان ابين له انه مخدوع بحسب نفسه عالما وما هو بعالم وكانت النتيجة انه عاداني هو وكثير من الحاضرين ، ثم رجعت الى نفسي وقلت لنفسي اني اعلم من هذا الرجل ، وكلانا قد لا يكون على شيء من علم الجمال والخير والفرق بيني وبينه انه لا يعلم شيئا وبحسب نفسه عالما وانا لا اعرف شيئا ولا احسب نفسي عالما - فانا اعلم منه بهذا المقدار الضئيل وهو اني جاهل غير مخدوع ولا احسب نفسي عالما . . ثم انطلقت الى رجل آخر ممن يمدح الناس عالما وكانت النتيجة واحدة وقد عاداني هو ايضا ، وماداني قوم كثيرون .

وبعدئذ مرت سيري لم اكف من البحث وقد عرفت اني ملاق عداوة الناس وقد اتفني عداوتهم وملاني ربما ولكني جطت قول الله فوق كل حساب وكان لزاما على ان امضي في طريقي لاستيتين ما تعني نبوة الله . . فامتحن سائر المشهورين بالعالم . . واتا بحق الكلب (الكلب حارس ابواب الآخرة) يا رجال اينما لا اقول الا الحق واليكم ما جريت في امتحان الناس :

ان أشهر المشهورين بالعالم الا قليلا منهم كانوا أقل الناس علما في هذا الامتحان الذي امرني الله ان امتحنهم به - وكان ايسر الناس اقربهم الى العلم . . لا بد من ان اعرض عليكم سعيي واجتهادي في تاويل نبوة اله ديلف تاويلا لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

تبعد المشهورين في السياسة ذهبت الى الشعراء الذين يقرضون الشعر في التراجيدية وشعر الإنشيد الدينية وكل شعر آخر واتا عالم اتني ان البث ان ابدي لهم صفحة جهلى واتني دونهم علما وقد اخذت معي اجمل شعرهم الذي قالوا وسالنتهم عن معناه عسى

تنتج من علم عرفته فما هو هذا العلم - ربما اسماه علم الانسان ، ربما اكون عالما بهذا العلم اما هؤلاء العلماء الذين ذكرت من قبل فلمهم علوم اكبر من علم الانسان او ضلت حيلتي فلا اعرف ما اقول فانا لا اعلم من علمهم شيئا ومن قال اني اعلم علمهم فقد افرى علي كذبا وماني بكل ريبة .

وانا اسالكم يا رجال اينما الا تضجوا ولا تحسبوا اني اتيكم بمبافعة وما اقله ليس من عندي وانما اتيكم بمن قال هذا القول وهو قائل جدير بان تصدقوه « اى علم ان كنت اعلم وما قدر هذا العلم اني اتيكم بشاهد عليه هو اله ديلف . . وانتم تعرفون من هو شريفون انه صاحبي منذ الصبا وهو صديق هامتك قد تقي معكم ورجع معكم وانتم تعلمون اخلاق شريفون اذا اقبل على امر اقبل عليه بكل نفسه ، قد قدم يوما على معبد ديلف فاجتروا ان يسال هرافة المعبد عن عسى ان يكون اعلم مني فاجابت النبوة بصوت هال انه ليس من احد اعلم مني . . ويشهد على ما اقول اخ شريفون فهو حاضر بينكم لان شريفون نفسه قد مات » .

فتبينوا ما بالي اقص عليكم هذا الحديث انما اريد ان ابين لكم مصدر هذه التهمة الباطلة التي اتهموني بها حين سمعت هذه النبوة قلت لنفسي . . ماذا يقول اله ديلف وهل وراء هذا القول معنى خاف . . فانا في نفسي اعلم انني لست على صغيرة ولا كبيرة من العلم فماذا تعني النبوة التي تقول اني اعلم الناس ، والنبوة لا تكذب ولا يحل لها ان تكذب - ومكثت على ذلك زمانا طويلا لا استبين معنى هذه النبوة - وبعد لأي اخذت على عاتقي ان ابحث عن معنى هذه النبوة ، فعميت الرجل مشهور بالعالم وهل من سبيل الى ان استبين حقيقة النبوة الا بهذه الوسيلة وقلت للعرافة : « هذا الرجل اعلم مني وانت قلت انني اعلم منه فم امتحن الرجل ولا حاجة بي للذكر اسمه ، كان رجلا من اعلام السياسة امتحنته

العلم لله وحده وإن علم الإنسان علم ناقص أو هو علم لا يزن مثقال ذرة وقد تكون نبوءة الله أشارت إلى اسم سقراط لتضرب به مثلا كأنما تقول للناس اعلم الناس من تخلق بأخلاق سقراط الذي يؤمن بأن علمه لا يساوى في حقيقته شيئا وما زلت أسمى في المدينة أبحث ممن عسى أن يكون عالما من أهلها ومن الأعراب وأفعل ذلك مرضاة لنبوءة الله - فإن لم أجد احدا عالما صدقت نبوءة اللهيوبنت له أنه ليس بعالم وجعلت ذلك شغلي الشاغل فلم أجد فراغا بعدئذ لقضاء شئون المدينة أو قضاء شئوني الخاصة وعشت في فقر مدقع لأؤدى ما علي لله من شيء .

وفوق ذلك يعني شبان من أبناء الاثنياء كان لهم من سعة الوقتما يقدر لهم أن يتبعوني من تلقاء أنفسهم وسرهم ما سمعوا من امتحان الآخرين فقلدوني في أحيان كثيرة وجعلوا يمتحنون الآخرين وما أظن إلا أنهم وجدوا لدى من يحسبون أنهم علماء أنهم لا يعلمون إلا قليلا أو أنهم لا يعلمون شيئا ، وبعدئذ غضب علي من وقعوا عرضة لامتحان هؤلاء الشبان وكان أولى بهم أن يفضبوا على أنفسهم ثم قالوا أن في المدينة سقراط فاستقا وماذا يعلم ؟ قالوا أنهم لا يعلمون ولكي لا يجدوا حرجا قالوا ما يقال في اتهام الفلاسفة أي أنه يبحث عن أسرار أخلاك السماء وباطن الأرض ولا يؤمن بالآلهة ، وينقلب الحجة الضعيفة على الحجة القوية ، وهم لا يحبون أن يعترفوا بالحقيقة وهي أنهم يدعون العلم بما لا يعلمون وهم رجال يحبون سمعتهم وهم رجال ذوو بأس والعدو غير قليل وهم يد واحدة علي ، وإذا اجتمعت كلمتهم كانوا مقتنعين سادقين وملاوا آذانكم قديما وحديثا بهذه التهم الفاحشة ومن هؤلاء من اتقشفوا علي مرة واحدة وهم ميليتوس والنوتوس ولوكوس - وعاداني ميليتوس باسم الشعراء . وعاداني انوتوس باسم السياسيين والصناع . وعاداني لوكوس باسم الخطباء . وبذلك فانا كما بينت لكم في أول الخطاب يدهشني أن استطيع في وقت قصير أن اتزع منكم ريبية استقرت في

أن يعلموني أيضا من علمهم شيئا أنا استحي أن أقول لكم حقيقتهم أيها الرجال ولكن لا مفر من أن أصرحكم بها لست اجتني عليهم أن قلت أن كل الحاضرين كانوا أحسن حديثا في تأويل ما كتب هؤلاء الشعراء ، ولم ألبث أن علمت من أمر الشعراء هذه الحقيقة وهي أنهم لا يقرضون الشعر من علم وإنما يقولون الشعر بموهبة طبيعية خاصة ويوحى إليهم ، ومثلهم كمثل أنبياء الله والمبشرين بالغيب فهم يقرضون شعرا جميلا ولكنهم لا يعلمون ما يقولون ، كانت هذه هي خبرتي مع الشعراء وبيئت أنهم يشعروهم يحسبون أنهم أعلم الناس وهم في الحقيقة ليسوا على شيء من العلم فانصرفت من لدنهم بنفس النتيجة التي انصرفت بها من لدن علماء السياسة وهي أنني أعلم منهم لأنهم مؤمنون أنهم علماء وهم ليسوا على شيء من العلم وأنا لا أعلم شيئا وأنا أعرف أنني لا أعلم .

ودعيت آخر الأمر إلى الصناع وأنا أعلم أنني لا أعلم من علمهم شيئا وإني سأجد فيهم من يعلمون أمورا كثيرة جميلة ولم أكن مخدوما في ذلك فهم كانوا يعلمون ما لا أعلم وكانوا في ذلك أعلم مني ولكني وجدتهم يا رجال أئينا فيهم محبوب الشعراء وعلماء السياسة فهم بمهارتهم فيما أحسنوا من صنعتهم ظن كل منهم أنه أدري من العلم كل شيء وهذه المصلحة حجبتم العلم عنهم وقد سألت نفسي وأنا مهتم بنبوءة دلف : اليس خيرا لي أن أرضي بما قسم الله لي . . . لا أحظى بعلمهم ولا بجهلهم ولا يكون لي ما هم لي به من علم وجهل ثم أجيبت نفسي وأجبت النبوءة أنه من الخير لي أن أبقي كما قسم الله لي .

هذا البحث والتحميص يا رجال أئينا قد خلق لي أعداء كثيرين ومنهم أعداء لا تأخذهم في عدوهم رحمة ولا ذمة فاشأوا مني هذه الريب وسموني عالما وقد ظن الحاضرون كل مرة أنني عالم فيما أقمت فيه الآخرين ولعل الله أيها الرجال أراد بهذه النبوءة أن يقول أن

يستطيعون أن يعلّموا الشباب ويجعلوهم أحسن حالا .. أي والله .. يستطيع هؤلاء القضاة جميعا أم أن منهم من يستطيع ومنهم من لا يستطيع .. كلهم .. أنك تقول قولا حسنا بحق هيرا ونحن أغنياء برجالتنا النافعين وهؤلاء السامعون هل يجعلون الشباب خيرا أم لا وهؤلاء أيضا وأعضاء المجلس وأعضاء مجلس الأمة هل يفسدون الشباب أم يصلحون حاله وهؤلاء أيضا .. يظهر أن الاثنين جميعا يستطيعون أن يصلحوا من حال الشباب وأنا وحدي مفسدهم اذلك ما تقول ؟؟ نعم ذلك ما أقول .. أنك ترميني بشؤم كبير لكن اجبني هل الأمر سواء في الشباب وفي الخيل يصلح حال الخيل كل الناس ويفسد حالها رجل واحد أم الأمر كله على عكس ذلك يستطيع أن يصلح حالها رجل واحد أو فئة قليلة أي ساسة الخيل والاكثرون عدداً إن عاشرُوا الخيل أو ركبوها افسدوا حالها اليس الأمر كذلك يا ميليتوس في الخيل وفي سائر الاعنام .. أي والله سواء أجبت أنت وانوتوس أو لم تجب .. وما كان أسعد الشباب لو افسدهم واحد وحده وأصلحهم سائر الناس .. كلا يا ميليتوس لقد أجبت أجابة تكفي للتدليل على أنك لم تشغل بالك بما عسى أن ينفع الشباب أو يضرهم وأظهرت أنك لم تهتم أبداً بما تقدمني للقضاة من أجله .

ب - مثل سقراط

قد قلت لكم في أول دفاعي أنني عاداني قوم كثيرون فاطلوا أنني لم أقل لكم إلا الحق وهذه العداوة هي التي ستحكم علي أن حكم علي ولا أخشى ميليتوس ولا اونوتوس بقدر ما أخشى ما غشي الاكثرين من ريبة وثقة وهما داء قديم قضى على قوم كثيرين من خير الناس وسيقتضي في عمر الزمان على الاخيار ولا يقتصر بلاؤه علي ..

وبيتما يقول قائل : ألا تستحي يا سقراط من أن تذهب في حياتك ملدبا قد يودي

نفوسكم زمانا طويلا - ومع ذلك يا رجال ألينا لا أخفي عليكم شيئا ولا أكلب عليكم في شيء مما أقول ولا أقول إلا الحق وذلك الذي يحسر علي العداوة كما جرّها علي من قبل والدليل على صدق ما أقول أن ما يتهموني به اليوم هو ما اتهمت به قديما وأسباب العداوة واحدة وسواء فتشتم عنها اليوم أو فتشتم عنها بعدئذ فستجدونها قائمة ..

هذه هي التهم التي فشاها التهمون السابقون قد دفعتم بها هذا القدر الكافي ، أماتهم ميليتوس الفاضل صديق المدينة فسأجتهد الآن في دفعها هي وسائرهم التهمين ، وعلّالوا نقرأ نص اتهامهم لانهم جادوا بتهم غيرتهم الأولى ، واليكم نص اتهامهم : أنهم يقولون أن سقراط افسد شباب المدينة وكفر بالهة المدينة وآمن بالهة جديدة ، تلك هي صيغة اتهامهم فتعلّالوا بمحصة تهمة تهمة ، قال ميليتوس اني ارتكبت جريمة افساد الشباب وأنا أقول بأن ميليتوس ظالم في استهتاره بأمور الجد ودفع الناس الى المحاكمة وادعائه الاحتمام بأمور لم يعرها أي اهتمام وسأجتهد في أن أبين لكم اني لا اتجنى عليه - تعال هنا يا ميليتوس وقل لنا .. أنت لا تبني شيئا أكبر من أن يكون شبابنا خير شباب .. ستقول : نعم .. فتعال وقل لهؤلاء القضاة بأي الناس تجعلهم خير شباب ، لا ريب أنك تعرف لأنك مهتم بهذا الأمر وقد وجدت مفسدهم كما تقول فقدمتني لهؤلاء القضاة واتهمتني .. أما من يصلحهم ويجعلهم خير شباب فتعال وقل من هو ؟ أنك ترى يا ميليتوس أنك صامت لا تستطيع أن تجيب ..

الا يحزنك أن تقدم بصمتك شهادة كافية على ما أقول وهو أنك لم تهتم قط بمن عسى أن يجعل شبابنا خيرين فاضلين ، لكن قل لي أيها الطبيب : من الذي يجعلهم خيرا مما هم ؟ القوانين ؟ ولكني لم أسألك عن ذلك يا أحسن الناس ، لكنني أسألك أي الرجال الذي يعلم كيف يصلحهم ويصرف ما تحدث به .. أي القوانين أم هؤلاء القضاة يا سقراط .. ماذا تقول يا ميليتوس .. هؤلاء القضاة

سوى الظن بأننا علماء ولسنا علماء ، وهو الظن بأننا نعلم ما ليس لنا به من علم . . لا يعلم أحد الموت وعسى أن يكون الموت أسعد مسعادة الإنسان لم يخافه الإنسان كانه على يقين انه اشقى شقاء الانسان . . أليس ذلك أرذل انجهل أن ندعي العلم بما لا نعلم ؟ وقد يكون الفرق بيني وبين أكثر الناس أنني لا أعلم علما شافيا بما يجري في ديار الموتى ثم لا اراني ادمي العلم بما لا أعلم ولكني أعلم ان الظلم عار وشر ومعضية من هم خير منا الهيا كان او بشرا عار وشر واننا لا أخاف ولا أهرب من شيء لا أدرى لعله خير وما ينبغي لنا ان نخاف ونتقى الا ما نعلم من يقين أنه شر .

ربما يعفو احدكم ولا يصدق دعوى انوتوس الذى قال لكم اما ان سقراط لا يعرض على القضاء من بادى الامر واما ان يعرض وفي هذه الحالة ليس لكم من سبيل سوى اعدامه . . وقال لكم ان براتم ساحته فسيشتط ابتناؤكم فيما تعلموا من سقراط حتى يفسدوا عن بكره انبيهم ، فان قلت لي بعد ذلك « يا سقراط نحن لن نطيع فيك انوتوس وسنمغو عنك على شرط واحد وهو ان تكف عن قضاء حاجتك في امتحان الناس وفي الفلسفة وان عدت مرة أخرى حكمنا ببولك » ان براتموني بهذا الشرط اجبتكم بهذا القول : « اني حريص عليكم واجبكم ايها الاثينيون ومع ذلك فاني اولر طاعة الله على طاعتكم وطالما كنت حيا بنبض قلبي فلن اكف من الفلسفة ومن ان احرضكم على العلم ومن تنوير من القى منكم وأقول له ما اقلت ان أقول : « يا خير الناس اناك اثيني من أعظم المدائن وأشهرها بالعلم والحكمة والقوة الا يخزيك الا يكون لك في الحياة هم سوى المال تريد ان تجمع منه اكثره ثم لا تكون لك همة لغير سلطان الحكم والدمابة امل عقلك واما الحقيقة واما روحك فلست تتفعل بها شيئا ولا تفكر في ان تجعلها اذكى نفس وأبصر عقل واخص حقيقة ؟ » .

فان اعترض احدكم وقال انه لم يفغل عقله

بحيثا ؟ ومن حتي ان افول له : اناك لا تنصف ايها الرجل اذا رايت ان واجب الانسان مهما صغر شأنه ان يبالي بخطر الحياة والموت ولا يبالي اذا عمل عملا الا بشيء واحد . . ايعمل عملا عادلا ام ظلما . . ايفعل فعل العادلين ام يفعل افعال الظالمين - اناك اذن لا تمجد الابطال الذين ماتوا في طرودة - هم جميعا وخاصة اشيل بن ثيتيس الذى كان الموت اهوون عليه من ان يلحقه عار فقد قالت له امه وهو غاد يقتل هيكتور وامه اية شيئا مثل هذا القول « يا بني اناك ان انتقمتم موت رفيقك باتروكل وتقتل هيكتور فستموت أنت مع هيكتور كان ذلك قدرا مقدورا » فلما سمع ذلك لم يبالي بالموت والخطر بقدر ما يخاف من سبة العيش ومن شر الخزي اذا لم ينتقم لرفاقه وقال لاه من نوره : « الموت احب الي ان اخلدت الحق للظلم من ان اميش هنا لدى سفني المقوسة سخرية في فم الساخرين وان امكت حملا على الأرض » هل تراه يبالي بالموت والخطر . . ذلك هو الحق ايها الاثينيون فحيثما وضع احد نفسه في منزلة اختارها لانها خير المنازل في نفسه او في صف صفه فيه قائده يجب ان يثبت في مكانه ويلقى اخطاره لا يبالي بالموت ولا بأي خطر الا الخزي والعار .

ما كان يغفر لي ايها الاثينيون لو برحت المنزلة التي اتراني الله فيها وقد صفني قوادكم الذين اخترتم لقبادي في بوتيدا وفي امفينوليس وفي ديليون فثبت في صفوني التي وضعتني فيها كاي جندي وكدت القى حتفي - افحيث وضعتني الله وهو من امنت به واتخذته عقيدة وحيث امرني ان اميش للعلم والحكمة ابحت من العلم والحكمة في نفسي وفي نفوس الآخرين . . اولي هاربا خوفا من الموت او من اى خطر سواء ما كان اخوف ذنبي ان فعلته ، واذا كان لكم الحق ان تقدموني الى القضاء وتتهمونى بحق انا لا اؤمن بالالهة واني لم اطع نبوة الله خوفا من الموت ، فاني ادمي العلم بما لا أعلم .

وهل الخوف من الموت شيء ايها الرجال

فلن تجدوا رجلاً مثلي .. سأقولها ولو ضحكتم مني فقد وضعني الله في جانبكم كالهمزة في جانب الجواد العظيم الأسبيل الذي نقلت خطاه بما نرى بطنه وهو بحاجة الى مهماز يوقظه .. هذه هي الفريضة التي كلّفني الله ان اؤديها الى اهل المدينة .. كلّفني ان أوقظ كل رجل منكم وأقنعكم والممك حيث وجدكم ولا أكف عن ذلك أبداً طول نهاري .. كلا أيها الاثينيون انكم لا تجدون مثلي بغير مشقة وان تصدقوني فلا تفرطوا في وربما تغضبون فتستجيّبون لانتوس فتقتلونني كما يضرب الفارق في نومه من يوقظه ثم لا يتيقن من سباتكم العميق بقية حياتكم ما لم يعبأ الله بكم فيرسل لكم رجلاً مثلي .

قدروا ان رجلاً مثلي انما وهبكم الله اياه فهل ترون من البشر أحداً يفعل أعماله ويحمل كل اشغاله الخاصة اوعاماً طويلاً ولا اغفل عن حياتكم مثقال ذرة بل القى كل امرئ منكم كما يلقي الوالد ولده والاخر الاكبر اخاه واخرضه على ان يتعلق بأعذاب الفضل ، ولو انني حرشتم على الفضل لقاء كسبته أو ربح نلته لكان لي فيما قلت ميرور .. والان انظروا الى هؤلاء الذين ائتموني انهم خلوا قناع الحياة فرموني بكل تهمة ولكنهم لم يستطيعوا ان ينجروا فيأتوا بشاهد واحد يشهد اني فعلت شيئاً يوماً ما لقاء اجر او اني سألتكم اى جزاء وحسبي شاهد واحد يشهد بصديق ما أقول .. هذا الشاهد هو فقري ..

وربما يبدو فعلي غريباً ان تردني اطوف ما اطوف بالمدينة لا اسدى نصحي الا لافراد ولا اجرؤ على ان اقدم قاسدى النصح لآل المدينة والسبب في ذلك هو ما سمعتموني اقله مراراً وكثرة .. هو هذه القوة الالهية والتي سخر منها ميليتوس في ايهامه .. فمعد صباى ينتابني هذا الامر واسمع صولاً وهذا الوازع هو الذي منعني من ان ابأشر سياسة المدينة وأنا احمده الله انه منعني واعلموا ذلك علم اليقين ايها الاثينيون وانني ان كنت باشرت

وروحه فلن ادعه واتولى عنه بل سامأله وامتحنته واحمله الوزر واذا لم يكن على شيء من الفضل ثم ادعى الفضل فسألوهم بانه اشترى الذي هو ادنى بالذي هو خير وآلر الشئ على الشمين ، سأفعل ذلك بالكبير والصغير بالقرب والقريب ، وأفعل ذلك بأبناء وطني خاصة لما بيني وبينهم من اواصر القرى واعلموا ان الله قد امرني بذلك وانى مؤمن ان اكبر ما مسكم في وطنكم من خير هو استمسكي بطاعة الله فيكم ، ان عملي الوحيد في غدوى وفي رواحي ان اقنع شبابكم وشيوخكم الا يهتوا بأجسامهم واموالهم وان يولوا ارواحهم ما يجعلها اركى ما تكون هدياً وفضلاً .. سأقول لهم ان المال لا يخلق الفضائل وانما تخلق الفضائل الاموال وكل الطيبات في حياة الافراد والامم .. ابهدا الحديث أفسد شبابكم ، فان كان مفسداً فهو اذى ومن ادعى اني أقول لشبابكم خير ما بينت لكم فقد قال بهتاناً وزوراً ، ومن أجل ذلك أقول لكم يا رجال اثينا سواء علي صدقتم انتوس ام كذبتوه سواء برأيتوني ام حكمتي علي ان افعل الا ما امرني الله ان افعل ولو قتلتموني الف مرة .

والآن ايها الاثينيون لا تفزعوا واصبروا .. اني اسألكم ان تستمعوا لي ولا تقاطعوني فيما أقول لكم وانى مؤمن انكم لن تجدوا في سماي الا خيراً .. قد تثورون علي بعض ما أقول لكم فبالله لا تفعلوا فانكم ان قتلتم رجلاً مثلي حريصاً عليكم فانكم لا تؤذونني بقدر ما تؤذون انفسكم .. ان ميليتوس وانتوس لا يملكان ان يضراتي شيئاً .. وكيف يستطيعان .. لا يملك الخبيث ان يضر الطيبين شيئاً قد يستطيع قتلي او نفي او تجريدني من حقوقي السياسية ثم يحسبهم او احد غيره انه شرني وذاتي كثيراً وانا لا اعد هذه المصائب شيئاً انما اعتد ان ام المصائب ان يفعل ما يفعل هو الآن .. ان يقدم بريثاً للقضاء ثم لا يهدأ له بال حتى يقتله قاتنا لا ادافع عن نفسي بقدر ما ادافع عنكم فلا تجدوا نعمة الله عليكم فتعصروا باعدامي .. فان قتلتموني ايها الاثينيون

السياسة في المدينة منذ عهد بعيد اذن
لنقتلهموني قبل ان اضعكم او اتفق نفسي .

ولا تنضبوا علي لاني اصارحكم بالحق ..
لا سبيل لاحد من البشر ان يامن على نفسه
اذا عارضكم او عارض اية غالبية سياسية
وصارح بالحق وصد من سبيل ما تركبون من
ظلم وما تخالفون ما امرت به او نهت عنه
قوانين المدينة ولا مفر لمن شاء ان يدافع عن
العدل مخلصا ويامن على نفسه زمنا طويلا ان
يبقى فردا ولا يدخل في صراع السياسة -
ساكنكم ببرهان علي ما اقول : وهذه البينة
ليست كلاما وانما هي شيء تحترمونه ، هي
بينة من واقع اعمالكم - ساقض عليكم ما بلوت
بنفسي لتعلموا انني لم اخضع لاحد الا بالعدل
ولم افرض في العدل خوفا من الموت .. ولا مفر
من الموت لمن يعصيك .. ساروبها بأسلوب
المحامين في المحاكم ولكنني لا اقول الا الحق ..

انني ايها الاثينيون ما توليت في المدينة اى
حكم الامرة واحدة يوم كنت عضوا في مجلس
الخصمالة وكانت الرئاسة (البرتان) اذن
في قبيلتنا اى قبيلة (انتيوخس) قد اجمعت
اذن على ان تعاقبوا قوادكم العشرة الذين لم
ينتشلوا غرقى المعركة البحرية (١) ولم ترموا
في ذلك العدل والقانون كما تبينتم ذلك بعدئذ
وكنت انا وحدي بين رؤساء المجلس الذى
عارضتمكم كيلا تفعلوا اى مصيبة تفرقون بها
القانون وايتت وحدي ان اصوت بما تستهون
وقد اتبرى لي خطايكم واحبوا ان يقدموني
للمحاكمة وكنتم تصايحون وتعرضونهم على
اخذى ، وقد اخترت ان ابقى في جانب القانون
والعدل مهما اصابني من خطر ولا اكون معكم
خشية السجن والوت اذ جرت على القانون
والعدل .

وقد حدث ذلك ايام كانت المدينة ديمقراطية

فلما جاءت حكومة الاقلية ناداني الثلاثون حاكما
الى مقرهم وامروني انا واربعة آخرين ان ناتي
من سلامين بـ « ليون » ليقتلوه وقد امروا اكثر
الاثينيين بانجاز اوامر كثيرة ليشركوا في جرائمهم
اكثر من يستطيعون من شركاء وسالبت لكم
بالفعل لا بالقول انني لا اعبأ بالموت ولا غير الموت
ولا تؤاخذوني بهذا الاسلوب العارى والذى
اصيا به قبل كل شيء ان لا افعل ما لا يرضي الله
والعدل وكذلك هذه الحكومة على قسوتها لم
ترعني ولم ياخذني الهول من قسوتها فاركتب
نظما فلما خرجنا من مقرها مضى الاربعة الى
سلامين وجاءوا « بليون » اما انا فقد انصرفت
الى دارى وقد اصبحت بذلك عرضة للموت
نولا ان عجل الله بهذه الحكومة فسقطت ..
وسيشهد على ذلك شهود كثيرون .

اتحسبون اني كنت اعر هذا العمر الطويل
او انني باشرت السياسة بالمدينة وفعلت ما
ينبغي لرجل عادل ان يفعله قابصر العادلين
راجعل ذلك فوق كل حساب في حياتي .. كلا
ايها الاثينيون .. لا انا ولا احد سواي من
البشر .. وكذلك عشت في حياتي العامة ان
وليت فيها حكما ما وفي حياتي الخاصة لم
ارض احد على حساب العدل ولم ارض احدا
حتى ممن لجنت علي فيه هؤلاء المتهمون لمعدوهم
تلاميذي - انني لم اكن ابدا معلما ولكنني لم
اغن على احد ان اراد ان يسمع ما اقول او
يشهد ما افعل صغيرا كان او كبيرا .. لست
رجلا ان قبض المال تكلم .. واذا لم يقبض
المال ابى ان يتكلم ولا فرق بين فقير وغني ان
جاء يسالني او احب فقير او غني ان يجاوبني
ويسمع ما اقول فان انقلاب بعدئذ خيرا او
شريرا ، فباى حق تحملونني وزره وانا لم امد
احدا علما ولم اعلم تلميذا قط وان امدى احد
انه تعلم مني شيئا او سمعني خاصة اقول
ما لم يسمعه سائر الاثينيين فقد ادعى علي
كذبا .

١ - معركة الاريجينوز البحرية عام ٤٦٠ ق م . : القانون يقضي بان يعاقب كل قائد على حدة - والشعب في نفسه اراد
ان يعاقب القواد كلهم مجتمعين مرة واحدة .

ج - الخاتمة

فاذا لم تتحملوا بالصبر يا رجال اثينا
مسكم عار وانهكم الذين يحبون ان يسبوا
الى المدينة ، سينهونكم انكم قتلتم مسقراط
العالم ، سيقولون اني عالم ولو لم اكن عالما
نعم سيقول ذلك الذين يلومونكم . واذا
سيرتم قليلا جاونكم الادلة منقادة من تلقاء
نفسها . انظروا الى مني واعلموا ان الموت قريب
مني . . اني لا اقول ذلك لكم جميعا وانما
اقوله للذين حكموا باعدامي ، اني ادول لهؤلاء
هذا القول ربما تحسبون ايها القضاة انني
لاقيت هذا المصير لاتي مجزتا عن افئاعكم واني
لم افعل كل ما ينبغي ان افعل او اقول لالتج
من عقابكم ، ما ابعد هذه الفكرة من الحق . .
ان عجزى لم يكن مجزأ في البيان ولكنني فعلت
ما فعلت حياة ، اني خطيت من ان اقول لكم ما
تحبون ان تسمعو فابقي بين ايديكم واستجبر
بكم واقول وافعل ما لا يليق بي . . افعل ما
الف الآخرون ان يفعله ، او لم اقل لكم اننا
لا ينبغي ان نفعل في المخاطر الا ما يفعله الاحرار
ومن واجبي الان الا ادافع من نفسي الا كما
يفعل الاحرار وانا اوثق الموت على ان اميش
متبعما غير طريق الاحرار .

ليس لي ولا لاحد سواي ان تعمل كل شيء
في المحاكم وفي الحرب لتتقي الموت ، ففي
القتال قد يحدث كثيرا ان يتقي الانسان الموت
اذا القي سلاحه واستجار باعدائه الذين يلاحقونه
وفي كل خطر حيل كثيرة ينحو بها الخائف من
الموت اذا اجترأ الانسان على ان يفعل كل شيء
او يقول كل شيء . . انتقاء الموت حين وانتقاء
السيئات صبر . . ان السيئات تفقد ورائنا
بخطى امرع من خطى الموت وانا بطيء وشيخ
كبير قد لحقتي ابداً اللاحقين والذين اتهموني
عداؤون مسرعون فلحقهم اسرع اللاحقين اي
الشر والسوء وسنخرج من هنا . علي انا عقاب
الموت وعليهم هم امام الحق عقوبة الائم
والعدوان !!

فلننكر ان ان الموت في اكبر آمالنا خير . .

لكن ما بال كثيرين احبوا ان يصحبوني زمنا
طويلا ؟ اسمعوني ايها الاثينيون فقد قلت لكم
كل الحق - انهم احبوا ان يسمعونى امحص
علم الذين يحسبون انفسهم علماء وما هم
بعلماء وهو امر لا يخلو من متعة اما انا فقد
امرني الله بذلك كما قلت لكم ووجدت آية الله
في نبوءة ديلف وفي احلامي وفي آية صورة من
الصور التي تكشف للانسان امر الله وما اقله
لكم ايها الاثينيون حق اثباته يسر . . فلو انني
اخذت طائفة من شباب اليوم واخذت طائفة
من قبل فلا بد ان ينهض منهم من كبروا
فاستبانوا اني نصحتهم في شبابهم نصيحة
فاسدة ثم يتهمونني ويطلبون عقابي فان لم
يريدوا هم ان ينهضوا فيتهمونني قلهم اولو
قريبى . . آباءهم او اخوتهم او كل من يمتون
اليهم بصلة فان كان اقاربهم قد اصابهم شر
بيدي فلذلكروه الان وليسالوا عقابي ، اني ارى
منهم كثيرين يبتكم اني ارى بينكم كريتون وهو
من رفاق صباي ومن مشيرى ، وهو اب
كريتبولوس - ثم لوزائياس الشقيتي والد
اشين ثم اتيتسون الكيفيزى والد ابيجين
واخرون سواهم حضر اخوتهم محاورائي :
نيكوستراوس بن ليوزويدس اخ ليودوتوس
وقد مات ليودوتوس فلا يستطيع ان يسأل اخاه
شيئا وفيكم بارالوس بن ديمودوكوس وكان
ناجيس اخاه وفيكم اديمانتوس بن اريستون
وهذا اخوه افلاطون وهذا ايا تادوروس وهذا
اخوه ابولودور وكثيرون آخرون يستطيع ان
اسمهم . كان ميليتوس يستطيع ان يتخذ منهم
شهودا على دعواه فان كان نسي فليدعهم
للسهادة وانا اذن له ان ياتي بمن يشهد منهم
بما يدعي ، مستجدون تقيض ذلك تماما ،
مستجدونهم جميعا ينهضون لنصرتي انا الذي
افسد حياة اهليهم كما يدعي ميليتوس
وانوتوس ، ربما يكون ان اخذت حياتهم عذر
في ان يصرونى ولكن ما عذر اقاربهم الذين لم
افسد والذين بلغوا الكبر ، اللهم لا عذر لهم
الا الحق والعدل وانهم يعلمون ان ميليتوس
كذاب وانا صادق .

فالموت إحدى التين فاما أن يغنى الميت ولا يشعر بشيء أبداً أو أن الموت كما تقول الاساطير انتقال من حال الى حال وانتقال الروح من عالمنا هذا الى عالم آخر فإذا كان الموت انعدام الشعور إطلاقاً وهو نوم لا يرى فيه التائم حلماً .. ألا يكون الموت إذن ربحاً عظيماً ؟؟

فلو أن رجلاً وزن ليلة نام فيها ولم يضرط نومه بحلم أبداً بسائر الأيام والليالي التي عاشها ثم تسأل كم من أيام حياته ولياليه كان أمتع وأطيب من هذه الليلة ، فلا ريب أن يؤثرها هو الملك الأعظم على سائر أيامه ولياليه فإذا كان الموت كنوم هذه الليلة فاني أعده ربحاً والزمان كله يقضى قليلة واحدة من هذا القبيل .

فان كان الموت رحلة الى عالم آخر وكان حقاً ما تقول الاساطير أن الموتى جميعاً يتلاقون في هذا العالم الآخر فهل من سعادة أكبر من هذه الرحلة أيها الرجال القضاة ؟ فإذا بلغ الإنسان دار الآخرة حال الموت بينه وبين قضاة الدنيا الذين يدعون أنهم قضاة ويلاقى هناك قضاة الحقيقة الذين يقضون بين الموتى كما تحدث بذلك الاحاديث - سيلافي مينوس ورادامانت وأياكوس وتريثوليم وأرلياء الله الذين كانوا عاذلين في حياتهم - ليست رحلة الموت إذن شيئاً عظيماً .. من منا لا يدفع أغلى ثمن في سبيل لقاء أورفيوس وموزايوس وهيزود وهومير - فان كان ذلك حقاً فاني أريد أن أموت مراراً فليس في الامكان ابداع من الحديث هناك حيث الاقي بالاميديس وأجاكس وتيلامون ومن حكم عليه بالموت ظلماً وأقابل ما بلوت بما لتقوا هم من بلاءه اليس ذلك متاعاً لنفسه واكبر المتاع أن اسألهم وأمتحنهم كما فعلت بكم في هذه الدنيا وأعرف منهم الذين يحسبون أنهم علماء وما هم بعلماء .. بأي ثمن تشترون تمحيص هذا الذي قد ججوش طرودة أو تمحيص أوليس أو سيسوف وهؤلاء الذين لا يحصي عددهم من الرجال والنساء ؟؟ ليست السعادة التي لا ريب فيها أن نلقاهم هناك ونماشرهم

ونمتحنهم وخاصة أن قضائهم هناك لا يقتلون أحداً بهذه الأسباب .. وهؤلاء الموتى بعد ذلك أسعد من الأحياء في هذه الأرض فهم خالدون فيها أبداً إذا صدقت الاساطير .

انما ينبغي لكم ايها القضاة أن تستبشروا بالموت وتؤمنوا بصدق هذه العقيدة في أول ما تؤمنون .. وهي أن الانسان المادل الخيش لا يصيبه سوء في الحياة والموت وأن الله لا يتخلى عن مصره وأن ما أصابني بحكمكم ليس رمية من غير رام ، بل هو خير أرادته الله بي أن أموت وأعتق من هذه الاشغال ولم يصرفني عن الموت ذلك الهاتف الذي يهتف بي ولست آسى على شيء من حكم من حكموا علي ولا من اتهم من اتهموني .. وهم لم يصدروا في حكمهم واتهامهم من هذه العقيدة وإنما فعلوا ما فعلوه ظانين انهم يؤذونني وفي ذلك هم يستحقون الملامة .

ولي عليكم رجاء - اذا شب ابنائي فصاروا شبانا فمأقوبهم ايها الرجال - آلوهم كما آلتكم أن رايتمهم يؤثرون على الفضل مالا أو جاهاً وصرفوا همتهم لشيء غير الفضيلة واذا خادعوا أنفسهم فحسبوا أنهم على شيء وهم ليسوا على شيء .. فلو موهم كما ألغت أن اؤمكم حتى لا يفعلوا ما ينبغي لهم أن يفعلوه ويحسبوا أنهم ذوو قدر وهم في الحقيقة لا يستحقون شيئاً وأن فعلتم ذلك كنت مدينا لكم بالعدل وأديتم الى ابنائي أمل ما تؤدون .

والآن قد حان الرحيل فانا راحل الى الموت واتمم عائدون الى حياتكم فاني أسعد طريقاً - الله وحده يعلم ...

(٩)

تاج ديموستين

لا تفتب شمس مدينة العذل والإبطال حتى تبصر أينما في آخر القرن الرابع سنة ٣٣٨ ق م تعلم الحقيقة في مدرسة الألام-ظلت رغم

من قبل وفرح فيليب يسوم ولد الاسكندر
.. فرح بيسلاد ولد ويناج خيليه في
الالعاب الاولمبية .. اللعب اقتحم المعابد من
كل مكان .. صمحا هذا الفجر على اثينا فخدمت
ولكن في اثينا افلاطون وتراجيذية سوفوكل
وتاريخ هيراق في دين البطولة اعتنقه ديموستين
ومكث ديموستين كما كان سقراط .. وكما كان
سوفوكل كالكلب الهه المصريين امينا وفيثا
سأهرا على ميراث المثل والخير .

ديموستين كتب خطبة لتكون شاهدا على
نوابه وافعاله ، فقد انذر قومه وانذر الاغريق
بنوايا فيليب منذ نهض للخطابة وكان تحول
الاثينيين عن دين آباءهم في القرن الرابع ق . م
وتسياتهم وطنهم وحق الوطن وحرص الكثيرين
على ان يخلدوا للسلم ويستمتعوا بمظاهر
امبادهم .. وفيليب في الشمال يعد جيشا من
أحدث فنون الحرب ويستعين على قضاء مآربه
بالمكر والخداع وخلف الوعد والميث بالقسم
وكلما نجحت مآربه صار عند المغفلين بطلا
كهير قل .. ونهض رجال السياسة يمشرون
الاثينيين ان فيليب صديق الاثينيين .. أكبر
عقبة في حياة ديموستين ان يحمل قومه على
اليقظة والعمل - كان ديموستين بصيرا لا
يخدمه ظواهر الاشياء وكان ذكيا مرهف الحس
والجنان يرى حواقب الامور قبل ان تقع واوتي
لسانا صارما بطلا ولا تشفى عزيمته الهزائم
وكان الهزائم كانت محكا لارادته لا تصيبه لطمة
حتى تزيد يقظة واشبه ما شهت به طبيعة
ديموستين غرائز الوفاء في الكلب الامين وقد
قيل انه رضي من هذه الصفة وقال للاثينيين
بعد هزيمة كيرونه حين سألهم الاسكندر ان
يسلموه خطيباهم رهائن ، نهض ديموستين
فقال لهم « ان اللب قد عقد معاهدة مع الغنم
سألهم فيها ان يسلموه الكلاب رهينة فلما أخذ
الكلاب عاث قتلا في الغنم »

وديموستين مكث حارما وفيثا امينا على
شرف وطنه وعلى ميراث للمجد والبطولة منذ
اسمع المثلين يباهه حتى شرب السم في معبد

أخذها آخر حصن من حصون الحرية تسمع
أذان العدل والبطولة .. لله رب العالمين
**والحرية أم بطولية والعدل « يسوم » في
العبودية يذهب بنصف فضائل الرجال**
.. كانت اثينا حرة في القرن الرابع ق . م وكانت
منابرها يرقى اليها خطباء يلهون بالخطابة
ويتعلقون العامة ويسعدون بمقامات النفوذ
والحكم .. ونهض الى منابر السياسة خطيب
يسمعه حقيقة انفسهم ويذكرهم بمن خلا
من آباءهم من أبطال الانسانية يسمعه صوت
انتيجونه ودين سقراط والاثينيون لا يكادون
يصدقون ما يؤذن به ديموستين وينصرفون عنه
كانما ينصرفون عن تلميذ يسمعه حديثا من
ادب قديم ، قد افقوا علم السوفسطائيين
والفوا خطباء الزور الذين اشتراهم فيليب
المقدوني الذي طلع نجمه من جبال مقدونية
بشمس دين جديد ومدنية جديدة .. انه فجر
المدنية الحديثة وهو لا يؤمن بزيوس الا فيما
يخدع به ضماير الناس ولا يكتثر بالعدل وهو
مؤمن بسلطان المال الذي اثر عنه ان يغلا يعمل
ذهبا قد يفتح لجيوشه كل حصون المدائن
وأمن بالقوة وكان ادهى المراوغين المخادمين لا
يعبأ ان اراد أرضا ان يقتل بينها ويهدم ديارها
ويدخلها وهي مرع للجن والذل وأشباح
المساكين من الشيوخ والنساء ... كان أمير
جيش من باربار مقدونية الذين يطيعونه لانه
اقواهم واداهاهم وأصبرهم على الجهد والمكر ..
ولا يأخذ من آداب الاغريق الا ما كان رينة
يزين به ببرية حبه ومقاصده ، اوتي مناجم
من ذهب فاشترى بها أمثال اريسطو - وأما
اريسطو فلم يعلم الاسكندر شيئا في هام وبعض هام
واريسطو ايضا اب الفكر في المدنية الحديثة
وهو طراز جديد من مثل المعلمين في آخر
مدينة الإبطال .. اشتراه فيليب المقدوني
ليزداد المخدوعون خداما وارسل خيله
للالعاب الاولمبية التي اقترنت حينئذ من
معنى الالعاب الاولمبية الحديثة اى مظاهرة
المحترفين من اقوياء الاجسام الذين لا يؤمنون
بدين العدل والبطولة كالذين خلوا

وجعلوا الشرف ديناً ، وما ندرى لعله أيضاً كان مؤمناً انه رسول دين الابطال الاولين . . انه ينظر الى الخطر الراض في مقدونه لياكل المحرث والنسل .

لولا ان رجلا كفيليب بنى قوته على أساس من الشر والجشع فلا تلبث هذه القوة ان تنهار رأساً على عقب اذا لقيت صدمة صغيرة - كلا ايها الاثينيون لا يبنى احد ملكاً قوياً ثابتاً بالظلم وبالكلب والبعثت بالايمان وقد تصمد هذه القوة مرة وتصمد زمناً طويلاً وقد ترهز آمالها اذا صاحبها القادير ثم لا تلبث ان يكتشف الزمان جرميتها فتتهار انقاصاً بعضها فوق بعضى - اذا كان أساس البيوت والسفن وما شابه ذلك لا بد ان يكون أساساً متيناً قوياً ، كذلك مبادئ السياسة وقواعدها يجب ان تقوم علم أسس من الصنق والعمل - وهذا الأساس معدوم في كل ما فعله فيليب .

مكث ديموستين يوقظ قومه وهم رقود أو تملون بقوة النصر والذهب الحبيطة بفيليب . . . وكان أشد ما اعترضه تحول أكثر الناس الى ثراء المال وخداع السياسة والتجارة وكما ذكر ديموستين الاثينيون بأياهم الماجدين ظهر الخلاف بين أبطال ملراتون في أول القرن الخامس وبين جيل ديموستين كالخلاف بين مبادئ مدينة العدل ومدينة المال الحديثة .

آباؤهم كانوا ابطالا يتهضون بأنفسهم للدود من الوطن وكانوا يعيشون متواضعين . . لو بحثت في أثينا أذن من بيت أريستيد العادل وبيت ميلثادس لوجدت دوراً لا تملو على جيرانها ، وكانوا مؤمنين بالعدل والتقوى أما جيل ديموستين فقد تاجروا بالسياسة فبنت أحدهم أصبح عالياً كمعابد المدينة وقد كان الأولون يرون الإمة سيدة وولية ما يتلون من شرف وانقلب جيل ديموستين غراً غشوا أمتهم وجمعوا أموالها في أيديهم يتصدقون بها على من شاؤوا . . ان الذي غلب ديموستين

ليموت بعد جهاده في جوار الله . . أما بحارب بجهد الابرار آفات قومه التي كانت أخطر على المدينة وشرف الوطن من فيليب للقذوني .

متى يا رجال أثينا - متى تفعلون واجبك ؟ اتنتظرون أمراً ؟ لا ريب انكم تنتظرون أن تثيركم ضرورة قصوى فبالله كيف تسمعون ما حدث ؟ اني اعتقد ان اقصى ضرورة تصيب الاحرار ان يمسهم العار في أعمالهم . . قولوا لي أتريدون ان تدوروا في الاسواق تسالون من تلبثون هل من جديد ؟ هل حدث جديد ؟ اغرب من ان تروا رجلاً من مقدونية يمدح حرباً على الاثينيين ويتحكم في مصائر بلاد الاغريق . . هل مات فيليب ، لا والله انه مريض . . هل تجدون فرقاً بين موته ومرضه - فلو أصابته مصيبة فستخلقون من انفسكم فيليباً آخر طالما عالجتم سياستكم بهذه العقلية - ان اهتملكم وغفلتكم مكننا لفيليب أكثر من قوة جيوشه ، قال قائل قولاً يا رجال أثينا انه رجل من غير جموعكم وهو الذي يتطاير خطماً ان نجحت سياستي انه يقول ما نفعنا من خطب ديموستين انه يتقدم للمنابر كلما طاب نفساً بذلك ثم يملأ آذاننا بكلامه وينتقد الزمان الذي نحن فيه ويحمد زمان اجدادنا حتى اذا رفعنا الى السحاب وملأنا غروراً نزل . . لو انني استطيع ان اقنعكم بما أقول اذن لنال الوطن خير كثير لو اعدده اليوم لا يصدقني أكثرهم كأنها مبالغة وما اعتقد ان ذلك نفع قليل اذا عودتكم ان تسمعوا أحسن النصع ومن اراد ايها الاثينيون ان ينفخ وطنه فيلينا بصلاج آذانتكم ، ان آذانتكم مريضة فقد عودكم ان تسمعوا الكلرب وكل شيء ما هذا النصع السديد »

لا يكل ديموستين من صيحات منكرة يوقظ بها المخذوعين ولا يريد ان يشبه بالخطباء الذين يأتون المحافل يقول بليغ ولكن خطبه جميعاً عمل وحض على العمل ، وعمل ديموستين منذ أوله كان عملاً لا تليقه الا نفوس الابطال الذين جعلوا حب الاوطان ديناً

البطولة والمجد وهو غير اهل للمجد والشرف .. ولو اطلق الاثينيون ايديهم فتوجوا بتاج المجد من يستحقه ومن لا يستحقه فستكون النتيجة أن يكف الناس عن الاجتهاد وتسوء امور المدينة ومالههم يفعلون اليوم ما لم يفعله آباؤهم الماجدون .. اى الرجال كان اعظم .. تيممستوكل القائد الذى غلب القرس فى معركة سلامين أم ديومستين الذى ولى هاربيا ، أم ميلتياد الذى غلب البربرياد فى ماراثون ، أم هذا الرجل .. أم الذين جاءوا بالشص من منفاه أم اريستيد الذى لقب بالعدل وهو لقب لا يحمله اسم ديومستين - وديومستين يصبح حتى يقبض المال فاذا قبضه سكت - وكذلك يسمى دين' السفسة تقوى انتيجونه كقرا وعمل سقراط كقرا وفسادا وطولة ديومستين شؤما وخيانة .

ونحن اذا حصرنا خطبة التاج نسمع صيحتين : صيحة اعداء ديومستين وفيها كل ما يؤمن به مدرسة السفسة وقد نجحت بنجاح جيشها ان تدخل على الانسانية من كل باب وصيحة ديومستين وهي صيحة الابطال فى مقرب المدينة وتعتمد حياتهم على البر بأوطانهم والارتفاع فى هذا البر الى البطولة .

« أما انا فقد انزلتكم هنا وفى كل مكان ارسلتموني اليه فقد كانت المدائن مريضة والذين بيدهم مصائر المدائن كانوا يشترتون ويخونون بشمن من المال وافراد المدائن أما جهلة لا يصرون أو استعصموا الراحة والبطالة ، وظن كل امرئ ان السيل سيهيظ على غيره ويبقى هو بمان ، وكانت النتيجة أن ضيع الاكثرون حريتهم ثمنا لاخلادهم الى هذا التهانو وعرف الحكام الذين ظنوا أنهم يبيعون كل شيء ، الا انفسهم قد باعوا انفسهم قبل كل شيء ، كقوا يدعون اصدقاء فليبب والاسكندر

هو وذيلة الاثينيين الذين فسد تعليمهم ودخلوا قبل فليبب فى دين المال وتمجيد القوة التي لا تقوم على العدل ، وجهاد ديومستين كان خاتمة الايمان بدين الاولين وبداية الايمان بالذهب والفضة والسفسطة واشتمل ملك فيليب كالطوفان على مدائن الاغريق واحدة بعد الاخرى وغلب فيليب اثينا ولم يغلب فيليب ديومستين .. فهزيمة كيرونيه جعلت بيت ديومستين بيت الامة وجعلت ديومستين ابا لوطنه ولدين الابطال الاولين ولم تطفأ مصابيح الحرية فى اثينا بغير مجد ..

« عرض كتيزيفون على الاثينيين ان يتوجوا ديومستين بتاج من ذهب لبطولته وحبه لوطنه وخيره على بلاد الاغريق وعلى وطنه ولم يكف فى خطبه وفى اعماله عن ان يفعل الخير لوطنه وكان وفيما يفعل كل ما يستطيع من الخير » .

ولا يرقى فيليب والاسكندر الى شرف ديومستين وما يملكان الا ان يغلبا بالقوة والمكر وحيل الحرب والسياسة ، وكل خطبة من خطب ديومستين لزمزع ملكهم ونصرهم وتلبسهم خزي البربرية فى العالمين وتمنوا لو تزل صيحات ديومستين من صحف التاريخ حتى يدعوا ان نصرهم كان نصرا للمدينة الاثريقية ، فاطلقوا السنة الضطباء فى اثينا ليحرموا ديومستين من تاج المجد ويحكموا عليه بداهم .. فهو حقوق لهم منافع خائن خان اصدقائه .. مقلد يتلذذ الضطباء الماجدين لا يريد من السياسة شيئا سوى ما تدره عليه السياسة - وهو جبان شؤم جر على اليونان كل الولايات .. الرجل الذى افرق الاغريق .. وهو من أم اجنبية وهو جاسوس وهو يعيش من مصائب قومه وهو بليغ فى الكلام ولكنه يعيش ميشة منكرة .. القائد جميلة وافعال السود .. فكيف يتوج الاثينيون رجلا بتاج

وجيرانه اسماء حملوها وهم يقبضون لمن خيانتهم وأصبحوا يسمون - أنفسهم - أنهم ليسوا الا متعلمين اعداء الالهة وكل ما هم أهل له من الاسماء »

« فإذا كانت مدينتنا فاعلة وهي ترى فيليب يبني على انقاض مدائن الافريق ملكا وتيرانية وماذا كان على من يولي الاثينيين النصيح ان يقول وان يكتب - لان هذه اهم مسألة فانا قد استيقنتم ان وطني منذ اوله الى ان نهضت لثأره كان يناضل في سبيل الصدارة والمجد والشرف ، وان مدينتنا اتفقت من المال والرجال في سبيل المجد وما ينفع الناس جميعاً اكثر مما اتفقت كل مدينة في سبيل حاجتها وقد رايت فيليب نفسه الذي كان علينا ان نصارمه قد فقد عينه في سبيل الملك والسلطان وكسر كسحه وتمطلت ساقه وساعده وكل ما اخذت المقادير من اعضاء جسمه ، ضحى بذلك ليعيش بعد ذلك مجيداً ذا شأن وما كان احد يظن ان رجلاً نشأ في بلد صغير غير ذي مجد قد يأخذه الطموح الى ان يبني ملكاً من بلاد الافريق ويجعل ذلك نصب عينيه - وانتم ايها الاثينيون تشهدون كل يوم في كل شيء، في خطب الخطباء وفيما تشهدون من آثار بطولة آباؤكم واجدادكم ثم يكون قدركم السوء ان تقدموا طائعين مختارين حريتمكم الى فيليب . . ليس منكم من يرضى بذلك ولم يبق لكم الا ان تعترضوا بالعدل اعماله الظالمة »

وكذلك ظهرت في آخر مدينة العدل ما بنت هذه المدينة من دين في اولها ، أي اعتراف العادلين امام ربة العدالة أنهم لم يرتكبوا ظلماً طول حياتهم . . وظاهر خطبة التاج حساب يقدمه ديموستين للاثينيين من حياته العامة والخاصة فهو يبسط احداثاً شارك فيها ولكنه يفكر بقلبه ان هذه الاحداث لم تكن الا

تعبيراً عن ايمانه بالعدل . . فهو اساساً لم يرتكب ظلماً وأنه يتحدى بالعدل ظلم مطامع الفزاة - وأنه لم تفلح لديه مغريات المال - وأنه أنفق ماله الخاص ليعين أثينا على اصلاحها واصلاح سفنها وأنه امان الضعيف ونسي الضعيفة في سبيل الخير . .

« وبذلك اراتني أهلاً للثناء . . لانني كنت في كل سياستي اعتنق المبادئ التي تكسب امتي المجد والشرف والقوة . . لا تجسّدون في سياستي حيلة ولا ضعة ولا شروراً ولا سفالة ولا شيئاً يخزي وطني ، وقد تخطت بهذه الاخلاق فيما عالجته من سياسة وطني وفيما باشرت من سياسة الافريق لم اولي حظوة الاغنياء على حقوق الاثريين في سياسة بلاد الافريق ، لم تغرنى عطايأ فيليب وما عرض عليّ من حق الجوار فتصرفني عما ينفع الهيلينيين كافة »

في تهذيب ديموستين فوق الايمان بصلاة الابطال والعدل ، صفة كالتى يتحدث عنها الغلاطون في تهذيب مدينة العادلين ، فليس التعليم حشواً للذاكرة بالانفاظ والعبارات وانما هو لفت الروح والعقل الى صورة الخير الدائم الخالد . . فهو منذ منشاء بتأمل بقلبه وعقله وما خلد الابطال من مجد وهو يرتقي في آماله الى دينهم ثم يتخذهم مثلاً فيما يعالج من سياسة امته .

« كان آباؤه يغثون المستجير ان استجارهم لان الموت هو خاتمة الحياة ولو هرب انسان منه في حجرته . . وعلى ذلك فواجب الخيرين الا يفعلوا الا الخير آمليين امل الخير في النصر . . ويحتملون بجنان ثابت ما يأتي به الله وذلك الذي تخلق به اجداد الاثينيين .

قد وقعت الكارثة فانصر فيليب وهزمت

(١٠) - الخاتمة

العقل الأفريقي في العقل الحديث

انتهت بهزيمة ديومستين مدينة الصل والخير ، ومضت امبراطورية الاسكندر تعلم علماً جديداً هو امتداد علوم السفسطة في البلاغة والكلام وبعض المعارف العلمية واحتفظت مفروسة الاسكندرية بمكتبة النصوص اليونانية .

وتعلم الرومان البلاغة اليونانية وترجموا كثيراً من كتبها وقلدوا الايالة . . . وارتفع فيهم رجال الى اقدار ابطال الاثينيين . . . لا تنتهي الجمهورية الرومانية حتى ينهض على انقاضها يوليوس قيصر منتصراً بدهام الحرب وسُلطان المال كقيليب والاسكندر وينهض سيسرو لحماية الحرية كما نصرها ديومستين في تلريخ المدينة الافريقية ، وهذه التجربة الاولى تكاد تثبت ظاهرة الخصب والخلود في العقل الأفريقي فحيثما بلغ اتي بشمار كثره الاول . . . لم تعود مدينة الغرب بعد النهضة فتأخذ بأسباب العقل الأفريقي وفختر نظاماً كنظم المدائن الافريقية وينبع فيها رجال يحملون مصائر قومهم كأبطال الافريق ويقوم فيهم رجال يشبهون الاسكندر وآخرون يشبهون انفسهم بديومستين وقبى الجامعات على طراز افريقي . . . ويعترف علماء الغرب انهم مدنيون للافريق بكل شيء . . . في السياسة والتعليم والآداب والعلوم والفنون ، ومن باخذ بفواهر الامور يبصر تجربة ثانية من خصب العقل الأفريقي ، واذا آمننا النظر في هذه المسألة الترامية الاطراف نجد ان العقل الروماني والعقل الحديث لم يحملا سر العقل الأفريقي . . . الاول كان معدنا حراً صافياً يدين يدين الصل والخلود والرومان وورثة الفكر الحديث

جيوش ديومستين . . فكيف يدفع ديومستين عن نفسه مهام اعداء كثيرين تقموا عليه مجده لان ظاهر الهزيمة بشع ووراء الهزيمة دين المجاهدين الذين تملخوا في أسرة الابطال ان ينهضوا لنصرة الشرف لا يعبأون بالموت .

« كلا ايها الاثينيون لا تلوموا انفسكم لانكم لا تقيم الاخطار في سبيل حرية الانسانية وسلامتها كلا واقسم بمن لاقي الاخطار من اجدادنا في مراون ، كلا واقسم بالذين صفوا للقتال في بلاتيا ومن قاتلوا في سلاسين وارتيميزون ، وبالابطال الكثيرين الذين يرقدون في معابد الامة ولم تحرمهم المدينة من تمجيد المولى ، كلا ولم تقصر المدينة تمجيدها على المنتصرين والفائزين . . . وذلك هو الحق والعدل فقد ادوا واجب الابطال المادلين . . . اما جزائهم فقد نال كل منهم ما قدر الله له »

« اني اعتقد ان مصر امتنا كان مصرأ سعيداً ، وذلك هو رأيي وذلك الذي نباكتم به نبوة زيوس في (دورون) مصر الانسانية الآن اصبح اليما سيرا فنمدا الذي لم يلق الااما وشروا لا تعد من الافريق او البربر »

اني كنت في روابلي الانسانية صديقا وفيما وكنت معوانا في الشدائد . . . قد اعتقت من مالي اسرى الحرب وعاونت رجالا في دفع مهر بنائهم . »

ثم يقول ديومستين وحراب الاسكندر مشهورة . . . ان الانسانية جميعا قد لاقت مصيرا اليما في دولة فيليب وسُلطان الاسكندر . . . ان اثينا في حداثها لم تجد ابا للوطن احق بهذا المجد من ديومستين . . .

لم يؤمنوا قبل أن يتهدبوا بدين الإبطال الماديين
الخالدين فشابهوهم في الاسم ولم يشبهوهم
في الروح الا فئة قليلة بنت عقلا بمصامية
مستقلة فجاءت بشعر قريب من ثمار الافريق -
ف/ كليمنصو الذي كتب آخر أيامه كتابا عن
ديموستين كان بناء شريفا محترما وبعلا وطنيا
لا ينكر بطولته احد ، والدكتور سقيتلو
الموسيقي الفيلسوف الكاتب المالم الذي
يقضي عمره في مجاهل افريقيا يداوى المرضى
له والخير مثل قريب من الشرف الافريقي . .
ولا تكون المدنية مدنية اذا جعلت غاية الانسان
المال ونسيته العدل والخير . . والذين اخلوا
من العقل الافريقي آداب حب المال والتسلط
قد انفقوا حياتهم في ابتزاز المال من كل سميل

وبناء ملك على انقاض الانسانية ومكنهم العلم
من فزو الفشاء ولكن هؤلاء لم ياخلوا باسباب
المدنية الافريقية الاولى التي بناها ابطال العدل
والخير وكانوا كبروميشيوس الذي سرق لبسا
من نود الله ولم يات بالعدل لان العدل متصل
بالله ، وبروميشيوس لم يستطع أن يلج الى سر
الله الاعلى أي العدل وكان عقاب الانسان أن
يعيش كما يقول سقراط : مكلفا بأن يملأ وعاء
مثقوبا بدلو مثقوب . . فما تعاني منه المدنية
الفريية الحديثة حب المال والجهل بالعدل
والخطود ، وجمال تجربتهم أن خرج على افواج
التعلمين رجال بلفوا شاو ابطال العدل والخير
في الحياة وفي الموت .

الأدب المهجري الآخر

شاكرمصطفى*

لمة دوما اسد يزور
ونظرة تمنح الفئ

وساعة أنامل في ذاتي
أسمع
أصوات الأجداد
تصاعد في داخلي
مبهمة ، بعيدة ، رائعة

لقد شهدت كافة فترات الألق من قومي
قومي الذين أتوا العالم
بمصر لا يحور
مصر كالفجر !

ما أحسب أن الكثيرين في هذا الشرق العربي
قرأوا « قصيدة الدم » القصيدة التي تقول
« بالبر تغالية » :

Aralia Estas en mi
A imagen de tus desiertos
Mi verso se hizo
Ele es infinito ardiente

يا بلاد العرب ! أنك في ذاتي
على صورة صحراواتك
يصاغ شعري
أنه لا نهائي ومتقد !

أني صورة منك أخرى
ففي مأساة جسدي وروحي

* شاكرمصطفى محاضر في التاريخ الإسلامي بجامعة الكويت . كان وزيراً لموسى لبلان « سوريا » في كولومبيا والبرازيل ، وله اهتمامات واسعة بالأدب الهجري . ولقد نشر عدة بحوث وكتب في هذا المجال ومن ذلك مساهمته في كتاب : « الفن القصص البرازيلي » بالاشتراك مع نظمه ورد.

والأدب المهجري أضحى جزءا منا ولنا ، بإيقاعه الوجودي ، ولونيات فكره وصراحه . وتصوفه الانساني الساذج ، ونضاله القومي . الإباء ، الجيل السابق من المفترين الى الأمريكتين خاصة ، هم الذين كتبوا ذلك الأدب الذي نعرف وانما أريد أن أتحدث عن الوجه الآخر للقمر ، الوجه المجهول ، من الأدب المهجري الثاني . الأبناء الذين ولدوا ونشأوا هناك في المغرب ، على الأندلس الفريسة هم الذين صنعوه . هم الجيل التالي . ولكنه الجيل « الغريب الوجه واليد واللسان » ان الفكر العربي يعطيهم هناك عطشه الانساني الذي تعود . يعطي ، كما قد طالما أعطى وأخذ ، في تاريخه الألفي الطويل . .

هذا الأدب المهجري الآخر، نجومه، جلوده، ملحمة الأرض معه ، شبق الكرم والخمر عليه ، رنين دهورنا العتيقة فيه ، كل ذلك قد يبدو غريبا، مفاجئا كأخبار الكنوز والسحر العتيق، ولكنه واقع يدرك بين الناس ذلك الأدب العربي . . غير العربي !

لقد أكون هاهنا ذكرتكم بالأدب الجزائري-الفرنسي . بكتابه المعالقة . بتخطيه المأسوي ضمن الحرف الأجنبي . ولقد أكون بعثت شيئا من شجى في كل لهأة ولكن لا

فان اللى بيني وبين بني أبي

وبين بني عمي لمختلف جدا !

يوم ألقى الكاتب الجزائري « مالك حداد » محاضراته في دمشق سنة ١٩٦٤ حول «مأساة التعبير لدى كتاب الجزائر » ويوم جسد للناس مأساته في معجزة لسانه أمام أخته وبين بني عمه ، ويوم دوى قول الفرنسي له :

« - ان وطني هو اللغة الفرنسية

وجوابه : - ان اللغة الفرنسية هي المنفى الذي أعيش فيه . »

يومذاك أحسب أن سحابة من المطر الأخرس

عربي ذلك الذي كتب قصيدة الدم هذه ، إلا أنه كتبها في غير العربية ، تركها ترحف تكرة ، في الحرف البرتغالي ، لأنه يجهل لغة هؤلاء الذين يعني بهم ولهم ، أرضا وإجدادا والفا وفيه نخيل ألف قصيدة وقصيدة من مثل هذه ، ألف مقال ، ألف رواية ، ألف قصة تسرب الآن في الناس هناك وراء بحر الظلمات لا نعرف عنها شيئا ، ولو أنها بنت هذه الأرض وهذه الصحراء الممدودة ، وهذا الفكر العربي وهذا الدم العتيق . ان كولومبوس لم يكتشف أمريكا بعدا وهذا النتاج المكتوب بالبرتغالية تارة ، وبالاسبانية تارات وبالانجليزية والفرنسية أيضا ، محبوب وراء الغيب ، مضروب عليه بسدين اثنين من مسدود ذي القرنين لياجوج وماجوج : سد اللغة العربية وسد البعد المسحيق . . تكلت أقول أيضا : وسد الجهل المعزق !

وانا لتحدث في الأدب العربي . الحديث الطويل ، وتحدث في صلاله بالأدب العربية حديثا أطول . . وانا لترجم دوستوفسكي ونناقش سارتر ونقرأ شو، ونشغف بهيمنغواي، ونشرب جلدونا جهرا أو سريا من البيوت وبأوندد، ومن الرمزين وما وراء الانطباعيين . . ولكننا قلما نمر انتباهنا الى هذه الأقلام التي افترت منا وراء الأفاق ، حتى في الحرف . قلما نذكر ان بين المفترين المهاجرين مع أرضنا ، من هذا :

غريب الوجه واليد واللسان

فهو ينتج لآخرين وبلغة الآخرين وان كانت جلوده ما تزال تنبض كالشرابين في هذه الأرض .

المدرسة المهجرية في الأدب والشعر نمرها . جبران ، المعالفة . فرحات . القنوري . مريضة . أبو ماضي . . كثيرون منا عاشوا على أنسابهم والحدود . منذ أربعين سنة تقريبا وهذا الأدب يتوغل فينا حتى اثبت في هذه السنوات الخمس والعشرين الأخيرة نفسه مدرسة معروفة لها كيثانها والدارسون والنقاد .

التي تجرنا إليها جر جبال الغناطيس للراكب في ألف ليلة وليلة هي الأهيبي في الورك هناك ، الأهيبي فقط ! ان أبناء المغتربين لا يحسون أنهم يقطعون كل جبل منوا وهم يتكبرون بغير لغتنا . ولا يأسون لهذا التقطع في الأواصر مع هذا الوطن . الأب ، مع هذا التراث وإلى الأبد وهم يعانون الحرف الغريب !

حب الوطن ، هذا التعاطف الرحماني بين التراب وأهله وماضيه وهي ثم وهي .. أنه كمواطف الآباء والأبناء والأحفاد ، يتجه نحو الغد لا الأمس ، مناهة نزولي لا صعودي . يعتمد من الأب إلى الابن ، وليس يعرف طريق الرجوع هوذا . ان الكتاب الجزائريين يحسون المأساة لأنهم يريدون تخطيها ، لأنهم يمشرون بفد عربي منتظر في الجزائر ، ولكن الفكر العربي في المهاجر ماله في ذاته . من مأساة . لأنه فقد ذلك الغد العربي المنتظر . لا يطعم أن يكون غير ما هو . الاسي ألما هو فينا نحن . وألما هو أسانا لتلك القوى المبهمة التي فوطت منا دون أمل بمودة ، سفع منه في رمل .. وإذا كان مالك حداد قد أعلن دون درامية ولا صراخ مسرحي انتهاء جيله ، مصرع دوره مع آخر رصاصة في الثورة الجزائرية ، حتمية تركة المكان للجيل العربي الذي هو لا بد أت .. فإن من سوف تحدث عنهم : دل مار ، إيليجي ، مدور ، كارليو ، سايبا ، والآخرين هم بداية الأجيال التي أضعنائها ونسيعها هناك وراء البحر المحيط إلى غير عودة .

قبل أن أروي بعض ملامحهم . وما أخالني استطاع أن أروي ها هنا أكثر من بعض الملامح . أشد إلى الأسطر ملاحظات لالا :

الأولى : ان ثمة أدباء منا كتبوا عن طوامة « في لبنان مثلا وفي مصر » أو مورغين « في الجزائر وتونس والغرب » أو تجاوبا مع البيئة والظرف ، أدابهم بغير العربية ، البحث لو انداح أو شئت لسه أن يتداح حتى حدوده المشروعة الآن لم . ثم طوى قافلة من الكتاب طويلة ، وألما من البحث بعيدة ، يبدأ في لبنان

فيها الكثير من التعيب والجديد ، كانت تحوم على الأجنان وفي السرائر ، وعند أركان القاعة وكنا ركنا . أنا عرفتها هذه السحابة . عرفت أفجع منها . بل ! عشت تديرها وعويلها المجنون خمس سنوات طويلة وأنا أنقل الخطأ ، حيث نقل الخطأ كل مغترب من بلادى في الأمريكيتين .

كل ما اخترنت من التآجج العاطفي وأنا منطلق هناك بين دروب العالم الجديد ، الصنم الذهبي الكبير المنتصب ودا تلك المراقاة البعيدة ، أماجيب الوهم والعمل والثروة والنهر الوحشي والغاية المفترسة والعديد المروك فوق العواطف ، كل أولئك لم تصعب هي تلك السحابة الفاجعة التي طاردتني منذ المرفأ الأول ، وظلت تهمني ثم تهمني ، وحلا تارة ، ولها تارات فوق جبلة الطين التي تصوغ مني المروق والمطام وما وراء القواد !

كان « مالك حداد » يمثل مأساة ذات ، نعت نجة فإذا بها تنكر أهابها والأصباغ . يتحدث من غربة فكر رهيبة يحسها في الحرف الغريب . يروي صراع فكس يريد الإرادة القاسية الفاجعة أن يلحم بهويته ! ولكنه كان يتحدث من مأساة عابرة موقفة . المد العربي بدأ يتجاوزها ويمحوها . أما في المهجر الأمريكي الآن ، لدى الأبناء فلا مأساة ولا غربة ولا صراع . حتى قصيدة الدم هذه التي ذكرت نشيدا منها ، « ما خطر لها أن تعرف الحرف العربي » المأساة وحيدة الطرف هناك . من جانب واحد : جانبنا نحن !

أولئك الذين لربناهم هناك من أهلنا لا يعرفونها . أخوارهم لا تحسها . المروية التي هي مني كلي ، ومنك تلك ، أضحت فيهم شيئا من الماضي الرومانسي البعيد . هي نداء فقط ليس من سبيل إلى أفعالها ، لأنها تسيل بالرغم منهم في الشرايين . هي واقع موصول بالفواض البعيدة منهم ، ولكنهم يجهلون معنى دنياه في الأرض والزمن . حتى مصائرنا وصراعاتنا وماسينا الجارفة ، حتى عقائدنا

مثلا باستكندر غانم ، وينتهى بجورج شحادة . ويضم قوافل الكتاب الجزائريين وبعض المصريين ممن كتبوا بالفرنسية ، وقوافل من مثلهم كتبوا بالانجليزية ، وغيرها .. وبعض هؤلاء جميعا معروف للناس ، ولهذا قصدت الى ذلك الفكر المجهول كل الجهل ، الذي انتجته ابنائنا في أمريكا الجنوبية « بالاسبانية » وعلى التخصيص في البرازيل « بالبرتغالية » .

الثانية : اني انما اقدم نماذج ممن عرفت ومما عرفت . لا هي الى الاحاطة ولا هي الى الحديث الشامل الوافي ، ولا هي الى العمق والدرس والتحليل . سبيل ذلك كله او بعضه سبيل طويل ، وتخصص وجهد ومراجعتموزني كلها الآن . اليس حسبي يا ترى ان افتتح بعض الكوى ما دام ذلك العالم جميعه مجهولا حتى اليوم ؟

الثالثة : اني لا اناقش ها هنا عروبة هذا الادب . انها اشارة استفهام الى تلك العروبة ، ولقد تكبر من تكبر عند اليأس او تصغر لم تصغر حتى يفتش الصورة ما يفتش . اما عندي فما كذب الفؤاد ما رأى . افتمارونه على ما يرى ؟

انسى لآراء عربي الروح وان يكن اعجمي التعبير . انه في النسيج التكويني وفي منحى الوجود والحركة شيء منا ، باى لغة كتب ! ولقد يكون لغزى رأى آخر يطرده خارج الهيكل العربي او يضعه بالمكس عند قدس الاقداس ، ويندو لتعريبه وتبنيه . ولست هنا لادافع عن هذا الرأى او اكفصه لذلك ، فما الى شيء من ذلك قصدت . ولكنها مناسبة اكنتني منها الآن بان اسفح المشكلة ..

اول القصة : كان ما كان ..

.. وكالعادة التاريخية المتيقة المتيقة ، منذ فينيق وشراصه ، حتى الظلام المسماني

الأخير ، غرب بعض شبابنا منذ سبعين ولمائين سنة تغريبة جديدة . تركوا الشاطئ الشامى واخترقوا البحر المتوسط الى بحر الظلمات ، وما كان « الأطلسي » بالنسبة اليهم سوى « بحر الظلمات » وان كانت تقوم وراءه : « امالكا » (١) التي كانت في زعم الناس اواخر القرن الماضي ، بلد الذهب والخير « وانهار من صيل مصفى للشاربين » ! .. كانت جنة المقرب ! ثم جاءت الأخبار مصدقة للشائعات واغتنى بعض من اغترب ، فاذا بأنبائهم التي للمها المقيمين حبال من وهم وأسطورة تجر الألوف سنة بعد سنة بعد سنة . وشدنت اشرة ما كان للعبة الام ان تمسكها عن الشد بينما العصر الاقتصادي يطردها في البحر .. « امالكا » ! « امالكا » !

كان من الصعب ان يقاوم احد ، لا سيما في المناطق الفقيرة والبقاع ذات التربة ، هذا النداء « السرينى » ذا الأغراء العجيب ، ولو وضعت الاصابع في الاذان او صب فيها الشمع المذاب كانت أمريكا يومئذ عجلا ذهبيا له خوار . ولكن معظم الذين تراكضوا كانوا اضلعا فارغة ممرقة وبضاعة من جهل كثير . وقد تقيهم اسفل البواخر قيما هم وحظهم ، باى مرقا . وهكذا زرعوا على المراىء التي لا يعلمون والتي لا يريدون ، زراة الصدفه أو هوى الربانة أو سمسرة السفر .. فكان ان ضربوا الاوتاد وفرسوا الدرارى ، وجنوا شيئا من النشب ، فمنهم من عاد وهو الاقل ومنهم من ابتلعه العالم الجديد وابتلع ذريته ، فاذا هو الآن جثة في التراب الأخرس ، أما الابناء فلألام الجديدة التي تنشأ هناك ، ليس لنا منها حتى سؤر الذكري ! خسرنا منهم الأب السلى اغترب ، وماله وماكسب ، وذريته الذين ولد .. الخالد الوحيد الذى بقي في ايدينا منهم ، من تلك المحمة الاغترابية الواسعة ذات الآلاف من الفصول الشجية ، هو ما اضافته الى تراثنا الادبي الحديث من غناه .

١ - هكذا كان العامة ينطقون كلمة « أمريكا » ولما ذكرتها لكتوبه بالجهل المطبق يحاول تلك المناطق لدى المقربين اليها .

أخذوها من ترانثا العريق المعتد حتى الجاهلية، كانت هربا لا صراما، كانت ردود فعل سلبية لا وقفة إيجابية مبدعة أمام القدر، للقدر.

والفرقة ثانيا كتجربة معاشة، كحياة في صميم الأمة للتفاعل معها واستكناه الباقي والتخالد الأعمق منها، ما وصفنا أدب المهجر، قصة الأحوال والجوع والقمل والجماعيم الفارغة الميوت، ورعب الغابة الأمازونية، وفواجع المفائر والكهوف وطبول البدائيين، « والتوركو » (١) المحلا، كالجمال الأجرب من باب إلى باب، والسير الطويل الطويل تحت الحمل لا ينهي حتى الموت، وآتين « المتابا » الممدود مع البكاء.. كل تلك القصة - الملحمة، من ذا الذي رواها أو روى طرفا منها ؟ لقد عاشوها غصة غصة ولكنهم لم يمربوها ولم يكونوا أهلا للتعبير عن تجربتها المرة.. ما سجلوا منها إلا الظل الباهت وبمضى الذكرى الصفرَاء كل ما فيها من مأسوى وفاجع ومن رنين هول وشقاء يسحق العظم، ذهبت به السنوات فلم يبق منها الآن في التراث المجرى شيء، بل لم يبق منها في المجرين الباقين هناك سوى رأسب عصبي ملهى بالمقد ..

والفرقة ثالثا : كلمتياج لينابيع جديدة، كتفاعل مع الثقافات الأخرى، كافتتاح على لروايات الآخرين في التراث والفكر والقيم والتفاعل معها .. أى ينابيع وأى ثقافة وانفتاح ؟ ما تعلم المفتربون حتى لغة المفترب ليأخذوا منه شيئا . انقسم الأمظم منهم مات وهو لا يقيم جملتين بالغة الأجنبية، لم يقرأ حرفا ولا أعه أن يقرأ الحرف أ .. لا الأدب الأمريكي دخلنى أنسلفهم ولا البرازيلي أو الإسباني ظهرت منهما في الأدب المجرى نسلمات أو أجواء .. وهل أحسست مرة صميم البرازيل أو صعب نيويورك أو دوار جبال الأندلس الممدود أو وحشية الأمازون النهر - الأب، في بعض ذلك الأدب ؟

ولقد غنى أولئك الأبياء الأولون آلامهم وأوطانهم والأفراح، شعرا فهدقا وأدبا جنيا . رروا الحرف خواطرهم، فكانت لنا المدرسة المجرية التى نعرف والتى وضعنا ودرسنا وأحبينا ثلثة بعد ثلثة .

ولكن هذه المدرسة « المجرية » ليست من الهجرة ولا المهجر في شيء . لقد عاشت معنا ولنا . ولئن تمت هناك على الشواطئ البعيدة فإن جذورها والتهاويل والنسخ كانت من ههنا . وجودها « النيويوركي » « أو السان باولى » كان في حدود المكان فقط، أما في التراث والقيم الفكرية والخلقية والجمالية وفى الإلهام فكانت تعيش هنا في شرقنا العربى، في « العرزال » الجبلسي من لبنان، وعلى « الميخاس » من ماضى حمص، وبين الصخور الغبر التى صاغت ذات يوم بعلبك وتسم ! لأنها كانت غريبة هناك مبروت المحيط إلينا على أول مركب مائد، فيكاد لا يبقى الآن منها في المهجر طيف ! ولقد نرى في « الأدب المجرى » ميزات كثيرة من حنين وروحانية وتحسر وأمل وحس إنساني .. ولكنى، في زودة العابر الآن، أزمم أن المجرين لم يعيشوا الفرقة الحقيقية ولكن فروا منها. اضطدوا بها ولكن ما وهوا، ما تركوها تتغلغل في مسام الروح والقلب منهم، بكلمة : لم يفتربوا . ظلوا معنا هنا وأن أكلوا وشربوا هناك على بعد عشرين ألف كيلو متر منا !

الفرقة أولا كتجربة - ذروة، كمعاناة للأقسى والأعنف والألجع، كتصعيد للتناقض حتى يكون القيمة الكبرى. كتسر كامل أمام القدر لصراعه .. هذه الفرقة لم تظهر أبداً في الأدب المجرى . ذلك التوتر الكيانى الذى يفجره لقاء ذاتين غريبتين، ورأعدود الكلد اليومى والاحتزار العابر .. ما عاناه المجرىون . انسانياتهم . الروحانية، التامل . الحنين . التحرر . كلها

١ - كلمة « توركو » كانت الكلمة التى ينيك بها المكثريون العرب في أمريكا الجنوبية وما تزال . وفيها معنى الاحتفال وإنما حمل العرب الكلمة ومعناها منذ الأذوار الأولى لثقافتهم إذ كانوا يحملون الجنسية التركية .

من تراث تليد تفجر .. ولكن للبلد
الغريب وفي الحرف الغريب ! لقد اندثر
« التوركو » فيهم لانه لم يكن له وجود ، وبرز
العربي الخلاق ذو القيم ، برز لا العبادة عليه
ولا العقال ولا لغو الضاد ! لقد اغترب !

وما تجمعهم مدرسة أو خط فكري هؤلاء
« الأبناء » الذين اغتربوا . لقد تكلف انفسنا
الشطط لو رحنا نتقصي حدودنا الفكرية
فيهم ، أو نبحت عن دنيا واحدة أو موحدة من
الفكر . عبت من العبت أن نلهم خصيم في
سقط ، في إطار ، في قناة . انهم أبناء الحياة
الخصبة ، وهل من حدود لأبناء الحياة الا
الحياة ؟ في الحرف الجميل ، أن يبقينا في حدود
الحرف الجميل : أن فيهم الشعراء ، بمختلف
مذاهب الشعر ، وفيهم الوان الرواية والقصة ،
وفيهم عديد الاتجاهات في الفكر والرأى ،
لقد يكون قد أخذوا عن الشرق ، شرقنا
العربي ، اهتوازه للكلمة . تقديسه لها .
مبادها . ولقد يكون بعضهم قد عالى المعاناة
القاسية ، غربة الروح العربية ، في ذلك الوسط
الغريب . التراث الحضارى الألفى في عروقه
لا بد كانت له ارتكاسات وردود فعل ، بعيداً
عن تراثه . ولكنهم لم يعرفوا الغربة الأخرى
التي عرفها الآباء من قبل : غربة القمل والجوع
والاحتقار الملل للإنسانية . الآباء السدين
عاشوها قبلهم كفهوم العناء بما وفروا لهم من
سبيل الرفاه والعيش الرغد والعلم . ولا
عرفوا غربة التفاضل الثقافي .. فقد قيسوا
الثقافات الأخرى وما في أيديهم من الثقافة
العربية شيء ليكون أخذ وعطاء وليكون تفاعل
يبدع . جهل الآباء هو الذي قطع السلسلة فلم
تتصل بين تراث الوطن الأول ، وهؤلاء الأبناء
الذين نشأوا على الاندماج الغربية . هل ضامت

ولقد انتهى الأدب المهجرى الآن . تلك
الظاهرة « الفطرية » التي نبتت كالقصور
الغريبة دون جذور ، وفي غير مكاتها وبدون
غذاء ، كانت ظاهرة عابرة عاشت فترة الرضاع
ثم انقضت . كانت استعالة « مشرقية »
ما أن غاب حاملوها حتى ماتت ذبولا . كانت
« أترابها » جغرافيا كما تنزاح بعض الصخور
فتوجد بعيداً عن منابتها ! لو كانت أصيلة ،
عميقة ، ونبتا جديداً لنمت وامتدت لها
الفرع والجذور وكانت « مدرسة » فعلا ،
وكانت « فصحا » ! ما نسبه « المدرسة »
المهجريه ليس الا شبه مدرسة !

بلى ! انتهى الأدب المهجرى الآن وجفت
منابه ، كل المناصب . انتهى مع اتهام
« المسكاته » (١) « المتيق » و « التوركو »
المتبوع دنيا الاغتراب الأولى وما ضمت أبناء
المسكاته الآن لم يعد فيهم من « يمسكت »
و « التوركو » تلك المقدرة الفرجة في ذكريات
الآباء لم تعد تبسق على الأبناء الا قليلا .
والغترب القديم لم يلد أبنا مغتربا من مثله
هناك ولكن مواطننا أصيلا .. وانتهى المغترب
ليبدأ المواطن !

أنهم . لآلاف مؤلفة هؤلاء المواطنون الذين
يحملون تراثنا في شرايينهم والعظام وراء صورة
اللحم والسم ، الكلبان الذي ألتحموه يمتد
الى جميع قطاعات الحياة . مهندسون .
أطباء . مزارعون بحارة . طيارون . صناعيون .
ماليون للمصارف . رجال أعمال . أساتذة
جامعات . أنطاب في السياسة . فنانون للفن
والريشة والقدم الفاوية . لاعلم في الفقه
والقانون . شعراء كاحلى ما يكون الشعر ،
صحفيون بالقلم الحديد الحديد . كل ما
اخترت الأجيال العربية الخمسون في عروقه

١ - المسكاته Mascate كلمة أسبانية دارجة تعني البائع التجول . وكافة المغتربين إنما بدأوا أول أمرهم بعامه متجولين
يحملون « الكشة » وهي صندوق فيه من البضائع الوان أو ينوون تحت حمل تقبل عنيف من القماش .. للبيع .
وقد اشتق المغتربون من الكلمة هذا عربيا بعد أن اعتبروا الكلمة من لغتهم العربية الدارجة فهم يقولون « يمسكت »
بمعنى يحوز للبيع كما اشتقوا مثل هذا الفصل من كلمات أخرى فهم يقولون « الكوير » أى يقبض من فعل Cobrar ويقض
أى يشقى من Enamorar

ولم يقل لهم أبائهم شيئاً . الإبل يخطلون بهذا الأصل . أما الإبناء فيرون فيه نوعاً من الإعماق الرومانتيكية والرئين الغريب الساذج . صور الأجداد ؟ أنها تلوف لدى واحدكم في جو من الغموض والسر . تعيش خرافة حلوة في التسيج الفوري منه . ولكنه يزين ذلك لنفسه بالأصداء العاطفية الفنية :

وتلفتت عيني فمد خفيته

منى الطلول تلفت القلب

وحين يكتبون أو يتكلمون فانه الوجدان العربي البديء ، دون عقد ولا مضاعفات ولا مركبات ودواشب ولا أفكار مسبقة ذلك الذي يكتب ويتكلم - إن كتب وتكلم - وراء حجة الحرف الذي به يلفون . « قصيدة الدم » التي رويت هي إيقاع القدر فيهم . أنها تجري غامضة في عروفتهم ولكنها تجري . هم فواصل فيها وقواف وأناشيد . كل يفني في أطارها على هواه . ولكن القصيدة تتلاح من حدود المكسك حتى أقصى الأرجنتين .. تربط الجميع إلى قافية واحدة .

أم وددتم لو تنفغل في طوايا هذه القصيدة ؟ لو تكشف وراء الموسيقى والحرف والسطر شخصها والأطياف المجهولة ؟ إذن فلتركب إلى بعض الأقطار . لنذهب مثلاً مع « قصيدة الدم » إلى كولومبيا .

في « بارانكا » على البحر الكاريبي هناك شاعرة هي ميراً دلمار . أصلها من عكاك ولكنها ولدت في كولومبيا . وهي في حوالي الخامسة والأربعين الآن ، ولكنها بدأت منذ الرابعة عشرة من عمرها بنظم الشعر الأسباني . طبعت فيما عرف ، أربعة دواوين شعرية ، نفذت جميعاً ، فقرأها المحبون منتشرون في طول القارة اللاتينية وعرضها . شهرتها في شيلي تملل شهرتها في المكسيك على السواء . وحين اختاروا في الأرجنتين شعراء القارة الأرائل كانت واحداً من الشعراء الخمسة

على الثقافة العربية الحديثة بهذا فرصة من الفرص النادرة للخصب والفني والنماء ؟ لعلها ! ولعلها ... ولكنه سؤال آخر ! ..

ولعلمهم لو أخذوا وأعطوا ما بثوا اليأس بشيء . أنهم لا يكتبون بالحرف الغربي المجهول فقط ولكنهم هم أنفسهم مجهولون . حتى الأقرباء حولهم لا يعرفون قيمة نشاطهم ولا مدهاء ولا عطره الفردوسي . في المهاجر نفسها ليس من يستطيع أن يعد لك النشمن من هؤلاء الأبناء المبدعين . المادة التي تمشي الأجنان هناك تتركهم خارج إطار الاهتمام الجماعي ، والجعل العتيق .. يذهب بالباقي !

والإبناء بدورهم لا يلتفتون إلى الوراثة ، إلى ألبهم ، إلى ألبنا . وفيهم يلتفتون ؟ (أوفيه) اليوناني العتيق ، في الأسطورة ، حين التفت إلى الوراثة فصاحت منه حبيبته إلى الأبد . وما هم بالمؤمنين . أنا لتصنع المواطن ها هنا صنما . نصوغ . نسلب . نربي . نحت . ننقح حتى دم الثرائين ليكون لنا المواطن الواسع الصالح . افترض أنهم يخلقون هناك بالمجان ودون أي جهد مواطنين وأمينين صالحين ومواطنين منا ولنا ؟ المثل الهندي يقول : « وأنت يا ملعة التضحية أبئك ملانة لترجمي ملانه » . ونحن نبعثها فارغة فارغة تلك الملعة وإن سمينها سفارات ومكاتب وملحقين .. ثم نريد لها أن ترجع بالخير العميم ؟ أنهم هناك في حاجة إلى مثقال ذرة من معنوية . في حاجة إلى من يقول لهم : أنكم مواطنون ولكن في برنامج شامل متكامل من العناية والدأب ، وأقوام كالرسل يعطون عليه . وأشهد أن ثمة وتراً بين التباطؤ والقلب من كل منهم يرن ، يهتز ، يثور ، يضبو ، يسكر ، يبكي ، يصلي أما عرفت كيف تجلسو العربي فيه ! العربي الكامن العريق !

وما العربي عند واحدكم بالشيء الكثير ، مع ذلك . وقد لا يكون أكثر من جمل وخيمة صحراء . وقد لا يكون أكثر من لوحتين من ألف ليلة . كذلك علمتهم الثقافات الأجنبية

المهاجمون ذلك الليل . ولكن « دوكاشياس » وقف عند الصباح يبكي حنقا والما . لم تكن الفرقة الباراغوايية سوى جمع من طلاب المدارس الفتية بقيادة المعلمين . وقد وضعوا اللحن المستعارة لتكون لهم سمات المحاربين . « هكذا قال لي ثم تسائل عما اذا كان في التاريخ العربي شيء مثل ذلك !!

ومع « قصيدة الدم » نفسها نصل الى شيلي لنجد : Mahfud Massis محفوظ مصيص الشاعر الاشتراكي صاحب ديوان « تدمير الحداد » Las destias del duelo ونجد الشاعر الآخر ماريو هويس M. Oes ونجد Andre Sabella اندريه سايبلا أحد كبار كتاب الرواية وصاحب رواية Campo Grande (الحقل الكبير) . كما نجد بنديتو شوشي او جميل الشوشي الذي نال أكثر من جائزة أدبية .

وننتقل الى دنيا الأرجنتين فنجد بين من نجد نيليدا شرارة « أيوها سميلد » حين ترك بنت جيبيل « كان أقصى آمانيه ثمن قطعة أرض ، فإذا به يعطي الأرجنتين من خلال بلدة روساريو التي عاش فيها إحدى قيمها الأدبية الكبرى .

وثمة عشرات اين لي ان الاحقهم فأحصيهم ، في كوبا ، في فنزويلا ، في المكسيك والاكوادور وبيرو والأرجنتين . . عشرات . اني لسي الاحصاء ؟ ان قصيدة الدم طويلة الفصول . انها ملحمة . كل عبقري مبدع يضيف اليها سطوراه ، دعونا نقف ، على الأقل عند فصلها البرازيلي ، ففي البرازيل منها أناشيد وأناشيد . هناك مثلا :

دافيد نصر : انه زعيم القالة الصحفية في البرازيل . بالأحرف الفسخمة العربية تطبع مقالاته . ولكنها في النتيجة تجتمع دوما في كتاب . اذا بنى قضية فمعنى ذلك انها أصبحت لديه لها بئر ويحرق معا . بين دفعتي كتاب من كتبه نقرأ قضية « عالدة خوري » الفتاة التي حاولها بعض الغتية من

والعشرين المختارين ، الذين طبعت مختارات قصائدهم على انهم الكلاسيكيون الكبار . وكولومبيا تعدها من مفاخرها ، تمنحها وسام الاستحقاق ، تعقد لها الزماعة الأدبية منذ أكثر من ربع قرن في بلدتها . تتناشد أشعارها التي تنشرها جريدة « التيمبو » أشهر جرائد البلد والقارة في صدر صفحاتها . اما هي فما تزال منا وان كنا نجهلها كل الجهل . ان الشرق العربي ، شرقنا نحن ما يزال في قوافيها وفي الألحان يهبها السحر والرئين العميق . وها هنا أحد سربها الكبيرين . اما السر الآخر ففي البحر الذي أخذت منه اسمها ، « ميرادل مار » او « مرآة البحر » ليس باسمها الحقيقي . اسمها في الاصل اولفا شمس ، التوقيع المستعار من البحر المجاور لبلدها بارانكيا ، هو الذي اشتهرت به تلك القصائد المفعمة حنانا وحباً فامضيا يقرب من الصوفية وموسيقى ذات لون وعطر . انها الآن واحدة ممن يقدون مسيرة الشعر وينفون بالاسبانية ثلاثة وخمسين مليون انسان في القارة اللاتينية ما بين المكسيك ومضيق ماجلان البعيد .

وننتقل مع « قصيدة الدم » الى الباراغوي . في قلب القارة الأصم . هناك : « ملويو ايليجي » (ماريو المعجى) الحمصي الذي لم ير قط حمص . هو أبرز كتاب المسرحية في بلاده . كتب رغم شبابه الذي لا يبلغ الأربعين ورغم انشغاله بالامانة العامة لوزارة الصناعة ، خمسا وعشرين مسرحية حتى الآن . وانه ليكتبها بالاسبانية و « بالغواراتي » لغة الهنود القديمة الشائمة في بلاده . « انا من وراء الشخصوس والاستار اكتب لبلدى . مسرحي كله وطني لاني مغرم ببلادي » هكذا قال لي ، ونحن نجتاز مير الغابات والمسالك بلده « من الباراغواي سجلت فصلا بطوليا في تاريخ ذلك البلد : كان الدوق دوكاشياس يقود جيش البرازيل الى عاصمة الباراغواي سنة ١٨٧٠ فلما شارفها فوجيء في الليل بهجمة غير متوقعة من فرقة هوجاء عنيفة بافنته ولم يكن يدري بوجودها في تلك المشارف . وايسد

من بيت غنمة في الأصل) وقد ترجم الكلمة الى البرتغالية . غلب عليه الطبع اليوم ولكنه كان الى سنوات بين الروائيين الأول . روايته A Foguira (شملة النار) نالت الجائزة الباثامريكية للرواية في نيويورك سنة ١٩٤٢ . وماذا في A Foguira ! انها تروى قصة الهجرة العربية من خلال أبيه وأخوته . . تروى قصة ذلك الذي انحدر من «ترل» قرب طرابلس ليلقي العصا والبراري والجهد المنتج في البرازيل . لقد كتب فيها ما لم يكتبه الأدب المجهري مجتمعاً من قصة الاغتراب . وما لم يسبح به العربي للحرف العربي بأح به الحرف البرتغالي . . !

وفي البرازيل نعيم أبو سمرة . . أو كان حتى أمم ليس بالبعيد من أبرز الكتاب . على كان ، لأن تالقه خبا اليوم . وكان يكتب ووجهه الى المشرق فقيه من شرقنا العربي روحه وجبريته ، وذلك الأسلوب العطر الذي تعبد الكلمة . كان « خيامي » الهوى ، يدعو الى عناق الحياة وامتناس الحظرة ، لأنه كان في الأعماق للروح ولما وراء المادة . املام الفكر الانساني تناولهم ، من هذه الزاوية ، في كتاب رسم فيه آفاقه الثقافية الواسعة أكثر مما ترسم المذاهب وطرق الفكر .

اما في « الرواية » فكان رمزيا تحليليا لم تغلبه الواقعية على قلمه . فإطاره من الأحداث ذاتي مجنح ، يوشك أن يلاسن دنيا الشعر أكثر مما يقر في دنيا الرواية . . لعله لهذا مثلاً هرب بخياله من إطار البرازيل ليكتب : « رواية في استامبول » !

ماريو نعمة : دخل دنيا الأدب والفكر فاحشا بعدد من المؤلفات المتتالية منذ خمس وعشرين سنة ، فلذا به منذ سنوات أمين « أكاديمية الكتاب البرازيليين » . روائي ، نقاد ، بحالة . ولكنه من وراء ذلك كله ومن فوق ذلك كله فنان تتدلى حروفه بعبادة الجمال وذوق الماطفة والإيحاء الموحش الكثيب .

إنباء الملايين والسياسة والنفوذ في « ريودي جانيرو » فلما أميتهم احتالوا فأدخلوها مصعداً من بناية ، لم زحموها في الطابق الثالث عشر . . ومرت عائدة بنفسها من الشرفة وسجل الحادث انتحاراً . وانصرف الفتية الى قصور ذويهم آمنين !

كان ذلك منذ عشر سنوات أو تزيد قليلاً ، ولكن الفتية كانوا حتى عهد قريب في السجون يقضون العقوبات التي صولت بحقهم . لقد دخل قلم دافيد نصر في القضية ، وجرحهم واحداً واحداً الى السلاسل . حتى حين هرب واحد منهم مبرأ اراضي البرازيل وملايينها السبعين وغاباتها المعروفة بهجتم الخضراء . لاحقه دافيد نصر بقلمه ومبطلته . فتح عليه ميون الملايين بكل مكان حتى سقط في السجن . في مقدمة كتابه من « عائدة خوري » قال دافيد لهم : « انه لبديهي الا تفهموا قيم الشرف التي دفعت عائدة حياتها ثمناً له . هذه القيم التي حملتها أنا ايضا من بلادى ، بلاد العرب . ولكن لمة قيما اخرى من بلادى هذه ساملكم اباهاً ، هي الحق والعمل . ان « التوركو » سيدافع هنا عن قيمه . . »

وفي البرازيل سلمون جورج ابن آل سلامة في جبال اللاذقية بسورية . دخل السياسة من بابها الأوسع ، فصار عميد الاكثرية في المجلس النيابي منذ سنوات ، ومارس الخطابة ، فله اللسان والبلاغة الامرة التي استخدمها في ألف محاضرة للدفاع عن العرب ، وغرق في الشعر فهو يبان وفاقية ، ودموة عميقة لحب الحياة ، حتى لتجد من قصائده ما نقش في أصقاع البرازيل في صدور الدور . ديوانه : « تريبينات عربية Arabes cos » فيه كافة تلك الوثنيات الفكرية الممتدة من الفول حتى الموت . وفيه لهيب الصحراء واثين النخيل المتفرد البعيد .

ومن البرازيل ، في إطار قصيدتنا نفسها نجد :

سيمبليو كارنيرو S. Carnero (وهو

وشاعرية للموسيقى ولترجييع اللانهاي . ومن وراء ذلك حنين حضارى غربي ليس أعمق من رحمه الانساني .

هل تعلمون اني صنعت في طفولتي

من خشب الأرض القديم سفنا

أجراها على اليم خيالي

وابي ابن المدور نسج لسفني قلوفا

وامي من آل زيدان نفتحتني بحب التوتزادا

وطويت البحار استهدى النجوم

والأفلاك المفرجة بوهج الأغاني والآهات

واليوم صار لي مراهق لرسو بها أمانا

في ضوء البدر الفضي

وقلبي لمرّة ناصجة !

فان حملت لكم من أسفاري « مشمشا »

و « بقلاوة » (٢)

فهما مما منحني من الطيبات آباي العرب

وقد بقى للمدور الكثير من طفولته وفتوته في البلد الصغير المجاور للنهر ، الذي عاش فيه . جوانحه مثقلة بما بقى وترسب فيها من تلك الصور . لهذا أصدر « قصص طفل » مجموعة من أمتع وأحلى مجموعاته القصصية . ولم لا ؟ « أنا ما أنفك طفلا - كذلك يقول - الأطفال وحدهم يستطيعون استرجاع عالنا الذي سطا عليه الليل .. »

وقد حمل معه من أيام يؤسه والمسكنة ، وهي أيام طويلة في « باهيا » عفسة الظلم الاجتماعي فهو يسارى الهوى . يعيش في وهج المشكلة الاجتماعية للطبقة الفقيرة المسحوقة في البرازيل . فاشخاصه منها وقلمه على الدرب الاشتراكي وحياته الغلاب اليومي الموصول .

ان أتابع قصيدة الدم بعد ، فهي فصول ومقاطع وقواف كثيرة كثيرة . ساتسى الآن منها : الصحافي باولو تولا ، والشاعر أسيس فارس صاحب ملحمة « الماسكانه » والروائي أميل فرحات (ابن أخ الشاعر الذي نحب ونعرف الياس فرحات) صاحب رواية « الحلة الكبيرة » . والشاعرتين : منيرفا سعادة وايغا جيور . والشاعرة الشابة التى ظهرت أمس فقط (عمرها الآن ٢٤ سنة) في اول ديوان لها سنة ١٩٦٢ بعنوان (نصف وردة Semi Rosa) موقعة القصائد باسم : Ningum لا أحد

لا ان أتابع القصيدة كلها . وحسبي أخيراً ان أقف منها بعض الوقوف عند : القصصي الشاعر جورج مدور والشاعر الكاتب جميل المنصور الحداد .

جورج مدور : هو ابن دمشقي في ظلها الحاني وتربأها المفضل بالندى والريجين . وهو في الوقت نفسه ابن « باهيا » Bahia ، تلك المقاطعة البرازيلية ذات المجتمع الحار الفاجع ، والرنين الأفريقي الأبع . وراه الآن وهو في زهو الكهولة سبعة دواوين وست مجموعات من القصص القصير . ومواسم الخصب الى اقبال . أكثر من جائزة أدبية نال . ومجموعته قبل الأخيرة نالت جائزة « حاكم سان باولو » الأدبية . والناس يقرأونه بالروسية والانجليزية واليوغسلافية والفرنسية والأسبانية والألمانية . . في انتظار العربية واللغات الأخرى . الى اللغة العربية لم يترجم له سوى قصة صغيرة واحدة (١)

أخذ من إبريه الدمشقيين ذلك الباب الموصول ما بين العين والقلب وذلك الحنين الى الأرض الأولى ، وتلك « الاجتماعية » التى تحتضن الوجود . فهو غنائية خصبة مؤثرة

١ - نشرتها وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق ضمن مجموعة « من القصص البرازيلي » ترجمة المرحوم نضلة ورد .

٢ - هاتان الكتفتان وضعهما بالعربية في القصيدة ولهما هناك وقع الأمور الشرقية الفاضلة الخطوة لا المعنى البادى .

وكيف يمكن أن ينام دون عيون ؟ وأنه لا يرى
الآ في الليل . إذ كان يخرج بغير دليل ينزح
الماء من البئر القريبة وينسل ثيابه .. في بعض
الأيام كان الطفل يرى ضوءاً يشبه السراج ،
ويص بالضرير يمشي على رؤوس أصابعه
فيخرج من الكوخ . ويخيل إليه أنه سمع مرة
صوتاً ناعماً يتكلم وصوت دميان يقول : ان
الصغير هنا ! .. وتذكر الطفل صدقات الناس .
والطحين الذي كان يتقاسم مع دميان . وكلام
أمه حول الأمانة ، وحول الإخلاص للضرير .
وحالات القصص الإلهي الرهيب أن يكون ..
فاستبدت به رغبة في ألبكاء ..

وصعد الشاحنة . كانت عيناه ما تزالان
حمراردين منتفختين من الفبار الذي ابتلعه في
طريق القدوم .. قالوا له :

— إذن ستعود يا أوزاريو ..

— لا أدري !

— وأين الذي قدمت معه ؟

— ذهب مع بعض السيدات هنا وقالوا أنهم
سيشفونه ويمشي وحده دون دليل ..
سيشفونه ! وهنا ليس من يحتاجني !!
.....

وتصل القصيدة ، قصيدة الدم ، أخيراً
إلى صاحبها :

جميل المنصور ... ان سألتك من أي بلد
أصلك أجابك : ما يهم أن أكون من أي بلد ؟
أنا أعرف أن جديري عميقة هناك في الشرق
العربي . وهذا يكفي ! أبواه من بلادنا . وهما
اللذان علماه مبادئ العربية . وجاء لبنان
سنة . وزار مصر . وادعته ، وقد التقي على
الباخرة من أوديسا في الاتحاد السوفياتي ،
إلى اللاذقية ، أن الشباب العرب لم يكونوا
يلهون وأن نشرة الأخبار كانت تجلبهم أكثر من
لحن الرقص . كان ذلك سنة ١٩٥٦ يوم تأميم
القناة .

ولكنك لن تعرف جميل المنصور أن لم

وبالرغم من عمله الصحفي في إدارة كهربات
الصحف ، ومن عمله الإذاعي الذي لا ينقطع
والذي يتصل بسلسلة من عشرين وثلاثين
محطة إذاعية فإن ذلك لم يؤثر على قلمه
الأدبي الذي ظل ينتج وينتج الرائع الجميل
من الشعر والقصص .

ولقد دخل القصة عن طريق الشعر . ومن
ذا الذي يمر بحقول الربيع فلا يخرج ملء
الصدر والخف واليدنين عطراً وزهوراً ؟ أن من
السهل أن ترى في المدور القصاص ، المدور
الشاعر . على أنه يكتب القصة الواقعية .
القصة التي تملك من « الحتمية » ونبض الحياة
ما يمنحها التعبير الإنساني الكامل . وأوقع
ما يقر بنفسك منه ذلك الإيمان بالإنسان .
ما أن يهم المدور أو يعنيه أن يقص القصص .
ما يهمه هو أن يفجر الإنسان في الإنسان . أن
يجدد الثقة في الكائن الشعبي البسيط ، وفي
أفجع ما في الحياة من زاوية . ولعل أكون
أقرب منه ضوءاً . دون أن أسيء إليه . أن
لخصت قصة قصيرة من قصصه . أنها حول
طفل يعمل دليلاً لأعمى . ولقد ترك ضريره
نجاحة دون سبب ، وسافر مع أعمى آخر
إلى « سان باولو » البعيدة جداً . ولكن هذا
الأخير تركه فور وصوله . ووقف الطفل أمام
السيارة المائدة وتذكر حياته كلها مع ذلك
الضرير القديم دميان .. تفاصيلها الصغيرة ،
وتذكر موت أمه ، يوم الدفن ، أريمة أو خمسة
مشيعين بينهم الضرير دميان وإلياليه بعد ذلك
على الأرض المرء في كوخ الأعمى دون ضوء .
فالضرير لم يكن بحاجة إلى نور ، أضواء سيارات
الشحن كانت تنعش في بداية الليل . وصواء
الكلاب . وحين يسود السكون يتجمع على
نفسه ويضع يديه بين ساقيه :

— سيد دميان !

— هوم !

— لا شيء .. لا ..

في البدء كان يعتقد أن الأعمى لا ينام ..

تعرف بعض مواقفه . سيرة الحياة العادية لا تكفى لرسم صورته الكاملة .

في اواخر سنة ٦٣ مثلا ضجت الصحف البرازيلية بخبر غريب . لقد هجم جماعة من الكتاب اليساريين ومن الصحفيين على مستشفى المجانين في سان باولو واخرجوا منه عنوة : سيده ! اسم السيدة معروف في الأوساط الاجتماعية والأدبية والمالية ، فهي كاتبة أدبية وموسرة من اصحاب الملايين وزوج لرجل من اصحاب الملايين . ولكن ميولها الاشتراكية دفعت الزوج للحجر عليها والاستبداد بمالها ، فدير لها ما أوصلها به بحكم القانون الى مستشفى المجانين . ومن هناك أرسلت مداء الى اصحابها الذين لم يجدوا لانقاذها السريع سوى الاختطاف السريع . وكان بينهم الشاعر اليساري العنيف : جميل المنصور !

وقبل ذلك سنة ١٩٦١ ضجت الصحف بخبر أقرب وأشد دهشة . لقد ضاق حاكم ولاية « ريودي جانيرو » بالشحاذين الذين يشوهون أناقة المدينة وجمالها السياحي الأخاذ . الحاكم هو « لاسيردا » ذو الصينيين القتالتين الذي أسقط أربعة رؤساء جمهورية في تاريخ البرازيل الأخير . نسي الحاكم مليوناً أو أكثر من مليون من الزنج البائسين الذين يسكنون الزرائب من التنك واخشاب الساحاجر التي يسمونها Favelas والتي تنتش بالسواد كل السفوح الجبلية في المدينة . نظره لم يرتفع الى السفوح . ظل على الارصفة فقط وهناك لم يجد ما يشوه جمال « الريو » سوى المكدين وأهل الشحاذة . ووجد الحل للمشكلة ، وكان الحل بسيطاً . فالمحيط الاطلسي امام المدينة كبير كبير وبالأماكن اغراق كل تلك القدارة في المحيط . . . وهكذا كان ! واحد من الذين استطاعوا النجاة من الفرق ،

عاد الى الشاطئ ففضح الجريمة الباردة ! وضجت الصحف ! القلب الوحيد الذي تفجر ديواناً من الشعر كاملاً ، حول هذه الجريمة هو قلب : جميل المنصور !

« ابتها الأجساد التي اغرقت بين المصراخات والزبد »

« ثلثا يفرق فقط لعلنا ! »

« مسيبقي دوما نور وظلام ، يبقى يزدان واهرمين (١) »

« يحاكم القيثان والكهوف الاولى »

« قابيل ! قابيل ! ماذا فعلت ؟ »

وراء جميل المنصور لأن قافلة من خمسين كتاباً بين مؤلف ومترجم أو تزييد قليلاً وسبعة وخمسون طاماً من العمر أو تزييد قليلاً . بدأ الشعر سنة ١٩٣٥ بديوان « القمر ، حبيبي » ثم « صلوات سوداء » سنة ١٩٣٨ ، فبال جائزة المجمع العلمي البرازيلي للشعر يومذاك . ولكنه بعد ذلك ترجم النخام والف ليلة ، وبترايك ، وبوكاشيو ، وهوغو ، وفيرلين ، وبودليو . ونشر دراسات بعد دراسات في الشعر البرازيلي والقصص العربي والوان الادب والنقد . . فانت تغامر حين تقرأه في النشر والشعر ان لم تجمع اليك كل ما في الجعبة من الثقافة ! اولاً فانت أذن غريق تائه بين كل المرافئ ولا ت مرفأ ! . .

لقد كان في « صلوات سوداء » يشيع الكتابة في الحروف ، ولو انه يدعو لسوانح الحب . . وانتهى في ديوان « الحكام والشحاذين » سوطاً من هذاب . لقد اختار طريقه اليساري المتطرف ووقف دون فلسفته المادية بتقبل حجارة الرجم . . . يرجم ! ولكن احداً لا يمارى في مكانته من الشعر . انه أحد

١ - « يزدان واهرمين » هما الله الغنى والثور والظلام في الديانة الزرادشتية وقد اشتق الثاني من الأول وإلى هذا أشار الحمري مرة بالقوله :

فصيح من تكثيره اهرمين

فكر يسودان على حرة

ففي ساعة جسدي وروحي
ثمة دواما أسد يزأر ونظرة تمنح الفياء !

★ ★ ★

وساعة أتأمل في ذاتي
أسمع
أصوات الإجداد
تصاعد في داخلي
مبهمة ، بعيدة ، رائحة .
لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي .
قومي الذين أنوا العالم بمصر لا يحور ،
مصر كالنجم !

★ ★ ★

أشعر أنني كنت فيما سلف
محارباً جموحاً ، رهيباً
في المفلوز التي لا درب فيها
ونعالي الفيليك يدوس بطن الأرض البتول !

★ ★ ★

رايت تسمر الحرب الأشد
ومهندى العارى الذى كان دون غمد
كان يشحذ في معارك الموت
وكم من صدر عدو خرق
أن القدر نفسه
ليترأجع
أمام المحارب المسعر للحرب
مقتنماً بضمته !

★ ★ ★

الى جانب عنتره الرائع المحبوب

امراء الشعر في أمريكا اللاتينية كلها منذ سنين
طويلة .

و « قصيدة الدم » بعد هو الذى قالها .
هو الذى قال :

يا بلاد العرب انك في ذاتي

« على صورة صحراواتك

» يصاغ شعري

« انه لا نهائي ومتقد

« اني صورة منك أخرى ..

★ ★ ★

بلى ! ان القصيدة لطويلة حقاً . انها قصيدة
جميع تلك القلوب التي غربت الى غير رجعة .
ويبقى في مكتونها الغيبي شميم عرار نجد !

الستم معي في أنها تستحق الاهتمام .. هذه
القصيدة ؟

شاكى مصطفى

قصيدة الدم

أترجم في الصفحات التالية من البرتغالية
قصيدة جميل منصور الحداد التي أشرت اليها .
لعلها تصلح ملحقاً أيضاً في المقال تضيف اليه
لونا من اللون :

يا بلاد العرب انك في ذاتي !

على صورة صحراواتك

يصاغ شعري .

انه لا نهائي متقد

اني صورة منك أخرى

وحيث كنت أقول الشعر في عكاظ كنت
انظم الجواهر قوافي
وكنت انظم النجوم !

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي
نظرت الى محمد يولد

رأيت بزوفه الرائع كالشموس

رأيت فعاله العظيم التوراتي

مع النصر المؤزر للإسلام

رأيت أنا انتصار الشعر . انتصاره السحري

رأيت الإيمان في فجره

منذ ذلك الوقت كنت أحمل :

كأنجيل ومقيدة اي قصيدة هي : القرآن (٢)

★ ★ ★

وبعد هذا رأيت بيت الشعر ينفلد في حياة
الأرض والناس

رأيت ينال على الجبلان المقدسة

للمساجد كافة

رأيت ينقش بأحرف من ذهب على ستائر
جميع مقاصير الحريم

رأيت الشعر يشفي في المطرقات التي تحجب
الطهارة الإلهية

في جسد المحظيات الوضاء كالقمر

رأيت الشعر يلف بلاد العرب كالرداء

كنت جنديا
وعلى الأراضي الإفريقية تلاهبة تموج سيفي

مخضبا بالأرجوان

الهيأ بما أحرز من مجد

كل حروب

كانت نصرا !

★ ★ ★

كنت أحمل على غارب سيفي الإيمان
المعروف عن محمد .

ومع الإيمان الحضارة .

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي

ومن خلال شجيرات التمر الهندي (١) الكثيفة
في أيام عكاظ

وفي تلك المباراة الفنائية الشعرية .

سمع صولي ، الذي كانت تنبث فيه روح
كل تلك الموسيقى الكونية

سمع كرنين البلور ، مطربا

يعدل الليل في العمق وكالفجر !

ولكي أحرز فار السبق عرفت كيف أصوغ
الفصيدة .

لامعة مزهرة

في اللغة الغنية بالغافية

في اللغة الجميلة التي خلقت للوزن

(١) هي من أخيلة الشاعر أن يتحدث من شجرة التمر الهندي في عكاظ ولا يمر هندي هناك ..

(٢) لتلاحظ أن الشاعر هنا يحاول التعبير عن معجزة القرآن وسحره البلاغي بكلمة قصيدة ولم يقصد المعنى المباشر للكلمة .

رايت ولادة الشعر في بلاد العرب !

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي .
في صورة فارس يمدو ، كنت سلطانا وكنت
خليفة

وحكمت في بغداد مدلا لا يمارى وعالما
وكان لدى من النساء أعداد كسرب من
التجسوم

يخاضوات كالفجر وسمرات وشقراوات
وقمحيات

يركن على أقدامى ، كالجوارى

★ ★ ★

في أجسادهن من العذوبة (١)

ما هو أروع

مما كانت تحمله أعتاب سوربة ودراق
عنان .

كن يحتوين النار في شعورهن العجيبة

وبحملنها خالدة ملأى بالتوق في الجوانح .

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي

وفي بلاد الأندلس

شهدت الفخار

وشهدت من موسيقى الحياة الطرية نفسها

سريعها والبطيء !

رايت (المرة) و (بلنسية)

رايت غرناطة

رايت الشعر

يتفجر كاملا رائعا (بلرناسيا)

قبل هوفيقرون وقبل موسيه والكونت (٢)

رايت أنوار التفتح المجيدة

قبل كثير من تلك التي ورثتها فلورنسة عن
ليوناردو (٣)

يدى الصنّاع

وهي تعمل الأزميل في الجص

عرفت كيف تمنح

الأفواس الخالدة

في « الحمراء » العجيبة

في باحة الأسود وفي صالة السفراء

وحين كنت أمير الحمراء

التي هي قبل كل شيء أعجوبة النقش
والتزيين

وجدت (بينفوتو تشيليني) غرا لا يفقه
شيئا (٤)

انت لا تموتين يا بلاد العرب . لا تموتين في ذاتي

١ - اختصرت ، خوف الإطالة مقبلا في هذا الموضع وبمعه .

٢ - هوفو ، موسيه ، ولوكونت دوايل ، من أبرز شعراء فرنسا في القرن الماضي ، والبرتغالية إحدى مدارس الشعر الفرنسي إذ ذاك .

٣ - ليوناردو دافنشي من أعظم فناني عصر النهضة وهو واحد من الثلاث المشهورين الجيو ، دافالو ، دافنشي ، في ذلك العصر ولكنه الوسوعي الخصب فيهم .

٤ - لئلاش ، نحات . صانع إيطالي مشهور (١٥٠٠ - ١٥٧١) يلخص اسمه تاريخ الصياغة في القرن السادس عشر .

في كل حياة بمعين حياة جديدة
وفي جوانحي كلها تتفجرين
ضراعة وكلاما وصلاة ونداء .
كل ما هو انا الآن ، انما هو منك
للتهب دمائي كما للتهب صحراواتك
وعنصرة يغني في شرايبي

منك جاءت روحي
منك جاء قصيدي الذي هو قصيدك
والذي يغفل الآن مع كل ذرة من دمي
مندمجة مع كل خلية من جسدي
كنت في جميع فترات الالقي من قومي
لا تموتي ! يا بلاد العرب في ذاتي لا تموتي !

* * *

الفوضوية

علي أدهم *

لمحة تاريخية :

وهذا النزوع العام الى الحرية الذي نتبين ملامحه وتلمح آثاره في الأحداث المتتابعة خلال التاريخ يوضح لنا ان متابعة المثل الأعلى للحرية أصيلة في الإنسان ، وأنها تتوى وتشتد كلما قوى شعور الإنسان بشخصيته وذخاير قدرته ، وقد أعيا طغاة الأباطرة والقياسرة وخائز المستبدين والحاكمين بأمرهم التغلب على هذا النزوع الى الحرية ، وإخماد أنفاسه ، والقضاء عليه ، وكان للحرية دائما الكلمة العليا في النهاية ، والتاريخ العام في رأى هيجل يبين تقدم الشعور بالحرية من جانب الروح ، وتحقيقها نتيجة لذلك .

أساس النزعة الفوضوية في النفس الانسانية هو الشعور بأن اسمى مطالب الحياة وأحبها الى النفس ، وأقربها الى القلب ، هو الحرية الاجتماعية والاقتصادية للفرد والجماعة ، وترى الفوضوية الى إيجاد مجتمع يحظى فيه الأفراد بالحرية الكاملة لانماء شخصياتهم وتفتح مواهبهم ، ويكون هذا المجتمع خاليا من وسائل القهر والازغام ، وأغلال القهر والحاجة والحرمان ، التي تموق الإنسان من استكمال شخصيته ، واستغلال مواهبه وقدراته .

وكل مجتمع انساني مكون من مجموعة من الأفراد ، والفروض أن هذا المجتمع وجد لتحقيق مصلحتهم المشتركة ، وأن الأفراد أنفسهم لم يوجدوا من أجل المجتمع وفائدته ، والحرية في طليعة مطالب الأفراد ، وتقتضى الحرية الاجتماعية أن يعيش الإنسان طوع

ومنذ ميلاد الحضارة وهذا الأمل يراود الناس في أخیلة الشعراء ، وأحلام الفلاسفة وتطلعات البشر بوجه عام ، ففي اليونان القديمة وفي الصين وفي غيرها من أقطار العالم جاهد الناس من أجل الحصول على الحرية وحاربوا الظلميان والاستبداد حرباً شرساً متصلة ،

إذ : - أسهم الاستلاب على أدهم أسهاماً كبيراً في ترويض القارئ العربي بأهم التيارات الأدبية والاجتماعية والسياسية في العالم ونشر كثيراً جداً من المقالات والدراسات في مجلة المنطلق ومجلة الهلال والثقافة والكتاب المعرى وغيرها ، ومن أهم مؤلفاته المذهب السياسية المعاصرة ، وكذلك الجمعيات السرية والاشتراكية والشيوعية .

الدولة أو الجماعة فوق حقوق الفرد ، ويبدو ذلك في وقت السلم ، ولكنه يزداد وضوحاً في أوقات الحرب ، ففي إبان السلم يؤمر الفرد بأن يقتطع من دخله جزءاً يقدم للضرائب اللازمة للخزينة الدولة ، وعليه كذلك أن يقدم أولاده للخدمة العسكرية ليساعد الدولة في تكوين الجيش اللازم لها لفرض سياستها وتنفيذ مرسوم خططها ، أما في وقت الحرب فإن عليه أن يضحي بحياته من أجل الإبقاء على حياة الدولة .

وفي وجهة النظر القوضوية ، أن هذا التقدير للدولة قائم على أسطورة وهيئة ، وفكرة مجردة لا نصيب لها من الحقيقة وأن هذه الأسطورة صيغت لتمكين من لهم مصلحة في خلق هذه الأكاذيب ، وترويجها والدفاع عنها ، وإغشائها القداسة عليها .

وعندهم أن الناس قد كونوا من أنفسهم جماعات منذ أقدم عهود التطور الإنساني . ولكن تكوين الجماعة كان من أجل تيسير الحياة ، ولتذليل الصعاب المعترضة ، ولحماية الأفراد ، ورفع الأذى عنهم وكان الباعث على تكوين الجماعة أن الأفراد الذين تكونت منهم رأوا أن تنوع مواهبهم يثرى الحياة الاجتماعية ويسمو بمستواها ، أي أن أساس تكوين المجتمع هو ضمان المعيشة الميسرة التامة لرجال المجتمع ونسائه جميعاً بلا أدنى تفریق أو محاباة .

ويرى القوضيون أن الدولة قد اكتسبت حقوقاً تعد من وجهة نظرم منافية في طبيعتها لمصلحة المجتمع ، وأنها أصبحت بمرور الزمن آلة لحماية مصالح طبقة خاصة من طبقات المجتمع ولإستئثار هذه الطبقة بالسلطة والتنفوذ ، وقد مكنت السلطة المفتتحة هذه الطبقة من استغلال الدولة في حماية مصالحها الخاصة ، والحد من الحريات التي قد تضر بهذه المصالح ، وإثارة حروب الفزور من أجل الحصول على أسواق جديدة ، ومصادر المواد

أرادته على شريطة أن لا يؤذى غيره ، ولكن هذه الحرية الاجتماعية متوقفة على الحرية الاقتصادية ، وتستلزم هذه الحرية أن يكون حصوله على ما يسد حاجاته ، وفي مختلف مطالبه ، مكفولاً ميسراً ، ولأجل أن يتم ذلك دون بذل مجهود ضخم لا بد من التعاون المتبادل في ظل المجتمع ، والمجتمع الإنساني في صورته النقية الخالصة قائم على هذا التكاتف في سبيل المصلحة العامة لجميع أفرادها .

ولذلك يجد الإنسان - مثل سائر الحيوانات الأخرى - أن من مصلحته أن يعيش في مجتمع ، وقد كيفت الإنسان أحوال الحياة الاجتماعية ، وجهاده في توطين البناء الاجتماعي ، حتى أصبح من الصعب عليه أن يعيش في عزلة من المجتمع ، وكان هذا مدعاة لنشوء الفكرة القائلة بأن المجتمع مثل الجسم العضوي الحي ، وهي فكرة غير سليمة ، لأننا إذا فصلنا أي عضو من الجسم الحي لا يستطيع أن يعيش منفصلاً عن الجسم ، ولكن أي إنسان أوتي حظاً من الفهم والقدرة على مواجهة المواقف الطارئة يستطيع أن يدبر أموره إذا ألفت به الأقدار في جزيرة نائية بها ما يكفي من الموارد الطبيعية ، وهو من غير شك سيقع في العنت ، ويصادف ما يشق عليه ، ولكنه برغم ذلك يستطيع أن يعمل جوفه ويلتزم بين نفسه وبين ظروفه المستحدثة ، ويعيش عيشة راضية إلى حد ما .

وفكرة أن المجتمع وحدة قائمة بذاتها ، وإن لهذه الوحدة حقوقها التي تسمو على حقوق الأفراد قد وجدت في مختلف عصور التاريخ ، وعدت في العصر الحديث من الأفكار المسلم بصحتها ، سواء في ظل نظام مثل النظام الهلنري أو طريقة حكم مثل حكم الميكادو في اليابان ، وفي كل المواطن يدعى الفرد للدفاع عن بلاده ، وقد يدفع إلى خوض الحرب التي يشرها الحكام المشرفون على سياستها من أجل أشياء أخرى تستحق أن يضحي بالأفراد في سبيل الحصول عليها حسب تقديرهم الخاص ، ويمكن أن نلحظ من وراء ذلك وضع حقوق

قوضوا سلطتها ، وهلعوا بنيائها ، والإشراف على جهاز الدولة الجديد الذى حل محل الجهاز القديم ، فبدلاً من تحقيق الحرية المنشودة ، والتي قامت الثورة من أجل إيجادها فإن رجال الثورة يرون أنه من اللازم الذى لا محيص عنه أن يكونوا أحد عنفا وضراً من الحكومة التى استقطوها ، وبذلك يفرقون الحرية فى سبيل من الدماء ، مستعملين المصلحة ، وتسفر الثورة المستحدثة إذا كتب لها البقاء عن إيجاد طبقة جديدة لها امتيازاتها ، ونظام حريى مزود بكل الأسلحة اللازمة للحرب ، وتطوى المثالية التى أوحى الثورة الأصلية ، ويحل مطها طغيان الطبقة الجديدة المستبدة الحريصة على استغلال الموقف ، وتحقيق أهدافها الخاصة ، ويضرب الفوضويون مثلاً لذلك ما آلت اليه الثورة الانجليزية فى حكم القواد من اتباع كرومويل ، فقد قفت على حركة الحرائين *Diggers* وطلاب المساواة *Levellers* وشيخ حكم القواد دائرة الحريات الفردية حتى صار نصيب الفرد من الحرية أقل من النصيب الذى كان يستمتع به فى عهد حكومة أسرة ستيوارت *Stuarts* ، والثورة الفرنسية نفسها تحولت من حكومة المجتمع القومى *Convention* الى ديكتاتورية مارا *Marat* ودانتون *Danton* وروبسبير *Robespierre* وآلت فى النهاية الى حكم نابليون الأول الذى كان أكثر طغياناً واستبداداً ، وقد أثرت فيه النزعة التسلطية ومواصلة الحرب باسم الحرية والمساواة والأخاء .

ويرى الفوضويون أن الثورة الروسية ظلها وهم الحكومة ، والاعتقاد بأنها قادة على إيجاد مجتمع تسوده الحرية والمساواة ، وقد قامت الثورة الروسية بتطبيق نظرية ديكتاتورية البروليتاريا البراقة الخادمة بين جماعات من المزارعين كان عدد الصعاليك بينها قليلاً نسبياً ، وكان القائمون بهذه الديكتاتورية فى الواقع من أفراد الحرب الشيوعى لا من أفراد الصعاليك أو البلوريتاريا ، وكان عدد أفراد الحزب الشيوعى أنفسهم يعدون أقلية ، فقد

الخضام المطلوبة ، واتباع سياسة العدوان الامبريالى فى سبيل تحقيق أهدافها ، ونيل الفوائد المرجوة ، وفى مثل هذه الأحوال تصبح الدولة نظاماً قائماً لمساندة طبقة حاكمة ، وحماية مصالحها ، وليست نظاماً قائماً لمصلحة جميع أفراد الدولة الا فى الحدود الطبيعية التى يجد أفراد الطبقة المسيطرة فائدة لهم فى ضرورة الاستجابة لمطالب الطبقات المحكومة والمظلومة على أمرها ، ويرى الفوضويون أن حرص هذه الطبقة المستغلة على بقاء الدولة التى يمتلك أفرادها زمامها يجعلهم يركنون الى طرائق مستنكرة لو اتبعها فرد من أفراد الطبقات الأخرى لعدت من الجرائم التى ترتكب ضد المجتمع ، ويضرب الفوضويون مثلاً لذلك الانتحاء الى الحرب لفض الخصومات ، وإنهاء الخلافات التى تقوم بين الدول ، فإن القوانين المدنية تمنع الأفراد من الانتحاء الى القوة واصطناع العنف فى معالجة الخلافات التى تقع بين الأفراد ، ولكن الدولة التى تدبر أمورها الطبقة المتحكمة لا تتورع عن الاستعانة بالقوة الضارية والعدوان المكشوف فى القضاء على الاضرابات ، وفريق المظاهرات ، ولا تمنع من اللجوء الى الكسلب والخداع ، والتورط فى آثام لو أقرتها أى فرد من الأفراد لعد من المجرمين الآثمين الذين يجب أن ينيلهم المجتمع ، ويعمل على تقليص أظافرهم ، أو قطع دابرهم .

ويرى الفوضويون أن المساواة والمعيوب لا تكف من مصاحبة الدولة وملازمتها ، فحينما توجد دولة تقوم أقلية بتبليغ الأمور والإشراف على جهاز الدولة ، وهذه الأقلية تفرض الطاعة على الأكثرية . فالحكومة من أجل ذلك لازمة فى نظام الدولة ، ولا يمكن أن توجد حكومة بغير قهر ولا إرغام ، وبكشف لنا التاريخ أنه كلما وجدت طبقة حاكمة تبدأ فى استغلال مكانتها فى فرض سلطانها على الناس ، والحصول على امتيازات خاصة بها ، ومنافع مقصورة عليها ، وعند الفوضويين أن الخطأ الذى وقعت فيه الثورات التى مر فيها التاريخ جميعها هو إيجاد حكومة قاهرة فى مكان الحكومة التى

الفيتكوري في إنجلترا ، وفي طبيعتهم الفيلسوف
الفكر جون ستيوارت مل S. Mill ل فقد
قال « انى أقدر ان المشكلة الاجتماعية في
المستقبل هي كيف توفق في الجمع بين اكبر
نصيب من حرية العمل الفردي وبين الامتلاك
العام للمواد الخام في أنحاء الكرة الأرضية ،
والحصول على أنصبة متعادلة من فوائد العمل
الذي اتحدت الجهود في القيام به » .

ويرى الفوضويون ان ستيوارت مل قد لمس
العيوب اللاصقة بالحكم الديمقراطي والتمثيل
النيابي ولكنه لم يتقدم كثيرا نحو ايجاد حل
مناسب للمشكلة ، وكذلك شأن معظم الاحرار
المتطرفين في العهد الفيتكوري الذين راوا
ضرورة توفير الحرية للفرد ، والحد من طغيان
سلطة الدولة ، ولكنهم مع ذلك لم يتجاوزوا
الوقوف عند هذه المرحلة ولم يشيروا بالخاذ
اسلوب اجتماعي يكفل اكبر نصيب من الحرية
للفرد ، وفي الوقت نفسه يثبت انه اقدر من
النظام الرأسمالي على اشباع الحاجات المادية،
ومن امثلة هؤلاء المفكرين في رأى الفوضويين
هربرت سينسر الفيلسوف الانجليزى
المعروف ، فقد قادته آراؤه المستمدة من
ايمانه بمذهب النشوء والارتقاء الى الاعتقاد
« بأن الانسانية تتقدم تقدما تدريجيا الى مجتمع
تتناقص فيه سيطرة الدولة الى ادنى حد
ممكن ، وتزايد فيه حرية الفرد الى اقصى
حد مستطاع » ، ولكنه لم يحاول توضيح
طبيعة هذا المجتمع . ويرغم انه لم يكن راضيا عما
بلغته سيطرة الدولة في عصره ، فانه كان
لا يزال متعلقا بفكرة وجود الحكومة ، فهو
يقول « لا اكنفي بتقرير ان قوة الدولة المسيطرة
والكابحة للأفراد والجماعات والطبقات لازمة
بل اذهب الى القول بانها عليها ان تمارس هذه
السيطرة الكابحة بطريقة أكثر فعالية وإبصد
أثرا مما نراه في العهد الحاضر » ، وحقيقة ان
سينسر كان يؤثر ان تعنى الدولة بممارسة
الحكومة لوظائفها السلبية ، ولكن الواقع ان
طبيعة الدولة ترغمها على ان تفرض على الفرد
مطالب إيجابية ، مثل دعوته الى الخدمة

كان عددهم لا يتجاوز ما بين المليونين وثلاثة
ملايين من عدد السكان البالغ مائتي مليون
نسمة ، وحتى في داخل الحزب الشيوعي نفسه
كان الفصل في المسائل الحيوية الهامة موقوفا
على الأقلية ، ويقول الفوضويون ان نتيجة ذلك
كأن كانت ان الكلمة النهائية الحاسمة في أى
امر من الأمور العظيمة الأهمية صارت رهنا
بإرادة رجل واحد ، وهذا الرجل هو ستالين ،
كما ختمت الثورة الفرنسية بسيطرة نابليون
واخذه أزمة السلطة جميعها في يده .

وهم يرون ان تاريخ الثورات جميعها يؤكد
تلك النتيجة المحزنة التي ضمنها المؤرخ البريطاني
اللورد أكتون Lord Acton قوله الحكيم
« السلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة تفسد
انسانا مطلقا » .

ويقول الفوضويون ان بناء مجتمع تسوده
الحرية السياسية والاقتصادية لا يمكن ان يقوم
به سوى افراد تجمعهم ارادة عامة تلقائية ترمى
الى تحقيق هذا الهدف باهتمام بالغ وحرص
شديد ، اما الحكومات التي تأخذ على عاتقها
القيام بهذه المهمة فانها سرعان ما تتحول الى
قلب المجن للثورة التي احدثتها مهما اذنت
الاخلاص لمبادئ الحرية والمساواة ، والسبب
في ذلك ان وجود أية حكومة يستلزم ايجاد
نوع من النظام ، واعداد وسائل حمايته والدفاع
عنه على حساب العمل الفردي والمباداة الفردية،
والحكومة في رأى الفوضويين بطبيعتها محافظة،
ونزاعة الى الكبت والطغيان .

ولكن اذا كان لا بد من نيل الحكومة والخلاص
من سلطة الدولة فاماذا تكون طبيعة هذا
التنظيم الاجتماعى الذى يمنح الفرد الحرية
في العمل والتعبير عن نفسه ويضمن له مع ذلك
الاستفادة المادية والعقلية من خلال التعاون
مع الجماعة ؟

هذه المشكلة أدرك وجودها كثيرون من
المفكرين اليبالين الى المذهب الفردي في العصر

وأول ما تدعو اليه الفوضوية هو إيجاد سبيل للحياة يكفل السلم بين الأفراد والتعاون في خدمة المجتمع مع احتفاظ كل فرد بحريته كاملة ، على شريطة أن لا يضر ذلك بحرية الآخرين ، وهي عند الفوضويين مطمح الرجل الذي يعمل على استكمال شخصيته ونسج المجال لواهبه خلال الحرية الاجتماعية والاقتصادية والعقلية ، وهي لون من السوان الفلسفة الاجتماعية يحفز اليه تطلعات الأفراد ، وما يجيش بنفوسهم من الآمال في تحقيق الحرية الخالصة ، والقضاء على كل أسباب القهر والأرقام ، والقصر والأزام ، ومختلف صنوف الاستبداد والعنف والظلم .

والفوضوية هي المبدأ الذي يخلص للحرية كل الإخلاص ، ويحرص عليها أشد الحرص ، ولذلك يضيّق بكل وسائل التسلط وسيطرة الإنسان على أخيه الإنسان ، وينكرها أقوى إنكار ، ويؤمن بكفاية الفعل الفردي ، ويميل الإنسان الفريزي إلى السلم والتعاون حينما تسر مشاعره سيرها الطبيعي ، ولا تعرض للانحرافات التي تحدّها السلطة القاهرة والظلم المردى .

والفوضوية من الناحية الاجتماعية هي المبدأ الذي يقول بوجود مجتمع ليس به حكومة ، وهي تعلن للناس أن معظم أسباب الظلم الاقتصادي والاجتماعي راجعة الى وجود الحكومة ، لان الحكومة مهما تكن الصورة التي تتخذها تخلق الامتيازات والتسلط الطبقي ، ومهما يكن تظاهرها بالديمقراطية فانها قائمة على ارقام الفرد ، وهذا الارقام قد يكون في احسن حاله من اجل الاكثرية ، ولكنه في اغلب الاوقات من اجل الاقلية الحاكمة ، وكل مجتمع يملك سيادة وسلطة يتخذ الحكومة اسما له ، وهو لا يملك البقاء اذا لم يخلق طبقة حاكمة ، وسلما تصاعد فيه درجات التبعة مما يقضى على المساواة سواد في الثروة او الكانة او التمكن من اقتناء القصر ، ومتى وجدت الطبقة الحاكمة فانها تبدأ في اقتلاع

الحرية ، وما الى ذلك من التكاليف ، ولا تستطيع الحكومة ان تفصل النواهي عن الالزامات .

وفي رأى الفوضويين ان الرد على المشكلة التي تبين وجودها المفكرون الحريون هو ان المجتمع يقوم على اساس اقتصادي وظيفي لا على اساس سياسي ، فاذا قمنا بتوزيع انتاج البضائع العالية بحيث تضمن لكل انسان ما يلزمه ويسد حاجته ونفي بمطالبه فاننا نكون قد اتجهنا في طريق تسوية المشكلة الرئيسية ، ومتى ضمان حرية الفرد ، وهيانا له مجال العمل اللائق لاستمداه ، ويسرنا له الحصول على مطالبه المادية ، نستطيع بعد ذلك ان نترك للمجتمع الشكل الذي يؤثره، وسنكون على ثقة من أنه لن يكون شكلا جامدا غير قابل للتعديل والتحسين والتجديد، واذا اتبنا ميلا « ان نعطي كل انسان حسب حاجته » فاننا نكون قد وصلنا الى منتصف الطريق الذي يقضى الى قبول مبدأ التعاون المتبادل والذي يقول « بالأخذ من كل انسان حسب قدرته » وعند الفوضويين ان الفلسفة الاجتماعية الفذة القادرة على تحقيق ذلك هي الفوضوية .

طبيعة الفوضوية :

لست أحاول تقديم تعريف للفوضوية ، لأنها مختلفة الألوان ومتعددة السمات ، ولذلك سأكتفي ببيان بعض صفاتها وأهدافها ، وكثيرا ما يسبق الى الفواطر ان الفوضوية ميلا يدمو الى الارهاب ، ويحث على الهدم والتخبط ، ويجند اشاعة الفوضى واحداث الاضطرابات الفاسدة ، واثارة الحرب الدائمة بين افراد المجتمع ، ولكن هذا كله منافي الى حد كبير لطبيعة الفوضوية ، واذا كان بعض دعاة المذهب الفوضوي قد حيدوا الاجرام او تورطوا فيه فان كل مذهب من المذاهب السياسية او الدينية او الاجتماعية لم يخل من بعض دعاة يؤثرون استعمال العنف للفت الانتظار الى مذهبهم ، وتأييد عقيدتهم .

ويرى الفوضويون أنه ليس هناك معدى عن إزالة نظم الحكم والدولة وكل وسائل الإرغام الإرادى ، وقد عني خصوم المذهب الفوضوى بابرار هذا الجانب الهدام فيه ، كما بالفنوا في تضخيمه والتحامل عليه ، ولا يزال عند بعض الناس الاعتقاد بأن الفوضوى نزاع الى القضاء المتفجرات ، واستعمال العنف والإرهاب ، وإغراق المجتمع في سيل من الدماء ، وحقيقة أن الفوضيين في الربع الاخير من القرن التاسع عشر يوجه خاص شهروا سلاح الإرهاب ، والإغتيال باعتباره وسيلة لاجداث الثورة الاجتماعية ، وأتى بعضهم متفجرات ، ولكن الحكومات لم تتورع عن القيام بمثل هذه الأعمال الارهابية ، والفرق في التبعة بين ما صنعه الفوضويون وما فعلته الحكومات هو أن القنابل التي القاها الفوضويون كانت جد قليلة وكانت موجبة الى هؤلاء الذين اسرفوا في الاضطهاد ، وأمعنوا في قتل الناس ، أما القنابل التي القها الحكومات في خلال الحرب فاتها تعد باللايين ، وقد قتلت الالوف من الرجال الأبرياء والنساء البريئات ، وقد اعرض الفوضويون عن ممارسة الإرهاب حينما أهدت الفوضوية السنديكالية « النقاوية » الى أسلوب الثورة الجماعية الاقتصادية ، ويرى الفوضويون أن أى نظام سياسى أو حكومى لا يتفق مع العدالة والحرية ، وأن المجتمع البشرى يجب أن يقوم على التعاون الحر بين الأفراد من الرجال والنساء .

وهناك خطأ وقع فيه بعض الذين عرفوا الحركة الفوضوية معرفة سطحية ، وهو أن الفوضوية فردية متطرفة ولذلك لا تقبل أى تنظيم اجتماعى ، ومما ساعد على ترويج هذا الرأى أن بعض الفوضويين القليلين دعوا الى مذهب الفردية المتطرفة ، ويقتضى ذلك أن يعيش الإنسان بفرده مبثور الصلة باخوانه البشر ، ولا يعنى بغير نفسه وانما شخصيته واسعادها .

ولكن الفوضوية باعتبارها حركة اجتماعية

الامتيازات على أعضائها ، ويمكنهم ذلك من تثبيت أقدامهم ، وتوطيد مكائتهم ، بحيث يصبح من الصعب زحزحتهم والتخلص من سلطتهم ، وقد يكون هؤلاء الحكام في بادىء الأمر حسنى النية ، ولكن ضرورات المحافظة على النفوذ ترغمهم على عدم تحرر العدالة ، كما تفرهم الامتيازات التي يحصلون عليها بالامعان في الفساد ، والادلة التاريخية التي تؤيد ذلك كثيرة متواترة .

والديمقراطية في رأى الفوضويين ليست قائمة على الحرية ، لانها تعد ارادة الأغلبية القانون الاسمى ، وترى أن المجتمع لا بد له من حكومة ، وأن الفرد يجب عليه أن يخضع لأوامر هذه الحكومة سواء اراد ذلك أو لم يردده ، وهى من ثم تختلف عن الحكومة المستبدة في إلغاء حرية الفرد اختلافا في الكم والدرجة لا في النوع ، والفرد الذى تقوم في طريق حريته القوانين التي تسنها الدولة لا يعنيه أكانت تلك القوانين مصدرها ارادة رجل واحد أو ارادة الملايين ، وما يعنيه هو أن وجود هذه القوانين يجور على حريته ويمترض سبيلها .

والفوضوى لا يتطلب الضير ويغنيه للأقلية ولا للأكثرية ، وإنما يريد للجميع على السواء بلا أدنى تفرق أو تمييز ، وهو يعتقد أن المجتمع القائم على أسطورة الدولة لا يستطيع أن يتجنب استعباد الناس لا من أجل مصلحة الأكثرية بل من أجل مصلحة الأقلية التي تستمتع بالامتيازات ، وطالما وجهت الى الفوضويين تهمة أنهم جماعة من السالمين غير العمليين لا تكارهم نظام الحكومة ، ولكنهم يدفعون هذه التهمة عن أنفسهم قائلين أن الأكثر استحقاقا بأن يرمى بهذه التهمة هم الذين لا يزالون يعتقدون أنه من الممكن أن تقوم حكومة لا تستغل الحكوميين ، ولا يلحق الفساد القائمين بها ، رغم أنف الشواهد التاريخية التي تنقض هذا الزعم ، وتكشف بطلانه . والفساد من طبيعة الحكومة ، كما أن السم من خصائص الأفعى .

وجميع الأفراد حتى أقوامهم وأعظمهم مواهب منتجون، وفي الوقت نفسه هم نتائج، والحرية التساوية لكل فرد ليست سوى نتيجة لهذه المجموعة من المؤثرات المادية والفعلية والأخلاقية التي يوجدها الأفراد في المجتمع الذي يولد فيه الإنسان وينمو ويقضي نحبه، والرغبة في الإفلات من هذا التأثير باسم الحرية المتعالية أو الأناية المطلقة المقدسة رغبة في الإبادة والهلاك، والامتناع عن التأثير في الغير معناه الامتناع عن كل عمل اجتماعي، بل هو في الحقيقة امتناع عن التعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه حتى يصبح كأنه غير موجود، وهذا الاستقلال الذي يعلو من شأنه المثاليون والمثاليون، وتصور الحرية الشخصية بهذا المعنى معناه إلغاء الذات وإبادتها .

وقد عبر باكونين في هذه الفقرات عن موقف الفوضويين، فهم يقولون الحدود الضرورية للحرية التي يؤثرها الناس، وإنما الذي يرفضونه هو الحدود التي تفرضها كتلة من البشر بالقهر والإرغام كما تفعل الدولة .

ويرى الفوضويون أن يقوم المجتمع على الأساس الإداري الذي تتطلبه طبيعة الأشياء بدلاً من نظام الحكومة في المستوى الاقتصادي وحده وإنتاج البضائع اللازمة لاستهلاك الناس وإعداد الخدمات الاجتماعية اللازمة بطريق التعاون بين الأفراد الذين ينتجون مستلزمات الحياة المتحضرة .

وفي المجتمع الذي تنهى فيه الملكية العامة الامتيازات وعدم المساواة الاجتماعية الاقتصادية تصبح وظيفة الدولة بنظمها المستحقة وبيروقراطيتها وجيشها وفرطتها من الأشياء التي لا لزوم لها، وكل هذه المحققات الحافة بالدولة الحديثة ليس المقصود بها حماية أفراد المجتمع من الرجال والنساء وإنما المقصود بها في رأي الفوضويين حماية الطبقة الحاكمة وما في حيازتها من الممتلكات التي تمكنها من السيطرة والحكم .

كانت ترمى دائماً إلى إيجاد نوع من النظام، ولكنها تشترط أن يكون هذا النظام حراً وتبايعاً من حاجات الإنسان، والفوضوية تدعو إلى الحرية وتبشر بها، ولكن ليس معنى ذلك أنها تدعو إلى الانفصال عن المجتمع، وهي ترى الجمع بين المجتمع والحرية، وترى الحرية يجب أن تكون متبادلة، فحرية كل فرد متوقعة كذلك على حرية الفرد الآخر، ولذلك لا بد من اقتران الحرية بالعدالة، لانه بدون العدالة لا تكون هناك حرية صادقة حقيقية، كما أنه بدون الحرية لا توجد عدالة حقيقية .

والتعاون في النهوض بالأعمال يمكن من إنجازها في وقت أقصر، ولذلك يرى الفوضويون أن توزيع العمل توزيعاً عادلاً معقولاً يكسر الإنتاج، ويتيح فرصة لأوقات الفراغ . التي تريح الإنسان من مواصلة الكدح طوال اليوم، والرجل المستقل بنفسه والذي يكتفى بالاعتماد عليها في جلب الضروريات لحياته عليه أن يقضى يومه في العمل المتصل ليعيش في مستوى متواضع، ولا يمكن الإنسان أن يحصل على فوائد العمل المشترك والحياة العامة إذا لم ينظم وظائف الإنتاج القائلون به .

وقد أدرك ضرورة التنظيم الاجتماعي زعماء الدعوة الفوضوية، وفندوا في مناسبات كثيرة مزاعم الفوضويين الفرديين الخالصين، وقد قال باكونين سنة ١٨٧٢ في المؤتمر الدولي للحرية الفوضوية « أن ردنا على من يزعم أن العمل المنظم اعتمد على حرية الجماعات أو أنه محاولة لخلق قوة تسلطية جديدة هو وصفه بأنه فسفطاني وأحمق، وأردأ من ذلك حالا هؤلاء الذين يتجاهلون قانون التعاون الإنساني الطبيعي إلى حد أن يتصوروا أن استغناء الأفراد أو الجماعات بعضها من البعض من الأشياء الممكنة أو أنه من الأشياء المرغوب فيها، والرغبة في هذا الاستغناء معناها الرغبة في هدم المجتمع، لأن الحياة الاجتماعية جميعها ليست سوى اعتماد بعض الأفراد أو الجماعات على بعضها الآخر، وهو اعتماد متبادل غير منقطع،

وليست الفوضوية نظاماً شبيهاً بالجمود وعدم التطور والاستقصاء على التغيير ، وإنما هي فلسفة ديناميكية تعترف بأهمية التطور في المجتمع البشري ، وتعترف خطأ إقامة نظام المجتمع على أسس غير قابلة للتقدم والتطور ، ولذلك يرفض الفوضويون فكرة أن الثورة يمكن أن تخطط وتتم من طريق استيلاء حزب منظم على زمام السلطة ، وهم يرون أن الثورة تنبعث بحركة تلقائية يقوم بها الناس ضد حكامهم ، وأن الدور الذي تلعبه الإرادة الثورية في المعركة الناجمة عن الثورة هو المحافظة في عقول الناس على طبيعة الغاية التي يجاهدون من أجل تحقيقها ، والقائمون بالثورة قد يشرون بالحربة ويدعون إليها ، ولكن على الناس أن يحصلوا لأنفسهم على الحرية .

ولذلك يرى الفوضويون أن السنديكالية قد تكون وسيلة عملية لتنظيم المجتمع بعد قيام الثورة ، ولكنها ربما تكون وأفية بكل الأهداف المطلوب تحقيقها ، ومتى تم تحرير الناس من ضغوط النظام الاجتماعي والاقتصادي فسان تطور النظم الإنسانية قد يتخذ صوراً لا يمكننا أن نذكرها ، ولذلك يرى الفوضويون أن ما يقدمونه من المقترحات وما يعدونه من الخطط للمستقبل وبعد حدوث الثورة لا يمكن اعتباره شيئاً مفروضاً منه وإنما هو مجرد أساس لتطور اجتماعي أبعد مدى .

والفوضوى لا تصور مجتمعاً خالياً من النقص والعيوب ، وإنما يحرص على أن يقيم مجتمعاً على أسس الحرية والعدالة ، وهو يرى أن مثل هذا المجتمع خليق بأن يفرض فيه الإنتاج ، وكثير الكفايات العملية ، وتسمو القيم الأخلاقية والروحية ، ويوجد الإنسان فيه الحياة عذبة المناهل ، دانية الطوف ، سهلة ميسرة ، وقد تبدو الفوضوية لهؤلاء الذين ملا فساد المجتمع الحديث نفوسهم بأساً ونقمة كأنها تبشر بعنة من صنع الخيال ، وتلفيق الأوهام ، ولكن الأمل في إمكان تحقيق العالم الفوضوى المثالي قائم على الإيمان بأن التطلع إلى الحرية والعدالة والسلام جوارب أساسية في الطبيعة الإنسانية .

والمجتمع الذي يخلو من الامتلاك الخاص وتساوى فيه أقدار الناس ويوجد فيه كل إنسان ما يشبع حاجاته لن تكون فيه دوافع لاقتراف الجرائم إلا بين المصابين بالأمراض ، وهؤلاء لا يقدمون للمحاكم ، ولا يتلقى بهم في غياهب السجون ، وإذا الغينا الملكية الخاصة تنتفى الحاجة إلى سن القوانين ، والمعادن وليست الإجراءات والتنظيمات هي مظاهر أفكار الإنسان من العدالة . وفي المجتمع الحر تكيف المعادلات بحيث تصبح مناسبة للأفكار التقدمية في المجتمع ، وفي ظلال الفوضوية سيكون كل إنسان حراً في أن يعيش كما يشاء بعد أن ينجز عمله، ويؤدي وظيفته الاقتصادية، على شريطة أن لا يتدخل في حياة الغير من أخوانه البشر ، والأحرار الذين يعيشون في مجتمع على هذا النمط يمكن الاعتماد عليهم في المحافظة على السلم دون حاجة إلى الاستعانة بالشرطة أو النواب .

وقد وجدت الأفكار الفوضوية تعبيراً عنها وأضحاً جلياً في الفوضوية السنديكالية . والفوضوية السنديكالية تعمل على أعداد وسائل الثورة ، وتنظيم المجتمع الحر الذي تتمخض عنه الثورة ، وهي تدعو إلى تنظيم العمال في النظام الرأسمالي في تنظيمات اقتصادية نقابية تختلف من الاتحادات التجارية في أن القائمين بها جميعهم من العمال أنفسهم ، وليس هدفهم . أن ينفقوا ببعض الإصلاحات في ظل النظام الرأسمالي ، وإنما غرضهم أنجاز الثورة الاجتماعية بالطرق الاقتصادية وأساس الأسلوب الثوري عند الفوضويين السنديكاليين هو الاضراب العام ، والامتناع عن التعاون الاقتصادي ، وجمع صفوف العمال وتوحيدها في القيام بهذه الحركة الاقتصادية ، وبعد الثورة تكون السنديكالية هي أساس وحدات النظام الاقتصادي ، وكل وحدة من هذه الوحدات تؤدي وظيفتها في التعاون الاقتصادي العام الشامل ، ويمكن هذا النظام المجتمع من الحصول على حاجاته ، ويحل محل النظام القائم على السلطة والقهر والأرقام .

رواد الفوضوية

والمعروف من لاوتزي Lao Tzu موجد هذا المذهب جد قليل ، ويقال انه ولد في سنة ٦٠٤ قبل الميلاد في مقاطعة تشي Tchi واختير امينا للمكتبة الملكية في كاو Kao وكان مثل سقراط تعرف تعاليمه من خلال احاديثه وكان الكثيرون من طلابي المعرفة يستمعون الى محادثاته ويتلقون الحكمة من محاضراته ، ولما علت سنه اعتزل العمل في المكتبة الملكية ، وقصد جبال لينج بو Ling Po يلتمس فيها ملاذا يأوي اليه ، ويقضي اوقاته في التأمل والتفكير ، واجتمع حوله في هذا الاذ جملة من المريدين ، وطلبية لطلهم كتب لهم كتابا ضمنه آراءه ، ولما انتهى من تأليف هذا الكتاب ترك تلامذته ، وتوغل وحيدا في اعماق الجبال ، ولم يعد من هذه الرحلة .

وقد اوضح لاوتزي جانباً من تعاليمه في كتابه ، ولكن بعد مضي سنوات كتب تعاليمه شوانج تزي Chuang-Tzu كما سجل افلاطون آراء سقراط في محاوراته واصبح كتابه المرجع الاساسي للعقيدة التاوية ، وقد كان لهذه العقيدة تأثير عميق في التفكير الصيني ، وفي موقف الصينيين من الحياة .

وقد ذهب لاوتزي الى ان الفضيلة كامنة في الانسان ، وقال بضرورة ازالة العقبات التي تعترض التعبير من هذه الفضيلة ، وكان يعتقد ان الميل الى الخير ينبع من اعماق الانسان ، ولا يمكن ان تلزمه بفعل الخير القوى الخارجية ، ولذلك قال بضرورة ترفيع الحرية للانسان ليظهر في افعاله ما تنطوي عليه نفسه من حب الخير ، ولتنفج شخصيته ، واكثر من التهي من التدخل في حياة الناس .

وكانت تعاليم لاوتزي من الناحية العملية والتطبيق الاجتماعي تعارض فرض التسلط على الانسان ونهيه عنه ، ولذلك كان لاوتزي يعارض رأى كونفوشيوس الذي كان يرى ان اصلاح الانسان يأتي من الخارج ، ويفرض عليه فرضاً ، ومن مآلور كلامه قوله « ان الحديث من عمل البر والقيام بالواجب لجيران الانسان

الاعتقاد الكامن في اساس المذهب الفوضوي هو الظن الحسن بالطبيعة البشرية ، ورغبة الناس الصادقة في الحرية وكراهية السيطرة ، وتبدو سمات هذه المزايا والصفات في الانسان خلال عصور التاريخ المتعاقبة ، ولكن اذا قصدنا بالفوضوية مذهباً محدد المعالم الى حد ما ، ويتميز باتجاه اجتماعي خاص وتوجيه اقتصادي معين فاننا نضطر الى حصر نطاق الموضوع ، وفي العالم القديم ظهرت بعض المذاهب الفلسفية الاخلاقية القريبة من الاتجاه الفوضوي ، من قبيل ذلك الفلسفة الرواقية التي كانت تبشر بضرورة الحرية الفردية ، وتنقص الحرص على السيطرة ، وترهد الناس في المشاركة في الأعمال السياسية ، فكان ايبيكتيوس - احد ممثلي هذه الفلسفة - ينصح الناس بان لا يكونوا قادة في الجيش ، ولا اعضاء في السناتو ، ولا من المناصلة ، ويوصيهم بالحرص على الحرية ، ولكن الحرية في رأى الرواقيين كانت الحرية الداخلية الخاصة ، وكان الرواقيون يعتقدون ان الانسان يمكن ان يظهر بهذه الحرية الداخلية في المجتمع غير الحر اذا ازدري السيطرة ، ونهد الطامع الدينية ، ولذلك لم يحضوا الفرد على العمل لتغيير نظام المجتمع ، لان حرية كل انسان امر يعنيته ، وكانت فلسفتهم شبيهة بالنزعات الصوفية التي ترمي الى ان يصلح الانسان نفسه ، ويطلقها من اسار الطامع والشهوات والاهواء قبل ان يعمل على اصلاح المجتمع وتقويم اهواجها .

وقد ظهرت في الصين القديمة مدرسة من الاساتذة الحكماء ترى ان الظروف الخارجية تمنع الانسان من انماء فضائله واظهار مزاياه الاخلاقية ، وانه لايد من ازالة العقبات القائمة في طريق انماء الفضائل واظهار المزايا الشخصية ، وكانت التاوية Taoisme من العقائد الدينية الاجتماعية التي ترى اقامة مجتمع بدون حكومة ، وهي لذلك يمكن اعتبارها اول مذهب فوضوي النزعة في التاريخ .

في دورها على تقوية تلك المبادئ وشد أزرها وبيان موايها ، وصاقتها مضيافة فلسفية جعلتها تؤثر تأثيرا بالغا في الحياة الصينية باعتبارها عقيدة الذين لا يملكون شيئا ، وستكون من المؤثرات الأولى الأساسية في توطيد المجتمع الحر حينما يصل الى الصين .

جيرارد ونستانلي Gerard Winstanley

ولد سنة ١٦٠٩ وسنة وفاته غير معروفة . حينما اتصرت البورجوازية الانجليزية على الاوتقراطية الملكية في الحرب الداخلية التي ثارت في إنجلترا خلال القرن السابع عشر فان هذه البورجوازية كانت تعد حكومة طفيلان تختلف في الدرجة بحسب من الحكومة التي تقلبت عليها يقوم بها القسم الخلف من فريق البورجوازية المنتصر ، وكان القسمان المتنافسان في جماعسة البورجوازية هم اتباع الكنيسة المسيحية Presbyterians وقسم المستقلين ، وكانت الفروق السياسية بين هاتين الشجبتين قليلة سطحية ، وكان الفريقان يريدان اقامة حكم بورجوازي لا يعبا بصغار البورجوازيين والعاملين لقاء اجور ، وكانت الحرية التي ينشدها الفريقان حرية الاستغلال مثل طلب حرية التجارة في القرن التاسع عشر .

وقبل ان تضع الحرب اوزارها ادرك الشعب انه خدع ، ففي سنة ١٦٤٣ اضطر مجلس النواب الانجليزي الى أن يقتصر للخدمة العسكرية قللة عدد المتطوعين ، ومنذ ابتداء الحرب حدث شغب بين المزارعين ، وفي سنة ١٦٤٥ ظهرت بوادر النعمة على الانقياء السائد في حركة طلاب المساواة Levellers داخل صفوف الجيش وخارج صفوفه ، وهددت هذه الحركة جيش كرومويل بضغ سنوات حتى استطاع هزيمة الفرق الناقمة .

ولكن طلاب المساواة كانوا من صفار البورجوازيين ولم يكونوا من طبقة البروليتاريا ، وذلك برغم أنهم كانوا شديدي الاهتمام بالفقرام ، ولكنهم كانوا من المدافعين من الملكية في الوقت

يكاد يخرجني من الصواب ، فاعمل يا سيدى على ان تظل الدنيا محتفظة ببساطتها الأصلية ، وكما تهب الريح حيث تريد كذلك دع الفضيلة تسير سيرها وتشق مجراها .

وكان كونفوشيوس ينصح الحكام بأن يتبعوا الحكمة في حكمهم ، ولكن لاوتزي كان لا يرى الخطأ في اسلوب الحكم ، وانما يجده في الحكومة ذاتها ، ولذلك كان يعلم تلامذته أنهم ينجحون اذا أمرضوا من الحكم أمراضا تاما ، أو يلفظ آخر اذا أمسكوا من ان يكونوا حاكمين ، ومن اقواله في هذا الصدد « حينما تصلر أعمال الناس من قوانين النع والتحرير المفروضة عليهم فان البلاد ينخب بها الخراب شيئا فشيئا ويدب فيها الفساد ، وحينما يسمح للناس بحرية استعمال السلاح فان الحكومة تصبح محفوفة بالأخطار ، وكلما صار الناس أكثر مكرًا وانشط في ابتكار الحيل كثر استعمال الأشياء المصطنعة ، وحينما تتدثر هذه الفنون المأكرة وتعم ينتمش حال الاشقياء ويزدهر ، ولذلك يقول الرجل الحكيم (انى لا اضع نظاما ولا ارسم خطة) والناس ستمس على النهج الذى بلالهما ويرضيها وسالترزم الهدوء والناس ستهجد الراحة والطمانينة ، وساعرض عن الطموح ، والناس ستمود الى البساطة الطبيعية » .

وهكذا يرهذ لاوتزي الناس في طلب الأشياء الدنيوية ، والتماس القوة والسيطرة ، ويوسي بهذه التوامد الثلاث ، الانتاج بدون امتلاك والعمل بغير تأكيد للذات ، والتقدم دون الركون الى السيطرة ، وهو بذلك يبشر بنوع من الاخلاق الاجتماعية والشخصية تعين على انماء الشخصية الفرد ، ولا تفترق في جوهرها عن فلسفة الفوضوية .

ولم تكن النابوية من المذاهب الاكاديمية التي توجد في فراغ اجتماعي ، بل كانت على تقويض ذلك نابية من صميم المبادئ العامة الشائسة التي وجدت دائما في المجتمع الصيني ، وعملت

لم يصل الى مثله مفكر اجتماعي انجليزي قبل جودوين Godwin وقد أدرك الفساد الموجود في نظام الحكومة ، ومن اقواله في ذلك « كل من يصل الى يديه زمام السلطة يستبد بالآخرين » وذكر ان عدم المساواة الاقتصادية هي الصفة الكؤود في سبيل الحرية والسلم ، وأنه ما دام هناك قوم يمدون ملكية الأرض فان عامة الشعب لن تغفر بحريتها ، كما لا تغفر الأرض من المتاصب ، والاضطهاد والشكاوى ، ولعن الملكية الخاصة ، وقال انها العيب الذي ترزح تحته الخليقة ، وان القمعين باصلاح هذه الاحوال هم الفقراء ، فهم الذين ينفلون قانون البر ، وعليهم ان يستولوا على الأرض فهي مصدر الثروة ، ولم يحبد الاستيلاء بالقوة على الضياع ، وانما أشار على الفقراء بان يستقروا في الأراضي البور ، ويتعاونوا على استصلاحها ، ويضربوا للناس مثلاً في التعاون المنتج يعلمهم فائدة التعاون ، وفي اول يوم من ابريل سنة ١٦٤٩ قام ونستالي وابناه بخرث الأراضي الجرداء القريبة من والتون الواقعة على نهر التايمز ، وانضم اليهم كثير من الرفاق ، واشتركوا معهم في حرث الأرض وزراعتها وقد جر عليهم القيام بهذا العمل عداوة جيرانهم في تلك المنطقة ، لانهم راوا ان افكار جماعة الحرائين تهدد مصالحهم تهديدا مباشرا ، ولم تمض ايام قليلة حتى هاجمهم جمع من الفوقاء وحرقوا اكوأخهم ، وحطموا الآلاتهم ، واعتقلوا عددا منهم في كنيسة والتون ، ولم يكفوا عن الحاق الأذى بهم ، وظل الحرائون يعادون العمل سنة كاملة في الفينة بعد الفينة محتلين الأرض والاضطهاد ، وفي مارس سنة ١٦٥٠ تم اجلاؤهم من المنطقة التي احتلوها ، فلأذا باحد المروج الصغيرة القريبة ، ولكن اعدائهم لم يتركوهم ، ففي شهر ابريل قُاد أحد القساوسة جملة من الفوقاء وأبعدوهم للمرة الأخيرة ، وقضى بذلك على حركة الحرائين . ولكن افكارهم الاجتماعية ذاعت خلال هذا الصراع ، كما أنهم أثروا الأدب التوضوي بما خلفوا من آكار ادبية وقد أدرك الحرائون قبل سائر المفكرين الذين سبقوا عهد جودوين

نفسه ، وعارضوا فكرة الامتلاك العام ، كما راوا ابعاد العمال الذين يتقاضون الأجور عن التصويت العام .

وكانت حركة طبقة البروليتاريا - وهي الطبقة الفقيرة - مصطبغة بالصبغة الدينية والنزعة الصوفية ، وصارت هذه الطبقة ترى ان الفقر نفسه من المؤهلات للوصول الى الكوكب السماوي ، ومن بين دعاة هذه الحركة ظهرت اكثر حركات العصر تقدما من الناحية الاجتماعية وهي حركة جيرارد ونستالي والحرائين Diggers .

وكان ونستالي من صفار تجار المدن ، وقد اخفق في عمله في انشاء الأتمة الاقتصادية ، واضطر الى الذهاب الى ضاحية كوبهام Cobham وظهر في سنة ١٦٤٨ مؤلفا لرسالتين لاهوتيتين لا يختلفان كثيرا عن الرسائل التي غلبت عليها النزعة الصوفية ، وكانت شائعة في ذلك العصر .

ولقيت افكار ونستالي قبولا ، وتطورت تطورا سريعا ، ففي النصف الثاني من سنة ١٦٤٨ ظهرت له رسالتان اخريان كشفتنا عن انتقاله الى مرحلة اخرى من مراحل التفكير ثم من أنه أصبح يؤمن بالله على نمط لاه مقيدة وحدة الوجود ، وكان هذا الاله في رايه هو العقل ، وهذا الاله او العقل الخالص يربط المخلوقات بعضها ببعض برابطة الحب ، ومساعدة بعضهم البعض ، وان هذا التعاون هو قوام الوجود ، وقد استخلص من ذلك ان العقل هو الذي يجب ان يسيطر على العلاقات المتبادلة بين الناس ، وان العقل يوصي بان يكسوه اذا عري ، لأنه ان كان اليوم طاعما كاسيا فقد يصعب في الغد في حاجة الى من يطعمه ويكسوه .

وفي اشهر فلال تبلورت افكار ونستالي وامتثلت صورة خريمة اجتماعية ، وفي مارس سنة ١٦٤٩ ظهر كتابه « قانون البر الجديد » واطهر فيه فهما صادقا للمشكلات الاجتماعية

الثوب الكهنوتي ، وصار من قادة الفكر في إنجلترا في أثناء الثورة الصناعية والتجديد الرومانتيكي في الأدب ، وكان له تأثير إلى حد ما في مثالي الحركة الرومانتيكية في إنجلترا مثل الشاعر شيلي ووردزورث وكولردج ، والناقد دى كونسى وهازلت ، وقد كانت آراؤه من البواعث التي حثت ماثوس Mathus على أن يرد عليه برسائلته المشهورة من « السكان » وقد شاعت الأقدار أن تكون هذه الرسالة أبعد شهرة من الكتاب الذي ألغته هذه الرسالة للرد عليه .

وقد كتب جودوين كتبا كثيرة والفروايات، ولكن الكتاب الذي شرح فيه آراءه في الاجتماع وكان له تأثيره في التفكير الفوضوي هو كتابه من « العدالة السياسية » الذي ظهر في سنة ١٧٩٣ وقد دل بهذا الكتاب على سعة اطلاعه ، وقوة حجته ، ولا يزال هذا الكتاب مرجعا هاما من مراجع التفكير الفلسفي الفوضوي .

ويرفض جودوين فكرة وجود حكومة مهيمنة تكون صورة هذه الحكومة ، لأن وجود حكومة يقتصر في رأيه بوجود الاستبداد والظلمين سواء كانت هذه الحكومة ملكية أو جمهورية لأن وجود الحكومة في حد ذاته هو المصدر الرئيسي للشر ، والفرق بين البلاد المحكومة حكما استبداديا والبلاد المحكومة حكما جمهوريا هو أن العقل تثقله القيود حينما يسود الحكم المستبد ، أما في ظل الحكم الجمهوري فإن العقل يحتفظ بنصيب من النشاط ويكون الضغط عليه ومصادرة حريته تابعا لتقلب الأحوال ، ونظم الحكم بطبيعتهما في رأى جودوين مبالغة إلى تجريد العقل من مرونته ، وإقامة الحوائل في طريق تقدمه ، وقد رفض جودوين فكرة أن الحكومة قائمة على العقد الاجتماعي التي قال بها روسو ، وهو يقول في ذلك « لا نستطيع أن ننزل عن استقلالنا الأخلاقي أنه عقار لا نستطيع بيعه أو التفريط فيه ، ونتيجة لذلك لا نستطيع أية حكومة أن تستمد سلطتها من تعاقب أصيل » وهو يعزو أخطاء

الأساس الاقتصادي للمشكلات الاجتماعية ، وضرورة علاج هذه المشكلات من الناحية الاقتصادية بوجه خاص ، ولذلك كانوا يصرون على أن الأرض تكون ملكا للجميع ، وقد انتزع الفكرة الأرض من عامة الشعب ، والإصلاح الصحيح يقتضي أن ترد هذه الأرض للجميع بعد هذا الإغتصاب الذي طال أمده ، وتفاقم ضرره ، وكانوا يعتقدون أن سبب النقص والعيوب الأخلاقية مثل الكبرياء والرياء والحسد والجبن والبخل والشح مصدرها جميعا العبودية التي يفرضها فريق من الناس على الفريق الآخر ، وعرفوا أن السبب الحقيقي لاثرة الحرب اقتصادي قبل كل شيء ، وليس سببا روحيا ، وإن حب الامتلاك ، والحرص على المنافع والرغبة في الاحتفاظ بالسيطرة والتفوق ، هي سبب القطيعة بين الناس ، وبلعث الحرب واراقة الدماء في كل مكان ، كما ادركوا الدور الذي تقوم به الدولة بوصفها حامية الملاك وأصحاب المصالح وذوى التفوق ، وإن سبيل القضاء على القهر والارغام هو إلغاء الملكية ، وإن ذلك هو الطريق الوحيد إلى الحرية ، ونرى من خلال ذلك أن جماعة الحرائين وعلى رأسهم ونستالي قد سبقوا إلى الكثير من الأفكار التي أعلنها كرويتكين في كتابه من « التعاون المتبادل » وبعض آراء باكونين وغيرهما من زعماء المذهب الفوضوي وكبار مفكريه .

وليام جودوين (١٧٥٦ - ١٨٢٦)

لم تجد بدور المذهب الفوضوي نرى خصبا في بريطانيا ، وقد نظر الإنجليز إلى الفوضوية باعتبارها مذهبا نشأ في روسيا وبعض البلاد اللاتينية ، وقد اخفت آراء ونستالي في إنجلترا بعد القضاء على حركة الحرائين على وجه التقريب ، وإذا كانت قد بقيت لها آثار فإن هذه الآثار كانت ضعيفة إلى حد كبير ، وقد ظهر بعد انقضاء قرن ونصف على تلك الحركة الفكر البريطانية وليام جودوين ، وكان في الأصل قسيسا ثم خرج على الكنيسة وخلع

فحسب بل من حقه كذلك أن يجد ما يسمح له أن يعيش في رغد ، ومن الظلم أن يحرم انسان من أوقات الفراغ التي تمكنه من أن يتقن قواه العقلية في حين أن غيره لا يسمح بأى جهد ليشيف الى الرصيد العام ، ومواهب كل انسان مثل مواهب غيره من الناس ، ولذلك نقضى العدالة بأن يسمح كل انسان في زراعة المحصول العام الذي يستهلك كل انسان نصيبه منه .

وكان جودوين يرى أن يحل النظام القنطري محل الحكومة السياسية « تلك الآلة الوحشية التي كانت الطلة الدائمة لمساوىء البشر » ويتكون هذا النظام القنطري من جماعات تقوم بتنظيم نفسها تنظيميا تلقائيا خالصا لا أثر فيه للضغط أو الأرقام ، وترتب فيه الوظائف الاجتماعية اللازمة، وعنده أن هذه الثورة يمكن أن تتم في سلام من طريق التربية والتعليم والدعوة الحسنة .

وقد كان لكتاب جودوين عن العدالة السياسية صدى وتأثير في مفكرى عصره ، وحينما مرض على وليام بست وهو رئيس للوزارة البريطانية حين ظهور الكتاب أن يأمر بمصادره قال ساخرا أنه لا مصادر كتابا تباع النسخة منه بثلاثة جنيهات، ولكن الكتاب برغم ارتفاع ثمنه صاف أقبالا ورواجا ، وكون كثيرا من العمال من أنفسهم جماعات للحصول على نسخ منه ، ولا نزاع في أن حركة التحرير التي قام بها بعد ذلك روبرت أوين ونشوء الاتحادات التجارية كانا الى حد كبير من تأثير أفكار جودوين ، وترجع الحركة المناهضة لفكرة التسلط في النهضة المعالية الى ما بثه جودوين من الخواطر المادية للتسلط .

بيير جان برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥)

Pierre-Joseph Proudhon

كان برودون طباعا فرنسيا ، وقد صار زعيما لحركة العمال الفرنسية بضع سنوات ،

الاجتمع الى قهر الأفراد ، وهذا القهر لا يمكن فصله عن الدولة ، وفي كل انسان رغبة أساسية للحرية والسلم ، وإذا أزيلت السلطة فإن هذه الرغبة تثبت وجودها ، وغريزة الميل الى السلم والحرية عميقة الجذور في نفس الانسان ، ولذلك اذا ترك الانسان دون أن يكثر التدخل في شؤنه فإنه يوجد البيئة الصالحة ، ويخلق لاولاده الاحوال الحسنة ، وسيطرة الغير على الانسان تدفع الى الثورة والمصيان ، والثورة في دورها تسوق الى القهر والأرقام ، وهذا القسر الخوف يبعث الانى في النفوس ، ويكثر الخواطر ، ويتبع ذلك الصدمات والجروح والإصابات ، ويقول جودوين « علينا أن ننظر عند وضع الضبط لتحسين المجتمع الى الرجل السليم غير القيد لا الى ذلك القعد الكسبيح الذي شوهه التدخل وأرهقته القيود » .

وقد وجه أشد سهام نقده الى الملكية ، على خلاف المفكرين الأحرار المعاصرين له ، وهو يقول في نقدها « مهما تكن الشرور التي تأتي من الحكومات الملكية أو من الحاكم أو من دجل القساوسة أو من ظلم القوانين الجنائية فإن هؤلاء جميعا يبدون من المعجزة وضمايف المعقول اذا قورنوا بالشرور الناشئة من توطيد نظام الملكية » .

« والملكية المتراكمة تطل القوى الفكرية في التراب، وتطفئ شر العقيدة، وتفرق الجموع الغفيرة من الناس في هموم حقيرة » .

والتوزيع الوحيد العادل للملكية في رأى جودوين هو الذي يكفل لكل انسان ما يكفي حاجاته ولا يمكن انسانا من أن يكون لاهيا في بحبوحة من العيش وغيره يكبح ويماني الفقر والمسغبة ، وإذا كان للعدالة أى معنى فإنها لا تسمح لانسان بامتلاك ما يزيد عن حاجاته في حين أن كائنا بشريا لا يجد ما يكفي من تلك الحاجات الزائدة ، بل أن العدالة لا تقف عند هذا الحد ، فما دام هناك من المدخرات ما يكفي فإنه ليس من حق كل انسان أن يجد ما يكفي

ونشوء الصناعات الحديثة جعل التنظيم الاقتصادي القائم على الأفراد والجماعات الصغيرة التي تملك وسائل الانتاج غير ملائم ، ولذلك تغلبت فكرة باكونين لتعليم برودون التي ترمى الى تأييد الملكية العامة .

ويرفض برودون وجود الدولة وكل الوان السياسة وصورها ، ولا يستثنى أى حزب من الأحزاب لان الأحزاب جميعها في رأيه تطلب السيطرة ، وهي لذلك انواع من الحكم المطلق ، ولا يستطيع المواطن ان ينال حريته ، او تجد المجتمعات النظام ، او يتفكر العمل بالاتحاد ، الا اذا حل نيل السلطة محل الايمان بها ، ويقول برودون ان عقيدته السياسية وإيمانه الاجتماعي هما علم وجود الأحزاب وعدم وجود السلطة ، والحرية المطلقة .

ولم يكن برودون مفكراً لامعاً مثل جودوين ، ولكنه كان في طليعة الفوضويين الذين ظهروا في القارة الأوروبية ، وقد أثر في تفكير العمال الفرنسيين بوجه خاص ، وفي الحركة الفوضوية بوجه عام ، وكان باكونين ممن تأثروا بتفكير برودون وشخصيته .

ميشيل باكونين (1814 - 1876)

لا يمكن ان نصور نمو التفكير الحر في القرن التاسع عشر الى رجل واحد ، وقد كان لجودوين وبرودون وغيرهما ممن هم اقل منهما شهرة اهميتهم ومكانتهم ، ولكن ظهور ميشيل باكونين كان من اقوى العوامل في نشر دعوة المذهب الفوضوى ، واظهار مكانته باعتباره ملهما اجتماعيا ثوريا له أتباع وانصار في كثير من الدول الأوروبية ، وقد انتقل بعض انصار المذهب الى الولايات المتحدة الأمريكية وعملوا على الدعاية للمذهب بها في مختلف أرجائها .

وميشيل باكونين روسي الأصل ، وقد ولد في اسرة من الأسر الأرستقراطية الروسية في عهد القيصر الاسكندر الأول ، وهو بعد بحق امام الفوضوية الحديثة الذي قاد حركتها

وكانت افكاره في السنوات السابقة للكونون Commune شديدة التأثير في العمال الفرنسيين الأحرار ، واشترك برودون في النشاط السياسي حينما قصيرا من الزمن عندما كان عضوا في الجمعية الوطنية بعد ثورة سنة 1848 ولكن صار في الجزء الباقي من حياته بعد ذلك معارضا للأساليب السياسية والمجتمع السياسي ، وقد سجن مرتين لخروجه على قوانين الصحافة الفرنسية وقد عارض برودون الاحتكار الاقتصادي وانتقد تركيز السلطة في يد الدولة ، وفي سنة 1840 ألف كتابا عنوانه « ما هي الملكية ؟ » وجاوب على ذلك بأن الملكية سرقة ، وقد عدل رأيه بعد ذلك ، ورفض الملكية حينما تكون نتيجة للاستغلال ، ورأى ان المنتج من حق ان يملك وسائل الانتاج ويستمتع بقيمة انتاجه ، وان يكون اساس تقدير القيمة قائما على تقدير الوقت الذي قضى في صنع الانتاج ، وسلم بان يكون رأس المال في صورة وسائل الانتاج على شريطة ان لا يتضمن ذلك استغلال الغير ، وفي المجتمع الذي تمثله برودون يكون الرأسماليون هم الرجال أو الجماعات من الرجال الذين يعملون بأدواتهم وآلاتهم ويتلقون لقاء ذلك فائدة تعادل ما بدلوا من جهد ، واتباع هذه الطريقة لا يكون هناك سبيل للمستأجر الذي يملك الآلات ويعيش منها ويستخدم الغير في العمل بها ، ويعطيهم في مقابل ذلك اجرا اقل بكثير مما يستحقه العمل الذي يقومون به ، ويحصل بذلك على فائض ضخم يمكنه من ان يعيش دون ان يؤدي أى عمل ، وفي المجتمع الذي تمثله برودون ينال الانسان نصيبه من الطعام بقدر العمل الذي يقوم به .

ويرفض برودون الحكومة والسلطة، ويراها مناقضين للمدالة ، ويقترح ان يحل مطهما مجموعة من العقود بين الرجال الأحرار ، وهو يؤيد ذلك بقوله « لكي اظل حرا ولا أعرض للخضوع لقانون غير القانون الذي اضعه لنفسي ، ولكي أكون المسيطر على نفسي فان المجتمع يجب ان يعاد بناؤه على اساس فكرة التعاون » .

أحد أتباع هيجل البارزين ، وذلك في سنة ١٨٤٢ ، وكان عنوان المقال «رد الفعل في ألمانيا» وقد وردت في هذا المقال كلمته المشهورة وهي « أن الرغبة في الهدم هي كذلك رغبة خلاقة » ، وقد استغل هذه الكلمة الكثيرون من خصوم الفوضوية ، وصوروا باكونين في صورة الوحش الضار الذي يريد العنف قبل كل شيء ، في حين أن باكونين كان يقصد بهذه العبارة أن الصورة القديمة للمجتمع يجب أن تتغير قبل بناء المجتمع الجديد ، ومهما يكن من الأمر فإن هذا المقال دل على أن باكونين قد انضم إلى زمرة الثائرين ، ولم يكن تحييد باكونين لاستعمال العنف صادرا عن بواعث ساذجة في نفسه ، لأن المعروف من أخلاقه وطباعه يناقض ذلك ، وقد كان يقول أن الثورة العنيفة ضرورة غير مستحبة ، وأن الغناء البشري هو الذي يحتم القيام بها ، ويجعلها ضرورية ، فالثورة في رأيه شر لا بد منه ، وهو يقول في ذلك «الثورات الدامية في الأغلب ضرورية لازمة ، وذلك بفضل الغناء البشري ، ولكنها دائما شر ، بل هي شر منكرو كارثة كبيرة ، وهي ليست كذلك بالقياس إلى ضحاياها فحسب ، وإنما بالقياس كذلك إلى سلامة الفرض الذي قامت من أجله الثورة وتحقيقه » .

وفي سنة ١٨٤٣ اتصل بولتج الشيوعي الألماني في موسيرة ، ولم تعجب باكونين شيوعيته السلطوية ، حينما اعتقل وتلج في موسيرة وجد اسم باكونين في الأوراق التي كان يحملها ، فأخبرت الشرطة السويسرية السلطات الروسية بذلك ، وأمر باكونين بالعودة إلى روسيا ، فرفض أن يطيع هذا الأمر ، فجدته الحكومة الروسية من لقب الشرف ، وحرمته من الميراث ، وحكمت عليه غيابيا بالإشغال الشاقة في سيبيريا ، وتحديه هذا للحكومة الروسية جعلها خصمه اللدود وعدوه المتقد التحدي .

وفي السنة نفسها قابل برودون وماركس في باريس ، وتأثر بهذا اللقاء ، وكان للرجلين

وأوقد شعلتها ، ولم يكن باكونين ندا للماركس في سعة الإطلاع ، وغزارة المعلومات ، والقدرة على تنظيم الأفكار وتحديدها . واجادة التأليف واستيفاء بحث النظريات والتعاليم ، وربما كان أقدر زعماء الفوضوية في هذا المجال هو الأمير كروبيكين .

وقد ولد ميشيل باكونين في سنة ١٨١٤ وكان والده من رجال السلك السياسي ، وكان والده حين مولده قد اعتزل الخدمة ، وأقام في ضيعة له في ناحية تفر Tver ، وقد أراد أن يهيئ لابنه حياة وطنية محتومة في الجيش القيصري ، ولكن الفتى الناقض باكونين كان ثائرا مطبوعا ، وقد حمل علم الثورة أول ما حمل في داخل منزل أسرته ، ومحدى سلطة أبيه ، وكانت حياته العائلية المبكرة حافلة بالأحداث الثورية ، وكان يحرض إخواته على الثورة وشق عصا الطاعة ، ولم يكن أبوه من الآباء الطغاة المستبدين ، وإنما كان رجلا ذكي القواد مستنيرا سهلا متسامحا مع أولاده ، وقد استهدف مع ذلك كله لحملات هذا الابن المتمرد .

وقد الحق باكونين بمدرسة المدفعية في بطرسبرج ، وأقبل على دروسه الحربية بصبر وجلد ، وبرغم حصوله على وظيفة في المدفعية فإنه ترك خدمة القيصر عند أول فرصة لاحت له ، ومهد العزم على أن يفرغ للدراسات الأكاديمية ، وأقبل على دراسة الفلسفة ، وأعجب بفلسفة هيجل وكانت حينذاك هي الفلسفة السائدة في الأندية الفكرية والبيئات المثقفة ، وسرعان ما ضاق بالمجتمع الروسي ، وفي سنة ١٨٤٠ ترك روسيا وهو في السادسة بعد العشرين ليدرس الفلسفة الهيجلية في بيتنها الألمانية ، وقد غادر روسيا وهو من رعايا القيصر المخلصين ، ولكنه لم يلبث أن وقع تحت تأثير الشبان الهيجليين ، ومال إلى آرائهم الثورية ، ودرس الحركات الاشتراكية والشيوعية التي ازدهرت في فرنسا ، ونشر مقالا في المجلة التي كان يصورها أرنولد ريج ،

خالية من الفرض ، وحينما هرب كثيرون من
التأثرين ثبت باكونين في الدفاع عن الثورة
داخل الحواجز القائمة ، وأظهر من الشجاعة
والإقدام ما جعل ماركس وأنجلز على الثناء
عليه .

ولكن ثورة درسدن لم تنجح ، وأخمدتها
الجيش البروسية التي أرسلت لمساعدة ملك
سكسونيا ، وأعدم الكثيرون من التأثرين رميا
بالرصاصة ، وهرب فريق منهم إلى شملتز
ومعهم باكونين ، وألقى القبض عليه بها ، وكان
اعتقاله في هذه المرة بدء وضعه في السجن
الذي استمر ثماني سنوات ، لقي فيها الأهوال
وتنقل خلالها في سجون أربع دول ، وتبع ذلك
النفي إلى سيبيريا ، وقد قضى أكثر من سنتي
السجن بسكسونيا ، وحكم عليه بالإعدام
وأرجىء تنفيذ الحكم في اللحظة الأخيرة ، ثم
سلم إلى الحكومة النمساوية التي أرادت
الانتقام منه لاشتراكه في ثورة براغ ، وأبقى
سنة أخرى في السجن النمساوية ، وحوكم
ومدر الحكم بإعدامه ، وأرجىء مرة ثانية تنفيذ
الحكم ، وسلم التأثر في هذه المرة لحكومة بلاده
التي كانت حريصة على تعذيبه والتنكيل به ،
وألقى به في سجن بطرس وبولس ثم نقل إلى
سجن شوسلبرج Schusselburg وظل
مسنونا ست سنوات لقي فيها صنوف العذاب
والحرمان ، وأصطلحت عليه الملل والأمراض ،
فتساقطت أسنانه ، وهزل جسمه ، ولكن هذه
الآلام المبرحة لم تلن من عزمه ، ولم تفدح في
عقيدته ، ولم تفر من آرائه وفي سنة ١٨٥٧
أرسل إلى سيبيريا ليقتضى حياته منفيًا بها ،
وقضى بها أربع سنوات ، واستطاع الهرب في
سنة ١٨٦١ إلى بلاد اليابان ، وانتقل من بلاد
اليابان إلى الولايات المتحدة ، ومنها عاد إلى
لندن

وقد تجرع باكونين مرارة السجن والاعتقال
والنفي لكرامته الشديدة للحكومات ، ولم تجزع
الدول المختلفة التي عاقبتة وأذاقتة العذاب في
حملة على تغيير أفكاره ، ومنذ جودته إلى لندن

تأثيرهما في اتجاهات تفكيره ، فمن ماركس عرف
أن المسائل الاقتصادية أهم من السياسة ومن
الذين ، ومن برودون اقتبس أسس اتجاهه
الفوضوي ، ومعارضته لوجود الحكومة ، ورأيه
في لا مركزية الاشتراكية .

وفي السنوات التالية حاول أن يتدخل في
كل ثورة تقوم في أوروبا ، وفي أول الأمر اشترك
في الثورة البولندية ، وظل يساعد التأثرين
البولنديين حتى انتشرت إشاعة اذاعتها
الخبايا السرية الروسية لتحط من قدره ،
وتسبب إلى سمعته ، وهي أنه من جواسيس
الحكومة الروسية ، وقد ظلت هذه الفرية عالقـة
بسمعته سنوات عدة ، وقد أعاد اذاعتها بعد
ذلك الماركسيون لينالوا منه استجابة لرغباتهم
الخاصة .

وفي فبراير سنة ١٨٤٨ ذهب إلى فرنسا
 للمشاركة في الثورة التي قامت بها ، وبحس
في مساعدة التأثرين ، وحارب معهم في الحواجز
التي أقاموها في الطرقات ، ولكنه لما بدأ يدمو
لآرائه في الفوضوية شاقوا بها درما ، وهملت
السلطات الثورية على التخلص منه وإبعاده ،
ولما أدرك باكونين أن القائمين بهذه الثورة
يخالفونه في الرأي صمم على العودة إلى التأثرين
البولنديين وحشد أزرهم .

فذهب إلى برزلو على مقربة من الحدود
البولندية ، ولكن البولنديين أظهروا له عدم
الثقة به ، فأنجسه إلى براغ ، واشترك بها في
ثورة نشبت ، وحارب مع التأثرين في الحواجز
التي أقاموها ولكن الثورة أخفقت ، فهرب إلى
ألمانيا ، ووجد ملاذا مؤقتا في أنهالت Anhalt
وهي ولاية صغيرة في بروسيا ، وظل يتابع التامر
مع أصدقائه في بوهيميا ، وفي سنة ١٨٤٩
تسلل إلى درسدن ليكون على مقربة منهم ،
وهناك اشترك في ثورة أخرى ، فقد قام بها
جماعة من الأحرار الألمان بثورة للحفاظ على
النظام الديمقراطي ، وبرغم أنه كان لا يعطف
على الأحرار الألمان فإنه قدم لهم خدماته بفرصة

اتفاق المؤتمر الثاني العصبة عرض اقتراحاته الخاصة بمصادرة الثروة ، وأيجاد مجتمع خال من الطبقات ، ولما رفضت هذه الاقتراحات كما كان منتظرا ترك العصبة مع انصاره ، وتحول الى الدولي باعتباره آلة العمل الثوري .

وعندما كان عضوا في عصبة السلام والحرية أوجد الاتحاد الدولي للديمقراطية الاشتراكية، وكان أكثر أعضائه من أعضاء منظمة الأخوة الدولية السرية ، وانضم اليها الكثيرون من الثائرين في إيطاليا وأسبانيا والروسيين المتقيين المقيمين في سويسرا ، وحاول باكونين ادخالهم الدولي بوصفهم اتحادا تم تكوينه ، ولكن المجلس العام للدولي برعاية ماركس الذي كان قد بدأ يشعر بمنافسة باكونين وخطره على زعامته رفض هذا الطلب ، واضطر باكونين الى حل الاتحاد والسماح لأعضائه أن ينضموا الى الدولي فرادى .

وبدخول باكونين الدولي ومعه أنصاره من إيطاليا وأسبانيا كثر عدد الأعضاء ، وقد استطاع باكونين أن يكسب الى صفوفه حلوة على الأعضاء الإيطاليين والأسبانيين كثيرا من الأعضاء السويسريين والعمال الفرنسيين ، ولم يكن الصراع الذي نشب بينه وبين ماركس باعثه التأثير الشخصي أو اختلاف شخصيتهما فحسب ، فقد كان هناك خلاف شديد بينهما في المبدأ، وذلك لأن باكونين كان يرفض السلطة، ويعارض في وجود الدولة ، وكان باكونين يصرح بأنه ليس شيوعيا ، لأن الشيوعية تركز كل قوة المجتمع في الدولة ، في حين أنه كان يريد إلغاء الدولة وإزالة السلطة ، والدولة في رأيه قد استعبدت الناس واضطهدتهم واستغلتهم وأفسدتهم ، وحدثت أول معركة مكشوفة بين الماركسيين واتباع باكونين في الاجتماع الذي عقد في برزل سنة ١٨٦٩ والذي حضره باكونين واثاب ماركس من حضر بدلا منه ، وقد عرض فيه ماكونين اقتراحا بإزالة

وقف حياته على إذا تمرد على الحكومات ، فلما بدأت الثورة البولندية في سنة ١٨٦٣ حاول مساعدة الثائرين ولكن قادة الثوار رفضوا معاونته لأنه كان يرمي الى إيجاد تحالف فيدرالي بين الولايات السلافية ، وكان هذا يتعارض مع ما يراه الثائرون الذين كانوا يفكرون في إقامة حكومة أرستقراطية ، فذهب باكونين الى استوكهولم وانضم الى حملة من البولنديين كانت تريد أن تحل بلتوانيا ، ولكن المشروع لم ينفذ ، وتعلم باكونين من تجاربه مع البولنديين أن الثورة الاشتراكية لا يمكن أن تتحقق عن طريق الحركات القومية ، ولذلك اتجه بتفكيره الى الحركة الدولية الثورية التي تقوم بها طبقة العمال .

وعاش أكثر أيامه في السنوات التالية بايطاليا ، وأوجد أول تنظيم للشورة الفوضوية وهو « الأخوة الدولية السرية » وتبع ذلك انضمامه الى عصبة السلام والحرية وهي منظمة كونها جماعة من الأحرار عقدت أول مؤتمرها في جنيف في تلك السنة التي أمثل باكونين فيها أن مؤثر أفكاره الثورية .

وكان حضور باكونين لهذا الاجتماع أول ظهور لهذا الثائر الشهير الذي خاض ضمار الثورات وعرف فيهاب السجون والمعتقلات ، وقد قوبل بحماسة شديدة ، وكانت له آمال كبيرة في عصبة السلام والحرية ، وقد اختير في اللجنة المركزية للعصبة ، وانضم اليه بعض الأعضاء منهم الأخوان إيليسا ركلوس Elisec Reclus وإيلي ركلوس Elie Reclus وقد أصبحا فيما بعد من الفوضويين البارزين ، ولكنهم سرعان ما أدرك طبيعة العصبة البرجوازية ، وكان قد بدأ يعلن عداءه للرأسمالية ، وطالب بنزع ملكية الأرض ووسائل الإنتاج ، وجعلها تحت تصرف العمال ليعملوا بها متعاونين ، وعند

بحجة انها حاولا ايجاد منظمة دولية منفصلة في داخل الدولي ، ووافق المجتمعون على ذلك ، ولكن الفوضويين رفضوا الاعتراف بهذا الفصل ، والسنوات التي تلت تصدع اركان الدولي كانت حافلة بالاحداث المكثرة والمتاب المتكاثرة لباكوتين ، فقد اعتلت صحته اعتلا شديدا ، وتمكن منه المرض ، وعمره الفقر وحدث خلاف بينه وبين الكثير من اتباعه وانصاره ، ووقعت القطيعة بينه وبينهم ، ولما حدثت الثورة في اسبانيا سنة ١٨٧٣ اراد باكوتين برغم مرضه ان يذهب الى هناك للمشاركة فيها ، ولكنه لم يجد ما يكفي من المال لهذه الرحلة ورفض اصداؤه معاونته ، وهكذا عاش باكوتين حياة عاصفة ثائرة متحديا كل سلطة دون ان يفكر في سلامته الشخصية ، وبالرغم من التهم الوضيعة التي وجهت اليه فان تأثيره في نفوس انصاره كان قويا ، وتختلف تعاليمه من تعاليم استاذه برودون في مسالتين هامتين ، فقد ادرك اولا ان الزيادة المطردة في التقدم الصناعي تجعل فكرة المجتمع المكون من صفار الملاذ الذين يملكون وسائل انتاج خاصة بهم ويتبادلون الانتاجات مع بعضهم البعض بطريق التبادل المصرفي فكرة غير قابلة للتنفيذ ، وليست عملية بحال من الاحوال ، ولذلك آثر فكرة الانتاج الجماعي الذي تكون فيه وسائل الانتاج ملكا للمجتمعات التعاونية المكونة من العمال ، ولم يصل باكوتين الى فكرة مرحلة الانتاج العام للعمل التي دافع عنها كروبينكين بعد ذلك بسنوات قلائل .

والفكرة الثانية التي خالف بها برودون هي انه لم ير ان الدولة يمكن ازالتها بالتباع طرأق الاصلاح ، او بقوة القدرة الحسنة ، واعلم ضرورة الثورة للقضاء على النظم المؤبدة لوجود عدم المساواة والتي تصوق التمهيد لوجود المجتمع الذي تسوده المساواة الاجتماعية ، ومنه ان الثورات لا تصنع كما يرى الماركسيون ، وانما تحيي نتيجة اتباع تلكا

حق الميراث ، ولكن انصار ماركس عارضوا ذلك المقترح ، ورفض المجلس الاقتراح بأغلبية قليلة ، وبعد انتهاء الاجتماع في بازل اذاع الماركسيون اشاعات كثيرة تنال من سمعة باكوتين ، ولكن هذه الأقاويل السيئة لم تؤثر في اتبعاه .

وفي اثناء هذا الصراع وقعت الحرب البروسية الفرنسية وحدثت في فرنسا الثورة التي اطاحت بحكم نابليون الثالث ، وكان باكوتين في لوكارنو واجتذبه الثورة فاسرع الى مدينة ليون ، وكان له فيها اتباع كثيرون ، وفي اواخر شهر سبتمبر كون الفوضويون في المدينة لجنة لاتخاذ فرنسا ، وأعلنت هذه اللجنة إلغاء الدولة وحدث شغب في ليون لم ترق فيه دماء ، واستولى الثائرون على المدينة وقتل قسيرا ، وجاءت فرقة من الحرس الوطني وانتهت هذه الثورة الصغيرة ، والتي القبض على باكوتين واحتقل ، ونقله امواته ، وبعد ان ظل مختبئا فترة من الزمن هرب من فرنسا متنكرا .

واستمر الصراع بينه وبين ماركس حتى سنة ١٨٧٢ ، وفي سبتمبر من تلك السنة دعا ماركس الى عقد اجتماع لدولي في لاهاي Le Haye ، فعارض ذلك اتباع باكوتين ، وطلبوا عقد الاجتماع في سويسرا ، ولكن المجلس الاستشاري للدولي رفض ذلك ، وقاطع الفوضويون الايطاليون هذا الاجتماع ، وأضعف ذلك موقف الفوضويين ، وطلب ماركس في الاجتماع نقل المجلس الاستشاري العام من لندن الى نيويورك ، وقد اراد ماركس بذلك ان يتخلص من الفوضويين من ناحية ومن الاتحاد التجاري الانجليزي من ناحية اخرى ، ورفض في هذا الاجتماع البرنامج الذي قدمه الفوضيون ، وقدم اقتراحا بطرد باكوتين وصاحبه جيسوم Guillaume من الدولي

أفراد الشعب من الفقر والأعمال وسوء الحال، فمضى يكتب التقارير الوافية ، ويقدم الاقتراحات الترمعة بالفترة على الإصلاح ومتابعة الفقراء الى ادارات الدولة ومختلف الهيئات الحكومية ، ولكن عمله كان بغير جدوى فقد كان القوم في غفلة عن الإصلاح ، ولم يكن لهم فيه أرب ، ولا لهم اليه نزوع ، لأن الإصلاح لا يحقق لهم غرضا ، ولا ينيلهم نفعاً ، وبنية راقدة الفتنة ويهيج كامن الشر ، وأثر هذا التراخي والجمود في تفكير كروبتيكين ، وجعله يعتقد أن الأمور لا يمكن أن تظل على هذه الوتيرة ، وأنه لا علاج لهذه الأحوال السيئة المتخلفة إلا بالخروج عليها والثورة بها .

وفي سنة ١٨٧٢ أصبح من العاملين في صفوف الثائرين ورحل الى غرب أوروبا ، وقضى حيناً من الزمن في بلجيكا وسويسرا ، وهناك اتصل بالحركة التي كانت تدبر الثورات وترسم خططها ، وخاطب أتباع باكونين ، وراقته مبادئهم ، وقد أوشح في كتابه « مذكرات لائر » سبب تركه بحوله العلمية الجغرافية ، فقال « بأى حق استمتع بهذه المسرات العليا والشقاء حولي ضارب بجراحه وكل من أرى يجاهدون في سبيل الحصول على كسرة من الخبز الفضي ، وعلى حين أن كل ما انفقته ليتمكنني من أن أمشي في عالم هذه الوظائف السامية لا بد أن يكون منتزعا من الهواء هؤلاء الذين يزرعون الفلل ولا يجدون من الخبز ما يكفي لإطعام أطفالهم ، لا بد أن يؤخذ ذلك من أفواه بعض الناس لأن مجموع انتاج البشرية لا يزال جد منخفض » .

ونفر كروبتيكين من الاشتراكية الماركسية ، ومال بكلية الى الاشتراكية الحرة التي بشر بها باكونين ، وعاد بعد ذلك الى روسيا وأخذ يحاول تعليم المزارعين والعامل ، وكان يعرف ما في هذه المحاولة من خطر ، ولكنه لم يحجم عن ذلك ، وأقبل على هذه المحاولة غير هباب ولا وجل ، حتى قبض عليه سنة ١٨٧٤ واعتقل في حصن بطرس وبولس الربيح ،

في وعي الجماهير ، وكان يتحدث في ذلك من تجربة ومشاهدات بعد أن خاض غمار كثير من الثورات .

بيتر كروبتيكين (١٨٤٢ - ١٩٢١)

Peter Kropotkin

كان ينقص الفوضويين الذين ظهروا بعد جيل باكونين المفكر الذي يضع الأساس العلمي الاجتماعي للمذهب الفوضوي ، وقد توفرت القدرة على النهوض بذلك في كروبتيكين ، وقد امد جودوين الفوضوية بخواطره الفلسفية ، ودعمها باكونين بنظراته الاجتماعية وخلاصة تجاربه الثورية ، وقد سر ذلك السبيل لكروبتيكين ليضع للمذهب الأساس العلمي ، ويؤيده بدراساته العلمية ، فان كان باكونين بطل الفوضوية الثائر فان كروبتيكين عالمها المتمكن الواسع المعرفة والدراية .

وقد ولد كروبتيكين سنة ١٨٤٢ وهي السنة التي بدأ باكونين يتعلق فيها بالمعتقدات الثورية ، وهو أسرة روسية عريقة ، وقد نشأ تنشئة عسكرية ليشتغل منصباً في الجيش القيصرى ، وفي أوائل سنة ١٨٦٠ التحق ضابطاً بأحدى فرق القوقاز القيمة على مقربة من نهر آور في سيبيريا ، وقام بعد ذلك برحلات علمية كاشفية في نواحي سيبيريا المجهولة وفي شمال منشوريا ، وكان يدرس في أثناء ذلك التاريخ الطبيعي لهذه الأنحاء ، ولاحظ حياة المجتمعات البدائية بها ، وقد تركت هذه الدراسة أثراً عميقاً في تكوين آرائه الاجتماعية ونظراته السياسية ، وعاد الى بطرسبرج سنة ١٨٦٧ وقضى أربع سنوات في دراسة الرياضة والجغرافيا ، وذاعت شهرته بين التوفسرين على الدراسات الجغرافية وعرضت عليه جمعية بطرسبرج الجغرافية أن يكون سكرتيراً لها ، ولكنه لم يقبل هذا العرض .

وفي خلال رحلته الجغرافية المختلفة الى الأنحاء القاصية في روسيا رأى بعينه ما يعانيه

وقضى في هذا السجن عامين تابع فيهما دراساته الجغرافية .

وفي سنة ١٨٧٦ تمكن من الهرب ووصل الى بريطانيا ثم ذهب منها الى سويسرا ، وظل بها حتى سنة ١٨٨١ وأخرج منها بسبب نشاطه الثوري والرعب الذي ألزه مصرع القيصر الروسي الاسكندر الثاني ، وفي سنة ١٨٨٢ اعتقل بفرنسا وأرسل الى سجن كليرفو بتهمة زائفة ، وأثار حبه احتجاج العلماء والكتاب ، وكان من الذين دافعوا عنه الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر والشاعران سوينبرن وفيتكتور هيجو ، واضطرت الحكومة الفرنسية الى الافراج عنه في سنة ١٨٨٦ فعاد الى إنجلترا وأقام هناك إقامة دائمة .

وفرغ لاستيفاء تعاليم مذهبه السياسي ، وطاف بأنحاء بريطانيا وألقى محاضرات للدعوة الى مذهبه ، وسبغ بها آراءه ونظرياته ، وكان من مؤسسي مطبعة الحرية ، وشارك في تحرير المجلة المسماة باسم الحرية ، واستطاع في تلك الفترة أن يكتب معظم مؤلفاته ، ومنها كتاب « غزو الخبز » وكتاب « الحقوق والمصالح والعامل » وكتاب « التعاون المتبادل » والكتاب الأول دفاع من مذهبه السياسي ، والكتابان الآخران دراسات اجتماعية علمية ، وهما من المراجع الهامة لدارسي علم الاجتماع ، والفكرة الأساسية التي كان كروبتكين يرمي الى تأكيدها هي انه لا المذهب الفردي ولا مذهب اشتراكية الدولة ولا المذهب الشيوعي الذي يدعو الى اقامة ديكتاتورية البروليتاريا تستطيع أن تصل بنا الى المجتمع الصالح الذي يرضي نوازغنا ، ويلزم أن نقيم أحوالنا الاقتصادية والاجتماعية على أساس التعاون والمشاركة الحرة لا على التنافس القاسي أو الإجراءات المعقدة من ناحية أخرى ، وقد رأى كروبتكين أن مذهب ترك الأمور تجري في مجاريها الذي أولعت به الرأسمالية في القرن التاسع عشر يسفر عن

مظالم جائرة ، وأنه قد اخفق اخفاقا تاما في حل مشكلة توزيع السلع ، ورأى من ناحية أخرى أن أفكار ماركس في الاشتراكية الحكومية لا تعين كذلك على حل هذه المشكلة ، وأن التعاون الحزب هو المبدأ السليم والهدف الأسنى ، وأن زيادة سيطرة الدولة تنتقص الحرية ، ولا تريد الرخاء المادي ، وكان يتطلع الى اليوم السعيد الذي يرى فيه الحياة الإنسانية قائمة على مبدأ التعاون الحر والتضامن الاختياري ، وفي أثناء الحرب الكبرى الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وقف في صف الحلفاء ، لأنه كان يخشى خضوع أوروبا للإمبريالية الألمانية ، ولم يرض هذا الموقف الفوضويين وقد عللوا ذلك بأنه كان في هذه الفترة مريضا ومتقدما في الشيخوخة ، وقد أنهكت قواه الأمراض ، ومجاهداته في سبيل إقامة أفكاره ، وقد عاد الى روسيا بعد ثورة سنة ١٩١٧ ليساعد الثائرين ولكن حينما استولى البلاشفة على زمام السلطة أدرك طبيعة ثورتهم وأهدافهم ، وعارض أساليبهم في القمع والاضطهاد ، وقضى السنوات الأربع الباقية من حياته في فقر وحرمان حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٢١ ، وقد كان كروبتكين كبير المدافعين عن الشيوعية الفوضوية ، وقد ناقش في كتابه عن « التعاون المتبادل » رأى داروين في تنازع البقاء ، ورأى أن هذا التنازع ليس هو القاصدة العامة في عالم الحيوان ، وأيد ذلك بمشاهداته الخاصة ومشاهدات غيره من العلماء ، وقرر أن التعاون هو سنة الوجود ، وسبيل البقاء ، وعزا اليه وجود الأجناس الأضعف من الناحية الجسدية ، وأن الإنسان مدني ببقائه برغم ضعفه لقدرته على التعاون ، وهو لا ينكر وجود المنافسة والتناحر ولكن عنده أن التعاون أهم وأبعد أثرا في تقدم الإنسانية ، والتعاون عنده أساس الأخلاق ، ويضاف الى ذلك عامل العطف والشعور بالأم

من رايه اغتيال الموظفين المكرهين لايقاع
الرمب في قلوب اعضاء الطبقات الحاكمة
والدعاية بالأعمال لكي تلفت الانتظار للحركة
القوضوية ، وقد اتهم بأنه كان من الذين
ساعدوا على الشعب الذي حدث في هيماركت
Haymarket ومصرع الرئيس مك كنلي McKinley
وحكم عليه بالسجن غير مرة ، وكان
يحاكم في كل مرة لما يرسله من الاقوال
لا لما كان يقوم به من الأفعال .

ومنذ أوائل سنة ١٩٢٠ ضعف تأثير المذهب
القوضوي ولم يظهر له دماءه واتباع لهم تأثير
يلكر ، وأن نجاح الشيوعية الروسية كان له
اثره في التقليل من أهمية الدعوة القوضوية .

الغير وادراك حاجاته ومطالبه ، وبعد كرويتكين
اقدّر شراح المذهب القوضوي وكبير فلاسفته
ومفكره ، وكتبه تقدم معلومات وثيقة وحقائق
مؤكدة لدعم المذهب القوضوي .

جوهان موست

وأخر المفكرين القوضويين النظريين
الجديرين بالذكر هو جوهان موست (١٨٤٦ -
١٩٠٦) وهو ألماني الأصل من أبوين فقيرين مسجونين
النمسا سنتين وفي ألمانيا مسجون ثلاث سنوات ،
وبعد طرده من ألمانيا أنشأ في لندن جريدة
اسبوعية وانتقل في سنة ١٨٨٢ الى الولايات
المتحدة ، واكتسب بها شهرة لا يغبط عليها
بوصفه مدافعا عن القوضوية الارهابية ، وكان



مراجع البحث

- Berkman Alexander, *A.B.C. of Anarchism* (Free Press 1942).
- Catlin George, *A History of Political Philosophers* (George Allen and Univix 1950).
- Carr E. H., *Michael Bakunin*, (London 1935).
- Carr E. H., *The Romantic Exiles* (London 1933).
- Harmon M. Judd, *Political Thought From Plato to the Present* (Utah State University 1964).
- Gettell Raymond G., *History of Political Thought*. (G. Allen and Univix 1951).
- Joad C. E. M., *Introduction to Modern Political Theory*. (Oxford 1927).
- Kropotkin Peter, *The State, Its Historic Role* (Freedom Press).
- „ „ *Revolutionary Government* (Freedom Press).
- „ „ *The Wage System* (Freedom Press).
- „ „ *The Mutual Aid* (William Heinemann 1919).
- Malatesta, E. *Anarchy* (Freedom Press) 1942.
- Mackenzie Norman, *Socialism, A short History* (Hutchinson) 1944.
- Read Herbert, *The Philosophy of Anarchism*. (Freedom Press) 1943.
- Sabine George H., *A history of Political Thought* (George G. Harrap) 1951.
- Wassermann Louis, *Modern Political Philosophers* (Garden City Books New York 1951).
- Woodcock George, *Anarchy or Chaos* (Freedom Press) 1944.
- Woodcock George, *Anarchism* (Pelican Book) 1962.
- Yaroslavsky E., *History of Anarchism in Russia* (Lawrence & Wisbort).

خبرات وتجارب

تجاربى مع الحشرات

• سميّة الزادى

عندما شرعت فى تدوين تجاربى مع الحشرات حملتني ذكرياتى الى زمن مضى ، عندما قررت ولقد لى الحظ ان اتفق فى كتبها وانفهمها عن قسب التفهم العلمى الاصيل ، وكانت تستهوينى كما فعلت بكثير من علماء الأحياء منذ زمن بعيد ، ولعلها كانت أوفر الكائنات حظا من البحث والاستقصاء لصلتها الوثيقة بالإنسان ، اذ بعضها نافع كمودة الحرير ونحل العسل ، وبعضها الآخر ضار يقتل بالزراعة كالجراد وديدان القطن ، أو ينقل العلة والمريض كالبعوض والذباب .

وحياة الحشرات تزخر بكل ما هو طريف وعجيب ، حتى ان الإنسان ليقتل أحيانا كثيرة مشدوها أمام سلوكها وطوائفها وطرائق حياتها . كيف تطير ، وكيف تتناسل ، وكيف تتحصن ضد أعدائها ، وكيف تتلازم مع بيئتها ، وكيف تتغذى ، وكيف يعيش بعضها كالنمل والنحل فى مجتمعات بلغت فى دقة نظامها واحكامها والملاقات الاجتماعية التى تسودها حد الروعة والاعجاز .

وسأحدثكم فى هذا المقال من موضوع فيه كثير من الطرافة ، الا وهو موضوع النحل ، وهو الذى قال تعالى عنه فى كتابه الحكيم المزمز :

« وأوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال

ولعل استجلاء الحقائق العلمية من حياة الحشرات ليدعو الى الكثير من التأمل ، ويشير فى النفس المتعة والجمال ، بما أودعه الله فى هذه الكائنات من قدرات ، وما فيها من غرائب وعجائب .

• دكتورة سميرة الزادى استاذة علم الحشرات ورئيسة قسم علم الحيوان بجامعة الكويت . اشتغلت بالتدريس بجامعة القاهرة . عضو جمعية الحشرات المصرية وجمعية الحشرات الكلية بلندن وجمعية الحشرات الأمريكية . لها كثير من البحوث فى المجالات الحشرية ونشرت هذه البحوث فى المجلات العلمية بمصر والغرب .

ومستقيمة الأجنحة Orthoptera ، وينتمي إليها الجراد والنطاط Acrididae وصراصير النبط Gryllidae وأقرباؤها ، وغمدية الأجنحة Coleoptera ، وهي تحوى الخنافس والسوس بأنواعها، وذات الجناحين Diptera وبها جميع أنواع الذباب الحقيقي ، والبعوض والهاموش وأشباهها ، وخلاف هذا عدد آخر من الرب تميز جميعها من بعضها البعض بصفاتها الخاصة .

وتضم غشائية الأجنحة التي نحن بصددھا بجانب النحل Apoidea النمل Formicoidea والزنابير Vespoidea وذباب الكنيمون Ichneumonidea والزنابير المنشارية والزنابير الطفلة وزنابير الاورام النباتية Cynipoidea الخ. . حشرات تصنف جميعها بصفات معينة مشتركة . ويكون النحل جزءاً صغيراً فقط من بين هذه المجموعة الكبيرة . وليس من المهم ان نخوض في جميع التفاصيل العلمية الدقيقة التي تجعل غشائية الأجنحة مختلفة عن كل ما عداها من أنواع الحشرات ، ولكن يكفينا فقط أن نعرف ان لها زوجين من الأجنحة الغشائية، زوجا على كل جانب ، الامامي منها دائما أكبر من الخلفي . ويتشابه الجناحان في كل جانب عند الطيران مع بعضهما البعض ، ويعملان كما لو كانا جناحا واحدا . وطريقة التشابك هذه بسيطة ، فللد الخلفي للجناح الامامي حافة قصيرة مرفوعة تستقبل صفا من الخطافات الصغيرة الممتدة على الحافة الامامية للجناح الخلفي .

وفي هذه الرتبة تكون بعض المجموعات اكثر قربا في صفاتها من بعضها الاخر كالعنكبوت والنمل والزنابير التي هي أبناء عمومة من الدرجة الاولى ، ولذلك سميت معا بغشائية الأجنحة الاسمة Apocrita aculeata . حيث انها قادرة على السمع ، اذ ان آلة وضع

بيوتا ومن الشجر وما يعرفونهم كلهم في كل التراتب فاسلكي سبل ربك فلا يفرج من بطونها شراب مختلف اوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك آية لقوم يتفكرون » (سورة النحل الايات ٦٨ ، ٦٩)

لذا اختص الله سبحانه وتعالى النحل من دون الحشرات جميعا بان جعله « آية لقوم يتفكرون » ذلك انه قد اودع فيها من عظيم قدرته ما يمج من وصفه كل بيان ، ووضع بين ثناياها من الخصائص والقدرات ما يفني عن كل وصف وكبيان .

ولسوف يبين هذا المقال ما اتطوى عليه هذا المعجزة الالهية في الخلق : فيما اودع في النحل من غرائل تسلك بها سلوكا في الحياة فريدا ، وتعيش بها حياتها كلها في تعاون واستقرار . والقصد بالنحلة هنا هي نحلة العسل « ابييس مليفا » Apis mellifera التي تنتمي الى مجموعة من الحشرات تعرف برتبة غشائية الأجنحة Hymenoptera ، وهي مجموعة ضخمة ذات صفات معينة مشتركة ، وترتيب الحشرات الى رتب سببه انه يوجد منها في العالم عدد من الأنواع يربو على المليون نوع، اكثر من اى مجموعة اخرى من الحيوانات، وما يزال يكتشف منها في كل عام أنواع جديدة تقدر بالآلاف . وحتى لا نتشاور ونرتبك نتيجة للتباين في شكلها ، تم ترتيبها - كما هو الحال مع جميع أنواع الحيوانات الاخرى - الى مجموعات كبيرة أو رتب ، وذلك بغرض معرفتنا بها ، وهذه الرتب الكبيرة تنقسم الى مجموعات اصغر فاصغر، وهكذا حتى نصل الى الكائن الذي نعنيه دائما اسما مكونا من اسمين ، اسم الجنس واسم النوع، مثل نحلة العسل ابييس مليفا Apis mellifera

وهناك رتب اخرى غير غشائية الأجنحة ، كرتبة حرشية الأجنحة Lepidoptera ، وهي التي تضم اليها الفراشات وابو دقيق ،

• يستعمل لفظ ذبابة دون تحفظ في لغتنا الدارجة ولكن في معناها الدقيق يجب ان يشار به فقط الى ذات الجناحين كذبابة المنزل والبعوض .

الإنسان - هو العائلة ، وجمع وتوزيع الغذاء بين هذه الحشرات البالغة والصغار هو طريقة اقتصادية لا نجد نظيرها في مجتمعنا .

ومستعمرات نحلة العسل عرفها الإنسان منذ قديم الزمان ، والعلاقة بينه وبينها من أوثق العلاقات ، وسبب ذلك أن له شهية طبيعية للحلوى ، وأن هذه المستعمرات تمده بالعسل الذي هو مادة حلوة المذاق ، وهو طعامها الذي تجمعه من الأزهار لتتغذى عليه وتخزنه لوقت الحاجة ، وكان منذ عصور ما قبل التاريخ يسطر على خلاياها البرية ويسلبها عملها ، كما كانت تفعل الدببة أيضاً ، حتى تعلم منذ بدء العصر الحجري الحديث - على الأرجح - استئناسها وتربيتها على الحياة قريباً من مسكنه داخل قطاعات من الأوعية الطينية ، وقد وجد النحل متقوساً على آثار قدماء المصريين التي يرجع تاريخها إلى عام ٢٥٠٠ ق.م .

ومن الطبيعي أن الإنسان البدائي بعد أن قام باستئناس النحل ، وسهل له سبل الإقامة ، أخذ في ملاحظته والتعرف على خصائصه ، وسرمان ما أثارته هذه الحشرة الصفرة واستحوذت على دهشته واهتمامه ، واستنتج أنها من المخلوقات الموهوبة ، لأنها تعيش مثله في جماعات ، كما أن الكثير من خصائصها الحميدة ، مثل طيراتها المستمر بحثاً عن الغذاء ، وقدرتها على السمع فاعلاً من نفسها ، وارتباطها بالأزهار دون غيرها ، وحبها للأوساخ والقاذورات ، وعلق النشالة منها بالملكة ، جعلته يعتقد في قدسيتها ، حتى أنه اتخذها عبر الزمن رمزاً لجميع الفضائل . فهناك الملكة والرعايا المالبثون التي تتكون منها جميعاً مملكة نموذجية ، طامعها الشجاعة والاقدام والتضحية بالنفس في سبيل المجموع ، والحب المتبادل بين أفرادها التي تمتاز بالعمل المتواصل ، والقناعة في الأكل بما يسد الرق دون اسراف أو تبذير ، وإدخار ما يفيض من

البويض في أنالها قد تحولت إلى آلة للدفاع أو آلة للسبع ، وبذلك لم تصد تستعمل في وضع البيض كباقي اناث الحشرات . وعلى الرغم من أن بعض أنواع هذه المجموعة تكون آلة لسمه مندثرة ، مثل النحل عديم آلة السبع الذي ينتشر في المناطق الاستوائية ، أو كالنمل الذي ليس فيه آلة لسم على الإطلاق ، إلا أنها جميعاً تمتلك من الصفات الأخرى ما يقربها من بعضها البعض ، ومن هذه الصفات العناية الفائقة التي يوليها أغلب أفراد هذه المجموعة لصغارها ، وقد نمت هذه الخاصية في بعض أنواع النحل والزناير ، وفي كل أنواع النمل ، وتحولت إلى صورة ثابتة متقلة من صور الحياة الاجتماعية ، حتى أن الكثير من الباحثين يضعون هذه الرتبة من حيث التطور على قمة الرتب الحشرية كما يوضع الإنسان على قمة سلسلة التقاريف .

وتقدم لنا مجتمعات النحل والنمل اقرب مثل من أمثلة التمددين في عالم الحشرات ، إذ أنها تعيش في مجموعات مستقلة - تقابل الأسر المستعمرة - تتميز فيها الأفراد إلى ملكة وذكور وشغالة ، تعيش جميعها في تعاون تام ، وانسجام قد يفوق في صورته بعض الجماعات البشرية ، ويمتصها في تنظيمه شبيه بالمجتمع الإنساني شبيهاً كبيراً ، وليس يجدي أن نعلم أن الاعتبار الأول في المعيشة الاجتماعية سواء كانت إنسانية أم حشرية هو توفير الغذاء بانتظام وبكثرة ، فالمجتمعات البدائية قناسة تعيش غالباً على اللحوم ، بينما المجتمعات المنظمة تنظيمياً راقياً والمكتظة أصبحت تعتمد أكثر وأكثر على ما يقدمه عالم النبات من طعام مؤكد سهل المثال . وخير هذه المجتمعات في عالم الحشرات هي مستعمرات نحل العسل التي تعيش فيها الأم والأبناء معيشة تعاونية مشتركة ، في مسكن أو في عش واحد ، وقد طالت فيها حياة الأئني بدرجة تسمح لها بأن تعيش في صحة ذريتها ، وبذلك فإن أساس حياة الحشرات الاجتماعية - مثل مجتمع

والإخراج والتكاثر ، وتختبئ في مؤخرة الحشرة أداة اللسع ، وهي تعرف بالحمة أو الزبان ، وأسفل البطن يوجد عدد من الغدد الشمعية تفرز سائلا لزجا يتحول الى قشور عند ملاسته للهواء .

تتكون مستعمرة النحل من عدد من الأفراد يتراوح ما بين ٤٠.٠٠٠ و ٨٠.٠٠٠ نحلة ، أى أنها توازى تعداد مدينة متوسطة الحجم ، هذا بالإضافة الى عدد كبير من التفرقات في مختلف أطوار النمو ، وكذلك البيض والعذارى المختبئة في بيوتها . وفى المستعمرة ثلاثة أنواع من الأفراد يتميز بعضها عن بعض في الشكل والتركيب ، هي الملكة والدكور والشفالة .

والملكة هي أكبر أفراد المستعمرة حجما ، وهي الأنثى الكاملة في ملكة النحل ، وبذلك فإن مصير الحشرة كلها يعتمد اعتمادا تاما عليها ، فهي الوحيدة التى تستطيع وضع البيض ، ويعتمد عليها استمرار النوع ، ولو نظرنا الى الملكة لوجدنا أن بطنها أطول من باقي أفراد المستعمرة بشكل واضح ، ولا تتحور أرجلها الى سلال اللقاح ، وليست لها شدد شمعية ولا غدد بلعومية ، وزبانا أقصر من زبان الشفالة ، وهي لا تقوم بإداء أى عمل من الأعمال داخل المستعمرة سوى وضع البيض ، وعمر الملكة طويل ، فهي تعيش نحو خمس سنوات أو تزيد ، وتنتج من البيض ما يصل الى المليون ونصف المليون بيضة طوال حياتها.

أما الدكور ويوجد منها في المستعمرة بضع مئات فهي وسط في حجمها بين حجم الأفراد جميعا ، وليس لها زبان - حيث أن هذا العضو صفة أنثوية - ووظيفتها الوحيدة في الحياة تلقيح الملكة ، ولذلك تحورت أعضاؤها الجسدية بطريقة تجعلها للقيام بهذا العمل ، فأعضاء الشم فيها قوية تساعد على التعرف على الملكة عند طيرانها خارج الخلية للتزاوج ، وعيونها أكبر حجما من ميون باقي الأفراد ، وأجنحتها أقوى من الملكة ، وبذلك تستطيع

حاجتها الى وقت الشدة ، وهناك أيضا الهندسة الدقيقة ، وعطف الكبير على الصغير ورعايته ، واللذود منه ضد أى صنوان ، والاستبسال في الدفاع عن خلاياها ، وغير ذلك من الفضائل هذا الكرم ، فإنها لا ترجب بالضيف ، ولا تحتل بقاء النحل الدخيل في خلاياها ، بل تسرع في طرده الى الخارج ، وقد نظر القدماء الى هذه النقيصة على أنها فضيلة حيث أنهم كانوا انفسهم لا يتخلون عن نعرتهم الوطنية أو القبلية .

ولتتعارف على النحلة يجب أولا أن نعيها ، ولجسمها - ككل الحشرات - ينقسم الى ثلاثة اجزاء واضحة ، الرأس والصدر والبطن ، ويوجد على جانبي الرأس ميثان مركبتان كبيرتان وفى أعلى الرأس توجد ثلاث امين بسيطة خائرة مثل الخرز ، مرتبة في شكل مثلث ، وفى مقدمتها يوجد قرنا الاستشعار ، ينشأ في أسفلها الفم الذى له زوج من الفكوك القوية ، بينهما عضو أنبوبي طويل يسمى باللسان ، تلتق به النحلة وحيث الأكل .

والصدر وهو الجزء الأوسط يحمل الأرجل الست وزوجي الأجنحة الشفائية ، ولأنه يحمل أعضاء الحركة والطيران فهو جزء عضلي أكثر من أى جزء آخر من الجسم ، ولذلك فالرئير حينما يصطاد نحلة فإنه يقطع رأسها وبطنها ، ويحمل الصدر الملىء باللحم فقط الى عنقه ، وأرجل النحلة الخلفية متحركة تحورا بارعا لجمع وحمل حبوب اللقاح ، وبذلك فهي تعرف بسلال حبوب اللقاح .

والبطن يقع خلف الصدر ويتصل به بواسطة الخصر الذى يبدو رفيعا جدا لحمل هذا الجزء الثقيل من جسم الحشرة ، ولكنه وئيق الاتصال بالصدر بواسطة عضلاته القوية ، وهو يسمح للبطن بالتحرك بحرية في جميع الاتجاهات تقريبا ، وتتكون البطن من عدة عقل عرضية ترتبط مع بعضها البعض مثل أجزاء النظائر « التلسكوب » وتقع فيها أعضاء الهضم

له فتحة جانبية صغيرة يخرج ويدخل منها النحل ، وهو ذو غطاء متحرك ، ومزود من الداخل بعدد من الاطارات الخشبية المعلقة تمكن النحل من بناء اقراصه ، ويمكن رفعها بسهولة عندما تحتاج الى اصلاح ، او عند ابدالها بعد ان تمتلئ بالعسل ، ويتكون القرص الواحد من عدة آلاف من الغرف أو العيون الشمعية التي تبنيها الشغالة لتربي فيها صغارها وتخزن فيها العسل الفائض عن حاجتها وحبوب اللقاح ، وهذه الغرف أو العيون ذات شكل سداسي منتظم ، تبنيها الشغالة حول محور وسطي ، تتفرع منه باقي العيون على الجانبين ، وقاعدة كل عين مجوفة تجويفا بسيطا ، بحيث تنطبق تماما وبمهارة مع قواعد العيون المجاورة وتجعل الاستفادة من كل الفراغ المتاح على أحسن ما يكون ، وتعمل كل عين ميلا بسيطا ناحية الجدار الوسطي حتى لا ينسكب العسل منها ، وتحدد جدران العيون لتكون هذا الشكل السداسي المنتظم ، ومن الغريب حقا أن تخسر نحلة العسل لعيونها الشكل السداسي وليس الشكل المستدير كما يفصل النحل الطنان القريب الشبه في عاداته من نحلة العسل ، أو الشكل المربع أو أي شكل آخر ، ولكن قد يؤول تصبنا إذا علمنا أنها إذا اختارت أي شكل آخر لبناء عيونها فليس فقط أن المساحة المتاحة لا تتسع إلا لعيون أقل فحسب بل ولسوف تستخدم النحلة مساحة أكثر بكثير للبناء ، فمن الناحية الهندسية فإن العيون السداسية التي تشترك مع بعضها البعض في الجدار الجانبية أكثر توفرا من مادة البناء المستعملة ، وأكثر استغلالا للمساحة المتاحة ، والواقع أن النحلة قد ألهمت منذ مدة طويلة ان هذا الشكل هو أنسب ما يمكن أن يتبع كيف توصلت النحلة إلى هذا علم ذلك شهد الله القوى العزيز الذي وسع كل شيء علما .

وعند بناء الأقراص تفرز الشغالة الشمع من القند الشمعية أسفل بطنها ، والشمع مادة دهنية يخرج على هيئة قشور لزبها الشغالة

اللاحق بها في الجو وامساكها لاتعام عملية التلقيح ، وهي تقوم بهذه العملية مرة واحدة ، وتختزن الملكة الحيوانات المنوية كلها التي انتقلت اليها في اثناء عملية التزاوج طوال حياتها وتستخدمها في اخصاب البيض .

اما الشغالة فهي اصغر افراد النحل جميعا واكثرها عددا ، وهي اناث عقيمة غير قادرة على التناسل ، وتمتاز بنشاطها الزائد ، والتفاني في اداء الواجب ، وتقع على عاتقها جميع الاعمال اليومية اللازمة لحياة المستعمرة وازدهارها ، فهي تعنى بالصغار وتقوم بطعامها ، وتحافظ على نظافة المستعمرة وتهويتها والدفاع عنها من كل دخيل ، وتمتص الرحيق من الأزهار وتحوله في حوصلتها الى عسل شهى ، وتجمع حبوب اللقاح من مختلف انواع النباتات ، وتفرز الشمع من القند الشمعية تبني به الأقراص ، وغير ذلك من الاعمال التي لا تكل ولا تتوانى عن اداها منذ مولدها الى ان تموت ، ولها من الخصائص الشكلية ما يساعدها على اداء هذه الاعمال ، فجسمها مغطى بشعر كثيف يلتصق به حبوب اللقاح ، وفي أرجلها سلال اللقاح ، كما ان حوصلتها التي تسمى أحيانا كيس العسل تتسع لتقدر كبير من رحيق الأزهار ، وغدها اللعابية تفرز نوما من الانزيمات تحول بها الرحيق الى عسل داخل الحوصلة ، وتخرجه النحلة بعد ذلك وتطعم بالبيض منه صغار النحل ، بينما تخزن الباقي ، وهي تبني بيوتها من الشمع ، وفي رأسها غدد بلعومية تفرز سائلا لزبها غشيا بالبروتين هو الغذاء الملكي الذي تتغذى عليه صغار اليرقات ، وآلة لسعها حادة تدافع بها عن نفسها ومن مستعمرتها ، فتلسع بها كل من يحاول الاعتداء عليها ، وهي تعيش من تعبانية اسابيع الى سنة .

ويسكن النحل في حالته المستأنسة خلايا خشبية يزوده بها مربيه او كما يسمى « النحال » وهي على هيئة صندوق من الخشب

ذكرنا أن الملكة تستغل العيون الوسطية من الأقراص لتضع فيها البيض ، أما العيون الأخرى التي تحيط بها فتخزن فيها الشفالة حبوب اللقاح ، بينما العيون الخارجية من الأقراص تخزن فيها فائض العسل .

بعد ثلاثة أيام من وضع البيض يفقس من يرقات تتولى الشفالة في الحال إطعامها ، ويرقات النحل جميعا من حيث الشكل والترتيب واحدة كلها ، ولا تختلف عن بعضها البعض عند خروجها من البيضة . وفي المرحلة الأولى من حياتها تطعمها الشفالة دون تفرقة بالغذاء الملكي أو الهلام الملكي الذي تفرزه من الخلايا البلعومية التي في رأسها والتي سبق ذكرها ، والهلام الملكي سائل لبنني غني بالفيتامينات وخاصة حامض البانتوثينات والبيوتين ، وبعد ثلاثة أيام تمارس الشفالة عملية التفرقة الطبقيّة ، فتستمر في إطعام اليرقات الملكية بالغذاء الملكي ، بينما تعطي يرقات الشفالة والدكور « خبز النحل » وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح ، ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر أن التجارب أثبتت بشكل واضح أن هذه التفرقة في الغذاء هي السبب الوحيد في تحويل بعض اليرقات إلى ملكات وبعضها الآخر إلى شفالة ، فقد نقلت اليرقات الحديثة الفقس من عيون الشفالة إلى عيون الملكات واطمعت طوال حياتها بالغذاء الملكي فصارت في النهاية ملكات ، والعكس في ذلك صحيح ، حيث أن اليرقات التي نقلت من عيون الملكات إلى عيون الشفالة أصبحت شفالة نحل بدلا من ملكات !!

وتكمل اليرقات نموها خلال ستة أيام يزيد في انثائها وزنها نحواً من خمسمائة مرة ويلفة الإنسان فإن الطفل حديث الولادة إذا غلّمي بهذا القدر يصل وزنه إلى نحو من طن ونصف طن من الأوطال . وبعد أيام ستة تبدأ اليرقات في التحول إلى عذارى ، عندئذ تقزل حرلا نسيجا كثيفا من الحرير تسكن فيه تماما وتتحوّل إلى عذارى ، وعند هذه المرحلة تقفل الشفالة العين

بأرجلها ، وربما تغطّلها بقليل من لعابها فتحوّلها إلى كتلة لوجه نوعا ما ، لتستطيع تشكيلها بواسطة فكوكها القوية ، ومن هذه العجينة تبني الشفالة الأقراص لتربيها .

وتحتوي خلية النحل على ثلاثة أنواع من العيون . . عيون سداسية الشكل وكبيرة الحجم نسبيا توضع فيها الملكة أيضا غير مخضب ، وهذا البيض سوف ينتج عنه الذكور ، وعيون سداسية أصغر قليلا في الحجم توضع فيها الملكة أيضا مخضبا ينتج منه الشفالة ، وبيوت أسطوانية مستطيلة قليلة العدد توضع الملكة بداخلها أيضا مخضبا ينتج منه ملكات المستقبل .

ولا يوجد فرق واضح بين البيض الذي تضعه الملكة جميعه ، فهو مستطيل الشكل ، ليس بالصغير نسبيا في الحجم ، إذ أنه لو وزنا ١٥٠٠ بيضة من هذا البيض لوجدها تعادل وزن الملكة الأم التي وضعت . وعندما تبدأ الملكة في وضع البيض فإنها تمد رأسها داخل العين لتحسسها لتتأكد من أنها فارغة ومناسبة لتضع فيها بيضة ، ثم بعد ذلك تدلي بطنها في الداخل ، وتظل ساكنة لبضع ثوان ، وعندما تسحب بطنها تستطيع رؤية البيضة المستطيلة في قاع العين ، بينما تذهب بحثا عن عين فارغة أخرى لتضع بيضة ثانية ، وهكذا ، وهي تختار لهذا الغرض العيون التي في منتصف الأقراص فقط ، ولو راقبتها من خلال خلية المراقبة - وهي خلية خاصة ذات جدر زجاجية - لوجدها تمشي ببطء وجلال بين العيون ، وهي تؤدي هذه العملية . . والملكة تضع في الربيع وأوائل الصيف نحواً من ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ بيضة في اليوم الواحد أي أنها تضع في المتوسط بيضة في كل دقيقة ليلا ونهاراً ، والواقع أنها تمر بفترات راحة قصيرة ، ثم تضع البيض بسرمة بين هذه الفترات ، والبيض ينمو بسرعة داخلها ، وبذلك يمكننا أن نفهم لماذا لا تؤدي الملكة أي عمل آخر غير هذا العمل . .

وفي الربيع ، أي بدء موسم تكاثر النحل وموسم الأزهار ووفرة الطعام ، يبدأ النحل في عملية التطريد ، وهي بداية تكوين مستعمرات جديدة من النحل لفند قرب خروج الملكات الجديدة من العذارى ، وهي عادة نحو ست ملكات أو تزيد قليلا في كل عام ، تبدأ الملكة القديمة وكثير من الشغالة في التجمهر عند مدخل الخلية ، ثم بعد ذلك ينشطن جميعا مرة واحدة ، وتعلم الشغالة حوصلتها بالفصل ، وتخرج من الخلية وتطير في الهواء في دوائر تتقدمها الملكة ، وبعد فترة تستقر الملكة على فرع شجرة أو أي شيء آخر مماثل ، وتتبعها الشغالة في الغالب متجذبة إليها برائحة معينة هي والملكة الملكية ، (وفي هذه اللحظة من الخمول يجتمع النحال ويضعها في خلية جديدة فارغة بعدها لها ، وبذلك يحصل على مستعمرة جديدة) . بعد ذلك تفصل مجموعة من الشغالة وتطير لتبحث عن مسكن جديد مناسب في جلع شجرة مجوف ، وعندما تجد ضالتها تعود وتحرك المجموعة كلها التي تطير وراء هذه الشغالة الكثافة وتستقر في المنزل الجديد لتبدأ مستعمرة جديدة .

ويضم سرب النحل هذا نحو ٢٠٠٠ فرد من أفراد النحل أو يزيد بجانب الملكة ، أي نحو نصف المستعمرة القديمة التي يظل بها باقي النحل بدون ملكة حاكمة بعد أن هجرته الملكة الأم ، ولكن بعد أيام قليلة تخرج أولى الملكات الجديدة ، ولكنها لا تحل محل أمها في الحال ، لأنها لا تستطيع ذلك من الناحية الفسيولوجية ، فهي ما تزال جلداء غير قادرة على وضع البيض ، ولا يمكنها أن تقوم بذلك إلا بعد أن تطير في الجو في « طيران التزاوج » ولذلك فإنها تنشط وتخرج من الخلية بمصاحبة بعض الشغالة والدكور التي تتنافس عليها ويتزاوج أحدها معها في طبقات الجو العليا ، متبدلا تعود ثانية إلى خليتها بمصاحبة رطل الشغالة والدكور التي خرجت معها ، وفي هذه الأثناء تكون باقي الملكات في المستعمرة قد كمل نموها وخرجت من طود

حتى تتيح لها السكن التام الذي يتطلبه هذا الطور من حياتها . وبعد اثني عشر يوما أي نحو ثلاثة أسابيع من وضع البيض يفتح الغطاء وتخرج النحلة الكاملة من بينها ، ودورة الحياة هذه هي دورة حياة الشغالة ، ولكن الذكور تلزمها ثلاثة أيام أخرى أكثر من الشغالة لتتم ، بينما تستغرق دورة حياة الملكة فترة أقل من الشغالة بخمسة أيام .

تظل الملكة تضع بيضها منذ أوائل الربيع وحتى نهاية الخريف ، ويمكننا أن نجد النحل في جميع مراحل النمو ما بين أوائل مارس حتى أكتوبر وأكثر من ألف شغالة صغيرة تخرج من الخلية يوميا خلال أشهر الصيف وينفس هذا المقدار أيضا يتوقى النحل المتقدم في العمر أو الذي يقع له حادث في أثناء طيرانه خارج المستعمرة وحالما يخرج النحل الذي اكتمل نموه من العيون تشرع الملكة في ملأها فوراً بالبيض ، ولا تقتصر نهاية الشغالة بالصغار خلال مرحلتها اليرقية، ولكنها تمتد حتى تتم نموها وتخرج حشرة كاملة ، فهي لا تحتاج في كل هذه المرحلة إلى الطعام فحسب ، ولكن يجب أن تظل درجة الحرارة داخل الخلية ثابتة عند درجة ٩٥ ف اللازمة للنمو ، وتقوم الشغالة بتثبيت درجة الحرارة عند هذه الدرجة ، فهي في هذا تشبه جسم الإنسان والفقاريات الأخرى الذي تظل درجة حرارته ثابتة . ففي أيام الشتاء الباردة تجمع الشغالة بالآلاف داخل الخلية على العيون التي بها الصغار وبذلك تجعل من نفسها فضاء وتعطي من حرارة أجسامها الحرارة اللازمة بينما في أيام الصيف الحارة تحضر الشغالة قليلا من الماء وتغطي الأقراص بطبقة رقيقة منه وتروح عليها بأجنحتها ، وهي تبدو في هذا العمل وكأنها أجهزة تهوية حيث تدفع الهواء الحار نحو فتحة الخلية . وهذا العمل ينتج عن شعور غريزي في الشغالة بدرجة الحرارة الصحية المناسبة التي يبدو أن الإنسان لا يمتلكها بمثل هذا الكمال ، يضاف إليه التعاون الوثيق بين أفراد المجتمع كله .

العنراء ، ولكن هذه الملكات تظل في بيوتها خوفا من مهاجمة الشغالة لها ، أو خوفا من ملكة المستعمرة الجديدة . ومن الغريب حقا انه في أثناء غياب الملكة الجديدة في طيرانها التراوحي خارج الخلية لا تحاول الشغالة قتل الملكات الأخرى - حيث ان مستعمرة النحل لا يجب ان يكون فيها أكثر من ملكة واحدة - بل تطعمها عندما تمتد ألسنتها من خلال فتحة صغيرة في غطاء عيونها ، ولكن حالما تعود الملكة الجديدة سالمة من طيرانها التراوحي تبدأ هذه الأخيرة والشغالة معها في مهاجمة هذه الملكات وقتلها ثم تلتقيها الشغالة خارج الخلية .

ولكن قد يحدث ان تكون ملكة من هذه الملكات سرا آخر فتهاجر مع عدد من الشغالة وتتشبه مستعمرة أخرى جديدة .

وعندما تبسط ملكة المستعمرة الجديدة نفوذها تبدأ الشغالة في جر الدكور - التي أصبحت الآن مدعية الفائدة بعد ان تم تلقيح الملكة التي تلقيح مرة واحدة طول حياتها وصارت مبنا قليلا على المستعمرة - الى خارج الخلية ، ويقاوم الدكور فعل الشغالة هذا ، ولكن هذه الأخيرة تلسعها وتعضها الى ان تنجح أخيرا في طردها خارج المستعمرة وتركها في المراء لتتوت جوعا . ومن هنا نرى ان جماعة النحل تختلف من الجماعات الإنسانية، في انها تتخلص من افراد مجتمعها الذين انقوا دورهم في الحياة وأصبحوا عالة على مجتمعهم .

وحياة شغالة النحل مليئة بالحركة والنشاط ، دأبها في ذلك العمل البناء المتواصل من يوم ان تخرج من العنراء حتى وفاتها . والواقع أنها في هذا المجال تمر بثلاث مراحل استنتجها بوضوح العالم الألماني «روش» Rood الذي يراقب النحل وعاداته من خلال خلية المراقبة، فقد وجد ان جميع الأعمال الضرورية لاستمرار حياة المستعمرة (التي تدوم عادة نحو ست سنوات متصلة تتفرع في اثنتاهي مستعمرات أخرى جديدة منها) ، تقوم بها شغالة النحل خلال فترة عمرها ، ولكن قيامها بهذه الأعمال

يتم في تتابع زمني محدد ، أي ان قيامها بكل عمل من هذه الأعمال يحدده عمرها ، وبذلك فانها في الخلية الواحدة ذات الشغالة من مختلف الأعمار يصبح توزيع العمل بينها متوقفا على عمرها . وقد تبين «روش» من تجاربه ان الشغالة الصغيرة حال خروجها من العنراء تبدأ المرحلة الأولى من حياتها ، فعملها خلال هذه الفترة ينقطع داخل الخلية التي لا تفادرها على الإطلاق ، فهي التي تعد العيون الشمعية التي خرج منها النحل حديثا لاستقبال البيض الجديد ، وتعمل على تهوية المستعمرة ، وتبقي درجة الحرارة داخلها ثابتة ، وتطعم اليرقات الكبيرة في العمر بخبز النحل ، وفي يومها السادس تكون غدها البلعومية قد كملت نموها فتبدأ في تقليد اليرقات الملكية بالغذاء أو الهلام الملكي (وهذه هي المهمة الأساسية المنوطة بالشغالة في هذه الفترة من حياتها) ، أما في اليوم العاشر من حياتها فتكون غدها البلعومية قد ضمرت في الحجم ، وتكون المرحلة الأولى من حياتها قد قاربت على الانتهاء فستستعد لمغادرة الخلية لتصرف نشاطها في الخارج ، وفي مبدأ الأمر عند مغادرتها للخلية لا تذهب بعيدا في طيرانها ، ولكنها تقصر نشاطها حول الخلية لفترة قصيرة ، حيث تعود ثانية بعد خمس دقائق ، وهذا الطيران يقال له الطيران الاستكشافي أو التوجيهي ، وتكون قد قامت في أثناءه بفحص كل ما يحيط بالمستعمرة من معالم ، وتكون لديها انطباع واضح من البقعة التي تعيش فيها المستعمرة . وقد وجد «روش» انه اذا أمسك بواحدة من هذه الشغالة خلال هذه المرحلة ثم ألقها فانها تجد طريقها الى الخلية حتى من على بعد عدة مئات من الأمتار . وتنمي الشغالة معلوماتها عن المنطقة التي فيها المستعمرة بتكرار هذا الطيران الاستكشافي .

ومن اليوم العاشر الى اليوم العشرين تبدأ المرحلة الثانية من حياتها ، فقد انتهى عهدها كمرية للأطفال ، ونمت غدها الشمعية ، وعندئذ تبدأ في بناء الأقراص والعيون ، وهنا تتحول الى بناءة ومصمعة على غاية من المهارة

وملاحظة شغالة النحل وهي تقوم بهذا النشاط يمكن القيام به إذا وضعنا علامات مميزة على صدور شغالة النحل التي نود مراقبتها ليسهل تمييزها وقد قام العالم الألماني « فون فريش » Von Frisch بأجراء تجاربه على هذا النحو ، وخلص إلى أن النحلة عندما تقف على زهرة ماء ، ولكن زهرة البرسيم مثلا ، فإنها تتحسس بلسانها مكان وجود كيس الرحيق ، وعندما تجده تحاول أن تشارف ما به من رحيق ، ثم تنتقل إلى زهرة أخرى من زهور البرسيم ، وتكرر نفس العملية ، على الرغم من وجود زهور أخرى كثيرة من حولها لا تعبرها أدنى اهتمام ، وعندما تمتلئ حوصلتها بطير عائدة إلى الخلية ، ثم تعود ثانية إلى زهور البرسيم لتكرر نفس نشاطها السابق .

وقد تكون هناك مجموعة أخرى في نفس الوقت لا تشرّف رحيقها من زهور البرتقال وليس من غيرها ، ومجموعة ثالثة من زهور من نوع ثالث وهكذا ... ويقوم هذا النحل في الأيام التالية بجمع الرحيق من نفس الزهور التي جمع منها في اليوم السابق وليس من غيرها ، وقد عرف فون فريش هذه الظاهرة بأن لدى النحلة خاصية « لبات الأزهار » وهي التي يمزى إليها السبب في اختلاف تفضله للعسل الذي تقتطفه من النحل في المواسم المختلفة من السنة .

وتفيد هذه الخاصية النحل والأزهار على السواء ، فبانتقال النحلة من زهرة إلى أخرى من نفس نوع النبات فإنها بذلك تعمل في ظروف امتلات مليها ، فالنحلة عندما تحط على زهرة للمرة الأولى تقوم بعملية استكشاف دقيقة باحثة عن كيس الرحيق بواسطة لسانها الذي تلمسه تتحسس به الزهرة ، وتظل تقوم بهذا الجهد حتى تقع على موضع الكيس ، وبعد أن تزور الزهرة خمس أو ست مرات تكون في النهاية قد علمت وعرفت بوضوح على مكان الكيس ، وأصبحت تؤدي عملها بغاية الاتقان ، ومن يراقب المجدد الذي تبدله

والإتقان ، ومن مهام هذه الفترة أيضا تسلّم العسل من الشغالة جامعات حبوب الرحيق الأكبر منها عمرا ، وتكمل صنعه وتخزنه في مخازن العسل ، وتسلّم حبوب اللقاح من جامعات حبوب اللقاح وتضمه في العيون المخصصة له ، وهي تجمع الفضلات وأجساد النحل الميتة وتلقيها خارج الخلية ، فالنحل شديد أشد الحرص على نظافة منزله ، وتقوم أيضا في هذه الفترة بحراسة الخلية من الدخلاء ، وفي الواقع أن بعض شغالة النحل في هذه السن تظل منتصبة عند مدخل الخلية تتحسس النحل الذي يأتي قربها فتعرف عليه وتسمح بدخول مواطنيها وتهاجم من تشعر أنه غريب عنها حتى لو كان نحلا من أفراد مستعمرة قريبة من خليتها .

ومن اليوم العشرين وحتى وفاتها ، وهي الفترة التي تمر فيها الشغالة بالمرحلة الثالثة من حياتها ، يقتصر عملها على الحقل . وهي تلعب حينئذ « بالنحلة الجواله » لأنها تتجول هنا وهناك بين الأزهار، جامعة الرحيق وحبوب اللقاح ، وكلما جمعت منه ما تستطيع حمله عادت إلى الخلية حيث تسلمه للشغالة المختصة الأصفر منها عمرا ، وتعود لتؤدي مهمتها هذه من جديد ، وتفضل النحلة العمل دائما في جو صحو ، فإذا ساءم تعود إلى أعمالها المنزلية وتستأنف نشاطها لانية في الحقل عندما يعود الجو ثانية إلى الصفاء ، وشغالة النحل تؤدي عملها دائما دون كلل أو ملل ، من الصباح إلى بعد الظهر ، وبذلك يتضح لنا صحة المثل الدارج « نشيط كالنحلة »

دعنا الآن نتأمل شغالة النحل التي تصرف جل نشاطها خارج الخلية ، تنتقل من زهرة إلى أخرى جامعة الرحيق ، إذا كانت من جامعات الرحيق ، أو حبوب اللقاح إذا كانت من جامعات حبوب اللقاح ، ثم تعود إلى خليتها بغاية الدقة والاتقان ، تنفرغ حملها ثم تكرر عائدة مرة أخرى إلى الأزهار لا تخطئ طريقها ولو مرة واحدة سواء في القدو أو في الرواح .

يتضح مما سبق أن النحلة تمتلك خاصيتين قويتين هما حاستا الشم والابصار ، وعلاوة على ذلك فإنها أيضا - مثل الحشرات الأخرى - ذات حساسية عالية للكيمياءات تعادل حساسيتنا نحن للشم والدوق معا . فمن قديم هوف أن الحشرات ذات حساسية كبيرة للمواد الطيارة وأن مركز هذه الحساسية هي قرون الاستشعار ، ولذلك نرى أن هذه الأعضاء التي تبرز من مقدمة الرأس تتحرك بحرية وباستمرار لتعطي الحشرة وسيلة لاكتشاف الهواء المحيط بها بطريقة أفضل من دخول جزئيات المادة ذات الرائحة إلى حجرة انفية كما هي الحال في الإنسان والفقاريات الأخرى التي تعيش على الأرض . وقرون الاستشعار ذات حساسية عالية للمس أيضا، فإنها تمد الحشرة بوسائل تختلف عن تلك التي توجد في الإنسان ، وقد يكون هذا الإدراك هو جمع بين حاستي الشم والتشكل معا ، تماما مثل أعيننا وأصابعنا التي تعطيان معا صورة مجسمة للأشياء نتيجة للجمع بين النظر والتشكل .

وإذا كان حاسة الشم في النحلة توجد في قرون استشعارها ، وإذا فحسنا هذه الأعضاء تحت المجهر نجد أن العقول الثماني الأخيرة تمتلك بجانب الشعر والأشواك الحسية المنتشرة عليها عددا كبيرا من الصفايح الرقيقة، وإذا غطينت هذه الصفايح بنافلين أو بشمع أو بأي مادة أخرى غير منفذة أو قطعت، فإن النحلة تفقد حساسيتها للرائحة واستتخلص فسون فريتش من ذلك أن فقدان حساسية الشم في الحشرة تسبب من حرمانها من أعضاء الشم ، وليس نتيجة للصممة التي تسببت من قطع قرون الاستشعار كما كان الاعتقاد من قبل . . وعوموا فقد بينت البحوث التي أجريت على مختلف الحشرات أن حاسة الشم توجد أساسا على قرون الاستشعار ، وأنه إذا فقدت هذه الأعضاء فإن هذه الكائنات تصبح غير قادرة كليا أو جزئيا على الاحساس بالروائح .

ولعب الرائحة دورا حيويا في حياة النحل

النحلة للتعرف على كيمس الرحيق وسوف يقدر الجهد والوقت الذي توفره النحلة بجمعها الرحيق من نفس نوع الزهرة وكونها ذات خاصة « ثابتة للأزهار » .

أما الفائدة التي تجنيها الأزهار من خاصية النحلة هذه فهي تحقيق عملية التلقيح ، إذ ما فائدة حيوب لقاح البرسيم لزهرة البرتقال مثلا ؟

وتحملنا هذه الخاصية أيضا على التأمل في الكيفية التي تتعرف بها النحلة على زهرة معينة دون غيرها من الأزهار التي حولها بهذه الدقة والمهارة الجديرتين بالاحسب ، وقد أجاب فون فريتش على هذا التأمل بمدة تجارب بارعة ، أثبت منها أن الرائحة التي تنبعث من الزهور هي أحد العوامل المهمة التي تتعرف بها النحلة على الزهرة ، فقد أثبت أن النحل يستطيع أن يشم العطور ويميزها من بعضها البعض ، ويتذكرها بدقة كبيرة . فقد تعرف النحل في تجاربه على عطر لزهرة السنط من بين ثلاثة وأربعين نوعا آخر من الزيوت العطرية المماثلة ، ولكنه أثبت في الوقت نفسه أنها لا تستطيع تمييز هذه الروائح إلا إذا وصل تركيزها إلى نفس مقدار التركيز الذي يستطيع الإنسان أن يتعرف عليه ، فهي إذن شبيهة بنا من هذه الناحية ، وبذلك أمكن لفون فريتش أيضا خاصية « ثبات الأزهار » عند النحل حيث أنه لا توجد زهرتان من نوعين مختلفين من النبات لهما نفس الرائحة .

ومن تجارب فون فريتش أيضا إثباته أن النحل يمكنه تمييز لون الزهرة بجانب رائحتها، وهذان العاملان هما القوتان اللتان توجهان مجهودات شغالة النحل ، ولكن الدور الذي يلعبه كل من هذين العاملين يعتمد على زهو لون الزهرة وقوة الرائحة المنبعثة منها . وعلى العموم فقد وجد من تجاربه أن لون الزهرة هو العامل الذي يجلب النحل من بعد ، بينما الرائحة هي التي تجلبه عندما يكون قريبا منها .

على هذه الظاهرة أن النحلة يمكنها أن تشم شمس تشكليا ، وهذا تفوق على الإنسان ، حيث أن العضو المقابل لقرون الاستشعار لديه وهو الأنف لا يمكنه أن يشم إلا الروائح الطيارة التي تنتقل إليه من الهواء وتنفس بسهولة إلى الفضاء المخاطي الذي يبطن أنفه ، وهذا الأنف لا ينيه على الإطلاق ما إذا كان هذا الشيء الذي تنبعث منه الرائحة كبيرا أم صغيرا ، طويلا أم قصيرا ، وهو بدون العين لا يستطيع أن يدرك هذه الأمور ، لأن الرائحة لا تخبره بهذه المعلومات .

وأظهر العديد من التجارب أيضا أن النحلة عندما وضع أمامها العسل النقي أو المخلوط بأنواع مختلفة من المواد فإن ٤٥ - ٤٠ ٪ منها فضلت العسل النقي ، ولم تتناول أى واحدة منها العسل المخلوط بروت التمتع أو حامض الكبريتيك ، بينما تناولت ٢٢ ٪ منها العسل المخلوط بالويسكي و ٢٩ ٪ العسل المخلوط بالخل ، وعندما خيرت النحلة بين صنفين من السكر أحدهما مضاف إليه الكينين والآخر الاستركنين اختارت ٤٩ ٪ منها الكينين و ٤ ٪ فقط الاستركنين ، ذالة على أن النحلة بحاسة ذوقها استطاعت أن تفرق بين نوعي المحلول اللذين لم يستطيع الباحث الذي قام بإجراء هذه التجارب أن يفرق بينهما ، ومن الغريب حقا أن النحلة لم تتناول السكر المخلوط بساينيد البوتاسيوم القاتل ، ولكنها تناولت السكر المضاف إليه فيروسيانيد البوتاسيوم وهو من الأملاح غير الضارة .

والحاسة الأخرى المهمة في حياة النحلة هي حاسة الإصدار . ففي النحلة كما جاء من قبل ، نوعان مختلفان من العينين ، مثلها في ذلك كمثل كثير من الحشرات الأخرى ، والنوع الأول هي العيون المركبة أو العيون ذات السطوحات السداسية الشكل بينما النوع الثاني هي العيون البسيطة وكلاهما يتركب بطريقة مختلفة تماما عن أمينا ، فكل حين من العيون المركبة تتكون من عدد من

— بل وفي حياة كثير من الحشرات — فالذكر يتعرف على الملكة برائحتهما المميزة وهي طائفة في الهواء ، وهو قادر على تمييزها من الشغالة المحيطة بها ، وأيضا تتعرف الشغالة على بعضها البعض وعلى الأفراد الأخرى من مستعمرتها بالرائحة وكذا الأزهار المختلفة .

والانتقال من حاسة الشم إلى حاسة الذوق في الحشرات انتقال تدريجي ، ومن المحتمل أن الحشرات في كثير من الأحيان لا تدرك الشم والذوق كحاستين واضحتين منفصلتين ، وقد أوضح « مارشال » J.Marshall 1935 أن هاتين الحاستين منفصلتان ، ولكن يقرب على الظن أن الملابس الفكيكة وأعضاء الحس على السطح السفلي للشفة العليا ملائمة لتلقي الأثرات الكيميائية باللمس فقط ، ومن ذلك فإنها تؤدي وظيفة أعضاء الذوق ، أما أعضاء الحس في قرون الاستشعار فهي تدرك الروائح باللمس والشم معا .

والصفائح الحسية الموجودة على قرون الاستشعار في النحلة ما هي إلا أغشية رقيقة تغطي قنوات ضيقة تفتح على سطح « الكيتين » Chitin المغطى لقرون الاستشعار وتمتد عبر هذه القنوات نهايات عصبية رفيعة تتصل بالعصب الشمي من المخ ، والروائح الطيارة التي تنتقل من الهواء يمكنها أن تصل بسهولة إلى هذه الأغشية لم منها إلى النهايات العصبية في قرون الاستشعار . والشمع الدقيق الذي ينتشر على قرني استشعار النحلة بين هذه النقر الحسية أعضاء مهمة للشم ، وهي أيضا مزودة بنهايات عصبية دقيقة تستطيع أن تلمس الأشياء بالشم ، ولذلك فإن النحلة في ظلام الخلية تستطيع أن تلمس الأشياء لتفحصها ، وهي أيضا تستطيع أن تتصرف عليها من بعضها البعض ، سواء كانت هذه الأشياء العيون الشمعية أو العسل أو البيض أو الرقات ، إلى آخر هذه الأشياء ، فهي بهذه الوسيلة تكتسب انطباعات بالشم والشمع معا في نفس الوقت ، ويطلق

حساسية خاصة للموجات الضوئية القصيرة التي تشمل الأشعة فوق البنفسجية التي تقع خارج النطاق الذي يراه الإنسان ؛ وقد استطاع فون فريتش تمرين النحلة على أن تقرن غذاءها بالألوان خاصة وذلك بالقيام بتجارب عديدة استطاع بها أن يحدد الألوان التي يمكن للنحلة أن تراها وتميزها بوضوح ، فوجد أنه يمكنها أن تميز بين الأصفر والبرتقالي والأصفر المشوب باللون الأخضر أو بين الأزرق والبنفسجي ولكنها لم تتمكن من التمييز بين الأحمر والأسود والرمادي الغامق ، فهي في الواقع عمياء بالنسبة للون الأحمر ولكنها تستطيع أن تميز هذا الأخير إذا كان يعكس قليلا من الأشعة فوق البنفسجية .

وحساسية النحل لهذه الأشعة غريبة جدا ، فهو يستطيع أن يفرق بين سطحيين أبيضي اللون ، عندما يعكس أحدهما الأشعة فوق البنفسجية والأخر لا يعكسها ، كما تزود حساسيته كلما كانت الأشعة قريبة من منطقة الأشعة فوق البنفسجية .

أما العيون الأخرى التي تمتلكها النحلة وهي العيون البسيطة فإنها تستجيب فقط للضوء والظلام ، ولا تستطيع تكوين صورة للمرئي ، ويعتقد العلماء المعاصرون أن العيون البسيطة هي أعضاء تستخدمها النحلة للحساسية البصرية العامة .

وهناك حاسة أخرى في النحل لم يستطع العلماء التثبت من وجود أعضائها حتى الآن ، وهي حاسة السمع ، فلنحل أصوات معروفة غير الطنين الذي يصدر من اهتزاز الأجنحة السريعة ، فالملكة تخرج أحيانا صفيرا حادا ، كما تصدر أصوات حادة من الشغالة حتى بعد أن تقطع أجنحتها . وأثبت الباحث « فاندربلاتنك » أن النحل يتأثر بالنبضات الموسيقية ، فإذا كانت النغمة الموسيقية ذات ذبذبة تقرب من ٤٠٠ دورة في الثانية سببت هياج شغالة النحل في الخلية القريبة من مصدر هذه النغمة ، بينما تصاب الذكور بمثل هذا الهياج إذا

العضات الدقيقة المركزة للضوء تسمى بالسطيحات ، يوجد أسفل كل منها وحدة بصرية كاملة تتصل بدورها بالعصب البصري ، ولا يسمح المجال هنا بشرح التركيب المعقد للعين المركبة شرحا وافيا ، ولكن يكفي أن نقول أن كل سطيف سداسي ينظر في اتجاه يختلف قليلا عن باقي السطيفات الأخرى وبذلك فإن الوحدات البصرية في مجموعها تكون صورة فيسيفائية غير واضحة للمرئي تتكون من أجزاء عديدة منفصلة كل منها يمثل جزءا صغيرا من أجزاء المرئي ونقلها السطيف السداسي الذي يقبع في ناحيتها ، وتتكون الصورة الفيسيفائية من التحام أجزاء عديدة من الصور تعطي في النهاية صورة عامة للمرئي تماما مثل الصور التي تنشر في الصحف ، وتتكون من عدد كبير من النقاط الضمنية والمظلمة المختلفة في شدة إضاءتها ، ووضوح الصورة التي تراها الحشرة يعتمد على عدد الوحدات البصرية المكونة للعين تماما صورة الصحف التي كلما زاد فيها عدد النقاط ودقتها كانت الصورة أكثر وضوحا وترى الحشرات الأجسام القريبة منها بوضوح تام ولكن كلما بعدت المسافة بين الجسم والحشرة تصبح الصورة غير واضحة والعين المركبة تملك أيضا حركة الأجسام الواقعة في مجال رؤيتها وخاصة إذا كانت هذه الحركة مفاجئة ، ولكن الحركة البطيئة لا تتركها الحشرة ، ويعكس لبعين الحشرة أن كيف نفسها للرؤية في النهار أو في الليل بواسطة تركيب يعمل على تنظيم كمية الضوء الذي يقع على كل وحدة بصرية ، وتأثير هذا يشبه ضيق حدقة العين واتساعها في الإنسان ، وهذا التركيب عبارة عن مادة صنية تتجمع أو تتفرق حول الوحدة البصرية حسب كمية الضوء الواقعة عليها .

هذا فيما يتعلق برؤية النحل للمرئيات ، أما بالنسبة للألوان فإنها تستطيع أن تميزها بدليل أنها تنجذب للأزهار ذات الألوان المتعددة الزاهية ، ولكن لا يتعدى إدراكها هذا نطاق جزء الطيف الذي يراه الإنسان ، فهي ذات

تتعرف على علامات معينة بجانب خليتها ، وتذكر المسافة التى تفصل هذه العلامات عن الخلية . والذى يقود النحلة الى الخلية رائحة المستعمرة المميزة عن رائحة باقى مستعمرات النحل ، ولون الخلية اذا كانت مظلمة بلون تميزه . والنحلة الشغالة تفرز رائحة من غدد خاصة فى جسمها وفى وقت راحتها داخل الخلية وخاصة فى اثناء الشتاء لرى وهي متجهة برأسها نحو فتحة الخلية ويطنها متجهة الى أعلى تنثر الرائحة وهي مهيأ أجنتها ، وعن طريق هذه الرائحة مهما كانت شميطة التركيز تستطيع النحلة أن تتعرف على خليتها .

وتهتدى النحلة أيضا الى منزلها علوة على ذلك من طريق خاصية التوجيه البوصلى للضوء *Light Compass Reactoin* ، وهي القدرة على ارشاد نفسها الى مشها بواسطة اتجاه الشمس ، وقد لوحظ هذا السلوك من قرب النحل أكثر منه فى النحل ، فالنحل يسير فى خطوط مستقيمة ، وذلك بتحريك بحيث يعمل زاوية محددة مع اشعة الشمس ، فمثلا اذا أسرنا نملا لمدة ساعة أو تزيد فى اثناء رحلة من رحلاته ثم أطلقناه بعد ذلك فانه يشاهد وهو يتبع طريقا يعمل زاوية مع الطريق الأمسلى مساوية للزاوية التى تحركتها الشمس فى اثناء ذلك الوقت وقد تتبع كثير من العلماء هذا السلوك فى النحل واهتدوا الى أن شغالة النحل الصغيرة تتعلم خلال طيرانها التوجيهى الأول بجانب المعالم المميزة فى محيط خليتها تحركات الشمس فى مكان اقامتها ، وقد أثبت فون فريتش أن هذه المخلوقات ذات قدرة فلكية اخادة ، فقد حبس مستعمرة نحل فى قبو مظلم طوال فترة الصباح ، وأخرجها بعد الظهر ، وسمح للنحل أن يطير بحرية ، فوجد أن الشغالة الصغيرة قد لاحظت تحرك الشمس بعد الظهيرة ، وبعد ذلك اخذ هذه المستعمرة الى مكان قريب منها كلية ، وأطلق النحل طوال النهار ، فوجد أن النحل قد تمكن فى الحال من معرفة مكان مستعمرة الجديدة ، وذلك باستفادته من خبرته السابقة عن تحركات الشمس بصد

اقتربت النحلة من ٢٩٠ - ٥٠٠ دورة فى الثانية ، ومع ذلك لم يستقر الرأى حتى الآن على ما اذا كانت النحلة ذات حاسة للسمع ام لا .

وحاسة اخرى من حواس النحلة لم يعرف أيضا كونها حتى يومنا هذا ، هي حاسة الوقت التى يمكن من طريقها للنحلة تحديد الوقت بشكل دقيق ، وقد قامت ييلنج *Beling* عام ١٩٢٩ بدراسة هذه الحاسة وأجرت تجارب بارعة فى هذا المجال ، أمكنها من طريقها أن تدرّب النحل على أن يتناول طعامه فى وقت محدد من النهار ، وتعلم النحل بعد يوم واحد من التعرّين أن يأكل يوميا فى نفس الميعاد لتناول الطعام ، ووجدت أيضا من تجاربها أن العوامل الجوية من اضاءة وحرارة ورطوبة وغيرها لا تؤثر فى هذه الحاسة عند النحل ، وحتى الآن أيضا لم يتمكن العلماء من تحديد العضو الداخلى الذى يسبب هذه الظاهرة عند النحل .

والواقع ان حاسة الوقت ذات أهمية بيولوجية عند النحل ، حيث تتوافق فى نشاطها مع افراز بعض الأزهار للرحيق ، أو إطلاق هذه الأزهار لحبوب اللقاح التى لا تقوم بها الا فى اوقات محددة من اليوم . وسرعان ما يتعلم النحل فى الطبيعة أن يبحث عن غذائه من الأزهار فى تلك الاوقات ، وبذلك يوفر على نفسه الكثير من مشقة البحث عن الغذاء فى غير هذه الاوقات . وقد وجد فون فريتش وغيره من الباحثين أن شغالة النحل التى لا تخرج لجمع الغذاء تفشى بنية يومها فى حالة استرخاء داخل الخلية .

ولنتنقل الآن الى الكيفية التى تشق بها النحلة طريقها خارج الخلية ، فقد رأينا النحلة الصغيرة السن عندما تقوم بأول رحلة لها خارج مسكنها تقوم بعدة طرائق تمهيدية استكشافية قرب مسكنها ، تدرس خلالها موقع الأرض المحيطة وخاصة الأشياء الظاهرة بالنسبة لموقع الخلية ، كما تستغل اللون والرائحة فى هذا المجال ، فهي تستطيع أن

مراقبته)وبذلك استطاع أن يستنتج أن النحلة الأولى استطاعت أن تخبر أخواتها بمكان الرحيق ، وعندما عادت هذه الشغالة بعد أن حصلت على ما تريد قامت بنفس الحركات التي قامت بها النحلة الأولى ، وبدأت هي الأخرى ترقص لتعرف مزيداً من الشغالة عن مكان وجود الشراب ، وهكذا .

وبسلسلة أخرى من التجارب أمكن للباحث أن يميز رقصتين رئيسيتين للنحل . ورقصة النحلة ما هي إلا اهتزازات معينة من جسمها، أما أن تكون في حركة مستديرة وتعرف بالرقصة الدائرية وفيها تتحرك النحلة في دوائر صغيرة متتالية مرة إلى اليمين في اتجاه عقرب الساعة ثم تعكس اتجاهها إلى اليسار كعكس اتجاه عقرب الساعة ، ثم إلى اليمين وهكذا ، والرقصة الثانية هي « رقصة اللذب » وفيها تتحرك النحلة في طريق مستقيم للأمام لمسافة قصيرة ثم تعود إلى النقطة التي بدأت منها بطريق نصف دائري ، ثم تمشي في طريق مستقيم ؛ لتعود ثانية في نصف دائرة ولكن من الناحية الأخرى ، رأسية بذلك الشكل (8) وتظل تكرر هذه الحركات عدة دقائق مع تحريك بطنها مثل اللذب الذي تفعله عادة في أثناء تحركها في الخط المستقيم أي في أثناء الجري المهنز اللذب .

وبعد عدة دراسات شاقة وجد فون فريتش أن النحلة عندما تخرج إلى الحقل لجمع الغذاء ، سواء من رحيق الأزهار أو حبوب اللقاح تعود إلى الخلية وتفرغ شحنتها ثم تبدأ في ممارسة الرقصة المستديرة إذا كانت الأزهار التي جمعت منها قريبة من الخلية ولا يزيد بعدها عن ١٠٠ ياردة ، ولكن إذا زادت المسافة من ذلك فإنها تمارس رقصة اللذب، وهي تستطيع بهذه الرقصة أن تحدد المسافة الحقيقية بين الأزهار والخلية بعدد الدورات الكاملة للشكل (8) . فإذا كان بعد الأزهار من الخلية ٣٠٠ ياردة فإنها تدور ما يقرب من ٢٨ دورة كاملة في الدقيقة ولكن إذا زاد البعد أكثر من ذلك حتى ٣٠٠٠ ياردة فإنها تدور عدداً أقل

الظهرة . وقد أظهرت النحلة أنها لا تفتقر إلى الذكاء ، وأن الله وهب لها ملكة التجربة والتذكر ، ولعبت الوراقة التي اكتسبتها من الأجيال السابقة دوراً هاماً في هذا المجال .

وليست النجوم ولا القمر بدات فائدة للنحلة كما هي للانسان في هدايتها إلى الطريق الصحيح ، حيث أنها تمضي الليل داخل خليتها ولكنها تحت السماء الزرقاء في وضوح النهار تفوق قدرتها قدرة الانسان ، فان عينها تستطيع أن تنفصل بالضوء المستقطب واهتزازاته وهذا يفوق قدرة الانسان ، فهي بهذه الخاصية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسماء الزرقاء ، وقددرتها على رؤية الضوء المستقطب منها ، فانه يمكنها أن توجه نفسها حتى ولو لم تكن ترى الشمس تماماً، وكيف يمكن للنحلة أن تفلح ذلك ؟ هذا ما لم يجيبنا العلم عنه حتى الآن .

وقد يعجب بعضنا أن يعلم أن النحلة لفة تفاهم بها ، فهي من الحشرات التي تمارس الحياة الاجتماعية ، حيث المصلحة المشتركة والمصير المشترك ، وهذا التفاهم أمر ضروري ليتم التوافق والانسجام بين الأفراد جميعاً ، ويكون له أكبر الأثر في تقدم المجتمع وتطوره ، وكان لفون فريتش الفضل في اكتشاف لفة النحل في نطاق بحثه عن « العوامل التي تساعد على تنسيق حواس النحلة » .

وجد فون فريتش Uon Frieb أن النحلة عندما تقع على مصدر غذاء غني ووفير فإنها بعد أن تعود إلى الخلية وعند دخولها تقوم بما اسماه « بالرقص » بين الشغالة الأخرى التي تراقبها بانتباه شديد ، وكانت تتوقف من هذا الرقص بين الفينة والفينة وتعطي بعضاً مما جمعته من الرحيق إلى الشغالة المحيطة بها . وبعد فترة لاحظ أن الشغالة أخذت في مفادرة الخلية وذهبت إلى المكان الذي أخبرت به دون أن تعطيه ، لتحصل على نصيبها من الرحيق بدورها . وقد ميز فون فريتش النحل الذي استخدمه في تجاربه بعلامات خاصة ليسهل

لماذا نعتها الأقدمون بالكثير من الصفات الحميدة التي لم يحظ بها أي حيوان آخر ، وقد نقل الدميري في كتابه « حياة الحيوان الكبرى » عن أحد حكماء اليونان الذي نصح تلاميذه قائلا « كونوا كالنحل في الخلايا » قالوا : وكيف النحل في الخلايا ؟ قال : « أنها لا تترك عندها بطالا إلا نفثه وأبصرته وأقمته من الخلية ، لأنه يضيئ المكان ويفنى السمل ويعلم النشيط الكسل » .

وقد قفمت في ختام القرن التاسع عشر البحوث عن سلوك النحل وعاداته قديما كبيرا ، وأوضحت هذه البحوث أن النحلة لا تبحر ولا تعقل ، ولكنها تقوم بأعمالها الرائعة بطريقة غريزية بحتة ، فانه يحصل في جسمها من التفرعات الداخلية ما من شأنه أن يدفعها للقيام بنوع من العمل في فترة محددة من الزمن ، وسبق أن بينا أن الوظيفة التي تؤديها خلال المراحل الثلاث من حياتها تعتمد اعتمادا تاما على التوضج الفسيولوجي لتجدها المختلفة التي تفرز أنواعا خاصة من المواد الكيميائية فتؤثر هذه في حياتها وسلوكها . وإذا فان العوامل الفسيولوجية الداخلية ويطبق عليها اسم « العوامل المؤثرة » تكون من نتيجتها أفعال تعرف باسم « الاستجابات » تقوم بها النحلة دون وعي أو تفكير .

وهناك بجانب هذه العوامل الفسيولوجية الداخلية عوامل أخرى خارجية تصرف « بالآثار الخارجية » تؤثر على سلوك النحلة ، ونتيجة لذلك تقوم بأفعال تصرف مند الباحثين « بالأفعال المنسكة » لأن المؤثر الخارجي يؤثر على اليفة العصبية الموجودة داخل أعضاء الحس فيولد احساسا ينتقل من خلايا إلى المخ أو إلى أي عدة عصبية داخل الجسم - وذلك بما لطبيعة العمل المؤثر - وعند ذلك يرسله المخ في ليفة عصبية أخرى إلى العضلات فتنبض وينتج عن ذلك الحركة المرئية للحشرة .

وليس للارادة أو التفكير أي دخل بمثل هذه

من المهورات قدره ب ٩ دورات فقط . ووجد أن النحلة أيضا بالإضافة إلى ذلك تستطيع أن تخبر بقية الشغالة عن الاتجاه الذي تسير فيه حتى تصل إلى الأزهار ، فإن النحلة المخبرة إذا قطعت الخط المستقيم في أثناء ممارستها لرقصة الدنب عموديا إلى أعلى كان ذلك دليلا على وجود الأزهار في اتجاه الشمس في هذا الوقت ، أما إذا قطعت إلى الأسفل فتكون الأزهار واقعة عكس اتجاه الشمس ، وإذا تحركت النحلة إلى يسار الخط العمودي يراوبة خاصة كانت الأزهار موجودة في اتجاه يمتد بنفس الزاوية إلى يسار الخط الوهمي الممتد بين الشمس والخلية ، وقد تكون الشمس محتجة بالسحب ومع ذلك لا يؤثر هذا في قدرة النحلة على تحديد الاتجاه الذي تسير فيه سعيا وراء الفداء ، وقد رأينا أن بقية النحل مند عودة النحلة المستكشفة إلى الخلية تأخذ في مراقبتها بانتباه زائد ، حتى تتمكن من استيعاب المعلومات التي توصلها إلى المكان الصحيح دون أن تضل الطريق .

وهناك اختلاف لطيف بين رقصات جامعات حبوب اللقاح وجامعات الرحيق ، فبينما ينقل الإنسان المعلومات بنفس نوع الرقص ، نجد أن جامعات الرحيق تقرر رقصاتها برائحة الزهور الغامضة التي تعلق بجسمها ، فتشتمها الشغالة الأخرى وتعرف عليها ، أما جامعات حبوب اللقاح فانها تحضر معها إلى الخلية قطعة من الزهور التي زارتها ، لأنها لا تحمل رائحة من حبوب اللقاح تستطيع أن تميزها زميلاتها .

وتستطيع النحلة أيضا أن تخبر بالرقص علاوة على الرحيق وحبوب اللقاح عن مصادر الماء ، وورقص النحل المستكشف وقت التطريد ما هو الا اخبار بالعثور على المكان المناسب لبناء مستعمرة جديدة .

ويعد فان حياة النحل مليئة بالأعمال الرائعة التي تدل في مظهرها على الحكمة والتبصر بمواقب الأمور ، وبذلك نستطيع أن نلوك

«بومبيلس» Pompilus ، فائى هذا الزنبور تحفر حفرة صغيرة فى الأرض أو عشا تضع فيه بيضها، ولكنها قبل أن تفعل ذلك تذهب وتصطاد عنكبوتاً لتتغذى على يرقاته ، تلمسه وتشله ثم تعلقه من وسطه فى فرع نبات أو شجرة ريثما تنتهى من حفر العش فى المكان المناسب ، وفى إحدى المرات استبدل الباحثان العنكبوت المخدر بعنكبوت آخر غير مشلول ، ولكن عندما فرغت الأنثى من حفر العش لم تمر العنكبوت الجديد أى اهتمام ، وصارت تبحث عن عنكبوتها هي ، وعندما لم تجده عادت فاصطادت عنكبوتاً آخر وعلقته فى النبات ، وذهبت من جديد لتحفر حفرة أخرى على الرشم من وجود الحفرة التي قامت بحفرها سابقاً . من هذا استنتج الباحثان أنه نتج عن تدخلهما فى سلوك الأنثى أن قامت هذه الأخيرة دون تفكير بإعادة العملية بجميع خطواتها من البداية ولم تستغل المجهود السابق الذى قامت به . . . وسلوك الأنثى هذا يبين أن هذا الترتيب يقع دائماً فى دورتها الفريزية ، ولم تستطع أنثى الزنبور أن تتواءم مع الظروف المتغيرة التي واجهتها ، وأن دورتها الفريزية هذه تدفعها عند الانتهاء من عمل من الأعمال إلى القيام بالعمل الذى يليه ، وهكذا .

ومع ذلك وجد بعض العلماء أن فى سلوك النحل بعضاً من المرونة يمكنها بها أن تكيف أفعالها بدرجة ضئيلة ، نتيجة للخبرة والتجربة . فقد وجد بنتر Butler أنه إذا أدار الخلية بمقلد ٩٠ م عندما تكون شغالة النحل المتجولة فى الحقل فإن هذه الأخيرة عندما تعود تهبط فى المكان الذى كان به باب الخلية الذى امتادت أن تدخل منه ، وعندما لا تجده تجد فى البحث منه فى كل اتجاه إلى أن تكتشف مكانه الجديد ، وفى رحلتها التالية تهبط على الجدار مكان الباب القديم ثم تجرى حوله لتصل إلى الباب فى موضعه الجديد ، وراحت تفعل ذلك حتى استطاع النحل أن يتعلم مكان الباب الجديد تطلق يطير إليه مباشرة .

استنتج بنتر Butler من ذلك أن

«الأفعال المنعكسة» فهي تحدث بطريقة آلية محضة ، وغير مثل لذلك الفرائشة التي تنجذب إلى مصباح مضيء وتصطدم به فتحترق بفعل حرارته . والمؤثرات الخارجية فى النحلة - كما سبق - توجد على قرون الاستشعار وفى اللامس الفكية ، وفى الأعين ، وعلى سطح الجسم الخارجي ، وفى الأعضاء الحسية الأخرى التي لم تكتشف بعد ، ويفضل هذه المؤثرات التي تستخدمها فى حياتها اليومية تهتدى النحلة إلى مصادر الغذاء ومكان المستعمرة ، وفى جولاتها بين مختلف الأزهار وغزوها من مختلف الأعمال النشطة فى حياتها . فكل أفعال النحلة هذه استجابات مباشرة صادرة من جهازها العصبي إلى العضلات المختلفة نتيجة لاختلاف المؤثرات الخارجية ، وبذلك نصل إلى «الأفعال المنعكسة المركبة» التي أصرب منها هيربرت سينسر بلفظ «الفريزة» واعتبر هذا الباحث أيضاً أن السلوك الفريزي ما هو إلا مجموعة من الاستجابات التي تثيق من الكائن الحي بفعل البيئة ، ويؤيد كثير من العلماء هذا الرأي ، فهم يعتبرون أن سلوك الحشرات عامة أن هو إلا «أفعال منعكسة مركبة» أى «أفعال فريزية» ناتجة من عوامل خارجية هي الضوء والحرارة والجاذبية وملامسة أجزاء التربة أو النباتات وغير ذلك ، فستجيب الحشرة لهذه العوامل ، وبذلك يكون سلوك النحلة بين الأزهار ، كما عبر عنه كارنتر ، مثل سلوك يرادة الحديد فى المجال المغناطيسي . وأثنى اللاباة التي تطير إلى اقوام القمامة لتضع بيضها تجلبها رائحة القمامة ، فينتقل الدافع وهو الرائحة إلى المراكز العصبية التي تسيطر على الأعضاء الجنسية وعضو وضع البيض ، وبذلك تكون عملية وضع البيض هي من «الأفعال المنعكسة»

ومن التجارب الطريفة من الأفعال الفريزية فى الحشرات والتي هي مجموعة من الأفعال المنعكسة المعقدة ما قام به الأخوان بيكام Beckam على بعض أنواع الزنابير الانفرادية من جنس

التمط المعروف عنها ، من ذلك ما تقوم به أنواع الفراشات عند وضع شراقتها حيث ان اليرقة تعرف تمام المعرفة كيف تصنع شراقتها الخاصة بها والتي يتميز بها نوعها .

وعموما فان الأعمال الفريزية في الحشرات تهدف الى حماية الفرد في أثناء حياته أو حماية النوع من الانقراض .

ويعد ، ليس ذلك كله « تدير العزير الحكيم » « الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هذه » . « ان في ذلك آية لقوم يتفكرون » . صدق الله العظيم .

الشغالة من طريق التجربة استطاعت أن تجد باب الخلية الجديد وتطير اليه مباشرة .

ويكتسب الحيوان الأعمال الفريزية بالوراثة عن ابيه فينقلها بدوره الى ابنائه من بعده ، ولذلك تسير الفريزة في النوع الواحد على نمط واحد وبطريقة متشابهة في طريقها المرسوم من جيل الى جيل . والعديد من التجارب التي قام باجرائها كثير من الباحثين يدل على ذلك دلالة واضحة فقد عزلوا أنواعا معينة من الحشرات وقاموا بتربيتها بعيداً عن بقية افراد نوعها ، فقامت بأعمالها الفريزية على نفس



- الراجع -

- Butler, C.G. The honeybee. Oxford University Press. Oxford.
- Butler, C.G. & Free J.B., 1959: Bumblebees. Collins. The New Naturalist London.
- Frisch, K. Von., 1950: Bees. Their Vision chemical senses and Language. Cornell University Press. Ithaca. N.Y.
- Michner, C.D. & M.H. 1951, American Social Insects. D. Van Nostrand Co., Inc, New York.
- Richards, O. W., 1961: The Social Insects. Harpner & brothers, New York.

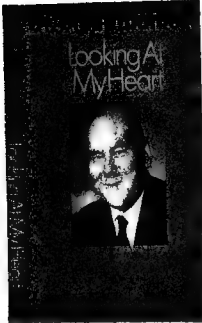
عالم النحل : تأليف جيلبرت نيكسون - ترجمة الدكتور علي الرسي
الناشر دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦١ .

حياة النحرات : تأليف ا . د . ايلى - ترجمة الدكتورة سميرة الزبيدي
الناشر - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٣ .

المجتمعات الحشرية : تأليف هارولد باستن
الناشر : مؤسسة سجل العرب - القاهرة ١٩٦٣ .

★ ★ ★

عرض الكتب



نظرة الحياة قلبي

✽ عرض وتحرير

د. حسان حطوت

هذا الكتاب يحوى بين دفتيه قصة قلب.. وهو في الوقت ذاته سجل واف لحدى وليات
الطب الرائعة في صراعه الدائب لدفع المرض والحفاظ على الحياة .. ومؤلف الكتاب هو
الدكتور «فليب بلايبرج» لم يؤلفه بصلة طبيباً بل بصفته هو المريض .. ان الدكتور
فليب بلايبرج هو طبيب الاسنان الذى لم يصب من الشهرة طبيباً عشر ممشار ما أصاب
منها مريضاً .. والذى تركت عليه الاضوايق المقاهات الطبية ، كما اشغلت به الاوساط
الاعلامية في العالم كله ، حين اجريت له عملية جراحية في مستشفى «جروت شور» بجنوب
افريقيا ، شق فيها صدره وانتزع قلبه المريض ليستبدل به قلب جديد سليم ، ينفس بالدم
في عروقه ، وينسا له في اجله ، ويصل ما يمتدوين الحياة بل وبين الصحة ، فكانما جدد
بينه وبينهما عقداً كاد ان ينقض !

مفارقة

حياة صدمت به في انتصارها على الموت ،
وسجل فخر بمسجزة علمية انتزعت رجلا من
برائن الموت ، وأمل بدا بعيداً ولكنه من بعد
طول معاناة اخذ يختلج ثم يتحرك ثم ينمو
رويداً رويداً حتى تارجح ثم ترجح ثم تحقق ..

ولقد وجدنا ونحن نختار هذا الكتاب
لتقديمه الى القراء اننا ازاد مفارقة جابهتنا
وان لم تثتنا عن عزمنا .. فالكتاب نشيد

✽ تاليف : الدكتور فيليب بلايبرج - الناشر : دار هاتمان

ثم دقت له اجراس النصر وهتفت له الدنيا
مباركة مهنته .. ثم .. نعم .. وهذا هو وجه
الخرج .. ثم مات البطل !

نعم .. مات الدكتور « فيليب بلايرج » ..
مات من بعد ان انتصر على الموت ! .. مات
الدكتور « فيليب بلايرج » بعد ان عاش ٥٩٤
يوما بقلب رجل آخر .. ٥٩٤ يوما مليئة بتور
الامل وظلام اليأس .. وبدأت بعملية جراحية
لزرع قلب .. تلاها ما يتلو اية زرعة من رى
وسقيا وتمهد بالرعاية والعناية ، حتى اتبنت
وازهزت والمرت .. فلما اخذت زخرفها
وازيبت امتدت يد الموت فاقطعتها .. ولكن
بعد ان خلفت آثارا باقية خالدة .. اما آثارها
الطبية فستعرض لطرف منها بعد قليل ..

واما آثارها الادبية فمنها هذا الكتاب الذى
نقدمه ، ولعل الكتاب وحده قد يكفل لورثة
الدكتور « بلايرج » من الرزق ما عجزت
ثلاثون سنة من ممارسة طب الأسنان ان تهيم
منه كثيرا او قليلا ..

هي مذكرات الدكتور « بلايرج » اذن وكيف
انتصر على الموت على حين كان الموت بانتظاره
على الناصية القبلية .. نتأمل ونتأمل أعقابها
نفتلعلنا في سهولة ويسر بقول الشامى العربى
القديم طرفة بن العبد :

لَمُتْكَ ان الموت ما خطا القَتى

لكالطول المرخى ونشياه باليد

خرج آخر

ولمة خرج آخر طالعني به الكتاب ، بل كاد
يصدني من تقديمه .. ان الدكتور « بلايرج »
يهودى صهيونى ، والكتاب مطعم باكار ذلك من
اوله الى آخره .. ليس في تاريخه لجديه
ووالديه وزوجته ولديته فحسب .. ولكنه
حتى وهو يتحدث من التواخى الانسانية
الجميلة النبيلة لا ينسى ان يليب فيما يقدمه
للقرىء دعابة صهيونية مستورة ... كيف

انشأه أمه متدينا لا يأكل الا لحم الكوشير ..
وكيف ثبتت زوجته عند موت ابنها الاول ثباتا
جديرا بينات اسرائيل .. وكيف تهيات بنته
لامتحان ليسانس الاداب لولا ان بدأت حرب
الايام الستة في اليوم السابق ليوم الامتحان
فتركت الامتحان وطارت الى اسرائيل لتؤدى
واجبها مع الآلاف والآلاف من شباب
يهود الصالم .. بل انه في أعقاب عملياته
الجراحية المثيرة يشد اليه انتباه العالم وثاقبه
الآلاف الخطابات من أقطار العالم تحمل عبارات
التشجيع وأمنيات الشفاء ، لميجدها فرصة
سخية ليؤلف مجموعات زاخرة من طوابع
البريد يهديها لهواة جمع الطوابع من جنود
اسرائيل المصابين في حرب الايام الستة ..

على أننا آثرنا ان نجعل ذلك تحت أعين
قرائنا وان ننبه اليه ، عملا بالرأى « اصرف
عدوك » .. ولعلنا نتعلم منه بعض الأشياء !!

الريض .. والمرضى

ونود ان نتحرر من متابعة الكتاب وفق
تسلسله الزمنى .. فالكاتب يكتب تاريخ
حياته وقد جعل ذلك هدفه الاول ، ورغم ان
القضية الطبية فيه هي الزبدة والفاية من
وجهة نظر القارىء ، الا انها في نظر المؤلف امر
عارض ينبغي ان ينتظر دوره ريثما يتم المؤلف
حديثه عن جده وجدته ، وابيه وأمه ، وكيف
انتقلت اصوله من بولندا ليصبح مواطنا في
جنوب أفريقيا صنعته طب الأسنان .. ولقائه
بزوجته ، وحياتها من بعد .. فما نصل الى
العملية الا حوالى منتصف الكتاب ...

المهم لدينا ان نذكر ان الدكتور « بلايرج »
بعد شباب رياضى وصحة وافية ، فوجيء في
الخمسينات من عمره بهذا المرض المعروف
بالدبحة الصدرية .. او تحطط الدم في أحد
شرابين القلب . فما هو هذا المرض ؟

ان كل عضو بل كل جزء من أجزاء الجسم
يستقبل الدم ثابى به الشرايين أكياس معه

نظرة الى نلس

داخل الشريان حتى تسد الجلطة الشريان فتقع بذلك الواقعة !!

ذلك بان القطعة من القلب التي كان ينفذها الشريان المسدود يمنع عنها مددها من الدم فكانما انخسقت صلتها بسبب الحياة .. فاذا كان الشريان المسدود فرحا صغيرا على اطراف الشجرة الشريانية وتفرعاتها الصديدة ، فالخسارة صغيرة لانه لا ينفذ الا مساحة من القلب صغيرة .. اما اذا اصاب الانسداد شريانا رئيسيا كبيرا فالخسارة فادحة ومنهم من يموت في الحال او في القريب ..

ومن بين هذين الطرفين مدى واسع ..

ولقد تكرر الجلطة مرة بعد مرة في شرايين اصغر او اكبر .. وكل منها تدلح بالكلوها حصتها التي كانت تفذها من عضلة القلب .. وكل قطعة من عضلة القلب تحل بها هذه الخسارة فانها - ان امتد الاجل - تفقد فتوتها ونشاطها كما تدل ورقة النبات ، وتستحيل من عضلة نابضة الى رقة ليفية خالدة .. ويصبح الكل العضلي الكبير اى القلب مثل العيش الذي هلك بعض وحداته .. قد يتأثر احتياطيه فلا يعجزه ان يقوم بالجهد العادي ولكن يؤوده الجهد العنيف .. وقد يزيد درجة فينال منه الجهد العادي ، وهكذا حتى يجد في امور الحياة العادية ، بل الحياة المريحة ، بل الحياة حتى على الفراش : جهدا جهيدا على قلبه الكليل !

وعلى هذا النمط سار قلب مريضا الدكتور «فيليب بلايرج» .. وهذا ما آل اليه امره .. مرت الايام وقلبه يضرر معركة بعد معركة ، رغم ما كان يبذل طبيؤه مما استطاع الطب ان يصل اليه من اسعاف ومن علاج . واضطر الى التقاعد من عمله ويبيع مبادئه والتحقّت زوجته بوظيفة لتكفل لقمة العيش .. ولزم مريضا فراشه ..

ومع ذلك اخذ قلبه يلدو .. الدم يرد من الرئة للاذين الايسر البطين الايسر .. ولكن هذا

بالحاجة المطلوبة من الاكسجين والغذاء ، فاذا اخذ حاجته من هذين اودع الدم نفائاته وفضلاته ليحرق بها في الاوردة مائدا الى القلب مرة اخرى .

اما القلب نفسه فاحسبه شيء بمضختين ملتصقتين بعملاق من .. تتكون كل منهما من غرفة جامعة باسفلها غرفة دافعة ..

اما الغرفتان الجامعتان (الاذينسان) فتستقبل اليمنى منها الدم الوارد من الرئتين بعد ان نقاه التنفس من الغاز الصادم (ثاني اكسيد الكربون) وذوب فيه ما يشبهه من غاز الاكسجين الضروري للحياة ، ويمر هذا الدم النقي الفنى الى الغرفة الدافعة اليسرى ..

وكل نبضة من نبضات القلب هي انقباضة للرفطين (البطينين) معا لتضخ كل منهما ما فيها من دم : اليمنى يلمها الى الرئتين ليتنقى ويجمع الاكسجين ويعود للغرفة الجامعة اليسرى .. واليسرى يلمها الى كافة نواحي الجسم ليعطيها ما فيه من خير (واكسجين) ويعود بنفائاتها من جديد الى الغرفة الجامعة اليمنى .. وهكذا دواليك يعمل القلب دؤوبا مجدا لا يتوقف ولا يكل منذ كان الانسان جنينا لم يدخل بعد هذه الحياة حتى يصير جثة اخرجها الموت من هذه الحياة !

وحال القلب ككتلة من اللحم العضلي كحال غيره من لحم الجسم وعضله ، محتاج للاكسجين والغذاء تالي به شرايين .. منتج لمواد ونفايات تذهب بها الاوردة .. فواهب الخير محتاج هو نفسه الى نصيبه من هذا الخير ليستمر في وظيفته في هبة الخير وتوزيعه ..

على ان اسبابا - يعلم الطب اليوم بعضها ويبحث وراء بعضها الاخر - قد تتجمع على مدى الايام ، وتعمل عملها في العاجل او في الاجل ، فاذا جدار احد شرايين القلب او طلائه الداخلى يصاب ، واذا الدم الذي ارادته الحياة ان يسرى سائلا جواريا في اوحيته يتخشّر ويجمد

يمرض الطفل بالحصبة مثلاً - وغيرها من الأمثلة كثير .. فيكون من أهم أسباب مقاومتها أن الخلايا الليمفاوية في دمه تفرز مواد مضادة لجراثومة الحصبة .. حتى يشفى الطفل بفضل هذه المواد .. التي تبقى في دمه فتكسبه « مناعة » تبقى معه فتعصمه من شر تلك الجراثيم أن هاجمته مرة أخرى .. ومن « المناعات » مالا يستمر الا قليلا (كالمناعة من الأنفلونزا) ومنها ما يستمر طول الحياة ، ومنها ما هو بين هذا وذاك باختلاف الجراثومة السبب .

بل إن الطب قد استخدم تلك الخاصة في الوقاية من الأمراض قبل وقوعها .. فبدلاً من أن يترك الإنسان ليمرض حتى يكتسب مناعته (وقد تغلبه الجراثيم فيموت) صار الطب يأتي بتلك الجراثيم فيقتلها أو يضعفها ضعفاً شديداً ثم يسعى بها إلى الجسم ، فلا تحدث به مرضاً ، ولكن مادتها تنبه تلك الخلايا الليمفاوية إلى إفراز تلك الأجسام المضادة التي تقضي على تلك الجراثيم أن وجدت سبيلها إلى الجسم بالعدوى في المستقبل ولو حية قوية ناشطة .

وما التحصين ضد الجدري أو شلل الأطفال أو التيفود أو الكوليرا أو غيرها مما يعرفه الناس ويمارسونه إلا أمثلة من ذلك .

هذه هي النعمة الكبرى .. ولكنها أحيانا تكون مشكلة كبرى كذلك ! ذلك أن هذه الوسائل الدفاعية تعمل في اتجاه واحد ..

فإذا أنت أجريت عملية نقل دم إلى إنسان من إنسان ذي فصيلة دموية مختلفة، فالأجسام المضادة تستهلك الخلايا الدموية الوافدة لايشفع لها أن الطبيب يعطيها بنية العلاج من النزيف .

ومن حسن الحظ في نقل الدم أن من السهل الحصول على الفصائل الدموية المتشابهة والتأكد من تألقها قبل القيام بالعملية ..

أما فيما يخص بزرع الأعضاء فالأمر أعقد من ذلك ..

لا يحسن أن يدفع بالدم إلى الجسم .. فيزدحم في الرئتين .. ويرشح الماء الذي في الدم ليملاً حويصلات الهواء التي جعلت لتتملىء بهواء التنفس، ويحس الرجل إحساس الفريق ، وتلاهاث أنفاسه يزيد يخرج من فمه، ويشعر بالوت الداهم ، وتتقارب هذه التوبات تصبى حتى وهو نائم ، حتى يصبح الموت له أملاً ينقله من هذا المذاب .. ولكن في كل مرة يلقي الأطباء بثقلهم في معركة تدور رحاها بينهم وبين الموت ، ويكادون يستطيعون أن يستنقذوه؛ لا صحيحاً معافى ولكن حطماً حياً ينتظر المرة التالية بقلب أفدح حلة ، وأمل أكثر قلة ...

وعلى هذه الحال ينصر مريضنا على فراشه في مستشفى « جروت شور » بمدينة الكاب .

آمال .. ورجال

في تلك اللحظات التي انتهينا إليها كان العالم الطبي كخلية النحل نشاطاً وطينياً .. وكانت الجامعات الطبية دائبة على مراجعة حساباتها أزاء المشاكل التي تعترض زرع عضو من الأعضاء من جسم إلى جسم .. وكانت تحس أنها حققت انتصارات مستقرة في بعض الجبهات كزرع قرنية العين وزرع البدائل الشريانية ، ونجحت زراعة الكلية بين التوائم المتشابهين لم يبن السائين بينهما مشابه حيوية معينة .. وذابت الإبحاث - ولا تزال - على دراسة الصعوبات الباقية التي كانت تعترض الطريق .. ولا تزال .

كان أهم هذه المشاكل هو ما أودع في جسم الإنسان من وسائل دفاعية .. قصدت بها الطبيعة أن يدافع الجسم من نفسه بها ضد كل غزو غريب .. ولولاها لأصبح الإنسان فريسة سهلة لأي غزو جرثومي ..

فما تحل بالجسم مادة غريبة عنه حتى تنبى وسائل الدفاع لمكافحتها .. وعلى رأس هذه الوسائل خلايا خاصة تفرز مواد مضادة للمادة الغريبة التي اقتحمت الجسم .

ولا يحجم ، مهتلبا بمن قال : « علي » ان اسمي ليس علي ، ادرك النجاح » .

وكان مريضنا الدكتور بلايرج قد اجتاز ابحاثا مستفيضة : اشعات وتخطيط القلب وقياسات عن طريق مسطرة تدخل غرف القلب المختلفة ، بل وتصوير « فلم سينمائي » عن عمل القلب ، كل ذلك اجري ثم ارسل الى المشورة لدى الاقطاب والاساطين في أنحاء العالم .. وكانت نتيجة كل ذلك انه لا أمل الا بمحاولة زرع قلب جديد .. وان كان الامل محدودا .

وكانت الأعصاب مشدودة والنفوس متوترة ..

ذلك بان العملية لن تكون الاولى ..

فمنذ مدة وجيزة اجري نفس الجراح بنفس المستشفى عملية زرع قلب .. كانت هي الاولى من نوعها فعلا .. لمرضى أسسمه « لويس واشكانسكي » .. وكان العالم يتابع اتباء العملية باهتمام ..

وكان يتابعها كذلك مريضنا الدكتور بلايرج دون أن يدرك صلتها به .. وبعد ثمانية عشر يوما مرت سراها انهار الامل .. وانفض السامر .. لقد مات « لويس واشكانسكي » !!

قلوب .. وقلوب

يحسب السطحيون من الناس أن ما ننسبه الى القضاء والقدر من أحداث إنما يصدر عن المصادفة العشوائية .. دون أن يدركوا أنه حتى المصادفة لها قوتها الذي يحكمها .. وأن للقضاء والقدر معادلهما المقدرة التي لا تتكشف للناس الا نهاياتها

من ذلك قصة تلك الأسرة القصرية من الملئوين بجنوب أفريقيا .. أب وأم وأحد عشر ولدا كان « كلايف هويت » واحدا منهم .. ولد في أكتوبر ١٩٤٣ .. ومن بين أخوته كان الاكبر والأعقل والابن بالولديه .. والاقرب الى قلب أمه . واثم تعليمه التواضع وجمع الحب

وفيمما يختص بزرع القلب خاصة ظلت مقعدة المعداد أن وسائل الدفاع في الجسم المضيف ستغزو من المواد المضادة ما تهاك به القلب الضيف على أنه جسم دخيل .. وأن كان هذا الدخيل قد جاء ليخدم ولينقذ وليستبقى الحياة !!

وبرى العلم الطبي الاحيلة على هذه المشكلة الا بمحاولة جادة لإبطال وسائل الدفاع هذه .. وهو يستنبط لذلك طرقا شتى .. منها وأهمها القضاء على تلك الخلايا الليمفاوية بتعريضها للأشعاع ، أو بحقن أدوية تقتضي عليها ، أو بحقن الحيونا بتلك الخلايا الليمفاوية الانسانية ، فتقوم الخلايا الليمفاوية الحيوانية باغراز مواد مضادة تهاك الخلايا الليمفاوية الانسانية ، ثم يصفي هذه المواد ويستخلصها من دم الحيوان لتكون مستعدة لإبطال مفعول الجهاز الدفاعي في الجسم الذي يستقبل عضوا من جسم غيره .. حتى لا يلفظ العضو المزروع .

وظل الامر نظريا حتى أواخر سنة ١٩٦٧ .. ولم يكن جرب بعد في عملية زرع قلب .

أما الجراحة نفسها فكانت خطواتها واضحة المعالم من سنوات خلطت نتيجة لتجارب الدكتور نورمان شامواي من جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة على الحيوانات .

لهذا لم تكن الصعوبة في انجاز العملية ، بل فيما يكتنفها من مشاكل علمية كانت تشغل بال الجراح الماهر « كريستيان بارنارد » وزميله اخصالي القلب النابضة « فلغا شراير » في مستشفاهما بجنوب أفريقيا ، كما تشغل بال المثات من زملائهما في أنحاء العالم .

يبد أن الظروف كثيرا ما تضع الطب في موقف الاختيار بين امرين أحلاهما مر : أن يترك المريض لوت أكيد أو أن يخوض جراحة نتيجتها غير مضمونة .. وينصب الطبيب الميزان فإذا استبان أن الامل مع الجراحة أرجح من الامل بدونها كان واجبه أن يقدم

ماتع أن تأخذ قلب زوجك لرجل لا أمل له في الحياة إلا بهذا القلب ! »

وتطرق الفتاة ثواني معدودات ثم تجيب في رباطة جاش : « انني أوافق » . ثم تنجه الى والدتها زوجها فتخبرها بما كان وتسالها رايها فتوافق الأم في الحال !!

وفيما قرأت من حياة « بلاينبرج » ومماته ..

وفيما قرأت عن أطبائه وممرضاته ..

فلم يستطع موقف أن يستوقفني مثل هذا الموقف ..

ومن وراء قصة القلبين التالف والجديد .. كادت الحروف المطبوعة أن تبرز أمام ناظري قصة القلبين البطين الحقيقيين في هذا الكتاب .. قلب زوجة وقلب أم ، لم ينمعهما هول الفجيعة وفجأة الكارثة أن تعطيا وأن تجرلا العطاء !!

وهما ملونتان في جنوب افريقيا ..

ولو لم تكن الا هذه لوجب أن يكون مكان الملونين في جنوب افريقيا فوق الهام لا تحت الاقدام .. لو كان هناك شعور .. وانصاف .. وذوق !!

العملية .. واعقبها

نسجت يد القدر اذن من خيوط الحوادث هذا النسيج المتشابك .. ويتخطى الجراح الدكتور « كريستيان برنارد » صعوبته النفسية الباهظة ليدخل على « بلاينبرج » قائلا : « انني مثل الطيار الذي وقع على الأرض بطائرته فتحطمت .. وعلاجه الطبيعي أن يسلم بسرعة طائرة أخرى يطير بها .. وعلاجي لديك » ..

ويستوضحه « بلاينبرج » .. فيخبره أن « لويس واشكانسكي » قد مات أمس .. وأنه

بينه وبين « دوروي » فخطبها وتزوجها وكان منهما بيت سعيد يرقررف عليه الحب فيموضهما بسعادته عن سمة الرزق ووفرة المال .

ويوم عيد رأس السنة ١٩٦٨ تخرج الأسرة الصغيرة مع الاصدقاء لرحلة ممتعة « بالأتوبيس » الى أحد المنتجعات ذات المناظر الطبيعية الجميلة .. ويبعدا عن الدار والجوار يتألف الجمع للعب الكرة يتقاذفونها واحدا لواحد .. وتذهب الكرة الى يدي « كلايف هويت » ولكنه بدلا من أن يقذف بها يسقط هو على الأرض في حركة مسرحية رائدة !! .. او هكذا خيل الى الجميع

وطالت رقدته .. وأحست دوروي أن في الأمر شيئا .. ويهرع الجميع اليه ليجدوه في غيبوبة .. ويحملونه الى أقرب مستشفى فيشخص الأطباء أنه مصاب بنزيف في المخ .. وتحت الاسعافات الممكنة تحمله مربة اسعاف الى أقرب مستشفى كبير في تلك الناحية .. فإذا هو بعينه مستشفى « جروت شور » .. حيث يرقد « الدكتور بلاينبرج » ..

ويضم المستشفى - على غير تعارف - « كلايف هويت » و « فيليب بلاينبرج » كلا في مكان .. ولزوجتهما وبعض الأهل في ردهة الزوار ! وتفر الحياة من « كلايف هويت » رغم نطس الأطباء وإن ظل تنفسه يتردد بالوسائل الصناعية ، وقلبه يدق بالوسائل الصناعية .. اما التخطيط الكهربائي لخته فقد كان خطا هامدا خاليا من أي نشاط .. وباختصار فقد توافرت فيه المواصفات العلمية لما يسمى طبيا بحالة الوفاة .

ويخرج الطبيب الى العروس الشابة ليس فقط لينس إليها حبيبها ذا الخمسة والعشرين ربيعا الذي اختطف تحت عينها في أوج سعادتهما في انشاء لوهما ذات رحلة في عيد رأس السنة ..

ولكن يسألها كذلك : « هل لديك يا سيدتي

الأطباء في حقته بالعقاقير التي تعطل جهازه الدفاعي ..

ولم يكن ذلك خلوا من الخطر .. فمعناه كذلك أنه سيفقد أسباب المقاومة أن تعرض جسمه للجراثيم .. حتى تلك الجراثيم التي قد يحملها الجسم العادى فلا تكاد تسبب له مرضاً ، ستكون ولا شك وجوشاً ضاربة أن تعرض لها جسم « بلايبرج » بعد تعطل دفاعاته .

ولما ذلك احاط الأطباء مريضهم بخطى دفاع .. أولهما أدوية المضادات الحيوية كالبنسلين والترميسين وغيرهما .. والثاني وهو الأهم والأجدى والأفضل هو أن يمنعوا الميكروبات من الوصول اليه .. ولهذا خصصوا له جناحا احاطوه بحرمان شديدة حتى لا يدخل اليه غريب او فضولى .. وعقمو كل شيء في ذلك الجناح من بناء وابواب وفراش وأدوات وطعام وشراب .. ولم يكن أحد حتى من المأذون لهم بالدخول من أطباء وممرضات يدخل الا بعد أن يجتاز عملية معقدة من تغيير الثياب وليس ثياب خاصة والتعقيم وليس الكمامة .. كل ذلك قبل أن يدخل الى « كوريدور » معقم الهواء ويجتاز أبواباً وأبواباً .. ولما اذنوا لزوجته أن تزوره بعد أيام عديدة مروها بكل هذه المراحل لم لم تره الا وبينهما حائل زجاجي .. وكان الحديث بينهما عبر ميكروفون .. معقم كذلك .

ومرت الأيام وأهل المستشفى وأهل المريض وأهل الأرض مسكون بأنفاسهم في انتظار ما يكون .. ومن بعد ضعف بالغ بدأ يتعالم من جديد كيف يأكل .. وكيف يتحرك .. وكيف ينهض جالساً وكيف ينزل واقفاً .. كانت الخطوة الأولى بالنسبة له نصراً كبيراً وجهداً جديداً ..

ولكنها المثابرة والمصابرة .. وقوة ارادة فيه وتغلب في العمل ليس حوله .. وكانت حلقة شعره لأول مرة حديثاً نشرت الصحف صورة .. ولما استطاع ان يطل على العالم

هو المرشح الثاني لعملية زرع القلب .. وأن الفرصة مواتية في الحال ..

أما عن النتيجة فالأمل موجود .. ولكنه محدود .

ويوافق « بلايبرج » دون تردد .. ويعفي طبيبه من أى لوم مهما تكن النتائج .. ويتبادل الجراح ومريضه عبارات التشجيع ..

وإذا المستشفى كخلية التحل .. أعلنت الطوارئ من مدة .. وأعطيت إشارة بدء العمل .. وأخذ العشرات من الأفراد كل ضمن فريقه يؤدى دوره في المهمة في نظام محكم ونشاط هادئ ، فكانهم ترووس الساعة المضبوطة . وفي وقت واحد كان فريق من الجراحين ينزع قلب « هويت » ويقطعه على مواصفات موقعه الجديد .. وفريق ينزع قلب « بلايبرج » ويهيئ صدره لاستقبال القلب الضيف .. وفريق يشرف على جهاز « القلب الصناعي » الذى يضخ دم « بلايبرج » في أوعيته الدموية في دورة تحفظ له حرارته وتلبيد فيه غاز الأكسجين وتنزع منه لاني أكسيد الكربون وتنقيه من الفضلات وتقوم على تثبيت تركيبه الكيمائي .. وفريق المخدرين وفريق المحللين وفريق الأقيسة والتسجيلات الطبية وفريق المداواة لما ينشأ من مضاعفات ، بل وفريق التصوير وغيرهم وغيرهم داخل غرف العمليات وخارجها .

وفي مهارة ودراية .. وسرعة في غير لحظة .. وصمت بليغ .. يأتي القلب الجديد وتعمل فيه الابرة والخيط ليحتل سكته الجديد ..

وينضى القلب .. ويضخ الدم .. ويعزل القلب الصناعي .. ويقفل الصدر .. وينقل المريض الى جناحه الخاص .. ويبدأ الفصل الثاني من المعركة !

ولقد ذكرنا أن أخوف ما كان يخاف هو أن تفرز خلايا الدكتور « بلايبرج » مواد مهاجم القلب حتى يلفظه جسمه .. لذلك شرع

الخارجي خلال شبابه الرجائي حيثه الجماهير التي اشار لها اشارة النصر التي ابتدعها تشرشل .. وتلك تلك صورته وهو يتناول المكرونة ..

حتى جاء اليوم الموعود .. فاذا هو يفادر المستشفى .. وتلكه ايام موعودة طال ارتقابها وان كان ياخذ نفسه بالخطر حتى في اقترابه من الناس .. وقاد سيارته ، وهاثر زوجته .. وكانت سعادته بكل ذلك مشات من الضعاف .. فقد ملته ايام مرض حقا ان الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه الا المرضى ..

شيء جديد في كل ذلك بدا انه غريبة مفروضة ونحن واجب الاداء وان كاد ينفض الحياة في كثير من الاوقات .. ذلك هو الشهرة !

المئات من مراسلي الصحف الذين يتنافسون على السبق الصحفي .. والذين أشعروا زوجته طيلة الوقت انها تحت الرقابة باستمرار .. لا تملك ان تسير في الشوارع في حالها كما يسير الناس .. وآلاف المكالمات التليفونية بالليل والنهار من الداخل ومن الخارج .. ومئات الأسئلة السخيفة أحيانا .. والبريد الذي يحتاج الى فريق كامل لقراءته .. تقرا كل ذلك فتحمد الله ان كنت مثلنا من غير المشاهير ..

ومع ذلك كانت هناك الهدايا .. والدعوات لرحلات في العالم كان في النية ان تلبى لو لم ينطفئ سراج العمر ..

ثم يشرع الدكتور « بلايبرج » في كتابة قصته هذه التي تقدمها .. ولكنه خلال ذلك يصاب بنكسة خطيرة وينتابه اليرقان ، ويصفى

لونه ويدخل المستشفى من جديد ، وتنخل قلوب أطبائه هلما .. خاصة وهم في علاجه لا يستهدون بخبرات سابقة .. ويحارون ان كان السبب عدوى بالكتيريا أو عدوى بالفيرسات والفرق بينهما خطير من وجهة نظر الحفاظ على القلب الجديد .. فان كان الفزو بكتيريا استباحوا ان يعطوا الاجهزة الدفعية مسرة اخرى معتمدين على أدوية المضادات الحيوية .. اما ان كانت فيروسات فهذه لا تنفع فيها المضادات الحيوية ، فان عطلوا الجهاز الدفاعي فقد التسوا بالرجل الى التهلكة !!

ويرجح لديهم انها البكتيريا .. ويعطّلون خلايا الدفاع .. ويصدق حدسهم فينتشلون مريضهم من الهاوية مرة أخرى .. ويتحسن ويفادر المستشفى من جديد ..

ولكنه غير بعيد يحس بالجدوة تخبو .. ويحتويه الضعف فيسمل اليه نفسه .. لقد أوشك الزيت ان يجف، وأذن الفتيل بانطفأ .. وفي مستشفى « جروت شور » يموت الدكتور « بلايبرج » في هدوء وسلام .. بعد ان وصل حياته بزيادة على حياته .. وأحيا بين جنبيه قلبا سبقه صاحبه الى الآخرة ..

يوم تقاعد الدكتور « بلايبرج » من عمله اهدى الى المتحف الطبي حفارة أسنان عتيقة ، فظن انه يضيف الى سجلات التاريخ .. ولم يعلم آنذاك أن هديته لتاريخ الطب ستكون أغلى وأقيم .. لقد اهدى تاريخ الطب قلبين .. قلبا مجز ان يكمل مع صاحبه رحلة الحياة .. وقلبا اثم من بعد صاحبه نصيبه من الحياة .. ووبة كبيرة لا تريد على عظمها الا ان تكون في السجل الطبي حلقة في سلسلة ، ودرجة من سلم وخطة على طريق ...



Panther Modern Society

La
Vida
Oscar
Lewis



لاقيدا أو الحياة

عرض وتعليل دكتور محمد عبيده محجوب

الانثروبولوجيا وبخاصة الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية أصبحت تهتم الآن بمختلف انماط التجمع الانساني في المجتمعات التقليدية التي لم تدخلها الصناعة او المجتمعات الصناعية الحديثة على السواء .

وقد قام الجيل الثاني من الانثروبولوجيين الذين تعلموا على الرعيل الاول من علماء الانثروبولوجيا بدراسات عقلية في كثير من المجتمعات الاوروبية والافريقية والاسيوية الريفية والصناعية الحديثة ، كما ابعوا في

ارتبطت الانثروبولوجيا بدراسة المجتمعات البدائية او التوحشة ، والواقع انها عنيت بهذا النمط من المجتمعات في بداية نشأتها ، وان كان مصطلح بدائي كما استخدمه الانثروبولوجيون لم يتضمن ذلك المستوى القيمي فيما يتعلق بالارتباط بمرحلة معينة من مراحل التقدم او التأخر الحضاري ، ولكنه يعني الإشارة الى بعض الخصائص البنائية المميزة ، مثل قلة عدد السكان وبساطة الموارد الاقتصادية والادوات التكنولوجية والافتقار الى التراث الثقافي المكتسب ، الا ان

* Lewis, Oscar; La Vida; A Puerto Rican Family in the culture of Poverty San Juan & New York, Panther Books, London 1968. pp. 812.

او دراسة الشخصية الفردية ، ثم مرض بعد ذلك لبيان مدى السهولة التي أحاطت تقبل مجتمع بوروتوريكو للثقافة الأمريكية ، وارجع ذلك الى افتقار ذلك المجتمع الى التاريخ الثقافي او الاصول الثقافية العريقة التي يتميز بها المجتمع المكسيكي التقليدي مثلا .

والكتاب في جوهره عبارة عن شريط تسجيلي لحياة أسرة من الأسر محدودة الدخل التي يقيم بعض أعضائها في أحد الأحياء الفقيرة في مدينة سان جوان في بوروتوريكو إحدى الولايات المتحدة الأمريكية ويقيم البعض الآخر في مدينة نيويورك ، وقد حاول المؤلف بذلك أن ينقل صوت تلك الفئة من السكان الذين تعيشهم هذه الأسرة الى أذان الفئات السكانية والاجتماعية الأخرى في المجتمع الأمريكي من الذين يندر أن يسمعو بوجود مثل هذه الأسر بظروفها الاجتماعية السيئة ، كما أراد من ناحية أخرى أن يسجل بقلمه صورة داخلية لنوع الحياة في كثير من المناطق والجماعات المحرومة أو الهامشية في ذلك المجتمع والتي يجهلها الكثير من أبناء الطبقة الوسطى .

وقد أشار المؤلف الى أن أحد الأهداف التي أراد تحقيقها بدراسته لثقافة ذلك المجتمع الفقير يتمثل في محاولة خلق نوع من الاتصال بين جماعات الفقراء في المجتمع الأمريكي وشخصيات الطبقة الوسطى من المهنيين مثل المعلمين والباحثين الاجتماعيين والأطباء ورجال الدين وغيرهم ممن يحملون المسؤولية الرئيسية نحو إقامة المشروعات التي تعالج مشكلة الفقر وذلك من خلال محاولة الوصول الى فهم أفضل لطبيعة الثقافة في المجتمع الفقير مما يؤدي في النهاية الى تبني نظرة تتميز بمزيد من التعاطف مع الفقراء ومشكلاتهم فضلا عما يقوم على أساس هذا من مشروعات انشائية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والمهنية في تلك المناطق .

ويعتبر كتاب « La Vida » الكتاب الأول في سلسلة من البحوث اعتمدت على اختيار بيئة

دراساتهم طرقا جديدة زاجوا فيها بين طريقة الملاحظة بالمشاركة التي تعتمد على الإقامة الطويلة والمعيشة في المجتمع وطريقة دراسة الحالة ودراسة حياة الأفراد ، كما اعتمدوا في تحقيق فروضهم على الدراسات الكمية التي كان ينظر منها الباحثون الأوائل ، ومن هذا الفريق من الكتاب أو الباحثين أوسكار لويس « Oscar Lewis » استاذ الأنثروبولوجيا حاليا بجامعة النيويس بأمريكا ، ولد حاول في هذا الكتاب أن يتعمق في فهم المجتمع عن طريق دراسة حالة الأسرة وتتبع تاريخ حياة أفرادها كما يروونه بأنفسهم .

وقد كان من التفصيل الدقيق والقيم الذي تضمنته مقدمة الكتاب وبخاصة فيما يتعلق بطرق البحث محاولة متنازعة لعرض الخطوات التي اتبها المؤلف في ملاحظته ووصفه وتسجيله للظواهر التي توفر على دراستها فضلا عن الإشارة الى ما يمكن أن تسهم به تلك الملاحظات في تفسير المشكلات التي يعالجها البحث ، ونظرا لأهمية تلك الطرق الحديثة في الدراسات الأنثروبولوجية سوف أركز في هذا العرض على بيان الكيفية التي يعمل بها الأنثروبولوجيون من طرفهم ومناهجهم للوصول الى الجوانب العميقة من المجتمعات التي يدرسونها .

وقد بدأ المؤلف في مقدمته بعرض للظروف الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتعليمية السنية التي عاشها مجتمع بوروتوريكو في مرحلة ما قبل الانضمام الى الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم انتقل الى الإشارة الى مظاهر التقدم الاقتصادي والصحي والتعليمي والمهني التي طرأت على هذا المجتمع بصفة عامة مع استمرار الفقر والتأخر في بعض الأحياء أو المناطق السكنية فيما يعرف بال Stums أو جيوب الفقر . وتعرض بعد هذا لبيان المركز الذي تحتله الدراسة الأنثروبولوجية للأسرة بين مستويات التحليل الأنثروبولوجي التي تعني بالثقافة العامة أو النماذج أو الصورة البنائية

وجهة نظرهم الخاصة في الثقافة المكسيكية ومظاهر الاختلاف بين تلك الثقافة والثقافة الأمريكية .

كذلك فقد قام المؤلف بتطبيق تسعة عشر كشفاً من كشوف البحث على كل أسرة من الأسر التي اختيرت ضمن العينة، وقد تضمنت أسئلة تدور حول ملكية الأسرة من الأشياء المادية كالإلباس والحيوانات والكتب وغيرها ، وعلاقات الصداقة بين الجيران والعلاقات بين الآباء الحقيقيين والآباء عن طريق التعميد God Parents والعلاقات الأسرية وأوجه الدخل والإنفاق ونظام تقسيم العمل والاتجاهات الصحية والسياسية والدينية والنظرة إلى العالم .

وبالإضافة إلى هذا كله فقد طلبت الدراسة المركز لـ لكل أسرة قائمة روابط وعلاقات شخصية قوية ، بدونها لم يكن في الإمكان الحصول على المادة أو الملوث الضرورية في تلك الدراسة ، وقد اشترك المؤلف ومساعدوه في حضور كثير من المناسبات الاجتماعية كالحفلات العائلية وشعائر التعميد وغيرها ، كما كانوا يستجيبون إلى الطلبات العاجلة من الأهالي لاصطحابهم إلى عيادات الأطباء أو الاتصال بأقاربهم المسجونين لتقديم بعض الخدمات أو مساعدتهم على كتابة الاستمارات الخاصة بالشؤون الصحية أو الالتحاق بالعمل أو التعاقد على إيجاد المسكن .

ويمكن القول أن المؤلف قد التزم إلى حد كبير بطريقة الملاحظة بالمشاركة التي يعتمد عليها الباحثون الأنثروبولوجيون باعتبارها الطريقة المثلى للحصول على المعلومات والبيانات التي تساعد على فهم الظواهر وتحقيق الفروض التي يضعها هؤلاء لتفسير تلك الظواهر التي يتوفرون على دراستها ، وتتلخص عملية الملاحظة بالمشاركة في محاولة الباحث الاستدراك في الأنشطة الاجتماعية المتنوعة التي يقوم بها أعضاء الزمرة الاجتماعية أو الجملة موضوع الدراسة ، بقدر ما تسمح الظروف والتقاليد ،

مكونة من مائة أسرة تعيش في أربعة من الأحياء الفقيرة في مدينة سان خوان في بورتوريكو وهي تهدف في النهاية إلى دراسة مشكلة التكيف والتوافق بين الجماعات الأسرية والتغيرات التي تطرأ على الحياة الأسرية للمهاجرين ، كما تهدف إلى تقديم دراسة مقارنة تعتمد على الوحدات الأسرية في ثقافتين متمايزتين أحدهما هي الثقافة الأمريكية والأخرى هي الثقافة المكسيكية ، كما تهدف إلى تطبيق طريقة جديدة للحصول على المعلومات المتعلقة بالأسرة .

ولقد كان الأساس الذي قام عليه اختيار الوحدات الأسرية (العينة) هو انخفاض الدخل ووجود الأقارب في نيويورك والرفقة في التعاون مع الباحث وتزويده بكل المعلومات التي تتطلبها الدراسة ، وقد حدد الباحث تلك الأسر الفقيرة بمساعدة الأشخاص الاجتماعيين الذين يعملون في المنطقة وأن كان قد واجه مشكلة تمثلت في اتساع المدى الذي يتوزع خلاله الدخل الفردي للمقيمين في تلك الأحياء الفقيرة ، فقد كان البعض منهم يمتلك الوسائل التكنولوجية الحديثة مثل أجهزة التبريد والتكييف وأجهزة التلفزيون أو السيارة ، ولهذا فقد عمد إلى أن تضم « العينة » المختارة أسراً تنتمي مستويات دخولها إلى كل الفئات التي تضمنها دفاتر الإحصاء في المجتمع الأمريكي .

ويتلخص المنهج الذي اتبعه المؤلف في تلك الدراسة في المزاوجة بين الطرق التقليدية المستخدمة في البحوث السوسولوجية والأنثروبولوجية والسيكولوجية وهي تتضمن الاستبيانات والمقابلات والملاحظة بالمشاركة وتسجيل تاريخ الحياة وعدداً من الدراسات الكلية الشاملة المركزة لحالات بعض الأسر ، كما اعتمد على بعض طرق علم النفس مثل اختبار توافق قدر الفعل الرجمي Thematic apperception ، واختبار « رورشاخ » واختبار كلمة الجمل كما اعتمد على عدد من الباحثين المصنفين من نفس سكان المجتمع موضوع الدراسة لإعطاء

لا يبدأ في تسجيل تاريخ حياة أعضاء الأسرة إلا بعد أن يكون قد اكتسب الكثير من فقتها وتوفرت لديه المعرفة الوجيهة بجوانب حياتها وذلك من خلال التردد بانتظام على زيارتها لعدة شهور قليلة لمعرفة الكثير من شؤونها من خلال المناقشات التي تقوم بين أعضائها ثم الاستعانة بتلك المعلومات التي يحصل عليها من خلال تلك المناقشات في استشارة ذاكرة هؤلاء الأشخاص بغية الحصول على صياغة قصصية لتلك الأحداث الأسرية .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الإشارة إلى الاتجاهات المختلفة المتمايزة التي يمكن أن يتخذها البحث الأنثروبولوجي للحياة الأسرية والتي ترتبط فيما بينها أشد الارتباط :

والاتجاه الأول يتمثل في استخدام معظم الفئات التصورية Conceptual Categories مثل مفهوم البناء والوظيفة المستخدمة في دراسة الجماعة المحلية أو الزمرة الاجتماعية عند دراسة الأسرة ، أما الاتجاه الثاني فيتمثل في تسجيل طويل ومركز لتاريخ حياة كل شخص من أشخاص الأسرة من خلال وجهة نظر الأشخاص الآخرين ، وهذه الطريقة تسمح للباحث الأنثروبولوجي برؤية الأسرة من خلال وجهات نظر أعضائها انقسم ، كما تسمح بالتبصر بسيكولوجية الفرد وديناميات التفاعل الاجتماعي في الأسرة ، وهناك طرق مختلفة للتحقق من صدق وبلات البيانات التي نحصل عليها بهذه الطريقة .

أما الاتجاه الثالث فيتمثل في الدراسة المركزة لمشكلة معينة أو حدث معين أو أزمة معينة في حياة الأسرة وبخاصة فيما يتعلق بالكيفية التي تواجه بها الأسرة الأحداث والواقف الجديدة بما يسمح بمعرفة الكثير من الجوانب الهامة للديناميات السيكولوجية للفرد والأسرة ، أما الاتجاه الرابع والآخر فينطوي على دراسة كلية للحياة الأسرية من خلال الملاحظة والتسجيل التفصيلي للأحداث

فمن خلال المشاركة في مناسبات الزواج والوفاة واليلاء والذهاب إلى السوق والتردد على مجلس كبار السن والزعماء المحليين وزيارة مندوبات الشبان ووحدات الإنتاج ، يستطيع الباحث الأنثروبولوجي أن يحصل على الكثير من المعلومات الحقيقية من العلاقات القرابية والاقتصادية والسياسية في المجتمع موضوع الدراسة ، ولكن هذه الطريقة لا يمكن استخدامها أحياناً ، مثلاً فيما يتعلق بالأنشطة الاجتماعية الموسمية أو التي لا تتمتع بتواتر الوقوع مثل حفلات الحصاد والأمياد والمناسبات الدينية والمنافسات الطائفة ، يمكن في هذه الحالة الاعتماد على المعلومات التي يدلي بها كبار السن وقصص تواريخ الحياة كمصدر هام من مصادر تلك المعلومات .

وينتقل المؤلف بصد الإشارة إلى طرق البحث وتسجيل المعلومات إلى الإشارة إلى صعوبة استخدام الوسائل السمعية والبصرية مثل آلات تسجيل الصوت ونقل الصورة في الدراسات الأنثروبولوجية وذلك أما لارتفاع تكاليف الاستعانة بتلك الوسائل أو بسبب ما تخلفه من جو الافتعال الذي يؤثر في استمرار الناس في سلوكهم العادي ، والملح المؤلف إلى إمكان الاستعانة من ذلك بالباحثين المدربين على التسجيل الانتوجرافي لدقائق السلوك والأنشطة التي يشارك فيها أعضاء المجتمع أو الأسرة وبخاصة فيما يتعلق بالتحركات والمحاورات ومظاهر التفاعل التي تطرأ بينهم ، وهذا لا يمنع بالطبع من إمكان استخدام تلك الوسائل في تسجيل تواريخ حياة الأشخاص كما يدلون بها شريطة أن يملؤوا بوجود مثل هذه الوسائل الخاصة بتسجيل أحداثهم وذلك حفاظاً على علاقة الثقة الضرورية التي تقوم بينهم وبين الباحث والتي بدونها يستحيل الحصول على معلومات دقيقة وصادقة .

وليس من شك في ضرورة هئية الأشخاص الذين سوف يدلون بالبيانات قول كل ما لديهم في صراحة ووقت ، فقد كان الباحث

ولقد كان هذا المنهج الذي اتبعه المؤلف لا يسمح بالاعتماد على ميزات كبيرة ، وإن كانت الدراسة المركزة أمرة عن طريق الاستبيانات واستمارات البحث قد أتاحت الفرصة للحصول على كثير من المادة الانثوجرافية او المعلومات التي يمكن استخدامها في مجالات متعددة ، فالأسرة بامتيازها نسقا اجتماعيا صغيرا تعتبر مجالا ممتازا لتطبيق النظرة الكلية التي تسيطر على البحوث الانثروبولوجية وبخاصة فيما يتعلق بدراسة البناء الاجتماعي والثقافة فضلا عن أنها تساعد على معرفة ما تمنيه النظم الاجتماعية بالنسبة للأفراد وبالتالي تسمح لنا بتجاوز الصور والبناء الى الحياة الحقيقية ، كما ان الدراسة المركزة للوحدات الأسرية بهذه الطريقة تساعدنا على خلق فنترة سد الفرة القائمة بين الثقافة من ناحية والفرد من الناحية الأخرى ، فقد كان الباحث ينظر الى الثقافة والشخصية في المجتمع الذي كان أطارا للدراسة، في ارتباطهما واعتمادهما المتبادل في الحياة اليومية والواقعية .

ان الدراسة المركزة والشاملة لحياة أسرة معينة لتطبيق المناهج والطرق التي استخدمها الباحث يمكن أن تؤدي بنا الى فهم حياة الأفراد في المجتمع الفقير ومن ثم الى فهم للحياة الأسرية في هذا المجتمع الذي ينتمي اعضاؤه الى الطبقة الدنيا ، ثم الى فهم لنوع الحياة التي يعيشها أبناء تلك الطبقة ككل والدور الذي تلعبه في تاريخ وثقافة المجتمع الكبير الذي تنتمي اليه ، فضلا من أنها قد تعكس لنا بعض الجوانب في الطابع القومي ، وإن كانت هذه النقلة الأخيرة من الأمور التي يصعب الاتفاق عليها حيث قد وكزت كل الدراسات التي منيت بالطابع القومي على الطبقة الوسطى وذلك بناء على افتراض معين مؤده ان هذه الطبقة تعكس لنا القيم السائدة في المجتمع . ولذلك فقد رأى المؤلف ان دراسة الوحدات الأسرية التي تنتمي الى الطبقة الدنيا تؤدي بنا الى معرفة بعض الخصائص او

والمناقشات ومظاهر التفاعل الاجتماعي التي تحدث في يوم معين في حياة الأسرة ، ويقوم اختيار هذا اليوم على أساس عشوائي او متعمد ، فربما كان يوما عاديا من أيام الاسبوع او يوما مميزا بحدث غير عادي مثل الميلاد او التعميد او القيام بشعائير الدفن او الزواج او الانتقال الى مسكن جديد .

وقد اتبع المؤلف في دراسته طريقة المزاوجة بين المنهجين اللذين يتمثل أحدهما في التسجيل الواقعي لروتين الحياة اليومية الذي يقوم على أساس الاختيار العشوائي او المتعمد ليوم معين في حياة الأسرة وملاحظة مظاهر السلوك الذي يصدر عن اشخاصها في مواقف التفاعل المتنوعة وما يرتبط بتلك المظاهر السلوكية من أنواع العلاقات التي تقوم بينهم وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات القرابية او الاقتصادية ، او تلك العلاقات القائمة على أساس السلطة كالعلاقات بين الزوج والزوجة وبينهما والابناء من الذكور والاناث ، والعلاقات التي تقوم بين الاخوة والاخوات وبين الابناء واقارب الأسرة عن طريق الام او الاب والاشخاص الآخرين الذين يتفاعلون مع الأسرة في مجال العمل او التبادل الاقتصادي او الجيرة . بينما يقوم المنهج الآخر على أساس التسجيل الحولي لقصاص او تواريخ حياة اشخاص الأسرة فيما يتعلق بمراحل نموهم النفسي والاجتماعي وملقاتهم ببقية اعضاء الأسرة ووجهة نظرهم في انماط السلوك التي تصدر او كان هناك وجوب لصدورها عنهم في مواقف التفاعل ومراحل النمو المتعاقبة وذلك بصفة الخروج ببعض الافكار العامة عن الحياة الواقعية كما تحدث في الروتين اليومي فضلا عن الحياة الصورية او المثالية كما هي في مجال كبار السن او توقفت ذوى السلطة وبخاصة بناء على اختلاف نوع ومدى المعرفة لدى الاجيال المختلفة وما يرتبط بذلك من اختلاف نوع الحكم فيما يجب أن يكون وما هو واقع فعلا .

يرتبط بتلك العلاقات من مظاهر السلوك ، كما يمكن الخروج أيضا ببعض القضايا التي تتعلق بالحياة الجنسية المشروعة وغير المشروعة مع تحديد مفهوم كلا المصطلحين كالعلاقات الجنسية بين الزوجة والزوج أو بين الرجل المتزوج والمرأة المتزوجة برجل آخر أو بين المرأة المتزوجة والرجل الأعزب أو بين الرجل الأعزب والفتاة غير المتزوجة ، والزواج الشرعي (اللعني) والعرفي (المدني) والبقاء ومدى تأثيره على الحياة الزوجية ومدى استقرار العلاقات الزوجية وشيوع ظاهرة الطلاق ، كذلك بالمشكلات الاقتصادية والجنسية والسلوكية والنفسية والاجتماعية ، كما يمكن من خلال تطبيق هذه الطريقة في الحصول على المعلومات ، الخروج ببعض القضايا العامة حول تأثير البقاء على استقرار الأسرة والعلاقات بالجزيرة والمركز الاجتماعي للبقاء والزواجهم وأولادهم وبناتهم .

وكذلك تعتبر الدراسات الجينولوجية مصدرا هاما للحصول على المعلومات عن الجوانب القربانية والاقتصادية والسياسية والتعليمية في الجماعة المحلية أو المجتمع موضوع الدراسة . فمن خلال تسجيل أسماء الأشخاص الأحياء والموتى والعلاقات القربانية التي تقوم بينهم وأعمارهم وأماكن ميلادهم وحالتهم المادية ومحال أعمالهم والمهن التي يزاولونها وحالتهم التعليمية يمكن للباحث أن يعرف شيئا من مدى الوحدة القربانية والوحدة الاقتصادية النواة والممتدة ، كما يستطيع أن يعرف شيئا آخر من مدى التمرکز الاقليمي للجماعات القربانية والمهنية كما يمكن أن يتأدى الى فهم نمط التوزع المهني والتعليمي وارتباطه بالتوزع القرباني ولغة التفاضل الطبقي .

كما يمكن من خلال دراسة مظاهر الثقافة المادية وبخاصة فيما يتعلق بقتنيات الأسرة من الأشياء ذات القيمة المادية والمعنوية مثل الاثاث والأدوات المنزلية والتحفف والكتب وأدوات الزينة والملابس وغيرها ، أن نصل

إلى المظاهر التي تتميز بها مجتمع هذه الطبقة بالنسبة الى المجتمع الكلي الذي تنتمي اليه ، وإن كان قد تشكل أيضا في إمكان تحقيق مثل هذا الافتراض .

كذلك فقد تشكل المؤلف أيضا في إمكان الاتفاق حول مفهوم ذلك المصطلح الذي يتطوّر على درجة عالية من التجريد وهو مصطلح الثقافة أو الأنماط الثقافية مما حدا به في النهاية الى الهروب من دراسة الجماعات المحلية التي تعتبر المجال التقليدي للدراسات الانثروبولوجية الى الدراسة المركزة والشاملة للوحدات الأسرية ، ويرى المؤلف هذا الاتجاه بأن الباحث السوسيولوجي والانثروبولوجي حينما يعني بالوصف المجرّد لطرق الحياة في الأنماط الثقافية المتمايزة فإنه يغفل قلب وروح الظاهرة التي يتوفّر على دراستها ، كما أن في دراسة ووصف الأنماط الثقافية الكلية أعمالا لا يمكن تجنبه لدى التنوع في مظاهر السلوك والعرف مما يؤدي بالتالي الى افتراض صياغة غير مفيدة لمظاهر الاختلاف بين الثقافات تميل الى إغفال مظاهر التماثل بين الجوانب الأساسية في الحياة الإنسانية ، هذا في حين أن البدء بدراسة الأسرة يمكن أن يؤدي بنسبة الى مستوى أعلى من التجريد فيما يتعلق بدراسة الثقافة مثلا ، وذلك من خلال الوصول الى بعض التعميمات حول مظاهر الاختلاف بين خصائص الحياة الأسرية في ثقافة معينة عنها في ثقافة أخرى مفارقة ومتمايزة .

ويعترض المؤلف لبيان إمكانيات التحليل التي يمكن أن تخضع لها المادة الانثروبوجرافية فيقول أنه من خلال تسجيل تاريخ حياة أشخاص الأسرة يمكن الخروج ببعض القضايا العامة حول خصائص الحياة الأسرية والثقافة والمجتمع الذي تنتمي اليه وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات التي تقوم بين أعضائها على أساس النوع كالعلاقات بين الإخوة والإخوات وبين الزوج والزوجة وبين الأب والأم من ناحية والابناء والأولاد والبنات من الناحية الأخرى وما

صلاهن بأقاربهن وأصهارهن وجيرانهن ، كما أن البقاء لم يترتب عليه احتلال المراكز الاجتماعية الدنيا في مثل ذلك المجتمع الذي تكثر فيه المشكلات السلوكية كالسرفة وامتهان المثلية الجنسية بحيث يحتل اللصوص مركزاً اجتماعياً أدنى من المركز الذي تحتله البنى أو يحتله أقاربها ، بل أن البنى قد تحتل مركزاً اجتماعياً أعلى من المركز الاجتماعي الذي تحتله المرأة المشتغلة بأعمال الخدمات الشخصية كما أن البقاء في ذلك المجتمع كان بمثابة عملية اقتصادية مرتبطة بالظروف المالية والاجتماعية بحيث يمكن التوقف عن الاشتغال بتلك المهنة والمودة إليها بناء على تغير تلك الظروف .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى بيان كيفية الاستفادة من تلك المعلومات في مستوى أعلى من التجريد وبخاصة فيما يتعلق بالثقافة في المجتمع الفقير ويخرج من ذلك بأنه على الرغم من اختلاف وجهة نظر الناس نحو الفقر والفقراء حيث نجد هناك من ينظر إلى الفقراء باعتبارهم أناساً طيبين يتسمون بالفضيلة ويتسمون بالكرم والطيبة والشعور بالرضا كما نجد أيضاً من ينظر إلى هؤلاء باعتبارهم في الغالب قوماً أشقياء يتسمون بالعنف والبخل وتنتشر بينهم الجريمة والانحرافات السلوكية ويرجع هذا الاختلاف في وجهة النظر إلى عدم التفرقة بين الفقر من ناحية والثقافة في المجتمع الفقير من الناحية الأخرى ، فالفقر باعتباره يرتبط بانخفاض مستوى الدخل أو قلة الوارد لا يرتبط دائماً بآفة سمات سلوكية أو أخلاقية ولكن الثقافة في المجتمع الفقير هي التي تسم بعض الخصائص العامة ، مثلاً فيما يتعلق بنمط الاتفاق ومدى عمق العلاقات الأسرية وطرق استغلال الوقت ، وهكذا ينتهي المؤلف من دراسة المقارنة للأسر الفقيرة في ثقافتين متمايزتين إلى أنواع التماثلات التي توجد بين الثقافات في تلك المجتمعات الفقيرة .

فالمجتمعات الفقيرة تعيش في عزلة اجتماعية وإقليمية من بقية الفئات السكانية الأخرى

إلى بعض الفهم لمصطلح الفقر كما يتداوله الناس في المجتمع وأن تعرف شيئاً عن طريقة توزيع الدخل على مصادر الاتفاق ولتعريف الناس للسلع الضرورية والكمالية والعلاقة بين مستويات الدخل وجهاز الثروة المادية ومصادر المشتريات ومدى قيام التبادل والتنقل بين المناطق السكنية المختلفة والمسافات التي قطعها الناس لشراء احتياجاتهم ، كما نستطيع أن نعرف شيئاً عن أوقات الأزمات الاقتصادية وارتباطها بمظاهر التعاون والتكافل الاجتماعي الذي يقوم بين الوحدات القرابية والجيران ومدى توزيع الثروة بين الأسر الفقيرة وارتباط المركز الاجتماعي بحيازة الممتلكات المادية ، وأخيراً فإن هذا كله يساعد على فهم العلاقة بين الثقافة المادية والبناء الاجتماعي الواقعي والمثالي في المجتمع .

والى جانب هذا كله يمكن الحصول على بعض المعلومات من ظاهرة اجتماعية معينة من الظواهر التي توجد في المجتمع موضوع الدراسة ، فحينما نعرض المؤلف مثلاً للدراسة ظاهرة البقاء حاول أن يتبين الدور الوظيفي الذي تلعبه هذه الظاهرة دون أن يبدأ بافتراض أن البقاء يشكل خروجاً على النظام الأخلاقي أو شذوذاً من النسق الاجتماعي السائد ، ولم تكن تلك الظاهرة تمثل هذا الوضع في المجتمع موضوع الدراسة التي دلت الدراسات الخلقية على مدى شيوع البقاء فيه بحيث لا يمكن النظر إلى البنى أو البقاء باعتباره أمراً شاذاً وذلك إلى الحد الذي يمكن معه القول بوجود نوع من القبول الاجتماعي لهذه الظاهرة فقد دلت الإحصاءات على أن ثلث عدد الأسر يشغل نساؤها بالبغاء أو زاولن المهنة كما افترض أن الأهالي ينظرون إلى البغاء باعتباره نشاطاً اقتصادياً لا يحاط بتلك التحريمات الدينية والاجتماعية التي تعزل البنى والأسرة التي تنتمي إليها عن المجتمع الذي تعيش فيه والبغايا في ذلك المجتمع قد يكنّ نساءً ، هن أخوات أو أمهات أو زوجات أو بنات لا يمارسن المهنة ولم يؤد الاشتغال بالبغاء إلى قطع

والتكامل الاجتماعى التى تقدمها الدولة فى صورة تأمينات أو مساعدات مئينة .

كذلك فقد أسفرت تلك الدراسة المقارنة عن القول بأن جيوب الفقر أو التخلف لا تظهر إلا فى مجتمعات وثقافات معينة يسود فيها الاقتصاد النقدى ونظام العمل بالاجر والإنتاج من أجل الفائدة واستمرار ظهور البطالة بين العمال غير المهرة ، وانخفاض الاجور والافتقار الى وجود التنظيمات السياسية والاقتصادية التى تربط الافراد بالسياسة العامة للتنمية فى الدولة مع اتاحة الفرصة لاستغلالهم من الخدمات الحديثة، فضلا عن وجود نظام قرايى لا يسمح بأعمال مبادئ التكافل الاجتماعى والاقتصادى بين امضاء الوحدة القرايية المتمايزة ، ووجود نظام طبقي يقوم على أسس اقتصادية دون اعطاء الأهمية لموامل الانتماء القرايى أو العرقى أو القبلى كحدود طبقية .

ومهما يكن من شئ ، فإنه بالإضافة الى القيمة العلمية لهذا الكتاب فهو يعطينا صورة نابضة بالحياة ، للحياة الاجتماعية فى مجتمع بورنوريكو بكل ما فيه من فقر ومرض وجنس ولدة ، وموقف الناس من هذا كله وتحديدهم لواقمهم المؤلم والظروف القاسية التى تحيط بهم والطرق والوسائل التى يتحملها الناس للتغلب على شقوة الحياة .

فى المجتمع الذى تنتمى اليه ، فهى تسكن فى مناطق خاصة ذات سمات عمرانية متخلفة ، مثلا فى ضيق شوارعها وافتقارها الى كثير من الشروط الصحية مع زيادة الكثافة السكانية فيها ، كذلك فثلك الجماعات لا تشارك كثيرا فى الأنشطة العامة مثل التنظيمات السياسية والنقابية ولا تستفيد كثيرا من برامج الخدمات الثقافية والصحية، كذلك تتميز تلك الجماعات بانخفاض الدخل السنوى لأفرادها ومحدد مدى ارتفاع أو انخفاض مستوى الدخل الفردى أمر نسبى محكوم بالظروف الاقتصادية العامة فى المجتمع ، فقد توزع أفراد العينة التى اعتمد عليها المؤلف على مستويات مختلفة تتراوح بين أقل من ٥٠٠ دولار الى أكثر من ٤٠٠٠ دولار للفرد الواحد سنويا ، فقد كان الدخل الفردى لـ ٢٢ ٪ منهم يقل عن ٥٠٠ دولار سنويا وتراوح دخل ١٥ ٪ منهم بين ٥٠٠ وأقل من ٩٩٩ دولارا سنويا وكان دخل ٣٢ ٪ منهم بين ٢٠٠٠ وأقل من ٣٩٩٩ دولارا سنويا بينما نجد ٤ ٪ منهم فقط يزيد دخلهم عن ٤٠٠٠ دولار سنويا للفرد الواحد، كذلك تتميز هذه الجماعات بانخفاض المستوى التعليمى والاستغلال بقطاعات مهنية معينة فى مجال الخدمات التى تستوجب الأيدى العاملة غير الماهرة وترتفع بينهم نسبة البطالة كما تستوجب الجريمة أو الانحرافات السلوكية بعضا من القوى العاملة فى تلك المناطق، وتعتمد تلك الجماعات كثيرا على برامج الرعاية



أزمة جنك

عرض وتحليل الدكتور مكي شبيب

كمال وجيشه من تنفيذ خطته باستكمال تحرير اراضيهِ من القوات الأجنبية . وعندما فشلت المساعي السلمية وتبادل المذكرات صممت بريطانيا على استخدام القوة ، وأُبرق إلى القائد البريطاني في استانبول بأن يفتح نيرانه على القوات التركية المرابطة امام تحصينات البريطانية في جنك ، في وقت حدد له بعد اندثار للترك بالانسحاب ، وجلست الوزارة البريطانية كأمم روتيني تنتظر بريقة من القائد بتسليمه للأمر أو لا لم بريقة أخرى أو بركات تنقل لهم ما حدث . أما استجابة للاندثار فالانسحاب ، وأما فتح النيران فالعرب ، ومضى الوقت المرتقب لتسلم البرقية الأولى والبرقيات الأخرى ولم تصلهم الأخبار .

وكانت حيرة وقلق . فهم على يقين أن مثل

مدينة صغيرة في الجانب الآسيوي على مضيق الدردنيل وتحكم في مدخله ، هي عنوان هذا الكتاب . والوقت الذي حدث فيه الأزمة هو سبتمبر ١٩١٢ ، فما هي تلك الأزمة ؟

كانت بريطانيا مع حليفاتها بعد هدنة الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) تحتل جيوشها الفلسطينية ومواقع استراتيجية أخرى في تركيا ، ومن ضمنها حامية بريطانية صغيرة في مدينة جنك ، واقتربت قوات مصطفى كمال بعد أن رمت بالجيش اليوناني بإزمير في البحر من المضائق وبمسحها المبور إلى الجانب الأوروبي من تركيا والوصول إلى الفلسطينية وما حولها من الأرض التركية ، وخلافا لطلباتها رأت بريطانيا الوقوف امام مصطفى

كتاب أزمة جنك المؤلف ديفيد وولدر ١٩٦٦ .

Waldek, Di The Chamsk Affair, Hutchinson, London 1969

الظافرين مع حكومة استانبول المقهورة الضعيفة بسلطانها ووزرائها لا يسعها الا الانصياع لما يعلى عليها . وهذا العامل الجديد الذي لم يكن في حساب الحلفاء او الحكومة التركية الرسمية هو جنرال تركي عصى اوامر حكومته، فعرض نفسه لمقبولة من لم ينفذ تعليمات رؤسائه بأشد مما عرض القائد البريطاني في استانبول نفسه للخطر بمصيان اوامر لندن بعد ذلك . . هذا الجنرال التركي هو مصطفى كمال .

والمؤلف في كتابه هذا يعالج موضوعات عدة ، فهو يؤرخ لحركة مصطفى كمال كما يراها الغرب وخاصة بريطانيا ، ويؤرخ ايضا للسياسة في اليونان ، والصراع فيها للوصول للسلطة واحلام الشعب اليوناني في استعادة مجده القديم واسترجاع مكانته التاريخية . ويرسم لنا صورا معبرة عن النظام البريطاني في برلمانه وصحافته واحزابه ، ويوضح لنا ظهور الخلاف بين دول متحالفة متضامنة في اثناء الحرب وخرجت منه ظافرة . وفوق ذلك فهو يقوم بدراسة تحليلية نقدية للشخصيات التي لعبت دورا في الاحداث ، فكل من لويد جورج وتشرشل وكيرزون وبيركنهد وبونارلو واوستن شامبرلين وبولدوين وغيرهم رسم لهم المؤلف صورا قلمية توضح مفتاح شخصية كل منهم واثرها في موقفه من القضايا المعروضة للبحث . ومن التمكن في تلك العصور يتضح لنا ان ما يسمى بالبرود الانجليزي وبعدم الخضوع للعواطف أسطورة لان العواطف والجول الشخصية كان لها دور كبير في المواقف والقرارات ، وفي اليونان يتناول قلمه مددا من الشخصيات السياسية والعسكرية اهمها فنزوليس ايرز رؤساء الوزارات والملك قسطنطين بل انه جعل شخصية فنزوليس العامل الاكبر في الازمة ، يتلوها شخصية لويد جورج ، ولذلك فقد كانت صورة فنزوليس القوتوغرافية في صدر الكتاب . ومن الجانب التركي تتناول شخصية مصطفى كمال واكبر قوادته غصمت النصيب الاولي .

هذه البرقيات الهامة في مثل هذا الامر الخطير لا بد ان تصل روتينيا وحسب تجاربهم مع قوادهم لا بد ان يصل اليهم الرد بالاستلام اولا ثم بالتتيجه ولم يجدوا تفسيراً لهذا الابطاء ، واخيراً نبين لهم ما لم يكن في حساباتهم وهو ان القائد عصى الاوامر وخاطر بمركزه ولم يبعث بالانذار للترك ، بل واصل جهوده السابقة للتفاوض والوصول الى حل سلمي ، ورعى بالامور جانباً ، وبذلك اتقد بلاده من حرب لا يمرر لها لا يؤيدها حلفاؤها فيها ولا بعض الوزراء في الحكومة البريطانية ولا اغلبيه الاحزاب المؤيدة للحكومة ، ولا حتى الراي العام البريطاني ، ولنا ان تتسامل بعد ذلك ونبحث من تفسير . .

يوضح لنا المؤلف ان هذه السياسة التي كادت ترمي ببريطانيا في ابون هذه الحرب بالرغم من تلك القوى المعارضة امر بالغ عليها شخصيتان في الوزارة : لويد جورج ورئيس الوزارة الائتلافية ونوستن تشرشل ووزير المستعمرات ، وكانت نتيجتهما عليهما ان سقطت الوزارة وخرج لويد جورج نهائياً من معترك السياسة وسقط تشرشل في الانتخابات التي تلت الازمة .

وكارضية وخلفية لهذه الازمة كان لا بد للمؤلف ان يبدأ بالتاريخ العثماني من اوله ، ودخول الترك في البلقان وشرق أوروبا ، ويتابع ادوار ما يسمى بالمسألة الشرقية وتحرر شعوب البلقان . وبعد ذلك يتابع الحوادث التي ادت الى الحرب العالمية الاولى ، وانضمام تركيا لجانب ألمانيا ، ثم التسويات وتقسيم اسلاب الدولة العثمانية المقهورة ، ومن ضمن الازمة اليونان الذين انضموا لجانب الحلفاء العرب . وقد احتلت قوات الحلفاء استانبول ومواقع اخرى ، وقادت اليونان جيشاً ضخماً احتلت به مدينة ازمير ، وبدأت عمليات توسعية داخل الاناضول ، وكادت تتم خطة التقسيم والاحتلال للأراضي التركية لولا ان ظهر عامل جديد لم يكن في الحسبان ، فقد كانت معاملة

باشا ، وتتعاطف الدول الأوروبية مع اليونان وتجندها خاصة بالأساطيل التي تنتهي بتحلّم أسطول محمد علي الذي بلل فيه من الجهد والمال الكثير ، وتوات حروب تحرير الشعوب البلقانية ، وفي أثناء ذلك كان الصراع بين الدول على رجل أوروبا المريض (تركيا) مستمرا يشتد أحيانا ويضعف حيناً آخر لتتشأ أزمة جديدة ، وكانت الخطوط البارزة الواضحة في الصورة هي الصراع بين بريطانيا وروسيا حول المضايق التي تربط ما بين مياه البحر الأسود ومياه البحر الأبيض المتوسط ، وروسيا تود تحقيق مطالبها التاريخية في الوصول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط الدافئة ، وبريطانيا لا تود أن ترى دولة قوية تعترض طريقها الإمبراطورية إلى الشرق ، وتابع المؤلف تطور الحوادث الداخلية في تركيا التي أدت إلى إبعاد السلطان عبد الحميد واستيلاء لجنة الاتحاد والترقي على السلطة مع امتداد النفوذ الألماني حتى وقفنا على أبواب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

يتابع المؤلف تطورات الحرب العالمية منذ بدايتها بما لا يخرج من المعروف عنها وعالجته كل الدراسات التي قام بها المختصون ، ولكنه يفصل بعض الشيء تطورات الحوادث التي جمعت النفوذ الألماني بمدى تدريجيا حسب خطة مرسومة إلى الدولة العثمانية وبلغ أوجه منذ قيام حكومة لجنة الاتحاد والترقي تحت سيطرة أنور باشا أكبر التمهين للحلف مع ألمانيا حيث كان على يقين أن النصر والمستقبل لها ، وعليه فالارتباط معها يعود على الدولة العثمانية بمقام مكاسب ، ومن الناحية الأخرى كان فنزوليس رئيس وزراء اليونان آنذاك يعتقد أن المستقبل والنصر في جانب دول الحلف الذي يضم إنجلترا وفرنسا وروسيا . وعليه فالارتباط معهم يعود على بلاده بمكاسب ومقام على حساب شعوب البلقان الأخرى وتركيا ، ولكن هناك فرق بين الحالتين ، ففي تركيا تسيطر لجنة الاتحاد والترقي سيطرة تامة وخاصة أبرز أعضائها أنور باشا على مقدرات

والمؤلف بلغ درجة الكمال من حيث المصادر والمراجع، فمراجعته الرئيسية، الوثائق الرسمية ومن ضمنها مضابط جلسات مجلس الوزراء ، والوثائق الخاصة ببعض الشخصيات الرئيسية، وأقوال ومذكرات بعض الضباط ، بل إنه تحدث إلى عدد من العسكريين ممن اشتركوا في الأحداث مستفسرا ومستوضحا بعض النقاط . واطلع على كل الصحف التي نقلت خبرا أو أبدت رأيا ، كل هذا زيادة على قائمة كبيرة من الكتب التي تناولت الموضوع أو بعض أجزاء منه . وأهم هذه الكتب هي التي تناولت تاريخ حياة السياسيين والعسكريين الذين كانت لهم علاقة ما بتطور الأحداث أو رسم السياسة . ودرجة الكمال التي ذكرتها في أول الفقرة من حيث المراجع والمصادر تنطبق على الجانب البريطاني ، أما فيما يخص بجانب الخلفاء الآخرين وبجانب تركيا واليونان فالمرجع هي ما حفظ في الوثائق والمرجع البريطانية ، وما استخلصه المؤلف من تاريخ حياة الأفراد في الكتب ، ولكنه لم يتمكن من دراسة وثائق تلك الدول الأخرى ، ويعد توضيح الأزمة وملخص تاريخها ومرجع ومصادر المؤلف لم يبق لنا إلا أن نتابع فصوله ونتبين تطور الأزمة ومرآحها .

يستعرض المؤلف تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها مع أوروبا وما اصطلى عليه في الدوائر الدبلوماسية الأوروبية بالمسألة الشرقية . ويتابع الصراع الدولي في القرن التاسع عشر من حرب القرم إلى مؤتمر برلين ، وتظهر الأسماء التي كان لها موقف في هذا الصراع أمثال بيسمارك وجلاستون وذراليلي وغيرهم ويرسم لنا المؤلف صورة من حرب التحرير التي أشعلتها شعوب البلقان ضد السيادة التركية وخاصة الشعب اليوناني ، وهنا يتابع الحوادث ببعض التفاصيل ، فالسلطان العثماني يطلب نجدة واليه على مصر محمد علي باشا ، ويخشد محمد علي إمكاناته العسكرية من جند مدربين على النظام الحديث ومن أساطيل وقوده ابنه إبراهيم

الصلح بعد ذلك ، ومما يدل على أن اصدار مثل هذه القرارات تحت ظروف الحرب لا يتم بعد دراسة دقيقة والاستفادة بالتجارب ، أن سير ادوارد جبراي نفسه في سنة ١٩١٨ اعترف بخطأ تلك السياسة ، فقد قال انه كان يأمل أن تتحد كل شعوب البلقان ضد تركيا ، وهو يعلم من تجاربه في الحرب البلقانية التي سبقت الحرب العالمية أن هذا الأمل يستحيل تحقيقه ، غير أنه مر وقت طويل بعد هذا العرض البريطاني قبل أن تدخل اليونان الحرب فعلا ، ومرت تطورات داخلية فيها صراع مسلح بين فنزويلس والملك قسطنطين ، ودبر فنزويلس من موطنه في جزيرة كريت بعد أن استقال وهرب من أليتا جيشا ، وساندته إنجلترا وفرنسا بأن أنزلوا جيوشهم في اليونان ، وتم بالتعاون مع فنزويلس انقلاب غادر بعده الملك قسطنطين البلاد ونصب ابنه جورج ملكا ، وبذلك استعاد فنزويلس سيطرته ، وتم اتحاد اليونان مع دول الحلف في هذا الصراع . غير أن ذلك تم بمعونة خارجية وبعد أن أحدث تصدعا في الجبهة الداخلية .

في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ وعلى ظهر الباخرة البريطانية (افاممنون) تم توقيع شروط الهدنة مع تركيا ، وبدأت فرق من جيوش بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تحتل مواقعها في العاصمة استانبول والمضائق ولم تشارك الجيوش اليونانية إلا في حراسة سفاراتها وقنصليتها ، بالرغم من أن روسيا القيصرية التي كانت تعترض على وجود جيش يوناني في المضائق قد زالت . وبخروج روسيا البلشفية من الحرب ونشر الاتفاقيات السرية ورفضها ، لم تنفذ كل الاتفاقيات التي كانت روسيا القيصرية جانبيا فيها ، وتم هذا الاحتلال في هدوء تام والحكومة التركية التي قامت بعد انهيار سلطة لجنة الاتحاد والترقي وفراق رجالها كانت متعاونة مع المنتصرين ، والانطباعات التي دونها الذين شاهدوا تركيا في تلك الفترة تدل على اطمئنانهم من ناحية الأمن والاستقرار في تركيا ، بل أن تشرشل

الأمر وسير دفة السياسة ، أما في اليونان فالملك قسطنطين له موقف يخالف فيه رئيس وزرائه ، وهو الحياد في هذا الصراع الدولي . وما كانت دول الحلف لترضى هذا الموقف بل تريد موقفا راضحا بجانبها ضد ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر ، وفنزويلس من جانبته يتهافت على الانحياز لجانبهم ، وبزril كل العقبات التي تقف أمامه حتى ولو كان الملك نفسه ، ولتقوية مركز فنزويلس في هذا الصراع بينه وبين ملك البلاد لا بد أن يقدم مرضا أو بالأحرى رشوة له يستطيع أن يلوح بها للرأي العام اليوناني ليظهر لهم المكسب الواضح من انحيازهم الى جانب دول الحلف .

ومن بين دول الحلف قدمت بريطانيا الاقتراح ، ونال موافقة حليفاتها فرنسا وروسيا ، فما هو هذا الاقتراح ، أو من قبيل تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية هذه الرشوة ؟

في ١٠ يناير ١٩١٥ منح سير ادوارد جبراي وزير خارجية بريطانيا حكومة اليونان امتيازات اقليمية هامة على ساحل آسيا الصغرى تضم ازمير وما حولها ، وهنا يقف المؤلف ليلاحظ انه لا دليل يقودنا الى أن السير ادوارد جبراي أو أعضاء وزارة الحرب الآخرين كانوا يعلمون ما يتضمنه هذا القرار . والسير ادوارد جبراي خاصة يجهل تمام الجهل الشؤون العسكرية ، ويبدو أنه لم تكن هناك استشارات لفخراء عسكريين حتى تستبين لهم الصورة التي تستطيع بها اليونان الاستيلاء على المنطقة والاحتفاظ بها ، ولم يدخلوا في حسابهم احتمالات رد الفعل التركي على هذا الفوز . وهذا العرض البريطاني كان البكرة التي أثبتت الحرب اليونانية - التركية فيما بعد وبالتالي الأزمة التي أصبحت عنوانا لهذا الكتاب . ويستطرد المؤلف ليقول أنه في اوقات مختلفة قدمت مثل هذه الرشاوى الى بلغاريا ورومانيا وإيطاليا ، وقد كان بعضها يناقض البعض الآخر ، مما أدخل بعض التعقيدات في مؤتمر

الخطيرة أو تأييدهم وانحيازهم الى جانب دون الآخر، فمنذ اللحظات الأولى التي بدأ فنزوليس اتصالاته بدول الطغف وجاهد الى ان جعل اليونان تنحاز اليهم كان محل اجلال وتقدير وأعجاب لويد جورج ، ومن الناحية الأخرى ورث كراهيته للترك من أحد أسلافه الكبار في الحزب ، وهو المستر جلاستون ، وهذا امر واضح له ما يبرره بل عضده ضد خصومه ومعارضيه في اليونان نفسها ، ففي نظره صداقة فنزوليس هي صداقة الشعب اليوناني ووطنية اليونان تتجسم في شخص فنزوليس، فالملوك والجنرالات ورجال السياسة الذين يعارضون فنزوليس هم أعداء له وأعداء لبريطانيا .

تمت ظروف هذه الصداقة بين شخصيتي لويد جورج وفنزوليس عرضت مطالب اليونان الاقليمية خلال استراحة الكبار من بحث تفاصيل الشروط مع المانيا ، حيث انقطعوا جزءا من وقتهم لبحث هذه المطالب الاقليمية في تركيا، ولم يحضر الاجتماع أي خبير عسكري ولم يحضره أولاد مثل ايطاليا ، وكان معروفا بمعارضته لاقتطاع أي جزء من الأناضول وخاصة بعض المناطق المحيطة بآزمير لليونان ، والشخص الوحيد غير لويد جورج وولسون وكليمنصو وهارولد نكلسن عضو اللجنة البريطانية المختصة باليونان الذي وصف الشهد الأخير في خطاب كتبه لزوجته في يوم ١٤ مايو ١٩١٩ « عندما دخلت عليهم وجلت ولسون وكليمنصو جالس على كراسي مريحة وأمامهما على البساط خارطتان ، وبقيت هناك نحو نصف ساعة اتحدث وأعرض ، وكان الرئيس ولسون لطيفا كما كان لويد جورج أيضا ، ولكن كليمنصو كان مشاكسا ، وكان شيئا مريئا أن يقوم رجال كهؤلاء عن جهل وعدم مسؤولية بتقسيم آسيا الصغرى ، كأنهم يقسمون قابلا من الكيك » وبذلك نال فنزوليس القطة التي أرادها بتبريك من لويد جورج ، لأنه لا يريد لصديق بريطانيا أن يرجع من مؤتمر الصلح خاوي الوفاض .

دون في مذكراته ان الترك سرهم كثيرا ان يكون على رأس المحتلين بريطانيا ، وعليه فلم تكن تركيا ومشاكلها تثير اهتمام الذين جلسوا على مائدة مفاوضات الصلح في بريس بل شغلوا بما هو اهم من تركيا .

من تقاليد الحكم البريطاني ان الحزبية الضيقة تختفي في فترة الحروب غالبا وتتألف حكومات ائتلافية لإدارة دفة الأمور خلال الحرب ، وهذا ما حدث بالفعل عند اندلاع الحرب الأوروبية في سنة ١٩١٤ ومع ذلك قد تحدث تغييرات غير جذرية مثل استبدال رئيس وزراء باخر ، أو تعديل في الوزارات . وما حدث في أثناء الحرب أن لويد جورج حل محل مستر أسكويت رئيسا للوزراء في ديسمبر ١٩١٦ وكلاهما من حزب الأحرار ، ولذلك انقسم الحزب الى مؤيدين لرئيس الوزراء الجديد ومؤيدين لرئيس الوزراء السابق . وفي ديسمبر سنة ١٩١٨ واستعدادا لحل مشاكل مؤتمر الصلح رأى لويد جورج استشارة الأمة في انتخابات عامة جديدة . ولكنها على أساس الائتلاف لا على أساس الحرية العادية، وطلب من الناخبين إعطاء أصواتهم للحكومة الائتلافية أو للمعارضة ، وتسلم كل مرشح للحكومة خطابا موقعا من لويد جورج وبونارلو رئيس حزب المحافظين والذي سماه خصهما مستر أسكويت (الكيون) . وثالث الحكومة أغلبية ساحقة في مجلس العموم ، ولكن أغليبتها العظمى من المحافظين ، وظهرت هذه الصورة النادرة في النظام الإنجليزي ، رئيس فريق من حزب الأحرار وهو لويد جورج يصبح رئيس وزراء يعتمد على المحافظين ، والنتيجة هي انها سياسة عملية على المدى القريب ولكن تحمّل في طياتها ضعفا واضحا في مركز لويد جورج على المدى البعيد . هذا هو موقف لويد جورج في تلك الفترة الخطيرة من حيث تسويات الصلح واتخاذ قرارات يكون لها اثرها على العالم الجديد .

وهنا يوضح لنا المؤلف دور الميول الشخصية واثرها على السياسيين عند اصدار قراراتهم

منذ يوم ١٦ مارس ١٩٢٠ أصبحت العاصمة التركية تدار بواسطة قوات الاحتلال البريطانية والفرنسية والإيطالية ، وبذلك أسقطت حكومة استانبول من الحساب ، وأصبحت هناك ثلاث قوى في الأرض التركية ، قوة المقاومة الوطنية تحت زعامة مصطفى كمال في للال وسهول الأناضول ، وقوة الجيش اليوناني في أزمير وبعض مناطق الأناضول ، وقوات الاحتلال في استانبول والمضائق وما بقي لتركيا في الجانب الأوربي ، ولترك واليونان قوات مسلحة في حرب ستستمر إلى أن ينتصر فريق على الآخر .

وعلى الحالة هذه أن نبين مدى موقف كل قوة من هذه القوى حسب تحليل المؤلف . .

نجح مصطفى كمال في تعبئة الجيش والشعب حول الميثاق الوطني ، وسيكون لهذا أثره في عملياته العسكرية ضد الغزاة ، وأيدته حكومة روسيا البلشفية ، وكانت طريق امداده بمعدات الحرب ودبلوماسيا أول حكومة اُتُرفت به ، وفي اليونان مات الملك الاسكندر من عضه قرد مسعور وخلا العرش ، وكان لا بد من اجراء انتخابات عامة لمعرفة اتجاه الراي العام اليوناني ، ودارت الانتخابات بين قائمة الملكيين التي ترى رجوع الملك قسطنطين الى اليونان وبين فنزوليس ومؤيديه ، وكانت النتيجة مذهشة للجميع ، فقد فازت قائمة الملكيين بأغلبية ساحقة ، وفقد فنزوليس وبعض كبار مؤيديه مقاعدهم . ونتيجة لذلك غادر فنزوليس اليونان ورجع قسطنطين وقوبل بمقابلة الأبطال ، وزالت الدهشة عندما ظهر تفسير هذا التغيير ، ففنزوليس بالرغم من وطنيته ونضاله إلى الحكم بمدافع وبنادق الحلفاء ، وقسطنطين غادر البلاد تحت ضغط هذه الأسلحة الأجنبية ، وأجرى العهد الجديد في اليونان تطهيرا في

وفي يوم ١٥ مايو ١٩١٩ وتحت حماية مدافع الأسطول اليوناني ومدافع أساطيل الطفء نزلت ثلاث فرق من الجيش اليوناني في مدينة أزمير التركية ، ويصف المؤلف هنا ما ارتكب من فظائع وقتل وأهانات للترك ، وانتشرت أنباء هذه المأساة في جميع أنحاء الأناضول ، وانزل السلطان اللامع خزيرة عندما سمع بها ولكنه سجن في قصره لا حول ولا قوة له ، وثارت دماء الترك لما لقوه من شعب ظل تحت حكمهم القرون . ولاحظ البريطانيون التغيير الذي طرأ على موقف الشعب التركي ، فبعد أن كانوا مسالمين متعاونين عموما وتجمع الأسلحة منهم بكل سهولة قبل احتلال أزمير وعرض جنودهم للاقتداءات وتوقف تدفق الأسلحة . ظهر الدافع للمقاومة ولم يبق الا ظهور الرميح الذي يقودهم .

عين مصطفى كمال في أبريل ١٩١٩ مفتشا عاما للأقاليم التي تقع على ساحل البحر الأسود الجنوبي في الأناضول لاقرار النظام ، وكان هناك عندما نزل الجيش اليوناني في أزمير ، وفي الحال بدأ ومعه بعض الزملاء في تجميع قلوب الجيش التركي ليكون نواة للمقاومة ، وجعلها مسألة قومية يلتف حولها الشعب ، فزيادة على تقوية الجيش رأى تعبئة الشعب ومقد الاجتماعات ووسع الميثاق القومي ، وفوجئ الجميع بهذه الحركة حتى حكومة استانبول المجردة من النفوذ ، ومع ذلك رأى المراقبون أن احتمال نجاحها ضئيل ، خاصة أن الجيش اليوناني وسع عملياته العسكرية من قاعدته في أزمير واحتل برصا التي تقع قريبا من بحر مرمرة قبالة استانبول ، ورات بريطانيا أن تقيم في تركيا حكومة برلمانية باجراء انتخابات عامة ، ولكن المجلس الذي اجتمع نتيجة تلك الانتخابات اتخذ ميثاق مصطفى كمال الوطني دستوراً له ، وعليه

(مايو ١٩١٩) وهنا يصف المؤلف رد الفصل في بريطانيا ، حيث قال ان نزول الجيش اليوناني في أزمير قبل ثلاث سنوات لم تبرزه الصحافة البريطانية بمنابر كبيرة ، غير انها هذه المرة ظهرت فيها المناورين المفتحة للانتظار ، ووصفت هزيمة الجيش اليوناني وجلاء الجالية اليونانية من أزمير وحرارتها ، وصاحب هذا نقد مركز ودقيق من صحيفة الدبلي ميل لمستر لويد جورج ، ونشر في الدبلي ميل يوم ١٥ سبتمبر ١٩٢٢ حديث لمصطفى كمال أفندي به المستر دورو برايس الذي شاهد الفصل الأخير وقابل الغازي المظفر ، وقد وضع كمال مطالبه بوضوح حيث قال : « ليس لنا ما نقاتل من أجله بعد اليوم ، فحود تركيا لا تضم سوريا والعراق ولكنها تشمل كل الأراضي التي يقطنها العنصر التركي ، فمطالبا قبل انتصارنا الأخير وبعده واحدة لم يطرأ عليها أي تعديل ، فنحن نطالب بآسيا الصغرى وترافيا إلى نهر ماريتزا واستانبول ، ونحن على استعداد لنسمح بحرية المرور في الدردنيل ونلتزم بأن لا تقيم عليه تحصينات ، ومن العدل والإنصاف ان تسمح لنا الدول باقامة الحصون على بحير مرمرة لحماية استانبول من أي هجوم مفاجيء »
وعندما سأله برايس : ماذا يكون موقفه لو رفض الطفاة مطلبه في استانبول ؟ أجاب قائلا : « نحن نصر على عاصمتنا ، ففي هذه الحالة ساجد نفسى مضطرا للرحف على استانبول بجيشي وستكون مسألة أيام معدودة ، ولكنني أفضل تسليما عن طريق المفاوضات ، مع العلم بأنه من الطبيعي الا اظل في انتظار هذه المفاوضات الى أمر طويل .. » وفي مكان آخر من صحيفة الدبلي ميل التي نشرت هذا الحديث ظهر خبر يقول ان الأحياء التركية في العاصمة استانبول امتلأت بالأعلام التركية احتفالا بالنصر العظيم ، وفي أيتنا استقبلت الوزارة ونفيت إشاعة مغادرة الملك قسطنطين

الخدمة المدنية والجيش ، وحدثت ترقيات في الجيش لم تراعى فيها الأقدمية والتجارب ، ومع ذلك لم يشمل التطهير كل ضابط فنزوليس ، وهذا الخلاف أظهر اثره في قوة الجيش المعنوية ، مما ادى في النهاية الى هزيمته ، ولم تكن ايطاليا معادية للترك ، بل انها ضد اليونان ، وكانت فرنسا تميل الى الجانب التركي ، وبقيت بريطانيا وحدها في الميدان في وضع غريب .. فهي لم تخفف من عدائها لتركيا ، لكنها قبضت يدها عن اليونان بعد هزيمة ورحيل صديقتها فنزوليس .. فبريطانيا لا تود ان تجد نفسها في موقف تترف فيه بمصطفى كمال وتسليمه المضايق واستانبول وليس لها اسل كبير في ان يوقف الجيش اليوناني زحف الترك ، ومعنى ذلك انها سوف تجد نفسها في مواجهة مصطفى كمال وحدها دون حلفائها ، وبالرغم من انها كانت تتحمل العبء الأكبر عسكريا في حراسة استانبول والمضايق فلا بد من تعزيز قواتها هناك بامدادات اخرى ، كل هذا زيادة على اعبائها في المستعمرات ومناطق الحماية والانتداب ، فهل يتحمل الشعب البريطاني هذه الأعباء بعد تفجيته الجسيمة خلال الحرب ؟ الإجابة من الشعب ومن أغلبية النواب وحتى من كثير من الوزراء .. كانت : لا !

استمر القتال بين الوطنيين الترك دافعا عن ترابهم وبين الغزاة اليونان وكل يوم يمر يزداد الجيش اليوناني ضعفا ويزداد الترك قوة ، وفي حالة يأس طلب اليونان من الحلفاء السماح لهم باحتلال استانبول وكان الرفض أمرا بديهيا ..

ودون سرد للتفاصيل العسكرية ، نصل الى سبتمبر ١٩٢٢ حيث دخل الترك مدينة أزمير ، وشامت فيها حالة من الفوضى والتخريب والقتل مثلما حدث قبل ثلاث سنوات

مصطفى كمال فيها يؤدي بكل مكاسب الحرب وتضحياتها ، وسيكون لهذا رد فعل عنيف في العالم الإسلامي بل وفي كل الشعوب المتهورة في الحرب . وجاهر لورد كيرزون بأن هذا البيان لم يحالفه التوفيق وقابله الرأي العام البريطاني بشعور دنو حرب أخرى ، واستمر كيرزون في مسامحه مع فرنسا وإيطاليا ، وعقدت جلسات عدة في باريس مع بوانكاريه والكونت سفورزا ممثلاً لإيطاليا .

واحتدم النقاش مرة حيث صاح بوانكاريه في زميله البريطاني مما أثاره للدرجة التي غادر فيها قاعة الاجتماع ، وحينما خرج سفورزا شاهد اللورد كيرزون والدومع تتساقط من مينيته ، وسويت المسألة واعتلر بوانكاريه وتم التفاهم على إرسال مذكرة وقّع عليها الثلاثة إلى مصطفى كمال في أنقرة ، وفحواها ضرورة عقد مؤتمر لمهاددة صلح بين الحلفاء واليونان وتركيا . . . وسندى دول أخرى لهذا المؤتمر . وفي المذكرة شروط وتحفظات بعضها غامض ، وطلبوا منه أن يرسل مندوباً منه في الحال ، وأن لا تتحرك جيوشه من مواقعها في أثناء المؤتمر ، وفي الوقت الذي أرسلت فيه المذكرة ترأس تشرشل اجتماعاً يمثل القوات البريطانية المسلحة لبحث الاستعدادات للحرب، وفي نفس اليوم الذي أرسلت فيه المذكرة دخل جنود سلاح الفرسان التركي المنطقة المحايدة أمام جنك ، واقتربوا من التحصينات البريطانية ، ومما أثار حيرة القائد البريطاني هناك دخولهم في حالة لا تدل على أنهم ينوون الحرب بل كما يتريضون في معسكرهم .

لم يرد مصطفى كمال على مذكرة الحلفاء ، واحتشدت قوات أخرى تركية على بحر مرمرة ، وليس هناك من شخص يقدر خطورة الموقف سوى الجنرال هارنجتون القائد البريطاني في استانبول فالتهمزات لم تصل إليه كما يريد ، والقوة التي تحت تصرفه لا تكفي لنصد هجوم تركي، والمحافظة على الأمن والنظام في العاصمة . والحامية الصغيرة في جنك لا تقوى على الاحتفاظ

لها ، ويوضح لنا المؤلف أن مجموعة الكبار التي قررت الصلح كانت كلها خارج الحكم في بلادها ، وفنزوليس مسدق بريطانيا ولويد جورج في المنفى خسارح اليونان ، وحتى في بريطانيا أصبح مركز لويد جورج ضعيفاً ، حيث عارضه بعض أعضاء وزارته واعتماده البرلماني على حزب المحافظين ، والرأي العام البريطاني ممثلاً في صحافته ومنظمائه غالبية ضده ، ومع ذلك ظل متمسكاً برأيه يسانده وتستن تشرشل وآخرون .

وكان قرار الوزارة البريطانية منع الجيش التركي من العبور إلى الجانب الأوروي . . . لذلك كان لابد من تحصين مدينة جنك وتعزيز حاميته ، وكانت هناك جيوش حليفة في البر الآسيوي على بحر مرمرة في مواجهة العاصمة ، غير أن جنود إيطاليا وفرنسا بأمر من حكومتيهما دخلوا إلى العاصمة ، وبذلك لم يبق في البر الآسيوي غير الحامية البريطانية في جنك في البر مواجهة أي هجوم محتمل من الجيش التركي ، والآن وبعد رحيل جيوش إيطاليا وفرنسا سيزداد القوة التركية التي تواجه الخطوط البريطانية ، وهنا يأتي دور لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية ومحاولاته لإشراك حلفائه في حل الأزمة وخاصة فرنسا ، ولهذا الغرض قام برحلة ومعه خبرائه إلى باريس للتفاوض مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاريه الذي خلف كليمنصو ، وفي الوقت الذي كان فيه كيرزون يفافض في باريس صاغ تشرشل بركات موجبة إلى دول الكومنولث البريطاني ووقع عليها لويد جورج طالباً منها إرسال امدادات عسكرية للشرق الأدنى، ونشرت صورة هذه البرقيات في الصحف، ولم تستجب للنداء إلا نيوزيلندا .

وفي الوقت نفسه قدم بيان للصحف البريطانية وجهه رئيس الوزراء للرأي العام البريطاني وهذا من صياغة تشرشل أيضاً ، وقد حشد فيه كل بيانه وعباراته المثيرة ، فخرج الحلفاء من استانبول ودخل

في أول المقال، لأن اتصاله لعقد مؤتمر في مودينا في البر الآسيوي قاربت مراحلها الأخيرة .

وعقد الاجتماع فعلا ، وبعث مصطفى كمال بـمعاونيه الأول عصمت باشا بطل موقعة ابنوؤ ، ولم يكن التفاهم سهلا ، فالجنود الترك ما زالوا في تجمهم واتخاذ مواقفهم ، والمفاوض التركي ما زال متمسكا بمطالبه كاملة ، وتردد هارنجنون بين مكان الاجتماع والعاصمة والبرقيات بين لندن وأستانبول متصلة ليل نهار ، وأخيرا وهو راجع من أستانبول لودينا فاقتدا أي أمل في الوصول إلى اتفاق بدأ وهو في الباخرة كتابة خطاباته الهائي وبعدده بنقض الاجتماع ، وخرج من الباخرة ولم يكمل الخطاب ، ويشر بأن الاتفاق قد يتم ، وفي غرفة الاجتماع تسلم برقيتين تأمره الأولى بتحديد موعد بعده يفتح التيران وتؤكد الثانية هذا الأمر .

وضع هارنجنون البرقيتين في جيبه وإبتدا الاجتماع ، وهذا هو المشهد الأخير حسبما دونه : « وافقنا على تحويل المسألة الأولى والثانية لاتصالهما بالسياسة إلى لوزان ، وبحثت المسائلين التاليتين ، ولا اعتقد انهما من الأهمية يمكن ، والمسألة التالية هي المنطقة المحيطة بجنك وقد طالبت بها ، أجاب عصمت بأنه لا يوافق ، وهنا توقفت المسألة ، لأن كل فريق تمسك برأيه . قلت ان تعليمات حكومتي هي ضرورة السيطرة على هذه المنطقة وما زال المنظر مائلا أمامي الآن . تلك الفترة الكريمة ومصباح الكروسيين ومنظر رئيس أركان حرب عصمت الذي لم يرفع نظره مني . . . وكنت أتمشى من طرف الغرفة إلى الطرف الآخر قائلا : يجب ان اسيطر على تلك المنطقة ولا أرضى بغيرها . . . وكان عصمت يتمشى في الجانب الآخر من الغرفة قائلا : لا أوافق وفجأة قال أوافق . . . وكانت مفاجأة مدهشة لم أصادف مثيلا لها في حياتي . »

وما عقب ذلك أشياء تفصيلية ، ولكن الأزمة

بواقعها ، ولذلك فقد اقترح في برقية لرئيس أركان حرب الامبراطورية تسليم أستانبول ومارنرتزا في الحال لكمال وحشد الأسطول والجيش في غالبولي ، وفي هذا الوقت قامت ثورة يقودها ضباط من الجيش في اليونان اضطرت الملك قسطنطين لمغادرة البلاد واعتلى العرش ابنه جورج ، وذهب فنزويلس من منفاه في باريس إلى لندن رسولا من التوار . . ولكن ماذا سيكون أثر فنزويلس الآن وجيشه مقهور وصديقه لويد جورج نفسه ينحدر إلى مصيره المحتوم ؟ وواصل كيرزون محاولاته مع فرنسا وإيطاليا ، ولم يستطع الوصول إلى نتيجة يرغم بها الحلفاء مصطفى كمال على ارسال مندوبه للمؤتمر المزمع عقده .

ومن هنا يخلع هارنجنون رداء العسكرية ويلبس سترة السياسي والدبلوماسي وعن طريق حاكم أستانبول التركي يحاول الاتصال بمصطفى كمال للمفاوض معه والوصول إلى حلول سلمية . وأجبرته الظروف على سلوك هذا الطريق لأنه كان أدري الجميع بما تجره ويلات حرب بين قوتين غير متكافئتين . وقد قام بما يجب عليه من التدارات لحكومته ، غير ان الحكومة البريطانية لم ترض من اجتماع بين كمال وهارنجنون ، وأبرقت بهذا القرار لمندوبيها السامي في أستانبول ، لأن هذا يناقض مذكرة الحلفاء ، وباستشارة رؤساء القوات المسلحة علمت الوزارة ان بريطانيا ستخوض الحرب بمفردها ، وأن هارنجنون يجري اتصالات مع مصطفى كمال ، وهزيمة الجيش اليوناني ما زالت أمام أذهانهم ، ومع ذلك كله كانت نوعة الحرب ضد تركيا دفعا من جنك هي السائدة في الوزارة ، ولويد جورج يعلم ان سمعته في هبوط مستمر ، وأن زملاءه في الوزارة يستمدون للتخلي عنه ، ومع ذلك بعثت الوزارة إلى هارنجنون بأن ينلر الترك بالانسحاب من أمام جنك ، وإذا لم يستجيبوا في وقت مجدّد تفتح التيران عليهم ، ومعناه اعلان الحرب ، وخالف القائد الأوامر كما قلنا

مرت بسلام، وانتقلت بريطانيا من خوض حرب لا مبرر لها .

وبانفراج الأزمة بدأت التطورات الداخلية نتيجة لها - خرج المستر بونارلو من عزلته ، وكان رئيسا لحزب المحافظين ، ولكنه تولى عن الرئاسة بسبب مرضه ، وانضم اليه المستر بولدوين واللورد كيرزون ، وعقدت الاجتماعات الحزبية ، وناقشوا سياسة الحكومة الائتلافية وموقف المستر لويد جورج، وتم الاتفاق على خوض انتخابات برلمانية على الأساس الحزبي التقليدي ، وفاز المحافظون بأغلبية مكنتهم من تأليف حكومة حزبية برئاسة المستر بونارلو وسقط ونستن تشرشل في

دائرته الانتخابية ، لأنه كان أكبر المؤيدين لمستر لويد جورج في موقفه من أزمة جنك ، ولم يحطم مستر لويد جورج نفسه فحسب بل حطم ما تبقى من حزب الأحرار .

والكتاب دراسة تحليلية لمسألة فيها صراع بين القوميات والدول والأحزاب في تلك الدول، ويفترض المؤلف في القارئ أن يكون على معرفة بالتاريخ وخاصة بتاريخ الدولة العثمانية والتحالفات التي سبقت الحرب العالمية الأولى وتطورات الحرب وما أعقب الهدنة من تسويات، وللقارئ أيضا أن يكون ملما بتقاليد وعرف النظام الإنجليزي في الحكم .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت لإدارة المكتبة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الإصدار القادم

Blackwell, R.J. ; *Discovers in the Physical Sciences*, University of Notre Dane Press, London 1959.

Butler, S.T. and Messel, H. (eds) ; *Man in Inner and Outer Space*, Pergamon Press, London 1969.

Cohr, R.S. and Seeger R.S. ; (eds), *Ernst Mach: Physicist and Philosopher*, Reidel, Dordrecht 1970.

Dronamraju, K.R.; (ed) : *Haldane and Modern Biology*, John Hapkins, Baltimore 1968.

Goffman, E. ; *The Presentation of self in Everyday Life*, Allen Lane, London 1969.

Goldstone, R. ; *Contexts of the Drama*, McGraw-Hill, N. Y. 1968

Gottlieb, G. ; *The Logic of Choice*, George Allen & Unwin, London 1968.

Kain, J. F. (Ed); *Race and Poverty*, Spectrum Books, Prentice-Hall, N. J. 1969.

Knight, R. C. *Racine: Modern Judgments*, Macmillan London, 1969.

Kruse, H.D. ; *Nutrition; Its Meaning, Scope and Significance*, Charles C. Thomas, Illinois 1969.

Lincoln, J.A. ; *The Restrictive Society*, George Allen & Unwin, London 1967.

Madariaga, S. de ; *Portrait of a Man Standing*, George Allen & Unwin, London 1968.

Mehden, F.R. von der; *Politics of the Developing Nations*, Prentice-Hall, N. J. 1969.

Nakayama, S.; *A History of Japanese Astronomy*, Harward U.P., Cambridge Mass. 1969.

Nordlinger, E.A. (ed); *Politics and Society*, Prentice-Hall, N. J. 1970.

Sladen, B.K. & Bang F. A. (eds): *Biology & Populations*, Elsevier, N. Y. 1969.

Schlegel, R. ; *Time and the Physical World*, Dover Publications, N. Y. 1969.

في الأعداد التالية من المجلة

المعد الثالث - المجلد الأول

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر سنة ١٩٧٠

قسم خاص عن الإنسان والكون:

- | | |
|--------------------------------------|-------------------------------|
| ١ - الإنسان والكون في الفكر اليوناني | للدكتور جعفر آل ياسين |
| ٢ - الإنسان والكون في الفولكلور | للدكتور عبد الحميد يونس |
| ٣ - الإنسان والكون عند البدائيين | للدكتور أحمد أبو زيد |
| ٤ - الإنسان والكون في الفكر الإسلامي | للدكتور أبو الوفاء التفتازاني |
| ٥ - من يملك الفضاء ؟ | للدكتور علي صادق أبو هيف |

غير الأبواب الثابتة

المعد الرابع - المجلد الأول

يناير - فبراير - مارس ١٩٧١

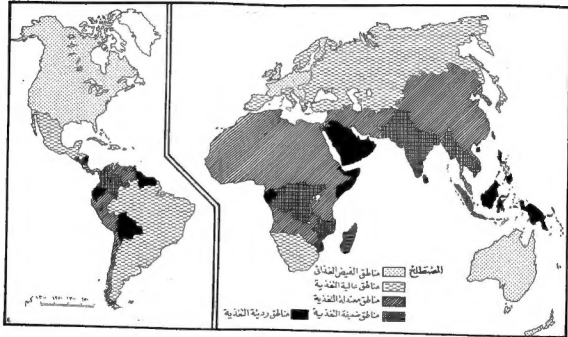
حقوق الإنسان

الشم

الخليج العربي	٤	ريالات	٢٠٠	فرنس
السعودية	٤	ريالات	٢٠	فرنس
البحرين	٤٠٠	فلس	٢٠	فرنس
اليمن	٧	شهاب	٣٠	فرنس
العراق	٢٤٠	فلس	٤٠٠	دينار
لبنان	٢٠٠	فرنس	٤٠٠	دينار
الاردن	٢٠٠	فلس	٤	دينار
			٢٠٠	فرنس
			٢٠	فرنس
			٢٠	فرنس
			٣٠	فرنس
			٤٠٠	دينار
			٤٠٠	دينار
			٤	دينار

مطبعة حكومة الكويت

توزيع المَسَوِّيات الغذائية في العالم



الشكل ٥

